

مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين
للأدب راع الشعري



المجلد الثاني
قافية اللام - قافية الياء

حققه ومصححه وضبطه وشرحه
محمد شقيق معروف



ديوان البارودي

محمد سامي البارودي

مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري
بالتعاون مع الهيئة المصرية العامة للكتاب



١٩٩٢

ديوان البارودي

محمود سامي البارودي

المجلد الثاني

قافية اللام - قافية الياء

حققه ومحمده وضبطه وشرحه

محمد شفيق معروف

المفتش العام بوزارة التربية والتعليم سابقاً



١٩٩٢

الهيئة المصرية العامة للكتاب

بالتعاون مع

مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود - الباطين للإبداع الشعري



المرحوم محمود ساي البارودي باشا في منفاه

وتافية اللام

وقال يذمّ سيرة الحكّام ، ويحضّ الناس على طلب العدل في الأحكام .
وذلك في عهد « إسماعيل * باشا » خديو مصر :

« إسماعيل باشا : الخديو إسماعيل بن إبراهيم باشا بن محمد علي باشا . ولد بالقاهرة سنة ١٨٣٠ م ، وتربّى بمصر في طفولته ، وسهّلّ شبابه . ثم أرسله جدّه إلى فرنسا ، فأتمّ تعلّمه بكلية « سنت سير » الحربية . وعاد إلى مصر سنة ١٨٤٩ في عهد واليها « عباس باشا الأول » ، فكانت بينهما جفوة . وبعد قتل عباس سنة ١٨٥٤ تولّى « سعيد باشا » فاتخذ « إسماعيل » وزيراً ، وعهد إليه بمهمّات سياسية ، وأقامه مقامه في أثناء غيابهِ عن مصر في أوروبا والحجاز . ولما توفى « سعيد » في ١٨ من يناير سنة ١٨٦٣ تولّى بعده حكم مصر ، فنهض بها في شتى النواحي الاقتصادية ، والتعليمية ، والمرائية ، والسياسية ، وعنى بالحربية والبحريّة . وشيّرت وراثة العرش ، فصارت الأرشد أبنائه من بعده . وكسب لمصر ولنفسه من الدولة العثمانية حقوقاً غير قليلة ، منها استقلال مصر الذاتي . ومنح لقب « خديو » : وهي كلمة فارسيّة الأصل ، معناها « سيد » . وفي عهده تمّ حفر قناة السويس ، وافتتحت انتحاشاً رسمياً فخماً يوم ١٧ من نوفمبر سنة ١٨٦٩ ، واتّسع سلطان مصر في إفريقيا . وفي سنة ١٨٦٨ أرسل حملة حربيّة مصريّة شاركت في قمع ثورة . « كريد » (أفريلش) . وفي سنة ١٨٧٧ أرسل حملة أخرى شاركت في الحرب الروسية التركية ، وكان « محمود سامي البارودي » القارس الأديب الشاعر اللاتبه من كبار شبّاط مصر في هاتين الحربتين . لمع نجم إسماعيل في سماء مصر بضع سنين ، ولكنه بإسرافه ، وكثرة استداناته ، وسوء تدبيره ، وفساد ساشيته ضيّع ماليّة حكومته ، وضعف اقتصاديّات وطنه ، وباع أسهم مصر في قناة السويس سنة ١٨٧٥ ، وتخلّص الدائنين الأوروبيين في شئون البلاد ؛ فكان لهم في الوزارة المصريّة وزيران : أحدهما إنجليزي ، والآخر فرنسيّ . وفي ١٨ من فبراير سنة ١٨٧٨ قامت في القاهرة مظاهرة خطيرة جديدة في بابها من شبّاط الجيش المصريّ ؛ فكانت نذير الثورة العربيّة . وفي ٢٦ من يونيو سنة ١٨٧٩ أرسل الباب العالي إل مصر برقيتين : الأولى بعزل « إسماعيل » ، والأخرى بتولية ابنه « توفيق » . وفي ٣٠ من يونيو سنة ١٨٧٩ غادر الخديو إسماعيل القاهرة إلى الإسكندرية ، ومنها إلى إيطاليا ؛ =

قَلَدْتُ جِدَّ الْمَعَالِي حَلِيَّةَ الْغَزْلِ وَقُلْتُ فِي الْجِدِّ مَا أَغْنَى عَنِ الْهَزْلِ^(١)
يَأْبَى لِي الْفَى قَلْبٌ لَا يَسْمِلُ بِهِ عَنْ شِرْعَةِ الْمَجْدِ سِحْرَ الْأَعْيُنِ النَّجْلِ^(٢)

== فلقام بها إلى سنة ١٨٨٧ ، وفي تلك السنة انتقل إلى الآستانة ، فقيدت حرّيته ، وصامت حالته ، وتولّت عليه الأمراض إل أن توفى في يوم ٣ من مارس سنة ١٨٩٥ عن خمس وستين سنة . ومن الآستانة نقل جثمانه إلى القاهرة ، ودفن بمسجد الرفاعي بالقاهرة يوم ١٣ من مارس سنة ١٨٩٥ .

وقد جاءت هذه اللامية في سبعين بيتاً ، افتتحت بهذا قافية اللام ص ١٩٨ - ٢٠٢ في أصل الديوان المخطوط . ولا ريب أن الشاعر نظمها في أواخر حكم الخديو إسماعيل لما سامت الأحوال ، وأرتبكت مالية مصر ، وأرهقتها الديون المتركة ، وتدنست الأجانب في شئوننا ، وقبرم الأهال بهذا الحكم السفه الفاسد ، وأجبع الناس على وجوب خلق ذلك الحاكم .

وإذا لم يكن يد من تعيين الوقت الذي نظم فيه الشاعر هذه القصيدة الحافلة المطولة ، فني نلنا أنه أوائل سنة ١٨٧٩ أو تميل ذلك العام حينما بلغ السيل الزبى ، وضاق الأحرار بالامر ذرعاً .

والمقصود باللم والمجباء في هذه القصيدة : الخديو إسماعيل ، وبطلاته ، ورجال حكمه الذين زينوا له السفه والخلل ، وعاونوه على الفساد والإفساد ، والظلم والاستبداد .

(١) قلدته القلادة : جعلتها في عنقه . والقلادة : ما يزين العنق من الحل وتحموه . والجيد : العنق : أي الرقبة . والمعالي : جميع المعلاة : وهي الرضة ، والشرف . والحلية : ما تزدهن به المرأة من مصوغات المذهبيات ، أو الجواهر ، أو الحجارة الكريمة : أو نحوها . والغزل : مصدر غزل الرجل المرأة (من باب فرح) : أي تودّد إليها ، وسادتها ، وفوّه بمحاسنها ، وأفاض بذكراها . وحلية القول : القول الشبيه بالحلية . جعل غزله بالمعالي حلية ، هي قلادة أزدان بها جيد المعالي . يقول : إنه تنفّز بالمعالي ، وزينها بمنزله . والمراد : أنه تملّق بها ، وحرص عليها ، وحسبها لغيره ، ورفقها فيها ، وحسبها إليه . والجدة (بفتح الجيم) : ضدّ الهزل : مصدر جدّ (من باب ضرب) . والاسم منه الجدة (بكسر الجيم) . والجزل : مصدر هزل في كلامه (من باب فرح وضرب) . ومعنى الشطر الثاني : أنه نظم هذه القصيدة في الجدة ومعالي الأمور مستغنياً بها عن الهزل والدعابة والمزاح ، وما لا يناسب هذا المقام . اتّجه الشاعر في مطلع هذه اللامية إلى معالي الأمور ، وما تتطلبه من الجهاد والكفاح ، والجدة والصرامة ، فتملّق بها ، ورفق فيها غيره ، وحرّضه عليها . وانصرف عن الهزل ، وصرف غيره عنه ، إذ لا يليق بأشاله ، ولا يناسب هذا المقام .

(٢) يَأْبَى : يمتنع ، ويماف ، ويكره . ويَأْبَى له قلبه التي : يمتنع عن التي : وهو الجهل ، والضللال . ولا يميل به : لا يميله ، ولا يصرفه ، ولا ينصرف به . وقاعل . « ميل » : « سحر الأعين » . =

أَهِمُّ بِالْبَيْضِ فِي الْأَعْمَادِ بِأَيْسَمَةٍ عَنْ غُرَّةِ النَّصْرِ، لَا بِالْبَيْضِ فِي الْكِلَالِ^(٣)

«المجد : الكرم ، والمز ، والشرف ، والرفعة ، والعلاء . ومن المجد «المحال» التي تفرد بها الشاعر في البيت السابق .. وفرعة المجد : طريقه ، ونهاجه ، والسحر : كلٌّ أمر يخفى سببه ، ويتخيل على غير حقيقته ، ويرجى مجرى انقياده والخداع . وسحره : أسنانه . وقننه : وسكبه لبه . ويقال : سحرته بعينها . وسحر العين : جاذبيتها ، وقنتها ، وجمالها الباهر الأخاذ . وعين نجله : واسعة في حسن وجمال . وعين نجل (بضم فسكون) ؛ إذ القاعدة الصرفية أن كلَّ وصف على أفعل وفعله يطرده جمعه على فاعل (بضم الفاء ، وسكون العين) . ويلاحظ أن «النجل» هنا مضمومة العين . وهو سائق كثير في الشعر ، بشرط صحة الفاء والعين . ومن أمثله في شعر «عترة بن شداد العبسي» :

طَوَى الْجَدِيدَانِ مَا قَدْ كُنْتُ أَنْشُرُهُ وَأَنْكَرْتَنِي ذَوَاتُ الْأَعْيُنِ النَّجْلِ

وهذا البيت تفصيل وتأكيد لمعنى البيت السابق ؛ فقلبه متعلق بمنهج المجد ومعالي الأمور ، مترفع عن المزل والهر ، بعيد عن الغواية والفسادة ، لا يصرفه عن غاياته الحميدة ما يفتر الرجال من ربّات الحجال . ولا يعرقل مساعيه الحميدة ما يخلب الألباب ، ويستهيئ الأفتنة من محاسن وسحر عيون .

(٣) هام الماشق بمعشوقته : شغفته حباً . وهيامه بالببيض : شدة تعلقه بها ، وحبها لها . والببيض في النظر الأول : السيوف . وأحدها أبيض . وفي الشطر الثاني : الحسان الجليات من النساء . الواحدة بيشاء . والأغاد : جمع غدا : وهو جفن السيف ، وفلأله . وباسمة : لامة ، مضقولة ، مشرقة ، متلألئة . مستار من البسم : وهو أواللفصك ، وأغفنه ، وأقلنه ، وأحسته . وفرقة النصر : طلعت ، ووبهه ، وإشراقه ، وجهاه وشهرته . مستار من غرة الفرس : وهي بياض مستحسن في جهته . والكلل : جمع كلّة (بوزن علّة وعلل) : وهي السّر الرقيق . وششاء رقيق ، يخاط كالبيت ، يتحركى به من البمض . وفي الكلل تصان الحسان المحجبات من النساء . والمرعى : عيم بالفتاة المحببة . لا السافرة . والبارودي يجمع لهاكاة قدامى الشعراء ، ويعلم بالبيئة العربية البدوية ؛ فهو لا يفتر يمرض في شعره الكثير من صرورها ونصائصها . وفي البيت جناس وتناوب بين الببيض في الأغاد ، والببيض في الكلل ، وإن كانت «الأغاد» قد عسلت على الشاعر ، ووارت ما يريده ، وهو الحيام بالسيف المصقول . اللامة القاطمة ، مصلنة ، مشهورة ، مسلوقة ، مجردة من أغادها في ساحات الجلال والقتال ، وميادين الكفاح والترك .

يفخر بالمجاهدة الحربية ، والقوة العسكرية ، ويمشق الجلال والقتال ، لا الببيض الحسان من ربّات الحجال .

وصلة هذا البيت بالبيتين السابقين واضحة وثيقة ؛ فإن الجذ ، والمجد ، ومعالي الأمور كثيراً ما تتصلّب الكفاية الحربية ، والقوة العسكرية ، وكثيراً ما تستفي الجهاد والجلاد ، والكفاح بالسلح : أساً . الحيام بالببيض الحسان المحجبات فإنه أشبه بالمزل والنفى ، والهو والحجاة .

في الأصل المخطوط بين البيتين الثالث والرابع بيت مضموع عليه ، هذا نصّه :

لَمْ تُلْهِنِي عَنْ مِلَالَيْبِ الْمَجْدِ غَانِيَةً فِي لَذَّةِ الصَّخْرِ مَا يُغْنِي عَنِ الشَّمْلِ^(٤)
 كَحْمٍ بَيْنَ مُتَلَبِّبٍ يَدْعُو لِمَكْرَمَةٍ وَبَيْنَ مُعْتَكِفٍ يَتَكَبَّرُ عَلَى طَلْلِ^(٥)

= وما القنود - وإن مال النعم بها أشهى إلى من الخطية الذليل
 ويبدو أن الشاعر استثنى عن هذا البيت بما قبله وما بعده . وقد آثرنا أن نشره هنا ، ونشره فيما قبل :
 القنود : جمع قد : وهو القامة . أو القوام : أى الاعتدال ، وحسن الطول ، والتغطيع . ومال النعم بها :
 أما لما الترف والنفرة ، وزهاها لين العيش ورفده ، وهز عطفيها اتساعه وغضارته . وأشهى : أحب ،
 وألذ ، وأمتع . والخطية : الرماح المنسوبة إلى الخط : وهو موضع ، أو مرفألسفن ببلاد البحرين ،
 تباع فيه الرماح . ، وتنسب إليه . والذليل : جمع ذابل : وهو النقيض . وذبول الرماح من محاسنها . يقال :
 رجع ذابل ، ورماح ذبلت ، وذوايل . وبين القنود والذوايل تناسب ومشاكلة .

يقول : إن الأسلحة وأدوات الحرب والقتال أحب إليه من الحسان الناعمت اللقاتات بجمال قنودهن ؛
 فالبيت في معنى البيتين اللذين توصطهما . أو هو قريب منها . والفكرة في هذه الآيات واحدة ، وهى
 التفتنى بالمجد والجد ، والانصراف عن الهزل والهوى ، والاعتماد على الكفاح وقوة السلاح .

(٤) لم تلهى : لم تشغلى ، ولم تصرفنى . والمطالِب : المطالبة : مصدر طالبه : أى طلب منه حقاً
 له عليه . ويقال : طالبه بحقه : أى طلبه منه ، واقتضاه . وطلاب المجد : طلبة ، والسعى في تحصيله .
 والغاية : المرأة المستغنية عن الزينة بجملها الخلق ، وحسنها الطبيعي . والنمِل : السكر : مصدر نمل
 (من باب فرح) : أى أخذ فيه الشراب وأسكره ، وأزال وعيه وعقله . والصحر : ضد النمل .

ما زال الشاعر يتفتنى بالمجد . ويحرص على الجد ، لا يشغله عنهما فتنة الغايات ، ولذة المسكرات ،
 وسواوة الشهوات .

وإنه ليجد المنعة والتفح كله في الصحر ، أى في يقظة العقل والحواس ، وتمام الوعى والإدراك ؛
 فإن هذا يلذه ، ويقوى عزيمته ، ويرفع همته ، ويجنوه إلى أعظم المقاصد ، وأشرف الغايات .
 وينفى أمثاله عن النمِل ، أى المسكرات التى يشتهى بها ، ويفرق فيها أهل الهزل والنفى ،
 والهوى والمجون .

والنظر الثانى تدليل في معنى النضر الأول ؛ كأن الظهلى بالفتوى سكر يندثر العقل ويغمره ، والسعى
 في طلب المجد يمحو بينه ويذكيه .

(٥) « كم » : اسم « ثنائى » مبهم ، مبنى على السكون . وهى هنا خبرية ، بمعنى كثير . ويميزها
 مجزوف . أى كم فارق ، أو كم مسافة : أى الفوارق كثيرة ، والمسافات واسعة بين الداعي إلى المكرمات والمعتكف
 على الأطلال يبكى ويتحسر . و « بين » : اسم بمعنى « وسط » . وهو ظرف مبهم ، لا يتبين مناه إلا
 بإضافته إلى اثنين فصاعداً ، أو ما يقوم مقام ذلك . ويلاحظ أن الشاعر كرهها في هذا البيت قبل =

لَوْلَا التَّفَاوُتُ بَيْنَ الْخَلْقِ مَا ظَهَرَتْ مَزِيَّةُ الْفَرْقِ بَيْنَ الْحَلِيِّ وَالْعَطَلِ^(٦)

= اسمين مظهرين « كم بين منتدب وبين محتكف ». والذى نعرفه في الكثير من استمالاتها أنها تقرب إذا جاءت قبل اسمين مظهرين ، وتكرر إذا جاءت قبل ضميرين ، أو قبل اسم ظاهر وضمير . وفي القرآن الكريم : « فَيَتَلَمَّسُونَ مِنْهَا مَا يَفْرِقُونَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ » . « يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصَّلْبِ وَالتَّرَائِبِ » . « لَا حِجَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » . « يَطْلُقُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمِ آدَمَ » . « وَتَتَدَبَّرُ دَاعٍ ، مَوْجِهَةٍ : اسم فاعل من انتدبت لكذا ، أو إلى كذا : أى دعوته إليه ، وحشته عليه ، فانتدب له : أى فاستجاب له ، وسارع إليه . ومن هذا يتبين أن الفعل « انتدب » يستعمل متديلاً ولازماً . والمكرمة : واحدة المكرمات ، أو المكارم . وهى اسم من الكرم بمعناه العام الذى يجمع الأخلاق الكريمة ، وأهمان الكثرة ، والأفعال المحمودة العظيمة التى تظهر من الإنسان . ولا ريب أن الدعوة إلى المكرمات من أعمال الجِدِّ ، والهدى ، ومعالي الأمور التى رزقها الشاعر ، وتغنى بها في أربعة الأبيات السابقة . ومحتكف : اسم فاعل من احتكف على الشيء : أى أقبل عليه ، واتجه إليه ، ولازمه ، مضمناً له . والطلل : ما شخص : أى ظهر ، وارتفع من آثار الديار التى حجبها أهلها ، وارتحلوا عنها . ويسمى أطلال ، وطلل . و « على طلل » : متعلق ؛ « محتكف » : أى . . . وبين محتكف على طلل ، يتحسر ، ويبكى ، ويستحب . ولعل الشاعر يريد بالشرط الثانى من هذا البيت : ما اعتاده شعراء الجاهلية وأشباعهم والناسيون على منوالهم من الفزل ، أو التسيب ، أو التشبيب بالمرأة في مطالع قصائدهم . ومن التشبيب الوقوف بالرسوم الدارسة ، والإطلال الشاخسة ، والديار المهجورة ، باكين ، متبكين ، ذاكرين في حسرة وطفة ، ولأسى ، وحزن ما كان بينهم وبين مشقاتهم في تلك الديار والآثار من لقاء ووصال ، وبيد وفراق كأنه يقول : إننى انتبخت هذه القصيدة بالدعوة إلى المكرمات وأعمال الجِدِّ والهدى ومعالي الأمور . وغيرى كانوا يفتخرون قصائدهم بالاحتكاف على الأطلال ، وبكاء الرسوم والآثار . وشتان ما بيننا .

والحق : أن الفرق شاسع ، واليؤن يمد بين الداعي إلى المكرمات ، والباكى على ارتحال المشوقات . وصلة هذا البيت بالأبيات السابقة - وبخاصة البيت الأول - ظاهرة وثيقة ؛ فإن الانتداب للمكارم ، والدعوة إليها ، والحسن عليها ، والاستجابة لها ، من الجِدِّ ومعالي الأمور التى يجدها الشاعر ، وقوة بها ، ورضب فيها . أما الوقوف على الأطلال ، وبكاء الديار (شأن شعراء النسيب أو التشبيب في المصور الخولى ، وفي البيئة البدوية الصحراوية) فإنه أشبه بالهزل ، أو الهول الذى لا يرسى من ورائه نفع عام ، أو شئ يتصل بالكرم والهدى ومعالي الأمور .

(٦) التَّفَاوُتُ : التباين ، والاختلاف . مصدر تفاوت الشيطان : أى اختلفا ، وتباينا ، وتباعدا ما بينهما . والخلق (يفتح فسكون) : الناس ، ويترجم من المخلوقات . وهو قَمَلٌ بمعنى مفعل : أى مصدر أريد به اسم المفعول . أو هو الخلق (يضم فسكون) ، كالمخلوق (بضميتين) . ومعناه المجيئة ، والطبيعة ، =

فَانْهَضْ إِلَى صَهَوَاتِ الْمَجْدِ مُغْتَلِبًا قَالَ بَارَ لَمْ يَأُو إِلَّا عَالِي الْقُلَلِ^(٧)
وَدَعَّ مِنَ الْأَمْرِ أَذْنًا، لِأَبْعَدِهِ فِي لُجَّةِ الْبَحْرِ مَا يُغْنِي عَنِ الْوَشْلِ^(٨)

والفرزية . وجمعه أغلاق . والمزينة : الختام ، والفضيلة . ومزية الفرق : تمام الفرق : أى الفرق كتمام
الواضح . أو فضيلة التفريق . والحل : مصدر حلت المرأة (كرضيت) : أى لبست الحل ، أو صارت
ذات حل . وهو ما تزدان به من مصوغ المحدثات ، كالأساور ، والقلائد الذهبية ونحوها . والبطل :
ضدّ الحل . وقد يستعمل في الخلوّ من الشيء ، وإن كان أصله في الخلوّ من الحل ، فيقال : عطل الرجل
من المال والأدب . (من باب طرب) .

والمنى : أن الناس يتفاوتون ويتفاضلون في أخلاقهم وهنّاتهم وكفاياتهم وصاعيتهم ، وأن هذا التفاوت
يظهر ما بينهم من غوارق واضحة ، وصفات متباينة ، وأعمال مختلفة .

وصلة هذا البيت بالذي قبله : أن الداعي للمكرمات حال فاضل ، والباكي على الأطلال ناقص عاطل .
(٧) نهض إلى كذا (من باب قطع وخفض) : قام ، وتحرك إليه في يقظة وسرعة ونشاط . والصهوات :
جميع صهوة (يوزن شهوة وشهوات) : وهى مقعد الفارس من ظهر الفرس . واعتل الشيء : ارتفع .
واعتله : علاه ، وريقه . وصدده . والباز : لغة في البازي : وهو من جوارح الطير التى تصيد ، وتطير في
الطليقات العليا من الجو . وفي بعض المحجمات أنه ضرب من الصقور . وأوى المكان : وأوى إليه : نزله ،
وسكنه ، وأقام به ، واستقره . والقلل : جمع قلّة : وهى من كلّ شىء قمته ، وأعلاه . وقتل الجبال
ونحوها : قسمها وأعمالها .

في البيت الخامس أظهر التناقض العظيم الواسع بين الداعي للمكرمات ، والباكي على الدمن والأطلال .
ووصل السادس بهذا المنى ، فقرر أن الناس متفاوتون في أخلاقهم وأعمالهم وصاعيتهم ، وأن فيهم الخلال
والعاطل ، والفاضل والناقص .

وفي هذا البيت حصى على النهوض ، وبعد الهمة ، وقوة الزم ، واعتلاء صهوات العزّ والشرف ،
والسمو إلى أعلى مراتب المجد والكرم . وضرب البازي مثلاً ؟ فإنه يقتحم المقبلات ، ويقهر الصهوات ،
ولا يطير إلا في طبقات الجوّ العليا ، ولا يسكن إلا القمم الشاهقة ؟ فالشطر الثانى تذييل مؤكد لمنى
الشطر الأول .

(٨) دع : أترك . والأمر : الشأن والحال . وأذناه : أقربه . والحية : معظم الماء وكثرته . ومنه
بحر لجى . والوشل (يقتحين) : الماء القليل . وهو هنا ضدّ الحية .

والمنى : اطلب الجليل الرفيع من الأمور يحزرك عن التافه الحقير القريب ، كالمستنقئ من الجلبة من
الوشل ؟ فالشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل . وفيه تأكيد لمنى الشطر الأول . وفيه الحجة والبرهان والإقناع .

قَدْ يَنْظُرُ الْفَاتِكُ الْأَلْوَى بِحَاجِبِهِ وَيَعْمُدُ الصَّجْرُ بِالْهَيْبَةِ الْوَسْكِ (٩)
وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ تَسْلَمُ ، قُرْبٌ فَتَى أَلْقَى بِهِ الْأَمْنُ بَيْنَ الْيَأْسِ وَالْوَجَلِ (١٠)
وَلَا يَغْرُنَكَ بَشْرٌ مِنْ أَخِي مَلَى فَرَوْنَقُ الْأَلِ لَا يَشْفِي مِنَ الْغَلَلِ (١١)

(٩) « قد » : حرف يفيد التكثير في مثل هذا المقام . ونظر بالشيء (من باب فرح) : فاز به ، وأصابه ، وناله ، وتمكّن منه . والفاتك : الجريح الشجاع المقدم . اسم فاعل من فتك (من باب ضرب ونصر) : أى وكب ما هم من الأمور ، وما دعت إليه نفسه ، في جرأة وإقدام وعدم مهالة . والألوى الشديد العسر ، الذى يلتوى على خصمه ، أى يستصمى عليه . والهيبة : الجبان الشديد الخوف . والوسك : (بفتحين) ، أو بفتح فكسر) : الجبان ، والضعيف الماجز ، يتكل على غيره .

ينوء بالقوة والجرأة ، فيزدري الضعف والمجز ؛ فماجز القوى الجريح مسرّة له ، رهينة بطلبه . أما الماجز الجبان فإن صبره يقدّمه ويشلّه ، فلا يكاد يصل إلى شيء من مطالبه ورفالبه .

(١٠) « رب » هنا : حرف يفيد التكثير . ونظيرها في مثل هذا المقام « كم » الخبرية . واليأس (بالياء) : مصدر يئس منه : أى انقطع أمله فيه ، وقد رجاه . أو هو اليأس (بالهاء) : بمعنى العذاب الشديد ، وبمعنى الخوف . والوجل (بفتحين) : الخوف .
يحضّر على الحذر واليقظ والاحتراس ؛ فإن الحذر المحترس جدير بالسلامة من الإخطار والأفلات ، والأذن الغافل يلقى به أمته ويفلته بين المخاوف وخيبة الرضاء .

لما حضّر على الجرأة والإقدام في البيت السابق رأى أن يدعو في هذا البيت إلى الحذر والاحتراس ، كأنه ينهى الجريح المقدم عما يريده من الغفلة والإهمال ، والتموّر والانفداع .

(١١) لا يفرّك : لا تتدخّل . غره : غخله ، وخدعه ، وأطمعه بالباطل . والبشر : البشاشة وطلاقة الوجه . والملق : الودّ الكاذب ، والطف المتكلف ، وأن تعلّق بالسان ما ليس في القلب . (وفله من باب فرح) . ورويق الشيء : حسنه وجاهزه . ومنه رويق السيف ، ورويق الضمى . والآل : السراب (بوزن السحاب) : وهو ما يراه المرء على بعد وقت المجير في الصحارى وغيرها كأنه ماء . فإذا جابه لم يجد شيئاً . وفي القرآن الكريم : « والذين كفروا أحماهم كسراب يقيمة ، يحسب الظمآن ماء ، حتى إذا جابه لم يجد شيئاً » . الآية رقم ٣٩ من سورة النور . والغلل (بفتح اللين وفتح اللام) : الغسل . أو شدّه وجرّاه . في البيت السابق قال : إن السلامة مرجوة بالخذر والاحتراس ، لا بالغفلة والانفداع .

وفي هذا البيت عرض صورة من صور الغفلة ، وبهى الانفداع بملق المتلصق . وبهى عن الاعتراض به ، والركون إليه ؛ فإن ما يظهره هذا المخادع من الودّ والبشاشة ، والملق والتفاني - يشبه السراب ، له حسن ورواء ولكنه لا يروى غلّة ، ولا يلقى ظمأ .

لَوَيْعَلُمُ الْمَرْتَمَ مَا فِي النَّاسِ مِنْ دَخَنِ لَبَّاتٍ مِنْ وَدٍّ ذِي الْقُرْبَى عَلَى دَخَلٍ ^(١٢)
فَلَا تَثِقُ بِوَدَادٍ قَبْلَ مَعْرِفَةٍ فَالْكُحْلُ أَشْبَهُ فِي الْيَمِينِ بِالْكَحْلِ ^(١٣)
وَإِخْشِ النَّيْمَةَ بَوَاعِلَ أَنْ قَاتَلَهَا يُضْلِيكَ مِنْ حَرِّهَا نَارًا بِلَا شَعْلِ ^(١٤)
كَمْ فَرِيَةٍ صَدَعَتْ أَرْكَانَ مَمْلَكَةٍ وَمَزَقَتْ شَمْلَ وَدٍّ غَيْرِ مُنْفَصِلٍ ^(١٥)

« والشطر الثاني من هذا البيت تأنييد يجري مجرى المثل ، ويؤكد معنى الشطر الأول ؛ فإن بشر المتعلق خادع كاذب ، والشراب برفقه خادع كاذب ، وكلاهما لا يجدي ، ولا ينفع ، بل يضر ، ويؤذي من يفتل عنه ، وينخدع به .

(١٢) اللحن (يفتح الدال وضع الحاء) الحقد ، وضاد الباطن ، وسوء الخلق . ومن كلامهم :
« هدلة على دخن . » والدخل هنا : الشك والريبة . (وقوله من باب فرح) .

يلعب إلى أن الناس يخلطون على الحقد والضغينة ، وسوء السيرة ، وضاد الباطن . ولو علم الإنسان ما يفسره بعضهم لبعض من الشر والكيد ، لساوره الشك والارتياب فيما يظهره من التودد والاطمئنان ، حتى ولو كانوا أقرباء وذوي رحمه . والصلة واضحة وثيقة بين هذا البيت والبيت الذي قبله والبيت الذي بعده .

(١٣) الوداد : المودة والهمة . والكحل (يضم فسكون) : كل ما وضع في العين ، يستشفى به ، وليس بسائل ، كالإيتمد ونحوه . والكحل (يفتحسين) سواد يملو جفون العين ، خلقة من غير اكتمال . وهو مصدر كحلت العين (من باب فرح) : أي اسودت أجنافها خلقة .

يقول : لا تثق بمودة امرئ ، ولا تطمئن لإقباله عليك ، وتقربه إليك قبل أن تجربيه وتصرف صفقه ، وتبين إخلاصه ؛ فإن الود يشابه صادقه وكاذبه ، كما يشابه المصنوع والمطبوع من الكحل والكحل .

(١٤) النجمة : الزاوية والسمي بالوقعة والفتنة والفساد والترفقة بين الناس ، أمم من ثم بين القوم : أي حرمش ، وورثش ، وأغرى . وتم الحديث : سى به ليقع فتنة بين الناس . أو رفعه إشاعة له ، وإفساداً . ويضليكَ ناراً : يضلِكَ فيها ، ويحرقك بها . والشعل : جمع شُعلة : وهي لهب النار وتوقدها . يحرقُ النجمة ، والتأثر بها ، والإنصات لقائلها . ويشبهها بالنار ، يصلاها ، ويحرق بجرها من يستمعها ، وإن لم يصر لها توقداً ولبياً . ولا ريب أن المستمع للنجمة مخدوع ؛ فإن ضررها يصيبه قبل أن يصيب المسموع عليه . وانتمام يزين كلامه بالكذب ، ولا يريد إلا الإفساد والوقعة والترفقة .

(١٥) « كم » هنا : خبرية ، تفيد التكثير . والفرية : الكذب . وصدعت : حطمت وكسرت . وشل الود : ما اجتمع واتصل من الوداد والهمة بين الناس . يقال : جمع الله شملهم : أي ما نشئت من أمرهم . وفرق الله شملهم : أي ما اجتمع من أمرهم . ومزقت الفرية شمل الود : أي مزقت حال المتحابين ، =

فَأَقْبَلَ وَصَاتِي ، وَلَا تَصْرِفْكَ لِأَغِيَّةٍ عَنِّي ، فَمَا كُلُّ رَامٍ مِنْ بَنِي نُعْلٍ ^(١٦)
لَأَنِّي أَمَرْتُ كَفَنِي حُلِيِّ ، وَأَدْبَنِي كَرُّ الْجَلِيدَيْنِ مِنْ مَخَاصٍ وَمُقْتَبَلٍ ^(١٧)

= وما اجتمعوا عليه من الوداد والمحبة . أو فرقتهم لجمعهم القائم على الود والمحبة .

يشير هذا البيت إلى بعض آثار النجاسة والكذب ، كإيقاد نيران الفتنة ، وتهديم الممالك ، ونيل العروش وتعليم قوى الأمن ، وتمزيق شمل الود ، والتفرقة بين الأخلاء .

(١٦) الوصية : الوصية : اسم من أوصاه لوصاء ، أو وصاه توصية . وأوصى الله الناس بكذا وكذا : أي أمرهم به ، وفرضه عليهم ، ويراد بالوصية هنا : ما قدمه الشاعر في تمة الأبيات السابقة من النصيح والإرشاد . ولا تصرفك : لا تبذلك ، صرفته عني : رددته ، ونصيته ، وأبعدته . ولاهية : كلمة ذات لغو : وهو الباطل ، والخطأ ، والسقط ، وأخلط الكلام ، وما لا خير فيه ، وما لا يمتد به . و«ثُمَّ لَمْ يَبْرَزْ عَمْرٌ» ابن عمرو بن العوف : من طيئ : وهو جد جاهل ، اشتهر بنحو إجادة الرمي ، وإصابة المرمى .

والنظر الثاني من هذا البيت يظهر على اتّحد بإتقان الرماية ، والقصر بإصابة الهدف وإحكام ما أساءه إلى الناس في تمة الأبيات السابقة من الوصايا والتجارب ، والنصائح والإرشادات ، والحكم والأمثال .

يقول : تقبل وصيبي ، وانزع بها ، ولا يصرفك عن الناصح الأمين لغو اللافين ، وهدو المفاذين ؟ فما كل متكلم يزن الكلام ، ويمسك القول ، ويحترق الرشد ، ويخلص لك النصيح ، ويصعب شاكلة الصواب . في تمة الأبيات الأولى من هذه القصيدة اختصر الشاعر بيده مزاياء ، تدور كلها حول إشار الجدة ، وطلب الجدة . والتشبيث بمال الأمور ، والاعتدال على الكفاح بقوة السلاح ، والدعوة إلى الفضائل والمكروبات .

وفي تمة الأبيات التي تليها انتقل إلى النصيح والإرشاد ، فدعا إلى اعتدال صهوات الجدة ، والسعي إلى الجليل العظيم من الأمور . ونوه بالقوة والجرأة وآثارها ، وأوصى بالحد والحيلة ، ونهى عن الاعتزاز بملق التسلّعين ، وأوجب اختيار المتشددين قبل الثقة بؤادهم ، وظهرت النجاسة والكذب ، وأشار إلى بعض آثارها .

وفي الأبيات ١٦ - ٢٠ عاد إلى اتّحد والقصر بنفسه ، وعرض بعض مزاياء التي تؤمّله لقيادة ، وتوسّعه لما كان يرضى فيه ، ويطلع إليه من المناصب الرفيعة ، والأمال الواسية .

(١٧) كَفَنِي حُلِيِّ : منى عما لا يليق ، وحال بين وبين ما لا ينبغي . والحلم : الأناة ، والبذل ، والصفح ، وضبط النفس . وضدّ العيش ، والترف ، والجهل ، والخفة ، والحماقة . وأدبني : =

فَمَا سَرَبْتَ قِنَاعَ الْحِلْمِ عَنْ سَفَهٍ وَلَا مَسَحْتَ جَبِينَ الرِّزِّ مِنْ خَجَلٍ (١٨)

سراضى على عاصم الأخلاق ، وكرم السجاي ، وحيد النصال . والجديان : الليل والنهار . وكرهما : ربهما مرة بعد أخرى . يقال : كرّ الليل والنهار : أى عادا مرة بعد أخرى . و « من » هنا : بيانية ؛ فما بعدها ، وهو الماضي والمقتبل يبين ما قبلها ، وهو كرّ الجديين : أى تولى الأرضة ، وتتابع الليل والنهار . وقد تكون « من » هنا : بمعنى « فى » ، كما فى قول الله تبارك وتعالى : « يأبى الذين آمنوا إذا نذيت للصلاة من يوم الجمعة ، فاسموا إلى ذكر الله » (الآية رقم ٩ من سورة الجمعة) . ومقتبل : مستقبل ، مستألف . (بصيغة اسم المفعول فى الثلاثة) .

يريد بالشرط الثانى : أن تتابع الليل والنهار فى ما فيه وحاضره قد راضى على عاصم الأخلاق ، وأدب الحياة ، وأنه من الماضى والحاضر اكتسب ذخيرة من الآداب أعداها لمستقبل الزمان .

يفسر بحلمه وعقله ، ورزاقته واستقامته ، وكرام أخلاقه ، وحيد غلاله ، ورفقه عن كل ما لا يليق بمثله ، وانقضاة فى ما فيه وحاضره ومستقبله بتجارب الحياة ، وتتابع الأيام والليالى .

(١٨) : سريت الثوب عن أسريه . وسروته أسروه : فزنته ، وأزلته ، وكشفت ما كان يغطيه من جسى . والواو فى هذا الفعل أصل من الياء . وقناع الحلم : الحلم اللبى بالقناع : وهو - فى الأصل - ما تقيح به المرأة رأسها : أى تسره ، وتغطي . والسفه : الخفة ، والبطش ، والجهل ، والحلق ، وتقص العقل ، وصو التصرف . وسفه الحلم .

ومعنى الشرط الأول : أن الحلم أصيل ثابت راسخ فى جبلته وطبيعته . وليس زائفا ، أو متكلما ، أو خادما كاذبا ، لا يلبث أن ينكشف عن سفه ، وخفة ، وجهل ، وبطش ، وزق ، وسماقة .

أو المعنى : أنه إذا خرج من حلمه ، وغضب ، فلأنما يغضب عن روية وحكمة ، وسق ، ومقل ، لا عن سفه وبطش ، وجهل وزق .

ومعنى الشرط الثالث : أمر يده عليه ؛ لإزالة ما به من أثر الماء وضوء . والجبن : ما فوق الصدغ من عين الجبهة ، أو شامها . وما جبينان . وقد يطلق الجبين ، ويراد به الجبهة : وهى ما بين الحاجبين إلى الناصية : أى إلى مقدم الرأس . والعر ، والعر ، والعر ، القوة والمنعة ، والحسية ، والألفة . وسفه الذل ، والفسق ، والاستخفاف ، والهاون . وجبين العز : جبينه المنزى الذى يتم على قوته وحسينته . والجعل : التحير ، والذهش من الحياة أو الاستحياء : وهو اقتياض النفس عن القبايح .

ومعنى الشرط الثانى : أنه عزيز أبى ، يأنف من الدنيا ، ويستتكم من القبايح ، ويرتفع عما يشينه ، ولا يرتكب ما يجمله .

أختر بأصالة حلمه ، ورزاقته ، واستقامته ، ورجاحة عقله ، وتمسكه بالحكمة والروية فى رضاء وغضبه ، كما اختصر بركة نفسه ، وبهده عن السفه ، وعن كل ما يتبدى منه الجبن حياء وضجلا .

وهذا البيت شبه تكرار لمعنى البيت السابق . أو هو توضيح وتفصيل لمعنى قوله : « إني امرؤ كفتى حلمي » فى البيت السابق .

خَلَبْتُ أَشْطَرَ هَذَا الدَّهْرِ تَجَرِبَةً وَذُقْتُ مَا فِيهِ مِنْ صَابٍ وَمِنْ عَسَلٍ (١٩)
فَمَا وَجَدْتُ عَلَى الْأَيَّامِ بَاقِيَةً أَشْهَى إِلَى النَّفْسِ مِنْ حُرِّيَةِ الْعَمَلِ (٢٠)
لَكِنَّا غَرَضٌ لِلشَّرِّ فِي زَمَنِ أَهْلِ الْعُقُولِ بِهِ فِي طَاعَةِ الْخَمَلِ (٢١)

(١٩) الأشطر : جميع خطر (بوزن أسطر وخطر) . وشطر كل شيء : نصفه . ومن كلام المفريين :
الثقة شطران ، قدامان ، وأخران : أى الثقة ونحوها أربعة أخطاف : خطفان قدامان ، وخطفان آخران .
وكلّ خطفين من أخطافها الأربعة شطر . والخلف (بكسر فسكون) : شرع الثقة ونحوها . ويرادفه في
المرأة الكنى ، وهو ما يجتمع فيه البين . وقولهم : « حلب الدهر أشطره » أصله « حلب الدهر شطريه » ،
ثم أحلّوا الجمع محلّ المفرد . أى حلب أخطافه كلّها ، على تشبيهه بالثقة ونحوها . ومعنى « حلب الدهر
أشطره » أو « حلب أشطر الدهر » : خبر ضرروب الزمان ، ومرّ به غيره وشتره ، وتمرّس برشائه
وشدّته ، وجربته تجربة تامّة . وجربت الشيء تجربياً وتجربة : اختبرته مرة بعد أخرى . و « من »
الأول في الشطر الثاني بمانية ، فهي تبيين كلمة « ما » ، وتزيل إيهامها ، وتوضح المقصود منها . و « من »
الثانية تكرار للأول قصد به التأكيد . والصاب : شجر مرّ . أو هو عصارة ذلك الشجر : أى ما يسيل منه
إذا عصر . وواحدة الصاب : صابة .

ومعنى الشطر الثاني من هذا البيت : توضيح ، وتفصيل ، وتأكيد لمعنى الشطر الأول ؛ فإن الذى
يحلب أشطر الدهر جرب غير ، متمرّس ، يلوق بالتجربة الصادقة مراوغة وحلاوته .
يفسر بسمة خبرته ، وكثرة تجاربه ، فقد مارس أمور الزمان ، وتعبه ضروبه ، ومرّ به غيره وشتره ،
وذاق الحلو والمرّ من أحواله .

(٢٠) باقية على الأيام : باقية على مدى الأيام : أى تبقى بقاء الأيام ، وتدوم دوام الدهر .
وأشهى : اللذّة ، وأطيب ، وأحب . ويريد بحرية العمل : العمل الحرّ الطليق ، ألبين من نطاق
الحكومة ؛ فإن العمل الحكومى مقيد بشتّى القيود ، والعمل الحرّ منطلق فسيح تمتع . وهو أطيب الأعمال
وأكرمها ، وأشهى ما تشبهه نفس الحرّ ؛ إذ يجد فيه الحرية الباقية الدائمة .
افتخر في البيت السابق بأنه جرب الحياة ، وذاق حلوها ومرّها ، وحلب الدهر أشطره ، وتمرّس
بغيره وشتره ، ورشائه وشدّته .

وهو في هذا البيت يشير إلى إحدى تجاربه الصادقة في مجال الأعمال ، فينتلح العمل الحرّ ، ويؤثّر
به ، ويمرّس بالانحاص الحكومى التى لا تبيّقى لأصحابها ، وهى مع هذا تقيّد حريتهم ،
وتضعف شخصيتهم .

(٢١) الغرض : الهدف الذى يرى . والغمل (يفتح الخاء والميم) : جمع غامل : وهو الساقط
الذى لا ناهة له ، ولا يحتدّ به .

قَاتَتْ بِهِ مِنْ رِجَالِ السُّوءِ طَائِفَةً أَذْمَى عَلَى النَّفْسِ مِنْ بُؤْسٍ عَلَى تَكَلٍّ (٢١)
مِنْ كُلِّ وَغْدٍ يَكَادُ التَّمْتُ يَذْفَعُهُ بُغْضًا، وَيَلْفِظُهُ الدِّيَّانُ مِنْ مَلٍّ (٢٢)

— في البيت السابق أشاد بالعمل الحرّ ، وعرض بالمناسب الحكومية . ويقوم من هذا أن المشتغلين بالأعمال الحرّة أحرار سعاد ، وأن العاملين في الحكومة غير أحرار ، وغير سعاد .

وفي هذا البيت استدلّ ، فقال : إن المقلد الناهين الأحرار من أمثاله مكروهين في زمانه على إطاعة تكرات من الحكّام الخاملين السابقين . يستوى في ذلك العاملون في الحكومة ، والمشتغلون بالأعمال الحرّة ، فإنهم جميعاً أهداف لا يفتأ هؤلاء الحكّام الظالمون يصيبونها بالأذى والشر ، والبنى والنفوس . والفرض الحسنى على الثروة في بسو هؤلاء المستبدّين ، فإن المفكّر الأريب العاقل يستنكف أن يدخل في طاعة الجاهل الساقط الخامل .

والشاعر يتنقل في هذا البيت والأبيات التالية إلى هجاء خصومه السياسيين من ولاة الحكم ، الذين ساء ظنّه بهم ، وآثم قاسدين لمسلمين .

(٢٢) الحاء في « به » يعود على « زين » في البيت السابق . والمراد قامت بالحكم في زين البارودي طائفة من رجال السوء . أو يعود على « الشر » في البيت السابق أيضاً . والمراد اقترفت شر طائفة من رجال السوء . وساء سوا (من باب قال) : فعل به ما يكره . وضدّ سرّه . والاسم منه السوء (بضم السين) . ومن معاني السوء : الخزيّة ، والشرّ ، والردى ، والفساد ، وكلّ ما يثمّ الإنسان . والطائفة : الجماعة من الناس . وأدعى : أقلّ ، وأمرّ ، وأوجع ، وآلم . اسم تفضيل من دهاه يدهاه : أى أصابه بدهاية : وهى النائية ، والنازلة ، والكارثة . والبؤس : شدّة الحاجة . والتكل (يوزن التنب) : فقدان الحبيب والولد . : مصدر تكلت الأمّ ولدها (من باب قعب) : أى به قفقه .

يجزو الحكّام في زمانه بأنهم رجال شرّ وفساد ، وأن قيامهم بالحكم أشدّ إيلاماً لنفس الحرّ من البؤس والتكل مجتمعين .

(٢٣) _ الرّخ (يفتح فسكون) : اللذّة الرّذلّ ، أو الأحمق الخفيف العقل . واللتس : (يفتح فسكون) كلمة فارسيّة مرّبة : وين معانيها : صدر البيت ، وصدر المجلس . ويراد بها هنا مجلس الحكم . أو كرسيّ الرياسة ، أو مقعد الإمارة والسلطان . ودست الوزارة : منصبها . وفتح اللّى : يذفه : (من باب قطع) نحماء ، وأزاله بقوة . والبغض : المقت والكرهية . ويلفظه (من باب ضرب) : يخزجه ، ويطره ، ويربسه . والديوان : مكان للكتابة والمستخفين . ويراد به وباللتس هنا : المناصب الكبيرة التى يشغلها هؤلاء الحكّام المهجورون من رجال الخديو إسماعيل وأعوانه . واللّلى : السامة والفسج .

وسمهم بالندامة والردّة والحماقة . وقال : إن الديوان ، أو المجالس ، أو كراسى الحكم ، أو —

ذَلَّتْ بِهِمْ مَضْرُوعَةُ الْبُزْ ، واضطربت قَوَاعِدُ الْمُلْكِ ، حَتَّى ظَلَّ فِي خَطَلٍ (٢٥)
وَأَصْبَحَتْ دَوْلَةُ الْفُسْطَاطِ خَاضِعَةً بَعْدَ الْإِبَاءِ وَكَانَتْ زَهْرَةً لِلدَّوْلِ (٢٥)
قَوْمٌ إِذَا أَبْصَرُوا فِي مَقِيلًا وَجَمُوا غَيْظًا ، وَأَكْبَادُهُمْ تَنْقُدُ مِنْ دَغَلٍ (٢٦)
فَإِنْ يَكُنْ سَاءَهُمْ فَضْلِي ، فَلَا عَجَبُ فَالْشَّمْسُ وَهِيَ ضَبَابٌ أَفَّةُ الْمُقَلِّ (٢٦)

المناسب التي يتولونها متبرمة بهم ، خيرة منهم ، ساخطة عليهم . وهي لشدة كراهيتهم لهم ، وقتها لانحرافهم
وقسامهم لكاد تقلد بهم ، وتزيلهم بالقوة من مناصبهم .

(٢٤) بهم : بالحكام المهجوين : أي بسبب انحرافهم وقسادهم . وقواعد الملك : أسسه وأصوله .
وعلى : فساد ، واضطراب . وظل في خلل : أي دام فسادهم واخطاله .
يقول : كانت مصر في عزّة وقوّة وبنعة ، فلما ولي أمرها هؤلاء الأشرار المفسدون أساءوا إليها ،
وأفسدوا أمورها ، فهوت إلى سفيض النذل وللشف والموان ، واختل الملك من قواعده ، ولم يبق
له ضابط أو نظام .

(٢٥) دولة الفسطاط : الدولة المصرية . والفسطاط (في الأصل) : السراق . والبيت من
الشمر . ويجمع أهل الكورة : وهي القصع ، أو المدينة . والفسطاط : مدينة مصر التي بناها عمرو
ابن العاص في موضع فسطاطه . وبخاصة : ذليلة . والإباء : المز والمنة . وزهرة النول : زينتها ،
وهجتها .

يقول : كانت الدولة المصرية بهجة الدول ، وزينة الممالك ، ففسد أمرها بفساد هؤلاء الحكام ،
وذلت بعد عزّ ، وخضعت بعد إباء .

(٢٦) يريد بالقوم من بهيم . ويصموا (من باب وعد) : صموا ، وأطرقوا ، وسكتوا على
غيظ . والغيظ : غضب شديد كامن ، يصره الحاجز ، ولا يستطيع لصبره إظهاره . وهو أشدّ الحنق .
وتنقد : تنشق ، وتتقطع . والفعل (يفتحين) : الحقد المكتوم ، وفساد الباطن . ومثله الدخيل
(يوزنه ومناه) .

(٢٧) الآفة : كل ما يصيب شيئاً ، فيفسده . والمقل : العين . وأحبتها مقلة (بوزن مهجّة
ومهجّة) .

في هذا البيت والذي قبله قال : إن المهجوين من خصومه السياسيين حاقدون عليه أشدّ الحقد ؛
لما يعرفونه من كفاياته وعماده ، فإذا رأوه مقبلاً عليهم ثار الغضب الكامن في قلوبهم ، ومزق الحق
أكبادهم ، فنجسوه ، وكرهوا لقاءه ، وبدأ عليهم الكمد والرجوم .

ولا غرو أن يسومهم فضله ، ويفيظهم إحسانه ؛ فإن الناقص يحسد الفاضل ، والماعل يحقد الحال ، =

نَزَهَتْ نَفْسِي عَمَّا يَذْنُسُونَ بِهِ وَنَحَلَةُ الرُّوْضِ تَأْتِي شَيْمَةَ الْجَحَلِ (٢٨)
 يَنْسُ الْعَشِيرُ، وَيَنْسَتْ مِصْرَمِنْ بَلَدٍ أَصَحَّتْ مُنَاخًا لِأَهْلِ الزُّورِ وَالْمَحْطَلِ (٢٩)
 أَرْضٌ تَأْتَلُ فِيهَا الظُّلُمُ، وَتَقْلَقُ صَوَاعِقُ الْقَدْرِ بَيْنَ السَّهْلِ وَالْجَبَلِ (٣٠)

= وضياء الشمس يؤذي العين ، ويفسد الأبصار .

والشعر الثاني من هذا البيت تذييل يوضح معنى لشطر الأول ، ويقوم مقام الحجة والدليل والبرهان ، فالشاعر بفصائله ومزاياه يسو حاسديه ، ويميز الحاقدين عليه . والشمس ينورها بالهواج تؤذي العين ، وتعاثر الأبصار . ولو قال : « المقل الرمد » (جمع رمداء ، صفة من الرمد) لوضح المعنى ، ووفاء حقه وهو هنا يلح قول البوصيري :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر النجم طم الماء من سقم
 (٢٨) نزه نفسه عما يشبهها : ترفع بها عنه ، وأبعدها . وذنس الثوب ونحوه (من باب تمب) :
 توسخ ، وتلطخ . ومن الهجاز : ذنس مرضه . والرويض : جمع روضة : وهي البستان الحسن . والأرض
 تمجك بمشربها ونبتها وأشجارها وعشبا وأزهارها ويقلها وبياعها . والشيمة : الخلق ، والفريضة : والطيبة ،
 والجبلية . والجمل : حشرة كالخنفساء ، تألف الأقدار ، وتكثر في المراض الندية .

يفتخر بأنه ترفع بنفسه ومرضه عما انحطت إليه نفوس المهجوين وأعراضهم من النقائص والمثالب .
 مثله وشغلهم كمنلة الرياض والخنفساء ؛ فإن النحلة لا تفتأ تنالط الزهر والتمر ، وتحرس أخذ الحوص
 على الطهر والنقاء ، وترفع بطيبتها عن طعم الخنافس والجملان التي تهوى الأقدار ، وتآوي إلى الأوصار .

(٢٩) العشير : المعاشر ، والمخالط (قيل بمعنى مفاعل) . والمراد أهل مصر الذين رضوا
 بالصميم ، وأقاموا على الهوان . والمنابع : المقام ، والمنزل . وهو في الأصل : مبرك الإبل . اسم مكان من
 أفاح الرجل الجمل إفاحة : أي أبركه . والزور : الكلب ، والباطل . والمحطل (بفتح ح) : الخطأ ؛
 والفحش ، والمخلوق الفاسد المضطرب ، والكلام الكثير المختل الذي لا قيمة له ، ولا غناء فيه . ومن معاني
 الخطل : الحماقة ، والطيش ، والخفة ، والنزق . ويريد بأهل الزور والمطل : من يهجم من حكام مصر
 الفاسدين المستدين الذين استتب لهم الأمر ، وطال ما يقاسيه الوطن من خطيئهم وفسادهم .

ينم من رضى بالذل ، وأقام على الصميم من معاشريه ، ويرى من يهجم من الحكام بالزور والمطل ،
 ويترجم بمصر وينمها ؛ لأنها آوتهم ، ورضيت أن تكون لهم منزلا ومقاما .

(٣٠) يريد بالأرض : أرض مصر . وتأتل : تأصل ، وتجمع ، ورسخ ، وثبت . والقنف :
 الرمي القوي البعيد : مصدر قنف الحجير وغيره ، وقنف به (من باب ضرب) أي : رمى به بقوة . =

وَأَصْبَحَ النَّاسُ فِي عَمِيَاءٍ مُظْلِمَةٍ لَمْ يَخْطُ فِيهَا امْرُؤٌ إِلَّا عَلَى زَلَلٍ (٣١)
 لَمْ أَذَرْ مَا حَلَّ بِالْأَبْطَالِ مِنْ خَوَرٍ بَعْدَ الْمَرَايسِ، وَيَا أَلْسِيَّافٍ مِنْ قَلْبِي (٣٢)
 أَصَوَحْتُ شَجَرَاتِ الْمَجْدِ، أَمْ نَصَبْتُ غُدُرَ الْحَمِيَّةِ حَتَّى لَيْسَ مِنْ رَجُلٍ؟ (٣٣)

= فانقلب. والصواعق : جمع صاعقة : وهي النازلة لا تصيب شيئا إلا دكتته وأحرقته . أوهى نار تسقط من السماء . أو هي كل غلاب مهلك . والسبل : الأرض المنبسطة المستدسة . وضده الحزن (يفتح فسكون) ، والغصبة ، والجبل . و « بين السبل والجبل » أي في كل مكان . وصواعق القدر : القدر الشبيه بالصواعق .

يصف مصر في أواخر عهد الخديو إسماعيل ؛ إذ تجسست المظالم ووسخت ، وكثرت الفاسد ، وحسنت التهيئات ، ووزلت شروب القدر بالناس نزول الصواعق .

(٣١) في عمية : في غلالة وجهالة وكرب وبلاء . من قولهم : عمى على الرجل طريقه (من باب صدى) : إذا ضلّه ، ولم يجد إليه . وعمى عليه الأمر : التبس وضل . ومظلمة : تأكيد لعمى عمية . وضطاً يضطو (من باب عدل) : ضي . وزلل : مصدر زلّت قدمه (من باب تمب) : أي زلقت في طين ونحوه ، فسقط .

يصور سوء الأحوال في عهد أولئك المهجورين ؛ إذ أصبح الناس في جهالة وضلالة ، وكرب وبلاء . ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا خطا فيها المرء خطوة لم يسلم من اللثار والسقوط .

(٣٢) حلّ بهم : نزل بهم ، وأصابهم . والأبطال : جمع بطل : وهو الرجل الشجاع المقدم . والخور (يفتحين) : الضعف والانهيار . (وفعله من باب تمب) . والمراس (يكسر الميم) : البأس ، والشدة ، والجلد ، والقوة ، وعارة الأمور : أي محالبتها بصبر وكفاية عالية . وفلّ السيف : انتلهم حده ، وتكسّر مضار به . (وفعله من باب تمب) . وقد يراد بتغلّل السيف هنا : أنها تعطلت ، وتوقفت عن العمل - مع شدة الحاجة إليها - ؛ لأنها لا تكاد تجد الأيدي القوية ، والقلوب الجريئة . وفي العراية عن نفسه في أول البيت يشعير بما تملكه من العجب والبهش والأسى والألم .

يجب ويأسى لما نزل بأبطال مصر وحمايتها من ضيف وخذلان ، وصبر محقق على اللذات والموان ، ومعهدهم أنهم أولو قوة ، وأولو بأس شديد . ويخلل في دائرة العجب والأسى ما صارت إليه السيوف وأدوات الحرب والقتال من تنلّم وتكسّر ، أو توقفت وتعطل .

في الأبيات ٢١-٣١ هجا وذم ، وفخر ومدح ، وفدّ بمثل الحكّام ، ورث لسوء أحوال البلاد والناس في عهدهم . وفي هذا البيت والآيات الآتية حضّ على الثورة المارّة في وجههم ، ولإزاحتهم عن كراسيهم ، ودفع الظلم بقوة السلاح .

(٣٣) صوّح الشجر : يس وجفّ . ونضب الماء : غاض ، وغار ، وانقطع . (وبابه دخل) . والتندر والتدنان (بضم فسكون فهما) : الدنار والجداريل ، وهما الماء . وأحدهما غدير ، =

لَا يَذْفَعُونَ يَدَاعِنُهُمْ ، وَلَوْ بَلَغَتْ مَسَّ الْعَفَافَةِ مِنْ جُبْنٍ يَوْمَئِذٍ خَزَلٍ (٣٤)
خَافُوا الْمَنِيَّةَ ، فَاحْتَالُوا ، وَمَا عَلِمُوا أَنَّ الْمَنِيَّةَ لَا تَرْتَدُّ بِالْحَيْلِ (٣٥)
فَقِيمَ بَنِيهِمُ الْإِنْسَانُ خَالِقَهُ وَكُلُّ نَفْسٍ لَهَا قَيْدٌ مِنَ الْأَجَلِ ؟ (٣٦)

== وهو في الأصل : القطعة من الماء يفادها السيل : أي يتركها وراءه ، فهو فصل في معنى مفاعل (بصيغة اسم المفعول) . أو بمعنى مفعل (بصيغة اسم المفعول أيضاً) من أغدوه إغداراً : أي غادزه وتركه . والحيمة : الألفة ، والاستكاف ، والترفع عن الدنيا والتفانص . والاستفهام في أول هذا البيت للتسبب ، أو الاستنكار . والغرض استنباط الهمم ، وشط العزائم .

استغنم في تجنب وأسى واستنكار لإقامة الرجال على الضيم ، وضياح الألفة والحيمة . والغرض استنباط قومه ، وشط عزائمهم لمكافحة الظلم والظلماني ، واسترداد العزة والمجد .

(٣٤) مسّ العفافة : لمسها ، أو لمسها . مصدر مسّ الشيء (من بابي فهم ورد) : أي لمسه بيده ، من غير حائل . والعفافة : مصدر عفّ : أي كفّ حملاً لا يحلّ ، ولا يحل . وبثله العفة والمفاف . و « من » هنا : للتعليل . وقد كررت مرتين : مرة قبل « جبن » ، ومرة قبل « خزل » : أي بلبنهم وضغفهم لا يدفعون عن أنفسهم يد المدوان ، حتى ولو أصابت صمم أعضائهم ، وبست منهم موضع العفة . والخزل (يفتح) : الاسترخاء والفسف ، والتثاقل والانكسار .

يستنكر استنكاراً المحكمين هؤلاء الحكماء ، وإحجامهم عن حماية ما يصيبه الأبى بنفسه ودمه من عرضه وشرفه . ويرهبهم بالبن والخور . وهو في الحقيقة يريد تعميمهم ، وإثارة حسيتهم لمكافحة الظالمين المفسدين ، وإسقاط دولة الاستبداد والاستبداد .

(٣٥) المنية : الموت . واحتيال : طلب الشيء بالحيلة : وهي جودة النظر ، والقدرة على دقة التصرف ، والحلق في تدبير الأمور ، وتقلب الفكر حتى يهتدى إلى المقصود . وجمها حيل . (بكسر ففتح) . والمعنى : أن الجبناء يخافون الموت ، ويحاولون لدونه ، ويطلبون لأنفسهم السلامة بالبن والاحجام . وكأنهم يجهلون أن الموت لا تزدّه الحيل ولا مناص منه . ولو استيقنوا هذه الحقيقة الواضحة لكانوا شجعاناً ، ودفعوا بإشجاعتهم بحلقة الضيم والظلماني . .

(٣٦) « فم ؟ » : « لماذا ؟ » . « في » : التعليلية جرت « ما » الاستفهامية . وحدقت أنها ، وبقيت الفتحة دليلاً عليها . والاستفهام هنا : للاستنكار والاستهجان . والقيد (يفتح فسكون) : حيل ونحو يحل في ربل الدابة وغيرها ، فيسكها . والأجل : مدة الشيء . والوقت الذي يحدّد لآثاره . يقال : ضربت له أجلاً : أي وقتاً محدداً . وجاء أجله : إذا حان موته . وأجل الإنسان : المدة المضرورية لحياته في الدنيا . وجمه آجال . ومعنى الشطر الثاني : أن لكل نفس مقيدة بأجلها ، لا تحيد عنه ، كافي ==

هَيْهَاتَ يَلْقَى الْفَتَى أَنَا يَلْدُ بِهِ مَالَمْ يَخْضُ نَحْوَهُ بَحْرًا مِنَ الْوَهْلِ (٣٧)
 فَهَالِكُمْ لَا تَعَاثُ الضِّمَمُ أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَزُولُ غَوَاشِيَكُمْ مِنَ الْكَسَلِ ؟ (٣٨)
 وَبِئْسَ مِصْرُ الْبَيْتِ أَقْنَى الْجِلَادِ بِهَا لَفِيفَ أَسْلَافِكُمْ فِي الْأَعْصُرِ الْأَوَّلِ (٣٩)

= قول الله تبارك وتعالى : « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ، ولا يستقدمون » الآية رقم ٦١ من سورة النمل . أو هي . « قيد » (بفتح القاف وكسرها) : بمعنى القدر . يقال : بينهما قيد ربيع ، وقيد خطوة : أي مقدارها . والمعنى على هذا : أن كل نفس لها مقدار من الأجل لا يزيد ، ولا ينقص . جعل خوف الجبناء من الموت ، واحتياهم لذته اتهاماً لله تعالى ، وسوء ظن به ، وشكاً فيا ورد عنه من تحديد الأجل ؛ ولهذا أنكر عليهم هذا الاتهام ، ودله مرقفاً في البطلان ؛ فكل نفس ذائقة الموت ، وهي مقيدة بالمدة المضروبة لحياتها ولن يزعم الله نفساً إذا جاء أجلها » . الآية رقم ١١ من سورة النمل . (٣٧) « هيات » : كلمة تهديد : اسم فعل ماض ، منناه بعد . وشاعى الخائف الماء (من باب قال) : شغى فيه . والبول : الخوف . والفزع . (فطع من باب تعب) . يستبد أن يصل المرء إلى ما يملّه ويشتهي من الأمن والعطاشية إلا إذا ركب إليها المخاوف والأهوال ، وانقسم الصواب والمقبات .

(٣٨) « ما » : استفهامية . والاستفهام هنا التوبيخ والتعريض . وتعاث : تأبى ، وتكره . والضميم : الظلم . والفواشى : جمع الفاشية : اسم من غشى الأمر : أي غطاء . والفاشية : الداهية ؛ لأنها تصيب الإنسان وتدهاه ، وتقتله . والفاشية : النازلة من الشر أو المكروه . و « من » : تلبية ؛ فتواشيك عليها وسبها كسلكم . أو هي بيانية ، والكامل بيان الفواشى .

غشيم الكسل والخمول والراعى ؛ فاستكانوا ، ورضوا بالذل ، واحتلوا الظلم ، ولقوا على الضم والحوان . وفي البيت لوم ، وتوبيخ ، وتعنيف ، وتقرع يقصد به التحميس والتحريض ، وإحياء الهم ، وشحذ المزاج .

(٣٩) الإشارة في أول هذا البيت تتم على رتبة القدر ، وبعد المكاتبة . والجلاد : الحرب والقتال ؛ مصدر جالده بالسيف : أي ضاربه . واللفيف : جماعات الناس وأحلافهم . والأسلاف : جمع سلف (يوزن سبب وأسباب) : وهم الماضون من الآباء والأجداد . ولفيف أسلافهم : خاصتهم ودهاقمهم ، وأندادهم وقرابهم الذين اجتمعوا على العزة والحريّة ، والمثمة والقوة ، والإباء والكرامة ، والجرأة والشجاعة ، ثم طوأم الموت ، وفسهم التاريخ . والأعصر : جمع العصر : وهو الدهر والزمان . ويلاحظ أن الشاعر ذم مصر في البيت التاسع والمشرين حيناً أضحت متاعاً لأهل الزور والخط ، وعظمها في هذا البيت إذ كانت موطناً للأمة الأحرار المجالدين الذين أفتاهم الجهاد في سبيل العزة والمجد .

في الآيات ٣٢ - ٣٨ ضروب من القول ، قصد بها الشاعر تحميس قومه ، وتحريضهم على دفع -

قَوْمٌ أَقْرَأُوا عِمَادَ الْحَقِّ وَامْتَلَكُوا أَزِمَّةَ الْخَلْقِ مِنْ حَافٍ وَمُتَمَعِلٍ^(٤٠)
 جَنَرًا يَمَارَ اللَّعْلَا بِالْبَيْضِ ، وَاقْتَطَفُوا مِنْ بَيْنِ شَوْكِ الْمَوَالِي زَهْرَةَ الْأَمَلِ^(٤١)
 فَاضْبَحَتْ مِصْرٌ تَزْهُو بَعْدَ كُذْرَتِهَا فِي يَانِعٍ مِنْ أَسَاكِبِ النَّدَى خَضِلٍ^(٤٢)

= الظلم بقوة السلاح .

وفي هذا البيت وثمانية الأبيات التالية فن "آخر من فنون هذا التحريض ، هو التنويه بالآباء ، ونشر شيء من سيرهم ، والإشادة بأعمالهم وأثارهم ؛ ليشتبه بهم الأبناء في الكفاح والجلاء ، والاستهانة بالموت ، وبذلك النفس ؛ لدفع الضيم ، وإحقاق الحق " ، وكسب النصر ، وبسط السلطان ، وارتداء الجند ، وبلوغ الأمل .

(٤٠) يريد بالقوم : السلف القوي العزيز الكريم الذي نوه به في البيت السابق ، وقال : إن الجلاء أروء وأفناء . وأقروا : أرسوا ، وأصبغوا ، وثبتوا . وعِمَادُ الحق : ما يعتمد عليه ، ويستند إليه من المبادئ والمثل العليا . والأزمنة : جمع زمام ؛ وهو المقود الذي تقاد به الدابة من حبل ونحوه . والخلق : الناس . وامتلاك أزمنة الناس : كناية عن السيطرة عليهم . والخاص : غير المتصل . والمتعل : لايس العمل وشبهها . والتعل : الحلاء . و « من » بيانية . ويراد بالخاص والمتصل من المخلوق : الناس أجمعين على اختلاف مراتبهم وأحوالهم وأجناسهم .

أحسن الشاعر التثناء في هذا البيت على أسلاف المصريين الذين أحققوا الحق ، وأرسوا دعائمهم ، وأبطلوا الباطل وقوضوا بنيانه ، وبسطوا سلطانهم على شتى البلاد والأجناس والناس .

(٤١) جنرا ، واقتطفوا : قطفوا ، واقتطعوا ، والتفتطوا ، وجمعوا . وواو الجماعة : ضمير « قوم » في البيت السابق . والبيض : السيوف . واحدها أبيض . والموالي : أسنة الثقلاء وأطراف الرماح . الواحدة عالية : وهي أعلى الرمح ، أي رأسه الحاد القاطع . وبشلا السنان ، والتصل . وشوك الموالى : الموالى الشجيرة بالشوك . وزهرة الأمل : للأمل المشرق الباسم ، التشبيه بالزهرة .

يقول لمن يحاول تحسيسهم وتحريضهم من مواطنيه : إن أسلافكم بلغوا المعالي ، وحققوا الآمال بالجلاء والكفاح ، وقوة السلاح .

(٤٢) تزهو : تشرق وتضيئ . زها اللون : صفا وأشرق . والكدر : لون يميل إلى السواد والغمرة . وضدّها : الصفاء والنقاء . ويانع : أحمر قاني : أي شديد الحمرة ، يميل إلى السواد . و « من » : بيانية . والأساكيب : جمع أسكوب (بوزن أسلوب وأسايب) : وهو المطر الدائم السكوب ، أي الانصباب . سكب الماء ونحوه (من باب دخل) : انسكب ، وانصب ، وسال . والتدى : المطر . وخضل : قد ، مبتل ، يترشش ماؤه ويتفرق ويتشر .

لَمْ تَنْتَبِ الْأَرْضُ لِأَلْتَعْدَمَا اخْتَمَرَتْ أَقْطَارُهَا بِدَمِ الْأَعْنَاقِ وَالْقُلُلِ (٤٣)
 شَنُوا بِهَا غَارَةَ أَلْقَتْ بِرَوْعَتِهَا أَمْنَا يُؤْلَعُ بَيْنَ الذُّنُبِ وَالْحَمَلِ (٤٤)
 حَتَّى إِذَا أَصْبَحَتْ فِي مَعْقِلِ أَشْبِ بِرُدِّ عَنَّا يَدَ الْعَادِي مِنَ الْعِلَلِ (٤٥)

« و » في : الظرفية المكانية . وقد تكون تلميلية : أي بسبب يافع ... و « في يافع من أساكيب التي خلفت غفل » : أي في دم قاف ، ينصب بغزارة ، ويتوشش ، كأنه دفعات المطر . يشير بهذا إلى دماء القتل والجرحى من أبطال مصر وأعدائهم ، في الحروب الكثيرة التي خاضها المصريون في الأزمنة السابقة لإقرار الحق ، وكسب النصر ، وبناء المحب ، وتوسيع السلطان ، وتحقيق الآمال . ويشير بالزهر إلى صفاء الحال بالمرّة والغلبة ، واستتباب الأمن والنظام . ويشير بالكثرة إلى ما كانت تعانيه مصر قبل هذه الحروب من الضيق والتندر ، واضطراب الأمر ، وضاد الحكم .

يصف مصر في إثر الحروب التي خاضها أسلافنا يوم كانت البلاد مصبوبة بما سال من دماء المجاهدين من أبنائها ، ودماء القتل والجرحى من أعدائها ، وبهذه الدماء حلّ الإشرار والصفاء على الكدر وسوء الحال . والفرض إحياء المحم ، وشحن المزاج .

(٤٣) « تنبت » : مضارع نبت (من باب نصر) أو هي مضارع أنبت . يقال : نبتت الأرض : أي صارت ذات نبت . وأنبئت الأرض إنباتا : أي أخرجت الثبات . واختصرت : تقطعت ، واستمرت . مستمر من اختصرت المرأة : أي ليست الخمار : وهو ثوب تغطي به رأسها وتستره . والأقطار : النواحي والجوانب . واحدا قطر (بوزن قفل) . والأعناق : الرقاب . واحدا عنق . ويراد بالقلل هنا : رؤوس القتل . الواحدة قلعة : وهي من كل شيء أعلاه .

والمعنى : أن أرض مصر لم تنبت لأهلها المرّة والقوّة ، والغلبة والكرامة إلا بعد أن غطتها دماء أعناق المحاربين ورويسهم . وهذا قريب من قول الشاعر :

لا يسلّم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جرونيه الدم (٤٤) بها : بالأرض (في البيت السابق) . والغارة : الإغارة ، والمهجوم الخاطف المفاجئ . وشنتا على أعدائنا الغارة : وسعنا مداهما ، وفرغناهما عليهم من كل وجه . والروعة : الرعبة ، والفرع ، والخوف . والحمل : الخروف الصغير ، لا تزيد سنه على سنة . ويضرب المثل بالذئب في ولوعه بالحملان ، والربيع لها ، وشدة الفتك بها .

والمعنى : أن أسلافنا مجروحهم النيفة الطلحة ، وغاراتهم الشديدة الواسعة مدوا ظلال الأمن في أرجاء البلاد . وبلغ من انتشاره واستتبابه واستقراره أن ألّف الحمل الذئب ، وأمن سلطوه ، ونيته .

(٤٥) « إذا » ظرف مضمّن معنى الشرط . وجوابه « أحنى الزمان » في البيت الآتي . والمعقل (بوزن المجلس) : الحصن . وأشب (يفتح فكسر) : منيع حصين : صفة من الأشب : مصدر أشب الشجر (من باب تمع) : أي كثر ، واتّكف . واشتدّ التفافه : حتى لم يبق فيه مجاز . والعادى : العدو المحتل . والمثل : جمع ملة (بوزن علّة وعطل) : وهي : في الأصل الدين . والمراد أصحاب الملل والمذاهب والأجناس المختلفة .

أَخْنَى الزَّمَانُ عَلَى فُرْسَانِهَا ، فَغَدَّتْ مِنْ يَعْدِ مَنَعِهَا مَطْرُوقَةَ السَّبِيلِ ^(٤٦)
 فَأَيَّ عَارٍ جَلَبْتُمْ بِالْخُمُولِ عَلَى مَا شَادَهُ السَّيْفُ مِنْ فَعْرِ عَلَى زَحْلِ ^(٤٧)
 إِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْفَتَى عَقْلٌ يَعِيشُ بِهِ فَإِنَّمَا هُوَ مَعْلُودٌ مِنَ الْهَمَلِ ^(٤٨)

(٤٦) أخنى عليهم الدهر: بلغ منهم بشدائمه ، وأنى عليهم ، وأهلكهم . والفرسان (بضم الفاء): جمع فارس ، وهو الماهر في ركوب الخيل . وفرسان الجيش : المحاربين على ظهور الخيل . وغدت : صارت . والمنعة (بفتح النون وسكونها) : العز والقدرة والامتناع . ومطروقة : مملوكة ، يطرقها الناس ، ويسيرون فيها . والسبل : الطرق : جمع سبيل . و « مطروقة السبل » : كناية عن ضعفها ، وهو أنها ، واستكانتها ، وزوال منعتها .

ومعنى هذا البيت والذي قبله : أن مصركا كانت منعمة بحصنة عزيزة الجانب ، قوية اليأس ، ترتد عنها أيدي الماديين على اختلاف طوائفهم وأجناسهم وبأهلهم ، ولا يجرؤ عليها عدو أو طامع ، وذلك بفعل رجالات الأحرار المحاربين الأشداء الشجعان ، فلما أخنى عليهم الدهر فقدت بطعن عزها ومنعتها ، وصارت مركبا ذلولا للعالمين المستغلين من الفزاة والمستعمرين ، والحكام المستبدّين .

(٤٧) « أي » : اسم استفهام ، مقصود به مقدم للفعل « جلب » . والاستفهام هنا: معناه التوبيخ ، والتشفيع ، والتضييق : أي لقد جلبتم بجهولكم عارا شنيئا هائلا قبيحا . والعار : السبة ، والذم ، والشار . والخطاب في « جلبتم » المصريون الذين فرطوا في حق وطنهم ، وقصروا عن سامعي أسلافهم ، وضيقوا مجد آبائهم ، واستكانوا لظلم حكامهم ، وتركوا بلادهم نهبة للعالمين من الفزاة والمستعمرين والمستغلين . والحمول : ضد النباهة . مصدر حمل الرجل (من باب قند) ، وعمل ذكره أو صيته ، أو شأنه : أي غنى ، وغيا ، وسقط ، ورجل حامل : ساقط ، لا نباهة له . وشاد (من باب ياع) : بنى ، وأظهر ، ووطع ، وطول . و « من » هنا : بيانية ، توضيحية لإيهام « ما » قبلها . وزحل (يوزن عمر) : أعظم الكواكب السيارة ، وأرضها ، وأبعدها في النظام الشمسي . وهو ممنوع من الصرف : أي التثنية ، ويجوز بالفتحة . وإنما جرت بالكسرة هنا لضرورة الشعر .

يقول: إن هؤلاء المصريين جليوا : مجنّون وتوانهم عارا عظيما على مفاسد آبائهم التي كسيوها بالكفاح ، وشيدها بقوة السلاح ، فأثبتت شأنهم ، ورفضهم فوق منازل الكواكب والنجوم .

أظهر الشاعر البون التاسع ، والتفارق البعيد بينهم وبين آبائهم : أي بين الحمول والنباهة ، والسقوط والرفعة . والفرس تحريضهم على إحياء مجد السلف ، بمقاومة البنى والظلم ، ومكافحة العدوان والطغيان ، واسترداد العزة والكرامة ، وحياة الشرف والإباء .

(٤٨) الهمل (بفتح الحاء) : الماشية : أي الإبل : والبقر ، والغنم ، تسرح من غير راع ، وترك سدى ، بلا حناية . والمفرد هامل .

فَبَادِرُوا الْأَمْرَ قَبْلَ الْفَوْتِ ، وَانْتَرِعُوا شِكَاكَةَ الرِّثِّ ، فَالْغَنِيَا مَعَ الْعَجَلِ (١٩)

= والمعنى : أن المرء إنما يعتبر آدمياً ببقائه على حياته طليبة عزيزة ، فإذا أهمله خرج من عداد بني الإنسان ، ولم يكن إلا من البهائم والأنعام المهملّة الفسّاة التي تهيم في الأرض على وجهها بلا ضابط أو رعاية .

والشاعر يشير بهذا إلى أن المصريين يحملون عقولهم ، ويمحيون حياة الأنعام إذا أقاموا على النسيم ، ورفضوا بما هم فيه من ذلك وهو أن ، وتركوا بلادهم نهبة يتحكم فيها ، ويستبد بها الفاسقون والمستغلون ، والمستعرون ، والحكام المستبدّين .

وفي تشبيه المهملين لعقولهم بالأنعام يقول الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم : « ولقد خرفنا لهم كثيراً من الجن والإنس . لم تلرب لا يفقهون بها ، ولم أهن لا يبصرون بها ، ولم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام ، بل هم أضلّ . أولئك هم الغافلون » . الآية رقم ١٧٩ من سورة الأعراف .

أجبر الشاعر هذا البيت بحجج الحكم والأمثال ، ونوّه بالعقل وعظمه ، ليعضد قومه على الانتهاز بعقولهم ، واستخدامها في الوسائل والأعمال التي تحيي مجدهم ، وتتشلهم من حياة العمل : أي حياة اللذات والهلوان ، وتطيل العقل والإدراك .

(٤٩) بادروا الأمر : عاجلوه ، وسارعوا إليه . والأمر الشأن والحال . ويراد به أمر التبحر ، واليقظ الحوادث ، وسرعة التخلص من الدائّة والمهاتة بما يقدر منه لأقسامهم ولوطئهم من صدق النضال ، وبجلال الأعمال . والفوت : القوت . والمراد قوت الوقت ، وضياح الفرصة . مصدر فأتى الشيء (من باب قال) . وانتزعوا : أقتلعوا . انتزعت الشيء من موضعه : اقتلعت . والشكالك (بوزن كتاب) : العقاب : أي العقيد : وهو حبل تشدّ به قوائم الدابة ، أمّا « لشكالك » فلم نجدها فيما بين أيدينا من المعجمات . والرث : البطل . (وفعله من باب باع) . وشكالة الرث : الرث الشبيه بالشكالة : أي البطل الموقر ، والمتهمّل المفقوت . والمراد بالعنقا : دنيا النمر والظلية ، وحياة المزة والسعادة . والمبجل : ضد الرث . ومثله المجلة (وفعله من باب طرب) .

في البيت السابق نوّه بالعقل ، وعظم شأنه . ومن حسن استخدام العقل المساواة إلى التخلص من سوء الحال ، وسحابة العمل قبل ضياح الفرصة ، وفوات الوقت . كأنه يرى أن الوقت الذي نلّم فيه هذه اللابيّة في أواخر عهد إسماعيل هو الوقت الملائم ، والفرصة المواتية ، ولهذا حرصهم على المبادرة والمساواة ، ونهاهم عن الرث المفقوت ، والتواني الذي يعقل الهم ، ويشلّ العزائم ، ويضيع الأمال . ولا ريب أن الدنيا في مثل هذه الحالة تتطلب المجلة ، وتعتمد عليها ، وتقبل معها . ولا ريب أن الأمر قبل هذا وبمده يتطلب القيادة الحكيمة ، وإقتائذ الكفء . وفي أربعة أبيات الآتية تنبيه على القائل الكنّ ، وتصوير صفات الكفاية فيه . وقد يكون هذا من قبيل دعاية البارودي لنفسه ، وترشيحها لمنصب القيادة العسكرية ، والقيادة السياسيّة .

وَقَلَّدُوا أَمْرَكُمْ شَهْمًا أَخَا ثِقَةٍ يَكُونُ رِدْءًا لَكُمْ فِي الْحَادِثِ الْجَلْبَلِ (٥٠)
 مَا ضَى الْبُصِيرَةِ، غَلَابٌ، إِذَا اشْتَبَهَتْ مَسَالِكُ الرَّأْيِ صَادَ الْبَازِ بِالْحَجَلِ (٥١)

(٥٠) قَلَّدَهُ الْأَمْرُ أَوِ الْعَمَلُ : فَوَضَعَهُ إِلَيْهِ ، وَأَرْزَنَاهُ لِيَسَاهُ . وَهُوَ مِنْ جِمَارِ الْفَقْهِ . وَالْأَمَلُ : قَلَّدَتْ الْمَرْأَةُ تَقْلِيدًا : أَيْ جَعَلَتْ التَّقْلَادَةَ فِي عَقْلِهَا . وَأَمْرَكُمْ : أَمْرُ قِيَادَتِكُمْ ، أَوْ أَمْرُ حُكُومَتِكُمْ . وَالشَّهْمُ : الْجِلْدُ الصَّلْبُ ، الْقَرِيءُ الصَّبُورُ ، النَّشِيطُ الْمُتَعَدِّ ، الذَّكِيُّ الْفَوَادُ . وَالرَّدُّ : الْمَعِينُ ، وَالنَّصِيرُ . وَالْحَادِثُ : مَا يَجِدُثُ وَيَجِدُّ ، وَيَقَعُ . وَيَأْتِي بِمَعْنَى النَّائِبَةِ ، وَالْكَارَةِ ، وَالْمَصِيبَةِ . وَجَمْعُهُ حَوَادِثُ . وَمِنْ كَلَامِهِمْ : نَزَلَتْ بِهِ حَوَادِثُ الدَّهْرِ : أَيْ نَوَائِبُهُ وَكَوَارِثُهُ . وَالْجَلْبَلُ : الْعَظِيمُ الْكَبِيرُ الْخَطِيرُ .

وَمَا يَدْخُلُ فِي حَسَنِ اسْتِخْدَامِ الْعَمَلِ ، وَبِبَادِرَةِ الْأَمْرِ : أَيْ فِي مَعْنَى الْبَيْتَيْنِ السَّابِقَيْنِ : أَنْ يَخْتَارُوا مِنْ بَيْنِهِمْ رَسُلًا شَهْمًا ، عَالِي الْكِفَايَةِ ، مُتَوَقِّدَ النَّهْنِ ، يَثْقُونَ بِهِ ، فَيُلْقُونَ إِلَيْهِ مَقَالِيدَ أُمُورِهِمْ ، وَيَسْتَعِينُونَ بِهِ الْأُمُورَ . وَيَسْتَعِينُونَ بِهَيْئَتِهِ وَشَهَامَتِهِ فِي الْجَلْبَلِ الْمَهْمِ الْخَطِيرِ مِنَ الْحَوَادِثِ وَالنَّوَازِلِ وَالْمَلْسَمَاتِ .

(٥١) مَا ضَى : نَاقَضَ ، خَبَرَ لِمُتَبَدِّلٍ مَحْلُوفٍ : أَيْ وَقَلَّدُوا أَمْرَكُمْ شَهْمًا هُوَ مَا ضَى الْبُصِيرَةِ ، غَلَابٌ . وَالْبُصِيرَةُ : الْعِلْمُ ، وَالْحِكْمَةُ ، وَالِاسْتِصَارَةُ فِي الشَّيْءِ . وَ« مَا ضَى الْبُصِيرَةُ » : ذِكْرُ الْفَوَادِ ، مُتَوَقِّدَ الذَّهْنِ ، حَادِثُ الْفَكْرِ ، يَنْفَذُ بِعِلْمِهِ وَضِيَاءِ قَلْبِهِ فِي مَجَاهِلِ الْأُمُورِ فَلَا يَلْتَبِسُ عَلَيْهِ شَيْءٌ . وَيَقَالُ لِقُوَّةِ الْقَلْبِ الْمُدْرِكَةِ : بُصِيرَةٌ . وَهِيَ لِقَلْبٍ بِمِزَلَةِ الْبَصَرِ لِمَنِ ؛ فَالْبُصِيرَةُ : نُورُ الْقَلْبِ الَّذِي بِهِ يَسْتَبْصِرُ . وَالْبَصَرُ : نُورُ الْعَيْنِ الَّذِي بِهِ تَبْصُرُ . وَغَلَابٌ : صِفَةُ مِبَالَفَةٍ مِنَ الْقَلْبِ : أَيْ كَثِيرِ الْقَلْبَةِ . وَاشْتَبَهَتْ : التَّبَهَتْ ، وَأَشْكَلَتْ ، وَغَفِيتْ . وَمَسَالِكُ : طُرُقٌ ، وَسَبِيلٌ ، وَمَذَاهِبٌ . مَفْرُوعًا مَسْلُكٌ . وَالرَّأْيُ : التَّنْبِيرُ ، أَوِ الْاِسْتِفَادَةُ ، أَوِ الْعَقْلُ . وَجَمْعُهُ أَرَاءٌ . وَالْبَازُ : لَفَةٌ فِي الْبَازِي : وَهُوَ كَالصَّقَرِ ، وَالشَّاهِدُ ؛ مِنْ جَوَارِحِ الطَّيْرِ الَّتِي تُصِيدُ وَتَقْتَرِسُ . وَالْحَجَلُ : مِنْ بَنَاتِ الطَّيْرِ وَصَافِرِهَا : أَيْ الْجَبَانُ الضَّعِيفُ الَّذِي يُصَادُ ، وَلَا يُصِيدُ . وَاحِدَتُهُ حَجَلَةٌ (بِوزْنِ قِصْبَةٍ وَقِصْبٍ) : وَهِيَ طَائِرٌ فِي حِمَمِ الْحِمَامَةِ ، أَحْمَرُ الْمُتَقَارِ وَالرَّجُلَيْنِ ، طَيِّبُ الْبَحْرِ . وَ« صَادَ الْبَازُ بِالْحَجَلِ » : صَادَ جَوَارِحُ الطَّيْرِ بِنَبَاتِهَا ، وَصَقَّوْهَا بِصَافِرِهَا ، وَقَوَّيْهَا بِشَمْعِهَا ، وَثَرَارَهَا بِخِيَارِهَا . وَالْمَرَادُ أَنْ الَّذِي يَخْتَارُ لِقِيَادَةِ الْحُكْمِ وَالرَّعَايَةِ ، وَتَلْقَى إِلَيْهِ مَقَالِيدَ الْأُمُورِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حَافِظًا مَاهِرًا ، كَيْسًا لَقِيًّا ، فَطِنًا أَرِيًّا ، وَاسِعَ الْحِيلَةِ ، شَدِيدَ النِّهَادِ ؛ فَصِيدَ الْبَازِي بِالْحَجَلِ : كَنَاءَةٌ مِنَ الْكِبَايَةِ ، وَحَسَنِ السِّيَامَةِ ، وَالْحَلْقِ ، وَالْيَقَاةِ ، فَهُوَ يَنَالُ بِالْحِيلَةِ مَا تَمِيزَ عَنْهُ الْقُوَّةُ ، أَوْ يَنَالُ أَصْعَبَ الْأُمُورِ بِأَيْسَرِ السَّبِيلِ . أَوْ يَحِلُّ الْأُمُورَ الْمُتَعَقِّدَةَ بِقِلِيلٍ مِنَ الْحِيلَةِ .

وَصِفَتْ مِنْ يَخْتَارُ لِقِيَادَةِ الْبَالِدِ الْكَاهِ وَالنِّهَادِ ، وَالتَّغَلُّبِ عَلَى مَا يُصَادَفُهُ مِنَ الصَّعَابِ وَالْمَقْبَاتِ ، وَأَنَّهُ إِذَا تَشَابَهَتْ الْأُمُورُ ، وَاسْتَطَلَّتِ الْأَوْضَاعُ ، وَغَفِيتْ مَسَالِكُ الرَّأْيِ - تَعَرَّفَ الْبَهِيمُ الْمَسِيرَ مِنَ التَّنْبِيرِ ، بِالْقَرِيبِ الْبَسِيرِ مِنَ التَّفَكِيرِ .

إِنْ قَالَ بَرٌّ، وَإِنْ نَادَاهُ مُنْتَصِرٌ لَيْسَ، وَإِنْ هُمْ لَمْ يَرْجِعْ بِلَا تَفَلٍّ (٥٢)
يَجْلُو الْبِدِيَّةَ بِالْفِظِ الْوَجِيزِ إِذَا عَزَّ الْخَطَابُ، وَطَاشَتْ أَسْهُمُ الْجَدَلِ (٥٣)
وَلَا تَلَجُّوا إِذَا مَا الرَّأْيُ لَاحَ لَكُمْ إِنَّ اللَّجَاجَةَ مَدْعَاةٌ إِلَى الْفَسَلِ (٥٤)

(٥٢) بَرٌّ : صدقٌ. من البرِّ: وهو المتوسِّع في فعل الخير. واستعمل البرُّ في الصلح: لكونه يفض الخير المتوسِّع فيه. ومنصر: مستنصر: أي طالب للنصرة، أو النصر، أو المعونة، أو النجدة. ولَبَّى: أجاب: أي أجاب المنتصر، وأقبل عليه، وضره. وهم بالشيء: أراده، وطلبه، (وبابه رد). والتفل: الغنمة. يحسمه أنفال (يوزن سبب وأسباب).

وصفه بالصلح في القول، وأنه ينصر المستنصر، ويمين من استعان به، ويجيب من ناداه. وإذا هم بالخرب أقدم عليها، وخاض غمارها، ولم يمد سبها إلا بالنصر والغنمة.

(٥٣) يجلو: يوضح، ويظهر، ويكشف. وفاعله ضمير يعود على «شهما» في البيت الخمسين: أي قتلوا أمرهم شهماً يجلو البدية... والبدية: أول كل شيء. وما قبله به غيرك من الكلام وغيره. وما يدخل به: أي يدرك به، ويفجؤك، ويصغفك. والفظ الوجيز: الكلام القصير القليل، وهو - على قصره وقلة وزجازه - واضح بليغ، تامّ المعنى، سريع الوصول إلى الفهم. ووزن الخطاب: شق، وصعب. أو غث. أو غلب من محاولة، واستصعب عليه. أو قل، فلا يكاد يوجد. وطاش السهم: انصرف عن الهدف، ولم يصب الرمية. والأسهم، وكذا السهام: جمع سهم. وهو عود من خشب يسوى، ويركب في طرفه فصل حادّ قاطع من الحديد الصلب، ليرى به الصائد ونحوه من القوس ونحوها. والجدل: مفاوضة فيها تنازعة، ومخاصمة، ومغالبة بالحجج والأدلة والبراهين. وهو اسم من جادلته مجادلة وجدالا. أو هو مصدر جدل (من باب تمب).

من صفات السهم الذي تقلبونه أمركم: أن يكشف بالفظ الوجيز البليغ ما يفاجأ به من بدائه الكلام، وعوارض الأنعام، إذا حيز غيره من الخطاب، وانصرف المجادلين من الصواب.

عُنِيَ الشاعر في هذا البيت وثلاثة أبيات قبله ببيان أهم الصفات، أو المزايا، أو المميزات التي ينبغي توافرها فيمن يرشح لقيادة، أو الإمامة، أو الحكم، أو الولاية. وكأنما يدعو إلى نفسه؛ فإن هذه الصفات ظاهرة فيه، تشير إليه، وتدل عليه.

(٥٤) لجّ: كسب، وضرب: تمادى في الخصومة والجدل. ومن مصادره: اللجاجة. ولاح: بدا، وظهر. والتفل: الضعف والترخي.

ينى قوله عن التمداد في الجدل، والمباحكة، والخصومة إذا بدا لم وجه الرأي والتدبير، وظهر منعب الحق والصواب؛ فإن التمداد في الماحلة والمنازعة يدعو إلى الضعف، ويفسد الرأي، ويمزق شملهم، ويذهب كرمهم، ويتهى بهم إلى الهزيمة والخسران.

قَدْ يُذَرِّكُ الْمَرْءَ بِالتَّنْبِيرِ مَا عَجَزَتْ عَنْهُ الْكُمَاةُ، وَلَمْ يَخْمَلْ عَلَى بَطَلٍ^(٥٥)
هَيْهَاتَ، مَا النَّصْرُ فِي حَدِّ الْأَسِنَّةِ، بَلْ بِقُوَّةِ الرَّأْيِ تَمْحَى شَوْكَةُ الْأَسْلِ^(٥٦)

(٥٥) «قد» هنا : حرف يفيد التأكيد . ويدرك : يلحق ، وينال . والتنبير : التفكير في الأمر ، وتقليب وجهه ، والنظر في عاقبة : أي آخره ونهايته . وجبر الأمر . وجبرى الأمر : ساسه ، وفعله عن فكر ، وفهم ، وتقدير ، وروية . والكأاة : جمع كى (يوزن غي) : وهو لا يس السلاح . كى (كرى) نفسه بالسلاح : أى سترها وضآها . والكى : الشجاع ، الجرى ، المقدام ، ولولم يتسلح . وحمل المحارب على قرنه (أى ذته ونظيره) : كره عليه ، وهجم . والبطل : الشجاع المقدام . ولولا في الشرط الثانى : واوالحال . والبللة الفعلية التى بعدها حالية .

في البيت السابق نرى مواطنيه عن الحاجة إذا ما بدا لهم وجه الرأى والتدبير ، وحده ريم عاقبة اتخاذى في الجدل والعصوية .

وفي هذا البيت نرى مجوده الرأى ، وإتقان التدبير ، وعظم شأنهما ؛ فهما وبالمسالة والمهادنة ينال المسلم ما يميز عن نيله المحاربين الشجعان بمنف القتال ، وشدة النزال ، وكثيراً ما تحقق السياسة اللأرب ، وتبقى عن المحروب . وهذا قريب من قول الشاعر :

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أولك ، وهى المثل الثانى

وقريب من المثل : « ينال بالين ما لا ينال بالشدّة » . والبيت الآتى يمزج هذا المعنى ويؤكدّه .

(٥٦) « هيات » : كلمة تعيد : اسم فعل ماضى ، بمعنى بعد . ومعناها هنا مؤكدة لمعنى التنى الذى بعدها : أى هيات أن يكون النصر فى حدّ الأسنة وحدها . والأسنة : جمع سنان (يوزن كتاب) : وهو فصل الريح : أى حديثه التى يطن بها ، فتخرج ، وتقتل . وحده السنان : طوله المحدّد ، الماضى ، القاطع . وتمضى : تنفذ ، وتقطع . وشوكة الريح ونحوه : شباته ؛ وحده الخارج القاطع . والأسل : الريح . وقد يطلق على السيوف والسكاكين ونحوهما . الواحدة أسلة (يوزن قصبة وقصب) .

والمعنى : أن الأسنة والأسلحة وأدوات القتال لا تكن وحدها لإحراز النصر ، وكسب المارك . وإنما يتصر المحاربون ، وتكسب أسلحتهم المضاء والحدة بقوة الرأى ، وإحكام التدبير .

وهو بهذا يفضل قوة الرأى على قوة السلاح ، أو يقدم الأولى على الثانية ، أى يحصل قوة السلاح من قوة الرأى ؛ فالسلاح لا يكون قوياً نافعاً إلا إذا استخدم من رأى قوى ، وتدبير محكم ، ومعنى هذا البيت تأكيد وتعزيز لمعنى البيت السابق .

وَطَائِلُوا بِحُفُوقٍ أَصْبَحَتْ غَرَضًا لِكُلِّ مُنْتَزِعٍ سَهْمًا ، وَمُخْتَلِلٍ ٥٧
وَلَا تَخَافُوا نَكَالًا فِيهِ مَنُشَوْكُمُ فَالْحَوْتُ فِي الْيَمِّ لَا يَخْشَى مِنَ الْبَلَلِ ٥٨

(٥٧) الغرض : الخلف الذي يرى إليه . منتزع : اسم فاعل من انتزعت السهم من الكنافة : (وهي جمية السهام) : أي جذبه ، وأخرجته الرمي والقتال . والسهم : عود من خشب ، يسوى ، ويركب في طرفه فصل حاد قاطع من الحديد الصلب ؛ يرى به الصائد وقوعه عن القوس ونحوها . وجمعه أسهم وسهام . ومختل : مخادع : اسم فاعل من اختله : أي خدعه ، وأراد به المكره من حيث لا يدرى . رأى الشاعر حقوق المعريين في زمانه هذا المحدثين عليها بقوة السلاح ، ونهضة لمستقبلها بالمخاطلة والغلاف ؛ فنبه ، وسمس ، وأيقظ الشعور الوطني ، وسفر على المطالبة بها في جرأة وإقدام ، وعزم وتصميم .

والبيت الآخر يميز معنى التنبيه والتحميس ، وقوة المطالبة والتصميم .

(٥٨) نكل به تنكيلا : عاقبه ، أو عذبه ؛ ليرده ، ويروع غيره ويخذه . واسم ذلك المذاب : النكال . ومنشوكم : نشأتكم ، أو نشوكم : وهو مصدر ميسى من نشأ (من باب نفع) : أي نبت ، وترعرع ، وشب ، ونما . والحوت : العظيم من السمك . وجمعه حوتان . واليم : البحر . والشطر الثاني تذييل جاز مجرى المثل ، مؤكداً لمعنى الشطر الأول . وفيه قوة التحميس والإقناع . والمعنى : لا تخشوا النكال يصبه عليكم من تخريطين عليهم من الطغاة الظالمين ، والفاصلين المستبدين ؛ فقد نشأتم في النكال والمذاب ، وتمرستم بالبلايا والنواب . مثلكم في هذا مثلك الحوت ، لا يرهب البحر ، ولا يباله ؛ لأنه ابن البحر ، والتأني فيه .

ويلاحظ أن الشاعر استخدم في هذه الالامية الأساليب الخطابية : من خبر وإنشاء ، وأسئلة وإقناع ، ومناجاة وهجاء ، وسياسة وحرب ، ولين وشدة ... وأسلوب هذا البيت شديد ؛ فهو يحفز على الثورة العارفة لتطهير حكم الدونان والبلقيان ، مع البلل والتفصية ، والإقدام في غير مبالاة ببطش الحاكمين ؛ فإن حكمهم نفسه تنكيل بالهكوميين ، وتمذيب لهم ، فإذا ثاروا في وجوه هؤلاء الطغاة ، وأصيبوا بنكالهم ، فلن يكون شرًّا من حكمهم .

ومن شعر أبي الطيب المتنبي فيما يقرب من هذا المعنى :

والهجر أقفل لي عينا أراقبه أنا الفريق ، فما غوى من البلال ؟

ومن شعر بشّار بن برد :

كزيتي رجليه عن بلل القمطر وما حوله من الأرض بحر

ومن كلام بعض الحكماء :

« من علم أن القضاء مستحيل على كونه ، هانت عليه المصائب » .

عَيْشُ الْفَتَى فِي فَنَاءِ الذَّلِّ مَنْقَصَةٌ وَالْمَوْتُ فِي الْبَرْقَعْرِ السَّادَةِ النَّبِيلِ (٥٩)
لَا تَتْرَكُوا الْجِدَّ أَوْ يَبْدُو الْيَقِينُ لَكُمْ فَالْجِدُّ مِفْتَاحُ بَابِ الْمَطْلَبِ الْغَضِيلِ (٦٠)

(٥٩) العيش: المعيشة، والحياة. والفتى: الشاب أول شبابه، بين المراهقة والرجولة. وهذا في بين الفناء: وهو طرامة السن. وقد يطلق «الفتى» على المرء في كل طور من أطوار حياته، فتقول العرب: فتى من صفته كيت وكيت، من غير تمييز بين الشيخ والشاب. وهذا المعنى هو المراد هنا. وفناء الذل: وساحة المذلّة والمهانة والضعف والاستخذاء. مستعار من فناء الدار: وهو ساحتها، ورحبتها، والموضع المتسع أمامها. ومنقصة: عيب ونقصية. والمر: القوة، والكرامة. ومظلة العزة: وشدّة الذلّ والهوان. والسادة: جمع السيّد. والنبل (بفتحين): النبلاء: جمع لنبل: صفة من النبل (بضم فسكون): وهو الفضل، والذكاء، والتجابهة.

ما زال الشاعر ينصح، ويحسّس، ويحرّض على إياه الغصم، وإسقاط حكم الإذلال والاستبعاد؛ فن التقيّة والعار أن يرضى المرء بالذلّة والهوان، ويجبا حياة للضعف والاستخذاء. ومن النبل والفضل، ودعوى الابتغاء والافتخار أن يموت في سبيل العزة والمنعة، والقوّة والألفة، والسيادة والكرامة.

ولحكيّم الشمره أبا الطيّب المتنبي في هذا المعنى شعر كثير رائق فائق، منه:

عش عزيزاً ، أو مت وأنت كريم بين طعن القنا ، وعقق الخيد
فرويس الرياح أذهب للغيظ وأشفي لغلّ صدر الحفيد
لا كما قد حبيت غير حميد وإذا متّ متّ غير فقيد
فاطلب المرء في نطى ، فذر الذلّ لو كان في جنان الخلود
يقتل العاجز الجبان وقد يه جزّ عن قطع يُحقّق الملويد
ويؤيّل الفتى الخشّ وقد عوّ وعصّ في ماء لجة الصنيد

(٦٠) الجِدَّة (بفتح الجيم): الاجتهاد في الأمر. وشدّة الخزل: مصدر جدّ (من باي ضرب وقتل). والاسم منه الجِدَّة (بكر الجيم). و«أو» هنا: بمعنى «إلى»: أي اتّزموا الجد إلى أن يبدو لكم اليقين. ويبدو: يظهر، ويتّضح، ويستبين، وينكشف. وهو منصوب بأن المضمره، ولم تظهر الفتحة على الواو لضرورة وزن الشعر. واليقين: العلم الذي لا شك فيه. ويراد به هنا: ما تستيقنون تحقّقه بمجاهدكم من أهدافكم، ومطالبكم، وآمالكم. والفضل (بفتح فـ) كسر، أو بفتح فـ) ضم: السير، الصب.

يحفّضهم على التزام الجدّ والاجتهاد، ومواصلة الكفاح والنضال، حتّى ينبجل لهم وجه الحقّ، ويستيقنوا إصابة أهدافهم، وتحقيق مقاصدهم، وبلوغ آمالهم؛ فإنّ الجدّ يذلّل الصماب، ويفتح الأبواب، ويسرّ المعصل السير من المطالب، ويقرب أثنائي البعيد من المآرب.

طَوْرًا عِرَاكًا ، وَأَحْيَانًا مُيَاسَرَةً رِيَاضَةُ الْمُهَرِّبِينَ الْعَنْفِ وَالْمَهْلِ (٦١)
 حَتَّى تَعُوَّ سَمَاءُ الْأَمْنِ ضَاحِيَةً وَبِرْقُلُ الْعَدْلِ فِي ضَافٍ مِنَ الْحُلِّ (٦٢)
 هَذِي نَصِيحَةٌ مَنْ لَا يَبْتَغِي بَدَلًا بِكُمْ . وَهَلْ يَعْلَمُونَ الْمَرْءَ مِنْ بَدَلٍ ؟ (٦٣)

(٦١) الطور : التارة ، والمرّة . والعراك : الخصام ، والنضال ، والقتال . مصدر عاركته مباركة وعراكاً . ومياسرة : مساهلة ، وملاينة : مصدر يماسرته : أوى لا ينته ، وساهلته . وفدّها المعاصرة . والمهر : ولد القرس : ورياضته : تمرينه ، وتعليمه ، وتذليله ، وتدريبه . والننف : الشدة . وفده الرق . والمهل (يفتحون) : التلوة ، والرق ، واللين .

في البيت السابق حض الشاعر قومه على التزام الجِدِّ ، حتى يستيقنوا إصابة أهدافهم الوطنية ، ويحرموا أنفسهم وبلاهم من ربة اللذِّ والمبودية . وفي هذا البيت وسَّع مجال الجِدِّ ، وفوَّع وسائله ، ونصح أن يسلكوا إلى غايتهم شتى السبل ، ويتلوهوا بمختلف الأساليب من ملاينة ومناشاة ، ومهادنة وقتال ؛ فإن التنوع والتوسيع من العقل والرأى والتقدير ، وهو كفيل بتحقيق المطالب ، وبلوغ المآرب ، كالمهر يستعان على رياضته وتذليله بالمراوغة بين اللين والننف ، والرق والشدة .

(٦٢) ضاحية : ظاهرة ، صافية ، نقيّة ، ورظ في ثيابه (من باي قصر وقعد) أطالها ، وجرّها في سيره فاعترأ متجترأ . والضافي من الثياب ونصوحها : السابغ ، الكامل ، التام ، اللوأي ، الواسع ، الفضفاض . والحلل : الثياب . الواحدة حُلَّة (بوزن قُلَّة) : وهي إزار ورداء . ولا تسمى حُلَّة حتى تكون من ثوبين . من جسر واحد .

والشاعر في هذا البيت والبيتين قبله ينصح لقومه ، ويدعوهم إلى التزام الجِدِّ ، ومواصلة الجهاد مع تنوع أساليبه حتى يظهر الأمن ويستتب ، ويتمّ العدل ويستقر .

(٦٣) أراد بالنصيحة : ما قدّمه إلى قومه في هذه القصيدة من لوم ونصائح ، وتوجيه وإرشاد ، وحض وإغراء وتشجيع وتحذير . . . والنصيحة : قول فيه دعوة إلى صلاح ، ونهي عن فساد . ونصيحة ، ونصح له : أرشده إلى ما فيه صلاحه . ويتبنّى : يريد ، ويطلب . وبدلاً بكم : بدلاً منكم . والبدل من الشيء : الخلف ، والموض . والاستفهام بهل في الشطر الثاني : معناه التثني . و « من » زائدة . والترض من زيادتها في مثل هذا المقام تأكيد الكلام وتقريره ، وتقويته ، وتوثيقه ، وفي القرآن الكريم : « فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ » الآية رقم ٣ من سورة السُّكُوت .

يقول : هذه نصيحة يسلمها إليكم أخ لكم ، مستهام بكم ، حريص عليكم ، لا يريد منكم بدلاً ، ولا يبني عنكم حولا ، لأنكم قومه وأهله ، وعترته وعشيرته . وهيات أن يستبدل المرء بقرمه غيره ، فإنهم لن يسهوا سادتهم ، ولن يكونوا أمثالهم .

أَسَهَرْتُ جَفْنِي لَكُمْ فِي نَظْمِ قَافِيَةٍ مَا إِنَّ لَهَا فِي قَدِيمِ الشُّعْرِ مِنْ مَثَلٍ (٦٤)
كَالْبَرْقِ فِي عَجَلٍ ، وَالرُّعْدِ فِي زَجَلٍ وَالْقَيْثِ فِي هَلَلٍ ، وَالسَّيْلِ فِي هَمَلٍ (٦٥)

(٦٤) جفن العين : غطاؤها من أعلاها وأسفلها ، فهما جفنان لكل عين . والجس جفون ، وأجفان . ويراد بالجمع هنا : العين . وفي المثل : « إنه لشديد جفن العين » : يضرب لمن يصبر على السهر . ونظم الشاعر شعراً : ألف كلاماً موزوناً مقفى . مستعار من نظم الدرّ (أي اللؤلؤ) وتنظيحه : وهو أن يجمع ، وينسق ، ويرتّب ، ويضمّ بعضه إلى بعض ، ويحمل في سلك ونحوه . ويراد بالقافية هنا : هذه القصيدة اللامية التي نظمها الشاعر ، وأتمّها سمين بيتاً ، وضمّتها عواطفه ، ونصائحه ، وتجاريه ، وآراؤه في الحكم والسياسة ، وصفات الحاكم الكفء ، ومواعظ القائد الرشيد ... وتوجه بها إلى قومه في حماسة ، وحنان ، وإخلاص . والقافية في علم العروض والقافية (أي علم موازين الشعر) : الحروف التي تبدأ بمحرك ، يليه آخر ساكنين ، في آخر البيت . أو هي من آخر البيت إلى أول متحرك قبل ساكن بينهما ؛ قافية هذا البيت مثلا : « من مثل » . والقافية في بيت زهير بن أبي سلمى :

وَمِنْ يَكْ ذَا فَضْلٍ ، فَيُخَلِّ بِفَضْلِهِ عَلَى قَوْمِهِ يَسْتَفِنُ عَنْهُ وَيَذِمُّ
كَلِمَةً يَذِمُّ . وقد تطلق القافية على حرف الرّوى الذي تنبئ عليه القصيدة ، وتنسب إليه ، ويكرّو على الدوام في آخر كلّ بيت من أبياتها ، فهذه القصيدة - مثلا - لامية ؛ لأن رويها حرف الهمزة . و « إن » في الشطر الثاني من هذا البيت زائدة ، وكذلك « من » . وزايدتهما لتقرير التي وتوكيده ، وتقوية الكلام وتوثيقه . ومثل (يفتحين) : مماثل ، وشبيه ، ونظير ، وكفء .

يقول : إنه يدافع من إخلاصه ، ووطنيته ، وحسبه لقومه ، وحرصه عليهم ، وتعلّقه بهم - بذلك جهداً ، ومجالاً مشقّة ، ويحمّاهما جنبه من مضجعه ، واحتمل الأرق والسهر ، حتى نظم لهم هذه القصيدة البديعة الفريدة ، الرائقة ، العائقة ، التي لا نظير لها في شعر الأوائل والأواخر .

في البيت السابق لحسن في كلمة « نصيحة » ما دعا إليه قومه في الأبيات التي قبله من رشد وصلاح ، وما نهاهم عنه من ضعف واستكافة . وفي هذا البيت وستة الأبيات بعده فخر بهذه اللامية الملوّنة الخالدة ، وتوثيقه بحماسة وتزايها . والفرض : زيادة التنبيه عليها . والترغيب فيها ، وتأكيد ما قدّمه من نصح وإرشاد ، وتوبيخ وتحميس .

(٦٥) البرق : ضوء شديد خاطف ، يلح في السماء ، على إثر انقجار كهربائي في السحاب . والعجل : السرعة : مصدر عجل (من باب تعب) . والرعد : صوت يدنو في السماء ، ويسمع من السحاب ، عجب ويبض البرق . والزجل : الجلبة ، والصوت المرتفع العالي . (وقوله من باب فرح) . والقَيْث : المطر . والمحلل (يفتحين) : أول المطر . ويراد به هنا : انصباؤه ، وانفداعه . والسيل : الماء الكثير الغزير السائل : مصدر سال الماء (من باب باع) : أي جرى في غزارة وكثرة . ثم غلب استعمال « السيل » في ماء المطر إذا

غَرَاءَ ، تَمْلَقُهَا الْأَسْمَاعُ مِنْ طَرَبٍ وَتَسْتَطِيرُ بِهَا الْأَلْبَابُ مِنْ جَدَلٍ (٦٦)
 حَوْلِيَّةٌ ، صَاعَهَا فِكْرٌ أَقْرَ لَهُ بِالْمُعْجِزَاتِ قَبِيلُ الْإِنْسِ وَالْخَبَلِ (٦٧)

— اجتمع ، ويرى مسرماً فوق سطح الأرض ، وفي الأودية . ويسمى سيل . وحمل السيل (يفتح الهاء والميم) : فيضانه ، ويرياه ، وانفداه . والمحمل : الماء السائل ، لا مانع يحجزه .

والمنى : أن هذه القصيدة تسرع إلى الأنهام لإسراع البرق ، وتقصيه إضامته ، وتترك في الأسماع مثل دوى الرعد ، وتنصب في الأذهان أنصباب المطر ، ويهرى جريان السيل . وصفها بالموضوح ، والبلاغة ، والسلامة ، والانسجام ، وروعة التمييز . وقوة التأثير .

وفي البيت ترابط وثيق ، وتناسق تام بين المتماثلات . وفيه من المحسنات البديعية جناس بين « صجل » و « زجل » ، ثم بين « هلل » و « حمل » . وفيه تشطير : وهو في الشعر كالسبح في النثر . ومن أمثلته قول الشاعر في المديح :
 تجلّى به رشدي ، وأثرت به يدي . وقاض به شمدى ، وأورى به زندى
 ووصيائه إلى هذا كله غاية في حسن الإيقاع وإمتاع الأسماع .

(٦٦) غَرَاءَ : واضعة ، مشهورة ، مميزة . وهي في الأصل صفة من « الفرر » : مبصر غر وجهه (ابن باب فرح) : أي صار ذاغرة : وهي يياض مستحسن في جبهة الفرس . وتملقها (من باب فرح) : تحفظها ، وتستظهرها ، وتميها ، وتشتت بها . والطرب : مصدر طرب منه ، أو طرب له (من باب فرح) : أي خف ، واحتج من فرط فرح وسرور ، أو فرط حزن وقم . و « من » في كل من التشطير الأول والتشطير الثاني : تعليلية أي بمعنى لام التعليل : أي تفيد العلة والسبب . وتطير : تطير ، وتوقع ، وتنتشر . ويزاد بالاستعارة هنا : شدة التأثير . والألبياب : العقول . وإسدها لب : والجذل : الفرخ . (وفعله من باب طرب) .

يقول : إن لاميته هذه انتفشت ، واشتهرت ، وأمتازت من غيرها بما انفردت به من الخصائص ، والمزايا ، والمحسنات . ثم نوه بقوة تأثيرها ، وقوة تأثير الناس بها ، فقال : إنهم يسمعونها ، فيطربون لها ، ويصحبون بها ، وتميها أجمعهم ، وتستظهرها عقولهم ، وتنتشر لها مشاعرهم .

(٦٧) حولية : نسبة إلى الحول (يفتح فسكون) : أي السنة ، أو العام . والمراد أنه أمضى وقتاً طويلاً في نظم هذه القصيدة ، وتنقيحها ، وتحريرها ، وتبليغها ، حتى أخرجها بحوكة النسيج ، مخافة اللفظ ، غزيرة الحكمة ، ساهرة البيان ، تامة المحسنات ، رائعة التمييز ، قوية التأثير ، باقية بقاء الشعر . كحوليات زهير بن أبي سلمى المزني : وهو شاعر جاهل من أصحاب المعلقات ، توفي قبيل بعثة النبي — صل الله عليه وسلم — واشتهر بتنقيح شعره ، وتبليغه ، والتروي فيه ، وعرضه على النقاد قبل إذاعته . وصاغها : أنشأها ، ونظمها . ومن كلامهم : صاغ كلامه : أي حبره ، وزينه ، وحسنه . وأقره ديوان البارودي r

نَلُوحُ أَيْبَاتُهَا شَطْرَيْنِ فِي نَسَقٍ كَالْمَشْرِوِيَّةِ قَدْ سُلَّتْ مِنَ الْخِطَلِ (٦٨)
إِنْ أَخْلَقْتَ جِدَّةَ الْأَشْعَارِ أَثْلَهَا لَفْظُ أَصِيلٍ ، وَمَعْنَى غَيْرُ مُنْتَحَلٍ (٦٩)

« له بكنا : اعترف له به ، وأثبت . والمعجزات : جمع معجزة : وهي في الأصل : أسرارُ القادة ، يظهره الله على يد نبيه تأييداً لرسالته ، وإثباتاً لنبوته . والمعجزة مما يميز البشر أن يأتيوا بمثل . ويراد بالمعجزات هنا : ما يتحصى على غير البارئ من جيد الشرفاقت . وللقبيل : الجماعة المجتمعة التي يقبل بعضها على بعض . أو الجماعة من أقوام شتى . والإنس : البشر : أي الناس . الواحد إنسي : أي آدمي . والحمل (يفتحون) : الجن » .

يفتسر بأن هذه القصيدة حوية من صياغة فكره المبكر الأمل الذي اعترفت جماعات الإنس والجن بتفكره وبقوته ، وامتيازته وإيجازه .

(٦٨) تلوح : تظهر مشرقة مثلاً . من مولى : لاح النجم : أي بدا ، ولج ، وأومض ، وتلا . وأيباتها : أبيات هذه القصيدة . وشطر كل شيء : نصفه . ومنه شطر البيت من الشعر . وكل بيت من الشعر شطران . وفي نسق : في اتساق ، على نظام واحد . والمشرقية : السيف المنسوبة إلى مشارف الشام ، أو مشارف اليمن ، أو مشارف العراق : وهي قوى من أرض العرب تكذب من الريف . أو المراد بها مشارف الشام ؛ إذ كانت مشهورة بصناعة السيف وتجارها . ومشارف الأرض : أعاليها . وتوضيح التشبيه هنا : أن السيف المشرق إذا سل من غده بدا له صفحتان متلازمان لا متان مشرقان . وكذلك أبيات هذه القصيدة ؛ فلكل بيت منها شطران كصفحتي المشرق . وسلت من الخلل : أخرجت من أغصانها . سللت السيف (من باب رد) : انفضت : أي جرّدت ، وأخرجته من غده . والخلل : جمع غلة (يوزن غلة وعل) : وهي جنن السيف : أي غده : أي غلافه ، ويرابه .

يقول : تظهر أبيات هذه القصيدة متوافقة متناسقة . كل بيت منها شطران متسقان على نظام واحد ، كأنها السيوف جرّدت من أغصانها ، فبهرتك بلألأها ، وقاسوا ، وبدع نظمها ، وحسن تنسيقها .

(٦٩) أخلق الثوب ونحوه : ذهبته جيدته ، ورم ، وبلى . والجدة : ضد الإخلاق والبل : مصدر جد الشيء بمجدة (يوزن غف يخف) ، فهو جديد . وأخلقت جدّة الاختار أي كانت جديدة ، ثم أخلقت : أي بليت بمرور الزمن ، وذهبت بهجتها وفشارتها ، وضعف تأثيرها . وأثّلها : أثّل هذه الآية : أي أصلها : أي جعلها ذات أصل ثابت واسع ، لا يصيبه البلى ، ولا ينال من القدم . ولفظ أصيل : جيدة ، قوي ، متميز . وأصالة اللفظ والأسلوب : جودته ، واستحكامه ، وابتداعه وحسن اختياره ، وحيل تآليفه . وغير متحل : مبتدع ، مبتكر ، غير مسبق ، أو غير مسروق . انتحل فلان الشيء : أي ادّعاه لنفسه ، وهو في الحقيقة لغيره .

تَفَنَّى النُّفُوسُ ، وَتَبَقَّى وَهَى نَازِرَةٍ عَلَى الدُّهُورِ بَقَاءَ السَّبْعَةِ الطُّولِ (٧٠)

= يفترخ بأن قصيدته هذه جيّدة اللفظ ، محبوكة النسيج ، متينة التركيب ، متميّزة الأساليب . ومعانيها إلى هذا مبتدعة مبتكرة غير مسبقة . فإذا بليت أشعار غيره من الشعراء ، وذهب الزمان بجدها ونضارتها - بقيت هذه القصيدة حديثة فريدة ، ناضرة زاهرة ، بليغة التمييز ، شديدة التأثير بأصالة ألفاظها ، وبديع معانيها .

والبيت الآتي - وهو الأخير - تكرر ، وتأكيد لهذا المعنى .

(٧٠) تَفَنَّى : تبيد ، وبطل . وبطل : « تبق » : ضياع « قافية » في البيت الرابع والستين : أي هذه القصيدة اللامية . والواو الثانية : واو الحال . والحلمة بعدها حالية « هي ناضرة » : أي حسنة ، رافقة . من النضور ، أو النضرة : وهي الحسن والرواق . واللمحور : جمع دهر : وهو الزمان الطويل ، أو مدة الحياة الدنيا . والسبع الطويل من القرآن الكريم : سُورَةُ الْبَقَرَةِ ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف . والسابعة سورة يونس ، أو سورة الأنفال ، أو الأنفال ومعها التوبة (براءة) ؛ لأنها سورة واحدة عند بعض المفسرين ، ومجموعهما السورة السابعة من السبع الطويل . والسبع الطويل من الشعر : معلقات امرئ القيس ، وزهير ، ومعمرو بن كلثوم ، وليبيد ، وطرفة ، وعنترة ، والحارث بن حيلزة . والطويل (بوزن الكُفْرِ) : جمع الطويل (بوزن الكُفْرِ) : مؤنث الأمل .

في ستة الأبيات السابقة اتخذه البارزى بهذه القصيدة ، وأطراها ، وفوّه بحساسها ومزايها . وفي هذا البيت بلغ باعتداده وطخوره بها القمة ، فقال : إن الناس يفنون ، وتبقى بعد فناءهم خالدة خليق الدهر ، محفظة برزخها ونضرتها ، وبها وبجدها .

ومن مبالغاته المقبولة أن يقرن بقاءها ببقاء المعلقات السبع ، وهي أبلغ ما أُثير وحفظ من الشعر العربي القديم .

وأهل مراتب الاعتدال والإنباه ، والإطراء وحسن الثناء أن يقرن بقاءها بقاء القرآن العظيم ، كأنها فيض من مائه ، وقبس من ضيائه . قال الله تبارك وتعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون » . الآية رقم ٩ من سورة الحجر .

تعليق وجيز

قدّمنا في ترجمتنا الخديو « إسماعيل » أنه أرق مصر بكثرة الدين الأجنبية ، فساجت الأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، وتخلل الدائنين الأوروبيون في شؤون البلاد ، فأصبحت المزة القروية في الصمم ؛ وانتهى الأمر باتفاق إنجلترا وفرنسا على عزله وفيه ؛ فكان لهما ما أرادتا ، وأوصل الباب المائل إلى مصر برقيتين بتاريخين ٢٦ من يونيو سنة ١٨٧٩ : إحداهما بتولية « توفيق » ، والأخرى بزل « إسماعيل » . وبأمر البول غادر القاهرة إلى الإسكندرية في ٣٠ من يونيو ١٨٧٩ ومنها إلى إيطاليا . وظلّ منفياً مغترباً بعيداً عن بلاده إلى أن توفي بالقسطنطينية ، ثم نقلت جثته إلى القاهرة ؛ وهذا التحكم =

= الأجنبيّ دَلَّتْ الحكومة الخديويّة ، وهما أمرها في نظر الأجانب والوطنيين ، وإمتدّ هذا الهوان من «إسماعيل» إلى «توفيق» ومن تابعوا بعده على عرش مصر ، حتى سقط هذا الحكم بقيام الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ .

وفي أواخر حكم «إسماعيل» ، وفي ذلك الحين القائم التام ، المتبرّم السخاظ نظر الباروديّ هذه اللامية العلوية السياسية ، بالعنوان الذي اختاره لها ، وهو ذمّ الحكماء ، وحسنّ الناس على طلب العدل في الأحكام ، فاستخدم فيه الأدبيّ القويّ في القلم والتنديد ، والإثارة والتحريض ، وعرض مؤهلاته وكفاياته التي تجعله لمرتبة الزعامة ، وقيادة ثورة وطنية ، تستلّ العزة القويّة ، وتردّ إلى الوطن كرامته وسريته ، وتصلح ما أفسده الطغاة المفسدين ، ويبرزّ للدوافع التي تفرض هذه الثورة ، وتتجملها ، ونوّه بأعباء الأبناء لتحميس الأبناء ، وإحياء قلوبهم بأنفسهم . وطرق أبواباً ومعاني أخرى ، فشابهت العينية التي مطلها : متى إنّت عن أصحّة التي نازع . وفي الشيب لنفس الآية وازع ؟

واقترنت كلّ منهما إلى التحريض على مكافحة البنى والفساد بقوة السلاح ، مع اختلاف تاريخي نظمها ؛ فالعينية نظمها حول سنة ١٨٦٨ بعد عودته من حرب «كريد» وهو في نحو التاسعة والعشرين . واللامية نظمها حول سنة ١٨٧٩ وهو في نحو الأربعين ، بعد عودته من الحرب الروسية التركية ، وقيل نطق العبد «إسماعيل» .

وفي كثير من شعره الذي نظم بين عامي ١٨٦٨ و ١٨٨٢ (تاريخ ثورة الثورة العربية) محاولات للإثارة الوطنية ، ويصمم حول رأيه ، وتحت قيادته . وفي كثير منه حساسة وملاينة ، وولاء ظاهر لصاحب العرش ؛ فهو شاعر طابع ، وملازم محاذو .

وعنوان هذه اللامية يشير إلى تاريخ نظمها ، وهو أواخر حكم «إسماعيل» ؛ ولكن الدكتور «محمد حسين هيكل» على الرغم من هذا يرى ؛ أو يرجح في تقديمه ديوان الباروديّ . أنه نظمها قبيل اشتعال الثورة العربية في أوائل سنة ١٨٨٢ لما اندفع القضاة المصريون يفكرون في خلق «توفيق» ، وتصرّحت في نفس الباروديّ أسباب الاعتماد بمكان أجداده الماليك الذين حكموا مصر ، ونافذته نفسه يومئذ لم يكن المحيد والسيادة . وفي بعض أبيات هذه اللامية (٥٠ - ٥٣) ما يتم على هذا التفكير ، وهذه المنازعة النفسية .

ولا ريب أن الثورة العربية تولدت من سحق القضاة المصريين على زملائهم من الأتراك والمراكسة الذين كانوا يستأثرون بالرتب الرفيعة ، ومراكز القيادة في الجيش ، وكانت فيهم مع هذا غطرسة وغلظة .

• انظر الجزء الثاني من شرح ديوان الباروديّ ، طبعة دار المعارف سنة ١٩٧١ ، أول قافية البين ، ص ٢١٣ - ٢٢٣ عينية في ٥٠ بيتاً .

• انظر تقديم ديوان الباروديّ ص ٢٥ - ٢٦ ج ١ من شرح ديوان الباروديّ ، طبعة دار المعارف سنة ١٩٧١ .

وَقَالَ وَهَوَّ يَحْمِلُونَ ، * وَقَدْ أَقَامَ بِهَا مُدَّةً ، لِمُلَازِمَةِ الْحَمَامَاتِ :
طَرِبْتُ ، وَلَوْلَا الْحِلْمُ أَذْرَكَنِي الْجَهْلُ وَعَاوَدَنِي مَاكَانَ مِنْ شِرْئِي قَبْلُ^(١)

هـ أمّ البارودي- وهو من أصل جركي- فقد عاش ومات في حب مصر ، والوطاء لها ، والتفتى بأبجاده ؛ فأحبّه المصريون ، وأعجبوا بأدبه وشعره ، وفروسيته وشجاعته ، وقدروا إخلاصه وولاهم حركتهم الوطنية مذ كانت في المهد ، وتلقّوا به أديانهم وشرايعهم وعلمائهم ومثقفهم ؛ فكان أستاذهم ورائد لهم الذي أحيا الشعر العربي ، وجده ، وأعاد إليه مجده ونصرت .

وبع هذا كله لم يكن البارودي القائد الأول لثورة العربية ، ولم تنتج هذه اللامية ونظائرها ما كان يرتجيه لشخصه من استجابة عامة قوية ، وزعامة شعبية في السلم والحرب ، والسياسة :

أحبّت ، فساد الصوت لم يقض حاجة إلى ، وليباني الصدى وهو طائع
فما سبب هذا ؟ لعلّ ألمّ الأسباب وأظهرها أن المصريين سوبخاصة غيباط الجيش- كانوا يدّون أن
يستبدلوا بالحكم التركي حكماً مصرياً خالصاً صليماً لا تشوبه شائبة ، وهم يدّون الجراكمة من الأجانب ؛
فرعاة البارودي لا تحقّق أطماعهم ، ولا ترضى كبريائهم .

• « حلوان » : بلدة مصرية ، على الضفة الشرقية لبحر النيل ، وعلى بعد خمسة وعشرين ألف متر من القاهرة ، في جنوبيها . وقد اشتهرت من قديم الزمان بمينئ معدنية ، بنيت عليها حمامات ، يستشف فيها الكبريتية الساخنة من الأمراض الجلدية ، ومن الرثية : أي وجع المفاصل ، ومن أمراض أخرى غيرها . وبعد عودة البارودي من منفاه في ١٢ من سبتمبر سنة ١٨٩٩ استجاب لتوصية أطبائه ، ففقد إلى هذه المدينة ، وأقام بها فترة للاستشفاء بمحمّوها وروائها ، وبيتها الطبيعية ، ومياهها المعدنية . ولازمها ملازمة ، ولزماً : تردّد إليها ، وداوم عليها ، وطال مكثه بها .

(١) طربت : احتزنت فرحاً . من الطرب : وهو خفة ، أو هزّة تثير النفس ؛ لشدة فرح وسرور ، أو شدة حزن وغم ، أو شدة ارتياح ونشاط . وطرب للفناء : أي ارتياح له ، ونشاط ، واهتزاز (وفضله من باب فرح) . و « لولا » : حرف يدل على امتناع شيء لوجود غيره . وهي هنا داخلية على جملتين : اسمية ، فعلية ؛ لربط امتناع الثانية بوجود الأولى : أي ولولا الحلم موجود لأدركني الجهل ؛ فلم يوجد الحلم والمنتع الجهل . والحلم : الأناة ، والنقل ، والرزاق ، واليقار . وضدّ الجهل : وهو الخفة ، والسفة ، والخلقة ، والبطش . وأدركني : لحقني ، وأصابني ، وتمكّن مني . وعادوني : رجع إلى بعد الانصراف عن . وشرة الشباب : مرحه ، وخفته ، وسدّته ، ونشاطه . استقرّ بطنان مقام الشاعر ، وانتفض بمحمّوها وحساماتها ؛ فمادت إليه محمته ونشاطه ؛ فاهتزّ فرحاً =

فَرُحْتُ ، كَأَنِّي خَامَرْتَنِي سَبِيحَةً مِنَ الرَّاحِ ، مَن يَتَلَقَّى بِهَا الدَّهْرَ لَا يَتَسَلَوُ (٧)

= ويروراً . ولولا حلمه وعقله لاستغفقه الطرب ، وأصابه جهل الفتوة ، وعاد إليه ما كان له من صبوة الصبا ومرج القباب .

ومن هذا البيت انتقل الشاعر في ثمانية الأبيات الآتية إلى وصف الخمر ، وبيان آثارها ، وهيام نفوس شاربها بها .

وصلة هذا كله بالبيت الأول : أن الخمر ورشبه الطرب ، وأن الخمر تهز شاربها ، وتستغفقه ، فيبدو كن هذه الطرب واستغفقه .

(٢) الفاء في أول البيت : عاطفة . ورسيت : صرت . والرواح (في الأصل) : السير في الشيء . أو هو السير في وقت ما ، من ليل ، أو نهار . ومن الهجاز : راح للأمر ، يروح رواساً : أي اهتشى له ، واشتبه ، وطرب له ، وفرح به فرحاً شديداً ، وأغلقه من أجله خفةً ، وهزةً ، ونشاطاً . وشامرقني : خالطني ، ومازجت دى وجسى ، وظهر أثرها في حواسي وعقلي . ونفست الخمر خمرأً : لأنها تخامر عقل شاربها : أي تخالطه ، وتفسده . من قليم : « خامره اللداء » . أو لأنها تخمر العقل : أي تسره ، وتغلبه وتغيبه ، وتغفيه . أو لأنها تركت حتى اختمرت . وسبيحة : فميلة ، من سبأت الخمر : أي اشتربها لأشربها لا لأتجر فيها . والخمر المشتراة للشرب خير من الخمر المشتراة للتجارة . ومن كلامهم : « ما تُسبأ لكم الرّاح ، ولكن تُسبأ منكم الأرواح » . والراح : الخمر . ويطلق بها : (من باب طرب) : يتعلق ، ويتشبهت ، ويستمسك . . . والهر : الزمان الطويل ، والأمد المديد ، ومدة الحياة الدنيا . وسلوت الحبيب ، وسلوت عنه : نسيت ، وصبرت على فراقه . ومن يعلق بها لا يسلمها الدهر : أي ومن يشربها يعود شربها ويتعلق بها أبداً الدهر ، وطوال العمر ، فلا يكاد يسلمها ، أو يتخلّى عنها ، أو يصبر على فراقها .

وإذا كانت الفاء في أول البيت عاطفة ، وتفيد الترتيب مع التعقيب ، فالبيت متصل بالذي قبله ، مترتب عليه في تعقيب : أي بلا تراخ ، أو انفصال .

والمنى : أني طربت لرؤية « حلوان » ، واستقراري بها ، وانفصالي بمحباتها ، فزيت هذا كله : أي هشتت له ، وتملكني خفةً ، وهزةً ، ونشاطاً ، كأني غمور بخمر جيّدة ، من شربها اعتادها ، وتعلق بها ، واطلب عليها ، أبداً الدهر ، لا يستطيع على فراقها صبراً ، ولا يطيق عنها سلواناً .

أو هي « فرحت » ، كأني غمور وعلى هذا يكون البيتان متفصلين انفصالاً إعرابياً ؛ لأن البيت الأول أعلن طربه : أي شدة فرحه بالإقامة في « حلوان » . وقال : إن حلمه عصمه ، فبقى في دائرة الرزاة والبقار . ولولاه لأمانته شدة الفرح إلى الجهل والخفة ، وأعادت إليه شرة الصبا ، وطيش الشباب . وفي البيت الثاني قال : إن فرحه بالإقامة في حلوان اشتد به ، فبجسه كالخمور . . . وبدأ يصف الخمر وآثارها في هذا البيت وسبعة الأبيات التي تليه .

سَلِيلَةُ كَرَمٍ ، شَابَ فِي الْمَهْدِ رَأْسَهَا وَدَبَّ لَهَا نَسْلٌ ، وَمَا مَسَّهَا بَطْلٌ^(٣)
إِذَا وَلَجَتْ بَيْتَ الضَّمِيرِ ، رَأَيْتَهَا وَرَأَيْتَ الصَّدْرَ تَسْفُلُ ، أَوْ تَعْلُو^(٤)

(٣) سَلِيلَةُ : غير مبتدأ محذوف . والتقدير : هي : أي الراح سَلِيلَةُ كَرَمٍ . وسَلِيلَةُ : ابنة : مؤنث السليل : وهو الولد حين يخرج من بطن أمه . والكرم (يفتح فسكون) : العنب ، أو شجر العنب . والراح (أي الخمر) ابنة الكرم ؛ فن صير العنب أجود أنواعها . وشاب الرأس : ابيض شعره . والمهد : الفراش ، أو السرير ، مهد الطفل ، : أي يوطأ ، ويحيا ؛ لينام فيه . وشيبة رأس الخمر في المهد : كثاية من الحباب ، أو الزبد : أي الرغوة البيضاء التي تعلو الخمر ، وتطفو فوقها ، وهي في دنياها ، في الطور الأول من أطوار اغتيارها وتمتعها . ومن كلامهم : « طفا الحباب على الشراب » : وهو الفقاقع التي تعلو سطح الماء ونحوه . ويدب (من باب عرب) : شئ شياً رويداً : أي شيئاً ، هادئاً ، ورفيقاً ، ومنه دبيب الطفل الصغير . ولها : للخمر . والنسل : الولد ، والذرية . ونسل الخمر : ما يتصل منها ، متصركا في خلاها ، في أثناء تفاعلها ، واتحاد عناصرها وهي تختمر . ودبيبها : حركته الحية ، اليبنة ، الرقيقة ، الهادئة . وبطل المرأة : زويعها . وما مسها : أي لم يحسها ، أي لم يتصل بها . ومن الرجل زوجته : أي تفشأ لها ، وعالها .

في البيت الأول : أعلن الشاعر طربه ، لاستقراره بجلوان ، واستمتاعه بزيائها ، مع احتفاظه بعلمه ، ورزاقته ، وهيبته ، وقواره .

وفي البيت الثاني : شبه طربه بطرب الخمر ، واستطرد لوصف الخمر ، وبيان بعض آثارها ، وتعلق شاربها بها .

وفي هذا البيت : أشار إلى الطور الأول من أطوار تخميرها وتمتعها ؛ فالرغوة ، أو الزبد ، أو الحباب يطفو فوقها وهي تختمر ، كأنه الشيب يعم شعر الرأس . وفي جوفها حركات التفاعل الكيميائية . ومن هذا التفاعل اتصال كثير من جزئياتها ، وتحركها في خلاها ، كأنها تسلكها ، عشي على روده ، ويدب ديباً .

(٤) ولجت : دخلت : أي الخمر . والضمير : المضمَر : أي ما تضمرة في نفسك ، وتكتمه ، وتستره ، وتخفيه . ويراد بالضمير هنا : قلب شارب الخمر . أو باطنه ، وجوفه . وبیت الضمير : الضمير الشبيه بالبيت ؛ فهو من إضافة المشبه به إلى المشبه . ورأيتها : أحسست بها . وبنات الصدر : الحوم والأحزان . ومن كلامهم : « غلبنى بنات الصدر » : أي أرهقني هموم وأحزاني . و « أو » ها : بمعنى وأو اللطف . والخمر تسفل وتعلو وراء بنات الصدر : أي تمجش وتضطرب في جوف شاربها مطاردة بنات الصدر . والخمر - في زم شاربها وتخيلهم - تنهب همومهم ومتاعهم ، وتستهزم أحزانهم وأشجانهم . ولا غرو ؛ فإنها تهجم العقل ، وتخدع كل ما يتصل به من مراكز التفكير والتدبير ، =

كَأَنَّ لَهَا ضِعْفًا عَلَى الْقَلِّ كَأَمَّا فَإِنْ هِيَ حَلَّتْ مَنْزِلًا رَحَلَ الْقَلُّ (٥)
تُجَبَّرُ عَنْ سِرِّ الضَّمِيرِ بِالسُّكْرِ مِنَ السُّكْرِ مَقْرُونٍ بِصَحْحَتِهَا النَّقْلُ (٦)

= والإدراك والشعور، ولا ريب أن المصور يلبد الإحساس، فاعس الضمير، ميتت الوجدان، منقذ في الغلظة واللاهلي.

والمنى : أن الخمر - بجيشاتها واضطرابها في جوف شاربها - تطارد - فيما يزعم - أو يتخيل - هممه وأحزانه، وتبيس له جواً عادماً من الطمانينة والأريحية، والسرور والانشراح.

(٥) لها : للروح : أي الخمر. والفتن، والفتنة : الحقد الشديد، والاضطواء حل العداوة والبغضاء. وكان : مستتر، مضمر، مخفي، مكتوم. وحل المكان، وحل به (من باب قد) : نزل به. وحل : ارتحل، وذهب.

يقول : إن الخمر والقل لا يكادان يلتقيان، كأنهما عنوان متضادان ؛ فالخمر تفسر للقل أشد الحقد، وتظهر له كل الكراهية والبغضاء، فإن هي نزلت في جوف شاربها لم يسع العقل إلا أن يشد رحاله، ويعجل ترحاله.

(٦) جبر عما في نفسه : أعرب، وأظهر، وأفصح، وبين الكلام. وسر الضمير : ما يبالغ المرء في إخفائه وكفائه، ويحرص كل الحرص على إظهاره في نفسه من الأمور والأخبار وغيرها، والسر والضمير هنا كلمتان مترادفتان. والألسن : جميع اللسان. والسان ترجمان الجنان : والمعبر عما في ضمير الإنسان. وقد يراد بالألسن : العبارات والكلمات، والأخبار. و« من » هنا : لتطيل : أي بيان علتها والسبب : أي أن الخمر تسكر المصور، فيحمله السكر على إنشاء أسرار، وأفصح نفسه، وكشف ما اظلم عليه ضميره بمباريات وكلمات مقرون بصححها النقل : والسكر (بضم فسكون) : اسم من سكر (من باب طرب) : أي غاب وحيه. والسكران : ضد الصافي. ومقرون : اسم لمفعول من قرّن الشيء بالشيء : أي وصل به، وربط، وجمع. و« بصححها » : بصحة الألسن : أي بصدق ما ترويّه، وتخبر به. والنقل : مصدر نقلت الخبر أو الكلام عن صاحبه : أي رويته عنه، وأبلغته غيره. ومعنى « مقرون بصححها النقل » : أن ما تنقله الألسنة، وتخبر به وترويّه صحيح صريح، لا شك فيه. أو أن العبارات والأخبار التي يخبر بها السكران غيره متقولة من سرّه وضميره فلا يصحها سرياً لا ريب فيه. والمنى : أن الخمر تظهر أسرار المصور، وتحمله على إفشائها ؛ فهو يطلع عليها بمجاليه، أي كأنها في غير مواربه، أو التواء، أو انحراف، ولا تخرج، أو تصون، أو احتراش. إن السكران - بسبب سكره - ينقل إلى غيره فلا يصحها صحيحاً ما كان يحرص على كفه وإظهاره من الأسرار والأخبار قبل أن تمزق الخمر إزاره، ويهتك أستاره.

مُحِبَّةٌ لِلنَّفْسِ ، وَمَيَّ بَلَاؤُهَا كَمَا حُبِّبَتْ فِي قَتْلِهَا الْأَعْيُنُ النَّحْلُ^(٧)
 بِكَادٍ يَلُودُ اللَّيْثَ عَنْ مُسْتَقَرِّهِ إِذَا مَا تَحَسَّى كَأَسْهَأَ الْعَاجِزُ الْوَعْلُ^(٨)
 تَرَى لِحَوَائِبِهَا أَرْزِيًا ، كَأَنَّهَا غَلَايَا تَفَنَّتْ فِي جَوَانِبِهَا النَّحْلُ^(٩)

(٧) « محبة » : خبر مبتدأ محذوف . والتقدير : هي : أي الراح محبة للنفس . وبلاؤها : بلاد النفس . والبلاد : الهمة ، والفتنة ، والشر ، والمذاب . و « في » : ظرفية أي كما حبت الأعين النحل إلى الماشقين في حال فتكها بهم . أو هي بمعنى « مع » . واللتك (يفتح اللام . وضما ، وكسرهما) : مصدر فتك به (من باب ضرب ويقل) : أي قتله على غفلة . أو قتله بمجازة . والنحل : جمع نجلد : أي واسعة حسنا . فجلت العين (من باب فرح) : اتسعت في حسن .

واللهي : أن النمر محبة إلى نفوس مدنها . وهي - مع ولوجهم بها ، وحسبهم لها - شر لم ، وويل عليهم ، كبريت الحسان تفك بالمشاق ، وتصل إليهم بلا يا المشق ، وهومه ، ويم حل الرجم من هذا كله يستملونه ، ويهيئون بالمشقات ويهيئون ، كأنما يطلبون المزيد من المذاب والأوصاب .

(٨) يلود : يذبح ، ويلود . (وبابه قال) . وفاعله : ضير « الماجر » . واليئ : الأسد . ومستقره : عرينه ، ومأواه الذي يستقر فيه ، ويعطن . ويحصى الماء ويغيره : شربه شيئاً ، فشيئاً ، أو يجره بمد جرته . واليقل (يفتح فسكون) : الضميف الجبان : والئل الساقط . والمقصر في كل شيء . وجسه أو غال .

واللهي : أن النمر تجعل للضميف الجبان شجاعاً مقدماً .

ولذا البيت صلة بالبيت السادس ؛ فإن النمر تذهب بتصون السكران ويحفظ واحتراسه ، فيفيض إلى مجالسه بكل ما كان يحرص على كذاه من أسرار وأخبار ، ويؤتمد على الأنظار والمهاك ملاقبته أو تحوط ، فشجاعة هنا تهور وانفداع ، وهجومه على الأسد في عرينه من الأعمال الناجمة عن قلة الهي وضعف الإدراك .

(٩) يلاحظ أن الشاعر وضع « ترى » موضع « تسمع » ، فالأريز ونحوه من الأصوات يسمع ، ولا يرى . وتلويها : تلوي الراح : وهي النمر : جرس غابية : وهي الحب . أو الذقة . أو شهما من الأوبة والآلة التي تحفظ فيها النمر ، وتحتق . والأريز : نشيش القدر ، وصوت غليها . أرت القدر ، أو الغلية ، أو نوحها : تحرك ما فيها ، واضطرب وصوت من شدة الغليان . والغلايا : جمع الغلية (يوزن هدية وهدايا) : وهي بيت النحل الذي تسكنه ، وتأوي إليه ، وتكسل فيه . وتفتنى المفتى : غشى ، وطرب ، وترثم .

شبه ما يسمع من نشيش النمر وأريزها في ذنابها إبان غليها بغناء النحل في جوانب غلاياها . وفي النطر الثاني من هذا البيت وثلاثة أبيات بهذه استطراد لوصف النحل .

سَوَاكِنُ أَطَامَ ، زَفَتْهَا مَعَ الْفُصْحَى يَدَا عَامِلٍ يَشْتَارُ ، أَوْ خَابِطٍ يَفْلُو^(١٠)
 دَنَا ، ثُمَّ أَلْقَى النَّارَ بَيْنَ يَبُوتَيْهَا فَطَارَتْ شَعَاعًا ، لَا يَقِرُّ لَهَا رَحْلُ^(١١)
 مُرَوَّعَةٌ ، هِيَجَتْ ، فَضَلَّتْ سَبِيلَهَا فَسَارَتْ عَلَى الدُّنْيَا ، كَمَا انْتَشَرَ الرَّجُلُ^(١٢)

(١٠) سواكن : جمع ساكنة : اسم فاعل من سكنت الدار ونحوها . ويراد بالأطام هنا : خلایا النحل وبيوتها : جمع ألم (بضم فسكون، أو بضمين) : وهو في الأصل : الحصن . والبيت المرتفع . وزفئها : طردتها ، ودفئها . واستخففتها ، وشئت شملها . (وبابه رى) . ومع الفصحى : في وقت الفصحى : حين تشرق الشمس ، ويرتفع النهار ، ويمتد . والماسل : من يأخذ صمل النحل من خلایاها . وظله المشتار . اشتار : استخرج العمل من الخلية ، واجتثاه ، وجمعه . وخابط : اسم فاعل من غطت الشجرة بالخبط : أى ضربتها ، ليسقط ورقها . وغبط الباب : دقّه . وظلّه (من بابى عدا ، ورى) : غبطه ، وضربه .

في البيت السابق شبه أزيز الخمر في خوايها بصوت النحل في جوارب خلایاها .

وفي هذا البيت قال : إن هذه النحل المغنية المانحة كانت ساكنة مطمئنة في بيوتها ، فضاهاها عامل شتار ، أو خابط قال : فأزججها وأثارها ، وهاجها وطردا ، وفرق جمعا ، وشئت شملها . والبيتان الآتيان تأكيد ، وتفصيل ، وتمثيل لهذا المعنى .

(١١) دنا : قرب ، وتقدم . وبابه سما . وفاعله ضمير الماسل المشتار ، أو الخابط الغالى في البيت السابق . وطارت شعاعاً : طارت متفرقة منتشرة . وقرّ يقرّ (كيقرب ويعلم) : ثبت ، وسكن ، واستقرّ . والرحل : مسكن الإنسان ، وما يستصعبه من الأثاث . وكلّ شيء يدّ الرحيل ، من أوعية الأمتة وغيرها ، ورحل البعير : ما يوضع على ظهره لركوب الركاب ، كالسرج للفرس . وجمعه أرسل ، ورحال . ومن الهجاز : حطّ فلان رحله ، وألقى رحله : أى أقام . وعدم قرار رحل النحل : كناية عن تفرقها . وانزعاجها ، وانشارها ، فهو تكرار وتأكيد للمعنى « طارت شعاعاً » .

يقول : إن الماسل المشتار ، أو الخابط الغالى اقترّب من خلایا النحل ، ثم طرح بينها شمل النار ؛ فأقلعها ، وأزججها ، وشئت شملها ، فقحيت متفرقة ، وهامت على وجوهها ، لا تكوى على شيء .

وفي البيت الآتى تفصيل وتمثيل لهذا المعنى .

(١٢) مرّوعة : مفزعة ، مخوّفة ، منعورة . روّعة ترويساً : أفزعه ، وذعّره ، وخوّفته . مرّوعة (بالض) : خبر لجنداً مخدوف . أو مروعة بالنصب : حال من فاعل « طارت » : أى النحل في البيت السابق . =

فَبِتُّ أَدَارِي الْقَلْبَ بَعْضَ شُجُونِهِ وَأَزْجُرُ نَفْسِي أَنْ يُلِمَّ بِهَا الْهَزَلُ^(١٣)

ويجبت: أثريت. هاج القوم: ثاروا لمشقة، أو ضرر. وهاجهم: أثارهم يتعدى، ويلزم. (وبابه باع). وصلت سبلها: لم تمتد إلى طريقها. وصارت على الدنيا: هامت على وجوها، وذهبت كل مله، متعيرة، مضطربة، لا تدرى أين تتوجه. أو هي «ثارت» بالثاء: بمعنى «هوجت»، و«فرقت»، وانتشرت. والرجل (بكسر فسكون): الطائفة العظيمة من الجراد.

والبيت تكرار، وتأكيذ، وتفصيل، وتمثيل للمنى البيتين السابقين؛ فقد روعت النحل بزقير المشتار، أو الفالى، وفوجئت بشمل النار يلقيها بين بيوتها، فهاجت وماجت، وغاب عنها، واضطرب أمرها، وتشتت شملها، والتوت بها السبل، وهامت على وجوها، وانتشرت في كل ناحية انتشار الجراد.

(١٣) بات يفعل كذا: أى فعله ليلاً. وأدارى: أذاع. وأصله الهز. دراه: دفعه، وردّه. ودأراه، ودأراه: دافعه، وأبعده. و«بعض شجونه»: بدل اشتال من «القلب». والشجون: الهموم، والأحزان. مفرد شجن (بوزن أسد وأسود). ويراد بالشجون هنا: أشجان المشق. وهو المغم. ومن معانى الشجن: الحاجة الشاغلة، وهوى النفس. وقد يكون هذا المعنى هو المراد هنا. وزجره (من باب نصر): منه، وكفّه، ونهاه. ولمّ به يلمّ: حلّ به، ونزل. والهلز: الهزل، والضعف. (فعله من باب نصر) أو هو الهزل: بمعنى المزاج، واللبث. (وفعله من باب ضرب) وضدّه الجذ.

يقول: إنه سهر الليل يدرأ عن قلبه ما يساوره من الهموم والأحزان، ويكف نفسه عن الانطباع للوجه والشجن مخافة أن يصيبها للضعف والانكسار والهزال.

أو المعنى: أنه بات يذم عن قلبه ما عاينه من هوى قديم، ويزجر نفسه مخافة أن ترجع إلى ما اعتادته قبل هذا من هزل وبخالة.

أعلن الشاعر طريقه في البيت الأول من أبيات هذه القصيدة؛ إذ هزه فرحه وأزجأه خلوان وحماً ماها.

وفي البيت الثانى شبه سروره وفشوته بنشوة المغمور. واسطرد، فوصف الخمر وآثارها في ثمانية أبيات.

وفي البيت التاسع شبه أزيز الخمر في غولبها ببناء النحل حول خلاياها. ثم اسطرد، فوصف تقيّر حالها، وشحات شملها حيناً روعها عاسل مشتار، أو هاجها غايط خال.

ثم انتقل في هذا البيت والأبيات التالية إلى الفزل، أو التسيب، أو التشيب. ولعلّ الصلة بين هذا الفرض والفرض الذى قبله أن العاشق الصبّ المستهام يمانى من شحات الإمر، وانفراق الشمل، وأشجان القلب، والقلق، والانزعاج ما عاتته النحل من هذا كله حيناً روعها الغايط الفالى، أو أفزعها العاسل المشتار.

وَمَا كُنْتُ أَذْرِي - وَالشَّبَابُ مَطِيَّةٌ إِلَى الْجَهْلِ - أَنَّ الْعَشْقَ يَعْقِبُهُ الْخَبَلُ (١٥)
 رَمَى اللَّهُ هَاتِيكَ الْعُمِينَ بِمَا رَمَتْ وَحَاسِبَهَا حُسْبَانًا مَن حَكُمَهُ الْعَدْلُ (١٦)
 فَقَدْ تَرَكْنِي سَاهِيَّ الْعَقْلِ سَاهِرًا إِلَى الْغَى ، لَا عَقْدَ لَدَى ، وَلَا حُلَّ (١٧)

(١٤) أذرى : أعلم . والشباب : الفتاة ، والحفافة . والشاب من أدرك سن البلوغ ، ولم يصل إلى سن الرجولة : والمطية من الدواب : ما يمتطى ، ويركب . والجهل : الجفوة ، والفساد ، والخطأ . والعيش ، والترف ، والحسنة . وضده الخلم ، والعقل ، والأناة ، واليقار ، والفراسة ، والحياسة . ويعقبه : يتلفه ، ويحيط به ، ويأتى بعده . (وبابه نصر ، ويحل) . والخبل (بفتح فسكون ، أو بفتحة ، أو بضم فسكون) : الجنون ، فساد العقل ، والبله ، والهرج . وبثله الخبال . يقال : غلبه الحب ، أو الخون ، أو البهر ، أو الشيطان : أى أفسد عقله ، ونهب بغيره . (وبابه ضرب) .

والحنى : أن الفتان يحيطون نشاطهم إلى الجهل ، والخطأ ، والعيش ، والفسادة ، وما لا خير فيه من المهر والبيت ، والمزل والمجن . ومن الجهل وقوع الفتى فى مهادى الهوى والفرام . ولقد كان الشاعر يجهل قبل هذه التجربة المرة أن الشباب يقود الشباب إلى العشق ، وأن العاشق يستسلم بئس أمره إلى الهلاك والجنون .

(١٥) رى اضغاثى باليلها : أسلوب إنشائي غير طلي . الفرض منه هنا الدعاء على الميؤن التى تسميه . و « هاتيك » : « ها » : حرف تنبيه . و « ق » : اسم إشارة . والكاف : حرف خطاب . والمشار إليه « الميؤن » ويريد بها : عيون الحسان اللاتى أيقنته فى شرك الهوى والفرام . و « بما رمت » : جعل ما رمت به عشاقها من البهر ، والوصف ، والمتاعب ، والآلام .

فى البيت السابق قال : إن الشاب يعطى شيا به إلى الجهل ، وإن الجهل يقضه فى حبال الهوى والفرام ، فلا يزال يتقلب فى أوصافه وعبابه ، ويقاسى وساوسه وهيمه ، حتى ينتهى أمره إلى الخبال والجنون . ولقد كان يجهل هذه المواقف ، فلما كابدها ، وتجرع مرارتها ، واكتفى بنارها - أتجه بدعائه إلى الله تبارك وتعالى - فى هذا البيت - أن يحاسب الحسان المشغقات حساباً عادلاً ، ويرى عيون الجميلة مجمل . رمت به العاشقين من السهاد والوصف ، والمتاعب والآلام . وفى البيتين الآتين تفصيل لبعض ما أصابه من تلك الميؤن .

(١٦) تركنى : أى عيون الحسان ؟ فضايله ضمير يعود على « الميؤن » فى البيت السابق . وسأهى العقل : ذاهب العقل ، غمض القلب : اسم فاعل من سها فى الأمر ، وعن الأمر : أى غفل عنه ، ونسيه . وسها إليه : نظر إليه ساكن الطرف . والسادر : المتحير التائه . ومن كلامهم : « هو سادر فى النى » =

أَسِيرٌ ، وَمَا أَذْرَى إِلَى أَيْنَ يَنْتَهَى بَيْ السَّيْرِ ، لَكُنِّي تَلْفَغْنِي السَّبْلُ (١٧)
فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ هَوَايَ ، فَإِنِّي وَرَبِّكَ أَذْرَى كَيْفَ زَلْتُ بَيْ التَّغْلُ (١٨)

أى تائه . وه إلى هنا : معنى « فى » كما فى قول الله تبارك وتعالى : « الله لا إله إلا هو ، ليس بكم فى يوم القيامة ، لا ريب فيه . ومن أصدق من الله حديثاً ؟ » (الآية رقم ٨٧ من سورة النساء) : أى ليجتمعكم فى يوم القيامة . وكما فى قول النابغة الذبياني مخاطب النعمان بن المنذر ملك الحيرة :

فلا تتركى بالوحيد ، كأننى إلى الناس حلق به القار ، أجرب
أى فى الناس . والفى ، والنفاية : الخيبة ، والانهماك فى الجهل ، والإيمان فى الضلال . وضد الرش
والهداية . والمقد : مصدر عقدت الحبل ونحو (من باب ضرب) ، فالمقد : أى جعلت فيه عقدة . وضد
« الحل » : مصدر حلت العقدة : أى فتحها ، فأنزلت (وبابه رد) وه لا عقد لى ، ولا حل :

كناية عن عجزه ، وبغضه ، وقلة حيلته ، وهاب أمته ، وفقدان إرادته .
يقول : تركنى عين الحسان مشتركاً ، مخبولاً ، شارب للهن ، تائباً فى الضلال ، لا ثوابى حيلة .
ولا أجد وسيلة . وهذه بعض آثار المشي التى أشار إليها فى آخر البيت الرابع عشر .
وفى البيت الآتى تفصيل وتأكيده لبعض هذه المعاني .

(١٧) تلتفتنى : أصلها « تلتفتنى » ، ثم خلقت : إحدى التامين تخفيفاً ، مفارع تلتفتت الشيء :
أى تناولته بصره . والسبل (بوزن كعب) : جميع سبل : وهو الطريق . وسكنت الباء هنا لتخفيف ،
وضرورة وزن الشعر .

ينصف بعض آثار الإيمان ، وبسبب التعلل ، والتعلل : فالتوارع تلتفتته ، والطرقات تتناولها ،
فيسير فيها هائماً فى غير نوى ، وحل غير اهلى : لا يهتدى أين يخرجه ، ولا يكاد يعرف المسير بحدقاً ،
أو مقصداً .

(١٨) الهوى : الحب ، والبهش ، والغرام . وأذرى : لا أذرى ، ولا أعرف ، ولا أعلم . بتقدير
« لا » النافية : فإن الكلام يشير إليها ، ويدل عليها . ومن أمثلة حلفتها بتقديرها قول الله تبارك وتعالى :
« تائه تفتأ تذكر يوسف » : أى « لا تفتأ » : أى تذكر باستمرار . وقولنا أبهى القيس :

فقلت : عمن الله أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسى ليدىك وأوصالى
أى لا أبرح ، بتقدير « لا » النافية : أى سأمتم قاعداً . والمعروف أن حذف أداة التثنية جائز
سائق مطرد قبل أقوال الاستمرار ، كما مثلاً . ولعل سبب هذا الجواز أن التثنية فى مثل هذا مفهوم وإن لم
يذكر . وقد استفاد شاعرنا من هذه القاعدة ، فحذف الأداة : لأن التثنية مفهوم من السياق ، ولا يستقيم
المعنى بدونها . ولو كان المضارع الواقع فى جواب القسم مثنياً مستقبلاً لوجب توكيده وأقرانه بلام القسم

فَمَا حَيَّ إِلَّا أَنْ نَظَرْتُ فُجَاءَةً بِحُلْوَانٍ حَيْثُ أَنهَارٌ ، وَأَنْعَقَدَ الرَّمْلُ^(١٩)
إِلَى نِسْوَةٍ مِثْلِ الْجُمَانِ ، تَنَاسَقَتْ فَرَائِدُهُ حُسْنًا ، وَأَلْفَهُ الشَّمْلُ^(٢٠)
مِنْ الْمَاطِلَاتِ الْمَرْمَرَةِ مَا قَدْ وَعَدْتُهُ كِذَابًا ؛ فَلَا عَهْدَ لَهُنَّ ، وَلَا إِلَ^(٢١)

= وزلت قلمه (من باقى ضرب وتعجب) فى طين ويحوى: زلجت، وزلقت، وسقطت. والنمل: الحذاء ونحوه. وحى مؤنثة.

والمنى: لا تسألى عن عشق وفراى سؤال الماذل لللام؛ فقد وقعت فيه حل غيرة، ولم أدرك كيف أوثقتى حباله، وطوقتى أغلاله. والأبيات الآتية تفصل هذا المنى، وتوضحه، وتؤكد.

(١٩) «هى»: ضمير الشأن، أو الحال، أو القصة، أى فلم يكن شائى، أو حالى، أو قصة حيتى وفراى إلا أن نظرت. . . وفجأة: فجأة، وبفتة. وانهار: تفكك، وسقط. ومثله: انهاره وضده: انعده. وكان فى أرض حلوان رمال، منها المعتقد على هيئة كتابان وآكام، ومنها المنهار المنبسط فى أودية وسهول.

يقول: فلم تكن حالى، أو قصة ذلك المشرق إلا نظرة فجائية غير مقصودة، وقعت منى بمدينة حلوان على نسوة مثل الجمال. . . فكان الذى لولاه ما دوت هائماً. . . ويلاحظ أن هذا البيت متصل كل الاتصال بالأبيات الأربعة بعده، وأن الحال، أو القصة المعبر عنها بالضمير «هى» تكل فى البيت الثالث والمشرين يقول: «فكان الذى لولاه ما دوت هائماً».

(٢٠) «إلى نسوة» متعلق بـ «نظرت» فى البيت السابق. والجمان: الدر، أو اللؤلؤ، أو حبات تصاغ من الفضة على شكل اللؤلؤ. الواحدة جمانة. وتشبه بها المرأة فى البياض، والنقاء، والصفاء. وتناسقت الأشياء: انتظم بعضها إلى بعض. وفرائده: فرائد الجمال، أى وحداته، وجواهره: جمع فريدة. وهى الجوهرة النفيسة. وقد يراد بالفرائد: الحبات من القضة وغيرها، تفصل بين حبات اللؤلؤ أى الدر فى المقعد فى القلادة. وحسناً: أى حسنت حسناً. أو تناسقت من أجل الحسن: أى من أجل أن تكون حسنة. وألفه: ألف الجمال: أى جمعه، وظلمه، ورتبه، ونسقه. والشمل: اجتماع الأمر: أى اجتماع أمر هذا الجمال، واتلاف حباته.

وقع نظره فجأة، وبلا قصد على هؤلاء النسوة الجميلات الساحرات العين، فشبههن فى جمالهن، واجتماع شملهن، وانظلمهن. . . بمقدن لؤلؤ تناسقت وحداته، واتلفت فرائده، وتألقت، وتشابهت فى الحسن والبهاء، والرويق والرواء.

(٢١) «من»: بىانية. وما يبعها بيان للنسوة المشبهات بالجمال فى البيت السابق: أى نظرت إلى نسوة من الماطلات. . . أو هى التيميش. والماطلات: جمع ماطلة: اسم فاعل من مطل المدين الدائن.

تَكْتَفَنَ تِمْنَالًا مِّنَ الْحُسْنِ رَائِعًا يُجَنُّ جُنُونًا عِنْدَ رُؤْيَيْهِ الْعَقْلُ^(٢٢)
فَكَانَ الَّذِي لَوْلَاهُ مَا دُرْتُ هَائِمًا أَرُودُ الْفَيَافِي، لَا صَدِيقٌ، وَلَا خَلِيلٌ^(٢٣)

دينه، أو بدنه، ومطله حشّة، أو بحشّة: إذا سوطه بعد الوفاء، وأجلّه مرّة بعد أخرى. (وبابه نصر).
ويراد بالمرء هنا: المحبّ الماشق المسهام. و «ما»: اسم موصلي، بمعنى الذي: أي يطلن عاشقهنّ
الوعد الذي قد وعدته به. وكذا بأ: مصدر «كذب». ومثله الكذب. ووعدته كذاباً: وعدته وعداً
قائماً على الكذب، بعيداً عن الصدق والوفاء. والعهود: المؤثّق، والوفاء، ومثله «الإل». وفي القرآن الكريم:
«لا يربّيقن في مؤمن إلّا»، ولا ذمّة، وأولئك هم المحتلون. الآية رقم ٥ من سورة التوبة.
والمعي: أن هؤلاء الحسناء قد يحدن المشاق باللقاء والوصال، وهنّ يضررن الكذب والمغالاة، فلا
وفاء لهنّ، ولا سبيل إلينّ.

(٢٢) تَكْتَفَنَا فلاناً، واكتنفناه: استندنا حوله، وأحطنا به من كل جانب. والمتثال: الصورة
المصوّرة. أو هو ما تصنعه، أو تنتحه من نحاس أو حجر أو غيرها تشبّهه بخلق الله تعالى من
ذوات الروح والصورة، أو تحاكي به خلقاً من الطبيعة، أو تمثّل به معنى يكون التمثال رمزاً له.
و «من»: ببيانية: أي تمثالاً هو الحسن: أي يمثّل الحسن ويصوره. ورائعاً: باهرًا مجبياً: اسم
فاعل من راعى الشيء: أي أصبى. ورجنّ به ورجنّ منه: أعجب به إعجاباً شديداً، واستغفقه الإعجاب،
حتى صار كالمجنون.

يقول: إن هؤلاء النسوة الجميلات اللاتي وقع نظره عليهنّ فجماعة قد أحلن من كلّ جانب بفتاة منهنّ
باهرة الرواء، غاية في البهاء، كأنها تمثال الحسن، أجاد المتثال صناعته، وأحكم صياغته، فإذا رآها المرء
فُتِنَ فُتْنًا، ورجنّ رجْناً.

(٢٣) «كان» في أول البيت: تامة. ومنها: أو وجيد، أو حصل، أو وقع. وفاعله «الذي»: أي
فكان الحب أو العشق، أو الغرام الذي لولاه ما دار هائماً أي متحيراً في أمره، يسير على غير
هدى: اسم فاعل من «هام»: أي خرج على وجهه في الأرض، لا يدري أين يتوجّه. وهام في الأمر:
تحيّر فيه، واضطرب، وذهب كل منذهب. وراود الشيء يروده (من باب قال): طلبه، وأبتناه. أو
هو راود يروء رويداناً: أي جاء، وذهب، ودار بلا طمأنينة، أو استقرار. والكلام على تقدير «في»: أي
أتردّ في الفياق بجبة وذهاباً، في قلق، وسيرة، واضطراب. والفياق: القفلوات، والقنار،
والصحارى، والمفاوز لا ماء فيها، ولا سبيل. والواحدة فيفاء (يوزن حمراء). والخليل (بكسر الخاء
وتشديد اللام): الصديق المختصّ الوحيد. ومثله الخليل.

عشق الشاعر الفتاة التي أشار إليها في البيت السابق، وبلغ به العشق مداً، فنتدّه، وتروّنه، وهام على
وجهه في الفياق والقنارات، فريداً وحيداً، لا يكاد يجد خليلاً يزيل وحشته، أو صديقاً يخفف لوعته.

فَوَيْلٌ لَهَا مِنْ نَفْثَةِ مَضْرَجِيَّةٍ رُمِيتُ بِهَا مِنْ حَيْثُ وَاجَهَتْنِي الْأَثْلُ (٢٤)
 رُمِيتُ بِهَا وَالْقَلْبُ خِطُّوا مِنَ الْهَوَى فَمَا بَرَحْتُ حَتَّى اسْتَقَلَّ بِهِ شُغْلُ (٢٥)
 لَقَدْ عَلِقْتُ مَا لَيْسَ لِلنَّفْسِ دُونَهَا غَنَاءٌ وَلَا مِنْهَا لِذِي صَبَوَةٍ وَصَلُ (٢٦)

(٢٤) «وَيْلٌ لَهَا» : أصلها وَيْلُ لَأَسَها . ونظرة : تمييز للضمير المضاف إليه «ها» . ومعنى الويل : الشر ، والمذاب . هذا هو الأصل . ثم ركبوا هذه الكلمات ، وجعلوها كالشيء الواحد ، واستعملوها في التصحيب ، أو التضييع . فكانه قال : عجباً لها من نظرة . . . أو التضييع منها ، وأنويتم ، وأثأتم ، لأنها جنت على ، وأسأت إلى ، وسجلت لى بلایا العشق وأوصابه . ومضرجية : صفة لـ «نظرة» . ومنعناها صالحة صائبة ، نسبة إلى المضرج : وهو الصقر ، أو النسر الطويل الجناح . وشغل المضرجى : والمضرج والنسر من جوارح الطير التي تصيد غيرها ، وتقترنه ، وتقنقه به . وطول جناحه دليل قوته ، وشدة بأسه . ورميت بها : رميت بنظرة هذه الحسنة . من قولهم : رمى الصائد الصيد : أى أطلق عليه من الهام وأحياها . يصيده . و «حيث» : ظرف مكان ، يضاف إلى الجمل . وواجهتني : قابلتني ، من المواجهة : ومعنى أن تقابل بوجهك وجه غيره . والأثْل (يفتح فسكون) : نوع من الطفراء : وهو شجر طويل مستقيم يمسّر ، جيد الخشب ، كثير الأغصان ، متعلقها ، دقيق الورق طويله ، لا ثمر له . وواحدته أثلة . (يوزن حمرة وكمر) .

تجسيته نظرة الحسانم إليه واستهوته ، وأوقعت في شرك الحب ، وحبال البشر . ويبدو أنه لما نظر إلى النسوة نظرت العجائية إلى أشار إليها البيت التاسع عشر والعشرين صادفت نظرت إلهن نظرتها إليه ، فكافت الفتاة المولدة ، وكان ما كايده وضائاه من الوجد والهام ، والهو والفرام .

(٢٥) بها : بالنظرة المضرجية . والأور : أو الحالك . والجملعة الإسمية بهذا حالته . وشغل : خال ، فارغ . واستقل : مضى وذهب وارتحل . واستقل بالامر : تفرد به ، واستبد . وشغل (بضم فسكو ، أو بفتح فسكون ، أو بفتحتين) : قضيه أربع لغات . وهو ضد الفراغ .

أحب الشاعر هذه الحسنة ، وهام بها على إثر نظرتها إليه ، وكان قلبه قبلها فارغاً من الهوى ، فازالت به ، أو لم تكن تقاربه حتى استبد الحب بفؤاده ، وذهبت به شواغل الشوق ، وهوم الفرام .

(٢٦) علقت : هويت ، وأحببت . وقاعله : ضمير مستتر ، تقدير «هى» : أى نظرت إلى لاقته نظرتها لقاء غير مقصود ، ولكن هاتين النظرتين المتقابلتين أوقعتاه في أشراك الهوى ، وحبال الفرام . و «ما» هنا : اسم موصول بمعنى «التي» . ويلاحظ أن الشاعر وضع «ما» (وهى لتير الماقل) موضع «من» (وهى للماقل) . ولو قال : «لقد علقت من ليس للنفس دونه غناء» لاستقام له الوزن والقافية . على أن بعض العلماء يميز استعمال «ما» للماقل . و «دون» : بمعنى «غير» : أى =

فَتَاةٌ يَحَارُ الطَّرْفُ فِي قَسَمَاتِهَا لَهَا تَنْظَرُ مِنْ رَايِدِ الْعَيْنِ لَا يَخْلُو (٢٧)
لَطِيفَةٌ مُجَرَّى الرُّوحِ، لَوْ أَنَّهَا مَثَتْ عَلَى سَارِيَاتِ الدَّرِّ مَا آذَتْ الْجَمَلَ (٢٨)

ليس لنفس الماشق غناء بغير هذه المشقة ، أى أن نفسه لا تستغنى عنها ، ولا تسليها ، ولا تجد مهرباً على فراغها . وفناء : (يوزن سناء) : استغناء واكتفاء . والاسم الغنية (بضم فسكون) . والصبوة : الميل ، والحنين ، والشوق . وذو الصبوة : الماشق ، المحب ، المشتاق . وللوصل : ضد القطيعة . وقوله من باب وعد . ويكون في عفاف الحب ودعائه . « ولا منها لذي صبوة وصل » : أى ولا يربح منها وصل الحب الماشق المستهام .

لاقت نظرت إليها نظرتها إليه ؛ فَمَلَّحَتْهَا عَرَضاً ، من غير قصد ، ولكنه ما لبث أن هام بها ، ولم يجد ما يسليه ، أو يثنيه عنها . ثم رآها متشمة مترقبة ؛ فزادت بالهجران عذابه ، ولما عفت بالصندوق أوصابه .

(٢٧) « فتاة » : خبر لمبتدأ محذوف . والتقدير : « هي فتاة » . والطرف (يفتح فسكون) : البصر ، والنظر . وجيرته : أن ينظر إلى الشيء ، فينهر ، ويتردّد ، ويشتتى عليه . حار بصره يحار : نظر إلى شيء ، فغشي منه ضوءه ، فلم يقو على النظر إليه ، وارتدّ عنه . وقسماتها (يفتح السين وكسرها) : محاسنها وأحسبها قسمة (يفتح فكسر) . أو يفتح فكسر . ومنظرها : مفاتها ، وما يمتع بها ، ويسهولك إذا نظرت إليه . ورأيت : اسم فاعل من ردت الشيء (من باب قال) : أى طابقت ، وأتلفت . وراد المكان : ذهب فيه ، يبحث عن مرعى أو نحوه . ولا يخلو من رائد العين : أى لا يخلو من عين ترويه وتمويه ، وتبثيه ، وتسرح فيه ، وتتردّد إليه ، وتمكث عليه .

يقول : إن منظر هذه الفتاة بهيج جميل ، فائق سحر ، لا يكاد يخلو من عين تتسجّه إليه ، وتُشَبِّل عليه ، مفتونة بهجته وجمالها ، مسحورة بحسنه وروائه ، فحاسنها على الدوام تحير الأبصار ، وجمالها سراد الأنظار .

(٢٨) لطيفة : صفة من اللطافة : وهي الخفة ، والدقة . وضدّها الثقل ، والغلظ ، والفسخامة ، والكثافة . ويجرى النهر : مسيله : اسم مكان من جرى الماء ونحوه : أى انصبّ ، وسال . ويجرى الروح : كناية عن الجسم : أى الجسد ، أو البدن ، ولو أنها : لو أن المتغزل بها . والسارب : اسم فاعل من سرب (من باب دخل) : أى مضى ، وذهب ، وسار ، ومرّ ، وجرى . والذّر : صغار الخمل . الواحدة ذرة . وآدء الخمل (من باب قال) : أثقله ، وأجهده . والخمل (يفتح فسكون) : مصدر حملت الشيء (من باب ضرب) : أى رفعت ، وبهتت به . والخمل (يكسر فسكون ، أو يفتح فسكون) : اسم الشيء المحمول .

وصف جسمها بالخلّة واللطافة ، قالوا : لومشت هذه الحسنة على الساريات في الأرض من صغار

لَهَا نَظْرَةٌ سَكْرَى، إِذَا أَرَسَلَتْ بِهَا إِلَى كَيْدٍ ، قَالَوَيْلُ مِنْ ذَاكَ وَالْتَكَلُّ (٢٧)
 تُرِيْقُ دِمَاءَ حَرَمِ اللَّهِ سَفْكَهَا وَتَخْرُجُ مِنْهَا ، لَا قِصَاصَ ، وَلَا عَقْلَ (٢٨)
 لَنَا كُلُّ يَوْمٍ فِي مَوَاهِمَا مَصَارِعُ يَهِيْجُ الرَّدَى فِيهَا ، وَيَلْتَهِبُ الْقَتْلُ (٢٩)

= الخيل - لم تستغل حملها . وهذه مهالقة غير سائلة .

وقد يكون الوصف لروح الحساء ، فهي تجري جرياً لطيفاً خفيفاً ، وهي لا تفقد ساربات النر إذا مشت لوطها . وليس في هذا شيء من المغالاة .

ومعنى هذا أنه تريق في هذا البيت عن الصفات المادية أو الجسدية ، وتقول بغية من محاسنها الروحية أو النفسية .

ولا ريب أن المعنى الأول (خفة جسمها) أقرب وأرجح ، لأنه جار على المألوف ، بعيد عن التكلف ، ولا قيمة لقوله : « لو أنها مشت » على ساربات النر ما آده الحمل » إلا به .

(٢٩) لها : للحساء المتقول بها . ونظرة سكرى : نظرة فائرة ساكنة ، كأنها نائمة . والعرب تستحسن المتقول في عيون النساء ، وتقول به : قال ذو الرمة :

تَبَسُّنَ عَنْ نَوْرِ الْأَفْهَامِ فِي النَّوَى وَتَقْتَرِنُ مِنْ أَبْصَارِ مَفْرُوجَةٍ تُجْبِرُ
 وَأُرْسَلَتْ بِهَا إِلَى كَيْدِ الْمَاشِقِ وَجَهَّتْهَا إِلَى قَلْبِهِ وَالْوَيْلُ : الشر ، والمذابح . والتكفل (بضم فسكون) : امنيت والهلاك . ويزاد بالوَيْل والتكفل : ما يضاف به الصب المستهم من تباريح الوجد ، ولوعة الغرام .

(٣٠) تريق : تصب ، وتسيل . ولعاهه ضمير يمدح على « فتاة » في البيت السامع والشرين ، أو يمدح على « نظرة » في البيت السابق : أي تريق بنظرها دماء . . . وسفك الدم : إراقة ، وإسالة . وتخرج منها : تخرج من الدماء : أي من وزر سفكها ، وتبعات إراقتها . والقصاص (بكرس القاف) : أن يماثل الجاني بمثل ما جنى ، فيقتل القاتل . والمقل : الدية : وفي المال الذي يدفعه القاتل ، أو أهله إلى ولي المقتول أو ورثته تمويصاً من دمه . ومغلا البدل .

والمعنى : أن غرام العشاق بهذه الحساء يلوحهم ويضنيهم ، وأنها تضاعف لوجعهم وأوصابهم ، وتوردهم مراراً إلى الهلاك والنقص ، والظلمة ، والإحراق والجهنم . ومن عجيب أمرها أنها تخرج من هذه التبعات والأوزار كلها آمنة مطمئنة ، لا يؤخذ منها عدل ، ولا يقع عليها قصاص .

(٣١) في هواها : بسبب عشقتنا لها ، وغرامنا بها . ومصارع : جمع مصرع (بوزن مذهب) : اسم مكان ، أو مصدر ميمي من صرع (من باب منح) : أي طرحه على الأرض . وقد يزداد بالصرع : القتل . و« صرعهم ريب المنون » و « هذه مصارع القوم » . ويهيج : يشور ، ويشد . والردى : الهلاك . ويتهب : يشتد ، ويكثر . مستعار من التهاب النار : أي توقدها واشتعالها .

مَصَارِعُ شَوْقٍ، لَيْسَ يَجْرَى بِهَا دَمٌ وَتَرْمِي نَفُوسٌ لَا يَطِيرُ بِهَا نَبْلٌ (٣٢)
هَيِّقًا لَهَا نَفْسِي، هَلْ أَنْ ذُوْنَهَا فَوَارِسَ، لَا غُرْسَ الصَّمْصَاحِ، وَلَا هَزْلٌ (٣٣)

== يصف ما يلقاه عشاقها كل يوم؛ فإن هبامهم بها، وصدتها عنهم - يتركهم صرعى كأنما سقطوا في معارك هائلة طاحنة، يقتل فيها الخلدك، ويلتهب القتل.

(٣٢) مرمى: أسم مكان، أو مصدر ميمي من رمى عن القوس، ورمى عليها رمياً ورمية: أى أطلق سبيلها. ورمى الجسم عن القوس، أو رماء عليها: أى أطلقه منها. ورمى الصيد: أى أطلق عليه ما يصيده. وبه: بالمرى، أو بالرى. والنبل: السهام العربية. وبى مؤنثة: ولا واحد لها من لفظها. ويجمعها نبال. وواحدها سهم: وهو عود من خشب يسوى ويركب في طرفه نصل حاد طالع من الحديد الصلب. يرى به المحارب والمصادق ونحوهما عن القوس ويحويها.

والمنى: أن المصارع أتى ذكرها في البيت السابق ليست معارك تجرى فيها دماء الجرحى والقتل، وترى فيها النفوس بالسهم والنبال. وإنما هي مصارع شوق وفرام، ووجد وهيام، وكثيراً ما يصرع الشرق الواحد المستهام.

(٣٣) هزل الشيء هزلاً: فهو هزل: تيسر من غير مشقة، ولا عناء. ولها: السهانة المفضولة بها. و«هل» هنا: بمعنى «مع»، فهي تليد المصاحبة. وذوها فوارس: دون نفسي فريسان: أى يحميها ويحيط بها فريسان. و«دون»: ظرف مكان منصوب، بمعنى «قبل»: أى قبل أن يصل أعداؤى إلها فوارس يصدهونهم، ويحجزون بيني وبينهم. والفوارس: جمع فارس: وهو من يركب الخيل يخلق ومهارة، ويحسن استخدامها في الحروب وفيها. وفريسان الجيش: المحاربون على ظهور الخيل. وغيرهم: جمع أخروس: وهو الذي انقصد لسأله عن الكلام. وبن الهياز: سيف أخروس: أى لا صوت له. والصمغ: جمع صمغ: وهو الجانب. وصفح السيف: حفره. ويراد بالصمغ هنا: السوف، ووسائل أسلحة الحرب والقتال. ووزل (يضم فسكون): جمع أهزل: وهو من لا سلاح معه.

والمنى: أن هذه المشقة قد تيسرت، وسيطرت عليه، وتملكت نفسه بسلطان الحب، وسطوت الأفرام على الرزم من أنه عزيز أبى، منج قوي، حصن مسمى بمحاربين أشداء أقوياء، شجعان بسلام، وكافة مدبجين بأسلحة لها قيمة ووسائل، وفريسان من قومه أول قوة، وأول بأس شديد، وهو مع هذا كله يحمي محبوبته، ويرى أن تكون مفتوحة مسرورة بما ظفرت به في أسر وسهولة من قلب الحب وولائه، وإعجابه ووفائه. ويلاحظ أن الشاعر اختصر بقرينه، وأجاد بفرصتهم وشجاعتهم بشدة بأسهم، واعتادهم على الكفاح بالسلاح. ويغتر بهم فخر صني نفسه؛ لأنه منهم، وشأنهم شأنه. وقد يكون الصمغ في «ذوها» عائداً على «هزة» في البيت السابع والشرين: فهي بمنة محبة، في حراسة قوية شديدة. والآيات ٣٣ - ٥١ في مدح قومه وهم قومه، والآخر بمحامدكم وهي محامده.

في البيت الأول من أبيات هذه القصيدة أعلن الشاعر طرده، وشدة فرسه لما رأى «حلوان»، وانتفع بحمائلها، واستقر مقامها.

مِنَ الْقَوْمِ ضَرَبِي الْمَرَاقِبِ وَالطُّلَى إِذَا اسْتَنْتِ الْغَارَاتُ ، أَوْ فَعَرَ الْمَحَلَّ (٣٤)
إِذَا نَامَتِ الْأَضْغَانُ عَنْ وَتَرَاتِهَا فُقُوقِي قَوْمٌ لَا يَنَامُ لَهُمْ دَحَلُ (٣٥)

= وفي ثمانية الأبيات التي تليه انتقل إلى وصف الخمر ، وبيان آثارها ، وتعلق بقوس شاربها بها ، كأن نفسها اتصلت بنشوة الطرب وبهزته .

وفي البيت التاسع وثلاثة الأبيات بعده استطرذ لوصف التحل ومرجعها وفتانها حول خلاياها ، ثم انقلاب حالها ، وفتات شملها لما رُوِّحت وحيجت .

ومن هذا الغرض انتقل إلى الفزل ؛ فبسطه في واحد وعشرين بيتاً .

وهو هنا ، وفي الأبيات التالية إلى آخر القصيدة ينتقل من الفزل إلى الفخر بقومه ، والإشادة بمزاياهم ومناقبهم .

(٣٤) « من القوم » : بيان للفواوس في البيت السابق . وضرب : صيغة مبالغة ، تدل على كثرة الضرب ، وشدة ، وصفه ، والمراقيب : جمع عرقوب (بوزن مصفاير) : وهو من الإنسان ؛ وتر ، أو عصب غليظ غلفت كهي القدم ، وفوق القلب . ومن الدابة : ما يكون في رجلها بمنزلة الركبة في يدها . وكل ذي أربع عرقوباء في رجله ، وركبناه في يديه ومن عادة العرب أن يضربوا مراقيب الإبل ونحوها تمهيداً لبها . وقد يكون المعنى : أنهم يضربون عراقيب أعدائهم المهزبين أمامهم . والطل : الاعتاق : الواحدة طلّة ، (بوزن كلبية وكلمى) ، أو الواحدة طلّة . ومن كلامهم : يضربون الطلّ ، ويعلنون في الكلمى . واستنّت : نشطت ، واشتدت ، واتسمت . والغارات : جميع الغارة : وهي الخيل المدبرة المسرعة . والمجروح على العدو . والقوم يهجدون على غيرهم . وفتر فاه (كنع ، ونصر) : فتحه . وفتر الفم : انفتح . ومثله الفخر . والمحل (يفتح فسكون) : الجذب والشدة وانقطاع المطر ، ونيس الأرض من الكلا والنبات . ومثله (أى بوزنه ومعناه) القحل ، والقحط . وانفغار المحل : كناية عن اشتداد الجذب واتساعه .

يمدح قومه وفوارسهم بالشجاعة والكرم ؛ فهم يحملون على أعدائهم ، ويضربون أعناقهم إذا حصى الوطن ، واستمرت الحرب ، واشتدت الغارات . وهم يكثرون من عقر الإبل ونحوها لإطعام الجائع ، وإشباع المتأزم إذا أقحط الناس وأجدبوا . وفي البيت لث : ونشر غير مرتّب .

وقد يكون ضرب المراقيب : كناية عن تمهينهم لأعدائهم المهزبين أمامهم . وضرب الطل : ضرب أعناق الإبل ونحوها . أى ذبحها . وكل هذا يكون ألفاً والتشر مرتّباً .

(٣٥) الضغنان : جمع ضغن (بكسر فسكون) : وهو الحقد الشديد ، والاضطواء على الدواة والبغضاء . والوترات : جمع ورة (بوزن سبعة) : اسم مرة من وترت الرجل (من باب وعد) : أى أدرته بمكرهه ، أو قتلت حميمه ، فأودته منه . ومثلها الترة ، والوتر ، والكأر . والذسل : (يفتح) =

رِجَالٌ أُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَنَجَلَهُ فَقَوْلُهُمْ قَوْلٌ ، وَفَعْلُهُمْ فَعْلٌ (٣٧)
إِذَا غَضِبُوا رَدُّوا إِلَى الْأَفْقِ شَمْسَهُ وَسَالَ يَدْفَاعُ الْقَنَا الْحَزَنُ وَالسَّهْلُ (٣٨)

= فسكون : الضغينة ، والحقد ، والعداوة ، والبغضاء . وهو أيضا الثأر . ولا ينال لهم دخل : لا تنال عداوتهم لمن عاداهم ، ولا يسكت غضبهم حتى يستقيموا لأنفسهم منه . أو لا ينال ثأريهم ، ولا تبدأ ثورتهم إلا إذا أغلوا بثأريهم .

يقول : إذا حملت عداوات الناس ، وأهلوا الأعداء بثاراتهم - فإن قوى لا يبدأ لهم بال ، ولا يستقر لهم قرار حتى يدركوا الثرات ، ويقصروا عن جنى عليهم . وإدراك الثأر قصاص ، وعدل ، وقوة .

(٣٦) أولو بأس : ذوو بأس : أي أصحاب بأس . والبأس : القوة ، والشجاعة ، والإقدام في القتال ، والشدة في الحرب . والنجدة : الشجاعة في القتال ، والشدة ، والبأس ، والإقدام ، وسرعة الإغاثة .

ومعنى الشعر الثاني : أنه إذا كانت أقوال الناس وأعمالهم ناقصة أو تافهة ، فإن أموال قوى وأعمالهم تامة عظيمة ، ذات أثر وخطر . أو المعنى : أنهم لا يقولون ما لا يفعلون .

أو المعنى : أن قولهم يجمع كل صفات الفصاحة والنداد ، وأن فعلهم يجمع كل صفات القوة والإنجاز . كما تقول : « فلان رجل » : أي يجمع كل صفات الرجولة .

(٣٧) الأفق (يضم فسكون ، أو بضمين) : الناحية من نواحي الأرض أو السماء . وينتهي ما قرأه الذين من الأرض ، كأنما ألتقت عنده بالسماء . وردوا إلى الأفق شمس : أي جعلوا الشمس تعود غاربة إلى مصدنها في السماء : والمراد أنهم حجبوا ضياها بكثرة أسلحتهم ، وكثرة ما ينقذ في جور الممارك من قتلكهم وحشيتهم وطيارتهم ستابك غيلهم ، وحركات كرمهم وفترهم . والدفع : السيل العظيم الهائل ، ينفع بقوة وشدة ، وينفع ما يصادفه في طريقه ويكسحه . والقنا : الرياح . الواحدة قناة : وهي عصا مستوية ، أو عيد خشبي يسوى ، ويركب في طرفه ستان من الحديد الصلب ، يطن به المحارب عدوه ، فيهرسه ، أو يقتله . والطرف الذي فيه السنان هو رأس القناة أو الريح . وكانت القنات أو الرياح من أدوات الحرب والقتال في قديم الزمان . ودفع القنا : للقنا الشبيهة بالسيل الجارف ، في قوته ، وكثرة ، وزحمته ، وتوجه ، وشدة انفجاعه . والحزن (يفتح فسكون) : ما غلظ من الأرض وشحن . وهو غلاف السهل ، فيحزن الأرض : جبالها ، وهضابها ، وعقباتها ، وما غلظ وشحن منها . ويهبط : أوديتها ، وكل ما سهل ، ولان ، واقبسط منها .

يقول : إذا غضب قومه لشرفهم ، وثأروا غلبتهم - أجبوا ليران الحرب ؛ فحجبوا بيارها ودعائها ضياء الشمس ، وملائت رياحهم وأسلحتهم حزن الأرض ويهبطا ، كأنها السيل العظيم الجارف ، المتعرج المتعرج .

مَسَايِيرُ حَرْبٍ ، لَا يَخَافُونَ ذِلَّةً أَلَا إِنَّ تَهْيَابَ الْحُرُوبِ هُوَ الذِّلَّةُ^(٣٨)
 إِذَا أَطْرَقُوا أَنْصَرَّتْ بِالْقَوْمِ خِيفَةٌ لِأَطْرَاقِهِمْ ، أَوْ بَيْنُوا رَكْدَ الْحَصْلِ^(٣٩)
 وَإِنْ زَلَّتِ الْأَقْدَامُ فِي دَرْكِ غَايَةٍ تَحَارِبُهَا الْأَلْبَابُ كَانَتْ لَهَا الْحَصْلُ^(٤٠)

(٣٨) مسابير : جمع سمار (بوزن مفتاح) : وهو عود من حديد ، أو خشب تحرك به النار؛ لتحميها ، ويؤدد لها . اسم آلة من سمرت النار (من باب قطع) : أي أوقتها . وألحيتها . وقومه مسابير حرب : أي يقسمون على الحرب ، فيؤسسون نازها ، ولا يخشون بأسها . والذلة : الضعف ، والخسوع ، والحران . ومثله الذل ، والذللة . و «ألا» : حرف استفتاح : أي أداة تبدأ بها الجملة . وتفيد هنا التنبيه ، وتدل على تحقيق ما بعدها . وتبياب : احتياب ، وخشية ، وحذر ، وخوف .

والغنى : أن قومه لا يهتدون الحرب في سبيل الفداح عن الحق والشرف ، والحفاظ على المروءة والكرامة ، بل يقدمون عليها ، ويقبلون نازها في حماسة وشجاعة ، وقوة وإقدام ، وبأس شديد ؛ فإن النصر والنظر والغلبة لمن ركب الأموال والأخطار ، وشاغس المامع والبقاع ، وانفأ بالنصر ، مطمئناً إليه . والحزيمة والذل والحران لمن تهب الحروب ، وأحسم عنها ، وعشى مفهياً .

ولا ريب أن الأمة التي تستكين لعدوها ، وتؤثر الملاينة والمهادنة ، وتجنح للراحة والدمية ، وتعشى القتال والنزال — تفرط كل التفریط في عزها وكرامتها ، وتقع في مهاوى الذل والضعف ، والعبدية والحران . (٣٩) أطرق إطرأ : أمال رأسه إلى صدره ، وسكت ، فلم يتكلم ، وأرشي عينيه ينظر إلى الأرض ، كالمفكر المتهتم . وخيفة : خشية : مصدر خاف . ومثله الخوف ، والخافة . وبينوا : تكلما : من التبيين ، وهو الكلام ، والإفصاح ، والبيان ، والإيضاح . وركامن (باب قمد) : هدا ، وسكن ، وثبت . والحفل : الحشد ، وجماعة الناس .

يصف قومه بالمباهلة والخلال ، ساكتين ، ومتكلمين ؛ فإذا أطرقوا عشى الناس حاقبة هذا الإطرأ ، وأرجسوا منه خيفة ، وأقلقهم ما قد ينطوي عليه من كوارث . وإذا تكلما سكن الناس ، واستمعوا لقرمهم ، وسكت كل متكلم سواهم احتياياً لم وإجلا .

(٤٠) ذلة في ملين وضوء (من بابي ضرب وتمب) : سقط . ومثله ذلق ، وزلج . ودرك : اسم من أدركت الشيء إدراكاً : أي لحقته ، وبلغته ، ووصلت إليه ، ونظرت به . وغاية كل شيء : نهايته . وآخره . ويراد بالغايات هنا : المقاصد البعيدة ، والمطالب الصعبة . وتحار : تتحير ، وتدعش ، وتفشل . وها : بالغاية : أي بسببها . أو في سببها . إنراكها ، والنظر بها . والألباب : العقول . مفردها لب . وكان لها : كان لم : أي لرجال قومه الذين يعدسونهم ، ويفخرهم ؛ فالرجال جمع تكسير ، ويجوز أن =

أُولَئِكَ قَوْمِي ، أَيَّ قَوْمٍ وَعَدَّةٌ فَلَا رَيْعُهُمْ مَحَلٌّ ، وَلَا مَاؤُهُمْ ضَحَلٌ^(٤١)
يَفِيضُونَ بِالْمَعْرُوفِ فَيُضَا ، فَلَيْسَ فِي عَطَائِهِمْ وَعْدٌ ، وَلَا بَعْدُهُ مَطْلٌ^(٤٢)

= يكون ضميره مفرداً مؤنثاً . تقول: الرجال لها جَلَدٌ على القتال: كما تقول: لهم جَلَدٌ . والحصل (بفتح فسكون) : الخطر : أى نصب السبق . أو الناية . أو الأمد . أو المرى . أو الهدف الذى يخطر عليه المتخاصمون : أى يترامى عليه المتحاربون : وهم المتراهنون فى النضال والمراعاة .
يقول : إذا زلت أقدام الناس: أى تمهروا وكثروا فى إدراك غاية من الغايات البعيدة التى تحير الألباب .
وتُضِلُّ العقول - كان لقوى الفوز بها ، والسبق إليها ، والاستيلاء عليها .

يمدحهم بأنهم يدركون بزيادهم ، وقوة ألبابهم ، ووجاعة عقولهم ما يميز غيرهم عن إدراكه من الغايات البعيدة ، والمقاصد الخفية ، والمطالب الصعبة .

(٤١) « أى » فى مثل هذا المقام : تدلّ على معنى الكمال ، وتقع صفة النكرة ، وحالاً للمعرفة .
والمنحى : أن قويّة قومه تامة كاملة ، مبرّة من الخلل ، أو الضعف ، أو النقص ، أو العيب ...
والعدة : ما أعدته حوادث الدهر من المال ، والصلاح ، وغيرها . والريع : المنزل . ويحل (بفتح فسكون) :
ما حل ، جديب ، لا خير فيه . والمحل : الشدة ، والجذب ، واحتباس المطر ، وتحول الأرض ،
ويبسها ، وعجزها عن الإنبات . وضده الحصب . وماء ضحل (بفتح فسكون) : قليل على الأرض ، لا عمق له . ومن كلامهم : « بلدكم محل ، وماؤكم ضحل » .

يشير إلى قومه ، معتزاً بصلته بهم ، مفتخراً بانتسابه إليهم ؛ فقويتهم كاملة تامة ، ويتأدهم كثير موفور ، ووطنهم عزيز منيع ، وواهبهم غصيب سريع .

(٤٢) فاض الماء (من باب باع) : أى كثر حتى سأل على ضفة الوادى . ومن المجاز : « ريل فيّاس » : أى سخيّ ، كريم ، جواد ، مطّاء . ويفيضون بالمعروف : أى معروفهم كثير فيّاس عامّ ، شامل ، واسع . أو هو مضارع أفاض بالشيء : أى دفع به ورماه . وفى القرآن الكريم : « نادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء » . وأفاضوا بمعرفهم : دفعوا به إلى المتفتن فى كثرة وسفاه . والمعروف : الخير ، والبر ، والإحسان . والمطّاء : ما يعلو ، ويمنح ، ويهب ، ويصحه أغطية .
وجمع الأغطية أغطيات . ووعده الأمر ، ووعده به وعداً ، وعدة مثاه به . وليس فى عطائهم وعد : أى عطائهم كلّها ناجز ، غير موعود . وإذا كان كلّها ناجزاً ، مقضيّاً ، محبلاً ، نافلاً ، تاماً ، فلا يتصور أن يكون بعده مطل : أى تأخير ، أو تسويف : مصدر مغلته حقّه وبجته : أى أجّلت موعد النفاذ به مرة بعد أخرى ، وبطله ماطله مطالاً ، وبماطلة .

يمدحهم بكثرة البرّ والخير ، ويضاهي معرفهم وإحسانهم ، وأن أغطياتهم تامة منجزة ، وبرهم نافذ مجتّل ، فلا وعد ، ولا تسويف ، ولا مطال .

فَرَزُهُمْ تَجِدَ مَعْرُوفَهُمْ دَانِي الْجَنَى عَلَيْكَ، وَبَابَ الْحَيْرِ لَيْسَ لَهُ قَوْلٌ (١٣)
تَرَى كُلَّ مُشْبُوبِ الْحِمِيَّةِ ، لَمْ يَمَسْ لَكَ فِتْنَةٌ إِلَّا وَطَائِرُهُ يَغْلُو (١٤)
بَعِيدُ الْهَوَى ، لَا يَغْلِبُ الظَّنُّ رَأْيَهُ وَلَا يَتَهَادَى بَيْنَ تَسْرَاعِهِ الْمَهْلُ (١٥)

== أو الحى : أنهم يُغَيِّضُونَ على غيرهم بالبر والخير ، وأنهم يبدون الناس بالمعطاء ، وإذا وعدهم أنجزوا ، ولم يُخْلَفُوا .

والبارودى هنا ينظر إلى قول أبي الطيب المتننى :

واجتر الأمير الذى نماء سابقة بغير وعد ، ونعمى للناس أقوال

(١٣) دانى : قريب . والجنى : كل ما يجنى من ثمار الأشجار : أى يجنى ، ويقطف ، ويلتقط ويجمع . وفى القرآن الكريم : « وبنى الجنتين دان » . الواحدة جنة (بوزن حصاة وحصى) .

والجنى أيضاً : مصدر جنى الثمر ونحوه (من باب رى) : أى تناوله من شجرة . ومعروفهم دانى الحى : أى خيرهم ميسر ، سهل ، قريب لمن أراد اجتنابه .

يقول : إذا زرت قوى وجدت معروفهم دانياً ، وبرزهم قريباً ، تجتنبه فى يسر وسهولة . كما تجد لديهم أبواب الخير والإحسان مفتحة لكل إنسان . وهو تكرر وتأكيد للحى البيت السابق .

(١٤) مشبوب : اسم مفعول ، بمعنى متوقد . شبيب النار (من باب رد) : أى أوقدتها ، وأذكيها ، ودفعها . والحمية : الألفة ، والنخوة ، والمروءة ، والحماسة ، والترفع عن الدنيا ، والاستتكان من التناقض ، والحفاظ على الحرمات ، وإتقاء التهم والشبهات . وفئة : فرقة ، وطائفة ، وجماعة من الناس . وطائر الإنسان : عمله ، وحظه من الخير والشر . وفى القرآن الكريم . « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه » : أى عمله الذى طار عنه ، من خير ، أو شر .

يمنع كل رجل من قومه بالحماسة ، والمروءة ، والنخوة ، والحمية العالية القويمة ، وأنه كلما سار إلى طائفة من أعدائه محارباً ، ظهر فى القتال عمله ، وعظم من النصر حظه ، وطار فى الناس صيته ، وارتفعت بينهم مكانته .

(١٥) بعيد : نمت لمشبوب الحمية فى البيت السابق : أى ترى فى قوى كل مشبوب الحمية ، بعيد الهوى . أو هو حال ، أو خبر لمبتدأ محذوف . والتقدير : هو بعيد الهوى . والهوى : مصدر هو الإنسان التيه (كرضيه) : أى أحبه ، وتعلق به . والهوى : إرادة النفس . والهوى : التيه المهوى : أى المراد المحبوب ، والمرغوب المألوف . ومعنى « بعيد الهوى » : أنه طموح ، بعيد الهمة ، تتلصق نفسه بممالى الأمور ، وترتاد المفاصل الرقيقة النبيلة ، وترفع عن الدانى القريب ، وتتأفف الحقيق . والظن : أن يدرك ذهن الشئ ، مع ترجيحه ، بغير يقين . وجمعه ظنون . والرأى : الاعتقاد ، والعقل ، والتدبير ، والبصيرة ، والحدق بالأمور . وجمعه آراء . ومعنى « لا يغلب الظن رأيه » : أنه يرى الرأى واضحاً ، قاطعاً ، صريحاً ، لا لبس فيه ، =

تَصِيحُ الْقَنَا مِمَّا يَدُقُّ صُدُورَهَا طِعَانًا ، وَيَشْكُو فِعْلَ سَاعِدِهِ النَّصْلُ (٤٦)
إِذَا صَالَ رَوَى السَّيْفُ حَرَّ غَلِيلِهِ وَإِنْ قَالَ أَوْرَى زَنْدَهُ الْمَنْطِقُ الْفَصْلُ (٤٧)

فيستيقنه ، ولا يساوره فيه ظن ، أو شك ، أو تردد ، أو ارتياب . ويتهادى . يتأبل في مشيته ، ويتباطأ . ويتمهل . والتصرع : مصدر بمعنى السرعة ، أو الإسراع ، ويفيد مع هذا المبالغة والتكثير . والمهل (يفتح فمكون) : التثنية ، والتباطؤ .

ومعنى الشطر الثاني : أنه يسارع إلى مقاصده المالية ، وغاياته البعيدة في جدّ وصرامة ، ونشاط ، وسرعة فائقة محمودة ، لا يعيقها ، أو يثقلها تباطؤ ، أو تردد ، أو إحجام .

في البيت السابق مدح رجال قومه بالحمية المشجوبة ، واقتراح سيراتهم كلّها بالنصر والظبة ، وإصابة الأهداف ، وتحقيق الآمال .

وفي هذا البيت أشاد بطموحهم ، وبمدحهم ، وتطّقتهم بالرفيع العالي من المقاصد والمطامع ، يسارعون إليها في غير تردد ، أو تباطؤ ، أو إحجام . وهم يمتازون إلى هذا كلّها بإجادة التدبير ، والخلق في التفكير ، فالواحد منهم يرى الرأي — بقوة بصيرته — واضحاً ، قاطعاً ، صريحاً ، فيستيقنه ، ولا يساوره فيه ظنّ أو شك ، أو ارتياب .

(٤٦) تصيح : تصوّت في قوة . من صياح الديك ونحوه : وهو صوته القويّ الشديد ، الرفيع العالي . (وفعله من باب باع) . والقنا : الرماح . الواحدة قنّاة . و « ما » المتصلة بـ « من » الحارّة : حرف مصدرى يؤوّل مع الفعل الذي بعده بمصدر مجرور بمن : أي تصيح القنا من دقّ صدورهما . وفاعل « يدقّ » ضمير تقديره « هو » ، يعود على « مشيوب الحمية » في البيت الرابع والأربعين . يدقّ الشيء (من باب ردّ) : كسره ، أو ضربه بقوة فنهشمه . وصدر كلّ شيء : مقدّمه . وصدر القنا : عوليا . جمع عالية : وهي الجزء الذي يعلو السنان من القنّاة . وطمع بالربح ونحوه : ضربه بسنانه ، ونزعه ، وأصابه . والطمعان : المطامعة : مصدر طامعه : أي طعن كلّ منهما الآخر . والساعد (من الإنسان) : ما بين مرفقه وكفه . وهو مذكّر . والنصل : حديدة الرمح والسكين ونحوهما . وهي التي تجرح وتقتل . وجمعه نصال ، ونصول .

يلج الرجل من قومه بأنه محارب طعان ضراب ، شديد البأس ، قويّ المراس . ويصوّر هذه القوة بأن القنا والرماح في يده تصيح بأعلى صوتها وهو يطاعن بها ، ويدقّ عوليا في صدور أعدائه ، وأن النصال والأسنّة تشكو قوة ساعده ، وشدة بطشه ، ولا تكاد تستريح من حركات يديه . وقد أسلفنا أنه من السادة الناجين في قومه ، وأن مزايام مزاياده ، وفضائلهم فضائله ، فهو يمدحهم ، ويديحهم لم يفتخر بنفسه .

(٤٧) صال : وثب للقتال . وصال المحارب على علوة : سطا عليه ، وهجم ليقتهره ، ويفتلك به . (وبابه قال) . وفاعله ضمير « مشيوب الحمية » . ورواه تروية : أزال عطشه بالماء ، أو القرباب المرويّ =

لَهُ بَيْنَ مَجْرَى الْقَوْلِ آيَاتُ حِكْمِهِ يَدُورُ عَلَى آدَابِهَا الْجِدُّ وَالْهَزْلُ (٤٨)

والحرّ : الحرارة . والقليل : القليل الشديد . والتليل أيضاً : القيط . والزند : المود الأعلى الذي تقدح به النار . والزندة : المود الأسفل الذي فيه القرصة ، أى القرعة ، أو الثقب . وهما زندان إذا ضرب أحدهما بالأخر خرج من بينهما شرار تقتلح به النار : أى توقد ، وتشعل . وأوريت الزند : ضربت به الزندة ، فأخرجت الشرار والنار . والمنطق الفصل : القول السيد ، الصائب البليغ ، يفصل بين الحق والباطل ، أو يفصل خلاف المتخالفين ، ويحسم خصومة المتخاصمين . وأورى المنطق الفصل زنده : أى أظهر قوله السيد مزيمته وفضله .

يقول : إذا هم الرجل منا على المحاربين من أعدائه — سفك بسيفه دماهم ، وأورى بهذه الدماء حرارة تنطفئ إليها . أو شئ بسفكها عداوته وغيظه . وإذا تكلم في محفل أظهر مستطاعه الخوض الواسع ، وقوله السيد الفاضل ، وبيانه البليغ الساحر ما يمتاز به من رجاحة العقل ، وسداد الرأي ، وملاحة اللسان ، وسحر البيان ، وقوة الحجّة والبرهان . . . فحسم الخلاف ، وأزال الخصومات ، وحلّ المشكلات ، وجمع الناس على السداد والرشاد .

والبيت الآتي تفصيل وتأكيده لمضى الشطر الثاني من هذا البيت .

(٤٨) له : لـ « مشيوب الحميمه » في البيت الرابع والأربعين . والمجرى (في الأصل) : اسم مكان من جرى الماء ونحوه : أى سالك ، وانصب ، واندفغ ، ومرّ سريعاً . وبين مجرى قوله : في أثناء كلامه . أو فيما يجري به كلامه . والآيات : جمع آية : وهى العلامة الظاهرة ، والأماره ، والعبرة ، والمعجزة . والآية من القرآن الكريم : الجملة منه . أو الكلام ينفصل من غيره بفصل لفظي . أو العبارة يحسن السكوت في نهايتها ، وتدلّ على حكم من أحكام الله تبارك وتعالى . والحكمة : البدل ، والعلم ، والتفقه ، والحلم . والقول السيد الوجيز الرائع الذي يفيد أدباً ، أو حكمة ، ويتضمن حكماً صحيحاً مسلماً ، ويمنع ما لا ينبغي . أو الكلام الذي يقلّ لفظه ، ويجلّ معناه ، ويجمعها حكم (بوزن منحة ونبح) . وآيات حكمة : أمارات وعلامات تدلّ على أن قائلها من الحكماء . أو معجزات بديهيّة ، وعبر وعظات تتصل بالحكمة . أو حكم بالغايات كأنها مقتبسة من آى الذكر الحكيم . والآداب : جميع الأدب : وهو رياضة النفس بالتعليم والتهديب على ما ينبغي . أو هو الجليل من النظم والنثر . وآداب الحكمة : الآداب التي قلّترم الحكمة ، وتدعو إليها ، وتحض عليها ، وتدور حولها ، وتجرى في نطاقتها . والزل : الخزل . وفده الحد

ومضى الشطر الثاني : أن جدّه وهزله يجرىان في فطاق الحكمة ، ويلتزمان آدابها . وليس بمستغرب أن يمدح المرء بالتمازج الحكمة في جدّه وهزله ؛ فقد كان النبي — صلى الله عليه وسلم — يمزح ولا يقول إلا حقاً .

يقول : يتكلم الرجل منا ، فينطلق لسانه بالحكمة وفصل الخطاب . ولا يكاد يفارق الحكمة جاداً ، أو هازلاً ؛ فجدّه وهزله يجرىان في فطاقها ، ويلتزمان آدابها .

تَلُوْحُ عَلَيْهِ مِنْ أَبِيهِ وَجَسَدُهُ مَخَايِلُ سَاوَى بَيْنَهَا الْفَرْخُ وَالْأَصْلُ^(٥٩)
فَأَشْبَيْنَا فِي مُلْتَمَى الْخَيْلِ أَمْرَدٌ وَأَمْرَدُنَا فِي كُلِّ مُعْصِلَةٍ كَهْلٌ^(٦٠)
لَنَا الْفَضْلُ فِيمَا قَدْ مَضَى ، وَهُوَ قَائِمٌ لَدَيْنَا ، وَفِيمَا بَعْدَ ذَلِكَ لَنَا الْفَضْلُ^(٦١)

(٥٩) تلوح : تبدو ، وتظهر . و. عليه : عل « كل مشبوب الحمية » في البيت الرابع والأربعين . ومخايل : مشابه ، وآيات ، وعلامات . والمرد : مخايل مجد ونجابة . ومن كلامهم : « فلهوت فيه مخايل النجابة » : أى دلائلها ، وسطحاتها . الواحدة مخيلة (بوزن مكيدة ومكايد) . وسوى بينها : سوى بين المخايل : أى جعلها متساوية ، متأللة . ويراد بالفرخ : الأولاد ، والحفدة . ويراد بالأصل : الآباء ، والأجداد .

والمعنى : أنك ترى في الرجل منا مخايل فضل ونجابة ، وأمارة قبل وبجادة ، ورثها عن أبيه وجدّه ، وأورثها أولاده وحفدته ، وهي متساوية متأللة في أصولنا وفروعنا .

(٥٠) أشبينا : الشائب منا : وهو الشيخ إذا طعن في السنّ ، وابيض شعره . والخيل : جماعة الأفراس . لا واحد لها من لفظها ، وإنشأ المفرد فرس . وقد تطلق الخيل على الفرسان (بضم الفاء) : جمع فارس . وهو الخائف الماهر في ركوب الخيل واستخدامها . وملتقى الخيل : ساحات القتال ، وميادين الحرب والنزاع . والأمرد الشاب الذي طرّ شاربه : أى نبت ، ولم تنبت لحية . والمعضلة : المشكلة الصعبة ، لا يحصى لوجهها . من أعضل الأمر : أى اشتدّ ، وصعب ، واستغلق ، وبني وجه صوابه . والكهل : من جاوز الثلاثين إلى نحو الخمسين ، ويخطه الشيب ، أى خالطه ، ورأيت له بجاجة ، أى عظمة وقاراً .

والمعنى : أنك ترى الأشيب منا في معامع القتال ، وساحات النزاع كالشباب في نشاطه ، وقوته ، وحماسة ، وشجاعته ، وشدة بأسه ، وقوة مراسه .

وترى الشاب منا حلاًّ للمعضلات ، هادياً لأروجه المشكلات ، كأنه الشيخ حنكته التجارب ، وحلب الدهر أظفاره .

(٥١) الفضل : والتفضيلة : الخير ، والبرّ ، والدرجة الرقيقة في حسن الخلق . وضدّها النقص ، والنقصية . واعتباره بالفضل هنا : الاعتزاز بالسبق ، والتفوق ، والمجاهدة ، والمنافسة ، والفضائل ، والمكرمات التي ترفع أصحابها إلى مراتب التمجيد والتعجيد . وهو : أى الفضل . وقائم : ظاهر ، مستقرّ ، دائم ثابت . ولدينا : عندنا .

يقول : كان الفضل من شيم الماضين من آباءنا وأجدادنا ، وهو قائم مستقرّ في الحاضرين منا ، وسيبقى ملازماً للأئمة من أولادنا وحفدتنا .

والخلاصة أنهم أصحاب فضل تالد وطريف ، وأن الفضل ياق لم على مدى الزمان . وبهذا البيت ختم الشاعر هذه القصيدة العلوية . وتخصّ به تسعة عشر بيتاً نظمها في مدح قومه والفرخ بهم .

وقبل هذا الغرض أطرته لإثامته مجلوكان، ثم وصف الخمر، وتعلق شاربها بها. ثم استطرد لوصف النحل لكنه أكتفه مغنيته بحججته الشمل، ثم منزجته مشتهة لا يقر لها قرار. ثم انتقل إلى الغزل، أو النسيب، أو الشيبب في واحد وعشرين بيتاً.

تلخیص و تعلیق

في تسعة الأبيات الأولى من هذه القصيدة الطويلة : أن الطرب هو ، فراح كالخمر ، ويسيل يصف
الخمر ، ويبين آثارها . وفي الأبيات (٩-١٢) استعمل لوصف النحل ، روعاً مروح ، فهاج ساكنها
وعلا أزريها . ثم انتقل إلى التشبيه بفداة حلوان في الأبيات (١٣-٣٢) .

ومن البيت الثالث والثلاثين إلى نهاية القصيدة أُنشِبَ في ملح قومه ، واعتز بهم ، وانفخر بكرمهم ، وشدة بأسهم ، وكثير من محامليهم .

وفي البيت الأول يقول : إن حلوان أمرتني ؛ فضبط حلمه طربه ، وصصمه من الجهل والفتش ، فلم يتجاوز نطاق الرزاة والرقار ، ولم تعاديه فرقة الشباب ونزوله . وهذا التصريح يرجع أنه فلم هذه القعيدة في شيخوخته ، ووقار سنه ، بما أن عاد من « مرنديب » في سبتمبر سنة ١٨٩٩ ، ثم قصد إلى حلوان للاستشفاء في حماماتها بمياهها الكبريتية الساعية .

لم تتجاوز هذه القصيدة البليغة ثلاثة من فئتين الشعر وأغراضه ، هي الخمر ، والغزل ، والفضح .
وفراميات البارودى - فيما يبدو لنا - صور يختصها ، أو حسان يجالسهن في بعض ليالى أنه وغوه ؛
فخلعه طبيعته الشاعرة المتدفقة إلى التنازل ، وإن لم يملكه حب ، ولم يتوقف في نفسه غرام . وكذلك
خمرياته ؛ فإن الخمر لم تلذّب بقله يوماً ما ، كما لم يفتن الحب لبّه يوماً ما ؛ إذ كانت له في حياته
مطامح ومطامع ترثعه عن الاستمرار للهوى والغرام ، والإغراق في الشراب والهوى ، والتمادي في الغلظة والمجون .
وإنما هو المحرض على استيعاب أغراض الشعر ، وتقصّي فئتين الكلام والولوج بمبادأة الفصيح في كلّ ما طريقه
من الأبواب . أما فطره فكثير ما يجعله تمييزاً عما لا يرى التصريح به من آماله المتوقّبة في نفسه ، كالذى
تراء في اللابسة الأولى التي ملها .

قُلْتُ جِدَّ الْمَعَالَى حَلِيَّةُ الْفَزْلِ وَقُلْتُ فِي الْجِدِّ مَا أَضْيَى مِنَ الْحَزْلِ

بمعنواں : «وقال يٰمَن سيرة الحكماء ، ويخصّ الناس على طلب العدل في الأحكام» .

وَقَالَ ، وَكَتَبَ بِهَا إِلَى الْأَسَازِ الْعَلَامَةِ الشَّيْخِ «حُسَيْنِ الْمَرْصَفِيِّ» :
مَضَى اللَّهُ ، إِلَّا أَنْ يُخَبَّرَ سَائِلٌ وَرَى الصَّبَا إِلَّا بِوَاقٍ قَلَائِلُ^(١)
بَوَاقٍ تُمَارِيهَا أَفَانِينَ لَوَعَةٍ يُورِثُهَا فِكْرٌ عَلَى النَّاسِ شَاغِلُ^(٢)

• الشيخ حسين بن أحمد حسين المرصفي ، نسبة إلى « مرصفا » إحدى قرى مركز « بنها » بمحافظه القليوبية من البلاد المصرية : عالم ، نقي ، أديب ، تعلم في الأزهر ، ونفع في علوم اللغة العربية وآدابها ، ثم تولى تدريسها في الأزهر ، ودار العلوم . وكان من أوائل أولئك الأفاضل الذين ردوا على اللغة العربية في العصر الحديث ما كان لها من القوة والبهاء في العصر القديم . ومن تلاميذه وأصحابه الذين انتفعوا بفضلهم وأدبه : حفي فاضل ، والبارودي ، وعبد الله فكري . ومن مؤلفاته «الوسيلة الأدبية للعلوم العربية» جزآن في مجلدين ، وكان شريفاً ، أي مكشوف البصر . توفي سنة ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩) م .

(١) اللهو : اللعب . وما لحوت به : أي شغك من هوى ، وطرب ، وبتة ، ولذة ، ونحوها . ويخبر (بالبناء للمجهول ، وتشديد الياء) : يخبر ، ويُنَبِّئ ، ويحجب ، يخبره ، وأخبره بكذا : أنبأه ، ولقل إليه الخبر ، أو حدثه به . وسائل : مستخير ، مستظهم ، مستنق . ولى : أدبر ، ومضى ، ذهب ، وانقضى . والصب (بكسر الصاد) : الحداثة ، وصفر السن . ومنه الصبي : وهو الصغير ، دون اللام . أو دون الفتي والشاب . ويراد بالصبا هنا : الفتاة ، والشباب ، وما يلبسه ، ويدعو إليه من اللهو ، والمرح ، والمتع ، والذات . . . وبواق : جميع باقية . وقلائل : جميع قليلة . وفي الشعر الثاني من هذا البيت استثناء بـ « إلا » في كلام تام موجب ، فالمستثنى ، وهو « بواق » واجب النصب . ونعته وهو « قلائل » واجب النصب كذلك . والإعراب التي تقتضي قواعد النحو : « وولى الصبا إلا بواق قلائل » . هذا حكم المستثنى بإلا في كلام تام موجب . ولكن بعض أئمة النحو يجيزون رفع المستثنى بإلا في الكلام التام الموجب ، على تخريج « إلا » بمعنى « لكن » . وما بعدها مبتدأ عطوف الخبر . والتقدير هنا : « لكن بواق قلائل لم تُؤَلَّ » : أي لم تذهب . ومن هذا قول النبي - صلى الله عليه وسلم - « كل أمي معاف إلا المجاهرون » : أي لكن المجاهرون بالملامى لا يمانون : أي لا يسمون من غيبة معاصيهم .

يقول متحسراً : انقضى عهد اللهو ، واتمت لذاته ، وخفت بلهايه مسراته . ولم يبق منه إلا ذكريات أجيب بها السائل وأخبر المستخير . ومضى الشباب وملاهيه وملابساته ، ولم يبق منه إلا بقية قليلة من آثاره وأخباره .

(٢) تماريها : تساورها ، وتبهرها ، وتذكها . والمماراة (في الأصل) : المهادلة ، والمناظرة . والمنازعة ، والملاجة . والأفانين : جميع أفنون (بوزن صفور) : وهو النوع من الفن . وأفانين الكلام : =

فَلْيَسْتَوْفِ يَنْبَى عِبْرَةَ مُهْرَاقَةٍ وَخَبْلٍ - إِذَا تَامَ الْخَلِيُونَ - خَابِلٌ^(٣)
 أَلِفْتُ النُّصْنَى لِمَفِّ السَّهَادِ ، فَلَوْ سَرَى بَنَى الْبَرَى غَالَتْنِي لِدَاكَ الْغَوَائِلُ^(٤)

— أساليب ، وطرق ، وألفاظ النجوة : ضرورها ، وأنواعها ، والقوة : الجزع ، والضرر ، واحتراق القلب من الحب والشوق ، أو من الهمّ والغم . ولوعة ذات الالام : لوعات منوعة ، كثيرة ، ويؤثرها : يؤرث : اللوعة : أى يؤثر لها ، ويؤثرها ، ويؤثرها ، والفكر : النظر فى الأمر ، وثأله ، وتدهره ، وإعمال الخاطر فيه . والفكر : إحمال العقل فى المعلوم الوصول إلى معرفة مجهول . والثأى : الهمد . و « حل » هنا : معنى « مع » . أو معنى « فى » . أو معنى « لأم التحليل » : أى مع الثأى . أو فى حالة الثأى . أو بسبب الثأى ، ومن أجله . وشاغل : اسم فاعل من شغلته بكذا (من باب قطع) : أى جعلته مشغولاً به منصرفاً إليه ، منكباً عليه .

لأرق الشاعر أهله وأحبائه ؛ فجدّد اللراق حسراته ، وضاعف نوحاته ، وشغلته فى لابه الأفكار والوصاوىس .

(٣) العبارة (يفتح فسكون) : الدفعة قبل أن تفيض وتسيل . ومهراق : منصبة جارية غليظة . والخبل (يفتح فسكون) ، أو بضم فسكون ، أو بفتحين) : المرض الذى يؤثر فى العقل والفكر . والفساد الذى يصيب الإنسان والحيوان ؛ فيؤثره اضطراباً عقلياً كالجنون . ومثله الخبال والخبيل . وإذا أرادوا المبالغة قالوا : خبل خبال ، كما يقولون : شغل شاغل . والخليون : جمع الخل (يوزن النوى) : وهو الخلل من الوجه والهمّ ونحوهما . وبغده الشجى . وفى الخلل : « ويل الشجى » من الخلل . وفى الشعر : « نام الخليون عن ليل الشجيينا » .

والمنى : أن الشوق يهزج به حتى أبكاه وسرعه أمانة التماس . وما زال به الأرق والوجد حتى اختل عقله وتعب فؤاده . على حين أن الخليين يتامون مله جفونهم ، وينتمون بالمعافاة ، واجتماع الشمل ، ورضاه البهال .

(٤) ألفت النوى لافاً (من باب علم) : أنست به ، وتعودته ، وأحببته ، وارتجحت له ، وسكنت إليه . والنوى : المرض ، والهمال ، والضعف . وبى من الكلمات الدائرة على السنة شراره الهوى والفتور . وأكثر ما تتمثل فيما يعقبه الوجد والحب ، والعصاية والشوق من الضعف والهمال . شنى (كرشى) : مرض مرضاً شامخاً ، كلما طن برؤه نكس . والسهاد : الأرق . وسرى الماء فى العود ، والدم فى العروق : دبّ وجرى ، وتسلل . والبرى (بضم فسكون ، أو بفتح فسكون) : الشقاء ، والسلامة من المرض . وشاله (من باب قال) : اغتاله ، وأهلكه ، وأغده من حيث لا يدرى . والثالثة : اسم فاعل منه . وبجمعها =

فَلَيْلَ هَذَا الشَّوْقِ ! أَيَّ جِرَاحَةٍ أَصَالَ بِنَا؟ حَتَّى كَأَنَّا نُقَاتِلُ^(٥)
رَقِيبَنَا بِحُكْمِ الْحُبِّ فِينَا ، وَإِنَّا لَلَّذِي إِذَا التَّقْتُ عَلَيْنَا الْجَحَالَ^(٦)

= الفؤاد. واللام في «لذلك» : لام التعليل : أي من أجل سترى البرء في جسمي وبسببه .

والمنى : أنه تعود المنى ، وألس به ، وسكن إليه ، كما تعود الأرض ، وأحبته ، وأذبح له ؛
وهذا يحرص عليها حرصه على سببها ؛ وهو الشوق والصهاية ، والوجد والفرام . ويرى أن سيرة البرء في
جسمه ، وإيلا له من الفنى والسهاد معناه أن يسلم أحبابه ، وينسى أخلاقه ، وتطلب نفسه بمرافقهم .
ويثل هذا السلوان بفعله ، ويهلكه ، ويرديه ؛ كأنما يرى حياته وملاسته ، وهنائه وسعادته في بقاء الحب
وأكاره ، وهوام الشوق وأضراره .

(٥) قد كذا : أسلوب من أساليب التصحيب . وقد هذا الشوق : تصحيب من شدته ، وحرارته ،
وبهريته ، وبلاذته ، وأكاره ، واتساع مداه . ووالى : اسم استفهام ، مقول به مقدم وفعله «أسأل» .
وفاعله ضمير الشوق . ويراد بالاستفهام هنا : تأكيد معنى التصحيب في صدر البيت . أو تهويل الجراحة ،
والتنبيه على خطورها وشدتها . والجراحة : الجرح . وجمعه جراح . وأسأل هنا : المراد جرحنا ، وحقق
جرحنا ، وأسأل بالجراحة دماطلا .

يصعب ، ويصعب غيره من هذا الشوق الذي يرح به ، واشتد ، ويجرحه جرحاً عظيماً عميقاً ، تصعب
منه الدم حليراً ، حتى كأنها جراحات جلاء ويقال ، وكلم حرب وفزال . وهذا كله تصوير حتى ليربع
الشوق ، وشدته أثره .

(٦) الحب (يسم الحاء وكسرهما) : المحبة ، والمودة ، والحب (بكسر الحاء) : المجهود .
ويجمعه أحباب . وحكم الحب : حكمه ، وقضائه ، وسيطرته ، وسلطانه . ولله : جميع ألد : صفة من
اللد (بوزن الثب) : وهو شدة الخصومة . ويراد بالألد هنا : القوي ، القدير ، الشديد البأس في
الحرب والقتال . واللام المفتوحة الداخلة على «لله» : لام الابتداء . وهي هنا تفيد التوكيد . والتقت علينا :
اجتمعت علينا ، وأحاطت بنا . والجحافل : الجيوش الكثيرة . وأحاطها جحفل (بوزن جعفر) : وهو
الجيش الكبير . والواو في الشطر الأول : واو الحال . والجلمة الاسمية بمعناها الحالية .

والمنى : نحن في الحب نرضى بحكم الحبيب ، ونخضع لسلطان الخوى . وفي الحرب نقف على أعدائنا ،
ونصمد لجحافلهم إذا أحاطت بنا ، وتجمعت حولنا . وبصمودنا بقوة مِرَاسنا تمزق هذه الجحافل ،
ونفعلها .

يريد أن اتقيادنا لسيطرة الحب لا ينتقص قوتنا وشجاعتنا وشدته بأسنا في القتال . وهو هنا ينظر
إلى قول الشاعر :

وَأَنَا رَجُلٌ تَعْلَمُ الْحَرْبُ أَنَّنَا وَيَذَرِي الْمَجْدُ مَاذَا نَحْوُلُ^(٧)
إِذَا مَا ابْتَنَى النَّاسُ الْحُصُونَ، فَمَالَنَا سِوَى الْبَيْضِ وَالسَّمْرِ اللَّذَانِ مَعَايِلُ^(٨)

نحن قوم قلدينا العين النجم ، على أننا للبيد الحديدا
وقرانا لدى الكرعية أحرا ، وفي السلم الحصان عبيدا

تقدم الشاعر خمسة أبيات تحصر في أولها على انقضاء أيام الهوى، وذهاب زين العيبا والشباب . ثم تحدث عن ذكريات ، وبقايا قلال من آثار ذلك الزمن وأخباره ما فتئت تلوته وتضنيه ، وتؤرقه وتبكيه ، وتؤجج في قلبه تباريح الشوق ، ولوايح الوجد ، وحرق الصباية والفرام . وفي هذا البيت ختم حديث الحب وأحكامه ، وانتقل إلى العصر بهيئ مناقبه ومناقب قومه في ثمانية أبيات .

(٧) بنها : أبناؤها : جمع الابن . وتكنى العرب بابن كذا عن ملازمه ، المتعلق به ، المداوم عليه ؛ فابن الحرب : البطل الشجاع المرموق في القتال . وابن السبيل : الملازم للأسفار . ويرى : يعرف ، ويعلم . والمجد : المنز ، والشرف ، والكرم ، والرفعة ، والملاذ . ونحوه : نوم ، وفريد ، ونطلب . حاول الأمر : أراد إدراكه وإنجازه . وحاوله : طلبه بالخليل .

ولمضى : أننا تمرنا بالحروب ، وألفناها ، وتمودنا أن نخوض غمارها بشجاعة وبأس شديد . وأن المجد يعرفنا ، ويعلم أننا على الدوام نحاول مكاسب الشرف ، ونروم معالي الأمور ، ونتملك بها ، ونفتحه إليها ، ونحرص عليها .

(٨) ابني : بني . والحصون : جمع حصن : وهو المكان الحصين المحمي المنيع الذي يصعب اقتحامه ، ويصعب به المحاربون ، ليرد عنهم أعدائهم . ومثله القلعة . وسوى : غير . والبيض : السيوف ومفروها أبيض . والسمر : الرماح : جمع السمر : وهو الرمح يسمى لونه إذا صلب . والذنان : اللينة ، المرة في صلاة وقوة . واحدا لذن (بوزن سهل) . والذانة ، أو اللذينة من الصفات المستحسنة في الرماح ، ومن أمارات جودتها . والمقاتل : الحصون ، والقلاع ، والملاجئ : جمع معقل (بوزن مسجد) .

يقول : إذا شيد الناس الحصون والقلاع والمقاتل ، ليجهزوا إليها ، ويستموا بها ، فإننا لا نلجأ إلا إلى سيوفنا ورماحنا .

يفتخر بالشجاعة ، وبالبسافة ، والإقدام ، والمجورم في الحروب ؛ فإن المعتدين على أسلحتهم اليهودية ، الظاهرين لأعدائهم — أشجع ، وأقوى ، وأشد بأساً ، وأجدر بالإعجاب والتقدير والفخر من المصممين بمصنوعهم ، اللاذنين بمعاقلهم .

ويقرب من هذا المعنى قول الشاعر :

ولقد علمت — على توقي الردى أن الحصون الخليل ، لا مدر الأقوى

فَمَا لِلْمَهْوَى يَقْوَى عَلَى بِحْكَمِهِ ؟ أَلَمْ يَذَرَانِي الشَّمْرَى الْخَالِجُ ؟^(٩)
وَأَنِّي لَثَبْتُ الْجَائِشَ ، مُسْتَخْصِدُ الْقَوَى إِذَا أَخَلَّتْ أَيْدِي الْكُمَاةِ الْأَفَاكِلُ^(١٠)

(٩) « ما » : استفهامية . والاستفهام هنا للإنكار ، أو التنبؤ . والمهوى : الحب ، والشعر ، والفراق . ويقوى : يسيطر ، ويتسلط . وسكه : قضاؤه ، وسيطرته ، وسلطانه . والاستفهام في أول الشطر الثاني للتقرير ؛ فإن الشاعر يريد أن يجعل المهوى على الإقرار له بأنه الشمرى الخالجل . وإذا ثبت له هذا واستقر كانت سيطرة المهوى عليه داعية إلى التنبؤ والاستنكار والبهش . ويدري : يعلم . والشمرى (يفتح الشين والميم المشددة ، أو بكسرهما ، أو بضمهما ، أو بكسر ففتح) : الرجل المجده ، البصير ، المجرّب ، الماضي في الأمور بإرادة قوية ، وعزم شديد . والخالجل (بضم الخاء الأولى وكسر الخاء الثانية) : السيد في شيعته ، والشجاع ، والرزين الوقور ، الركين في مجلسه . يستنكر ، أو يتنبأ من سيطرة المهوى عليه ، مع علمه وإقراره بعزته وسيادته ، وبقاره ووزانته ، ومضاء هزيمه ، وشدة بأسه .

عاد الشاعر في الشطر الأول من هذا البيت إلى حديث المهوى والحب ، وانصرف في الشطر الثاني ، وفي أربعة أبيات الآتية بمعامده ومناقبه وشدة بأسه في الحروب ، ثم استطرد الحكمة ، ومنها انتقل إلى الغرض الأساسي من هذه القصيدة ، وهو مدح أستاذه وصديقه الشيخ حسين الموصني .

(١٠) ثبت : ثابت ، لا يلين ، ولا يتزعزع . والجائش : النفس ، والقلب . ورجل ثبت الجائش : شجاع ، جريء ، مقدم ، ثابت القلب ، لا تهوله الأحوال . ويستصعد : يستصعد ، مستحکم ، مجتم ، متضافر ، شديد ، متين . والقرى : جميع قوة : أى قوة العقل ، وقوة الجسم ، وقوة الإرادة ، وقوة الرأى . . . وكل ما يبيث النشاط ، والنمى ، والحياة ، والحركة من القوآت الطبيعية ، والجبروتية ، والمقلية . والكأكة : الشجبان ، اللبائل ، المسلحون : جميع كام (بوزن دام ودياة) : اسم فاعل من كى نفسه (كرى) : أى سترها بالدروع ، والبيضة ، ونحوها من أنواع السلاح . ومثله الكى (بوزن النى) : وهو لبأس السلاح . والشجاع المقدم الجريء ، ولو لم يكن عليه سلاح . والأفا كل : جميع أفكل (بوزن أسعد) : وهو الرعدة : أى اضطراب الجسم ، وإرتعاشه ، وإرتعاجه ، وإرتعاده من فزع ، أو حسي ، أو غيرها . وأخذت الأفاكل أى الكأكة : أى ارتعجت أيديهم ، وارتعدت أجسامهم ، واضطربت أفئنتهم ، وفزعوا أشد الفزع من أحوال المأمع ، وعنف القتال . و « أيدى » مفعول به ، منصوب بالفتحة الظاهرة على « الياء » . وإما سكنت هنا لفروزة وزن الشعر .

يفتخر ببراعة جلته ، وثبات جناته ، واستعداد قواه ، وشدة بأسه في ميادين الحرب والقتال ، وساحات الرأى والتزال إذا ارتعد الكأكة ، وفزعوا من ضراوة الحرب وأهولها .

إِذَا مَا اغْتَفَلْتُ الرُّمَحَ - وَالرُّمَحُ صَاحِبِي عَلَى الشَّرِّ - قَالَ الْقِرْنُ : إِنِّي هَازِلٌ^(١١)
لَطَاعَنْتُ حَتَّى لَمْ أَجِدْ مِنْ مُطَاعِنٍ وَنَازَلْتُ حَتَّى لَمْ أَجِدْ مِنْ يُنَازِلُ^(١٢)

(١١) الرمح : قنّاة ، أو عصا مستوية ، أو عود خشبي ، يسوّى ، ويركب في رأسه سنان حاد قاطع من الحديد الصلب ، يطمئن به المرء علوه ، فيجرسه ، أو يقتله . واعتقل الرامح رمحه : أى وضعه بين الركاب والسرّج . أو بين الركاب وساقه . أو جعل بمضه تحت فخذيه ، وبجرّ آخره على الأرض وراءه وهو ممط جواده . وقد يكون المراد باعتقال الرمح هنا : مطلق حمله الطعان والقتال . والواو : واو الحال . والجملّة الاسميّة بعدها حالية . و « الرمح صاحبي على الشر » : أى أن رمحه يصاحبه ويرافقه على الدوام في الحرب والقتال . أو المعنى : أن رمحه هو الذى يعميه على مكافحة الشرّ ، وكسر شوكته ، وإخماد جذوته في الحرب وغيرها . وقرنك : نظيرك ، وكفؤك في القتال وبشره . وهازل : اسم فاعل من الهزل : وهو المزاح . وضدّه الجدّ .

وإذا أريد باعتقال الرمح : مطلق حمله الطعان والقتال - كان معنى البيت : أتى إذا حملت رمحي ، جعلت به في الحرب جولات غاية في الجفّة والشجاعة والإقدام ، وركبت الأخطار والأهوال ، لا أباليها ، ولا أهتم بها ، ولا أكره لها . فإذا رأى قرني حمش لجرأتي ، وإقدامي على الموت في غير مهالة ولا أكرات وظن أو قال : إني هازل مازح غير جاد ؟ وإنما حمله على هذا الظن أو التعليل ما رآه من إقدام عجيب غريب ، وانفداع نادر في الحروب غير مألوف .

وإذا كان اعتقال الرمح : جعله بين الركاب والسرّج ، أو بين الركاب والساق - كان المعنى : أن رمحي صاحبي وملزمني في الحرب والقتال ، فإذا ما اعتقلته تهيجني مطاعني ، وعجز عن مطاعني ، واعترف أنه هازل في طمأنه ، ومنازع في فزائه ، عابث غير جاد : أى ألقى سلاحه مستسلماً استسلام المجز والقصور . هذا إذا ما اعتقلت رمحي ، فما بالك إذا ما اعتصمت به ، ووجهته إلى قرني مصوباً ، أو مصمداً ؟ أو المعنى : أتى تمام ثقتي بنفسى ، وشدة يأسى ، وطول تمرّسى بالحروب - أشدح قرني باعتقال رمحي ، حتى إذا انخدع ، وظنّ أنّي هازل في الطعان غير جاد ، سارعت إليه بالطمنة التجلاء ، والفرصة القاسمية .

(١٢) « اللام » المنقوصة في أول هذا البيت واقعة في جواب قسم : و « قد » مقدّمة بعدها : أى واقعة لقد طاعنت . وطمته بالرمح ونحوه (من بابي قتل ، وقطع) : رنزه ، أو ضربه برأسه . وطماعته مطاعة وطمناً : طمن كلّ منهما الآخر . ومطاعن : اسم فاعل منه . و « من » في الشطر الأول زائدة . وزايدتها هنا لتأكيد مضمون الكلام ، وتوثيقه ، وإحكامه ، وتقديره . ونازله في الحرب منزلة ونزالاً : قابله وجهاً لوجه ليقاتله . واسم الفاعل منه منازل .

يفتخر بأنه طامع ونازل ، وجالده وقاتل ، وحارب وضارب حتى فرّ أمامه مطاعنوه ، وانهمز منازلوه ، ولم يجد بعد . هذا من يصمد له ، أو يقف في وجهه ، أو يجرؤ على منازلته .

وَسَاغَبْتُ هَذَا الدَّهْرَ مِنْى بِعَزَمَةٍ
أَرْتَنِى سَبِيلَ الرُّشْدِ وَالْفَى حَائِلٌ^(١٣)
إِذَا أَنْتَ أَعْطَيْتَكَ الْمَقَادِيرُ حُكْمَهَا
فَأَصْبَحَ شَيْءٌ مَا تَقُولُ الْمُوَاذِلُ^(١٤)

(١٣) الشغب : الخصام ، والجلبة ، وتبييج الشر ، وإثارة الفن والانضطراب . وشاغبه : أختلر الشغب معه . وشاغب الدهر : شاره ، وقاومه ، وكافحه ، وغالبه . والدهر : الزمان . والمراد : خطوبه ، وفولائه ، وشروعه ، وشدائده . والمزمة : الإرادة القاطعة القوية ، والثبات والصبر فيما تنزم عليه : أى تمكده عليه فسيروك ، وتجد فيه ، وتمضى بلا تردد ، ولا توقّف ، ولا انثناء . والرشد : الاهتداء ، والصلاح ، والاستقامة . وشده التى ، والانصراف ، والفضائل ، والجهل ، والفساد . وسبيل الرشد : طريقة الواضح المستقيم . وسائل : حاجز ، حاجب : اسم فاعل من حال الفى بين الشيتين (من باب قال) : أى سجز ، واضترض . والوارى فى الشطر الثانى : وأو الحال . والجملة الاغنية بعدها حالية .

يفتخر بصلابة عزيمته ، وقوة إرادته ، وصبره وثباته فى الشدائد والملمات ، وبهذا استطاع أن يكافح شروء زمانه ، ويقاوم حوراده ، كما استطاع أن يستبين طريق الهدى والرشد ، ويسلك مسالك الاستقامة والاحتدال ، على الرغم من حيلولة التى والفساد ، وظلمات الجهل والضلال .

نظم الشاعر هذا البيت حديث مفاغره ومفاخر قومه ، وانتقل فى سجة الأبيات الآتية إلى الحكمة ، ومنها ينتقل إلى القرض الأساسى من هذه القصيدة ، وهو مدح أستاذه وصديقه الشيخ حسين الموصفى فى ثمانية أبيات .

(١٤) المقادير : جمع مقدور : وهو الأمر المحتوم . من قدر الله الأمر على فلان : أى جعله له ، وحكم به عليه . أو هى جمع مقدار : من قيلم : الأمور تجري بقدر الله ، ومقداره : أى بتقديره ، وحكمه ، وقضائه . ومعنى « أعطتك المقادير حكمها » : جرت أمور الحياة على ما تحب وتوى ، وترغب وتقتضى . و « ما » فى الشطر الثانى : مصدرية ، تقولون هى والفعل الذى بعدها مصدر : أى « قول المواذل أصبح شىء » . والمواذل : جمع عاذلة : اسم فاعل من عذله (من بابى نصر وضرب) : أى لانه .

والمنى : إذا اقتادت لك المقادير ، وجرت أمور الحياة على ما تحب وتوى - فلو لم التللمات ضائع مهمل ، لا قيمة له ، ولا يبنى أن يطاع .

ينهاه عن الاستعجال لملل المواذل إذا واثته المقادير ، وجرت الأمور على ما يشئى ؛ لأن التأثر بالهم يقمده عن الإقدام والمنى ، وإنهاز القرض السانحة المواتية لإصابة الأهداف العالية ، وتحقيق الآمال الواسعة .

والبيت الآتى يلقى على هذا البيت بعض الضوء .

وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَادِحَانِ : فَعَالِمٌ يَسِيرُ عَلَى قَصْدٍ ، وَآخَرُ جَاهِلٌ (١٧)
 قَلُّوا الْعِلْمَ مَا خُوذُوا بِأَسْبَابٍ عِلْمِهِ وَذُو الْجَهْلِ مَقْطُوعُ الْقَرِينَةِ جَائِلٌ (١٨)
 فَلَا تَطْلُبَنَّ فِي النَّاسِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ الْوَدِّ ، أَمْ الْوَدُّ فِي النَّاسِ هَائِلٌ (١٩)

واسع المروءة ، عظيم البرّ ، كثير الإحسان ، يقسم بين الناس مواهبه وفوائده ، ويمسّمه بإقباله وصاحته .

وصلة هذا البيت بالنى قبله أن المحسنين هم عظماء الناس وأفاضلهم . وإنما يحسد العظيم ويشنا .
 (١٧) كادحان : مثنى كادح : اسم فاعل من كدح (كمن) : أى كدّ ، وجمل ، ومسى ، ودأب وجهده نفسه . والقصد : الرشد ، والمضى ، والصلاح ، واستقامة الطريق . وقصدّه الإفراط ، والتفريط ، والنلى ، والفساد ، واعتلاج الطريق .

والمنى : إنما الناس عاملان جاهدان : أحدهما عالم يبتغى بعلمه ، ويستغنى برفاهه ، ويتجرى الرشد ، ويتوسى الصلاح والقصد . والآخر جاهل يصف الظلماء ، ويخطب خطب عشواء ، ويتفرق به السبل ، وتفتقر عليه الأمور ، وتقرى في المهالك .

والبيت الاتى يفصل هذا المعنى ، ويزيده ، ويوضحه ، ويؤكدّه .

(١٨) ذو : صاحب . وذو العلم : العالم . وذو الجهل الجاهل . والأسباب : جمع سبب : وهو الجبل . وكل شيء يتوصل به إلى غيره . والسبب : القرابة . والمؤدة . ويقال : مالى إليه سبب : أى طريق . وما خُذُوا بِأَسْبَابِ عِلْمِهِ : يأخذ الناس بأسباب علمه ، ويبتغون بهدّيه ، ويتودّدون إليه ، ويتصلّون به اتصال المتعلّم بالمعلّم ؛ فينبه ويهيم صلات ، وروابط ، ومودّات ، وتعاون وثيق على البرّ والخير ، والمضى والرشاد . والقرينة : النفس . والقرينة : مؤنث القرين : وهو المقارن والمصاحب والمشير . وجائل : اسم فاعل من جال البئر ونحوه (من بابى جلس وقعد) : أى لدّ ، وفقر ، وشرد ، وحاد عن الطريق . أو فرح ، وانزعج .

عرض صديق العالم والجاهل ؛ ليظهر ما بينهما من مضادة ، وتناقض ، وتباين ، واختلاف شديد ، فالعالم متصل بالناس ، يتتبعون بعلمه ، ويتتبعون بهديه ، ويسلكون طريقه ، ويتودّدون إليه ، ويمقدرون بهيم وبهته أرقى الصلوات ، وأشرف العلاقات .

والجاهل شقّ بجهله ، متقطع عن الناس ، كالبعير يتد ، ويشرد ، فلا يلبث أن يضل ، وينفرد ، وتقطع به الأسباب ، وتفتقر عليه الأمور ، وتفتهم أمامه السبل .

(١٩) المِثْقَال : ما يوزن به : مفعول من الثقل . ومِثْقَالُ الشيء : ميزانه : أى مثله في وزنه . وفى القرآن الكريم : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظُنُّ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ » : أى ذرة ذرة . والذرة : واحدة الدّر : وهو صغار الخمل . والمهمل المتشتر في الهواء . وما يرى في شمع الشمس الداخل من النافذة . والذرة (فى علم الطبيعة) : أصغر جزء في عنصر ما ، يصح أن يدخل في التفاعلات الكيميائية . والرد (بتثليث الواو) : المؤدة والمهمل .

مِنَ الْعَارِ أَنْ يَرْضَى الْفَتَى غَيْرَ طَبِيعِهِ وَأَنْ يَصْحَبَ الْإِنْسَانُ مَنْ لَا يُشَاكِلُ^(٢١)
بَلَوْتُ ضُرُوبَ النَّاسِ طَرًّا ، فَلَمْ يَكُنْ سِوَى «الْمَرْصُفِيِّ» الْحَبْرِ فِي النَّاسِ كَامِلُ^(٢٢)

صاحبها : اسم فاعل من هبلته أمه (من باب فوج) : أى تكلمته ، وفقدته . و « أم الولد » في الناس هابل : أم الولد ثكل ، واليد مهبل : أى مثكل ، مفقود ، لا وجود له بين الناس .

استعير الشاعر ، وأدب شيرة من مودات الناس وقراهمهم ، قائلا : إن محاولاتك في هذا الشأن غير مجدية ، ولو كان ما تحاوله قليلا فشيئا غاية في القلة والفسالة ؛ لأنك إنما تحاول شيئا مفقودا لا وجود له .

ولبيت يَمُ حُلْ جَرَفَتْ نَفْسِي قَاتِمٌ قَدْ يَحِيطُ بِالْمَرْ إِذَا جَفَاءَ أَخْلَاقُهُ ، وَتَنَكَّرَ لَهُ أَوْدَانُهُ . وَيَحُلُّ صِلَتَهُ بِالْفَى قَبْلَهُ شَيْعُ الْجَهْلِ فِي النَّاسِ ، وَأَنْ الْجَاهِلُ الْجَاهِلُ لَا يَرْضَى وَدَّهَ ، وَلَا يَطْعُ فِي غَيْرِهِ .

وفي هذا البيت يشير من خمسة الأبيات السابقة شبه تمهيد للفرض الأساسي من هذه القصيدة ، وهو المديح في ثمانية الأبيات الأخيرة .

(٢٠) العار : العيب ، والسب ، وكل قول ، أو فعل يشين صاحبه ، ويهينه ، ويخسره به . والطبع والبيعة الخليفة ، والسببية ، والجلبة التي جبل الإنسان عليها : أى فطر عليها ، وخلق . وصعبه يصعبه (من باب سلم) : صاحبه ، وعاشره ، ورافقه ، ولازمه . وشاكله يشاكله : وافقه ، ومثاله ، وشابهه .

وصلة الشطر الثاني بالشطر الأول : أن الذى يصاحب من لا يشاكله راض غير طبعه ، متكلف مالمس في خليقته ، متفاد لغيره ، مفرط في عزته وكرامته . وهذا كله مما يهاب عليه ، ويمير به .

والمعنى : أظهر للناس على حقيقتك ، وحافظ على شخصيتك ، وتحمل بالشجاعة الأدبية ، وكن جريئا ، واضحاً ، صريحا ، ولا تصاحب إلا من يماثلك ومثاله .

وفي البيت نبى ضنى عن الملق والرياء والتفاخر ، والتذلل المستنقع ، والخضوع المفقوت ، والتضريط في العزة والكرامة .

عَمَّ الشاعر هذا البيت سبعة أبيات أجراها مجرى الحكم والأمثال . ويبدو في بعضها ، أو في أكثرها التمهيد للفرض الأصل من هذه القصيدة ، وهو مدح أستاذه وصديقه الشيخ حسين المرصني ؛ فهو عالم جليل فاضل ، كريم الأخلاق ، سار في حياته على قصد ، وبم تقليمه وأصنافه وقراءه بأدبه وطلمه وفضله .

• وفي البيت الآتي إلى آخر هذه القصيدة مديح وإطراء وحسن ثناء .

(٢١) يلاه : اختبره ، وجربه ، وامتنحه . (وبابه عدا) . وضروب الناس : أجناسهم ، وأنواعهم ، وأجباهم . وطرا : جميعا . ولم يكن : لم يوجد : مضارع « كان » التامة التي تكتفي بمفرداتها : أى فاعلها ، ولا تحتاج إلى غير . وبمنها : حدث ، ووقع ، وحصل ، ووجد . وفاعلهما هنا : « كامل » في نهاية البيت : أى فلم يوجد في الناس كلهم رجل كامل سوى « المرصني » الحبر . والحبر : العالم . أو الصالح .

هُمَامٌ أَرَانِي الدَّهْرَ فِي طَيِّ بُرْدِهِ وَفَقَّهَنِي حَتَّى اتَّقَنَنِي الْأَمَائِلُ^(٢٢)
 أَخُ حِينَ لَا يَبْقَى أَخٌ ، وَمَجَامِلُ إِذَا قُلَّ عِنْدَ النَّائِبَاتِ الْمُجَامِلُ^(٢٣)
 بَعِيدُ مَجَالِ الْفِكْرِ ، لَوْ خَالَ خَيْلَهُ أَرَاكَ يَظْهَرُ الْغَيْبَ مَا الدَّهْرُ فَاعِلُ^(٢٤)

سـ يقول : إنه اختبر الناس ، وجرَّبهم على اختلاف أجناسهم وأجياهم ، فلم يجد فيهم رجلاً جمع المناقب ، وحيد الأعمال ، وشرف الخلال والمصالح سوى « المرصق » العالم الصالح .

(٢٢) هـام : عظيم الهمة ، قوى العزم ، سيد ، شجاع ، سخي . والدهر : العصر ، والزمان الطويل ، والأمد الممدود ، ومدة الحياة الدنيا كلها . ودر فلان : مدة حياته في الدنيا ، والزين الذي عاش فيه . ومن معاني الدهر : الهمة ، والإرادة ، والغاية . والبرد : ثوب غطط . أو هو كساء غطط يلتحف به . وجمعه أبراد ، وبريد . أو هو أكسية من الصوف الأسود ، يلتحف بها . الواحدة بردة . وفي طيَّ برده : فيها الخلط عليه ثيابه : كناية عن شخصه . وأراني الدهر في طيَّ برده : أراني حُسنة الدهر ، وتجاريه ، وخبراته . أو أراني في شخصه الهمة العالية ، والإرادة القوية ، وغاية الفضل ، أو غاية ما كنت آمله وأرتجيه . وفقَّهني : علَّمنى ، وأفهمنى . أو صيَّرني فقيهاً . والفقير : العالم الفطن . واتَّعاه : توقَّاه ، وحذره ، وخشيه ، وخافه . وأمائل القوم : خياري ، وأفاضلهم ، وشرفائهم . جمع الأمائل : اسم تفضيل من مثل مثالة (من باب ظرف) : أى فَضِّلَ : أى اتصف بالفضيلة : وهى الدربة الرقيقة في حسن الخلق ، وكرم اللبائل . واتَّقَّه الأمائل : تهيَّبه ، وأجلَّه ، وأكبره ، وعظَّمه لفقير ، وعلمه ، وعلَّته ، وعظيم مزاياه .

ملح صديقه وأستاذه الشيخ حسيناً المرصقاً بعظم الهمة ، وقوة الإرادة ، وواسع الخبرة ، والكرم والسيادة . وأحسن الثناء على ما استفادته من فقه الممدوح وعلمه ، وفهمه ، وممارسته وتجاريه . وقد بلغ الشاعر من هذا كله درجة رفيعة ، ومرتبة عالية ، حتى تبيَّه وعظَّمه خيار الناس وأفاضلهم .

(٢٣) الأخ : الصديق . وفي المثل : « إن أخاك من أساك » . و « رب أخ لك لم تلده أمك » . ومن كلامهم : « إخوان الديداء أقرب من إخوة الولاد » . ويأمله بمجمله : أحسن عشرته ، وعامله بالمجمل : أى بالإحسان ، والبر ، والتخير ، والمعروف . ومجامل : اسم فاعل من المجاملة . والنائبات : التنازل ، والشدائد والمخاطوب ، والمصائب . الواحدة فائبة .

يقول : إن الممدوح أخ ، وصاحب ، وصديق صادق الود ، حسن المشرة ، مجامل ، برّ ، كريم ، خيّر ، مؤنس ، وبخاصة في الشدائد والملمات التي يتفقدها المرء كثيراً من إخوان الصفاء والرخاء فلا يجد منهم أحداً .

(٢٤) مجال : اسم مكان ، أو مصدر ميميّ من جال في المكان (من باب قال) : أى طاف ،

ودار .

طَرَحْتُ بَنِي الْأَيَّامِ لَمَّا عَرَفْتُهُ وَمَا النَّاسُ حِندًا لِبَحْثِ إِلَّا مَحَابِلُ (٢٥)
فَلَوْ سَامَنِي مَا يُورِدُ النَّفْسَ حَقَّقَهَا لَاوَرَدْتُهَا وَالْحُبُّ لِلنَّفْسِ قَاتِلُ (٢٦)

= والفكر : إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول . ومن كلامهم : « ل في الأمر فكر » : أي نظر وروية . وخال الإنسان الشيء بخاله غيلا (من باب خال) وغيلة (يفتح فسكون ، أو بكسر فسكون) : غلته وغمسته . والظهر : ما غاب عنك : وهو معنى « الغيب » . وإضافة « ظهر » إلى « الغيب » من إضافة الشيء إلى مرادفه التأكيد ، كنسيم الصبا . وحق اليقين . وجنة الفردوس . ومن كلامهم : « تكلمتُ به عن ظهر الغيب » و« قرأ القرآن عن ظهر قلبه » : أي من حِفْظِهِ ، لا من المصحف . والدهر : الزمان الطويل ، والأمد الممدود ، ومدة الحياة الدنيا كلها . أو مدة العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه . ويراد بالدهر هنا : الزمن مطلقاً . وقد نسب الشاعر الفعل إلى الدهر على عادة العرب ؛ فإلهم يستبدون الفعل إلى زمانه على سبيل المجاز .

والمنى : يفكر الممدوح تفكيراً عميقاً ، واسع الأفق ، بعيد الغاية . وإذا غلّ غلّاً ، أراك بهذا الظنّ ما يكون في مستقبل الزمان ، وأملكك على المغيّب الذي لا يستطيع إدراكه ، أو التنبؤ به إلا ذلّ والفكر الثاقب ، والظنّ الصادق ، والفراسة الصائبة ، والغلظة الفارقة ، والخطاطر الباهر ، والرأى السديد ، والنظر البعيد .

(٢٥) ملحه : زماه ، وألقاه ، وأبعده ، ونحاه . وبنو الأيام : الناس . والمحابيل : جميع غيلة (يؤزن ممشية وممايش) : وهي الظنّ . أو المظنة : أي المكان الذي يظنّ وجود الشيء فيه .

ومعنى الشطر الثاني أنك — مع طول البحث والتفتيش ، والاجتهاد ، والتدقيق في تحسّر طبايع الناس ، وأخلاقهم ، وسرائرهم ، وما انطوت عليه نفوسهم — لا تستطيع عرفانهم إلا في نطاق الظنّ والحدس والتخمين ؛ فإلهم مظانّ لأموار وأحوال كثيرة غريبة متباينة متناقضة . وصلته بالشطر الأول : أن الشاعر عرف مدحوه معرفة صحيحة يقينية ، وتبيّن له فضله ، وبرّه ، ووقاؤه ، وصق دواؤه .

عرف الشاعر مدحوه معرفة صحيحة صادقة ؛ فأثرو بودّه ، وأفرده بصحبته ، واستغنى بفضلته عن غيره من الناس .

(٢٦) ساه كذا (من باب قال) : جشمه إياه ، وطلبه منه ، وأراوده عليه . والحتف : الردى . والهلاك ، والموت . ويورد النفس حتفها : يسوقها إلى الهلاك . والأصل : « أوردت الإبل وثيرها الماء » : أي أوصلتها إليه ، وبلّغتها موره . ومن المجاز : « أوردته المهالك » : أي دمه إليها ، وأرقمه فيها . أخلص الشاعر لمدحوه المحبة والمودة ، واشتدّ إقباله عليه ، وتملّقه به ، وانطباعه له ، حتى بلغ الغاية في هذا كله ؛ فلو كلّفه الممدوح أسراً يورده موارد التهلكة لأقدم عليه بلا تردد أو توان ، ولو كان فيه حتفه وهلاكه .

فَلَا بَرَحْتُ مِنْهُ إِلَيْهِ تَحِيَّةٌ تَنَاقَلُهَا عَنْهُ الضُّحَى وَالْأَصَائِلُ (٢٧)
وَلَا زَالَ غَضُّ الْعَمْرِ، مُنْتَبِعَ الذُّرَا مَرِيحَ الْفَيْئَا، تُطَوِّي إِلَيْهِ الْمَرَاحِلُ (٢٨)

= والجملعة الاسمية في آخر البيت : تذييل يوضح ما قبله ، ويؤكد له ، ويزيل ما قد يشبه من النقص ، أو المجه ، أو تهمة التزييد والمغالاة ؛ فإن الحب الأخوي الروحي الصحيح الخالص الصادق قد يقتل الحب ويرد به .

(٢٧) لا برحت : لا زالت : أى بقيت ، واستمرت . والصحية : السلام . والدعاء بالحياة ، وطول العمر . وتناقلها : أصلها « تناقلها » . ثم حذفت إحدى التامين تخفيفاً . ومعناها : تتجاذبها ، وتتنازع . نقلها عنى إلى المدحوخ ؛ فالتناقل هنا : التنازع ، والتجاذب ، والتنافس في نقل تحية الشاعر إلى مدحوسه . أو هو من قولهم : تناقل القوم الحديث بينهم : أى نقله بعضهم عن بعض ؛ فالضحي تنقل التحية عن الأصائل ، والأصائل تمود فتنتقلها عن الضحي ، وهكذا دواليك . وهو تأكيد لمعنى الاستمرار في الشطر الأول . والضحي : جمع ضحوة : وهى وقت إشراق الشمس ، وانبساطها ، وارتفاع النهار ، أو امتداده . والأصائل : جمع الأصل : وهو الوقت حين تصفر الشمس قبيل غروبها . أو هو الوقت بين العصر والمغرب . أو هو المعنى . ويراد بالضحي والأصائل هنا : كل أوقات النهار والليل .
حيثما الشاعر مدحوسه تحية تبنى وتتجدد ما بين الجديديان .

(٢٨) « لا زال » : من أفعال الاستمرار . ومثله « لا برحت » في البيت السابق . وفرض : فاضر ، فام . والعمر : الحياة ، والمعيشة . وبغضاضة العمر : نضارة الحياة ، ورفعتها ، ونمويتها ، ورفاهتها ، وصفاؤها . وإشراقها . ومنتع : منبع حصبين . والذرا : (بضم الذال) : جمع ذُرَّةٌ : وهى من كل شئ أعلاه . أو هو الذرا (بفتح الذال) : لكل ما استترت به ، وأوريت إليه ، تقول : أنا فى ذرا فلان : أى فى كنفه ، وظلّه ، وسِتْرِهِ ، وحِمَاه . ومريح : مسيرح ، خصيب ، كثير الكلا والمريخ . والفناء بمدود (يقصر هنا لضرورة وزن الشعر) : الساحة ، والصيد : وهو سعة فى وسط الدار ، أو أمامها أو بجانبها . واعتناع الذرا : كناية عن المزة والمنعة . وسرّع الفناء : كناية عن رفاعة العيش ، وبسطة الرزق . والمراحل : جمع مرحلة (بوزن مَرْتبة ومراتب) : وهى المسافة التى يقطعها المسافر على الإبل فى نحو يوم . واللى (فى الأصل) : ضدّ الشر . ومن الحجاز : « طويئنا إليه المراحل » : أى سلكناها ، وقطعناها مرحلة بعد مرحلة . وتطوى إلى المدحوخ المراحل : أى يسافر إليه من الجهات التالية ، والأقطار البعيدة . وهذا إنما يكون العظيم الكريم ، أتابه الشأن ، الرفيع القدر ، الناهب صيته فى الناس ؛ فهم يقتصدونه من أفاض البلاد محضين ، طالعين علمه ، وأدبه ، وقضه ، ومعرفه .

دعا المدحوخ باستمرار نضارة الحياة وبغضاضتها ، وطول العمر وإزدهاره ، وذوام المزة والمنعة ، وصحو =

وَقَالَ فِي الْفَخْرِ :

عَصَيْتُ نَلِيرَ الْحِلْمِ فِي طَاعَةِ الْجَهْلِ وَأَغْضَبْتُ فِي مَرْضَاةِ حُبِّ الْمَهَا عَنَلِي^(١)

= المنزلة ، ورفعة القدر ، وغضب الجناب ، وسمة الرحاب ، وشيوع فضله في الناس ، فهم يمتثلون عليه ، ويقصدون من أقاصي البلاد إليه .

جاءت هذه الامية في ثمانية وعشرين بيتاً : منها مقدمة ، أو شبهها في خمسة أبيات ، شكها فيها الشاعر ما يمانيه في بده من الشوق إلى أحبائه ، وما يلبس هذا الشوق عادة من الفنى والسهاد . ثم انتقل إلى الفخر بقومه وبفنه في ثمانية أبيات . ثم صرّح على الحكمة ، فنظم فيها صيغة أبيات ، ومنها انتقل إلى ملح استأذه وصديقه الشيخ حسين المرصني في ثمانية أبيات .

وقد نشر الممدوح هذه القصيدة في كتابه « الوسيلة الأدبية للعلوم العربية » الجزء الثاني . صفحة ٥٠١ طبعة سنة ١٢٩٢ هـ ، بمطبعة المدارس الملكية ، بدمشق الجساميز ، بالقاهرة .

ولم تخالف رواية « الوسيلة الأدبية » أصل الديوان إلا في كلمتين : إحداها في الشطر الثاني من البيت الثاني والعشرين : « اتقاف » . والأخرى في الشطر الثاني من البيت السابع والعشرين : « يناقها » . وفي صفحة ٥٠٢ عقب الشيخ حسين المرصني بقوله : « وعلى أن ليس من طبعي أن أقول الشعر . . أنطقني حبه بأبيات أجملت فيها صفته ، وهي :

زكا أميري طبعاً ، واعظي شرقاً
وقال ما نال عن كدّ الرجال ، فلا
بفضله كل أهل الأرض معترف
لا يجهل الرزية العلياء يصرها
صحته وهو سرّ في غنايله
فما أخذت عليه شبه بادرة
أدامه الله تقى من فضائله
فغار حيث تلور الشمس والقمر
منّ عليه لشخص حين يتفخر
كما تصادق فيه الخبر والخبر
ولا يتيه بها ما أعظم الخطر
سحق تخير من إعلانه الكبر
ولا تخيلت أمراً منه يستدر
وبين فواضله ما أنبت الشجر

(١) التذير : المنذر . والتذير أيضاً : الإنذار : وهو الإعلام ، مع التخويف ، والتحذير والتنبه على سوء العاقبة . والحلم : العقل ، واليقار ، والأناة ، والصبر . وضدّه الجهل : وهو السفه ، والتزق : والخفة =

وَنَازَعْتُ أَرْسَانَ الْبَطَالَةِ وَالصَّبَا إِلَى غَايَةِ لَمْ يَأْتِيَهَا أَحَدٌ قَبْلِي^(١٧)

صوالطش . ويراد بالجهل هنا : جهل الفتوة ، وغفلة الشباب ، وما يحيل إليه الشبان عادة من الصبوة ، والحرى ، والمرح ، والطرب ، والهوى ، والنهش . ومرضاة : مصدر بمعنى الرضا . والمها : البقر الوحشي ، تشبّه به حسان للنساء في جمال العيون ، وحسن اتساعها . الواحدة مهاة (بوزن قناة وقنا) و « في » في الشطرين : للصبية : أي التحليل ، كما في قول الله تبارك وتعالى : « فَالْكَفَى لِمَنْ شِئْنِي فِيهِ » . أي عصيت نذير الحلم من أجل طاعة جهل ، وأغضبت عقل بسبب مرضاة الحب . أو هي للظرفية فيها : أي عصيت نذير الحلم في سبيل طاعة الجهل ، وأغضبت عقل في سبيل مرضاة الحب .

والمنى : أنه خلع حذاره ؛ فانقاد لجهل الصبا ، وأطاع هوا الشباب ، ولم يأت به يحمله حيناً أناره ، وحذره ، وبصره برخصة المغشّي ، وسوء المصير . ومن الانهالك في النفي أنه أحب الحسان ، وأرضى هواه بمغازلتهم ، والصبوة إلين منضياً عقله حيناً دعاه إلى الرشد ، وحققه على السلوان ، فغافله وعصاه .

(٢) نازعته الثوب ونحوه : جاذبته إياه : أي جذبه كل مناً إلى نفسه . ويلاحظ أن الفعل « نازع » يتطلب مفعولين . وتقدير الكلام هنا : ونازعت البطالة والصبا أرسانها . والمراد أنه انقاد لدواعيها ، وانطلق في مجالها انطلاقاً بعيد المدى ، لا يحدّه ، وأزاح ، أو مافع ، أو شاطئ ، أو زانجر . والأوسان : جمع رمن (بوزن سبب وأساب) : وهو حبل يشدّ حل أنف البعير ونحوه ؛ ليقاد به . ومثله الزمام ، والمقود . والبطالة (بثلاث الياء) : مصدر يعطل العامل : أي تعطل ، ويؤى بلا عمل . ويراد بالبطالة هنا : ما يلابسها عادة من المحبون ، والهوى ، والجهل الذي أشار إليه الشاعر في البيت السابق . والصبا (بكسر الصاد) : جهلة الفتوة : أي هوا الفتيان ، وميهم . أو هو الشوق والحنين . ويراد به هنا : الحنين إلى الفواني ، والتعلق بهنّ ، بدليل البيت الآتي . أو هو الصغر والخداثة . ويراد به مرح الحداثة ولها . والصبا (بفتح الصاد) : مصدر صبي (من باب صدئ) : أي فعل أفعال الصبيان . أو مال إلى المرأة ، وحسن إليها وتشوّق . وفي بعض المصجمات : صبا إليها يصوب صبا (بفتح الصاد) : مال إليها وتعلّق بها .

جعل للشاعر البطالة والصبا أفراساً أو نوحها ، امتطاعا ، وجاذبها مقادها : أي حملها على الجرى والإسراع إلى غاية بعيدة ، لم يصل إليها أحد قبله .

والمراد : أنه ركب الهوى ، وانقاد لدواعيه انقياداً بعيد المدى ، حتى برّ الخلفاء المتطّلين ، وسبق اللادين المتشكّكين .

وليس من الضروري أن تكون هذه صورة صحيحة لحياة الشاعر في شبابه ؛ فإن البارودي أبلغ مما كانت

فَخَذَ فِي حَدِيثٍ غَيْرِ لَوْنِي ؛ فَإِنِّي يَحُبُّ الْغَوَايَ عَنِ مَلَامِكَ فِي سُغْلٍ (٣)
 إِذَا كَانَ سَمْعُ الْمَرْءِ عُرْضَةً أَلْسِنٍ فَمَا هُوَ إِلَّا لِلْخَدِيعَةِ وَالْخُفْلِ (٤)
 رُوِيَكَ ، لَا تَحْبِلْ يَلُومُ عَلَى امْرِئٍ أَصَابَ هَوَى نَفْسٍ وَفَقِيَ الدَّهْرَ مَا يُسِيلُ (٥)

= فعول للشعراء ، واستيماب ما عرف قبله من فنون الشعر وأغراضه ؛ ومنها شعر الهوى والخلاعة ، والمجون .

(٣) أخذ في كذا ، وأخذ يفعل كذا : شرع فيه ، وبدأ . والغواي : جمع غالية ؛ وهى المرأة الغنية بحسبها وجمالها من الحل والزينة . وشغله الشيء (من باب قطع) : لَمَّه ، وصرفه . وشغلت عنه بكذا : تلهيت به عنه ، وانصرفت . والاسم الشغل (بضم فسكون ، أو بضمين) .
 والمعنى : فى استطاعتك أن تخوض سعى فيما شئت من الأخبار والأقوال والأحداث إلا حديث لوى وعذل ، ومحاولة صرفى عن الهوى والفرام ؛ فإنها محاولة مخففة غير منتجة ، وحديث لا جدوى فيه ، ولا فائدة منه ، وإن يجد منى سمماً صاعياً ، ولا قلباً واعياً ؛ فقد سُغِلَ من سباح الملاحة بحبِّ الحسان الغانيات .

وصلة هذا البيت بالبيتين السابقين واضحة وثيقة ؛ فقد أرمى الشاعر حبه وهواه ، وأغضب عقله وحلمه ، وأطلق فى مجال الهوى والبطالة اضلاًحاً بعيد المدى ، وشغله تملُّقه بالغانيات عن الاستباح لعذل الماذنين ، ولوم اللاتمين .

(٤) جعله عرضة لكذا : نصبه له هدفًا تسهل إصابته ؛ وجعل سممه عرضة للألسن : استمع لعذل الماذنين ، وتأثر بلوم اللاتمين . والألسن : جمع لسان ؛ ويراد به هنا : الكلام والقول ؛ أى قول الماذنين وكلامهم . و « هوى » : أى المرء ، أو سممه . والنديمة : اسم من خدعه (من باب قطع) : أى أظهر له خلاف ما ينفية ، وأخفى به الضرر والمكره من حيث لا يعلم . وبثلهما الختل : مصدر ختله (من باب ضرب وقتل) : أى خدعه ، وتغشاه .

يقول : إن الإنسان يتع بسهولة فى حيائل المتأدبين المذائنين إذا هو استمع لكل قول يلقى إليه .
 يريد : إذا استمع العاشق لعذل الماذنين ، فإثما يستمع للنديمة والختل ، والمكر والدهاء ، والتضليل والإفساد ؛ وهو بهذا يؤكد ما قرره فى البيت السابق من شدة تملُّقه بالغانيات ، وشدة انصرافه عن العذل والملاعة .

(٥) رويدك : تمهّل ، واتتد ، وتأنّ ، وترفق . و « لا تمجل » : تأكيد لمعنى « رويدك » .
 وأصاب الشيء : وجده ، وأدركه . والهوى هنا : المهورى : أى المحبوب المشوق . وأصاب هوى نفس : =

فَلَيْسَتْ بِعَارٍ صَبَوَةُ الْمَرْءِ ذِي الْحِجَا إِذَا سَلِمَتْ أَخْلَاقُهُ مِنْ أَذَى الْخَبَلِ (٦)
وَلَأَنِّي وَإِنْ كُنْتُ ابْنُ كَأْسٍ وَلَذَّةٍ - لَنُؤْ تُدْرِكُ يَوْمَ الْكَرْبَةِ وَالْأَزَلِ (٧)

« ويعد من هواها نفسه. والشر : الزمان الطويل ، والأمد للمديد . وأمله عليه : حمله على السلوان : وهو النسيان . يقال : سلا الماشق مشوقه ، وسلا عنها : إذا نسيتها ، وطابت نفسه بعد فراقها .

يقول لماذا له : لقد ويعدت من هواها نفسي ، فمشقتها ، وتعلقت بها ، فلا تمجّل بطلن ؛ فإن في صروف الدهر ، وحدثان الزمان ، وكر الجديدين ، واختلاف الملوك - ما قد يصرف الماشق عن مشوقته ، ويقطع صلتها بها ، ويحمله على السلوان والنسيان ؛ فيلتقي مع عاذليه على ما يشتهون ويعجبون .

كأنما أراد أن يشيط عاذله ، ويكسر حديدته ، ويصرفه عن عذله ، ويعمله بهذا التذليل ، وهو : « في الدهر ما يسل » .

(٦) الصبوة : الخنثى إلى المجهوب . سبأ إليها : فزع ، وحسن ، ومال ، وتعلق ، وتشوق . والصبوة أيضاً : جهالة الفتوة ، وطو الصبا ، ومرح الشباب . وألحجا : العقل ، والفطنة . والأذى : العيب والضرر . والخبل : الفساد ، وبطل الخبال ، أو هو الجنون وشبهه ؛ غلبه الحب وغيره (من بابي غرّب وقتل) : إذا فتنه وأذهب قوّاده ، وأفسد عقله .

والحق : إنما يهاب المرء ويحير بفساد أخلاقه ، وانحراف سلوكه ، ونقصان عقله ؛ فإذا سلت أخلاقه وسلوكه وعقله من العيب والضرر والفساد - كان جديراً بالتقدير والاحترام ، ولو وقع في شرك الهوى والغرام .

وصلة هذا البيت بالذي قبله أن حبه حوى عفيف ، طاهر نظيف ؛ فلا ينبغي أن يمدله من أجله عاذله ، أو ينحى عليه بالملازمة لأثم .

(٧) « وإن كنت ابن كأس وللة » : « إن » هنا : حرف وصل ، وهي معترضة ، مجردة من معنى الشرط ، أو ليس لشرطها جواب ؛ كما تقول : « فلان بخيل وإن كان كثير المال » : تصمه بالخيل حتى مع كثرة ماله . والشارح هنا يفخر بأنه ذو تدرا وإن كان ابن كأس وللة : أي مع كونه ابن كأس وللة ؛ فإن المرء إذا لازم الكأس واللذة فقد يهجم بالركون إلى اللذة ، والإحسان في مواطن الإقدام ، والتفريط في مقتضيات المزة والكرامة والشارح ينفي هذا الاتهام ، ويقرر تفقيسه . والكأس : الكوب ، أو القلح ، أو الإناء يشرب فيه ، وهي مؤنثة ، قيل : ولا تسمى كأساً إلا إذا كان فيها الشراب ؛ وقد تطلق للكأس على الخمر ، وهو المراد هنا . وتكنى العرب بابن كذا عن ملازمته ، والمواظب عليه . وابن الكأس : معن الخمر . والتدرا : الحفاظ ، والممنة ، والقوة . وفو تدرا : مدافع ، ذو مزة وسعة ، ومصدق

وَقُوْرٌ ، وَأَخْلَامُ الرَّجْسَالِ خَفِيْفَةٌ صَبُوْرٌ ، وَنَارُ الْحَرْبِ مِرْجَلُهَا يَغْلِي (٨)
إِذَا رَاعَتْ الظُّلُمَاءُ غَيْرِي ، فَإِنَّمَا هَلَالُ النَّجَى قَوِيِي ، وَأَنْجُمُهُ نَبِيِي (٩)

= وقوة ، يُقَدِّم ، ويهيم ، فلا يَتَّقُوْهُ ، ولا يهاب . والكرهة : الشدة في الحرب . والكرهة أيضاً : العداية ، والنزالة . ويسمى كراهته . والأزل : الضيق ، والشدة ، والأزمة . أو شدة الزمان ، والجلب ، وضيق العيش . يفخر بأنه - على الرغم من إدمانه الشراب ، وعكوفه على اللذات - عزيز ، شجاع ، مقدم ، وأمر الدة ، شديد البأس ، قوي المراس إذا حَمَى الوطيس ، وقامت الحرب على ساقيها ؛ وأنه كما يدفع الأعداء بشجاعته وبسالته ، يدفع الشدائد والأزمات بكرمه وسخائه .

انفتح الشاعر هذه القصيدة بسمة أبيات في حديث الحب والحرى ، والإغراق في الكأس واللذة ، والتأني في نحو الصبا ، ومرح الشباب ، وبهالة التجلل ، غافلاً ظنير الحلم ، مفسباً العقل ، معترساً عن حذل الماذلين ، مستيحياً كل هذه اللذات ما دامت أخلاقه سليمة من العيب والفساد . وهو في هذا البيت والأبيات التالية ينتقل من حديث النهى والحياة إلى حديث الجد والصرامة ، مفتخراً بكثير من محامده ومنافقه ، وقد ينجح في أثناء فخره للنصح والإرشاد ، أو الحكمة والمثل .

(٨) وقور : ذو وقار ، وهو الرزاقة ، والحلم ، والثبات ، والنظمة . وللواو في شطرى البيت : أو الحال ، والجلسة الاسمية بمد كل منهما حالية . والأحلام : جمع حلم : وهو العقل ، واليقار ، والرزاقة ، والأناة ، والصبر . وخفة أحلام الرجال : كناية عن اللحى ، والفزع ، والخوف الشديد . والمريمل (بوزن منبر) : القدر من النحاس ، أو الطين المطبوخ ، أو غيرها . وغيلان مرجل الحرب : كناية عن شدتها ، بأنجح نيرانها .

يفخر بأنه إذا خفت أحلام الرجال ، وتملكهم الدهر والفزع في التنازل والأحوال - بئى له وقاره ، وثباته ، ورزاقته ، وحلمه ، وقته ، وعظمته ؛ ولا غرو ؟ فإنه متمرس بالحروب وآفات ، صبور على شدائدها وويلاتها ؛ وهو بوقاره وصبره معين بمكافحة الشدائد ، وتبديد المخاوف .

(٩) راعه : أفرقه ، وأخافه ، فارتاع (وبابه قال) . والظلماء : الظلمة ، ويراد بها : ما تخفيه في أطوارها من اللويلات والمخاوف ؛ فهي إذا راعت غيره من الناس لا تروعه ؛ لأنه متمرس بها ، جرى عليها بقلبه وعدته وسلاحه ؛ كخبره في البيت الآتى بأنه ابن الليل . أو يراد بالظلماء : ظلمات الخلويا والمظالم التى تُفزع الناس ، وتبليهم ، وتُخسِّق وجوه الرأى والتدبير ؛ فهو أهل لتبليدها ، وإقرار الأمن والطمأنينة . والهلال : غرة القمر ، أو اليثين من أول الشهر ، أو إلى ثلاث ، أو إلى سبع . واليثين من آخره : ست وعشرين ، وسبع وعشرين ؛ ويرى حينئذ في السماء كأنه قوس من الضياء . والنجى : الظلمات ، وأحدتها دجية . والقيوس آلة حل شكل نصف دائرة ، أو على هيئة الهلال ، ترى عنها السهام ؛ تذكر ، وتُؤسِّس . والنيل : السهام العربية ؛ لا واحد لها من لفظها ، بل الواحد سهم =

أَنَا ابْنُ الْوَعَى، وَالْحَيْلِ، وَاللَّيْلِ، وَالظُّبَى وَسُمِرِ الْقَنَا، وَالرَّأْيِ، وَالْعَقْدِ، وَالْحَلِّ (١٠)

— وهو عود من خشب، يُسَمَّى، في طرفة فصل محمد من الحديد الصلب، يرى به المحارب، أو السائد، أو نحوها من القوس ونحوها. وفي الشطر الثاني تشبيهان مقلوبان: « هلال الحجى قوسى، وأنجمه نَجَلٌ » : قوسه كهلال الحجى، وقبلة كتجوم الليل، أو كالتجوم الذى تبدو في السماء كأنها قرية من الهلال، وكلاهما يمدد الحجى، ويمزق الظلمات.

يمتد بمدته وسلاحه، ويفخر بشجاعته وإقدامه على الأحوال والأخطار إذا أحسب غيره، وتملكه الفزع. (١٠) تكنى العرب بابن كذا عن ملازمه، أو الخاطر عليه، أو المتبرس به، أو الماهر فيه. والوعى: الحرب؛ وهو في الأصل الصوت والجلبة. وابن الوعى: الشجاع المقدم، المتبرس بالقتال، الشديد البأس في الحروب. والحيل: جماعة الأفراس، لا واحد لها من لفظها. وابن الحيل: الفارس الماهر في ركوبها، والمحارب على ظهرها، والذى يحسن استخدامها في القتال وغيره. وابن الليل: راكب الأحوال والمخاطر، الذى لا يتهيب الأخطار، ولا يبالها. والظُّبَى: جمع ظبة: وهى حدة السيف، أو حدة السنان، أو حدة الخنجر، أو نحو ذلك. وسمر: جمع سمراء: صفة من السمرة: وهى لون بين السواد والبياض. وسمر القنا: القنا السمر: جمع قنات: وهى الرمح: وهو صفاً مستوية، أو عود خشبى يُسَمَّى، ويركب في رأسه سنان حاد من الحديد الصلب، يطمئن به. والسمرة من صفات الجودة في القنا والرمح؛ لأن القنات إذا صلبت « سمرت » لونها. وابن الغلبا والقنا: كناية عن خبرته بالأسلحة وأدوات الحرب والقتال، وتبرسه بها، واعتياده عليها، ومهارته في استخدامها. والرأى: العقل، والإصابة في التدبير. ورجل ذو رأى: ذو بصيرة، وحذق بالأمور. وابن الرأى: الثقات في صفة التفكير، وإحكام التدبير، وقوة الإدراك، وصديق الفراسة، والخبرة الواسعة. والعقد: مصدر عقدت الحبل ونحوه (من باب ضرب): أى شدته، وربطته. وأوثقته، وأحكمت؛ أو جعلت فيه عقدة؛ وصققت طرق الحبل ونحوه: وصلت أسدها بالآخر بمقدة تمسكهما، فأحكمت وصلهما، ومن الهجاز: عقدت النبع، واليمين، والعهد، ونحوه: أى أكثته. والحل: ضد العقد: مصدر حللت العقدة (من باب رد): أى نقضتها، وفككتها، وفتحتها؛ ومن كلامهم: « فلان حلل للعقد والمشكلات، كاف المهمات ». وابن العقد والحل: كناية عن سيادته ورياسته، ورجوع الناس في مشكلاتهم إليه، وإعتمادهم في المهمات عليه. ويتيمم الصلة قوية وثيقة بين « ابن الرأى » و « ابن العقد والحل »؛ فإن العقد والحل لا يكونان إلا بسداد الرأى، والإصابة في التدبير.

جميع الشارح في هذا البيت ثمانية من مناقبه ومفاخره في الحرب والسلام، لم يركب في واحدة منها من الشطط، أو المبالاة؛ فهو فارس محارب، شديد البأس، صلب المراس، يقتسم الظلمات، ويصول =

فَقُلْ لِلَّذِي ظَنَّ الْمَعَالِي قَرِيبَةً رُوَيْدًا، فَلَيْسَ الْجِدُّ يُدْرِكُ بِالْهَزْلِ (١١)
فَمَا تَصَدِّقُ الْأَمَالَ إِلَّا لِغَائِكَ إِذَا هُمْ لَمْ تَعْطِفْهُ قَارِعَةُ الْعَلَلِ (١٢)

« في المجهاد معصداً على عنقه وسلاحه ، لا يبالى المخاطر والمخاوف ، ولا يكثر للأهوال والشدائد .
وهو إلى هذا كله سيد مطاع في قومه ، راجح العقل ، شديد الرأي ، صائب التدبير ، قوي الإرادة ،
واسع الحيلة ، يتصرف في الأمور العامة بحقق وبصيرة ، ويسوس الناس بلباقة وكياسة ؛ ولهذا يرجعون في
مشكلاتهم إليه ، ويستمعون في المهمات عليه .

(١١) المال مفعول به أول له ظن منسوب بالفتحة الظاهرة على الياء ، وإنما سكنت هاء
لضرورة وزن الشعر : جمع الملاحة : وهي الرفة والشرف . ورويداً : مهلاً ، لا تسجل : تصغير
« رويد » (يوزن عود) ؛ من قولهم : امش على رويد : أي على مهل ؛ أو هو تصغير « الإرواد » على
الترخيم ، مصدر أريد في مثبه : أي رفق ، وتمهل ، واتكأ ، وتأنى ، ولم يسجل . وأجلد (بكسر الجيم) : ضد
الفرل ، أو هو (بفتح الجيم) : مصدر جد (من باب ضرب) : أي عظم في عين الناس ، وعلت مكانته
بهم . والخصى على الأول : أن المال من الجد الذي لا يعقل أن ينال بالهزل ، فالحمدان لا يلتقيان . وعلى
الثاني : أن العظمة من المال التي لن يدركها المازلون .

اختصر الشاعر في البيت السابق بيان من مناقبه في الحرب والسلام ، وكلها من ممال الأمور . وفي هذا
البيت لصح وأريد ؛ فقال الذي ظن المال دانية قريبة ، حيث يسيرة ؛ فتمناها بأيسر الوسائل ، وأهون
الأسباب : تمهل ، واتكأ ، ولا تتأذى فذلك هذا ؛ فإنك وأهم غاطي ، بل هازل مازح ، ولن تدرك
العلياء إلا بأجلد والصرامة ، والتعويب والاجتهاد .

(١٢) الآمال : جمع الأمل : وهو الرجاء . مصدر أمله « كطلبه » : أي رجاءه ، وترقبه . وتصدق
الآمال : يظهر بها الأمل ، ويتحقق له . والثباتك : الجري الشجاع المقدم ، الماضي في الأمور : اسم
فاعل من فلك (كضرب) ونصر : أي ركب ما تدعو إليه نفسه ، غير مهال . وهم بالشيء
(من باب رد) : أرادوه ، وقصدوه ، وحزم على القيام به . ولم تعطفه : لم تنهه ، ولم تصرفه . (ويابه
ضرب) . وقارعة العذل : ما يقرع صمه من القوم : أي ما يطرأ أذنه ؛ مستعار من قرع الباب :
أي طرقه ، وحقه ، وضربه ، ونقر عليه مستفتحاً . والقارعة أيضاً : للقارصة . وقوارح اللسان : قوارص
الكلم . والبذل : مصدر عذله (من باب ضرب ويقتل) : أي لاهه .

يقول : إن الأماني لا تتحقق إلا للرجل الماضي الجري الشجاع ، الذي هم بالأمر ، فيعظم عليه ،
يعنى فيه ، لا يعبره علوم الآخرين ، وبذل المذايبن .

لَهُ بِالْفَلَا شُغْلٌ عَنِ الْمُدْنِ وَالْقَرْيِ وَفِي رَائِدَاتِ الْخَيْلِ شُغْلٌ عَنِ الْأَهْلِ (١٣)
إِذَا ارْتَابَ أَمْرًا أَلْبَسَتْهُ حَبِيطَةٌ تُمِيتُ الرُّضَابَ السَّخِيطَ ، وَالْعِلْمَ بِالْجَهْلِ (١٤)

(١٣) له : لفاتك . والفلا : الفلوات ، الواحدة فلاة (يوزن قناة) : وهي القفر ، والمغارة
لا ماء فيها ، والصحراء الواسعة . وشغل (يضم فسكون ، أو يفتح فسكون ، أو يضمين ، أو يفتحين) :
الاسم ، أو المصدر من شغل من الشيء (من باب منع) : أى طَءاه عنه وصرفه . وشغل بكلاً عن كذا (بالبناء
المجهول) : أى اشتغل بالأول ، وانصرف عن الآخر . والمدن (يضم فسكون ، أو يضمين) : جمع
مدينة . والقري : جمع كل غير قياس لقريه . و « في » : بمعنى الباء ، أى وله برائدات الخيل شغل من
الأهل ، كما في قول الشاعر :

ويركب يوم الروح منا فولوس بصيرون في طعن الأباهر والكل

أو هي لظرفية : أى وفي رائدات الخيل ما يشغله عن أهله . ورايدات : جمع رائدة : اسم فاعل
من راد الشيء (من باب قال) : أى ذهب ، وبياء ، ودار ، وتنتقل في طلبه ، والبحث عنه . وأهل المرء :
عشيرته ، وذو قرباه . ويريد بالفلوات ، ورايدات الخيل : حياة الخطاة والجلاد ، والمغارة والكفاح ،
وركوب الصعاب والمخاوف ، واقتحام الأخطار والأحوال ، والتنقل في طلب المال ، ومكاسب الغرف .
ويريد بالمدين والقري ، والأهل والعشيرة : حياة الإقامة والراحة ، وعيش التميم والرفاهية ؛ وهذا البيت
متصل بالذي قبله .

والمنى : إنما تتحقق الأمان ، وتصلق الآمال لفاتك هام ، وفارس مقدم ، مشغول من أهله وعشيرته ،
ومطارة العيش وراحته بمجوب الفلوات ، وقطع المفايزات ، وركوب الأخطار ، لبلوغ الأوطار . وفي
البيتين أن الإغلاذ إلى النعيم والرفاهية ، وإيثار الراحة والعافية ، والاستباح لذل الماذنين ، ولوم اللاتمين -
يخيب الأمل ، ويكذب الرجاء .

(١٤) ارتاب فيه ، وارتاب منه ارتياباً : وجد فيه ما يريبه : أى ما يوقه في الريبة : وهي الغشّة ،
والهمة ، والشك ، وقلق النفس ، وإنزعاجها ، واضطرابها . وارتاب به : انتَهَسَ . ويبدو من المعجمات التي
بين أيدينا أن « ارتاب » من الأعمال اللازمة ، ويتصدى بى ، أو بمن ، أو بالباء ، وقد توسع الشاعر في
استعماله هنا ، فذاه بنفسه ، ونصب « أمراً » على لزج الخافض . والأمر : الشأن ، والحال ، والحادثة .
وارتاب أمراً : أحس أن في هذا الأمر شراً . أو توسس منه ما يكره . وفاعل « ارتاب » ضمير « فالك »
في البيت الثاني عشر . وألبيته : هيئته ، وصمته : مستعار من ألبيت النار إلهاباً : أى أيقظتها ،
وأذكيها . والحبيطة : الحمية ، والغضب في الشيء الذي ينبغي أن يحفظ ويصان : اسم من الحفاظ والمحافظة :
وهي حماية الماهرم ، وصيانتها ، والدفاع عنها . والصبر : والآفة ، وتهدئة سورة الغضب ، وتأخير
حقاب المتدنى . ولجلجل : ضد الحلم . ومعنى الشعر الثاني : أن الحبيطة تغير في نفس الفاتك السخط والجهل -

فَلَا تَعْتَرِفْ بِالذُّلِّ خَوْفَ مَنِيَسَةٍ فَإِنَّ احْتِمَالَ الذُّلِّ شَرٌّ مِنَ الْقَتْلِ^(١٤)
وَلَا تَلْتَمِسْ نَيْلَ الْمُنَى مِنْ خَلِيقَةٍ فَتَجْنِيَ شِمَارَ الْيَأْسِ مِنْ شَجَرِ الْبُخْلِ^(١٥)

= فيطلبان على الرضا والخلم ؛ فلا يبيى لهما أثر أو حياة .

يقول : إذا راب ذلك الفاتك أمر ، ورأى فيه ما يكرهه - اشتدت لذه حسامته ، وقويت لئمه حميته ، وصاحبه بالسخط والغضب ، والجهل والبطلان ؛ وهو في هذه الحالة لا يرضى ، ولا يحدا ، ولا يعرف سبيل الخلم أو الهوادة أو الأناة .

(١٥) اعترفت بالثبوت : أقررت به على نفسي ؛ ومنه الاعتراف بالذنب . واعترفت للشيء : انقذت له ، وصبرت عليه ؛ والمعنى الثاني هو المراد هنا ؛ ولو وُضعت « اللام » موضع « الباء » : « فلا تعترف للذنب » لدل القيل على المعنى المراد بلا توسع ، ولا تأويل ، ولا تضمين . وتأويل العبارة مع « الباء » : لا تصبر مثلباً بالذنب مخافة الموت ؛ أو لا تعترف بأنك ذليل ، بل أنكر الذل ، وكافحه ، ولا تقم عليه . وإنيته : الموت .

والمعنى : أن الحياة الطيبة المزينة الكريمة لا تكون إلا مع الحرية ، والعزة ، والكرامة ؛ فادفع عن نفسك المذلة والهوان ، ولو قتلت في سبيل ذلك ؛ فإن الموت في هذا السبيل شرف وخلود .

وفي مثل هذا المعنى ، أو فيما يقرب منه يقول أبو العلي المتني :

ذلٌّ من يهبط الدليل يعيش ربّ عيش أخفّ من الحسام
من ينسج الهوان عليه ما يلجرح بميت ليلام

ويقول في الحصف على طلب العزة ، وإيلاء النفس والمذلة :

عش عزيزاً ، أو مت وأنت كريم بين طعن القنا ، وخلق البند
فر دس الرياح أذهب للم غلّ ، وأشنى لغلّ صدر الحفود
لا كما قدّ حبيبت خير حميد وإذا متّ متّ خير فقيه
فاطلب المزم في لظى ، وذر الذلّ لـ ولو كان في جنات الخلود

(١٦) لا تلتبس : لا تطلب . والمعنى : الأمان ، والآمال ، وإيحائها منية . والخلقة : كل ما خلقه الله تبارك وتعالى ؛ ويراد بها هنا : الناس . وثمار اليأس : اليأس الشبيه بالثمار ؛ جمع ثمرة . وشجر البخل : البخل الشبيه بالشجر .

والمعنى : أن البخل غالب في الناس ، مسطر عليهم ، متحكّم فيهم ، متمكّن منهم ؛ فإذا أمتهم ، ورجوت غيرهم - انقطع أملاك ، وغاب فيهم رجالك ، وأخلق سمائك ، فذهبت أمانيتك أدرج الرياح ، =

فَمَا النَّاسُ إِلَّا حَاسِدٌ ذُو مَكِيدَةٍ وَأَخْرَجَ مَخْنِيَةَ الضُّلُوعِ عَلَى دَخَلِ (١٧)

= وأحدثت بك ظلمات اليأس ، وأمتعتك حمرات الإخفاق .

والغرض التمسح والإرشاد ؛ كى يتمد المنصوح له حل نفسه في تحقيق آماله ، وإدراك رفائيه ، نافعاً يده من الناس . فإن شرم غالب ، وغيرهم قليل . وفي البيتين الآتين تشديد هم ، وتصريح بيمض عيوبهم .

وفي الشراء رفاقة إحساس ، ورقّة شعور قد تذكي فيهم روح التبرّم والتشالام ، وتضرب عليهم مثل هذا الجرّ النفساني القاتم ، وتحملهم على التزيّد والمغالاة في مثل هذا المقام إذا أعفقت بعض مسامهم ، وعجاب رجائهم في بعض من يأملونهم .

(١٧) حاسد : اسم فاعل من الحسد : وهو أن يتنى الحاسد زوال نعمة المحسود ، وانتقالها إليه . والمكيدة هنا : الخديعة ، والخبث ، والمكر السيئ : اسم من كاده ، وكاد له (من ياب باع) : أى مكرهه ، وعدده ، وأراد به سوء . ومخني : الضلوع : من إضافة اسم المفعول إلى نائب الفاعل : أى مخنيّة ضلوعه : وهى عظام قعر الصدر ، وأحبتها الفسلح (توكّلت وقد كُتِر) . والدخل : فساد الطوية ، والغيب ، والرغبة ، والفدر ، والمكر ، والخديعة .

حصر الناس ، وتصرم على فريقين ، أو طائفتين ، أو رجلين : حاسد كائد ، وفساد الطوية معيب . وهذا وصفهم جميعاً بالتعاسد ، والتباغض ، والتكايد ، والتخادع ، والخبث ، والدغل ، والفساد ، والرغبة ، والمكر السيئ ، وكلّ ما تحويه كلمات الحسد ، والكيد ، والدخل من التناقض ، والمساوى ، والمحابيِب الخفية والظاهرة ؛ فعلى في السخط عليهم ، والتشديد بهم .

وقد يشتدّ حقّ الشاعر على من ساءه نجرهم من الناس ، وأصابه شرمهم ؛ فيلهب هذا الملهم ، ويبالغ فيه :

ومن هذا القليل قول التائي :

عوى الذئب ، فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوت إنسان ؛ فكنت أليز

وقول الآخر :

ظننت بهم غيراً ، فلما بلرّتهم نزلت برود منهم غير فنى زرع

وقول أبي فراس الحمداني :

وقد صار هذا الناس إلا أتلّهم ذئاباً على أجسادن ثياب

وقول الشاعر :

لا يفرّئك ما قرى من أناس إن تحت الضلوع داء دويّا =

تَبَاعُ هَوًى ، يَمْشُونَ فِيهِ كَمَا مَشَى وَصَمَاعُ لَقَوِ ، يَكْتَبُونَ كَمَا يُعَلِّمُ (١٨)

وقول شوقي في رائيته الطويلة التي عنوانها : « أبو الهول » :

وما راعهم خير رأس الرجال على هيكل من ذوات الظفر
ولو صوروا من نواحي الطباع تولوا عليك سباع الصور
فيا رب وجه كصافي النمر تشابه حامله والنسر

(١٨) تباع : خير لمبتدأ مخلوف ، والتقدير : هم أي الناس تباع هوى : جمع تبع (بوزن سريع) : وهو التابع الذي يتبع غيره ، وينقاد له . والهوى : مصدر هوى الشيء (من باب صلى) : أي مال إليه ، وأراد ، واشتاء ؛ وأكثر ما يستعمل في الميل المسموم ، وهو المراد هنا : أي ميل النفس إلى الشهوات التي يستكرها العقل والدين ؛ وقد يطلق الهوى على النفس المائلة إلى الشهوة ؛ وقد يراد به الشيء الموهى ، وشلب على غير المصمود ؛ وإذا أريد ذم امرئ قيل : إنه أتبع هواه . وهو من أهل الأهواء . وفي القرآن الكريم : « ولا تلعب من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه وكان أمره فرطاً » الآية رقم ٢٨ من سورة الكهف . ويمشون فيه : يمشون في الهوى : أي في مسالكه وطرقه ؛ أو يمشون فيه : فكلمة « في » معناها المصاحبة . و « كما مشى » : كما مشى الهوى : أي يمشون مثل مشيه ، ويقفون به ؛ وهو تأكيد ، وتفصيل ، وتمثيل ، وتجسيم لمعنى « تباع هوى » . وصَمَاعُ : جمع سامع . والقَوِ : الباطل ، والسقط ، وما لا خير فيه من الكلام . وأولى عليه الكتاب إِمْلَاءً : قاله له ، فكتبه . وقَالَ : وعمل . ضمير « القَوِ » . و « يكتبون كما يعلِّم » : تأكيد ، وتجسيم ، وتفطيم لمعنى « صَمَاعُ لَقَوِ » ؛ فهم لا يكتبون بسامعه ، بل يحرصون على كتابته ، ويقيده ، وحفظه ، وترويجه .

وصلة هذا البيت بالذي قبله وثيقة واضحة ؛ فالشاعر متبرم بالناس ، سائح عليهم ، نافر منهم ؛ ولهذا صوّره في البيت السابق حاسدين كائدين ، قد أضلّوا نفوسهم على الضغن والتندر ، والخداع والفساد . وفي في هذا البيت عيب أهوائهم ، وأسرى شهواتهم ، مولعون بالقَوِ والباطل وما لا خير فيه ؛ يستمعون له ، ويحرصون على تدوينه وكتابته .

وهذا البيت ختام ثمانية أبيات (من الحادى عشر إلى الثامن عشر) جاءت فيها يشبه النصيح والإرشاد ، أو الحكمة والمثل ، وتضمنت أحسن حل طلب المال ، وتحصيل مزاياها ومؤهلاتها من الجراحة والإقدام ، وضخامة الهمة ، وسلابة العزم ، وقوة الإرادة ، وشدة البأس ، وإرشاد حياكة الكفاح والمخاطرة على حياة التعميم والندوة ؛ ثم حُسْنُ حلّ إياه الفهم ، ورفض المذلة ، ودفع الأريب والكراهة بالخليفة الذاكرة ، والحكمة المتقيدة ؛ ولما غاب أمل في كثير من الناس ، وصامه مخبرهم ، وأصابه شرهم - ندّد بهم ، وشهرهم ويبرهم ، وأبش منهم .

وهو في البيت الآتي والأبيات التالية إلى آخر القصيدة يعود إلى الفخر بمناقبه وعلمه .

وَرُبُّ صَدِيقٍ كَشَفَ الْخُبْرَ نَفْسَهُ فَعَايَنْتُ مِنْهُ الْجُورَ فِي صُورَةِ الْعَدْلِ (٢٣)

= من الدُّخْلِ والفَلِّ ، والضمن ، والحقد . ودأب : عاقب ، وشأن : والحجة : الدليل ، والبرهان . وأبصرت : حبسى : رأيته ، وصرفته ، وعلمتها ، واستعلت الإتيان بها ، وإقامتها ؛ وهذا كناية عن الرشد ، والتمييز ، والإدراك ، ونفع العقل والفكر . وليدأ : صعباً ، أو غلاماً . ويعرب حالاً : أى أبصرت حتى حالة كفى وليدأ . والسمة : الأمانة ، والعلامة . والتبل : الفضل ، والشرف ، والمظنة ، والذكاء . والتجاية ، وبيعة الرأي ، وكرم الشئائل .

يقول : إنه اعتاد منذ صفره الفضائل التى أشار إليها فى ثلاثة الأبيات السابقة . وفى البيت فصر بأنه بلغ الرشد وهو وليد ، وامتاز بنفع العقل ، وصحة التفكير ، وإقامة الحجّة . فكان غلاماً ناشئاً . « وصب » الخير من سمة التبل : تذييل جاد يجرى المثل ، وصلته بمعنى هذا البيت : أن الفضائل التى أشار إليها ، وتعدها بها - من الخير والبر - وأن حبها والتحلل بها من أمارات التبل ، والمظنة ، والشرف ، والفضل ، والذكاء ، والتجاية ، وكرم الحسب ، وبيعة الرأي ، وحسب الشئائل .

(٢٣) « رب » : حرف جرّ ، يفيد التقليل ، أو التكثير ؛ وسياق الكلام هنا يرجّح أنها التكثير ؛ لأن الشاعر بعهد الشكوى من شيوخ التفاق ، وإضهار الظلم ، وكثرة الخداع ، وقلب النواد . وكشّف الشيء : كشفه ؛ مهالة فى كشفه (من باب ضرب) : أى أظهره ، ورفع عنه ما يواريه ويغطيه . والخبر (بتثنية الخاء) : الاختبار ، والتجربة ، والامتحان (وفعله من باب نصر) . وعايّنت رأيت وأبصرت . والجور : الظلم .

يقول : وكم صديق كشفته بالاختبار والتجربة حقيقة ، وما انطوت عليه نفسه ، فرأيت بحور حل - ، ويظلمنى كاسياً ظلمه ثوب العدل ؛ أو رأيت يهينى بالعدل ويعالته ، وهو فى حقيقة جائر ظالم .

والشراء فى مثل هذا المعنى ، أو قياً يقرب منه شمر كثير جرى مجرى النصيح والإرشاد ، أو الحكمة والمثل ؛ ومنه قول الشريف الرضى :

لا تجعل " دليل المرء صورته كم مخبر سمج من منظر حسن
وقول غيره :

يعطيك ودأ صادقاً بلسانه ويمن " تحت ضلوعه ألوانا
وقول الأبيرونى :

يلفكك والسمل المصنى يحضى من قوله ، ومن الفحال الملقم =

وَهَبْتُ لَهُ مَا قَدْ جَنَى مِنْ إِسَاعَى وَلَوْ شِئْتُ، كَانَ السَّيْفُ أَذْنَى إِلَى الْفَصْلِ (٢٧)
وَمُسْتَخِيرٍ عَنِّي، وَمَا كَانَ جَاهِلًا بِشَأْنِي، وَلَكِنْ عَادَةُ الْبَغْيِ لِلْفَضْلِ (٢٨)

= يبدى المولى ، ويثور - إن عرشت له فرص - عليك ، كما يثور الأرقم .
يقول أبي تمام :

إِنْ شِئْتُ أَنْ يَمُوتَ ظَنُكَ كُلَّهُ فَأَجْلُهُ فِي هَذَا السَّوَادِ الْأَصْفَرِ
لِلسَّيْفِ الصَّدِيقِ مِنْ يَمِينِكَ ظَاهِرًا مَتَّحِمًا مِنْ بَاطِنِ مَتَّحِمًا
ويقول الشريف الرضي أيضًا :

وَكَيْفَ صَاحِبِ كَالْبَرِجِ زَاغَتْ كَمُورِهِ أَيْ بَعْدَ طَوِيلِ الْعَمْرِ أَنْ يَتَقَوَّيَا
لَقَبِلْتُ مِنْهُ ظَاهِرًا مَتَّحِمًا وَأَدْمِجُ دَوْقِي بِاطْنًا مَتَّحِمًا
وَلَوْ أُنْشِئْتُ كَشَفْتَهُ عَنْ ضَمِيرِهِ أَقَمْتُ عَلَى مَا يَمُنُّنَا الْيَوْمَ مَا مِمَّا

(٢٤) وَهَبْتُ لَهُ الثَّوْبَ : أعطيته لِيَاذَ يَلَا عَوْسِي . وَهَبْتُ لَهُ إِسَاعَى ، أَوْ جَرِيرَةَ ، أَوْ جَنَانِيَّةَ : هَدَيْتُهُ عَنْهُ ، وَلَمْ أَمَاتِهِ بِهَا . وَنَ كَلَامُهُمْ : « الْهَمُّ هَبْ لِي ذُلُوبِي » : أَيْ أَفْزَلِي ذُلُوبِي . وَيَتَنِي جَنَانِيَّةَ : أَوَّلُكَ ذُلُوبًا . وَأَذَى : أَقْرَبُ . وَالْفَصْلُ : مَصْدَرُ فَصْلَ بَيْنَ الثَّمِينِ (مِنْ بَابِ غَرِبَ) : أَيْ لَفَزِي . وَفَصْلُ الثَّوْبِ عَنْ غَيْرِهِ : أَهْمَدُهُ عَنْهُ ، وَأَبْهَلُهُ عَنْهُ . وَفَصْلُ الْخَاسِمِ بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ : قَفْصٌ ، وَحَكْمٌ . وَفَصْلُهُ : قَطْعُهُ ؛ وَمِنْ فَصْلِ الْخَصْمِيَّاتِ : وَهُوَ الْحَكْمُ يَقْطَعُهَا ، وَالْقَضَاءُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ : أَيْ الْمَسَاوِزَ بَيْنَهُمَا . وَكَانَ السَّيْفُ أَذْنَى إِلَى الْفَصْلِ : يَشْعُرُ أَنْ إِسَاعَى صَاحِبِهِ إِلَيْهِ كَانَتْ مَثِيرَةً جَدًّا ، وَأَنَّهُ حِينَئِذٍ كَلَّمَ غِيظَهُ ، فَتَجَاوَزَ عَنْهَا ، وَوَجَّهَ لَهُ - إِنَّمَا تَجَاوَزَ عَنْ ذَنْبِ ظَنِّي ، يَكَادُ يَحْمِلُ عَلَى الْإِنْتِقَامِ بِالْإِعْدَامِ .

يقول : إِنَّهُ عَظَا مِنْ صَدِيقِهِ الْكَلْبِي جَنَى عَلَيْهِ ، وَأَسَاءَ إِلَيْهِ ؛ وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَمَاقِيهِ لَأَنْتَقِمَ مِنْهُ شَرَفَاتِقًا ، أَوْ لَكَانَتْ الشُّدَّةُ وَالْقَسْوَةُ أَحْسَمَ حَلَاजٍ لِدَائِهِ ؛ وَقَدْ وَصَفَهُ فِي الْقَبِيَّتِ السَّابِقِ بِالنَّفَاقِ ، أَوْ حَسَنِ الْمُنَظَرِ ، وَفِيهِ الْغَيْبُ ، أَوْ إظهارُ الْفُكْلِ ، وَإِظهارُ الظُّلْمِ ؛ وَهَذِهِ كَلَّمَهَا أَدْوَاهُ ، أَوْ إِسَاءَاتِهِ ، أَوْ جَنَانِيَّاتِهِ تَسْتَحِقُّ شَرَّ ضَرْبِ الْعُقُوبَةِ وَالْإِنْتِقَامِ ؛ وَيَرْتَقِعُ الصَّفِيقُ عَنْهَا ، وَالْتِمَاسُ فِيهَا إِلَى أَسْمَى مَرَاتِبِ الْحِلْمِ ، وَالْكَرَمِ ، وَالْإِنْقِصَاءِ .

(٢٥) وَمُسْتَخِيرٍ : وَدَّعٍ مُسْتَخِيرٍ : اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ اسْتَخِيرَهُ : أَيْ سَأَلَهُ عَنْ الْخَبَرِ ، أَوْ طَلَبَتْ مِنْهُ أَنْ يُنْصَحَ « إِلَى » مَا عِنْدَهُ مِنَ الْأَخْيَارِ . وَالْوَاوُ الثَّانِيَّةُ : وَאוُ الْحَالِ . وَجُمْلَةُ « وَمَا كَانَ جَاهِلًا » بِشَأْنِي : : حَالٌ مِنَ فَاعِلٍ « مُسْتَخِيرٍ » ؛ وَهُوَ ضَمِيرٌ مُسْتَرٌ تَقْدِيرُهُ « هُوَ » : أَيْ وَدَّعٍ مُسْتَخِيرٍ عَنِّي وَهُوَ يَمُرُّ . وَيَهْجُلُ الثَّوْبَ ، وَيَهْجُلُ بِهِ : لَمْ يَمُرْهُ (وَبَابُهُ هَجَمَ) . وَالشَّانُ : الْأَمْرُ ، وَالْحَالُ . =

أَتَى سَادِرًا ، حَتَّى إِذَا قَرَأَ وَجَسَتْ سُودَاوُهُ شَرًّا ، فَأَغْضَى عَلَى ذَلِكَ (٢٦)
وَمَنْ حَدَّثَتْهُ النَّفْسُ بِالْعَنَى بَعْدَ مَا تَنَاهَى إِلَيْهِ الرُّشْدُ سَارَ عَلَى بَطُلٍ (٢٧)

= والفعل : الإحسان ، أو الابتداء به بلا حلة ؟ ورجل فاضل : متصف بالفضل ، أو بالفضيلة : وهي المزية ، والدرجة الرفيعة في الفضل ، وحسن الخلق . وشدّ الفضل والفضيلة : النقص ، والتقصير ، والذيلة . وأسهمت الفضائل : اللغة ، والحكمة ، والعقل ، والشجاعة .

والعنى : وربّ حاسد حاقّد مغيظ ، يستخبر حنى وهو يرمى ، ويؤمّن بقضائى ؟ وإنما كان استخباره من تجاهل العارف المتيقظ الحق ، الذى لم يقصد به غير محاولة الخطّ من قدرى ، والتعاطل حنى ، كأنى رجيل شامل مشور مجهول ؟ ولا غرو ؟ فإن هذه عادة ذوى النقص الذين يمتحنون من يفرقهم بفضل ، ولا يمترونها بغيره من مزايده ؟ وإنما يعرف الفضل من الناس ذويه .
وفى البيت الآتى تكملة وتفصيل لقصة ذلك المستخبر .

(٢٦) فاعل « أتى » : ضمير « مستخبر » فى البيت السابق . وسادراً : غير مهمّ ، ولا مبال ما صنع . ورجل سادر فى العنى : متحير ، تائه فى الضلال . وقَرَأَ : استقرّ ، وسكن ، وأطمأن ، وثبت . وأوجست : أحست ؟ وقد يعمل الإحساس معنى التخوف . وسوداء القلب : حبه ؟ ويراد بالسوداء هنا : القلب . وأغضى على الأمر : سكت عليه ، وصبر . وإلذل : ألغى ، وأهوان : ومثله الدالة ، والمثلة .

والعنى : أن هذا الذى استخبر حنى حاسداً لى ، حاقداً على ، مغيظاً حنى ، متجاهلاً لفضل - جاء متكبّراً ، سادراً فى فيه ، تائباً فى ضلاله ، لا يهمّ ، ولا يبال ما صنع ، حتى إذا سكن ، واستقرّ ، وعاد إليه شيء من رشده ، واكتباهه ، وصوابه - أحسّ أنه ارتكب ذنباً ، واقترب جرمياً ، فاستشعر قلبه القزح والخوف ، وتوجّس الشر ، وصوّر الخزاء ؟ فسكت سكوت الدليل المهيّن ، وأغضى إخضاع الضعيف الحقير .

(٢٧) حدثته نفسه بالعنى : زيّنت له ، وحدثت إليه ، وأوقعت فيه : مصدر غوى (كرمى) : أى آمن فى الجهل والضلال ، أو هو جهل من اعتقاد فاسد : أى جهل سببه فساد الاعتقاد ، ومثله الغواية . وشدّه الرشد : وهو الاستقامة ، والاعتدال ، والصلاح . وتناهى إليه : بلغه ، ووصل إليه . والبطل : الباطل ، والنقص ، والحقية ، والخسران ، والفساد . ومثله البطلان . ولفقيه الحق .

والعنى : أن الذى يمنع العنى ، ويؤثر الضلال ، بعد أن يرى الرشد ، ويلتزم حلاوته ، ويستبين مسالك الاستقامة والصلاح - إنما يستبدل الشر بالخير ، ويشترى الضلالة بالهدى ، ويغبط فى ظلمات الفساد والبطلان ، ويختار لنفسه النقص والخسران .

وَأَمَّا لَا تَسْتَحْيِي مِنَ الْمَجْدِ أَنْ أَرَى صَرِيحَ مَرَامٍ لَا يَفُوزُ بِهَا خَصْلِي^(٢٨)
 أَقُولُ ، وَأَتْلُو الْقَوْلَ بِالْفِعْلِ كُلَّمَا أَرَدْتُ هُوَ يَشْسُ الْقَوْلَ كَانَ بِلا فِعْلٍ^(٢٩)
 أَرَى السَّهْلَ مَقْرُونًا بِصَحْبٍ ، وَلَا أَرَى بِغَيْرِ اقْتِحَامِ الصَّعْبِ مُلْزَكَ السَّهْلِ^(٣٠)

== وصلة هذا البيت بالبيتين السابقين : أن الذي ينفخ القنبل والفضلاء ، ويتجاهل قدرهم ، ويحاول
 الحط من شأنهم - بمن في الفى ، سادر في الباطل ، منحرف عن الحق .

(٢٨) الاستحياء : الاحشام ، والتجمل ، والانقضاء . والمجد : العز ، والشرف ، والرفعة ،
 والعلو . وصريح : مصروح طريق : من صرحه (من باب قطع) : أى طريقه ، وألقاه على الأرض . والمرامى :
 الأهداف ، والغايات ، والمقاصد ، والمطالب ، والمآرب : جميع المرى : وهو الهدف الذى
 يصيبه الزمان ، أو المتسابقون فى المراماة . ويراد بالتفصيل هنا : السى . وهو فى الأصل مصدر حصل
 الخلف (من باب قتل) : أى أصابه . ومن كلامهم : أحرز فلان حصله ، أو أصاب حصله : إذا
 فاز وفلج .

يفخر بأنه عزيز ، شريف ، طموح ، عال القدر ، رفيع المكااة ، حريص على استيفاء مطالب
 الهدى ، ورمى الماجدين ؛ ولهذا ينجل من أن يراه الناس غفقا فى شيء من هذا ، أو مقصرا عن تلك
 الغايات ، أو صريحا دون أغراض لم تظفر بها همه ، ولم فصل إليها مسامحه ؛ فكلمها مقرونة بالفوز ،
 مكلفة بال نجاح ؛ ومجده يصفه - على النوام - إلى التفكير بما يتناضل فيه أماله من المقاصد البعيدة النبيلة ،
 والمآرب السامية الشريفة .

(٢٩) تلاء (من باب سما) يتلو : تبعه بوجه . وأتلى القول بالفعل : أجل فعل تالبا لقول ؛ فهو
 يتبعه ، ويصدقه . « ويؤس القول كان بلا فعل » : تذييل ، معناه : أن القول الذى لا يصدقه الفعل ،
 ولا يقترن بالفعل - قول هراء ، منسوم ، كاذب ، فاسد ، أجهف ، فارغ ، لا قيمة له ،
 ولا غناء فيه .

يفخر بأن إرادته قوية صارمة ، وأنه إذا قال قولاً قرره بالفعل الذى يصدقه ؛ فقولاه على النوام
 صادقة ، متبوعة بالأعمال التى تشره .

ومن شعره الذى ضم به إحدى قصائده للدالية :

كذلك ، إني قائل ، ثم فاعل ، فاعل ، وشيئى قد ينير ، ولا يسئى

(٣٠) أرى (هنا) : معنى أطم ، وأعتقد . ومقرن : مقترن ، متصل ، ملازم ، مصاحب . ==

وَيَوْمَ كَانَ النُّقَعُ فِيهِ عَمَامَةً لَهَا أَثَرٌ مِنْ سَائِلِ الطُّغْنِ كَالْوَيْلِ (٣١)
تَقَحُّمَتُهُ فَرْدًا سَوَى النَّصْلِ وَحَدَّهُ وَحَسِبَ الْفَتَى أَنْ يَطْلُبَ النَّصْرَ بِالنَّصْلِ (٣٢)

= وانضمام الصب: تخفيفه ، وتجاوزة . والمراد معاناته ، ومشاقه ، ومكابده ، ومقاساته ، والتغلب عليه : مصدر انضم نهرًا ، أو حربة ، أو وحدة : أي رعى بنفسه فيها ، حل شدة ومشقة . ويدرك : إدراك ، وبلوغ : مصدر ميمي لأدركت الشيء إدراكًا : أي لحقته ، وبلغته ، ووصلت إليه . يقبل : إن أيسر الأمور مقرونة بصعابها ، وإن الميّن السهل منها لا ندركه إلا إذا تخطينا إليه الصبر الصب .

(٣١) ويوم : ورب يوم . بتقدير « رب » التي تعمل وهي مخلوقة بعد الوار . ويجريها تكرار . وهي هنا تلميح التذكير ؛ لأن الشاعر يقتصر بشجاعته ، وإقدامه ، وكثرة ما خاضه من معامع القتال ، وأيام الحرب والنزال . والنقع : الدبار . وفيه : في ذلك اليوم الذي يصف شدة القتال فيه . وغمامة : سحابة . وما : وأثر الشيء : ما يحدثه . وأثر الغمام : المطر . والطن : مصدر طمنه بالريح ونحوه (من بابي منع ، ونقل) : أي وعزه به ، وضربه ، فجرحه ، أو قتله . أوى الطن (بضم فسكون) : جمع طنين : بمعنى مطعون ، كقتيل بمعنى مقتول . ويراد بسائل الطن هنا : الدماء الغزيرة الجارية ، التي تسيلها طعنات الرياح ، وضربات السيوف . والويل : المطر الغزير ، الشديد ، الضخم القطر . وظله الوابل .

يقتصر بشجاعته ، وبسالته ، وإقدامه ، وكثرة ما خاضه من معامع القتال ، وما شهد من أيام الحرب والنزال ، قاللاً : « رب يوم اشتدت فيه جولات المتحاربين ، وتمايت حركات الكر والفر ؟ حتى انقذ في سماء المعركة غبار كثيف ، أثارته — مع شتاتك الخيل — هذه الجولات والحركات ؟ فكان كالسحابة الماطرة ، وكان مطرها الشديد الغزير ما تفجر ، وسال ، وتصبب من دماء القتل والجري .

(٣٢) تقحمت : تقحمت ذلك اليوم : أي دخلت فيه ، وخضت غماره بجرأة وإقدام وشجاعة ، واجتملت شدائده ومكاريه ؛ من قولهم : تقحمت الفرس الهر : أي دخل فيه عتوةً ، وتقحمت الرجل الأمر : رعى بنفسه فيه حل شدة ومشقة ، وبغير روية . وفردًا : وحيدًا . وهو حال من فاعل « تقحمت » . والنصل : حديدة محددة قاطعة جارية : تكون للريح ، والسهم ، والليف ، والخنجر ، والسكين ونحوها . وحسب : اسم بمعنى كاف . وحسبه كذا : يكفيه ، ويخفيه . وبين معاني الفتي : السخي ، وذو النجدة . وبين معاني الفتوة : النجدة ، والشجاعة . وبين النصر والنصل جناس كسب الكلام حسنًا ، وضاعف بلاغة .

في البيت السابق وصف يومًا صعبًا من أيام الحرب والقتال ، وصور شيئًا من أهواله وشدائده . =

لَوَيْتُ بِهِ كَفَى ، وَأَطْلَقْتُ سَاعِدِي ، وَقُلْتُ لِدَهْرِي : وَبِكَ أَفَامُضُ عَلَى رِسْلِ (٣٣)
فَمَا يَبْعَثُ الْعَارَاتِ إِلَّا مُهَنَسِي وَلَا يَرْكَبُ الْأَخْطَارَ إِلَّا نَفَى مِثْلِي (٣٤)

== وفي هذا البيت اختبر بأنه اتهم ذلك اليوم اليوم وسيداً قريباً ، لا يؤمنه غير سلاحه الذي يحرس به ، واعتاد حسن استخدامه .

والشعر الثاني تذييل جاز مجرى المثل ، يؤكد لمضى الشعر الأول ؛ فالشجاع يكفيه في الحروب دربه وسلاحه ، ويفنيه عُدته وعتاده ؛ وبه ينال النصر ، ويقهر العدو ، ويبلغ المراد ، ويفخر بالمرام .

(٣٣) لويت به كفى : لويت بالنصل كفى . وبه : عليه ؛ فالباء هنا بمعنى « على » . يقال : لوى كفه هل المصا : أى أسكها ، قابضاً عليها بيده ، ضاماً عليها أصابعه . والساعد : الذراع ؛ وهو ما بين المرفق والكف . وإطلاق ساعده بالنصل والسلاح : كناية عن قوته ، وببرأته ، وشدة بأسه ، وقهره بالقتال والنتزال ، وحسن استخدامه السلاح وأدوات الحرب وعتاده . والدهر (في الأصل) : اسم لمدة العالم ، من مبدأ وجوده إلى انقضائه ، ويطلق على المدة الكثيرة ، والأمد الطويل ، والزمان الممتد ، ومدة الحياة الدنيا . ودهر المرء : مدة حياته . وقد جرى الناس - وبخاصة الشعراء - على تهيب الدهر ، ونسبة الشعر والخير ، والمسرّة والمساءة إليه ، وتزديد ما يصيبهم من حوادثه شاكين متوجسين . وسيطرة المرء على دهره : كناية عن عزه ومنتهى ، وجريان أموره على ما يحب وجهى . و « وى » : كلمة تعجب ؛ وقد تأتي لتزجر والسيطرة والتهديد ، وهو المراد هنا ؛ وقد يكئى بها عن الويل : وهو اللذاب ، والشّر . والكاف المصلة بها هنا : كإف الخطاب . وامض : أمر من « مضى » بمعنى ذهب ، وسار . والرسل (بكسر فسكون) : المتهمل ، والفتوة ، والثأفى ، والرفق . وامض على رسل : سز متتلاً ، وامض متأنياً ، وتعمل ، ولا تحاول الإسراع ، أو الانطلاق .

يفتخر بأنه قبض في ذلك اليوم المصيب على سيفه ، وأطلق في القتال ساعده ، وأنه بقوته وببرأته وشدة بأسه ، وكفايته الحرية المالية - استشر النزة ، والغلبة ، والسلطان ؛ وجرت أموره في حروبه على ما يحب وجهى ، وتحكم في عصره وزمانه ؛ فانقاد له الزمان وأطاعه . وهذا أبلغ من قول غيره :
ولو مدّ نفعي لحادث الدهر كلّهُ لحدّثتُ نفسي أن أمدّ له يداً
وأعنتُ مخالفة من قول الشاعر :

وإنك عدى يانمان ، وإننى على الرّيم منى أن أرى لك سيّداً .

(٣٤) يبعث العارات : يثيرها ، ويهيجها ، جميع الغارة : اسم من أغار المحاربون على أعدائهم لغارة : أى هجوموا عليهم ، وأوقعوا بهم . والغارة أيضاً : التحيل للمسرعة المفجرة . ويراد بالغارات هنا : الهجمات الشديدة ، الظافرة المنتصرة . والمهتد : السيف المطبوع من حديد الهند ، وكان غير السيوف ==

عند العرب. ويُنشد السيّد تينداً : شعله ، وأحد سنائه ، فالسيف مهتد (بصية اسم المفعول) : أي حادّ ، ماض ، قاطع ، يتأّر. والأخطار : جمع الخطر (بفتحين) : وهو الإشراف على الملاك. ويراد باللقى هنا : الشجاع ، السخيّ ، ذو النجدة : من القوة : بمعنى للنجدة ، والشجاعة ، والسفاه ، والكرم ، والحرمة . وفي مثله : في يائله ، ويشابهه في ركوب الأخطار ، وفي المزايّا ، والمحامد التي انتصر بها . وفي شطري البيت قصران بطريق النفي والاستثناء ؛ وهما من مبالغاته المقبولة في مثل هذا المقام ؛ فسلحه - لا سلاح غيره من المحاربين - هو الذي يشنّ الفارات ، ويشير الهجمات ؛ وأمثاله من الفتيان ذوي النجدة والشجاعة هم الذين يركبون الأخطار ليلوغ الأوطار .

ختم الشاعر هذه القصيدة مفتخراً بفتوته وشجاعته ، وإقدامه على اقتحام المخاوف ، وركوب الأهوال ، واعتماده في هذا ونسوه على سلحه ، وحسن استخدامه لعتاد الحرب ، وأدوات القتال ؛ وبهذه المزايّا يمجّع بأعدائه ، ويبالغ في قتالهم ، وينجزهم بهجماته الخاطفة المففّرة .

تلخيص وتعليق

انتظمت هذه القصيدة أربعة وثلاثين بيتاً ، أكثرها في الفخر ؛ وقد انتحتها الشاعر بسمة أبيات في حديث الحب والكأس ، والصبر والمهوى ، والإفراق في متع الحياة ولذاتها ، والانطلاق في طو الصبا ، وبهالة البطالة ، مستعيهاً نفسه كل هذا ، نافياً السمة والمآر عن أمثاله من ذوي الحبا ، إذا سلبت من الفساد أخلاقهم .

ومن البيت السابع إلى البيت العاشر انتقل إلى حديث الجدل والصراعة ، متفتياً ببعض مفاسره ، ولا سيما مزاياء الحربية .

ومن الحادي عشر إلى الثامن عشر أجرى حديثه بجرى النصيح والإرشاد ، أو المثل والحكمة ، حافظاً على طلب المآل بالجد والإقدام ، وركوب الأخطار ، وأعمال الفروسية ، وإيفار حياة الحشوة والكلفاح على حياة الدعة والرفاعة ، وما إلى ذلك من الفضائل والمخيلات ؛ وفي هذه النصائح تنديد بالكثرة الغالبة من الناس ؛ فإن حرّم - في رأيه - غالب ، وغيرهم قليل ، ومظهرهم يناقض مخبرهم ، وفهمهم مطبوعة على الكثرة والبخل ، والحسد ، والكيد ، وضاد الطلوة ، وإضمار القدر ، واتباع الأهواء والشهوات ، والولوع بالفتور والباطال ، كأنهم معترفون لأفعالهم ؛ ولهذا نبّه ، ولنّد ، وحذّر ، وأبشّر منهم ، وأبشّر الإعراض عنهم ؛ لأنهم عراقيل ؛ أو حقيبات ينبغي أن يتخطأها ملأب الملا ، ورواد الجهد والشر .

ومن التاسع عشر إلى الرابع والثلاثين ، أي إلى نهاية القصيدة ، عاد إلى الفخر بكثير من مناقبه

ومحامده .

وَقَالَ يَذْكُرُ مَمَامَهُ فِي «سِيلَانَ» * وَيَتَشَوَّقُ إِلَى الْأَهْلِ وَالْأَوْطَانِ :

رُدُّوا عَلَيَّ الصَّبَا مِنْ عَصْرِى الْخَالِي وَهَلْ يَمُودُ سَوَادُ اللَّمَّةِ الْبَالِي؟ (١)

— ويلاحظ أنه شديد الاهتمام بمناقبه الخيرية ، كثير التزهد لها ، والتفتي بها في شعره كله ، ولا غرو ؛ فإنه فارس محارب ، شديد اليأس ، قوي المراس ؛ ويبدو أنه وقف في حروبه مواقف كثيرة مشرقة ، وصالح كثيراً من المخاطر ، وأعمال الجهد الحربي ؛ وربما كانت محاكته في أعقاب الثورة العربية ، ولفيه إلى «سرديب» من شواهد فروسيته وبطولته ، وإخلاصه لوطنه وأمه ، وصدقه في الجهاد والقتال ؛ فمن حقه حل الناس أن ينهوا به ، ويظنوا شأفه ، ويخلدوا تاريخه وسيرته ، ويتقبلوا فخره وأبتهاءه .
وله أن يناقش بغيره وشعره فرسان شعراء العرب ، من أمثال عنتر بن شداد العبسي ، وأبي فراس الحمداني .

• • •

• «سيلان» : جزيرة بالهيب الهندى ، مجاورة الهند ، في جنوبها الشرقى ؛ كثرة سكانها بذيون ؛ وفيها قلة من المسلمين ؛ وقد استعمرها البريطانيون ، وسيطروا عليها من سنة ١٨٠٢ م إلى أن استقلت في نطاق «الكومنولث» سنة ١٩٤٨ م ؛ وهى مروفة لتجار العرب وملاحهم من قديم الزمان ، وهم الذين سموها «سرديب» . وإليها نئى الشاعر : «محمد سالى البارودى» في ٣٠ من صفر سنة ١٣٠٠ هـ (الموافق ١٤ من ديسمبر سنة ١٨٨٢ م) عقب إخفاق الثورة العراقية ، ويطلب به النئى سبعة عشر عاماً ؛ وفى ذلك المنئى السحيق نظم أجود شعره ؛ وفى عهد الخديو «عباس حلى الثانى» رأى أولو الأمر فى مصر أن يعود المنفيون من قادة الثورة العراقية إلى وطنهم ؛ فصدر أمر العفو عن البارودى ؛ وعاد إلى مصر قبل وفاته فى السادس من جمادى الأولى سنة ١٣١٧ هـ (الثانى عشر من سبتمبر سنة ١٨٩٩ م)

(١) الصبا : الحداثة ، والصغر . يقال : عرفته فى صباه : أى عرفته وهو غلام صغير السن . والنصر : الزمان . وانحالى : الماضى . والا ستفهام فى أول الشطر الثانى منناه الاستبعاد ، أو النئى ؛ كأن الشاعر وضع «هل» موضع «لن» أى تنفيذ تأييد النئى فى المستقبل . والفتة : ما جاوز شحمة الأذن من شعر الرأس ، أو ما ألم منه بالمتكين ؛ أى قاربهما ؛ والمراد شعر الرأس مطلقاً . والبالى : اسم فاعل من بلى الثوب ونحوه (كرضى) : أى رث ، وشلق ، ودثر ، وذعبت «جذته» ؛ ويراد بالبالى هنا : الذاهب . وكئى بسواد اللمة البالى : عن الصبا فى عصره الخالى ؛ لأن سواد الشعر من مظاهر الحداثة والصبا ، وأمارات الفتوة والشباب غالباً ، فإذا ذهب ذهب معه الشباب ومرسه وطوره . ولايساته ودواعيه ، وحل محله بياض الشيب ، وهووم الهرم ، ومتاعب الشيخوخة . والشطران كلاهما فى التلهف والتحسر على ماذهب من صباه ، ونفاذته صغره .

تمنى فى الشطر الأول أن يعود إليه ماذهبت به الأيام من مرح الصبا ، وهو الشباب ؛ أو استنجد بمن يستطيعون — فى توهمه وظنهم — أن يردوا إليه ما فاتته من فتوته وشبابه ؛ ولكنه ما لبث أن استبعد تلك

مَاضٍ مِنَ التَّيْنِشِ ، مَلَا حَتَّ مَخَابِلُهُ فِي صَفْحَةِ الْفِكْرِ إِلَّا هَاجَ بَلْبَالِي^(٢)
سَلَّتْ قُلُوبٌ ؛ فَفَرَّتْ فِي مَضَاجِعِهَا بَعْدَ الْحَيْنِ ، وَقَلْبِي لَيْسَ بِالسَّالِي^(٣)

= المعينة في الشطر الثاني، فأعلن يأسه، وانقطاع رجائه؛ والتصير في «البالي» في نهاية البيت قوى بلمع؛ فإن «سواد ألَمَّة البالي» لن يتجدد، وإن يمد أبداً.

(٢) العيش : المعيشة ، والحياة ؛ ويريد به ماضيه قوائمه ، وتحسر عليه في البيت السابق من الدنيا ، وملابساته ، ودواحيه . ولاحت : بدت ، وظهرت . والمخايل : جميع الخيلة (بوزن معيشة ومعاش) : وهي في الأصل : الظن ، أو الخيلة ؛ ومنه : ظهرت فيه مخايل النجابة : أي سطوتها ، ودلائلها . ويراد بالمخايل هنا : صور ذلك الماضي السعيد ، وذكرياته المزينة المحبوبة . والفكر : إحمال العقل في المعلوم الوصول إلى معرفة مجهول . وفكر في الأمر (من باب ضرب) : أحمل فيه عقله ، وتأمله . ولك في هذا الأمر فكر : أي فطر ، وروية . ويراد بالتفكر هنا : التأمل ، والتفهم ، أو التعلل ، أو القلب ، أو التنفس ، أو الخاطر ، أو قوة الإدراك والتصور . وهاج : فعل لازم ، معناه ثار ، وتحرك ، وارتجف ؛ ومثله تهيج ، واحتجاج ؛ ولعله « بلبالي » . أي هو فعل متد ؛ يقال : هاجه ، وأهاجه ، ويهجه : أي حركه ، وأثاره ، وفاعله ضمير يعود على « ماضٍ من العيش » ؛ ومفعوله « بلبالي » . والبلبال : شدة ألم ، واللباليس .

يقول : كلما مرت بخاطري صور ذلك الماضي السعيد - عظم تكليفي ، واشتدت حسرك ، وفارت همي وأشجان .

(٣) سلاه ، وسلاصته (من باب ساء) : نسيه ، وهجره ، وطابت نفسه بعد فراقه ؛ واسم الفاعل منه « السال » ؛ ولعله يريد بالقلوب : قلوب أحبائه الذين كانوا يطفئون عليه ، ويحيون إليه ، فلما فرق الله بينه وبينهم سكوته ، وطابت نفوسهم بعد فراقه . وقُرَّتْ : استقرت ، وثبتت ، وهدأت ، وسكنت . والمضاجيع : جمع المضجع (بوزن مذهب ومذهب) : وهو موضع الضجج : اسم مكان من ضجع (من باب سجع) : أي وضع جنبه على الأرض ، أو نحرها . واستقرت القلوب في مضاجعها : كناية عن رضاء البالي ، وهدوء الخاطر ، وطيب النفس ، وراحة القلب ، وهناء الحال ؛ وهو تأكيد لبعض السلوان في أول البيت . والحين : الاشتياق ، وتوقان النفس ، ونزوها إلى من تحب . في البيت الأول تخفى الشاعر أن يعود إليه ما زاياله إلى غير رغبة من عهد الصبا ، وميش الشباب .

وفي البيت الثاني اشتد تليفه عليه ؛ فقال : إن صوره وذكرياته لا تفترق تمازده ؛ فتثير أشجاناً ، وتجدد حسراته . وفي البيت الثالث عتاب مرّ لأغلاء ذلك العهد ؛ إذ كانوا يطفئون عليه ، ويحيون إليه ، فلما افترق الشمل ضاعفوا همومه بسلوهم عنه ، على حين أنه مازال ذاكراً لهم ، متعلقاً بهم ، حافظاً لهم ، مقيلاً لهم . والأبيات الآتية تؤكد هذا المعنى وتقتضيه .

لَمْ يَذَرِ مَنْ بَاتَ مَسْرُورًا بِلَيْتِهِ أَنَّى يَنَارِ الْأَمَى مِنْ هَجْرِهِ صَالِي^(١)
يَا غَاضِبِينَ عَلَيْنَا هَلْ إِلَى عِدَةٍ بِالْوَصْلِ يَوْمٌ أَنَاغِي فِيهِ إِقْبَالِي^(٢)
غَيْبُكُمْ ، فَأَظْلَمَ يَوْمِي بَعْدَ فُرْقَتِكُمْ وَسَاءَ صَنَعَ اللَّيَالِي بَعْدَ إِجْمَالِي^(٣)

(٤) لم يذر : لم يعلّم . ويقال : بات يفعل كذا : إذا فعله كذا : إذا فعله نهاراً . والبيات هنا يشمل الليل والنهار ؛ فعناه الاستمرار . و « بليتة » : بيلة السلوان ؛ أى برحاه لبال المكى عنه في البيت السابق باستقرار القلوب في مضاجعها . والأمى : الحزن ، أودته . ومن « في الشطر الثاني » تعليلية ؛ فهي تفيد العلة ؛ أى السبب ؛ فهو يصل لارأى بسبب هجران أحبائه له ، وسلوم عنه . والمهجر : والمهجران ؛ ضد الوصل والتلاقى . وإضافة « هجر » إلى ضمير الغائب ، وهو الهاء ؛ من إضافة المصدر إلى فاعله ؛ فهاه : ضمير من بات مسروراً بليتة . وهو الهاجر ؛ أى التارك ، الممرض ، المتقاعد ، أو السالى ؛ والشاعر هو المهجور ، أو المسلوب عنه ؛ إذ اعتبر سلوم عنه هجرانكاه . وصال : اسم فاعل من صلى النار ، وبالنار (من باب رضى) ؛ أى قاسى حرها . أو استرق بها . يقول - في التبايع وأتى شديد - هجرتى أحبائى ، ونسوا ما كان بيننا من حب ووداد ، وطابت نفوسهم بعد فراق ، وابتاعوا ناصحين مسرورين بيلة حياتهم بعدى ، أو بيلة السلوان ، ورضاه الهال . وم لا يكدون يعرفون ما أكابده وأضانيه ؛ فقد اشتد أسى هذا المهجران ، وبت استرق بلوعة الوجد والشوق ، وأخرج مرارة البعد والحمران .

(٥) العدة : الود ؛ مصدر وعدة الأمر ، وبالأمر : أى منته به . والوصل ، والصلة ، والوصال ؛ ضد القطيعة ، والصد ، والمهجران . و « يوم » بالتثنية مع الرفع ، أو النصب ، أو الجر ؛ وبلا تنوين مع النصب . والفرس من النداء : الاستعطاف ، والاسترحام . والفرس من الاستفهام : اتنى ؛ فهو يتنى أن يظهر بوعد الوصال من أحبائه الذين غضبوا عليه ، وأعرضوا عنه بعد الحب والحنين ؛ وبذلك التودد المأمول يسترد ما فيه السعد ، ويهش الرفيد ، وتعود إليه راحته ومناخه . ومناخه : قاره ، وذأناه ، ولقائه . ومناخيت الصبي : لاطفته بالمحادثة والملاعبة ؛ وكلت بما يحبه ، ويسره . وجره . وفيه : في يوم الوصال . ويريد بالإقبال : ما ينتج الوصل ، أو العدة بالوصل من هنائه ، وصداقته ، وأرتياحه ، وأثراحه ، ورضاه باله ، وصلاح حاله ؛ من قولم أقبلت الدنيا على فلان ؛ أى جاءته بخيرها ؛ وأقبلت عليه الدولة : أى المال ، والمزعة ، والسلطان ، والغلبة ونحوها . تمنى على أحبائه الغاضبين عليه ، المعرضين عنه - أن يعودوا إلى الرضا والإقبال ، ويعودوا بالوصال ؛ لينتم ، ويمنأ ، ويستريح ، ويسعد ، وتقبل عليه الدنيا بخيرها .

(٦) الخطاب في « غيبت » الغاضبين عليه في البيت السابق . وغيابهم يشمل - مع شغل النار ، وبعد المزمار - القطيعة ، والصد ، والإعراض ، والسلوان ، والمهجران . وأظلم يوم : سود . من الظلام . =

قَدْ كُنْتُ أَحْسَنِي مِنْكُمْ عَلَى ثِقَةٍ حَتَّى مُنِيتُ بِمَا لَمْ يَجْرِ فِي بَالِي^(٧)
لَمْ أَجْنِ فِي الْحَبِّ ذَنْبًا أَسْتَحِقُّ بِهِ عِقَابًا ، وَلَكِنَّهَا تَحْرِيفُ أَقْوَالِ^(٨)

— أو الظلمة ، أو الظلماء . ويراد باليوم هنا : كل الوقت ، أو الحين ، نهراً ، وليلاً . وظلام يومه : كناية عن تذكر ميمته ، وتذك الدنيا عليه . والفرقة : اسم من فارقته مفارقة ورفاقاً . وصاه يسوء : شاة ، وقبح . وصنع اليال : عملها ، وتصرفها : مصدر صنته (من باب صنع) صنعا (فتفتح فسكون ، أو ضم فسكون) . و«سأ صنع اليال» : تكرار ، وتأكيده للمنى «أظلم يروى» . والإجمال : الإحسان : مصدر أجملت الشيء : أي حسنته ، وصيرته جميلاً . والسوء أو التقيح شر في ذاته ، فإذا جاء بعد الإجمال والإحسان — كان أقطع ، وأنكى ، وأجمع ، كالفقير بعد الثنى ، واللذ بعد العز ، والمرض بعد الصحة ، والرحمة بعد الألس ، والحزنة بعد التصبر ، والشقاء بعد السعادة . . . ويلاحظ أن الشاعر أولع في هذا البيت ، وفي خمسة الأبيات السابقة بتحديد مثل هذا المعنى ، وبمثل هذه المقابلات المؤثرة الفاجعة ؛ فقد مضى عصر صباه وشبابه ، وقلاه ابتئاس للشيب والحرم ؟ وزايله رقد عيشه في وطنه ، ليشق بتركه العيش في منفاه ؛ وولاه أحبابه بعد الحب والحنين ؛ وهجره بعد الإقبال والوصول ؛ وبقى مع هذا كله رهيباً لم ، متعلقاً بهم ؛ وفترت قلوبهم في مضاجعها ، وأقتضوا عليه مضجعه ؛ وباتوا مسروين بلمة السلوان . وبات يحسّل نازالهم والمهجرات . . . وهكذا من غضب بعد رضا ، وحياب بعد حضور ، ونأى بعد قرب ، وظلمة بعد ضياء ، وطرفة بعد تلاق ، وإساة بعد إحسان ؛ وفي بعض الأبيات الآتية ما يشبه هذا ، ويجرى مجراه .

فكما ما يقاسيه من فراق أحبابه ، وشيبتهم ؛ فأوقاته بعلم مظلمة قائمة ، وعيشته كدرة نكدية ، وأزمن يحاسره ، ومضاضته ، وهوى إليه ، بعد مياسرة ، وعلاينة ، وإحسان .
(٧) أحسنى : أظنى . و«منكم» متعلق بـ «ثقة» : أي حل ثقة منكم : أي تثقون في ، وأثق بكم . وثيق به : اتصته ، واطمان إليه . ومنيت : ابتليت ، وأصبحت . مناه الله بكذا (من باب رم) : ابتلاه به ، واعتبره . والبال : الخاطر ، والقلب ، والنفس . ويجرى الشيء في باله : خطر ، ووقع . ومضى بمالم يحرف باله : فمضى بمالم يكن يتوهمه .

كان يظن أن الصلة بينه وبين الماتين وثيقة ، والوداد خالص ، والبر والوفاء موفوران دائماً في السر والسر ، والكشف والرضاء ؛ فلما أصابته محنة النفي والإهماد ، ومسته الضر ، وأحاط به الشر — مضى بمالم يكن يتوهمه من التلطية والمهجرات ، والإعراض والسلوان ؛ فغاب الأمل ، وتزعزعت الثقة ، واشتد به الكرب واليأس .

(٨) لم أجْن : لم أقترف . جنى اللذ : ارتكبه ، وقاربه . وفي الحب : بسبب الحب ، أو في سبيل الحب ، أو في أثناء مكابذته ومعاناته . وبه : بالذنب : أي بسببه ، ومن أجله . والعتب : الموبخة ، والقوم ، وأن تذكر على من تعاتبه شوا من فعله . ولكنها : ولكن القصص ، أو الحالة . وتحريف الكلام : —

وَمَنْ أَطَاعَ رُؤَاةَ السُّنُوءِ - نَفَرَهُ
عَنِ الصُّلَيْبِ سَمَاعُ الْقَيْلِ وَالْقَالِ (١)
أَذْهَى الْمَصَائِبِ غَدْرُ قَبْلِهِ ثِقَّةٌ
وَأَقْبَحُ الظُّلَمِ صَدُّ بَعْدُ لِمُقْبَالِ (٢)

= إيمانه عن وجهه ، وتغييره عن مواضعه .

يقرر أن حبه قائم على الصدق والإخلاص ، والبر والوفاء ، وأنه لم يقترب فيه ما يبيحه ، أو يؤاخذ به ؛ ولكن الوشاة لا يفتنون بحرفون كلام المتحابين عن مواضعه ، ويخترعون تخريجاتاً سيئاً للقيمة والإنسان . والبيت الآتي يوضح هذا المعنى ، ويؤكد كنهه .

(٩) روى الحديث ونحوه يرويه رواية : حملة ، ونقله ، وذكره ، واسم الفاعل منه راو ؛ وجمعه رؤاة . والسوء : الشر ، والفساد ؛ ورواة السوء : الوشاة المولعون بالنسبة والسماية ، وتزيين الكذب ، والإفساد بين المتحابين . ونفرته تنفراً : حملة على التفور : أى الانقباض ، والسخط ، والإعراض والمهجران . والقتيل والقاتل : مصدران ، أو اسمان بمعنى القتل ، أو كلام الناس ؛ أو لا يجتمعان إلا في السوء والشر ؛ وقد نبهى اللبي - صلى الله عليه وسلم - عن القتل والقاتل : أى عن فضول القول ؛ مما يقع الخصومة بين الناس .

يجذر الاستماع لروايتين ورواة السوء ؛ فإن أذهم تحريف الكلام ، والإفساد بين المتحابين ؛ فن أقبل عليهم ، وانقاد لم نقره بسمايتهم من أصفائه وأصباؤه ؛ فخر صدائهم ودهم ، وتقطعت يته ويهيمهم الأصباپ .

(١٠) أذهى : اسم تفصيل من دهاه الأمر يدهاه ؛ إذا نزل به ، وأصابه ، وفاجأه ، وأتاه من مأته ؛ ومنه الداهية ؛ وهى النازلة ، والثانية ، والأمر المنكر العظيم . والمصائب : جميع المصيبة ؛ وهى البلية ، والداهية ، والشدّة ، والكارثة ، وكل أمر مكروه يحل بالإنسان ويصيبه . والتندر : نقض العهد . وضده الوفاء . والثقة : مصدر وثق به ؛ أى ائتمنه ، وأطمأن إليه . والصد : الإعراض والمهجران . وضده الإقبال والوصول .

جمل غدر أصحابه به ، ونقضهم لهده ، بعد ثقتهم به - مصيبة دونها كل المصائب ؛ وما أثقلها عليه ، وفظلتها لديه أنها آتته من مأته ، ودهته من وثق بهم ، وأطمأن إليهم . كما عدّ إعراضهم عنه بعد إقبالهم عليه ظلماً قبيحاً ؛ بل عدّه أقيح الظلم ، وأشتبه ، وأظلمه ، وأدعاه ؛ ولأرب أن التندر والظلم - فى ذاتهما - منكران قبيحان ، فإذا جاما من الأصمقاء الأرداء ، كان نكسرها أقطع وأشنع ، وقبيحهما أنكى وأرجح ؛ فإذا أخيف إلى هذا كله أن الصد ، والتندر أصباؤه وهو من مفاد - علمنا أن أزنه . التسمية بلغت أقصى غايات القسوة والشدّة . وفى مثل هذا المعنى قوله فى البيت السادس : « رساه صنع اليلالى بعد إجمال » ؛ وقد يكون معنى هذا البيت : أن للشاعر لم يكن منه غدر من أحبه من أهله وصحبه الذين تركهم فى مصر على الحب والوفاء ؛ ولم يكن منه صدود ، أو إعراض ، أو صدود ، = ديون البارودى - ثالى

لَا عَيْبَ فِي مُوسَى خُرَيْبٍ مَلَكَتْ
تَبِعْتُ خُطَّةَ آبَائِي ، فَسَرْتُ بِهَا عَلَى وَتِيرَةِ آدَابٍ وَأَسَالِ^(١٢)

= أو انصراف ؛ وأكد هذا الثاني بقوله : ولوقع منه شيء من هذا لكان أقيح الظلم ، وأدعى المصائب .
والتيمر في هذا البيت سائق ، مقبول ، لا بأس به ؛ ولو عكس ، فقال : « أقيح الظلم فخر قبله ثقة ،
وأدعى المصائب صد » بعد إقبال - لكان أجود وأجمل ؛ فالغدر ، والخيانة ، ونقض العهد من صور
الظلم وأخلته ؛ وإنه ليقيح كل القبح إذا وقع من مؤثوق به على واثق ، لا يزال يحفظ العهد ، ويقوم
على الداء ؛ وإعراض الحبيب عن المحب بعد إقباله عليه : هو الداهية الداهية ، والمصيبة الجلى التي تحطم
قلب المحب ، وتقتل آماله .

هذه عشرة أبيات تحسر فيها الشاعر على مازيله من عصر الصبا والشباب ، وعيش الرغادة والهناء ،
واجتماع الشمل ، ورغاء البال ؛ وشكا الوجد والمصيبة ؛ وعاتب من سلوا عنه ، ونسوا ما كان بينه وبينهم
من حب ومودة ، وتلاق وإقبال ؛ وأظهر - في توسع وتفتح - ما بين أسسه ويومه ، أو ماضيه وحاضره
من تضاد وتناقض ، وتباين واختلاف ؛ وأهم بإثبات صلفه في حبه ، وإخلاصه لمن أحبه ، وإقامته
على البر والقواء ، وبراعة ساحته من اللذوب والمغنوات ؛ وحذر وقبحم بزواة السوء الذين لا يفتشون يقطعون
بسمائاتهم أواخر المودة بين المتحابين ؛ وصور هذا كله تصويراً يشبه الغزل ، أو النسيب ، أو التشبيب ؛
وهو ضرب من التلميح المألوف في الشعر العربي ؛ ومنه انتقل إلى الفخر بنفسه في الأبيات الآتية .
(١١) الأمانة : جمع عنان (بوزن سنان وأسنة) : وهو سير اللجام الذي تمسك به الدابة .

وملكت الحرية أعتى : سيطرت على ؛ فحررت على سننها ، ولم أحد من طريقها ؛ وهذا كناية عن
استمساكها بها ، وحصره عليها ، ودفاعه عنها ؛ وفي البيت تأكيد للملح بما يشبه الذم . و « عن قبول » :
جار ويجرور ، متعلقه غير مصرح به في الكلام ؛ وفي الإمكان تقديره : « منعتني » أو نعو : أي بما
تقصته القمل « ملك » من معنى المنع ، أو الخيس ، أو الصد ، أو نحو ذلك .

استنكف الشاعر أن يقبل المذلة والهوان ، وأبى أن يبيع عزته ، وكرامته ، وحرية بلاده بما قدّمه إليه
المتعدي الفاسد من الأموال والصور المفترية ؛ ولا غرو ؛ فإنه رجل حر أبى ، يقدر الحرية ، ويعظم
شأنها ، ويحرص عليها ، ويبدل في سبيل الدفاع عنها كل نفيس ؛ وهذا - وحده - عيبه الذي كان سبب
اضطهاده ، وتشريد ، وتجريره ، ونفيه ، وإعدامه .

(١٢) تبه (من باب طرب وسلم) : حذا حذوه ، واقتدى به ، وصار في أثره ، ولم يحذ
عن طريقته . ومثله أتبعه . والخطة : الأمر ، أو الشأن ، أو الحالة ، أو الخصلة ، أو الخلق ، أو السيرة
أو السلوك . وفي الحديث : « إنه قد عرض عليكم خطبة رشد ، فاقبلوها » أي أمر واضح في الهدى
والاستقامة ؛ فقبلوها ، والتزموا . وسرت بها : سرت بالخطة : أي سرت على نورها ، والتزمت
ما نهى إليه . وسرت بها : سرتها : أي أحبتها بالانقياد لها ، والاكتفاء بها ؛ وهو تأكيد لمعنى =

قَبَا بِمَرْ خَيَالِ الْفَنَرِ فِي خَلْدِي وَلَا تَلَوْحُ سِمَاتُ الشَّرِّ فِي خَالِي (١٣)
 قَلْبِي سَلِيمٌ ، وَنَفْسِي حُرَّةٌ وَيَلْدَى مَأْمُونَةٌ ، وَلِكِسَانِي غَيْرُ خَتَالٍ (١٤)

التيح ، أو الاتّباع في أول البيت . والوتيرة : الطريقة المعتدّة ، والمداومة على الشيء ، والملازمة . والآداب : جميع أدب : وهو رياضة النفس - بالتعليم والتّهديب - على ما ينبغي . وآسال : شبه ، وعلامات ، وأخلاق ، وشمال : ولم يسمح لها بمقدّر ، ومن كلامهم : « فلان على آسال من أبيه » : أي على شجّة منه . وتأسل أبيه : أشبهه ، واقتدى به ، وتخلّق بأخلاقه . والشطر الثاني توضيح لخطّة آياته ؛ فهي خطّة رشد ، وعزة ، وهدي ، واستقامة . ولقد اتّبعتها ، وسار بها على طريقة معتدّة من آداب هؤلاء الآباء المظما وآسالهم : أي شمالكهم .

يفخر بأفه يسر على ما ورثه عن آياته من آداب رفيعة ، وأخلاق كريمة ، وشمال عالية . وصلة هذا البيت بالذي قبله : أن الحرص على الحرية ، وإيلاء الضيم ، ورفض المذلة من خطّة آياته ، وآدابهم ، وشمالكهم . (١٣) مرّه ، ومرّ به ، ومرّ عليه ؛ يتعدّى بنفسه ، وبالياء ، وبعل ؛ ويلاحظ أن الشاعر عداه : « في » « فما يمرّ خيال الفندر في خلدي » ؛ فهي بمعنى « الباء » ، أو بمعنى « حل » ، أو أن الفعل « يمر » مقسم معنى فعل آخر يتملّك ؛ « في » ، مثل « يقع » أو « ينظر » ؛ وهذا كله كثير ما لوف في الشعر العربي . وخيال الشيء : صورته ، وظله . والفندر ترك العهد ، ونقضه ، والإخلال به . وضده الوفاء . والخلل (بفتح الخاء واللام) : البال : والقلب ، والنفس ، وتلوح : تبدو ، وتظهر . وسات : علامات ، وأمارات ، وأحدتها سمة (بوزن عدة وعدات) . ومن صفات « الخال » : الفن ، والتوهم .

نفى عن نفسه الفدر وضروب الشرّ كلها بأسلوب قويّ بليغ ؛ فهو لا يكاد يتصور الفندر ، أو يتخيّلها ، أو يفكر فيه ، أو يديره في خطّاه ، أو يمرّ ببها مروراً سريعاً .

وعلامات الشرّ وضروبه كلها بعيدة كل البعد عن ظنه ، وتوهمه ، وتفكيره ، وتدبيره ؛ وإنما هو رجل خير وبرّ ، واستقامة وأمانة ، وصديق وفاء .

(١٤) قلب سليم : يريد سلامته من الآفات والنقائص ، والعيوب النفسية والخلقية : كإظهار الشرّ ، والحقد ، والحد ، والخصينة ونحوها . وفي التّرآن الكريم : « يوم لا ينفع مال ، ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم » (الآية ٨٨ والآية ٨٩ من سورة الشعراء) . ونفسي حرة : عزيزة ، كريمة ، قوية ، أبية ، نقيّة ، عفيفة . ويدي مأمونة : أمينة ، يوثق بها ، ويطمان إليها ، ويثق عليها ، ولا يتخفّ منها خيانة ، أو غدر ، أو شرّ ، أو عدوان . وغير ختال : غير خداع : صبيحة مبالغة من ختله (من باب ضرب وقتل) : أي شرّه ، وراوضه ، وخدعه عن غفلة ، وأراد به الشرّ والمكروه من حيث لا يعلم . والمبالغة هنا غير مقصودة ؛ فهو ينفى عن نفسه الخلط في جميع ضروبه وصوره ، ويراثته وألوانه . ولسان غير ختال : صادق ، صريح ، واضح ، لا يتخاتل ، ولا يتخادع ، ولا يظهر غير ما يضمّره قلبه السليم .

لَكُنْتُ فِي زَمَانٍ عِشْتُ مُقْتَرِبًا فِي أَهْلِهِ حِينَ قُلْتُ فِيهِ أَمَثَلِي (١٥)
 بَلَوْتُ دَهْرِي ، فَمَا أَحْمَدْتُ سِيرَتَهُ فِي سَابِقِي مِنْ لِيَالِيهِ ، وَلَا تَالِي (١٦)
 حَلَبْتُ شَطْرِي : مِنْ يُسْرِ ، وَمَعْسَرَةٍ وَذُقْتُ طَعْمِيهِ : مِنْ حُصْبٍ ، وَأَمَحَالٍ (١٧)

انضطر بسلامة قلبه ، وعزّة نفسه ، وأمانة يده ، وصدف لسانه .

(١٥) المقرب : القريب ، القنازح ، الهميد من وطنه وأهله ، وأمثال : أشباهي ، ونظرائي ،

مفردة مثل (يكسر فسكون) : وهو الشبه ، والنظير .

يقصر بقلة أشباهه ونظرائه في زمانه ؛ ولهذا يحيا بين الكثرة الغالبة من أهل هذا الزمان حياة الاغتراب

والعزلة ، والوحشة ، والجفوة ؛ إذ لا يشبههم ، ولا يشبهونه ، ولا يألفهم ، ولا يألفونه .

وهذا قريب من قول أبي الطيب المتنبي :

وجهر لسانه ناس صغار وإن كانت لهم حشيت ضحان

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن ممدن الذهب الرغام

(١٦) بلوت : اختبرت ، وامتحننت ، وجربت . ودهري : زمني . وما أحدث سيرته :

لم أجدها عموداً ؛ أو لم أجد في سيرته ما يحمد . وسيرته : سيره : وهي اسم من سار يسير : أي مشى .

والسيرة أيضاً : السنة ، والطريقة ، والمذهب ، والسلوك ، والحالة التي يكون عليها الإنسان وشيئاً . وسيرة

الرجل : تاريخ حياته ، وصحيفة أعماله ، وأحوال سلوكه بين الناس . والتالي : اسم فاعل من تلاه يتلو :

أي تبعه ، وخلق به ، وسار في أثره . وضده السابق ؛ ويراد بالسابق والتالي من لياليه : أوقاته كلها .

وقد جرى الناس قديماً وحديثاً على شكوى الدهر والزمان ؛ وهم ينسبون إليه ما يتقلبون فيه من الخير

والشر ، والمسرّة والمساءة ، والأمن والخوف ، واليسر والسر ، والرخاء والشدة ؛ فإن أصابهم فتنة ،

أو شر ، أو بلاء - تبرّأوا بالدهر ، وأعلنوا بجرهم منه ، وسخطهم عليه ، وبالنوا في سبّه وشكواه .

يقول : إنه اختبر الزمان الذي يعيش فيه ، وجرب السابق واللاحق من أيامه ولياليه ، فلم يجد في سيره

وسيرته وأعماله وتصرفاته منه شيئاً يستحق الحمد وحسن الثناء .

في البيت السابق انضطر بقلة أمثاله في زمانه ، وجهر بأنه يحيا بين الكثرة الغالبة من أهل هذا الزمان

حياة العزلة والاغتراب ، والقطيعة والإعراض .

وفي هذا البيت تبرّم به ، وسخط عليه ، وجردّه من الخير والمحامد ؛ لأنه لم يجد في ماضيه وحاضره

شيئاً يسره ويرضيه .

(١٧) حلبت شطري : حلبت شطري دهرى : أي جربت أموره ، واختبرت أحواله كلها ، ومر

في غيره وشره ، وحلو ومرّه ، ورضاؤه وشدّته ؛ مستعار من حلبت الشاء ، والبقر ، والإبل ، ونحوها : =

فَمَا أَسْفَتْ لِبُؤْسٍ بَعْدَ مَقْدَرَةٍ وَلَا قَرَحَتْ بِوُفْرِ بَعْدَ إِقْلَالٍ (١٨)
عَفَافَةٌ نَزَّتْ نَفْسِي؛ فَمَا عَلِقَتْ بِلَوْثَةٍ مِنْ غُبَارِ الدَّمِّ أَذْيَالِي (١٩)

سألي استخرجت ما في ضرعها من اللبن، والشرط: نصف الشيء، أو جزؤه، مثلاً: شطران، وجسمه أشطر، وشطور (بوزن أسطر، وسطور). ولثانة ونحوها شطران: قادمان، وأختران. وكل غلفين من أغلافها: شطر؛ وحلبت شطريها: حلبت أغلافها كلها: جمع غلف (بكسر فسكون): وهو حلقة ضرعها. هذا هو معنى الحلب، ومعنى الشطر في أصل اللغة: ثم تجاوزا بهما، وتوسعا في استعمالهما؛ فقالوا: «حلبت بالساعد الأشد»: أي استمنت بمن يمتني بحاجتي، وبهم بشأني، ويقوم على أمري قايماً حسناً. وقالوا: «حلبت الدهر أشطره» و«حلبت الدهر شطريه»: أي خبرته، وتمرست بخبره وشره. واليسر: السهولة، والفتى: وضده المصرة (يوزن المأكربة، والمرحمة): وهي الصموية، والشدّة، والفقر، وضيق ذات اليد. والخصب: كثرة الشب والنبات والخير، ورغد العيش. وضده الإحمال: وهو الإجداب والإفقار، والشدّة، والجوع، وانقطاع المطر، ويبس الأرض.

والشرط الثاني من هذا البيت: في معنى الشطر الأولى؛ فهو تكرار وتأكيّد له. وقد خبر الشاعر الدهر، وبهرته، وتمرّس بيسره وصبره، وبخبره وشره، وحلوه ومره، ورغائه وشدته، ووفره وإفلاله، وغصبه وإحماله.

والبيت الآتي تفرّيع، وتطليق، وبيان لأثر هذا التمرّس الطويل الممتدّ المفور.

(١٨) أسف عليه: حزن. وأسف له: تألم، وندم. والبيتين: الفقر، وشدة الحاجة. والمقدرة (بتثنية الدال): القوة، واليسار، والفتى؛ وهي خلاف البؤس. والوفر: الوفرة، واليسار، والكثير الواسع من المال والمتاع ونحوهما. وضده الإقلال: وهو الفقر: مصدر أقلّ الرجل: أي قلّ ماله، وانقصر بحدّ غنى.

يقول: إنه لطول تمرّسه بتقلّبات دهره، لا يكاد يبالى هذه التقلّبات، أو يتمّ بها، أو يكثر لها؛ فالفقر بعد الفتى لا يسويه، ولا يحزنه؛ والفتى بعد الفقر لا يفرحه، ولا يبطره.

(١٩) عفّ عفةً، وعفافة: كفّ عن الحرام، وامتنع عما لا يحلّ، ولا يحلّ من قول أو فعل. ونزّه نفسه عن التبيح تنزّهاً: أبعدا عنه، وصانها منه، ونصّها، وترفع بها عن كل ما يشينها. وما علقت (من باب تعب) بلوثة: المراد: ما تلوثت، ولا تلتصّخت، ولا اتسخت. وفاعله «أذْيَالِي» والترتيب الأصل: فإ علقت أذْيَال بلوثة من غبار الدّم. والأصل: علقت الشوك بالثوب: أي نشب فيه، واستسك به، وتلتق. واللوثة: اسم مرّة من لاث (من باب قال) الثوب ونحوه في التراب، أو الطين، أو نحوها: أي لطنه به، ومثله لوثة تلويثاً. والفتار: ما دقّ من التراب، أو الرماد، والدّم: العيب. وغبار الدّم: الدّم الشبيه بالغبار. والأذْيَال: جمع الذيل: وهو أسفل الثوب، وآخر كل شيء. وما علقت أذْيَالِي بلوثة من غبار =

فَالْيَوْمَ لَا رَسَنِي طَوْعُ الْقِيَادِ، وَلَا قَلْبِي إِلَى زَهْرَةِ الدُّنْيَا بِمِثَالِ (٢٠)
لَمْ يَبْقَ لِي أَرْبُ فِي الدَّهْرِ أَطْلُبُهُ إِلَّا صَحَابَةٌ حُرٌّ صَادِقِ الْخُلُقِ (٢١)

= التلم : ما ندس شيئاً من ثيابي شيء من العيب ، أو المنكر ، أو التقيح المستجيب ؛ وهذا كناية عن عفته ، وطمهارة نفسه ، ونقاء عرشه ، وترقيته عن كل ما لا يحل ، ولا يحل من الأقوال والأفعال ؛ وهو شرح ، وتوضيح وتأكيده لحسن « عفاة » في أول البيت .

انصرف بعفته ، ونزاهة نفسه ، ونقاء عرشه ، وترقيته عما لا يليق ، ولا يحل .
وصلة هذا البيت بالذي قبله : أن عفته صانته من الاستكافة والضعف ، والتأثر بتقلبات الدهر ، ومفارقات الزمان ؛ فالهوى ، والكوارث ، والتكبات ، والحوادث ترقته عنه ، وهو صامد ثابت في مستواه العالي ، ومزركه الرقيقة ، وحسنه الحصين ؛ حسن العفاة والنزاهة .

(٢٠) الرسن : الحبل . أو المقود : أو التزام يحمل في رأس الدابة ، أو يشد في أنفها لتقاد به .
والطرح : الانطباع ، والالتقياد ، وانخسوع : مصدر طاعه ، وطاع له (من باب قال) : أي لأن له ،
والقائد : القائد ، مصدر قاد الرجل الدابة : أي مشى أمامها أخذاً بمقودها . ومثل « لا رسن طوع القياد » :
لا أدل ، ولا أخضع ، ولا أمتكن ، ولا أنقاد ؛ فالتعبير كناية عن عزته ، وألفته ، وحبيته ، ومحبته فوق
الأهواء والهوى . وزهرة الدنيا : حسنها ، وبهجتها ، ومتاعها ، وزينتها ، وفضائنها ، وفنائها .
والمنى : أنه اليوم لا يتقاد لتزوات النفس ، ولا ينتدح بمحتاج الحياة الدنيا ، ولا يكاد يتعلق بها
أو يبالها ؛ وهذا هو الزهد الذي يفزع إليه المرء إذا أصيب بمثل ما أصيب به الشاعر من الاضطهاد ،
والتجريد ، والنفي ، والتشريد .

أو المنى : أنه اليوم وقبل اليوم لم يخضع لعات ، ولم يقبل ذلاً ، ولم يفتر بإقبال الدنيا عليه .
(٢١) الأرب : الحاجة ، أو الحاجة الشديدة ، أو البنية ؛ أو الأمانة . وصحابة : صحبة :
مصدر صحبه (من باب سلم) : أي صاحبه ، ورافقه . وحر : كريم ، طيب ، شريف . والخال :
الظن ؛ وما توخى من خير . وصادق الخال : يصدق ظنه في ، ويصدق ظني به ؛ أو أوثم فيه الخير ،
فصددني فرائسي ، وأراه هند ظني .

كان للشاعر حاجات أو أمان في دهره ، أو في أهل دهره ، انقطعت كلها وشابت ، ولم يبق منها غير
أمانة واحدة ، هي أن يثر على صاحب وصديق حر كريم ، طيب شريف ، يحقق الظن ، ويقيم على
الوعد ، ويصدق الإخاء ، ويدين بالوفاء .

وفي الأبيات الآتية استبد الشاعر ذلك الأمل الفريد الوحيد ؛ بل استبش منه ، وأعلن انقطاعه
وفواته ، وشكا الوحدة وملابساتها ، وهويها وآلامها ؛ وإذا كانت الوحدة في ذاتها موشحة مؤلمة ، فهي الخلل
هذا الشاعر في ذلك المنى السحيق أشد إحشاشاً وإيلاماً .

وَأَيَّنْ أَذْرِكَ مَا أَبْغِيهِ مِنْ وَطَرٍ وَالصَّدَقُ فِي الدَّهْرِ أَعْيَا كُلِّ مُخْتَالٍ؟ (٢٣)
لَا فِي «سَرَنَدِيبَ» لِي لَأَفْ أَجَاذِبُهُ فَضِلَّ الْحَدِيثَ، وَلَا خَيْلٌ، فَيُغَرِّعَنِي (٢٣)

(٢٢) «أين» : اسم يستفهم به عن المكان : أى فى أى مكان أذكرك ما أبغيه من وطر ؟ . والاستفهام هنا : للاستبعاد . وأذكرك : أنال ، وأبلغ ، وأصيب . وما أبغيه : الذى أطلبه ، وأريده وأبتغيه . والوطر : الحاجة ، والبُخية . والصدق فى الدهر : صدق الزمان ، ووقاؤه ، أو صدق أهل الزمان ووقائهم . وأعياء الشيء : أتعبه ، وأعجزه ، واستعصى عليه . والمختال : طالب الشيء بالخيالة : وهى الخلق ، وبوجوده الرأى ، وصحة النظر فى الأمر ، والقدرة على التصرف : اسم فاعل من استال احتيالا : أى أتى بالخيالة ، واستخدمها ، واعتمد عليها فى إصابة غرضه ، وتحقيق وطره .

فى البيت السابق طمع أن يحقق له الدهر أمنية واحدة ، فيعثره على صاحب حرّ كريم ، وصديق صادق الود .

وفى هذا البيت استبعد الظفر بتلك الأمنية . والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل ، مؤكداً لمعنى الاستبعاد ، وانقطاع الأمل ، وفوات الوطر ، وموت الرجاء ، فإن الدهر فى طبعه الكذب ، والإخلاف ، والمرافقة ، والممارسة ، ومعاودة الأحرار ، وهو بهذه الخصال ونحوها أعياء ذوى الخيالة ، والخلق ، والرأى ، والألكاء ، واللاهء ، وردّهم بالخيالية المؤرّة ، والحشرات للقاتلة .

وقد يكون معنى الشطر الثانى من هذا البيت : أن صدق الناس فى هذا الزمان لا وجود له ، ولا سبيل إليه ؛ وما دام الأمر كذلك ، فلا سبيل إلى الصاحب الحرّ ، والخلّ الوقى . والتفسير السابق ينتهى إلى هذا التفسير ويطابقه ؛ فالشاعر حينما يعيب الزمان ويشكوه ، إنما يعيب أهل الزمان ويشكوهم ؛ وهو بهذا البيت يمهّد لما يشكو فى الأبيات الآتية من وحدته وحشته فى منغاه ، وبمض ما كان يقاسيه فيه من المتاعب والآلام .

(٢٣) «سرنديب» : «سيلان» وقد عرّفنا بها فى عنوان هذه القصيدة . صفحة ٩٣ . وإلف : أليف ، مؤانس : من ألفه (كلمته) : أى أنس به ، وأحبّه ، وصداقه ، وعاشره . ويجاذبه الشيء : نازته إياه . وتجاذباه : تنازاه . ويجذب إليه : ضدّ دفعه عنه . وفضل الحديث : طرف الكلام . وأجاذبه فضل الحديث : أتحدث إليه ، ويتحدث إلىّ بما يكون بين الإلفين المتحابين . والخلّ (بكسر الخاء وضمة) : الصديق المختص بالودود ، ومثله الخليل . ورعى الأمر يرعاه رعاية : حفظه ، وصانته . ويرعى ل : المراد يرعى ل الخلّة : وهى الصداقة ، والمؤدّة ، والمحبة التى تخلّلت النفس ، وشالطتها وامتزجت بها . يشكر خلوقه ، ووحشته ، ووحشته فى منغاه ؛ فهو غريب فيه ، متبرّك به ، بعيد عن وطنه ، متقطع عن أهله ، لا يكاد يجد من يحادثه ، ويؤانسه ، ويخفّف عنه وحشته ، ويرعى له خلّته من الآلاف والأغلاء .

أَبَيْتٌ مُتَقَرِّدًا فِي رَأْسِ شَاهِقَةٍ مِثْلَ الْقَطَايِ فَوْقَ الْجَرَيْنِ الْعَالِيِ (٢٤)
إِذَا تَلَفْتُ لَمْ أَتَبَيَّرْ سُورَى صُورٍ فِي اللَّهْنِ يَرْمُسُهَا نَقَاشُ أَمَالِي (٢٥)

(٢٤) بات بيت : أدرك الليل ، وبات في مكان كذا : أقام به ليلًا ؛ والمراد هنا : الإقامة المطلقة للدايمة ، ليلًا ونهارًا ؛ وإنما عبر بالبيات ؛ لأن الليل عادة وقت الأرق ، والوحشة ، والحلم ، والفسح . . . وما يمانيه أمثال الشاعر من متاعب اللثى وأوصافه ، وهووم الانفراد وآلامه . وينظر في : فريدا ، وسيدا . ورأس كل شيء : أعلاه . وشاهقة : عظيمة الارتفاع ؛ والمراد في رأس هضبة ، أو قنطرة ، أو دابية ، أو أرض جبلية مرتفعة . والقطاي (يفتح القاف وضمة) : الصقر الحديد البصر ؛ يرفع رأسه وينظر إلى السيد ، ويرقبه . والمترابا (يوزن المذهب والمتر) : المكان العالي المرتفع ، يقف فوقه من يشرف على شيء ، ويرقبه .

والبيت شبه تكرار وتأكيده لحسن البيت السابق ؛ فقد أمضه ألم والحزن ، والعزلة والوحشة ، والانفراد والوحدة ، وممرت به الهيام والأيام متتابعة طويلة مملئة في ذلك المنى السحيق ، وفي تلك القنطرة الشاهقة (وينظر أن المنزل الذي اختبر لإقامته كان بعيدا عن الصمران والمكان ، وفوق هضبة عالية من هضاب سرديب) . وفي الشطر الثاني شبه نفسه بالصقر يقف وسيدا فريدا فوق أحد المرايا ، أو إحدى قمم الجبال متوقفا ما قد يمن له من الصيد .

(٢٥) التفتت إلى الشيء : اتجه إليه ؛ يقال : التفتت بوجهه يمنة ويسرة ؛ فإذا كثرت حركات الالتفات ، قيل تلفتت تلتفا . والعور (يفسد السواد وكسرهما) : جمع صورة ؛ وهي الشكل ، والتمثال . وصورة الشيء : خياله في الذهن ، أو العقل . والذهن : الفهم ، أو العقل ، أو الفكر ، أو قوة الإدراك . ويرسمها (من باب نصر) : يخطئها ، ويصورها . ونقاش : صيغة مبالغة من نقش الشيء (من باب نصر) أي لوته ، وزيته بلويزن ، أو بالوان . وبمحاكاة الأصل المخطوط لهذا البيوان كلمة : « جزاد » تلقاء كلمة : « نقاش » . وهما على وزن واحد ؛ ولعل الشاعر كان يريد أن يفاضل بينهما ، ليرجح إحداها على الأخرى . و « جزاد » (كاللهين أستاذ) أشهر مصوري الفرس في القرن السادس عشر الميلادي .

في البيت الثالث والعشرين والأيات التالية بدأ الشاعر يصف وحدته في منفاه ، وبعض ما يضانيه من المتاعب النفسية والجسدية ، وبعض ما كان يحيط به ، ويؤثر فيه من مظاهر الطبيعة ، وخصائص البيئة ؛ وهو في هذا البيت ، يكثر من التلفت بوجهه يمنة ويسرة ، ويدور ببصره فيما حواله فوق ذلك المرقب العالي ، فلا يرى غير صور في ذهنه لما كان يرتقبه ويرجو ، ويأسله ويستشأن من انفرج أزمته ، وزوال شدته ؛ أو هي صور ما كان يتوق إليه — قبل نكته ونفيه — من آمال كبيرة واسعة لم يتحقق له منها شيء ؛ وفي البيت معنى التحسر والتلهف على ما فات .

تَهْفُو يَيِّ الرِّيحِ أَحْيَانًا ، وَيَلْحَنُنِي
بَرْدُ الطَّلَلِ بِبُرْدٍ مِنْهُ أَسْمَالِ (٢٦)
فَقَبِي السَّمَاءُ غَيُومٌ ذَاتُ أَرْوَقَةٍ
وَفِي الْفَضَاءِ سُيُولٌ ذَاتُ أَوْ شَالِ (٢٧)

(٢٦) تهفو في الريح : تُحَرَّكُنِي ، وَهَزَّنِي . ويلحنني : يَغْنِطُنِي ؛ لحفه (من باب منح) : فطاه بالحاء ونحوه . والطلل : جمع الطل : (بوزن تلّ وتلال) : وهو الندى ، أو المطر الضعيف . ويرد الطلل : المطر البارد ، أو المطر مع برودة الجو . والبرد (بضم فسكون) : ثوب مخطط ، أو هو كساء من الصوف الأسود يلتحف به . ومنه : من برد الطلل . وبرد أمال ، وثوب أمال : غلطي ، بال ، قديم ، سُبَّحَكَ ، قد ذهبت جيدته . ويراد بالبرد الأمال ، أو البرد الملهل ، ما تساقط فوق الشاعر ، وكساء ، وضئاه من ذلك المطر الضعيف ؛ فقد شبهه - لضعفه ونعفته ورقته - بالكرب الخلق البالي الأمال الملهل . وبين « بُرْد » و « بُرْد » جِنَاسٌ حَسَنٌ اللفظ ، وضاعف بلاغة الكلام .

وصف بعض ما كان يعانيه في ذلك المرتبأ العالي من الظواهر الطبيعية ؛ فقد تشتت الرياح ، فتحركه ، وتبهزه هزاً عنيفاً ؛ وقد يبرد الجو ، وتطر السحاب مطراً خفيفاً ، فتتساقط عليه قطراته الباردة ، وتكسوه برداً سميلاً خلتها .

وفي ثلاثة أبيات الآتية وصفت السحب ، والسيول ، وقوس الغمام (قوس قزح) .

(٢٧) غيوم : جمع غيم ؛ وهو السحاب . والقطة من الغيم : غيمة . وذات : صاحبة : مؤنث « ذر » : بمعنى صاحب . وأروقة : جمع رواق (بوزن كتاب ، وغراب) : وهو سقف في مقدم البيت . أو كساء مرسل على مقدم البيت من أعلاه إلى الأرض ؛ أو غطاء كالنسطاط ، يحمل على حمود واحد طويل في وسطه . ورواق الليل : مقدمه ، وجانبه . وسيول : جمع سيل : وهو الماء الكثير السائل الجاري ؛ وماء المطر إذا جرى سريعاً فوق سطح الأرض . والأوشال : مياه تسيل من أعراض الجبال ؛ فتجتمع ، ثم تساق إلى المزارع . والأوشال أيضاً : جمع وشل (بوزن سبب وأسباب) : وهو الماء الكثير النزير . ويقال : جاءوا أوشالاً : أي يتبع بعضهم بعضاً . وذات أوشال : تأكيد لمعنى الكثرة المستفادة من لفظ « سيول » .

في الشطر الأول وصفت السحب في السماء ، ورأى فيها ما يشبه الأروقة ؛ أو رآها تنطش الأرض ، كما تنطش الأروقة ما تحتها ؛ أو رآها متكاثفة متراكمة كأنها أروقة الليل .

وفي الشطر الثاني وصفت السيول ؛ ويراد بها الأمطار الغزيرة المنهمرة في الفضاء بين السماء والأرض ؛ أو مياه الأمطار الغزيرة الجارية بقوة وسرعة وتتابع فوق سطح الأرض ؛ أو المياه الغزيرة التي تسيل من أعراض الجبال ، وتمتد إلى الأودية والعياد في مثل البيئة التي يمتثلها .

وفي هذا البيت تمهيد لوصف قوس الغمام في البيتين الآتيتين .

كَانَ قَوْسُ النِّعَامِ الْفَرْ قَنْطَرَةٌ مَعْقُودَةٌ قَوْقَ طَائِيِ الْمَاءِ سَيَّالٍ (٢٨)
 إِذَا الشَّمَاعُ تَرَاخَى خَلْفَهَا نَشَرَتْ بَدَائِعًا ذَاتَ أَلْوَانٍ وَأَشْكَالٍ (٢٩)
 فَلَوْ تَرَانِي وَبُرْدِي بِالنَّدَى لَثِقُ لَخِلْتَنِي فَرَحٌ طَيْرٍ بَيْنَ أَذْغَالٍ (٣٠)

(٢٨) القوس: آلة على شكل نصف دائرة، ترى بها السهام ونحوها، وهي مؤنثة، وقد تذكّر. والنعام: السحاب، أو الأبيض منه، وإحدىه قمامة. وقوس النعام: قوس قزح (بوزن صر): وهو حادث جوى، يظهر في السحاب بشكل قوس يتكون من الألوان: البنفسجي، فالتيل، فالأزرق، فالأخضر، فالأصفر، فالبرتقالي، فالأحمر؛ وسببه انحلال أشعة الشمس إلى هذه الأصواء السبعة في كُرَيَّاتِ ماء السحاب، التي تقبل بفسو الشمس قبل المشور البلوري. وفي بعض المجمعات أن قوس قزح تنشأ في السماء، أو على مقربة من مساقط مياه للشلالات ونحوها، في ناحية الأفق المقابلة للشمس؛ وترى فيها ألوان الطيف متتابعة؛ وسببها انعكاس أشعة الشمس من رذاذ الماء المطاير من الأمطار، أو من مياه الشلالات ونحوها من المساقط المرتفعة التي تنحدر منها الماء. وغمامة غراء، وغمام خُر: أبيض حسن. والقنطرة: الجسر يبنى على الماء للعبور، وجميعها قناطر. ومعقودة: منطقة، منحنية، متقوسة. وطام: كبير، غزير، فياض. وسيال: صيغة مبالغة من سال الماء ونحوه: أي غلى، وجري، بشدة وكثرة؛ والمشابهة واضحة بين قوس النعام والقنطرة.

(٢٩) للشماع: ضوء الشمس، أو هو الضوء الذي يرى كأنه غيوط، وإحدىه شعاة، والجمع أشعة. وتراى: بدا، وظهر. وخلفها: وراء قوس النعام؛ ولعل الشاعر يمي أن الشماع يقوس النعام يظهران معاً، وأنه يسقط عليهما من ورائها. ونشرت: بسطت، وأظهرت: من النشر: وهو خلاف العلى. وبدائع: روائع: جمع بدئية: مؤنث البديع: وهو المحدث، المستحدث، العجيب، الذي لم يعرف من قبل: أي أن قوس النعام تريك ما يروك، ويهرك، ويمجيك، ويسرك، ويروقك من منظرها الفذ الفريد، وشكلها البديع العجيب. و«بدائع» منوعة من الصرف، أي التثنية؛ لأنها صيغة منتهى الجموع، وإنما نوّعت هنا لفروقة وزن الشعر. ويراد بالألوان: ألوان الطيف المتتابعة، وهي سبعة ألوان، ذكرناها بترتيبها، في التعريف بقوس النعام، في شرح البيت السابق. وأشكال: صور، وهيئات.

يقول: إذا بدت* أشعة الشمس المنسكة وراء قوس النعام، نشرت* ما يروكك من بدائع الألوان والأشكال.

وفي شرح البيت السابق تعريف واف بقوس النعام، وسببها.

(٣٠) البرد: الثوب. والندى: المطر، والليل: وجار الماميتكائف في طبقات الجو الباردة، في أثناء الليل، ويسقط على الأرض قطرات صغيرة. ولثيق* (بوزن فرج): ندى، مبتل*. والوار: واو=

غَالَ الرَّدَى أَبَوِيهِ؛ فَهُوَ مُنْقَطِعٌ فِي جَوْفِ غِيَنَاءَ، لَا رَاعٍ، وَلَا وَالِي (٣١)
أَزْيِغِبَ الرَّأْسِ، لَمْ يَبْدُ الشُّكْرِ بِهِ وَلَمْ يَصْنُ نَفْسُهُ مِنْ كَيْدِ مُغْتَالِ (٣٢)

= الحال، وجملة: «بُرِدَى بالنتى لَيْقٍ»: حال من المفعول به، وهو الياء في «تراق». وغيلتى: حسيته، وظلنتى: وفرخ الطائر: ولده. والأدغال: جمع دغل (بوزن سبب وأسباب): وهو الشجر الكثير، الكثيف، الملتصق.

في سبعة الأبيات السابقة شكك الشاعر بعض ما كان يضانيه في منفاه من الانفراد، والوحشة، وشيعة الأمل، وحرارة الحشرات؛ ثم صور بعض الظواهر الطبيعية التي كانت تمارس في مرتبته المال، كصف الرياح، وبرودة الجو، وتراكب اللجم، وكثرة الأمطار والسيول والأوشال. ثم استطرد، فأرانا صورة تيسرة لقوس الغمام؛ وفي هذا البيت ابتلّ ثوبه بما تساقط عليه من المطر؛ فهذا ضعيف المنة، ضيق الحيلة، قليل الحركة، كأنه فرخ طير بين أدغال؛ وفي سبعة الأبيات الآتية استطرد لوصف هذا الفرخ الذي افقدت بيته وبين الشاعر مشابه كثيرة؛ ويلاحظ أن التنى أو المطر اللذي أصاب الشاعر في هذا البيت أكثر من الطلّ أو المطر اللذي أصابه في البيت السادس والمشرين؛ فبرده فيه أعمال، وبرده هنا تَيْقٍ.

(٣١) غاله (من باب قال): اختاله، وأهلكه، وأرداه. والردى: الخلاء، والموت. ومنقطع: يريد أنه مقطوع عن أهله، ووطنه، عاجز عن العودة، أو متابعة الرحلة والمفر؛ وفي الانقطاع معنى الانفراد، والوحشة، والقلق، والضياع، والخلوة، والحلم... وسائر ما يمانيه السجن في سبته، ويضانيه المنفى في منفاه. وجوف كل شيء: باطنه. وفي جوف غيناة: في جوف أرض، أو بقعة غيناة: مؤثث الأتفين؛ وهو الأغصان، الطويل، الناعم، الكثير الورق، الملتصق الأغصان من الشجر والنبات. والراعى: اسم فاعل من رعى يرعاه: أى راقبه، ولاحظه، وحرسه، وسقطه، وصانه، وتولاه. والوال: اسم فاعل من وليه يكله ولاية: أى تولاها، وقصره، وأحبّه، وقام بما يلزمه، وأعد له ما يكفل سلامته وطمانيته.

وللمشابهة كثيرة واضحة بين الشاعر وهذا الفرخ الوحيد، اليتيم العظيم الذي فقده راعيه واليه، وانقطع عن أهله ووطنه، في جوف تلك لليناء الموحشة المظلمة الخيفة.

ويلاحظ أن معنى «الأدغال» في البيت السابق قريب جداً من معنى «الغيناة» في هذا البيت؛ وفي كل منهما الظلمة، والوحشة، والخوف، والقلق، وتوقع الشر، والموت، والأذى، والمكره.

(٣٢) «أزْيِغِب» (بالنصب): صفة لـ «فرخ طير» في البيت الثلاثين. أو بالرفع: خبر مبتدأ محذوف: أى هو أزْيِغِب: تصغير «الأزْغَب»: وهو ماله زَغَب من الطير. والأزْغِب (بوزن =

كَانَتْ كُرَّةً مَلْسَاءً مِنْ أَدَمَ خَفِيَّةُ الدَّرَزِ ، قَدْ عَلَتْ بِجِرْيَالٍ (٣٣)
يَظُلُّ فِي نَصَبٍ ، حَرَّانَ ، مُرْتَبِيًا نَفَعَ الصَّدَى بَيْنَ أَشْحَارٍ وَأَصَالٍ (٣٤)
يَكَادُ صَوْتُ الْبَزَاةِ الْقُمْرِ يَقْدِفُهُ مِنْ وَكْرِهِ بَيْنَ هَابِي التُّرْبِ جَوَالٍ (٣٥)

(= الحبب) : صغار الشعر والريش ، وأول ما يبدو منها . أوهو الشعيرات الصغرى على ريش الفرخ الصغير .
ولم يبد : لم يظهر : مضارع « بدا » (من يابى عدا ، وسما) : أى ظهر . والشكير (بوزن السريز) :
صغار الريش النابتة بين كباره ، وكذلك صغار الشعر . والشعر الأول : كناية عن صغره ، وطفولته ،
وضمغه . ولم يصب : لم يحفظ : مضارع صانه (من ياب قال) : أى حفظه ووقاه . والكيد :
المكر المسمى " ، والخبث ، والخديعة ، وأن تريد غيرك بسوء ، وتخفى عنه ما تقصمه له من الأذى والمضرة .
ومفتال : اسم فاعل من اغتاله اغتيالاً : أى أخذه من حيث لا يدري ، وأهلكه ، وقتله غيلة .
يقول : إنه فرخ صغير ضعيف ، لا حول له ، ولا قوة ، ولا يستطيع أن يرد عن نفسه كيد الكائد ،
واغتال المختال .

(٣٣) ملساء : ناعمة لينة . والأدم (يفتحين ، أو يسمتين) : جمع الأدم : وهو الجلد المدبوغ .
والدرز : موضع الخياطة ؛ أو هو مصدر درز الخياط الثوب (من ياب نصر) : أى غاطه خياطة دقيقة ،
مقاربة ، ملتزمة غاية الاتئزاز ، وعلت : سقطت مرة بعد أخرى . والجريال : صبيغ أحمر ، أو حمري اللون ،
أو سلاطة الصفر : أى عصارته ، وغلصته . والصفر : نبات يستخرج منه صبيغ بين الحمرة والصفرة . وفي
بعض المصحفات أنه صبيغ أصفر اللون .

التفت هذا الفرخ الصغير الضعيف - على نفسه ، وتجمع ، وتكبر ، وأغنى أطرافه ورأسه في أطواه جسمه
المغطى بالزغب الأصفر ؛ فكان كالكرة الملساء الناعمة اللينة ، الخفية الدرز ، صنت من الجلد المدبوغ ،
وصيغت بالصفر ؛ وهذا كله تصوير بليغ للغوف والضعف ، والانتباض والابتئاس ؛ وقد تشير الصورة
مع هذا كله إلى الجوع والعطش ، والجئس والحزن .

(٣٤) ظل يفعل كذا : فعله تباركاً . والمراذعنا أنه يبقى في نصبه ليلاً ونهاراً . والنصب : الإعياء ،
والنصب : حران : شديد العطش . ومرتقب : منتظر . والتقم : مصدر تقع الماء العطش (من ياب نفع) :
أى أذهب ، وأطفأ ، وسكنه . والصدى : شدة العطش . والأسعار : جمع السحر (بوزن سبب وأسباب) :
وهو آخر الليل ، قبيل الفجر . والآصال : جمع الأصل : وهو الوقت حين تصفر الشمس لمغربها ، أو
هو الوقت بين العصر والمغرب ؛ ويراد بالأسعار والآصال : أوقات الليل والنهار كلها .

والبيت تصوير لما يقاسيه هذا الفرخ في جوف تلك الدنيا مطوأل النهار والليل من شدة العطش ، والإعياء ،
وطول ارتقائه ما ينتفع صده ، ويطغى ثلماً ؛ ولا ريب أن خوفه وانتباضه ، وضمغه وانقطاعه ... أتمده
عن السعى وراء طعامه وشرباه .

(٣٥) البزاة : جمع البازي : وهو طير من الجوارح ، أو ضرب من الصقور يصاد به . والقمر :
جمع القمر : صفة من القمرة : وهي لون بين البياض والخضرة . ويقذفه (من ياب ضرب) : يذمه ، ويلقيه ، =

لَا يَسْتَطِيعُ انْطِلَاقًا مِنْ غِيَابَتِهِ كَأَنَّمَا هُوَ مَعْقُولٌ بِمُقَالِ (٣٦)
فَذَاكَ يَثْلِي ، وَلَمْ أَظْلِمْ ، وَرُبَّمَا فَضَلْتُهُ بِجَوَى حَزْنٍ ، وَلِمَعْوَالِ (٣٧)

= ويرمي بقوة . وكرر الطائر : غشه . وهاب الترب : ما دق من التراب ، وثار ، وانتشر ، وأرتفع في الجو . وسكان هاب الترب : ترابه دقيق قام ، مثل الهباء : وهو الغبار . وجوال : ثائر ، متحرك ، منتشر ، مرتفع . ويراد بهاب الترب الجوال : الهباء ، والأودية ، والأراضي المنخفضة التي يرقق ترابها ، ويثور غبارها . يصف فنزح هذا الفرخ الصغير الضعيف ، وشدة خوفه من الطيور الصائدة الجارحة المفترسة ؛ ويقول إن صوتها يكاد يخرج من غشه المال ، ويرى به في سحيق الأودية ، وعميق الوهاد ، بين الأتربة الخالية ، والهباء النائر .

(٣٦) الغيابة : كل ما غيب شيئاً ، وسره ، وأخفاه عن العيون . ويراد بهيابة الفرخ هنا : وكرو ، وغشه الذي يستتر به ، ويثبت فيه ، ولا يكاد يرحه ويفاديه . ومعقول : مربوط ، مقيد . والمقال (بوزن الرمان) : داء يأخذ الدواب في أرجلها ؛ ويراد به هنا : ما يقيد هذا الفرخ ، ويمتد المثل والحركة ، ويحبسه عن الانطلاق وال الطيران .

والبيت في وصف ما يعانيه هذا الفرخ من آلام الحبس ، وتقيد الحرية ؛ فهو سجين في وكرو ، لا يكاد يرحه ، ولا يستطيع الانطلاق منه .

(٣٧) ذاك : إشارة إلى فرخ الطير الذي استورد لوصفه في سبعة الأبيات السابقة . والمثل : الشبهة ، والتظير . ولم أظلم : لم أتزيد ، ولم أبالغ ، ولم أعد الحقيقة ، ولم أتجاوز حد القصد والاعتدال ؛ من الظلم بمعنى وضع الشيء في غير موضعه . و « رُبَّمَا » : كلمة تقليل ، أو تكثير . وهي هنا لتكثير ؛ فالشاعر يفوق هذا الطائر ، ويزيد عليه في التكثير الغالب من الأحوال التي أشار إليها من قبل . وفضلته (من باب نصر) : أي فضلت ، وزدت عليه ، وعانيت أكثر مما يعاني . ويجري الحزن : حركته وشده . والأحوال : مصدر أحول : أي رفع صوته بالبكاء .

يقول : إنه حينما شبَّ حالته في منغاة بحالة ذلك الفرخ - لم يتجاوز الحد ، ولم يسعه الصواب ؛ بل دُمَّما فاته بالجوى ، والحرق ، وشدة الوجد ، وفطر الحزن ، وتبريح الشوق ، والإجهاش بالبكاء ، والانفجار بالحبيب ، والانطباع للإحوال .

ومثل هذا البيت يتم على ما كان يتتاب الشاعر - أحياناً - في منغاة من الجزع ، وضعف المنَّة ، والأنهيار .

وفي سرديياته مع هذا كثير من شواهد قوته وصلابته وصبره الجليل ، وقيلته لريب الدهر ، وصروف الزمان .

شَوْقٌ ، وَنَأَى ، وَتَبَرَّحٌ ، وَمَعْتَبَةٌ يَا لِلْحَيِيَّةِ مِنْ غَدْرِي وَلِمَهْمَالِي (٣٨)
أَصْبَحْتُ لَا أَسْتَطِيعُ الثَّوْبَ أَصْحَبُهُ وَقَدْ أَكُونُ وَصَا فِي الدِّرْعِ سِرْبَالِي (٣٩)

(٣٨) النَّأَى : البعد ، والفراق . وتبرَّح به الشوق ، والوجد ، والمهمّ ، ونحوه تبرّحاً : ثقل عليه ، وعذب به ، وإذاه أذى شديداً . والمعتبة (بفتح التاء وكسرهما) : الاسم من عتب عليه (كقرب ، وقصر ، وطرب) : أى أذكر عليه شيئاً من فعله ، أو لاهه في موجبة وتسخط وغضب ؛ أو غاطبه غطاطة الإدلال والاجترار مع الثقة ، مذكراً لِيَأْه بما كرهه منه ، طالباً حسن مراجعته . والعتب ، أو المعتبة المشار إليها هنا : قد تكون عل الشاعر من بعض بني وطنه ، وقد تكون من عليهم ، وقد تكون من رفاقه في منفاه ؛ فقد نزع الشيطان بينهم بعد إخفاق الثورة الرابضة ، وزعزت الدعايات الكاذبة المسمومة ثقة بعضهم ببعض ؛ فأقبل بعضهم عل بعض يتلاومون . و « يا للحيمة » : أسلوب استنفاة ؛ وهى نداء من يخطص من شدة ، أو يمين عل دفع بلية . و « يا » قبلها : حرف نداء واستنفاة . واللام بعدها مفتوحة ؛ لدخولها عل المستنفاة به ؛ وهو الحمية ؛ بمعنى : الألفة ، والإباء ، والمروءة ، والنخوة ، والغيرة . ويا للحيمة : يا لئوى الحمية . والمستنفاة لأجله ؛ « غدرى » ؛ وهو هنا مجرور بـ « من » ؛ لأنه مستنصر عليه ؛ أى استغيث ذوى الحمية ، لدفع ما أصابني من غدر الغادرين ، وإهمال المهملين . والغدر : نقض العهد ، وإخغار الثقة . وضده « لوفاء » .

فَصَلَّ في الشطر الأول بعض ما كان يقاسيه في منفاه من التفريق والتشريد ، والبعد والفراق ، وتبرّح الشوق والوجد ، وفرط الألم ، والهمّ ، ومرارة العتب والموجدة . وفي الشطر الثانى اشتد به الكرب والبلاء ؛ فاستنفاة ذوى النخوة والحيمة ؛ ليدفعوا عنه ما أصابه من غدر الغادرين ، وإهمال المهملين الذين نقضوا عهداً ، وأخفروا ذمته ، وأهملوا شأنه ، وخذلوه وأسلموه .

(٣٩) « أصبح » هنا ؛ بمعنى « صار » . وأصحه : أجره عل الأرض . والفاسق : السابغ ، التام ؛ اسم فاعل من صفا الثوب (من بابى عدا ، وسما) : أى صبغ ، وطال إلى الأرض . والدرع : قميص من زرد الحديد ، يلبسه المحارب وقاية لنفسه من سلاح العدو . والسربال : القميص ، أو كل ما يلبس . و « قد » في أول الشطر الثانى تقييد هنا التأكيد : أى وكثيراً ما كنت . . . أو وطالما كنت . . . في الشطر الأول أشار إلى ما انتهى إليه أمره في منفاه من الضعف والقصور ، والعجز والإعياء ؛ لتقدم سته ، واحتلال جسمه ، وكثرة ما توالى عليه من البلايا والكوارث .

وفي الشطر الثانى أشار إلى ما كان عليه قبل اللنى من القوة واليأس الشديد ، مفتخراً بكثرة ما تسربل به من سابقات الدروع ، وعنت ما خاضه من المماح والحروب .

والبيت الآتى تكرار لهذا المعنى .

وَلَا تَكَادُ يَدِي تُجْرِي شَبَا قَلَمِي وَكَانَ طَوَعُ بَنَانِي كُلِّ عَسَالٍ (٤٠)
فَإِنْ يَكُنْ جَفَّ عُودِي بَعْدَ تَضَرُّعِهِ فَالِدُّهُرُ مَصْنُورٌ إِذْ بَارٍ وَإِقْبَالٍ (٤١)

(٤٠) تجرى : ترمل ، وتطلق ، وتحرك : مضارع أجراه إجرأه . والشبا ، والشبوات : جمع شبة (بوزن قناة) : وهي حدّ كلّ شيء . وشبابة القلم : إيقته ، وسه . والبنان : أطراف الأصابع ، الواحدة بنافة (بوزن سحابة وسحاب) . ومن كلامهم : هو طوح بئنا لك ، وطوح بك أي متفاد لك . والمسال : الرمح القد ، المهتر ؟ وصلات الرمح من أمارات جودتها ؟ وهو تصوير لاحتزازها ، واضطرابها الشديد في أثناء المعركة والحرب .

يقول - في حسرة وطفة - : إن يله الآن لا تكاد تقوى على تحريك قلمه بالكتابة ؟ وكان شديد البأس ، قوى المراس ، قديراً على حمل السلاح ، بارعاً في استخدامه وتطويعه .

ويلاحظ أن الشطر الثاني من هذا البيت ، والشطر الثاني من البيت السابق في معنى واحد : هو الفخر بماضيه الحربي ، والاعتزاز بما كان له من سابقات الدروع ، والبراعة في استخدام الأسلحة وتطويعها ، وشغف شبار الحروب وشجاعة وجرأة ، وكفاية عالية ، وإقدام محمود .

(٤١) جفّ : يبس ، ونشف . والمود : خصل الشجرة بعد أن يقطع ؟ وكفى بعوده من جسمه ؟ وكفى بجفاف عوده من ضغفه ، وخصفه ، وتقدم سه . والنضرة : الرقيق ، والحسن ، والنعمة . وفي القرآن الكريم : « تعرف في وجوههم نضرة النعيم » (الآية رقم ٢٤ من سورة المطففين) : أي بريقه ، ورونقه ونضاه . وكفى بنضرة عوده من قوته ، وقوته ، وشبابه ، وصحته ، ونعمته . والدهر : اسم لمدة العالم ، أو مدة الحياة الدنيا ، أو الزمان الطويل ، والأمد الممدود ؟ وقد اعتاد الناس أن يضيفوا إليه انغير والشر ، والمرّة والمساءة . والإدبار : مصدر أذهب : بمعنى ذهب ، ونفى . وضده الإقبال : مصدر أقبل ، وهما مصدران عن الدهر ، وينهضان منه ، وينسبان إليه . ومن كلامهم : « أقبلت عليه الدنيا » : إذا جاءته بخيرها . وضده « أدبرت » عنه . والشطر الثاني تذييل جار مجرى المثل ، ومعناه : أن الدهر حول قلبك ؛ يسلى ، ويمنع ، وينقص ويرفع ، ويبس ، ويسترد ، ويدور على الناس بأسياب القوة والضعف ، والمز والذل ، والجدة والحرمان ، والسعادة والشقاء .

أعلن الشاعر في البيتين السابقين أسفه وجزمه ، وتلهّفه وتصره . ولكنه ما لبث أن عزى نفسه بهذا البيت ، وسلّاها ، ونخّفت عنها كلّ التخفيف ؟ فإن الدهر حول قلبك ، لا يكاد يعرف الاستقرار أو الثبات ؟ وما جرى عليه مجرى على غيره من الناس ؟ فله فيهم أسوة حسنة ؟ وقد تسالاه الأيام ، وتغلب عليه الدنيا ، وتعيد إليه عزّه وسرّيته . وفي الأبيات الآتية أساليب أخرى للتنزية والتسلية ، والتخفيف والتلطيف .

عَلَامٌ أَجْزَعُ ؟ وَالْأَيَّامُ تَشْهَدُ لِي بِصِدْقِ مَا كَانَ مِنْ وُسْطَى وَأَعْمَالِي ^(٤٢)
 رَاجَعْتُ فِهْرَسَ آثَارِي ، فَمَا لَمَحْتُ بِصِيرَتِي فِيهِ مَا يُزْرِي بِأَعْمَالِي ^(٤٣)
 فَكَيْفَ يُنْكِرُ قَوْمِي فَضْلَ بَادِرَتِي وَقَدْ سَرَتْ حِكْمِي فِيهِمْ ، وَأُمَثَلِي ؟ ^(٤٤)

(٤٢) « علام » ؟ : « ما » الاستفهامية المجرورة بـ « على » ؛ وإذا جرّرت حذف « ألها » ، وبقيت القصة دليلًا عليها ؛ والمعنى : على أي شيء ؟ أو لأي شيء أجزع ؟ : من الجزع : وهو أبلغ من الحزن ، وأشد ، وأحق (وبابه تسب) ؛ فهو ينكر على نفسه الحزن ، أو يستجده ويتغيه . و « الواو » : واو الحال ، والجملة بعدها حالية . ووسمه (من باب وعد) : جعل له علامة يعرف بها . وشده الإغفال : مصدر أفضله : أي تركه بلا وسع ؟ ويريد بالوسم ؟ ما عمله ؟ وبالإغفال : ما تركه .

والمعنى : أنه لم يقترف ما ينتم عليه ، أو يستوجب العقاب والوم ، أو يصبه ويصيبه ؛ وأن صحيفته بيضاء ، وكتابه نقي ، وسلوكه مستقيم ، لا غبار عليه ، وسيرته كلها نظيفة مشرقة ، والأيام تشهد أنه كان على النوام يتوخى الحق والصديق والإخلاص ، ويتحرى الرشيد والاستقامة والصالح فيما يأتي وما يترك من الأقوال والأعمال والتصرفات ؛ فلا ينبغي لثله أن يجزع ، ولا يليق به أن يحزن .

كأنه يكرر ما تضمنته البيت السابق من تعزية نفسه وتسلية ، وحملها على الصبر والتجملد والسلاوان .

والبيت الآتي يوضح معنى هذا البيت ، ويفصّله ، ويؤكد .

(٤٣) راجع الكتاب : رجع إليه ، وأعاد النظر فيه . والفهرس : الكتاب تجميع فيه أسماء الكتب . ولحقّ يوضع في أول الكتاب ، أو آخره ، يذكر فيه ما اشتمل عليه الكتاب من الأبواب والفصول والموضوعات والأعلام . والآثار : جمع أثر : وهو ما بقى من رسم الشيء ، أو ما يحدّثه الشيء ، أو ما خلّفه السابق للأثر . ويريد بفهرس آثاره : صحيفة أقواله وأعماله وتصرفاته ، بترتيب أزمّتها وأمكنّها . ونحت : أبعث . والبصيرة : الفهم ، والفتنة ، والمقل ، وقوة الإدراك . وفيه : في فهرس آثارى : أي كتاب سيرتى . وأزرى به يزرى إزداء : عابه ، وشانه ، وسط من قدوره .

خفف الشاعر عن نفسه ، وفزأها بقوله : إنه راجع ما ضيه وحاضره في كتاب سيرته وسجاته ، فلم يرفيه ما يُزرى بعلمه ، أو يحطّ من شأنه ، ولا يرب أن المتصفين من المؤرخين يُفَرِّقونه حل هذا ، ويشهدون ببقاء عرضه ، وصدق جهاده ، وإخلاصه لوطنه .

(٤٤) « كيف » : اسم استفهام يطلب به تعيين الحال ؛ وقد أخرج هنا مخرج التعجب ، أو التقرع ، والتعنيف ، والتوبيخ . وينكر : يجهل ، أو يجهل . والبادرة : اسم فاعل من بدر إلى

أَنَا ابْنُ قَوْلِي، وَخَسْبِي فِي الْفَخَارِ بِهِ وَإِنْ عَدَوْتُ كَرِيمَ الْمِثْمِ وَالْخَالِ»

حاشيته : أي أسرع ، وسجّل . ويراد بها هنا : البديهة : وهي الإجابة الماجلة الصائبة ، والفكرة السريعة السديدة . وفلان حسنّ البادرة والبديهة : أي يفهم ما يفاجأ به من أول وهلة ، ويحسن التصرف على وجه السرعة . وله في الشعر ، والنثر ، والكلام ، والجواب بذاته : أي بدائع ، وروائع ، وعجائب . والواو : واوالحال ، والجملة بعدها حالية . وسرى (من باب رمى) : مضى ، ذهب ، صار ؛ ويراد بسرائه حيكه وأمثاله فيهم : ذبيحها ، وشيوعها ، واشتهارها ، وانتشارها . أو هي « سرا » (من باب عدا) : بمعنى شرمقت ، وملا شأنها . والحكم جمع حكمة : وهي القول السديد الرائع ، الذي يوافق الحق ، ويقيد أدبا وفضة . والأمثال جمع مثل (يوزن سبب وأسباب) : وهو القول السائر القاصي بين الناس ، يشكلون مضربه (أي الحالة الجديدة المشابهة لمنه) بمؤوده (أي الحالة الأصلية القديمة التي ورد فيها) . والحكم والأمثال في شعر البارودي وثيرة غير قليلة .

ويجئ الشاعر في هذه القصيدة كثيراً من المثلث المرّ إلى من جفوه ، أو أسأوا به الفن ، أو سلوا عنه من أحباله وأهله وبني وطنه . وهو في هذا البيت يقصر بما شاع وذاع في قومه من أدبه الرفيع ، وبفضله الواسع ، ويراد به ، وبدانته ، ويعتبر عليهم ؛ فيعتبر اتهامهم إياه ، أو سلوهم عنه ، أو إهمال شأنه ، أو قصودهم عن نصرته ، أو غدرهم به جهلاً بفضله وأدبه ، وإنكاراً لمزاياه ومغافرة ؛ ولهذا سأل في تعجب ودكش ، أو تقريع وتعتيف : كيف يتأتى منهم هذا الإنكار ، أو الجحد ، أو الجهل ، أو التجاهل ، مع ما يدور بينهم ، ويتردّد إليهم ، ويسرى فيهم ، ويطلق أسماعهم من حيكه وأمثاله ، وفواضله ومحامده ؟ ! .

(٤٥) أنا ابن قول : أنا ابن أدبٍ وشعري : يريد أنه منتسب إليه ، معول عليه ، معتر به اعتزاز الولد بأبيه ؛ ويكنى بهذا عن فصاحته وبلاغته ، ومقدوره على نظم الشعر ، وإنشاء الأدب ، وتمكّنه من أسباب السّحر والبيان . والعرب تكنى بآبئ كذا عن ملازمه ، والمخبر به ، والمأخوذ به . وحشي : كفاً ، أو كفاً ؛ وهو مبتدأ ، خبره « في الفخار به » : أي كفاً في ثروتي ورفقي ؛ أن أفخر بقولي ، أو أن أفخر به غيري . والفخار (بفتح الفاء) : الفخر ، والابتهار . أو هي للفخار (بكسر الفاء) : مصدر فاحره مغافرة وفخاراً : أي غاليه في الفخر ، وباراه . و « إن » (بكسر الهمزة وسكون النون) : حرف وصل ، لا جواب له ، كما في قوطم : « فلان كريم وإن كان قليل المال » : أي مع قلة ماله . أو هي بمعنى « قد » التي تدخل على الفعل الماضي ؛ فتفيد التوكيد والتحقق . والواو قبلها : واو الحال ، والجملة بعدها حالية : أي والحال أني قد غفوت كريم المِثْمِ والخال . ويجوز أن تكون « أن » (بفتح الهمزة وسكون النون) : ويشتدّ يكون المصدر المؤكّد منها ، وبين الفعل بعدها محطاً على الضمير المحرور المتصل = ديوان البارودي - ٢

وَلِي مِنَ الشَّعْرِ آيَاتٌ مُفَصَّلَةٌ تَلُوْحُ فِي وَجَنَةِ الْآيَامِ كَالْخَالِ^(٤٦)
يَنْسَى لَهَا الْفَائِدَ الْمَحْزُونُ لَوْعَتَهُ وَيَهْتَدِي بِسَنَاهَا كُلُّ قَوَالٍ^(٤٧)

== بالبهاء في « به » : أي كفايتي في الفخار بقول ، وبأني غدت كرم المم والخال ؛ أو كفايتي وينبغي الفخار بقول ، وبأني . . . وكسر همزة « إن » أفضل وأبلغ في مثل هذا المقام . وغدت (من باب سما) : صرت ، أو كنت : أي وإن كنت مع فخرى بقول كرم المم والخال . وكريم : صفة من الكرم : بمعنى الخير ، والفضل ، والبر ، والمروءة والإحسان ، وكل ما يرضى ويحمد من المزايا ، والفضائل ، والأحاديث ، والمكرامات . والمم : أخو الأب . والخال : أخو الأم ؛ والمراد أنه كرم الأصول من جهتي أبيه وأمه ؛ فحسبه كامل تام .

افتخر في البيت السابق بفضل بولاده وبدائمه ، وسيرورة أدبه وشعره ، ويَدَّيْعَانِ حكمه وأمثاله . وافتخر في هذا البيت بفصاحة لسانه ، وسحر بيانه ، وروائع أدبه وشعره ، واعتزازه بقوله ، وتمكّنه من أساليب الكلام ، وكرم أحمائه وأخواله ، وبجادة حسبه ، وشرف أصوله .
ويجوز هذه الآيات وأمثالها بحمل - مع الفخر - الحب ، والمحبة ، والتخفيف من نفسه ، وطراح جهده ، وتبرئة ساحته ، وقترقسي من همه رضام من أهله وأحبائه .

(٤٦) آيات : جمع آية : وهي البصرة ، والوسطة ، أو المميز . والآية من القرآن الكريم : كلام منه منفصل بفصل لفظي . ومفصلة : مبينة ، موضحة . من التفصيل : وهو التبيين . أو هو ضد الإيجان . وفصله : جملة قصولاً متبايزة ، وقطعاً مستقلة . وتلوح : تبدو ، وتظهر . والوجه (مثلثة البواو ساكنة الجيم) : ما تنأى أي ظهر ، وبرز ، وارتفع من لحم الخلف . والخال : شامة ، أو نكبة سوداء في البدن ؛ وظلب حل شامة الخلد ؛ وهي من محاسن الوجه . وقد تكون خيلية ، وقد تصنعها المرأة لتجميل والتزيين .

أشار إلى ما في شعره وأدبه من عبر وعظمت تلهب النفس ، وتهدى إلى الرشد ، وافتخر بما فيه من الروعة والجمال ، وسحر البيان ؛ وداني به أي للذكر الحكيم في بلاغة التعبير ، وقوة التأثير ، وخصيصة الإيجاز ، وقال : إن الأيام تزددان به ، كما تزددان ويستات الحسن بالخيلان ؛ وفي هذا معنى خلود شعره ، ودوام حسه .

(٤٧) لها : للآيات المفصلة التي افتخر بها في البيت السابق . وينسى لها : ينسى بسببها ، ومن أجلها ، فاللام هنا لتلليل ؛ ويمكن أن تكون بمعنى « في » ، أو بمعنى « مع » ، أو بمعنى « عند » ، أو بمعنى « بعد » . والفاقد : اسم فاعل من فقد المرء ولده ، أو حبيبه . واللوعة : حرقنة الحزن ، وألم الفراق . والسنا : الضوء الساطع . وقول : صيغة مبالغة من القتل ؛ ويراد به : الأديب اللحن الفصيح .

فَانْظُرْ لِقَوْلِي تَجِدُ نَفْسِي مُصَوَّرَةً فِي صَفْحَتَيْهِ ، فَقَوْلِي خَطُّ تَمْثَالِي (٤٨)
وَلَا تَغُرَّنَكَ فِي الدُّنْيَا مُشَاكَلَةٌ بَيْنَ الْأَنَامِ ، فَلَيْسَ النَّبْعُ كَالْقَصَالِ (٤٩)

والحق : أن الشاكر المتلذذ يجد في شعر البارودي ما يميزه ، ويشبهه فاجته ؛ وأن هذا الشعر ينير السبيل لروائه وحفظته من الأدباء والشعراء ؛ فيقتدون به ، ويحتشون بهديه ، ويحتلون مثاله ، وينسجون على منواله ، ويلبثون بفضل الاقتداء والاحتذاء مرقية الإجابة والإقتان .

(٤٨) يريد بقوله : أدبه وشعره . وصفحة الشيء : وجهه ، وصفحة الكتاب : أحد وجهي الورقة منه . ولكل ورقة أو صحيفة وجهان أو صفحتان . ويريد بصفحتي قوله : أدبه كله ، أو صفحات ديوان شعره ، أو الصحائف التي دون فيها أدبه وشعره . وأخط : مصدر خط الشيء (من باب رد) : أي كتبه بقلم أو غيره . وخط عليه : رسم . وأخط أيضاً : ما يُسَطَّر ، أو يُكْتَب ، أو يُرْسَم . والتمثال : الصورة المصورة . أو هو ما تصنعه وتصوره ببدك مشبهاً خلق الله تعالى من ذوات الروح والصورة . وقول خط تمثالي : أي أدبي وشعري يمثلني ، ويصورني ، ويبرز خصائصي ، وما تنطوي عليه نفسي ؛ فهو تكرار وتأكيد لمعنى الشعر الأول .

يقول : إنك ترى في آثاره الأدبية صورة صحيحة ، دقيقة ، صادقة ، بينة ، واضحة لكل ما يميز نفسه من الخصائص والصفات ؛ وليس في هذا شيء من التزويد أو المبالاة ؛ فإنك تستطيع أن تستخرج من شعر البارودي وأدبه صورة كاملة لشخصيته وسيرته ، وأطوار حياته كلها .

ويلاحظ أن هذه القصيدة قد صورت لغارتها كثيراً من جوانب نفس هذا الشاعر ، وخواطره ، وهواجسه ، وضروب إحساسه المرهف ، وشعوره المتوقد ، وعواطفه الذاكية ، وخلجات قلبه ، وأحواله في منفاه ؛ كما أشارت إلى صلاته بين غارتهم في مصر من أهله وأحبائه .

(٤٩) لا تترك : لا تخضعك . غره (من باب قد) : خدعه ، وأطمعه بالباطل ، ونال منه بالغدعة ما يريد . والمشاكلة : المشابهة . والمائلة . والأنام : الخلق ، والناس . والنبع : شجر ينبت في قلة الجبل ، تتخذ منه القسي والسهام ، وهو أصفر اللون ، رزين ثقل . وإذا تقادم أحمر لونه ؛ وفيه صلبة ورشة ، مع مرونة ولين ، وأحدثه تبسة . ومن كلامهم : « ما رأيتُ أصلب منه نباه . والصال : السدر البري » : وهو شجر التبنق ، وأحدثه خالة (يوزن عادة وعاد) . والنبع أقوى من الصال ، وأصلب هوداً .

يقول : لا تتحدح بما تراه بين الناس من مشابه ومشاكلات ؛ فإنهم يتشابهون في خلقتهم ، ومظاهر حياتهم ؛ ولكنهم يختلفون اختلافاً كبيراً في أخلاقهم ، وطباعهم ، وما انطوت عليه نفوسهم ؛ فكذلك في هذا مَثَلٌ شجرتي النبع والصال ؛ فإنهما يتشابهان في مظهرهما ، وتختلفان في اللقمة والصلابة .

والفرض المحض على اليقظة والاستراس ، وحققة الممايزة بين الناس ؛ للإفادة من خير الأعيان ، واتقاء شر الأشرار ، واجتناب حبال التغير والخذاع ؛ ولعل صلة هذا البيت بالذي قبله : أن قول الشاعر =

لِإِبْنِ آدَمَ - لَوْلَا عَقْلُهُ - شَبَّحَ مُرْسَبٌ مِنْ عِظَامِ ذَاتِ أَوْصَالٍ (١٠)

يمرزه ويظهره ؛ فلا يكاد يختلط أمره بشيء من الناس .

في خمسة الأبيات السابقة اختصر الشاعر يسرورة حكمه وأمثاله ، ونوه ببعض مزايا أدبه وشعره ، واعتزّ بصنق تصويرهما لشخصيته ونفسه ، ثم ختم هذه القصيدة الرائعة الخالدة ببيتين يجرىان مجرى الحكم والأمثال .

(٥٠) شبح الشيء : ظله ، وغيباله ، وما بدا لك من شخصه غير جليّ من بد ؛ ويراد بشبح ابن آدم : جسمه ، وهيكله العظمي . والأوصال : جميع وصل (بهم فسكون ، أو بكسر فسكون) ؛ وهو المفصل (بوزن المجلس) ، أو مجتمع العظام ، أو كلّ ملقى عظمين من الجسد ، أو كلّ عظم حلّ حدة ، لا يكسر ، ولا يوصل بشيء . والمعنى : أن الإنسان لا قيمة له إلا بعقله .

وفي البيت تمجيد للعقل ، وتنويه به ، وتكريم لشأنه ، في غير سرف ، أو تزبد ، أو مبالغة ، أو مبالاة ؛ فالإنسان حيوان عاقل ، وحيوان ناطق ، وفي الحديث النبوي الشريف : « ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل » . وفيه أيضاً : « ما كسب أحد شيئاً أفضل من عقل يديه إلى هدى ، أو يردّه عن ردى » . وفي القرآن الكريم : « تلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون » الآية رقم ٤٣ من سورة التكاثر . وفيه « إن شرّ الدواب عند الله الصمّ البكم الذين لا يعقلون » الآية رقم ٢٢ من سورة الأنفال . وفيه : « وقالوا : لو كنا نسمع ، أو نعقل ، ما كنا في أصحاب السعير » الآية رقم ١٠ من سورة الملك .

وصلة هذا البيت بالذي قبله : أن الناس يتفاوتون بتفاوت عقولهم ، ويتختلفون اختلافاً كبيراً .

تلخيص وتعليق

نفي البارودي إلى « سيلان » في ديسمبر سنة ١٨٨٢ ففارق زوجته « حديلة يكنى » وأطفاله منها ، وهم ابن وأربع بنات ؛ ولما بين عامي ١٨٨٣ و ١٨٨٤ نظم هذه اللامية الطويلة في التشويق إلى أهله ووطنه ؛ فبلغ بها النهاية في صدق الماطقة ، وجمال الموسيقى ، وروعة التصوير ، وطلاقة التعبير ، وحسن السبك ، وقوة التأثير ، وأغريها من أحماق قلبه لتحمل قلوب الناس .

وهو في البيتين الأول والثاني يتحصر على ما ذهبت به الأيام من مرح الصبا ، وفضارة العيش ؛ وأين حاضرة الناس في منفاه من ماضيه السعيد في أحضان وطنه ؟ .

وفي ثمانية الأبيات بعدها حنين إلى أهله وأصحابه ، وصناب رقيق ، وقَرْشٌ ، واستعطاف ، وتأكيـد لإقامته حل الرد ، ووفائه بالهدى ، وتحذير من الاستماع لرواة السوء الذين يحرفون القول ، ويهترئون الكلب ، ويتغترون بأكاذيبهم المرة من صديقه وحميمه .

وفي الأبيات (١١ - ١٩) اقتصر بصفته ، وسلامة قلبه وجوارحه ، وبرامته من الصيوب والمناقص ، وأنه يتأمل آباءه ، ويسير على آدابهم ؛ وهو بهذا القصر الصادق يفند لثهم التي رى بها ، ويحيط الإقوال المحرقة ، وزمام رواة السوء ؛ ويمالج ما يحزنه ويفسده من البعد والفراق ، وما يضاعف أحزانه وأوصابه من الحفرة والقطيعة التي أشار إليها ، وشكاها في أوائل القصيدة .

وفي الأبيات ٢٠ - ٢٢ زهد في الدنيا ؛ يفرغ إليه من تتقل عليه نواكب الزمان ؛ فالنق ، والبهد ، والافتراق ، والنزوح من الأهل والوطن - نواكب ، يضاعفها أن يحفوه أهله وأود آؤه باستأصمهم للقبول والقتال ، وأن يطلب الصديق الصادق فلا يكاد يجده .

وفي الأبيات ٢٣ - ٣٧ شكا انفراده في منفاه ؛ وإذا كانت الوحدة في ذاتها موحشة مؤلمة ؛ فهي لمثل هذا الشاعر في ذلك المنفى السحيق أشد إحساساً وإيلاماً .

ومن شكوى الوحدة في مرتبته العالي اسطرود لوصف قوس النعام . ثم أطنب في وصف فرخ طير يماثله في انقطاعه ، وسوء حاله ، وشدة بلواه .

وفي الأبيات ٣٨ - ٥٠ لخص ما يضائيه ، وما يميز بين حاضره وماضيهِ ، واقتصر بشعره ، وأنه تصوير صحيح دقيق صادق لمواكب نفسه ، وخلجات قلبه ، ومشاعره ، وعواطفه ، وأحواله في منفاه .

وفي القصيدة - إلى هذا كله - نصيح وإرشاد ، وأبيات تجرى مجرى الحكم والأمثال :

ومن أطاع رواة السوء ففرّه
عن الصديق سماع القليل والقال
أدعى المصائب خدر قبله ثقة
وأفتح الظلم صدّ بعد إقبال
.....

ولا تفرّك في الدنيا مشاكلة
بين الألام ؛ فليس النج كالضال
إن ابن آدم - لولا عقله - شبح
مركّب من عظام ذات أوصال

وَقَالَ بَعْدَ عَوْدَتِهِ مِنْ « سَرَنْدِيبْ » : يَمْدَحُ الْخَلِيدُ « عَبَّاسَ حَلَمِي
النَّائِي » * وَشَكَرَهُ عَلَى اسْتِغَاثَتِهِ إِلَيْهِ ، وَحَسَّنَ إِقْبَالَهُ عَلَيْهِ فِي أَثْنَاءِ
مُحَادَثَتِهِ مَعَهُ :

• « سرنديب » أو « سيلان » : جزيرة بالمحيط الهندي ، مجاورة للهند ، في جنوبها الشرق ؛
كثرة سكانها هويديون ؛ وفيها قلعة من المسلمين ؛ وقد استعمرها البريطانيون ، وسيطروا عليها من سنة ١٨٠٢ م
إلى أن استقلت في نطاق « الكومنولث » سنة ١٩٤٨ م . وعرفها تجار العرب وملاحهم من قديم الزمان ؛
وهم اللذين سموها « سرنديب » ؛ وإليها نفي محمود سامي البارودي عقب إخفاق الثورة العربية في ٣٠ من
صفر سنة ١٣٠٠ هـ (١٤ من ديسمبر سنة ١٨٨٢ م) ؛ وطال به النفي نحو سبعة عشر عاماً ، وفي ذلك
المنفى السحق نظم أجود شعره . وفي عهد الخديو « عباس حلمي باشا الثاني » رأى أولو الأمر في مصر أن يعود
المنفيين من قادة الثورة العربية إلى وطنهم ؛ فعاد البارودي قبل وفاته إلى مصر يوم ٦ من جمادى الأولى
سنة ١٣١٧ هـ الموافق ١٢ من سبتمبر سنة ١٨٩٩ م . وتركته إليه أمواله ، وأملأه الموقوفة ، ورتبه
وألقاه ، وحقوقه المدنية والسياسية في ١٨ من المحرم سنة ١٣١٨ هـ الموافق ١٧ من مايو سنة ١٩٠٠ م
ويبدو من عنوان هذه المقدمة ، ومن جوبا أن الشاعر نظمها بعد أن ردت إليه أملاكه وحقوقه ؛
ولا ريب أن هذا - مع الاستعانة ، والمهادنة ، والإقبال - والحنان - قد طيب نفسه ، وحرك عاطفته ،
وأطلقه بهذا المديح ؛ ويلاحظ أن الخديو « عباس حلمي الثاني » ارتقى عرش مصر وعمره ثمانية عشر عاماً ؛
وأذكرت في عصر الشبيبة غايصة من الفضل لم يبلغ مداها الأفضل
• • • عباس حلمي باشا الثاني (١٨٧٤ - ١٩٤٤ م) : خديو مصر : عباس حلمي بن محمد
توفيق بن إسماعيل بن إبراهيم بن محمد حل باشا ، رأس الأسرة المحمدية العلوية التي حكمت مصر من
سنة ١٨٠٥ إلى سنة ١٩٥٣ م .

تعلّم في مصر ، وروسيا ، وألمانيا ؛ وقبول منصبه وهو في الثامنة عشرة عقب وفاة والده في ٨ من يناير
سنة ١٨٩٢ . وكان عباس طموحاً ؛ فحاول مقاومة سياسة الاحتلال البريطاني التي سيطرت على مصر من
سنة ١٨٨٢ م ؛ ولكنه لم يستطع .

وفي عهده استرد السودان ، وانتشر التعليم ، وأنشئ البنك الأهلي ، وودم خليج القاهرة ، واتسع
المران ، وكثرت الأدبية ، وانتشرت الصحف والمجلات ، وأطلقت حرية النقد ، وظهر الزعيم « مصطفى
كامل باشا » ، ورفضت الجمعية الموسمية مد الامتياز لشركة قناة السويس .

وفي صيف سنة ١٩٠٦ وقعت حادثة دنشواي ؛ فاشتدت حملات الرأي العام المصري على سياسة الاحتلال ؛
حتى اضطر النقيب البريطاني « لورد » كرومر إلى الاستقالة في مايو سنة ١٩٠٧ وخلفه « إلدن غورست » ثم
لورد « كشر » . ولما نشبت الحرب العالمية الأولى ، انتهر البريطانيون فرصة غياب « عباس » عن مصر

سَمَا الْمُلْكُ مُخْتَلًا بِمَا أَنْتَ فَاعِلٌ وَعَادَتْ بِكَ الْأَيَّامُ وَهِيَ أَصَائِلُ^(١)
 رَبَّاتٌ مِنَ الْعَلَيَّاهُ قَنَّةٌ سُودِدٌ يُقَصِّرُ عَنْهَا صَاغِرًا مَنِ يُطَاوِلُ^(٢)
 وَأَدْرَكْتَ فِي عَصْرِ الشَّيْبَةِ غَايَةَ^(٣) مِنَ الْفَضْلِ لَمْ يَبْلُغْ مَدَاهَا الْأَفَاضِلُ^(٤)

« في الآسفة » إسنانيل » ، فخلعو في ١٩ من ديسمبر سنة ١٩١٤ م ، بعد أن فرضوا حمايتهم على مصر ،
 و « بسويسرا » كان معظم إقامته بعد غلمه ؛ ولما تولى نقل جثمانه إلى مصر ، فدفن في مقابر أسرته بالقاهرة
 بالقاهرة .

(١) سما : علا ، وارتفع . والملك (بثلاث الميم) : مصدر ملكه (من باب ضرب) : أى حازه ،
 واحتواه ، قادراً على الاستعداد به ، والتصرف فيه . والملك أيضاً : ما يجوز له المالك ، ويملكه ، ويصرف فيه .
 ويراد به هنا : ما يتولاه المملوح ، ويقتلده ، ويسوه ، ويرأس حكمته من البلاد . ومختالاً : مزناً ،
 مزهواً . وعادت : صارت . وبك : بسبك : أى بأعمالك الحميدة ، وسياستك الرشيدة . والوار الأخرية :
 وأو الحال . والمجلة الاسمية بعدها حاله . والأصائل : جمع الأصيل : وهو الوقت بين العصر والمغرب ،
 أو وقت اصفرار الشمس قبيل مغربها . والغرب تنفي بالأصائل ، وتستشعر فيها الدعة ، والراحة ، والانتعاش ،
 والانفراح ، ورضاء البال ، وهناء الحال . وفي الأصائل يجتلى للناس جمال الطبيعة ، وبحاسن الكون ،
 ونضرة الفلجاء وهجتها .

للمملوح أعمال حميدة ، وأفعال عظيمة ، وسام محدودة ؛ رفع بها قواعد الملك ، وأقام أركانه ، وأعلى
 بنيانه ، فازدهان ، وازدهر ، واختال ، واقتصر ، وتكبر ؛ وبفضل المملوح ، وبين طالعه ، وسعد
 زمانه — صارت الأيام أصائل ، لا تلقى الناس إلا بما يريهم ، ويرضهم ، ويسرهم ، ويخففهم ،
 ويمتعمهم ، ويهيجهم .

(٢) ربا : ارتفع ، وطلا (وبابه منع) . ورباه : رفعه ، وأعلاه . والعلياء : الرفعة ، والشرف .
 وقننة كل شيء : أعلاه . والسودد (يضم السين مع فتح الدال وضمة مهموزاً ، وغير مهموز) : السيادة ،
 والمظلة ، والمجد ، والشرف ، والعلاء ، وكرم المنصب ، والقدر الرفيع . ويقصر : يجز . وصاغراً :
 ذليلاً ، مهيناً . وطاوله يطاوله : غاب في الطول ، وباراه .

أعلى المملوح أممي مراتب المجد والسودد ، وأفرد بما أوتيها من كرم المنصب ، ورفعة القدر ؛
 فلا سبيل إلى مطاولته ، أو مباراته ؛ ومن حاول شيئاً من هذا هجز ، وعاد بالدلة والصغار .

(٣) أدرك الشيء : لحقه ، وبلغه ، وناله ، وظفر به . وعصر الشبيبة : زمن الشباب ، وهده
 الحداثة والفتاء . وفي التبريد بالمملوح أنه تولى منصبه وهو في الثامنة عشرة من عمره : أى في غفوان شبابه . =

فَخَيْرُكَ مَأْمُولٌ ، وَفَضْلُكَ وَاسِعٌ وَظِلُّكَ مَمْدُودٌ ، وَعَذْلُكَ شَامِلٌ (٥)
مَسَاعٍ جَلَالَهَا الرَّأْيُ ؛ فَهِيَ كَوَاكِبٌ لَهَا بَيْنَ أَفلاكِ الْقُلُوبِ مَنَازِلٌ (٥)

صوفية الشيء ، ومداه ، أفضاه ، ومنتهاه . والإحسان : أو الابتداء به بلا علة له . وأصله في اللغة الزيادة ، ثم كثر استعماله في الزيادة الحميدة : كفضل العلم ، والحلم ، والبر ، والمعروف ، والخير ، والإحسان . والفضل الذي أدركه الممدوح غايته وهو شاب : بعيد المدى ، واسع المجال ؛ ومنه ما أشار إليه الشاعر في البيتين السابقين من معاني العلا والجد والسودد ، وعلو الملك وجموه ، وازدهار السلطان وافتخاره ، وارتقاج الناس لولايته ، وسمادتهم بحكمه ، وفي مقدمتهم المادح نفسه . والأفاضل : جمع الأفضل : اسم تفضيل من الفضل . ومعنى : لم يبلغ مداه الأفاضل : أن الممدوح بزرغيره من أفاضل الزلا والحقكام ، والزعماء والملوك ، وسبقهم وفاتهم ، وتجاوز ما يبلغون من غايات الفضل والإحسان ، وبحامد الحكم والسلطان . (٤) « خير » (يفتح فسكون) : ومن معانيه : المال الكثير الطيب ، وما يرغب فيه الناس جميعاً ، كالعلم ، والفضل ، والعدل ، وضده الشر والفساد . أو هي « خير » (بكسر الخاء) : بمعنى الكرم . ومأْمُولٌ : مرجو ، مرقب ، يأمله الناس ، ويرجوونه . والظل : غصو شعاع الشمس إذا استترت عنك بحاجز ، أو هو كل موضع لم تصل إليه الشمس ، وجمعه ظلال . والعرب تكني بالظل من المرء والمنعة ، ومن الراحة والراحة ، وغطاء العيش . ومن كلامهم : « السلطان ظل الله في الأرض » ؛ لأنه يدفع عن الناس الأذى والشر ، كما يدفع الظل عن المستظل به أذى الشمس ووجعها . ويقول : « أنا في ظل فلان » : أي في كنفه ، وفراء ، وجنابه ، ورحابه . وفي القرآن الكريم ، في مَثَلِ الْجَنَّةِ : « تجري من تحتها الأنهار . أكلها دائم وظلها » الآية رقم ٣٥ من سورة الرعد . وفيه : « إن المتقين في ظلال وعيون » الآية رقم ٤١ من سورة المراتل . وفي الحديث الشريف : « سيمة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ... » . وفردود : تمتد ، مبسوط ، واسع ، محيط . وشامل : عام تام ، يشمل القريب والبعيد . والخير ، والظل ، والعدل من صور الفضل . والبيت تفصيل ، وتكرار ، وتأكيذ لمعنى البيت السابق .

(٥) المساعي : المكربات : أي الخيرات ، وأفعال الكرم ، واجتهادها مسعاة . والمساعي أيضاً : جمع المسمى : وهو السعى ، والعمل ، والمساك ، والتصرف ، والمقصد ، والولاية . وجلالها : كنفها ، وأوضاعها ، وأظرفها . والرأى : العقل ، والاقتصاد ، والإصابة في التدبير . ورجل ذو رأى : ذو بصيرة ، وحذق بالأموار . ولما : للساعي المشبهة بالكواكب . والأفلاك : جمع فلك (بوزن سبب وأسباب) : وهو الفضاء يدور فيه النجم أو الكوكب . وإضافة الأفلاك إلى القلوب : من إضافة المشبه به إلى المشبه . ومنازل : جمع منزل : وهو مكان للنزول . أو جمع منزلة : وهي المكافة ، والمترتبة .

والمنى : للممدوح مساع ، ومكرمات ، وتصرفات ، وأعمال مجيدة ، يصدر فيها دائماً عن رأى ،

يُغَصِّرُ قَابُ الْقَيْكِرِ عَنْهَا ، وَيَنْتَهِي
أَخُو الْعَبْدُ عَنْ إِدْرَاكِهَا وَهُوَ ذَاهِلٌ^(٦)
وَكَيْفَ يَذُلُّ الْفَهْمُ مِنْهَا نَصِيبَهُ وَأَقْرَبُهَا لِلنَّيِّرَاتِ حَبَائِلُ^(٧)

= وبصيرة ، وسداد تفكير ، وحسن تدبير ؛ ولهذا ظهرت ، واشتهرت ، وضحت في عيون الناس كالنجوم
النيرة المضيئة اللامعة ، واحللت من قلوبهم أرفع المراتب ، وأعلل المكائنت .

(٦) القاب : المقدار . ومن كلامهم : « هو من قَاب قَوْسٍ : أي مقدار قوس : كناية عن قربه . ويراد
بقاب الفكر هنا : جهده ، وطاقته ، ومقدوره ، وقوته . والفكر : إعمال العقل في المعلوم من أجل
الوصول إلى المجهول . وفي هذا الأمر فكر : أي نظر وروية . ومنها : عن مساعي الممدوح ومكرماته .
وينتهي عن إدراكها : يقف ، ويكف : أي لا يستطيع إدراكها . وأخو الجدل : الجدل المجتهد ،
أو العظيم من الناس ؛ فابذل (بفتح الجيم وكسرهما) : الاجتهاد . والجدل (بفتح الجيم) : المنظمة . والواو
في الشطر الثاني : واو الحال . والجملة الاسمية بعدها حالية . وذاهل : اسم فاعل من ذهل (كقطع ،
وعقب) : أي تدلله ، وتحتير ، وغاب عن رشده .

والمنع : أن مساعي الممدوح فوق نطاق تفكير الناس ؛ أو أن الفكر مهما بلغت طاقته وجهده وقوته ؛
وانتجت دائرته وأفقته ونطاقه ؛ وابتعدت غايته وبعده ومراه - يمحز عن أن يصل إلى غايات الممدوح ،
وساى مساعيه ؛ وإذا حاول عظيم ، أو هام ، أو مجتهد دبوب مطاولة الممدوح في تلك المساعي ، انتهى به
الأمر إلى العجز ، والذهول ، والحيرة ، والدهش ، والقصور ، والابتئاس . والبيت الآتي تكراراً يؤكد هذا المنع .
ويلاحظ أن الشاعر في هذه القصيدة يكرر كثيراً من المفردات والألفاظ ، وكثيراً من العبارات
والأساليب ، وكثيراً من المعاني والأفكار ، وكثيراً من الصور والأخيلة ، ويمنح لتزيده ، والمبالغة ،
والمغالة ؛ فشعره هنا يبدو فيه أمارات الشيخوخة ؛ أو لعله منح هذا الأمير بحكم الاضطراب الأدبي ،
لا بدافع من المحبة والمودة ، والإخلاص والإحسان ، والتأثر والاعتنا .

(٧) الاستفهام في أول هذا البيت للاستبعاد ، أو النفي . والفهم : الإدراك ، والعلم ، والعرزان ،
وحسن تصور المنع ، وجودة استعداد الذهن للاستنباط . ومنها : من مساعي الممدوح . والنصيب :
الحظ ، والحصة من كل شيء . وأقربها : وأقرب تلك المساعي . والنيرت : الكواكب والنجوم النيرة ،
وأحدثها نيرة . والحبائل : جميع حباله (بوزن رسالة ورسائل) : وهي الشراك ، والمصيدة ، وما يستعقب
الغير . والواو في أول الشطر الثاني : واو الحال ، والجملة الاسمية بعدها حالية .

يستبعد ، أو ينفي أن تصيب أفهام الناس وأفكارهم خطأ من مساعي الممدوح ؛ فإن القريب الداني منها
أشراك النجوم والكواكب ؛ وهذا كناية عن إغراقها في الرفعة والسمو ، وبعدها عن نطاق الأنعام والأفكار ؛
فالشطر الثاني موضح لمنح الشطر الأول ، مؤكدة لنفي أو الاستبعاد .

إِلَيْكَ تَنَاهَى الْمَجْدُ، حَتَّى لَوَّاهُ أَرَادَ مَزِيدًا لَمْ يَجِدْ مَا يُحَاوِلُ^(٨)
 قَمَرٌ بِالَّذِي تَهَوَّاهُ ، قَالَ السَّمْعُ قَائِمٌ بِمَا تَشْتَهِي ، وَاللَّهُ بِالنَّصْرِ كَافِلٌ^(٩)
 فَقَدْ تَصَدَّقَ الْأَمَالُ وَالْحَزَمُ رَائِدٌ وَتَقْتَرِبُ الْغَايَاتُ وَالْجِدُّ عَامِلٌ^(١٠)

سأولمضى: أن الداني القريب من مساعى المندوح حبال وأشارك لمساعيه البعيدة التي شجها بالنيرات؛ فكيف تصل أفهام الناس، أو أفكارهم؛ أو همهم، أو قدراتهم إلى القصى البعيد من تلك المساعى، أو المطالب، أو الأهداف، أو الغايات، أو الأعمال الكبيرة الهجيدة؟ وهو تكرر لمضى البيت السابق؛ وفيه تكلفت ومغالة.

(٨) إليك تنهى المجد: أسلوب يفيد التصر: أى إليك لا إلى غيرك بلغ المجد غايته ونهايته، وأدرك مداه وأقصاه. والمجد: للز، والشرف، والرفعة، والملاء، والحسب، والكرم. والمزيد: الزيادة. وحاول الشيء يحاوله: راحه، وأزاده، وابتغاه، وطلبه بالحيلة: وهى الخلق، ووجوده النظر، والقدرة هل دقة التصرف في الأمور.

يقول: لو حاول المجد أن يعظم ويزداد لدى المندوح - لم يجد ما يحاوله؛ لأنه بلغ أعلى درجاته، ومضى غاياته.

(٩) أمره بالشيء، وأمره الشيء. وظل الأمر منه «مُر» . وتهواه: تحبه، وتريده، وتشتهيه. والسعد: السعادة، والحين. وهو تقيض الشقاوة والنحس. والسعد قائم بما تشتهى: أى والسعد في خدمتك، وطوع إرادتك. وكان بالنصر: متكفل به، ضامن له.

ولمضى: أن المندوح يستطيع أن يأمر رعيته بما يريد؛ ويسلك بها ما يشاء من المسالك والمساعى؛ ويتجه إلى ما يرغب فيه من الرغائب والمقاصد؛ ويعالج ما يطمح إليه من الغايات والمطالب، وهو مطمئن إلى عون الله تعالى ونصره، وتسدده وتأييده، هذا إلى يمين طالع المندوح، وسدادته جده، وبركات مساعيه. (١٠) «قد» في مثل هذا المقام: حرف يفيد التكثر. وتصدق: المراد تتحقق، وتصح. وتقع. وأمله يأمله (من باب طلب): رجاء. وترقبه. وأكثر استئصال الأمل فيها يستبعد حصوله، وجمعه آمال. والحزم مصدر حزم الإنسان وأبه، أو أمره (من باب ضرب): أى ضبطه، وأحكمه، وأتقنه، وأخذه بالفتة. والرائد: الراسل الذى يرسله قومه؛ ليختار لهم مكاناً ملائماً ينزلون فيه، ومن يتقدم القوم؛ ليصير لهم الكلاء، والمرعى، ومساقط الغنم. وأجلد (يفتح الجح وكسرهما): الاجتهاد. والمعامل: المؤثر في الشيء، والباعث له، والمغرض عليه. والواو في كلا شطرى البيت: واو الحال، والجمله بمد الواو الأولى: حال من الآمال، وبعد الثانية: حال من الغايات.

يقول: تصدق الآمال، وتتحقق الأمانى إذا رادها المرء بالحزم؛ وتقترب الغايات البعيدة إذا =

وَأَيُّ صَنِيعٍ بَعْدَ فَضْلِكَ يُرْتَجَى
وَتَبْقَى الْعَلَا مَاذَا مِ الْسَيْفِ حَامِلٌ^(١١٧)

= عمل لما طالها ، وجد واجتهد في تحصيلها .

وفي البيت السابق قال : إن السعد في خدمة المدوح ، والله تعالى ناصره ومؤيده . وفي هذا البيت حاملان آخران ، هما حزم المدوح ، وأخذ الأمور بإبلد والاجتهاد ؛ وهذه العوامل الأربعة تصدق^١ الأمال ، وتذكر الغايات ، وتنال الرفالب ، وتحقق المطالب .

(١١) « أى » : اسم استفهام ؛ والاستفهام هنا : معناه التثنية : أى لا صنع يرتجى بعد فضلك . والصنيع : الخير ، والغير ، والمعروف ، والإحسان ؛ ومثله الفضل ؛ كأنه قال : لا صنع يرتجى بعد صنعك ؛ أو لا فضل يرتجى بعد فضلك . ويرتجى : يرجى ، ويؤمل ، ويرتقب . والواو في أول الشطر الثاني : واو الحال ، والجملة بعدها حالية . والمليك : صاحب الملك : أى صاحب الولاية والأمر والسلطان ؛ ومثله المليك . والبرية : الخلق ، والناس .

يقول : لا صنع يرتجى بعد صنعك ، وإحلال أنك ملك عادل في الناس . ولعل الصلة بين شطري هذا البيت : أن المدوح يوزع فضله ، وبره ، وإحسانه على الناس بالعدل ، والإنصاف ، والتقسام المستقيم ؛ وأنه يفتحهم جميعاً بصنيعه وفضله ؛ فلا يبقى فيهم من يطلع في فضل غيره وصنيعه .

(١٢) يم : يشمل ، يقال : حمّ المطر الأرض : أى شملها ، وضغطها ، ولم يترك منها شيئاً . و « ما » في شطري هذا البيت : مصدرية ظرفية : أى يمّ الرضا مدة قيام الصادع بالحق ، ومدة دوام الحامل لل سيف . وصادع : اسم فاعل من صدع بالأمر (من باب قطع) : أى جهر به ، وبيّنه مصادرة وظلانية . والعلل : الرقة ، والكشف ؛ أو هي جميع العلل : مؤثت الأعلل . وحامل السيف : الذى يحسن عمله ، واستخدمه ، والمبالغة به ؛ يكتفى بهذا من قوة الكفاح ، ومظهور السلاح ؛ ويريد أن العلاء تبقى للأمة ، وتبقى لها العزة والمنسة ما بقيت لها الأُبهة والاستعداد الحربي للثام .

والمنى : أن الممالك والبلاد إذا تمتع أهلها بالحرية ، وحملوا قيود اللل والعبودية ، واستطاع كل امرئ أن يجهر بما يراه حقاً ، ويعلم عقيدته وفقده ، وهو مطمئن آمن أن يصاب بمكرهه ، حاش الناس جميعاً - على اختلاف آرائهم ومذاهبهم - في رضا ، وغبطة ، ودعة ، ولطائفية ، وأمن ، وسلام .

ولن تستطيع الأمم أو الممالك أن تحافظ على أمنها وصلاحها ؛ وتستبقى ما وصلت إليه من مراتب العزة والرفعة ، والسودد والعلل إلا إذا اعتمدت على قوتها وبأسها ، وما تُعيد من مظور السلاح ، والعداد الحربي ، والجيش المتأهب للكفاح والقتال .

فَيَا طَالِبًا تَسْمَعَاتُهُ ، لِيَنَالَهَا رُوَيْدُكَ ؛ إِنَّ الْجِرْصَ لِلنَّفْسِ خَازِلٌ (١٣)
فَمَا كُلُّ مَنْ رَاضٍ الْبَدِيهَةِ عَاقِلٌ وَلَا كُلُّ مَنْ خَاضَ الْكَرِيهَةَ بَاسِلٌ (١٤)

== وقد ساق الشاعر هذا البيت ساق الحكم والأمثال، بعد ما تقدم من صريح المديح ؛ كأنه يقرر أن الناس في عهد الممدوح صاعدون بالحق ، مستمتعون بحرياتهم ، وراضون هالثلثون متعطون ؛ وهو في البيت نفسه يحضّر على استبقاء هذه الحالة الطيبة المرضية، وهذه الحياة الحرة الكريمة بقوة السلاح، والاستعداد للقتال .

(١٣) المسماة : المَكْرُومَةُ ، والمَعْلَمَةُ في أنواع المجد، وبجسمها المساعي . ومن كلامهم : « هو من أهل المساعي » : أي من أهل المكارم . ورويدك : تمهل ، وانتد ، ولا تمهل : تصغير « رويد » (بوزن حرد) : من قولهم : امش على رويد : أي على مهل . أو تصغير ترعين لإرواد : مصدر أروء في السير : أي رفق ، وأتاد ، ولم يسرع . والحرس : الجشع : وفترط الشر : مصدر حرص على الشيء (من باب ضرب وجمع) : إذا رغب فيه رغبة شديدة ملهومة ، واشتد تمسكه به ، وشرهه إليه . وخازل : اسم فاعل من خذله (من باب قتل) : أي أسلمه ، وبخيه ، وترك إعانتته ، وقعد عن نصرته .

يقول لمن يطلب مثل مساعي الممدوح ، أو يباريه في مكرماته ، أو يطاوله في معاليه ، أو ينافسه في أعماله الكبيرة الحميدة : تمهل ، وانتد ، وارفق بنفسك ؛ فإنك تحاول غير الممكن ، وتطلب ما يستعصى عليك ، وتبني ما تقصّر عنه طاقتك ؛ وتجعل هذه المحاولة من الجشع ، وفترط الشر ، والحرس المذموم ؛ وقال له : إن مثلك جدير بأن يرده حرصه وشرهه إلى الخيذلان والخسران . ويلاحظ أن معنى هذا البيت تكرر لمعنى البيتين السادس والسابع من هذه القصيدة .

(١٤) وارض المهر وفخوه : ذلكله ، ومرته ، وطوعه ، وعلمه حسن السير . والبديهة : المفاجأة . ويقال : أجاب ، أو خطب ، أو شعر على البديهة : أي ارتجل الإجابة ، أو الخطبة ، أو الشعر ، بلا إعداد ، أو تخطيط ، أو طول تفكير ، وبجسمها بدائه . ولفلان بدائه في الكلام : أي روائع ، وبدائع ، وعجائب . ورياضة البديهة : تمرين الذهن على سرعة الفهم ، وقوة الإدراك ، وفغاذ البصيرة . ويراد بالفعال هنا : اللاذكي ، السريع الفهم ، المتوقد الذهن ، القوي الإدراك ؛ وقد يكون اسم فاعل من فعله (من باب نصر) : أي غلبه بالمثل ، وفاته في قوة إدراك الأشياء على حقيقتها . وخاض الماء (من باب قال) : دخله وشمى فيه ؛ ومن المجاز : خاض الكريهة : وهى الشدة في الحرب ، وبجسمها كراهه . وباسل : بطل ، شجاع ، مقدم : صفة من البسالة : وهى الإقدام على الكراهه ، وللمبوس عند الحرب .

والمعنى : أن المرء قد يزاوِل بعض الأعمال العظيمة ، وهو — مع هذه المزاوَلَة — لا يعدّ عظيماً ؛ كن يمثل في إحدى المسرحيات مؤقفاً من مواقف البطولة ، أو سرعة البديهة ، وحسن الارتجال ؛ وهو — مع هذا ==

وَكَوْلًا اخْتِلَافَ النَّاسِ فِي دَرَجَاتِهِمْ لِعَادَلٍ وَقَسَا فِي الْفَصَاحَةِ بِالْقِلِّ (١٥)

= التمهيل - لا يمدّ بطلاً ، ولا سريع البديهة ، ولا حليوياً على الارتجال .

وصلة هذا البيت بالنسبة إليه أن من يحاول سطاوة المستوح في مساعيه ومكراته - إنما يبيى محاولته على الشره ، والجفع ، والحرس المقتوت ، لا على شرف الطبع ، وكرم النفس ، وصب الخبير ، مظه في هذا مثلٌ من يفتن المصاح مكرهاً ، لا بطلاً ، أو طامعاً ، لا مدافعاً ، ومن يروى البديهة ، لا عن ذكاء ، أو ثقة ذهن ، أو سرعة فهم ، أو قوة إدراك .

والبيت مع هذا يشير إلى تفاوت الناس في كفاياتهم ، ودرجاتهم ، ومقاصدهم . والبيت الآخر صريح في هذا المعنى ، مؤكداً له .

(١٥) « لولا » : حرف شرط يدل على امتناع شيء لوجود غيره ؛ وهي هنا داخلة على جملتين : اسمية ، فعلية ؛ لربط امتناع الثانية بوجود الأولى . والمتنح هنا المتبادل : أي التناهي ، والمخالطة بين « قس » و « باقل » ، والمجيد : اختلاف الناس في درجاتهم . ويراد باختلاف الناس : تفاوتهم ، وتباينهم . ودرجاتهم : طبقاتهم ، ومرتبتهم ، وأوصافهم ، ومنازلهم في العقل والتدبير ، والفضل والخير ، والشجاعة والبسالة ، والمجد والشرف ، والبيان والقصاصة وغيرها . وعادله : وزله ، ومائله ، وسواه .

و « قس » بن ساعدة ، بن عمرو ، بن عدي ، بن مالك ، بن نضر ، بن نزار ، بن سدة ، بن عدنان : غطيب العرب قاطبة ، وأحد حكمائهم في الجاهلية ، وأسقف « نَجْرَان » ، والمغروب به المثل في البلاغة والحكمة والقصاصة والسَّخَن ، وقوة الحجة ، وسحر البيان ؛ قيل : وهو أول من خطب متوكفاً على سيف أو عصاً ، وأول من كتب : « من فلان إلى فلان » وأول من قال في كلامه : « أما بعد » ؛ وكان يمدّ على قصر الروم زائراً ؛ فيكرمه ويظمّه ؛ وهو من الممصرين ؛ وقد رآه النبي محمد - صل الله عليه وسلم - قبل النبوة في سوق « حكاظ » ، ومعه خطيب ، ويخط الناس ؛ فارتاح له ، وأعجب به ؛ وعلامات سنة ٢٣ قبل الهجرة (سنة ٦٠٠ م) ، قال عليه الصلاة والسلام : « يرسم الله قساً ؛ إنّي لأرجو أن ألقى يوم القيامة أمّة وحده » . والقصاصة : البيان ، والسَّخَن ، وعلامة الألفاظ من الإيهام وصو التأنيف : مصدر فصيح الرجيل (من باب ظرف) : أي جادت لفته ، وأطلق لسانه بكلام صحيح واضح فصيح .

و « باقل الربي » : ابن عمرو بن ربيعة الإيادي : رجيل جاهل ، غرّب به المثل في البلى والبلاهة . ومن حكايات حيه وبلاغته : أنه اشترى مرة طليباً : (أي غزلاً) بأحد عشر درهماً ، ووضعه تحت إبطه ، فمثل : بهم اشتريته ؟ فسجن عن الكلام ؛ فد يديه ، وفتح كفيه ، يريد أصابعه العشر ، وأمرج لسانه ، يريد الواحد الباقي ليكلها أحد عشر ، مشيراً بهذا كله إلى من الظن ؛ فأقلت منه ، وفر هارباً ؛ فغربوا به المثل في البلاهة والبيس : أي الحصر ، والمعجز عن التلق والكلام . وقالوا : « أعيا من باقل » ، =

هُوَ الْمَلِكُ الْمَكْفُولُ بِالنَّصْرِ جُنْدُهُ إِذَا أَحْمَرَّ بَأْسٌ ، أَوْ تَنَمَّرَ بِأَطْلُ ١٧
لَهُ بَدَاهَاتٌ لَا تَنْبُ ، وَعَزَمَةٌ مُوَيْدَةٌ ، تَحْنُو إِلَيْهَا الْجَحَافِلُ ١٨

= وقابلوا به « نساء » : لظهروا الفارق الواضح بين الفئتين ، أو المتنافسين « وبهذه تتميز الأشياء » .
والمنى : لو تساوى الناس في درجاتهم ، لاحت « الفوارق » ، والفواصل ، والمميزات التي تميز الجميعة
من الطيب ، والتعامل من اللئيم ، وأبجأه من العالم ، والنقص من الفضل ، والذكي من اللبي ، والعمي
من النصيح ، وتلاقى الضدان ، واجتمع التقيضان على سواء ، وتعادل « قس » و « باقل » ، على الرغم
من أن الأول يضرب به المثل في السِّن ، والفصاحة ، والمقل ، والحكمة ، وطلاقة اللسان ، وسحر البيان .
والثاني في الدرك الأسفل من البله ، والنفقة ، واليس ، والخصر ، وانقاد اللسان ، والسمج عن العلق
والكلام .

ولا ريب أن نظام الحياة ، ونظام الناس فيها مبنيان على اختلافهم ، وتفاوتهم في أمور كثيرة جداً ؟
وقد أشرنا من قبل إلى بعضها ؛ فإن تساوى أنهدم نظامهم ونظام الحياة .
قال الأقوَّة الأَوْسَى :

لا يصلح للناس فوضى ، لا سِراة لهم ولا سراة إذا جهلهم سادوا
ومن الأقوال المأثورة : « الناس يغير ما تفاوتوا ، فإن تساوا هلكوا » . وفي القرآن الكريم : « نحن
قسمنا بينهم ميعثهم في الحياة الدنيا ، ورضنا بهم فوق بعض درجات ؟ ليشذ بهم بعضاً سخرياً » .
الآية رقم ٣٢ من سورة الزخرف .

(١٦) الكفالة : الضمان : مصدر كفله ، وكفل به : أى ضمته ، واسم الفاعل كافل ، واسم
المفعول مكفول ؛ هذه لغة المعجمات التي بين أيدينا ؛ والشاعر يريد هنا : أن الله تعالى تكفل لحند المملوح
بالنصر ، وضمن له الفلحة . وإلبأس : الشدة في الحرب . واحمرار البأس : كناية عن استعراة القتال ،
وشدة الكفاح والتزال ، وكثرة ما سال من دماء الجرحى والقتل . وتنمَّر : تشبه بالمر في طبعه ؛ وهو لا يرى
إلا متكرراً فضيلاً ؟ ومن طباعه الشراسة ، والشر ، والإضرار ، والعلوان . وتنمر الباطل : كناية عن
تفاديه ، واستفحاله .

والمنى : أن الله تعالى يعرض على الملوك المملوح ويحييه ؛ ويؤيده بنصره فيما يخوضه من معامع
الحرب والقتال ؛ وفيما يماجه من إبطال الباطل ، وإخماد الفتن ، والقضاء على المفساد .
(١٧) له : المملوح . ويراد بالبدعات هنا : الآراء ، أو الأفكار ، أو التصرفات ، أو
الأحكام ، أو الممارات الصائبة الحكمة السديدة ، يرتجلها المملوح في سرعة خاطر ، وثوقه ذهن ، وقوة
عارضة ، وحضور بديهة ، وأحاطها بدهة (يوزن سبعة وسجدات) : اسم مرة من بدهه (من باب نفع) :
أى بنته ، وفاجأه . ومنه البداة ، والبديهة : وهي سداد الرأي عند المفاجأة . ولا تنب « مضارع شب » =

فَارَاوَهُ فِي الْمُشْكِلَاتِ كَوَاجِبُ وَهَمَاتُهُ فِي الْمُفْضِلَاتِ مَنَاصِلُ^(١٨)
تَذُلُّ مَسَاجِيَهُ عَلَى فَضْلِ نَفْسِهِ وَلِلشَّمْسِ مِنْ نُورٍ عَلَيْهَا دَلَالِيلُ^(١٩)

« (من باب ردّ، ونصب) ، أو مضارع أحب إيجاباً : أى لا تنقطع ، ولا تنيب ، ولا تتخلف ؛ يريد أن يدهات المندوح متصلة حاضرة على اللوام ؛ فهي من مزايده الملازمة له : بمعنى أنها لا تساعفه في حين ، وتخلذه في حين آخر . والقلب والإضباب (في الأصل) : أن تشرب الماشية يوماً ، وتظلم يوماً . والعزبة : الإرادة القوية القاطعة ، وثبات المرء وصبره فيها يمزج عليه . ومقودة : مقودة ثابتة : اسم مفعول من التأيد : وهو التقوية والتعزيز . وتمنو : تخضع ، وتذل : مضارع : « عنا » (من باب سما) . وفي القرآن الكريم : « ومنعت الوجوه الحي القيوم ؛ وقد خآب من حمل ظلماً » الآية رقم ١١١ من سورة طه ؛ ويلاحظ أن الفعل « عنا » متمدّد باللام في الآية القرآنية الكريمة ؛ وقد عدّاه للشاعر في هذا البيت بـ « ل » . وهو جائز مقبول . والجحافل : جمع جحفل (بوزن جعفر) : وهو الجيش القوي المرمم ، الشديد ، الكثير ، الجرار ، فيه غيل .

مدحه بأنه إذا فوجئ* بأمر لقيه بسداد الرأي ، وسرعة البديهة ، وحسن التدبير ؛ وقال : إن هذه المزايلا ملازمة له ، لا تكاد تفارقه ؛ وهو إلى هذا قويّ العزم ، قاطع الإرادة ، شديد البأس ، يقهر الجيوش الجرّارة ؛ فتستسلم له في عناء وذلة وهوان . أو أن عزيمته القوية الصارمة المؤبدة بتصرّاه تهرب أعداءه ، وتضعف له جيوشهم الكثيرة قبل أن يحاربها ؛ وكلّ هذا وأمثاله من مبالغات المديح . والبيت الآتي يدور حول هذا المعنى ، ويفصّله ويؤكدّه .

(١٨) الآراء : جمع الرأي ؛ وهو الإصابة في التدبير ، والبصيرة ، والخلق بالأمور . والمشكلات الأمور الملتبسة ، المشتبهة ، المخططة ، الخفية ، الصعبة ؛ وأحدها مشكلة . والهمات : جميع همّة (بكسر الهماء وفتحها) : وهي العزم القوي ، والإرادة القاطعة . ومن كلامهم : « له همّة عالية . وهو بعيد الهمّة » . والمضلات : المشكلات ، والأمور المستغلقة الشديدة ، والمسائل الصعبة الخفية التي لا يُمكن تدبّر لوحيها ، الواحدة مضلة . والمناسل : السيوف ، مفردا مُنْصَل (بوزن مُنْخَل ومناخل) .

مدحه بالاعتدال على حل المشكلات ، وإزالة لبسها ، وإضاعة جوانبها بآرائه السديدة الثبيرة ، وتدبيراته المحكّة الصائبة ؛ وفوّّه جمعه البعيدة النالية ، وعزيماته القوية الماخسية التي يسم بها المضلات ، ويفتح المستغلقات .

(١٩) دله على الطريق ونحوه ، ودله إليه دلالة (يفتح اللدال وكسرهما) ، وجميعها دلائل ، ومثلاً الأدلة : جميع دليل . ويراد بفضل نفسه : أن نفسه فاضلة كريمة خيرة . وللشمس من نور عليها دلائل : أى للشمس أدلة عليها من نورها ؛ ذ « من » بيانية ، وما بعدها ، وهو النور بيان لما قبلها ، وهو الدلائل ، أو الأدلة .

يقول : إن مساعي المندوح ، ومكرماته ، ومبراته ، وأعماله المنظمة المحيطة — تدل على فضله ، وبموقفه ، كما يستدل على الشمس بضيائها . وفي هذا التشبيه معنى علو قدر المندوح ، ورفعة مكانته ، وعظم شأنه ، ونباهة أمره ، وعموم خيره وبرّه . وللشطر الثاني تبديل جار مجرى المثل .

فَبِمَا مَلَكَتْ أَيْدِيهِ ، وَانْقَضَتْ بِكَ انْخَضَرَتْ الْأَمَالُ بَعْدَ ذُبُولِهَا
بِوَيْدِ الْغَيْثِ ، أَوْ فِي الْغَيْثِ مِنْهَا شَمَائِلُ (٢١)
وَحَقَّتْ وَوَعْدُ الظَّنِّ وَهِيَ مَخَائِلُ (٢٢)
بِوَيْدِ الْغَيْثِ ، أَوْ فِي الْغَيْثِ مِنْهَا شَمَائِلُ (٢٣)

(٢٠) حَقَّتْ : شَمِلَتْ . يقال : همَّ المطر الأرض : أى استوعبها ، وطمَّأها ، ولم يترك منها شيئاً .
والأيادي : جمع اليد : بمعنى النعمة ، والنعمة ، والإحسان . وانقضت : تَلَاثَتْ ، واجتمعت . وبه :
بالملك . والمراد التفت في ساحة ، وطمَّأته ، ورحابه . وفرق : طَوَّافٌ ، وجماعات : الواحدة فرقة ، والواو
في الشطر الثاني : واو الحال ، والجملة الاسمية بعدها حالية . ويواصل : بسرعة : جمع جافل ،
أو جافلة .

مدحه بعموم بصره وغيره ، وشمل نفعه وإحسانه ، وكثرة نعمة وأياديه ؛ وأنه مرجوٌ عظيم ، ومأمول
كريم ؛ تلاقى في رحابه الآمال سرعات ؛ وتزدحم على يابه الأمانى جماعات .

(٢١) بك انْخَضَرَتْ الْأَمَالُ : أسلوب تخصيص أو قصر ، وطريقته هنا : تقديم ما حقه التأخير :
أى انْخَضَرَتْ الْأَمَالُ بالممدوح ، لايغيره . وانْخَضَرَتْ صارت خَفِيرَةً ناعمة ، خَفِيرَةٌ ناعمة ؛ على تشبيه
الأمال بالنبات . والذبول : مصدر ذبل النبات (من باب دخل) : أى ذوى ، وجف ، وبهس ، وقَلَّ
ماؤه ، ونهبت نضارته وبغضارته . والاعضرار هنا : تقيض الذبول . وحَقَّ الأمر : ثبت ، ووجب ،
وقوع ، وتحقق ، وصحَّ ، وصدق . ووعود الظن : الوعود المظنونة ، أو المنتهية : أى القائمة على الظن ،
والتوهم ، والتخمين ؛ لا حل للصديق ، أو الحق ، أو اليقين . ومخايل : جمع مخيلة (بوزن معيشة ومعايش) :
وهى الظن . يقال : « أخطأت فيه مخيلى » : أى ظنى . ومخايل هنا : تكرار وتأكيد لمعنى « الظن » قبلها :
أى تحققت بفضل الممدوح وعده كانت قبله مخايل وأوهاماً وظنوناً .

يقول : أحبا الممدوح بنعمه وأياديه آمال الناس ؛ وكانت الوعود قبله أو هاماً وظنوناً ، فأنجزها
وحققها .

(٢٢) بسط يده بالخير (بالسبن ، أو الصاد ، وبأيه نصر) : فضحا ، ومفاها ، وأطلقها . وهو
كناية عن جود الممدوح ، وكرمه ، وسخائه ، ويطاؤه الكثير الجزيل الوافر . و « كريمة » تكرار ، وتأكيد
لهذا المعنى . والغيث : المطر الكثير النافع ؛ ولا يستعمل الغيث إلا في النفع والخير . و « هى الغيث » :
تشبيه بليغ ؛ أى يد الممدوح كالغيث . وشبائل : طباع ، وسجايا : جمع شبال (بوزن كتاب) .
و « فى الغيث منها شبائل » : تعبير أبلغ وأقوى ، وأمتع من التشبيه البليغ قبلها ؛ فيده أمم من الغيث نفعاً ،
وأعظم خيراً .

مدحه بالكرم والجود ، والسخاء ، والإعطاء الجزيل الكثير ، الواسع الشامل ؛ وقال : إن يده كانت اليد التى يحيى

وَأَيْقَظَتِ الْبَابَ الرَّجَالَ ، فَسَارَعُوا إِلَى الْجِدِّ ، حَتَّى لَيْسَ فِي النَّاسِ خَامِلٌ^(٢٣)
وَمَا مِصْرٌ إِلَّا جَنَّةٌ ، بِكَ أَصْبَحَتْ . مُنَوَّرَةٌ أَفْقَانَهَا وَالْخَمَائِلُ^(٢٤)
طَلَعَتْ عَلَيْهَا طَلْعَةُ الْبَدْرِ ، أَشْرَقَتْ بِلَا لَآئِهِ الْآفَاقُ وَاللَّيْلُ لَآئِلٌ^(٢٥)

= المَوَات ، وَيُنِيتُ الكَلَامَ والنَّبَات ؛ بَلْ إِنَّمَا تَفَرَّقَ الْغَيْثُ ، وَتَفَضَّلَ ، وَتَزِيدَ عَلَيْهِ ؛ وَقَدْ بَسَطَهَا فَرَعَيْتَ
بِالْإِفْصَالِ وَالْإِحْسَانِ ؛ فَبِمَتْ فِي الْبِلَادِ الْحَيَاةَ وَالنَّصْرَةَ ، وَجَمَّ النَّعْمُ وَالْخَيْرُ ، وَفُتِّرَ النَّاسُ أَسْبَابَ الرِّخَاءِ
وَالرَّغَايَةِ .

(٢٣) الْبَابُ : جَمْعُ بَابٍ : (بُوزِنْ قَتْلُ وَأَقْفَالُ) : وَهُوَ الْعَقْلُ . وَالْجِدُّ : (يَفْتَحُ الْجَيْمُ وَيُشَدِّدُ
الْعَدَالُ) : مَصْدَرُ جَدِّ فِي أَمْرِهِ ، أَوْ فِي سِرِّهِ (مَنْ بَابِي ضَرْبَ وَنَصْرٍ) : أَيْ اجْتَهَدَ . وَالْأَنَسُ مِنْهُ الْجَدُّ
(بِكسر الجيم) . وَمُخَامَلٌ : مُخَاطَبٌ ، مَقْصُورٌ ، لَا نِهَاجَةَ لَهُ . وَفِيهِ التَّوَابَةُ .
أَيْقَظَ الْمَدْمُوحَ حَقُولَ الرِّجَالِ مِنْ سُبَاتِهَا ، وَنَهَجَهُمْ عَلَى مَا يَحْيِيهِمْ حَيَاةً طَيِّبَةً كَرِيمَةً ؛ فَخَمَلُوا أَرْدِيَةَ التَّوَانِ
وَالْخَمِيلِ ، وَالتَّكْمِلَ وَالْفَتُورَ ، وَسَارَعُوا إِلَى الْجِدِّ وَالْاجْتِهَادِ ، وَوَاطَّيُوا عَلَى الْكَدِّ وَالْمَدْمُوحِ ؛ فَلَمْ يَبْقَ فِيهِمْ
خَامِلٌ ، أَوْ مُخَاطَبٌ ، أَوْ مُقَصِّرٌ ، أَوْ تَوَانٌ ، أَوْ ضَعِيفٌ ، أَوْ مَقْصُورٌ .

(٢٤) الْجَنَّةُ : الْبَيْتَانُ ، وَالْقَرْدُوسُ ، وَالْحَدِيقَةُ ذَاتُ التَّخْيِيلِ وَالْأَشْجَارِ . وَأَصْبَحَتْ : صَارَتْ ،
كَأَنَّ قَوْلَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : « فَأَصْبَحَ بِمَنَّمَتِهِ إِبْرَاهِيمَ » الْآيَةُ رَقْمَ ١٠٣ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ .
وَمُنَوَّرَةٌ : ذَاتُ نُورٍ ، وَوَرْدٌ ، وَأَزْهَارٌ : اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ نُورِ الشَّجَرِ وَالنَّبَاتِ تَنْوِيرًا ؛ أَيْ أَخْرَجَ
نُورَهُ . أَوْ هِيَ مِنْ نُورِ النَّبَاتِ وَالزَّرْعِ : بِمَعْنَى ظُهُورِهِ ، وَأَوْدَاقُهُ ، وَحَسَنٌ . أَوْ هِيَ مِنْ نُورِ النَّارِ : أَيْ
خُلِقَتْ فِيهِ النَّارُ . وَالْأَفْقَانُ : الْأَغْصَانُ . وَاحِدُهُمَا فَنَنْ (بُوزِنْ سَبَبٌ وَأَسْبَابٌ) . وَالْخَمَائِلُ : جَمْعُ خَمِيلَةٍ
(بُوزِنْ سَفِينَةٍ وَسَفَائِنْ) : وَهِيَ الشَّجَرُ الْكَثِيرُ الْمُجْتَمِعُ الْمُتَشَبِّهِ الَّذِي لَا يَرَى فِيهِ شَيْءٌ إِذَا وَقَعَ فِي وَسْطِهِ ؛
لَا لِتَفَافِهِ وَكَثْرَتِهِ . وَكُلُّ مَوْضِعٍ كَثُرَ فِيهِ الشَّجَرُ ، خَمِيلَةٌ . وَفِي الْبَيْتِ أَسْلُوبَانِ مِنَ أَسَالِيْبِ الْقَصْرِ ، أَوْ
التَّضَمُّينِ : « وَبِمَا حَصَرَ إِلَّا جَنَّةً » وَ« بِكَ أَصْبَحَتْ مُنَوَّرَةٌ » أَيْ بِسَبَبِكَ ، وَبِفَضْلٍ وَلَا يَتَكَلَّمُ ، وَبِقِيَادَتِكَ ،
وَرِيَاسَتِكَ ، لَا بِفَضْلٍ غَيْرِكَ مِنَ النَّاسِ .

جَمِلَ مِصْرٌ فِي عَهْدِ الْمَدْمُوحِ جَنَّةً نَاصِرَةً ذَاتَ خَمَائِلٍ وَأَفْقَانٍ ؛ وَبِفَاضِلِهِ وَبِمَسَاعِيهِ نُورَاتٌ وَأَزْهَرَاتٌ
وَأُغْمَرَتْ : يَكْنَى بِهَذَا هَمَامُ الْبِلَادِ وَالرَّعِيَّةِ فِي عَهْدِهِ مِنَ الْخَصْبِ وَالْإِنْمَاءِ ، وَالْخَيْرِ وَالرِّخَاءِ ، وَرِغَدِ الْعَيْشِ ،
وَهَيَاةِ الْحَيَاةِ .

(٢٥) طَلَعَ الْكَوْكَبُ وَنَمُوعُو (مَنْ بَابُ دَخَلَ) : بَدَأَ ، وَظَهَرَ مِنْ عُلُوٍّ . وَطَلَعَ عَلَيْهِ : أَقْبَلَ عَلَيْهِ .
وَطَلْعَةُ : اسْمُ مَرَّةٍ مِنْهُ . وَالْبَدْرُ : الْقَمَرُ الْمُمْتَلِئُ ، لَيْلَةُ كَمَالِهِ ، فِي مَتْنَسَفِ الشَّهْرِ الْقَمَرِيِّ . وَأَشْرَقَتْ :
أَضَاءَتْ وَأَنْارَتْ . وَالْأَلَاءُ : النُّصْرَةُ . وَالْآفَاقُ : التَّوَاسُطُ ، وَالْإِطْلَاقُ ، وَالْجِهَاتُ ، وَاحِدُهَا أَقْفٌ (بُوزِنْ
قَتْلُ وَنَقْطُ) . وَلَيْلٌ لَائِلٌ : شَدِيدُ الظُّلْمَةِ ، وَمِثْلُهُ لَيْلُ الْبَلِّ ، وَالْوَاوُ : وَآوُ الْحَالِ ، وَالْجَمْلَةُ الْإِسْمِيَّةُ بِدَوْنِهَا
حَالٌ مِنَ الْآفَاقِ .

وَأَجْرَيْتَ مَاءَ الْعَذْلُو فِيهَا، فَأَصْبَحَتْ وَسَاحَاتُهَا لِلْمَوَارِدِينَ مَنَاهِلُ^(٢٦)
وَلَمْ يَأْتِ مِنْ أَوْطَانِهِ «النَّيْلُ» سَاحًا إِلَى «مِصْرَ» إِلَّا وَهَوَّحَرَانُ مَنَاهِلُ^(٢٧)

المعنى: كانت البلاد مظلمة محتمة بما يسودها من الخلل والقلق، والنظم والنظم، والنظم والفساد؛ فطلع عليها المندوح طلوع البدر؛ فهدد بمساعيه ظلماتها، وأضاء بفضائله أرجائها، ونشر فيها العدل، والأمن، والصالح، والرخاء.

(٢٦) ماء العدل: العدل الشبيه بالماء في عموم فقهه، وقوام نظام الحياة عليه، وشدة احتياج الناس إليه. وثبتا: في مصر. وإجراء ماء العدل في مصر: كناية عن إصلاحه، وتعميمه، بحيث يشمل القاصي والداني، والبيد والقرى. وأصبحت: صارت، والواو في أول الشطر الثاني: واو الحال، والجملة الاسمية بعدها حالية. وساحاتها: فواحيها، وأحنتها ساحة، والمواردين متعلق بمناهل: جمع وارد: اسم فاعل من ورد الإنسان بغيره الماء: أى أشرف عليه، ووافاه، وصار إليه، وبنته. والمناهل: موارِد الماء، ومواضع الشرب على الطريق: جمع مهل (يوزن مذهب). وساحاتها مناهل تشبيه بليغ. والتناسب والتناسق واضحا هنا بين ماء العدل، والمناهل، والمواردين.

والمعنى: أن المندوح نشر في أهل مصر كلهم أجسدين الإنصاف والعدالة؛ فارتفعوا حكمه العادل الصالح، وصارت ساحات مصر ومنازلها مناهل يرد الناس عليها، ويفدون إليها من فيجاج الأرض، فيجدون فيها "العدل، والأمن، والطمأنينة، واستمرار الحقوق، وسيادة القانون، واندهار المعمران. وفي أربعة الآيات الآتية تفصيل وتأكيد لهذا المعنى.

(٢٧) نهر النيل: من أطول أنهار الكرة الأرضية؛ ينبع من بحيرات الحبشة الاستوائية، ومن مياه هضبة الحبشة في أواسط إفريقية، ويصب في البحر الأبيض المتوسط عند «دمياط» و «رشيد» من البلاد المصرية؛ ويمتدح: من أقصى منابعه إلى مصبه - بلاداً كثيرة، أهمها: تنجانيقا، وكينيا، وأوغندا، والكنغو، والسودان، وأثيوبيا، ومصر. وأشهر روافده: بحر القزاق، وبحر الزراف، والسوبات، والنيل الأزرق، والخطيرة. وأهم الخزانات، أو السدود المقامة عليه؛ لضبط مياهه، والتحكم فيها، وحسن الانتفاع بها: خزانات أسوان، وسنار، وبيجل الأولياء، والسد العالي في أسوان؛ ويفيض في أواخر الصيف بمصر؛ بسبب فيضانه سقوط الأمطار الغزيرة الموسمية على حساب أثيوبيا (الحبشة). وكانت له المكانة العظمى عند قدماء المصريين؛ وما زالت مصر إلى اليوم تحتفل بوفاته في شهر أغسطس من كل عام. والأوطان: جمع وطن؛ وهو مقر الإنسان، ومكان إقامته. وأوطان نهر النيل: منابعه في أواسط إفريقية. وساحاً: اسم فاعل من ساح الرجل في الأرض سياحة: أى ذهب فيها، وتقتل بين أرجائها وفواحيها. أو من ساح الماء وضوء يسبح سباحاً وسبحاناً: أى سأل، ويرى على وجه الأرض؛ فني كلمة «ساحاً» تورية؛ والمعنى الأول هو المراد هنا. وحران: صديان: أى شديد البطل. والمرامح

فَيَأْتِيهَا الصَّادِي إِلَى الْعَدْلِ وَالنَّدَى هَلُمَّ ؛ فَنَذَا بَحْرَهُ الْبَحْرُ سَاحِلُهُ (٢٨)
 مَلِيكَ أَقَرَّ الْأَمْنِ وَالْخَوْفِ شَامِلُ وَأَحْيَا رَمِيمَ الْعَدْلِ وَالْجَوْرِ قَاتِلُ (٢٩)
 فَسَلِّهُ الرِّضَا ، وَأَنْزِلْ بِسَاحَةِ مَلِكِهِ فَتَمَّ الْأَمَانِي ، وَالْعَلَا ، وَالْفَوَاضِلُ (٣٠)

==بحارنا هنا : المشتاق الذي يَرْجِعُ به الشوق، وسائل : اسم فاعل من سأل سؤالا : أى استعصى ، وطلب .
 أو من سأل الماء ولحمو سيلاً ، وسيلاناً : أى جرى على وجه الأرض ؛ ففى كلمة « سائل » تورية . والمعنى
 الأول هو المراد هنا ؛ فالنيل يسأل المدح فضل وعده ، ويرى ويرى غيره . و « سائلاً » حال ،
 وصاحبها « النيل » وكذلك جملة : « وهو حران سائل » .

والمعنى : إنما انتقل نهر النيل إلى مصر من منابعه للقاصية البعيدة ؛ لأنه واجد مشتاق إلى لقاء
 المدح ، طامع في فضله وبره ، وفؤله وإحسانه .

(٢٨) الصادي : الشديد العطش : اسم فاعل من صدى (كتب) : أى اشتد عطشه ، وجمعه
 صُدَاة . والندى : السخاء ، والكرم ، والفضل ، والخير ، والجود ، والطاء . وهلم تما ، وأقبل :
 اسم فعل أمر : بمعنى الداء إلى الشيء ، وطلب الإقبال عليه . و « ذا » : إشارة إلى المدح . ومن كلامهم :
 « فلان بحر الخيول » : إذا كان سخياً ، جواداً ، مطاعاً ، واسع المعروف ، شامل البر ، عظيم المروءة ،
 يحقق أمل الآمل ، ويصدق رجاؤه من يقصده ويرجو . وساحل البحر : شاطئه ، وجمعه سواحل .
 و « بحر له البحر ساحل » : أى المدح بحر عظيم جداً ، إذا قرن به البحر الحقيقى تضاداً ، وصغر ،
 وكان كالساحل للبحر الهجازى ، وهو المدح . أو المعنى : أن المدح في عظامته ، وفيضان كرمه بحر
 ليست له سواحل أو شواطئ أو حواجز ، أو حدود ؛ فالبحر لا يُتصور أن يكون ساحلاً لبحر آخر .
 بنوء يمدالة المدح ، ويشيد بدهاء ، ويشبه بالبحر العظيم الواسع ، ويدعو العيش والصداء إلى
 الإقبال عليه ، والقصد إليه ؛ ليعتمدا بالرى والخير ، والفضل والعدل ، والجود والإحسان .

(٢٩) ملك : ملك : أى صاحب ملك ، وجز ، وبأس ، وسلطان . وأقر الأمن : أرساه ،
 وثبته . وشامل : عام ، منتشر ، شائع . والريم : البالي ، الحشيم ، المتفتت . وفى التزيل التزير : « قال
 من يحى النظام وحى ريم » ؟ الآية رقم ٧٨ من سورة يس . والبحور : الظلم . والبحرطان الاسيتان
 فى نهاية الشطرين الأول والثانى حاليتان .

والمعنى : كان الخوف شاملاً عاماً ، فأذهب ذلك الملك العظيم ، وأقر الأمن والطمأنينة والسلام ؛ وكان
 الظلم مخيفاً قاتلاً ؛ فقفى عليه المدح ، وبها آثاره ، وأحيا البدل ، ونبت سلطانه ، ومد ظلاله .

(٣٠) سلم الرضا : أمر من سأل يسأل (بوزن خاف يخاف) : تخفيف سأل يسأل . والأصل :
 فاسأله الرضا : أى اطلب إليه أن يرضى عليك بما تقدمه من الولاء والإخلاص . والساحة : الناحية . والمكانان ==

رَعَى اللَّهُ يَوْمًا قَرَّبْتَنِي سُوءَهُ إِلَى سُوءِ تَأْوِي إِلَيْهَا الْأَمَائِلُ (٣١)
لَسْتُ بِهَا كَهَا، هِيَ الْبَحْرُ فِي النَّدَى تَفِيضُ سَمَاحًا، وَالْبَنَانُ جَدَاوِلُ (٣٢)

الولاس . وفناء بين دور الحى لإبناء فيه ، ولا سقف له . وصاحة ملكه : رحاب الممدوح وكشفه ، وظله ، وذراه . وه ثم : اسم يشار به إلى المكان البعيد بمعنى « هناك » . والبيد هنا : بعد المنزل ، وهو المكاة . والأمانى (بتشديد الياء ، وتخفيف فى الشعر) : جميع الأمنية : وما يمتناه الإنسان ، ويقدره ، ويرغب فيه ، ويجب أن يصير إليه . والملا (بوزن الحلى) : الرفعة ، والشرف ، والعلاء . أو هى جمع العليا ، مؤنث الأمل : أى الدرجات العلى . والفواصل : التيمم العظيمة ، والدرجات الرفيعة فى الفضل ، والأطيا والمهيات الجزيلة ، الواحدة فاضلة .

والمنى : إذا أخلصت لهذا الملك العظيم ووالته - رضى عنك ، وأقبل عليك ؛ وإذا نزلت فى رحابه نمت بسلامها العظيمة ، وهباته الجزيلة ، فصصحت أحلامك ، وتحققتم آمانيك ، وظفرت بكل ما تأمله وترجوه .

(٣١) رعاه الله : حفظه ، وصانه ، وقواه ، ووقاه . وهو تعبير بالخبر فى مقام الإنشاء مجازاً . ومعناه الدعاء . ورمى الله ذك اليوم : بمحنته ، وباركه ، وحفظ ذكره ، وبجدها . وسوءه : سوء ذلك اليوم : أى بركاته : جميع السد : وهو اليأس ، والبركة . والسوءة (بوزن القبة) : باب الدار ، أو فتاها ، أو ما بين يدي الباب ، كالصفحة ، والسقيفة ، والظلة ، والساحة ، والرؤا ، أو ما يحلحس عليه كالمئبر والسرير ؛ ويراد بسوءة الممدوح هنا : حضرة ، ومجلسه ، ومقامه . وتأوى إليها : تلجأ إليها ، وتلجأ بها . والأمائل : أفاضل الناس ، وغيارهم ، جميع الأمثل (بوزن الأفضل ومعناه) .

يذكر بالخبر ، وصن الثناء ، وعالص الدعاء ذلك اليوم السعيد الميمون المبارك ، الذى أتيح له فيه أن يلج بحضرة الممدوح ، ويشرف بالمشول بين يديه ، ويسعد بحضور مجلسه العالى ، وهو مجلس الأمائل الأفاضل ، الكرام الأخيار .

(٣٢) ثم يده ، أو وجهه ، أو فم (من بابى غرب ، وفهم) : قبيله . والكف : الراحة بين الأصابع ، أو هى اليد : أى الراحة مع الأصابع ، وهى مؤنفة . والتنى : الفضل ، والخير ، والبر ، والإحسان . وفاضل النهر ونحوه (من باب باع) : كثر ماؤه ، وزاد ، وطغى ، حتى سأل عل خفة الرادى : أى جانبه . وسماحاً : تمييز : وهو الخود ، والسقاء ، والكرم ، والبطاء . والبنان : الأصابع ، واحداً بنانة (بوزن سحابة وسحاب) . والجداول : جميع جدول (بوزن جعفر) : وهو النهر الصغير . يحتر بأنه قبيل يد الممدوح ، ولا غرو ؛ فإنها جذيرة بالتم والتبيل ؛ وقد شبهها بالبحر فى الندى والسقاء ، وقال : إنها تفيض كرمًا وسماحاً ، وتنبسط بالخير الكثير ، والبطاء الجزيل ؛ وجعل أصابعها روافده ، وجداول ، وأنهاراً .

نَطَقْتُ بِفَضْلِ مِنْكَ ، لَوْلَا لَمْ يَنْزُ لِسَانِي ، وَلَمْ يَخْفِلْ بِقَوْنِي فَاقْبَلُ (٣٣)
 وَلَا أَدْعِي أَنِّي بَلَغْتُ بِمِدْحَتِي عُلَاكَ ، وَلَكِنْ جَهْدُ مَا أَنَا قَائِلُ (٣٤)
 وَكَيْفَ أَوْفَى مَنَظِقَ الشُّكْرِ حَقَّهُ وَدُونَ ثَنَائِي مِنْ عُلَاكَ مَرَّاحِلُ ؟ (٣٥)

(٣٣) نطقتُ: المراد نظمت هذه المدحة، أي هذه القصيدة التي مدحتك بها، وتحدثت بها إلى الناس وبفضل منك؛ بسبب فضلك، وما أوليتني إياه من البير، والمعروف، والخير، والإحسان. ولم يَنْزُ لسانِي: لم يتحرك؛ والمراد: لم يستطع التلويح، ولم يتحرك بالكلام. ولم يَخْفِلْ: لم يخجل، لم يبال، ولم يهتر. والمعنى: أن فضل المدحوح، وما أفاضه على الشاعر من البير، والخير، والمعروف، والإحسان - أفضقه بمدحه وإطرائه، وحرك لسانه بحسن الثناء عليه؛ ولولا هذا الفضل ما أجاد الشاعر هذا المدح، ولا استحل بقوله فضله الأديب.

(٣٤) ادّعى لنفسه كذا: زعمه لها، ونسبه إليها. والمدحة (بكسر الميم وسكون الدال): اسم من مدحه (من باب نفع): أي أطراه، وأحسن الثناء عليه، ونوه بما له من المزايا والفضائل. والمدحة أيضاً: ما يُنشدُح به المرد من الشعر؛ وظلها الأمدوحة (بوزن الأرجوحة). وأجهد (بفتح فسكون، أو يضم فسكون): الطاعة، والاستطاعة، والوصح، والغاية، والنهاية؛ وهو خبر مبتدأ محذوف، تقديره «هي»: أي المدحة؛ أو «هو»: أي الأمر، والثأن، والحال. و«ما»: اسم موصول، بمعنى «التي».

والمعنى: لم أصل بمدحى هذه إلى المستوي الرفيع العالي الذي يناسب المدحوح، ويداني سموه وعلا؛ ولكنها غاية ما أطيعه وأسطيعه من القول. وللبيتان الاتيان متصلان بهذا المعنى، مؤكداً له.

(٣٥) «كيف»: اسم استفهام، يطلب به تعيين الحال؛ وقد خرج الاستفهام هنا عن معناه الحقيقي أو الأصل إلى الاستبعاد، أو التني؛ فالشاعر يشبه مقدرة على الوفاء بشكر المدحوح، أو ينش هذه القدرة، ويعلن قصوره وجزئه؛ كأنه قال: لا أستطيع أن أوفى منطلق الشكر حقه. وواقعه توفية: أصلاً إياه وإني؛ تاماً، كاملاً؛ ومثله أوفاه. ومنطق الشكر: الشكر المنطوق به؛ أي الجارى على اللسان؛ كأنه ينظم الشكر القلبى، ويقرر أنه أوفى، وأتم، وأصدق، وأعظم من الشكر اللسانى؛ ويشير إلى أنه إذا لم يستطع الوفاء بالشكر اللسانى، فقد وفى كل الوفاء بالشكر القلبى. و«دون»: ظرف مكان منصوب؛ وهو هنا بمعنى «فوق»: أي فوق ثنائى إلى مرتبتك في العلا - مراحل واسعة بعيدة، ومسافات بعيدة كبيرة، لا أستطيع اجتيازها. أو هو بمعنى «قبل»: أي وقيل أن أصل يشقى إلى مرتبتك العالية مراحل هي فوق طائفي؛ كما تقول: «دون بلوغ القمر، والوصول إليه مراحل، ومسافات، وأهوال. والثناء =

وَحَسْبِيْ عِلْمًا أَنَّكَ الشَّمْسُ رِقْعَةٌ وَكَيْفَ يَنَالُ الْكَوْكَبُ الْمُتَنَوِّلُ؟ (٣٧)
لَيْتَهُنَّ يَكُ الدُّنْيَا ، فَانَّتْ جَمَالُهَا فَلَوْلَاكَ أَمْسَى جِيدُهَا وَهَوَّ عَاطِلُهَا (٣٨)

== ما يذكر في محامد الناس؛ فَيُحْسِنُ حالاً فصلاً ذَكَرَهُ أَيْ يَكْرَهُ ، ويردد ، ويماد : وهو اسم من أثنى عليه : أى وصفه بخير . والمراحل : جمع مرحلة (بوزن مرتبة) : وهى المسافة ، يقطعها السائر على قدميه ، أو المسافر على الإبل فى نحو يوم .

والمعنى : أن ما يخلق به من الشكر ، والإطراء ، وحسن الثناء — دين ما يستحقه المدحوح ؛ فبين ثناء الشاعر ومنزلة المدحوح فى العلاء والرفعة — مراحل كثيرة واسعة ، ومسافات بعيدة قاصية ، لا يستطيع اجتيازها .

(٣٦) حسبي : يكتفى ، ويغنى . وفاعله : « أنك الشمس رقة » : أى المصدر المؤول من أن ومعملها . وعلماً : تمييز : أى يكتفى علماً علواً . والدر : الحجة يُدلى بها المعتد ، ويقدمها إلى لائحته ؛ ليبرغ بها عنه القوم والمعتبة . والاستظهار فى أول الشطر الثانى : معناه الاستبعاد . ونال الشيء وناله فَيَلَا : أعده ، وظفر به ، وحصل عليه ، وأصابه . والمتناول : الآخِذُ ، والمتاعلى : اسم فاعل من نالته الشيء ، فتناوله : أى أعده ، وأصابه ، وتعاواه . ويراد به هنا : من يحاول تناول الكواكب ، أو يرغب فى الوصول إليها ، أو يطمح فى الاستيلاء عليها .

يمتنع عن تقصيره فى الشكر والثناء بأن المدحوح ارتفع ارتفاع الشمس والقمر ، وعلا علو النجوم والكواكب ؛ وبهذا أن يناها من يحاولها ؛ فالشاعر لا يستطيع أن يسمو بشكره ومدحه وحسن ثنائه إلى المكانة العالية الرفيعة التى يحتلها المدحوح .

(٣٧) لَيْتَهُنَّ : لتفجع ، ولتفتعل ، ولتسر ، ولتسعد . وأصله « لهنأ » ثم سُهِّلَت الهزنة بقلبها ألفاً ، ثم عيِّل بمعاملة المتل ؛ فحذفت الألف ؛ لأنه مجزوم بلام الأمر . والأمر هنا : للدهاء . يدعو للدنيا أن تقوم لها بدوام المدحوح هوائها وسعادتها ، وسرورها وغبطتها ؛ كما يدعو للمدحوح أن يبق هائلاً لدنيا مسعداً لإياها ؛ تزدان بطلعه ، وتتجمل بحضرته ، وتَحَسِّنَ بسرته ، وتطيب بحكمه وعدائه . وأمسى : صار . والجيد . اللق ، أو مقدمه ، أو موضع القلادة منه . والواو : واو الحال ، والجملة الاسمية بعدها حالية . وعاطل : خال من الحل والزينة .

جنى الحياة الدنيا بالمدحوح ؛ فهو زينتها ، وسماها ، وبهجتها ؛ وبه صارت طيبة ، عزيزة ، كريمة ، يرغب الناس فيها ، ويحسدون ، ويحسون عليها ، ويعلمون ؛ ولولا المدحوح لكانت ثقيلة عليهم ، قلقة بهم ، مضنية لهم ، عطلالة من الحل والزينة والبهاء ، مجردة من أسباب المتعة والهناء والسعادة .

وَدُمَّ لِلْعَلَا مَا ذَرَّ بِالْأَفْقِ شَارِقٌ وَمَا حَنَّ مِنْ شَوْقٍ عَلَى الْإِيكِ هَادِلٌ (٣٨)
وَلَا زَالَتْ الْآيَاتُ تَقْلُو مَذَاهِجِي عَلَيْكَ، وَيُمْلِيهَا الضُّحَى وَالْأَصَائِلُ (٣٩)

(٣٨) دم لعل : أمر مقصود به الدعاء ؛ فالشاعر يدعو أن يدوم المندوح المعال ، ويتق المعال له . و « ما » : مصدرية ظرفية في شطري هذا البيت : أى مدة ذُرور الشارق بالآفق ، ومدة حنين المادل على الأيك . وذو (من باب قد) : طلع ، وظهر ، وشرق . والآفق : منتهى ما تراه العين من الأرض ، كأنما التقت عنده بالسحاب . وجمعه آفاق . والشارق : الشمس حين تشرق . ومن : طرب ؛ أى رجع صوته ، ومده . والمصدر الحنين : وهو صوت فيه طرب ، وأمل ، أو توسع وشرق . و « من » هنا لتعليل ، كما في قول الفرزدق في ملح عن ابن الحسين : « يفيض حياء ، ويفيض من مهابة » . والأيك : الشجر الكثير الملتص ، الواحدة أئكة . وهادل : اسم فاعل من هديل الحمام ؛ وهو هديره ، وصوته الذى يذده في حنجرته .

يدعو بأن يبقى المندوح حال القدر ، ساقى المتزلة ، رفيع المكافة ، ما دام يشرق على الكون نهم ، ويضي على الأشجار حمام : أى أبدا الدهر .

وهذا أسلوب شعري يقصد منه الدعاء بالبقاء ؛ وقد يشار فيه إلى بعض صفات المندوح ، وبعض فضائله ومزاياه . وفي كلمة « شارق » هنا إشارة إلى روعة قدر المندوح ، وجمو مكانته ، وبهابة شأنه ، واحترام الناس بهديه ، وسائر المشابه التى يلاحظها الأدباء حينما يشبهون مثل ذلك المندوح بالشمس .

(٣٩) « لا زال » : من أفعال الاستمرار : أى بقيت ، واستمرت ، ودامت ؛ وهو تعبير بانحدر في مقام الإنشاء مجازاً ؛ والمقصود به الدعاء ؛ فالشاعر يدعو لمداحه بالخلود ، ترددها الأيام ، وتقرؤها على المندوح صباح مساء ؛ وفي هذا دعاء ضمني للمندوح بامتداد العمر ، وطول البقاء . وتظهر : تقرأ . والمدائح : جمع المديح ؛ وهو الشعر الذى يمدح به الشاعر غيره ، ومثله المديحة ، وجموعها مدح (بوزن كيسة وكيسر) ، والأمدوحة ، وجمعها أمدوح . وأمل عليه الكتاب عليه إملاء : قاله ، فكتب عنه . والضحى : حين تشرق الشمس ، أو وقت ارتفاع النهار وامتداده ، أو هو جمع ضحوة (بفتح فسكون) ؛ وهى ارتفاع النهار وامتداده بعد طلوع الشمس . والأصائل : جمع الأصيل : وهو الوقت حين تصفر الشمس لمغربها ، أو هو الوقت من العصر إلى المغرب . ويراد بالضحى والأصائل : جميع أوقات النهار والليل .

يدعو بالخلود لمداحه التى نظنها في تمجيد المندوح وتحميده ، والإشادة بأعماله ومزاياه ، ولتنويه بمجديه ومكرماته ؛ وفي هذا دعاء ضمني له بامتداد العمر ، وطول البقاء ؛ وهو دعاء في أسلوب شعري رائع فائق ؛ فالأيام والليالي ، والضحى والأصائل لا تنفك تنادى المندوح وتراوسه ، وتُسَبِّحُه وتُسَبِّحُه مرتعة بهذه المدائح الباقية ، مغنية بهذا الشعر الخالد ؛ ولا تبرح تملئ ذلك السجل العظيم على كل كاتب .

وَقَالَ عَلَى طَرِيقَةِ الْعَرَبِ :

أَلَا بِحَيٍّ مِنْ «أَسْمَاء» رَنَمَ الْمَنَازِلِ وَإِنْ هِيَ لَمْ تَرْجِعْ بَيَانًا لِسَائِلِ (١)

تعليل وجيز

اجامت هذه القصيدة في تسعة وثلاثين بيتاً، كلها في الغرض الأساسي الذي قصد إليه الشاعر ، وهو منح الخديو « عباس حلمي باشا الثاني » وشكره ، وإحسان الثناء عليه . وألبيات القليلة التي جنح فيها الشاعر لما يشبه الحكمة أو المثل لا تلهث للنظرة العابرة أن تردّها إلى صميم المديح والإطراء .

ومعنا أن هذه المديحة ليست في المستوى العالي الذي اعتاد البارودي أن يخلق فيه ، ويُصنّف به قراء العربية . وقد أشرنا في عدّة مواضع من التشرح إلى بعض ما لاحظناه من هنوئها ، كالجنوح لتكلف والتزيد ، ودوران التشكير والتعكير في فطاق ضيق محدود ، وكثرة تكرار الفكرة ، والمنى ، واللفظ ، والأسلوب ، والصورة والخيال ؛ ولعل سبب هذا الهبوط أن الشاعر نظم هذه القصيدة بحكم الاضطراب الأدبي ؛ فلم تصدر عن عاطفة صادقة ، أو إخلاص ، أو إعجاب ، أو تأثر ، أو اقتناع .

وما أروع بتكراره مادة التفضيل ، ومادة المدح ، ولا فرو ؛ فالفضل هيكل المحامد ، وجماع الإنائب . والمدح أساس الملك ، وزينة الملوك والرؤساء ؛ وهو الذي يحصل إليهم قلوب الرعايا ، ويسلكهم في عداد الخالدين ؛ ورضي الله عن عمر بن الخطاب وأمثاله من الخلفاء الراشدين ، والحكماء العاديين .

• • •

(١) « أَلَا » : أداة استفهام وتوبيه . وسواء تحية : قال له : حيّاك الله : أي أطال عمره ، وأبقاك . و « من » : تعليلية : أي حيّ رسم المنازل من أجل « أسماء » : وهي الفتاة التي يتنزل بها الشاعر . والرسم : ما كان لاصفاً بالأرض من آثار الأديار التي ارتحل عنها أهلها ، وجمعه رسوم . ويريد بالمنازل : منازل « أسماء » وقبورها . و « إن » هنا : مجرّدة من معنى للشرط ؛ وهي حرف وصل ، كما تقول : « صل وإن عجزت عن القيام » : أي حيّ الرسوم ولو لم تهبك . ولم ترجع بياناً لسائل : لم تجب عن سؤال السائل ، ولم تردّ تحيته : مضارع رجه إليه أي رده ، وأعاده . و « هليل » تقول : أرجعه إرجاعاً . والبيان : المطلق الفصيح ، والكلام الواضح ؛ ويراد به هنا : إجابة السؤال ، ورد التحية .

جرّد الشاعر من نفسه شخصاً ، أو تخيّل أن معه رفيقاً ، ثم خاطبه قائلاً : إن وفاداً لأخما يقتضي أن نفق بما بيني من آثار ديارها ؛ لتحية هذه الآثار ، وسؤالها عن ارتحل عنها من أحببنا ، وإن كنا نعلم أنها لن ترد علينا السلام ، ولن تجيب عن شيء من أسئلتنا ، ولن تخفف ما نضائنا من الأسى واللوعة ، واليأس والحلم ؛ وهذه صورة من صور الحياة في البيئة البدوية الصحراوية القائمة على التنقل والارتحال ، وتعلّق الماشقين بمشوقاتهم ، وقوفهم على رسوم ديارهم المهجورة ؛ لتحيّتها ، وتبديد ذكريات الحب والفرام .

خَلَاءَ تَحَمَّطَتِهَا الرُّوَامِسُ ، وَالتَّقَتِ عَلَيْهِمَا أَهَاضِيبُ الْغُيُومِ الْمَوَاطِلِ^(١)
 فَلَايَا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَرَسُّمِ أَرَانِي بِهَا مَا كَانَ بِالْأَمْسِ شَاغِلِي^(٢)
 خَدَّتْ وَهَى مَرَحِي لِلظُّبَاءِ ، وَطَالَ مَا خَنَّتْ وَهَى سَاوِي لِلْحَسَنِ الْعَقَابِلِ^(٣)

(٢) خلَاء : غير لمتهل عذوف ، والتقدير : هي : أي رسوم المنازل خلَاء : أي خالية قد هجرها أهلها ، فلا أحد بها ، ولا شيء فيها . وتَحَمَّطَتْ : أبلتها ، وجرستها ، ومحنها ، وأزالتها . والرُّوَامِسُ : الرياح التي تثير التراب ، وتحملة ، فتغطي به آثار الديار ، وتطمسها ، الواحدة رامة . والتَّقَتِ : تلاقت ، واجتمعت . والأهاضيب : دفعات الأمطار المتتابعة ، واحدها أهضوبة (بوزن أصبوبة) . والغيوم : السحب : جمع غيم ، والقطعة منه غيمة . والمواطِل : صفة للغيوم : أي المضممة ، المضمضة ، المتراكبة ؛ أو المثلثة الكثيرة المطر : جميع حافل ، أو حافلة .

يصف - في تحسر وتلهّف - منازل محبوبيته « أسماء » التي لم يبق منها إلا رسوبها وأطلالها الموحشة المقفرة ؛ وقد رسمتها الرياح بما حملته إليها من الأتربة ؛ وأرسل عليها السحاب لثقال دفعات متوالية من المطر الغزير ؛ فزادها دروساً وفضاء ، وبلى وأحماه .

(٣) اللّامى : الإبطاء ، والشدة ، والاحتباس ؛ وأياها عرفت الشيء ؛ أي عرفته بعد مائة ، وجهده ، وشدة ، ومشقة . ويريد بالدار : منزل محبوبيته « أسماء » . وبعد ترسم : بعد فُرس ، وتأمل ، وتبصر ، ونظر طويل : مصدر ترسمت الدار : أي نظرت إلى رسوبها ، وتبصرت أطلالها ، وتأسست آثارها . وفاعل « أَرَانِي » ضمير « ترسم » . والمعلمة صفة له . وبها : أي بالدار . وشاغل : اسم فاعل من شغل الأمر (من باب منع) : أي شأه ، وصرفه عما سواه . وما كان بالأمس شاغل : أي ما كان في ماضى الزمان شغل الشاغل .

في البيتين السابقين استوفى الشاعر حل رسوم المنازل المهجورة رقيقاً متخيلاً أو حقيقياً ، واشتركا في تحميتها تكرماً لمحبوبيته « أسماء » ، وإن كان لا يرغب من هذه الرسوم ربة التحية ، أو إجابة السائل ، أو إراحة المتحسر اللفهان ؛ ثم أشار إلى بعض العوامل الطبيعية التي تتأبست حل هذه الطويل ، فأفرقتها في الهباء والصفاء .

وفي هذا البيت قال : إنه ترسمها ، وتأسسها ، وأطال الوقوف عليها ، والنظر إليها ؛ فلم يمرزها إلا بعد لئى وجهه ، وتَصَب ، ومشقة ؛ وجاهله المرفة تجددت لديه ذكريات الماضي العزيز ، وبخاص الأيام الحالية ، وما كان يشغله ويليه من مواطن الحب واللقاء ، ومسارح الهوى والمرح . وفي البيت الآتي عرض لمصورتين متناقضتين من ماضى هذه الديار وحاضرها .

(٤) خَدَّتْ : صارت . وفاعله ضمير « الدار » في البيت السابق . والواو : وأو الحال . وبسمة « هي مري » حال من فاعل « خدَّتْ » . والمرعى : موضع الرعى : رعت الماشية الكلاء ، أو الشب ، =

فَلْيُعِنِ مِنْهَا بَعْدَ تَزَوُّجِ أَهْلِهَا مَعَارِفُ أَطْلَالٍ ، كَوَحْيِ الرِّسَالِ (٥)
فَأَسْبَلَتْ الْعَيْنَانِ فِيهَا بِوَكَافٍ مِنَ الدَّمْعِ ، يَجْرِي بَعْدَ سَحِّ بَوَائِلِ (٦)

« أولفتاب : أي سرحته ، فيه ، وأكلته . (وبابه سي) . والفتاب : الغزلان : جمع ظبي ، أو ظبية . و « طلالا » : « طال » : فعل ماضٍ لا يحتاج - على الأشهر - إلى فاعل ، لأنه اتصل بـ « ما » - الزائدة الكافة . وفنت : كانت ، أولفت : أو أفاقت . وفاعله ضمير « الدار » . والوجه الصحيح الذي نمره : « غنيت » كرضيت ، وللمعرب تقول : غنى بالمكان يغنى (من باب رضى) : أي لبث به ، وبقي ، وأقام . وطلما غنيت : أي وطلما بمسحت : أي لم يست زماناً طويلاً . والواو بعدها : واو الحال . والجملة الاسمية بعدها حال من فاعل « غنيت » . والمألوف : المنزل ، والمكان الذي تأوى إليه ، وتنزل به . والحسان : جمع حسناء . والمقاتل : جمع عقيلة (بوزن كريمة) : وهي المرأة ، أو الزوجة ، أو الفتاة الكريمة المصونة المحذرة .

عزى الشاعر في هذا البيت صورتين متناقضتين من ماضى هذه الديار وساحرها ، إذ كانت معنى المعائل الكريمات المهدرات الجميلات ، من النساء ، ثم صارت مرمى وسرحاً للفتاب وحيران الصحرى . وهذا البيت - الأبيات السابقة واللاحقة - يحمل في طياته معنى التمسك والتلف ، والتوسع والتفجع ، والبقاء على ديار ومنازل كانت مأنوسة مأهولة بمن يحب ، فلما ارتحل عنها أهلها أوحشت ، وضعت ، ولم يبق فيها إلا ما يثير الشجن ، ويهث الأمل ، ويجدد الذكريات ، ويسيل العبرات .

(٥) منها : من الدار . وتزيك : زوال ، وذهاب ، وقمool ، وانتقال . وهو مصدر حل وزن « فعمال » . والأطلال : جمع طلل (بوزن سبب وأسباب) : وهو الشخص الظاهر المرتفع من سطح الأرض من رسوم الديار ، وآثار المنازل التي هجرها سكّانها ، فبث بها البلى والعناء . ومعارف الأطلال : ما يعرف منها ، ويتفحص ، ويستبين لناظر المترسّم . والوصى : الخط ، والكتابة ، والمكتوب . والرسائل : جمع رسالة ، وهي الصحيفة تكتبها . وترسلها إلى غيره .

والمنى : أن العين لا تبصر من هذه الديار بعد ارتحال أهلها إلا أطلالا بقيت على الأرض رسوما ، كأنها رسائل مخطوطة تشبهك بكثير من أحوال ماضيها .

(٦) أسبلت العينان : بكما . وفيها : في رسوم دار المهوية وأطلالها . وواكف : سائل . و « من » : بيانية ، فإيها ، وهو « الدمع » : بيان لما قبلها ، وهو « واكف » . وجملة « يجرى » : صفة لـ « واكف » : أي واكف جار . أو حال من « الدمع » . وسح الماء ونحوه سحاً (من باب رد) : أي سكب ، وصبه صباً متتابعاً كثيراً . وسح الماء : سأل ، وانسكب ، وانصب ، فهو لازم ممتد . والوابل المطر الشديد ، الغزير ، للفسخ القطر . وبعد سح بوائيل : أي بعد بكاء بدمع غزير ، منسكب منبر : أي أن بكاءه متكرر متتابع .

والمنى : أن وقوفه بدار محبته هاج أشجاناً ، وآثار ذكريات ماضيه ، فيبكي ، وأطلال البكاء ، وعواده بدمع غزير منبر متتابع . والبيت (الآتي تكرر ، وتأكيد ، وتفصيل لهذا المنى .

دِيَارُ الَّتِي هَاجَتْ عَلَى صَبَابَتِي وَأَغْرَتْ بِقَلْبِي لَا عِجَابُ الْبَلَابِلِ (٧)
 مِنَ الْهَيْفِ مِقْلَاقُ الْوِشَاحِينَ ، غَادَّةٌ سَلِيمَةٌ مَجْرَى النِّعَمِ ، رَبِّا الْخَلَائِلِ (٨)
 إِذَا مَا دَنْتُ فَوْقَ الْفِرَاشِ لَوْسَنَةً جَعًا خَصَرَهَا عَنْ رِدْفِهَا الْمُتَخَاذِلِ (٩)

(٧) « ديار » : خبر مبتدأ محذوف . والتقدير : هي ديار . أو هذه ديار . وهاجت : هيَّجت ، وحركت ، وأثارت . والصبابة : رقة الهوى ، وسرارة الشوق ، والولوع الشديد . وأغراه بالثوب إغراه : ولعه به ، وحضه عليه ، وحرضه . ولا عِجَابُ : جميع لا عِجَابُ ، أو لاجئ : وهو المحرق المألوم المبرح الشديد من الهوى ، أو الشوق ، أو الهم ، أو الحزن ، أو نحو . والبلابل : الوسواس ، والمهموم الشديدة : جميع بلبال ، أو بلبالاة .

وقف الشاعر بديار تلك الفتاة التي أحباها ، وهام بها ، فأثارت أطلالها في نفسه ذكريات الماضي ، وأضلعت في قلبه نار الوجد والفرام ، وسرارة الشوق والحيام ؛ وسلطت عليه نواجع المحوم والوساوس والأروام .
 (٨) من الهيف : يريد التي هاجت عليه صبابته وهي الفتاة التي أحباها ، وهام بها : جميع هيفاء (بورن ييضاه) : صفة الهيف (يفتحون) : وهو غمور البطن ، ورقة الخاصرتين . ومقلاق : شديد التعلق ، ويراد به هنا : كثرة التصرك . والوشاح (بورن كتاب وخراب) : أديم ، أو نسج هريص ، يرصع بالجوهر ، تشبه المرأة بين عاتقها وكشحيها ، تتجمل به ، كما تتجمل بالقلادة ونحوها . ومقلاق الوشاحين : وشاحاها قلقان ، متحركان ، لا يستقرآن ؛ وهذا كناية عن ضمور بطنها ، ودقة كشحيها ، أي خاصرتيها ؛ فهو تكرار وتأكيده لمعى الهيف ، وهو من محاسن النساء . وغادة : ناعمة ، ليثة الأعطاف ، سرة الجوانب حسنة التمايل والثنى : صفة من النيد (يفتحون) . ويجرى النعم : كناية عن العين . وسليمة مجرى النعم : عينها جميلتان سليمتان ، مبرأتان من العيوب والأفات . وقد يراد بمجرى النعم : الخدان . وريسا : مؤثرت ريان : ضد عطشان . وساق ريا : ممتلئة ، فضيرة ، ناعمة . والخلائل : جميع خلخل (بورن جعفر وبرق) : وهو الخجل (يكرس فسكون ، أو يفتح فسكون) : حلية للساق ، كالسيوار للمعصم ، ونظله الخللخال . وجمعه خلخليل . ويراد بالخلخل هنا : موضعها من الساق ، أو الساق نفسها ؛ وهي ما بين الركبة والقدم . وريسا الخلائل : كناية عن امتلاء ساقها ، وجمالها ونفاستها .

نوه بما اجتمع في مشرقته من محاسن النساء ، كالهياف ، والنفيد ، وصلاحة العيتين وحسنهما ، وجمال الساقين وامتلائهما . وفي البيت الآتي تنويه بلون آخر من ألوان هذا الجمال الجسافي الذي قُتِنَ به ؛ وهي برديده وتكراره .

(٩) دنت : قربت . والريسة : التماس : وهو أول النوم . أو فتور في الحواس يتقدم النوم . ويجفا : نها ، وبهد . وخصر الإنسان : كشحه : وهو ما بين سرقته ووسط ظهره . وردفه : ككفكه : =

تَمَلَّقْتُهَا فِي الْحَيِّ إِذْ هِيَ طِفْلَةٌ وَإِذْ أَنَا مَجْذُوبٌ إِلَى وَسَائِلِي (١٠)
فَلَمَّا اسْتَقَرَّ الْحُبُّ فِي الْقَلْبِ وَانْجَلَتْ غِيَابَتُهُ - هَلَجَتْ عَلَى عَوَائِلِي (١١)

= أي صَبْرُهُ ، ومَوْجَرِّجِ جسمه . ومُتَخَالِذِ : ضِعِيفٌ ؛ والمراد أنه لثَقِيلٌ ، لين ، وضَعُفٌ ، غير مُتَمَسِّكٍ . وبِجَافِ عَصْرِهَا من رَدْفِهَا : أي لم يكن معه في مستَوًى واحدٍ ؛ فَخَصَرَهَا ثَابِتٌ مِنَ الْفَرَّاشِ ، غير مُطْمَئِنٍّ عَلَيْهِ ، لِمَسْمُورِهِ ، وبِصَافَتِهِ ، وَرَقَّتْ ، وَخَفَّتْ . وعَلِ الْمَكْسُ مَتَهُ رَدْفُهَا ؛ فَإِنَّهُ ثَابِتٌ حُلُّ الْفَرَّاشِ فِي أَثْنَاءِ نَوْمِهَا ، مُطْمَئِنٌّ ، مُسَقَّرٌ ؛ لِامْتِلَاحِهِ ، وَضَخَامَتِهِ ، وَبَدَانَتِهِ ، وَيُقَلِّتُهُ .

وصَفَهَا بِقَفْءِ الْخَصْرِ وَمَسْمُورِهِ ، وَصَلَّمَ الْرَدْفَ وَامْتِلَاحَهُ ؛ وَيَلَاظُ أَنْ مَعْنَى دَقَّةِ الْخَصْرِ تَكَثُّرُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ : مَرَّةً فِي هَذَا الْبَيْتِ ، وَمَرَّتَيْنِ فِي الشَّطْرِ الْأَوَّلِ مِنَ الْبَيْتِ السَّابِقِ .

(١٠) تَمَلَّقْتُهَا : هَوَيْتُهَا ، وَأَحْبَبْتُهَا . وَالْحَيُّ : مَحَلَّةُ الْقَوْمِ : أَيِ مِزْلَمِ الَّذِي يَحْكُمُونَ بِهِ ، وَجَمْعُهُ أَحْيَاءٌ ؛ وَالْحَيُّ (فِي الْأَصْلِ) : الْبَاحِنُ مِنَ بَطْنِهِمْ . وَهُوَ دُونَ الثَّقِيلَةِ . وَطِفْلَةٌ : صَغِيرَةٌ ، لَمْ تَقْدِرْ . وَالشَّطْرُ الثَّانِي : كِتَابَةٌ مِنْ طِفْلَوْتِهِ ؛ فَجُذُوبٌ : اسْمُ مَفْعُولٍ مِنَ الْجَلْبِ : وَهُوَ سِقُّ الشَّيْءِ ، أَوْ الْمَجْمُوعُ بِهِ ، أَوْ قَلْعُهُ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى آخَرٍ . وَوَسَائِلُ : نَائِبٌ فَاعِلٌ «مَجْذُوبٌ» : جَمْعُ وَسِيلَةٍ : وَهِيَ الْوَسِيلَةُ ، وَمِمَّا تَقَرَّبَ بِهِ إِلَى شَيْءٍ . وَيُرَادُ بِالْوَسَائِلِ هُنَا : الْمُدَّاتُ ، وَالذَّلَوَالُ الْمَوْصِلَةُ إِلَى الْمُنَارِبِ وَالْعَايَاتِ ، وَالْأَسْبَابُ الْمُحَقِّقَةُ لِلْعَاقِدِ وَالْحَاجَاتِ . وَأَرَادَ بِكُونِهَا مَجْذُوبَةً إِلَيْهِ : أَنَّ غَيْرَهُ يَمُودُهَا لَهُ ، وَيُعِينُهُ عَلَيْهَا ، وَيُمْكِنُهُ مِنْهَا ؛ وَهَذَا كُلُّهُ كِتَابَةٌ مِنْ صَفَرِهِ وَطِفْلَوْتِهِ ؛ فَالطِّفْلُ يَتَوَلَّاهُ وَلِيَهُ ، وَيُحِبُّ لَهُ وَسَائِلَ الْحَيَاةِ ، وَيُسِّرُ لَهُ أَسْبَابَ الرِّغْدِ وَالرَّخَاءِ . وَالْمَعْنَى : أَنَّ الْحُبَّ نَبَتْ فِي قَلْبَيْهِمَا وَهِيَ طِفْلَانِ صَغِيرَانِ يَدْرِيَانِ فِي سَاحَاتِ حَيْسِمَا ، ثُمَّ نَمَا ، وَشَبَّ وَتَرَمَرَعَ بِنُمُوِّهَا . وَالْأَبْيَاتُ الْآخِيَةُ تَعَزَّزَ هَذَا الْمَعْنَى ، وَتَقَصَّلَهُ .

(١١) اسْتَقَرَّ : ثَبَتَ ، وَاسْكَنَ ، وَتَمَكَّنَ . وَانْجَلَتْ : انْكَشَفَتْ . وَغِيَابَةُ كُلِّ شَيْءٍ : مَا سَتَرَهُ مِنْهُ ، وَوَارَاكَ . وَانْجَلَتْ غِيَابَةُ الْحُبِّ : انْكَشَفَ مَا كَانَ يَسْتُرُهَا مِنْهُ ، وَيَحْشَى أَمْرًا ، وَيُؤَارِيهِ : وَهُوَ امْتِزَاجُهُ بِبَيْتِ الطَّفُولَةِ وَلُفُوفِهَا . أَوِ الْمَعْنَى : أَنَّ الْحُبَّ لَمَّا اسْتَقَرَّ فِي قَلْبَيْهِمَا ظَهَرَتْ لِنَاسٍ دَلَالَاتُهُ ، وَكَثُرَتْ أَمَارَاتُهُ ، وَاسْتَبَانَاتُ شَوَاهِدِهِ وَأَثَارُهُ ، فَانْجَلُ الْوُكُلُوفُ بِاسْتِقْرَارِهِ مَا كَانَ يَسْتُرُهُ ، وَيُخْفِيهِ ، وَيُحْشِيهِ . وَهَلَجَ الشَّيْءُ : نَارَ . وَهَاجَهُ : أَثَارَهُ ؛ يَتَمَدَّى وَيَلْزَمُ (وَبَاهِجًا بِأَخٍ) . وَالْمَعْنَى عَلِ التَّمَدُّي : أَنَّ الْغِيَابَةَ الْمُنْجَلِيَّةَ أَثَارَتْ عَلَيْهِ الْإِلَاحَاتِ . وَعَلِ الْقُرُومِ : أَنَّهُ لَمَّا انْجَلَتْ الْغِيَابَةُ تَهَيَّجَتْ عَوَازِلُهُ ، وَثَرْنَ عَلَيْهِ : جَمْعُ عَاذِلَةٍ : أَيْ لَأْمَةٍ : اسْمُ فَاعِلٍ مِنَ الْمَلَلِ : وَهُوَ الْقَوْمُ .

تَمَكَّنَ الْحُبُّ مِنْ قَلْبَيْهِمَا ، وَثَبَتَ ، وَاسْتَقَرَّ ، وَمِمَّا وَتَرَمَرَعَ بِنُمُوِّهَا ، وَتَجَاوَزَهَا طُورَ الطَّفُولَةِ ؛ فَكَثُرَتْ أَمَارَاتُهُ ، وَظَهَرَتْ لِنَاسٍ أَثَارُهُ ، فَانْجَبَتْ لِأَمْرِهَا عَوَازِلُهَا ، أَوْ الْحَاسِدَاتُ ، أَوْ الْغِيَابَاتُ ؛ فَتَارَتْ ثَائِرَتَيْنِ ، وَكَثُرَتْ بِالْمَلَلِ ، أَوْ الْغِيَرَةِ ، أَوْ الْحَسَدِ مَا كَانَ صَافِيًا مِنْ حَيَاتِهِمَا .

فَيَاكِبَتْ أَنَّ الْعَهْدَ بَاقٍ ، وَأَنْتَا دَوَارِجُ فِي غُفْلٍ مِنَ الْعَيْشِ خَاوِلٍ ^(١٧)
تَمُرُّ بِنَا رُغَيَانُ كُلُّ قَبِيلَةٍ فَمَا يَمْنَحُونَا غَيْرَ نَظْرَةٍ غَافِلٍ ^(١٨)

(١٢) « يا » في أول البيت : حرف تنبيه . أو هي حرف نداء ، والمتنادى محذوف . و « ليت » حرف تمن ، والتي يتصلق بالمستحيل غالباً ، كقول الشاعر :

ألا ، ليت للشباب يوماً فلتغير بهما فعل المشيب

ويريد بالمهد : عهد الطفولة : أي زمنها الذي تجارزه ، وكان تجارزها إيّاه سبب انتباه المروءات ، وتكدير حياتهما بثورتين وهيجانين ، وهو يتمنيه بقاء ذلك العهد إيماءً يتخفى المستحيل . ودوارج : جمع دارجة : اسم فاعل من درج الصبي ونحوه : أي دب ، ومشى مشياً رويداً . وشئ غفل : ليست فيه علامة تميزه . ومادة غفل : على طبيعتها ، لم تتناولها يد الصانع . و « من » بيانية . والعيش : المعيشة ، والحياة . وخامل : ساقط ، لا نباهة له ، ولا شهرة : اسم فاعل من حمل الرجل (من باب قد) : أي حق ، فلم يُعترف ، ولم يُذكر . ويراد بالعيش النفل الخامل : الحياة الطبيعية الطبيعية الساذجة ، التي لا تنبه الناس عليهما ، ولا تلفت أنظارهم إليهما .

يتأتى حل فوات زمن الطفولة ، ويتخفى لوبق ذلك الزمن ، وظل هو وبحبيبه يَدُ رَجَانٍ في حياة ساذجة خاملة خالية مما ينبه المروءات عليهما ، ويهيجهن ، ويثير في قلوبهن الفيرة أو الحسد ، ويحملهن كل تكدير حياتهما بالمثل ونحوه .

وفي أربعة الأبيات الآتية تصوير نفاذ العهد الذي تمى بقاءه .

(١٣) الرعيان : جمع الراعي : وهو من يرعى الماشية ، ويحفظها ، ويقوم بأمرها ، ويسرحها في الرعي والكلاء . والقبيلة : الجماعة من الناس تنسب إلى أب واحد . ومنحه الشيء (من باب نفع) : أعطاه إيّاه . و « يمنحونا » أسهلها « يمنحوننا » . وحلفت « لئن لم تتخفيف » . وقال : اسم فاعل من غفل عن الشيء (من باب قد) : أي تركه ، وبها عنه من قلة التخفيف ، فالنافل ساء ، ضعيف الانتباه ، قليل التيقظ .

في عهد الطفولة كان رعاة الماشية من شئ التباؤل يمرّون به وبحبيبه ، فتقتسمهما عيونهم ، ولا يكاد يفلتن لأمرهما منهم أحد ، وإذا نظروا إليهما فلأنهما هي نظرات عابرة غافلة ، ليس فيها شيء من المبالاة أو الاهتمام ، أو الانتباه ؛ وهذا هو الخط الأول من خطوط الصورة التي رسمها الشاعر لعهد الطفولة في هذا البيت وثلاثة الأبيات بعده ؛ ويلاحظ أنها كلّها صور مطابقة لحياة العرب في باديتهم ، مصدقة للعنوان الذي اختاره الشاعر لهذه الابنية ، وهو : « وقال حل طريقة العرب » : أي محاكياً حرب البادية في الفن ، والموضوع ، والتعبير ، والتصوير .

صَغِيرَيْنِ لَمْ يَنْهَبْ بِنَا الظَّنُّ مَلْهَبًا بَعِيدًا وَلَمْ يُسْمَعْ لَنَا بِطَوَائِلِ (١٤)
نَسِيرُ إِذَا مَا الْقَوْمُ سَارُوا غَلِيَّةً إِلَى كُلِّ بَهِمٍ رَاتِمَاتٍ وَجَامِلِ (١٥)

(١٤) صغيرين : حال من «نا» ، وهو ضمير المفعول به في « يمنحنا » في البيت السابق .
ومذهب : مصدر ميمي بمعنى اللهاب : أي لم يذهب بنا الظنّ ذهاباً بعيداً . ويراد بالظنّ : ظن الناس
فيهما . ومعنى لم يذهب ظن الناس بهما مذهباً بعيداً : لم يرتابوا في أمرهما ، ولم يهتوا باجتماعهما على الحب
والألفة ؛ لأنهما صغيران ، يرحمان مريح الطفولة البعيدة عن التهم والريب والشبهات . وقد يراد بالظنّ :
ظنهما بنفسهما . والمعنى حل هذا : أننا كنا في غضارة الطفولة ، وطهارتها ، وبرائتها لا تذهب ظنوننا في
الحب مذهباً بعيداً ينتسه ، أو يريبه ، أو يتزل به عن مستواه الرفيع العالي ، مستوى الطهر والمفاتيح ، كما
تذهب ظنون بعض الماخذين من الرجال والنساء . وطوائل : عداوات وخصومات ، وأحداثها طائلة . ومعنى
« لم يسمع لنا بطوائل » : لم يسمع الناس بعداوات وخصومات قامت بيننا وبين غيرنا ؛ إذ كنا في غضارة
الطفولة وفضارتها بعيدين عن هذا ، لا نحمل حقداً أو ضغينة على أحد ، ولا يحمل علينا أحد حقداً أو
ضغينة ، ولا نجاهر أحداً بعداوة أو خصومة ، ولا يجاهرنا أحد بعداوة أو خصومة ؛ فبعد الطفولة بطبيعتها
لا يعرف الحقده أو الضغينة ، ولا يتصور فيه عاذل أو حاسد ، أو عداوات وخصومات تتأجج نيرانها ،
ويشهر أمرها بين الماخذين وعاذليهم وحسادهم ؛ فتكثر حياة الحب والمشق والفرام . وقد تكون الطوائل
هنا : جميع طائل أو طائلة : بمعنى القدرة ، أو الفضل ، أو المنة ، أو النفي ، أو السمة ، أو النفع ،
أو العلو ، أو الكثير الغزير . والمعنى حل هذا : لم يسمع الناس عنا من عداوات الحياة النابية ، والمعيشة
الراعدة ما ينيه شأننا ، ويحل قدرنا ، ويرى بنا الموائد والحساد ، ويشير حسدنا لنا ، وسقدم علينا ؛
وهذا تكرار وتأكيد للمعنى العيش الفحلّ الخامل الذي تمتناه من قبل في البيت الثاني عشر . ومن معاني الطوائل :
الترات ، أو الثارات ؛ وهذا المعنى ينتهي إلى الخصومات والعداوات التي شرحناها من قبل . أو يراد بها الذنوب
والآثام ؛ بمعنى أننا في حيننا لم نقترب إثماً أو خطيئة ، ولم تكن محلّ تهمة أو ريبة .

يشئى لو دامت لهما طفولتهما ، وبقيتا صغيرين بعيدين عن مظانّ الريب والشبهات ، محصنين من
العداوات والخصومات التي تلذع جهما ، وتنبه للناس عليهما ، وتقرى بهما الموائد والحاسدات .

(١٥) غذية (يوزن قضية) : صباحاً ، أول النهار ، ما بين الفجر وطلوع الشمس . والبهيم :
أولاد الضأن ، والمخز ، والبقر ، الواحدة بهمة (يوزن روضة وروض) . وراتعات : جمع راتعة : أم
فاعل من رعت الماشية (من بابى نفع ونضع) : لى رعت ، وأكلت ، وشربت ما شئت في غصب ورعشة
وسمة . والجامل : القطيع من الإبل مع رعااته . وهو مطوف على « بهم » .

وهذا البيت كسابقه ولاخه تصوير حياة الطفولة واللذة ، والعيش النفل الخامل الذي تمتنى الشاعر =

وَلِنْ نَحْنُ عَبْدُنَا بِالْعَيْشِ أَضَافَنَا إِلَيْنِ سَلِيلٌ مِنْ نَفَا مُتَقَابِلِ (١٦)
قَوْلٌ لِهَذَا الدَّهْرِ ، مَاذَا أَرَادَهُ إِلَيْنَا ، وَقَدْ كُنَّا كِرَامَ الْمَحَاصِلِ ؟ (١٧)

= بقاءه له ولحيته ؛ فهما يتخفّيان نهاراً في ضمار الناس ، ويسلكان مسالكهم ، ويبكران إلى الإبل والضان والماشية كسائر الرعاء ، وقد أسلفنا أن الشاعر أطلع في هذه اللامية بيئته العرب ، ورحلتهم في باديتهم ، وحرس على إقتان تصويرها ، وإجادة التعبير عنها ، وبهاكاة قداى الشعراء من أهل البادية ؛ ويلاحظ أن عنوان هذه القصيدة : « وقال على طريقة العرب » : أى جرى على سنتهم في وصف الديار ، وبكاه الأطلال ، والتفتى بما كان فيها من حب ونعيم ، وتصوير الحياة في البادية العربية .

(١٦) عذا : وجعنا . والمشي : آخر النهار ، أو أول الظلام ، أو الوقت من المغرب إلى العتمة ، أو الوقت من زوال الشمس إلى المغرب ، وهو خلاف الندية . وأضافنا : ضمنا ، وأماننا ، وجمعنا . والسيل (بوزن أمير) : السرى ونحوه : فويل بمعنى فعل من سدل الإنسان الثوب ونحوه : أى أسبله ، وأرسله ، وأرماه . والتقا : الكتيب من الرمل ، أو للقطعة المهدوجة منه . ويتقابل : يستقبل بعضه بعضاً .

حَمَّ الشاعر بهذا البيت الصورة التي رسمها لمعهد الطفولة الذي تمى بقاءه له ولحيته ؛ إذ كانا يربحان من المرعى آخر النهار ، فهملوان متفردين مستترين بكتمان متولجة من الرمال ، كأنها السدائل والأستار ، تنفخهما من الأنظار ، وتتيح لهما فرصة تلاقى ينمغان فيه بمسادة الحب ، وهناة الطفولة ، وصفاء الحياة .

(١٧) « ويل » : كلمة شر ، وعلاب ، وهلاك . ولهذا الدهر : إشارة إلى زمانها الذى عاشها ، وتكر لهما ، وبذلك حالهما ، وقد جرى الناس - وبخاصة الشعراء - على شكرى الدهر إذا مسهم الفرس ؛ فهم ينسبون إليه الخير والشر ، والمسرّة والمساء ؛ والشاعر هنا متبرم بالدهر ، داح عليه بالويل والبثور ؛ وقد مقدّمه ديوانه أنه قد يشكر الدهر أو الزمان وهو يقصد به العالم الأرضى ، وأهل الدهر . وماذا أرادته إلينا : ماذا أراد بنا ؟ أو ماذا أراد منا ؟ أو ما ذا طلب إلينا ؟ أو ما ذا قصد من معاصرتنا والتتكر لنا ، وتبديل حالنا ؟ . والاستفهام هنا : معناه الإنكار ؛ فالشاعر ينكر على الدهر فعله ، أو قصده ، أو إرادته بما : أى يستقبح هذا منه ، ويميله عليه ، وينهاه عنه . والواو : وأو الحال ، والجملة الفعلية بعدها حالية . وكرام : جمع كريم وكريمة : بمعنى طيب ، مرضى ، محمود . ويراد بالمحاصل : الفانيات ، والمقاصد : جمع محصل (بوزن مذهب) : مصدر ميمى من حصل على الشيء (من باب قعد) : أى أحرزه ، وأدركه ، وناله ، وحازوه ، وملكه ؛ وإذا كان المرء شريعاً نبيلاً حصل على ما يريد به بأشرف =

عَلَى حِفَّةٍ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهَا مُبَرَّاةٌ مِنْ كُلِّ غَيٍّ وَيَبَاطِلٍ^(١٨)
وَلَكِنَّهَا الْآيَاتُ لَمْ تَأْتِ صَالِحًا مِنْ الْأَمْرِ إِلَّا أَعْقَبَتْ بِالتَّنَازُلِ^(١٩)

«الوسائل ، وغير اللوائح ؛ لغى و كرام المحاصل ؛ أن ما قصدا إليه ، وحسبنا عليه ، وثبت لها ،
وجمعها من الحب والفرام - كان كريماً ، طاهراً ضيقاً ، نزيهاً . وقد تكون هذه الكلمة محرفة عن « المحاصل »
(بالحاء) : جمع غصّل (يوزن مذهب) : مصدر ميسى بمعنى السبق ، والفضل ، من غصله (من باب
نصر) : أى سبقه وفاقه ، وفضله . ويراد بالمحاصل الشيم الثبيلة ، والمحاصل الفاضلة . وكرام المحاصل :
كرام الأخلاق .

يطلق الصبر والتبرّم بزمانهما الذى تنكّر لهما ، ويدلّ حالهما ، وأراد بهما السوء والمكره ، على
الرمز من حرصهما على غفاف الحبيّة ، وطهارة السيرة ، وشرف الغاية ، وتبشّل المحاصل ، وكرم الأخلاق .
والبيت الآتى يترزّ هذا المعنى ويوضحه ، ويؤكدّه .

(١٨) « على حفة » : خبر ثان لـ « كان » فى البيت السابق : أى كنا كرام المحاصل ، على حفة . أو
هو خبر لكان المحلوة : أى كنا على حفة . والصفة : أن يباشر المعنى الأمور على وفق الدين والمروءة ،
ويرتك الشؤمات من كل شيء ، ويكتفّ عسّاً لا يحل ، ولا يحمل من الأفعال والأقوال . و « قد » هنا :
حرف يفيد التحقيق . و « قد يعلم الله » : أسلوب يؤدّى معنى القسم ؛ كأنه قال : « والله » . ومبرأة :
بريئة ، خالصة ، خالية ، نقية . والى : الإيمان فى الفضائل ، والانهماك فى الجهل . والباطل :
ما لا ثبات له عند الفحص عنه . وضده الحق . ويراد بالباطل هنا : الفجوة ، والفساد . والشطر الثانى
تأكيد لمعنى « العفة » ؛ لأن العفة لا تكون إلا مبرأة من كل غي وباطل .

والبيت كله تأكيد وتوضيح لمعنى « كرام المحاصل » فى البيت السابق ؛ فلقد كان حبهما قائماً على العفة ،
والنقاء ، والطهارة ، بعيداً كل البعد عما يبيه ، أو يشينه ، أو يذّسه من النوىة ، أو الجهل ، أو الفساد
أو الضلال ، أو البطلان .

(١٩) ألقى الأمر : فضله . ولم تأت صالحاً : لم تفعل صالحاً . و « من » : بيانية . والأمر :
الشان ، والحال ، أو الشيء . وألقته : خلقته ، وجاء بعده . وتنازل القوم تنازلاً : نزّلوا إلى ساحة القتال ،
تضاربوا . ويراد به هنا النزول مطلقاً : مصدر نزل عن الأمر : أى تركه ؛ يريد أن الأيام قد تسرّ
الناس بتحقيق شيء من أمانهم ، أو صالحات أمورهم ؛ ولكنها لا تلبث أن تمنحهم بإفساد ما حققته ،
أو حكمه ، ونقصه ، وتهديده .

والبيت فى شكوى الدهر ، أو الزمان ، فإنه سريع التحول والتقلب ، يهدم ما يبني ، وينقص ما يجرم
ويسترد ما يهبّ .

ولأبى العليّ المتنّى فيما يقرب من هذا المعنى :

أبدأ تسترد ما تهب الذّيا ، فياليت جيدها كان يخلّا

إِذَا مَا تَذَكَّرْتُ الزَّمَانَ الَّذِي مَضَى تَسَاقَطَ نَفْسِي إِثْرَ ذَلِكَ الْقَبَائِلِ (٢٠)
 قَبَائِلُ أَفْتَنَتْنَا الْحُرُوبُ ، وَلَمْ تَكُنْ لِيَتَغَنَى كِرَامُ النَّاسِ مَا لَمْ تُقَاتِلِ (٢١)
 قَضَيْتُ بَعْدَهُمْ نَفْسِي عَزَاءً وَأَصْحَبْتُ عَشُو زَنْتِي ، وَأَنْقَادَ لِلذَّلِّ كَاهِلِ (٢٢)

ولغيره :

فلا تفرغك من دهر عطية فليس يترك ما أعلى على أحد
 وفي الأبيات الآتية انتقل الشاعر من الغزل وشكوى الزمان إلى رثاء من أفتنهم الحروب من شجعان
 المحاربين وتمجيد ذكرياتهم ، وما كان لهم من أعمال الشجاعة ، وإعلان جزئه لفنائهم ، وفخره بما كان
 له عليهم من ولاية وقيادة ؛ كل هذا في تصوير عربي بدوي بحث ؛ تصديقاً للعنوان الذي اختاره لهذه اللامية ،
 وهو : « يقال على طريقة العرب » .
 (٢٠) « ما » بعد « إذا » زائدة لتوكيد الكلام . وتساقت : أصلها « تصاقت » ثم حلت « إحتق
 البناء بن تخفيفاً ؛ مضارع تساقت الشيء : أي تتابع سقوطه . وسقط إثره ، وفي أثره : سقط في عقبه ؛ أي
 بعده على التتبع ، بلا تراخ . والقبائل : جمع القبيلة ؛ وهي الجماعة من الناس تنسب إلى أب واحد .
 يقول : كلما تذكرت الزمان الماضي ذهبت نفسي حشرات على من قسى من القبائل .
 (٢١) أفتننا : أبادتنا ، وأهلكنا . وكرام الناس : خيارهم ؛ جمع كريم ؛ وهو السخي الجواد ،
 الطيب ، المرضي ؛ يقال : الجامع للفُضائل والمحامد والمكرمات : صفة من الكرم بمنتهى الخالص «العام» .
 يأسي على انقراض تلك القبائل المنظمة للكرامة التي أهلكها الحروب ، وعفت آثارها ؛ ويشير إلى
 ما كان من شجاعتهم وشدة بأسهم ، وامتنازهم بالمحامد والمكرمات ، ويقول : إنه لولا القتال ما فني هؤلاء
 الكرام .

(٢٢) قضت : هلكت ، وبادت ، وقضت ، وبعدم ؛ بعد هؤلاء الأحرار الكرام الأغيار الذين أشار
 إليهم ، وفوقهم في البيتين السابقين : أي قضت نفسي بعد هلاكهم وفنائهم ؛ والمراد كادت نفسي تقضى ؛
 أي تهلك ، وتذهب بدم . وإخلال الفعل الماضي هنا محل فعل المستقبل للدلالة على تحقق وقوعه . وعزاء :
 مفعول لأجله ؛ أي هلكت نفسي بدم بسبب العزاء ؛ وهو الصبر . ومعنى « قضت نفسي بدم عزاء » :
 أنه بعد أن طوى الرضى هؤلاء الكرام الأحرار - اشتد أسفه عليهم ، وبات يذلل الحزن ، ويكافئ الأذى ،
 ويتكلف العزاء والصبر والسلوان ، حتى غاضبت منته ، وذهبت قوته ، وأرداه الجزع . ولو قال : « قضت
 نفسي بدم أس » ؛ لكان أوضح ، وأبعد عن التكلف . أو كأنه يقول : لم أجد وسيلة الصبر على
 مصيبي فبهم إلا أن أموت كما ماتوا . وأصبحت : انقادت ، وخضعت . وعشوزتي : يريد نفسه القوية
 الأبية : مؤثث العشوزن ؛ وهو الصلب ، القوي ، الشديد ، الغليظ من كل شيء . وانقاد : خضع ، =

وَأَصْبَحْتُ مَقُولُ الْيَدِينِ عَنِ النَّبِيِّ أَحَاوِلُهَا، وَالذَّهْرُ جَمُّ الْفَوَائِلِ (٢٣)
صَرِيحٌ لِبَيِّنَاتٍ تَقْسَمَنَّ نَفْسُهُ وَغَادَرَتْهُ نَهَبٌ الْأَكْفِ الْخَوَائِلِ (٢٤)

= واستكان . وكأهل الإنسان : ما بين كنهيه . أو أهل الظهر عما يلي العنق .

والمعنى : أن تصبر على مصيبتك في هؤلاء الكرام أغاض مُحْتَمَّةً ، وأذهب قوته ؛ وقد كانوا له عزاً ومَنَمَةً ؛ فلما هلكوا انتقاد بعد احتجاج ، ونضع بعد إباء ، وبذل بعد حُرَّة .

(٢٣) مَقُولُ الْيَدِينِ : مقيد اليدين : كناية عن ضعفه ، وضعفه ، وهذاهب حيلته . وعن التي أحاولها : من الغايات والمقاصد والمطالب التي أرومها وأريدها . وحاول الشيء : طلبه ، وسالجه تحصيله بالحيلة ؛ وهي الخلق ، وجودة النظر ، وإحكام التدبير ، وللقدرية على دقة التصرف في الأمور . وبهم : كثير . والفوائيل : الدواهي ، والمصائب ، والشرور ، والمفاسد ، والبلايا ، والآفات . الواحدة غائلة : اسم فاعل من غاله (من باب قال) : أي أخذه من حيث لا يدرى ، فأهلكه . والجملعة الاسمية في نهاية البيت تذييل في شكوى الدهر الذي رماه بالأرزاء ؛ فقيده وأحجزه .

يقول : إن الدهر كثير الشرور والفتنات ، جم البلايا والشدائد ؛ وقد رماني بموت من كنت بهم طويل الباع ، عزيز الجانب ، مغفور القوي ؛ فكانت الداهية الدهيئة ، وأخطب الفادح ، والمصيبة الجليئة ؛ وأصبحت بهم حاجراً كل العجز عن بلوغ ما أروم من الحاجات والمقاصد . والبيت الآتي يوضح هذا المعنى ويؤكد .

(٢٤) صريح (بالرفع) على أنه خبر مبتدأ محذوف : أي هو صريح . أو بالنصب على أنه خبر ثان لأصبح في البيت السابق ؛ أي أصبحت مَقُولُ الْيَدِينِ ، صريحٌ لِبَيِّنَاتٍ . ويلاحظ أن الشاعر هنا انفتحت عن ضمير المتكلم في البيت السابق إلى ضمير الغائب في هذا البيت ؛ ويريد بصريح البَيِّنَاتِ نفسه . وصريح : فعل بمعنى مفعول ، من صرحه (كنهه) : أي طرحه على الأرض . ولبَيِّنَاتٍ : جميع لَبَاةٍ : وهي الحاجة من غير فاقة ، بل من همة ، أو من سَهْمَةٍ . وتَقْسَمَنَّ نفسه : فرقها . والذين : ضمير البَيِّنَاتِ . ومن كلامهم : « تَكْسَمُته الموم » : أي شئت شؤطره ، ووزعت هواجبه . وغادرته : تركته . والتهب : التهمة ؛ وكل ما أفتب : أي أَخَذَ بالقوة ، والتهرب ، والقلبة . والأكف : جمع الكف ؛ وهي الراحة بين الأصابع ، أو الراحة مع الأصابع ؛ ويراد بها هنا : اليد . والفوائيل : جميع غائلة : اسم فاعل من خطه (من باب ضرب وقتل) : أي خدمه ، وأراد به المكروه من حيث لا يشعر .

يشير إلى بعض آثار مصيبتك . فبين أفنتهم الحروب من الأبطال الكرام الذين ذهبت نفسه عليهم حشرات ؛ فقد كانت له لبائنات وحاجات ، حاولها بهم ، فاستصعبت عليه ، واستنفدت ما بقى من قوته ، وتركته لمبلبل النفس ، مشقت القلب ، عاجزاً ضعيفاً ، صريعاً طريحاً ، مُهْتَبَةً لكل ناهب ، وغرضاً لكل رام ، وصيداً سهلًا للغائل المخادع .

كَانْنِي لَمْ أَعْقِدْ مَعَ الْفَجْرِ رَايَةً وَلَمْ أَذْعَ بِاسْمِي لِلْكَيْسِ الْمُنَازِلِ^(٢٥)
وَلَمْ أَبْعَثِ الْخَيْلَ الْمُغِيرَةَ فِي الضُّحَا بِكُلِّ رَكُوبٍ لِلْكُرَيْهَةِ بَاسِلِ^(٢٦)

(٢٥) عاد الشاعر في هذا البيت إلى ضمير المتكلم . عقد الحبل ونسوه (من باب شرب) : جعل فيه عقدة . وصعد طريقه : جمعها بمقعدة . ومن الهجاز عقد الألوية لأمره الجيوش : أي توليتهم الرئاسة والقيادة . والراية : العلم ، والواء . ويقد مع الفجر راية : أي نظم المماربين تحت راية الحرب ، وقادم ، ومن ثم الفارة على الأعداء وقت الفجر ؛ وكان خير أوقات الإخافة والمجيء منهم . ولم أذع باسمي (بالبناء للمعلوم) : أي لم أجهز باسمي . دعا يدعو باسمه في الحرب : صاح قائلاً : أنا فلان ؛ ليوقع باسمه الرعب في قلوب المماربين من أعدائه ، فإنه كان مهيباً معروفاً بشدة البأس ، وقوة البطش . أو « لم أذع » (بالبناء للمجهول) : ومعناه أن المماربين من جنده وأوليائه كانوا ينادونه في الحرب باسمه ، لمنازلة الأبطال من أعدائهم ، والفتك بهم . وإلى هذا المعنى يشير صخرة بن شداد البسبي بقوله :

دعاني دعوىً والخيول تجري فإ أدعى : أبا سمي كان يدعو ، أم كنانى

والكى : لايس السلاح : فعيل بمعنى فاعل ، من كى نفسه (من باب رى) : أي سترها بالدرع والبيضة والسلاح ؛ وقد يطلق الكى على المحارب الباسل القوي الشجاع الجريء المقدم ، ولو لم يكن متكئاً في الدرع والبيضة . والمنازل : المقاتل المهاب .

ما زال الشاعر يشكو تبدل الحال ، وسوء المآل ، ويشير إلى بعض آثار الكارثة الفادحة ، والكرب الشديد الذي لازمه بعد فقدانه من أفنتهم الحروب من أوليائه وأتباعه الكرام الأبطال ؛ فهو في هذا البيت يتحسر ويأسى لما يعانيه اليوم من حيز وكد ؛ ولقد كان قبل اليوم يعقد ألوية القتال للمحاربين من صعيه وينوذه ، ويشنُّ بهم الغارات وقت الفجر ، ويوقع باسمه الرعب والفرع في قلوب أعدائه ، ويبطش بهم على قوتهم ، وشدة بأسهم .

(٢٦) « ولم أبعث » : مبطوف على « ولم أعقد » في البيت السابق : أي كأنى لم أعقد ، وكأنى لم أبعث . وبعث الخيل المغيرة على أعدائه : سلطها عليهم : من قولهم : « بعثت عليهم البلاد » : أي صبه عليهم ، وأحله بهم . والخيول : جماعة الأفراس (لا واحد لها من لفظها) . والمغيرة : اسم فاعل من أغار إغارة : أي اشتد في العدو وأسرع . وأغار على أعدائه « هيم » ، وطفح عليهم الخيل ، وأوقع بهم . والفضحا وقت ارتفاع النهار ، أو اعتداده بعد طلوع الشمس . أو هو جمع ضحوة بهذا المعنى (بوزن قرية وقري) . أو الضحا : حين تشرق الشمس . والضحوة : ارتفاع النهار ، بطلوع الشمس . وركوب (بوزن شروب) : صيفت بالغة من ركبه (كسمه) « ركوباً . وبكل ركوب : بكل نجل كثير الركوب ، متمرس به ، مقتدر عليه . والكرهجة : الحرب ، أو الشدة فيها . وكثرة ركوبه الكراهة : كناية عن تمرسه بالحروب ، وكثرة معاناتها . =

نَزَائِعُ يَهْلِكُنَّ الشُّكِيمَ عَلَى الْوَجْهِ إِذَا عُرِّيَتْ أَمْثَالُهَا فِي الْمَنَازِلِ (٢٧)
مِنْ الْقَوْمِ ، بَادٍ مَجْتَلُهُمْ فِي شِمَالِهِمْ وَلَا مَجْدٌ إِلَّا دَاخِلٌ فِي الشَّمَائِلِ (٢٨)

سوراسل : بطل ، شجاع : من البسالة : وهى الشجاعة ، أو عبوس المحارب الشجاع .

يقول : إنه كان ينير - فى وضع النهار على الأعداء - بفرسان شجعان ، تعودوا الحروب ، وتمرسوا بالكراته ، وهؤلاء هم كرام الناس الذين أفتاهم القتال والنزال ، واشتد جزع الشاعر عليهم ، حتى كادت نفسه تهلك بدمهم أبى وكدا . ورد الشاعر هذا المعنى ، وبسطه ، وفصله ، وطوَّره من البيت العشرين إلى نهاية هذه اللامية ، واندمج كل الاندماج فى البيئة العربية البدوية ؛ فجمعت تسمياته وتصويراته كلها شاهدة بصحة العنوان الذى اختاره لهذه القصيدة ، وهو : « يقال على طريقة العرب » .

(٢٧) « نزالع » : حال من « الخيل » فى البيت السابق : أى بحث الخيل على الأعداء والحال أنها نزالع . أو خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير : هى نزالع : أى نضارب ، وكراهم ، واحدها نزيمة (بوزن كريمة) : أى تنزع إلى أصل كريم . أو انتزعت من أيدي الغرباء ، وجعلت إلى بلاد غير بلادها ؛ وهذه أيضاً تعد من نجائب الخيل ، وكراهمها النازقة إلى عرق كريم أصيل . وطلعت الدابة الجمام (من باب نصر ، وضرب) : لأكنه ، وحركته فى فها . والشكيم : جمع شكيمة (بوزن سفينة) : وهى من الجمام : الحديدة المتعرضة فى الفرس . والجيى : مصدر وجى الماشى (كصبي) : أى جى ، وركت قدمه ، أو سافره ، أو سغفه ، وككن من كثرة المشى وتعبه . وهربت : المراد تهركت فى اصطبلاتها مصرة على مجردة من معدات الركوب والسفر ، وأدوات الحرب والقتال . وأمثالها : أمثال النزالع : أى أشباهها ونظائرها ، جمع مثل (بوزن فعل وأفعال) : وهو المسائل ، والشبه ، والتظهير . ويراد بالمنازل : اصطبلات الخيل ، وحظائرها .

يصف الخيل التى كان يغير بها مع محبيه وأتباعه على الأعداء ، ويعتمدون عليها فى الحرب والقتال بأنها أصيلة كريمة نجيبة ، أو أنها - مع أصالها ونجابتها - غريبة مجلوبة من بلاد بعيدة ؛ وأنها كانت تلوك الشكائم والأشج ، مع ما بها من الحنى والكلال ، ورفقة الأقدام ؛ حل حين أن أشباهها ، ونظائرها متخلدة ناعمة رافهة فى حظائرها ؛ ذو بها ، وعظم شأنها لما كان لها من عظم النفع فى الحروب ، ولأنها كانت وسيلة من أهم وسائل النصر والعلبة ؛ وضاعف هذا أكتنوه والتنظيم بالإشارة إلى المريات الرافعات الأمانات من أمثالها فى الخطائر .

(٢٨) « من » : بيانية . و « من القوم » : ببيان لقوله فى البيت السادس والعشرين : « بكل ركوب لكريمة ياسرله . وياد : ظاهر . والمجد : العز ، والشرف ، والرفعة ، والكرم ، والتبلى ، والجلال . وقد يضاف إلى هذا كله ما يده المرء من مفاخر آباءه ، والمكابر الماثورة عنهم . والشمال (بوزن كتاب) : الخلق ، والعالم ، والسجية التى جبل الإنسان عليها ، والجمع الشئائل . »

إِذَا مَا دَعَوْتَ الْمَرْءَ مِنْهُمْ لِذَعْوَةٍ عَلَى عَجَلٍ - لَبَّاكَ غَيْرَ مُسَائِلٍ (٢٩)
يُكَفِّفُ أَوَّلَى الْخَيْلِ مِنْهُ بِطَعْنَةٍ تَمُجُّ دَمًا ، مَطْعُونَهَا غَيْرُ وَائِلٍ (٣٠)

يبكى أحواله وأُمناره ، أو ضلّله وأعدائه الذين كان يقرحهم في الإغارة على أعدائه . ويصفهم بالمجاهدة والكرم ، ويقول : إن شأكلهم وأخلاقهم تَمُّ على ما امتازوا به من الشرف والتل ، والرفقة والجلال .
والشطر الثاني تنجيل جار مجرى المثل ، مؤكدة لمعنى الشطر الأول ، فإن المرء إذا كان ماجداً لا يستحق شأكله خصائص مجده ، وظهرت حتماً في سبائياه . أو أن الشأكل للكرمة تتضمن المجدة ، وتشير إليه ، وتم عليه ، كما تم على المسك رائحته .

(٢٩) دعاه إلى كذا يدعو : صاحبه ، وفاداه ، وفق الدعاء هنا معنى الاستعانة ، والاستنجاد . والدعوة : مصدر بمعنى الدعاء ، أو اسم مصدر ، أو اسم مرة . ويراد بها هنا : الأمر المدعو إليه ، المستعان عليه ، المستنجد من أجله . ومنهم : من الأماجد للكرام الذين نوه بهم ، وبكافهم في البيت السابق . وصل عجل : مسرعاً ، وهو متعلق بـ « لباك » . ولياك : أجاب دعوتك ، وسارع إلى إنجارك . ومسالل : اسم فاعل من ساهلهم مسالة : بمعنى سأله عن كذا : أى استفسره .
ولمضى : إذا استنجدت الواحد من هؤلاء الأماجد الكرام لأمر يكثرك ، سارع إلى إنجارك في غير تردد .

وهذا قريب من قول قريظ بن أنيف ، من بنى العنبر ، في ملح مازن تميم :

لا يسألون أعمامهم - حين ينتهمهم في الثائبات - على ما قال بهرمانا

(٣٠) يكفكف : يرد ، ويصد ، ويهبط ، ويمتد . وفاضله ضمير المرء في البيت السابق . ويريد بأول الخيل : فرسان المحاربين في مقدمة جيش أعدائه ، أى في الصفوف الأولى . و « منه » : متعلق بـ « طعنة » : أى يصد بطعنة منه هجمات المحاربين على ظهور الخيل في مقدمة جيش أعدائه . والطعنة : اسم مرة من طعن بالرمح ونحوه : أى يخز به ، وضربه ، وأصابه . وجملة « تجم دماً » : صفة لـ « طعنة » وكذلك جملة « مَطْعُونَهَا غَيْرُ وَائِلٍ » . وتجم الطعنة دماً : تفجر الدم ، وتُسِيله ، وتُجْريه من جسم المَطْعُون . ومَطْعُونَهَا : المصاب بالطعنة . وغير وائل : غير ناج : اسم فاعل من وائل من كذا : أى طلب النجاة منه . وائل إليه : لجأ إليه ، واحتسب به . وائل إلى المكان : بادر إليه ، وسارع . (وبابه وعد) .

ما زال الشاعر يبيّن هؤلاء الأماجد الكرام الأبطال ، ويرثيهم ، ويذكرهم بمد ما تمهم بالخير ، وحسن الشاء ، ويقول : إن كل واحد منهم كان أمةً ، يحارب في الصفوف الأولى بشجاعة وبسالة وإقدام ، ويدفع عن نفسه وجيشه المشائزين له من طليعة جيش أعدائه ، ويردّهم على أعقابهم بطعنات دامية قاتلات .

يَكُونُ عَشَاءَ الزَّادِ آخِرَ أَكْلٍ وَيَوْمَ اخْتِلَاجِ الطُّغْنِ أَوَّلَ حَامِلٍ (٣١)
قَصُّوا مَا قَصَّوْا مِنْ دَهْرِهِمْ ، ثُمَّ قَوَّزُوا إِلَى دَارِ خُلْدٍ ظِلُّهَا غَيْرُ زَائِلٍ (٣٢)

(٣١) «عشاء» : معقول به لـ «أكل» ، قدم عليه . والمشاء . طعام العشي : أى الوجبة التى يتناولها الأكل آخر النهار ، أو من المغرب إلى المَـتَمَّة . والزاد : طعام يتخذ للفسر . ومعنى الشطر الأول : أن كل امرئ من الكرام للذاهبين الذين يرثيهم ويبيكهم كان آخر الأكلين إذا حضر عشاء الزاد . والاختلاج : التحرك ، والاضطراب . واختلاج الطغن : من إضافة المصدر إلى فاعله : أى اضطراب حركات الطغن ، واختلاف رياح المتحاربين ، واشتباكها فى الطعام : وهو كناية عن استمرار القتال ، وصف المركة إذا انضم الجيشان ، وحسى الوطيس « واشتد البأس . وحامل : اسم فاعل من حمل المحارب على عدوه : أى كر عليه . وهجم .

يقول : إن كل واحد من هؤلاء الكرام المرتبين كان آخر الأكلين إذا حضر الطعام ، وأول الهاجمين إذا حسى الوطيس ، واستمر القتال ، واشتد الطمان والتزال . وهذا المعنى قريب من قول سيدنا ومولانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم - فى مدح الأنصار : «إنكم لتكثرون عند الفزع» ، وتقولون عند الطمع «

(٣٢) قضى حاجته : أعطاها وفرغ منها . وقضى وطره : بلغ مراده . ودهرهم : زمانهم . ودهر فلان : مدة حياته . وقوزوا : هلكوا وماتوا . وقوزوا : رحلوا ، وانتقلوا ، ومضوا . والخلد : البقاء ، والدوام . ودار الخلد : الجنة . وفى القرآن الكريم : «ومن عمل صالحاً من ذكر ، أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ، يردفون فيها بغير حساب» الآية رقم ٤٠ من سورة غافر . والظل : ضوء شعاع الشمس إذا استمرت هناك بجائز . أو هو الموضع لا تصل إليه أشعة الشمس . ويعبر بالظل من العزة والمنعة . وعن الأمن والعلمانية ، وعن الراحة والدمعة ، والرعاية والتنمى ، وقصارة العيش ، وسعادة الحياة . قال الله تبارك وتعالى فى القرآن المجيد : «سَكَنُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ» ، تجرى من تحتها الأنهار ، أكلُها دائم وظلُّها « الآية رقم ٣٥ من سورة الرعد . وغير زائل : غير ذاهب : أى دائم خالده ، لا يتغير زوال ، أو تحول ، أو انتقال ، أو نقص ، أو اضطلال .

والمنى : أن هؤلاء الأبطال الكرام الذين أفنتهم الحروب الطاحنة - قد بلغوا مرادهم فى حياتهم الدنيا ، وحققوا ما قد رُمى تحقيقه من آمالهم وطلابهم الكبيرة ، وظفروا بخلود الذكر ، وحسن الثناء ، فلما ماتوا انتقلوا - برحمة الله - وصالح أعمالهم - إلى جنات لم فيها نعيم مقيم .

تعليل وجيز

فظم الشاعر هذه القصيدة متوخياً طريقة العرب ، سالكا سبيلهم ، متشبهاً بهم ، ناسجاً على منوالهم ؛ ولا ريب أنه اتقن التشبيه والتمثيل ، وأجاد التعبير والتصوير ، وعرض علينا صوراً حية قوية من حياة العرب فى باديتهم ، فى ستة أبيات الأولى من هذه اللامية ارتدى ثياب القداى من شعراتهم ؛ فوقف =

وَقَالَ يَرُوضُ * الْقَوْلَ فِي بَعْضِ الْأَسَالِيبِ ** :

رَدَّ الصَّبَا بَعْدَ شَيْبِ اللَّمَّةِ الْفَزْلُ وَرَاحَ بِالْجِدِّ مَا يَأْتِي بِهِ الْهَزْلُ^(١)

سبب الأطلال وروم الديار عيباً ، واصفاً ، باكياً ، متحسراً هل ما كان له في تلك الديار من طو ومرح ، وحس وفرام .

وفي ثلاثة عشر بيتاً بعدها شبيب محبوبته التي تعلق بها ، وتطلعت* بنى طقولتهما ، وئوه بعفاف جبهما ، وتمنى لو بقي ذلك العهد الذي ذهبت به صروف الدهر ، وتقلبات الأيام .

واشد اندماجه في البيئة العربية ؛ فانتقل من التشبيب إلى بكاء القبائل التي أفتتها الحروب . ووصف أثر هذه الكوارث في نفسه ، ورث الأبطال الخالدين من رجال تلك القبائل ، وتجدد أعمالهم ، وشغل صالحاتهم في ثلاثة عشر بيتاً ، ختامها يدل على إيمانه بيوم الدين ، ودار الجزاء .

وفي هذه الأثناء جتّج - في نطاق ضيق محدود - للفخر بنفسه ، ووصف غيل المقاتلين ، والابتهام بما عهده من رايات القتال ، وما قاده من غارات القريشان ، وما عاشه معهم من المالح واليقائع .

• يروض القول : يعالج الشعر ، ويأزوله ، ويماوجه ، ويمرن نفسه عليه ؛ مستعار من راض الإنسان المهر (من باب قال) : أي ذلّه ، وطوّعه ، وطّسه السير ؛ ومن كلامهم : « راض الشاعر القوافي الصعبة ، فارتقنشت* له : أي افتقادت ، وانطاعت له ، وسهلت عليه .

• الأساليب : جمع أسلوب (بوزن عصفور) : وهو هنا : المذهب . وأساليب الكلام : مذهبها ، وفنونه ، وأنواعه .

وإشاعر في هذه القصيدة الطويلة سلك مسلك النحل من قداى الشمرأ ؛ فأثر جزلة اللفظ ، وقوته ، وصلابته ؛ وحكامهم في أفراضهم ، وسمانهم ، وأغليتهم ؛ إذ افتتح قصيدته بالفزل ، ثم افتخر بإقدامه وشجاعته في الحروب ، ووصف جواده وسيفه ، ثم وصف يوماً من أيام الطرد والصيد ، ثم أورد أبياتاً في الحكمة ، ثم ختم القصيدة مفتخراً بأدبه وشعره ؛ كل هذا في ديباجة عربية نقية ، وفي تشبه تام بمن نهج نهجهم ، وضرب على خرايم ، وراض قوله بأساليبهم ، وفي تمثيل وتصوير وثيق الاتصال بالبيئة العربية البدوية ، ويجري على السليقة والسليقة النفاضة المتعققة .

(١) رد الْفَزْلُ الصَّبَا : رجعه ، وأعادته إلى الشاعر ؛ فالفزل فاعل « رد » . والصبا مفعوله ؛ وهو الصغر ، والحداثة ؛ ويراد به هنا : الفتوة والشباب . واللمة (بوزن القِمة) : الشعر الذي يجاوز شحمة الأذن ؛ ويراد به هنا : شعر الرأس كله . وشيبه : بياضه . والفزل : مصدر فزل الرجل بالمرأة (من باب فرح) : أي حادتها ، وتوود إليها ، ولما معها ، وأفاض بذكرها ، وتقى بحساسنها ومفاتنها . وراح به : =

وَعَادَ مَا كَانَ مِنْ صَبْرِ إِلَى جَزَعٍ . بَعَدَ الْإِبَاءُ ؛ وَأَيَّامُ الْفَتَى دُولُهُ

= ذهب به ، وأبعد ، وقضى عليه ، وأزاله ، وأقصاه . وفاعله كلمة « ما » : وهي اسم موصوف بمضى الذى : أى راج الحزن وملابساته بالجلد وملابساته . وأجلد (بفتح الجيم ، وتشديد الدال) : مصدر جلد فى كلامه (من باب ضرب) : ضد هزل ؛ والاسم منه الجلد (بكسر الجيم) . وملابسات الجلد : الصرامة ، والإزاقة ، والوقار ، والحلم ، ونحوه . وهزل فى كلامه (من باب ضرب وفرح) : مزح : وهو ضد الجلد . وملابسات الحزن ، وما يأتى به ، ويتنبه : الخفة ، والمرح ، والعلش ، والدعابة ، والمزاح ، وما إليه . والصلة بين شطرى هذا البيت : أن الجلد والإزاقة والوقار والحلم والمثل والأناة ونحوها من ملابسات الشباب ودواحيه وتناجيه فى الكثير الثقال ؛ والمرح والمزاح والخفة والعلش والدعابة ونحوها فإنها من ملابسات الشباب ودواحيه وتناجيه فى الكثير الثقال ؛ والفزل كذلك يؤتم الشباب ، وتهشاكله ، ويسايره ، ويحاربه ، ولا يكاد يؤتم الشباب ، أو يناسبه ، أو يليق به ، أو يحسن فيه .

والمنى : أن غزله ، وعيشه ، ورفوه قد رده إلى عهد الصبا والفتاء ، وفزوات الشباب وبيجالته ، بعد أن وهن العظم منه ، واشتعل الرأس شيباً ؛ وأن ما يصدر منه اليوم من ضروب الحزن والمزاح والمجاعة قد جرده من الجلد والوقار والإزاقة ؛ وحرره ما يليق بمثله ، فى جلال مشييه ، وتقدم سنه ، ورجحان عقله .

(٢) عاد الأمر كذا : صار إليه ؛ كما يقال : عاد الماء ثلجاً ، وعاد فلان شيخاً ، ومثله عاد الصبر جزماً . والجزع : أشد الحزن ، أو هو حزن يصرف الإنسان عما هو بصدد ، ويقطعه عنه ، (وفعله من باب تعب) ، وفيقضىه الصبر . والإباء : الامتناع ، والاستصحاء : مصدر أى الشيء عل ؛ أى امتنع ، واستعصى . وأبيت الشيء : حيفته ، وكبرته ، ولم أرضه . وأبيت : استنكفت منه ، وترفعت عنه ، والدول : جمع دولة (بفتح فسكون) : مصدر دال الزمان : أى دار ، وانقلب من حال إلى حال . أو هو جمع دولة : بمعنى الشيء المتداول الذى يكون مرة هذا ، ومرة لذلك . والدهر دُول : أى لاثبات له ، ولا استقرار فيه . وأيام الفتى دُول : أى تسالطه أحياناً ، وتصاربه أحياناً ، وهكذا تيارسه وتعاشره ، وتصالحه وتخاصمه ، وتغلب عليه ، وتعرض عنه ، فرة له ، ومرة عليه ؛ لأن فى طبعها التحول والتقلب . وهو تذييل جار مجرى المثل . ويراد بالفتى هنا : الإنسان مطلقاً ، فى كل أطوار حياته ، ومراسل سنه وحرره .

يقول : إنه كان سيمد أن تستعمله الشيب ، وتقدمت به السن صبراً ، لا يستجيب لدواحي الشباب ، ولا يحجزه ما فات من متعه وملاحيه ؛ فلما عاد إلى الفزل والظهر والمجاعة - انقلب صبره جزماً بعد طول التأنى ، والتخرج ، والتمتع . ويراد بالجزع هنا : ما يمتوره ، أو يساوره أحياناً من الحزن ، والأسى ، وانقباض النفس ، كلما استيقظ بعد انام ، وقطن لما غرق فيه من الحزن والبسبب والمجون ، ولم أن هذا كله لا يليق بشيئته وتقدم سنه ، ورجحان عقله .

وقد يكون المنى : أنه كان فى مشييه جاداً عازفاً عن اللهو ، صابراً على حياة الجلد والصرامة ؛ فلما

فَلْيَصْرِفِ اللّوَمَ عَنِّي مَنْ بَرِمْتُ بِهِ فَلَيْسَ لِلْقَلْبِ فِي غَيْرِ الْهَوَى شُغْلٌ^(٣)
وَكَيْفَ أَتِيكَ نَفْسِي بَعْدَ مَا ذَهَبَتْ يَوْمَ الْفِرَاقِ شَعَاعًا إِثْرَ مَنْ رَحَلُوا^(٤)
تَقَسَّمَتْنِي النَّوَى مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَعَدَّتْ عَنْهُمْ عَوَادٍ ، فَلَا كُتْبَ ، وَلَا رُسُلَ^(٥)
فَالصَّبْرُ مُنْخِلٌ ، وَاللَّمْعُ مُنْهَلٌ وَالْقَلُّ مُخْتَلٌ ، وَالْقَلْبُ مُشْتَغِلٌ^(٦)

— أنساء الغزل والمزل تلك الحياة ، وأعادته إلى شبابه وصباه — استشعر الجزع : أي التفسر والقلق ، عطفًا من ذهاب هذه المصمة العاطفة ، وفوات هذه اللذة المستحقة ؛ لعلبه أن الأيام من شأنها تتحول والتقلب ؛ ويلاحظ أن هذا البيت وثيق الاتصال بالبيت الذي قبله .

(٣) صرفه : ذنبه ، وردّه . والقوم : الملل . وبرم به (من باب تعب) : ستمه ، ومله . وتفسر منه ، وضاق صدره به . والهوى : الحب ، والمشق . وشغل (يوزن مُشَقٌّ ، وسبب) : شد الفراغ . وشغل عنه بكذا (عل ما لم يُسَم فاعله) : أي اشتغل ، وتعلق به ، وتلهى ، وانصرف إليه ، وأهمك فيه ، وترك ما عداه .

والمنى : أن الحب شغل قلبه ، واستأثر به ، وصرفه عما عداه ؛ فإذا عدله عاذل تبرّم به ، وضجّر منه ، وضاق بالملل ذرعًا ، وأصره بالكف عنه .

(٤) الاستفهام في أول هذا البيت : معناه التني ؛ فالشاعر لا يملك نفسه بعد ارتحال أحبابه . وذهبت نفسه شعاعًا : تمزقت ، وتبددت من الألم ونحوه . أو تفرقت جميعها وآراؤها ؛ فلا تنجى لأمر جزم وذهب في إثّره ، وذهب إثره : ذهب في حقيقه ، بلا توان ، أو تراخ . ورحلوا : ارتحلوا ، وساروا ، وانتقلوا ، وبشروا .

يقول : لما فارقته أحبابي ، افترق شمل ، وتمزق من الوجد قلبه ، وذهبت نفسه عليهم حشرات .
(٥) الكوى : البُعد ، وهي مؤنثة ؛ ويريد بها : بعد أحبابه ، وارتحالهم عنه . وتقسمتني النوى : فرقت شمل ، وشئت خواطرى . وعداه عن الأمر (كدعاه) : صرفه عنه ، وشغله . والموادى : جمع العادية ؛ وهي الشغل يصرفك عن الشيء . وعوادي الدهر : عوائقه ، وقوائمه . والكُتْب : جمع كتاب ؛ وهو الرسالة . والرسل : جمع الرسل ، أو الرسل ؛ بمعنى الرسالة . أو من ترسله إلى غيره . و « تقسمتني النوى من بعدهم » : شبه تكرار لمحي البيت السابق ؛ فعل إثر رحيلهم يرح به الوليد واليه ، وتقسّمته الموم والأوصاب .

يشكر فرقة هؤلاء الأحباب ، ويُبْدم عنه ؛ فالفرقة والبُعد شغلا باله ، ومزقًا شمله ، وشئت خواطره ؛ وحالت بينه وبينهم الموادى والموائى ؛ فانبثت الصلوات ، وتطلعت الأسباب .

(٦) منخل : ضئيف . ومنهل : منصب غزير . ومختل (بصفة اسم المفعول ، أو صيغة

أَرْتَاحُ إِنْ مَرَّ مِنْ تَلْقَائِهِمْ نَسَمٌ تَسْرِي بِهِ فِي أَرْبَعِ الْعُتْبَرِ الْأَصْلُ^(٧)
مَارُوا، فَمَا اتَّخَذَتْ عَيْنِي بِهِمْ بَدَلًا إِلَّا الْخَيَالَ، وَحَسْبِيَ ذَلِكَ الْبَدَلُ^(٨)

حاسم الفاعل : مضطرب ، فاسد . ومشتغل : مشغول ، مهموم . وفي البيت حسنٌ يديهي لفظي ،
يسمونه السجع المطرف ؟ ومن أمثله قول أبي تمام في المديح :

تَجَلَّى بِهِ رَشْدِي ، وَأَثَرْتُ بِهِ يَدِي وَفَاضَ بِهِ تَمْدِي ، وَأُورَى بِهِ زَمْدِي

يشير إلى ما يكابده ويفضائه بعد فرقة أحبائه من قلة الصبر ، وضف التجلد ، وفضة الجزع ،
وكثرة اليكاه ، واختبال العقل ، واضطراب الفكر ، واشتغال القلب بمسورة الموم ، ومغالبة
الأحزان .

(٧) ارتاح الأمر : سرَّ به ، ونشط . ومن تلقائهم : من تلقاء أحبائه : أي من جهة . ونَسَمَ الريح :
أرطأ حين تُقْبَلُ بِلِينٍ ، قبل أن تشتد . وتسري به : أي تسري بالنسم : أي تحركه ، وتسير ، وتدفقه . وفاعله
« الأصل » : جمع أصيل : وهو الوقت بعد العصر إلى المغرب . أو هو الوقت حين تصفر الشمس لمغيبها .
وفيه تَسَمَ الريح لطيفة لينة طيبة . وفي أربيع المنبر : في مثل أربيع المنبر : أي راحته الفائقة ، المتوخية ،
الطيبة ، الذكية ، العطرة . والمنبر : نوع من الطيور التي يُحْتَبَط بها لحسن رائحتها . أو هامة صلبة ،
لا طعم لها ، ولا ريح إلا إذا سُحِقت ، أو أحرقت . ويقال : إنه رَوَّث دابة بحرية .

يقول : إنه يسرَّ وينشط ، وتطيب نفسه ، ويهدأ باله ، ويستعشر الانتراح والانتراح إذا مر به من
جهة أحبائه ، وقت الأصل - نسَمَ لطيف ، لين هادئ ، طيب صَطر .

ربط التسم المطر بأحبابه ؛ لأن مثله لا يستقبل من تلقائهم غير هذا النسم ، ولا يتلقاه إلا بالانتراح .
واختار وقت الأصل ؛ لأنه غير الأوقات في مثل هذا المقام . والبيت كله أسلوب لطيف من أساليب
الفرزل .

(٨) البذل من الشيء : الخلف ، والعروض . والخيال : الخلف . وما تشبه لك في القطة والمنام من
صورة . ويريد بأخيلة أحبائه : صورهم الحية في ذهنه . وحسبي . يكفيني ، وينبغي . واتخذت عبي
غياهم بهم بدلا : أي جعلت عيني غياهم غلظاً لهم ، وبدلاً منهم ، ومروءاً عنهم ؛ كما تقول : اتخذتُ
فلاناً خيلاً .

والمنى : ارتحل أحبائه ، وغابت عنه أشخاصهم ، وفترقت الذرى بينه وبينهم ، واستصحب عليه لقاءهم ؛
فلم يسه إلا أن يفتن برؤية أعينهم ، ومناجاة أليفهم ، ويبقى حل الدوام حافئاً لهمهم ، مقبلاً على
ودهم ، يتغلبهم أثناء الليل ، وأطراف النهار ، ولا يرى بعد غياهم غير صورهم ، ولا يشتغل قلبه بسواهم ،
ولا تصرفهم عنهم عواذي الدهر ، وعواظق الزمان .

فَخَلَّ عَنْكَ مَلَأِي يَا عَذُولُ ؛ فَقَدْ مَرَّتْ فَوَادِي عَلَى ضَعْفٍ بِإِلْعَالٍ^(٩)
 لَا تَحْسِبَنَّ الْهَوَى سَهْلًا ؛ فَأَيَّسَرُهُ خَطْبُ لَعْمَرِكَ لَوْ مِيزَتْهُ - جَلَلٌ^(١٠)
 يَسْتَنْزِلُ الْمَلِكُ مِنْ أَعْلَى مَنَابِرِهِ وَيَسْتَوِي عِنْدَهُ الرَّعْدُ الْبَطْلُ^(١١)

(٩) خلّ عنك ملأى : لا تلتفت . خلّى الأمر عنه تخلياً : تركه . وعذول : صيغة مبالغة من الملل : وهو اللوم . وسره (من باب رد) : ملنه في سرته : أى في وسط بطنه . والمراد هنا : مطلق العطن والإصابة . وسره سروراً : أفرجه . و « فوادي » مفعوله . و « الملل » فاعله : جمع علة : وهى المرض الشاغل ؛ ويراد بالملل هنا : أوصاب الحب ، وفتاريج الشوق ، ومرارة الفراق .

يقول : إن قلبه - على رفته ، وضعف احتماله - قد أصابته أوصاب الهوى والفراق ، وأضنته فتاريج العصابة والشوق ، وبرتحت به مرارة التوى والفراق . أو أنه يجد في هذا كله المصيبة والمثمة ، والافتقار والسرور . ومعنى هذا : أن المشق دخله وقيّمه ، والوجد مله وعبئده ، وحال بينه وبين الاستراح لعلل المازل ، والإنصبات لوم اللأم^(١٢) . وقد أعلن في البيت الثالث تبرمه به ، وضجره منه ؛ فالعلل لخله عقيم ، لا ينتج ، ولا يفضى ؛ بل يضايقه ويمارسه ، ويضايف أوصابه ومناجه .

(١٠) لا تحسبن : لا تظنن . والهوى : الحب ، والمشق : والفراق . وأيسه : أيسر الهوى : أى أسهله ، وأهونه ، وأقله . والخطب : الأمر الشديد ، والنازلة الفادحة ، وجمعه خطوب . وجلل : عظيم ؛ وهو نعت لـ « خطب » . و « لعمرك لو ميزته » : كلام معترض بين التمت ومنعوتيه . و « لعمرك » : قسم بحياة الخطاب ؛ وهم يرفعونه بالابتداء ؛ ويفسرون الخبر ؛ والتقدير : لعمرك قسمي ، أو يحيني ، أو ما أحلف به . واللأم الداخلة على المبتدل هنا : لأم الابتداء ؛ وفائدتها تأكيد مضمون الجملة . ولو ميزته : لو عرفته ، وفطنت له ، وأدركت حقيقته .

يقول لكل مخاطب ، وبخاصة المازل اللأم : إن المشق صعب المراس ، مستعص على العلاج ؛ يزيده اللوم ويضاعفه ، ويؤذي كماله ويؤيجه ؛ ولو عرفته ، وأدركت حقيقته ، أو وفقت على شيء من كنهه وسره ، لعلمت أنه - في أيسر حالاته ، وأقل مراتبه - خطب جلل ، وأمر شديد ؛ يذهل العاشق ويضنيه ، ويذهب إليه ويقيمه .

(١١) يستنزه : يُستزله ، ويحمله . وفاعله ضمير « الهوى » في البيت السابق . والمناير : جمع منبر (بوزن منجل ومنجل) : وهو سرقاة يرتقيها الخطيب ، أو الواعظ ؛ ليخاطب من فوقها جموع المستمعين ؛ ويراد بمناير الملك هنا : مرقته المالية ؛ ومنزلته الرفيعة ، ووقاره المهيب ، وحسنه الحصين . =

فَكَيْفَ أَذْرَأُ عَنْ نَفْسِي وَقَدْ عَلِمْتُ أَنْ لَيْسَ لِي بِمَنَاوَةِ الْهَوَى قَبْلُ ١١٧٩
فَلَوْ قَدَرْتُ عَلَى شَيْءٍ هَمَمْتُ بِهِ فِي الْحُبِّ، لَكِنَّ قَضَاءَ خَطَةِ الْأَرْزَلِ ١١٨٠

= واستوى الشيطان : تساوى ، وتماثلا ، وتشابها . وعنده : عند الهوى : أى أمامه ، وفى حضرته ، وثقت إمرته وسلطانه . والرمعيد : الجبان يشتد به الجبن ؛ فيكثر ارتعاده ، واضطرابه ، وارتعاشه . وصدّه البطل : وهو الجريح الشجاع المقدم ، وجمعه أبطال .

ولمضى : أن سلطان الحب قاهر غلاب ، يستعبد الملوك والسوقة ، ولا تصمد أمامه البطولة والشجاعة ؛ فالبطل الشجاع كالرمعيد الجبان ؛ يتساوىان تحت سيطرة الحب وسلطوته .

(١٢) الاستهزام فى أول البيت : معناه التنى . وذرأه (كنبه) : دفعه ، وصدّه . وناراه مناواة : عاده ، وقاومه ، وفافضه ، وأصله الهمز . وقبكل (يوزن غب) : طاقة ، ومقدرة . وفى القرآن الكريم : «فلنأتينهم بمجد لا قبكل لهم بها» الآية رقم ٣٧ من سورة النمل : أى لا طاقة لهم بها ، ولا قدرة لهم على مقاربتها .

فى البيت السابق أشار إلى خسامة سلطان الهوى ، وسيطرته على الملوك والسوقة ، والأبطال والرماعيد . وفى هذا البيت شبه اعتذار ، واحتجاج لنفسه ، وقطع لما قد يأمله الماذلون من سلوكه ؛ فكيف يدرأ عن نفسه ذلك السلطان القاهر ، وهو يعلم أن لا طاقة له به ، ولا قدرة له عليه ، ولا مناصر منه ؟

(١٣) قدر على الشئ (كفرب ، وعلم ، ونصر) . وهم به (من باب رد) : أرادته ، وقصدته ، وعزم على القيام به ، ولكنه لم يفعله . و «فى الحب» متعلق بمحذوف ، صفة لشيء . وجسلة همت به «جواب «لو» : أى فلو قويت على شئ استطاع فى أمر الحب» ، ينفذه ، أو يصدّه ، أو يصرفه ، أو يحذره - همتت به . وبمعنى هذا : أنه لم يقدر ، ولم يهمل . والتعبير «همت» هنا يشعر بضعف هذا الحب أمام سلطان الحب وسلطوته ؛ فلو فرض أنه أوفى القوة ، والمقدرة على مقاومة هذا السلطان ومكافحته ، لم يجرؤ على المقاومة نفسها ، ولم يتجاوز نطاق الحمى ؛ وهو الإرادة ، أو الرغبة المخبرة من الإقدام والسلم والتنفيذ . ولكن قضاء : أى ولكن الحب قضاء : أى حكم فاصل ، لا مرد له ، ولا استثناء . وخطته : كنبه ، وصدّه ، وقضى به . والأزل : القديم ، ويراد بالقضاء الذى خطه الأزل : أنه قضاء أزلي متعرق فى القدم ، لا سبيل إلى نقضه ، أو رده ، أو الفرار منه .

ولمضى : أن الحب من الأمور المقدرة المقضية التى لا معنى عنها ، ولا مغر منها ؛ وقد كتب عليه قبل أن يوجد ، ولو استطاع أن يتخلص منه ، أو يجتره على حسب مشيئته - لنعل ؛ ولكن هيات . ويلاحظ أن الشاعر عبثى عناية ظاهرة فى البيت الثالث ، ثم فى الأبيات (٩-١٤) ملاحاة عاذليه ، والاحتجاج لنفسه ، وتأكيد عجزه عن مغالبة الهوى ؛ ليستيسر ما منه ، وينصرفوا عنه .

وَلِلْمَجْبَةِ قَبْلِي سُنَّةٌ سَلَفَتْ فِي الذَّاهِبِينَ، وَلِي فِيهِمْ مَقْصِدٌ مَثَلُ (١٤)
فَإِنْ تَكُنْ نَازِعَتِي النَّفْسَ بِاطِلْهَا وَأَطْلَعْتَنِي عَلَى أَسْرَارِهَا الْكِلَالِ (١٥)
فَقَدْ أَسِيرُ أَمَامَ الْقَوْمِ ضَاحِيَةً وَالْجَوُّ بِالْبَازِرَاتِ الْبَيْضِ مُشْتَعِلُ (١٦)

(١٤) سُنَّةٌ : مذهب ، وطريقة ، وسيرة . سَلَفَتْ : مضت ، وتقدمت ؛ وفاعله ضمير « سُنَّةٌ » ، والجملة صفة لها : أى والحب قبل سُنَّة سالفة في الذاهبين : أى الماضين من الناس في سالف الزمان . والمثل (بوزن سيب) : المثل (يكسر فسكون) ، والشبَّه ، والتظير ؛ و « فيهم » متعلق بمثل : أى ولي مثل فيهم مقصود .

والمعنى : أن الحب شيء يعرفه الناس من قديم الزمان ؛ وله فيهم سُنَّة ثابتة ، وصفات متميزة ، وطريقة مرسومة ، وخصائص واضحة ، وآثار غريبة وظاهرة ، وسيرة لا تتخلف ؛ والشاعر أشبه ونظراء من المحبين العاشقين في الذاهبين الأوكرين ؛ يسلك مسلكهم ، ويمر على سنهم . والفرض من مثل هذا البيت محاروة إقناع الماذلين ، والإحتجاج لنفسه ، وتخفيف حركات العذل ؛ وهو ختام سبعة أبيات دارت كلها حول هذا الموضوع .

(١٥) جواب « إن » الشرطية في البيت الآتي : « فَإِنْ تَكُنْ نَازِعَتِي النَّفْسَ بِاطِلْهَا فَقَدْ أَسِيرُ .. » ونازعتي النفس باطلها : عاقلتي نفسي ذلك الباطل : أى ناولتي لِيَاء : والمراد أنها مهدت لي سبيله ، وسوكتني لي ، وأغرقتني به ، وأوقعتني فيه . أو هو من قولهم : نازعته القلوب : أى جاذبته لِيَاء : والمراد أني شاركتها في الباطل ، وشاركتني فيه . ويراد بالبطل هنا : اللهو ، والحب ، والفنل . والكيلل : جمع كيلفة (بوزن علة وطلل) : يعنى هنا ثوب رقيق ، يحاط كالبيت ، تستتر فيه المرأة ؛ وإطلاق الكليل لِيَاء على أسرارها : كناية عن إحاطته بشئون الحسان المحجبات ، وقوفه على أسرارهن ، وظهوره على أنفى المكتوم من أمورهن . وصلة الشطر الثاني بالشطر الأول : أن اطلاعاً على أسرار الغائبات من الأبطال التي أوقعتني فيها نفسه . وصلة هذا البيت بالبيت السابقة كلها : أن ما رده الشاعر فيها من الفنل وملاحاة الماذلين ضرب من ضروب الباطل الذي نازعته نفسه لِيَاء . وصلته بالبيت الذي بعده : أن الشاعر جمع في حياته بين الفنل والحب ، واللهو والعصاة ، والحب والفنل .

جعل الشاعر هذا البيت تمهيداً لانتقاله من اللهو والفنل ، والحب والفنل إلى الفخر . بشجاعته ويطولته الحربية ، والانهاء بشيرة أمام المحاربين يقوم ، ويتقدم صفوفهم .

(١٦) « فقد أسير .. » : جواب « إن » الشرطية في البيت السابق . ويريد بالقوم : جماعة المحاربين . وضاحية : علانية ، جهاراً . والحو : القضاء بين السماء والأرض . وجو : كل شيء : يعطيه ، =

بِكَلِّ أَشْقَرَ قَدْ زَانَتْ قَوَائِمَهُ حُجُولُهُ غَيْرَ يُعْنَى زَانَهَا الْعَطْلُ^(١٧)
كَأَنَّهُ خَاضَ نَهْرَ الصُّبْحِ ، فَأَنْتَبَهَتْ يُنْمَاهُ ، وَأَنْبَتْ فِي أَعْطَافِهِ الطُّغْلُ^(١٨)

= ودخله . ويراد به هنا : جوّ الحرب ، وصاحة اللقي ، ويدان القتال . والبارتات : جمع بائر : وهو السيف القاطع . والبيض : جمع أبيض : وهو السيف . ومشتعل : ملتهب ، مشتد ، مضطرب . وهو هنا من مجاز اللغة ؛ فبريق السيوف ، ولعابها ، واضطراب حركاتها في جوّ القتال يشبه اشتعال النيران وتوقدها . والراو في أول الشطر الثاني : واو الحال ، والحلة الاسمية بمدحها حالية ، وصاحب الحال فاعل « أسير » ، والبارتات متعلق بمشتعل .

ومعنى هذا البيت والى قبله : أنه إذا كان يتقاد للهوى ، ويمرّ مع الدهر أحياناً ، ويفازل الغانيات من ربّات الحجال - فإنه إذا جدّ الجِدّ ، وانتقدت الحرب ، وحسّ الرطيس ، قدّم المحاربين ، وقاد المقاتلين ، وبرز لأعدائه في جراءة وشجاعة وإقدام ؛ وفي غير مبالاة ، أو تردد ، أو اكتراث . وفي عشرة الأبيات الآتية يصف للشاعر جواده .

(١٧) بكَلِّ أَشْقَرَ : بكَلِّ فارس أو جواد أشقر ، وهو متعلّق بالفعل « أسير » في البيت السابق . وأشقر : صفة من الشُّعْرَة : وهي في الخيل : حمرة صافية ، يحمرّ معها العُرف والذَنَب . والحرب تقول : « أكرم الخيل ، وذوات الخير منها شُعرها » . وقوائمه : يداها ، وربلاها ، الواحدة قائمة ، وهو مفعول به لفعل « زان » . وفاعله « حجوله » : جمع حجل (بكسر فسكون أو يفتح فسكون) : وهو اللياس في قائمة الفرس ، يكون في موضع القيد منها ؛ وفي مثل الموضع الذي يكون فيه حجل المرأة : وهو الخلخال الذي تزين به رجلها . وفرس محجل : قوائمه حجوله . وزانت حجوله قوائمه : جعلتها ، وحسنتها . وغير معنى : غير قائمة معنى . والهيل هنا : خلاف التحجيل . يقال : عطلت المرأة (من باب فرح) ؛ إذا لم يكن عليها حلّ . والمراد أن معنى هذا الجواد غلبت من التحجيل . يقول : إنه يتقدّم قومه محارباً بكَلِّ جواد أشقر ، ازدهانت ثلاث من قوائمه بالتحجيل ، وعكست منه الزاينة ، وهي رجله اليمنى ؛ فزانتها هذا الخلو ، وحسنتها ، وجمّلها .

(١٨) كأنه : كأن هذا الجواد الأشقر . وخاض الماء : دخله ، ومشى فيه . ونهر الصبح : الصبح الشبيه بالنهر . وانتبهت : اعتزلت . وتنمّت . يريد أنه خاض نهر الصبح بثلاث من قوائمه ؛ أما الزاينة ، وهي اليمنى ، فإنها انتبهت من هذا النهر : أي ابتعدت عنه ، ولم تخضه . وانبت : تفرّق ، وانتشر . وأعطاه : جواربه : جمع عطف (بكسر فسكون) ؛ ويراد بأعطاه : جسمه . وطغّل النداء : ألقت بمعدّ طلوع الشمس . وطغّل المشى : قُجِّلَ فروعها ، حين اختلاط أول الليل بآخر النهار . وشكّل ، أو قريب منه الشفق : وهو بقية ضوء الشمس ، وحمرتها في أول الليل . وهذا البيت تكرر لمعنى البيت السابق ؛ فالجواد مُحَجَّلٌ في ثلاث من قوائمه ، وبياض تحجيله كبياض ضوء الصبح ؛ وشُعْرَةُ أعطاه وجسمه كعمرة الشفق .

زُرُقٌ حَوَافِرُهُ ، سُودٌ نَوَاطِرُهُ خُضِرُ جَحَافِلُهُ ، فِي خَلْقِهِ مِثْلُ (١٧)
كَانَ فِي خَلْقِهِ نَاقُوسٌ رَاهِبِيَّةٌ بَاتَتْ تُحَرِّكُهُ ، أَوْ رَاعِدٌ زَجِلُ (٢٠)
يَمُرُّ بِالْوَحْشِ صَرَغِي فِي مَكَامِنِهَا فَمَا تَبَيَّنَ لَهُ شِدَا ، فَتَنَحَّلِلُ (٢١)

(١٩) زرق : جميع أزرق : صفة من الزرقعة . والحوافر : جميع الحافر : وهو للنايكة كالقدم للإنسان . وسود : جميع سوداء . والنواطير : جميع فاطرة : وهي العين . وخضر : جميع خضراء : صفة من الخضرة : وهي في ألوان الخيل والإبل : غيرة تغالطها دُخْمَةٌ : أي سود . والجحافل : جميع جحشفة (بوزن كركبة) : وهي لدوات الحافر من الخيل والبغال والحمير . كالثقة من الإنسان . وفي خلقه : في خلقته : أي في فطرته التي فطر عليها . والميل : مصدر مِيلَ (من باب فرج) : أي كان مائلاً خَلْقَةً ، فهو أَسِيلٌ ، وهي مَيْلَةٌ ؛ ويراد بالميل هنا : ما يُحَرِّفُ في الصفات الجهاد ، ونجائب الخيل من التبختر ، والتمائل ، والتشتت ، وحسن المشية .

استوحب الشاعر في هذا البيت وصف حوافر جواده ، وعينه ، وبسجلتيه - بالزرقعة ، والسود ، والخضرة حل الترتيب ؛ وهي الألوان المروفة في نجائب الخيل وبيادها . ثم أشار إلى بعض محاسن الخليفة الوراثة المتأصلة فيه ، كالميل : أي التبختر ، وجمال المشية ، والمروعة ، وحسن التخي .

(٢٠) في خلقه : في خلق جواده الأشقر . والناقوس : جرس كبير ، يفر به النصارى في كنائسهم لإنذاراً بحلول وقت صلاتهم . والراهبة : مؤنث الراهب من رُهبان النصارى : وهو من اعتزل الناس ، وتفرغ للعبادة في دَيْرٍ أو صومعة . وبات يفعل كذا : أي فَعَلَهُ لَيْلاً . وباتت هنا : بمعنى صارت ، أو جعلت . والجملة نعمت لراهبة . وجملة «تحركه» : خبر «بات» الناقصة . أو : حال من فاعل «بات» التامة : وهو ضمير الراهبة . و «راعه» : خبر لمبتدأ محذوف . والتقدير : أو هو : أي الجواد الأشقر راعد : أي صاوت كصوت الرعد . أو التقدير : في حكمة راعد : أي صاحب راعد . وزجِل : صائح صاعب : صفة من زجل (من باب فرج) : أي رفع صوته ، وأجَلَبَ .

والبيت في وصف صهيل ذلك الفرس بالقوة والشدة ؛ فهو كصوت أجراس الأديرة والكنائس ، أو صوت السحاب الرعد الزاجل .

(٢١) الوحش : ما لا يتأمن من دواب البر وحيوانه ؛ يذكر ، ويؤنث ، واحدها وحشي ، والجمع وحشٌ . وصَرَغِي : حال من الوحش : أي ملقاة حل الأرض : جميع صريع : فصيل بمعنى مفول . ومكائنها : غلابها : جمع مكن (بوزن ملهب) : اسم مكان من كن (كعد) : أي توارى ، وتستر ، واستخفى . وتبين : تكشف ، وتعرف ؛ مضارع «بان» المتعدي ، وفاعله ضمير الوحش ، ومفعوله «شدا» : أي عدوا ، وجرياً ، وركضاً : مصدر شدّ الفرس =

يَرَى الْإِشَارَةَ فِي وَحْيٍ ؛ فَيَفْهَمُهَا وَيَسْمَعُ الزَّجْرَ مِنْ بَعْدٍ ؛ فَيَمْتَثِلُ (٢١)
لَا يَمْلِكُ النَّظْرَةَ الْعَجَلَاءُ صَاحِبِهَا حَتَّى تَمُرَّ بِعُطْفَيْهِ فَتَحْبِلُ (٢٢)

= وغيره : أى هذا ، وركض ، وأحضر ، وجرى . وله : للفرس . ويتخلل : تفسف ، وتهاور ، وتسقط على الأرض مغلوبة مأخوذة ، أو تهزم ، ويحاول الفرار والنجاة ؛ وهو فى الأصل مطاوع « عطله » : أى تَحَكَّى عن عونه وفصرته .

والحق : أن هذا الفرس يمرّ بالوحوش وهو مخفية فى مكانها آمنة مطمئنة ، لا تخاف عدوًّا ؛ ولكنه يفاجئها ويهاجمها ، قبل أن تلمح ركضه ، أو تسمع به ؛ فلا تكاد تجد وسيلة للفرار منه ؛ ولذا تسقط بين يديه مغلوبة مأخوذة .

والفرس : وصفه بسرعة العدو ، والفرس بالصيد ، وإعانة راكبه عليه ، وتمكنه منه ؛ وقد غالى فى هذا المعنى ، كما غالى غيره من الشعراء ؛ فقال : إن الصيد ، أو الوحوش تصرع وتسقط فى أماكنها وهو يمرّ بها ، ويطوى إليها الأرض طياً ؛ وإنما سقطت ؛ لأنها لم تكد تستبين ركضه ، أو عدوه إليها ؛ ولو استبانته ، أو أحسّت به لفرت من وجهه ، وحاولت النجاة . وأبلغ من هذا قول امرئ القيس فى مطقته ، واصفاً جواده :

وقد أخذنى والطير فى وكنايتها بمشرد ، قيد الأوابد ، هيكل

مكر ، مقر ، مقبل ، مدبر محاً كجلود صخر حطه السيل من حل

(٢٢) يراد بالإشارة : إشارة صاحبه ، أو راكبه : مصدر أشار إليه ، وأشار بيده ، أو نحوها ؛ أى أوّماً إليه : مبيناً بالإيماء والإشارة عن معنى من الممانى التى يقصدها ، كالدهوة إلى الدخول ، أو الخروج ، أو الوقوف ، أو السير ، أو القفز والتخطئ . . . وفى وَحْيٍ : فى سرعة ، أو فى خفاء . والزجر : مصدر زجره (من باب نصر) : أى ستمه ، وكفّه ، ونهاه ، وانتهره ، وصاح به ، وأثاره ؛ أو حثّه ، وحمله على السرعة . ويمثل : يطبع ، ويتقاد .

يقول : إنه يرى الإشارة فى سرعة ، فيفهمها ، ويستجيب لها مهما خفيت ؛ ويسمع الزجر ، فيمتثل له ويحمله ؛ ويتقاد له ، ولو جاءه من مكان بعيد .

وصفه بقدرة الإحساس ، ودهاقة الحواس ، وقوة الإدراك ، وسرعة فهمه لإشارات صاحبه أو راكبه ولو خفيت ؛ وسرعة السمع والطاعة ، والانقياد له إذا اضطر إلى زجره فى بعض الأحيان ؛ وهذه كلها من صفات كرام الخيل وحيادها .

(٢٣) النظرة : المرة من النظر . بمعنى الإبصار . والمتمجلى (بوزن السكرى) : السريعة : صفة من العجلة ؛ أساً « المسجلا » (بالمد) ، فلا تعرف وجهها ؛ ولعلّ الشاعر لمح مذهب الكفّين الذين يميزون مدّ المقصور لضرورة وزن الشعر . وعطفاً : كل شئ ؛ جانبه ؛ ويراد يعطى الجواد : محاسن جسمه التى أشار الشاعر إلى بعضها فى الآيات السابقة . وفى جياذ الخيل =

إِنْ مَرَّ بِالْقَوْمِ حَلُّوا عَقْدَ حَبْوَتِهِمْ وَاسْتَشْرَفَتْ نَحْوَهُ الْأَكْبَابُ وَالْمُقَلُّ (٢٨)
تَقْوَدُهُ بِنْتُ حَمْسٍ، فَهَوَّ يَتَّبِعَهَا وَيَسْتَشْيِطُ إِذَا هَا هِيَ بِوِ الرَّجُلِ (٢٩)

محاسن تسترئ انتهاء المولى بها ، وتقبه أنظارهم . وتحتل (بالبناء السجول) : تصاد . احتل الصائد
الصيد : نصب له الحباله : وهي المصيدة ، لصاده بها . أو هي « تحتل » (بالبناء المعلوم) : أى
تقع في الحباله . وطاعله ، أو نائب فاعله ضمير النظرة السجل .

والمنى : أن الناظر إلى هذا الجواد لا يكاد يلقى عليه نظرة سريعة خاطفة ، حتى تمر بطلقه ، فتصيدها
محاسنها ، وسائر محاسن جسمه ؛ فلا يملك صاحب تلك النظرة استردادها ، بل يظل شامع البصر ،
رافياً إلى القوس في انجبار وإحجاب . والبيت الآق يوضح هذا المعنى ، ويمزجه ، ويؤكدّه .

(٢٨) فاعل « مر » : ضمير القوس ، أو الجواد الأشقر ، الموصوف في هذا البيت ، وسبعة
الأيام قبله ، والبيتين اللذين بعده . وصلّ المَعْقَدَة (من باب نصر) : فكفنا ، وتقبضها ، وقبضها .
والعقد : مصدر عقد الحبل ولحود (من باب ضرب) : أى جعل فيه عُقْدَةً . وعقد طريقه : وصل
أحدها بالآخر بمَعْقَدَة تمسكهما . والمَعْقَد : تقبض الحبل . والحيرة (يفتح الحاء وضمها) : الاسم
من الاحتباء : مصدر احتبى الإنسان بثوب ، أو حبل ، أو نحوها : أى أداره على ساقيه وظهروه ،
فجميع بينهما وهو جالس ، ليستند ؛ وذلك لأن الأعراب لم يكن لهم في باديتهم حيطان أو نحوها
يستندون إليها في مجالسهم ؛ فكان الرجل منهم يقيم ركبتيه في جلوسه ، ويمدح عليهما يديه ، أو يشدّهما
إلى ظهره بثوب أو نحوه ، فيسترخ في جلسته ، ويقوم له هذا مقام الاستناد . ويقال : حكّ فلان
حبوته : أى ما يحبّ به من ثوب وفيه : أى قام ونهض . وعقد حبوته : أى جلس ، أو قعد . ثم
كانوا يحمل الحيرة عن القيام للأمر ، والاهتمام به . واستشرفت : نظرت ، وطمعت ، وارتفعت .
وتطلعت . ونحوه : نحو الجواد : أى جهته . والألياب : العقول ، أو القلوب ، وأحدها لب .
والمقل : الميون ، وأحدها مقلة (بوزن غرة) .

في البيت السابق قال : إن النظرات السريعة العاجلة تتعلّق بمحاسن جواده ، وتحتسب فيها . وفي هذا
البيت أكّد هذا المعنى بقوله : إذا مرّ بقوم جالسين نهضوا من مجالسهم . فأقبلوا عليه ، والتجهوا إليه
بميوهم ، وطعهم ، وظهورهم مجبين ، متجرئين ، مغتويين .

(٢٩) تقوده : تحسّى أمامه آخلة بمقوده ، وهو يتبعها في يسر وانقياد . وبنت حمس : طفلة بنت
حمس سنوات ؛ يريد أنها جمعت بين نصف الطفولة ، ونصف الأنوثة . ويستشيط : المراد يشتدّ
نشاطه ، وتبدو قوته في أشدّ حالاتها ؛ من قولهم اشتدّ في الحرب : أى استقبل ، ولم يبال المهالك ، أو
يستشيط غضباً ، ويلهب غيظاً ، ويشدّ حياجه . وها هي به : دعاء وفاداة . أو زجره ، ونهره .

والمنى على الأصل : أنه كريم أصيل في السلم والحرب ؛ ففى السلم يتقاد لمن يقوده ولو كان أضغف =

أَفْنِي بِهِ الْهَوْنَ مَقْدَمًا ، وَيَصْحَبُنِي مَاضِي الْفَرَارِ إِذَا مَا اسْتَفْحَلَ الْوَهْلُ (٢٦)
يَمُرُّ بِالْهَامِ مَرَّ الْبَرْقِ فِي عَجَلٍ وَقَتِ الصَّرَابِ ، وَلَمْ يَتَلَقَّ بِهِ بَلَلٌ (٢٧)

مع الناس. وفي الحرب يستجيب لغاربه إذا حتمك به على الأعداء، فيستقل معه، ويستमित حتى يتركه النصر، ويهدد الهول. واليهت الاق يرجع هذا المعنى، ويمزجه.
والمنى حل الثاني: أن الذين يطويه، فيضغضض الضميف. والمنف يهيج، فيثور في وجه القوي، ويستغيث غضباً إذا زجر أو الشهور.

(٢٦) أمضى: أذهب، وأزيل: مضارع أمضيت الشيء: أي أذهبت، وأزله، أو هو « أمضى » مضارع « مضى » إلى الشيء: أي ذهب إليه. وبه: بهذا الجواد. والحيل: الخافة، والفرح، أو الأمر الخفيف المفرح للشديد، ويراد به هنا: الحرب، وجمعه أهوال، وهو منصوب على نزع الخافض، والأسل: أمضى بجوارى إلى الهول، أو تعديته هنا على تسميته معنى فعل متبدل، مثل « ألتهم » و « أغوي » . أو « الحول » مفعول لأجله. والمنى: أذهب بجوارى من أجل ملائحة الهول. ومقدماً: كثير الإقدام على العدو، فجاءاً، جريئاً في الحروب، وهو حال من فاعل « أمضى ». ويصحف (من باب سلم) مصاحف، ويرافق، ويلادى. والماضى: الحاد، البتار، السريع القطع. والفرار (بوزن كتاب): حد السيف والبرص ونحوهما. والشارع هنا يتنقل من وصف فرسه إلى وصف سيفه. واستفحل الأمر: تفانم واشتد، وصظم. والزهكل: الخوف، والدُّهر. والشرع.

يمتاز بشجاعته وإقدامه، وأعداده على سلاحه وجواده إذا اشتد الفزع، وتفاقم الخطب، وقامت الحرب على ساق، وهذا يصطليح مغالبة الأهوال، وتهديد المخاوف، وكسب النصر.

(٢٧) فاعل « يمر » ضمير مستتر، يعود على « ماضى الفرار »: أي سيفه البتار في البيت السابق. والهام هنا: ريس المحاربين من الأعداء، وأجسادهم، الواحدة هامة: وهي الرأس، أو أعلاه، أو وسطه. وتجسع أيضاً على « هامة ». وفي عجل: تكرار وتأكيده لمنى مرور البرق. والفرار: الجِلاد، والقتال: مصدر غشابه: أي غالبه في الضرب، أو ضرب كل منهما الآخر. ولم يلق به: لم يلق بالسيف: أي لم يتصل به، أو لم يصل إليه، أو لم يصبه. والليل: الليل، والماء: ويراد به هنا: دم القتل، والجري من الأعداء.

والمنى: أنه يفتلق بسيفه البتار هامة المحاربين من أعدائه إبَّان الجِلاد والقتال تفتليقاً عاجلاً سريعاً، كأنه البرق الخاطف؛ وسيفه لا يكاد يصيب مقتل الرجل حتى يفارقه قبل أن يتفجّر منه الدم؛ ليصيب غيره، وهكذا؛ ولهذا السرعة الخاطفة لم يبتل بشيء من دماء المصائب.

واليهت الاق تكرار وتأكيده لمنى حفة السرعة الخاطفة المذهلة؛ والفرض الفخر بشجاعته وإقدامه، وسرعة حركته في الحروب، ومهارته في استخدام أسلحة القتال.

رَأَى الرَّجَالَ وَقُورًا بَعْدَ فَتْكِهِ بِهِمْ ، يُظَنُّونَ أَحْيَاءَ وَقَدْ قُتِلُوا (٢٨)
كَانَتْ شُعْلَةٌ فِي الْكَفِّ قَائِمَةً تَهْفُو بِهَا الرِّيحُ أَحْيَانًا وَتَسْتَحِيلُ (٢٩)
لَوْلَا الدَّمَاءُ الَّتِي يُسْقَى بِهَا نَهْلًا لَكَادَ مِنْ شِدَّةِ اللَّأْلَاءِ يَسْتَحِيلُ (٣٠)
يَقُلُّ مَا بَقِيَتْ فِي الْكَفِّ قُبُضَتُهُ كُلَّ الْحَيِّدِ ، وَلَمْ يَنَازْ بِهِ فَلَّلُ (٣١)

(٢٨) قُورًا : واقفين . : جميع واقف . والفشكة : اسم مرة من فتك به (من باب ضرب ونصر) : أي اختاله ، أو قتله مجاهرة .

يقول : إن سيفه يفتك بأعدائه فتكا سريما غاطسا ذريعا ؛ وبطء السرعة الحافظة الملحقة بظنون برهة واقفين بعد فتكه بهم ، فيخيل إلى من يراهم أنهم أحياء ، وهم في الحقيقة قتل ، وهو تكرار يؤكد معنى البيت السابق .

(٢٩) كأنه : كأن « ماغي الفرار » : أي سيفه البتار ، والشعلة : شب النار . وقائمة : ظاهرة . و في الكف « معقل بقائمة . وتهفو بها الريح : تحركها ، وتميلها .

يشبه سيفه في يده - لأمعا ، مشرقا ، متألعا ، مستطعا ، كثير الحركة ، سرينا - بشعلة من النار قائمة في كفه ، متعصبة ، ظاهرة ، يحركها الهواء فتعبل وتضطرب ، ويسكن منها ؛ فتستقيم ، وتعتدل ؛ وهذه صورة دقيقة صحيحة للسيف في يده مثله وقت الجلاء والضراب .

(٣٠) « لولا » : حرف يدل على امتناع شيء لوجود غيره ، وفي هنا دافعة على جملتين : اسمية ، فعلية ؛ لربط امتناع الثانية بوجود الأولى ، فالاشتغال بفتح لوجود السماء التي يسقى بها . وثالث باطل . « يسقى » ضمير السيف ، الموصوف في هذا البيت ، والبيت الآتي ، وأربعة الأبيات السابقة . ويسقى بها نهلا : يسقى بها مقيا مروبيا تاما ؛ مصدر نهل (من باب فرح) : أي شرب حتى روى . وكاد يفعل كذا : لم يمه ، وقاربه ، ولم يفعله . ويلاحظ أن هذا الفعل لا يلائم المبالغة المقصودة هنا ؛ إذ المراد : لولا النباء التي يسقى بها ، ويروي منها « ماغي الفرار » : أي سيفه البتار لا تشتعل اشتغالا من شدة لآلته . أما مقاربة الاشتغال فلا تنهض بالمبالغة ؛ ولو وضع « كأنه مكان » كاد « لا مقام له ما يريده . والألواء : ضوؤه لمعان واضطرابه وحركة . ويشعل : يمتد ، ويلتهب ، كما تشتعل النار .

وصف سيفه بشدة التلألؤ والتلألؤ ، والبريق والمعان ، وأشار إلى كثرة ما يسيله من دماء أعدائه المحاربين ، وكثرة قتلاهم وجرحاهم ؛ يقال : إن هذه الدماء الكثيرة الغزيرة المتدفقة تمنيه وترويه ؛ فتضد حدة تلألؤه وتلألؤه ، ولولاها لا تشتعل اشتغالا من شدة لآلته وتوهجه .

(٣١) يقل : يظلم ، ويكسر . (ويابه رد) . وقاطعه ضمير « ماغي الفرار » : أي السيف البتار في البيت السادس والعشرين . ويفعله « كل الحديد » . و « ما » : مصدرية ظرفية : أي يقل مدته

بَلْ رَبِّ سَارِيَةٍ هَظْلَةٍ كَانِيَةٍ تَسْمُو السَّوَامَ بِهَا ، وَالنَّبْتُ يَكْتَحِلُ ٢٣٥
كَأَنَّ كَأَرَاهَا فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ رِيْطٌ مُنْشَرَةٌ فِي الْأَرْضِ ، أَوْ حُلٌّ ٢٣٦

— يبقاه في كف صاحبه المقاتل به : وهو الشاعر : أي يغل ما بقيت قبضته في كفى . وقبضة السيف : مقبضه ، حيث تمسكه كتب الضارب به . وهراد : « كل الحديد » : الدروع ، والبيضات ، والخوذات ، وسائر الخلق والأسلحة . وثار بالقتيل (من باب منح) : أخذ يده ، وقتل قاتله . ولم يثار به : لم يثار بكل الحديد ؛ لأنه هو اللؤلؤ المثل ، المشبه بالقتيل . واللؤلؤ : انكلام حد السيف ونحوه : أي تكسر شفرته وتلفها . وهو فاعل « يثار » : أي ولم يصب هذا السيف شيء من التفتل ، أو التلم ، أو التكرس ؛ ليكون كالتأثر منه الحديد الكثير الذي فله ، ولثمه ، وأثله . والواو في الشطر الثاني : واو الحال . والجسلة الغلطة يندمها حالية .

يقول : إن سيفه هذا يغل كل ما يصادله ، أو يقف في طريقه من أسلحة الترقق والقتال ، ما دام مسكاً بمقبضه ، ضارباً به ، بجالداً ؛ ويقيم مع هذا كله ، ويد هذا كله سليماً قاطعاً ، لا تتفتل مفاربه ، ولا يكاد يصيبه شيء من الانكلام .

نعم الشاعر بهذا البيت ستة أبيات في وصف سيفه ؛ وانتقل في الأبيات الآتية إلى وصف يوم من أيام العزود والصيد .

(٢٢) السارية : السحابة تأتي ليلاً : فاعلة من السرى (بوزن الهوى) : وهو سير عامة الليل . وهظلة : حافلة : أي : مطرة ، يهطل مطرها متتابعاً ، متفرقاً ، عظيم القطر . ودانية : قريبة . وتنبو : تزيد ، وتكثر . والسوَام ، والسائمة : الماشية والإبل الرامية . سامت الماشية (من باب قال) : أي رعت ، ورعت ، وأكلت كيف شامت في غصب وسعة . وبها : بالسارية الهظلة : أي بما ينبت مطرها من الكلال والمرعى . والتبت : التبات . وأكتهل التبت : تم طوله ، وظهر ثوره .

وصف هذه السحابة الليلية بأنها غزيرة المطر ، عظيمة الفائدة ، قريبة من الأرض ، وأشار إلى بعض آثارها من كثرة المرعى ، وأكتهل التبات ، ونماء الماشية .

انتقل الشاعر في هذا البيت والأبيات التالية إلى وصف يوم من أيام العزود والصيد ، بعد أن وصف سيفه في ستة الأبيات السابقة . ويلاحظ أنه لم يمهّد لهذا الانتقال ، كما يلاحظ أن الاقتصاب ، والطفرة ، وضبط الروابط بين أغراض القصيدة ، وتوثيق القول — من صفات الشعر الجاهل الذي يحاكمه الشاعر هنا ، ويحرم على أسلوبه .

(٢٣) آثارها : آثار السارية الهظلة في البيت السابق . وفي كل ناحية : إشارة إلى اتساع هذه الآثار ، ومظلتها . والريط : جمع ريطة : وهي الملاحة إذا كانت قطعة واحدة ، ونسجاً واحداً . وكل ثوب يشبه الملحقة . ومنشرة : منشورة ، مبسوطة ، غير مطوية : اسم مفعول من نشر الثوب ونحوه —

يَمْتُمْتُهَا بِرِفَاقٍ إِنْ دَخَوْتُ بِهِمْ لَبَسُوا سِرَاعًا ، وَإِنْ أَنْزَلْنَاهُمْ تَوَلَّوْا (٣٧)
قَصْدًا إِلَى الصَّبَدِ ، لَا نَبْغِي بِهِ بَدَلًا وَكُلُّ نَفْسٍ لَهَا فِي شَأْنِهَا عَمَلٌ (٣٨)

= تشبيهاً : أي نشر ، وبسط . وتقديده لكثرة والمبالغة . وأخلل : جميع حلة (بوزن قلة وقل) : وهي الثوب الجيد الجديد ، أو الثوب السائر لجميع البدن ، أو الثوب بهطالته ، أو ثوبان من جنس واحد ، أو ثلاثة أثواب ، وقد تكون قميصاً ، وإزاراً ، ورداء .

صور بالتشبيه آثار هذه السحابة المطيرة ، أو السارية الماطلة الدائبة ؛ فيها أغلقت الأرض زخرفها وازينت - في مساحة واسعة - بخضرة الكلال وقصرته ، وأنوار النبات وأزهاره ؛ فكانت اكتست بالجيد الجديد من الخلل ، والفاخر البهيج من الكتياب ، والمطرز المشي من الرباط ، والملاصق ، والملاصقات .

(٣٤) يمتها : يمت آثار هذه السحابة : أي قصبتها ، وأزيتها ، واتجهت إليها . ويراد بآثارها : المروج ، والمراعى ، والرياض التي جادت بها هذه السارية ، وعشها بألطافها . وبرفاق : مع رفاق : أي صحاب : جميع رقة : وهم جماعة المرافقين : أي المصاحبين . ودعوت بهم : امتحضرتهم ، وصحت بهم ، وفادتهم . ولَبَسُوا : ألبسوا ، وأطاعوا . وأصله الإقامة . يقال : لب بالمكان (من باب رد) : أي أقام به ، ولزمه ، ثم توسوا في استعماله ؛ كأن من استبحى ، طلب - قال المستبحى : أنا مقم على طاعتك ، مستعجب لك . أو هو « لَبَسُوا » . يقال : دعا المرء أعياه ، فلباه تلبية : أي قال له : « لبيك » : وهو مصدر منصوب ، في حل معنى التأكيد : أي إجابة لك بعد إجابة ، وإقامة على طاعتك بعد إقامة . وسراعاً : حال من فاعل « لب » أو « لب » وهو واو الجماعة : أي لبوا سرعين . وبفردة سريع (بوزن ظريف وظراف) . وفزل (من باب جلس) : هبط من علو إلى سفلى . وفزل بالمكان ، وفزل فيه : حل به ، وأقام . و « بهم » : مصاحباً لهم ؛ فالباء هنا للمصاحبة . أو هي للتعدية ؛ ليتناسب « إن دعوت بهم لبوا سراعاً » : أي إن ناديتهم أجايلهم سرعين ، وإن أنزلتهم في مكان نزلوا متى طهين . يقول : إنه قصد إلى المروج التي جادت بها هذه السحابة ، ومنه رقة يتجوله ، ويسأله طهين ، مستعجبين سراعاً لنداءاته ودعواته .

وهو هذا محمد بوصف يوم من أيام الطرد والصيد ، في غصة الأيهايات الآتية ؛ في المروج والمراعى تكثر الظباء والرحور ، وما يصاد من حيوان البر .

(٣٥) « قصداً » : حال ، بمعنى « قاصدين » من فاعل « يم » في البيت السابق ، أو مفعول لأجله ، أو مفعول مطلق لفعل محذوف : أي قصدنا إلى الصيد قصداً . والصيد : مصدر صاده ، واسم لما يصاد . ولا نبغى : لا نبتغي ، ولا نطلب . والشأن : الأمر والحال .

يقول : إننا قصدنا إلى الصيد ، لا نبتغي غيره ، ولا نطلب بدلاً منه ، ولا نريد شيئاً سواه ، ولم نشغل في ذلك اليوم إلا به . والشطر الثاني تذييل في هذا المعنى ، مؤكده ؛ فكل نفس تشغل لأمر الذي تقصده . أو كل نفس لها عملها فيما جمها من شئون العيش والحياة .

حَتَّى إِذَا أَلْمَعَ الرُّوَادُ مِنْ بَعْدِ وَجَاءَ فَارِطُهُمْ يَغْلُو وَيَسْتَفِيلُ^(٣٦)
تَغَاوَتِ الْخَيْلُ حَتَّى كَذَنَ مِنْ مَرَحٍ يَنْهَبْنَ فِي الْأَرْضِ لَوْلَا اللَّحْمُ وَالشُّكْلُ^(٣٧)
فَمَا مَضَتْ سَاعَةٌ، أَوْ بَعْضُ ثَانِيَةٍ إِلَّا وَلِلصَّيْدِ فِي سَاعَاتِنَا نُزُلٌ^(٣٨)

(٣٦) « إذا » : ظرف لما يستقبل من الزمان، وفيها معنى الشرط، ويجواب الشرط في البيت الآتي، وهو « تغاوت الخيل ». وجملتنا الشرط والجزاء : « حتى إذا ألمع الرواد تغاوت الخيل ». وللمعنى أو غيرها أشار. والرواد : جمع الرائد : وهو من يتقدم القوم ؛ ليبرأ لهم الكلاء، ويرود المرمى، ويكشف مساقط النيث، ويلتصق للشيعة؛ وقد يرسل القوم والدم في غير هذا من الأمور. والرواد هنا : من أرسلهم الشاعر ورفاقه للبحث عن الصيد : أي عما يستطيع صيده من الطيأ وغيرها. ومن بعد : من مكان بعيد. أو من بعد (بضم فسكون). وفارطهم : فارط الرواد : أي متقدمهم، وسابقهم، ورسولهم الذي أرسلوه إلى الشاعر ورفاقه يبرهن بما عثروا عليه من الصيد، بعد إلحاقهم بهذا من بعد. ويسلو، ويستغل : يرتفع، ويهبط : أي يجتاز في صدوه، أو سيره إليهم النجاء والقياد، ويرتفعات الأرض، وينخفضاتها. واستغل يستغل : شبه علا يعلو.

(٣٧) تغاوت (بالعين المهملة) : جواب « إذا » الشرطية في البيت السابق. ومعناه : تآلفت، وتجمعت، ونشطت لطاردة الصيد ؛ لأنها أحست إشارة الرواد، وفطنت لما حمله فارطهم من البشري. أو هو « تماوت » (بالميم المهملة) بالمعنى السابق أيضاً. والمرح : فرط الانشاش، وشدة الفرح. ويلهين في الأرض : ينطلقن. واللحم : جمع لحام (بوزن كتاب وكتب) : وهو الحديدة في قم الفرس. ثم سموا مع ما يتصل بها من الخيكتين، والمذارين، والسير - بلحاما. والشكل : جمع شكل (بوزن كتاب وكتب) : وهو القيد، وسجل تشد به قوائم الدابة، ووثاق بين يد الدابة ورجلها كالقيد.

ومعنى هذا البيت والذي قبله : أن الرواد أشاروا من بعد الشاعر وأصحابه بالتحرك للصيد، وأرسلوا فارطهم يطير الأرض مبهراً، مؤكداً إشارتهم؛ فاشتد لهذا مرح الخيل، وتجمعت، ونشطت لطاردة، وكثرت حركاتها، ولولا قيودها وألحقتها لانطلقت في الأرض، وسبقت أصحابها إلى الطرد والصيد ؛ فإنها مدبرة لحما، متمرسه بها، ماهرة فيها.

(٣٨) الساعة : جزء من أجزاء الوقت، والحين وإن قل، وجزء من أربعة وعشرين جزءاً من الليل والنهار : أي ستون دقيقة؛ ويبدو أن هذا المعنى هو المراد هنا. و« أو » : حرف صلف، وهي هنا بمعنى « أو لا ». وتقيد مطلق الجمع. وبعض ثانية : أي وبعض ساعة ثانية : يريد أن أعمال الطرد والصيد لم تستغرق من الوقت غير ساعة واحدة، وجزء من ساعة أخرى. وإذا كانت « أو » هنا مفيدة للشك، كما في قوله الله تبارك وتعالى : « قالوا : لا يوماً، أو بعض يوم » الآية رقم ١٩ من سورة الكهف - كان -

فَكَانَ يَوْمًا قَصِينًا فِيهِ لَلْتَسَا كَمَا اشْتَهَيْنَا ۖ فَلَا عَيْشَ ، وَلَا دَعْلَ^(٣٩)
هَذَا هُوَ الْعَيْشُ ، لَا لَفُو الْحَلِيبِ ، وَلَا مَا يَسْتَفِيرُ بِهِ ذُو الْإِفْكَةِ النَّبِلُ^(٤٠)

= المني : أن أعمال الطرد والصيد استغرقت من الوقت ساحة ؛ أو بعض ساحة ؛ فهم غير متشيقين في تقدير وقت الطرد ، وقد قدروا على وجه الشك والظن والتخمين ، لا حل الاستيقاق والتثبت واليقين . ويراد بالصيد هنا : لم صادوه . والمساحات : جميع ساحة : وهي المكان الواسع ، وفضاء بين القنور ، لا بناء فيه ، ولا سقف له . والنزل (يسمتين ، أو يفتح فكسر) : المنزل ، أو المكان يُنْزَلُ فيه . وبمعنى البيت على هذا : أننا على إثر ما بشرنا به فأرطنا ، سارنا بخيلنا إلى الطرد ، فما هي إلا برهة يسيرة ، حتى كانت ساحاتنا مستقرًا لما ظفروا به من الصيد النافر . والنزل (يسمتين ، أو يفتح فسكون) : طعام يهين للزبل : أي الضيف . والمني على هذا : أننا أعدنا في ساحاتنا الصيد الذي صدناه ما يحتاج إليه من الطعام والشراب . والنزل (يسمتين ، أو يفتح فسكون ، أو يفتح فكسر) : الطعام الكثير ، الزاكي النامى ، ذو الخير والبركة ؛ أو تمام الطعام ، وزكاؤه ، وزيادته ، وبركته ، وكثرة ريعه . واللام في « للصيد » : بمعنى « من » . والمني على هذا : أننا جعلنا مما صدناه قيرى لمن ينزل بنا . أو : وكان لنا مما صدناه طعام ذلك فام ، كثير الخير والفائدة .

(٣٩) فكان يوماً . . . يريد يوم الطرد والصيد الذي وصفه في هذا البيت ، وأربعة الأيام السابقة . وقضى وطّره أو حاجته : بلغها ، وفالها . وقضى لذته : أتمها ، وبلغ غايتها . واشهى الشوى : اشتدت رطبته فيه ، وتمامه . والفسك : الفساد ، والرقبة . ويجب في الأمر يفصده .

ينوء بيوم الطرد والصيد ، واجتماعه فيه برفاقه على الإخلاص والصفاء والنقاء ، وصدق الوداد ، وحسن التصاون ، وهذا قصصاً في ذلك اليوم وطرحه ، وبلغوا غاية ما تمسوه واشتهته ففرجهم من الشمة والذمة .

(٤٠) هذا : إشارة إلى يوم الطرد والصيد ، وما كان لهم فيه من متعة ولذة ، وصفاء ، ورياء بال . والعيش : المعيشة ، والحياة . والحديث : كل ما يتحدّث به من كلام وشعر . ولفوا الحديث : سقطه ، وما لا يُعتمد به منه ، وما لا خير فيه ، ولا فائدة . ويستفير : يغير ، ويجهم ، ويحصى . والآنكة (بكسر الهمزة وفتحها) : الكلب ، والحداد . وذو الإفكة : الكذاب الخادع . والنزل : التمام . والحيلة : النجدة ، والنشاية ، والتوريش ، والصريش ، والإفراء ، وتزيين الكلام بالكذب ، والسعي بالفساد بين الناس .

يشير إلى يوم الطرد والصيد الذي صاحب له جماعة من إخوان الصفاء ؛ فقتبوا فيه وطّروا ، وبحقوا مارهم ، في سرح ولذة ، وسمعة ، وطفة قلب ولسان ، وصدق وداد ، ورياء بال ، وهنأة حال . =

إِنَّ النَّمِيمَةَ وَالْأَفْوَاهُ تُضَرِّمُهَا نَارٌ مُحَرَّقَةٌ لَيْسَتْ لَهَا سُعْلٌ^(٤١)؛
فَاتَّبِعْ هَوَاكَ، وَدَعْ مَا يَسْتَرَابُ بِهِ فَكَثُرَ النَّاسُ - إِنَّ جَرَبَتَهُمْ - هَمَلٌ^(٤٢)؛

— ويقول : إن هذه هي الحياة الطيبة الممتعة ، المنية المحسوة ؛ وليست الحياة في جمالة ذرى الإللك والكلب والنميمة ، ومصاحبة الولشين ، المخادعين ، الساعين بين الناس بالفساد ؛ وليست في تضييع الوقت في لغو الكلام وقطله وباطله ، وبالا غير فيه ، ولا فائدة منه .

وهذا كله توطئة وتهديد للانتقال من وصف يوم الصيد إلى تسعة آيات أجراها مجرى الحكم والأمثال ، وضمتها بعض فصائحه وإرشاداته .

(٤١) النميمة : اسم من تم الحديث (من باب قتل وضرب) : أي سعى به ليبيع فتنة ، أو وحشة . أو أظهرها بالرواية ، ورفعه على وجه الإشاعة والإفساد . وتم بين الناس : ورس ، وأغرى . وتم الكلام : ذمته بالكلب . والأفواه : جمع الفوه : وهو الفم . ويزاد بالأفواه هنا : الألسنة . وتضمرها : توفدها ، وتلجها ، وتسلطها : أي تفسد النميمة ، على تشبيها بالنار . رجلة : « والأفواه تفسدها » : حال من النميمة . ومحرقة : اسم فاعل من التحريق ؛ وتشديد الراء للدلالة على الكثرة . والقتل : جمع شملة (بوزن خرفة ويؤنث) : وهي لب النار ، وما أشعلتها به من الحطب ونحوه . وليست لها شمل : كناية عن خفاء هذه النار ، واستارها ، على الرغم من أنها فظيمة التحريق ، شديدة الإكلاف والمخترق ، ولا يحسن أن أصل النميمة في اللغة : الحمس ، والحركة الخفيفة الخفية .

في البيت السابق استقبح استنارة النمام الأفلاك ، واستشنع إفك ونميمة ، وأغربه من عداد ذرى الحياة الطيبة الكريمة ، التقية المحمودة . وفي هذا البيت شبه النميمة بقولها لسان النمام - بالنار الشهيدة الحامية الخفية ، تحرق المودة بين المنقول عنه والمنقول إليه ، وتفسد أحوال الناس ، وتمزق الأواصر ، وتقطع الصلات ، وتوقف الفتنة ، وتبث الخصومات والمداوات .

(٤٢) الموى : مصدر هو به يموء (كرضه يرضاه) : أي أحبه ، واشتهاه ، وجسمه أهواه . والموى : الشيء الذي يموء . ووع : أترك ، واجتنب . واستراب به : رأى منه ، ما يكرهه ، ويرى به : أي يحسبه شاكاً غير مستيقن . أو يرميه بالريبة : وهي الظن ، والشك ، والنميمة . وفي الحديث : «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» . «دع ما يستراب به : اجتنب الأمور التي يراها الناس ، أو تراها ألفت مدعاة لفتنة ، والشك ، والنميمة : أي الاتهام . والمسكر : المهمل ، المترك لئلا يضرأ بلا رعاية ، ولا عناية . والمضى : استجب لأهوائك ، واتبع ميول نفسك ، وحقق لها رغباتها ما دامت سلمية مستقيمة ، وما دمت بعيداً عن الريب والشكوك ، والتهم والشبهات ، مجتنباً كل ما يشينك ويحييك ، ويؤسئ ظن الناس بك ؛ فإذا تجردت هذا المعج ، فلا تكثر لثقتك الناس ، ولا تباله ، فإن أكثرهم - مع التجربة - حمل لا يقره له ، ولا يحد به ، ولا يعول عليه .

وَاسْتَخْرَ عَتُولَهُ تَسْلَمَ مِنْ خَلِيصَتَيْهِ إِنَّ الْعَدَاوَةَ جُرْحٌ لَيْسَ يَنْتَلِئُ^(٤٣)
وَعَالِجُ السَّرِّ بِالْكَيْفَانِ تَحْمَدُهُ فَرِيماً كَانَ فِي إِفْشَائِهِ الزَّلْزَلُ^(٤٤)
وَلَا تَكُنْ مُتَمَرِّقاً غِيراً ، وَلَا بَخِيلاً فَيَسْتِخْلِفُ الْخَلَّةَ : الْإِسْرَافُ ، وَالْبَخْلُ^(٤٥)

(٤٣) الخديعة : اسم من عدهه (من باب قطع) : أي غطله ، وقرئ به ، وأظهر له خلاف ما يخفيه ، وأراد به السوء والمكره من حيث لا يدري . ويستعمل : يلتزم ، ويتأمل ، ويبدأ .
يبدو إلى الاحتراز من العدو ، والإقامة على توطئه ، وهذا يسلم المحترز من شر أعدائه ويكرهم ويحتفلهم ، ويخفيهم .

والنظر الثاني لتبديل جار مجرى المثل ، مؤكدة لمعنى الشطر الأول ؛ وفيه زيادة تحضيس على الخبر ، والتوق ، والاحتراز ؛ فإن عداوة العدو داء عياد ، لا دواء له ، ويجرح دأماً لا يبرئ يبرؤه ، أو انقماره ، والتمناه ؛ والعداوة - قطعاً - تنتج الشر والأذى ، وقد عول المثل والخديعة ، وتقرى بالكيد والمكر السيئ ، والتمس بالمعاصي ، وإضمار الحقد والعدوان .

(٤٤) عالج الشيء معالجة وعلاجاً : زاوله ومأواه ، وعالج المريض : داواه ، ويراد بعلاج السر بالكتبان : الملاحظة عليه ، وصيانته ووقايته ؛ لأن إفشائه ، أو التفريط في كتبانه ، والتأبون بإخفائه يلعب بقيمته ، وينسج فائدته ، ويجعله مصدر شر وأذى ، وسبب آفات وأضرار . وتحمده : مضارح حمده (كفهمه) . أو تحمده : مضارح أحمد إحساناً ؛ أي تجده محموداً ، وتقرى عنه ، وتزاح له ؛ أي تجده الكتبان محموداً ، أو تجد السر محموداً المأقبة بالكتبان ؛ وذلك لأن السر لا يبرئ غيره إلا بكتبانه ، والمبالغة في ستره وإخفائه ؛ ويلاحظ أن الفعل « تحمد » مرفوع ، وحقه أن يحل جرياً على الكثير الغالب واللفة العالية الفصيحة ؛ لأنه واقع في جواب الأمر ، وهو « عالج » . ويجوز أن تعرب جملة « تحمد » حالا من فاعل « عالج » ؛ أي عالج السر بالكتبان وأنت تحمد . أو سأمداً له ؛ وهذا الإعراب محو الكلام جل القصص ، ويستعمل على الطريقة المثل . و « رب » : حرف جر ، معناه هنا التكثير وقد اتصلت به « ما » الزائدة ، فكشفت عن جر ما بعده ، وهيئة للسؤال على الجمل الفعلية . والزلل : السقوط والسرور .

والمنى : أن السر لا قيمة له ، ولا فائدة منه ؛ ولا تحمد عاقبته إلا إذا حوشت عليه ، ويبلغ في صيائه ووقايته ، بإخفائه وكتبانه ؛ أما التفريط فيه ، أو التأبون به ، فإنه يحبط النعم والسرور ، والأذى والزلل ، وهو المواقف ، وشر الغيبيات .

(٤٥) أسرف إسرافاً : جاوز القصد . وأسرف في ماله : بذره تبذيراً ، وأفقفه فيما لا ينبغي .
والسرف : اسم فاعل منه . والفر : من يجهل الأمور ، ويفضل ضماً ، وينخدع إذا خدع ؛ لقلة

وَلَا يُمْنَنَّ بَقُصِّ الْأَمْرِ تَسَامُهُ لَا يَنْتَهِي الشُّغْلُ حَتَّى يَنْتَهِيَ الْأَجَلُ (٤٧)
وَأَعْرِفْ مَوَاضِعَ مَا تَأْتِيهِ مِنْ عَمَلٍ فَلَيْسَ فِي كُلِّ حِينٍ يَحْسُنُ الْعَمَلُ (٤٨)

تجربته ، وعدم فطنته ؛ وقد جمعه الشاعر صفة المسرف ؛ كأن الإصراف في المال من الفزارة ، والفغلة ، وقلة الفطنة ، ونقص التجربة . ويغل (من أبواب تعب ، وقرب ، وفيهم) ، فهو يغل (يوزن شراً) . أو يغل (يفتحين) ؛ وصف بالمصدر . والخلة : الخصلة (يفتح فسكون فيهما) ؛ وهي خلق في الإنسان ، يكون نفعية ، أو ذليلة . يقال : فيه خلة حسنة ، وخلة سيئة . وجسمها خلال . وتفصيل الكلام هنا : فثبتت الخلة الإصراف والتأخير وبجائزة القصد في الإنفاق ؛ وثبتت الخلة البخل والشح والتقتير والحرس المحقوث .

يعدو إلى فضيلة القصد والاعتدال ، ويلزم ويطلق البخل والإصراف ، وينهى عنهما ؛ وعما يلاهب الإصراف من الفزارة والجهل ، والفغلة والانتداع .

(٤٦) لا يمينك : لا يمينك . هم الأمر (من باب رد) ، وأهمه : أثقله ، وحزنه ، وأزعجه ، وأثاراهاهم وأهملهم . والأمر : الحال ، والشأن . وجسمه أمور . والأمر : الطلب ، أو الشيء المأمور به ، وجسمه أمار . وأمره بكذا : إذا فرضته عليه ، وكلفته أن يفعله . وسئمه (من باب تعب) : مله ، وضجر منه ، وتبرم به . وانتهى الشيء : بلغ نهايته ونهايته ومداه . والشغل (بضم فسكون) : شد الفراغ ؛ ويطلق على العمل ، وعلى ما يعمل . أو هو يفتح الشين وسكون اللين : مصدر شغل بكذا (من باب نفع) ؛ أي جعله مشغولاً به . وشغله الأمر كذلك . والأجل : المدة المضروبة لحياة المرء . وساء أجله : حان موته . وجسمه آجال .

ومنى البيت : إذا ما درست أمراً من أمور الحياة ، أو أوامرها ، فأهمك بعضه وحزنك وأضجرك ؛ فلا تهتس ، ولا تهيس ، وأطرد الملل والسآمة والفجر ، واستعن عليه بالصبر والرفق والأناة ، وصاحبه بالجد والدأب والمأداة ؛ حتى ينطاع لك ، ويتطلب عليه .

والشطر الثاني فليذكر هذا المعنى ويمزج ؛ فالحياة الدنيا كلها عمل وتعب وجهاد ؛ والإنسان إنما خلق فيها ليجد ويمسك ويدأب ما دام حياً ، ولا ينتهى عمله فيها إلا بانتهاء حياته .

(٤٧) مواضع : أماكن : جميع موضع (يوزن مسجد ، ومنصب) . وأقى الأمر يأتيه (من باب روى) : فعله . والحين : الوقت ، وجسمه أحيان .

ومنى الشطر الأول : أن نجاح الأعمال وإحسانها يتطلب تنظيمها وترتيبها فيها يلائمها ويناسبها من الأذنية والأمكنة ؛ فإذا أحسن المرء تقسيم أعماله وأوقاته ، وعرف كيف يتخير لكل عمل موضعه من وقته - نجحت أعماله ، واستيسرت له أموره ، وأحاطته هذه الممرة ، وهذا التقسيم والتنظيم على الإحسان والإيقان .

فَالرَّيْثُ يُعْمَدُ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ ، كَمَا
فِي بَعْضِ حَالَاتِهِ يُسْتَحْسَنُ الْمَجَلُّ (٤٨)
هَذَا هُوَ الْأَدَبُ الْمَأْثُورُ ، فَأَرَضَ بِهِ
عِلْمًا لِنَفْسِكَ ، فَأَلَاخْلَاقُ تَنْتَقِلُ (٤٩)

= والشرط الثاني تعديل في هذا المعنى ؛ فالعمل يحسن ، ويجيد ، ويسهل إذا عمل قيا يناسبه من الوقت .
وعمل العكس يسو ، ويقبح ، ويصعب ، ويتمش إذا وقع في زمن لا يلائمه .

(٤٨) الريث : الإبطاء : مصدر راث (من باب ياط) . وضده المَجَلُّ . ومثله المَجَلَّة ، (يعلمه
من باب طرب) وفي مثل : « رب عجلة أعقبت ريثا » . والامور : الاحوال ، والشئون ، وأحدها أمر .
يدعو إلى مراعاة ما يتطلبه كل أمر من الريث ، أو العجلة ؛ ففي بعض الاحوال يستحسن التأني ،
ويطلب ، فتعتمد هوائيه . وقد تتطلب الحال العجلة ، فتنتج النجاح والسلامة . وفي البيت السابق دعا إلى
حسن تنظيم الأعمال فيها يناسبها من الأمانة والأكنتة ؛ وما يتصل بهذا التنظيم وعلامته ، مراعاة ما تتطلبه
الأمور من الريث ، أو العجلة ؛ وهو ما دعا إليه في هذا البيت الذي أخذ من البيتين الآتين :

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل
وربما ضرَّ بعض الناس بطولهم وكان غيراً لم لو أنهم عجلوا

(٤٩) هذا : يشير إلى ما نحن عليه ، ودعا إليه في تسمية الأبيات السابقة من الفضائل والمحامد ،
وما كفر منه ، ونهى عنه من الرذائل والمقاييس . والأدب : رعايته النفس بالتحليم والتلهيب على ما ينبغي
من مكارم الأخلاق ، ومحاسن الخصال . والمأثور : المنقول ، ينقله الخلف عن السلف . وأثر الحديث
عن غيره (من باب نصر ، وضرب) : نقله ، وذكره ، ورواه . والعلم : المعرفة . وعلماً لنفسك : علماً
يروض لنفسك ، ويؤدبها ، ويهذبها طرق الخير والسعادة . والأخلاق : جمع خلق (يستعين ،
أو يضم فسكون) . وهو النجبة ، والفرصة ، والطبيعة ، والعادة ، أو هو حال النفس راسخة ، تصدر عنها
الأفعال من غير حاجة إلى تفكير وروية . وانتقال الأخلاق - بالمعنى المتقدمة - يكون بالقدر ، والروية ،
والدهاية ، والتفكير ، ورواية المأثور من الحكم والأمثال ، والإفادة من النواصي والمراوظ ، والإقبال
على الأدب الرفيع العالي شمره وثمره .

ينوه بما تضمنته الأبيات التسعة الماخمية من نصيح وإرشاد ، ومشكل وحكمة ، وتنبيه وتوبيخ ، وترغيب
وترهيب تناول بعض الفضائل والرذائل .

ويقول : إن هذا هو الأدب الذي ينبغي أن يؤتروا به ، ويتناقله الناس راغبين مفتطين ، يعرفونه =

مِنْ كُلِّ بَيْتٍ إِذَا الْإِنْشَادُ سَيَّرَهُ فَلَيْسَ يَمْنَعُهُ سَهْلٌ وَلَا جَبَلٌ (٥٠)
لَمْ تَبْنِ قَافِيَةً فِيهِ عَلَى خَطْلٍ كَلَّا، وَلَمْ تَخْتَلِفْ فِي رَصْفِهَا الْجُمْلُ (٥١)

= ويمتثلونه ، ويؤدبون به أنفسهم ، ويأخذونها باستقامة السليك ، ويكادون الأخلاق ؛ ولا غرو ؛ فإن الأخلاق تنتقل بالقدوة والتوجيه ، والتعلم والترغيب .

والشاعر في هذا البيت وفي خمسة الأبيات الآتية إلى نهاية هذه القصيدة - ينتقل من الحكمة والنصح والإرشاد إلى الغضب بأدبه وشعره .

(٥٠) « من » : بـياضة . و « كل بيت » : بيان لأدبه الذي نود به في البيت السابق : يريد تحية الأبيات التي وردت قبله ، وبجرت مجرى الحكم والأمثال . وقد يقصد التعميم ، ويعني كل بيت من أبيات هذه اللامية المطلوبة ، أو كل بيت في دهوان شعره الذي لا يفتأ يبتسى به ، ويفخر في غير سرف أو مفلاحة . والإنشاد : مصدر أشد شمرًا : أي قرأه ، رافعًا به صوته . وسيره : أساره ، وأذاعه : أي جعله سائرًا منشورًا دائمًا بين الناس . ويمنحه : يكلفه ، ويصدّه ، ويموِّقه ، ويقفه . والسهل : ما انبسط من الأرض . وهو خلاف الحزن ، والحضبة ، والجبل . ويجمعه سهيل .

يفتخر بأن شعره كله ذائع شائع في كل مكان ، وعلى كل لسان ، تجرى به الرواية والإنشاد ، ولا يكاد يحوق في .

(٥١) بـي الشاعر القافية أو القصيدة : أقامها ، وأحكم نظمها ، وأجاد إنشاعها ، وأحسن تأليفها : مستعار من المعنى الأصل " البناء ، أو البنين . والقافية من قوافي الشعر : آخر كلمة في البيت . وفي علم القوافي : من آخر حرف ساكن في البيت إلى أول حرف متحرك ، قبل ساكن بينهما . وبمعبر آخر : هي الحروف التي تبدأ بمتحرك يليه آخر ساكنين في آخر البيت ؛ فقافية هذا البيت مثلا : « ها الجمل » ؛ لأن الواو الفاشقة من إشباع ضمة اللام في آخر البيت - هي آخر حرف ساكن فيه ، والهاء أول حرف متحرك قبل لام « ال » ، وهي الحرف الساكن الذي بينهما . وبـي زعيم بن أبي سئسئ :

ومن يك ذا فضل - فيبخل بفضله على قومه - يستغن عنه ، ويعلم

قافيته كلمة : « يلم » . ويلاحظ أن كسرة الميم الأخيرة مشبهة ، تلد بعدها ياء ساكنة . وفيه : في البيت . وبخل : وهن ، وضعف ، فساد . وبخل القافية : حيوها ؛ ومن هذه العيوب : « السناد » (بوزن كتاب) ، ومياق تفسيره في البيت الآتي . و « ككلا » : حرف يلبس الرفع والخفض . و « زجمر » : كفه ، ومكّه ، ونهاه بشدة وصرامة ؛ كأن الشاعر يؤكد نفي اللحن ، أو الضعف ، أو الفساد في بناء قوافيه ، ويؤكد سلامة هذه القوافي من كل العيوب برفع من يفرض فيها ، أو في شيء منها الخلل ، أو يظنه ، أو -

فَلَا يَسْنَدُ ، وَلَا حَقْوُ ، وَلَا فَلَقُ ، وَلَا سُقُوطٌ وَلَا سَهْوٌ ، وَلَا حِلَلٌ^(٥٦)

— يتوجه . وثائق « كلا » بمعنى « حقا » ، ويؤمن المحقق المناسبة هنا ؛ إذ يؤكد معنى لفظة الأول ، وهو الميوب ، وتقرير السلامة والإتقان . والوصف : مصدر يصف الحجة ونحوها في البناء (من باب نصر) : أي رصها ، وضم بعضها إلى بعض في نظام ، واتساق ، وإسكام . ومن الجواز : كلام رصيف : أي رصين ، يحكم النظم ، جيد التأليف ، جميل التنسيق . واختلاف الرصف : معناه اختلال البناء . ومعنى « لم تختلف الجمل في رصفها » : أن الجمل في هذا الشعر متلاحقة ، متسقة ، منتظمة ، منسجمة ، تجرى على نمط متقارب .

والمعنى : أن قوافيه كلها سليمة البناء ، مبرأة من الميوب . وبجمله كذلك ، لا يعيها اختلاف ، أو تنافر ، بل يزيها الاتساق ، والاتسجام ، وإتقان النسيج ، وجمن التأليف .

(٥٧) السناد في القافية : اختلاف ما يراعى قبل الروي من الحروف ، والحركات ؛ وهو من حيوب الشعر ؛ وتوضيح هذا : أن من حروف القافية الروي : وهو حرف ينبت عليه القصيدة ، ونسبت إليه ؛ فهذه القصيدة — مثلاً — لامية : أي رويها اللام . ومن حروف القافية أيضاً : الريف (بكسر فسكون) ؛ وهو حرف ساكن من حروف المد واللين ؛ يقع قبل حرف الروي ، متصلاً به ، كالواو والياء في قول امرئ القيس الكندي :

أجارتنا ، إن الخطوب تنوب وإن عقيم ما أقام حبيب

فهذا بيت مصرع ، رويه الباء . وردفه في المصراع الأول الواو في « تنوب » ، وفي المصراع الثاني الياء في « حبيب » . والسناد (بوزن كتاب) : أحد حيوب القافية ، وهو أنواع ، منها سناد الريف ، ومنها : أن يأتي الشاعر بحرف الريف في بيت ، ويتركه في بيت آخر من قصيدته ، كقول القائل :

إذا كنت في حاجة مرصلا فأرسل ليبيبا ، ولا توصه

وإن بات أمر عليك الثرى فشاور حكيماً ، ولا تمصه

فالشاعر أتى بالريف في البيت الأول : وهو الواو التي قبل الصاد في « توصه » ، ولم يأت به في البيت الثاني . والحشر : زيادة في الكلام ، لا قيمة لها ، ولا فائدة منها . والقلق : الاضطراب ، وعدم الاستقرار . وكلام قلق : مضطرب ، فاسد ، غير فصيح ، ولا بليغ ، ولا واضح الدلالة . وقافية قلقة : لامية ، متجاذبة ، غير مستقرة في مكانها ، ولا ملائمة ، يأبأها ذوق الإديب . والسقوط : مصدر سقط (من باب قعد) في الكلام : أي زل ، وأخطأ . والسهو : مصدر سها عن الشيء (من باب هدا ، وسها) أي غفل عنه ، وذهب قلبه إلى غيره . ويراد بالسهو هنا : الميوب التي تقع في الكلام والشعر بسبب سهو المتكلم والشاعر ، أو غفله ، أو قلته لظننه ، أو اضطراب تفكيره ، وتشتت ذهنه . والمال : جمع حلة : —

تَغَايَرَتْ فِيهِ أَسْمَاعٌ وَأَنْثِدَةٌ فَكُلُّ نَادٍ عَكَاظٌ جِئِنْ يُرْتَجَلُ ٥٣

سوراد بها التغير التي يلحق ببعض أجزاء الشعر ؛ فيقتصر جمال وزنه ، وروعة موسيقاه .

أشار إلى ستة من عيوب الكلام : لفظه ، ولثته ، ولون عن شعره كل ما يشينه ويعيبه في نسجه وتأليفه .
وزلته وموسيقاه ، وسماءه ومغزاه .

(٥٣) تغايرت : اختلفت ؛ بمعنى ترددت ؛ أي رجعت مرة بعد أخرى . وفيه : إليه ؛ وفي : هنا ؛ بمعنى « إلى » ؛ أي تغايرت أسماء وأقنعة إلى هذا الشعر الرائق الفائق ؛ المحجب الخرب . وقد يكون للتغاير هنا ؛ بمعنى الاختلاف والاختصاص ؛ وكأن البارودي ينظر إلى قول أبي الطيب المتنبي :
أنام مله جلود من شواربها ويسهر الخلق جرأها ويخصم

والمنى ؛ أن الناس يختلفون في تعرف هذا الشعر ولقده ، ويختصمون في دراسته ولفظه ؛ فهو مادة غزيرة لغاهة ، وجمال واسع ليس لاختلاف النظرات والدراسات .

أو لعل هذه الكلمة معروفة في أصل الديوان عن « تفاوت » ؛ بمعنى تناحرت ، وتخاصمت ، وتخاصست . يقال : تشاح الناس في كذا ، أو عليه ؛ إذا شح به بعضهم على بعض ، وحرصوا عليه ، وتسايفوا إليه ، وتناقصوا فيه . والنادق ؛ مجلس تقوم ما داموا مجتمعين فيه ، وجمعه أندية . وتماكلوا ؛ تناهوا الأسماء ، وتناقصوا ، وتجادلوا وتبايعوا . ومنه « عكاظ » (يذكر ، ويؤث) ؛ وهو أشهر أسواق العرب في جاهليتهم . وكان يقام عشرين يوماً كل عام ، في شوال ، أو ذي القعدة ، بين « لخلة » و « الطائف » ، على بعد ثلاث ليال من مكة ، وفيه تجتمع قبائل للعرب للتماكل . ويرتجل المراد ؛ يلقن ، وينشد ، ولألب فاعله ؛ ضمير مستتر يعود على « كل بيت » في البيت الحسن . ولا يرتجال (في الأصل) ؛ ابتداء الكلام بلا روية . يقال : ارتجل الخطيب خطبته والشاعر قصيدته ؛ إذا ابتدأه من غير تهية ، أو إمداد .

يفخر بأن شعره قد جمع من المزايا والخصائص ما جعله شديد التأثير في عواطف الناس ، وعقولهم ، وأسماعهم ، وقلوبهم ؛ فهي تتألق إليه ، وتتأنس في روايته وسفله ، وتختلف في دراسته ونقده ، وتضن به ، وتحرص عليه .

وإذا تناهده المختاشون في أندية الأدب ، ومعاهده — رأيت كل ناد منها شبيهاً بسوق عكاظ .
ولا غرو ؛ فهذه القصيدة وكثير من شعر البارودي يضاهي شعر الفصحى من شعراء العصر الجاهلي في جزالة لفظه ، ورسالة تأليفه ، واستحكام نسجه ، وقوة جرمه ، وجريائه على السليقة والطبيعة .

لَا تُنَكِّرُ الْكَأَبُ الْحَسَنَاءَ مَنْطِقُهُ وَلَا يُعَادُ عَلَى قَوْمٍ، فَيُتَبَدَّلُ (٥٤)

(٥٤) نكر الامر (من باب فرح) ، والنكر انكاراً : جهله ، ولم يعرفه ، وانكر عليه لعل ، أو قوله : عابه ، واستهجنه ، ونهاه عنه ، والكأب : الناحذ : وفي الفتاة التي كعب لديها : أي نهذ ، والفتن : ولتاً ، وارتفع ، وبرز ، وظهر ، وأبشع كراعب . والمنطق : الكلام ، وبصدر طلق : أي تكلم . و « منطقه » : منطق أدبه المأثور الذي نبع في البيت التاسع والأربعين . أو منطق كل بيت من أبيات شعره . ويراد بمنطق الشعر : جرسه ، وقبضه ، وقائمه ، وحسن بيانه ، وجمال موسيقاه . وهماذ : يكرر : من الإعادة : وفي التكرار . ويتبدل : يمتن : من ابتذال الثوب ونحوه : أي أمثاله ، والاستهانة به ، وعدم صباه . وبجملته « يتبدل » : غير لمبتدئ مخلوف ، والتقدير : فهو يتبدل . والفاء هنا : للاستئناف ، كما في قول الله تبارك وتعالى : « ولا يؤذن لهم ، فيهتدون » . الآية رقم ٣٦ من سورة المرسلات .

والمنع : أن الكراعب الحسان يعرفن شعره ، ويقدرله . أو أنه إذا أشد لفتاحه الحسان لم تجهل جرسه وقبضه ، وحسن بيانه ، وجمال موسيقاه . أو أنها لا تسبحن منه شيئاً ، إذ ليس فيه ما يحفل بالانبات ، أو يفتنى له حين الإعجاب ، وإله لعماد ، ويردد ، ويكرر ، فتنق له - مع الإعادة ، والتريده ، والتكرار - قيمته ، ولغاسته ، وروحه .

ثم الشاعر هذه القصيدة بسة أبيات نظمها في الشعر بشعره ، والتدويه بمزايده ، وسلامته من العيوب والمشائين ، وتلقى الأصاح والقلوب به ، واشباله على ما يطلب النفوس ، ويبين مكارم الأخلاق ، وسيرته وفروعه وانتشاره في كل مكان ، وعمل كل لسان ، وتنافس الناس في روايته وحفظه وإنشاده والتغنى به ، وارتجال الكراعب الحسان لجرسه وقبضه وموسيقاه ، واستغفاله بقيمته ولغاسته مع الإعادة والتكرار .

تلخيص وتعليق

الفتح الشاعر هذه القصيدة بالفضل ، وبيان أثر الحب في نفسه ، وشكوى البين والفرق ، والتشجيع بالبقاء لأحبائه ، وإظهار التبرم بما ذلّه ، فاستغرق في هذا الغرض خمسة عشر بيتاً . ومنه انتقل إلى الشعر يلقبهم وشجاعتهم في الحروب ، ووصف جواده ، وصفه في سنة عشر بيتاً . وبلا توطئة أو تمهيد انتقل من هذا إلى وصف صحابة بمطرة ، ويرمى من أيام التفرّد والصيد في تسعة أبيات ، وكأنه أبا إلى عما حكاة الشعر الجاهل في كل خصائصه وهنائه ، ومنها الانتصاب والظفرة ، وضعف الروابط والصلوات بين أفراس القصيدة ، وفنون الكلام . وبعد هذا أورد ثمانية أبيات في الحكمة والنصح ، ثم غتم القصيدة بسة أبيات في الشعر بأدبه وشعره .

فهذه أربعة وخمسون بيتاً سلك فيها مسلك التحول من قداى الشعر في سبالة اللفظ . وصلاته ، واستحكام التأليف وروايته ، وبيان القبول على السليقة والطبيعة ، زجاً كام في أغراضهم ، وبما فيه ، وأنبياهم ، وتشبيحاتهم ، وعرض ما اقتضاه الحال من صور البيئة البدوية الصحراوية : ومظاهر الحياة والأحياء في تلك الصحارى والتغفار .

وَقَالَ يَصِفُ أَيَّامَ الرَّبِيعِ :

عَمَّ الْحَيَا ، وَاسْتَنْتِ الْجَدَاوِلُ وَقَاضَتِ الْفُتْرَانُ وَالْمَسَاهِلُ^(١)
وَأَزَيَّنَتْ بِنُورِهَا الْخَسَائِلُ وَغَرَّدَتْ فِي أَبْيَهِهَا الْبَلَابِلُ^(٢)
وَسَمِلَ الْبِقَاعُ خَيْرُ شَائِلُ فَصَفَحَةُ الْأَرْضِ نَبَاتُ خَائِلُ^(٣)
وَجَبَّهَةُ الْجَوِّ غَمَامُ خَائِلُ وَبَيْنَ هَلَيْنِ نَسِيمُ جَائِلُ^(٤)

(١) الحيا : المطر . واستنّت : انصبت ، وجرت . والجداول : الترع ، والأنهار الصغيرة .
مفردها جدول . والفتران : جمع غدير : وهو القطعة من الماء يقادها السيل . ويراد بالفتران هنا :
الفتريات ، ويجازى المياه المتفرقة من النيل وفرعه . والمنائل : الموائد : أى المشارب : جمع منهل (يوزن
مثلهب) : اسم مكان من نهل (من باب طرب) : أى شرب .
(٢) أزيّنت : أزدانت ، وتجمّلت . والنشور : الزهر ، وأحدته نشورة ، وجمعه أفوار . والخسائل :
جمع غميلة ، وهى الشجر الكثير المجمع المتلف . وغرد الطائر تغريداً : رفع صوته فى غنائه ، ورجّعه ،
ومده ، وسحبه ، وطرب به . والأبيك : الشجر الكثير المجمع المتلف . الواسدة أبيكة . والبلابل : جمع
بلبل : وهو طائر صغير ، من فصيلة الجوارح ، يقرب به المثل فى طلاقة اللسان ، وحسن الصوت .
فى البيت السابق عظم الشاعر شأن الحيا ، فافتتح به قصيدته ، وأشار إلى بعض آثاره ، من استنات
الجداول ، وقيضان الفتران والمنائل .

وفى هذا البيت أشار إلى نماء الأشجار ، وكثرتها ، والتفافها ، ونشورها ، وقزينا بأزهارها ، وأرتياح
طيور الفرد هذه المشاهد البهيمة ، والطلاق ألسنها بالتغريد والتطريب . وهذه كلها بعض آثار المطر والماء
فى الحياة والأحياء . قال تعالى : « وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنتجت
من كل زوج هيج » الآية رقم ٥ من سورة الحج . وقال تعالى : « ونزلنا من السماء ماء مباركا ، فأنبتنا به
جنانا ، وسحب الحميد » الآية رقم ٩ من سورة ق .

(٣) شمل (كفرح ، ودخل) . ويراد بالخير الشامل الذى هم البقاع والأراضى : ما أشار إليه
فى البيتين السابقين ، وفى النظم الثانى من هذا البيت ، وفى الأبيات الآتية من الماء ، والنبات ، والشجر ،
والزهر ، وأثمر ، وطيور الفرد ، والغمام ، والنسيم ، ومشاهد الطبيعة ومباحيها فى فصل الربيع . وصفحة
الأرض : وجهها . وخائل : اسم فاعل من خال بمعنى تكبر واعتال ، أو بمعنى كنى ، وأغنى . ونبات خائل :
كاف مفن ، أو مهتر بمحركة النسيم ، كالمختال المتأهل المصعب بنفسه .

(٤) جبهة الإنسان : ما بين الحاجبين إلى الناصية . والجو : الفضاء بين السماء والأرض . ويراد
بجبهة الجواهله . والغمام : السحاب ، وأحدته غمامة . وسافل : غفل ، كثير ، مجمع . وبين هلين : =

تَنْدَى بِهِ الْأَشْحَارُ وَالْأَصَابِلُ كَانَمَا النَّبَاتُ بَحْرٌ هَائِلٌ^(٥)
وَكَيْسَ إِلَّا الْأَكْمَاتِ سَاحِلُ وَشَامِخُ الدُّوْحِ سَفِينٌ جَافِلٌ^(٦)
مُعْتَدِلٌ طَوْرًا ، وَطَوْرًا مَائِلٌ تَهْفُو بِهِ الْجَنُوبُ وَالشَّمَالُ^(٧)
وَالْبَاسِقَاتُ الشَّمِخُ الْحَوَائِلُ مَشْمُورَةٌ عَنْ سُوقِهَا الدَّلَائِلُ^(٨)

= بين النبات والقمم . والنسيم : الريح الطيبة الينة اللطيفة . ويجائل : متحرك : اسم فاعل من جال : أى دار وطاف في غير استقرار .

(٥) تندى : تجدد ، وتسحق . من قولهم : « وإن يده لتندية بالمرحوف » (وبابه صدق) . وبه : بالنسيم . والأشجار : جمع سحر (بوزن سبب) : وهو الوقت آخر الليل ، قبيل الفجر . والأصائل : جمع الأصيل : وهو وقت اصفرار الشمن قبيل فروجها . وهائل : عظيم . رائع . جعل الأشجار والأصائل تندية بالنسيم ؛ لأنها خير أوقات الليل والنهار ، وبخاصة في أيام الربيع ، وفيها يطيب الهواء ، ويرق ، ويلطف ، ويلين ، ويتشمس الناس .

(٦) الأكات : التلال ، الواحدة آكة (بوزن قصبة) : وهى الموضع يرتفع عما حوله . وشامخ : مرتفع حال . والدوح : جمع دوحة : وهى الشجرة للطيعة المتشعبة ذات الفروع الممتدة . والسفين : السفك ، ومراكب البحر ، الواحدة سفينة . ويجائل : اسم فاعل من جال (من باب جلس) : بمعنى مضى وأسرع . أو شرد ولفر . أو فرح وأفرح . ويراد بالجاغل هنا : المهتز المتحرك .

= فى البيت السابق شبه المساحات الواسعة من لزروع والنباتات بالبحر العظيم الهائل الرائع . وفى هذا البيت تخيّل أن شواطئه وسواحه ما يحيط به من تلال الأرض ومرتفعاتها ، كما تخيل أن شوامخ الأشجار وضخامها المتفرقة فى هذه النباتات سفائن ومراكب فى ذلك البحر ، تهتز وتصعرك بحركات الرياح المتناوثة .

(٧) « معتدل » : غير لمعدل مخلوف ، والتقدير : هو : أى شامخ الدوح معتدل . وطورًا : مرة ، أو تارة . وتهفو به : تحركه ، وتهزه . والجنوب : الريح التى تهب من جهة الجنوب ، وبجملتها جنائب . وتخالفها الشمال : جمع شمال : وهى الريح التى تهب من جهة الشمال : وهى الجهة التى تقابل الجنوب ؛ وتكون على شمالك وأنت متجه إلى الشرق : أى إلى مطلع الشمس . والبيت فى وصف شامخ الدوح المشبه بالسفين الجائل ؛ فإن الجنائب والشمال تتناوبه ، وتتصاقب عليه ؛ تهفو به ، فيميد تارة ، ويمعدل تارة أخرى .

(٨) لباسقات : طوال التخل ، جمع باسقة . والشمخ : جمع شامخ : اسم فاعل من شخ (من باب خضع) : أى طال : ولاق : وهو تكرار وتأكيده لسمى لباسقات . والحوائل : المشتريات : = ديوان البارودى — ٢

مَلُوءَةٌ فِي جِيدِهَا الْمُتَكَائِلُ مَحْقُودَةٌ فِي رَأْسِهَا الْفَلَاوِيلُ^(٩) لِيُبَسِّرَ فِيهَا قَائِي وَنَاصِلُ مُخَضَّبٌ ، كَأَنَّهُ الْأَنْبَالُ^(١٠)

= جمع حاملة . ومشمورة : مرفوعة . ورشيها : جمع ساق ، وصاق النخلة : جعلها . وذلال الثوب أو القميص الطويل : أسافله ، وما يل الأرض منه . ويراد بالذلال هنا : سعف النخل ، وأصانها : وعصها الأخضر . والباسقات مبتدأ ، والشمس الخواص لمعان ، ومشمورة غير المبتدأ ، والذلال نائب فاعل مشمورة ، وعن سوطها متعلق بمشمورة .

يصف النخل مشيراً إلى بسوقها وطولها وارتفاعها ، وإلى ما تحمله من الثمر ، وكأنه ينظر إلى قبل الله تبارك وتعالى : « والنخل باسقات ، لما طلع لفسد » . الآية رقم ١٠ من سورة ق .

أما الشطر الثاني لمعان أن سعف النخيل وعصونها في رؤوسها وأصانها ، لا في سوطها وجذوعها ، حل خلاف كثير من الشجر . والبارودي قصيدة رائية في وصف أيام الربيع ، منها :

والباسقات الحاملات كأنها عهد مشعب الدار ، ومزار

عقدت ذلال سوطها في جيدها وسنت* ، فليس تنالها الأيسار

(٩) ملوءة : مشبعة ، أو مملوءة ، أو ممتلئة . والجيد : المتق . والمتك : المتكامل : جمع متكامل : وهو الكياسة : أي الصِدْقُ ، أي القِصَرُ انتام بشمارينه وبُسْره ، وهو من النخل كالصندوق من المنب ، وجميعه متكامل (بوزن مصفود ومصابير) . والكويون يميزون سلف المياه للتخفيف من مائل « مفاهيل » ، ليه ولون « عصار » في جمع مصفور . ومنه قول الله تبارك وتعالى : « وعنده مفاتيح الغيب » (الآية رقم ٩٠ من سورة الأنعام) ؛ إذا جعلناها جمع مفتاح . ومحقودة : مربوطة ، موقفة ، مشدودة . والذلال : جمع قليلة (بوزن سفينة) : وهي الشمر المجتمع ، ويراد بها هنا : السعف ، والخوص ، حل تشبيهه بالشمس . وملوءة غير بعد خبر لباسقات في البيت السابق . والمتكائيل نائب فاعل ملوءة . والذلال نائب فاعل محقودة . في الشطر الأول إشارة إلى المتكائيل : أي الأعناق ، أو الكعاس ، أو القشيرات الملوءة المتعلقة بما يل رؤوس النخيل حل التشبيه بالاعتناق ، أو الأجساد . وفي القرآن المجيد : « ومن النخل من طلعها قنوان دانية » الآية رقم ٩٩ من سورة الأنعام . وفي الشطر الثاني إشارة إلى الخوص والسعف الكثير المجتمع في رؤوسها ، المقترح منها حل تشبيهه بمحصل الشمر وقلاله .

(١٠) البسر : ثمر النخل قبل أن يرسط . أو هو البليح إذا لَوَّن ، ولم ينضج ، الواحدة بُسرة . وفيها : في المتكائيل ، أو في الباسقات . وقائ : أسمر شديد الحمرة . وفاصل : يراد به هنا البليح الأخضر إذا أخذ في الاحتراق ، قبل أن يقنأ وتشتد حمرة ، أو قبل أن تم الحمرة البليحة وتستوعبها . وهو (في الأصل) : اسم فاعل من فصل اللون (من باب خرج) : أي زال ، وعرج من الشيء الملون =

كَأَنَّهُ مِنْ ذَهَبٍ قَنَادِلُ مِنَ الْعَرَاجِينِ لَهَا سَلْسِلٌ^(١١)
لِلْمَنْجُونِ بَيْتَهَا أَزَامِلُ تَخَالَهَا مَحْزُونَةٌ تُسَائِلُ^(١٢)

= ونصل الشعر ، أو الثوب ، أو نحوها : زال عنه خطابه ولونه . ونخضب : اسم مفعول من التخضيب ؛ وهو التلوين ، ومنه الخضاب (بوذن كتاب) : وهو ما يخضب به ، كالحناء ونحوه . والأنايل : رصوص الأصابع ، وأطرافها . ويراد بها هنا : الأصابع . وترتيب الكلام في هذا البيت : اليسرى العاكيل ناصل ، موقاني نخضب كأنه الأنايل .

يصف اليسرى الباسقات ، أو في الأنايل والكباس والعراجين ، إذا أخذ في التلجج وتلون ؛ فبعضه خضيب الاحمرار ، لم تمتص الحمرة ، كأنه الشيء الناصل ، إذا خرج من معظم خضابه ، أو ذهب عنه معظم لونه . وبعضه أحمر قاني شديد الحمرة ، كأنه الأصابع المخضوبة .

(١١) كانه : كان اليسر ؛ وهو هنا يصف البلع الأصفر الفاقع اللهب . و « من » في شطري هذا البيت : بـيانية ؛ لما يملأها ويضج ما قبلها . وترتيب الكلام : « كان اليسر قنادل من ذهب ، لما سلسل من العراجين » ؛ « من ذهب » : بيان لقنادل . و « من العراجين » : بيان لسلسل . وقنادل : مصباح ؛ جمع قنديل (بوذن سككين) : وهو مصباح كالكوب ، يملأ ماء فوقه طبقة من الزيت ولدى وسطه فتول ، يشعل ، فيضوه بالزيت ، وجمعه القناسي قناديل ؛ وقد تقدم أن الكوفيين يميزون سلف ياء « مغايل » فيقولون : مصابير ومصافر ، وقناديل وقنادل . والعراجين : جمع هرجون (بوذن مصفور) ، وهو ما يعمل الشر . أو هو الملق ، وهو من التخل كالمنقود من المتب . أو هو أصل الملق الذي يمزج ، ويهتق حل التخله يابساً بعد أن تقطع عنه الشاريخ . ويراد بالعراجين هنا : الشاريخ : جمع شيرخ ، وشمروخ ؛ وهو الذي يجمع اليسر ويتنظله ، وأصله والملاكي ، أو الكيابة التي تجمع الشاريخ . والسلسل : جمع سلسلة ؛ والقنديل يملق عادة في سلسلة تحمله .

شبه اليسر الأصفر الفاقع اللهب المشرق البهيج - بقناديل من ذهب ، سلسلها الشاريخ .

(١٢) المنجئون : للدولاب ، أو الهالة يستحق عليها الماء ، أو الناحورة ، أو الساقية ؛ وهي آلة يرفع بها الماء من الترع ، والأناير ، والآبار ، والمناهل ؛ لسق النبات ، وإروائه . والمنجئون مؤنثة . وبينها : بين باسقات التخل . وأزامل : أصوات غخطلة ، مفردة أزيل (بوذن أفضل) . وتخالها : تخال المنجئون : أي تحسبها وتظنها . ومحزونة : حزينة . وتسائل : تسأل : مضارع سأل . بمعنى سأله عن كذا ، وسأله بكذا سؤالاً ؛ أي استخبره عنه ، ومن عادة المحزون الذي اشتد به الجرح أن يردد أسئلة لتتسرر وتتفجع .

انتقل الشاعر هنا من وصف باسقات التخل ، وأصنافها ، أو قنوتاتها ، وظلها ويُسرها إلى وصف ساقية ، أو ساقيات : أي سماعات ، أو فاعورات تدور بين هذه الباسقات لإرواء القرع ، =

لَهَا مُنْمَوْعٌ ذُرْفٌ هَوَائِلُ كَانَتْهَا أُمٌ بَيْنَيْنِ نَائِلُ^(١٣)
 فِي جِيدِهَا مِنْ ضَفَرِهَا حَبَائِلُ مِنَ الْقَوَادِيسِ ، لَهَا جَلَّاجِلُ^(١٤)
 تَدُورُ كَالشَّهْبِ لَهَا مَنَازِلُ فَصَاعِدٌ ، وَدَافِقٌ ، وَنَازِلُ^(١٥)

== وصق الثبات، منبجاً على أصواتها ، أو أفيها التي يتم على الحزن والأسى ، ويُسَمَّر بالتوسيع والتفسيح .
 ولا ريب أن صوت الناعورة أول شيء يطرَق سمع المرء ، ويستمرى انتباهه .

(١٣) لها : المنجنين . وذُرْفٌ : جمع ذارف (يوزن ذاكع وركع) : أى سائل ، منصب ،
 منهر . وهوائِل : تكرار ، وتأكيد للمعنى « ذُرْف » : جمع حامل : اسم فاعل من حمل الدمع (من بابي
 ضرب وقم) : أى فاض ، وسال ، وجرى . وكانها : كأن المنجنين . والبنين : الأبناء ، جمع ابن :
 وهو الولد الذكر . وشاكل : فقدت ولدعا ، يقال : امرأة ثاكل ، وثكئ ، وثاكلة

في البيت السابق جعل صوت المنجنين أنيماً يتم على الأسى والحزن ، والتفسيح والتوسيع . وفي هذا البيت
 شبهها بمن فقدت أبناعا ؛ فهي لا تلتفتاً تيكهم بدموع غزيرة ، فياضة ، متتابعة ، منبهة .

(١٤) في جِيدِهَا : في جسد المنجنين . والجيد : العُنُق . ومن ضَفَرِهَا : من ضفر بإسقاط
 النحل ؛ يريد ليها المغفور : أى المقتول . وحَبَائِلُ : حبال . كأنه جمع حبل على غير قياس .
 و « من » في الشطر الأول لتبيين والتوضيح : أى والمنجنين في عنقها حبال من ليف النخل المغفور .
 و « من » في الشطر الثاني لتفيد التعميل : أى بيان الملة والسبب : أى والمنجنين جلاجل ، سبجا
 حركة القواديس : جمع قادوس (يوزن ناقون ونواقيس) : وهو وهاء غزقي ، أصغر من الجرة ،
 تنظم منه ، ومن أمثاله سلسلة تدبرها الناعورة ، فتعرف الماء من البئر ، أو التربة ، أو النهر ،
 أو المنهل إلى المزرعة لإرواء الثبات والزرع ؛ وقد تكون للقواديس من غير الخرف ؛ وقد تكون على هيئة
 أخرى غير هيئة الجرة ؛ وهي تصعد ملأى من الماء ، وتبسط فافرة ؛ وبحركات الصعود والهبوط ، واغتراف
 الماء وتقرينه وصبه تسع الجلاجل : جمع جلجلة (يوزن زوبعة) : وهي صوت شديد ، سببه الحركة
 والتحالة . ولها : المنجنين ، أو لحبالها التي ربيطت فيها القواديس .

والبيت في وصف القواديس المؤثرة في عنق المنجنين بحبال متينة مضفورة من ليف النخل ؛ وهي
 في هبوطها ، وصعودها ، وغرف الماء وإفراغه - تحدث جلاجل وأصواتاً شديدة .

وقد يراد بالحبال : المقود ، والقلادة ، على التشبيه ؛ وحبل هذا يكون المعنى : أن في عنق المنجنين من
 ليف النخل المقتول ، والقواديس المنظمة فيها يشبه المقود والقلادة ؛ وأن حركات هذه القواديس في هبوطها
 وصعودها ، واغترافها وتقرينها جلاجل وأصواتاً شديدة .

(١٥) فاعل « تدور » : ضمير القواديس في البيت السابق . والشهب : الدزاري : أى الكواكب
 والنجوم المتأللة الالامعة المضيئة ، واحداها شهاب (يوزن كتاب وكتب) . ولها : للقواديس المشبهة ==

وَالْمَاءَ مَا بَيْنَ الْغِيَاضِ سَائِلٌ تَحْنُو عَلَى شُطَائِهِ الْغَيَاطِلُ^(١٦)
كَأَنَّهَا حَوَائِمٌ نَوَاهِلٌ وَالطَّيْرُ فِي أَفْنَانِهَا هَوَادِلُ^(١٧)
تَزْهُو بِهَا الْأَشْجَارُ وَالْأَصَابِلُ فَانْهَضَ إِلَى نَيْلِ الْمُنَى يَا غَافِلُ^(١٨)

= بالشهب . ومنازل : أماكن تنتقل بينها . ومنازل القمر : مداراته التي يدور فيها حول الأرض . وفاق : اسم فاعل من فلق الماء : أي صبه بشقة . (وبابه نصر) .

يقول : إن هذه القواديس تدور كما تدور النجوم في منازلها ؛ ثم فعل هذه المنازل في الشطر الثاني ، فقال : إنها ثلاث : منزلة نزول القاديس لاختلاف الماء من بحر المنجنون ، ومنزلة صموده وهو علوه ، ومنزلة دفعه ما يحمله من الماء في المجرى ، أو القنطرة على سطح الأرض لإرواء النبات ؛ ثم تميد الدورة كما بدأت ، وهكذا دواليك .

(١٦) الغياض : جمع غيضة (بوزن ضبعة) : وهي الموضع يكثر فيه الشجر ، ويكتف . أو هي الأجمة : أي الشجر الكثير المتلف . أو هي مجتمع الشجر في مفيض الماء . وتحنو : تميل ، وتعتطف . وشطائه : شطآن الماء : أي شطآن القنوات ويجاري المياه : جمع شط : وهو الشاطئ ، وجانب النهر . أو هي شطآن : جمع شاطئ . والغياطل : جمع غيطلة (بوزن جوهرة) : وهي الشجر الكثير المتلف ، أو جماعة الشجر والمشب .

يصف غزارة مياه المنجنون ، وجريانها بين الأشجار الكثيرة الملتصقة المتلفة ؛ وهو الأعشاب والأشجار . في انعطاف وحسن على جوانب هذه المياه ، وشطآن قنواتها ويجاريها .

(١٧) كأنها : كأن الغياطل : وهي الأشجار الكثيرة الملتصقة القائمة في سنن وانعطاف على جوانب المياه ، وشطآن مجاريها . وحوائم : طيور حوائم : أي حطاش : جمع حاتم ، أو حائمة ، وهو الطائر يحوم على الماء : أي يدور حوله قبيل وروده . ونواهل : شاربات مرقوبات : جمع ناعلة : اسم فاعل من نهل (من باب طرب) : أي شرب حتى روى . وأفنانها : أفنان الغياطل : أي أغصانها : جمع فنن (بوزن سبب وأسباب) . وهوادل : جمع هادل ، أو هادلة : اسم فاعل من الهديل : وهو صوت الحمام ، وسجبه ، وقطريه ، وفناؤه .

شبه الأشجار الكثيرة القائمة على شواطئ المياه الفزيرة التي أجرتها الناعورة أو النواعير الدائرة بين الباسقات في هذه المساحات الواسعة من الزروع والنباتات - شبهها بالطيور تحوم حول الماء ؛ لتنهل منه وترقى ، ثم أنصاف إلى هذه الصورة هديل الحمام ، وتقريده الأكليل على أغصان هذه الأشجار مرحاً وإبتهاجاً بمسك الطبيعة ونفرتها ، وكثرة غيراتها .

(١٨) تزهو : تشرق ، وتجل ، وتزدان . أو تتيه ، وتتعاطر ، وتقتصر . وبها : بالغياطل ، والماء ، والغياض ؛ أو بما وصفه ، وأشار إليه في الأبيات السابقة من محاسن الطبيعة في فصل الربيع . والأسعار : =

وَأَنْتُمْ ، فَيَأْتِمُ الصَّبَا قَلَائِلُ وَالْمَرْءُ فِي الدُّنْيَا خَيْالٌ زَائِلٌ (١٦)
وَالدَّهْرُ لِلْإِنْسَانِ يَوْمًا أَكَلٌ وَكُلٌّ شَقِيٌّ فِي الزَّمَانِ بَاطِلٌ (٢٠)

= جميع السحر : وهو الوقت قبيل الفجر . والأصائل : جميع الأصيل : وهو الوقت حين تصفر الشمس لغربها ، أو الوقت بعد العصر إلى المغرب . ونهض إلى كذا (من باب قطع وضضع) : قام إليه ، وأقبل عليه في يقظة ونشاط وسرعة . وقال الشيء يناله فلان : أدركه ، وبلغه ، وأصابه ، وظفر به . والمضى : جميع منية (بضم لسكون) : وهي الأمنية : أي ما يمتناه المرء ، ويرغب فيه . وغافل : اسم فاعل من غفل عن الشيء (من باب قعد) : أي سها عنه ، وتركه ، من قلة التحفظ ، وضعف التيقظ . ويراد بالأصهار والأصائل : أوقات النهار والليل ، وإنما غصبها بالذكر ؛ لأن الطبيعة تبدو فيها على أم حسنها ، وفي أبيي حلها .

يقول : إن الدنيا في النهار والليل تزددان وتزهي بمحاسن الطبيعة في أيام الربيع ؛ وبينه الغافل ، ويستغيبه لإدراك ما يمتناه من نعيم الحياة ، وبهجة الدنيا ، ولذة العيش ، ورغاء البال في هذا الفصل الجبج المتع ، وهذه البيئة الناعمة الزاهية .

(١٩) انم : تمتع . وتندم . والعصا : الصغر ، والحدائة . ويراد بأيام الصبا : زمن الفتوة ، وعصر الشباب . والخيال : العليف . وخيال كل شيء : ما تراه كالظلل . وزائل : ذاهب ، فان ، هالك .

في البيت السابق فيه الغافلين على محاسن الطبيعة في فصل الربيع ، واستغيبهم لإدراك ما يتمتعون من متعة النفس ، ورغاء البال في أحضان هذه الطبيعة المحلوة البهجة الممتعة .

وفي هذا البيت حرص على اختتام زمن الفتوة والشباب للاستمتاع بطيبات العيش ، ونعم الحياة قبل فوات هذا الزمن ، فإنه قصير ، قليل ، محدود ؛ بل العبر كله كذلك ، والإنسان في الدنيا كالظل ، أو العليف الذي يظهر بهفة ، ولا يلبث أن يلعب ويزول ، والبيت الآق تكرار وتأكيد لمعنى الشطر الثاني من هذا البيت .

(٢٠) الدهر : الزمان . وباطل : اسم فاعل من يطل الشيء (كقعد) : أي ذهب غياعاً وغسراً .

هذا البيت في معنى الشطر الثاني من البيت السابق ؛ فالدهر يهلك الإنسان لا محالة ، ويقضى عليه يوم يأتي أجله ، وكل خلقه مصيره في الدنيا إلى البطلان والضياع ، ولقدنا هو المهلاك . ولا تدع مع الله إلهاً آخر ، لا إله إلا هو . كل شيء هالك إلا وجهه . له الحكم ، وإليه ترجعون . الآية رقم ٨٨ من سورة القصص . وصلة هذين البيتين الأخيرين بموضوع هذه القصيدة : أن الطبيعة في أيام الربيع تبدو في أبيي حلها ، وشير أسوأها ، وأنها تنجح للناس جميعاً من المتعة والبهجة ما لا يتلح لهم في غير هذا الفصل المتع البهيج ؛ ولهذا ينبغي أن يفهم الإنسان انبئرس المواتية ، فينتقم بما أتبع له من أطايب العيش وشيراته ، =

وَقَالَ يَصِفُ الْبَحْرَ :

وَذِي حَدَبٍ يَنْتَجِبُ بِالسُّفَنِ كُلَّمَا زَفَّتْهُ نَفْوُجٌ ، فَهُوَ يَغْلُو وَيَسْفُلُ^(١)
كَأَنَّ اطْرَاقَ الْمَوْجِ فَوْقَ صَرَائِهِ نَعَائِمٌ فِي عُرْضِ السَّمَاءِ جُجُلٌ^(٢)

== وزينة الدنيا وجهتها قبل أن تهصر الشيفوخة حوده ، ويأكله الدهر . « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » . الآية رقم ٣٢ من سورة الأعراف .

تلخيص

جاءت هذه القصيدة في عشرين بيتاً : سبعة الأبيات الأولى منها في المطر الشامل ، والمياه الغياصة والخصب ، والزرع ، والنبات ، والشجر ، والغمام ، والندى ، ونشاط طيور الفرد ، ولطف النسيم وريقته ، وكثرة الخير وشموله . وفي أربعة الأبيات التالية وصف التخييل وثمارها . ثم انتقل إلى ناعورة ، أو ناعورات تلور بينها ، فوصفها في أربعة أبيات أخرى . ثم عاد بعدها في بيتين آخرين إلى الماء ، والشجر ، والطيور . وفي ثلاثة الأبيات الأخيرة شبه تلمخيص للأبيات السابقة ؛ فقد أخلت الأرض زعفرها وازينت في هذا الفصل البهيج المتع ، وثبتت الفاقين ، واستهتبتهم ، وسفستهم حل اختتام فرصة الققاء والشباب ، بل فرصة العمر لاجتلاء محاسن الطبيعة ، والاستمتاع بهجة الدنيا وزينتها ، ومنع الحياة وطيباتها قبل أن يهصرنا المشيب ، ويهركنا الموت .

* * *

(١) هذه القصيدة من لزوم ما لا يلزم ؛ فقد اتزم الشاعر فيها الغاء قبل الروى ، وهو التزام لا تحتمه قواعد القافية .

حذب الماء : تراكبه في جريه . وحذب البحر : ارتقاع موجيه ، على التشبيه بالربيل المحنودب . وذى حدب : ورب بحر صاحب حدب : أى ما تيج ؛ فالواو في أول هذا البيت : واو « رب » : أى الواو الدالة على « رب » المحلوفة بعدها . و « رب » : حرف جر ، ومعناها هنا : الكثير . وينتج : يهيج ، ويضطرب ، وتتلطم أمواجه . وينتج بالسفن : يضطرب بها ، ويجزها بمنف . وزفت : حركته ، وهاجته . ونفوج : ريح شديدة الهبوب ، سريعة ، ذات صوت شديد . وطلو البحر وسفوله : تصوير لشدة تموجيه وهيجانه واضطرابه .

افتتح الشاعر هذه القصيدة بالإشارة إلى تموج البحر ، وإلى الرياح الشديدة السريعة التي تستغله وتستغزه ، وتضاعف ثورانه وهيجانه ؛ فينتج بالسفن ، ويلطمها ، ويحرمها الأمن والسلامة .

(٢) اطراد الموج : تناميها ، وتلاحقه ، كأنها يطرد بعضها بعضاً . وبراة البحر : ظهوره ، ومطبه . والنعائم : جميع النعامة ؛ ويضرب بها المثل في الخوف والإجفال والنفور والحرب وشدة العدو وسرعته . ==

إِذَا شَاغَبَتْهُ الرِّيحُ جَاشَ عُبَابُهُ وَظَلَّ أَعَالِي مَوْجِهِ يَتَجَلَّجَلُ^(٣)
يَهَيِجُ ، فَيَرْغُو ، أَوْ يَجْعُ ، كَأَنَّمَا تَحْبِطُهُ مِنْ أَوَّلِي الضَّغْنِ أَزْفَلُ^(٤)
تَقْسِمُهُ خُلُقَانٍ : لِينٌ ، وَشِدَّةٌ يَحْصِفُهُ رِيحٌ ، فَهُوَ دَاهٍ ، وَأَزْفَلُ^(٥)

= والمرس (يفتح فسكون) : السمة ، وغلاف اللؤلؤ . أو هو «عرض» (بضم فسكون) : بمعنى الجانب ،
والناحية ، أو الوسط . والجاوة : سمراء مشجرة بين أشام والمراق . وتعرف ببادية السارة . ويجفل :
ناقرات ، عاديات ، مسرعات : جميع جائل (بوذن دأبح وركم) .

شبه تتابع الموج وتلاحقه في سرمة وقوة فوق سطح البحر - ينمام انزعجت فأجفلت ، وندت ، ونفرت
متلاحقة متتابعة في عرض البادية .

(٣) شأغبت الريح : هيجهت ، وأثارت . وجاش (من باب باح) : احتاج ، وثار ، واضطرب .
وعبابه : موج ، وبلجة . وظل : صار . ويتجفل : ينتفش ، كما ينتفش الصوف ، أو القطن : أي
يتشمت ، ويفترق ، وينتشر بهد تليد . ويقال : تجفل الديك : إذا تنفش ريش عنقه .

يقول : إذا أثارت الرياح البحر ، احتاجت لجهه ، واضطربت لأمرأه ، وأرتفعت ، وأصطنحت ،
وأنفشت أعالها ، كأنها الديك ينفش ريش عنقه إذا ثار واحتاج ، وأراد القتال ؛ ولعله مع هذا يشير
بالتجفل إلى الرغوة ، أو الزبد المنفوش في أعالي الموج إذا احتاج البحر .

(٤) يهيج : يثور ، ويحتاج ، ويضطرب . ويرغو : يثقف بالزبد والرغوة ، أو يهيج ،
ويصبو : من الرغاء ، وهو صوت الإبل والنعام ونحوها ؛ فهياج البحر ينتج الفجيج ، وما يشبه الرغاء ،
كما ينفش في أعالي موج الزبد والرغوة . ويهج (كيفج ، ويمل) : يصيح ، ويرفع صوته ، أو يشتد .
وقد تكون «أو» هنا : بمعنى «أو» ؛ فالإرغاء ، والرغاء ، والفجيج من لوازم هيجان البحر ولتأله .
وتحبطه : مه ، وأصابه ؛ وتخبط الشيطان فلاناً : أي مه بأذى ، أو يخبط ، أو يثني من الجنين .
والأولى (بوذن الأولى) : الجنين ، أو شبهه ، أو سر منه . والضغن : الحقد ، وإشجار أمداءه والبخساء .
والأزفل : الغضب ، والحدة . و «من» : بيانية . وتزريب الكلام : كأنما تحبطه أزفل من أولي
الضغن .

والبيت تكرار وتأكيده وتفصيل معنى البيت السابق ؛ فالبحر يثور ، ويهيج ، ويضطرب ؛
فيرغى ويزيد ، ويهيج ويحبط ، كأنما اشتد به الغضب ، فته حدة من جنون الحقد والبخساء .

(٥) تقسمه : اقتسمه . من قولهم : تقسموا الشيء بينهم : أي اقتسموه ، فأخذ كل منهم قسماً منه ؛
أي حظاً ونصيباً . وخلقان : مثنى خلق (بضم فسكون) : وهو السجية ، والطبع ، والنريزة ، ومثله الخلق
(بضمين) ، أو هو حال النفس راسخة ، تصدر عنها الأفعال من غير حاجة إلى فكر وروية ، وجمعه =

عَلَوْنَا مَطَاهُ وَهُوَ سَاجِرٌ ، فَمَا انْتَبَرَتْ لَهُ الرِّيحُ حَتَّى ظَلَّ يَهْمُو ، وَيَرَّ قُلٌّ (٧)
كَأَنَّا عَلَى أَرْجُوْحَةٍ ، كُلَّمَا وَنَتْ أَحَالَ عَلَيْنَا قَائِمٌ ، لَيْسَ يَغْفُلُ (٨)

«أعلاق . ولين ، وشدة ، بدن من خلقان . و«مصفى ريح» : متعلق بشدة . والباه هنا : السببية : أى شدة سببها عصفه ريح : اسم مرة من عصفت الريح (من باب ضرب) : أى عنفت ، واشتدت . وداه : اسم فاعل من الدهاء : وهو التكر ، والمكر ، والاحتيا ، والحلق ، وجودة الرأى ، وصحة البصر بالأمور . والأرقل هنا : ضد الداهى : أى الأخرق الأسحق : صفة من الرقل (بوزن التثنية) : وهو الخرق ، والحماقة ، وقلة العقل ، وضعف الرأى ، وضاد التصرف ، وسوء التدبير . والدهاء والأرقل هنا مضطادان ، يقابلان القين والشدة ، فالبحرق لينه داه ، وفي شدته أرقل .

والحمى : تناوب البحر خلقان مختلفان ، متباينان ، متناقضان ، فهو أسحاناً لين هادئ ، كالداهى الماكر ، وأسحاناً متعصف به الريح ، فيثور ، ويهيج ، ويفقد هدوئه واعتداله ، ويبدو كالأخرق الأسحق ، السفه ، الطائش .

(٦) علوانه : صعدناه ، وركبناه . ومطاه : ظهره . وساج : ساكن ، هادئ . وجملته «وهو ساج» حال من الضمير فى «مطاه» . وانبرت له الريح : اعتزفت له ، وتصدت . وظل : صار ، أو جعل ، وطلق . ويهمو : يهتز ، ويضطرب . ويرقل : يخرج عن سجد ، وسكونه ، ويدلوه إلى الخرق ، والحلق ، والعلش : مضارع «رقل» (كفرح ، ونصر) : بمعنى خرق ، يسمق . أو «رقل» (كنصر ، وقعد) : بمعنى تيمت ، واهتز ، ومحايل . أو مضارع أرقل إظهاراً : بمعنى التيهنر ، والاهتزاز ، والتمايل . يقول : ركبنا هذا البحر وهو هادئ ساكن ، فلما تصدت له الريح انقلب حاله ، فجعل يهتز ويضطرب .

وفى البيت إشارة إلى شدة تأثر البحر بالريح ؛ لأنها لا تكاد تنبرى له حتى تخرجه من سجد ويدلوه إلى الثورة والارتق ، والخرق والحماقة .

(٧) الأرجوحة : ما ترتجح براكبها ، وهى على أشكال وأنواع كثيرة عظيمة : فقد تكون خشبة ، أو شجها ، تعلق بحبل ، ويركبها الصبيان الهو ، أو الرياضة ، لترتجح بهم ، وتقل ، وتهتز ، وتعلو ، وتهدل . وقد تكون حبلًا يشد طرفاه فى مكان مرتفع ، ويقعد فى وسطه الصبيان واحداً بعد واحد ، ويميلون به : فيجىء ، ويلعب ، وهبط ، ويرتفع ، معلقاً فى الهواء . وقت : (من باب وعد) : توافقت ، وفترت ، وحدت ، وضمت حركتها . وأحال عليها : دفعها إلى الحركة ، والاهتزاز ، والترجح . من قولهم : أسأل عليه بالسوط : أى أقبل عليه يضر به به . وقائم : اسم فاعل من قام على الأمر : أى دام وثبت . وقام للأمر : أى تولا ، ونهض به . ويغفل (مضارع غفل من باب غفل) : أى سهر ، أو همل .

فَطَوَّرًا لَنَا فِي غَمْرَةِ اللُّجِّ مَسْبَحٌ وَظَوَّرًا لَنَا بَيْنَ السَّمَائِكَيْنِ مَخْفِلٌ^(٨)
فَلَا هُوَ إِلَّا دُعَاهُ بِالْجِدِّ يَرْهَوِي وَلَا إِنَّ سَأَلَتْهُ الْهَوَادَّةُ بِخَفِيلٍ^(٩)

= في البيت السابق قال : إن الريح انبرت البحر ، فقلبت حاله ، وأخرجته من سجنه وهله ، وجعلته هتزازاً براكبيه في خرير وجملة .

وفي هذا البيت والبيت الذي يمهده تصوير حسيّ يبلغ لهذا الاهتزاز ؛ فلقد كنا فيه كركائب الأروحة التي لا تنفأ تهتز براكبها في صف وقوة ؛ وكلما قُوت حركتها جدها ، وأشطها ، وقواها قائم عليها ، متكل بها ، دائب ، يقط ، لا يتركها ، ولا يهملها ، ولا يكاد يهملها ؛ يريد أن الرياح لا تنفأ تهب حل البحر ، وتمصف به ؛ فيتموج ، ويثور ، ويهتاج ، ويضطرب بنا .

(٨) الطور : التارة ، والمرة . واللج : معظم الماء ، وكثرته ، وزحمته . وغمرة اللج : كثرته ، وشدته ، وزحمته ؛ أي ما يغر السابح ، ويطنبه ، ويزدحم حوله من اللج والأمواج المتردة . ومسبح : اسم مكان من السباحة ؛ وهي السَّوْم . والساكان : نجمان نيران ؛ أحدهما في جهة الشمال ، ويسمى السالك الراح ؛ لأن أمامه كوكباً صغيراً ، يقال له : راية السالك ، ورُحْه . والآخر في جهة الجنوب ، ويسمى السالك الأزل ؛ لأنه لا شيء بين يديه من النجوم والكواكب ؛ فكان كالأزل الذي لا ربيع معه . والمخفيل : المجلس ؛ أو مكان الخليل ؛ وهو الاجتماع والاحتشاد .

والبيت توضيح ، أو تكملة ، أو تفصيل لصورة الارتجاج في البيت السابق ؛ فإن السفينة المشبهة بالأروحة كانت تهبط براكبها تارة ؛ فيسبحون في غمرات ذلك البحر القبيح المائج النائر . وتارة تملو بها الأمواج المائلة علواً كبيراً . وقد غالى الشاعر في هذا المعنى ، وتزيده وبالغ حتى جعل الموج يصل بهم إلى السالكين .

(٩) هو : أي البحر . وبعثاه : أفرغناه ، وأخفناه . وإراد غاششاه ، وصارناه ، ولم نعبأ به . والجند (يفتح الجيم وكسرهما) : ضد الخزل . ويراد به هنا : الصبر ، والصرامة ، والجند . والنبات . ويرمى : يربح ، ويكف ، ويرتدح ؛ والمراد يكف عن هيجانه واضطرابه ، ويمد إلى السجو ، والهدوء . والهوادة : الرق ، واللين . ويخفل : يحصل : أي يبالى ، ويكثر ، ويأبه ، ويهتم . وماضييه (محفل من باب ضرب) .

والمعنى : لما رأينا البحر سادراً في هيجانه وطنيانه — أخلقنا لغاليه ؛ فحاولنا بالملاينة ؛ ثم بالهشاشة أن نكفه ، أو نهد من تهيج واضطرابه ، فلم يبالنا ، ولم يكثر لنا ؛ بل تمادى وتغالى في ثورانه وهيجانه ؛ =

عَرَوْنَا - فَأَبْخَلْنَاهُ - فَضَلَ حَبَائِهِ وَ مِنْ صَجَبٍ إِمْسَاكُهُ وَهُوَ نَوْظُلٌ^(١١)
 قَلِيلٌ عَلَى عَهْدِ الْإِخَاءِ تَبَسُّلُهُ فَاسْفَلُهُ عَالٍ ، وَعَالِيهِ سَافِلٌ^(١٢)
 إِذَا حَرَّكَتَهُ غَضَبُهُ مَاتَ حِلْمُهُ وَظَلَّ عَلَى أَضْيَافِهِ يَتَأَفَّلُ^(١٣)

= كأنه يريد أن يملأ قلوبنا خوفاً وقزاعاً ، ولم يمتد إلى هدوته وسكونه حتى بعد أن رأنا ثابتين مطمئنين ،
 غير آبهين لثورته .

أو المعنى : أننا سألنا البحر بالرفق واللين ، ثم سألناه بالهشاشة والصرامة أن يقلع عن ثورته ، ويعود إلى
 هدوته ، فلم يفعل بنا ، ولم يبالنا .

(١٠) عراه يعمره : قصد طالباً رفده ومعرفه . وأبخلناه وجدفاه بجيلاً غير كريم . وهى جملة
 معترضة بين « عرفنا » ومفعوله ، وهو « فضل حبايه » . والنفضل : الزيادة ، أو الإحسان ، أو الابتداء
 بالإحسان بلا حلة . وسباه كذا ، وبكلا : أسطاه لإياه بلا جزاء . وألغياه (بوزن الكتاب) : العطية ،
 وما يجبره الكرم من يقصده ، ويكرمه به من الهبات ، والجود ، والسخاء ، وحسن اللقاء . وبخل البحر هنا :
 إسمائه إلى ركابه ، وإزواجهم بشورائه وحيبائه . وألغياه المقصود هنا : أن يسالم البحر من يعمره ،
 ويجبره بالأمن والسلامة . وسجب من الشيء (من باب سجب) : أنكره لقلة احتياده لإياه . والسجب :
 روعة تأخذ الإنسان عند استعظام الشيء . والإسائك هنا : الشح ، والبخل . والمعنى : أن إسائك البحر
 وشحه وبخله من الأمور المنكرة المستغربة التى تثير السجب ، وتدمر إلى اللبس . والتأفّل : من أسماء البحر .
 ورجل نؤفل : كريم ، سخي ، جواد ، معطاء ، وجملة « وهو نؤفل » جملة حالية .

يقول : طلبنا من هذا البحر أن يعاملنا معاملة الكرم لمن نزل به ، فرأيناه بجيلاً يسره إلى أضيافه ؛
 فكان هذا حجباً مع شهرته بالجود والسخاء .

(١١) « قليل » : غير « ثباته » مقدم عليه . و « حل عهد الإخاء » متعلق بـ « ثباته » . وعهد
 الإخاء : ميثاقه ، وجمعه عهود ، أو هو مصدر عهد الشيء (من باب فهم) : أى حفظه ، وراعاة ،
 حالاً بعد حال . والإخاء : مصدر آخاه : أى اتخذه أخاً ، وصار له صديقاً . ومثله المأخاة ، والأخوة .
 وأشعر الثاني تصوير لتقلب البحر ، وتغيره ، وعدم استقراره ؛ وهو تأكيد وتعزيز لحقى الشطر
 الأول .

يقول : إن البحر لا يحفظ موثق الأخوة ، ولا يراعى محبة صاحب ، ولا يصون عهد صديق ؛
 فهو متقلب ، متغير ، متكرر ، عثوث ، غدار .

(١٢) « حرّكته » : حركته البحر : أى حاجته ، وأثارته . والنفضية : اسم مرة من النفض . والحلم :
 الأناة ، والصبر ، والرزانة ، والسلامة . وضده العيش ، والتزق ، والجهل ، والفسه . وموت حلم البحر :

شَدِيدُ الْحَمِيَا يَمْزِجُ النَّاسَ بِطَشُهُ وَلَكِنَّهُ مِنْ نَفْخَةِ الرِّيحِ يُجْبِلُ (١٣)
كَأَنَّ أَهْلَ الْمَوْجِ عَنْهُمْ مُشَعَّتٌ بِهِ ، وَأَنْحَدَارَ الشَّيْحِ شَعْرٌ مُقْلَقِلٌ (١٤)

« كناية عن ثورته وهياجه . وظل : صار . وظل يفعل كذا : دام . حل فعله نهائياً وليلاً . والأنصاف : جميع الأنصف ، وظله الضيوف ، والضيوفان . ويتأفل : يتكبر .

جعل المبحرين ضيقاً حل البحر ، ووصمه بأنه لا يراعى حقوق الضيافة ، بل سزعان ما يتكبر لهم ، ويتكبر عليهم ، ويفقد حلمه واعتداله إذا أثارته غصبة من للضيوفات التي لا تفتأ تشابهه وبهجه .

(١٣) شديد الحميا : غير لمتدل محلو . والتقدير : هو : أي البحر شديد الحميا : وحسباً كل شيء : فده ، وحدته ، والمراد هنا : حميا الغضب : أي شدته وعنفه وحدته . والبش : الأخذ للشدة العنف عند الغضب : مصدر بطش به (من باب ضرب ونصر) : أي أخذه بمسولة ، وشدة ، وعنف ، وبأس ، وفلك به . ونفخة : اسم مرة من النفخ . وأجفل اجفالا : خاف ، وفزع ، وانزعج : فند ، وشد ، وفزع ، وأسرع في الخزيمة والحرب . وظله جفل (كضرب ، وقعد ، وجلس) .

والمنى : أن البحر — على شدة بأسه ، وغويف الناس من عنفه ويطشه — يجبن ، ويستخفى ، أمام الريح ، ولا يتكاد يصمد لها ، أو يقوى عليها ؛ بل إن نفخة واحدة من نفخاتها تزججه ؛ فيزعمه ، ويضطرب شديداً ولزماً .

(١٤) المهن : الصوف . والقطعة منه عنة . ومشعش : منتشر ، متفرق ، متفوش . وبه : بالبحر ، وصاح الماء وقصود (من باب صاح) : سال ، ويجرى . والسبح : الماء الجاري (تسمية بالمصدر) والحدار السبح : هبوطه ، والسطاط من علو إلى سفلى . والمراد هنا : مطلق جرياله . وشعر ملققل : مجعد ، شديد الحموية : وهي اجتماع الشعر ، وتقبضه ، والتواء مع قصره . وشعر الشعر السبط : وهو الطويل ، المسترسل ، السهل المعتدل .

فيه ما علا وأرتفع من الزبد والرفوة فوق أمواج البحر إيهان هيجانه واضطرابه — بالصوف المتفوش . وفيه ما سال ويجرى من مياه يفت هدوئه وسكونه ، بالشعر المجعد ؛ فإن الرياح الآتية اللطيفة إذا جرت فوق سطح الماء ، حركته حركات وأهية جميلة ؛ وهذه الحركات ترمم فوقه حياضك وطرائق ؛ فيبدو كالشعر المجعد . وصفت البحر في سالي هياجه وهدوئه ؛ فهو إذا هاج ومج ، أرغى وأزبد ، وإذا هدأ وسجا ، جرت مياهه متجمدة ، كأنها الشعر الملققل .

ويلاحظ أن القصيدة الأولى من هاتين القصيدتين تقدمت في الشعر الثاني من البيت الثالث : « وظل أهالي موجة يجفل » .

ذَكَرْنَا بِهِ مَا قَدْ مَضَى مِنْ ذُنُوبِنَا وَفِي النَّاسِ—إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ—غُفْلٌ^(١٥)
وَكَيْفَ تَرَانَا صَانِعِينَ ، وَكُلُّنَا بِقَارُورَةٍ جَنَّمَاءَ ، وَالْبَابُ مُقْفَلٌ^(١٦) ؟

(١٥) ذكر الله : استغفره ، ويرى على لسانه ، أو في ذهنه . ويظنه تذكره . وبه : ألباه هنا بمعنى «في» : أي تذكرنا ونحن في البحر ماضى ذنوبنا . أو هي السببية : أي تذكرنا ماضى ذنوبنا بسبب ما ألباهنا من أهوال البحر ، وشدائده ، وأخطاره ، ومضاهيه . و « من ذنوبنا » : بيان لـ « ما قد مضى » . و « في الناس » : خبر لـ « غفل » مقدم عليه . وجملة : « إن لم يرسم الله » : معترضة بين الخبر المقدم والمبتدأ المؤخر . ويراد برحمة الله هنا : المغفرة ، والتجاوز عن الخطايا والذنوب والآثام . وغفل : جمع غافل (يوزن راء كع وركع) : اسم فاعل من غفل عن الشيء : أي سها عنه من قلة التصديق ، وعدم الانتباه ، أو تركه إهمالا من غير نسيان ؛ أي : وفي الناس كثرة منهم ساهون في خطاياهم ، غافلون عن جرائهم ؛ وهم مجزيين بها إلا إذا أدركهم رحمة الله ومغفرته .

والمنحى : أنهم لما رأوا أهوال البحر وشدائده ، وأحاطت بهم أخطاره ومضاهيه — تذكروا ما اقترفوا في ماضيهم من الذنوب والآثام ، وهذه حادة الإنسان ، أو طبيعته ؛ يتركب الإثم والخطيئة ، ويتهادى في فيه ومصيباته ، ويغفل عن ذكر الله ، والدار الآخرة ، ويوم الدين ، ولا يبالى ما أعد لخطئه من العقوبة ؛ ولا يأبه لعقبيه عمله السيئ ، وسوء جزائه ؛ حتى إذا حضره الموت ، أو وقع في شدة ، أو منه ضرر ، أو أشرف علىهلكة — ذكر ما كان له ناسياً ، وانبه لما كان منه غافلاً ، وفزع إلى الله تعالى يسترحمه ، ويستغفره .

والأشطر الثاني تذييل في هذا المنحى ؛ فالتناس غافلون من عواقب خطاياهم ، مجزيين بجرائهم ، إلا إذا أدركهم رحمة الله وغفرانه وإحسانه . وفي القرآن الكريم : « وإذا مسك الضر في البحر ، شغل من تدعون إلا إياه » الآية رقم ٦٧ من سورة الإسراء . وفي القرآن كذلك : « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ، تدعونه تضرعاً وخفية ، لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين » الآية رقم ٦٣ من سورة الأنعام ؛ وهذا المنحى عهد الشاعر لأربعة الأبيات التي ساقها مساق الحكمة ، وشتم بها هذه القصيدة .

(١٦) وآه : أبصره ، أودبه ، أو علمه ، أوظنه . و « كيف ترانا صانعين ؟ » : أي على أي حال ترانا صانعين ؟ : أي ماذا نصنع فيما ترى ؟ أي فيما تظن ؛ أو فيما تدبر ؛ أو فيما تعلم . أو فيما تذهب إليه ؟ . واللى أراه (بالبناء المجهول) : بمعنى الذى أظن . و (بالبناء للمعلوم) : بمعنى الذى أذهب إليه ؛ فصارح رأى بمعنى أظن يعنى المجهول . وجملة « وكلنا بقارورة صباه » : جملة حالية . وكذلك جملة « والباب مقفل » . والقارورة : وهاء أو إلهاء من التزجيج أو غيره ، يحفظ فيه الشراب ، أو السوائل . وصباه =

فَلَا تَبْتَئِسْ إِنَّ فَاَتَ حَظٌّ ، قَرِيبًا أَصَابَتْ مَصَابِيحُ الدُّجَى وَهِيَ أَقْلُ (١٧)

مصمعة ، مسودة ، لا يستطاع فتحها ، ولا سبيل إلى إفتتاح ما في جوفها . و « الباب مقفل » : تأكيد وتميز لهذا المعنى . مقفل : مغلقل ، اسم مفعول من إفتقل الباب : بمعنى إغلقه وسده .

ساق الشاعر هذا البيت صائق الحكمة ، أو المظة والنصح والإرشاد . ومعناه : أن الناس جميعاً محصورون في هذه الحياة ، تحيط بهم قدرة الله تعالى ، ويمر بهم عليهم قضاءه ، فلا ممدى لهم عنه ، ولا مفر منه ، ولا منجى من حسابه ، ولا مرجع إلا إليه ؛ ولهذا شبههم بالشراب المصبور في زجاجة مسدودة ؛ وأكد هذا المعنى بقوله : « والباب مقفل » ، كما أكد به بالاستفهام الذي صدر به هذا البيت ، ومعناه الذي : أي لن نستطيع أن نفتح الباب الملقق علينا ، وليس في وسعنا حمل شيء يخرجنا من حتم القادورة الصماء ؛ ولا سيلة لنا في دفع ما يمر علينا من قضاء الله . وصلة هذا البيت بما قبله واضحة وثيقة ؛ فإن راكب البحر الهائج يسيطر عليه هذا المعنى ، وهذا الشعور ؛ فهو محاصر في ذلك الخضم المائل الواسع ، ضيق الصدر ، مبليل الخاطر ، ضعيف الحيلة ، قليل الرجاء .

(١٧) لا تبتئس : لا تكتئب ، ولا تحزن . والحظ : النصيب ، والحده ، أو هو خاص بالنصيب من الخير والفضل ، أو هو اليسر والسعادة . و « ربما » : « رب » زهدت بعدها « ما » ، واتصلت بها ، ومعناها هنا : التفكير . والدجى : الظلمات ، وأحدثها دجية . وهى : أى المصابيح . وأقل : جمع أقل (بوزن راجع ورنگ) : اسم فاعل من أقل النجم (من بابي دخل وجلس) : أى غاب . « وجملة : « وهى أقل » : جملة حالية . ومعنى أصابت مصابيح الدجى في حالة أفولها : أن وقت الأفول ، ووقت الإضاءة متقاربان ، أو متداخلان ؛ ولله تأكيد تحقق وقوع الإضاءة ، وقرب وقتها . ويراد بمصابيح الدجى : النجوم والكواكب النيرة .

في البيت السابق حصر الناس جميعاً في نطاق قدرة الله تعالى ، وأغلق عليهم الباب ؛ فلا مفر من قضاء الله وقدره . ولا سيلة لهم بإزاء ما كتب عليهم في هذه الحياة .

وفي هذا البيت ترويح وعلاج لما قد يتركه هذا المعنى في نفوس بعض الناس من الضيق ، أو الفزع أو الحزن ، أو الكآبة ؛ فهو يقول : إن فأتاك حظك من الخير ، أو لم يأتاك النجى والتوفيق في بعض مصابحك ؛ فلا يشتد عليك الأمر ، ولا تنظم الدنيا في وجهك ، ولا تبئس من رحمة الله ؛ فإن مع المرير يسراً ، إن مع المرير يسراً ؛ وإنك ترى الليل بهيماً ، حاك الظلمة ، فلا تلبث الكواكب والنجوم النيرة أن تطلع بعد أفولها ، فتضئ وتبهر ، وتبدد الظلمات ، وتسل الأمن والسلامة محل الخوف واليأس والفزع . وفي البيتين الآتيين مثل هذا الترويح والعلاج ، وطرد أشباح اليأس والتقنوط ، وفتح أبواب الأمل والرجاء .

فَقَدْ بَرَأَ اللَّهُ الْعَصَا، وَنَجَلِي
وَكَيْفَ يَخَافُ الْمَرْءُ حَيْفًا، وَرَبِّهِ
ضَبَابُ الرِّزَايَا، وَالْمُسَافِرُ يَقُولُ^(١٨)
بِأَحْسَنِ مَا يَرُجُو مِنَ الرِّزْقِ يَكْفُلُ؟^(١٩)

(١٨) « قد أتى مثل هذا المقام لتعليم النطق : أى ارتقاب وقوع البرء والشفاء ، أو هو للتكثير : أى وكثير ما يبرأ الداء العفصال ، أو هو لتحقيق : أى هو لهذه المعاني الثلاثة مجتمعة . وبرىء المريض من مرضه (كعلم ، ومنع ، وكرم) : شفى منه ، وتخلص . وبراء بالذاء : ذو الداء . والعفصال : التثديف المخبئ ، يعفصل الأطباء : أى يهيجهم ، ويعجزهم ، فلا يبرقون وجهه ، ولا يستطيعون مداواته ، ولا ينجون له طبيباً ، ويثله المياه . وينجل : يتكشف ، ويذهب . والشباب : سحب كاللحسان ، يغشى الأرض ، ويكثر فى الفداء الباردة : وأحدثه شهابه (بوزن سحابة) . والزهايا : المصائب ، والجلالبا . وأحدثها رزية (بوزن بلية) ، وأصلها رزية بالهمز . ويقال المسافر (من بابي ثمد ، وجلس : عاد من سفره ، ورجع .

وَلَد تَقْضِيْنَ هَذَا الْبَيْتِ ثَلَاثَةَ أَظْلَعَةٍ ، كُلُّهَا فِي مَعْنَى قَوْلِهِ فِي الْبَيْتِ السَّابِقِ : «وَرَجِمَا أَصَابَتِ مَصَابِيحَ النَّجِيِّ رَجَى أَمْلٌ» : بَرَزَ الْمَرِيضُ بِالْإِدَاءِ الْمَضَامِكُ . وَانْجَلَدَ غِثَابُ الرِّزْقِيَا . وَقَلْبِي الْمَسَاوِرُ : وَهَذِهِ الْأُظْلَعَةُ الْأَرْبَعَةُ كُلُّهَا تَتَرَوَّجُ وَتُفَشِّرُ ، وَتَقْبَحُ أَبْوَابَ الْأَمَلِ وَالرَّجَاءِ ، وَتُزِدُّ أَشْجَالَ الْيَأْسِ وَالْقَنُوطِ ، وَتُؤَكِّدُ مَعْنَى الْبُؤْسِ بَعْدَ الْبُؤْسِ ، وَتُزِيلُ الْجُرْحَ بَعْدَ الْفُجْرِ ، وَالرَّغَاةَ بَعْدَ الشَّدَةِ : وَكُلُّهَا فِي حَالِاجِ ابْتِهَاسٍ مِنْ فَاتِهِ حَظِّ (١٩) الْإِسْتِغْثَامِ فِي أَوَّلِ هَذَا الْبَيْتِ مَعْنَاهُ الْفَنَى . وَالْخَيْفُ : الْخُجُورُ ، وَالظُّلْمُ . وَالرُّزْقُ : كُلُّ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ . وَمَا يَهْوَ قَوَامُ الْجِسْمِ ، وَغَاوُهُ : وَزِينَتُهُ مِنَ الْأُظْلَعَةِ ، وَالْأَقْوَاتِ ، وَالْمَلَابِيسِ ، وَجَمْعُهُ أَرْزَاقٌ . وَيُكْفِلُ اللَّهُ الرُّزْقَ ، وَيُكْفِلُ بِهِ : يَتَكَفَّلُ بِهِ ، وَيُسَيِّدُهُ : مِنْ الْكِفَالَةِ : وَيُحْيِي الضَّمَانَ . (وَلَعَلَّهُ كَتَمْنَا ، وَضَرَبَ ، وَفَرَحَ ، وَكَرَّمَ) . «بِأَحْسَنِ مَا يَهِيمُو» مُتَعَلِّقٌ بِ«يُكْفِلُ» . «وَمِنْ الرُّزْقِ» : يَبَانَ لَوْ مَا يَهِيمُو : أَيْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَتَكَفَّلُ لِعِبَادِهِ بِأَحْسَنِ مَا يَهِيمُو مِنَ الرُّزْقِ .

والحق : لا ينبغي أن يخشى الإنسان ظلماً ، أو نقصاً في رزقه ، فإن الله تبارك وتعالى قد كفل لعباده الأرزاق ، وبمن لك أسمن ما ترجوه منها ، ولعل الفرض من مثل هذا البيت توجيه الناس إلى الإيمان . قال الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم : « ومن يعمل من الصالحات ومو يؤمن فلا يخاف ظملاً ، ولا خمساً » (الآية رقم ١١٢ من سورة طه) ، وقال عز وجل : « فالذين آمنوا و عملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم » (الآية رقم ٥٠ من سورة الحج) .

للخيص وتعليق

ففي الشاعر في هذه القصيدة يوصف البحر ، وتصور كثير من خصائصه ، وتقلباته ، فهو في بعض الأحيان ساج هادئ ، داه مناه ، لين رقيق ، يداهب النسيم مائه ، فيرم لونه حباتك وطرائق قبعته كالشمر الجميد .

وهو أكثر أسواله أعرق أحسق ، ثائر فائر ، هائج مائج ، مضطرب مضطرب ، متقلب متقلب ، غثون غدور ، لا يحفظ هذأ ، ولا يصون ودا ، ولا يرضى إغواء من آغواء ، عتيد عتيد ، لا يصرى بالجد والصرامة ، ولا يلين بالملاينة والمحاونة ؛ يجبل شحيح حل الرخم من شجرته بالجد والسفاه ؛ يموت حله إذا غضب ، ويحيى إلى ضيقه ، ويستمل عليهم ، ولا يكاد يحفل بشيء من حقوق الأضياف ، واجبات الضيافة ؛ وهو مهيب مرهوب ، يخشى الناس يأسه ، ويخافون صولته ؛ ولكنه على رعبه وجبروته لا يكاد يطوق الريح ؛ فإذا مسته بنفخة واحدة من لفحاتها جبن وضعف ، وارتعد واضطرب . كذلك عنى الشاعر حناية ظاهرة بوصف الموج ، وكرر ذكره في عدة مواضع من القصيدة بمدة مترادفات وأوصاف ؛ فهو ملتج متلاطم ، مطرد متتابع ، يعلو ويسفل ، ويربى ويزيد ، ويستجفل ويتنفش ، ويمج ويسبح ، ويطنش ويحتد ، ويمارس السفن ويلطدها ، ويهزها براكبها هزا عتيداً ، كأنهم في أرجوحة يقوم عليها من يؤلى دفعها وتحرىكها ، وتجديد قوتها ؛ فهي تملو بهم حتى تكاد تنطاح للسحاب ، وتبطل لتسبح بهم في غمار الماء . ومن تشبيهاته التي استعان بها على توضيح الوصف وتفصيله - تشبيه الزبد أو الرغوة بالهمز المنفوش ، وقبيله الماء الجاري في سر وسهولة وسلاسة بالشمر المحمد ، أو الهبلك ، أو المغفل ؛ وتشبيه الأمواج المتطردة المتتالية السريعة فوق سطح البحر بعمائم جافلة متلاصقة في عرض الصحراء . وقد تكرر الصورة الواحدة مع اختلاف يسير في التعبير ، كما ترى في الشطر الثاني من البيت الثالث ، والشطر الأول من البيت الرابع عشر .

ومن المفردات اللغوية الدرية التي جاءت في هذه القصيدة : اللشوج ، والتجفل ، والألوق ، والأزفل ، والأزفل ، ويتأفل ؛ ويلحظ أن أكثرها في القافية . وقد قدمنا أن الشاعر التزم بحرف الفاء قبل روى هذه اللامية ، وهو التزام لا تحمته قواعد القافية ، أي أن الشاعر لم يكتف بالقيد التي يفرضها علم العروض والقافية ، بل زاد عليها ، وأضاف إليها قيداً جديداً ؛ فدل على مقدرة الشعرية الفائقة ، وقمته من صناعته ، وفهذهان قريحته ، وإحاطته بكثير من غريب اللغة .

ولم يفته ذكر الرياح وتأثيرها في البحر ، وتأثر بها ؛ فهي تشابهه وتشاكسه ، وتنبئ له ، وتصف به ، وتبهجه وتثيره ، وتهزه وترقله ، وترهبه وتخيفه ، وترهبه وتجنبله . وصف الشاعر البحر في أربعة عشر بيتاً . وفي البيت الخامس عشر أشار إلى أهوال البحر وشدة ما الذي ترتج زكابه ، وتنبههم من غلظتهم ، وتذكروهم بعض خيلياتهم ، وتوعدهم بالعقاب الإلهي العادل ، إلا إذا أدركتهم رحمة الله ويغفرته . وفي البيت السادس عشر قال : إن الناس جميعاً يحيط بهم قدرة الله ، ويحصرهم ملكوته وجبروته ، ولا حيلة لهم بإزاء هذا ، ولا مفر منه ؛ كأنه عاد مرة أخرى إلى تذكيرهم بما يرتبهم من جزاء الخطايا والدروب . ثم غم القصيدة بثلاثة أبيات في معنى الترويح أو التثشير ، أو التفتيح

وقال يفتخر :

أَمِلًا بَيْنَ هَالَةٍ ؟ أَمْ غَرَالٍ فِي غِلَالَةٍ ؟^(١)
صَادَ بِاللَّحْظِ قُوَادِي أَتَرَى الْهَدْبَ حِيَالَةٍ ؟^(٢)

= أبواب الأمل والرجاء ، أو الإطماع في رحمة الرحمن الرحيم .

فهذه تسعة عشر بيتاً تضمنت وصف البحر وأمواجه ، وذكر الرياح والسفن وركابها ، وشيئاً يشبه العظة أو الحكمة المناسبة لهذا المقام ؟

• • •

(١) اختص الشاعر هذه القصيدة بالفتل ، وجعله مقدمة للفخر بشعره ، حل عادة بعض الشعراء الذين روى عنهم ، وأعجب بشعرهم ؛ فحفظ لهم ، وأحتل مثالم ، ونسج حل منوالهم .
الحلال : غرة القمر إلى صبح ليال من الشهر العربي ، أو الليلتين ، أو إلى ثلاث ، وليلتين من آخر الشهر ؛ وهو هنا : القمر التام : أي البدر ، ويريد به : الفتاة الحسناء التي يتفزل بها ؛ يشبهها بالقمر في حسن طلعتها ، وإشراق وجهها ، ويبياض بشرتها ، وهو قدرها . وهالة القمر : دارته : وهي سطح مستدير يحيط بجسمه المضيء . ويراد بالهالة هنا : ما ترتديه هذه الحسناء من أثواب رقيقة ، يشرق منها وجهها ، كما يشرق القمر وسط هالته ؛ أو النسوة الحسن اللاتي كن يحطن بهذه الحسناء كما تحيط الهالة بالقمر ، وتدور حوله . والفتل : القلي إذا شذن : أي نما ، وترمرح ، وقوى ، وتحرك ، وضي ، واستقى من أمه ، وتشبه به الفتاة في جمال الجيد واللينين ، والرشاقة ، والخفة ، ولطف الحركة ، وحسن التثني . والفتل : ثوب رقيق يلبس تحت الدثار ، أو قميص رقيق ، يلبس تحت الثياب ملاصقاً للجسم ، والاستفهام في هذا البيت : من تجاهل المعارف ؛ للمبالغة في التثني بجهتها ، وإشراق وجهها ، وحسن طلعتها ، وجمال جديدها ، وسور عينها ، ورواقتها ، ولطف حركتها ، وسائر المشابهة والمحسن التي تجمع بينها وبين القمر والفتل . ومن تجاهل المعارف لخلل هذا الفرض قول البحري :
ألم برق سري ، أم سري مصباح أم ابتسامتها بالمتنظر الفاسي ؟
ويبدو أن هذه الالامية من شعرهاته في شبابه ، وهو في نحو العشرين من عمره .

(٢) العطل : مصدر لخطه (من جاب قطع) ، ولخط إليه : أي نظر إليه بمؤخر عينه . ومن كلامهم : « فتنته أمخاطها وخطاتها . وهدب العين : الشعر الثابت على أشفارها : أي حروف أبجدها ، وأصنعت حديثه ، وجمعه أهداب . والمبالاة : المصيدة ، وجمعها : حبال . والهدب حباله : تشبيه بليغ ، ضامع بلاغته الاستفهام الذي قبله . وترى (بالبناء للمفعول) : بمعنى تظن . و (بالبناء للفاعل) : بمعنى تنظر بالعين ، أو بالعقل . وفي الشعر الثاني تنويه بأهداب عينها ، وتصوير بليغ لشدة تأثير حليه الأهداب في قلوب المشاق .

استأنته هذه الحسناء ، وولفته بفتن خطاتها ، وسلاوة نظراتها ، وسحر عينها ، وجمال أهدابها .
ديوان الباوردي ~ ٢٠

عَرَفْنِي ، ثُمَّ نَوَيْتُ شَوْقِي لَيْتَ شِعْرِي ، مَا بَدَأَ لَهٗ ۞^(٣)
 أَنَا مِنْ شَوْقِي إِلَيْهِ وَاقِعٌ بَيْنَ ضَلَالَةٍ ۞^(٤)
 أَيُّهَا الظَّالِمُ ! هَبْ لِي مَرَّةً مِنْكَ الْعَدْلَةَ ۞^(٥)
 وَأَزَعْ لِي حَقَّ وِدَادِي فَيْكَ ، لَمْ أَقْطَعْ جِوَالَهٗ ۞^(٦)

(٣) عَرَفْنِي : عُدْنِي ، وأطمعني بالباطل . وتولى عنه : صدف عنه : أي أعرض عنه ، وتركه .
 و « لَيْتَ » : حرف يفيد التمني . والشعر : العلم : مصدر شعر به : أي علم ، أو أحس به ، أو فطن له .
 وليت شعري : ليتني أعلم ، أو أدرى ، أو أعرف . ويدا : ظهر ، وبان ، واطضح . وبدا له في الأمر
 كذا : أي خطر ، أو نشأ ، أو جد له فيه رأى يخالف رأيه الأول ، فصرفه عنه .

والمنع : أي خدعته بإقبالها عليه ، وأطمعته في وصلها ، ولكنها ما لبثت أن صدفت عنه ، وتركته
 مبتتباً متحسراً ، يتحسّر أن يعرف ما بدا لها ؛ فكان سبب إعراضها عنه ، بعد ارتباضها له .

(٤) « من » هنا : تعليلية : أي تبين العلة ، والسبب : أي أنا بسبب شوقي إليه واقع بين ضلالة :
 أي تضرع للضلالة ، وتحيط بي : مصدر ضل الطريق ، أو ضل عنه : أي لم يجدد إليه . وضل عنه الشيء
 أي ضاع ، وذهب ؛ وضل سعيه : لم ينتج . وضل الشيء : نسيه . أو فقده . ومن معاني الضلالة :
 التلغ ، والهلاك . ويراد بها هنا : ما يضانيه العاشق المشوق ، والصب المستبهم من الحيرة ، والتعلق ،
 والفسح ، والتولي ، والتدله ، والافتتان ، والولوع ، والهام ، وتباريح الشوق ، والصبابة ، والفرام .

(٥) وهب له الشيء : أعطاه إياه بلا عوض . و « هب » : أمر من وهب .

جعل إعراضها عنه ظمناً له ، وجوراً عليه ؛ لأنها قطعت ما وصله من سبل الود والوفاء ؛ فظلمته بهذه
 القسمة ، وهذا الصدود ، وأراد بعدائها ؛ إقبالها عليه ، وإلقائها بالمودة إليه .

والبيت الآتي يوضح هذا المعنى ، ويفصله ، ويمزجه .

(٦) ارفع : أمر من رعى الإنسان الشيء : أي حفظه ، ووقاه ، وصانه ، ولم يهمله . ورعى عليه
 حرمته ، أو حقه ، أو عهده : أي حفظه . والوداد (بتثنية الواو) : المودة ، والحمية . وواده مودة
 ووداداً (بكسر الواو) : أي حايه ، وصادقه ، وغادته . وسق الوداد : ما يستحقه الود ، ويستوجب من
 الإقبال على المودود ، والبر به ، والوفاء له . و « فبك » : لك ، أو إليك : أي وأزع حق تودعي إليك .

يطلب إليها أن ترضى عليه حق مودته لها ، وتحفظ ما تستوجب هذه المودة من وساله ، والإقبال عليه ،
 والوفاء له . ويقول : إنه لم يقطع سبل الود ، ولم يفرط فيه ، ولم يتهاون به ؛ بل حرص كل الحرص على
 قوته ، واستدامته ، وربما أن يكون حرصها مكافئاً لحرصه ، وتوددها مماثلاً لتودده .

والشاعر من سفة الأبيات الآتية يشتغل من النزل إلى الفخر يشمره .

مَنْطِقٌ عَنِيبٌ ، وَمَعْنَى يَبْسُمُ السَّحَرُ خِلَالَهُ^(٧)
 كُلُّ بَيْتٍ كَنَسِيحٍ الزَّ رَوْضِ حُسْنًا وَطَلَلَهُ^(٨)
 أَنَا فِي الشَّعْرِ عَصِيْقٌ لَمْ أَرِفْهُ عَنْ كَلَالَهُ^(٩)

(٧) « منطق » : خبر لمبتدأ محذوف . والتقدير : منطقي : أي كلامي : منطق عذب : أي سائغ سهل ، ملس ، مسترسل ، حلو اللقح ، جميل التأليف ؛ حل التشبيه بما عذب من الطعام والشراب : أي ساخ ، ولذ ، وطاب . وييسم : من اليسم : وهو أخف الضحك ، وأقله ، وأحسنه . (وفعله من باب شرب) . ومثله التيسم ، والابتسام . والسحر : كل ما ما لطف مأخذه ، ودق . وكل أمر يخفى سببه ، ويتخيل على غير حقيقته ، ويجرى مجرى التوهم والخذاع ؛ ومنه الحيل العليقة الخفية المستغربة . وسحر الكلام : حسنه ، ولطافته ، ويلاغته ، وشدة تأثيره في الأصماح والقلوب والمقول ، وفي المثل : « إن من البيان لحرأ » . وتشبيهه بمض البيان بالسحر في شدة تأثيره ، وسرعة قبوله ، وانجهار النفوس به . وشلاله : بينه ، أوفى أثنائه وأطواله . وييسم السحر غلال كلامه ومفاهيمه : كناية عن بهاء شعره وجماله ، وحسنه وروحه ، واجتذابه الأصماح والقلوب والمقول ، وشدة تأثيره فيها ، وشدة تأثرها به .

انتقل الشاعر هنا من الغزل إلى الغمر بشعره ؛ ولعل الصلة بين هذين الفنين أو الفرضين : أنه كان يغازل هذه الحسنة بشعره العذب الحلو السائغ ، وأدبه البالغ الباهر الساحر .

(٨) نسيج : فمیل بمعنى مفعول ، من نسج النسيج : أي أنسجته ، وأنماه حتى النصف . والروض جمع ، أو اسم جنس جمعي لروضة ؛ وهي أرض مخضرة بأنواع النبات ، ذات مياه وأزهار . والطلالة : البهجة ، والحسن ، وبجمال الطبيعة .

يشبه كل بيت من شعره المياهر الساحر بالروض النضير البهيج ؛ ووجه التشبه بينهما الحسن والرواق ، والإقبال عليهما ، والارتياح لهما ، والاستمتاع بهما .

(٩) هو عريق في كذا : له فيه عرق : أي أصل ثابت راسخ . والكلاله هنا : القرابة الضعيفة البهيلة : من كلّ (بوزن قل يقل) : أي ضعف . والمرب تقول : هو ابن عمي لمعاً ؛ إذا كان لاصق النسب ، قريب القرابة . وتقول : هو ابن عم الكلاله . وابن عم كلاله : إذا لم يكن لمعاً ، بل كان رجلاً من العشيرة .

يفخر بأنه أصيل ، معرق له في الشعر ، وأنه ورث هذه المحبة الشعرية العالية عن آبائه وأقربائه الأقدمين ، ولم يرثها عن كلاله . وفي الأبيات الثلاثة الآتية توضيح ، وتفصيل ، وتأكيده لهذا المعنى .

كَانَ إِبْرَاهِيمُ ، خَالِي فِي مَشْهُورِ الْمَقَالَةِ (١٠) وَسَمَّا جَدِّي «عَلِيٌّ» يَطْلُبُ النِّجَمَ ، فَنَالَ (١١)

(١٠) إبراهيم بن علي أبا البارودي . اختيرته المنية شاباً في الخامسة والعشرين ؛ وكان أديباً ، شاعراً ، مولعاً بقراءة دواوين الشاهين من شعراء العرب والترك ، راوية لأشعارهم ؛ وكانت داره (وهي دار شقيقته فاطمة البارودية . والدة « محمد ساي البارودي ») منتدى لأئذاده من الشعراء والأدباء في زمانه ؛ ولما مات عنيت شقيقته بجميع شعره ، وأمرت بكتابتها في ألواح ، زينت بها غرف الطليقة العليا من دارها . ولما تفرغ الغلام الثاني « محمد ساي البارودي » أقبل على هذه الألواح ، فقرأها ، ورواها ؛ وانفتح بمحبة خاله ، وشعره ، وأدبه ، وجزاه في هوايته ، ونوه به في هذه اللامية ، وجعل الشعر نسباً عربياً ، وأصرة قوية علفته إلى خاله ، وأوثقت الصلة بينهما ، كما جعله إرفاقاً أديباً امتد إليه منه .

وله : أي في الشعر . وهو متعلق بـ : مشهور . والمقالة : القول . يريد أن خاله « إبراهيم » نظم الشعر ، وقاله ، وأنشده ، ونوه فيه ، وأشهر به

(١١) سما يسو سما : علا ، وأرفع . و « علي » المنوب به هنا : هو جد « محمد ساي البارودي » لأمه ، أي والد خاله « إبراهيم » ، واسمه : « علي » أبا البارودي ، وكان من فرسان الممالك الجراكسة ، وأبطالهم الذين كافحوا جيش الاحتلال الفرنسي في صعيد مصر . ولما ولي الحكم « محمد علي » باشا « رأس الأسرة العلوية الخديوية - أضر كسر الشركة العسكرية هؤلاء الممالك ؛ فهدر لهم منحة القلعة ، وكان « علي » أبا البارودي « من قتلوا سنة ١٨١١ في تلك المنحة خيلة وغدراً ، كما قتل فيها « عبد الله البحرسي الأتلي » جد الشاعر لأبيه .

والنجم : الكوكب . وإذا أطلقت العرب النجم أودت به أثرياً ؛ وهي علم على عدة كواكب مجتمعة متناسقة في منق « الكور » ؛ وهو برج من بروج السماء ؛ سميت بذلك لكثرة كواكبها ، مع ضيق أهل ، وصدر المنظر . وناله : بلغه ، وأدركه . والشطر الثاني : كناية عن نباهة شأن جده « علي » ، وسمو مكانته ، ورفعة قدره . ويبدو أنه كان على صلة وثيقة بالأدب والبيان العربي ؛ بدليل البيت التاسع ، والبيت الثاني عشر .

في البيت السابق اعتر بخاله « إبراهيم » . وقال : إنه كان أديباً ، شاعراً ، ناهياً . ويبدو أنه اقتنى به ، فأقبل على الأدب والشعر حتى نبغ فيهما ؛ ولا ريب أنه تأثر بما رواه وسفله من تراث خاله . وفي هذا البيت اعتر بجده « علي » ، ونوه بمجاده ، وبعد غايته ، وسمو مهته ، واعتلائه غارب العلوية ، وثقافته صلته بالأدب والبيان العربي .

فَهَوَ لِي إِذْ كَرِيمٌ سَوْفَ يَبْقَى فِي السَّلَاطَةِ^(١٧)

(١٧) هو : أي الشعر . وإرث : ميراث ، يرثه الخلف عن السلف . والكريم : صفة ما يرثى ويحمد في بابه ؛ فالقول الكريم - مثلاً - : هو الكلام المرغى المحمود ؛ لفصاحته ، وبلاغته ، وصدقه ، وحسن تأثيره ، وبجزيل منفعتة . والكريم أيضاً : المزيّن النفيس ، والشريف العظيم . والسلالة : النسل والولد .

يقول : إن الشعر تراث كريم نفيس ، ورثه عن آياه وأصوله . وسوف يبقى في ذريته وأولاده .

تلخيص وتعليق

هذه القصيدة من مجزّزه الزول . وبين السهل الممتنع ؛ فالفاظها كلها قريبة مألوفة ، وستة الأبيات الأولى منها في الزول . التي جعلها الشاعر مقدّمة لشعره بشعره في ستة الأبيات الأخيرة .

وتقديم الزول بين يدي الشعر من عادة بعض الشعراء الذين روى البارودي عنهم ، وأعجب بشعرهم ؛ لحفظ لهم ، واحتظى مثابهم ، ونسج حل متواهم ؛ ولم يزد غزله على بعض الأوصاف العامة الحسية الجسدية التي طبع بها الشعراء قبله ؛ فالمتنزل بها قمر وبزال ، ومينائها وأهدابها ولطائفها فائقة ساحرة ؛ ويبدو أنها أهملت عليه برهة يسيرة ، أو أظهرت له الإقبال ، ولكنها ما لبثت أن أعرضت عنه ، فأجبت بصندوقها شيكّه وبهايمه ، وضاعت تملقه وفرامه ، وأولمته في الخيرة والسلالة ؛ فرماها بالظلم ، وطالبها بالعدالة ، وبراماة سرقى التي في البيتين الخامس والسادس ، وبها عمّ حديث الزول ، ومنها انتقل بلا توثقة أو تمهيد - إلى الشعر بشعره ؛ ولعل المناسبة بين هذين الفرعين ؛ أنه كان يغازل هذه الفتاة بشعره المذهب الساسر ، ويلاحظ أن أكثر أبيات الشعر تقرر إمرائه في الشعر ، وقاصله فيه ، وآله ورأى في أسرته ، وأن هذا التراث الكريم النفيس انتقل إليه من آياه وأصوله ، وسوف يبقى في ذريته وأولاده .

وقد يكون في هذا شيء من التزيد ، أو التجاوي عن الحقيقة ، ولكن الذي لا شك فيه أن شعر البارودي كله أو أكثره يجري على الطبع والسليقة ، ولا يحويه التكلف أو التصنع ؛ فكانه ورأى فيه . وقد أسرته على نسوما يقرن مؤرخو الأدب من الشاعر الجاهلي «زهير بن أبي سلمى» ، وإن كنا لا نعرف من أسرة البارودي من ظهر في الشعر ، واشتهر به غيره .

وَقَالَ يَذْكُرْ مَا لَحِقَهُ . وَهِيَ مِنْ لُزُومٍ مَا لَا يَلْزَمُ :

يَا نَاصِرَ الْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ! خُذْ لِي يَحْتَقِي مِنْ يَدَيَّ مَا طِيلَ^(١)
جَارَ عَلَى ضَعْفِي سُلْطَانِهِ وَمَا رَأَى لِلْمَدْمَعِ الْهَاطِلِ^(٢)

(١) يشير البارودي بهذا البيت والآيات التي تليه إلى بعض النكبات التي حلت به عقب إخفاق الثورة العراقية ، كتجريدته من ثروته ، والاستيلاء على أمواله ؛ ويلاحظ أنه كان من زعماء تلك الثورة وقادتها ، الصارفين في غربتها .

وقد التزم حرف « الطاء » قبل روى هذه الآيات ، وهو اللام ، وهذا التزام لا تحتّمه قواعد القافية ؛ وهو من المحسنات اللفظية التي يتكلفها الشاعر ، ويعمد إليها أحياناً لإظهار براعته في نظم الشعر ؛ إن الشاعر بالتزامه ما لا يلزم يضيف بإختياره إلى قيود القافية قيداً ، أو قيداً جديدة ؛ ليدل على مقدرة الشعرية ، وتمكنه من اللغة ، وإساحطه بكثير من مفرداتها . وهذا الالتزام غير قليل في شعر البارودي .

وقد افتتح البيت الأول من هذه المقطوعة ببناء الله تبارك وتعالى ، واستنصاره ؛ أو هو ينادي ، ويستنصر كل من تربى نصرته ، وحسن معولته ، ومقدرة على دفع الشر ، وهدى الصلوان ، واستنقاذ الحقوق . ويريد بحقه : ما كان حقاً ثابتاً له ، فاستولت عليه الحكومة ، وجردته منه ، وحرته إياه ، كثروته ، وحرته ، ومنصبه ، وجهه . وماطل : اسم فاعل من مطلعه حقه ، ومطلعه بحقه (من باب قتل) : أي أجل موعد الوفاء به مرة بعد أخرى ؛ فالمطل : التضييق ، والتأخير بالوعد المخلفة الكاذبة . ويريد بماطله ، ظالمه الذي فضبه حقه ، وجار عليه ، يذليل البيت الآتي .

ينادي الله تبارك وتعالى ، أو كل مستمع للنداء ، بحب العدل ، معتبر على الإنصاف ، من يحقق الحق ، ويهبطون الباطل ، وينصرون المستنصر ؛ راجياً أن يمينوه على استنقاذ حقوقه من أيدي ظالميه الذين جاوروا عليه ، وسرموه ثراه ، وماله ، وجباهه .

(٧) جوار عليه : عدا عليه . وظلمه ، وتجاوز الحد في ظلمه وعدوانه . ويريد بضمفه : استسلامه ، وضعفه حيثه ، وصغره عن المقاومة ، وقصوره عن الدفاع عن نفسه وماله . والسلطان : القوة ، والظفر ، والتسلط ، والسيطرة ، والحكم ، ومقدرة الحاكم ، وبأسه ، وسلطوته . ورقى له (من باب روى) : رقة له ، ورضه ، وأشفق عليه . والمدمع (بوزن المذهب) : مصدر ميمي من دمع العين (من باب نفع وتمب) : أي سأل دمعها . والمدمع أيضاً : موضع الدمع ، وسيله ، ويجراه من العين . أو هو مجتمع الدمع في نواحي العين . ويستعار المدمع للدمع : أي ماء العين ، وجميعه مدماع (بوزن مذاهب) . ويقال : فاضت مدماعه . والمهاطل : التزوير الكثير ، الجاري المنصب : اسم فاعل من هطل الدمع (من باب ضرب) : أي سال ، =

أَخْرَجَنِي عَمَّا حَوَّتْهُ يَدِي مِنْ كَسْبِي الْمَرْ بَلَا نَاطِلٌ^(٣)
مِنْ غَيْرِ مَا ذَنْبٍ ، سَوَى مُنْطِقٍ ذِي رَوْنَقٍ ، كَالصَّارِمِ الْقَاطِلِ^(٤)

== وجرى ، وانصب . وظلت العين بالدمع : أساته ، وصيته .

يقول : - مستنصراً ، مسترسماً - : إن ماطله أو ظله اعتدى بسطوته وجروته على شخصه الضعيف قلبه حقيقته ، ولم يرق ليكاته ، أو لبكاء من يكي عليه من أهله وصياله .

(٣) فاعل « أخرجني » : ضمير يعود على « ماطل » في البيت الأول : وهو الذي ظلمه ، وقسا عليه ، وهضمه حقه . و « من كسبى الحر » : بيان لـ « ما حوته يدي » . وكسبه : رزقه ، وثروته ، وماله ؛ ويراد بالجر : القهبط الحلال ، الخالص من شوائب الرين والشبهات . والناطل : التقليل ، والفسلة تبقى في المكال ، والجرعة من الماء وفحوى ؛ ويقال : « ما طفرت منه بناطل » : أى لم أنل منه شيئاً . و « لا ناطل » متعلق بـ « أخرجني » . والترتيب الأصل للكلمات هذا البيت : « أخرجني بلا ناطل عما حوته يدي من كسبي الحر » .

يقول : إن ظالمه الذى جاز عليه ، وهضمه حقه - قد جرده من كل كسبه الحر القهبط ، واستبقى حل كل ما كان في سبيلته ، ولم يبق له شيئاً .

(٤) من غير ما ذنب : من غير ذنب . و « ما » : زائدة بين المضاف والمضاف إليه ؛ والفرض من زيادتها تأكيد المعنى وتقويه . والمنطق : الكلام . ويراد به هنا : البيان الفصيح البليغ ، المنطق المقنع ، الذى يحق الحق ، ويحل الباطل ، بدليل الشطر الخافى من هذا البيت ، والبيت الآخر ، ورواق السيف : ماله ، وسداه . ورواق الفسما : إفراده ، وجاهه . ورواق الكلام : طلالته ، وحسنه . ومنطق ذو رواق : كلام مشرق ، واضح ، قوى ، بليغ ، وكالصارم : كالسيف القاطع : أى يقطع بالحجة الدامغة - الجدل والخصومات ، ويميز الحق من الباطل . والقاطل : بمعنى الصارم ؛ فهو تكرار ، وتأكيده : اسم فاعل من قطعه (من باهى ضرب ، ولصر) : أى قطعه . وتشييه كلامه بالسيف الصارم القاطل تمهيد لمعنى البيت الآخر .

برأ الشاعر نفسه من الذنب ، ونفى عنها الإثم والخطيئة ، ثم أتى بأداة استثناء هي « سوى » ؛ فسبق إلى وهم القارئ والسامع أن فيه ذنباً سيترف به في جرأة وصرامة ، ولكنهما لم يلبثا أن وجدوا أداة الاستثناء صفة من صفات المتبحر والفخر : وهي امتياز منطقته بالحجة والطلاوة ، والقطع والصرامة ، فراعها هذا الأسلوب ، وطعنا أن الشاعر خدعها ، فلم يذكر عيباً ، أو ذنباً ؛ بل أكد براعته من الذنب في صورة تيمم اللوم : أى أنه أكد المدح بما يشبه اللوم ؛ فاستثنى من صفة ذم منفية « وهي » ذنب « صفة مدح ، وهي » منطق راقى قاطع . . وتأكيده المدح بما يشبه اللوم من المحسنات البديعية الممنوعة التي تجمل الكلام ، وتزيينه ، وتزجج درجته في مراتب البلاغة ، وسعر البيان .

أَتَلُّوْا بِهِ الْحَقَّ ، وَأَرْمِيْ بِهِ نَحْرَ الْعِيَا فِي الرَّهَجِ السَّاطِلِ (٥)
فَإِنْ أَكُنْ جُرْدْتُ مِنْ ثُرَوَّتِي فَفَضْلُ رَبِّي حُلِيَّةُ الْمَاطِلِ (٦)

= يقول في هذا البيت والذي قبله: إن هذا الماطل الجائر جرده من ماله وكسبه الطيب الحلال، ولم يبق له منه شيئا، على حين أنه يرى، لم يرتكب حليئة، ولم يعترف ذنباً، إلا ما كان من قوله الفصيح البليغ، المنطلي الصادق، القوي القاطع.

(٥) تله يتلوه (من باب مما) : اتبعه . وتلا الكتاب وفيه تلاوة : قرأه . وتلا الظير : أخبر به . فهله ثلاثة معان : أي أتبع بمنطلي الحق ، ولا أسيد عنه . أو أظهره ، وأوضحه ، وأبينه ، كما يظهر التال بحسن تلاوته ما يتلوه . أو أخبر بمنطلي خبر الحق ، أو أخبر به مراعيًا الحق ، ملتزمًا إياه . وللتنحر : للفساد، أو أهله . والعداء : الإحسان . والرهج : الفتن ، والشغب . والسائل : من القبار : المرتفع . ويراد بالرهج الساطل : الفتنة ، أو الثورة ، أو الحرب ، أو نحوها .

والمنى : أنه يظهر الحق بمنطقه ، ويلتزمه ، ولا يكاد يحيد عنه ؛ وإذا أخبر تحرى الحق والصدق ، والرشد والصواب ؛ وإذا رى به الأعداء نال منهم ما لا تناله الأسلحة في الفتن والحروب .

(٦) الفضل : الإحسان ، أو الإيذاء به بلا علة ، وكلّ عطية يبيح بها المتفضل من غير سؤال ، أو إلزام ، وبلا عوض ، أو جزاء . وفضل الله تبارك وتعالى على المرء في التكتبات والشدائد : أن يملطف به في قضاياه ، ويحفظ له قوة الإيمان ، وينعم عليه بالجلد والثبات ، ويقويه على احتمال ما نزل به ، ويهيمه الصبر الجليل ، ويهيئه عليه . وحليئة : زينة . والماطل : ضد الحال . ورجل حاطل : خال من المال ، أو غيره .

والمنى : إذا كان قد جرد من ثروته وماله ، فما زال يزدان بسجايها عالية ، وأخلاق كريمة فضله الله بها ، كرمته النفس ، وإياه الضم ، وسحر البيان .

أو المنى : أن المال زينة الحياة الدنيا ، وقد جرد منه الشاعر ؛ فتدأركه الله برحمته ولطفه ، ومن عليه بفضلته وإنعامه ، ووجب له قوة الإيمان والصبر ؛ فكان هذا حليئته وزينته ، وغير عوض له من ثروته وماله .

تعليق وبيان

جاءت هذه المقطوعة في ستة أبيات أشار فيها الشاعر إلى بعض ما أصابه بعد إخفاق الثورة المرابية ، وكان من زعمائها النابيين ، وقادتها الصابرين في غربتها .

وقد أدار هذه الأبيات كلها أو أكثرها حول تجريد من ثروته وماله وكسبه الحر ، في أعقاب الهزيمة . ويبدو أن هذه العقوبة أو الكارثة كانت شديدة اللطم عليه ، بالغة الأثر في نفسه ؛ ولهذا بكى ، وامتنكى ، وأقر بضيقه وثقله حيلته أمام سطوح السلطان ، وبأس الحكام . واستنصر ، =

وَقَالَ أَيْضًا ، وَهِيَ مِنْ لُزُومٍ مَا لَا يَلْزَمُ :

لَا أَمْرَ مَا تَحْبِرَتِ الْحَقُولُ قَهْلَ قَدْرِي الْخَلَائِقُ مَا تَقُولُ ١١٤

« واستنجد ، واستجار الله رب العالمين ، ودعا أن يأخذ له حقه من يدى هذا السلطان الذى وصفه بالمطال ، ووصفه بالخور والمدوان .

ولم يقته أن يتبرأ من اللئب ، ويتصل من التبعات ؛ ويؤكد برامة ساسته ، واستقامة سيرته ، وإصلاحه لوطنه ويفتخر بطلاوته متعلقه ، وقوة حجته ، وسمر بيانه ، وإدارته حل الدوام فى نطاق الحق والصديق ، والالتزام به جانب السداد والرشاد ، واستخدامه فى ملاحاة الأعداء إيمان الفتن والظورات ؛ يكشف به خدعهم ، ويحيط بأباطيلهم ، ويفضح ما يضمروته من الشر والأذى ، والبنى والإفساد ، ويثال منهم بهذا السلاح الفتاك ما لا يثال بالسهام والنبال .

ولم يشر بهذا إلى بيان ، أو تصريح ، أو عطية سياسية ألقاها إيمان الثورة ، ففاظ بها الأعداء ، وقال بها منهم ، وكشف كيدهم ؛ فكانت من أسباب نكبتهم ، وقسمهم عليه ، وتجريده من ثروته ؛ ولم يلفظ هذه الأبيات بمد التجريد ، وقيل لفيه إلى جزيرة « سيلان » .

وإذا كان الجو النفسى لهذه المقطوعة يتم فى بعض توسيعه حل ضعف للشاعر بإزاء هذه الكارثة ، كما ترى فى البيت الثانى ؛ وهل شدة تأثره بالهزيمة المالية كما ترى فى أكثر الأبيات — فإن فى هذا لجو نفسه ما يشهد له بالذوق والجرأة والشجاعة الأدبية ، كما ترى فى المقابلة بين حقه وباطل ظلمه ، وربه وبالخور ، والتشكيل بالأبرياء ، والفتنة بالثورة ، وفما ظلمهم ، وكشف كيدهم ، وكان أمضى من أسلحة الحرب والقتال .

وفى البيت الأخير تمزية شافية لنفسه ، واتجاه ديبى واضح ، واعتزاز بفضل الله عليه ، وطلعه به فى محنته .

وقد أشرنا فى مقدمة الشرح إلى أن الشاعر التزم فى نظم هذه الأبيات ما لا يلزم ، وأضاف باختياره إلى قيود القافية تقيداً ، أو أكثر ؛ ليظهر براعته فى نظم الشعر ، ورياضة قوافيه ، ويدل على تمكنه من اللغة ، وإحسانه بكثير من مفرداتها ، وسلامة ذوقه فى اختيار الكلمات ، ونسج العبارات ؛ وهذا الالتزام غير قليل فى ديوان البارودى .

* * *

(•) التزم الشاعر فى هذه الأبيات « الواو » قبل الروى ، وهو « اللام » . والتزم قبل « الواو » « القاف » ؛ وهو التزام لا تفرضه قواعد القافية ؛ وإنما هى قيود زائدة يقيدها الشاعر نفسه ، لإظهار مائت قدرته على ريادة القوافى ، ونظم الشعر .

(١) لأم ما : لأمرهم حتى غير معلوم . و « ما » هنا : للإيهام : أى إخفاء المراد بالاسم الذى

تَغِيْبُ الشَّمْسُ ، ثُمَّ تَعُوْذُ فَيُنَا وَتَذَوِي ، ثُمَّ تَخْضَرُ الْبُقُولُ^(١)
طَبَائِعُ لَا تَغِيْبُ ، مُرَدَّدَاتٍ كَمَا تَعْرِى وَتَشْتَمِلُ الْحُقُولُ^(٢)

= قبلها . وهو لكثرة مهمة غير محدودة . والأثير : الشأن ، والشجر ، وجمعه أمور . وتحرير : حار ، وتردد ، واضطرب ، وضل الطريق ، ولم يهتد إلى قصده . والاستفهام في أول الشطر الثاني : معناه النفي . والخلقات : المخلوقات ، والمراد الناس ، وأحدتها غليظة (بوزن طبيعة) .

والمنع : أن الناس - على ما امتازوا به من عقل ، وفطنة ، وقوة إدراك - ما زالوا يجهلون كثيراً من حقائق الكون وظواهره . وأسرار الخلق وحياته ، ولا يعرفون جواباً لكثير مما يحيط بهم ، ويتصل كل الاتصال بحياتهم ؛ ولهذا يبيتون في حيرة وتردد ، وشك وضلال . وفي الآيات الآتية توضيح وتميز لبعض هذا المعنى .

(٢) تعود لنا : تعود إلينا . وتذوي : تذبل : مضارع ذوى النبات (كرى ، ورضى) . والبقل : النبات ، والشب : وأحدته بقلة ، وجمعه بقول .

(٣) «طبايع» : خبر مبتدأ محذوف . والتقدير : هي طبايع : جمع طبيعة : وهي السجية التي جبل الإنسان عليها ؛ والمخلوقات التي يتألف منها الكون ؛ والقرية التي تمرى في الأجسام ، ويمض بها الجسم إلى كانه الطبيعي . ويراد بالطبايع هنا : طبايع الكون ، وعصائصه ، وجزائره ، وقوانينه التي لا تختلف ، ولا تتخلف . ولا تغيب : لا تتخلف ، ولا تتأخر : مضارع أذهب إليها . أو مضارع ذهب (كخف) ، ورد .) . ومرددات : متكررة : أسم مفعول من التردد : معنى التكرار ، وتغرب حالاً من فاعل «تغيب» ، أو تغرب نعماً ؛ «طبايع» ، وجملة «لا تغيب» : نعت لها كذلك : أي هي طبايع مرددات غير مغبية . وتعرى : تنجرد من ثيابها : والمراد تطلو من النبات . وتشتمل : تكتسى : والمراد تكتسى بالنبات : مضارع اشتمل بشره : أي تلفف به ، وأداره على جسده كله . والحقول : جمع حقل (بوزن قلب وقلوب) : وهو الأرض الفضاء الطيبة ، يزرع فيها .

ومعنى هذا البيت والذى قبله : أن غيبة الشمس عنا بالليل ، ثم عودتها إلينا بالنهار ، وانحصرار النبات وذوبوله ، وغلو الأرض منه ، واكتسامها به - من طبايع الكون وظواهره المتكررة التي تجري على قوانين ثابتة حقيقة ، لا يمتريها خلل ، أو فساد ، أو تخلط ، أو اختلاف .

وصلة هذين البيتين بالبيت الأول : أن الظواهر المشار إليها فيها أمثلة قليلة لما يستمرى الانتباه ، ويظهر الناظرين من حقائق الكون وحياته ، وإذا كان النظر ، والبحث ، والدرس قد هدى العلماء إلى شيء من أسرار ذلك الكون وطبائعه ، فإن كثيراً منها ما زال مجهولاً غليظاً ، غامضاً مجهولاً ، يحير =

فَصِيَانِ الْجَهُولِ إِذَا تَنَاهَتْ بِهِ الْأَيَّامُ ، وَالْفُطُنِ الْعَقُولِ^(١)

= العقول ، ويعني الأنعام ، ويعني الأنهان .

والقرص تنبيه الناس على ملكوت السموات والأرض ، وحفهم على النظر والتدبر ؛ لاجتناء آيات الله في خلقه . وفي القرآن الكريم : « إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء ؛ فأنحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض - لآيات لقوم يعقلون » . الآية رقم ١٦٤ من سورة البقرة .

(٤) سيان : مثلاً ، متساويان : متى « متى » . وتناهى الشيء : بلغ نهايته . وتناهت به الأيام : جاء أجله ، وانتهت حياته . والفطن (بفتح فـ كسر ، أو بفتح فـ ضم ، أو بفتح فسكون) : ذو الفطنة : رعى الخلق ، وسددة الذهن ، وصحة الفهم ، ولطف الإدراك . والعقول (بوزن الرسل) : العاقل .

والحمى : أن الجاهل الفتر ، والعاقل الفطن يستويان عند الموت ، ولا يكادان يتمايزان ، أو يفترقان . وكان كلما يحصل فله الحياة من علم ومعرفة ، وحكمة وخبرة - أمده قصير ، ولا ينتهي بالمرء إلى غاية ، ولا يكاد ينغمه ، أو يهدى عليه إذا جاء أجله ، وسان حينه . والشاعر هنا ينظر إلى قول أبي الطيب المتنبي :

يموت واهي الضأن في جهله مية « جالينوس » في طبه
وربما زاد على حموره وزاد في الأمن على سره

كما ينظر إلى قول أبي العلاء المبري مخاطب الدهر :

أرى ذوى الفضل وأشدادهم يحسمهم سيلك في مدد
إن لم يكن رشد الله ناصحاً فله ألتع من رشده

وصلة هذا البيت بالآيات السابقة : أن تسوية الموت بين العالم والجاهل من الأمور التي تحير العقول . وتقصي الأنهان ؛ فإنهما عاشا في الحياة الدنيا على طرق تقيض : العالم يستقصي بعلمه ، ويعق ، ويهتدي ويهتدي ؛ والجاهل يركب التعميس ، ويضرب في الظلمات ، ويخطئ في عماء ؛ والفهم البهي القريب الضروري يقتضي أن يكون لتناقضهما في حياتهما أثر ظاهر ، كطول عمر العالم ، وزيادة أمانه على نفسه ، وتوجيهه الدنيا وداع الذي أحاط بكثير من أسرارها ؛ ولكن الغريب المجهل للأنعام أنك لا تكاد تجد فارقاً بين موتيهما إذا جاء أجلهما ؛ وربما كان حفظ الجاهل من الحياة أعظم وأهنأ . يضاف إلى هذا : أن الموت والحياة من طبائع الكون التي لا تغيب ؛ وأمرها في معنى البيت الثالث واضح ، ومثلها مثل الخلق ؛ يكسوها النبات ، فتكسوها نضرة الحياة ، وتنتري منه ، فتلتويها كآبة الموت .

يَزُولُ الْخَلْقُ طَوْرًا بَعْدَ طَوْرٍ وَتَخْتَلِفُ الْحَقَائِقُ وَالنُّقُولُ^(٥)
فَمَا جَرَتْ الظُّنُونُ عَلَى يَقِينٍ تَفِيءُ بِهِ، وَلَا صَحَّ الْمَقُولُ^(٦)

(٥) الخلق : الناس ، وسائر المخلوقات ؛ فهو فعل بمعنى مفعول . والطور : التارة ، المرة ، والحال ، والحيلة ، والضرب ، والنوع ، وجمعه أطوار . والنقول : جمع النقل : مصادر نقلت الكلام ، أو الخبر : أى رويته عن فائله . والمنقول : ما عرف عن طريق الرواية ، أو السماع . ويقابله المقول : وهو ما استقل العقل بإدراكه ومعرفته . ومعنى « زوال الخلق طوراً بعد طور » : فناء المخلوقات والناس جيلاً بعد جيل ، وقبيلاً في إثر قبيل : أى هلاكهم على مرات ودفعات . ومعنى « اختلاف الحقائق والنقول » : أن ما عرفه الناس عن طريق النقل والرواية ، أو السماع - قد يخالف الحقائق الثابتة اليقينية التى لا ريب فيها . وقد يرد بالاختلاف هنا : التوالى والتتابع : من قولهم : اختلف المتعلم إلى مجالس العلم : أى تردد إليها ورجع مرة بعد أخرى . وعلى هذا يكون معنى الشطر الثانى : أن المعارف والمعلومات - على اختلاف أنواعها ، وطرق تحصيلها - ما زالت تتوالى على الناس ، وتتتابع . ومنها الحقائق الثابتة التى لا مرأى فيها ، والتى انفرد العقل بمعرفتها وإدراكها على وجه الاعتقاد واليقين ، ومنها المعارف والمعلومات الواردة عن طريق النقل ، أو الرواية ، أو السماع . وكأن الشاعر جعل هذا النوع : أى المعارف المروية ، أو المسموعة ، أو المنقولة القائمة على الظن والتخمين - مقابلاً للنوع الأول : أى المعارف التى أدركها العقل ، وقامت على الحق واليقين .

(٦) الظنون : جمع الظن : وهو أن يدرك اللهى مع ترجيحه . واليقين : أن يدركه مع استيقانه ؛ فالمعارف الظنية قائمة على الشك والتخمين ؛ والمعارف اليقينية ثابتة واضحة صحيحة محققة ، لا شك فيها ؛ لأنها قائمة على النظر والاستدلال واطمئنان النفس ، والاعتقاد الراسخ . وتؤيد : تعود ، وترجع . والمقول : القول ، والكلام .

ومعنى هذا البيت والذى قبله : أن الإنسان منذ أقدم العصور إلى اليوم ما زال يقف أمام كثير من طبائع الكون وظواهره ، وحقائق الوجود وغضاياه ، وسر الموت والحياة - موقف الحيرة والشك والجهل والتردد ؛ على الرغم من شغوفة الزمان ، وإزدهار العمران ، وفناء الأجيال جيلاً بعد جيل ، وقبيلاً في إثر قبيل . وعلى الرغم من كثرة المعارف والمعلومات وتتابعها بين مقلود ومنقول ، وحقيق وظنى ، فإن كثيراً من نظرات المرء في الحياة يختلف ويتغير حيناً فحيناً ؛ ومع هذا كله لم تصل الظنون الخيرية إلى ما يقنع من الحقائق الثيرة ، ويسمو إلى مرتبة اليقين . وكذلك ما نقل عن العلماء والحكماء ؛ فإن كثيراً منه لم يسلم من الخطأ ، أو التوضي ؛ ولم يثبت على البحث والتحصيل .

وَقَالَ ، وَهِيَ مِنْ لُزُومٍ مَّا لَا يُلْزَمُ* :
مَا الدَّهْرُ إِلَّا ضَوْءٌ شَمْسٍ عَلَا | وَكَوْكَبٌ غَامَ ، وَتَبَّتْ بَقْلٌ^(١)

= ولعل البارودي هنا يحاكي أبا العلاء المعري ، ويرى إلى ما يرى إليه في قوله :

سأنت يقيناً من جهة عنهم ولم تخبرني - يا جيهين - سوى الظن

تعليق وتلخيص

اتجه الشاعر في هذه الأبيات الستة إلى مثل ما اتجه إليه فلاسفة شعراء العرب وسكاوهم ، كأبي الطيب المتنبي ، وأبي العلاء المعري. وقد أشرنا في شرح البيت الرابع إلى شيء من حكمتها ، أو فلسفتها النيرة الواضحة .

ورجحنا أن شاعرنا يقصد في هذا البيت إلى مثل ما قصد إليه ، أو إلى قريب منه. وكذلك قلنا في شرح غيره من هذه الأبيات التي بد لنا أن الشاعر ناظر فيها إلى من سبقوه ، متأثر بهم ، فاسج على منوالهم. وعلى الرغم من كثرة الحكم والأمثال في شعره ، وامتياز أكثرها بقرب المأخذ ، ووضوح الفكرة ، وحسن العرض ، وإشراق العبارة - نراء في هذه المقطوعة ، أو في أكثر أبياتها يمنح للتموض ، ويميل إلى التعمية ، ويصعب على القارئ كشف فكرته ، وفهم مقصده ، وإدراك ما يعنيه .

والشرح الذي عرضناه لهذه الأبيات ظني اجتهادي ، غير مقطوع بصحته وسداده. ولقد حاولنا جاهدين بيان الغرض ، وتحديد المعنى المراد . وخلاصته : أن الناس ما زالوا يجهلون كثيراً من حقائق الكون وطبائعه ، وأن قوانينه ونظمه ثابتة دقيقة ، لا يمتريها وهن ، أو تخلف ، أو اختلاف ، أو فساد ، وأن الجاهل والعالم يستويان عند الموت ، ولا يكادان يتمايزان ، وأن ما نقل عن العلماء والحكام لم يسلم من الخطأ ، أو الابهام ، ولم يثبت على البحث والتحصيل ؛ ولهذا ظل كثير من معارف الناس من بعض أسرار الوجود ، وطبائع الكون ظنياً لا يسور إلى مرتبة اليقين ، على الرغم من شغوفة الزمان ، وفناء الأجيال ، وكثرة ما ضافه الناس من التجارب والصدقات .

(٥) التزم الشاعر القاف المفتوحة قبل روى هذه الأبيات ، وهو اللام . ومثل هذا الالتزام لا تحتمه

قواعد القافية .

(١) الدهر (في الأصل) : اسم لمدة العالم من مبدأ وجوده إلى نهاية أجله . ويراد به هنا : ظواهر الكون ، وطبيعة الحياة الدنيا . وغامت السياه (من باب باع) : ظهر فيها الليل ، وظلما . وغام الكوكب اختفى ضوءه واحتجب وراء الغيم : وهو السحاب . والتبت : الثبات ، وهو (في الأصل) : مصدر ثبت (من باب نصر) . ويقال الثبات (من باب نصر) : ثبت ، وثقاً ، وظهر ، ونسج من الأرض ، واضطر .

وَرَّاحِلٌ أَعْقَبَهُ نَازِلٌ مَّا قِيلَ قَدْ خِيمَ حَتَّى اسْتَقَلَّ^(١)
عَمَلِيَّةٌ يَخْطُبُ فِيهَا النَّهْيُ عَجَزًا ، وَلَا تُبْصِرُ فِيهَا الْمُقَلَّ^(٢)

= مثل لبعض ظواهر الخلق أو العالم الذى نعيش فيه بمثلين : هما الكواكب ، والنبات ؛ أى الحى النامى الذى لا يمك ، فراق منشئه ، ويعيش بجنود ممتدة فى الأرض ، أو فى الماء . وقال : إن الشمس والنجوم والكواكب النيرة تشرق ، ويسطع نورها ، ثم لا تلبث أن تحتجب وتختفى ويذهب بلهاها ضياءها . وكذلك النبات ، ينمو ، ويزكو ، ويتبرع ، ويخضر ، ويزهر ؛ ثم لا يلبث أن يذبل ، ويموت ، ويهتشم ، وتذهب بذبوله بهتة ونضارته . وفى القرآن المجيد : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كآه أنزلهنا من السماء ، فاجتلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيماً تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدراً » . الآية رقم ٥٥ من سورة الكهف .

(٢) « راحل » : معطوف على « غروب شمس » فى البيت الأول ؛ أى ما الدهر إلا كوكب سطع ضياؤه ، ثم أفل . ونبت نبت وأخضر وزها ، ثم ذوى وذبل وذهبت نضارته . وراحل أعقبه نازل . وأعقبه : خلفه ، وجاء بعده . وخيم بالمكان : نصب فيه خيمته ؛ ثم كنوا بهذا عن الإقامة والاستقرار . واستقل استقلالاً : صار ، ومضى ، وذهب ، وارتحل .

فى البيت السابق مثل الشاعر بمثلين لبعض ظواهر الكون ، أو الخلق ، أو العالم . وفى هذا البيت أضاف إليهما مثالا ثالثاً ؛ فالمرء يرتحل عن الدنيا ، ويعقبه فيها ولده ، أو خلفه ، ثم لا يلبث هذا العاقب أن يشرب من الكأس التى شرب منها سلفه ، ويسلك فى الرحيل طريقته ، ويذهب ذهابه ، وهكذا .

ويلاحظ أن الشاعر حصر الدهر — أى ظواهره ، وتقلباته ، وموجباته — فى هذه الأمثلة الثلاثة ؛ الكواكب والنجوم فى حلقى الإشراق والأفول ، والنبات فى طوري النضارة والذبول ، والإنسان والحيوان فى قيري الحياة والموت ؛ ولعل سبب هذا الحصر ، أو التقصر ، أو التخصيص أنها أهم ، أو أظهر ما فى العالم ، أو الخلق ، أو الدهر ، أو الكون ، أو الوجود ، أو الدنيا . ويمكن ردّ هذه الأحوال كلها إلى الحياة والموت ؛ فالإشراق والأفول ؛ حياة وموت على التحوّل ؛ وكذا النضور والذبول .

ومعنى البيتين : أن أحوال الكائنات متقلبة ، متقلبة ، سريعة التحوّل والتغير ؛ فالكواكب تغيب وتظلم ، والنبات يزهر ويموت ، والناس يميّون ويموتون ، والحياة متداولة بينهم ، يتماقب الراطلون عنها ، والواردون عليها ؛ فالراحل عنها يعقبه النازل بها ، فى غير مهل ، أو توان ، أو إبطاء ؛ ولعل الشاعر يقصد إلى الرعظ والإرشاد . والنصح والهداية ، والتذكير بالمواقب ، والترغيب فى الإيمان والاستقامة وصالح الأعمال . والبيتان الرابع والخامس يرجعان هذا ، ويؤكدانه .

(٣) يراد بالعماية هنا : الخبرة ، والجهل ، والضلال . وعى عليه طريقته (كرمى) : إذا ضل عنه ، ولم يهتد إليه . ويخط : يسير على غير هدف ؛ (مضارع خط من باب ضرب) . والنهى : المنع ، أو العقول ، أو الحديث نهية (بنس فسكون) . وعجزاً : مقول لأجله .

فَبَادِرِ النُّقْلَةَ ، وَاعْمَلْ لَهَا مَا شِئْتَ ، فَالْتَهَرَّ سَرِيعُ النُّقْلِ^(٥) ،
وَاصْمُتْ عَنِ الشَّرِّ إِذَا لَمْ تُطِيقْ دَفْعًا ، وَإِنْ صَادَقْتَ خَيْرًا فَقُلْ^(٦) ،
وَسِرْ إِذَا مَا عَرَضَتْ قُرْصَةٌ فَالْبَدْرُ قَدْ يَنْمُو إِذَا مَا انْتَقَلَ^(٧) .

= أى يخطئ العقل في هذه العناية بسبب حجه عن إدراك الحقيقة الحادية . والمثل : العين ، واستعماله (بوزن مهجة) .

والمنع : أن تبدل أحوال الكائنات في هذه الحياة ، وسر تغيرها وتقلبها من الأمور الخفية التي يعجز المرء عن إدراكها بالعقل والحواس .

(٤) النقلة : اسم بمعنى الانتقال والرحيل ، وجمعها نقل (بوزن غرفة وغرف) . وبادر النقلة : عاجلها ، وسارع إليها .

والمنع : أن تلهو بمتنقل بالناس والمخلوقات تنقلا سريعا ، وتتغير فيه أحوالهم تغيرات كثيرة مفاجئة ، وتبدل شئهم كل يوم ؛ فلا يستقر لهم قرار ؛ ولهذا ينبغي أن تتدبر هذا الانتقال قبل وقوعه ؛ وتعامله بصالح الأعمال ؛ فتأخذ من شبابك هرمك ، ومن مهتك لهرمك ، ومن دهرك لأعرتك .

أو المنع : أن كل ما حولك من ظواهر الكون يتبدل ويتغير من غير إلى شر ، ومن شر إلى خير ، فإذا أحسست أن بقاءك في مكان ما سيهلك بمكره ، فسارع إلى الرحيل عنه ، والانتقال إلى ما هو خير منه ، وبار في ذلك دهرك ، واقتد به في كثرة تحوله ، وتغيره ، وتقلبه .

(٥) الشر : اسم جامع لكل الرذائل والخطايا ؛ ومنها السوء ، والفساد ، والظلم . وطاق الإنسان الله (من باب قال) ، وأطاقه إطاقة : قدر عليه ، وتيسره ، واستطاعه . ودفعت الشيء (من باب دفع) نحوه بقرينة ، وأزلته ، وصرفته ، وأبعدته . وصادفته مصادفة : لقيته ، ووجدته .

والمنع : اسكت عن الشر ، وفتره عنه لسألك وقلبك ، ولا تجار فيه غيرك إذا لم تستطع دفعه عنه ، وحمله هل تركه ؛ وقل الخير كلما وجدته ، وامل له ما استطعت .

وقد يكون المنع : إذا جافى الشر في نفسك ، ولم تستطع دفعه عنها ، فعالجها بالصمت والسكوت ، وقول الخير ، وإيثاره كلما وجدته واستطعت . وفي الحديث : « تكلم بخير ، وإلا فاسكت » .

(٦) عرضت : أمكنت ، وسنحت . والبدر : القمر ليلة تمامه وكاله وامتلاؤه في منتصف الشهر القمري . ويراد به هنا : القمر قبل أن يتم ويكمل ويمتلئ ؛ ليصح قوله بعد : « قد ينمو إذا ما انتقل » . و « قد » هنا : حرف يفيد التحقيق ؛ أى نمو القمر ينتقله من الأمور المحققة التي لا مرأ فيها ، ولا ارتياب . وينمو : يزيد ، ويكثر . والمراد بزيده ضيائه ، ويكثر ، ويتم ، ويكمل . و « ما » في شطري هذا البيت زائدة بعد « إذا » لتأكيد الكلام ، وتقوية مقصوده ومعنائه .

مَنْ طَلَبَ الْأَمْرَ بِأَسْبَابِهِ سَاعَدَهُ الْمَقْدُورُ إِمَّا عَقْلٌ (٧)
قَدْ يَجِبُنُ الْأَعْزَلَ وَهُوَ الْفَتَى وَيَشْجَعُ النُّكْسُ إِذَا مَا اخْتَقَلَ (٨)

يخفى على انتهاز الفرصة كلما ساحت بالسير ورامها ، والانتفاع بها ، والمضى في مناكب الأرض من أجلها .

ويقرب المثل بالمرء ينتقل في منازل ، فيتمو لهذا التنقل ، ويزيد ضيائه ، ويبلغ منزلة الختام والكمال والامتلاء .

(٧) الأمر : الشيء المطلوب . والمقدور : الأمر المحتمل الذي لا يحصى عنه ، ولا مهرب منه . ويراد به هنا : ما يقدره الله تبارك وتعالى للمرء ، ويقضى به ، ويكتبه له من الرزق والخير . و « إِمَّا » : « إن » القرطبية المدخلة في « ما » الزائدة بعدها . وعقل : أدرك الأشياء على حقيقتها . واستخدم في مساميه وتصرفاته عقله ، وأحسن الانتفاع به ، واعتمد في مطالبه على الفهم ، وإتقان الرأي ، وحسن التدبير .

والمضى : من اتخذ للأمر عدته ، وفكر فيه وقدّر ، وسأوله بأسبابه وعمله ووسائله ؛ وقصده من الطرق الموصلة إليه - أماله - على تحقيقه قدر الله تعالى وسكبه وقضائه ؛ لأن من مقدور الله تبارك وتعالى أن يقرن الألباب بالمسببات ، والمقدسات بالنتائج ، ويسر المطالب إذا عزها المسمى ، وساطها العقل ، وتمهدها حسن التدبير .

(٨) « قد » : حرف يفيد التأكيد ؛ لأنه في مقام الحسّ على إعداد العدة ، واتخاذ الإهبة ، وطلب الأمور بأسبابها . والأعزل : من لا سلاح معه . والفتى : الشجاع ، المقدم ، ذو النجدة . والسعى الكرم الجواد . والنكس (بكسر فسكون) : الضعيف ، الرذل ، والمقصر عن غاية النجدة والكرم . واعتقل : حمل سلاحه ؛ يقال : اعتقل الرجل رجه : إذا جعله بين ركابه وساقه . أو جعله تحت فخذيه وهو راكب ، وجبر آخره على الأرض ورامه . وفي البيت محسن بديهي معني ، يسمى المقابلة : وهي أن يرقى بعينين أو أكثر ، ثم يرقى بما يقابل ذلك على الترتيب ؛ فالفعل « يجيب » في الشطو الأول يقابله الفعل « يشجع » في الشطر الثاني .. والجبن : ضد الشجاعة . والأعزل : أي الهجر من السلاح يقابله المعتقل (بصيغة اسم الفاعل) : أي المتصلب بالرمح وغيره . والفتى : بمعنى السعى ، الشجاع ، ذو النجدة ، يقابله النكس : بمعنى الضعيف ، الرذل ، المقصر ، الذي لا خير فيه . والمقابلة هنا ليست متكلفة ؛ ولذا كانت من عوامل تحسين الكلام ، ولإيضاح معانيه ، وزيادة سطه من البلاغة والبيان . يقول : قد يكون المرء شجاعاً مقداماً ، ولكن تجرد من السلاح يضطره إلى الحين والنكوص والإحجام من القتال . وقد يكون المرء خائفاً ضعيفاً ، فإذا ما تسليح أقدم على الحرب بسلاحه إقدام الجريء الشجاع .

وَقَالَ مُلْتَزِمًا *

لَا تَرَكَنَّ إِلَى الزَّمَانِ ، فَرِيْمًا خَدَعَتْ مَخِيلَتُهُ الْفَوَادَ الْغَائِلًا^(١)

يعنى هذا البيت متصل بمعنى البيت الذى قبله ؛ لأن الذى يعتقل ربحه ، ويلبس سلاحه قبل أن يقتحم المدام ، يطلب الأمر بأسبابه ، ويأخذ له أهبة ، ويمد له عدته ، ويقصده من الطريق الموصل إليه . وعلى العكس منه الذى يعمل سلاحه ، أو يتجرد منه ، أو يحاول أمراً بغير وسائله وأسبابه .

تلخيص وتعليق

مثل الشاعر فى هذه الأبيات المثالية لبعض ظواهر الكون ، وطباع الكائنات ، وأشار إلى ما فيها من التقلب والتحول ، وفيه حل تعاقب الحياة والموت ، وقال : إن سر هذا مما لا تتركه الأبصار ولا البصائر . ودعا إلى تدبر الأمر قبل مجئ الأجل ، والاستعداد للرحيل عن الدنيا بمصالح الأعمال ، ونصح بمداومة الشر ، وإظهار الخير ، وحسن على اغتنام الفرس للسائحة ، والتنقل فى سبيل إدراكها ، والقوز بها ، كما حسن على طلب الأمور بأسبابها ، وأخذ الأبهة لها ، وبشر الأخذ بالأسباب بأن قدر الله تبارك وتعالى يسأره ويمار به . ثم ختم هذه المقطوعة ببيت يجرى مجرى المثل ، ويتصل بالمعنى الأخير ، ويعززه ؛ فهذه مجموعة من الحكم والنصائح والمعاتبات جاءت مشابهة لأكثر شعر البارودى فى قرب المخاطب ، ووضوح الفكرة ، وحسن البيان .

(*) التزم الشاعر « الفاء المكسورة » قبل روى هذه الأبيات ، وهو « اللام » . وهو التزام لا تحتمله قواعد القافية ؛ أى قيد اختياري أضافه الشاعر بمحض إرادته وحريته إلى قيود القافية ؛ لإظهار مقدرة الشعرية ، وسعة معجمه اللغوي ، وتمسكه فاصية القوافي ، وسيطرته عليها ، وتمكنه من رهاستها .

(١) ركن إليه (كخضع ، ولصر ، وحلم) : مال إليه ، وسكن ، وأطمأن ، ووثق به ، واعتمد عليه . ويريد بالزمان : الدهر ؛ وهو مدة الحياة الدنيا كلها . وقد درج الناس - وبخاصة الشعراء - على شكواه والتظلم منه ، والإسهار بسوق فعله ؛ ويم يضيفون إليه الخير والشر ، والمسرة والمساءة . وفي كلام البارودى فى مقدمة ديوانه : « وقد يقف الناظر فى ديوانى هذا حل أبيات قلتها فى شكوى الزمان ، فيظن بى سوءاً من غير روية يجهلها ، ولا حكمة يستعيها ؛ فلأنى إن ذكرت الدهر فلأنما أقصد به العالم الأرضى لكونه فيه ؛ من قبيل ذكر الفجر باسم فيه لمجاورته ليلاء » . و « ربما » : « وب » : حرف يفيد التكرير فى مثل هذا المقام ، وقد زهدت بعدها « ما » وانصلت بها ؛ أى فكثيراً ما حدثت غييلته الفؤاد الغافل . وشغله : (من باب منح) : ختله ، وأظهر له خلاف ما يخفيه ، وأراد به المكروه من حيث لا يعلم . والمخيلة (يوزن) : الميعة ، والمصيبة : السحابة تظنها ماطرة . والمخيلة (يوزن الميعة) : المظلة . وجمعها مخايل ؛ ومنه : « ظهرت فى فلان مخايل النجابة » : أى مقلتها ، وأماواتها . ويراد بمخيلة الزمان هنا : مظهره ، وما قد = ديوان البارودى - ٢

وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنَّهُ ، فَكُلَّمَا ذَهَبَ الْغَدَاةُ أَتَى الْمَوْعِدَةَ قَائِلًا (١)
كَفَلَ الشَّقَاءَ لِمَنْ أَنَاخَ بِرَبِّهِ وَكَفَى ابْنَ آدَمَ بِالْمَصَائِبِ كَافِلًا (٢)

== يهديه من المسألة والمهادنة ، وما قد يتخيل فيه من الخير ، ويتفكر من المواعدة . والنهي في أول البيت يراد به النصح والإرشاد .

يقول - ذاعصاً مرشداً - : لا تثق بالزمان ، ولا تعلقن إليه ؛ فقد يخدر - بحسن مظهره - العاقل الذي لا فطنة له ، ويهجم خلاف ما يفهمه له من الشر والندم ، والبطش والنعكال .

(٢) « كان » هنا : تامة ، تكتفى بمفعولها : أي باسمها ، ولا تحتاج إلى خبر ؛ ومعناها : حدث وواقع . ومنه : من الزمان . وكلما : « كل » : ظرف زمان يلفظ التعميم . و « ما » : حرف مصدري توقيف ، جاء بعد « كل » ، وأقصل بها . أو هما منفصلان ، وكل الانفصال تكون « كل » مبتدأ ، ولفظ الاستفراق لأفراد ما نصفت إليه ، أو أجزائه . و « ما » : اسم مصدري بمعنى الذي ، في محل جر مضاف إليه . والمعنى : حل الاتصال : « اصبر حل شر الزمان ؛ فإنه معاد ، كلما ذهب رجع » . والمعنى حل الانفصال : « اصبر حل شر الزمان ؛ فإنه معاد ، وكل الذي يلعب من هذا الشر ، لا يلبث أن يعود إليك مرة أخرى » والآية : أول النهار ، ما بين الفجر وطلوع الشمس ، وجسمها غدوات . والمعنى : آخر النهار : من زوال الشمس إلى المغرب ؛ أو من صلاة المغرب إلى العتمة ، وجسمها عشيات ، وعشايا . وقافل : اسم فاعل من قفل (كلفه ، وجلس) : أي عاد ، ورجع .

يخصّ على التجلّد الزمان ، والصبر حل ما يصيبنا من أحداثه وبلاياه ؛ فإنه يفند ويروح علينا بما كل يوم ؛ فهي متتابعة متوالية ، لا تهاذن ، ولا توادح ، ولا علاج لها إلا التجلّد والصبر . وفي القرآن الكريم : « يا أيُّ أقم الصلاة ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك ؛ إن ذلك من حزم الأمور » الآية رقم ١٧ من سورة لقمان . ويلاحظ أن الشاعر هنا يسمي الظن بالزمان ، ويتشام به ، ويظهره ، ويخبره في هذا التزييد والمبالاة .

(٣) كفَلَ الزمان الشقاء للناس : ضمنه لهم ، والتزيمه ، وأوجبه على نفسه . من قولهم : كفلت المال ، وكفلت بالمال عن فلان لفرعه : أي ضمنته له ، والتزيمته ، وأوجبه على نفسي . وأبلغ بالمكان : فذل به ، وبهم ، وأقام . والريح : المنزل ، أو الدار ، أو الهلة ، أو ما حول الدار ؛ وكفاء الشيء يكتفيه كفاية : أغناه عن غيره . وكثيراً ما تزداد الباء قبل فاعل « كفى » . وفي التثنية التزييد : « وكفى بالله حسيباً » (الآية رقم ٦ من سورة النسل) . « وكفى بجهنم سعيراً » (الآية رقم ٥٥ من سورة النساء) و « المصائب : فاعل « كفى » بزيادة « الباء » . و « كافلاً » : ضامناً ، أو ملتزماً . ويربب تمييزاً . و « ابن » : مقبولة به مقدم لاسم الفاعل « كافلاً » .

يَعْنَى الضَّرَاءَ إِلَى الثَّقُوسِ ، وَتَارَةً يَسْمَى لَهَا بَيْنَ الْأَيْسَةِ رَافِقًا (١) لَا يَرْهَبُ الضَّرْعَامَ بَيْنَ حَرِيذٍ بِأَسَا ، وَلَا يَدْعُ الظُّبَاءَ مَطَافِلًا (٢)

سواء ترتيب الأصل لكلمات الشطر الثاني : « وكفى بالمصائب كفافاً » ابن آدم : أى أن مصائب البشر تكفل الإنسان ، ونفسه إليها ، وتحيط به ، وتؤتله . وفى هذه الكفالة الكفاية ، والدعاء ، والاستغناء بها عما عداها . وكلمة « المصائب » فى الشطر الثاني تردى وتكرر وتؤكد معنى « الشقاء » فى الشطر الأول . والمعنى : أن الزمان أوجب على نفسه أن يهين من عاش فيه ، ويصعب عليه المذاب صعباً . وبحسب ابن آدم أن تكفله مصائب البشر وبلائها : فهذا شر فطيع ، ليس فيه من مزيد . وهو قريب من قول أبي الطيب المعتزى :

صحب الناس قبلنا ذا الزمان وعناهم فى شأنه ما عانا
وأولوا بقصة كلهم مذ « وإن سر بعضهم أحبانا
ربما تحسن الصنيع لهاله « ولكن تكدر الإحسانا

(١) فاعل « يعنى » : ضمير مستتر يمدح على « الزمان » فى البيت الأول . والفراء (يفتح الضاد) : الاستغناء . يقال : هو يعنى الفراء : إذا عنى مستغنياً متوارياً فيما هو أرى من الأشجار والحيوان . وأصل الفراء : ما توارى وستر من شجر وغيره . ومن كلامهم : « هو يعنى لك الفراء » أو « يدب لك الفراء » : أى يفتلك ، ويخونك ، ويمكر بك ؛ ليرميك بما يخفيه لك من الشر والفسر ، والأذى والمكرور . ويسمى لها : يعنى الثَّقُوسِ . والأئمة : جميع سنان (يوزن كتاب) : وهو نصل الريح : أى حديثه التى تصيب المطمئن . ورافلاً : حال من فاعل « يعنى » : وهو الزمان : أى يعنى متبختراً : اسم فاعل من « رفل » (من باب نصر) : أى جر ذيله ، وتبخر فى سيره ، وعطر يديه .

يقول : إن الزمان يؤذى الناس ويضرهم أسبانياً بالمثل والفرة والمكر والدعاء ، فى ضراء واستخفاء ؛ وأسبانياً فى علانية ومجاهرة ، لا يهاباً بما يحيط به ، ويستره له من قوى الحماية ، وأسلحة النفاق .

(٢) لا يرهب : لا يخاف . وقاعله ضمير مستتر يمدح على « الزمان » فى البيت الأول . والفزع : الأسد القصارى للشدة ، ومثله الفزعامة . وهريز الأسد : مأواه ، وسكنته . وهو فى الأصل : جماعة الشجر ؛ وقد يطلق المرين ، ويراد به المز والمتمنة . والبأس : القوة ، والشدة ، والشجاعة ، والبياسة . و « بأسا » : تمييز محط عن المفعول به . والأصل : « لا يرهب الزمان بأس الفزعام » . ولا يدع : لا يتركه ، وقاعله ضمير الزمان . والظباء : جمع ظبي وطيبة : وهو جنس حيوانات من ذوات الأظلاف ، اغيوتات القرون ، أشهرها الظبي العربي . وهو النزال الأعفر . ومطافل : جمع مطلق : اسم فاعل من =

بَيْنَنَا تَرَى نَجْمَ السَّعَادَةِ طَالِعَا فَوْقَ الْأَهْلَةِ إِذْ تَسْرَاهُ آفِلَا^(٧)
 فَإِذَا سَأَلْتَ الدَّهْرَ مَعْرِفَةَ بِهِ فَاسْأَلْ لِيَتَعَرَّفَهُ النِّعَامُ الْجَافِلَا^(٨)
 فَالْدَّهْرُ كَالدُّلَابِ ، يَخْفِضُ عَالِيَا مِنْ غَيْرِ مَا قَصْدٍ ، وَتَرْفَعُ سَافِلَا^(٩)

— أسفلت الأثرى : أى صارت ذات طفل .

يقول : إن الزمان يقتحم على الضرغام عرينه ، لا يتحيب بأمره ، ولا يخشى صوته ، ولا يبالي عزته ويمتهته ، ولا يمسك أذاه عن اللطيفات المطفلات ؛ فهو معتد قاس غليظ الكبد ؛ يصيب بشروه وأحداثه كل الذى يصادفه ؛ لا يخاف قويا ، ولا يهرم ضعيفا .

(٦) « بيننا » : ظرف زمان ، بمعنى المقابلة : أى أنك ترى نجم السعادة طالعا ، فلا يلبث أن يفاجئك بأفوله . والأهلة : جمع هلال : وهو غرة القمر إلى سبع ليال من الشهر القمري . والقمر فى أول آخر الشهر الليتين : السادس والعشرين والسابع والعشرين . ويراد بالأهلة : النجوم . وطلوع نجم السعادة فوق النجوم : كناية عن تمام سعادة المرء ، وتمام ظهورها ، وسود درجتها . وأقل : اسم فاعل من أقل النجم (كسحب ، وقصر ، وهلم) : أى غاب .

والمعنى : أن سعادة الزمان لا بقاء لها ، ولا ثبات ، ولا استقرار ؛ فهى تملو كل الملو ، وتظهر أتم الظهور ، ولكنها لا تلبث أن تزول وتختفي ؛ كأنها لم تكن ؛ يهبط بهذا إلى سرعة تغلب الدهر بالناس ، وكثرة تغيره ؛ فهولا يكاد يسمد إنسانا حتى يسارع إلى ساسته وإشفاقه .

(٧) الجافل : اسم فاعل من جفل للنمام ونحوه (من باهى جلوسه) . أى نصر ، وشرد ، وده ، وهرب سريعا .

يقول : إذا حاولت أن تسأل الدهر ؛ لتعرف حقيقته ، أو تنقب على شيء من أمره وسره — فاعلم أنه كالظلم الجافل الذى لا يكاد يستقر أمامك ، أو يشتت السؤال ، أو يعمليك فرصة تعرفه وتعهبه ؛ أو يحفل بالمهادمة والمهادلة ؛ فالشطر الثانى معناه : أنه لا سبيل إلى معرفة الدهر . وهذا البيت كسابقه ولا حقه فى معنى سرعة تغلب الزمان ، وكثرة تغيره . يضاف إلى هذا أنه لا سبيل إلى معرفته ، أو تفهم حقيقته وسره ، أو اقتناء شروعه وسوادته .

(٨) الدلابل . (بضم الدال وفتحها) : كل آلة تدور على محور من خشب أو غيره ، كالمنجنون ، أو الناصورة ، أو السائمة ، أو الآلة التى تدورها النابتة لسق الزرع . فارسية مركبة من « دول » ، ومعناها إزاء ، أو دلو . و « آب » ، ومعناها الماء ؛ فعنى الدلابل : دلو الماء ، أو إزاء الماء ، وجمعه دوايلب . ودلابل البئر قواديس مركبة عليه ، يخفض المائى منها ، ليقترب به الماء من البئر ، ويرفع السائل ؛ ليصب مائه فى القناة التى تجري على سطح الأرض لسق الزرع .

شبه الدهر بالدلابل ؛ فهو يحيط الرفيع ، ويرفع الرضيع ؛ بلا قصد ، ولا إرادة ، ولا تفكير ، ولا تدبير .

وَقَالَ فِي الْحِكْمَةِ *

إِنْ شِئْتَ أَنْ تَحْوِيَ الْمَعَالِيَ ، فَادْرِغْ صَبْرًا ؛ فَإِنَّ الصَّبْرَ غُثْمٌ عَاجِلٌ^(١)
وَاحْلُمْ كَمَا نَكَ جَاهِلٌ ، وَادْكُرْ كَأَدْ نَكَ ذَاهِلٌ ، وَافْطُنْ كَمَا نَكَ غَافِلٌ^(٢)

* من معاني الحكمة : العدل ، والحلم ، والعلم ، والفلسفة ، والتفقه ، وصواب الأمر ، وسداده ، ومعرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ، ووضع الشيء في موضعه ، وإتقان الأعمال والأقوال . وبعد الكلام من الحكمة إذا وافق الحق ، وقُلَّ لفظه ، وبجلَّ معناه ، وأفاد أدباً وخطبة . ومن شأن الحكمة أن تمنع صاحبها من الجهل والسفه ، وتمنعه من أخلاق الأذال ، وترفعه عما لا ينبغي . وقد تجرى الحكمة مجرى المثل . وبمعناها حكم (بوزن نعمة ونعم) .

(١) حوى الشيء يحويه (من باب طوى) : جمعه ، وحازه ، وأحرزه . وبمثله احتواه . ويلاحظ أن الفعل « تحوى » منصوب بفتحة ظاهرة على الياء . ولكن وزن الشعر اقتضى أن تسقط الياء في النطق ، وتسقط معها فتحتها . والمعالى : جمع المعلاة (بفتح فسكون) : وهي الرقعة والشرف . والدرع (بكسر فسكون) : الزرديّة : وهي قميص من زبد الحديد : أى حلقاه المتشاكّة ، يلبس وقاية من سلاح العدو . يذكّر ، ويؤثّر . وادْرِع الدرع : لبسها . وادِرِع الصبر : تجمل به ، واتخذ وقاية لنفسك ، واستمن به على اقتحام العقاب ، وتلايل الصعاب . والفهم : ما تفوز به بلا مشقة ، وتذله بلا بذل . وما يأخذه المحارب من عدوه في الحرب قهراً . ومثله الغنمة .

* يخصّ على ادراع الصبر ؛ فإنه يعين على اقتحام العقبات ، وتلايل الصعوبات ، وييسر العسير ، ويقرب البعيد ، ويبلغ الصابر إلى المعالى ، ويبلغ مراتب الرقعة والشرف ؛ والصبر غنمة طيبة ، حاضرة لمن أرادها ، حاجلة غير آجلة .

(٢) احلم : أمر من الحلم (بوزن العلم) : وهو الصبر ، والأناة ، والعقل ، والستر ، والرزالة ، والوقار ، والسكون ، والصلح مع القدرة والقوة . وفعله (كقرب يقرب) . وفعله الجهل ، والسفه ، والعلوي ، والحق ، والسفه ، قال الشاعر :

وإن سفاه الشيخ لا حلم بعده وإن الفئ بعد السفاعة يعلم

وجاهل : اسم فاعل من الجهل : وهو ضد العلم . وضد الحلم . واذكر : أمر من الذكر (بكسر فسكون) : وهو ضد النسيان . وجاهل : اسم فاعل من الجهول : وهو النسيان . وافطن : أمر من افطن : وهي حسن الفهم ، ولطف الإدراك ، ودقة البصيرة ، والمهارة ، ووجوبه اعتماد الذهن لإدراك ما يرد عليه . (وفعله كعلم ، وفصر ، وكبرم) . وغافل : اسم فاعل من الغفلة : وهي غيبة الشيء عن بال =

فَلَقَلَّمَا يُغْفِي إِلَى آرَائِهِ فِي الدُّعْرِ إِلَّا الْعَالِمُ الْمُتَجَاهِلُ^(١)
وَقَالَ :

لَا تَحْسِبِ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا عَلَى ثِقَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ ، بَلْ عَلَى ظَنٍّ وَتَخْيِيلٍ^(٢)

= الإنسان ، وعدم تذكره إياه . يقال : غفل عن الشيء (من باب دخل) : إذا سها عنه من قلة التحفظ واليقظ ، أو تركه إهمالا من غير نسيان .

يحض على التمثل ببعض الفضائل ، والصفات الحميدة ، كالعلم ، والذكر ، والنفطة ، على أن يظهر المتحل بها ما يناقضها ، كالجبل ، واللاهول ، والغفلة ؛ ليدخل في غمار الناس ، ويتشبه بمجهولهم ، ويتقن أحقادهم وبكائدهم ، ويفوز برغائبه ومطالبه . والبيت الآتي يظهر هذا المعنى ويوضحه ، ويؤكد .

(٣) « فلقلما » : اللام واقعة في جواب قسم مقدر : أي « فواقه لقلما يغفي إلى آرائه . . . أو هي لتأكيد مضمون الجملة بعلمها . و « قل » : فعل ماض ، اتصلت به « ما » فكفسته عن العمل ، واستغنى عن الفاعل . والمعنى : فقليل من يغفي إلى آرائه في الدهر إلا العالم المتجاهل . ويجوز أن تكون « ما » موصولا حرفيا ما يكافئ للفعل بعينه ، مؤولا معه بمصدر ، هو فاعل « قل » : أي قل الإفضاء إلى الآراء إلا العالم المتجاهل : أي أن العالم المتجاهل يكثر أن يغفي إلى آرائه ، وبغيره قلما يظهر بشئ منها . ويغفي إلى آرائه : يصل إليها ، ويبلغها ، ويدركها ، وينظر بها . والآراء : الحاجات ، والغايات ، والمقاصد : جمع أرب (بفتحين ، أو بكسر فسكون) : وهو الحاجة ، أو الحاجة الشديدة ، أو البنية ، أو الأمانة . ودهر المره : مدة حياته . والمتجاهل : اسم فاعل من تجاهل تجاهلا : أي أظهر أنه جاهل . وليس به .

والمعنى : أن العالم إذا تكلف إظهار الجهل ، استطاع أن يساير العامة والدماء ، ويتحجب إليهم وينسج فيهم ، ويسخرهم في إدراك حاجاته ، وتحصيل مآربه ، وبلوغ مقاصده ؛ لأن الجهل في الناس كثير غالب ، وتجاهل العالم صورة من صور الكيامة والنداء : وانحيازهم إليهم بتجاهله أهون وأيسر عليه من تعليمهم ، ومضافة إرشادهم ، وتقرير طباعهم وعاداتهم :

ولما رأيت الجهل في الناس فاشيا تجاهلت ، سئ ظن أتى جاهل

• • •

(١) الأمر : الشأن ، والحال ، وجمعه أمور . وعلى ثقة من أمرهم : على ثبات و يقين . والظن : إدراك اللحن الشيء مع تربيعه ، وجمعه ظنون ، وأظانين . والتخييل : التوهم . وهو قريب من الظن : مصدر تخيّل إليه أنه كذا : أي تُبَسِّس ، وشه ؛ فترسم أنه كذا . وفي القرآن الكريم : « فإذا جاهدكم عصبهم يغيل إليه من صهرم أنها تسمى » (آية رقم ٦٦ من سورة طه) .

حُبِّ الْحَيَاةِ ، وَيُبْغِضُ الْمَوْتَ أَوْرَثَهُمْ جُبْنَ الْمَطْبَاعِ ، وَتَفْصِيلُ الْأَبَاطِيلِ^(١)

وَقَالَ فِي الْحِكْمَةِ :

أَلَا ، إِنَّ خُلُقَ الرَّجَالِ وَإِنْ نَمَتْ فَأَزِيغَهُ مِنْهَا تَفُوقُ عَلَى الْكُلِّ^(٢) .
وَقَارَ بِلَا كَيْفٍ ، وَصَفَحَ بِلَا أَدَى وَجُودَ بِلَا مَنْ ، وَحَلِمَ بِلَا ذُلٍّ^(٣)

(٢) الأباطيل : جمع حل غير قياس الباطل : وهو ما لا ثبات له عند الفحص عنه ، وضده الحق ؛ أوكأنهم جسموا إبطلاً أو إبطالاً . وقول : إن واحدة الأباطيل : أبطولة (بوزن أكلوبة) ، أو إبطالة (بوزن إضامة) .

ومعنى هذا البيت والذي قبله : أن الناس بطبيعتهم يكرهون الموت ، ويحبون الحياة ؛ وبمغالاتهم في هذا جبنوا عن مواجهة حقائق الأشياء ؛ فتمسيت عليهم ، والتبست ، وفقدوا اليقين ، والثقة بأمورهم ، وجروا وراء الظنون والأوهام ، وصدقوا ما يرضى غرائزهم من الترهات والأباطيل .

(١) « ألا » : حرف استفتاح ، وتنبه . ويراد بأخلاق الرجال : ما ينبغي أن يتخلق به كلة الرجال من حميد السجاييا ، وكريم الخلال . ونمت (من باقى رى ، وسما) : كثرت ، وزادت . وفاق الرجل أصحابه (من باب قال) : فضلهم ، ورجحهم . وصار غيراً منهم . أو علام بالشرف : أى كان أهل وأشراف منهم ؛ كأنه صار فوقهم فى المرتبة . وهذا الفعل يقتضى إل المفعول بنفسه ؛ ويلاحظ أن الشاعر عداه هنا ؛ « حل » ؛ كأنه ضمنت معنى « زاد » أو « نحو » . ويقال : تفوق على قومه : أى ترفع عليهم . يقول : إن الفضائل التى ينبغي أن يتصف بها كلة الرجال كثيرة ؛ ولكن الاختار الفائق منها أربع . وفى البيت الآتى تفصيلها .

(٢) القار : الرزاق ، والحلم ، والسكين ، والنبات . والكبر : العظمة المفقودة ، والتعبر . ومثله الكبرياء . والصفع : مصدر صفح عنه (كشع) : أى أعرض عن ذنبه ، وصد عنه . والأذى : الضرر اليسير ، والشر الخفيف . والجود : البلد ، والمطاء ، والسباح ، والكرم ، والسخاء . والمز : مصدر من عليه بما صنع (من باب رد) : أى فخر ينمته عليه حتى كدرها بهذا الفخر ؛ وصد له ما فعله من الخير ؛ كأن يقول : « أعطيتك كذا ، ولعلتك كذا » ؛ وهو تكدير وتمجير تنكسر منه القلوب . قال الله تبارك وتعالى فى القرآن الكريم : « يأبى الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم باللغو والأذى » . الآية رقم ٢٦٤ من سورة البقرة . والحلم : الأناة ، والصبر . والذل : الهوان ، والضعف . وضده المز ، والمثنية . فصل الشاعر فى هذا البيت الفضائل الأربع التى أشار إليها فى البيت السابق ؛ وهى : القار ، والصفع ،

وَقَالَ فِي الْحِكْمَةِ آيْضًا : وَهِيَ مِنْ لُزُومٍ مَا لَا يَلْزَمُ :
تَسَابِقُ فِي الْمَكَارِمِ تَعْلُ قَدْرًا فَسَبَقُ النَّاسِ لِلْخَيْرَاتِ نَضْلٌ^(١)
إِذَا ذَهَبَ الْكِرَامُ ، فَلَا رَجَاءُ وَإِنْ ذَهَبَ الرَّجَاءُ ، فَلَيْسَ فَضْلٌ^(٢)

= والجود ، والحلم ؛ حل أن تكون خالصة مما يكدرها ، أو يفصلها . والمكدرات ، أو المفسدات على الترتيب : الكبر ، والأذى ، والمن ، والذل . ومن حكم أبي الطيب المتني في المعنى الأخير : وهو الحلم بلا ذل : كل حلم أقي يغير اقتدار حجة لاجيء إليها القام

• • •

(•) التزم الشاعر في هذين البيتين للضاد قبل الروى ، وهو اللام .

(١) « تسابق » : أمر من التناشق . يقال : تسابق المتسابقان : أى سابق كل منهما صاحبه . وتسايق القوم : أى سابق بعضهم بعضاً ؛ ومن هذا الترح يتبين أن الفعل « تسابق » من الأفعال التي لا يكون فاعلها مفرداً^٢ . ومن أمثله : تقابلوا ، وتشاوركوا ، وتغاطروا ، وتقاتلوا ؛ ويشفع للشاعر هنا أنه يتخاطب الناس ، فالضمير المفرد في « تسابق » في معنى المتعدد . كأنه قال : أيها الناس ! تسابقوا في المكارم ... والمكادرم (جمع مكربة) (يفتح ، فسكون ، فسم) : وهى فعل الكرم . واسم من الكرم : مصدر كرم (كثرت) : أى أعطى بسهولة ، وسخا ، وجادا ، وبذل . والكرم بمجناه العام : اسم للأطفال الحسنة ، والأخلاق العظيمة ، والمحاسن الكبيرة التي تظهر من الإنسان . وعلا يملو علواً (كسا يسمو سمواً) . وعمل يعمل (كرسى يرضى) علاء (كصفاء) . والقدر : الحرية ، والوقار ، وجمعه أقدار . ويراد بالقدر هنا : الشأن ، والمروية ، والمنزلة . و « سبق » في أول الشطر الثاني : مصدر سبقه إلى الشيء (من باب ضرب) : أى تقدمه ؛ وإضافته إلى الناس : من إضافة المصدر إلى مفعوله : أى وسبقك الناس إلى الخيرات لفعل . ولما ضل متناضلة ونضالاً^٣ : باراء في روى السهام . ونضله (من باب نصر) ، نضلاً : سبقه ، وطلبه في النضال والرماء . ويقال : ناضله فنضله : أى باراء فطلبه . ويراد بالنضال هنا : مطلق القلب ، أو الظفر ، أو الفوز . و « اللام » في « للخيرات » : بمعنى « إلى » . والخيرات : جمع خيرة (بوزن بيضة وبيضات) : اسم بمعنى الخير .

يقول : إذا سابتك الناس في المكررات علا قدرك ، وسمت متزلتلك بينهم ، وعظم شأنك فيهم . وإذا تقدمهم إلى الخيرات فنضلتهم : أى سبقتهم في الشرف ، وطلبتهم على المفاخر : يريد أن المسابقة في الكرم والخير مسيرة لمن أرادها ، وأنها تمل قدر الخير ، الكرم ، وتحقق له الغلبة ، والفوز بالمفاخر .

(٢) الكرام : جمع الكرم : وهو الجواد ، السخي ، المعطاء ، الكثير النفع : حقة من الكرم بمجناه الخاص . وقد يراد به : جماع الفضائل ، والمحامد ، والخيرات ، والأفعال الكريمة ، والأخلاق =

وَقَالَ :

إِذَا سَتَرَ الْفَقْرُ أَمْرًا ذَا نَبَاهَةٍ فَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ يُشِيدَ بِهِ الْفَضْلُ^(١)
فَإِنْ لَهَيْبَ النَّارِ مَهْمًا كَفَاتَهُ إِلَى أَسْفَلِ قَسْرًا، فَلَا بُدَّ أَنْ يَعْلُو^(٢)

= الحميدة ، والحاسن الكبيرة التي تظهر من الإنسان . والرجاء : الأمل : مصدر رجاء يرجو : بمعنى أمله (من باب طلب) . والفضل : الإحسان ؛ أو الابتداء به بلا حلة له ؛ ويراد به : الخير ، والبر ، والكرم بمعنى العام والخاص .

والمنع : إنما يرجي الخير الكرماء من الناس ؛ فإذا ذهب الرجاء بلعاهم ، وافقضى بانقضائهم ؛ ولم يبق من يأمله الناس لكرمة ، أو يرجونه لمرة ، أو يندبونه لمهمة ؛ وإن ذهب هذا الرجاء ذهب معه الفضل ، والبر ، والخير ، والنجدة ، والمروءة ، والإحسان ؛ وصلة هذا البيت بالذي قبله واضحة وثيقة ؛ فالبيتان كلاهما في الخس على التسابق في أعمال البر والخير والكرم .

* * *

(١) النباهة : الشرف ، والعلو ، والفضلة ، وعلاء الأكر ، وعظم الشأن : مصدر نه (من باب ظرف) . وأشاد به : ثوبه به ، وشهره ، وأظهره ، ورفعه . والفضل : الإحسان ، والخير ، والبر ، والمروءة .

والمنع : أن الفقر قد يضل - إلى حين - فقيرًا شريفًا ، فاضلاً ، فليلاً ؛ ولكن فضله ومقامه ومزاياه لا تلبث أن تكشف عنه هذا الغمط المظلم ، وتظهر نباهته ، وتنبو به ، وتظمه ، وشهره ، ذكره ، وتربح في الناس قدره .

والبيت الآتي تمثيل وتصوير حسن لهذا المعنى .

(٢) كفاته : أمته ، ونكته . كفاً الإفاء (من باب فتح) : أي كنهه ، وقلبه . والإكراه ، والقهر : مصدر قهر (من باب ضرب) : أي قهره على كره . وقهره على الأمر : أكرهه عليه .

سور الشاعر بهذا البيت معنى البيت السابق تصويراً حسياً بليلاً ؛ فإن التباهي الفاضل ، اللطيف الشريف - لا يستطيع قهره أن يضلّه طويلاً ؛ بل لا بد أن يظهره للناس فضله ، وقدره ، وفضله ، وقبائته ؛ بجله في هذا الكيل لب النار ؛ إذا حاولت أن تنكسه عليك حل أمرك ، وزاد ثقته ، واشتد تلبسه ، وبلا استعماله .

وَقَالَ :

لَعَمْرُكَ مَا الْإِنْسَانُ إِلَّا ابْنُ يَوْمِهِ وَمَا الْحَيَاسُ إِلَّا نُبْنَةٌ وَزَيْتَانٌ^(١)
 وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا دَفْتَرٌ فِي خِلَالِهِ تَصَاوِيرٌ لَمْ يُعْهَدْ لَهَا مِثَالٌ^(٢)
 فَبَقِيَ صَفْحَةٌ مِنْهُ زَمَانٌ قَدْ انْقَضَى وَفِي وَجْهِ أُخْرَى دَوْلَةٌ وَرِجَالٌ^(٣)

(١) لعمرك : قسم بحياتك . اللام للابتداء . وحر : حياة ، وهو مبتدأ ، ونبره محذوف ، والتقدير : لعمرك قسى ، أو يحقى . وابن يومه : أى فرصة لأن يموت فى كل يوم ؛ فكان كل يوم نهاية أجله : أى ينتهى أن يقدر أن كل يوم يمر به هو نهاية أجله ، ويستيقن أن عمره فى الدنيا قصير مهما طال ، وأن الموت مترصد به ، مدرك له لا محالة ، وأن الكيس من دان نفسه ، وعمل لآخرته ، كأنه يموت غداً . والحىس : الحياة . والبنة (بضم فسكون) : التفتيح اليسير ، والمكث القليل . وزايله مزايلة وزايلا : بادره ، وبادنه ، وفاته . والشطر الثانى فى معنى الشطر الأول : أى ما الإنسان إلا ابن يومه ، وما حياته فى الدنيا إلا لحظة قصيرة .

أقسم بحياة المخاطب أن عمر الإنسان فى الدنيا قصير ، وإقامته فيها قليلة مقلقة محدودة ، وأنه سرعان ما يزاولها ويهازلها . وقد استعمل فى شطرى البيت أسلوب التصر ، أو المحصر ، أو التخصيص ، وأكد الخبر بالقسم ؛ لأنه فرض فى المخاطب النفلة ، فاقتضى الحال إيقافه من غفلته بقوة القسم ، وقوة التخصيص .

ولا ريب أن الفرض من مثل هذا البيت : تنبيه الأذهان على هذه الحقيقة التى يغفل الناس عنها ، ويعتفرون بالدنيا ، ويتكالبون عليها ، ويحملون ما ينتهى أن يحصر عليه المقلاة الأختيار من الإيمان ، والاستقامة ، والمثل العليا ، ومكارم الأخلاق .

(٢) الدهر : مدة الحياة الدنيا كلها . والدفتـر (كجـفـر ، ودرهم) : جماعة الصحف المضمومة ، أو الكراسة . وفى خلاله : المراد فى صفحاته . والخلال (فى الأصل) : جمع غل (بوزن جبل وجبال) : وهو المنفرج بين الشيئين . والتصاویر : الصور ، أو التماثيل ، وأصنافها تصويرية . ولم يعهد : لم يعرف . وطن : للتصاویر . ومثال : شبه ، ومثل ، ومثـلر .

(٣) الصفحة من الكتاب ، أو الكراسة ، أو الدفتـر : الوجه من الورقة . والدولة (بفتح الدال) : ونسبها مع سكون الواو) : العلية ، والاستيلاء ، والثبوت المتداول من مال وغيره ، فيكون مرة لحدا ، ومرة للذاك . والدولة (بفتح فسكون) : جمع من الناس مستقرون فى إقليم معين الحدود ، مستقلين وفق نظام خاص .

وَقَالَ :

طَهَّرْ لِسَانَكَ مَا اسْتَطَعْتَ ، وَلَا تَكُنْ نَحْبًا يَقْرَبُ لِلنَّفُوسِ ضَلَالَهَا^(١)
 إِنَّ الْوَقِيعةَ لَا تَعُودُ بِخِزِيَةٍ أَوْ سُبَّةٍ إِلَّا عَلَى مَنْ قَالَهَا^(٢)

= وتعلق الدولة على البلاد ، ومل الهيبة الحاكمة في البلاد ؛ وكانت لنا طيهم الدولة : أي الغلبة ، وجميعها دول^(٣) (يضم الدال وكسرهما) . ويقال : « لكل زمان دولة ورجال » . ومن كلامهم : « الدهر دول » : أي لاثبات فيه ، ولا استقرار .

ومعنى هذا البيت والذي قبله : أن الدهر ، أو عمر الدنيا كالدفتر ، يحوي ما لا يعرف له نظير من الصور والتأثيل ، والأشكال والأسوال ، وأنوان العيش ، وضروب الحياة ، وسير الحق والأحياء ؛ وإذا تصفحته رأيت في بعض صفحاته زماناً قد انقضى ، وطوى الموت أهله ؛ ورأيت في بعضها دولة ورجالا يضطر بون في الحياة .

والغرض من هذه الآيات الثلاثة العظة ، والنصح ، والإرشاد ، والتبصير بقصر عمر الإنسان ، وقلة إقامته ، وسرعة فناءه ، وكثرة ما يحويه سجل الدهر . وكتب التاريخ من العبر والمظالم التي تنيه الغافل ، وتنبه الجاهل ، وتقفه على حقيقة الحياة الدنيا ، وتريه أنها قصيرة فانية ، متقلبة متغيرة ، لاثبات فيها ، ولا قرار ؛ وما الحياة الدنيا إلا متاع الفروور . الآية رقم ١٨٥ من سورة آل عمران .

* * *

(١) غيب (من باب علم) : خدع ، وثنى ، وشبث ؛ ومنه الخب (بكسر الخاء وفتحها) : وهو الخداع الخبيث ، الذي يسمى بالفساد بين الناس ، ويظهر لك خلاف ما يخفيه ، ويلحق بك المكروه من حيث لا تعلم . والفضائل : ألا يجد السالك إلى مقصده طريقاً : مصدر ضل : ضل اهتمامي .

(٢) القيمة : اغتيالك الناس : مصدر وقع في فلان : أي سبه ، وما به ، واغتتابه . والخزاية (بفتح الخاء وكسرهما) : الخزى ، والعمار ، والنفسيمة ، والبلية ، والخصلة يستحيا منها : مصدر خزي (من باب علم) : أي وقع في بلية وشر ، واقتضح ؛ قلل بذلك وهان . والسبة : العار . وما يجلب لصاحبه السب ، والشتم ، واللعن .

وهذان البيتان في النصيح والإرشاد لمعة اللسان والقلب ، وتطهيرهما من دنس الكذب والبيئة والفحمة ، والسعي بين الناس بالشر والفساد ، والترفع بهما عن الخبث ، والنش ، والخداع ، والمكر السيئ الذي يفضل النفوس ، ويوقعها في المكروه ، ويمسها من الخنى والإرشاد ؛ فإن العائب للناس ، الواقع في أفعالهم لا ينال منهم بوقته واغتياؤه بقدر ما يسعى إلى نفسه ، ويجلب لها المقت والخزى والعمار ، ويورث بالنفسيمة واللذ والهلوان . ويقرب من معنى البيت الثاني قول كعب بن زهير بن أبي سلمى :

مقالة السوء إلى أهلها أسرع من منحنو سائل

وَقَالَ :

لَيْسَ الصَّدِيقُ الَّذِي تَعْلُو مَنَاسِبُهُ . بَلِ الصَّدِيقُ الَّذِي تَزْكُو شَمَائِلُهُ (١)
 إِنَّ رَبَّكَ الدَّهْرُ لَمْ تَفْشَلْ عَزَائِمُهُ . أَوْ نَابَكَ اللَّهُمَّ لَمْ تَفْتَرِ وَسَائِلُهُ (٢)

(١) النسب : القرابة ، وجمعه أنساب (يوزن سبب وأسباب) ، ومثله المنسب ، وجمعه مناسب (يوزن ملهوب وملاهب) ؟ ورجل على المناسب : نابه الأصل ، معروف حسبه ونسبه ، شريف الآباء والقرابات . وتزكو : تصلىح ، وتطهر ، وتطيب . وشمائله : سجاياه ، وطيابه : جمع شمال (يوزن كتاب) .

والمعنى : أن المرء يحق له وأدبه ، لا بحسبه ونسبه ؛ وأن صديقك الجدير بشقتك واحترامك ، من صدق بده ، وزكّت شخصاله ، وكرمت أخلاقه ، لا من علا نسبه وحسبه ، ونهبت أصوله وآباءه . وفي البيت حصن " حل حسن اختيار الأصديقاء .

(٢) ربك : ساطع ، وأزيعك ، ونابك ، وأصابك ، وأراك ما تكره . والدهر : الزمان الطويل ، والأمد الممدود ، ومدة حياة المرء ، ومدة الحياة الفعليّا كلها ؛ وقد جرى الناس على أن ينسبوا إليه الخير والشر ، والمسرة والمصاة . ولم تفشل : لم تضعف : مضارع فشل (من باب تعب) : أى ضعف ، وتراخى . والعزائم : جمع العزيمة : وهى الإرادة المؤكدة . ولم تفشل عزائمك : لم تضعف همته ، ولم يقصر فى حثك ، ولم يخن أخوتك ، ولم يقعد عن نصرتك ومعاونتك . ونابك : أصابك ، ولزل بك . والحزن : الألم . ولم تفتّر : لم تضعف : مضارع فتر (من باب تعد ، ويجلس) : أى ضعف ، وسكن بعد حدة ، ولأن بعد صلابته وقدة . والوسائل : جميع الوسائل : وهى الرصلة ، وما تقترب به إلى غيرك . واليسيلة : القربى . ويراد بالوسائل هنا : الصلات الطيبة ، والروابط المحبة التى تتطلبها الصداقة الصادقة ، والأخيرة الصحيحة . والشطر الثانى فى معنى الشطر الأول .

فى البيت السابق قال : إن الصداقة الصادقة ليست فى علو الأنساب والأحساب ، ولهاجة الآباء والأجداد ، وإنما تكمن فى زكاء الشئائل ، وكرم الطباع ، وليل السجايا ، وشرف الخلال والخصال . وفى هذا البيت والأبيات التالية تفصيل لهذا الإجمال ؛ فالصاحب الصادق اليد ، والصديق الزكى الشئائل من أقام على الهدى لك ، وثبت فى السر واليسر ، والنفراء والانساء ، والشدّة والرخاء ، وأعانك على كل ريب الدهر ، وحذّن الزمان ، ولم يخذلك فى الأزمات والملمات ؛ ولا ريب أن النكبات والشدائد تميز الصديق من الصديق ، والخييب من الخيب :

جزى الله الشدائد كل غير عرفت بها عدوى من صديق

بِرَعَاكَ فِي حَالَتِي بَعْدَ وَفَرَّتِي وَلَا تُغِيكَ مِنْ خَيْرٍ فَوَاضِلُهُ (٣)
لَا كَالَّذِي يَدْبِي وَدًّا، وَبَاطِنُهُ يَجْمَرُ أَحْقَادِهِ تَغْلِي مَرَاجِلُهُ (٤)
يَذْمُ فَقُلْ أَجْنِحَ مُظْهِرًا أَسْفَا لِيَوْمِهِمُ النَّاسُ أَنَّ الْحُزْنَ شَامِلُهُ (٥)

(٣) يرعاك : يحفظك والمراد يرضى عهد الصداقة وسهرتها ، ويحفظ لك المودة والمحبة ، ويخلص لك ، ويصون حقوقك عليه في بعلك وقربك ، وفيبيتك وحضورك . والمقربة (بتثنية الراء) : ضد البعد : مصدر ميمي من قرب (من باب حسن) . ولا تغيك : لا تنقطع عنك : من الإغياب : مصدر أغب . أو من الغب : مصدر غب (كرد ، وغف) . يقال : فلان لا يفينا عطاؤه : أى يتولى علينا كل يوم . والغب ، والإغياب (في الأصل) : خلاف التتابع ، أو التوالي ، أو الاتصال في الزيارة ، وفي سق الإبل والمأفية ، وفي تردد الحصى إلى المحسوم ، وفيما شابه هذا وفي الحديث الشريف : « زرعها ، تزود حباً » . وغبت الحصى على المحسوم ، وأغبت عليه ، وأغبت : أخذته يوماً ، وتركته يوماً . وغبت الماشية : شربت يوماً ، ولم تشرب يوماً . والفواضل : جمع فاضلة : وهي النعمة العظيمة ، والمهبة ، والبر ، والإحسان . و « من خير » : متعلق بـ « فواضل » . وهو بيان للفواضل ، وتأكيد لمصانها .

يقول : من أمارات صدق الصديق ، وإخلاصه ، وولائه ، وزكاه شأله ، وكرم خصاله — أن يحفظ ذلك ، ويرضى عنك ، ويصون حقك في قربك وبعلك ، وحضورك وفيبيتك ، ويسلك حل النوام بمره وشيره ، وإقباله وحفاوته .

(٤) الذئ (مثلثة الواو) : المودة ، والمحبة . والواو : وال الحال ، والمجلة إسمية بمعنى حالية . وباطن كل شيء : جوهره . وباطن الإنسان : سريره : أى ما يكتمه ، ويسره ، ويخفيه . ويجمر أحقاده متعلق بـ « تغل » . والباء : للسببية : أى يدعى الذئ والحال أن باطنه تغل مراحله بسبب جمر أحقاده : أى بسبب أحقاده المتوقفة تروك الجمر : جمع جمرة : وهي النار المتقدة . أو قطعة منفصلة منها . والأحقاد جمع حقد : وهو الضغن (يكسر فسكون فيهما) : أى إضرار الكراهية ، والالطواء على البغضاء ، سقد عليه (كعرب) : أسسك حداوته في قلبه ، وتربص فرصة الإيقاع به . والمراجل : جمع مرجل (بوزن منبر) : وهو القدر (بوزن البئر) أتى يطبخ فيها . وظليان مراحله : كناية عن شدة غيظه . والمجلة الحالية كلها تصوير يليق لما يضممه مدعى الذئ من الحقد المتوقد ، والليظ الشديد ، والضغن الذى يغلى به قلب هذا المنافق وكيد وسريته وباطنه .

يقول : ليس الصديق الذى تزكرو شأله كالمناقب المتأدع ، الذى يظهر المودة ، ويغمر المداوة الشديدة ، وألحد البغى المتوقد . وفى البيتين الآتيين تصوير مفصل لهذا المنافق المداهن .

(٥) فاعل « يذم » : ضمير مستتر يمدح حل مدعى الذئ : أى للصديق المتأفل المداهن ، الذى تغل به

وَذَلِكَ مِنْهُ جِدَاءٌ لِي مُجَسَّمَتَةٌ فَأَحْذَرُهُ ، وَأَعْلَمُ بِأَنَّ اللَّهَ خَازِنُهُ ^(٧)
وَقَالَ :

الْحُبُّ مَغْنَى لَا يُحِيطُ بِسِرِّهِ وَصِفِّ ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ مِثَالُهُ ^(٨)

== مرآته بحسب أحقادہ . والأسف : أحد الحزن . والتألم : الوجع . ودم الإنسان الشيء (كود) : تمطه ، وتمطيه ، وتصوره ؛ أو دار في خاطره . وأوجه كذا : أدخله في وجهه ؛ أي جملة يترجمه ، ويظنه ، ويمتله ، ويمتطيه ، وإن لم تكن له حقيقة ، ولم يكن له وجود . والحزن شامله : أي يحيط به ؛ اسم فاعل من شملهم الأمر ؛ أي محهم ، وغطام .

والمنى : أن هذا الحب المناظر الذي يدعى الصداقة ، ويلقى إليك بمودة الكاذبة لا يضر لك غير الكراهية الشديدة ، والحدق المتأجج . ومن افتتاله في تعلية عداوته المتولدة : أن يعاتبك ، ويعيبك ، ويذم أفعالك ، ويترى عليك أفعالك في شيبك ، أو في حضورك ، مظهرًا للأسف والحزن ، والتوجع والتألم ؛ ليهم الناس أنه غير مقاب ، وغير معاد ، أو غاسم ؛ وإنما يعيبك إشفاقًا عليك ، وبرًا بك ، وإصلاحًا لثالك ، وروية في تقويمك ، وهدايتك ، وتصحيح أخطائك .

(٦) « ذلك » إشارة إلى الأسف ، والحزن الشامل الذي ذكره في البيت السابق . ومنه : من مدنى اليد . والعداء (بفتح العين) : مصدر عدا عليه ؛ أي ظلمه ، وتجاوز الحد في ظلمه ، وظله العدوان ؛ أو هي العداء (بكسر اللين) : مصدر عاداه ؛ أي خاصمه ، وصار له عدوًّا ؛ والاسم منه العداوة . والجمالة : مصدر جماله ؛ أي حمله بالجميل ، ولم يصفه بالإساءة . وجماله : أحسن معاملته وفضوته . وطم الإنسان الشيء : عرفه ، وثيقته . وطمه ، وطم به : شعر به ، وأحسه ، وأدركه . ومخاذه : اسم فاعل من خذه ؛ أي أسلمه ، وشيئه ، وترك نصرته وإمانته .

والمنى : أن هذا الأسف والحزن الشامل الذي يتكلفه مدنى اليد ، إنما هو في حقيقته عداوة غفيرة في صورة جمالة يتصنعها وهو يعيبك ، ويذم فمك ؛ ليستر بها ما يضره لك من الحدق والكراهية ؛ فاحترز منه ، ولا تتخذه جمالته الزائفة ، وأعلم أن الله لن ينصره ؛ فإن نصر الله تعالى مقصور على الاتقياء الصادقين المخلصين من عباده .

• • •

(١) يراد بمنى الحب هنا : المنى الروسى الناشئ من تعلق قلب الإنسان بشيء آخر ؛ وهذا هو المنى الذي لا يحيط بسره وصف ، ولا يجرى عليه مثال . وخفاء حقيقة الحب بهذا المنى كخفاء حقيقة الروح ؛ ولهذا قيل : « الحب عظم أن يعرف ، وجل أن يخفى » . أما آمارات الحب ، وظواهره ، وآثاره ، ونتائجه ، فإنها في دائرة مساوفا الإنسان ، وفي متناول عقله وحواسه . ومثال الشيء : شبهه ، وصورته التي تمثل وتصوره وتبرز معالمه وصفاته .

كَالْكَهْرَبَاءِ دَرَكُهَا مُتَعَلِّدٌ وَتَسِيئُهَا مُتَحَدِّرٌ سَبِيلٌ (١)
وَكَذَلِكَ الْأَرْوَاحُ يَظْهَرُ فِعْلُهَا وَيَغِيْبُ عَنَّا سِرُّهَا الْقَعَالُ (٢)

= والمعنى : أن الحب الروسى من الأمور الخفية التي لا يكشفها الوصف والبيان ، ولا يظهرها التفتيل والتشبيه ، ولا يجليها التعبير والتصور . وفي هذا المعنى يقول أبو الطيب الحنفي :
طوى النفوس سريرة لا تعلم عرفاً نظرت ، وعملت آلى أسلم
ويقول غيره :

إن المحبة أسرها عجب تلقى عليك ، وماها سبب

وفي البيت الاتي جمل الحب كالكهرباء . وفي البيت الثالث شبه بالروح ، والجامع بين الحب والكهرباء ، والروح أن كلا منها مجهول الكنه والحقيقة ، معروف بآثاره ونتائجه .

(٢) الكهرباء : المنطقة من الكهرباء . ودركها متعذر : أى تعلمد على العلماء معرفة كنهها ، ولم يستطيعوا الوقوف على حقيقتها ، ولهذا أشبهت الحب الروسى الذى أشار إليه الشاعر فى البيت السابق ، وقال : إن الإحاطة بسره غير مستطاعة ، وتحيل معناه غير ممكن . والنسيم (فى الأصل) : الريح الطيبة اللينة الطيفة . أو أول الريح حين تقبل بلين ، قبل أن تشتد . أو الريح التى لا تحرك شيئاً ، ولا تطفئ أثراً . ويراد بنسيم الكهرباء : التيار الكهربائى : وهو القوة الكهربائية السارية فى المادة ؛ وهو ليوافق : موجب ، أو دافع ؛ وسالب ، أو جاذب ؛ ومن آثار هذا التيار ، أو السيل : الإضاءة ، والتسخين ، والتبريد ، والجذب ، وهز أعصاب الحيوان ، وتحليل الماء والأملاح ، وغير ذلك . ومصدر : اسم فاعل من تحلر : البقع ولحمه : أى تنزل ، والحد ، وسال . وسيل : صيغة مبالغة من سال الماء ونحوه : أى جرى . وهو تكرار وتأكيده لمعنى « متعذر » .

شبه الحب الروسى بالكهرباء ؛ فكلاهما مجهول الكنه والحقيقة ، ظاهر الآثار والنتائج .

(٣) الأرواح : جمع الروح (بضم الواو ، وسكون الراء) : وهو النفس (بفتح فسكون) ؛ وما يحيا به الجسم ، فإذا انقطع من الحيوان فأزنته الحياة ، والروح يدكر ويؤنث ؛ وفي مذهب أهل السنة : أنها النفس الثالقة ، المستعنة بالبيان ، وهى الخطاب ؛ ولا تنفى بفناء الجسد . وفي القرآن الكريم : « وسأولئك عن الروح ، قل : الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » الآية رقم ٨٥ من سورة الإسراء . سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن كنه الروح وحقيقتها ، فنزلت هذه الآية القرآنية الكريمة . ومعنى « قل الروح من أمر ربي » : قل لسؤالك عن كنه الروح وحقيقتها : إن الروح من أمر الله تبارك وتعالى : أى ما استأثر الله تعالى بعلمه . قال بعض العلماء : « إن الله تعالى لم يطلع على الروح ملكاً مقرباً ، ولا نبياً مرسلًا » ؛ بتدليل هذه الآية . وقيل : إن المراد بالروح فيها : القرآن ؛ لأنه لو كان المراد : روح الحياة ، فليس فى الآية أكثر من أن الروح من أمر الله ؛ =

حِكْمٌ تَمَلَّكَهَا التَّمُوضُ فَلَمْ يُحِطْ بِرُمُوزِهَا فِي التَّسَالُجِينَ مَقَالٌ^(١)
وَقَالَ فِي الْقَرْلِ *

لَيْسَ لِي غَيْرُ خَالِكَ الْحَجَرِ الْأَمَّ وَدِ فِي كَعْبَةِ الْمَحَاسِنِ قِبْلَةٌ^(٢)

وباب البحث عن حقيقتها مفتوح ، لم يمنع منه نص ديني . وقَسَل : مبالغة « قاعل » . وسرها الفعّال : كتبها الذي به تحصل الحياة ، والتحرك ، واستجلاب المنافع ، واستنفاع المضار . . .

نظم الحب ، والكهرباء ، والروح في سلك واحد ؛ فكل منها مجهول يظهر بآثاره .

(٤) حكم : جمع حكمة (بكسر فسكون) : وهي (في الأصل) : إصابة الحق بالملم والمقل ، أو معرفة الموجودات ، وفعل الخيرات ، أو معرفة أفضل الأشياء بأفضل المعلوم . والحكمة من الله تعالى : معرفة الأشياء ، وإيجادها على غاية الإحكام والإتقان . ويراد بالحكم هنا : أمور ثلاثة ، يجمعها الإحكام والإتقان وغفاء حقائقها وأسرارها ، وظهور نتائجها وآثارها : وهي : الحب ، والكهرباء ، والروح . وتملكها : ملكها ، وسيطر عليها . وأحاط بها . والرموز : جمع رمز : وهو الإيماء ، والإشارة . والعالمون : جمع العالم (يفتح اللام) : وهو الخلق كله . والمقال : القول . وبثله المقالة : مصدر « قال » .

والمنى : أن الحب ، والكهرباء ، والروح من الأشياء التي أحكم الله خلقها ، وأتقن إيجادها ، وأظهر للناس آثارها ؛ ولكنه — جل و علا — أخفى عنهم حقائقها ؛ فمجزوا كل المعجز عن إدراك شيء من أسرارها وخفاياها ، بعد ما أنفقوا الأعمار الطويلة ، والجهد المضنية في بحوث ومعالجات قصرت كلها عن الإحاطة بكنه هذه الأشياء الثلاثة ، أو إدراك شيء من حقائقها على الرغم من ظهور آثارها .

ولعل الحكمة في ذلك تمجيز العقل البشري عن إدراك حقائق مخلوقات مجاورة له ، متصلة به أو وثق اتصال ؛ ليعلم أنه عن إدراك ذات الله أشد صجراً وقصوراً .

* * *

(*) القَرْل : مصدر غزل الرجل بالمرأة (من باب طرب) : أي حادتها ، ولها معها ، وتودد إليها ، وأفاض بذكرها . ويرادف القَرْل ، أو يقرب منه التَّشبيب ، والتَّشبيب ؛ فالأول : مصدر نسب الشاهر بالمرأة (كعقرب ، وقصر) : أي عرفس بها ، وحبها . أو شبيب بها ، وقزل . والتَّشبيب : رقيق الشعر في النساء . والثاني : مصدر شبيب الشاهر بالمرأة : أي تغزل بها ، ووصف محاسنها . أو ذكر أيام الشباب والهرم والقزل . وشبيب قصيدته : حسنها وزينها بحديثه عن المرأة . وكان من عادات قدامى الشعراء : أن يفتتحوا قصائده المنيح بالتشبيب ، كقصيدة « بانت سعاد » لكتب بن زهير بن أبي سلمى في مدح النبي محمد صلى الله عليه وسلم . والشاعر في هذين البيتين ، وفي كثير من غزلياته يستخدم ضمير المذكر على عادة كثير من روى عنهم ، ونسج على منوالهم من شعراء العصر العباسي .

(١) الخال : شامة ، أو نكتة سوداء في البدن ؛ والكثير الغالب المشهور أن يطلق الخال على شامة الخلد ، =

فَأَتَيْنِي عَلَى الْجَمَالِ زَكَاةٌ وَزَكَاةُ الْجَمَالِ فِي الْخَدِّ قَبْلَةً^(١)

وَقَالَ :

يَا هَاجِرِي ظُلْمًا يَغْيِرُ خَطِيئَتِي هَلْ لِي إِلَى الصَّفْحِ الْجَمِيلِ سَبِيلُ^(٢)

« وقد يكون خلقه. وقد تضعه الحسناء لتجمل والزينة. والكعبة: البيت الحرام الذي رفع قواعده بمكة المكرمة سيدنا إبراهيم الخليل ، بمعاونة ابنه ميثاء إسماعيل عليهما السلام . ولما أتمه أذن في الناس بحجه . قال تعالى في القرآن المجيد : « وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ، وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ، يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ » الآية رقم ٢٧ من سورة الحج . والبيت الحرام قبلة المسلمين ، يتجهون إليه في صلاتهم . قال تعالى : « قد نرى تقرب وجهك في السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها : فلي وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » الآية رقم ١٤٤ من سورة البقرة . وفي الركن اليماني من الكلمة الحجر الأسود الذي يقدمه المسلمون ، ويلبسونه ، أو يقبلونه إذا مروا به وهم يطوفون بالكعبة . والحاسن : جمع على غير قياس الحسن . أو هو جمع بحسن (يوزن مذهب) . والقبلة : الكعبة المشرفة ؛ لأن المسلمين يستقبلونها في صلاتهم . والقبلة أيضاً : الجهة . و « الحجر » بدل من « خال » . وترتيب الكلام : « ليس ل قبلة في كمية الحاسن غير خالك الحجر الأسود » .

جعل محاسن وجه الحبيب كمية يستقبلها عشاقه ، كما يستقبل المصلون البيت الحرام . وفن فتراً بشامة سوداء في خده ؛ فولي وجهه شطرها ، وتعلق بها بصره ، كأنها الحجر الأسود في الكعبة المشرفة ، ينظر إليه الطائف بها ، ويحرص على تقبيله .

(٢) « أثنى » : أمر من « أثنى » : بمعنى منح ، وأعطى ، وهب . والزكاة : حصة . أو قدر محدود يخرج من المالك من ماله للفقراء والمستحقين . والزكاة أحد أركان الإسلام الخمسة . وسمى القدر الخارج من المال زكاة ؛ لأنه يزكى المال : أي يطهره ويصلحه ، أو لأنه يزيد ويباركه وينديه . والقبلة (بضم لسكون) : الثمة . وقد قبله تقييلاً : أي نحه .

يقول لمن ينزل بها : إن الجمال كالمال ، يستحق أن تخرج عنه الزكاة ، وأنا من يستحقونها . وزكاة الجمال أن يسمح للعاشق بتقبيل الجميل في خده .

• • •

(١) الخطيئة : الذنب ، والإثم . والجريرة . والاستفهام في أول الشطر الثاني : معناه التقى . والصفيح : مصدر صفيح عنه (من باب صفيح) : أي أعرض عن ذنبه ، وعفا عنه . وجمال الصفيح : أن = ديوان البارودي - ٣

مَاذَا بَصُرَكَ لَوْ سَمَحْتَ بِنَظَرَةٍ تَحِيَّا بِهَا نَفْسٌ عَلَيْكَ تَسِيلُ ؟ (٣)
وَقَالَ :

مَنْ ظَنَنْتِي مَوْضِعًا يَوْمًا لِحَاجَتِهِ كُنْتُ الْحَرَىَّ بِأَنْ أُعْطِيَهُ مَاسَالًا (١)
لَهُ عَلَى بَحْسَنِ الظَّنِّ مَا ثَرَّةٌ لَا يَسْتَقِيلُ بِهَا شُكْرِي وَإِنْ جَمَلًا (٢)

== يكون من مقتدر عليه لاحتاج إليه ، وأن يأتى فى وقته المناسب ، وتأثلت به القلوب النافذة .
وسيل : طريق .

فى الشطر الأول شكاً حبيبه ، وراء بالظلم ؛ لأنه صد عنه ، وهجره بفجر جريه ؛ ولكنه ما لبث أن عدل من هذا فى الشطر الثانى ، وتطامن ، وفرض أنه قارف ما استوجب هذا الصدود والإعراض ، وتمنى أن يجد السبيل إلى صنع جميل من هذا الحبيب يحى آماله ، ويحقق له ما يرجوه من الإقبال والوصول .
وفى البيت الآتى توضيح وتفصيل لبعض هذا المعنى .

(٢) الاستفهام فى أول هذا البيت : معناه التنى : أى إن يضيرك سماحك نظرة تُسحق بها نفس من أحبك ، وتعلق بك . وعليك : من أجلك : أى بسببك ؛ وهو متعلق بـ « تسيل » ؛ ومعناه : تهك وتردى ؛ على التجوز من سال الماء ونحوه : إذا جرى ، وفارق موضعه . أو تسيل عليك : تتدفق عليك ، وتسرع إليك ، وتمتزج بك ؛ وهو أيقناً تمير مجازى من قولهم : « سالت عليه الخيل وغيرها » : أى جرت من كل وجه ، وتدفقت . قال الشاعر :

سالت عليه شامب الحى حين دها أنصاره يوجوه كاللذائير

فى الشطر الثانى من البيت السابق تمنى أن يصفح عنه الحبيب صفحاً جميلاً .

وفى هذا البيت أشار إلى ما يضائيه ، ويكاد يريده من لوائح الهوى ، وحرق الصباية ، وإعراض الحبيب وصدوده ؛ وربما أن يقرن هذا الصفح الجميل بنظرة منه لن تضيئه إذا سمح بها ، ولكنها تحيى نفس محبه ، وتنقذه ، أو تخفف عنه ضيق الويد ، وأوصاب الفراق .

• • •

(١) الحرى : الخلق ، والحقيق ، والجدير ، والمستحق . يقال : هو حوى بكذا ، وحوى أن يفعل كذا : أى جدير به ، أهل له : أى من جلدك أهلاً لحاجته ، كنت أهلاً أن أقضيه له ، وأنبله إياها ، وأعطيه ما سألني إياه . و « أعطيه » منصوب بـ « أن » ، الناصبة للمضارع ؛ وإنما سقطت فتحة « الياء » هنا لضرورة وزن الشعر .

(٢) المأثرة (بفتح اللام وضمة) : الفعل الحيد ، والمكرمة التى تؤثر : أى تروى ، وتنقل ، وتذكر ، وجسمها مأثر . ولا يستقل : لا ينهض : مضارع استقل الشيء : أى حمله ، ورفع ، ونهض به =

وَقَالَ فِي الْفَرْقِ :

عَاتِبَتْهُ ، لَا لِأَمْرِ فِيهِ مَعْتَبَةٌ عَلَيْهِ ، لَكِنْ لِأَرْعَى وَرَدَّةَ الْخَجَلِ^(١)
فَقَالَتْ يَا سَمِينُ الْخَدُّ خَجَلْتُهُ وَرَدًا جَنِيًّا ، جَنَاهُ رَائِدُ الْمُقَلِّ^(٢)

= أو معنى « لا يستقل » : لا يتفرد . من قولهم : « استقل الولد بالولاية » : أى تفرد بها ، ولم يشركه فيها غيره . والمراد أن شكره لا يكافئ مأثرة من أحسن به الظن ، وجعله أهلاً لحاجته . ويجعل الشكر (بوزن كرم) : حسن ، وكل ، وتم . و « إن » هنا : مجردة من معنى الشرط : أى لا يستقل بها شكرى ولو جمل : أى ولو فى حال جماله وكاله وقامه .

ومعنى هذين البيتين : إذا قصفت امرؤ يسؤله ؛ فقد جعلنى أهلاً لحاجته ، وأحسن الظن بى ، وأسلم إلى بحسن ظنه مكربةً وجميلاً ؛ ولهذا كنت أهلاً أن أمتحه سؤله ، وأحقق له طلبه ، وأقضى حاجته . وكان من حقه على " فوق هذا أن أشكر له ، وأحسن الثناء عليه ، وأتوه بمأثرته وجمله . ويلاحظ أنه بالغ ، فقال : إن شكره - وإن كل وتم - لا يكاد ينهض بمأثرة قابضة ، أو يكافئها ويوازنها ؛ وهى مبالغة محسوسة ، ومعنى جليل رائع .

• • •

(١) أبى : أراقب : والمراد أستمتع بالنظر : من قولهم : « رعى النجوم » : أى راقبها ، (وبابه سى) . أو المعنى : أجنى ، وأقطف . من قولهم « رعت الماشية الكلأ » : أى سرحت فيه وأكلته . لم يكن من حبيبه المتفرد به شيء يستحق الثواب ؛ وإنما عاتبه ليخجله ، فيستمتع بالنظر إلى حمرة الخجل فى غيبه ؛ أو ليقتطف منهما وردتين كأننا نتيجة الثواب .

(٢) ياسمين الخد : الخد الشبيه بالياسمين : وهو زهر أبيض ذكرى الرائحة . والجنى (بوزن الننى) : النفس ، النفس ، الطرى ، الذى جرى لساعته . وجناه : قطفه ، وتناوله من شجرته . والرائد : اسم فاعل من راد قومه ، أو راد لم المياه ، والمراعى ، والمنازل : أى تلمسها ، وطلبها ، وسعى أن يجدها لم . والمقل : العيون ، واحدها مقلة . ورائد المقل : المقل الشبيه بالرائد . و « خجلته » فاعل « أبس » . و « ياسمين الخد » مفعوله الأول . و « ورداً » مفعوله الثانى .

فى البيت السابق قال : إن حبيبه لم يعترف شيئاً يلام عليه ؛ وإنما أراد إعجابه بالقوم أو المحتبة ليستمتع برؤية نتيجةهما الحسية ، وهى حمرة الخجل فى وجنتيه .

وهذا البيت شبه تكرار لمعنى البيت السابق ؛ فبماض غلبه قبل الخجل كيباض الياسمين ؛ وحرمتها =

وَقَالَ فِي الْحِكْمَةِ * وَهِيَ مِنْ لُزُومٍ مَا لَا يَلْزَمُ :

دَعِ الْمَخَافَةَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ صَاحِبَهَا وَإِنْ تَحَصَّنَ لَا يَنْجُو مِنَ الْفَيْلِ (١)

سبب الخجل كحمره للورد الخفي . والاستمتاع والبهجة في هاتين الحالتين المتباينتين - لعينه وعيون العاشقين الهائمين يمثل هذا الجمال الحسي .

• الحكمة : إصابة الحق بالعلم والمقل . أو معرفة الموجودات ، وفعل الخيرات . أو معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم . أو صواب الأمر ، وسداده . أو القبول للوجيز الرائع الذي يتضمن حكماً صحيحاً مسلماً . أو الكلام الذي يوافق الحق ، ويقبل لفظه ، ويحمل معناه . وقوله صلى الله عليه وسلم : « إن من الشعر لحكمة » : أي قضية صادقة . والمثل : قول حكيم سائر ، يقصد منه تشبيه حال الأبي حكيم فيه بحال الأبي قبل لأجله . والحكم والأمثال كثيرة في المتنبي والمنظوم من الأدب العربي . وبها يتشبه الناس ، وترتاج ففهمهم لها ، وتنشط لفظها . وحظ البارودي منها غير قليل ، وإن كان أكثرها في ديوانه وفي أدبه ترديداً ، أو تجديداً لمعان سبقه إليها شعراء العرب وسكانهم . وقد التزم في هذين البيتين البقاء المفتوحة قبل الروي ، وهو اللام ؛ وهذا الالتزام لا تحتمه قواعد القافية .

(١) دع الخافه : اترك الخوف ، واجتنبه : أي لا تنف ، ولا تصعب ، ولا تجبن حيث ينبغي الإقدام ، وتحمّد الشجاعة . و « إن » في أول الشطر الثاني متجردة من معنى الشرط ، مستعملة هنا بمعنى « لو » : أي واعلم أن الرجل الخائف لا ينجو من الفيل ولو تحصّن : أي حتى في حال تحصّنه وتمنّعه . وتحصّن : اتخذ لنفسه حصناً يقيه ، وتمنّعه ، ويحميه ، والفيّل : جمع غيلة (بوزن حيلة وحيل) : اسم من الافتتيال : مصدر اختاله : أي أخذه من حيث لا يدري ، فأهلكه ، وبثله غاله (من باب قال) . وقتله غيلة : قتله على غفلة منه .

يخصّ على الإقدام والشجاعة . ويقول : إن الخائف الخسر لا ينقذه خوفه وحفره ، ولا ينجيانه من المهالك والآفات ، ولو احتسّى بالحصون المحصنة ، والبروج المشيدة ؛ وإذا كان الخائف الجبان عرضة للاختيال ، حتى وهو متحصّن بمحصنه ، متمنّع بمأواه ؛ فلا معنى للمخافة والجلب ، ولا فائدة منها ، ولا غير فيما . وفي هذا حصّ على الإقدام والشجاعة . وفي الحصّ عليهما يقول أبو الطيب المتنبي :

إذا غامرت في شرف مرموم . فلا تقنع بما دون التمرموم
فطم الموت في أمر صغير . كطم الموت في أمر عظيم .
يرى الجبناء أن العجز عقل . وتلك غفيمة الطبع القبيح

لَوْ كَانَ لِلْمَرْءِ عِلْمٌ يُسْتَنَكَلُ بِهِ عَلَى الْعَوَاقِبِ، لَمْ يَرْتَكِنْ إِلَى الْحِجَلِ^(١)
وَقَالَ فِي فَقْدِ الشَّبَابِ :

يُعْزَى الْفَتَى فِي كُلِّ رُزْءٍ ، وَلِكَيْتَهُ يُعْزَى عَلَى فَقْدِ الشَّبَابِ الْمَزَايِلِ^(٢)
فَكَمْ بَيْنَ مَفْقُودٍ يُعَاشُ بِغَيْرِهِ وَأَخَرٍ يُزْرَى بِالْهَوَى وَالْوَسَائِلِ^(٣)

(٢) « يستدل » بالبناء للمعلوم ، أو بالبناء للمجهول . والعواقب : جمع عاقبة : وهي آخر كل شيء ، ونهايته ، وخاتمة . وركن إليه (كخضع ، وقعد ، ولهم ركنوا وركنوا) : مال إليه ، واستند ، واعتد عليه . والحيل : جمع الحيلة (بوزن قيمة وقيم) : وهي الخلق ، وسجدة النظر ، وحسن التدبير ، والقدرة على حيلة التصرف في الأمور .

والمعنى : أن علم الإنسان قاصر محدود ، لا يكاد يكشف شيئاً من المنيب المجهول ؛ ولو استلح الإنسان تعرف نهايات الأمور ، وإدراك مصيرها ، وكشف عواقبها - ما جهد نفسه في كد اللعن ، واستنباط الحيل التي يحاول بها جلب المنافع ، واتقاء المضار .

وأعلم حلم اليوم ، والأسم قبله ولكنني عن حلم ما في غد هم
وفي القرآن الحكيم : « ولو كنت أطمئ القلب ، لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء » . الآية رقم ١٨٨ من سورة الأعراف .

وبوجه الاتصال بين هذا البيت والذي قبله : أنه ما دام الإنسان يجهل ما يحقوه له القدر ، ولا يستطيع اتقاء ما يفسدونه به من القليل والمكابرهما ففكر ففقد ، وأحبال ودبر - فن الخير والفلسفة أن يواجه شدائد الحياة شجاعاً مقداماً ، غير هيب ، ولا وجل .

• • •

(١) يعزى : يدعى له بالعزاء ، ويحمل على الصبر والسلوان . عزى يعزى (كرضى يرضى) عزاء : حسن صبره على ما فاته . وعزاء تعزية : سلاه وصبره . والفتى : الشاب الحدث أول شبابه بين المراهقة والرجولة . وتقيل العرب : فتي من صفته كيت وكيت ، من غير تفرقة بين الشيخ والشاب . وهذا المعنى هو المراد هنا . والرزء : المصيبة ، وبجسمه أرزاء . و « ليت » : حشر يفقد الفتى . والمزاييل : المغارق .

والمعنى : أن الناس يعزون الرزوء المصائب : أى يدعون له بحسن العزاء ، ويحضونه على الصبر الجليل والسلوان ؛ فلهم يتفهمون بمثل هذه التعزية إلى من أصيب بفقد شياه ؛ فإنه أحوج المصابين إليها ، وأحمرس المهرولين عليها ؛ إذ فقدان الشباب من الرزء الفادحة ، والكوارث الشديدة ، والمصائب الجلل . وفي البيتين الآتين مزيد توضيح ، وبيان ، وتعزيز لهذا المعنى .

(٢) « هم » : اسم ثنائى ، مبنى على السكون ؛ وهي هنا خبرية بمعنى « كثير » . وتمييزها بملوف : أى كم فارق ، أو كم مسافة : أى بين المفقودين المشار إليهما في هذا البيت فوارق كثيرة . ومسافات بعيدة . والمفقود الذى يعيش المره بغيره : كل شيء عدا الشباب . وآخر : أى ومفقود آخر : والمراد به الشباب . =

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَتَبَكَ الشَّبَابَ ، فَمَا الَّذِي
يَعِزُّ عَلَيْهِ ، وَهُوَ أَكْرَمُ رَاحِلٍ ١٧٩
وَقَالَ يَهْجُو :

كُلُّ صَغْبٍ سِوَى الْمَذَلَّةِ سَهْلٌ وَحَيَاةُ الْكَرِيمِ فِي الضَّيْمِ قَتْلٌ ١٨٠

صغيري بالهوى : أي يزري فقدانه بالهوى : أي يهاون به ، ويتواخى عنه ، ويقصر فيه ، وأزراه ، وأزرى به : عابه ، ووضع من حقه ، واستخف به ، وأهانته . والهوى : الحب ، والعشق ، والفرام . والهوى : ميل النفس إلى شهواتها . والهوى : الشيء الملهو : أي الذي تهواه النفس ، وتحبّه ، وتعمل إليه ، وتتعلق به . والوسائل : جمع الوسيلة ، وهي الرصلة ، والقربى : أي ما يوصلك إلى الشيء ، وتتقرب به إلى غيرك . ويراد بالوسائل هنا : وسائل الهوى : أي وسائله ، وصلاته ، وأسابيه ، وعلاقاته ، وملابساته ، وما يقرب الحب من الحبيب .

والمنى : شتان بين فقدان الشباب وفقدان غيره ؛ فكل شيء يفقده الإنسان غير شبابه يمكنه أن يسلمه ، ويتعزى عنه ، ويعيا بدونه ، ويجد عوضاً منه ؛ أما الشباب فلا يستعاض ؛ وذهابه يحرم المرء لذة الهوى ووسائله ؛ فإذا ذهب شباب الإنسان ضلعت عيشته ، وسادت حيايته ، وتهد به ضمة الشيخوخة وجدها وجفائها عن الاستمتاع بما يحبه ويهواه من متع الحياة ولذاتها . وهذا قريب من قول أبي الطيب المتنبي :

آلَة النيش . صمة وشباب فإذا وليا من المرء ولي

(٣) يمز عليه (بوزن يقل) : يكرم عنده ، ويمعظم قدره . ويمز عليه (كيقول) ، ويمل : يشق عليه ، ويصعب ، ويشته . وأكرم : أفضل ، وأعز ، وأمثل . والاستفهام في هذا البيت : معناه النفي ، وجملته « وهو أكرم راحل » : جملة حالية .

يخص على بكاء الشباب ، والتعسر على فواته . ويقول : إذا لم يبك المرء شبابه المذهب ، فلا شيء سواه يكرم عنده ، أو يشق عليه ذهابه ؛ فإن الشباب أعظم مفقود ، وأكرم راحل .

* * *

« عثمان رفق » ضابط شرطي الأصل ؛ كان ناظرًا للجهادية في وزارة « مصطفى رياض » سنة ١٨٨٠ ، وعرف بتعصبه لقباط الجراكسة في الجيش المصري ؛ فسخط عليه القباط المصريون بزعامة « أحمد عرابي » وطلبوا إقالته ، فحاولت الحكومة محاكمتهم ، فلم تستطع ؛ فاضطر الخديو « توفيق » إلى الصفع عنهم ، وإجابتهم مطالبهم . وفي السادس من فبراير سنة ١٨٨١ صدر الأمر بإعزل « عثمان رفق » وتعيين « محمود سامي البارودي » ناظرًا للجهادية بالإضافة إلى وزارة الأوقاف التي كان يشغلها من قبل . وفي اليوم الثاني من أغسطس سنة ١٨٨١ استقال من وزارتي الجهادية والأوقاف لما أحس أن الخديو « توفيق » يسى به الظن ، ويستمع للذين يهيمونه بمالأة القباط الثائرين وتشجيعهم . وعلى إثر استقالته هجا بهذه الألية من سعى به إلى الخديو « توفيق » ، وزعرع ثقته به ، وتكبه في مطالعته الشخصية ، وآماله الوطنية .

(١) الكرم هنا : الحر ، الأبي ، العزيز : صفة من الكرم بمعناه العام ؛ وهو ما يظهر من-

لَيْسَ يَقْوَىٰ امْرُؤٌ عَلَى الدُّلِّ مَا لَمْ يَكُ فِيهِ مِنْ صِبْغَةِ الْقَوْمِ دَخَلَ^(٢)

أفعال الإنسان الحميدة ، وأعماله العظيمة ، وأخلاقه المرضية ، كالحرية ، والعزة ، وإباء الضيم ، والترفع عن الدنيا ، والتنزه عن الشوائب . وضد القوم . والضد الضامه (من باب باع) : أي ضاره ، وظلمه ، وقهره ، وأذله ، وأهانته ، وحشمه . وضامه حقه : انتقصه ، وغيبه .

ومعنى الشطر الثاني : أنك تقتل الكريم إذا أفسدت بالضميم حياته ، ولا غرو ؛ فإن في طلبه العزة ، والحرية ، والألفة ، والحمية ، والكرامة والاستقامة . . . وهذه المزايا وأشباهاها يحيا الحياة الطيبة المزيّنة الكريمة اللاتقة بمظهه ؛ فإذا مسه الضميم فقد الحياة بممناها الإنساني الدالي الكريم ؛ ولهذا كان شديد الحرص عليها هذا المعنى ، شديد الإباء لكل ما ينتقصها ، أو يضيئها ، أو يشينها ، أو ينزل بها عن مستواها الرفيع .

وصلته بالشطر الأول : أن المذلة والضعف والهوان من الضيم ، أو من نتائجه ، وكيف يقيم الكريم على الضيم واللذل وهما قاتل لحيته وكرامته ، وهنم لحياته المزيّنة الكريمة ؟ .
وقد غالى الشاعر في الشطر الأول ، فقال : إن كل صمويات الحياة وشدايقها ومشقاتها من السهل الهين اليسير إذا قيست بصمودية المذلة والضيم ، والتخاذل والضعف ، والالتكسار والهوان ؛ وهي مفلاة مقبولة محمودة ؛ يريد أن كل صعب يمكن أحاطه إلا للمذلة .
والمعنى فيا يقرب من هذا المعنى :

ذل من يهبط الدلوصل يمشى وب عيش أخف منه سمم

(٢) يقوى امرؤ على الدل : يحتمله ، ويرضى به ، ويقوم عليه . والصبغة (بكسر فسكون) : ما يصبغ به الثوب ونحوه : أي يلون . أو الهيئة المكتسبة بالصنيع والتلوين . ويراد بصبغة القوم : نحيته ، وطبيعته ، وخصيسته . أو صيغة القوم : القوم الذي يصبغ اللون ، ويظهره ، ويميزه ، كما تظهر الصبغة الشيء المصبوغ وتميزه . والقوم : المهانة ، والخفارة ، والضعف ، والذلة ، وضع النفس ، ودفاعة الأصل . وضد الكرم بمناه العام : وهو اسم للأخلاق العظيمة ، والأفعال الحميدة ، والهامان الكبيرة التي تظهر من الإنسان . أو هو جراح الفضائل ، والهامان ، والمكرامات ، والهامان الظاهرة الكبيرة . والقوم بجميع الرذائل والنقائص ، والميوب النفسية مع غسة الطبع ، ودفاعة الأصل . والدخل (بفتح الدال وسكون الخاء) : الداء الداخل في أعماق البدن ، والفساد ، والعيوب ، والريبة . ودخل المرء : داخلته : أي نحيته ، وسميئته ، وباطن أمره . وه من صيغة القوم : بيان لا دخل : أي أن المرء لا يرضى بالذل إلا إذا كان فيه عيب ، أو فساد ، أو داء من طبيعة القوم ونحيته .

في البيت الأول قال : إن الكريم يأبى الضيم والظلم ، ويماف الذل والهوان . وفي هذا البيت قال : =

إِنَّ مُرَّ الْحِمَامِ أَغْنَبُ وَرَدًا مِنْ حَيَاةٍ فِيهَا شَقَاءٌ وَذُلٌّ^(٣)
 أَنَا رَاضٍ بِتَرْكِ مَلِي وَأَهْلِي فَالْعَفَافُ الثَّرَاءُ ، وَالنَّاسُ أَهْلُ^(٤)
 لَا يَلْمِنِي عَلَى الْحَفِيفَةِ قَوْمٌ غَرَّمُ مَنْظَرُ الْحَيَاةِ ، فَضَلُّوا^(٥)

= ولا يحتمل الضم والمذلة إلا اللطم المعين. وفي البيت الاتي تمزيق وتأكيدهم على هذين البيتين، وتغيير من حياة الشقاء والصغار ، والضم والنظم ، واللذ والهوان ؛ وقريب في حياة العزة والحريّة ، والإباء والاستعلاء ، والقوة والكرامة .

(٣) الحمام : الموت . والورد : الماء الذي يورد : أى يقصد إليه المطاش للشرب والارتواء . ويراد بالورد هنا : المذاق .

والهوى : أن حياة النمل والشقاء ، والمذلة والهوان كربة قبيحة ، صعبة مرة ، لا تحتمل ، ولا تطاق . وبإزائها تتضائل مرارة الحمام وقسوته وشدة ؛ وفي سبيل مكافئتها ، وفصل عارها وشئنها يلد الموت للكرام ، ويعطيهم ، ويستسيه الأحرار ، ويستمدونهم .

والبارودي هنا ينظر إلى قول أبي الطيب المنتهي :

ذَلْ مِنْ يَغِطُ اللَّيْلُ بِعِشٍ وَبِ عِشٍ أَخْفَ مِنْهُ الْحِمَامُ

(٤) العفاف : العفة : مصدر عَفَ (يوزن عَفَ) : أى كَفَ ، وامتنع عما لا يحل ، ولا يحل من قول ، أو فعل . والبراء : الثروة ، وكثرة المال .

في الأبيات الثلاثة السابقة عبد الشاعر العزة ، وإباء الضم ؛ ونوه بالأهزة للكرام ، وأزى بالأذلة للتمام ؛ واستعمل الموت ، وفضله على حياة المذلة والشقاء .

وفي هذا البيت افتخر بأنه من هؤلاء الذين يجمع ، ونوه بهم ، وعظم شأنهم ؛ وفي سبيل حرصه على العزة والحريّة والكرامة أصابه ما يصيب الأعفاء الأحرار أباء الضم ؛ فجرد من ماله وراثته ، وأبعد عن أهله ووطنه ؛ فاستقبل هذه البلايا بالرضا والتجمل والعلمانية ، ومضى نفسه في الشطر الثاني بأن عفته ثروته ، ولأناس أهله وعشيرته .

وفي هذا البيت دليل على أن الشاعر نظم هذه القصيدة بعد إغناق الثروة العرابية ، وبعد الحكم عليه ، وجعل أمثاله بالتجريد والنفي .

(٥) الحفيظة : اسم من حافظ على الشيء : أى رصاه ، وصانه ، وذب عنه ، وصماه . ومن معاني الحفيظة : الألفة ، والحمية ، والنفص المحمود في المحافظة على الحرمات ، وكل ما ينبغي أن يحافظ عليه . ويجمع الحفيظة حفاظ . وأهل الحفاظ : هم المدافعون عن أعراضهم وسرراتهم . وفرو : خدعه ، وأطمعه بالباطل .

أَلْفُوا الضَّمِيمَ خَشْيَةَ الْمَوْتِ وَالضَّمِيمَ مَلْعَمَرِي فَفَجَّعَ خَبِيرٌ وَسُكُلٌ^(٧)
كَيْفَ لَا أَنْصُرُ الرَّشَادَ عَلَى الْغَيِّ ي وَعَقَلِي مَعِيَ يُوَوِّى النَّفْسُ فَضِلُّ؟^(٨)

والحنى : لا ينبغي أن يلجئ على حماية المحارم ، والغضب لها جماعة خدمتهم الحياة الدنيا يترفعها وباطلها ، فاستكافوا بها ، واستكافوا لها ، وحرصوا عليها ؛ وفي سبيل هذا الحرص المحقوت رغبوا بالذلة ، وألفوا الهوان ، وفربطوا في حرماتهم ، وقعدوا عن صيانتها ؛ فانصرفوا عن الجادة ، وضلوا سبيل الرشاد .
(٦) ألف الغي (من باب علم) : تموده ، وأفسد به ، وأطعن إليه ، وأحبه . وراو الجماعة في « ألفوا » ضمير من لاموا على الخفيضة ، وفهم منظر الحياة ، فضلوا . وجملة « والضيم فجع » : جملة حالية . و « لمعري » : جملة معترضة بين المبتدأ وخبره . واللام للاستثناء . و « مر » : مبتدأ . و « مناه » : حياء . وخبره محذوف ، تقديره « قسى » : أى لمعري قسى : أى ما أقسم به : أى أحلف بحياق ؛ والفرض من هذا القسم المنعرج : تأكيد معنى الشطر الثاني ، وإثارة هؤلاء الذين ألفوا الضيم ، وحملهم على الانتعاج والإيمان والتصديق . و « فجع » مصدر فجعته المصيبة (من باب قطع) : أى أوجعت ، وآلمته إيلا شديداً . وفيه : أوجعه بإصداه ما يتعلق به ، ويمز هليه من أهل ، أو مال ، أو نحوها . وخبر : ذلك ، فقه ، دون ، حقير . وثكلت المرأة ولدها ، وثكل المرء حبيبه (من باب تمب) : أى فقدته ؛ والاسم الثكل (يضم فسكون) . والثكل (يضم فسكون) : الموت والحلاك . والضيم فجع وثكل : أى الضيم موت وهلاك فاجع موجب مؤلم .

والحنى : أن هؤلاء الجبناء الأذلاء إنما تمودوا أحوال الضيم والمذلة حرصاً على الحياة ، ونحوها من الموت ؛ فهم يمشون أن يبطش بهم الضام الظالم ، الملل المستبد إذا قاوموه ، أو كاضموه ؛ ولو فطنوا لعلموا أن الموت في سبيل النفع من العزة والكرامة ، والجربة والإحمية - مجد وشرف ، وعزة وإباء ، وبر ووفاء ؛ وأن هذا هو الموت الكريم الحميد الذى يخله الذكر والصيت ، وينفع الإحياء ، ويدم حسن الثناء ؛ أما حياة المهن الذليل ، فإنها - في حقيقة أمرها - موت خيس ذقة ، وهلاك مهين مريب ؛ ولا حظ أن الشاعر ما زال ينتظر إلى قول أبي الطيب المتنبي :

ذل من يشط الذليل بعيش رب عيش أعف منه الحمام

من بين يسهل الهوان عليه ما يلجرح ميت إيلام

(٧) الاستهزام في أول هذا البيت : معناه التصجب : أى لو لم أنصر الرشاد على الغي لكان هذا حثار العجب والبهش . والمشتان الاسميان في الشطر الثاني حاليتان ؛ وهو يسأل نفسه متعجباً : كيف لا ينصر الرشاد على الغي وأطاع أن معه عقله ، وفي نفسه قبل ، وهمة ، وعزة ، وإباء ، وكأل ؟ ٩ .
والحنى : أن عقله ونفسه المتضاربة يدعوانه إلى العودة الرشدين ، أباه الضيم ، وطلاب العزة والحريية على

إِئْتَا المَرْءَ بِالسَّانِ وَيَالْقَدْ بِ، فَإِنْ خَابَ مِنْهُمَا، فَهَوَ قَسْلُ^(٨)
 قَدْكَ يَا نَفْسُ ، فَاتَّصَبِرْ إِلَّا فِي لِقَاءِ الحُرُوبِ عَيْنٌ وَجَهْلُ^(٩)
 فَأَبْعِثْهَا شَعْرَاءَ ، يَحْكُمُ فِيهَا مُنْصَلَّ صَارِمٌ ، وَرَمَحٌ مِثْلُ^(١٠)

== الفؤاد الأذلاء الراضين بالمهانة والمذلة وللصغار .

أو المعنى : أن عقله ونفسه الفاضلة حملاء على مكافحة الضامنين الظالمين ، ومقاومة الفؤاد المستبدين ، ونصرة الأحرار الراشدين ، آية الضيم ، وطلاب العزة والكرامة . وصلة هذا البيت بالأبيات السابقة واضحة وثيقة .

(٨) يراد بالقلب : العقل . وخاب منها : خسرهما ، أو حرمهما ، أو منع منها ؛ والمراد لم يحسن الانتفاع بهما ، أو كافا ضعيفين عنده ، أو لم يستخفهما فيما يحفظ كرامته وإنسانيته ، وينفع بلاده وأمنه . وقيل : ضعيف ، عاجز ، مستذل ، رديء ، لا مروءة له ، ولا جسد .
 من الحكم المأثورة : « المرء بأصغريه : قلبه ، ولسانه » ؛ وهذا البيت في معنى هذه الحكمة ؛ فالإنسان لا قيمة له إلا بعقله ولسانه ، فإن ضيعهما ، أو قرط في المحافظة عليهما ، أو لم يحسن الانتفاع بهما ؛ فقد خسر معهما كل صفات الإنسانية ، وزاياهما الرفيعة ، وبخاصة المروءة ، والشجاعة ، وإياه الضيم ، والإقدام على مكافحة الظلم والباطي ، ودفع العدوان والمعنون ؛ ولم يبق فيه غير الضعف والعجز ، والفسالة والردالة ؛ ولعل صلة هذا البيت بالبيت الذي قبله : أن الشاعر نصر الرشاد على الذي بقلبه ولسانه .
 (٩) « قد » : اسم بمعنى « حسب » ، أو اسم فعل بمعنى « كفى » أو « يكفي » . « وقفك يا نفس » : أي حسبك ، أو يكفيك . والتصبر : تكلف الصبر ، أو حمل النفس على الصبر . وتصبر على الشيء : صبر . وفيه : خسران ، أو نقص ، أو خديعة ، أو ضعف . ومن معاني الجهل : الخماقة ، والسفه ، وقلة العقل ، وسوء التصرف . ويجهل الحق (من يافيه فهم ، وسلم) : أضاعه .

يقول : حسبك يا نفس : أي قى عند هذا الحد ، ولا تتجاوزيه ؛ وإياك أن تبصرى على احتمال الفل والهوان ؛ فإن الصبر في غير الحروب جهل وخسران . ينهى عن الصبر المحقوت ، والرضا بالهوان ؛ ويحض نفسه ويغيره على الثورة في وجه الضيم والظلم . ويقول : إنما يحمد الصبر في الحروب : أي في أن يلقى المحارب عدوه بشجاعة ، وقوة قلب ، ويثبت لقتاله ، ويصبر على شدة الحرب ولأوائها إلى أن يقتل ، أو يُقتل . وفي البيتين اللاحقين تميز وتأكيد لهذا المعنى .

(١٠) الأخر في أول البيت لنفسه ؛ والفرض منه الإرشاد ، أو التحريض ، أو تهديد الطغاة الضامنين . وبث الحرب أو الفؤاد : أثارها ، وحيجها ، وأوقد نارها . وشعواء : منتشرة ، متفرقة ، فاشية في ميدان

هُوَ إِمَّا الْحِمَامُ ، أَوْ عَيْشَةُ خَفْ رَأَيْكَ فِيهَا لِمَنْ نَفِيًّا ظِلٌّ (١١)

= كبير ، وطاق واسع . ويحكم : يقضى ، ويفصل . وفيها : في الحرب والقتال من أجل استرداد حياة العزة والحرية والكرامة ؛ ومكافحة طغيان الظلمة المستبدية الظالمين . والمتصل : السيف . وصارم : حاد ، ياتر ، ماض ، قاطع . والرمح : قنطرة في رأسها سنان يظعن به . ويتل : قوي ، شديد ، يتل الملعون : أى يصصره ، ويهلكه ، ويرديه .

في البيت السابق قال : إن الصبر لا يحمد إلا في لقاء الحروب ، ومكافحة الأعداء ؛ وإنه فيها هذا هذا جهل وجبن ، وبغى وعسران ؛ وحذر نفسه أن ترضى بالذل والهوان ، أو تستكين للبغى والعدوان . وفي هذا البيت تهديد للظلمة المعتدين ، وتحريض صريح على شن الحرب ، وتوسيع مداها ، والاحتكام إلى أسلحة القتال والنزال ، حتى ينتهى الأمر ، إما بالاستشهاد في سبيل العزة والكرامة ، وإما بحياة العزة والكرامة . وفي البيت الآتي تصريح بهذا المعنى ، وتعزيز له .

(١١) « هو » : أى أمرنا ، أو شأنا ؛ أو حالنا ؛ يريد أن أمرنا بين اثنين لا ثالث لهما : إما الحمام ، وإما العيشة الخضراء . و « إما » : حرف رباعى ، يفيد هنا التخيير ، وتكرارها واجب ، كما في قول الله تبارك وتعالى : « قلنا : يا ذا القرنين ، إما أن تعذب ، وإما أن تتخذ فيهم حسباً » الآية رقم ٨٦ من سورة الكهف . وقوله عز وجل : « قالوا : يا موسى ، إما أن تلقى ، وإما أن تكون أول من لقى » . الآية رقم ٦٥ من سورة طه . والحمام : الموت . والعيشة : المحيضة والحياة . وخضراء : ذات خير ، ونخصب ، وسمعة ، ونعيم . ويراد بالعيشة الخضراء هنا : حياة العزة ، والحرية ، والإباء ، والكرامة . وفيها : في العيشة الخضراء . ونفياً للشجرة ونحوها ، وفي الشجرة ، وبها ، وعليها : استظل بها . والظل : ضوء شعاع الشمس إذا استتوت عنك بمحاجز ، وبجسمه ظلال . وأظلال . وجملة « فيها لمن نفياً ظل » : صفة لـ « عيشة » : أى عيشة خضراء يتفياً ظلها . والعرب تكفى بالظل عن المز والمعة .

في هذا البيت والذى قبله حرص الشاعر نفسه وغيره على الشجاعة والإقدام ؛ لإثارتها حرباً شواء تحسك فيها أسلحة القتال والنزال ، إما بالموت في سبيل العزة والحرية والكرامة ، وإما بحياة العزة والحرية والكرامة .

وفي مثل هذا المعنى ، أو فيها يقرب منه يقول أبو الطيب المتنبي :

عش عزيزاً ، أبوت وأنت كريم بين طمن القنا ، وشفق البني
فرويس الرماح أنهب لفيه ظ ، وأشق لنفل صدر الحنيد
لا كما قد حبيت غير حميد وإذا مت ميت غير فقيد =

إِنَّ مُلْكًا فِيهِ «فُلَانٌ» وَزِيرًا لِمُبَاحٍ لِلْمُخَافَتَيْنِ وَيِلُّ^(١١)
أَهْوَجُ ، أَحَقُّ ، شَتِيمٌ ، لَشِيمٌ أَغْتَمَّ ، أَبْلَهَ ، زَنِيمٌ ، عَتَلُ^(١٢)

= فاطمب المز في لظى ، وذو اللذ
يقتل المساجز الجبان وقد به
ويوق الفقى الخش وقد خو
لـ ولو كان في جنان الخلود
جز عن قطع بخت الملوذ
وقس في ماء لبة الصنديد

وفيه يقول أيضاً :

غير أن الفقى يلاق المنايا كالحات ، ولا يلاق الهوان
ولو أن الحساسة تبقى لحي لمدنا أفلنا الشجمانا
وإذا لم يكن من الموت به فن المجر أن تكون جيانا
كل مالم يكن من الصعب في الأذ نفس سهل فيها إذا هو كانا

أدار الشاعر معنى هذا البيت عشرة أبيات قبله حول إباء الضيم ، ووجوب الحرص على حياة العزة والحرية ، ومقاومة الإذلال والاستعباد . وأزرى بالجناء الأذلاء الذين ألفوا الضيم ، ورضوا بالشقاء والهوان . وأشار إلى بعض ما أصابه ؛ أو ما قد يصيبه ، كتجريده من ماله ، وإيماده عن أهله ووطنه . واقتصر بأنه من أهل الحفاظ الذين يدافعون عن الحرمات ، وينصرون للرشاد على الفى . وأجرى بعض هذه الأبيات بمجرى الحكم والأمثال . وهو في البيت الآتى ينتقل إلى صريح المهجاء الذى نظم فيه هذه القصيدة ، وجعله عنواناً لها ؛ وكأنه جعل الأبيات ١ - ١١ تمهيداً للمهجاء ، ومقدمة بين يديه .

(١٢) «فُلَانٌ» : كناية عن علم لذكر عاقل : أى من اسم المهجو بهذه القصيدة ؛ وقد صرح به الشاعر ، فتخرجنا أن نصرح به ، وآثرنا أن نكفى عنه . ويل : مباح .

وصم المهجو بالفدر والخيانة . وقال : إن للدولة ، أو المملكة التى تستوزر مظه محتلة مختلة ، فاسدة مفسدة ، ومرضى مروع خصيب لكل خثون غدار ، لا يرقب في مواطن إلا ، ولا ذمة ، ولا يرمى لوطنه عهداً ، أو حرمة .

(١٣) أهوج : طويل في حمق ، وطيش ، وتسرع . وأحقق : صفة من الحق ، أو الحساسة ؛ وفى قلة العقل ، وضعف الرأى ، وسوء التصرف ، وفساد التدبير . وشتم : كرية الوجه ، ياسر ، كالح . أو هي فعليل بمعنى مفعول ، من شتمه : أى سبه ، واغتصمه ، وثلبه ، وعابه . ولثيم : صفة من اللؤم : =

صَغُرَتْ رَأْسُهُ ، وَأَفْرَطَ فِي الطُّولِ شَوَاهُ ، وَعُنْفُهُ ؛ فَهُوَ صَنْعَلٌ^(١٤)
أَبْرَزَتْ قُدْرَةُ الطَّبِيعَةِ مِنْهُ شَكْلَ لُؤْمٍ ، إِنْ كَانَ لِللُّؤْمِ شَكْلٌ^(١٥)

= وهو غسة الطبع ، رشح النفس ، ودنائة الأصل ، والمهانة . وأغم : جبي ، لا يفصح ، ولا يكاد يبين . وأبله : أحق ، ضعيف العقل ، عاجز الرأي ، لا يستطيع التمييز . والزنيم : الذي : أي اللاحق بقوم لا ينتسب إليهم ، وليس منهم . وهم لا يحتاجون إليه ، ولا يحترموه ، ولا يقرونه عل ادعائه وانتمائه . والزنيم أيضاً : الثيم الشرير ، المشهور بوقته وشده . والعتل : الجاني ، الغليظ ؛ أو الشديد الحسوة بالباطل ؛ أو الأكول للشر ؛ أو الشحيح المسك ، البخليل ، المتناع للخير ؛ ويلاحظ أن في هذا البيت أربع صفات حل وزن « أفعل » : هي أهوج ، وأحق ، وأغم ، وأبله ؛ وسقها أن تمتع من الصرف : أي التثنيين ؛ وإنما تولدت هنا لضرورة وزن الشعر .

رى الشاعر المهجو في هذا البيت بئى صفات جمعت أكثر النقااص والمخاى ، والذائل والميوب الى تعيب المرء وتزديده ، وتفضسه وتخرجه .

(١٤) للرأس من أعضاء الجسم مذكر . وصحة الكلام : « صغر رأسه » . ولعله يكنى بصغر رأس المهجو عن صغر مخه ودماعه ، وما يتبع هذا من قلة فطنته ، وضف إدراكه ؛ وإذا صرفنا النظر عن تقدير هذه الكتائية ، فإن صغر الرأس مع الإفراط في طول الأطراف من الميوب الخلقية ، أو الجسائية الظاهرة . وأفرط : زاد ، وجاوز الحد . وشواه : أطرافه ؛ أي يدها ورجلاه . والعتق (يضم النون وسكتها) يذكر ، ويؤث . و « فهو » : أي قمته ، أو قامته . وصل : حقيق الرأس والعتق . أو طويل .

صورة المهجو في هذا البيت : رجل صغير الرأس ، دقيقه ، طويل العنق ، دقيقه . وفي يديه ورجليه طول مفرط ، ضاعف قبح هذه الصورة المحيية القبيحة .

(١٥) الطبيعة (في الأصل) : السجية ، والفريزة ، والخلق ، والجلبة الراضخة التي جبل الإنسان عليها ؛ أي فطر عليها ، وخلق . وطيايح الأشياء : ما ركزه الله فيها من القربى والخصائص . والطبيعة : المخلوقات التي يتألف منها الكون . وطبيعة الكون : سنته ، وظواهره ، وقواه . وقد يراد بقدره الطبيعة : قدرة خالق الطبيعة : وهو الله سبحانه وتعالى . ومنه : من المهجو . واللؤم : مصدر لؤم (من باب فجع) : أي شمت نفسه ، وذلل أصله ، وكان مهيناً ، خسيس الطبع .

والمنى : أن المهجو مطبوع على اللؤم ، محبب عليه ؛ فهو مركوز في طبعه ، راسخ في جبلته . ولوشكل اللؤم ، أي صور وشكل لكان المهجو صورة محسوسة لصفاته وخصائصه ، وتمثالا متحركا لمثاله ونقااصه .

أو المنى : لو كان لؤم صورة ترى لرأيها بارزة في هذا المهجو .

هَدَفَ لِلْعُيُوبِ ، فِي كُلِّ عَضْوٍ مِنْهُمْ لِلطَّاعِنِينَ وَنَصَلَ^(١٦)
 نَسَلَتُهُ مِنْ أَسْتِهَا أَمْ سَوَوْهُ مَا لَهَا غَيْرَ طَائِفِ اللَّيْلِ بَعْلُ^(١٧)
 كُنْ كَمَا شِئْتَ يَا فُلَانُ ، وَمَا شَأْنُ رِجَالٍ ؟ فَانْتَ لِلْهُومِ أَهْلُ^(١٨)

(١٦) هدف : شبر لميتل محضوف ، تقديره « هو » أي المهجو هدف . والهدف : القرض توجه إليه السهام ونحوها . أو يرى ، ويصاب . وسنه : من المهجو . والسهام : واحد النبل : وهو ما يرى به الصائد أي المحارب أو نحوها عن القوس أو نحوها ، وجمعه سهام . والطاعنين : جمع الطاعن : وهو اسم فاعل من طعنه بالرمح ونحوه : أي ضربه ووضعه به . ومن الهجاز : طعن فيه ، وطعن عليه بلسانه ، أو بقوله : أي عابه ، وثلبه ، وانقصه . والنصل : الحديدة القاطعة الجارحة ، تكون في رأس السهم ، والرمح ، والسكين ، ونحوها . وجمعه نصال ، ونصول .

جعل المهجو غرضاً ثلاث في العيوب والذائل ، وهذا جمع النقائص والمثالب ؛ كما تتلاقى السهام والنصال في الهدف الذي يقصده الرماة . وقال : إن كل عضو من أعضائه فيه سهم أو نصل من سهام الطاعنين ونصالهم ؛ وهذا كله كناية عن كثرة ميوهه ومثالبه ، وكثرة الطاعنين فيه ، والمثالبين له ، وكثرة ما أصابه من طعنات التنجريح والتشجيح .

(١٧) نسلته (من باب ضرب ، وفصر) : ولدته . واست المرأة : عجزتها ، (مؤنث) ؛ وقد يراد بها : حلقة الدبر ، ويطلقا البنت ، وهو الأصل ، والجمع أستاذ (يوزن سبب وأسباب) . وابن اسبا : ولد الزنا ، والسوء (يسم السنين) : العذاب ، والفسرر ، وكل ما يفتح ، وكل ما يفتح ، واسم جامع للآفات . والسوء (يفتح السنين) : الذم ، والعيب ، والفساد ، والشر ؛ أو هما بمعنى واحد ؛ فالمتفوح السنين : مصور صاده (من باب قال) ؛ إذا فعل به ما يكرهه . والمضموم السنين : اسم منه . وطائف الليل : الطائف بالليل : أي الذي يتخذ من الليل ستاراً لطوافه المريب المزرى . وطاف الرجل بالنساء : ألم بهن . وبعل المرأة : زوجها .

(١٨) كن كما شئت : لك ما أردت من المناصب الرفيعة في الحكومة المصرية . ويريد بالرجال : أولئك الذين أرادوا أن يكون هذا المهجو على الجاه والمنصب ، ظاهراً في دست الحكم والسلطان . وهو أمل لكنا ؛ هو جدير به ، مستحق له . وأنت أهل لهُوم : أنت متصف به ، مستحق له . أو أنت أوثق التماس صلة بالهُوم ، وأشدع تعلقاً به ، وإفراقاً فيه .

والمنى : لتكون كما أردت ، وأراده لك أولو الأمر في مصر من علو المنصب ، وبسطة السلطان ، وعظم الجاه ، وفخامة الألقاب ؛ فإن هذا كله لن يحمو شيئاً من لُومك ، وبهانتك ، ونخسة طمك ، وشح نفسك ، ودفاعة أملاكك ؛ إذ الهُوم متأصل فيك ، يحيط بك عاره وشارنه . والبيت الآتي يميز هذا المعنى ويؤكدده .

لَيْسَ تُغْنِي الْأَلْقَابُ عَنْ كَرَمِ الْأَمْرِ ، فَمَجْدُ الْفَتَى عَفَافٌ وَعَقْلٌ (١٩)
 أَنتَ مِنْ عَنَصْرٍ ، لَوْ أَنَّكَ السَّرَّ رُ عَلَيْهِ ، لَأَدَّهُ مِنْهُ حِمْلٌ (٢٠)
 نَازَعَكَ الْيَهُودُ ، وَاخْتَلَفَتْ فِيهِ لَكَ النَّصَارَى فَهَانتَ - لَأَشْكُ بِغُلٍّ (٢١)

(١٩) القب : اسم وضع بعد الاسم الأول للتمريف ، أو التشريف ، أو التصفير ، وجمعه ألقاب ؛ ويراد بالألقاب هنا : ما كان لكبار المستخدين في الحكومة المصرية من رتب وألقاب مشفرة بالرفعة والملح ، مثل صاحب المقام الرفيع ، وصاحب النبوة ، وصاحب المال ، وصاحب السعادة ، وصاحب العزة . وكرم الأصل : شرف المحدث ، ومجادة الحسب والنسب ، وفجأة الآباء والأجداد . والمجد العز ، والشرف ، والرفعة ، والعلاء . والفى (في الأصل) : الشاب الحدث أول شبابه بين المراهقة والرجولة . ويراد به هنا : الرجل في كل طور من أطوار حياته . والعفاف : مصدر صف (يوزن خف) : أى كف ، وامتنع ، وقنع عما لا يحل ، ولا يحل من قول أو فعل ؛ فهو عفف ، وصفيف .

أراد الشاعر توضيح البيت السابق وتمزيقه ؛ فساق هذا البيت ساق الحكم والأمثال ؛ ومعناه : إنما يجيد المرء ، ويشرف ، ويسود مراتب الرفعة والعلاء بربحان عقله ، وصحة تفكيره ، وسداد رأيه ، وكرم عهده ، وشرف منته ، ومجادة آبائه وأصوله ؛ هذا إلى صفته ، ونزاهته ، واستقامته ، وترفعه عن الدنايا والسفاسف ، وبعدة عن الريب والشبهات ؛ أما ما يحمله من ألقاب الفخامة والرفعة ، أو يتربع فيه من المناصب الحكومية الكبيرة - فلا قيمة له ، ولا خير فيه ؛ وإن يفتن عنه ، أو يظنه ، أو يرفع من شأنه ، أو يمدأ عنه السبة والعار ، والخرى والشتار إذا كان لئيم الطبع ، ضعيف العقل ، غارقاً في السوء والشر ، والانحراف والفساد .

(٢٠) المنصر (يضم الصاد وفتحها) : الأصل . واتكأ : تركأ ، واعتمد ، واستن . والزر : صدار الخمل ، الواحدة ذرة . وآده الخمل : أثقله ، وأجهده . والحمل (يُحْمَلُ الحاء وفتحها) : اسم للشئ المحمول . والحمل (يفتح الحاء) : مصدر حملة (من باب ضرب) .
 يقول : إن المهجو من أصل لو استند إليه أصغر الخمل لأدّه ، وجهده ، وأثقله ، وصعب عن حملة ، أو النهوض به . والبيت كناية عن ضعف هذا الأصل وضعته ودفاسته وهوانه ؛ فالأصل القوي كرم مجيد ، عزيز شريف ، والأصل الضعيف مهين حقير ، لئيم غسيس .

(٢١) نازعتك اليهود : اتصلت بك اتصال القرابة والرحم ؛ من قولهم : أرضى تذازع أرضه : أى اتصل بها وتلاصقها . أو خاصموا غيرهم وغالبوا في ادعاء هذه القرابة ؛ من قولهم : نازعه في كذا : أى خاصمه وغالبه . أو نسبك إليهم ، وإن حاولت الاتصال منهم ، من نازعته الثوب ونحوه : أى جاذبته إياه =

إِنَّ بَيْنَ الْوَزَانِ (لَمْ) يَزِنُوا شَيْئًا ، وَلَكِنْ فِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ ثِقَلُ (٢٣)
 كَثُرُوا عِدَّةً ، وَلَوْ أَحْصَنَ الْبَا بَ أَبُيْهُمْ عَنِ الزَّانَةِ ، لَقَلُّوا (٢٤)
 لَوْ عَزَوْنَا كُلَّ امْرِئٍ لِأَبِيهِ مِنْ فَرَاخِ الْوَزَانِ ، لَمْ يَبْقَ نَسْلُ (٢٥)

= واختلفت فيك للتصاري: تنازعوها، وافترقوا في شأنك؛ ففريق منهم يمزكك إلى نفسه ويديحك، وفريق ينكرك، ويلفظك، وينفيك. والبلبل: هجين الخليل والحمير؛ يؤلف من اتصال الحمار بالفرس؛ أو اتصال الأتان بالحسان؛ وله صبر الحمار، وقوة الفرس؛ والألفي بطة؛ وهي حقيم بطيها، لا تلد؛ والجبع بقال. والفرض من تشبيه المهجو بالبلبل: التثديد باختلاط نسبة، وانحطاط، وضياحه بين اليهود والنصارى. شبه المهجو بالبلبل في اختلاط أصله، وانحطاط محته، وضياحه نسبة، بمد أن مهد لهذا التشبيه بأن المهجوراته حيران بين اليهود والنصارى؛ والفرض تجريد من مجادة الإسلام، وأدابه، وفنائه، ومحاسنه، ومزاياه.

(٢٢) يريد بيت المهجو: أهله، وعترته، وأسرته. وفي الأصل المخطوط الذي تحت أيدينا «لا يزناوا شيئا». وصحة الإعراب «لم يزناوا» أو «لن يزناوا». ولا يزنون شيئا: أي لا قيمة لهم، ولا قدر ولا اعتبار، ولا احترام. يقال: «فلان لا يزن شيئا»: إذا كان ساقط القدر، والاعتبار. وفيهم: في بيت المهجو: بمعنى أهله وعشيرته. و«هل ذاك»: أي مع سقوط تقديم، وسقارة شأنهم، وهوان أمرهم. وثقل الشيء على النفس (من باب عظم) ثقلا (بوزن عنب): أي كرهته، ومقتته، وأبغضته. وقد تسكن قاف «ثقل» للتخفيف.

يهجو بيت المهجو وأهله وعترته وعشيرته بسقوط القدر، وهوان الأمر، وسقارة الشأن، وأنهم مع هذا ثقال الظل على الناس، مكروهون، محقون.

(٢٣) العدة: مقدار ما يمد، ومبلته. والعدة: الجماعة. وكثروا عدة: أي كثر عددهم. يريد أن عدة المهجو وعشيرته عددهم كثير. وأحصن الباب: جملة حصينا متينا، لا يقرب، ولا يفتح، ولا يجترأ عليه.

يقول: إن أهل المهجو وعشيرته كثيرين، وإن كثرتهم الغالبة أولاد زنا، وأولا هذا لقل عددهم. (٢٤) عزونا لأبيه: نسبناه إليه، وألقناه به. والفراخ: جمع فرخ: وهو (في الأصل): ولد الطائر. ويراد بفراخ الوزان: ذريته، ونسله، وأطفاله، وأولاده الذين ينسبون إليه في ظاهر الأمر، وهم في نظر الشاعر، وفي لغة الهجاء أولاد زنا. والنسل: الولد، والذرية؛ فهو «قل» بمعنى «مقلوم»: أي منسل: بمعنى مولود.

كُلُّ وَغْدٍ أَهْدَى إِلَى اللَّؤْمِ مِنْ بَنَاتٍ ، وَلَكِنَّ مِنَ الْحِمَارِ أَصْلٌ^(٢٥)
 قَدْ تَغَذَّى بِاللَّؤْمِ إِذْ هُوَ طِفْلٌ وَتَمَادَى فِي الْغَى إِذْ هُوَ كَهْلٌ^(٢٦)
 لَيْسَ فِيهِمْ مَنْ تَحَمَّدَ الْعَيْنُ رُؤْيَا هُ ، وَلَا مِنْهُمْ إِلَى النَّفْسِ خِلٌ^(٢٧)

(٢٥) كل وغد :- يريد أن كل فرد من أسرة المهجو وأهله ، وعترته وصغيرته - وغد : أى ذنبه ، رذل ، أحق ، ضعيف العقل . وأهدى : أكثر اعتداه : وهو اسم تفضيل من « هدى » بمعنى « اهتدى » . والياز ، واليازى : طائر من جوارح الطير . أى الطير المفترسة الصائدة . أو هو ضرب من الصقور يصاد به ؛ وقد جعله الشاعر مثلاً في سرعة الاعتداه إلى صيده ؛ وقال : إن كل وغد من هؤلاء الأوغاد يعرف اللؤم ويبتدى إليه ، ويتشبث به ، كما يبتدى اليازى إلى صيده ، بل أشد وأسرع ، وأمضى وأبرع . وهو - مع تمام اعتدائه إلى اللؤم - أصل من الكرم من الحمار ؛ أو لعل المراد بالضلال هنا : الغواية ، وقلة الفطنة ، وبلاهة الذهن ، وضعف الإدراك ؛ أى وهو مع اتصافه باللؤم ، وسرعة اعتدائه إليه ، أغبى من الحمار وأبله .

(٢٦) فاعل « تغذى » : ضمير مستتر ، يعود على « كل وغد » في البيت السابق . و « إذ » في شرطى البيت : ظرف زمان الماضي . وتمادى في الأمر : أمن فيه ، وبلغ المدى : أى بلغ الغاية والمنتهى . وتمادى في غيه : لج فيه ، ودام عليه ، ولم يقلع عنه . والنمى : الإيمان في الضلال . وشد الهدى ، والرشاد والاستقامة . والكهل : من وسطه الشيب ، ويجاوز الثلاثين . أو هو من بلغ الأربعين . أو من كانت سنة بين الثلاثين والخمسين ، وجمعه كهيل . والجحج بين الطفولة والكهولة هنا : معناه أن اللؤم والنمى لازما كل وغد ولازمهما طوال حياته .

في البيت السابق قال : إن المهجو وبيته ، وأهله وأسرته ، وعترته وصغيرته أوفاد أذنياء ، وأرذال لؤماء ، يبتلون بطباعهم إلى كل مقاييس اللؤم ونقصاته ، ولا يكادون يجحدون من الخسة والذمات ؛ وهم مع هذا حتى أغبياء ، مجردون من الفطنة والذكاء .

وفي هذا البيت أكد هذا المعنى وبرزه ؛ فأطلقهم قد اختلوا باللؤم ، وروى عليه ؛ وكهولهم قد تهادوا في الغواية والضلال ، وأمعنوا في الانحراف والنساق ؛ أو أن اللؤم والغواية لازما كل واحد منهما ؛ ولازمهما طفلاً وكهلاً ، أى طوال حياته .

(٢٧) ليس فيهم : ليس في بيت المهجو وأهله ، وأسرته وعترته . والرؤيا : الحلم (بضمين أو بضم فسكون) : وهو ما يراه النائم . والشاعر يريد الرؤية : وهى للتنبؤ بالعين . يقال : رآه رؤية : أى أبصره بحاسة البصر ؛ ورآه في منامه رؤيا : أى حلم به . ولا نرى مانعاً من استعمال « الرؤيا » = ديوان البارودي -

أَدْرَكُوا فِي الْعُيُوبِ أَبْعَدَ حَصَلَ كُلُّ حَيٍّ لَهُ بِمَا شَاءَ حَصَلَ (٢٨)
 كَيْفَ لَا تَشْمَلُ الدَّنَاءَةُ قَوْمًا نَشْتُوا فِي الصَّغَارِ حِينَ اسْتَهْلَوْا؟ (٢٩)
 هُمْ - لَعَمْرِي - أَذَلُّ مِنْ قَدَمِ النَّعْلِ لِي نَفُوسًا ، وَالنَّعْلُ مِنْهُمْ أَجَلٌ (٣٠)

= بمعنى « الرؤية » ؛ فكلاهما مصدر « رأى » . وللتفريق بينهما إنما جاء من كثرة استعمال « الرؤيا »
 فيما يراه الناس . وأصل : (بكسر الحاء وضمة) : الصديق المختص ، وجمعه أغلال .

فنى أن يكون في بيت المهجو وأهله وعترته من يحأهل الحمد وحسن الثناء ، أو من يرضى عنه الناس ،
 ويرتاحون له ؛ ونفى أن يكون فيهم كلك من يصلح للتلالة ، أو للصدقة ، أو الأخوة ؛ بمعنى أنك لن
 تجد فيهم غيلافياً ، أو أغماً خليصاً ، أو صديقاً صادق اليد .

(٢٨) وأو الجساسة في « أدركوا » : ضمير المهجوين في الأبيات السابقة ؛ وهم المهجو الأصل ،
 وأهله ، وبيته ، وأسرته ، وعترته ، وعشيرته . والحصل : الفرض ، أو المذهب الذي يترأى المتخاصمون
 على ربه وإصابته ، أو بلفظه . ومن كلامهم : « أحرز فلان حصله ، أو أصاب حصله » ؛ إذا غلب ،
 وسبق ، وفاق غيره . ومعنى الشطر الأول : أن المهجوين فاقوا في العيوب والنقائص أهل العيوب
 والنقائص ، أو انسلطوا إلى الدرك الأسفل من المثالب والنقائص ، وبلغوا أبعد غاياتها .

أما الشطر الثاني فإنه تليل جار مجرى المثل ، مؤكدة لمعنى الشطر الأول ، فكل امرئ له ما يريد من
 الأهداف والغايات ، مولع بما طبع عليه ، أو مال إليه من الكرم أو القوم ؛ فهو يسعى إلى إحدى هاتين
 الغايتين بمشيئته ، ويمجى فيها على طبيعته .

(٢٩) الاستفهام في أول هذا البيت : معناه النفي . ويلاحظ أن أداة الاستفهام وهى « كيف »
 تليها « لا » النافية . ونفى النفي إثبات : أى أن الدنائة تشمل هؤلاء القوم ، وتممهم أجمعين ؛ وهذا أثبت
 الشاعر للمهجوين كلهم انخسة والمهانة بأسلوب قوى بليغ ، وصورة حاسمة قاطعة ، لا يساورها شك أو
 ارتياب . وقد يكون الاستفهام هنا للتعجب . والمعنى . أن الدنائة يشبه أن تشمل المهجوين كلهم أجمعين ،
 فإذا لم تشملهم كان ذلك مثار العجب واللعش . والصغار : اللذ والهوان ، والفضة والدنائة . واستهلوها :
 نشتوا ، ولولوا ؛ من قوم : « استهل العليل » ؛ إذا رفع صوته بالبكاء وقت الولادة .

وصم المهجوين جميعاً بانخسة والدنائة ، والفضة والمذلة ، والصغار والهوان . وقال : إثم نشتوا في هذه
 العيوب ، ولولوا بها ، وروبو عليها ؛ فأصبحت جزءاً لا يتفصم من طباعهم الذميمة ، وغصالم
 السيئة .

(٣٠) « هم » : ضمير المهجوين في الأبيات السابقة ؛ وهو مبتدأ ، خبره « أذل » . و « لعمري »
 جملة قسم بمنزلة بين المجتأ وخبره . والمثل : الحلاء ، وما وثقت به القدم من الأرض ؛ وهى مؤنزة =

كُنْتُ لَا أَحْسِنُ الْهِجَاءَ ، وَلَكِنْ عَلَّمْتَنِي صِفَاتَهُمْ كَيْفَ أَتْلُو^(٣١)
كُلُّ شَيْءٍ يَقْنَى ، وَلَكِنْ هِجَايَ فَيْكَ بَاقٍ مَا عَاقَبَ السَّيْفَ صَفْلُ^(٣٢)

« وجميعها فعال . وقدّم الإنسان : ما يطأ الأرض من رجله ، وهي أثنى ، وفوقها الساق ، وبينهما الرُغ . ويراد بقدم النمل : ما مس الأرض من الحذاء . و « نقصاً » : تمييز . و « منهم » متعلق بـ « أجل » : أي النمل أجل منهم قدراً ، وأرفع منزلة ، وأعظم قيمة ، وأهل مكانة . وهو اسم تفضيل من « جل » : بمعنى كبير ، وعظم . أي من جل عن كذا بمعنى ترفع وتنع .

ورسم نفوس المهجويين بالذلة والقسمة ، ونزل بهم في هجائه إلى الدرك الأسفل من الحفارة والمهانة ؛ فهم دون النمل التي يطأ بها الإنسان الأرض ، ولأنمل أجل منهم وأعظم . وقد أكد كلامه هذا بالقسم المعترض في الشطر الأول بين المهمل وخبره .

(٣١) هجاء بهجوه هجواً (من باب عدا) : وقع فيه بالشعر ، وقنه ، وسبه ، وعدد معاييه ، والاسم الهجاء (يوزن الرثاء) . وصفاتهم : صفات المهجو الأصل وأهله وعشيرته . والمراد صفاتهم الذميمة ، ومعاييهم ، ونقصاتهم . وتلاه يتلوه (من باب سما) : تبعه ، ولفقه ، واقتنى به . والمراد كيف أتلى المهجائين من الشعراء ، واقتنى بهم ، وأنسج على منولهم . وتلا الكتاب وبقره تلاوة : قرأه . وتلا الخبر : أخبر به . والمراد : علمنى مشايهم ومقايهم كيف أتفوها ، وأخبر بها ، وأذيعها في الناس .

يقول : إنه لم يكن يحسن الهجاء ؛ فلما عرف هؤلاء الأوفاد ، وتأذى بشروهم ومقايهم علمته مناقصهم ومثالبهم كيف يتبع الهجائين ، ويسلك سبيلهم ، ويحتذى مثالم .

(٣٢) « فيك » : الخطاب للمهجو الأصل الذي قصد إليه الشاعر في البيت الثاني عشر من أبيات هذه القصيدة ، قبل أن ينتقل إلى هجاء بيته : أي أهله وأسرته وعشيرته . و « ما » : مصدرية ظرفية : أي هجائي فيك باق مدة معاقبة الصقل للسيف . وعاقبه : جاء بمقبه ، وحل إثره . والصقل : مصدر صقل الصقل السيف ونحوه (من باب نصر) : أي جلده ، وبلسه ، وكشف صدأه . وقد يراد بالصقل : الشحذ ، وإحداد السنان ؛ ليكون المشحذ ماضياً قاطعاً بشاراً ؛ ومنه الصقل : وهو شحاذ السيوف ، وجلادها . وعاقب الصقل السيف : المراد تولى عليه ، وتتابع . ولعل للشاعر ربط بقاء هجائه ببقاء احتياج السيف إلى الصقل ؛ ليشير إلى أن مثل هذا الهجاء المقتض يحمل في المهجو ، أو المهجويين عمل الأسلحة المصقولة المشحذة الماضية القاتلة . أو لعله يشير بهذا الربط إلى أن هذا الهجاء القنيع اللاذع لا يفتأ يتأجج ويصعد ، كما يتجدد السيف ونحوه بالصقل والإحداد . ولعل هذه الأهمية تفوق كل أمأجي البارودي في الحدة والنفث ، والإفحام والإقحام . ولاروب أنه نظمها تحت سيطرة نزوة غضبية جامحة ؛ أعرجته عن حد القصد والاحتفال . ويلاحظ أنه كرر مادة « القوم » ست مرات في خمسة أبيات ؛ والقوم جسام المنانص والرخائل .

يقول : كل شيء إلى فناء وزوال ماعدا هجاءه في هذا المهجو ، فإنه دائم باق ما بق احتياج السيف ونحوه إلى الصقل والشحذ .

وَقَالَ يَهْجُو :

وَصَالَكُ لِي هَجْرٌ ، وَهَجْرُكَ لِي وَصَلٌ فَرِذْنِي صُدُودًا مَا اسْتَطَعْتَ ، وَلَا تَأُلْ^(١)
إِذَا كَانَ قُرْبِي مِنْكَ بُعْدًا عَنِ الْمُنَى فَلَا حُمْتَ اللَّفْيَا ، وَلَا اجْتَمَعَ الشَّمْلُ^(٢)

• قيل إن هذه القصيدة في هجاء « فزيار » (١٨٢٥-١٨٩٩) : وهو رجل أربى الأصل ، ل سلة قرابة : « بوفوس » و « إثنين » وزيرى « محمد عل » . دعاه الأول إلى مصر ؛ فعمل في الترجمة ، وقرأ ل محمد على تاريخ الثورة الفرنسية ، وكان كاتب أسرار « إبراهيم » ثم « عباس الأول » ثم مديراً لسلك الحديد المصرية في عهد « سعيد » . ثم وزيراً مقرباً إلى الخديو « إسماعيل » سنة ١٨٦٧ ثم رئيساً لوزارة في أغسطس سنة ١٨٧٨ وبكفايت وتجاربه مارس السياسة الدولية بنجاح ، وكانت له فيها شهرة وبكافة .

(١) الوصال : مصدر واصله أو الوصول : مصدر وصله (من باب وعد) ؛ وكلاهما : ضد الهجر : مصدر هجره (من باب نصر) ؛ وبطله المهاجران . وصد عنه (كود) صدأ ، وصدوداً : أى أعرض عنه ، وبال ، وإنصرف ؛ وهو قريب من معنى القطيعة والمهجرات . وضده الإقبال والوصال . ولا تأل : لا تقصر ، ولا تتوان ، ولا تبلى ؛ مضارع « ألا » (من باب عدا) : أى قصر ، وتوانى ، وأبلى ، وفر ، وضعف .

والمنى : أن المحب يشق ويفنى إذا صد عنه حبيبته وهجره . ويستشعر اغتداءه والارتياح إذا أقبل عليه ووصله . والشاعر يخفى المهجو ويعتقه ؛ ولهذا يتألم من وصاله ، ويتبرم بإقباله ، ويرتاح لصدوده ويصبرانه ، وتطيب نفسه بهمه وقطيعة . وفى الشطر الثانى طلب إليه أن يزيده جهد استطاعته إعراضاً وصدوداً ، ويبالغ في القطيعة والمهجرات ، بلا توان ، أو تقصير ، أو فتور ، أو إبطاء .

(٢) المنى : جمع منية (بوزن منية وفدى) : وهى ما يقدره الإنسان ، ويريد ، ويرغب فيه ، ويتبعه ، ويتوق إليه ، ويتشناه . وحسنت : قدرت ، وقضيت . تقبلى : حسم الله له كما (من باب رد) : أى تقبضه ، وقدره ، وهبته ، وأتانه ، وأرادته ، وقضاه . والفتيا : اللقاء ، والوصال : مصدر لقى (كرضي) : أى صادقه ، ووجدته ، واستقبله . والشمل : ما اجتمع من الأمر . وما تفرق منه (ضد) . يقال : فرق الله شملهم : أى ما اجتمع من أمرهم . وجمع الله شملهم : أى ما تفرق من أمرهم . والمشتتان المنفيتان فى الشطر الثانى دعائيتان ؛ فهو يدعو الله تعالى ألا يجمع شمله بالمهجو ، وألا يقدّر تلاقيهما .

يقول : إن قربه من المهجو يبده مما يرغب فيه ويتشناه ؛ ولهذا دعا الله تعالى ألا يقدّر لقاءهما ، وألا يجمع ما افرق من أمرهما .

وَكَيْفَ أَوْدُ الْقُرْبِ مِنْ مَّكُونٍ كَثِيرٍ خَبَايَا الصَّدْرِ، شَيْمَتُهُ الْخَلْ^(٣)
 قَلْبَتِ اللَّيْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَنْتَهِي إِلَى حَيْثُ لَا طَلْعُ يَرْفُ وَلَا أَثْلُ^(٤)
 خَبِثَتْ، فَلَوْ طُهِرَتْ بِالْمَاءِ لَا كَسَى بِكَ الْمَاءُ خُبْنًا لَا يَجِلُّ بِهِ الْغَسْلُ^(٥)

(٣) الاستفهام في أول هذا البيت : معناه النفي ، أو الإنكار : أي الاستهجان والاستعجاب ؛ فهو يعني إزاحة التقرب إلى المهجو ، أو يستنكرها إن وجدت . ومتلون : مختلف الأخلاق ، لا يثبت على خلق واحد ؛ والمراد أنه مخادع ؛ محتال ، مداهن ، مراوغ . ويراد بخبايا الصدر : الأحقاد ، والضغائن ، وما يفسده المداهن من السر والسرير . وشيمته : خلقه ، وطبيعته ، وعاداته . والخجل : مصدر غثله (من) باني ضرب ونصر) : أي خدعه ، وفرقه به ، وأظهر له خلاف ما يخفيه ، وألقى به المكروه من حيث لا يعلم .

يعني ، أو يستنكر أن تكون له رغبة في التقرب إلى المهجو ؛ فإنه متلون متقلب ، لا يثبت على حال ؛ متطو على الحقد والفضيحة ، يفسد لصاحبه الشر والأذى ؛ وفي خلقه التناقض والخلل ، والخذاع والقدور ، والتغريب ، والحياة .

(٤) الطلح : شجر من الغصاه (وهي الأشجار العظيمة الشائكة) ، ترعاه الإبل ، واحدة طلعة (بوزن تمرة) . والطلح أيضاً : شجر الموز . ورف الثبات : اهتز من الرى والنفضة . والأثْل : شجر طويل مستقيم ، جيد الخشب ، كثير الأغصان ، دقيق الورق طويله . وأحده أثلة (بوزن نخلة) . انتهى أن ينتهي ما بينه وبين المهجو إلى واه خير ذي زرع ، ومكان قفر قاحل مجذب ، ويصير أمرها إلى الجفرة والخشقة ، واليبس والجفاف ؛ وهذا كله كناية عن تغي الاقطاع التام لقصة التي لا تزال تربطه بالمهجو .

(٥) غيبت (من باب قرب) : صار فاسداً ، رديئاً ، مكروهاً ، فهو غيبت . وضده الطيب . والغيبت : التقرر التجس . وضده التنظيف الطاهر . والغيبت : الحب ، الخداع ، الشرير . والخسيس : الكفء المهيئ . واكسى بك الماء غيباً : أي خالطه قذرك وتبسك ، ومازجه ، وغطاه ، وأفسده ، وقذره ، ونجسه . ولا يجِلُّ : لا يجوز . أي يحرم . وبه : بالماء . والغسل : مصدر غسلت الشيء بالماء (من باب ضرب) ؛ والاسم منه الغسل (بضم الغين) .

هجاه بأنه غيبت شرير ، خسيس مهين ، خب مخادع ، قفر نجس ، لا يطهره الماء ، ولا يقبل التنظيف والإصلاح .

ثم غاث في هجائه ، فقال : إنه غيبت وفساده ، وقذارته ونجاسته يلوث الماء التي الطاهر ، ويقذره ؛ فلا يجوز الاغتسال به ، ولا يجِلُّ للتطهير ، ولا يصلح للاستعمال .

فَوَجَّهَهُ مَنَحُوسٌ ، وَكَعَبُكَ سَافِلٌ وَقَلْبُكَ مَدْعُولٌ ، وَعَقْلُكَ مُخْتَلٌ^(٦)
بِكَ اسْوَعْتَ الْأَيَّامُ بَعْدَ خِيَانَتِهَا وَأَصْبَحَ نَادِي الْفَضْلِ لَيْسَ بِهِ أَهْلٌ^(٧)

(٦) منحوس : مشنوم . والكعب (في الأصل) : العظم الناشئ : أي الناقص ، أو البارز عند ملتقى الساق والقدم ؛ وفي كل قدم كعبان . والكعب : كل مفصل من المظام . والكعب في القنا والقصب : العقدة بين الأنبوتين ، وجمعه كعوب وكعاب ؛ ومن المجاز : أهل أقد كعبه : أي رفع شأنه . ولا يزال كعبك عالياً : دعاء له بدوام العلو والرفعة ، والشرف . ورجل على الكعب شريف ، مظفر . وفده سافل الكعب : أي منقطع الشأن ، نذل ، خسيس ، دفيه ، مهين ، مجرد من الشرف . وقلبه مدفول : خالطه الدغل (بوزن النصب) : وهو الدخل ، والريية ، والفساد . وعقله مختل : واهن ، ضعيف ، مضطرب ، فاسد .

هجاه في هذا البيت بكثير من المايب والتناقض ، وغصائل السوء ؛ فوسيه محقوت ، يتشام الناس به ، ويتوقعون منه النقص والشر ، والأذى والضرر . وقلبه منطو على الدغل والدغل ، والفساد والفدر ، والخل والتلذذ . وعقله مختل مثل ، مضطرب مختلط . وهو إلى هذا كله سافل الكعب ، منقطع الشأن ، نذل ، نفل ، خسيس ، دفيه ، مجرد من الشرف .

(٧) « بك » : بالمهجو . و « بك أسودت الأيام » : أسلوب قصر : أي تخصيص : أي بك لا بغيرك أسودت الأيام ؛ وطريقته تقديم ما حقه التأخير : أي تقديم الجار والمجرور « بك » . وأسوداد الأيام : ظلامها : أي بسبب المهجوعاصر الزمان الناس ، وشاكسهم ، وتجهمت لهم الأيام ، ولقيتهم بما يكرهون ؛ وكانت قبله مضيفة مشرقة ، مياسرة مسالمة ، ذات هجة ورواء . وأصبح : صار . والفضل : الإحسان ، أو الابتداء به بلا علة . ونادى الفضل : مكانه ، وجمعه . وأهل المكان : سكانه . وأهل النداء : أصحابه ، والمترددون إليه ، ومن يجتمعون فيه . ويراد بالشطر الثاني : أن المهجو كان سبب فنصب الفضل والتعير ، ونزاع البر والإحسان ؛ أو لعله اضطره الأفاضل المحسنين ، الأحرار الأعيان ، وبالغ في ظلمهم وإذلالهم ، فنصبته بنصوبهم يتابع الفضل والتعير ، والبر والإحسان .

والمنى : أن الأيام كانت مشرقة مضيفة ، مسالمة للناس ، تسدحهم ، وتيسرهم ، وتلقاهم بما يحبون قبل أن يتولى المهجو أمور الحكم والرياسة ، فلما تولاهما ، وسيطر على الناس بها ، حمت المقادير والمظالم ، وتجهمت لهم الدنيا ، ورسمهم بأنواع البلاء والشقاء ، وأقفرته أندية الفضل والتعير ، وغاضت يتابع البر والإحسان .

وفي الآيات الآتية تفصيل وتأكيد لهذا المعنى .

فَلَوْلَمْ تَكُنْ فِي الدَّهْرِ مَا انْقَضَ حَدِيثُ يَقُومُ ، وَلَا زَلْتِ بِلَيْلى أَمَلٍ نَعْلُ^(٨)
فَمَا نَكْبَةٌ إِلَّا وَأَنْتَ رَسُولُهَا وَلَا خَيْبَةٌ إِلَّا وَأَنْتَ لَهَا أَصْلُ^(٩)
أَدُمَ زَمَانًا أَنْتَ فِيهِ ، وَبَلْدَةٌ طَلَعَتْ عَلَيْهَا ، إِنَّهُ زَمَنٌ وَعَلُ^(١٠)
فِي مَمْلَكَ مَخْفُورٌ ، وَعَهْدُكَ ضَائِعٌ وَرَأْيُكَ مَافُونٌ ، وَعَقْلُكَ مُخْتَلُ^(١١)

(٨) انقضى : نزل ، وقع . والحادث : الناقبة ، والكارثة ، والمصيبة ، والنازلة من نوازل الدهر وبلاياه ، وزلت قلعة : زلقت ، وسقطت ، وكبت ، وصبرت . والنعل : الحذاء ، وما بقيت به ألقدم من الأرض ، وهي مؤنثة ، وجسمها نعال . وزلت النعل بلى الأمل ، أو زلت بالأمل قلعة : أى أخفق ، وغاب أمله ، ولم يتحقق رجاءه .

يقول : إن المهجو سبب النكبات والبلايا والكوارث التي يصيبها الزمان على الناس ، وسبب خرابهم وكبريائهم وخيبة مساعيهم ، وضياع آمالهم ؛ يريد أن زمت زين كرب وبلاء ، وحكم حكم إفساد وإشقاء . والبيت الآتي صريح في هذا المعنى .

(٩) النكبة : المصيبة ، والكارثة ، والنازلة من نوازل الدهر ، وجسمها نكبات . والمهجور سبب النكبات إلى الناس ؛ لأنه يصلها بهم ، ويحكمها منهم ، ويحيي فيهم أسبابها وذواها ، ويحمل إليهم شروها وأوزارها ، بخيبة ، وسوء طويته ، وفساد ولايته . وهو أصل الخيبة والخسار واليوار ؛ ومعنى الشر والبلاء والإغفاق ؛ ولولا المهجو ما وجد شيء من هذا ، ولا صلب الناس ناره ؛ ويلاحظ أن شطري البيت قائمان على القصص : أى التخصيص ؛ وطريقته فيهما التني والاستثناء . ومعناه : أن المهجو وحده هو رسول كل نكبة ، وأصل كل خيبة . وهذا البيت تميز وتأكيد وتكرار للمعنى السابق .

(١٠) الوغل من الناس : الضيف ، النذل ، البقي ، الساقط ، المقصر في كل شيء . اشتد سخط الشاعر على هذا المهجو ؛ فذم الزمان الذي أتيته ووسعه ؛ ورياء بالضعف والمهانة ، والناذلة والدنائة ، والسقوط والخوان ؛ والعجز والتقصير ؛ وهذه في الحقيقة عيوب المهجو التي رددتها الشاعر في الأبيات السابقة .

نعم زماننا والمهيب فينا وما زماننا حبيب سوانا

ولم يقتصر الشاعر على ذم زمان هذا المهجو ، بل ذم البلية التي ظهر فيها ، وسمحت له بالإقامة والحياة ؛ ولو كانت طيبة لقتلته ، وأخرجته من أرضها مغمواً مسحوراً .

(١١) الندام (بوزن الكتاب) : العهد ، والأمان ، والكفالة ، وكل حرمة ينشئ أن تصان وتحفظ ، وتلكم اللمة إذا ضيعتها . وكل ما يجب التيام به ، وسرم التفرط فيه من حقوق الله تعالى . =

مَخَازٍ لَرَأَى النَّجْمَ حُمْلَ بَعْضَهَا لَعَاجَلَهُ مِنْ دُونِ إِشْرَاقِهِ أَفْلُ^(١٢)
فَسَبْرٌ غَيْرُ مَأْسُوفٍ عَلَيْكَ، فَإِنَّمَا قُصَارَى دِيمِ الْعَهْدِ أَنْ يَقْطَعَ الْحَبْلُ^(١٣)

= وعظوم: منقوش، ضيق، غير مصون. والمهد: الميثاق، واليمين، والائمة، والأمان، والوفاء، والضيان، والمودة. والرأى: الاحتقاد، والتبصير، والعقل. وسأفون: ضعيف، ناقص. ويختل: يمتلئ، مضطرب، يختلط، فاسد. ويلاحظ أن الشاعر أعاد هنا جملة «وعقلك يختل» التي ختم بها البيت السادس من أبيات هذه القصيدة؛ فوقع في «الإبطاء»: ومعناه إعادة كلمة الروى لفظاً ومعنى؛ وهو من عيوب القافية؛ ولو قال مثلاً: «وعقلك منحل» لا ستقام له الأمر. والمهد: الاتفاق بين طرفين، يلتزم كل منهما - بمقتضاه - تنفيذ ما اتفقا عليه، كمعقود البيع والشراء والتمل . . .

وصمه بالتقريط في الحقوق والواجبات، وتنصيص الحرمات والمهود، ولقضى الأذمة والمواثيق، وفساد الرأى، وصوم التبصير، واختلاط العقل واضطرابه.

(١٢) المخازي: المآيب، والفضائح؛ الواحدة غزاة (بورن مدعاة): وهي ما يجلب الخزي والعار، والذل والهوان؛ أو هو جمع على غير قياس مخزي، أو عزي (بورن إثم وصدي)، كجمع حسن على محسن؛ وشبه على مشابه. وعزى (من باب صدى): أى وقع في بلية وشتر؛ فانتضح، وذل، ودان. و«دون»: ظرف بمعنى «قبل». وأفل: أقبل، ومنيب: مصدر أفل (كفرب، وقعد، وعلم): أى غاب، وغرب.

يقول: لو حمل النجم بعض ما يندس المهجو من المخزيات والفضائح لأفل مسرعاً، واستحميا من الإشراق؛ يريد: لو كان في المهجو مثقال ذرة من التحجل والحياه، لا نزوى بمخازيه، وتواري عن الناس؛ والنزوى تفضيح هذه المخازي التي لو حمل النجم بعضها لأطفاها ما في طبيعتها من الإشراق والضيان.

(١٣) القصارى: الجهد، والقافية، وأشر الأمر. ويراد بالمهد: الالتقاء، والمعرفة، والصحة. ويراد بالحبل: صلة التعارف، والمودة، والاتفاق، والصحة.

ختم الشاعر هذه الأهجو بإعلان قطيعة للمهجو؛ وقال: إن مثله لا يؤفد عليه؛ إذ كان مخفور التسام، سبي الصحة، لا يحفظ عهداً، ولا يرمى مؤثماً، ولا يكاد يحفل بشئ من حقوق الإخاء؛ وحسب أن يحتجب ويقاطع. ويلاحظ أن هذا البيت شبه تكرار، أو تلخيص لمعنى أرومة الأبيات الأولى. ويبدو أن المهجور كان يشغل منصباً كبيراً عالماً من مناصب الحكومة، فلما اعتزله، أو أقبل منه - استشعر الناس السرد، والفرج التام الكارِب.

أشار الشاعر بهذا البيت إلى سوء عهد المهجور، أى سوء زمانه، وأرتياح بني وطنه لإقامته، أو اعتزاله؛ فإن مثله لا يؤفد عليه، ونهاية أمره أن تقطع صلته بالحكومة، أو تنقطع صلته بالناس، وتطوى سيرته، ويختل، ولا يكاد يذكره أحد إلا بالملت والإزراء.

وَقَالَ :

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو طَوْلَ لَيْلِي ، وَجَارَةَ تَبَيَّتُ إِلَى وَقْتِ الصَّبَاحِ بِإِعْوَالٍ ^(١)
لَهَا صِيبَةٌ لَا بَارَكَ اللَّهُ فِيهِمْ قِيَاحُ النَّوَاصِي ، لَا يَنْمَنُ عَلَى حَالٍ ^(٢)

(١) «إلى الله أشكو» : أسلوب قصر : أى تخصيص ، وطريقته تقديم ما سبقه الأخير : أى تقديم الجار والمجرور «إلى الله» . والمعنى : أشكو إلى الله وحده ، ولا أشكو إلى أحد سواه ؛ وفزع الشاعر يشكو إلى الله دليل على شدة ما كان يضايجه من سوء جوار هذه الجارة ؛ وإنما شكى طويلاً ليله لأن الليل يثقل ، ويميل ، ويمتد ، ويطول في حس التألم ، والمهموم ، والحزون ، والقلق الفسجر ، وأمثالهم . ولا ريب أن صياح هذه الجارة طوال الليل يضجره ، ويزعجه ، ويغصه ، ويؤرقه ، ويؤرقه ، ويقض مضجعه ، ويثقل ليله ، ويمدده . وبات يفعل كل ما : أى فعله ليلاً . والإعوال : مصدر أعول : أى رفع صوته بالهكاه والصياح .

احتادت هذه الجارة أن تبث الليل كله صاخبة صائحة مموّلة ؛ فأزعجت الشاعر بإعوالها وجلبتها وضجيجها ، وأقضت مضجعه ، وأرقته ، وأطالت ليله ، وكدرت حياته ؛ ففزع إلى الله تعالى يشكو إليه ما يكابده ويقاسيه .

(٢) لها : للجارة . والصيبة (بثلاث حركة الصاد) : جمع صبي : وهو الصغير دون النلام . أو الطفل قبل أن ينطق . وجملة «لا يبارك الله فيهم» : جملة دعائية ؛ فهو يدعو الله تعالى أن يحرمهم البركة : وهى النماء ، والزيادة ، والخير ، والسعادة . والنواصي : جمع الناصية : وهى مقدم الرأس ، أو مثبت الشعر في مقدم الرأس . أو شعر مقدم الرأس إذا طال . ويراد بالنواصي هنا : الرجوع ؛ فالناصية فى أصل الوجه . وهى متصلة به . أو هى جزء منه . والعرب قد تطلق الجزء ، وتريد الكل . وحال الشيء : صفته ، وحيثه . و «لا ينمن على حال» : أى لا ينام طوال الليل ، فالسهر يلازمهم ، وليالهم كلها ساهرة فى كل الأحوال من عشى ودى ، وجميع ضيق . . .

فى البيت السابق شكى جاراته الممارسة المشاكسة ، وتبرم بصخبها وجلبتها ، وإغراقها الليل كله فى الفسجج والعليل . وقال : إنه من جراء هذا يماهى ما يثقله ويضنيه من الفسجر والقلق والأرق ، وطول الليل وامتداده .

وفى هذا البيت أضاف إلى ما تقدم صخب ألقاها وضجيجهم . وقال : إنهم - فى جميع الأحوال - لا ينامون الليل ، ولا يدعون غيرهم يستمتع بنعمة النوم وراحته ؛ ثم أشد تبرمه بهم ، وسخطه عليهم ، فرمام بدامة الرجوع وقبحها ، ودعا الله تعالى أن يحرمهم الخير والبركة ، كما حرّموا غيرهم أمة الناس وحيته .

صَوَارِخُ ، لَا يَهْدَانِ إِلَّا مَعَ الضُّحَا مِنَ الشَّرِّ ، فِي بَيْتٍ مِنَ الْخَيْرِ مِمَّا خَالَ (٣)
تَرَى بَيْنَهُمْ - يَا فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ - لَهَيْبَ صِبَا حِ يَضَعُكَ الْفَلَكُ الْعَالِي (٤)

(٣) الترتيب الآتي يوضح هذا البيت كل التوضيح : « صوارخ من الشر ، في بيت محال من الخير ، لا يهدان إلا مع الضحا » .

وصوارخ : خبر مبتدأ محذوف . والتقدير : « من » : أي صبية هذه الجارة صوارخ : جمع صارخة اسم فاعل من الصراخ ، أو الصريخ : وهو الصياح الشديد . والضحا : حين تشرق الشمس ، ويمتد النهار . و « من الشر » : متعلق بـ « صوارخ » : أي صوارخ من أجل الشر : أي بسببه . ويجوز أن يتعلق بـ « يهدان » : أي لا يهدان من الشر : أي شره متصل ، لا يقطعه شيء من الهدوء . ويراد بالشر : المشارة ، والمشاجرة ، والخصام ، في إحوال ، وجلبة ، وصياح ، وضجيج . و « في بيت » : متعلق بـ « صوارخ » . و « محال » : صفة لـ « بيت » . والمحال : الماحل ، المقفر ، المجذب . و « من الخير » متعلق به .

ما زال الشاعر شديد التبرم بمجارته وصبيته اللاتي يورقته ويؤذنه أذى شديداً بما يوجهه طوال الليل من الشجار والمضرة ، والصراخ والإحوال .

ويقول : إنهن لا يهدان إلا حين تشرق الشمس ، ويرتفع النهار ؛ وإن يتهن محل مقفر مجذب ، لا خير فيه ؛ فالخير لا يكون مع الشر والجلبة ، والضجيج والمجيج ، والصراخ والإحوال .

(٤) « بينهم » : بين هؤلاء الصبية . و « يا » حرف نهي تنبيه ، أو هي حرف نداء ، والمنادى محذوف ؛ فالشاعر ينادي كل من يستمع له ، ويشفق عليه ، ويشكيه : أي يزيل سبب شكواه . و « رُقَ الله بينهم » : جملة دعائية ؛ فهو يدعو عليهم بالتفرق ، وتبدد الشمل ؛ لأنه إذا افرق شملهم ، انتهى صياحهم ، واستراح منه الشاعر ، واستطاع أن يطمئنه لذة النوم . ولطيف صياح : أي صياحاً كلهيب النار في توقده ، وشدة ، وارتقاعه ، وإيذائه . والفلَك : القضاة في السماء ، يدور فيه النجم . والعالى : صفة مؤكدة له ؛ لأن الفلك لا يكون إلا عالياً . ويلاحظ أن الشاعر عبر في أول البيت بالفعل المضارع « ترى » مراعى القهيب ؛ فإنه يذكّر بحاسة البصر . أما الصياح فيذكر بحاسة السمع . كما يلاحظ أنه في هذا البيت والبيتين السابقين والبيت الآتي يذكر الضمير أحياناً باعتبار معنى « الصبية » (جمع صبي) ، ويؤنثه أحياناً باعتبار اللفظ .

شبه صياح هؤلاء الصبية بلهيب النار المتوقدة المتأججة في عنفه وقسوته ، وشدة وقوته ، وإيذائه وإضراره ، وطول وارتقاعه ؛ وبالغ في هذا المعنى الأخير ؛ فقال : إنه يبلغ الأفلاك والكواكب ؛ ويحا حل هؤلاء الصوارخ بتروق الرابطة ، وانتراق الشمل ؛ ليستريح من جلبتهم وضوضائهم ؛ ومجد ما يتنمده ويشتهيه من النوم والراحة ، والطمأنينة ، وروضاء البال .

كَاتَهُمْ - مِمَّا تَنَازَعْنَ - أَكْلَبُ طُرُقَنَ - عَلَى حِينِ الْمَسَاءِ - بِرِثْبَالٍ^(٦)
 فَهِيْنُ جَمِيْعًا هَيْجَةً فُزَعَتْ لَهَا كِلَابُ الْقُرَى ، مَا بَيْنَ سَهْلٍ وَأَجْبَالٍ^(٧)
 فَلَمْ يَبْقَ مِنْ كَلْبٍ عَقُوْرٍ وَكَلْبَةٍ مِنْ الْحَيِّ إِلَّا جَاءَ بِالْعَمِّ وَالْحَالِ^(٨)

(٥) « مما تنازعن » : « من » : تمليكية . و « ما » : مصدرية : أى من أجل تنازعين : أى اختلافين وتخاصمين . وأكلب : جمع كلب . وطرقت القوم : أتيتهم ليلاً . و « على حين المساء » : تكرار وتأكيد للمعنى الطروق ؛ فإنه لا يكون إلا ليلاً . والرثيال (بالهمز ، وبالضعف) : الأسد . والذئب الخبيث .

شبه هؤلاء الصبية الصاعخين الصارخين المتنازعين بكلاب طرقها مفاجئاً ذئب أو أسد ، فارتدت وهاجت ، واضطربت وماجت ، وعلا نباحها . وفي ستة الآيات الآتية ، أى فى أكثر من نصف هذه القصيدة فصل الشاعر هذا المعنى ، وأطنب فى وصف هذه الحالة ونتائجها ، وبالع والغال ، واتسع عياله ؛ وبهذا شغل عن نفسه ، بل خفف هذه الأهمية الاجتماعية بما يشبه التهمك والسخرية ، أو المزاح والندابة .

(٦) « هين » : الضمير المتصل بهذا الفعل يمدح على « أكلب » فى البيت السابق ؛ وقد شبه بها الشاعر صبيان جاورته المتنازعين المشاجريرين فى صخب وصراخ ، وإعوال وصياح عال ، وهاج (من باب باع) : ثار ، واضطرب . وهيجة : اسم مرة منه . وفزعت (من بابى تمب ومنع) : ذعرت ، وخافت . أو هى « فزعت » (بالبناء للمجهول ، وتشديد الزاى) : من فزعه تفزيماً : أى خوفه ، وروعته ، وذعره ، وأثاره . والفزع (فى الأصل) : الخوف والذعر ؛ وقد يستعمل فى هيجان الناس ، وغروجهم مسرعين على حبل ؛ لدفع عدو ونحوه . إذا جازم بفتة . ولما : الهيجة : أى من أجلها . وبسببها . والسبل من الأرض : ما كان ممتداً منبسطاً ، مستقيماً السطح . والأجبال : جمع جبل . ويزاد بالسبل والجبال : ما انبسط من الأرض واستوى ، وما هبط وانخفض ، وما علا وارتفع : أى يزداد التمتع ، واستيعاب أراضي القرى فى أوسع المساحات .

بدأ الشاعر فى هذا البيت يفصل الصورة التى أجملها فى البيت السابق ؛ فالذئب أو الأسد فاجأ الكلاب ليلاً ، نهباها وأثارتها إثارة هائلة أفزعت كلاب القرى والبلاد المجاورة ، وهيجتها ، فتنادت ، واجتمعت ، وأتت مسرعة من السهل والجبال تنبح نباحاً عالياً فى رتيبه ذلك العدو الهاجم المبات .

(٧) « من » فى الشطر الأول زائدة لتأكيد المعنى ، وهو استيعاب الكلاب كلها ، أى أنها كلها بلا استثناء تنادت واجتمعت ، وساء كل كلب وكلبة بالعم والحال . وعقور : صيغة مبالغة من عقره (من =

وَفَزَعَتْ الْأَنْعَامَ وَالْخَيْلَ، فَأَنْبَرَتْ تُجَاوِبُ بَعْضًا فِي رُغَاءٍ وَتَضَاهَى^(٨)
فَقَامَتْ رِجَالُ الْحَيِّ تَحْسَبُ أَنَّهَا أَصِيبَتْ بِجَيْشٍ ذِي غَوَارِبَ ذِيَالٍ^(٩)

== باب ضرب : أى عضه ، وبجره . ومن الحى : أى من كلاب الحى . أو من « بى » فى : أى فلم يبق كلب وكلبة فى الحى : وهو محلة القوم : أى ديارهم ، وسناظلم ، وجمعه أحياء ، وبجاء بالهم والخال : أى استدعى جميع ما اتصل به من الكلاب .

والبيت فى تصوير كثرة الكلاب التى فزعت وتجمعت لما طرقها الرئبال ؛ والغرض من هذا البيت والأبيات التى قبله ، وأربعة الأبيات بمدة المفالة فى وصف ضجيج هذه الجارية ، وإعواها ، وصخب صيائها وصرائحهم .

(٨) فزعت (بالبناء المجهول) : من فزعه تفزيماً : أى روعه ، وأخافه ، وذعره ، وفزعه . والأنعام : جمع النعم (بفتحين) : وهى الإبل ، والبقر ، والغنم . والخيل : جماعة الأفراس ، (لا واحد له من لفظه) ، بل الواحد فرس ، وحصان . وجمع الخيل خيول ، وأخيال . وإنبرى له الشيء : اعترض له ، ووقف فى سبيله ، كالجليل ويحوى ينبرى للسائر ، ويمترض له فى طريقه ، فيعوقه عن السير . ومعنى انبراء الأنعام والخيل هنا : أنها لما فزعت نهضت من مباركها ، وقامت من مراتبها ، فى سرعة ، وعنف ، وصلابة ، وشدة ، وجسوح ؛ لمقاومة العدو المفاجئ ، والتصدى له . وجاوبه بجاوبه مجاوبة : حاووه ، ورد كل منهما على الآخر . أو أجاب سؤاله . والكلام الفصيح : « مجاوب بعضها بعضاً » . ولم تستعمل كلمة « بعض » فى القرآن الكريم ، فى مثل هذا المقام إلا مكررة . قال تعالى : « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً » الآية رقم ٦٣ من سورة النور . وه فى « بى » : أى « الباء » . والغراء : صوت الإبل وضجيجها . والتضاهى ، والصفيل ، والصفال : صوت الخيل : وهو مصدر على وزن « فَعَال » يأتى من الفعل الثلاثى المجرد قياساً مطرداً ؛ للدلالة على الكثرة والمبالغة .

من نتائج طروقة الرئبال ، وهيجان الكلاب ونباحها : أن الإبل ، والخيل ، والبغال ، والحمير ، والبقر ، والغنم ، وسائر دواب القرى ، وهمائها وحيوانها — فزعت وروعت وذعرت ؛ فهاجت ، وداجت ، وقفرت ، ونهضت من مباركها ومراتبها فى سرعة وقوة ، وعنف وصلابة ؛ وبرغائها وصهيلها وأصواتها الكثيرة المختلفة المخلطة — تنادت ، وتجاوت ، وتعاوت متبرية متصدية لهذا العدو المفاجئ .

(٩) الحى : البطن من بطون العرب . وهو أصغر وأقل عدداً من القبيلة . والحى أيضاً : محلة القوم : أى ديارهم وسناظلم التى ينزلون فيها . ويراد برجال الحى هنا : رجال القرى والبلاد التى هم التفرغ والمهاج كلابها ودواجا . والغوارب : جميع الغلاب : وهو الكاهل : أى أصل الظهر ، مما يلى العنق . ومن المجاز ==

فَمِنْ حَامِلٍ زُمَحًا وَمِنْ قَابِضٍ عَصَا وَمِنْ فَرَجٍ يَتْلُو الْكِتَابَ بِإِهْلَالٍ (١)
وَمِنْ صَبِيَّةٍ رِيْعَتْ لِيَذَاكَ، وَنِسْوَةٍ قَوَائِمٌ دُونَ الْبَابِ يَهْتَفْنَ بِالْوَالِي (١١)

« بحر ذو غوارب » : أى متموج ، مرتفع الموج . وفواربه : أعال موج . وجيش ذو غوارب : كثير ، جرار ، عرمرم ، بلج ؛ كأنه البحر الزاخر المتزوج . وذيل : نمت ثاب لجيش . والمراد أنه تمتد لهم ، كثير جرار ؛ على التشبيه بالقوس الذيل : وهو الطويل الذيل .

يقول : ومع تفريع الكلاب والمواب وتبيجها - استيقظ رجال القرى والبلاد مغرزين ، مروعين ؛ كأنهم فوجئوا بهجوم جيش عظيم جرار ؛ فأعلموا له العدة ، وأخذوا - على عجل - أهبتهم لصلو ورده . والبيت الآتي يفصل هذا المعنى .

(١٠) « من » في هذا البيت : بيانية ؛ وقد كررت ثلاث مرات لبيان ثلاث طوائف ، أو ثلاث جماعات ، أو ثلاث حالات لرجال الحى في البيت السابق . والرمع : قناتة في رأسها ستان من الحديد الصلب يطن به . وقابض : اسم فاعل من قبض الشيء ، وقبض عليه . ويتلو : يقرأ . ويريد بالكتاب : القرآن الكريم ؛ وقد سماه الله الكتاب في مواضع كثيرة من القرآن العظيم . قال تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين » الآية رقم ٢ من سورة البقرة . والإهلال : مصدر أهل : أى رفع صوته .

في الآيات (٥ - ٨) : أن الكلاب والدواب فوجئت ليلاً بالزئبال ؛ ففزعت ، وهاجت . وفي هذا البيت والبيت السابق تصوير مفصل لفرح الرجال في القرى والبلاد المجاورة ، وتصديقهم لهذا العدو المباغت ؛ فهم من حمل له رعه وسلاحه ، ومنهم من استخف عصاه ، فأمسك بها . ومنهم من لجأ إلى الله تعالى وأقام صوته بتلاوة القرآن .

(١١) « من » في أول هذا البيت : بيانية ، توضح طائفتين أخريين من شملهم الضر والفرح ، وهما صبيان القرى ونساها . وريعت : أفرغت ، وأخيفت . ولذلك : من أجل ذلك ؛ أى بسبب هيجان الكلاب والدواب واستيقاظ الرجال وتأهبهم للدفاع . وقوائم : قائمت . ودون الباب : وراء . أو أمامه . أو على مقربة منه . وهو ظرف لـ « قوائم » . وحض به (من باب ضرب) صلح به ، ودعاه . وبجملته « يهتفن » : نمت ثاب لـ « نوسة » : أى ونوسة قائمت ، هاتفت . والوالى : الحاكم .

فصل الشاعر في هذا البيت والبيتين قبله بعض مظاهر الفرح الذى استولى على الحى ، وشمل رجاله ، ونسائه ، وصبياناه ؛ فالرجال هبوا مدعورين ، كأنما رموا بجيش بلج ؛ فتسلح جمهورهم بالرياح والأسلحة والمضى . وفزعت طائفة منهم إلى الله تعالى يدعونه جهراً بتلاوة القرآن الحكيم ؛ أما الصبيان فلهزم ريموا =

فَيَأْتِيهِ ، هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ تَصَبُّرًا عَلَى مَا أَقَابِيهِ ، وَخُذْهُمْ بِزُلْزَالٍ ^(١١)
وَقَالَ فِي الزُّهْدِ * :

يَا قَلْبُ ، مَا لَكَ لَا تُغَيِّبُ قِيَمَ الْهَوَى ؟ يَا قَلْبُ ، مَا لَكَ ؟ ^(١٢)

= وإرتجفوا لهذا الخطب المنظم ؛ وقامت النساء دون أبواب الدور يصحن بالوالى ، ويستنجدن ؛ ليدفع عن
الحى - سلطان الحكمة - هذا الشر المغير ، والبلاء المستطير .

(١٢) تصبر على الأمر : صبر . وتصبر : حل نفسه على الصبر . وتصبر : تكلف الصبر : أى
تجشمه على مشقة . وخذهم : أمر من أخذه بذنبه : أى جازاه وعاقبه . وزلزل الله الأرض زلزلة ،
وزلزلا (بثلاث حركة الزى فى الزلزال) : أى أرجفها ، وحركها تحريكاً شديداً ، ويصح الزلزال زلازل ؛
وقد يراد بها : البلبا ، والشذالة ، والكوارث ، والأحوال .

افتتح الشاعر هذه القصيدة بالشكوى إلى الله وسعده . واغتنمها بدعائين : أولها أن يمنحه الله القوة
والصبر على أحوال ما يكابده ويضائيه من شرور جوارته وصبياتها ، والآخر أن يعظم له منها ومنهم ،
وبما لهم عقوبة رادعة ناجرة ؛ فهو يرجو من الله أن يعينه على احتال شروهم إلى أن يؤاخذهم بهذه
الشرور . وقد تكون « الواو » فى الشطر الثانى بمعنى « أو » فهو يدعو الله أن يستجيب لأحد هذين الدعائين .

* * *

• هذه القصيدة لامية ، أى رويها اللام ، والكاف بعده حرف وصل ؛ ويصح أن تكون كافية :
أى رويها الكاف ؛ وقد التزم الشاعر قبله اللام ، وهو من لزوم ما لا يلزم ؛ فالوجهان جائزان صحيحان .
والأول مستحسن راجح .

• زهد فيه (كنع ، وسيع ، وكرم) زهداً ، و زهادة : أمرض عنه ، وتركه ؛ لاحتقاره ، أو لتعريضه
منه ، أو لقلته وتفاخته . وزهد فى الدنيا : ترك حلالاتها مخافة حسابه ، وترك حرامها مخافة عقابه . وأدب
الزهد (شعره) ، ونثره) يقصد به التزهد فى الدنيا ، والتفرغ فى الآخرة ؛ والزهد فى شعر البارودى غير قليل ؛
ومكانته فى البلاغة مكانة سائر شعره . وأصدق وأعمقه ، وأشد تأثيراً فى النفس ما نظمه وهو فى
منغاه .

(١) « يا » فى أول البيت لتداء الجيد . وقد نزل القريب هنا (وهو قلبه) منزلة البهية ، إشارة إلى
غفلته ، وإنهماكه فى الهوى ، وإيماده فى النى . والفرض من التداء الزجر . و « مالك » : « ما » اسم
استفهام مبتدأ ، والجار والمجرور « لك » خبره . وأفلق يفيق إفاقة : انتبه ، وصح . يقال : أفلق المريض
من مرضه ، والسكران من سكره ، والثائم من نومه . والهوى (فى الأصل) : مصدر هوى الإنسان الشيء
(من باب هوى) : أى مال إليه ، ووقف فيه ، وتعلق به ؛ ثم كثر استعماله فى ميل النفس إلى =

أَوْ مَا بَدَا لَكَ أَنْ تَعُو دَعَنِ الصَّبَا ؟ أَوْ مَا بَدَا لَكَ ؟ (٧)
 أَمْ خِلْتُ أَنْ يَدَّ الزَّمَانُ نِ قَصِيرَةً عَنْ أَنْ تَنَالَكَ (٨)
 هَيْبَاتٌ ، صَدَّ بِكَ الْهَوَى عَنْ أَنْ تَرِيحَ ، وَلَنْ إِخَالَكَ (٩)

== الشهوات ، وجمعه أهواء ؛ وربما أطلق الهوى على الشيء الموهى ، أى المرغوب فيه . وقد ضم القرآن الهوى ونهى عن اتباعه ؛ قال تعالى : « وأما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » . الآية رقم ٤٠ والآية رقم ٤١ من سورة التازعات . وقال تعالى : « ولا تطلع من أغمقنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه ، وكان أمره فراطاً » الآية رقم ٢٨ من سورة الكهف .

كرر الشاعر النداء والاستفهام « يا قلب ، مالك ؟ » مرتين ؛ لتأكيد المعنى ، والإيحاء به ؛ فهو بالنداء ينبه قلبه ، ويذكره ؛ وبالأستفهام يلوّيه فى تعجب ، ويأمل أن يفيق من الهوى ، ويسود إلى الرشاد . وهو فى هذا البيت وستة الأبيات الآتية يخاطب قلبه واعظاً ، ناصحاً ، مرشداً ، مبصراً بالمواقف ، داعياً إلى الهدى والنقى ، وتسليم الأمر لله .

(٢) الهمة فى أول البيت للاستفهام المراد به التوبيخ . و « الواو » بعدها عاطفة . والمطوف عليه محذوف ، أى « أتماديت فى الصبا ، وما بدا لك أن تعود عنه ؟ » . وبدا (من باب بدا) : ظهر ، وبان ، وأتضح . ويعود عن الصبا : أى تقلع عنه ، وترجع ، وتكف ، وتنصرف . والصبا (بكسر الصاد) : مصدر صبا (كندا وصما) : أى مال إلى الهوى والحب ، والجهل والفتنة ، وفعل فعل الصبيان ، وانطاع لنواحي الهوى ، وصبت الشباب . وصبا إلى المرأة : تعلق بها ، ونزع إليها ، وسن ، واشتاق . وفى القرآن الكريم : « وإلا تصرفنى كيدهن أصب إليهن ، وأكن من الخاهلين » الآية رقم ٣٣ من سورة يونس .

كرر الشاعر « أو ما بدا لك » مرتين ، كما كرر فى البيت السابق « يا قلب مالك ؟ » . ويلاحظ أن معنى العودة عن الصبا فى هذا البيت تكرر ، أو شبه تكرر لمعنى الإفاقة من الهوى فى البيت السابق . وفى الاستفهام معنى الوم والإنتكار ؛ فهو يتنكر على قلبه بتماديهِ فى الصبا ، وبمبيله ، وببهاه عنه .

(٣) « أم » هنا : بمعنى « بل » . وتقيد الانتقال من معنى إلى معنى آخر ، هو فى الغالب أهم من المعنى السابق ، وأحق منه بالانتباه والاحتفال . وغال الشيء يخاله (من باب خال) : ظنه .

يقول : بل ظننت أن الزمان عاجز عن أن يتركك بقلباته وأسوائه ، وهو أسلوب آخر من أساليب الوعظ والنصح والإرشاد والتجذير أشد من أسلوب البيتين السابقين ؛ كأنه يقول : أفنى من الهوى ، وأرجع عن الصبا قبل أن تصيبك فواجب الزمان ، وتزدحك نوازلى الخلدنان .

(٤) « هيات » (بتثنية التاء) : اسم فعل بمعنى « يد » ؛ أى يد ما أمله من إغرائك ، وإغلاطك عن الهوى . وصده من كذا : منعه ، وكفّه ، وصرفه عنه . وعيد بك الهوى : أى أمنت فيه ، =

سَلَّمَ أُمُورَكَ لِلَّذِي أَنْشَأَكَ مِنْ عَدَمٍ وَعَالَمَكَ^(٥)
وَدَعَرَ التَّعَلُّقَ بِالْمَحَا لٍ ؛ فَإِنَّهُ يَبْرِي مِجَالَكَ^(٦)
فَعَسَاكَ تَنْزِعُ مِنْ يَدِ الْ أَهْوَاءِ - يَا قَلْبِي - حِيَالَكَ^(٧)

= فابتعد بك . وراع يربع (من باب) باع ، عاد ، ورجع . ولن إخالك : أي ولن أظنك مقلماً عن الهوى ، مائلاً إلى الهدى . وطى : تكسر همزة « إخال » على غير قياس . و بنو أسد يفتشونها على القياس . والكسر أكثر وأشهر .

يقول : إن الهوى استبد بقلبه ، وتمكن منه ، وسيطر عليه ؛ فحال بينه وبين العودة إلى الهدى . وقد أكد هذا المعنى بـ « هيأت » : وهي كلمة تهديد ، ثم يقوله : « ولن إخالك » ، وهو كاليات السابق أسلوب شديد من أساليب الوعظ والإرشاد . وفي ثلاثة الأبيات الآتية عظة ، ونصح ، وأمل في الإقلاع عن الأهواء ، والإنابة إلى الله .

(٥) الأمر في أول هذا البيت ، وفي أول البيت الآتي : « سلم » و « دع » : معناه النصح والإرشاد . والأمر : جمع الأمر : بمعنى الشأن والحال . وفي القرآن الكريم : « وأفوض أمري إلى الله ؛ إن الله بصير بالعباد » الآية رقم ٤٤ من سورة غافر . وأنشأك : أصله الخسر : من الإنشاء : وهو الخلق والإيجاد . وعالك (من باب قال) : كفلك ، ورزقك ، ويسر لك أسباب المعيشة والحياة .

ولأرب أن الخير كله في التسليم الذي دعا إليه الشاعر ، وسحق عليه ؛ والله تبارك وتعالى هو الخالق المقدر الذي أنشأ الإنسان من العدم ، ويجب له نعمة الوحي ، ورزقه وعاله ، وعباده ورباه ؛ وتفويض الأمور إليه من التقوى والإيمان الذي يضيء القلب ، ويهدو إلى تحرر الرشد في الأقوال والأعمال ، ويعالج ما شكاه الشاعر في الأبيات السابقة من سيطرة الهوى ، والانطباع للهو والصبا ، وجهل الشباب .

(٦) دع : أترك ، واجتنب . والحال (بضم الميم) : ما اقتضى الفساد من كل وجه . ومن معانيه : الباطل ، والمعوج ، وغير الممكن . ويرى : يصف ، أو يهدم . (وبابه رى) ؛ وهو من مجاز اللغة ؛ والأصل : برئت القلم ونحوه . والحال (بكسر الميم وتحتها) : القلة ، والقدرة .

وهذا البيت وثيق الاتصال بالأبيات السابقة ؛ فإن الهوى والصبا من الاباطيل والمفاسد ؛ ولا ريب أن التثبث بها يصفى أو يطفئ ما أتم الله به حل الإنسان من قوى الروح ، والعقل ، والجسم ، والحواس ، ويفسد الأخلاق ، وينتهي بالمرء إلى البوار والخسران .

(٧) « عى » : فعل ماض جامد ، معناه التربي . ويقيد الصريح . أو هو حرف بمعنى « لعل » ويفيد التربي والتفيع . وتنزع (من باب ضرب) : تنتزع ، وتقتلع . وفزع الحبال من يد الأهواء : كناية عن الإنفاة منها ، والإقلاع عنها ، واجتناب اللهو والمجانة .

وَقَالَ فِي الزُّهْدِ ، وَهِيَ مِنْ نُزُومٍ مَا لَا يَلْزَمُ :

إِنَّهَا الْمَعْرُورُ ، مَهَلًا لَسْتَ لِتُكْرِمَ أَهْلًا^(١)

كَيْفَ صَادَقْتَ الْأَمَانِي ؟ هَلْ رَأَيْتَ الصَّعْبَ سَهْلًا ؟^(٢)

• ألزم الشاعر « الهاء » قبل روى هذه الأبيات ، وهو التزام لا تحتمه قواعد القافية ، وقيد اختياره قيد به الشاعر نفسه على عادته في كثير من مقطوعاته وقصائده ؛ كأنه يفتخر بقوة شاعريته ، وفيضان قريحته ، وانطباع القوافي له ، ويسرها بين يديه ؛ فليس في هذه الأبيات ، ولا في أمثاله شيء من التكلف ، أو التعمل ، أو السر ، أو الالتواء ، بل تراها كلها على النوام جارية على الطبع والسليقة .

(١) المعرور : المنذوع . ويراد به هنا : المشغوف بالدنيا ، المقبل عليها في غير قصد أو اعتدال ؛ لأنها تفره بزخرفها وزينتها ، وتخدعه ، وتطمعه بالباطل . والمهل : النؤدة : والريق ، والثاقب . وهو مصدر ناب مناب فعل الأمر : أى تمهل ، واتكئ ، ولا تسجل . والمراد : تفكر ، وتدبر ، ولا تنخدع بالدنيا ، ولا تهافت عليها . وكرمه تكريماً : عظمه ، وشرفه ، ونسبه إلى الكرم الذى يجمع حميد الخلال ، وشريف الخصال ، وصالح الأعمال والأقوال . وفلان أهل لكذا : مستحق له ، جدير به .

يلزم التكاليف على الدنيا ، والافتقار بها . ويقول لمن انخدع بزخرفها ، ووقع في أشراكها : تمهل ، واتكئ ، وفكر ودبر ؛ فقد جانبت الرشد ، وانعرفت عن الجادة ، ولم تعد أهلاً لتقدير والتكريم .

(٢) الاستغناء فى شطرى هذا البيت : معناها النفي . وهما يحملان مع هذا معنى التفرغ والتفريط ، ومعنى التهمك والسخرية ؛ فإن الدنيا لم تحقق للمخطوعين بها أمانتهم ، ولم تيسر لهم الصعوبات كما يشبهون ؛ وهى إن يأسرتهم حيناً عاسرتهم أحياناً ، وإن أحسنت الصنيع لاتلبث أن تكدر الإنسان ، وصادفت : وجدت ، ولقيت . والأمانى (بالتخفيف) ، والتشديد) : جميع الآمنية : وهى المنية ، والبغية ؛ أى ما يتسناه الإنسان ، ويبتغيه ، ويتوق إليه ، ويرغب فيه .

والمعنى : أن الدنيا تفر أصحابها بالأمانى الكاذبة ، وتخدعهم بالآمال الخلابه ؛ فيتهاوتون عليها ، ويتكالبون ؛ فلا تلبث أن تنحرف بهم عن الصراط السوى ، وتصرفهم عن الزهد والعبادة ؛ والعمل للدار الآخرة ؛ فتكون عاقبة أمرهم خسرأ ؛ لأن كثيراً من الآمال التى انخدعوا بها ، وبجروا وراحوا من الصعوبة بمكان ؛ ولما تصدق لإنسان « كسرأ بقيمة ، يحسبه الظلمان ماء سقى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد الله عنده ، فوفاء حسابه . والله مرعب الحساب » . (الآية رقم ٣٩ من سورة النور) .

خِلَتَهَا مَلَكٌ نَجِيرًا فَاشْرَبَنَ عَلًّا ، وَتَهَلَّا (٣)
 أَبْنُ أَهْلِ الدَّارِ ؟ فَانْظُرْ هَلْ تَرَى بِالدَّارِ أَهْلًا ؟ (٤)
 رَبُّ حُسْنٍ فِي ثِيَابٍ عَادَ غَسْلِيَّتًا وَمَهْلًا ؟ (٥)

(٣) خلتها : غلت الأمانى ؛ أى ظننتها . والخطاب المفعول بالدنيا . والماء الغير : الطيب ، الزاكي ، الكثير ، الحىء ، المرىء ، الناجع فى الرى . والنهل (بوزن الطرب) : الشرب الأول . أو الشرب المرفىء ؛ وتسكين الماء هنا لضرورة وزن الشعر . والنهل (وسطه اللعل ، بوزن الملل) : الشرب الثانى . أو هو الشرب بعد الشرب تباحاً .

فى هذا البيت ، والبيت السابق سأل الشاعر المفعول بالدنيا فى تكلم وسخرية ، أو للترغيب والوعظ : كيف يجب ما كان يأمله ؟ وهل تيسرت له أطماعه ؛ فاطمأن للدنيا ، وظنها حلقة الموارء ، فهل ضلها وهل ؟ . والفرض نفى هذا كله ، وإثبات تقاضيه من شعبة أمل الآمل ، وضياح . ربحاله : يندر الدنيا به ، وتجريعه مرارة الحسرة والندامة ، والبهوار والحمران . والابيات الآتية توضح هذا المعنى ، وتفصّله ، وتؤكدته .

(٤) فى سبيل التلميح والاعتبار وجه الشاعر الأنظار إلى من علوهم الرىء ؛ وأخفى عليهم الدهر من أهالى الديار الخارية ، والمنازل الخالية ، والقرى والبلاد النواويس التى تردع المفعول ، وترد المعنى إلى الهدى والرشاد . وفى القرآن الكريم : « أو لم يسروا فى الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم . كانوا هم أهدى منهم قوة وأكثر فى الأرض ، فأعلمهم الله بغيرهم ، وما كان لهم من الله وفاق » . الآية رقم ٢١ من سورة طه .

(٥) « رب » : حرف يفيد التكرير فى مثل هذا المقام ؛ فإن الحسن والجمل الجمال الذى يشبه أمره إلى الصلين والمهل من الكثرة بمكان . ويراد بالحسن : محاسن الحسنات الفانيات . ويراد بالثياب : ثيابن التى كن يتغيرتن فيها ، ويزدجين بها قبل أن يدركهن الموت . أو يراد بها : الاستكفاف التى غطت محاسنهن بعد أن طواهن الردى . واد : صار : أى الحسن ، والجمل ، والمراد صار بعد الموت . والصلين (فى الأصل) ما يخرج من الثياب ونحوها بالفضل : أى الماء الذى يسيل منها غتطاً ، بأقدارها بعد غسلها ومصرها . ويراد بالصلين هنا : ما يسيل من أجساد الموق إذا انصلت ، وتفتنت ، وتقيحت بعد الموت . والمهل (يضم فسكون ، أو يفتح فسكون) : القيق ، وصديد جسد الميت .

ينسب على ما نصير إليه أيدان الحسنات الفانيات بعد الموت من تمفن ، وقيق ، وقيق ، وفساد . والفرض تبصير المفعول بهذه المحاسن ونحوها ؛ لعله يتنظ ويستهزئ ، ولا يستخج بغيره الدنيا وباطلها . « وما الحياة الدنيا إلا متاع الفروع » . (الآية رقم ١٨٥ من سورة آل عمران) .

وَعَيْسَىٰ كَن سُوْدَا صِرْنَ عِنْدَ الْمَوْتِ شُهْلَا^(٦)
 سَوَفَ يَلْقَىٰ كُلُّ بَاغٍ فِي الْوَرَى خِزْيَا وَبُهْلَا^(٧)
 إِنَّمَا الدُّنْيَا غُرُورٌ لَّمْ تَدَعْ طِفْلًا وَكَهْلًا^(٨)

(٦) « وعيسى » : مطبوعة على « حسن » في البيت السابق : أي رب حسن ، ورب عيون . وشبهل : جمع شهلاء : صفة من الشهل ، أو الشيلة : وهو أن يشوب سواد العين أو إنسانها حمرة ، أو زرقة ، أو أن يخالط بياضها كدرة ، أو شيرة . (وقوله من باب تمب) .

يصف شهلة عيون الحسنات الفائحات عند الموت ، فالحسن ، والسحر ، والفتنة ، والجمال - يجعله الموت شهلاً وتقبساً مروعاً مخزناً ، يدعو إلى العظة والاعتبار ، ويكشف البصير الباعث لخيرف الدنيا وباطلها ، ونداعها ، وتغريدها بالمغرورين بها الذين يؤثرونها على الآخرين .

(٧) « سوف » : حرف مبنى على الفتح ، يخصص المضارع للاستقبال ، وأكثر استعماله في الوعيد والتوبيخ ، كما في هذا البيت . وكما في قول الله تبارك وتعالى : « كلا ، سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون » . الآية رقم ٣ والآية رقم ٤ من سورة التكاثر . والباغي : الظالم ، والممتدئ . والورى : الخلق ، والناس . و « في الورى » : متعلق بـ « باغ » . والباغي في الورى : الظالم للناس ، والممتدئ عليهم . واخرى : اللذ ، والهلوان ، والشر ، والبلاء ، والفضيحة ، والمار . والبهل : العن : مصدر بهله الله (من باب صنع) : أي لعنه ، وطرده من رحمته ، وأبعد عن الخير . وصلة هذا البيت بالآيات السابقة : أن الباغي مغرور بالدنيا ، خافل عن الآخرة .

يتعمد الباغي الظالم للناس ، الممتدئ عليهم بشر المواقب ، وألطف العقوبات ، فهو ملمون منبذ ، مبعد عن الخير ، مطرود من رحمة الله ، مستأهل غضب الله . وسوف يلقى أخرى ، واللذ ، والفضيحة ، والمار ، والبلاء ، والشقاء ، والشر والهلوان ، ولا ريب أن البغاة الظالمين من الذين غرّبهم الحياة الدنيا ، وغرم بالله الغرور .

(٨) غرور (بضم الدال) : خداع ، وباطل : مصدر غره : أي خدعه ، وشغله ، وطرد به ، وأطمعه بالباطل . أو هي « غرور » (بوزن صبور) : أي غرارة ، خداعه . ولم تدع : لم تترك . ولكهمل : من رخله الشيب ، وكانت سنة بين الثلاثين والخمسين ، وجمعه كهول . ومعنى الشطر الثاني : أن الدنيا غرت الأطفال والنشبان والكهول : أي الإنسان في جميع أطوار حياته ، والناس كلهم إلا من أدرته عصمة الله ورحمته . أو المعنى : أنها آتت عليهم جميعاً ، ولم تدع أحداً حياً بها ، ويتملها . يقول : ليست الدنيا إلا خدعاً وباطل ، وهى بمنزلة ما يهرجها تغتفر أكثر الناس ، وتغرم أطفالاً ،

كَمْ حَكِيمٌ ضَلَّ فِيهَا فَأَكْتَمَى بِالْعِلْمِ جَهْلًا^(٩)

وَضَبَاتًا وَكُهُولًا ، وشيئنا . قال تعالى في القرآن الحكيم : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، وَاعْبُدُوا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلَا مَوْلِيدٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ؛ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ؛ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَفْرُكَنَّكُمْ بِأَلْفِئَةِ الْفُرُورِ » . الآية رقم ٣٣ من سورة لقمان .

(٩) . « كم » : اسم ثنائي ، مبنى على السكون ؛ وهي هنا خبرية ، تفيد التكثير . والحكيم : العالم الفيلسوف ، وذو الحكمة : يعنى العلم الشامل ، والمعرفة الواسعة ، والتفكير العميق السديد ، وإحكام العمل والقول وإتقانها . وضل فيها : ضل في الدنيا . واكتسى : لبس الكسوة : أى الثياب . والمراد « استبدل » . وبالعلم : بدل العلم ؛ فالباء هنا : الجدل : أى المقابلة ، والتعويض ؛ وهي داخلية على المتروك .

والمنى : أن كثيراً من الفلاسفة والحكماء والعلماء تعمقوا في بحث أصل الدنيا ، وفي أمور الغيب الذى استأثر الله به ؛ وأرادوا أن يدركوا بمقوِّم ما وراء هذا العالم من خفايا ، وأسرار ، وغمائيات ، غير مهتدين بشرية الله ، ولا منصتين لكتاب الله ، فتفرقت بهم السبل ، وتقطعت بهم الأسباب ، وانتهى أمرهم إلى الخيرة والضلال ، وأصبح علمهم المزعوم جهلاً وغواية .

فتافية الميم

وَقَالَ فِي صِبَاهٍ :

بِقُوَّةِ الْعِلْمِ تَقْوَى شَوْكَةُ الْأُمَمِ . فَالْحَكْمُ فِي الدَّعْرِ مَنَسُوبٌ إِلَى الْقَلَمِ .^(١)
كَمْ بَيْنَ مَا تَلْفِظُ الْأَسْيَافُ مِنْ عَلَقٍ وَبَيْنَ مَا تَنْفُثُ الْأَقْلَامُ مِنْ حِكَمٍ .^(٢)

(١) يراد بقوة العلم : اتساعه ، وانتشاره ، وشموله ، وإثماره . والشوكه : القوق ، والبأس . والحكم : القضاء ، والفصل في الخصامات والمنازعات . والحكم : الولاية ، والإدارة ، والملك ، والسلطان . والقلم : أداة الكتابة . والكتب : أروية العلم والحكمة والثقافة والرفان . وبالقلم دوت : كتب الله المنزل التي دوت الناس سبل الهدى والرشاد ، وسادة الدين والدنيا والآخرة . ومن سور القرآن الكريم سورة القلم . وأروها : « ن » ، والقلم وما يسطرون . « أقسم الله تبارك وتعالى بالقلم ، وما يكتب به ، تعظيماً لشأنه ، وتنبهاً على فضله . وفي سورة الملق : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » . علم بالقلم : أي علم الإنسان الكتابة بالقلم . وهذا أول ما نزل من القرآن الكريم في رأي بعض العلماء .
والمنى : أن الأمم يشهد بأسها ، ويعظم سلطانها إذا انتشر فيها العلم ، وأمر . والسطر الثاني تذييل مؤكد لمنى السطر الأول : فالحكم يتسبب إلى القلم ، أي إلى الكتابة والقلم ، ويحصل بهما ، ويستند إليهما ، ويعتمد عليهما . وهما يقوى الملك ، وتنظم الحكومات والإدارات ، وتصلح المعاش ، وتستقيم أمور الدين والدنيا .

(٢) « كم » هنا : خبرية : بمعنى كثير : يشير بها الشاعر إلى كثرة الفوارق بين السيف والقلم . ولفظ الشيء من له ، ولفظ به (من بابي ضرب وجمع) : رأى به ، وطرحه ، وألقاه . و « من » : بيانية . و « علق » : بيان لما تلفظه الأسياف . والملق : الدم الغليظ ، أو الجاهد . ويراد به هنا : الدم مطلقاً . ويلاحظ أن الشاعر كرر كلمة « بين » في هذا البيت مرتين قبل « ما » . والذي نمره في الكثير من استمالاتها أنها تقرد إذا جاءت قبل اسمين مظهرين . ويكرر إذا جاءت قبل ضميرين ، أو قبل اسم ظاهر وضمير . فيقال : كم بين الملق الذي تلفظه الأسياف والحكم التي تنفثها الأقلام . ونفث الشيء من فيه (من بابي ضرب ونصر) : رأى به . ونفث الأقلام : تميز مجازي يراد به الكتابة . نفث القلم : كتب . ونفث الحكمة : سطرها ، وكتبها بالخير الذي ينفعه . و « من » : بيانية . و « حكم » : بيان لما تنفثه الأقلام : جميع حكمة : وهي الفلسفة . أو القول الوجيز الرائع الذي يتضمن حكماً صحيحاً مسلماً . أو الكلام الذي يوافق الحق ، ويقال لفظه ، ويجعل معناه . أو إصابة الحق بالعلم والعقل . أو معرفة الموجودات ، وفعل الخيرات . أو صواب الأمر ، وسداده . أو ما يطابق الحلم والمعدل من الأقوال

لَوَأْنَصَفَ النَّاسَ كَانَ الْفَضْلُ بَيْنَهُمْ بِقِطْرَةٍ مِنْ مِدَادٍ ، لَا يَسْفِكُ دَمٌ (٣)
فَاعْكُفْ عَلَى الْعِلْمِ ، تَبْلُغْ شَأْوَ مَنْزِلَةٍ فِي الْفَضْلِ مَخْفُوفَةٍ بِالْعِزِّ وَالْكَرَمِ (٤)

— والأعمال . أو ما يكون من الكلام ثمرة التفكير السديد العميق الشامل الواسع ، والتجربة المحكمة الصادقة المطردة .

يقول : شتان ما بين السيوف والأقلام ؛ فالسيوف تسيل الدماء ، وتمزق الأشلاء ، وتطعم الأشباح ، وترشق الأرواح . وبالأقلام تسطر الحكمة والموعظة الحسنة وفصل الخطاب . وبها تصح الأفهام ، وتنسج العقول ، وتزداد المعرفة ، وتستقيم الأخلاق ، وتصلح المعاش ، ويحيا الناس حياة طيبة كريمة .
نوه في هذا البيت والبيت السابق بفضل العلم والقلم . وعظم شأن الحكمة ، وبسببها من ثمار الأقلام .

(٣) يشير بقطرة المداد : أي الخبر إلى ما ينتهه القلم من الحكم البالغة ، وأخبار الماضين ، والعلوم النافعة في الدنيا والآخرة . وسلك العلم : سبغه ، وإراقة ، وتفجيده ، وصبه ، وإسالة .
والعنى : لو أثر الناس العدل والإنصاف ، واستقام تفكيرهم وسلوكهم لتفاضلوا بالعلم والحكمة والمعرفة النافعة ، وتنافسوا في الكرمات ، وخدمة الأمن والسلام العام ، لا في البطش والقتل . وإراقة الدماء ، وإزهاق الأرواح ، والتدمير والضييع ، والبلى والدون .

وبعبارة أخرى لو عدل الناس ، لاحتجروا حيازة الفضل بينهم بالعلم والحكمة والمعرفة النافعة ، لا بإراقة الدماء والبلى والدون ؛ فانفاضل منهم هو العالم المسالم ، الفقيه الحكيم ، لا المحارب السفاح المقتطع إلى سفك الدماء ، وإزهاق الأرواح .

وهذا البيت وثيق الصلة بالبيتين اللذين قبله ؛ فالآيات الثلاثة في التنويه بالقلم ، ورفع شأنه ، وتعظيم قدره ، وبيان أثره ، وتفضيله على السيوف ، وإظهار ما بينهما من فوارق هائلة ، ومسافات بعيدة ، وتباين واختلاف .

(٤) عكف على الشيء (من باب كعد ، وضرب) : أي أقبل عليه مواظباً ، ولازمه ، ولم ينصرف عنه . وأشأرو : الأعداء ، والفاغية ، ومنتهى الشيء ، ومذاهب . والمنزلة : المكانة ، والمزية . وجسمها منازل . والفضل (في الأصل) : الزيادة . وأكثر ما يستعمل في الزهادات الحميدة ؛ كفضل العلم والمعرفة ، والخير واليقار ، والبر والخير ، والخروة والإحسان . وفضل التسكينة ، وأجاء ، وقوة النفس والخلق ، وقوة العقل والإدراك . وقد يأتي مرادفاً للفضيلة ؛ فالفضل والفضيلة ؛ ضد النقص والذليلة . والفضل : كل عطية ، أو هبة ، أو موهبة يتبرع بها المرء من غير إلزام ، وبلا سؤال ، أو قبل السؤال . يقال : لفضل فلان فلا ن بما لا يجب عليه ، لا يريد حرجاً ، أو جزاء ، أو شكوراً . وصيغة : صفة لمنزلة . وبمعروفة بالعلم ؛ يقال بها العلم ؛ أي يحيط بها من كل وجه ، ويدور حولها ، ويعطيف بها . والعز : مصدر عز ، فهو عزيز . أي قوي ، وبريء من الذل . وعز علينا فلان : أي كرم علينا ، وعظم قدره علينا . وهذه المزة . وهذه الذل ، والضعف ، والهانة . والكرم (بمعناه العام) : جميع الفضائل ، والأخلاق ، والمكرمات .

فَلَيْسَ يَجْنِي ثَمَارَ الْفَوْزِ يَنْعَمَ مِنْ جَنَّةِ الْعِلْمِ إِلَّا صَادِقُ الْهِمَمِ (٥)
لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْمَسَاعِي مَا يَبِينُ بِهِ سَبَقُ الرِّجَالِ تَسَاوَى النَّاسِ فِي الْقِيَمِ (٦)

= يقول : إذا اعتكفت على العلم ، واحتفلت به ، وحصلته ، بلغت به أعلى مراتب الفضل ، وأبعد غاياته ، وكنت جديراً بالإعزاز والتكريم .

(٥) يانعة : حال من « ثمار » . وهي اسم فاعل من ينح الثمر : أي أدرك ، ونضج ، وطلب ، وحان قطافه . وجنة العلم : العلم الشبيه بالجنة ؛ فهو من إضافة المشبهة به إلى المشبهة . والجنة : البستان . والفردوس . والحديقة ذات النخيل والأشجار . سميت « جنة » لأنها تبتغى الأرض : أي تسترها بظلالها . والحجم : جمع الحصة ؛ وهي العزم القوي ، والإرادة القاطعة .

ما زال الشاعر ينثره بالعلم ، ويرغب فيه ، ويحث على طلبه ، والاجتهاد في تحصيله وتوسيعه . وهو هنا يشبهه بالبستان الناضر ، والحديقة ذات النخيل والأشجار . ويقول بأسلوب القصر ، أي التخصيص : إنما يفوز بأثماره العائمة الكثافجة ، ويحظى بجناه الحلواني من « صابحت » عزيمته ، وسمت « همته » وقوت إرادته ، وثابر عليه ، واقتحم العقبات التي قد تعرض له ، وصابر وصبر على متاعب الدراسة والبحث ، والتقصي والتحصيل .

(٦) المساعي : جمع المساعة ؛ وهي المكثمة . أو السعي في تحصيل الخير ، وأعمال الكرم . ولأن من أهل المساعي . وله مساعة جميلة ، أو حميدة ؛ إذا كان سعيه في الكرم والجود ، والأعمال الفاضلة الكريمة الممودة . وبين : يظهر ، ويوضح . وقيمة الشيء : قدره . وجمعها قيم (بوزن همة و همم) .

والمنى : أن يحيا الناس يساعون إلى الخيرات ، ويتسابقون في الكرمات ، ويتنافسون في مهادن المجد والملاذ والطولة والرفرف ؛ فتتفاوت درجاتهم بتفاوت همهم وكفايتهم ، وتتخلف أقدامهم باختلاف مساعيهم وقدراتهم ؛ ولولا هذا لتساووا في القيم ، أو المنازل ، أو المراتب ، أو الأقدار ؛ فلم يكن فيهم سابق . وسبق . ولا فاضل ومفضّل .

أو المنى : أن الناس يساعون في الحياة ، ويتنافسون ويتسابقون ؛ فلا تظهر أقدامهم إلا بمساعيهم الجسيمة الحسيدة ، وأعمالهم المحمّدة الكريمة . ولولاها لتساوى العامل والعاقل ، والكرم والقيم ، والخير والشرير ، والنافع والضرار . وبمناز أخرى أن مساعي الناس ، وقصديتهم ، وأعمالهم في الحياة تظهر لفضل الفاضل ، واجتهاد المجتهد ، وبطولة البطل ، وعبقريته العبقري ، وتميز السابق من المسبوق ، والعاقل من اللائق . ولولاها لتساوى النابه والعاقل ، والعامل والعاقل . وفي الريب من هذا الحق يقول الشاعر :

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجسد يفكر ، والإقدام فتعال

وصلة هذا البيت بما سبقه من الأبيات : أن طلب العلم ، والسعي إليه ، والاجتهاد في تحصيله وتوسيعه ، والصبر على الدروس والبحث ، والاستقراء والاستقصاء - من الخيرات التي يتسابق إليها الأشجار ، ومن وسائل المجد والشرف ، والملاذ والرفرة التي يتنافس فيها ذوو الحجم والعزم . ولا ريب أن العلماء والعلماء

وَكَلَّفَتْنِي مُهْلَةً فِي الدَّعْرِ، إِنَّ ذَهَبْتَ أَوْقَاتُهَا عَيْنًا، لَمْ يَخْلُ مِنْ نَدَمٍ (٧)
 لَوْلَا مَدَاوِلَةُ الْأَفْكَارِ مَا ظَهَرَتْ خَزَائِنُ الْأَرْضِ بَيْنَ السَّهْلِ وَالْعَلَمِ (٨)
 كَمْ أُمَّةٍ دَرَسَتْ أَشْبَاحُهَا، وَسَرَتْ أَرْوَاحُهَا بَيْنَنَا فِي عَالَمِ الْكَلِمِ (٩)

= والحكماء والمثقفين يتفاوتون في مراتب العلم والفقه ، ويبايزون في درجات الحكمة والمعرفة .

(٧) الثقي : الشاب الحدث أول شبابه بين المراهقة والرجولة . وتقول العرب : ثقي من صفته كبت وكبت ، من غير تمييز بين الشيخ والشاب . وهذا المعنى هو المراد هنا . والمهله (بضم فسكون) : التؤدة ، والرق : اسم من أمهله إلهالا . ومهلهته تمهيلة : أي أنظرته ، وأجسلته ، ولم أماجله . ويراد بالمهله هنا : زمن الفتاة والشباب ، وصحة الجسم ، وقوة الإدراك ؛ وهو زمن السعي والنشاط والعمل ، والإنتاج . وفي الدهر : أي في دهر الثقي : أي في عمره وزمن حياته . والعبث : اللعب والهوى ، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأعمال . وذهبت الأوقات عبثا : ضاعت في غير فائدة . وقاعل « يغفلو » : ضمير « الثقي » . ولم يغفل : المراد لم يسلم .

والمعنى : أن زمن الشباب هو الفرصة التي تتاح للمرء ، ثم لا تعود أبداً . وفيها يتمكن من بناء المجد ، وتحصيل المعارف ، وكسب المكرمات ، والنهوض بالمساعي الحميدة ، والعمل لنيلها وآثرها ؛ فإذا قضى زمن شبابه لأهملها عابثاً ، ندم في شيخوخته ، وتوسس ، وأسف حيث لا ينفعه ندمه بعد فوات الفرصة . (٨) مداولة الأفكار : إدارتها بين المفكرين ، وتبادلها ، وتقليبها . والأفكار : جميع فكر : وهو إحمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول . أو هو تردد الخاطر بالنظر والتأمل والتدبر لطلب المعاني . أو هو ما يحضر بالقلب من المعاني . وفي هذا الأمر فكر : أي نظر ، وروية وتدبير ؛ وهو اسم من تفكرت في الأمر : أي تأملته وتدبرته . ويراد بخزائن الأرض : كنوزها ، وبخائرها وبغيراتها الخفية ، وينافقها المستورة . وأحسبها خزائنة (بكسر الخاء) : وهي (في الأصل) : المكان ، أو الوعاء الذي يخزن فيه المال : أي يخسر ، ويصان ، ويحفظ . والسهل من الأرض : ما كان مبتدأ ، منبسطة ، مستوية السطح . وهو خلاف الحزن (بفتح فسكون) . والعلم (بفتح العين واللام) : الجبل .

والمعنى : أن مداولة الأفكار بين المفكرين والباحثين والعلماء تنتج العلوم والمعارف . وبها يكشف الإنسان ما خفي واستتر في سبيل الأرض وسرورها ، وأوديتها وبها لها من كنوز وذخائر ، ومنافع وبخيرات ؛ ولولا الاجتهاد في البحث والدرس ، ومداولة الأفكار ، والتقصي في المعرفة ، والتعمق في العلم - نظلت خزائن الأرض مغلقة ، وكنوزها مدفونة ، لا يتضح للناس بشئ منها .

(٩) « كم » : خبرية : بمعنى كثير : يشير بها الشاعر هنا إلى كثرة الأمم التي دوست أشباحها .. ودوست : فئت ، وزالت . من قديم : درس المنزل ونحوه (من باب قعد) : أي عفا ، وأضحى ، وغشيت آثاره . والأشباح : جميع شبح (بفتحتين) ، أو بفتح فسكون) : وهو ما بدا لك خصمه غير جلي من بعيد . وشبح الشيء : ظله وبخائه . ويراد بالأشباح هنا : أشخاص الناس وأجسادهم بعد الموت . يقال : =

فَانْظُرْ إِلَى الْهَرَمَيْنِ الْمَائِلَيْنِ تَجِدُ غَرَائِبًا لَا تَرَاهَا النَّفْسُ فِي الْحُطُمِ (١١)

= هم أشباح بلا أرواح . وموت : سوت : من السرى (بوزن الهندي) : وهو السير ليلاً . ويراد به هنا : الحركة والحياة . والعالم : الخلق . والكلم : الكلام . وأحدثه كلمة . ويراد بهما الكل : ما نقرؤه ، ونفوسه ، ونسمعه ، وزويه ، وتداوله من أخبار الأمم الخالية وسيرها ، وعلوها ، وفننها ، وأدائها ، وكتب القصاص والتاريخ .

ولمضى : أن كثيراً من الأمم وأجيال الناس وجماعاتهم قد طويع الموت ، وأكلت الأرض أجسادهم ، ولكن ذكرياتهم ما زالت حية خالدة بينما بما نرويه من سيرهم وتتحدث به من أخبارهم ، ونقرؤه ونفوسه من تاريخهم وعلوهم ، وفننهم وأدائهم ، وبما نراه بين أعياننا من آثارهم الباهرة العظيمة الخالدة .

وهذا البيت مهمته الشاعر للذكر المرمين وأبي الهول ، والتنبويه بالنظام الخالدين من قدام المصريين في عشرة الأبيات الآتية . ويلاحظ أن هذه القصيدة كلها في تعظيم شأن العلم ، والحض على طلبه وتحصيله والاجتهاد فيه . وتحييد العلماء والحكماء والأدباء الذين نفعلوا الناس بمعارفهم ، وعمرؤا بها الأرض ، وقلوباً صعبها ، ورفضوا بنين الحضارة . وقد عظمها الشاعر منوهاً بالفسيلة ، داعياً إليها ، حاشاً عليها ، مرغهاً فيها . (١٠) الهرم : بناء ضخيم ، من الحجارة الصلدة . قاعدته - في الغالب - مربعة . وله

أربعة جدران كل منها على شكل مثلث ، رأسه إلى أعلى . وترتفع هذه الجدران مائلة ، حتى تلتقي رؤوسها الأربعة ، فتكون رأساً واحداً ، هروقة الهرم . وبهارة أخرى : الهرم : جسم ضخم تحته مثلثات ، لها رأس عال مشترك ، ومضلع رأس على الأرض ، هو قواعد هذه المثلثات ، فالرأس المشترك : قمة الهرم . والمثلثات : وجوهه الجانبية . والمضلع : قاعدته . وجميع الهرم : أهرام . وهي طراز من الأبنية المخصصة لبنين فيها الموق من فراصة مصر ، وملكاتهما ، وعظماء رجالها ونسائها . وقد كثر هذا الطراز في أيام الدولتين المصريتين القديمة والوسطى . وظل مروجاً بمصر من سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد إلى منتصف القرن الرابع لميلاد المسيح عيسى عليه السلام . ويظن أن الأهرام تسمية عربية ، أشير بها إلى إغراقها في القدم . من هرم الرجل (من باب فرح) : أي بلغ أقصى الكبر .

وأعظم الأهرام وأضهرها : الهرمان الثمانان على مقربة من مدينة الجيزة في جنوبها الغربي . ويبدأان من عجائب الدنيا . شيد أكبرهما « خوفو » وشيد الثاني ابنه « خفرح » : وهما من ملوك الأسرة الرابعة (من سنة ٢٦٨٠ - ٢٥٦٠ ق م) وكان عصر هذه الأسرة من أزهى عصور الدولة المصرية القديمة . وكان ملوك مصر القدماء وعظماؤها فيما بين سنتي ٢٩٨٠ و ٢٤٧٥ ق م يبنون الأهرام ، لتكون مقابر لهم ، يدفنون فيها بعد موتهم ؛ ولهذا يسمى المؤرخون ذلك العصر « عصر بناء الأهرام » . والمثلثان : الثمانان الشاخصان المنتصبان : معنى المائل . و « غرائب » ممنوع من الصرف : أي التكوين . وإنما غرابة هنا لفروقة وزن الشعر . والحلم (بضمين) : أوبسح فسكون) : رؤيا التأم ؛ ولا ريب أنها مجال فسيح لما ينسجه الخيال والنقل الباطن من عجائب وغرائب .

يقول : إن المرمين العظيمين الثمانين على المنحبة الغربية تجاه الجيزة مما يعجز الألباب ، ويعجز العجب العجائب ؛ وإنما أقرب من غرائب حلم الحالم ، ورؤيا التأم .

صَرَحَانِ، مَا دَارَتْ الْأَفْلاكُ مِنْذُ جَرَتْ عَلَى نَظِيرِهِمَا فِي الشَّكْلِ وَالْعِظَمِ (١١)
تَضَمَّنَا حِكْمًا بَادَتْ مَصَادِرُهَا لَكِنَّهَا بَقِيَتْ نَقْشًا عَلَى رَصَمِ (١٢)
قَوْمٍ طَوْنُهُمْ يَدُّ الْأَيَّامِ، فَأَنْقَرَضُوا وَذِكْرُهُمْ لَمْ يَزَلْ حَيًّا عَلَى الْقِدَمِ (١٣)

(١١) « صرحان » : خبر مبتدأ محذوف . والتقدير : هما (أي الهرمان) صرحان : مثنى صرح : وهو البناء العالي ، الداهب في السماء . أو البيت بنى منفرداً ، ضخماً ، طويلاً : أي عالياً ، مرتفعاً ، ذاهباً في السماء . والأفلاك : جمع فلك (يفتححتين) : وهو الفضاء في السماء ، يدور فيه النجم أو الكوكب . ويراد بالأفلاك هنا : النجوم ، فالعرب قد تطلق الحُلَّ ، وتريد الحال به . وجرّت : دارت ، وتحرّكت . وعمل نظيرهما : أي عمل نظير الهرمين . ونظير الشيء : مثله ، ونسأويه . وعمل نظيرهما : متعلق بالفعل « دار » . والشكل : الهيئة والصورة .

والمنى : أن الدنيا لم تعرف لذين الهرمين النظميين مثيلاً ، أو شيئاً ، أو نظيراً في الهيئة والصورة ، والمطابقة والضمخامة .

(١٢) تضمنا : اشتملا ، وحرزا ، واحتويا . وألف الاثنين : ضمير الهرمين المشبهين بالصرحين في البيت السابق . والحكم : جميع حكمة : وهي العلم ، والتفقه ، والفلسفة ، والمثل . وبنقرة أفضل الأشياء بأفضل العلوم . وصواب الأمر ، وسداده . والكلام الذي يوافق الحق ، ويقول : لفظه ، ويعجل معناه . وعلم الحكمة : الكيمياء ، والطب . ويراد بالحكم هنا : كل ما سجلته بناء الأهرام من علومهم ومعارفهم وتجاربهم وأخبارهم وفنونهم وآدابهم . وبادت : هلكت ، وفنت . ومصادرها : مصادر الحكم . والمراد أرفلك الحكماء والعلماء والفلاسفة الذين ضمنوا الأهرام حكمهم وعلومهم وسيرهم وأخبارهم ، فخلطوها لمن يأتي بعدهم - بخلاف الأهرام ، ويقائنها على معنى الدهر . والمصادر (في الأصل) : جمع مصدر : اسم زمان ، أو اسم مكان ، أو مصدر ميمي من صدر الشيء عن غيره : أي نشأ . وصدر عن المكان ، وعن الماء : أي رجع عنه . وصدر إلى المكان : أي صار إليه ، أو انتهى إليه . و « لكنا » : لكن الحكم . والنقش : الأثر . أو هي تسجل بمعنى مفعول : أي بقيت منقوشة : أي مكتوبة بالحجر . والزعم : الصغور العظيمة ، هُزئتم (أي يوضع ، أو يُهضم) بهضمها فوق بعض في الأبنية . وأحديتها رتبة (يؤنّ قصبة وقصب) .

أشار الشاعر في هذا البيت إلى ما سجلته بناء الأهرام في داخلها من صور ورسوم ولقون وكفابات مخدرة في الصغور ، تحكي عنهم سيرهم ، وأخبارهم ، وعلومهم ، وحكمهم ، وفنونهم . ويقول : إن هذا كله باق دائم ما بقى الزمان . أما أصحابه فقد طواههم الردى ، وأبادهم الدهر منذ آلاف السنين . والبيت الآن يهز هذا المنى ويؤكده .

(١٣) « قوم » : خبر مبتدأ محذوف . والتقدير : هم قوم . أو هؤلاء قوم . والإشارة إلى قدماء المصريين ، وبناء الأهرام . وطونهم يد الأيام : أبادهم الدهر ، وأفانهم ؛ وهو تعبير مجازي ، كتقويم : -

فَكَمْ بِهَا صُورٌ كَادَتْ تُخَاطِبُنَا جَهْرًا بِغَيْرِ لِسَانٍ نَاطِقٍ وَقَمْ (١٤)
تَقُولُو لِي « هِرْمِس » آيَاتٍ تَدُلُّ عَلَى فَضْلِي عَمِيمٍ وَمَجْدِي بِأَذَى الْقَدَمِ (١٥)

« طوى الله صوره » . وطوى : طوى ، طوى فلان وهو منشور . : إذا بين له بعد موته ذكر حسن ، أو أثر جميل ، أو عمل خالده . والأصل : طوى الثوب وضوى (من باب روى) : أي ضم بعضه إلى بعض . أولف يمشه فوق بعض . وانقرضوا : هلكوا ، وبادوا ، ولم يبق منهم أحد . والذكر : الصيت ، والشرف ، والثناء ، والملاء . ويراد بحياة الذكر : خلوده ، وبقلوه في قوة وشجرة . و « حل القدم » : مع القدم ، أو حل الرزم من القدم ، وطوى الأمد ، وقول الأيام والسنين .

والمنى : أن قدماء المصريين ، وبخاصة بناة الأهرام ، قد هلكوا ، وبادوا ، ولم يبق منهم أحد ؛ ولكنهم خلّدوا لأنفسهم — بآثارهم الخالدة — الصيت والشرف والملاء وحسن الثناء ؛ وسبق لهم هذا كله حياً قوياً لاسماً مشرقاً ما بين الجنديان ؛ حل الرزم من طول الأمد ، وتقادم الزمان ، وتتابع الأيام والأيام .

(١٤) « كم » : خبرية : بمعنى كثير ؛ تشير إلى كثرة الصور التي لوّها بها الشاعر في هذا البيت . وصور : تميزها ، وهو مجرور . وبها : أي بالرزم والصخور التي سحرت عليها النقوش والرسوم والصور . ويلاحظ أن إبحار والمجرور « بها » فصل بين « كم » الخبرية وتمييزها المجرور ، وهذا جائز . وكاد يفعل كذا : هم ، وقارب ، ولم يفعل ، وهو فعل ناقص ، يدل على قرب الخبر . واسمه ضمير « الصور » . وخبره جملة « تخاطبنا » .

يشير إلى كثرة ما يرى في داخل الهرمين حل الرزم والصخور والجنود من صور غاية في الإقناع والوضوح ، تدل على مهارة واسمها ، وتعلق بتوهمهم ، وتشهد بفضل أصحابها ، وتؤكد بما كان لهم من عزٍّ ومجد ، وهأس وسلطان .

(١٥) « تقولوا » : تقرأ . والمراد : تدل دلالة واضحة ، وتظهر أتم إظهار . وفاعله : ضمير « صور » في البيت السابق . ويجوز أن يكون الفاعل ضميراً مستتراً تقديره « أنت » .

و « هرمس » (بالسين أو الزاي) : الاسم اليوناني للمعبود المصري القديم « توت » تصحيف « تحوت » وكان — فيما يزعمون — رسول السماء إلى الأرض ، يحمل إلى الناس العلم ، والحكمة ، والمعرفة ؛ ولعل الشاعر يشير به إلى بناة الأهرام ، وعلماء مصر الأقدمين وسكانها وفنانيها الذين لبثوا في المنفعة ، والعمارة ، والرسم ، والنقش ، والنحت والصور والتصنيف ، وكثير من العلوم ، والفنون ، والآداب ؛ كآله أطلق هذا المعبود ، وأراد عابديه الذين حملوا عنه العلم ، والفن ، والحكمة ، والبرهان .

وفي تعريف آخر لـ « هرمس » ، (أو لعله للتصنيف للتحريف السابق) : أنه — فيما يزعم الرواة الأقدمين — أول من بين الهياكل ، وتكلم في الأشياء العلوية ، وظهر في الطب والحكمة ، عاش قبل الطوفان وسكن صعيد مصر ؛ ولما خاف على العلم أن يضيع بين البراب ، وصوّره فيما ما صوّف له بعد من الصناعات ، وآلاتها ، وصناعاتها ، وأشار بالرسوم إلى مسائل العلوم ، حرصاً منه على تعليمها لقاس من بعده . وآيات : علامات ، وأمارات ، ودلائل ، الفريدة آية . والآية من القرآن الكريم : جملة ، أو جمل =

آيَاتٍ فُخِّرَ، تَجَلَّى نُورُهَا، فَقَلَّتْ مَذْكُورَةٌ بِلِسَانِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ. (١٦)
وَلَا حَ بَيْنَهُمَا «بَلْهَبٌ» مُتَّجِهاً لِلْمَشْرِقِ، يَلْحَظُ مَجْرَى النَّبْلِ مِنْ أَمِّهِ. (١٧)

= أَوَّلُ الْوُفِّ فِي نَهَايَتِهَا. أَوْ كَلَامٌ مِنْهُ مُفَصَّلٌ بِفَصْلِ لَفْظِيٍّ؟ فَسُورَةُ الْإِنْخِلَاصِ مِثْلًا «آيَاتُهَا أَرْبَعٌ» قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ. وَرَوَدَ بِالْآيَاتِ هُنَا : مَا تُشِيرُ إِلَيْهِ الصُّورُ وَالرُّسُومُ وَالنَّقُوشُ وَالْكِتَابَاتُ مِنْ قَبْلِ الْأَقْدَمِينَ، وَأَخْبَارِهِمْ، وَطُلُوعِهِمْ، وَخَبْرَاتِهِمْ، وَمَعَارِفِهِمْ. وَالْفَضْلُ (فِي الْأَصْلِ) : الزِّيَادَةُ. وَكَثُرَ اسْتِعْمَالُهُ فِي الزِّيَادَةِ الْمُحِبَّةِ كَفَضْلِ الْعِلْمِ، وَالْعَمَلِ، وَبِمَكْنِ الْإِشَارَةِ بِهِ هُنَا إِلَى الْعَبَقِيَّةِ وَالنَّبُوغِ، وَالتَّفَوُّقِ، وَالْإِحْكَامِ وَالْإِتْقَانِ، وَالْمَهَارَاتِ الْفَنِيَّةِ الْمَالِيَةِ الْذَائِقَةِ، وَقُوَّةِ الْمَدَارِكِ، وَفَرَازَةِ الْمَارِيفِ. وَصَمِيمٌ : عَامٌّ، شَامِلٌ، أَوْ كَثِيرٌ مُجْتَمِعٌ، أَوْ تَامٌ وَافِرٌ. وَالْجَدُّ : الْعَزْ، وَالشَّرَفُ، وَالنَّبَلُ، وَالرَّافِضَةُ، وَالْمَكَارِمُ الْمَأْتُوَّةُ مِنَ الْآبَاءِ. وَبِإِذْنِ : عَالٍ، مَرْتَقٍ، عَظِيمِ الشَّانِ. وَبِحَدِّ بِإِذْنِ الْقَدَسِ : مَجْدٌ عَظِيمٌ مَرْتَقٍ شَامِخٌ، وَهُوَ تَعْمِيرٌ مُجَازِيٌّ، كَقَوْلِهِمْ : فَلَنْ عَالِ الْكُتُبِ : الرَّجُلُ الشَّرِيفُ لِلْمَاجِدِ الْعَظِيمِ. وَأَوَّلُ اللَّهِ كَمِيَّةً : أَيْ شَرَفَهُ، وَرَفَعَ قَدْرَهُ.

وَالْمَعْنَى : أَنَّ الْأَهْرَامَ، وَمِمَّا لَهَا مِنْ تَقَرُّشٍ وَصُورٍ تَدُلُّ عَلَى مَا كَانَ لِأَصْحَابِهَا مِنْ فَضْلٍ تَامٍّ شَامِلٍ، وَشَرَفٍ وَرَفِيعٍ بِإِذْنِهَا، وَلَا غُرُوبٍ، فَلِذَاذَا آثَارُ خَالِدَةٍ تُشْهِدُ لِلْمُلْكِ ذَلِكَ الزَّمَانِ بِشِدَّةِ الْبَاسِ، وَعَظَمِ السُّلْطَانِ، وَتَكْوِينِهِمْ بِالْمَقْدَرَةِ الْمَالِيَةِ، وَحَسَنِ السِّيَاسَةِ وَالْإِدَارَةِ، وَطَنَسَةِ الْعِمَارَةِ، وَفُنُونِ النُّقُوشِ وَالزُّرْمِ، وَالنَّحْتِ وَالصُّبُورِ بِالتَّحْقِيقِ وَالْإِقْدَامِ، وَالشَّعْبِ بِالْمَدِينَةِ، وَالْخَفَاضَةِ، وَالرَّفَاعَةِ، وَالرَّغَاءِ، وَكَثْرَةِ حِلْمِهِمْ وَخَبْرَاتِهِمْ، وَطَنَسَاتِهِ، وَمِهَارَةِ عَمَالِهِ وَصَنَاعِهِ وَمِهْنَتِهِ.

(١٦) «آيَاتٌ» بِالْجَمْعِ : يَدُلُّ مِنْ «آيَاتٍ» فِي الْبَيْتِ السَّابِقِ. أَوْ هِيَ بِالرَّفْعِ : شِعْرٌ لِمُجْتَمِعٍ مُعْلُوفٍ، وَالتَّقْدِيرُ : هِيَ آيَاتُهَا لُفْظٌ، أَوْ آيَاتُهُمْ آيَاتُ فُخْرِ. وَتَجَلَّى : ظَهَرَ، وَبَانَ، وَاتَّضَحَ، وَسَطَعَ. وَفُتَتْ : صَارَتْ. وَالْمُشْرَبُ : السُّرْبُ. وَالْمَسْجَمُ : خِلَافُ الْعَرَبِ، الْوَاحِدُ عَجَمِيٌّ. وَالْمَعْنَى : أَنَّ الْأَهْرَامَ مِنْ مَخَافِرِ أَصْحَابِهَا، وَأَعْجَادِ بَنَاتِهَا. وَقَدْ ظَهَرَتْ، وَلِمَتْ، وَاشْتَهَرَتْ فِي بُلُوغِ التَّأَرُّخِ، وَفِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَهَجَتْ بِتَسْمِيحِهَا وَالْإِحْصَابِ بِهَا جَمِيعَ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، بِكُلِّ الْأَلْسِنَةِ وَاللُّغَاتِ، وَالْخَنَسِيَّاتِ وَاللَّهْجَاتِ.

(١٧) لَاحَ : يَدَا، وَظَهَرُ، وَبَرَزَ، وَاتَّضَحَ. وَبَيْنَهُمَا : بَيْنَ الْهَرَمَيْنِ. وَ«بَلْهَبٌ» : أَبُو الْهَوَلِ. وَبِسْمِهِ الْإِغْرِيْقُ «سَفَنَكْسُ». وَفِي أَيَّامِ الْأَسْرَةِ الثَّامِنَةِ عَشْرَةَ أَشْتَدَّ إِقْبَالُ النَّاسِ عَلَيْهِ، وَقَدَسَتْهُ الْكُتُبَانِيَّةُ الْوُاقِفُونَ عَلَى مَعْرِفَةِ عَهْدِ دَوْلَةِ الْفَرَاعَةِ الْحَدِيثَةِ، وَأَقَامُوا فِي جَوَارِهِ، وَتَمَسَّوْا الْمَكَانَ كُلَّهُ مِنْ حَوْلِ هَذَا النِّصَمِ «بِوَحُولِ». ثُمَّ صَحَّفَتْ : فُصِّرَتْ. «أَبُو الْهَوَلِ» : وَهُوَ تَمَالٌ عَظِيمٌ ضَخْمٌ هَائِلٌ، لَهُ رَأْسُ إِنْسَانٍ، وَجَسَمٌ أَسَدٌ، وَدُبٌّ لَعْلَلٌ وَالْقُوَّةُ مِمَّا. وَقَدْ نَحَتْ مِنْ حَصْرَةِ وَاسِعَةٍ شَخْصَةً مِنَ الْحَبِيرِ الْجَبْرِ. طُولُهُ : ثَلَاثَةُ وَسَبْعِينَ مِثْرًا وَنِصْفَ مِثْرٍ. وَارْتِفَاعُهُ عَشْرُونَ مِثْرًا. وَيُظَنُّ أَنَّهُ أُنْشِئَ فِي عَهْدِ الْمَلِكِ «شَعْرُف» مِنْ مُلُوكِ الْأَسْرَةِ الرَّابِعَةِ فِي الدَّوْلَةِ الْمِصْرِيَّةِ الْقَدِيمَةِ، قَبْلَ مِيلَادِ الْمَسِيحِ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِنَحْوِ أَلْفَيْنِ وَثَمَانِمِائَةِ عَامٍ. وَبَعْدَ «أَبُو الْهَوَلِ» «عَبِيدَةُ» مِنْ أَرْبُوعِ الْمَجَانِبِ الَّتِي خَلَّهَا الْإِنْسَانُ أَلْفَانِ. وَهُوَ يَرْمِزُ إِلَى هَيْبَةِ قُرُوفِهِ =

كَانَهُ رَابِضٌ لِلْوُثْبِ، مُنْتَظِرٌ فَرِيَسَةً؛ فَهَوَّ يَرَعَاهَا، وَلَمْ يَنْمِ (١٨)

«وجلاله ؛ فبهيته في بلد الأسد ، وجلاله في سلطان العقول ، يشير إليه ذلك الرأس الآدي الجور . وقد اجتمعت في ذلك الأثر البديع الفريد أمثال روايت القدم ، والقبجامة ، والإقنان ، والخلد ، وجمال الفن . ويلسط : ينظر ، ويرى ، ويراقب . لحظه ، ولفظه إليه (من باب قطع) : نظر إليه بمؤخر عينه من أحد جانبيه . ويجرى النيل : جريانه . أو مكان جريانه . ومن أسم : من كُتِبَ : أي من قرب . يقول : وترى بين الحرمين الكبيرين أبا الهول ظاهراً بارزاً ، يقبل بوجهه على مشرق الشمس ، وينظر من كتب إلى نهر النيل العظيم .

ولأمر الشعراء « أحمد شوقي » قصيدة طويلة رائعة رائعة ، عنوانها « أبو الهول » ، وحدثها سبعة وسبعون بيتاً . منها :

أبا الهول ، طالع عليك الحُصُرُ	وبلغت في الأرض أقصى الحُصُرُ
فيالدة الدهر ، لا الدهر شب	ولأنت جلوزت حد الصغر
إلام ركوبك متن الرمال	فطى الأصيل ، وجوب السمر ؟
تسافر متقللاً في القرن	فأياك تلقى غبار السفر ؟
أبيك عهد وبين الجبال	تزولان في الموعد المنتظر ؟

ومنها :

أبا الهول ، ماأنت في المضلات ؟	لقد ضللت السبل فيك الفُكْر
تحيرت اليد ، ماذا تكون ؟	وضللت بوادي الظنون الحُفر
فكنت لعم صورة المتفولان	وكنت مثلك الحجا والبصر
وسرك في حجبهِ ، كلُّنا	أطلعت عليه الظنون استر
وباراهم غير رأس الزجاجة	على هيكل - من ذوات الظفر

(١٨) كانه : كأن « بلهيب » : أي أبا الهول . ورايض : مقيم . والمراد إقامة تربص ، وتأهب واستعداد . اسم فاعل من ريفت الدابة : أي طوت قوائمها ، واصطقت بالأرض ، وأقامت . والوثب : مصدر وثب (كرهط) : أي نهض ، وقام ، وطف ، وقفز ، وهجم . والفريسة : مايفرسه السبع من الحيوان : أي يصيده ، ويقتله . وجسمها فرائس . ويرعاه : يراقبها ، ويترصص بها . في البيت السابق قال : وإنك ترى أبا الهول بين الحرمين الكبيرين ظاهراً بارزاً ، هائلاً مهيباً ، متجلبجاً في عظمته وجلاله ، يتجلب بوجهه على الشمس في مشرقها ، وينظر من كتب إلى نهر النيل العظيم فطرات فيها معنى الملاحظة والمراقبة ، والمراعاة ، والارتياح لجريانه بالخير . والنصب في هذا الوادي السعيد . وفي هذا البيت عرض صورة أخرى من صور الخيال الشعري ؛ فأبو الهول مقيم في مكانه إقامة تربص وانتظار ، وتأهب ، واستعداد للوثوب ، والصيد ، والافتراس ؛ وهو لايفتا يراقب فريسته ، ويترصص بها ، ويتحصن الفرصة في يقظة تامة دائمة ، وانتباه قوى شديد ؛ لايتكاد يقاومه النوم ، أو تساوره النفلة .

رَمَزُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعُلُومَ إِذَا عَمَتْ بِحِصْرِ نَزَتْ مِنْ وَهْدَةِ الْعَدَمِ (١٩)
فَاسْتَبَقُوا يَابَنَى الْأَوْطَانِ ، وَانْتَصَبُوا لِلْعِلْمِ ، فَهُوَ مَدَارُ الْعَدَلِ فِي الْأُمَمِ (٢٠)
وَلَا تَطْنُو نَمَاءَ الْمَالِ ، وَانْتَصِبُوا فَالْعِلْمُ أَفْضَلُ مَا يَحْوِيهِ ذُو نَسَمِ (٢١)

(١٩) رمز : خبر لمبتدأ محذوف . والتقدير : هو (أبو الهول) رمز . وإبريز : يفتح فسكون ، أويضم فسكون ، أويفتحون ؛ الإيماء والإشارة . ونزت* (من باب عدا) : وثبت* . والمراد تخلّصت* ، ونجست* ، ونهضت* . والوهدة : الأرض المنخفضة ، والهوة في الأرض : أي الحفرة البعيدة القمر . والمعدم : ضد الوجود . والمعدم : الفقر . وهي في الأصل المخطوط « القَدَم »

والمنى : أن تتناول أي الهول شائد صدق ، ودليل واضح على نهضة مصر وعظمتها في زمانه ، وإزدهار العلوم والفنون والصناعات ، وشيوع الفن والثراء والرياء ؛ ولأريب أن مصر تنجو ، وتحيا ، وتنبض ، وتقوى ، وتستعيد مجدها القديم ، ومزّها الثالث إذا علوت* الاهتمام بالعلوم ، ولشربها ، ولعميمها ، وحسن الالتفات بها .

(٢٠) يراد بالأوطان : مصر : جميع وطن ؛ والجميع باعتبار أن كل جزء ، أو كل بلد من بلدان مصر وطن لأهلها وبنيها وسكانه . وينو الأوطان : المصريين . وقد يكون النداء للمصريين وغيرهم من بني الأوطان المختلفة ، وأهلها الفاطنين من العلم ، المتباشرين به ، المقصّرين فيه . وانتصبوا العلم : تهيّأوا له ، وأنشروا بها . ومدار الأمر : ما يجري عليه غالباً . والملم مدار العدل : أي العدل يدور على العلم ، أي يقوم عليه ، ويستند إليه ، ويصاحبه .

في البيت السابق لونه بنهضة العلوم والمعارف ، وإزدهار الفنون والصناعات ، والتشاع والفن واليسر في عصر بناء الأهرام ، وصالحى أي الهول . ثم أشار إلى تفریط الخلف في عهد السلف ، وما أصاب العلوم والفنون من الجزر والضعف ، والإهمال والإخفاق . وحسن* على معادتها وإحيائها وأنشؤنها بها ؛ فهي وجدنا التي تنفذ مصر وأهلها من هوة الفقر والبؤس والتأخر والركود ، وتردّها إلى حياة النعمة والقوة ، والهدى والمظلة ، والرياء والثراء .

وفي هذا البيت أكد هذا التحفيز ، فدعا المصريين إلى اليقظة والانتباه ، ونهائم من الغفلة والاعتماد ، وحشّهم على الانتصاب العلم ، والحفاية به ، والاضطلاع بأبحاثه ، فبالعلم يكافحون الجهل والتخلف ، والبلى والغلام ، والمديون والظلمات ، ويخرون العدل والإنصاف ، والأمن والسلام .

(٢١) لا تظنوا نماء المال : أي لا تظنوا أن خير بناء المال . أو لا تستيقظوا نموّ المال ، ولا تكونوا بكثرته : يعني : لا تنصرفوا إلى تنميته ، وتقتصروا على حيازته ، وتبطلوا ما حاده . أو المنى : لا تحسبوا نماء المال وحده منشأً لحامه ومنميه ؛ فخذلوا المفعول الثاني ، اعتادوا على أنه مفهوم من سياق الكلام . وانتصب : ذكر نسبة : أي صدّ آياده وأقرباه من جهنم أيه وأمه . وانتصب إلى فلان : اعزى إليه ، واستسك بها أدعاه من نواصر القربى والنسب . والمنى على الأول : اذكروا العلماء الأجلاء من آياتكم في عصر =

قَرُبَ ذِي ثَرَوَةٍ بِالْجَهْلِ مُحْتَقِرٍ وَرُبَّ ذِي خَلَّةٍ بِالْعِلْمِ مُعْتَرَمٍ (٢٢)
شِيدُوا الْمَدَارِسَ، هَمَّى الْقُرُسُ إِنَّ بَسَقَتْ أَفْنَانَهُ أَثَحَرَتْ غَضًا مِنَ النِّعَمِ (٢٣)

= بناء الأهرام، وتشبهوا بهم، وحافظوا على تراثهم، واجتهدوا في إحياء مجدهم، لتكفروا أمثالهم. والمعنى على الثاني: انتسبوا للعلم، واجتهدوا في طلبه وتحصيله، ونشره وتعليمه، وحسن الانتفاع به، لتجدوا مجد آبائكم. ويحويه: مجمه، ويحصله، ويحوزه، ويحوزه. وفوالنسم: الإنسان. النسمة: الإنسان أو النفس. أو نفس الروح. وجميعها اسم (بوزن قصبة، وقصب). واقع بارئ النسم: أي خالق النفوس. والشر الثاني: تذييل جار مجرى المثل، وتعليل لما نهى عنه، ولما دعا إليه في الشر الأول، ولأدب أن العلم غير ما يحزره الإنسان.

نهى عن الاقتصاد على تنمية المال وتكثيره. وحض على الانصباب إلى العلم، والاجتهاد في تحصيله، والاقتصاد في هذا بالعلماء الأجلة من آباءنا الأماجد الذين شيدوا الأهرام، وعلموا الآثار. والبيت الآتي يوضح هذا المعنى، ويفصله، ويؤكده.

(٢٢) «رب» في شطري هذا البيت تلديد الكثير. والباء فيهما السببية: أي الجاهل محقر بسبب جهله ولو كان ثرياً، والعالم محترم بسبب علمه ولو كان فقيراً. والجار والمجرور في الشطرين متعلقان بما بعده. والخلعة (يفتح الحاء): الحاجة والفقر. وفوالخلعة: الفقير المحتاج. وفي البيت مقابلة: وهي أن يلقى جمعين أولاً، ثم يلقى بما يقابل ذلك على الترتيب، فلو الثروة المحقر بالجهل يقابله ذو الخلعة المحترم بالعلم. والمقابلة من المهنات الهندسية المنعوية التي توضع المعنى، وتحسن الكلام، وتوقع درجته في مراتب البلاغة والبيان. والمنهج الضموي الواضح يقتضى رفع كلمتي «محقر» و«محترم»؛ فكل منهما غير المبتدأ «ذو» و«مجرد» «رب» هنا في موضع المبتدأ: أي هو مبتدأ في المعنى، وإن كان مجرداً في الظاهر. ورفع هاتين الكلمتين بسبب البيت بالإقواء؛ وهو اختلاف حركة الروى؛ فروى هذه القصيدة الميم، وحركته في الأبيات كلها الكسرة، لالقصمة. والإقواء من عيوب القافية، وتغادي من هذا العيب تكلفنا جرماً، يجعل كل منهما صفة «ذو»، وتقدير خبر محذوف: أي قرب «ذو ثروة محقر بجهله لا تنفع ثروته: أي لا تنفع عنه احتقار الناس له، واستغفانهم به. ورب» ذو خلعة محترم بعلمه لا تضير غلته: أي لا تنقص شيئاً من احترام الناس له، وإجلالهم لشأنه.

يقول: إن الجاهل يدهو إلى احتقار الجاهل ولو كان ثرياً خنياً. والعلم يدهو إلى احترام العالم ولو كان فقيراً معدماً.

(٢٣) شيدوا: أُنشئ من شاد البناء (من باب باع): أي رفعه وأعلمه. والفريس: المرفوس من الشجر: فعل بمعنى مقبول. وإيراد بالفريس: تلايل المدارس وطلابها الذين يملكون في مراحل تملسهم بما يشبه أطوار مايفريس من الشجر. فإذا تخرجوا في مختلف العلوم والفنون والآداب — أُنشئوا على بلادهم ما لا يستطيع عداه من النعم والخيرات، والمفردات والمبرات. وبسقت: طالت، وتم ارتفاعها. =

مَعْنَى عُلُومٍ ، تَرَى الْأَبْنَاءَ عَاكِفَةً عَلَى الدُّرُوسِ بِهِ ، كَالطَّيْرِ فِي الْعَرَمِ (٢٤)
 مِنْ كُلِّ كَهْلٍ الْحِجَابِ فِي سِنَّ عَاشِرَةٍ . يَكَادُ مَنَظِقُهُ يَنْهَلُ بِالْحِكْمِ (٢٥)

= وأفئذنه : أفئذان الفرس : جمع فئذ (يوزن سبب وأساب) : وهو الفصن المستقيم من الشجرة . والفئذ : الطيرى ، الناصر ، الناعم من الثبات والتمر ونحوه . وثمار المدارس ونعمها النضة : هم خيار المتعلمين الذين تخرجوا في مختلف العلوم والفنون والآداب .

يخصر : حل تشديد المدارس وبمعاهد التعليم ، وفتح أبوها ، وإحكام إدارتها ، والاهتمام بها ، ورفع شأنها ، ويشبهها بما يفرس من الشجر ، لا يلبث أن يتأصل ، وينمو ، ويتفرع ، ويتسق أقصانه ، ويثمر أطيب الثمار .

(٢٤) للمنى : المنزل الذى ضى به أله : أى أقاموا فيه . وجمعه المغانى . وهو خير بفتح محلو . والتقدير : هى (أى المدارس) معنى علوم . ويراد بالأبناء : تلاميذ المدارس وطلبتها . وعاكفة : حال من الأبناء : أى تبصر الأبناء وهم عاكفون على دروسهم . . . : اسم فاعل من عكف على الشيء (من باب قد ، وضرب) : أى أقبل عليه مواظباً ، ولزمه ، ولم ينصرف عنه . وبه : بمعنى العلوم . والحرم : ما لا يحل انتهاكه ، وما يحصيه الرجل ، ويدافع عنه . والحرم : البيت الحرام ، أو المسجد الحرام بمكة المكرمة ، وما يتصل به ، ويحرم حرمة . والحرمات : مكة ، والمدينة ، والحرم الأقدس : المسجد الأقصى ، فى بيت المقدس ، بفلسطين .

يقول : إن المدارس : مغانى العلوم ، ودور المعارف ، ومعاهد البحوث والدراسات ، والثقافات ، وإن تلاميذها وطلبتها يمكنون فيها على الدرس ، والبحث ، والعمل ، والتجربة ، والتحصيل فى أمن وهدوء ، وطمأنينة والشراح لا يكدرو صفوهم مكدرو ، ولا يسيطهم عن غاياتهم عائق ، كأنهم طير المسجد الحرام بمكة ، أو فى كل حرم من الأحرام ، تلجأ إليه ، فتلقى فيه الأمن والطمأنينة وراحه البال .

(٢٥) « من » : بيانية . وما بعدها بيان للأبناء فى البيت السابق . والكهول : من وسطه الشيب : أى خالط بياض الشيب سواد شعره ، ورأيت له بحالة (يوزن سماحة) : أى رأيتته جديراً بالتبجيل ، أهلاً للاحترام والتعظيم . ومن الكهولة بين الثلاثين والخمسين ؟ وفيها ينضج العقل ، ويتم الرشد ، ويتسع الإدراك . والحجا : العقل ، والفطنة . وتلميذ كهل الحجا : ناضج العقل ، قوى التفكير ، تام الفطنة ، واسع الإدراك . وفى سن عشرة : مبالغة ، قصد بها تعظيم شأن التلميذ ، والخصر حل طلب العلم . وكاد يفعل كذا : هم ، وقارب ، ولم يفعل . وهو من أفعال المقاربات . والمنطق : الكلام . وبصدر نطق (من باب ضرب) : أى تكلم . وينهل : يجرى . مستمران أنهلان السماء بالطر : وهو انصبابه بشدة وقوة ، مع صوت . والحكم : جميع حكمة : وهى العلم . والفلسفة . والتفقه : وصواب الأمر ، وسداده . ومعرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم . وكل كلام يليق ، قل لفظة وجسك : مثناه ، وأزنان بالصدق ، وطابق الحق ، ودعا إلى الهدى والرشاد .

يقول : إن تلاميذ المدارس — على الرغم من حفاضة أسنانهم ، وصغر أعمارهم ، وقرب عهدهم بالحياة — =

كَانَهَا فَلَكْ لَاحَتْ بِهِ شُهْبٌ تُغْنِي بِرَوْنِقِهَا عَنْ أَنْتَمِ الظُّلَمِ (٢٧)
يَجْتَنُونَ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ زَهْرَةٌ عِيقَتْ يَنْفَحَةٌ تَبْعَتْ الْأَرْوَاحَ فِي الرُّمَمِ (٢٨)

يحتازلون برجسات العقل ، وقوة الإدراك ، وصحة التفكير ، وحسن التعبير ، وتام الفطنة ، وإتمام كلامهم بالساد ، ويجريان الحكمة على ألسنتهم . والفرض من المغالاة في هذا الإطرار : التنويه بالعلم ، والتأنيب فيه ، وتشويق الطلاب إليه ، وحضهم على تحصيله ، ولأريب أن ما يقرئونه ، ويدرسونه ، ويحفظونه كل يوم يضيف إل عقولهم حقولا " مكتسبة " ، ويكثر تجاربهم ، ويفتح أذهانهم ، ويطلق ألسنتهم بالحكمة ، وفصل الخطاب .

(٢٦) كأنها : كأن المدارس وبغاف العلوم . والشاعر يريد بها دور العلم في مراحل التعليم كلها ، وبأناسيه الآن بالمعاهد العليا ، والكليات النظرية والعملية على اختلاف متاهجها من آداب ، ورياضة ، وعلوم ، وفنون . والفلك : الفضاء في السماء ، بدور فيه النجم أو الكوكب ، وجمعه ألاك . ولاحت : بدت ، وظهرت . وبه : بالفلك . والشهب : الدراوى من الكواكب ، وأحداه شهاب (يوزن كتاب وكتب) : وهو النجم المضيء النير اللامع . ومن الهجاز : هوشهاب علم . وشهاب حرب : قاضى الماهر . وتغنى : تكفى . يريد أن ضياء العلم يبدد ظلمات الجهالة ، وأن الناس يستضيئون بالاستعانة بشهب العلم من النجوم والكواكب . والرووق : السلاية ، والحسن ، والإشراق ، والبهاء . وأنجم الظلم : النجوم التي تهد ظلمات الليل .

شبه دور العلم بالأفلاك ، وطلابها بالكواكب المضيئة . وقال : إنهم - برووق العلم وإشراقه ونوره وضياؤه - يدرون صد النجوم ، ويفنون عنها .

(٢٧) حتى الثمر يحته (من باب رى) : قطفه ، وألقتقطه ، وتناولوه من شجرة . وفاعل « يحى » : أو الجماعة ، وهو ضمير « الأبناء » أى تلاميذ المدارس وطلابها المشاهير إليهم فى البيت الرابع والعشرين . ويحق به الطيب ونحوه (من باب طرب) : لثق به ، وإزبه ، وظهرت فيه رائحته . وعيق المكان بالطيب : انتشرت رائحة الطيب فيه . ولا يكون العيق إلا الرائحة الطيبة الذكية العطرة . ونفع الطيب (من باب نفع) : قاح ، وتضوع ، وانتشرت رائحته . والنفحة : اسم مرة منه . وعيقت الزهرة بنفحة : انتشرت لها رائحة عطرية ذكية . والرم : جمع رمة (يوزن قمة وقم) : وهى العظام البالية وشظايا الرمم . وفى القرآن الكريم : « يحى النظام وهى ديم » الآية رقم ٧٨ من سورة يس .

يقول : إن هؤلاء التلاميذ والطلاب يقطعون من كل علم يدرسونه زهرة ذات رائحة عيقة ذكية عطرية ، ترد الحياة إلى المرق . والفرض المبالة في تمجيد العلم ، وتكريم شأنه ، وبيان فضله ، والإشادة بآثاره . ولأريب . أن ما يحى من عالم العلوم يحى الموات ، ويمم الأراض ، ويفجر ينابيع الخير والبر ، وينشر الرقابة والرخاء . ولأريب كذلك أن الجاهل ميت بجهله ، وأن العالم حى بعلومه . وفى القرآن الكريم : « قل : هل يستوى الذين يعلمون ، والذين لا يعلمون ؟ إنما يتذكر أولو الألباب » . (الآية رقم ٩ من سورة الزمر) .

ديوان البارودى - ثلاث

فَكَمَّ تَرَى بَيْنَهُمْ مِنْ شَاعِرٍ لَيْسَ
وَنَائِغٍ نَالَ مِنْ عِلْمِ الْحَقِّقِ بِهَا
(٢٨) أَوْ كَاتِبٍ قَطِنٌ ، أَوْ جَائِسٍ قَهْمٍ (٢٨)
مَزِيَّةَ أَلْبَسَتْهُ خِطَّةُ الْحَكَمِ (٢٧)

(٢٨) «كم» : اسم ثنائي ، مبنى على السكون . وهي هنا خبرية بمعنى كثير . وتعبيرها «شاعر» . وهو مجرور بمن . وبينهم : بين الأبناء المالكين على الدروس : وهم تلاميذ المدارس ، وطلاب العلم . و«أوه» هنا : بمعنى «واو» المطفة : أي وإنك ترى بين طلبة المدارس وتخرجيها كثيرا من الشعراء ، والكاتبين ، والحاسبين ... ولنس : فصيح بليغ ، مطلق اللسان ، سافر البيان . ويراد بالكاتب : الأديب الناثق الذي يجيد الكتابة الفنية الإنسانية ، ويعرض للمأى والأفكار عرضا شائقا والفا ، مؤثرا بليدا . وقد يجري لنثر الأدي على منهج الشعر في التشثيل وقوة التأثير . وقطن (يكرم الطاء وضمها) : صفة من القطة ، أو القطاعة ، وهي الخلق والمهارة ، وجودة استعداد اللحن لإدراك ما يرد عليه . (وقطله كفرح ، وقصر ، وكرم) . وحاسب : اسم فاعل من حسب المال وقصو (من باب نصر) : أي عدّه وأحصاه . أو قومه وقدره . ونهم (بفتح فكسر) : سريع الفهم ، قوى الإدراك . صيغة مبالغة من التفهم .

عدّد ، ووصف بالكثرة بعض طوائف التاجين من طلاب المدارس والمعاهد وتخرجيها : فقهم الشعراء المفلتون ذوو السن وحسن البيان ؛ والكتاب الأدياء الناثرون ذوو القطة والخلق والمهارة . والتأنيدي في الحاسب : وطولم الرياضة للمروفيين بالذكاء ، وصفاء الذهن ، وبسرة الفهم ، وقوة الإدراك . وفي ثلاثة الأبيات الكنية إشادة بطوائف أخرى من خيار الطلاب ، ونهاية المتعلمين . والشاعر بهذا كله يلح في التفرس الأساسي من هذه القصيدة ، وهو التنويه بالعلم ، وتعميم شأنه ، وبسط أنواعه وفوائده ، والترغيب فيه ، والحض على طلبه وتحصيله . ولم يفت الشاعر أن يشير إلى الخلق في بعض هذه الأبيات ؛ فالعلم إذا فارق مكارم الأخلاق كان قرا أو بالا على الإنسانية .

(٢٩) الوار في أول البيت : عاطفة . ونائغ مطويف على «شاعر» في البيت السابق : اسم فاعل من نبع في العلم ، أو الفن ، أو الأدب ، أو الشعر ، أو الصناعة ، أو غيرها : أي برع ، وأجاد ، وظهر ، واشتهر (وباه نصر ، وقطع ، وضرب ، ودخل) . والحقوق : جمع حق ، مصدر حق الشيء : أي وجب ، وثبت . والحق : ضد الباطل . ويراد بعلم الحقوق : القوانين والأحكام والشرائع وللادوات التي تميز القاضى ، والمحاكى ، والمحقق ، والمحكم على إحقاق الحق ، وإقامة العدل بين الناس . وبها : بالمدلول . والمزية : التفضيلة التي يمتاز بها المرء من غيره ، كميزية العلم ، أو الفن ، أو الأدب ، أو الكرم ، أو الشجاعة ، أو الشرف ، أو نحو ذلك . والمزية في كل شيء : التمام ، وبمعمها مزايا (يوزن عطية وصفايا) . وأبست : ألبست النايغ . والخلمة : ماتمته غيرة من التياب . وجسمها خلع (بوزن سبعة وفتح) . والحكم (بفتح الحاء والكاف) : الحاكم . أو القاضى الذي يختار لفصل بين المتحاكين ، وإقضاء بين المتنازعين . وأبسته مزيتة خلمة الحكم : أي جعلته أهلا لأن يكون حكما بين الناس ، يحقق المنازعات ، ويفصل الخصومات . ولاريب أن التبرغ في علم الحقوق فضيلة تجعل النايغ القضاء =

وَلَجَّ هَتَلَمَةً تَجْرَى بِحِكْمَتِهِ جَلَاوِلُ الْمَاءِ فِي هَالٍ مِنَ الْأَكْمِ^(٣٠)
بَلْ، كَمْ خَطِيبٍ شَفَى نَفْسًا بِمَوْعِظَةٍ وَكَمْ طَبِيبٍ شَفَى جِسْمًا مِنَ السَّقَمِ^(٣١)

= والحكم ، والولاية ، والإمارة ، والإدارة ، والسلطان .

يقول : إن المدارس تخرج علماء الحقوق ، وأساقفة القانون ، وتؤهلهم للحكم والقضاء .

(٣٠) « ولج » : اللزوا عاطفة . ولج : معطوف على « شاعر » . والكلمات المتماثلة في هذا البيت والبيتين السابقين على الترتيب : فكم شاعر ، وكاتب ، وحاسب ، وخائف في الحقوق ، ولج هندسة . والهج : معظم الماء ، حيث لا يدرك قعره . ومنه مجر مجى : أى عظيم متموج . ويراد بلج الهندسة : العالم المستبحر العلوم والفنون الهندسية . والهندسة : العلم الرياضى الذى يبحث فى الخطوط ، الأبعاد ، والمساح ، والزوايا ، والكميات ، أو المقادير المادية ، من حيث خواصها ، وقياسها ، أو تقويمها ، وعلاقة بعضها ببعض . والهندسة النظرية : المبادئ والأصول العلمية المتعلقة بخواص المادة ، ومصادر القوى الطبيعية ، وطرق استخدامها ، لتحقيق أغراض مادية . والهندسة التطبيقية أو العملية : فن الإنفاذ من المبادئ والأصول العلمية فى بناء الأشياء ، وتنظيمها ، وتقويمها . والهندسة العملية أنواع ، لكل منها فرض معين : منها الهندسة الآلية : أى (الميكانيكية) . والهندسة الكهربائية . والهندسة الحربية . وهندسة المآدن . والهندسة الكيميائية . والهندسة المدنية ، كالهندسة المعمارية ، وهندسة الطرق والجسور . وهندسة سكك الحديد . والهندسة الصحية . والهندسة الزراعية . . . وهندس المهندس الفنون ، ويحارى المياه ، والأبنية ونحوها هندسة : أى قدرها ، ورسم أشكالها . والحكمة : العلم ، وصواب الأمر ، وسداده وإحكامه ، وإتقانه . والجداول : جميع جدول (بوزن ، جفر ، وغرور) : وهو النهر الصغير . و « جداول » فاعل « تجرى » . أو هو « يسجرى جداول » . ففاعل « يسجرى » ضمير « لج الهندسة » و « جداول » مفعوله . والحال من الرمال ونحوها : ما يتجلى فى نتائج : أى ينال ، وينهار ، ويسقط ، وينصب . بعضه فى إثربض . والأكم : جمع أكة (بوزن قصبة وقصب) : وهى التل . أو الموضع يرتفع عما حوله . و « من » : بيانية . والأكم بيان الحال . ولأريب أن إجره الفنون ، وشق جداول مياه الرى فى تلال الرمال المتدانية - والريال بطبيعتها متدانية ، سريعة الانهيار والانحطاط - يتطلب الحكمة ، ورعاية الدقة والخلق والمهارة والدربة والمرانة ، والإتقان والإبداع والإحكام ، ولا يستطيع مثل هذا إلا عالم بأدع حكم يابغ مستبحر الهندسة المغية .

فى البيتين السابقين نوه الشاعر بطلاب المدارس وشيوخها من الأدباء والشعراء ، والكتّاب ، والحاسبين الرياضيين ، وطعام الحقوق ، وأساقفة القانون . وفى هذا البيت تنويه بالمستبحرين فى علوم الهندسة وفنونها . وقد مثل بالهندسة المدنية ، أو بنوع منها .

(٣١) « بل » : حرف إضراب ، وتقيد هنا الانتقال من معنى إلى آخر . و « كم » فى شطرى البيت : اسم ثنائى ، معنى على السكون ، مهم ، مفتقر إلى التمييز . وهى هنا خبرية ، تدل على عدد كثير . وتمييزها هنا مفرد مجرور . وهو فى الشطر الأول « خطيب » . وفى الشطر الثانى « طبيب » . والمعنى : أن كثيراً من الأطباء شغلوا نفوس كثير من الناس بمواعظهم ، وكثيراً من الأطباء شغلوا بطهم كثيراً من =

مُؤَدَّبُونَ بِآدَابِ الْمُسْلُوكِ ، فَلَا تَلْقَى بِهِمْ غَيْرَ عَالِي الْقَدْرِ مُحْتَشِمٍ (٣١)
قَوْمٌ بِهِمْ تَصْلُحُ الدُّنْيَا إِذَا فَسَدَتْ وَيَفْرُقُ الْعَدْلُ بَيْنَ الذُّلْبِ وَالْغَنَمِ (٣٢)

الاجسام السقيمة . والموصفة : اسم من وسطه (كوسطه) : أى نصيح له ، وأمره بالطاعة ، ووسيله بها ، وذكره بالمواقب ، وحمله على التوبة إلى الله ، وإصلاح السيرة والسلوك . وتطلق الموصفة كذلك على ما يوصف به من قول أوفيل . وجمعهها مواظف . والسم : المرض (وقله من باب طرب) .

عظم الشاعر بهذا البيت تمداد من أراد التنويه بهم ، والإشارة إلى كثرتهم من طلاب المدارس وخريجها في أربعة أبيات . ولم يقصد إلى الحصر والاستقصاء ، وإنما أراد التمثيل ليمض طوائف الخريجين وجماعاتهم الذين يتفوقون البلاد والمواطنين ، ويحسون الإنسانية أجل الخدمات بما حصلوا في المدارس والمعاهد والجامعات من علوم ، وفنون ، ومعارف ، وآداب ، وثقافات ، وتجارب .

(٣٢) مؤدبون : خبر لمبتدأ محذوف . والتقدير هم مؤدبون : يريد من فوه بهم في ثمانية الأبيات السابقة : جمع مؤدب : اسم مفعول من التأديب : وهو التهديب والتربية ، ورياضة المؤدب على الظرف واللياسة ، وتحاشن الخلال ، ومكارم الأخلاق . والآدب : ملكة تصمم من كانت فيه مما يشين ، أو يقيح ، أو يستهجن ، وجمعه آداب . وإضافة الآداب إلى الملوك مبالغة محمودة في التنويه بطلاب المدارس وخريجها ، فأدب الملوك أرفع الآداب ، وأجلها ، وأسمىها ، وأشملها ، « فلا تلق بهم » : أى فلا تلق بلقائهم . أو فلا تلق فيهم ؟ فالباء ظرفية . أو فلا تلق منهم ؟ فالباء بمعنى « من » . « والقدر : الحرمة ، والوقار ، وجمعه أقدار . وقال القدر : مهيب ، وقور ، رفيع المقام ، عالي المنزلة والمكانة . ويحشم : اسم قاعل من احتشم الإنسان ، أى تحكك بفضيلة الحياء ، وانقبضت نفسه من كل قبيح ، أو شائن ، أو مستهجن ، وسلك في حياته مهلكاً معتدلاً محموداً . والاسم منه الحشمة : وهي الحياء والآداب . أو هي عتشم (بصيغة اسم المفعول) : بمعنى مهيب ، وقور ، يستحي منه ، ويغضى من مهابته . يقال : أنا احتشمك ، واحتشم منك : أي استحيي ، وأعجل ، وأتهيب .

في سبيل الحصر على طلب العلم ، فوه الشاعر في ثمانية الأبيات السابقة بطلاب المدارس وخريجها ، وأشد بكثير من فضائلهم وزيادهم . وفي هذا البيت عظم ما اجتماعاً غليظ من الأدب والاحتشام ، وما وصلوا إليه من علو القدر ، وسمو المكانة . ولما نوه بالعلم ورعّب فيه ، لم يفته - في هذا البيت ، وفي غيره من الأبيات - أن ينوه بالآدب ، ويرعّب فيه ، وفي مكارم الأخلاق ، فالعلم بلا أدب شر وويل ، وفساد وهلاك .

(٣٣) « قوم » : خبر لمبتدأ محذوف . والتقدير : هم قوم . والقوم : الجماعة من الناس تجمعهم جماعة يقومون لها ، ويحشون حولها ، ويراد بالقوم هنا : من أطرافهم الشاعر في هذا البيت ، وتسمه الأبيات السابقة و « بهم » متعلق بـ « تصلح » . والباء هنا : لسيبة : أى تصلح الدنيا يسبيهم . ويراد بالدنيا : ما يشاير الناس وأمورهم في الحياة الدنيا ، ويراد بالعدل : عدل هؤلاء القوم من المتمسكين بالدين الذين جمعوا بين المعارف الواسعة ، والعلوم النافعة ، والأخلاق الكريمة ، فهم في قضائهم وأحكامهم ولايتهم وإدارتهم يتصرفون العدل ، ويحققون الحق ، ويلتزمون الاستقامة والرشاد .

وَكَيْفَ يَثْبُتُ رُكْنُ الْعَدْلِ فِي بَلَدٍ لَمْ يَنْتَصِبْ بَيْنَهَا لِلْعِلْمِ مِنْ عِلْمٍ (٣٣)
مَا صَوَّرَ اللَّهُ لِلْبَذَانِ أَفْسَدَةً إِلَّا لِيَرْفَعَ أَهْلَ الْجِدِّ وَالْفَهْمِ (٣٤)

ويراد بالذنب والغفم : القوى والضعيف . أو المحتدى والمحتدى عليه . أو من يميلون بطبعهم إلى الشر والأذى والمعدوان ، ومن يساورهم الخوف من الشر والأذى والمعدوان ؛ فبذل هؤلاء القوم يردع القوى المحتدى ، ويطنش الضعيف الخائف ، ويجمع الناس على الأمن والسلام .

والمنى : إذا فسدت الدنيا أصلها هؤلاء المحتلمون المهذبون . وهم بملوكهم ومكارم أخلاقهم يقيمون بين الناس دعائم العدل ، ويرضون مناوره ، ويظفرون لهم الأمن والطأفينة ، والسلامة ورخاء البال . ويفصلون بين القوى والضعيف لمنع البغي ، وحسم الشر ، ودفع العدوان .

(٣٤) الاستفهام في أول هذا البيت : معناه الكنى ، أو الاستبعاد . ويراد بركن العدل : دعائمه وقواعده التي لا يقوم بغيرها ، ولا يحيا إلا بها . وينتصب : يقوم ، ويرتفع . و « بينا » : بين أجزاء البلد ونواحيها . (وأبلد يذكرو ويؤث) . و « من » زائدة بعد الكنى لتقوية الكلام ، وتوكيد معناه . كما في قول الله تبارك وتعالى : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » (الآية رقم ٣ من سورة الملك « تبارك ») . والعالم (بفتحين) العلامة ، والمثارة ، والأثر ، وما ينصب في الطريق لهداية السائر ، وهو فاعل « ينتصب » ، وجسمه أعلام . وانتصاب علم العلم في بلد : كناية عن حفاوة أهلها به ، وإقبالهم عليه ، وتخليصهم لشأنه ، واجتهادهم في طلبه وتحصيله .

جعل العدل قرين العلم و ملازمه ؛ ولهذا فن ، أو استبعد أن يقوم الأول بدون الآخر ؛ فإذا أهل العلم في بلد أهدت فيها أركان العدل ، وهم الظلم والفسم ، وشاعت الفوضى والمفاسد . ولا ريب أن الشاعر يريد العلم المقترن بالاستقامة ومكارم الأخلاق ؛ فإن العدل لا يحيا إلا بهما .

(٣٥) صورته الأفتدة : خلقها ، وأبدعها ، وجسدها . والأبدان : الأجساد والأجسام . واحدها بدن (بوزن جسد) . والأفتدة : القلوب . ويراد بها هنا : العقول ، والأفهام ، والأذهان ، والبصائر . واحدها قواد . وأجلد (يفتح الجيم) : مصدر جد في الأمر (من بابي ضرب ولصر) : أي اجتهد فيه . والاسم منه أجد (بكسر الجيم) . أو هو أجد (يفتح الجيم) : ضد المزل : مصدر جد في كلامه (من باب ضرب) . والاسم منه أجد (بكسر الجيم) . والفهم : الإدراك ، والعلم ، والمعرفة ، وحسن تصور المعنى ، وبجودة استمداد اللسان للاستنباط ، وجسمه أفهام ، وفهوم . (وقوله من باب فرح) . وتسكين الهاء في المصدر لغة . أو ساكن الهاء : اسم مصدر .

والمنى : أن امره إما يعطو قدره ، وتسمو مكانته عند أهله والناس بعلمه وعرفانه ، وجده واجتهاده ، ورجاحة عقله ، وصحة فهمه ، وحدة ذهنه ، وسعة إدراكه . وأن عقله الماقل ينهيه عن البث والهوى والمغرب والمزاج الفارغ ، وبالاخير فيه من الأقوال والأفعال ، ويأمره بالاستقامة ، والفضيلة ، والمألى من الشيم ، ومكارم الأخلاق . وأن الله تبارك وتعالى إنما خلق الأفتدة في أجساد الناس ، ليجذب بها شعرات الجسد وفزواته ، ويرفع شأن العقلاء الذين يقدرون هذه النسبة الكبرى حتى قدرها ، ويحسن الانتفاع بها ، ويستغلونها فيما يصلح الحياة ، ويسعد الإنسانية .

وَأَسْعَدُ النَّاسَ مَنْ أَقْصَى إِلَى أَمَدٍ فِي الْفَضْلِ وَامْتَنَزَ بِالْعَالِي مِنَ الشَّيْمِ (٣٦)
لَوْلَا الْفَضِيلَةُ لَمْ يَخْلُدْ لِلذِّيْ أَدَبٍ ذَكَرُ عَلَى الدَّهْرِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَدَمِ (٣٧)

— وصلة هذا البيت بموضوع هذه القصيدة بيّنة واضحة ؛ فبالافتدة ، أى بالمقول ، والأهنام والبصائر ، مع الجِد والاجتهاد والاستقامة — استطاع تحصيل العلم ، وتوسيعه ، وتعمم الانتفاع به .
والآيات الآتية تبرز هذا المعنى وتؤكد كنهه ، وتفصله .

(٣٦) أسعد : اسم تفضيل من السعد ، أو السعادة : وهى أن يوفق الله الإنسان للطاعة ، ويمحوه عن نيل الخير . وضد الشقاوة . وأقصى إلى كذا : بلغه ، ووصل إليه ، ووفاه . وأمد الشيء : غايته ، وأقصاه ، ومنتهاه ، وجسمه آماد . والفضل : الفضيلة ، والخير ، والبر . والإحسان ، أو الابتداء به بلاعة . وضد النقص ، والندقة ، والرديلة . والفضل (فى الأصل) : الزيادة . وأكثر استعماله فى الزيادة المحسوسة ، كفضل العلم ، والحلم ، والعقل ، والمروءة . والشيم : جمع شيمة (بوزن قيمة وقيم) : وهى الخلقة ، والخصلة ، والخلق ، والطبيعة ، والمادة .

يتفاضل السعداء فى مراتب السعادة . وأعظم السمادات للممتازين بمالٍ الخصال ، وبكوارم الأخلاق ، السابقين إلى غايات الفضل والبر ، والخير والإحسان ، الخالدين بفعلهم وآدابهم . والبيت الآتى يكرر هذا المعنى ويؤكد .

فى الآيات السابقة نجد الشاعر العلم ، وزود بمنافعه وآثاره ، وحسن على طلبه وتحصيله ، وتيسيره للناس بإنشاء دوره ومساعدته ، وفضله على المال ، كما فضل القلم على السيف ، وعظم العالم وإن كان فقيراً ، وأزرى بالجاهل وإن كان ثرياً . وأشاد بطوائف المتعلمين وجماعاتهم ، وأثمر فى إصلاح الحياة . وإقامة العدل ؛ فإن العدل قرين العلم ، ولا يحيا أحدهما إلا بحياة الآخر . ثم دعاه تمجيد العلم إلى تمجيد نعمة العقل والفهم ، والحث على الجِد والاجتهاد . ثم انتقل فى هذا البيت والبيت الآتى إلى تمجيد الفضيلة ، وتكريم شأنها ، والترغيب فيها ؛ ولاغرو ؛ فإن العلم لا قيمة له إلا بها . والسمادات كلها فى حيازة غاية الفضل ، والتجسس بالمالى من الشيم ، والتأدب بمكارم الأخلاق .

(٣٧) الفضيلة : أدب النفس . والدرجة الرفيعة فى الفضل ، وحسن الخلق . وضد النقيصة والرديلة ، وجسمها فضائل . ويخلد : يعوم ويبقى (وبابه دخل) . ويراد بلى الأدب : التفتت بالفضيلة والأدب : وهو رياضة النفس بالتعليم والتدبى على ما ينشئ ، والترفع عن كل ما لا يلىق ، ولا يحسن . والذكر : الصيت ، والفرف ، وحسن الثناء . وذكر الميت : بقاء اسمه جارياً على ألسنة الناس بحسن الثناء بعد موته . والدهر : الزمان الطويل ، والأمد الممتد ، ومة الحياة الدنيا كلها . ويخلد الذكر على الدهر : يقاتمه ما بقى الدهر . والعدم : ضد الوجود . وهو تأكيد لمعنى « للميت » .

يقول : إنما يخلد ذكر الفضلاء ، ويبقى لهم — بعد موتهم — الصيت ، والشرف ، وطيب الأحول . وحسن الثناء ، بما كانوا يتحلون به فى حياتهم من الآداب والخامد ، والفضائل والمكرمات .

فَلْيَنْظُرِ الْمَرْءُ فِيمَا قَدَّمَتْ يَدُهُ قَبْلَ الْمَعَادِ ؛ فَإِنَّ الْعَمَرَ لَمْ يَدُمْ (٣٨)

(٣٨) فطر الإنسان في الأمر : تدبره ، وتأمله ، وفكر فيه ، يقدره ، ويؤخره ، ويقبضه ، ويحبس حساباً . وهو فيما قدمت يده : في أعماله ، وسلوكه ، وتصرفاته ، ومعاملاته . ويراد باليد : النفس ؛ أي فلينظر المرء فيما قلته نفسه ؛ فإن اليد آلة الكسب ، وأداة العمل . وبها يكون أكثر الأعمال ؛ فكل عمل من أعمال الإنسان كأنه واقع بيده ، على سبيل التعليل . واليد - إلى هذا - قيد - في مثل هذا المقام - التحقيق والتأكيد ؛ أي فلينظر المرء فيما قلته هو نفسه . والشاعر ينظر هنا إلى كثير من آي الذكر الحكيم التي ذكرت فيها الأيدي بهذا المعنى . ومنها قوله الله تبارك وتعالى في سورة البقرة : « ولئن يمتنوه أبداً بما قدمت أيديهم » . (الآية رقم ٩٥) وقوله عز وجل في سورة آل عمران : « ذلك بما قدمت أيديكم ، وأن الله ليس بظلام للعبيد » (الآية رقم ١٨٢) . وقوله تبارك وتعالى في سورة الحج : « ذلك بما قدمت يداك ، وأن الله ليس بظلام للعبيد » (الآية رقم ١٠) . ويراد بالمعاد : المرجع والمصير إلى الله عز وجل في الدار الآخرة يوم القيامة ، وهو يوم الدين : أي يوم الحساب والحجز . وهو مصدر ميمي ، أو اسم زمان ، أو اسم مكان من عاد (من باب قال) : أي رجع إلى الشيء بعد الانصراف عنه .

والمعنى : أن عمر الإنسان في الدنيا قصير ، وأن الموت رقيب ويستعقبه ، وأن مرجعه ومصيره إلى الله عز وجل ، وأن حساباً جده عسير . « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه . ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك . كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » (الآية رقم ١٣ والآية رقم ١٤ من سورة الإسراء) . والمقال الكفيس من أدام النظر والتدبر والتفكير في أعماله وأقواله وسيرته وسلوكه . وحاسب نفسه ، وأقام من عقله ودينه رقيباً عليها ، يسير بها في طريق الاستقامة والرشاد ، ويصمها من الغواية والفساد ، ويمدّ المدة ليوم المعاد « يوم يقوم الناس لرب العالمين » « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً . وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً » « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » « يوم لا ينفع الظالمين من ذنبهم . ولم ألمعت . ولم سوء الدار » « يوم لا ينفي مول عن مول شيئاً ، ولا هم ينصرون » « يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً . والأمر يومئذ لله » .

ولا ريب أن الشاعر في هذا البيت ينظر إلى قول الله تبارك وتعالى في سورة الحشر : « يأها الذين آمنوا ، اتقوا الله ، ولتنظر نفس ما قدمت لند . واتقوا الله ؛ إن الله خير بما تعملون » . (الآية رقم ١٨)

* * *

غتم الشاعر هذه القصيدة بهذه الحكمة البالغة ، والموصلة الحسنة ، المؤثرة المتأثرة بروح القرآن ولفظه ، ومعناه . ولا ريب أنها وثيقة الاتصال بما قبلها من الآيات ؛ فإن التفضيل ، والخير ، والمثل ، والهدى ، والعالم النافع : كل هذا يدعو الإنسان إلى تدبر أعماله ، ومحاسبة نفسه ؛ ليخرج من هذه الحياة القصيرة بما يرضاه الله المثل الكبير ، القوي العزيز ، السميع البصير ، المستقيم الجبار ، الذي =

وَقَالَ يَمْلِكُ إِسْمَاعِيلُ بَاشَا خَلِيوِ مِصْرَ *

= يعلم خاتمة الأجن وما تحق الصدور ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام .

* * *

عند أبيات هذه القصيدة في الأصل المخطوط الذي بين أيدينا ثمانية وثلاثون بيتاً : وفي مجلة المنار زيادة على هذا - ثلاثة الأبيات الآتية :

أني يفوز لنسا قدح بفاتحة ونحن في زاهر بالجهل ملتطم
لا تجملوا إلياس عذراً ، غرداعية إلى المذلة بعد المز والشعم
لو كان يعلم حتى أن غيبته منزلة الرأي لم يعتب على القسم

مجلة المنار بتاريخ ١٩٠٥/١/٧ - صفحة ٨٢٨ - الجزء ٢١ - المجلد ٧ .

* * *

● إسماعيل باشا (١٢٤٥/١٢١٢ - ١٨٣٠ - ١٨٩٥ م) بن إبراهيم باشا بن محمد علي باشا الكبير : خديو مصر . ولد في القاهرة . وولي مصر سنة ١٢٧٩ هـ (١٨٦٣ م) . وله آثار باقية في نواحي المدينة ، والمعمران ، والثقافة . وفي عهده تم حفر قناة السويس ، واقتضت باحتفال رسمي كبير سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ م) . وفي سنة ١٢٩٦ هـ (١٨٧٩ م) خلعته حكومة الآستانة عن ولاية مصر لإجابة لرغبة الحكومتين الإنجليزية والفرنسية لما اشتد سفيهه ، وإسرافه ، وأرتياكه ، وتدهورت مالية مصر ، وصامت أسوأها ، وتبرم بحكمه المصريين والأجانب ؛ ففضى ببقية حياته في أوروبا وتركيا إلى أن توفي في الآستانة ، ونقلت جسده إلى القاهرة ، ودفنت بمسجد الرفاعي بالقاهرة يوم ١٣ من مارس سنة ١٨٩٥

● الخديوية : منصب الخديو . و« خديو » : لقب حاكم مصر تحت سيادة العثمانيين ، والكلمة فارسية الأصل ، ومعناها : « سيد » . وخديو مصر : سيد مصر . أو عزيز مصر : وهي رتبة فوق الإمارة ، ودون الخلافة . وقيل : إن معناها في الأصل الفارسي أكبر من معنى كلمة « العزيز » العربية ، وأنها تكسو صاحبها - أكثر من غيرها - رداء عظمة وجلالة ، واستقلال في المركز والعمل . وقد ترددت في الأوامر والقوانين التي صدرت في عهده محمد علي باشا ، وعباس باشا الأول ، وسعيد باشا . وفي اليوم الثامن من ربيعة سنة ١٨٦٧ أنعم بها السلطان عبد العزيز العثماني على إسماعيل باشا بفرمان سلطاني . وبقيت من بعده لتفريق باشا ، ثم عباس حلمي الثاني باشا . ثم زالت بتقلص ظل الإمبراطورية العثمانية عن مصر في نهاية سنة ١٩١٤ . ويبدو أن هذا القبح الغصم لم يتجاوز حكمهم مصر ، وأن الخلفاء الأتراك العثمانيين لم يمنحوه غيرهم من ولا الإمارات العثمانية .

تهليل وبيان

أقام البارودي في الآستانة نحو ست سنوات (١٨٥٧ - ١٨٦٣) وهو بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين . ولما أرقى « إسماعيل » عرض مصر بعد وفاة عمه « سعيد » في الثامن عشر من يناير سنة ١٨٦٣ سافر إلى دار الخلافة ليرفع فروض الشكر والولاء إلى السلطان « عبد العزيز العثماني » ، فنظم البارودي هذه البيعة الطويلة في استقباله ، ومدمحه ، وتهنئته بالولاية . =

لِعِزَّةٍ هَذِي اللَّاهِيَاتِ النَّوَاعِمِ تَلِيلُ عَزِيزَاتِ النَّفُوسِ الْكَرَامِ^(١)
فَمَا كُنْتُ لَوْلَاهُنَّ تَهْتَاجُنِي الصَّبَا أَصِيلًا، وَيُشْجِيْنِي هَدِيرُ الْحَمَامِ^(٢)

= وفي القصيدة ما يدل دلالة ظنية على أن البارودي نظمها وهو في الرابعة والعشرين من عمره - وكان يوشك مقيمًا في الإسكندرية ، يعمل في وزارة الخارجية التركية - نظمها ليستقبل بها الخديو إسماعيل حينما زار الإسكندرية في فبراير سنة ١٨٦٣ ؛ فكانت من أسباب اتصاله به ، ودخوله في حاشيته ، وعودته معه إلى مصر ؛ ولكن بما يضمف هذه الدلالة ، ويضاضف الشك في زمان نظمها وبكانه : أن الشاعر لم يشر في هذه الأملوحة الطويلة إلى السلطان عبد العزيز العثماني خليفة المسلمين ، وصاحب الفضل على تأييده « الخديو إسماعيل » ، وهي إلى هذا - على طولها - لا تكاد تمت بصلة إلى الإسكندرية ، وهي بطبيعتها بيئة فائقة ساحرة بهيجة شاعرة .

وقد يقال : إن البارودي أنشأها وهو شاب فاشي يمالج الشعر على استحياء ، قبل أن يتقوى أمره وينبه شأنه ؛ فلم يظن لحق السلطان في مثل هذا المقام ، ولم ينتبه للبيئة . وربما نظمها في الإسكندرية ، ولكنه لم ينشرها إلا بعد عودته إلى مصر مع الخديو إسماعيل في حاشيته ، في فبراير سنة ١٨٦٣ .

* * *

(١) العزة : القوة والقدرة . واللاهيات : اللاهيات : جمع لاهية . والنوايم : الرافعات ، والمترقات المتناسبات : جمع ناعمة . وتلِيل : أو تفضع وتبين . أو تنفضع ، وتنقاد . والكرام : جمع كريمة ، صفة من كرم الشيء (كظم) : أي عز ، وكان نفيساً . أو هي صفة من الكرم : ضد اللزم . والكرام : نمت النفوس . وعزيزات النفوس الكرام : العزيزات الكرام من نفوس الماشقين . افتتح الشاعر هذه القصيدة الطويلة بالفتل ، وجعله مقدمة للمح . يقال : إن النفوس العزيزة الكريمة ، الحرة القوية ، الكبيرة المالية ، المترفة الأبهة - تُفْتَنُّ فتوناً ، وتُشْنُّ جنوناً هؤلاء الفانيات الجلييلات اللاتي يلهون ويمرحن في دعة ورفاعة ونعيم ؛ فلا يسماها إلا أن تلذ لتزين ، وتتطامن لدلائهن .

(٢) لولاهن : لولا هؤلاء اللاهيات النوايم ؛ أي لولا تملقهن ، وعشق لهن . وتهتاجني : تهيجني ، وتهيفني ، مضارع احتاج : أي ثار لمشقة أو ضرر . والمفهوم من المعجمات التي بين أيدينا أن هذا الفعل لازم غير متعد . « والصبا (وزان المعصا) : ريح ، مهجاء من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار . وهي مؤنثة . والأصيل : الوقت بين النصر والمغرب . أو هو الوقت حين تصفر الشمس لمغربها . وجمعه أصال وأصائل . ويشجيني : يحزني . أو يطربني . أو يهيج لوصفي وصباي وشوقي . والهدير : صوت الحمام . وشله الخليل .

والمنى : أنه عاشق صبا ، مشوق متحام ؛ ولهذا تهيجه ريح الصبا وقت الأصيل ، ويطربه سحر الحمام .

وهذا المعنى كثير في كلام الشعراء النازنين ؛ ولعل سبب احتياج الماشق بريح الصبا أنه يستعملها لعمل إلى مشوقته تحية ، وتقبل إليه سلامها ، ورياً أنفاسها ، وتذكراً باللطيف المنعم من روحها . وهي إلى =

وَلَا شَاقِنِي بَرَقٌ تَأَلَّقَ مَوْهِنًا كَزَنْدٍ تَوَالَى قَدَحُهُ كَفُّ ضَارِمٍ^(٣)
وَيَبْقُصُهُ رَبُّ الرَّدْفِ مَهْضُومَةُ الْحَشَا يُقِلُّ ضَحَاها جُنْحَ أَسْوَدَ قَاسِمٍ^(٤)

سعدنا كله الطيف الرياح في شب جزيرة العرب ، وأفسلها عنهم ، وأحبها إليهم . أما وقت الأصل فيه فتلطف بالرياح ، ويحتدل الجو ، ويرق التميم ، ويحمل مناظر الكون ، وتعلو ظواهر الطبيعة . وهو إلى هنا وقت المرح والبهو والطرب ، والفراغ من العمل . والحمام بسجحاته ، وفنائه ، وترديده صوته في حنجيرته - يهيج أشجان العاشق للولان ، ويضاعف وجدته وتوَلَّته ، ويؤجج لوعته وصباته .

وتريم العرب أن المذيل فرخ الحمام ، كان على عهد نوح عليه السلام ، ثم مات عطشاً ، أو ضيقة ، أو صاحبه جاح من الطير ؛ فام من حمامة إلا وهي تحن إليه ، وتبكي عليه .

(٣) شاقني : هاجني ، وأثار شوقي . (وبابه قال) . والبرق : الضوء يلعب في السماء على إثر انفجار كهربى في السحاب . وتألق : اثنى ، وطلع ، وأضاء . وموهناً : في منتصف الليل ، أو بعد ساعة منه . والزند : العيد الأمل الذي تقدر به النار . والزندة : العيد الأسفل الذي فيه للفرسة : أي الثقب . فإذا اجتمع قبل زندان . وتوالى : تتابع وتكرر . والقدرح : والافتتاح : معالجة لإبراء النار ، وإخراجها من الزند . قدح الزند (من باب قطع) : شر به بجمه ؛ ليخرج النار منه . وضارم : اسم فاعل من ضرمت النار (من باب طرب) : أي اقتدت ، واشتعلت ، والتهبت . والمفهوم من المجملات التي بين أيدينا أن « ضرم » فعل لازم غير متعدي . والشاعر يريد هنا : كف امرئ مضم : اسم فاعل من أضرمت النار لإضرامها ، أو ضرمها تقريظاً ؛ أي أوقدتها ، وأشعلتها . وقد يكون « ضارم » : اسم فاعل من « ضرم » في الأمر (كتحب) : بمعنى جد ، واجتهد ، وأسرع : أي كزند توالى قدحه كف امرئ جاد مسرع في قدح الزند ، وإبراء النار منه .

شبه البرق الخاطف المتقطع التألق في ظلمة الليل بشرر النار يتطاير من زند تقطعه كف مقتنع . ويلاحظ أن المشبه أقوى من المشبه به ، وأنه يبرزاته شميل قليل ، ضعيف هزيل . يقول : ولولا هياى هؤلاء الحسان اللاهيات النوام ما شاقني برق تألق في منتصف الليل .

وفي البيت إشارة إلى أن الشق يؤرقه ، ويحرمه لذة النوم ؛ فهو يقضى الليل كله ساهراً يرمى النجوم ؛ فإذا تلىق البرق هاجه ، وأثار لوامج شوقه . وربما كان من خيال الشاعر أن تألق البرق ولما أنه أثر من آثار تعلق الطبيعة هؤلاء الحسان ، وهيامها بمفاتيح . وسيصرح بهذا المعنى في بعض الأبيات الآتية . (٤) « الولو » في أول هذا البيت : ولو « رب » : أي ورب فتاة بيضاء ... عشقتها . و « رب » : حرف جر . ومعناها هنا : « التقليل » . ويلاحظ أن الشاعر تغزل في ثلاثة الأبيات الماضية باللاهيات النوام . ثم خص بقرته هذه الفتاة البيضاء ، في هذا البيت والأبيات التالية . والردف : مؤخر كل شيء .

وردف الإنسان وغيره : كعقله : أي عجزه . وروى من الماء (كرضي) : شرب ، وادوى ، وشبع . ومن الحجاز : ردف ريمان : أي مبتلى شفق ، ناضر ، كثير اللحم . وامرأة ريماء الردف : أي ردفها مثل . ومهضومة : خمسة ، ضامرة ، لطيفة ، دقيقة ، قليلة اللحم : شد « ريماء » . والحشا : البطن ، وما حواه من الأمعاء والمصارين . ويقل : يحمل ، ويرفع . وضماها : قامتها وجسمها الأبيض النضير =

مِنَ الْعَيْنِ، يَحْمِي خَدْرَهَا كُلَّ ضَيْغَمٍ بَعِيدٍ مَشَقُّ الْجَنْحِ، عَبْلُ الْمَعَامِصِ^(٥)
فَلَوْلَا هَوَاهَا مَا تَفَنَّتْ حَمَامَةٌ يَغْضُنِ، وَلَا انْهَلَتْ شُثُونُ الْقَمَائِمِ^(٦)

الجميل، المشرق لإشراق الفصاح : وهو ضوء الشمس . أو ارتفاع النهار ، وامتداده بعد أن تشرق الشمس ، أو وقت هذا الارتفاع والامتداد . أو هو جمع ضحوة . ويجمع الليل (يضم الجيم وكسرهما) : فلامه واختلاطه . أو طائفة منه . وفاسم : شديد السواد . ويجمع الليل الأسود القاسم : كناية عن شمر هذه الحبيبة .

يتنزل بفتاة يفساء ، بمثلثة الردف ، ريافة الكفل ، خيمية البطن ، لطيفة الكشح ، ضامرة الخشا، يشرق جسمها وجهها لإشراق الشمس، ويبتهج بهجتها . ويضعها فوق هذا كله شمر شديد السواد، كأنه جنح الليل اللبيم .

(٥) عين (من باب فرح) : عظم سواد عينه ، واتسمت في حسن وجهها ، فالمرأة حينها ، والجمع عين (بوزن يفساء ويبيض) . ويحصى خدرها : يمنة ، ويسونه ، ويدفع عنه ، ويحافظ عليه . والخدر (بكسر فسكون) : كل ما وازلك واسترك من بيت ونحوه . وسر بمد المرأة في ناحية البيت . وما يفرق لها من السكن . وفتاة مخدرة : أي محببة ، مصونة في خدرها . والفصيم : الأسد الواسع الشدق ، وجسمه ضيفام ، وضيفامة . ويراد بالفصيم هنا : الرجل الشجاع الجريء القوي المقدام ، الشديد البأس . والجفن : غطاء العين من أعلاها وأسفلها . ومشق الجفن : كناية عن العين : اسم مكان من شققت الشيء (من باب رد) فالشق : وبمعنى مشق الجفن : كناية عن سعة عينه ، وقوة بصره ، وتعام يقطعه وانتباهه . وعبل : ضخم ، غليظ ، قوي . والمعاصم : جمع معصم (بوزن منبر) : وهو موضع السوار من الساعد . ويراد به هنا : اليد ، أو الساعد .

يصف عينها بمنظر السواد ، والسمة ، والحسن . ويقول : إنها مخدرة محببة ، يصون حجابها ، ويحصى حماها ، ويقوم على حراستها رجال شجعان أولو بأس شديد ، ونظر حديد ، وسواعد قوية ؛ فليس إلى لقائها من سبيل .

(٦) الحوي : الحب والمثاق ، والفرام . وتفتت الحمامة : غت ، وطربت ، وترتمت ، وسجمت . وأنهل المطر : اشتد انصبابه مع صوت . وشثون العين : مجارى دموعها ، الواحد شثان . والقمام : جمع غمامة : وهي السحابة . وشثون القمام : المطر .

ادعى ، أو تخيل ، أن الطبيعة تمثّل هذه الحسنة التي يتنزل بها ، وأن الحمام إنما يتغنى بحبها ، وأن القمام لا يحل إلا هيأماً بها ، وشرقاً إليها . وفي البيت الآتي تكملة لهذا الادعاء ، أو التخيل . وفي البيت الثالث أن البرق المتألق في منتصف الليل شاقه ، وهاج صباهه .

وَلَا تَهَبُّ الْبَرْقُ السُّمُوعُ، وَلَا غَدَتْ تَحْنُ مَطَايَا نَا حَيْنِ الرُّوَائِمِ (٧)
أَمَّا ، وَهَلَالٍ فِي دُجْنَةٍ طُرُقٍ يَلُوحُ ، وَدُرٌّ فِي عَقِيقٍ مَبَاسِمِ (٨)

(٧) ألهب البرق السموع، واتقد، واشتعل اشتعال النار، وتدارك تألقه، أي تولى لمعانه وتتابع، فلم يكن بين اليرقتين فُرْجة. والسموع: اللامع، المضيء، المتألق، المتفلل، وغدت: صارت. وأوسارت: غلوة: أي أول النهار، من التفجر إلى طلوع الشمس. وحن حنيئاً (بوزن ون): طرب، وترنم، وحن عن طرب: أي عن حزن، أو توجع، أو فرح، أو أرقياح، أو اشتياق وتوقان فقس. وحنث الناقة: مدت صوتها شوقاً إلى ولدها. والمطايا: جمع مطية: وهي ما يمتطى: أي يركب من العواب كالإبل، والحيل. وتطلق المطية على الذكر والأنثى، فالعير مطية، والناقة مطية. والروائم: جمع رائمة: اسم فاعل من رمت الناقة، وكل أنثى ولدها (من باب سمع): أي أحبته، ولزيمته، وصطفيت عليه، وحشنت إليه، ولم تطلق صبراً على هراقه.

وهذا البيت تكلمه لما تخيله الشاعر، أو ادعاه في البيت السابق من هيام الطير، والطبيعة، والسحاب، والحيوان بهذه المشقة الحسنة، فالمطايا تحن إليها حنين الروائم، والبرق المتلمع المتتابع يشتمل اشتعالاً من حرق الرعد، وتباريع الصباية والفرام.

وقد يكون معنى هذا البيت والذي قبله: أن شدة تعلقه بهذه المحبوبة يفتح ذهنه وحواسه لطيريب الطير على الأغصان، وإنهلال المطر من السحاب، وتآلق البرق في السماء، وحنين المطايا والروائم؛ فإن هذا وأمثاله مما يثير أشجان الماشق السبب المستهام، ويهز مشاعره وعواطفه، ويجدد لونه وصباهته.

(٨) «أما»: حرف استفهام وتنبه؛ فهي بمنزلة: «ألا». ويكثر حملها القسم. و«الوؤ» حرف قسم ويجر. و«هلال»: مقسم به مجرور. وجواب القسم في البيت الآتي: «لقد أروع العين المثلث...». والهلال: غرة القمر إلى ليلتين من أول الشهر. أو إلى ثلاث. أو إلى سبع ليال. ويراد بالهلال هنا: القمر المثلث الكامل، التام النضياء. ويزاد به وجه المحبوبة المشرق البهيج الباهر. والنجمة (بضمين أو بكسرتين): الظلمة، والسواد. و«في دجنة» متعلق ب«يلوح». والطرقة: الناصية؛ وهي شمر مقدم الرأس إذا طال. أو ما تطرفه المرأة (أي تصفقه) من الشعر المولى على جبهتها. ويسمى القصة. ودجنة الطرقة: سواد شعر هذه المحبوبة. ويلوح: يبدو، ويظهر. وقاعله: ضمير «الهلال». والدر: القوقل، الراسدة درة. ويراد بالدر هنا: أسنان المتغزل بها، وثناياها البيضاء الحسان. والعقيق: غرز، أو حجر نفيس أحمر اللون، وأحدته عقيقة. وبباسم: جميع باسم (بوزن مجلس): وهو الثغر، وما يقع من الأسنان عند الإبتسام. ويراد بالمباسم هنا: الشفاه. وعقيق مباسم: مباسم كالعقيق؛ فهو من إضافة للشبه به إلى المشبه.

شبه وجه المحبوبة يشرق تحت شعرها الفاسم بالهدر يبدو في ظلمة الليل. وقال: إن شففتا في حمرة العقيق وقنوه، وثناياها في بياض القوقل وصفاته ونقائه. وأقسم بمحبها وثغرها حفاوة بها، وتغنيهما لشأتهما، وإظهاراً لحيامه بمحاسنها. وجواب هذا القسم في البيت الآتي.

لَقَدْ أَوْدَعَ الْبَيْتُ الْمُسْتَبِيحِي نُذُوبًا ، كَأَثَرِ الْوَقْمِ مِنْ كَفِّ وَاشِمٍ^(٩)
وَكَمْ لَيْلَةٍ سَاوَرْتُهَا نَابِغِيَّةً سَقَتْنِي بِمَا مَجَتْ شِفَاهُ الْأَرَاقِمِ^(١٠)

(٩) « لقد أودع ... » : جواب القسم في البيت السابق . وأودعت فلاناً الشيء : دفنته إليه ؛ ليكون وديعة عنده . وهذا الفعل يتعدى بنفسه إلى مفعولين . ويلاحظ أن الشاعر عداه بالباء إلى المفعول الأول « مهجة » ، حل تقييده معنى « تركه » أو « خلف » أو « أبى » أو « نجا » . والبيت : الفراق . والمشت : المفروق ، وهو تأكيد لمعنى البين : اسم فاعل من أشت المتصلين إشتاتاً ؛ أى فرقتهما ، وفصل بينهما . والمهجة : القلب . أو النفس ، والروح . والنلوب : آثار الجروح الباقية على الجلد . ومثله الأنداب . والأثر (بضم فسكون ، أو يفتح فسكون) : الأثر (بفتحين) . والأثر (بضم فسكون) : أثر الجرح ، يبق على الجلد بعد البرء . ووشم الواشم المستوشم وشماً (من باب وعد) : غرز يده ، أو غيرها بإبرة ، وذر على الجلد في مكان الفرز الثبور ، واسمه التيلج ، وهو دخان الشم ، وبموالة الفرز واللز يرسم الواشم في جسم الموشوم ما يريد من الخطوط ، والكتابات ، والصور ، والرسوم ، والنقوش بلون أخضر يبق في الجلد ، ولا يكاد ينمى . وكذلك الأنداب يبقها الفراق في مهجة اللاله المسهام المشتاق . وكأثر الوشم من كف واشم : أى كأثر الوشم رسمه يد الواشم في جلد المستوشم .

أقم محبياً الحبيبة وثقراً أن الفرقة جرحت قلبه تجريحاً لا تنسى آثاره ؛ فهو لا يفتأ يمانى ما يمانيه الجريح من الآلم جراحه .

(١٠) « كم » هنا : خبرية ؛ بمعنى كثير ؛ يشير بها إلى كثرة ليالى أرقه وهمه وفشاه بسبب الفراق المشار إليه في البيت السابق . وساورتها : قاسيت طولها ، وشداثتها ، ومتاعها ؛ من المساورة ؛ وهى الموائمة ، والمغالبة ، والمصارعة . ومن الهجاز : ساورته الحنوم والوساوس والهواجس ونحوها ؛ فالمساورة هنا تعبير مجازى يراد به : المكابدة ، والمضائاة ، والمماناة . ونابغة : صفة ليلية ، وممناعها طويلة ، قاسية ، مضنية ؛ وهى منسوبة إلى النابغة الليثاني المتوفى سنة ٦٠٤ م (السنة الثامنة عشرة قبل الهجرة) . وكنيته : « أبو أمامة » . واسم : « زياد بن معاوية الليثاني المضرى » : شاعر جاهل من أهل الحجاز ؛ لبغ في الشعر فجماده وهو كبير ، بعد أن امتنع عليه وهو صغير . واتصل بالنعمان بن المنذر ملك الحيرة ، ففرقه إليه ، ثم رضى به عنده ، فغضب عليه ، فهرب منه النابغة قبل أن يعطش به . ثم جعل يمتلئ إليه ، ويثبت برأته وإخلاصه بشعر بلوغ ؛ حتى استرد ثقته ورضاه . ومن اعتنارياته المشهورة : قوله في الألبم المهموم ، يفتقر عليه المصميج . وينبو جنبه عن الفراش ، ويطول ليله ، ويساوره ألم والنم والأرق والألم ؛

فبت ، كأن العائدات فرقت له هراساً ، به يجل فرائس ، ويقشِب
والبلاء في « بما » : بمعنى « من » فهى كقشيش : أى سقتى بما مجت . أو هى زائلة : أى سقتى
ما مجت . أو هو محمول على المعنى : أى أروقتى بما مجت . وفاعل « سقتى » . ضمير اليلة النابغة : =

كَانَ الثُّرَيَّا كَفُّ عِزَّاهُ طَقَلَتْ بِهِ رَعَشَةُ اللَّيْنِ بِأَدَى الْخَوَاتِمِ^(١١)
إِذَا اضْطَرَبَتْ تَحْتَ الظَّلَامِ تَخَالَهَا دُمُوعَ الْعَذَارَى فِي حِجَادِ الْمَاتِمِ^(١٢)

= أى سقنتى هذه الليلة مثل الذى تمجه شفاء الأرقم . أو الفاعل « شفاء » أى سقنتى شفاء الأرقم ما مجته فى هذه الليلة الثانية . والمعنى فى الحالين واحد ؛ فإنه يكفى « ما مجت شفاء الأرقم » عن أرقه وثقله وتوسمه . ومع الثراب ونحوه من فح : رعى به . (وبابه رد) . ويراد بالشفاء هنا : الأفواه . الواحدة شفة . والأرقم : أخشب الحيات : جمع الأرقم : وهو الثعبان فيه سواد وبياض . ومثله الأرقط . وحية رقطاء ، أو رقصاء . وما مجته شفاها : كناية عن سمها القاتل .

والمعنى : أنه عانى بسبب الحب ، وفترة الحبيب ليال كثيرة طويلة مضنية ، يؤرقه ألم ، ويقض الآلم مضجعه ، ويطلو كالملدوغ . وفى البيتين استطراد لوصف الثريا . وصلة هذا بالفرق : أن العاشق المستهام لا ينام ، بل يبيت أرقاً يرقب النجوم ويرعاهما .

(١١) الثريا : مجموعة كواكب فى عنق الثور (أحد أبراج السماء) : تصدير « ثرى » بمعنى : كثيرة المال ؛ فى هذه التسمية إشارة إلى كثرة نجوم الثريا ، مع صغر منظرها ، وفريق محلها . والكف الراحة بين الأصابع . أو الراحة مع الأصابع . وقد تطلق ، ويراد بها اليد . والعرب تقول : هذه كف واحدة ؛ فتأنيهاً هو الكثير التفصيح المشهور . وقد كثرتها قليل : والملاء من النساء : البكر . والجمع المدارى (يفتح الزاء وكسرهما) . وطفلة (يفتح فسكون) : رخصة ، ناعمة ، بضعة ، لينة ، رقيقة . وبه بالكف . ورعشة (يفتح : الزاء وكسرهما) : اسم مرة أو اسم هيئة من الرمش : وهو الارتعاش ، والارتعاد والارتجاف والاضطراب . ورعشة العين : رعشة سببها البين . وباد : ظاهر ، بين ، واضح . والحوام : جمع غام (يفتح : التاء وكسرهما) : وهو حلقة من الذهب ، أو الفضة ، أو غيرها ، ذات فسر ، تلبس فى الإصبع ، حلقة وزينة .

رأى الشاعر الثريا نجوماً كثيرة صغيرة متقاربة متلازمة لاسمة فى اضطراب واهتزاز قليل ، فشبها بكف فتاة عذراء ، بضعة ناعمة ، رخصة لينة ، ازدادت نجومها بارقة متلازمة ، واهتزت لوداع من تحب .

(١٢) فاعل « اضطربت » : ضمير « الثريا » فى البيت السابق . وتخالها : تظنها . وحديث المرأة حداداً : تركت الزيت ، ولبست السواد بعد وفاة زوجها . والحداد ثياب سود تلبسها الحزينات فى المآتم : جمع مأتم (بوزن مذهب) : وهو فى الأصل : مجتمع الناس ، ثم غلب استعماله فى مجتمعات الأحرار .

يقول : إذا نظرت إلى الثريا فى ليلة مظلمة ، ظننت نجوماً صغيرة المهتزة المتألقة دموع الأبطال يجله من سواد الثياب فى المآتم . وهذا من تشبيه التمثيل . ووجه التشبه فيه : هو الهيئة ، أو الصورة المألوفة من أجسام صغيرة كرية نقية لاسمة متألقة ، تضطرب وتهتز فى محيط من السواد . وفى البيتين الآتين يوصف الرعد ، والبرق .

وَبَرَقَ بِمَائِي أَرَقْتُ لَوَمِيسِهِ يَطِيرُ بِهَدَابٍ كَثِيرٍ الرَّمَايِمِ^(١٣)
كَأَنَّ اضْطِحَابَ الرِّغْدِ فِي جَنَابَتِهِ هَدِيرُ فُحُولٍ ، أَوْ زَيْمُرُ ضَرَاغِمِ^(١٤)

(١٣) «الواو» : عاطفة . و«برق» : مطوف على «ليلة» في البيت العاشر : أي وكم ليلة ساورتها ، و«برق أرقنت لوميسه» . ويماني : نسبة إلى اليمن : وهو الجزء الجنوبي الغربي من شبه جزيرة العرب . والمراد بهذه النسبة : أن هذا البرق ظهر في الأفق الجنوبي الغربي ، ناحية اليمن . والبرق إيمان كثير في البشر العربي ، والبارودي متأثر بالبيئة العربية في غزله وسائر فنونه شعره ، مقتد بشعراء العرب ، فانسج على منوالهم ، مقفد أثرهم . وأرق (من باب طرب) : امتنع عليه النوم ليلاً . و«يوض البرق» (من باب وعد) : لمع لمعاناً خفيفاً ، وظهر . واللام للتعليل : أي أرقنت بسبب ومضه . وقاعل «يطير» : ضمير «البرق» . و«راد بالطيران» : سرعة الحركة . وهداب الكثوب : غيوط تبقى في طرفيه ، دون أن يكمل نسجها . وهداب السحاب : ما يرى منه كهداب الكثوب . أو كأغصان الشجرة إذا طالت ، وتدلّت ، وقاربت الأرض . والزمزم : جمع زمزمة : مصدر زمزم : أي صوت من بعيد تصويهاً له دوى غير واضح . وزمزمة الرعد : ضجيجها .

يصف برقًا يمانيًا أرقه وميضه ، و«آه يتحرك بسرعة» ، ويتشتر في سحب متهدّب متأثر ، متفرق زمزم فيه الرعد .

انتقل الشاعر من وصف الثريا في البيتين السابقين إلى وصف البرق والرعد . في هذا البيت والبيت الآتي . وقد أوشعنا من قبل صلة هذا كله بالفضول ، فالهيب - بسبب الحب ، وفرقة الحبيب - يساور ليلالي كثيرة نابضة ، ويماني الأرق والممّ ، و«يراعى النجوم» ، و«يراقبها» ، وهو على النوام مرهف الحواس ، شديد اليقظة والانتباه لمظاهر الطبيعة ، وتقلّبات الجو ، ووميضات البرق ، وزمزمة الرعد ، وحركات السحاب ...

(١٤) الرعد : صوت يذوي في السحاب عقب وميض البرق . واضطحباب الرعد : اختلاط أصواته ، وارتقاعها . وفي جنابته : في جنبات السحاب المتهدّب : أي في جوانبه ونواحيه ، الواحدة جنبته (بفتح الجيم ، أو بفتح فسكون) . وهدير البير ونحوه : صوته . وهدير (من باب ضرب) : ردد صوته في حنجرتة . والفحول : جمع فحول (بفتح فسكون) : وهو الذكر القوي من كل حيوان والثير : صوت الأسد من صدره . والضراغم : جمع ضرم (بوزن جفمر) : وهو الأسد الضاري الشديد .

شبه دوى الرعد وأصواته العالية المختلطة المترددة في جوانب السحاب المتهدّب ونواحيه - هدير الإبل ونحوها ، أو زئير الأسود .

تَخَالَفَت الْأَهْوَاءُ فِيهَا : فَعَاذِرُ هَوَايَ الَّتِي أَشْكُو ، وَآخِرُ لَا يُجِيبُ^(١٥)
وَنَاقَسَنِي ، فِي حُبِّهَا كُلُّ كَاشِحٍ يَلْفُ عَلَى الشَّحْنَاءِ عُوجَ الْحَيَازِمِ^(١٦)
فَكَمْ صَاحِبٍ أَلْقَاهُ يَحْوِلُ صَدْرُهُ قُوَادَّ عَلُوٍّ فِي ثِيَابِ مُسَالِمٍ^(١٧)

(١٥) تخالفت : اختلفت . والأهواء : جميع الهوى : وهو إرادة النفس ، وميلانها إلى الشيء . ويراد بالأهواء هنا : أقوال الناس ، واتجاهاتهم المبنية على الأهواء : أي على الميول والمواقف والمشاعر . وفيها : في أمر هذه المحبوبة : أي في شأن منها ، أي في حبِّي لها ، وتعلق بها . وعاذر هوى : أي يملئني في هوى : أي يملئني في المآذير في حقِّ وغرائي ، ويرفع عنِّي القوم والمذل . وهوى الذي أشكو : أي غرامي الذي أشكو ملاساته وآثاره . ومنها إغراض الحبيب وصديده ، وتباريح الشوق ، وحرق الوجد ، ولواحج الصبابة .

يقول : رأى الناس هياي بهذه الحسناء ، فاختلجوا في شأن منها ، وثباينت آرائهم وبشاعهم : فمنهم من رداي بسهام القوم والمذل ، ومنهم من اتمسك في المآذير ، ورفع عنِّي القوم ، ورددني لشكوكي . استعرد الشاعر في أربعة الأبيات السابقة لوصف الثريا ، والبرق ، والرعذ ، والمصاحب المتهذب . ثم عاد في هذا البيت والبيت الآتي إلى صريح الفزل ، أو التشبيب .

(١٦) فافسه في كذا : ساقفه فيه ، وباراه ؛ ولا ريب أن منافسيه يظرون صدره ، ويفسدون عليه أمره ، ويمسقون به أعظم الضرر ؛ ولهذا سلكهم في عداد أعدائه . وثنافس المتنافسين فيها دليل على سموها في مراتب الحسن والبهجة والجمال . و«حبا» في أصل الديوان المخطوط «حسبا» . وهو من خطأ الناسخ وتحريفه . والكاشح : الملعون الذي يطوى كشمه على العداوة ، ويضمير البغضاء . ولف «الشيء» على الشيء (من باب رد) : غطاء به ، وأخفاء تحتته . والشحناء : الحقد ، والعداوة والبغضاء إذا اختلفت النفس منها . وعوج : جمع أعوج ، وعوساء : صفة من عوج العود ونحوه (من باب طرب) : أي انحنى ، والثرى . والحيازيم : جمع الحيزوم (بوزن الخيشوم) : وهو الصدر ، أو وسطه . ويراد بعوج الحيازيم هنا : أضلاع الصدر . ويلف «عوج الحيازيم» على الشحناء : أي يطوى صدره على عداوة شديدة تملأ قلبه . وهذه الجملة : صفة له «كاشح» . وهي تكرار وتأكيد للمناهة ؛ فالكاشح : من يطوى صدره على البغضاء والحقد .

يشكو ، ويترجم بمناخسة غيره له في حب هذه الحسناء ، ويرى منافسيه بإظهار الحقد والعداوة والبغضاء .

وهذا المعنى مهد الشاعر لثلاثة الأبيات الآتية التي تحافظ إلى الحكمة ، أو ما يشبهها . ثم عاد يهدا إلى صريح الفزل .

(١٧) «كم» هنا : خبرية : بمعنى كثير . و«صاحب» تمييزها : أي ولقد كثر عدد من ألقام من المصاحب للناقدتين . وسالم : اسم فاعل من المسالة : وهي المصالحة ، والمصافاة . =

أَغَالِطُهُ قَوْلِي ، وَأَمْحُضُهُ الْوَقَا كَأَنِّي بِمَا فِي صَدْرِهِ غَيْرُ عَالِمٍ ^(١٨)
وَبَيْنَ لَمْ يُغَالِطُ فِي الزَّمَانِ عَدُوَّهُ وَيُبْدِي لَهُ الْحُسْنَى ، فَلَيْسَ بِحَازِمٍ ^(١٩)

= في البيت السابق شكاً منافس في حبه وغمراه ، ولزم بهم ، وديانهم بإضمار العداوة والبغضاء . وهذا البيت وثيق الاتصال بهذا المعنى ؛ فإن كثيراً من الناس يلبسون له ثياب المسألة والمصاحبة ، مع الظواهر فلزبهم على الحقد والضغن .

وهذا المعنى كثير في الشعر العربي . قال أمير الشعراء أحمد شوقي :

لِأَرْبَ وجه كصافي الخمر تشابه حامله والخنس

وقال غيره :

لا يفرك ما تسرى من أناس إن تحت الضلوع داء دويما

وقال آخر :

يطيك يوماً صادقاً بلسانه وبين تحت ضلوعه ألوانا

وقال أبو فراس الحمداني :

وقد صار هذا الناس إلا ألقهم ذئاباً حل أجسادهم ثياب

وقال أبو تمام :

ليس الصديق بمن يترك ظاهراً محبباً عن باطن معجبهم

(١٨) خلط في الأمر (من باب نصب) : أخطأ فيه ، ولم يعرف وجه الصواب . وغالطه مغالطة وغلاماً : أوقعه في الغلط . والمفهوم من المحجمات التي بين أيدينا أن الفعل « غلط » لا يقتضي بنفسه إلى مفعولين . ويراد بالمغالطة القولية هنا : المحاسة الكلامية الظاهرة . والمغالطة الساتية ، يقصد بها استغلال حقد صاحبه ، أو تضيق دائرة فضته . وعصته اليد ، أو النصيح ، أو الولاء ، أو نحوه (من باب نفع) . وأعصته إياه : أغلصته ، وصدقته . والظا : أصله الولاء . وتصر لضرورة وزن الشعر .

في البيت السابق قال : إن كثيراً من الناس يلبسون له ثياب المصاحبة والمصافاة ، على حين أن قلوبهم تنطوي على الشحنة والبغضاء . وفي هذا البيت يقول : إنه حل الرئم من استبقائه حقيقة هؤلاء الصحاب ، وطعمه بما يضرورونه له من الضغن والعداوة ، فإنه يحضهم الوفاء ، ويحاسبهم بكلامه ، ولا يضرر لأحد منهم شيئاً مما يضرورونه له ، كأنه يجهل حقيقة ما انطوت عليه صدورهم .

(١٩) يبدي له الحسنى : يظهر لمدحه الماملة الحسنى ، القائمة على الخير ، وإلبر ، والصدق ، والوفاء ، والمغالطة القولية المشار إليها في البيت السابق ، وفي الشطر الأول من هذا البيت ، فهو يحلسته بكلامه ، ويحامله بقوله ، كأنه يفالطه ، أو يتالط نفسه بهذه المحاسة ، لما يطلعه من فساد طوية صاحبه ، = ديوان البارودي - ٢

فَيَا رَبَّةَ الْخَالِ الْعَيِّ مَنَوْتَ دَمِي وَأَلْقَيْتَ إِلَى أَيْدِي الْفِرَاقِ شَكَايِي (٢٠)
إِلَيْكَ اسْتَشَرْتُ الْعَيْنَ مَحْطُولَةَ الْعَرَا وَفِيكَ رَعَيْتُ النِّجْمَ رَعَى السَّوَانِمِ (٢١)

= وسوء سريره ، وانطوائه على الشحنة والبنفساء . وحازم : اسم فاعل من حزم وأبه ، أو أمره (من باب ضرب) : أبى ضبطه ، وأحكمه ، وألقته ، وأخذ فيه بالثقة .
جعل محاسنة المرء عنه من الحزم ، وإتقان الرأي ، وإحكام التفكير ، وسداد التدبير . وهذا كله عين الحكمة والصواب ؛ فإن المحاسنة قد تنزع الفل من الصدور ، ويجعل ألبؤ صديقاً صادق الود حريصاً على البر والوفاء :

أحسن إلى الناس تسعيد قلوبهم فطالما استعيد الإنسان إحسان

ولم يفت الشاعر أن يمحضن بتمام اليقظة والاحتباس ؛ فإنه مع محاسنته لعنه ، وإيقاره الوفاء له ، والبر به - يعلم ما تتلوى عليه نفسه من الحقد والضغن ، والعداوة والبغضاء . ولا يستطيع كظم غيظه ، والمعن من عنده ، والإحسان إلى المسيء إلا أولو العزم ، والصبر الجميل ، كبار القلوب ولئفوس الذين ينظرون إلى الحياة والناس من آفاق واسعة فسيحة .
أجرى الشاعر هذا البيت والبيتين اللذين قبله مجرى الحكمة ، أو ما يشبهها . ثم عاد في البيت الآتي والأبيات التي بعده إلى صريح الفزل أو التشبيب .

(٢٠) ربة : صاحبة . وأخال : شامة ، أو نكتة سيدها في البدن . وغلظ على شامة الخد . وقد تكون طبيعية . وقد تصنعها المرأة لتجمل والتزين . وهدر السلطان دم فلان (من باب قتل وضرب) وأهدره إهداراً : أباحه ، وأبطله ، وأسقط القصاص فيه ، وكذا الآية . والتعبير هنا مجازي ؛ فإن المهربة بإعراضها عن أصحابها ، ولعلق بها ، تجرعه مرارة المجران والفرار ، وتعرضه للذوت بسبب هذا ؛ فكانها أهدرت دمه . والشكائم : جميع الشكيمات ؛ وهي الحديدية المتعرضة في فم الفرس ويحوي من الحجام . وبرد بالشكائم هنا : الجحيم . والشطر الثاني : كناية عن أنها باعدته ، وصدت عنه ، وهجرته ، وغضنت عليه بالإنجاء واللقاء والوصول . وأسلمته إلى الفراق يذهب به كل ملعب .

كنى عن اسمها ببعض ما يزينها ، وهو الخال . ونادها شاكياً باكياً ؛ فقد أهدرت دمه بعدودها عنه ، وضلته ، وتركته شبة في يد المجر والفرار .

(٢١) «إلى» وفي : معناها هنا التعليل : أي من أجلك أو بسببك . واستشرت العين : أشرت ، وبيجتها بكثرة البكاء ، وفزارة الدموع . والعرا : جميع عروة ؛ وهي من القلوب ما يدخل فيه الزر عند شده . و«محولة» حال من العين . وبين محولة العرا : مفتوحة ، غير مغمضة ؛ كناية عن التهاد والأرق . ورعيت النجم : راقبه ، ولاحظته ، وأعدت النظر إليه . (وبابه سي) . والعرب تكني برعى النجوم عن الأرق مع الألم والملم . قالت الخنساء :

أرعى النجوم ، وما كُتِبَتْ رعيها وقارة أكلتي فضل أطماسي =

فَلَا تَتَرَكْنِي نَفْسِي تَلُوبُ ، وَمُهَجَّتِي تَسِيلُ دَمَا بَيْنَ الدُّمُوعِ السَّوَاجِمِ (٢١)
أَقُولُ لِرُكَّابِ مُدْلِجِينَ ، هَفَّتْ بِهِمْ رِيَّاحُ الْكَرَى ، مِيلَ الطَّلَى وَالْعَمَائِمِ (٢٢)

— ووعت الماشية (من باب سعى أيضاً) : سرحت في المرمى والكلاء والשב : أى تغفلت ، فأكل في رقد وصة . ووعاها راعها : أطلقها ترمى ؛ فهذا الفعل يتعدى ، ويلزم . والسواجم : جمع سائمة : وهى الماشية ، والإبل الراحية : اسم فاعل من سامت الماشية (من باب قال) : أى رعت في المرمى ووعت حيث شاءت ، وأقامت ، وأكلت ، وشربت في خصب وصة . وفليك رعت النعم رعى السواجم : أى من أبلك رعت النجوم رعى السواجم ، فهو يسرح فيها بميتمته كما تسرح الماشية في المرمى ، منتقلة في جواربه ونواحيه ، في إقامة طويلة ، وزين تمتد . أو هو يرمى النجوم كما يرمى الراعى ماشيته ؛ فلا يكاد يغفل عنها ، أو يتوانى في رعايتها . والفرض تصوير ما يكابده ويفضاهيه من الأرق والسهاد ، والهم والهكاه بسبب حبه وفراقه ، وإعراض الحبيبة وصلودها .

(٢٢) « فلا تتركى ... مضارع مسوق بلا النافية ؛ فهو أسلوب نهى ، يراد به هنا : الانكسار أو التقي . ويراد بلربان نفسه : فتألفا ، وهلاكها . والمهجة القلب ، أو الروح . والسواجم : المنجرة ، المشككة » المنصبة بفزارة : جميع ساجم ، أو ساجمة .
في الأبيات السابقة شكك البين المشتق ، وليلاليه الكثيرة النافية ، وحرق الصبابة ، وتباريح الشوق ، وصلود الحبيبة .

وفي هذا البيت اتهم منها ، أو تمنى عليها أن تتداركه بإقبالها قبل أن تلوب نفسه وجداً وأسى ، ويسيل قلبه دما بين دمومه الفزيرة المتتابعة . وفي البيت الآق ومناية الأبيات يهده يتجه إلى جماعة من صحبه ومرافقيه ركبان الإبل في الصحراء ، فيصفهم ، ويصف مطاياهم ، ويستقهم في بعض الطريق ، ويتحدث إليهم ، ويذكر — في أسى وحرقة ، وبعد وحسرة — ما مضى من جهود الهوى والفرام ، ومواطن الحب والوصول . ويشير إلى طوله هذه الرحلة وشقتها ، ويجهد جهاء الفرض الأصلى من هذه القصيدة الطويلة ، وهو منح الخدير إسماعيل . والبارودى في مناجاه ، وتصوره ، وتعبيره ، وشياله ، وفنه الشعرى مولى هنا بالبيئة العربية البدوية الصحراوية ، مقتد بمن روى عنهم ، وحفظ لهم ، وأعجب بهم من الشعراء الذين سلكوا هذا السبيل ، وجميلوا الغزل مقدمة المنهج . ومنهم كعب بن زهير بن أبى سلمى ، صاحب اللامية المشهورة التى مطلعها :

بانت « سعاد » ؛ فقلقى اليوم متبول معتم إثرها ، لم يله ، مكبيل
وبنها (بعد تقديم الغزل) :

إن الرسل لنور يستضاء به وصارم من سيوف الله ملول
(٢٣) « أقول ... » : مقول هذا القول يأتي في البيتين الثامن والعشرين ، والتاسع والعشرين :
« ألا ، أيها الركب ... » وقفا في قليلا والركب : الأراكيب . مفردة راكب (يؤن صاحب وصحب) . ومن الغويين من يخص الركب بركبان الإبل في السفر ، دون غيرها من التلواب . وهم الشرة ، —

تَجِدُ بِهِمْ كَوْمَ الْمَهَارَى لَوَاغِيًا عَلَى مَا تَرَاهُ ، دَامِيَاتِ الْمَنَاسِمِ (٢٦)

سفا فوقها . والمندبلون : جمع مندبل : اسم فاعل من أدبلج القوم إدلاجاً : أى ساروا الليل كله . أو من أوله . أو في آخره . وفتت بهم : أماتهم ، وهزتهم . والكوى : التماس . ورياح الكوى : الكوى الشبيه بالرياح ؛ فهو من إضافة المشبه به إلى المشبه . وإذا كانت الرياح تهفو بالشيء : أى تحركه ، وتذهب به ، فإن ركبان الإبل في الصحارى إذا جهدهم السفر الطويل المفسق ، واشتد احتياجهم إلى النوم ، ذهب الكوى ، أو التماس ، أو التهورم بمواسمهم ، وحركت ويوسمهم ، وأمال أماتهم ؛ فالت معها حماهمهم . وييل : جمع أميل ، أو ميلاد ؛ بمعنى مائل ، أو مائلة . والعلل : الأعتال . أو أصوفاً أو صفحاتها . الواحدة طلبة (بوزن مدية) . أو طلاة (بضم الطاء) . والعمائم جمع حمالة (بكسر العين) : هى مايلفت على الرأس . وفى البيت ثلاثة لموت ل « ركب » : « مد بلين » . وجملة : « هطبت بهم » . وه ميل الطل والعمائم .

يصف رفاته ركبان الإبل الذين استوقفهم في بعض الطريق على منازل حبه وهواه ؛ لتجديد ذكريات عزرة عليه ، أثره لديه ، وقد ساروا الليل كله ؛ حتى جهدهم السفر ، وبرح بهم التمس ؛ فهو « ما » . ومالت التماس أماتهم وويوسمهم ، ومالت معها حماهمهم . وفى أربعة أبيات التالية لهذا البيت وصف ركائب هؤلاء المسافرين .

(٢٤) تجد (بكسر الجيم وضمتها ، من بابي ضرب ، وفصر) : تجتهد . والامم منه ابلد (بكسر الجيم) . وظله تجد : مضارع أجد إجداداً . و « بهم » بالركب المدبلين . وكوم : جمع أكرم ، أو كباد . وهو ما غسخت سنانه من الإبل . والمهاري (بفتح الراء وكسرهما) : تجالِب الإبل التى تسبق التحليل ، جمع مهريه : نسبة إلى قبيلة « سَهْرَة بن حيدان » : من حرب اليمن . ولواغيا : حال من كوم المهاري : جمع لاغب ، أو لاغية : اسم فاعل من اللغوب ، أو اللغب : وهو الإعياء ، والتعب الشديد . و « لواغب » ممنوع من الصرف أى التثنية . وإنما فون هنا لفصولة وزن الشعر . وفاعل « ترى » : ضمير الخطاب . أو ضمير « كوم المهاري » : أى تجد بالركب المدبلين كوم المهاري لواغب داميات المناسم ، كما تراه على الرغم من لغوبها ، وتبريح تناسمها . أو مع ما تراه هذه المهاري ، وتخص به من اللغوب وآلام المناسم . أو هى لواغب داميات المناسم بسبب ما تراه أى تكايد . وقضائيه من طول السفر وشقائته ، ووجع الطريق وعقباته . وداميات : حال من « كوم المهاري » : جمع دامية : اسم فاعل من دى الجرح (من باب صدى) : أى شرج منه الدم ، ولم يسل . والمناسم : جمع منسم (بوزن مجلس) : وهو طرف خف الجير ونحوه . وهو من الإبل كالظفر من الإنسان .

يقول : تسرع هؤلاء الركبان في السير - ركائبهم من الإبل الضخمة - وقد دمت خفافها ، وسمتها اللغوب ، وبرح بها التنب لبد الشقة ، وظلم المشقة ، وطول السفر ، وصلاية الأرض ، وصعوبة الطريق .

تُصَيِّغُ إِلَى رَجْعِ الْخُدَّاءِ ، كَأَنَّهَا تَحْنُ إِلَى (إِلْفٍ) قَدِيمٍ مُصَارِمٍ^(٢٥)
وَيَلْحَقُهَا مِنْ رَوْعَةِ السُّوْطِ جَنَّةٌ فَتَمْرُقُ شُعْنًا مِنْ فِجَاجِ النُّعَارِمِ^(٢٦)

(٢٥) تصيغ : تصفى ، وتستمع ، وتشتت : من الإحاشة . وفاعله ضمير « كوم المهارى »
في البيت السابق . والحداء : الفناء للإبل ، لسطحها وتشتيتها ، وحشا على السير . ورجع الحداء :
صداء ، وترديده ، وتكراره . وتحن : تشتاق . وفي الأصل المخطوط الذى بين أيدينا نقص ، وضل ،
وتصحيف ، وتحريف غير قليل . والكلمة التى بين قوسين ، وهى « إلف » تكلمة من عندنا ، استقام
بها المعنى ووزن البيت . والإلف : الأنيس ، والحبيب . ومصارم : مقاطع ، متباعد .

كان الحداء يحلون هذه الركائب لتشتيتها ، وتخفيف متاعب السفر والطريق ، وحشا على السير ،
فتصفى إلى ترديده الحداء باهتمام واحتفال ، ويبدو عليها التأثير والانفعال ، كن قارقه أليفه وحبيبه ،
وطال عليه البعد والفراق ، فترج به الوجد والحزن .

والفرض تصوير شدة تأثير الحداء فى إسماع الإبل وشامخها ، وما ينتجه من نشاطها وخفتها .

(٢٦) ويلحقها : يلحق كوم المهارى : أى يتركها ويصيبها . (وبابه سمع) . « و » من هنا :
لتعليل : أى بيان العلة والسبب : أى تلحقها الجَنَّةُ بسبب روعة السوط . والروعة : الفزعة : اسم مرة
من راع منه : أى خاف ، وفزع . أو من راحه : بمعنى أخافه ، وأفزعه . (وبابه قال) . والسوط :
« ما يضرب به من جلده مضفور » أو غير مضفور . سمى بذلك ؛ لأنه يخلط الدم بالسم . والجَنَّةُ
(بكسر الجيم) : الجنون ، وفساد العقل . ويراد بها هنا : فرط النشاط فى السير . وتمرق : تبحر ،
وتخرج فى سرعة . مستمار من « مرق السهم من الرمية » : أى اخترقها وخرج من الجانب الآخر فى سرعة
(وبابه دخل) . وشعنا : حال من فاعل « تمرق » جمع أشعث ، أو شتاء : صفة من شعث الشعر
(من باب تمب) : أى انتشر ، وتفرق ، وأجبر ، واتسخ . أو قلبه ، وتغير ، كشم المسافر .
والفجج : جمع فجج (يفتح الفاء) : وهو الطريق الواسع الواضح بين جبلين . والهازم : جمع هزم
(بوزن مجلس) : وهو أنف الجبل . ويراد بالهازم هنا : الجبال . وفجج الهادم : الطرق والمساك
الجبلية . ومن معانى الهادم : الطرق الجبلية ، وأقواء التجاج . وإضافة التجاج إليها بهذا المعنى : من
إضافة الشيء إلى مرادفه .

في البيت السابق قال : إن الحداء ينشطون بالحداء هذه المطايا ، ويخففون به متاعبها ، ويحمونها
به على ذلك السفر الشاق ، الطويل البعيد المفضى . وفى هذا البيت يقول : إنهم قد يضرينها ، أو يهدونها
بما يحملونه من السياط ونحوها ، فترتاح ، وتشتط فى سيرها غاية النشاط ، وتجد ، وتسرع حتى تمرق
من تلك الطرق الجبلية ، والمساك الصحراوية ، كما يمرق السهم من الرمية .

لَهُنَّ إِلَى الْحَادِي الثِّفَاتَةِ وَامْنِي فَعِن زَارِحٍ مَعِي، وَأَخَرَزَ زَائِمٍ (٢٧)
 آلا، أَيُّهَا الرُّكْبُ الَّذِي خَامَرَ السَّرَى بِكُلِّ فَتَى لِلْبَيْنِ أَغْبَرَ سَاهِمٍ (٢٨)

(٢٧) لهن : لكون المهاري : أي لطايا هؤلاء الركبان ورواحلهم . والحادي : من يسوق المطايا ويحبها على السير بالحداد . وهو الفتاة لها . والثفاته : اتجاهه : اسم مرة من التفت إلى الشيء : أي أقبل عليه ، وصرف وجهه إليه . وامن : محب : اسم فاعل من وقفه (من باب وقف) : أي أحبه ، وتعلق به . ويراد بالواق هنا : المستطاف ، المسترحم . ومن : بيانية : فهي تبين حال المطايا ، وتوضحها وتفضلها . وزانج : ضعيف ، منهوك : اسم فاعل من رزح البجير (كنج) : أي نهكها ، وضعف وسقط ، ولصق بالأرض ، ولم يستطع النهوض أو الحركة ، بسبب الإعياء والتعب الشديد ، أو الضعف والخرال . وألجع زوانج . ومي : اسم فاعل من أعيأ في سيره إعياء : أي تعب تعباً شديداً ، وكمل ، وفقدت قوته . أو بصيغة اسم المفعول ، من أعيأ السير إعياء : أي جهده ، وأعبزه ، واستنفد قواه . وزانم : زانح ، شديد الإعياء : اسم فاعل من رزم البير ونحوه (من بابي دخل وجلس) : أي سقط من الإعياء ، أو الخزال ، ولم يتحرك . ويلاحظ أن « زانح » ، و« مي » و« زانم » بمعنى واحد . أو بمكان متقاربة ، فاشترط الثاني كله يؤكد — جملة الكلمات المترادفة — ما انتهى إليه حال المطايا من الضعف والهجز والإعياء ؛ بعد أن براها طول السفر ومشقاته ، وبموعة الطريق وعقباته .

يقول : إن هذه المطايا جعلت^٢ تنظر إلى سادها نظرات الاستطاف والاسترحام ، لعله يقف بها قليلاً حتى تسترد بعض قواها التي استنفدها تولى السرى ، وطول السفر ، ومشقات الرحلة . والفرض من هذا البيت وأمثاله المغالاة في تصوير هذه المشقات التي نهكت المسافرين ورواحلهم . وفي هذا كله تعظيم لشأن المفعول ، وتثويته بقدره ، وطمع في المزيد من إقباله على المادح ، وسفوفته به . وهو منبج قديم مأثور في شعر المديح الذي قاءه الشاعر ، كما تأثر بغيره من فنون الشعر العربي وأغراضه وبنائه وخصائصه .

(٢٨) هذا البيت وما بعده مقول القول في البيت الثالث والعشرين : « أقول لركب مديني ... » و« آلا » : حرف استفتاح وتثنية . وخامر السرى : خالطه ، ومارسه . أو نزمه ، ولم يذاره . والسرى : السير لئلا . أو سير عامة الليل (يذكر ، ويؤثث) . والفى : الشاب^٣ الحدث ، أول شبابه طراوة السن ، بين المراهقة والرجولة . وتقول العرب : فى من صفته كيت وكيت . من غير تمييز بين الشيخ والشاب . والين : الفراق . واللام في « للين » : معناها التصيل : أي فى أمير ساهم بسبب البين ؛ فالفراق حلة خبرته وسهره . وأخير : مغير اللون ، أو يخلو الغبار : وهو ماذق وقيم من التراب ، أو الريماد . وساهم : متغير اللون من هم^٤ ونحوه . أو ضامر ضعيف ، مهزول ، نحيل . وأخير وساهم صفتان لـ « فى » . ولعله يشير بالشطر الثاني إلى نفسه ؛ فإنه الفى المحب المستهام الذي خامر السرى ، وبغيره ، وضمره ، وهزله ، وأغشاه طول السفر ، وتناجب السهر ، وحرقة الوجد ، ولوعة الفراق .

فَقَا بِي قَلِيلًا، وَانْظُرَا بِي، أَشْتَقِي بَلْتَمِ الْحَصَى بَيْنَ اللَّوَى فَالْتَعَانِمِ^(٢٩)
فَكَمْ عَهْدِ صِدْقٍ مَرْفُوسٍ، وَأَعْصُرِ تَوَلَّتْ عَجَالًا دُونَ تَهْوِيمِ نَائِمِ^(٣٠)

(٢٩) «فقا»: فعل أمر من الوقوف، مستند إلى ألف الاثنين. والشاعر يأمر الركب الذين يرافقهم في ذلك السفر الطويل الشاق المضى. ومعنى الأمر هنا: الا تفتأس. ويلاحظ أن الشاعر استعمل «الركب» استعمال الجمع في البيت الثالث والعشرين: «أقول لركب مدبلجين هفت بهم...». وهو استعمال صحيح لاشك فيه. ثم استعمله في البيت السابق: أى في البيت الثامن والعشرين استعمال المفرد: «ألا، أيها الركب الذى خامر السرى...». وهذا أيضاً استعمال صحيح، لا غبار عليه. وهو في هذا البيت يأمر الركب، ويتخاطبه خطاب المثنى: «فقا بي قليلاً»، وانظرا بي، واشتق... وهذا أيضاً جائز، فالعرب قد تقول: «افضلا» والمخاطب، أو المأمور واحد ليس غير. ويجوز أن يكون الخطاب هنا لرفيقتين اثنتين من رفقاء الشاعر في هذا الركب. ويتخاطبه الرفيقتين كثيرة في لغة الشعر، وقد من ميزاتها وخصائصها. ويرجع بعد هذا كله أن تكون الألف في «فقا» و«انظرا» بدلاً من نون التوكيد الضعيفة. والخطاب للركب، كما في البيت السابق «ألا، أيها الركب الذى خامر السرى... فتن... وانظرن...». كما في قول الله تبارك وتعالى في سورة العلق: «كلا». نئن لم ينته نفسهماً بالنصابة. وعلى هذا ضبطنا الألف متونة في «فقا» في... وانظرا في...». وانظر: أى انتظر: أمر من النظر: بمعنى الانتظار. واشتق بكلاً: نال به الشقاء، ويرى به من علته. والقم: التقيل. (وفعله من بابي سمع، وضرب). والخصى: صغار الحجابة. والوى (يوزن إلى): ما انتهى من الريل والنمط أو هو منقطع الريل. أو مسترقته. وجمعه ألواء، وألوية. والنعائم: أعلام مرفوعة يعتدى بها في المغاور والصحارى. واحداً نعاماً. والنعامة أيضاً: المحجمة والطريق الواضح. وكل بناء على جبل يشبه الظلّة. والفاء المقترنة بالنعائم لا تلحق الترتيب في مثل هذا الكلام. وإنما هي مجرد العطف، ومطلق الجمع. شأنها هنا شأن ألواء العاطفة. ويريد: «ما بين اللوى والنعائم»: منبت الحب، ووطن الهوى، والمكان الذى طالما رأى فيه حبيبته، ويوجد في لقائهما راحتته وسعادته. وهو يجد في ثم حصاص علاجاً وراحة وشفاء لما يعانيه من تباين الوجد والصبابة، ولواصح الهوى والفرام. ومن هذا القليل قول الشاعر:

أمر حل الدهار ديار «ليل» أتلّ ذا الجدار وذا الجدار
وما حب الدهار شغلن قلبي ولكن حب من سكن الدهار

نادى رفاته الذين طال به وبهم السرى في ذلك السفر الطويل المضى، واتمس منهم أن يبقوا به قليلاً في منزل الحب والحياء، ووطن الهوى والفرام، ورأى في تقبيل حضوره ودماله، ولم أحجاره وحصاه علاجاً شافياً لما يكابده ويضائيه من حرارة الشرق والحلّين، وبحرق الوجد والصبابة.

(٣٠) «كم»: اسم ثنائى مبنى على السكون. يعبر به عن عدد مجهول القدر والجنس. وهى هنا خبرية تدل على عدد كثير. وتبنيها: «عهد صدق». والمعنى: أنه قد مر بالشاعر حبيبته في هذا المكان: =

أَبَيْتُ لَهَا (دَاهِي) الْجُؤُونِ مُسَهَّدًا طَرِيحَ الثَّرَى مُخَمَّرَ طَرَفِ الْأَبَاهِمِ (٣١)

« بين الورى والتنام » عهد كثيرة كلها صدق ووفاء . ومن معاني « العهد » : الزمان ، والمؤقت ، والحفاظ ، والالتقاء ، والمعرفة ، والوفاء ، والأمان ، والضمان ، والمودة ، ورعاية الحرمة ، والمنزل المهود به الشيء ، وحفظ الشيء ، ومراعاته حالاً بعد حال . وكل هذه المعاني مناسبة هنا . و« فيه » : في الحصى الذى ذكره في البيت السابق ، وطلب أن يستشفى بثلثه وتقبيله . وأراد به منزل حبه ، وبوطن غرامه ، بين الورى والتنام . و« فيه » مر به . أو مر عليه ؛ « فيه » هنا : بمعنى الباء . أو بمعنى « عل » . أو المعنى : أن عهد الصدق مرت بنا ونحن في هذا المكان . والأعصر : جمع العصر (يفتح فسكون) : وهو اليوم ، واليلة ، والغداة ، والمشي إلى احمرار الشمس . وتولت : أدبرت ، وذهبت ، وضبت . وجالاً : سراعاً : جمع جيلان ، وصجل ، وتغرب حالاً من فاعل « تولت » : وهو ضمير الأعصر . و« دون » هنا : ظرف منصوب بمعنى « أقرب » . يقال هذا دون ذلك : أى أقرب منه . وهوم : هوماً : من رأسه من الناس . أو نام نوماً غفياً . أو شعر بحاجته إلى النوم . وتبورم : انثام بهذه المعاني كلها : كتابة عن العجلة والسرعة ؛ فهو تكرر وتأکید لمعنى « جالاً » أى أن هذه الصور تولت في برهة ، هى أقرب وأسرع من برهة « بورم التام » . وقد تكون « دون » هنا : بمعنى « قبل » : أى أن هذه الأصابع ذهبت في سرعة وعجلة قبل أن « بورم التام » : أى في الفترة القصيرة التى بين يقطعه وتبورمه . والفرس للالة في تصوير سرعة التولى والإدبار والذهاب . وإذا كان الليل ، أو الزين يطول في حس المهورم ، أو الخزين ، أو المريض ، أو المفارق المشوق ، أو السبب الماشق الذى صد عنه حبيبه وهجره — فإن الصور والدهور ، والأيام والليال ، على العكس من هذا في حس المرح السعيد ، الخافى المسرور ، انثام البال مع أحواله وأصفائه ؛ إذ تمر بهم الأزمنة الطويلة جالاً سراعاً ، قصيرة في نظرم غاية القصر .

يأسى ويحسر على عهد ، وأزمنة ، والتقاطات ، ومودات كثيرة صادقة مرت به وبحبيبه في هذا المكان « بين الورى والتنام » ؛ ففسد بها برهة ما لبثت أن تولت في عجلة وسرعة . شأنها شأن كل أوقات الهناة والسعادة ، وتخلت له بنهاها المم واللثم ، والأسى والوجد ، والتلقى والأرق ، والوعدة والحرق ، ولذكريات والحسرات .

(٣١) « ها » : لعهود الصدق ، والصور الداهية التى أشار إليها في البيت السابق . واللام هنا تعليلية : أى أقضى القبال ساهراً من أجل تلك العهود والأعصر : أى بسبب تلهى عليها ، وحزنى على فواتها . وقد أشرفنا من قبل إلى كثرة ما يعيب الأصل المخطوط الذى بين أيدينا من النقص ، والخطأ ، والتحريف والتصنيف . وكلمة « داهى » تكلمة من عندنا استقام يهاوزن هذا البيت ، وصح معناها : اسم فاعل من داهى الجرح (من باب داهى) : أى خرج منه الدم ، ولم يسل . وداهى الجفون : كثافة من كثرة البكاء وتثاقبه . ومسهداً : مؤرقاً : اسم مفعول من التمسيد : وهو الإسهار ، والتأريق ، وعدم النوم . وطريح : (فمعل بمعنى مفعول) : أى : ملق مطروحاً على الثرى : وهو الأرض . والأباهم : جمع الإبهام : =

وَمَا هَاجَنِي إِلَّا عَصِيفِيرُ رَوْضَةٍ عَلَى مَلْعَبٍ مِنْ دَوْحَةِ الضَّالِّ نَاعِمٍ (٣٢)
يَصِيحُ، فَمَا أَذْرَى : لِفِرْقَةٍ صَاحِبٍ كَرِيمٍ السَّجَايَا ، أَمْ يُغْنَى لِقَادِمٍ (٣٣)

= وفي الإصح الفليضة الخامسة : كبرى أصابع اليد والرجل . مؤنثة ، وقد تذكر . ويراد بالأبام هنا : إلهام اليد . واحمرار طرفها : إشارة ، أو كناية عن لطفه وحسنه ؛ إذ كان يعنى أنامله على فوات تلك المهود والمصور فيجرحها النفس ، فتدنى ، وتلقب ، وتحمر . أو أنه كان يسمح بأصابعه حينه ، فيخلق بأطرافها شيء من دم جفونه الدائمة . وه دوى الجفون ، « وه مسهداً » ، وه طريق الترى ، وه يحمر طرف الأبام ، : أربع أصابع من فاعل : « أبيت » .

في البيت السابق أسى وأسف ، وتلهف وتحسر على فوات عهد وأزمان كانت مجالاً للمغامرات حبه وفراشه . وفي هذا البيت اشتدت حسراته ولوعاته ؛ فبكى حتى نسيت أجفانه . وضع أنامله من القهقهة والحسرة حتى التهمت واحمرت . وبرز به الوجد والم حنى بات الليال ساهراً مؤرقاً ، وتبكت النفس والسهاد حتى انطرح على الأرض ، لا يستطيع الحركة أو النهوض . وفي ثلاثة الأبيات الآتية قصة مصفود وصلها الشاعر بلفظه ، ويهد بها للفرض الأساسى من هذه القصيدة ، وهو ملحق « الخديو لإسماعيل » .

(٣٢) هاجنى : أثأرنى . والمراد حرك أشجاني ، وضاعف أشواقى . وعصيفير : تصغير مصفود . وقد يكون المراد بالتصغير هنا : التملح : أى الإشارة إلى ملاحظته ، وجهته ، وحسن منظره ، وجمال هيئته ، ولطافته ، وخفة حركته . والروضة : أرض مخضرة بأنواع النبات . وجسمها روض ، ورياض . و« من » ييانية ، ودوحة الضال بيان للملعب ، والكثوة : الشجرة العظيمة المنتشرة ذات الفروع الممتدة . وجسمها دوح . وجمع الدوح أذواح . والضال : السدر البهى . أو ما يمتدح المطر منه : وهو شجر النبق . وأحدثه ضالة . وزام : نمت للملعب . ومناه : ناضر ، بهيج ، طيب اللون ، لين الملمس .

وصف الشاعر فى الأبيات ٢٣ - ٣١ سفره مع الراكب المدبلجين ، كما وصف وراجلهم ، وشكا ما أصابها وأصابهم فى هذه الرحلة الطويلة الشاقة من الجهد والإعياء . ومر بموطن حبيب عليه ، أثير لديه ، فبكى عهد صدق كانت له فيه . وفى هذا البيت رأى مصفوداً ملحقاً فى روضة أو روضة زاهرة فوق شجرة عظيمة ضخمة من أشجار السدر البهى ، هى ملعب كبير نصير من ملاعب الطير ؛ فأثارت رؤيته أحجانه ، وهاجت مشاعره ، وجددت ذكرياته ، وأجبت أسواقه إلى من يجب . ولا غرو ، فإن هذا المنظر البهيج فى هذا الملعب النصير ذكره بماضيه السعيد فى نشوة الحب والفراغ ، وبهجة التلاق والوصول .

(٣٣) كريم السجايَا : كريم الأخلاق ، حميد الخصال : جميع سجيته : وهى الطبيعة ، والخلق . وفى البيت استلهم « هزته مخلوقة » . وحلقها كثير مألوف فى الشعر العربى . والفرض منه التمهيد للمديح . وتقدير الكلام : يصبح هذا التصغير ؛ فلست أدرى : أى يصبح حزناً ، وأسى ؛ لأنه غارق صاحباً كريم السجايَا ، أَمْ يغنى إبهاجاً وسروراً بقدم قادم عزيز عظيم ؟ . والبيت الآتى يعين المعنى الثانى . وفيه ، وفى الأبيات التالية انتقال إلى صريح المديح .

كَانَ الْعَصِيفِيرَ اسْتَطِيرَ فَوَادُهُ سُرُورًا بِرَبِّ الْمَكْرُمَاتِ الْجَسَائِمِ (٣٤)
 أَبُو الْمَجْدِ، نَجَلُ الْمَجْدِ، خَالَ زَمَانِهِ أَخُو الْفَخْرِ «إِسْمَاعِيلُ»، خِذْنِ الْمَكَارِمِ (٣٥)
 قَشِيبُ الصَّبَا، كَهْلُ التَّدَايِيرِ جَامِعٌ صُنُوفَ الْعُلَا وَالْمَجْدِ فِي صَدْرِ جَاذِمِ (٣٦)

(٣٤) استطير فواده : طهير قلبه : أي ذهب به بهمة، كان الطير حملته ، وطارت به . وهو تمييز عن فرط الفرح ، وعظم السرور . كما يقال : استخف الطرب : إذا هزه الفرح ، وأثارة السرور ، أو ارتاح أشد الارتياح . وسرورا : مفعول لأجله . والمكرمات : أفعال الكرم والخير والبر والجلود والإحسان . واحطتها مكرمة . وروها : صاحبها ، والمنتم بها . والجسائم : العظائم : جمع جسيمة أو جسامة .

أطرى الشاعر مدحها ، ونزه بمكارمه العظيمة ، وما يسديه إلى الناس من النعم الجليلة ، وقيل أن الصغور أدرك فيه هذه الفضائل ؛ فاستخف الطرب ، وهزه الفرح بحملته ، أو يتوليه ملك مصر .

(٣٥) المجد : العز ، والتبيل ، والشرف ، والرفعة ، والعلو ، والمكادرم المأثورة عن الآباء . وأبو المجد : صاحبه . أو أصله . ومجده . والنجل : الولد . أو النسل . أو الأصل . أو الوالد . وأجدو : البذل والنجاح ، والعطاء والسفاه في المكرمات والمحامد ، والمبررات ، وأنوارات . وبمع : أي سخي ، جواد ، كريم ، مطاع . وبخال زمانه : جواد زمانه الذي لا يحصى ، ولا يبارى في كرمه وجوده وسفاهه . وبخال الشيء : صاحبه ؛ فهو صاحب زمانه ، المهيمن عليه ، المتصرف فيه ؛ بمعنى أنه الذين يسده ، ويؤاياه ، ويحرق على ما يحبه ويرتضيه . أو هو من قولهم : رجل خال مال : أي يمتدده ويصلحه ، ويرعاه ، ويحسن للقيام عليه ؛ فالممدوح يشغل زمانه ويمر به بالنافع المديد ، القيم الصالح من الأقوال والأعمال . وبخال : ما توصفت فيه غيراً ؛ فالممدوح حسن الهيئة ، يتوسم فيه الخير : أي يتفخر ، ويتخيل : أي يترقب الناس خيره في ثقة وأطمئنان . وفي بخال هنا تورية بأخال أي الأم . والبخر : الاقتدار والانهاء ؛ فن حق الممدوح أن يفتخر بمزاياه وفضائله . وقد يراد بالبخر هنا : المغامر : أي المحامد والأعمال الكريمة التي يتباهى بها الناس ويتفاخرون . وأخوال الشيء : صاحبه وملازمه . وأخلدن : الصديق ، والصاحب ، وأخجل : وأخيب . والمكادرم : المكرمات ، الواحدة مكرمة : وهي ما يمتد ويحس ، ويتصل بالخير والبر والإحسان من الأعمال والأقوال والسجيا والأخلاق والصفات .

(٣٦) قشيب : جعدي . والصبا (بكسر الصاد) : الصغر ، والحدأة . ويراد به هنا : الفتاة والشباب . ويلاحظ أن اندلس إسماعيل قتل حكم مصر سنة ١٨٦٣ وسنة يونس نحو اثنتين وثلاثين سنة . وهي قريبة من سن الفتاة والقشيب . أو هي في دائرة الفتاة والشباب . كما يلاحظ أن هذه القصيدة في تهنته بالولادة والحكم . ويراد بقشابة الصبا ، وجمدة الشباب : ما يمتاز به الشباب من الفتوة ، والنجدة ، والطموح ، والنشاط ، وجمدة الهمة ، واتساع الآمال . وكهل : صفة من الكهولة : وهي سن الإنسان فوق الثلاثين -

تَجَمَّعَ فِيهِ الْحِطُّ وَالْإِبَاسُ، وَالْتَدَى قَلَيْسَ لَهُ (فِي) مَجِيدٍ مِنْ مَزَاحٍ (٣٧)

ذَكَاءٌ أَرِسْطَالِيْسٌ فِي حِلْمٍ «أَخْنَفٍ» وَهَمَّةٌ «عَمْرُو» فِي سَمَاحَةٍ «حَاتِمٍ» (٣٨)

= إلى الحسين . وفيها ينفج عقله ، ويتمّ رشده ، ويقوى إدراكه ، ويسمو تفكيره ، ويستحكم تدبيره . والتدابير : جمع التدبير : مصدر دبر الإنسان الأمر : أى تفكّر فيه ، وسامه ، ونظر في حالته . والملا : الرقة والشرف . وشله الملا . أو هو جمع العليا : مؤنث الأعل . وصنوف الملا : أنواعها وصفاتها . ويراد بصدره : شخصه . وجامز : صادق العزم ، قوى الإرادة ، قاطع الرأى ، لا يساوره ضعف أو تردد . أو هي « حازم » : من حزم الرجل رأيه ، أو أمره (من باب ضرب) : أى ضبطه ، وأقنعه ، وأحكمه ، وأخذ فيه بالثقة .

مدحه بقتابة الصبا ، مشيراً إلى نصرة شبابه يوم تولى حكم مصر ، منها بما يمتاز به الشبان الأعيان - وبخاصة شبان الحكّام ، وأبناء الملوك - من القوة والنجدة ، والنشاط ، والطموح ، وبمدح الحكم وهو المقاصد ، واتساع الآمال . يقال : إنه مع هذا كله - امتاز بسداد الرأى ، ونبج العقل ، وقام الرشد ، وقوى الإدراك ، وجمّة التفكير . وإحكام التدبير . وجمع في شخصيته الغلظة عندئذ العزم والحزم ، وصفات الجادة والتبل ، وأنواع المال والمكرمات .

(٣٧) الحلم : الآناة ، وضبط النفس ، والصفع ، والصبر ، والعقل . والإباس : القوق ، والشجاعة ، والشفة . والتدى : الجود ، والسخاء ، والفضل ، والخير . وكلمة « في » في الشطر الثاني فكلمة من صفدا للأصل المخطوط الذى بين أيدينا ؟ وبها استقام وزن البيت ومعناه . و« من » زائدة لتقوية الكلام ، وتوكيد معناه ، والتنصيص على العموم . ومن أشغلة زيادتها بعد النش قول الله تبارك وتعالى : « وما تسقط من ورقة إلا يعلمها » (الآية رقم ٩٩ من سورة الأنعام) . وقوله عزّ وجلّ : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » (الآية رقم ٣ من سورة الملك أى سورة قباكه) . ومزاحم : مقارب ، مدان : أى لا يذانيه أحد في مجده ، ولا يقاربه ، ولا ينافسه . ومزاحم : اسم ليس مؤنث . ومتعلق بالجار والمجرور له « خبرها المقدم . و« في مجده » متعلق بـ « مزاحم »

(٣٨) « ذكاء » خبر مبتدأ محذوف : أى ذكاء الممدوح ذكاء أرسطو . أو مبتدأ وخبره محذوف أى له ذكاء أرسطو . والذكاء : سرعة الفهم ، وتوحد الذهن ، وقوة العقل ، وسعة التفكير وعمقه . و« أرسطاليس » . أو أرسطو . أو أرسطو طاليس (٣٨٤ - ٣٢٢ ق م) : فيلسوف يوناني من كبار مفكرى البشرية . تعلم في أثينا ، وأخذ الفلسفة عن « أفلاطون » فيلسوف اليونان قبله ، واتصل بالملك « فيليبس » حاكم « مقدونيا » ، وقول تأديب ابنه « الإسكندر الأكبر » . وأتلف في الفلسفة ، والمنطق ، والأخلاق ، والسياسة ، والفن ، والبلاغة ، والفلك ، والحيلون ، والطبيعات ، والإلهيات وما بعد الطبيعة ، أى ما وراء المادة . ومؤلفاته الكثيرة - التى نقلها الترجمة السريانى إلى اللغة العربية تأثرت - بإحدى التفكير الفلسفى العربى . و« في » في شطرى هذا البيت : معناها المصاحبة : أى للممدوح ذكاء أرسطو مع حلم « أحنف » . وله همّة « عمرو » مع سماعة « حاتم » . و« الأحنف بن قيس » =

لَهُ تَحْتَ أَسْتَارِ الْغُيُوبِ ، وَقَوْفَهَا عِيُونُ تَرَى الْأَشْيَاءَ ، لَا وَهْمٌ وَاهِمٌ (٣٧)

== (٣٧ ق ٥ - ٦٧ هـ) (٦١٩ - ٦٨٦ م) : أبو بحر ، الضحاك بن قيس ، بن معاوية التميمي ، الملقب بالأحنف ، سيد تميم ، وأحد العظماء ، الدعاة ، الفصحاء ، الشجعان ، الفاتحين . يضرب به المثل في الحلم ، ورجاحة العقل . ولد بالبصرة ، وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكنه لم يره . وولد على عمر بن الخطاب في المدينة حين آلت إليه الخلافة . وشهد الفتوح الإسلامية في خراسان . ثم شهد معركة « صفين » مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وكان صديقاً لمصعب بن الزبير أمير العراق ، فوجد عليه بالكوفة ، فغرق فيها عنده . و« أحنف » ممنوع من الصرف أي الفنون ؛ وإنما صرف هنا : أي نون لضرورة وزن الشعر . والأحنف (في الأصل) : الملتوي الساقين : من الحنف : وهو الإجماع في الرجل . والحنفة : العزم القوي . وجمعا هم . وعمر بن محمد كرب الزبيدي : فارس إمام المصنوع به المثل في شدة البأس والشجاعة والإقدام . ومن أصحاب النجدة والقوة البدنية في الجاهلية والإسلام . شهد معركة القادسية ، ثم قوفي في حصار نهاوند سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) . وهو الذي عناء أبو تمام في بيته المشهور من قصيدته السينية الدائمة التي مدح بها الأمير أحمد بن الخليفة المستنصر بالله المباسي :

إقدام « عمرو » في ساحة « حاتم » في حلم « أحنف » في ذكاء لياس

والتشابه قوي واضح بين البيتين : بيت أبي تمام ، وبيت البارودي . وربما أراد البارودي في بيته : « عمرو بن العاص » (٥٠ هـ - ٤٣ هـ) (٥٧٤ - ٦٦٣ م) : فاتح مصر في خلافة عمر بن الخطاب ، وأحد عظماء العرب ودهائم وأبطالهم الفاتحين ، وأول الهمة والرأى والحزم والنزم والمكيدة في الجاهلية والإسلام . والشجاعة : الجود والعطاء والبذل في السر واليسر عن كرم وسخاء . و« حاتم بن عبد الله الطائي » : أبو عدي ، الملقب سنة ٤٥ قه (٥٧٨ م) : فارس شاعر من أجواد العرب في الجاهلية ، صيته ذائع عائد . وبجوده وسخائه يضرب المثل .

جمع الشاعر لمندوحه في هذا البيت أربع فضائل ، وقرنه بأربعة من عظماء العرب والمعم . وقد أشرنا من قبل إلى التشابه ، بل التوافق الظاهر بين هذا البيت وبيت أبي تمام .

(٣٩) الأستار : جمع ستر (بوزن شبر وأشبار) : وهو ما يستر به الشيء : أي يغطى ، ويحجب . والغيوب : جمع غيب : وهو كل ما غاب عنك : أي استتر ، وبغى ، واحتجب . والهمم : التعميم ، والتشغيل . وهو أضعف من الظن في مراتب الإدراك . وواهم : اسم فاعل منه (وياه وعد) .

يمسه بالفطنة ، وقوة الإدراك ، والبصيرة النافذة التي تهتك ستور الخفايا ، والذكاء الخارق الذي يكشف محجبات الأمور ، ويرى الأشياء حياناً وقيناً ، لا توهماً أو تقييداً .

فَنَظَرَتْهُ وَخِي ، وَسَاكِنُ صَدْرِهِ ، فَوَادُ خَبِيرٍ ، نَاطِقٍ بِالْعَقَائِمِ^(٤١)
تَكَادُ لِحْلِيصَاهُ الْمَلَائِكُ تَرْتَجِي عَلَى كَيْفِيهِ ، كَالطُّيُورِ الْحَوَائِمِ^(٤٢)
أَرَاهُ ، فَيَمْحُو لِي الْجَلَالَ ، وَأَنْتَحِي أَغَالِطُ أَفْكَارِي ، وَلَسْتُ بِحَالِمِ^(٤٣)

(٤٠) النظرة : اسم مرة من نظر الشيء ، ولطرافه : بمعنى أبصره ، وتأسله بعينه ، أو هي من نظر في الأمر : بمعنى فكر فيه ، وتبصره . أو هي من نظر بين الناس : بمعنى حكم بينهم ، وفصل . والوصى مصدر وصى الله في قلب عبده كذا (من باب وصى) : أى ألقاه في روعه . أو ألهمه إياه . أو ولقاه له . ويطلق الوصى على ما يوصى به . ونظرة المندوح وصى : أى نظره ثابتة سديدة ، صادقة صالحة ، كأنها من إلهام الله . والفلوات : القلب . وقد يراد به العقل والوصى والفهم والإدراك . قال تعالى : « أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُنْ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا » (الآية ٤٦ من سورة الحج) . ولفوات غير : عقل امرئ غير : صفة من الغيرة : وهي العلم من تهمرة . وناطق : صفة لغوي . والفظائم : جمع عظيمة : صفة من عظم الشيء : أى جل وكبر ، وفخم . أو من عظم عليه الأمر : بمعنى شق ، وصعب ، وعز ، واستعصى : يريد أن لسان المندوح يجري بالظلمات : أى بالحكم ، وجوامع الكلم . أو ما يناسب عظمتة وجهته وجلاله ، أو يوضح بمنطقه ما يستعصى على غيره من مشكلات الأمور ، ومسائل المسائل . والمعنى : أن نظرات المندوح ثابتة صالحة ، سديدة وشيدة ، كأنها إلهام من الله الذى يعلم خائنة الأعين ، وما تخفى الصدور . وهذه النظرات يحيط المندوح بما غنى وقد غلب على غيره من صفات المنظور وأحواله ، ودقائقه وخفاياه . أما عقله فإنه عقل رجل عظيم ، واسع الخبرة ، لاصح التجارب . وإذا تكلم سمع الناس منه ما يناسب عظمتة وجلاله ، ويُمِلُّ على فطنته وخبرته .

(٤١) كاد يفعل كذا : هم به ، وقاربه ، ولم يفعل . والعليا (بوزن الكبرى) : مثلث الأهل اسم تفضيل من العلو . أو هي العليا (بوزن الحساء) ، وقصرت لضرورة وزن الشعر . وبمناها الشرف ، وكل شيء مرتفع . ويراد بعليا المندوح أو علياته : شرفه ، ومجده ، وسودده . ومموكاته ، وارتقاع قدره . والملائك : الملائكة . واحداها ملك (يفتح الميم واللام) . وترجمى : تقع ، كما يقع الطير على الشجرة . مطاوع رماه ، فازتمى . وألحوا تم : جمع حاتم ، أو حائمة : اسم فاعل من حام على الشيء وحوله : أى دار به ، وطاف . أو من حام الشيء : بمعنى رماه ، وأراد ، وطلبه . أو من حام : بمعنى عشت . (وبابه قال) .

نوه الشاعر يشرف بمدح وسودده ، وعلم منزله . وغالى في مدحه : فقال : إن الملائكة تكاد تقصد إليه ، وتقع على كفيه . وشبهها بالطيور الحوائم ، تطلب الماء ، فتقصده إليه . أو تطلب منازلها من الأشجار المائية : فتصوم ، وتقوم ، ثم تقع عليها ، ويسكن إليها .

(٤٢) محاء يحوى ، ويحميه ، ويحماء : أزاله ، وأذهب أثره . والراد أن جلال المندوح : أى عظمتة ومهابته هيرته ، وأدهشتة : حتى تضامل في حضرته . وأنتحى : أميل إلى ناحية . وقاله : -

وَتُوهِمُنِي نَفْسِي الْكِذَابَ سَفَاهَةً ۖ أَلَا ، إِنَّمَا الْأَوْهَامُ طُرُقُ الْمَآثِمِ (١٣)
هُوَ السَّيْفُ ، فِي حَلِيهِ لِينٌ وَشِدَّةٌ ۖ فَتَلْقَاهُ حُلُوَ الْبِشْرِ ، مَرُّ الْمَطَاعِمِ (١٤)

— أوقعه في الغلط . والأفكار : جميع فكر : وهو ما يخطر بالقلب من المعاني . أو أعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول . أو أن يطلب الخاطر المعاني بتريده التأمل ، وطول التدبر . أو النظر والروية . ويريد بأفكاره هنا : خواطره ، وهواجسه ، وما تعذته به نفسه في جو العشق والانبهار . وبغالب الأفكار : تخطئها . وسالم : اسم فاعل من الخلم : وهو رؤيا التأم .

ولمضى : أنظر إلى الممدوح ، فأتهيه ، ويهرفى جلالتة ، وأتفاضل في حضرة ، وأعطو بنفسى تساوى خواطرى وهواجسى ، فتوهمنى ، أو تخيل إلى — لغير الدجش والانبهار ، والمنهاية والجلال — أنى نائم حالم ؛ فأشبهتها بحقيقة الحال ، وهى أنى متيقظ ، ولست بنائم ، ولا حالم . ويلاحظ أن الشاعر — على غير عادته — جانب مذهب القصد والاعتدال في هذا البيت ، والبيتين السابق واللاحق ، وجنح التزديد والمبالاة ، فأسرف وأفرط ، وركب لهذا من التكلف والتعسف .

(٤٣) : الهم : ما يقع في الخلد : أى يضطر بالبال : أى اللحن . أو القلب من الخواطر ، والخواجس ، والخواص ، وجمعه أوهام . ووهمت الشيء (من باب وعد) : دار في خاطرى ، ووقع في خللى . وأوهمني غيرى : أداره في بالى . والكذاب : الكذب . والسفاهة : الجهل . ويؤهمنى نفسى الكذاب : أى توقع في ذهنى الهم المشار إليه في البيت السابق ، وهو أنى حالم . وهذا وهم كاذب ، لا حقيقة له . و«ألا» : حرف استفتاح ، وتنبه . وتدل على تحقق ما بهدجا . والمآثم : جميع مآثم (بوزن مذهب) : وهو الإثم والذنب .

يقول : إن نفسه — لشدة تأثرها بجمالة الممدوح وظلمته — تدل عن الحقيقة والواقع المذهل ، ويجهج للجهل والسفاهة ؛ فتوهم أنه حالم ، وهو وهم كاذب . والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل ، مؤكداً لمضى الشطر الأول ، لما الأوهام إلا طرق تنتهى بالواهمين إلى الغفيمة والكذب ، والإثم والضلال . وقد أشرنا من قبل إلى المغالاة التى أخرجت هذا البيت والبيتين اللذين قبله من دائرة القصد والاعتدال .

(٤٤) : حد السيف ونحوه : مقطعه وشفرته ، وطرفه الرقيق الحاد القاطع . والبشر : الباشة ، وعلاقه الوجه . والمطاعم : الأطعمة جميع مطعم (بوزن مذهب) : وهو الطعام الذى يؤكل . أو هو مصدر ميمى من طعم الشيء (من باب فهم) : أى ذاقه ، أو أكله . ومرارة مطام الممدوح : كناية عن أن عرضه مصون مطوور ، لا يؤكل ، ولا ترقى إليه إساة أو تمجرح . أو كناية عن شدة بأسه ، ومرارة عقوبته إذا غضب . وتلقاه : تلقى الممدوح : أى تلقاه حلو البشر إذا رضى . ولان ، ومر المطاعم إذا غضب واشتد . أو تلقاه : تلقى السيف . وحلاوة بشره في روثقه وتلاذته . ومراره طعمه في أنه أداة القتل والإهلاك .

يقول : إن بمدحه كالسيف في حده لين ورقة . وفيه مع هذا صلابة وشدة ؛ فإذا رضى كان حلو البشر ، طلق الوجه ، رحب الباع ، خصب الجنب ؛ وإذا غضب كان قوى البأس ، شديد البطش ، صعب المراس ، مرّ المقاب .

تَرَاهُ لَدَى الْخُطْبِ الْمُلِمِّ مُجْمَعًا عَرَا الْحِلْمَ نَبْتَ الْجَائِشِ مَا ضَى الْعَزَائِمُ^(٤٥)
 لَهُ النَّظَرَةُ الشَّرَّاءُ يَغْتُوبُهَا الرُّضَا لِاسْتَعَافِ مَظْلُومٍ ، وَارْغَامِ ظَالِمٍ^(٤٦)
 فَلَوْلَا نَذَى كَفَّيْهِ أَوْقَدَ بَأْسُهُ لَدَى الرَّوْعِ أَطْرَافُ الظُّبَا وَاللِّهَازِمِ^(٤٧)

(٤٥) « لدى » : ظرف مكان ، أو زمان : بمعنى « عنه » . والخطب : النازلة ، والحادث الجلل ، والشديدة من شدائد الدهر ، والأمر العظيم المكره يكثر فيه التعاطب . والملمم : اسم فاعل من ألم به إلماً : أى حل . ونزل . والعرا : جمع صروة : وهى من القميص أو الثوب : ما يدخل فيه الزر عند شده . ويجمع هرا الحلم : تمييز مجازى ، يراد به ضبط النفس ، والاستسالة بالحلم ، وإدراع الصبر ، وتحكيم العقل ، والاحتواء بوجهه وتوجيهه . وثبت : ثابت ، رابط . والجائش : القلب أو النفس . وماضى : قاطع ، نافذ . والعزائم : جمع العزيمة : وهى الإرادة القوية المؤكدة ، وما عزمت عليه : أى أردت فعله ، وعقدت عليه نيتك ، وصممت فيه .

مدحه بما ينبغي أن يتدبر به الرجل النظم في الخطوب والملمات من رباطة الجأش ، وقوة الإرادة ، والاحتصام بالصبر ، والاحتواء بالعقل ، وتجميع هرا الحلم ، ولقاء المكاره في شجاعة وبسالة وإقدام . ولا ريب أن هذه المزايا تبين المرء على مكافحة البلايا والنوازل ، وترد عنه حاديات البهر ، وفواهب الزمان ، أو تخفف وقعها ، وتضئف أثرها ؛ لأنه يلقيها بما يكافئها ، بل يفوقها من قوى النفس والعقل والتدبير والإيمان .

(٤٦) نظرة شرراء : نظرة غضب ، أو إغرام ، أو بغض وكرهية . ويعقبها (من يابى نصر وشرب) : يخلفها ، ويتلوها ، ويأتى حل إثرها . أو هى يعقبها : مضارع أعقبه إعتقاباً : بالمعنى السابق . وأسفه إسفاً : ساعده ، وأمانه . أو وأناه ، وقرب منه في مصافاة ومعاونة . والرهام (فى الأصل) : التراب . وأرضه إرهاماً : الصقة بالرهام : أى انقاه فى التراب . ومن إهباز : أرفعه : أى أذله ، وقصره وقهره . وأمانه .

والمنى : أن الملوحد يرضى ، ويفضبط لإقامة العدل ، وفى سبيل الإصلاح ، وردّ المظالم ؛ فظلمظوم منه الرضا والاعتناء ، والإسفاف وإساجل الإنصاف . والمظالم انفسب والمقت ، والإرهام والقصر حتى يقلع من ظلمه ، ويسلك سبيل الرشاد . وفى البيت مهالفة لطيفة محسودة ؛ فالنظرة الشرراء من الملوحد إلى الظالم تكن لردعه وزجره وكفّنه عن الظلم والبدوان . ومعنى هذا البيت قريب من معنى البيت الرابع والأربعين : « هو السيف فى حديه لين وشدة .. »

(٤٧) « لولا » حرف يدل على امتناع شيء لوجود غيره . وهى هنا داخلة على جملتين اسمية فعلية ، لربط امتناع الثانية بوجود الأولى ، فالوجود ندى كلفه . والمتمنع لإيقاد بأمره أطراف الظبا واليهادم . والتنى : البلب والمطر . وبخار الماء يتكاثف في طبقات الجو الباردة في أثناء الليل ، ويسقط حل الأرض قطرات صغيرة . ويستعمل التنى مجازاً في الجود والخير ، والفعل والسخاء . والبأس : الشجاعة ،

وَلَوْلَا ذَكَاهُ أَعْشَبَتْ بِسَيِّئِهِ قَنَا الْخَطَّ بِوَاحْصَلَتْ طُرُوسُ الْمَطَالِمِ (٤٨)
لَهُ (بَيْتٌ) مَجِيدٌ عَرَفَرَتْ دُونُ سَقْفِهِ حَمَامُ الدَّرَارِي ، مُشْمَخِرٌ الدَّعَائِمِ (٤٩)

صدائقه ، والشدة في الحرب ، والروع : الفزع . ومن الهجاز : شبه الروع : أي الحرب . والظبا : جمع ظبة : وهي حد السيف ، أو السنان ، أو نحوها . والهبذم : جمع هذم (بوزن جعفر) : وهو الحد القاطع من السيف والأسنة ونحوها .

وَرَدَى الشاعر بالمعنى الحقيقي للندى (وهو قريب ظاهر غير مراد) عن المعنى الهجazy (وهو البعيد المراد) ، وسره بالإيقاد ؛ فالندى بمعنى الماء هو الذي يطلق النار الحارقة . والمملوح شجاع ، قوى ، شديد البأس في الحروب . ومن شأن هذه الشدة أن تكثر الجلود والضراب ، والوفز والطمان . ، ومن شأن هذه الكثرة أن تجعل أطراف الظبا والهبازم ، وما يستخدمة من أسلحة الحرب وأدوات القتال — تتعد في كلبه لولا تداعها . والمعنى الهجazy البعيد المراد : أنه سعى بجواد كريم مطاء ؛ لكلاهما نديتان بالمعروف والإحسان . ويدها مسوطتان بالخير والإنعام . وفي ظل المعنى القريب هذه التورية نود الشاعر بشجاعة المملوح ، وإقدامه ، وشدة بأسه في الحروب ، وتمرسه باستخدام أسلحة القتال والتزاول أو قد بأسه لدى الروع . . .

(٤٨) الذكا : الذكاء (يقصر ، ويمد) . وأعشب المكان : نبت فيه العشب ؛ وهو الكاؤه الرطب . ولوقال : «أورقت» بدلا من «أعشبت» لكان أول وألق . وأورق الشجر : نبت ورفه وظهر . ويمينه : يده اليمنى . والقنا : جمع قنات ؛ وهي الريح الأجيوف . وقنا الخط «فاعل» أعشبت . والقنا (في الأصل) : أخضار مستقيمة من الشجر . وأشجر إذا وجد الندى أورق وأعصر وأعصر . والخط : موضع ، أو مرقا للسفن في بلاد البحرين تباع فيه الرياح ، وتنسب إليه . وأخضلت : نديت ، وأبتلت . والطرُوس : جمع طرس (بوزن فرس) : وهو الصحيفة . والمظالم : جمع مظلة ؛ وهي ما تطلبه عند الظالم . أو ما احتملته من الظلم . أو ما أخط منك ظلماً . والمظلمة : مصدر بمعنى الظلم . وطروس المظالم : صفات شكوى الظلم .

يقول : إن يد المملوح ندية كريمة سخية ، مسبوقة بالخير والبر والمعروف والإحسان . ولولا ذكاؤه أي حدة ذهنه ، وقوته قريحته لأورق بنى عناه ما يسكه من الرياح ، وأبتل بهذا الندى ما بين يديه من صفات الظلمات التي يرفها إليه المظلومون . والشاعر في هذا البيت والبيت السابق يمتحن لشكوكه ، ويدلل في المدح ويتزيد ، ويتجاوز حد القصد والاعتدال ، ويتلاعب بالألفاظ ، فالذكاء يحمل معنى التيقن والتهلب والاشتغال ، ولولا لأورقت الرياح في يديه التنتين ، وأبتلت صف الظلمات : إذ التيقن يخفف الندى ، ويذيل أثره . والندى يطلق التوقد ويعتمده . ولولا لاقتدت في يده أسلحة القتال .

(٤٩) أسلفنا أن الأصل المخطوط الذي بين أيدينا يحية فقص ، وخطأ ، وتحرير ، وتصحيح غير قليل . والكلمة التي بين القوسين «بيت» تكلمة من عندنا ، أضفناها إلى هذا الأصل الناقص ؛ =

فَمَنْ رَامَهُ ، فَلْيَتَّخِذْ مِنْ قَصَائِدِي سَطُورًا إِلَى مَرْقَاهُ مِثْلَ السَّلَالِيمِ^(٥٠)
 قِيَابِنَ الْأَكْبَى سَادُوا الْوَرَى ، وَأَنْتَهُوْا إِلَى تَمَامِ الْعُلَا مِنْ قَبْلِ نَزْعِ التَّمَائِمِ^(٥١)
 أَهْنِيكَ بِإِلْمُكَ الَّذِي طَالَ جِيْدُهُ بِعِزِّكَ ، حَتَّى حُلَّ بَيْنَ النَّعَائِمِ^(٥٢)

== فاستقام بها انتظم والمعنى . ويراد بالبيت : بيت الولاية ، والملك الذي أسسه جدّ المملوح : وهو محمد على باشا الكبير . أو يراد بالبيت : الأسرة المحمدية العلوية . ورفرف الطائر : بسط جناحيه وحركهما . و « دون » هنا : بمعنى « تحت » . والندراي : النجوم الثاقبة المخفية ، والكواكب اللامعة المتألقة ، واحدا دوى . نسبة إلى الدرّ : وهو اللؤلؤ المظلم . وحمام الندراي : الندراي المشبهة بالحمام ، فهو من إضافة المشبهة به إلى المشبهة ، ومشفّر : عظيم الطول والعلو والارتفاع . وهو صفة لـ « بيت » . والندعام : جمع دِعامَة (بوزن رسالة) : وهي عماد البيت الذي يقوم عليه . ورفرفة الندراي تحت سقف البيت : كناية من إفراقه في السمو والارتفاع . وكذلك استخراخ دعامته . وهذا كله تصوير حسّي لمجادة أسرة المملوح ، وشرف محمّده . وقد رفع الشاعر ذلك البيت فوق الكواكب والنجوم .

(٥٠) رامه : رام بيت المملوح : أي أراداه ، وقصده . والسطور : جمع السطر : وهو الصف من كل شيء . والسطور المتخذة من قصائده : كلما ته في مدح ذلك البيت ومجيدته . والمرقى : مصدر موسى بمعنى الرقى : مصدر رقى الجبل ونحوه (كرضى) : أي صعد فيه ، وعلا . والسلام : جمع السلم . والمعنى : من أراد الإلمام بشيء من عظيمة ذلك البيت الرفيع الكريم ، فليتخذ من قصائدي في تمجيدته سلماً يرقى به إلى تلك المعرفة . أو المعنى : من أراد التقرب إلى ذلك البيت المجيد العظيم ، فليسلك سبيل ، وليحتد مثالي ، وليتغنّ بمدائحى . وفي هذه القصيدة ما يرجّح أن الشاعر نظمها في العود الأول من أطوار حياته الأدبية ، قبل أن تنفج سليفته الشعرية ، ويرقى في مراتب الإجابة والإقتان .

(٥١) الألى : الذين : اسم موصول لجماعة الذكور المقلاء . والورى : الخلق والناس . وانثام جمع تميّة : وهي غرزة ، أو ما يشبهها ، كان الأعراب يعلقونها في حقن الطفل ، لتقيه - في زعمهم - العين والحسد ، وتدفع عنه الأرواح الشريرة . وتطلق التميّة على كل ما يحمله الطفل ، أو يملق في حنقه للفرس السائف . ونزع النثام : أو اقتلاعها ، أو إزالتها : كناية عن أن الطفل قد كبر ، وجاوز مرحلة الطفولة .

يقول : إن المملوح من سلالة أمجاد شرقاء ، يدين لهم الناس ، ويحتلون فيهم مناصب الرياسة والزعامة والسيادة . وقد بالغ وقال ، فرفع ولدان هذه الأسرة وأطفالها إلى قمة العلاء والسماء .

(٥٢) هنا بالأمر تهتة : مخاطبه راجعاً أن يكون هذا الأمر محبث سرور له . والأصل أهتتك بالملك . وسهل الشاعر المهمة ، فقلها ياه . وقد تولى الخديو إسماعيل ملك مصر في السابع والعشرين من رجب سنة ١٢٧٩ هـ (١٨ من يناير سنة ١٨٦٣ م) وكان عمره يومئذ نحو ٣٢ سنة . وأجلجه : المتق . وطول جيد الملك : كناية عن عظم شأنه ، وعموم مكانته ، وزعمه ، وإصابته ، وإتهاله بمزة = ديوان البارودي - ٣

لَسُوْدَتُهُ بِالْفَخْرِ؛ فَأَبْيَضَ وَجْهُهُ
تَذَارِكُهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ كَادَ يَنْمُجِي
بِكَيِّ زَمَنًا ، وَاغْبَرَ ، حَتَّى أَتَيْتُهُ
يَأْسَمَرَ خَطِيٌّ ، وَأَبْيَضَ صَارِمٌ .^(٥٣)
لِفَرْطِ تَبَارِيحِ الدُّهُورِ الْفَوَائِمِ .^(٥٤)
فَعَادَ رَجِيبُ الصَّنِيرِ ، طَلَقَ الْمُبَاسِمِ .^(٥٥)

— الممدوح وقوته وعظمته . والندائم : منزلة من منازل القمر ، صورتها كالنخامة .

هنا الممدوح بملك مصر ، راجعاً أن يكون مبعث سروره وهنائه وسعادته . وقال : إنه بعزة الممدوح وقوته عزَّ الملك وزعماً ، وأبهى وسماً ، وارتفع شأنه حتى احتل الأفلاك ومنازل النجوم والكواكب .

(٥٣) واللام : في أول هذا البيت : لام الابتداء ، ولطائفها توكيد مضمون الجملة بعدها . أو هي واقعة في جواب قسم مقدّر : أي والله لسوّدته بالفخر . وسوّد الملك بالفخر : جعله سيّداً شريفاً . أي عظيماً ثانياً ، ولطم الشان بمفاخره ومناقبه ، وعظمته ، وعالي كفايته . وكفى بيباض وجه الملك عن صلاح شأنه ، واستقامة أمره ؛ فإنهم يحملون البياض مثلاً لصلاح والاستقامة ، والسواد مثلاً للفساد والانحراف . والأصمّر : الزرع . والخطي : المنسوب إلى الخط : وهو موضع ، أو مرقاً للسن ببلاد البحرين . وفيه لباع الرياح ، وتسب إليه . والأبيض : السيف . والصارم : القاطع .

والخطي : أن الممدوح جعل - بمنابته ومفاخره - ذلك الملك عظيماً ، عالي القدر ، رفيع الشان . وأنه أصلحه وقوّمه وقوّاه بقوة الجند والصلاح .

(٥٤) تدارك الشيء : طلّبه ، وأدركه ، وأثبته ، وأصلح شأنه . أو هو من قولهم : تدارك الخطأ بالصواب ؛ فالممدوح تدارك الملك بالتقويم والإصلاح . وينمى : بطاوع هماء يحميه . ويجوز قلب النون ميماً ، وإدغامها في الميم الأصلية ، ليقال : اجئى يسمّى ائمه . وفِرط : اسم من الإفراط : وهو مجاوزة الحد . وبرّح به الأمر تزيّجاً : جهّده ، وأثبته ، وألح عليه بالمشقة ، وأذاه أذى شديداً . وتباريح الدهر : صروف الزمان وشدائده . والفوائم : صفة للدهور : جمع غاشم : اسم فاعل من غشمه (من باب ضرب) : أي ظلمه أشد الظلم .

يقول : إن الممدوح تدارك ملك مصر ، فأثبته وأرساه وقوّاه ، وأصلح شأنه ، وأثبته ، وعيّن له ، وأزال عيوبه ، بعد أن بلغ غاية الضعف ؛ لكثرة ما قوّل عليه من شدائده الزمان ، ومظالم الأيام . ولعله يشير بهذا البيت والبيت الآتي إلى التكة ، أو الركود ، أو الهدوء ، أو التوقيف ، أو التأخير الذي أصاب الملك والبلاد المصرية في بعض العهد بعد عهد محمد حل .

(٥٥) فاعل « بكى » : غدير « الملك » في البيت الثاني والخمسين . واغبر : علاه الغبار : وهو التراب أو الرماد اللينقي الناعم . واغبر : صار أغبر : أي يلون الغبار . وبكاه الملك واغبراره : كناية عما أصابه ، وأصاب النهضة المصرية من الركود أو التكة . وأتيت : توليته . وعاد : صار . ورجابة الصدر : كناية عن الانشراح والارتياح . وكذلك طلاقة لباس . والطلق من الرجوع : المنطلق الضاحك ، المتجلل المستبشر . واللباس : جمع المبسم (يوزن المجلس) : وهو الثغر ، وما يبدو من الأسنان عند الابتسام . ويراد باللباس هنا : الرجوع ؛ فإن الطلاقة للرجوع ، لا للباس . —

وَسُسِّتِ الزُّرَى بِالْعَدْلِ حَتَّى تَشَوْقَا إِلَيْكَ التَّوَى جِيدُ الدُّهُورِ الْقَدَائِمِ (٥٦)
وَجِئْتَ مَجْبِيءَ الْبُذْرِ مَدَّ شُعَاعُهُ عَلَى أَقْنِي بِالْجَوْنِ وَخَفِيَ الْقَوَائِمِ (٥٧)

والمنحى : أن ملك مصر ساءت حاله ، واعتلت أموره فترة من الزمان ، فلما تولاه المنلوح نهض به إلى مثل ما كان عليه في عهد جده . من القوة والازدهار ، والعظمة والإشراق .

(٥٦) ساس الولي أو الحاكم الناس ويسمى سياسة : تولى رياستهم وقباعتهم ، ويدير أمورهم ، ونظر في مصالحهم . ويراد بالورى الرعية : أى الأمة التى تولى حكمها ، وزهاية مصالحها . وتشوقاً مفعول لأجله : مصدر تشوق إلى الشيء : أى اشتد شوقه إليه . أو هى تشوقاً (بالغاء) : مصدر تشوق إلى الشيء : أى تطلع إليه . والتقى : مال وانطلف . والقدايم : جميع سمى لتقديم ، وقدايم . ولعل الشاعر يريد بالدهور القدايم : عهد المشهورين بالعدل من عظماء الخلفاء والملوك ، كمن بن الخطاب ، وحمزة بن عبد العزيز بن مروان وأمثالهما . والقواء أجياد الدهور القدايم متشوقة إلى المنلوح : تصوير سعى بلع لإحباط القدايم من عظماء الملوك والحكام الماديين بسياسة المنلوح القائمة على العدل والرشاد ، والمساواة والإنصاف .

يمدحه بأنه ساس رعيته سياسة رشيدة حديثة ، لمسط عليهم ظلال العدالة والإحسان ، وأحيا سنة المشهورين من عظماء الخلفاء والملوك ، فانطلعت إليه أعناق يهودهم في شوق شديد ، وحين وإقبال . أو تشوقوا إليه تلك اليهود الفائرة ، ونظرت إلى طلعه نظرات التمتع والإكبار ، والإجلال والإعجاب . وقد يكون المنحى : أن المنلوح لما ساس أمته بالعدل والإحسان تشوقوا إليه الأزمنة القديمة التى حشرت لعبة العدالة ، وشقيقت يجر حكامها وبهمهم ، وتمت لوعادت إلى الرجوع ، لتتم بحكم الرشاد العدل ، وسياسة الرشيدة الحكيمة .

(٥٧) الشعاع : ضوء الشمس الذى تراه كأنه مخروط ، أو حبال ممتدة . وأحده شعاع . والجمع أشعة . والأقن : الناحية من نواحي الأرض والسماء . ويمتد ما تراه العين من الأرض ، كأنما اتقت عنده بالسماء . وجميعه أقان . والجون : السواد ، والأسود ، والظلمة ، وجميعه جون (بضم الجيم) . والرجف من الأجنحة : الكثير الريش . ومثله الواصف . والرجف من الشعر ونحوه : الأبيض ، الفزير ، الكثيف ، الطويل ، الأسود . والقواديم الريشات التى فى مقدم جناح الطائر . وهى كبار الريش . وتحتها الخواقي : وهى صغرها . والواخفة قادمة . ويراد بالقواديم هنا : الأجنحة : أى مد شعاعه على أقن أجنحته وأخفة سودا . وبالجون : متعلق بوشح : أى على أقن قوادمه وأخفة بالجون . وقد يراد بالجون : السحاب الكثيفة السود التى أعظم بها الأقن . والفرض المبالغة فى تصوير ما يمدّه ضياء البدر من الظلمات الخالكة التى طبقت أفاق السماء والأرض .

بِرَأْيِ كَخَيْطِ الشَّمْسِ نُورًا، تَخَالُهُ فَرِنْدًا تَمَثَّى فِي خُدُودِ الصَّوَارِمِ (٥٨)
 قَلَوْ مِصْرُتُنْدَرِي أَرْسَلْتَ (لَكَ) نَيْلَهَا لِيَلْقَاكَ فِي جُنْحٍ مِنَ اللَّيْلِ قَاتِمِ (٥٩)
 وَجَاءَتْ لَكَ الْأَهْرَامُ تَسْمَى تَشْوُوقًا إِلَى دَارِ «قُسْطَنْطِينِ» سَمَى النَّسَائِمِ (٦٠)

(٥٨) «لو» هنا : حريف شرط مقيد بالزمن الماضي . وتفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط ؛
 فهو رأى . أى صاحب بصيرة ، فطن ، حاذق ، غير ، قوي الإدراك . وشيخ الشمس : لهاها ،
 أو شعاعها . وهو غريبها الذى تراه كالمحيط أو الحبال الممتدة . وقوفاً : تميز ، أو مقبول مطلق لفعل
 مخلوف أى يَسْتَوِر نُورًا . وتخاله : تتخال رأى المملوح : أى تحسبه وتظنه . وفرند السيف : جرمه ،
 وشبهه : وهو ما يلمع في صفحته من أثر تفرج الفضة ، أو ما يرى فيه شبه مذبح الخ ، أو شبه
 الفهار . والصوارم : السيوف القواطع ، مفرجها صارم . وغروبها : جولانها وصناعاتها .
 شبه رأى المملوح بنور الشمس ، ولعان السيف الباتر . وفي هذين التشبيهين معنى كشف المعتميات ،
 وحل المشكلات ، وسم الأور بساد تدبيره ، وفناذ بصيرته ، وقوة فطنته .

(٥٩) «لو» هنا : حريف شرط مقيد بالزمن الماضي . وتفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط ؛
 فمضى ولودرت لأصلت : لنى الشرط والجواب كليهما : أى لما دُرْتُ ، ولا أرسلت . وما بين القوسين
 وهو ذلك : تكلمة من عندنا ، سادها بها . نقص هذا البيت في الأصل المخطوط الذى بين أيدينا . وهذه
 التكملة استقام وزن البيت ونظمه . وجنح الليل (يغم الجيم ، وكسرها) : طالفة منه . أو ظلامه ،
 واختلاطه . وقام : أسود شديد السواد . ولعل الشاعر ينى بالشعر الثانى : شدة الفرح والإعجاب ،
 وسرعة الإرسال والانطلاق . وسرعة اللقاء والاستقبال ، حتى ولو كان في جنح الليل القاتم .

والمضى : لو عرفت مصر بمجامع مساميك في القسطنطينية لأرسلت إليك نيلها على جبل : ليلقائك
 بالهبة والتكريم .

وصلة هذا البيت بالذى قبله أن المملوح امتاز بسداد الرأى ، ونفاذ البصيرة ، وإحكام التدبير ؛
 ولهذا لمجعت مساميه في الآسنة ، وتحققته آماله ، وصاد إلى بلاده بالخير الكثير ، والفوز التام .
 وفي شرح البيت الآتى زيادة تفصيل وتوضيح لهذا الكلام .

(٦٠) دارقسططين : القسطنطينية . وتشتهر به «استنبول» و«الآسنة» ؛ واسمها القديم «بيزنطة»
 وتنسب القسطنطينية إلى قسطنطين الأول الكبير (٢٧٤ - ٣٣٧ م) أميراطور روما الذى قول الحكم
 سنة ٣٠٦ ، ونقل عاصمة الإمبراطورية من روما إلى بيزنطة سنة ٣٣٠ ؛ فسميت القسطنطينية . وفي عهد
 قسطنطين الحادى عشر فتحها الأتراك المماليون بقيادة محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ م ، وظلت حاضرة دولتهم
 إلى أن خُسِعَ فيها آخر سلاطينهم سنة ١٩٢٢ - وفى سنة ١٩٢٣ جعلت الحكومة الكمالية مدينة «أنقرة»
 حاضرة لجمهورية التركية الحديثة . والنسائم : جميع النسيم : وهو الريح العلية الينة العظيمة ، لا تحرك
 شجراً ، ولا تمضى أراً .

فَبُورِكتَ فِي مَلِكُ وَرِثْتَ ذَمَّاعَهُ وَخَلَّعَتْهُ فِي نَسْلِ مَجْدِ أَكَارِمِ^(٦١)
بِهِمْ كُلُّ غَطْرِيفٍ يَمُدُّ إِلَى الْعَلَا يَدًا خَطِيعَتْ فِينَا لِبَذْلِ الْمَكَارِمِ^(٦٢)

— حلف الأكرام على نهر النيل ؛ فلو علمت بما انتهت إليه مساعي المملوح في القسطنطينية لسمت إليه في شوق شديد ، وفي رقة الأنسام وطيبها ولطافتها ، لتلقاه في حاضرة الخلافة بتحيات مصر وتكريماتها .

وفي هذا البيت والبيت الذي قبله ما يدل على أن الشاعر نظم هذه الأمدوحة الطويلة في القسطنطينية ليكرم بها الخديو إسماعيل . وما يضيف هذه الدلالة غلاء القصيدة من الإشارة إلى السلطان عبد العزيز بالمعاني صاحب الفضل على تابعيه « الخديو إسماعيل » . وهي إلى هذا لا تكاد تتصل بالقسطنطينية ، وهي بطبيعتها بيئة ساحرة فائقة تفرض على الشاعر أن يصل بها قصيدته .

وفي الزيارة المشار إليها في هذه القصيدة ، وفي غيرها من الزيارات والاتصالات استطاع « الخديو إسماعيل » — بمساعيه — أن يكسب لنفسه ولأسرته ولعصر مكاسب غير قليلة ، منها أن صارت ولاية مصر وراثية — بلا قيد ولا شرط — لأرشد البيت في ذريته ، بعد أن كانت لأرشد البيت في الأسرة المحمدية العلوية بشرط موافقة الباب العالي . وقد أقر السلطان هذا التغيير في ١٢ من المحرم سنة ١٢٨٣ هـ الموافق ٢٧ من مايو سنة ١٨٦٦ م . وفي ربيع الأول سنة ١٢٨٤ هـ (يولييه سنة ١٨٦٧ م) منح السلطان عبد العزيز تابعيه إسماعيل باشا والى مصر لقب « خديو » ، وهي كلمة فارسية الأصل ، معناها « الأمير العظيم » . وكان الفرنسي يخصص بهذا اللقب حاكم الهند حينئذ كانت تحت سلطانهم . وفي ربيع الآخر سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) أصدر الباب العالي عهداً (قريناً) باستقلال مصر الداخل .

(٦١) . بارك الله الشئء ، وبارك فيه ، وبارك عليه : جيل فيه البركة ، وهي الخير ، والفاء ، والزيادة ، والسعادة . وبورك في ملكك : بارك الله لك في ملكك . أو باركك الله مع ملكك . أو باركك من أجل ملكك . أو مستجلباً على ملكك . والنساء (يفتح الذال) : حركة الملبوح بعد ذبحه . أو بقية الروح في الملبوح وبغيره . ولعله يشير بهذا إلى ضعف الملك ، وسوء حاله قبل أن يصير إلى الملبوح . أو هو من قولهم : « خذ منه ما دمت لك » : أي ما تهتأ ، ووصلح ، وتيسر . وورثت ذماء الملك : ورثت ما تهتأ لك منه . والنسل : الولد ، والذرية . والأكرام : جمع الأكرم : اسم تفضيل من الكرم . ولعل الشاعر يشير بالسطر الثاني إلى ما وفق له المملوح من حمل السلطان على تغيير نظام الوراثة لعرش مصر ، وجعلها لأرشد الأنهاء في نسل إسماعيل .

(٦٢) « هم » : أي فيهم . أو منهم : أي من نسل المهدي الأكرام ؛ قالبا هنا : للقرنية ؛ بمعنى « هه » . أو هي بمعنى « هن » . والعتريف : السيد الماجد ، الكرم الشريف ، السرى السخي . والمكرام : المبررات . وأفعال الكرم ، والخير ، والبر ، والفضل ، والإحسان . وظلها المكرمات .

يشيد بأعضاء الأسرة المحمدية العلوية ، ومن عسك فيهم ملك مصر من المملوح وشرته وأصله الأماجد —

يَجُولُ مَجَالَ الْبَرْقِ وَالْحَيْلِ تَرْتَمِي بِأَعْطَافِهَا فِي الْمَآزِقِ الْمُتَلَاخِمِ (٦٣)

فَمَا رَوْضَةُ غَنَاءٍ بَاكَرَهَا الْحَيَا بِأَوْطَافِ سَاجٍ، أَشْمَلِ الْبَرْقِ سَاجِ (٦٤)

الأكلام ؛ ومجلسهم بالسيادة بالشرف ، والسفاه والمروءة ، وبُعد الهمة ، وطلب المعالي . وأنهم مفطورون على البذل والجود ، والبر ، والخيل ، والمجاهد والمكررات .

(٦٣) يجول : يطوف ، ويدور . (وبابه قال) . وفاعله ضمير « كل غطريف » في البيت السابق . والمجال . مصدر ميمي بمعنى الجولان . ويجول جولان البرق : أي يجول في سرعة غاطفة كسرعة البرق . وجسلة « والخيل ترمي ... » : حال من فاعل « يجول » . وترتمى : مطلوع رماه . والمراد تدمع ، وتبدافع . والأصطاف : جمع صطف (بكسر فسكون) : وهو من كل شيء جانب . والمآزق (يوزن المجلس) : المضيّق الحرج . وجمعه مآزق . ويراد به هنا : موضع الحرب ، ويمكن القتال . والمتلاخم : الضيق ؛ فهو تأكيد لمعنى المآزق : اسم فاعل من تلاخمت الأشياء : أي تقصّمت ، واجتمعت ، وارتقاء خيل الفرسان بأصطافها في المآزق المتلاحمة : كناية عن حث القتال وشدة واستمراره .

يقول : إذا حصى الوطيس ، واشتد القتال رأيت لكل غطريف من هؤلاء الفطاريق جولات سريعة غاطفة ، ثم « حل إلكامه وشجاعته » وشدة بأسه ، وتجرسه بالحروب .

(٦٤) « ما » في أول هذا البيت : حرف نفي وروضة : مبدأ ، خبره « بألطف » من أخلاقهم وصفاتهم في البيت الرابع بعد هذا البيت : أي الثامن والستين من أبيات هذه القصيدة . والباء في « ألطف » زائدة . والروضة : البستان الحسن النضير ، والأرض الخضرة بأنواع النبات والشجر والزهو . وضياء : كثيرة الشجر والعشب : صفة من غنّت الروضة ، أو الوادي : إذا كثرت شجره ، والثف : فكثرت ذبابه ؛ فسمع له ضفّة ، فهو ألحن ، وهي غناء . وبأكرها : جامعها بكثرة : أي في أول النهار . أو سبق إليها ، وبأدر ، وبدأ بها قبل غيرها . وألحيا : المطر . وبأوطف : بسحاب أوطف : أي دان من الأرض . أو سهر المطر . أو له هيدب وذيل متدلّية . أو ثقيل مسترخ ، لكثرة مائه . والباء : بمعنى « مع » ؛ فهي للمصاحبة : أي بأكرها ألحيا مصاحباً سحاباً أوطف . أو هي بمعنى « من » كما في قوله الله تبارك وتعالى « حيناً يشرب بها عباد الله » : أي منها (الآية رقم ٦ من سورة الإنسان) : أي بأكرها ألحيا من سحاب أوطف . وساج : ساكن ، ثابت . من قويم : سجت : الخلوة العالِب : إذا سكنت ، وأفضاعت له ، واقفادت . أو دائم ، أي بسحاب أوطف دائم المطر . والأشمل من الناس : من كانت عيناه إلى الحفرة خلقه . والبرق الأشمل : الحمير ؛ ولعل حمرة دليل على ثقل السحاب ، وغزارة مائه . وساجم : منصّب المطر : اسم فاعل من سجم المطر أو الدمع ، أو نحوها (من باب دخل) : أي سأل ، وانصب . وسجمت : السحابة مطرها : أسالته ، وصيته .

وصف هذه الروضة بأنها بمجودة بحيرة ، ناضرة بهيجة ، كثيرة الشجر والنبات والأزهار .

يَصُوعُ بِهَا نَشْرُ الْعَبِيرِ ، فَتَقْتَدِي تَقَاسَمُهُ فِينَا أَكْفُ النَّوَاسِمِ (٦٥)
 إِذَا الشَّمْسُ لَاحَتْ مِنْ خِلَالِ ظِلَالِهَا عَلَى الْأَرْضِ ، لَاحَتْ مِثْلَ دُورِ الدَّرَاهِمِ (٦٦)
 يَقِيلُ بِهَا سِرْبُ الْمَهَا وَهُوَ آمِنٌ فَمَنْ أَرِيدَ سَاجٍ ، وَأَحْوَرَ بَاغِمِ (٦٧)

(٦٥) يصوع : يفوج ، ويتشتر (وبابه قال) : وبها : بالروضة الفتاة . والنشر : الرائحة الطيبة . والعبير : أخلط من الطيب . وتقتدي : تبتكر . من الاختداء : وهو التيكير في أول النهار . وقاعله « أكف النواسم » وتقاسمه : أصلها تنقاسمه . ثم حذف إحدى التامين تخفيفاً : مضارع تقاسموا الشيء بينهم : أى اقتسموه ، فأخذ كل منهم قسماً منه . ولو قال : تقسمه : أى تنقسمه : أى تفرقه وتوزعه . أو تنقسمه (من التقسيم) لكان الصق بالمعنى المراد . والأكف : جمع الكف : وهى الراحة بين الأصابع . أو الراحة مع الأصابع . أو اليد . والنواسم : جمع ناسم : أو ناسمة : اسم فاعل من نسمت الريح (من باب ضرب) : أى تحركت وهبت . بلبن ، ولطف ، ورقية ، واعتدال .

يقول : تفوح بهذه الروضة الفتاة روائح أزهارها ورياحيتها ، كأنها أخلط الطيب ، فنحلمها إليها ، وتوزعها علينا الريح المعتدلة الطيبة اللطيفة النايمة .

(٦٦) لاحت : بدت ، وظهرت ، وألحلت : الفرجات ، والشرفات : جمع خلل (بوزن جبل) . وظلالها : ظلال الروضة الفتاة . وقاعل « لاحت » فى شطرى البيت : ضمير الشمس . و « على الأرض » متعلق بـ « لاحت » . والدور : جمع دارة : وهى الحلقة ونحوها . والدراهم : جمع درهم : وهو قطعة من النقود الفضية . وقد تطلق الدراهم على النقود مطلقاً .

يشير إلى كثرة أشجار هذه الروضة الأريضة الفتاة ، والتفاف أغصانها ، واشتباك فروعها ، وكثافة ظلالها ؛ فإذا طلعت عليها الشمس نفذ ضيائها من ثغراتها الضيقة ، فبدأ على الأرض دارات ملونة كالذنانير . وهو هنا ينظر إلى قول أبي الطيب المتنبى فى وصف شبيب هجران :

وألقى الشرق منها فى ثيابي ذنانيراً تفسر من البنان

(٦٧) يقيل : ينام فى القائلة : وهى الظهيرة : أى وسط النهار . (وبابه باع) . وبها : بالروضة الفتاة . والسرب : الفريق ، أو الجماعة ، أو القطيع من الجيوان ، أو من الطير . وسنه سرب القطا . وسرب القطا . وسرب المها : وهو البقر الوحشى . وأحدته مهاة (بوزن قلاة) . وجملته « وهو آمن » حال من « سرب المها » . و « من » بيانية . وأريد : أغبر ، بلون الرماد ، وهو ممنوع من الأصرف : أى التلوين ، وإنما فون هنا لضرورة وزن الشعر . وساج : ساكن ثابت ، والمراد آمن ، مستقر ، مطمئن ، لا يزعجه شيء ، ولا يكدّر صفوه مكدر . وأحور : صفة من حوريت العين (من باب فرج) : أى اشتدت بياض بياضها ، وسواد سوادها ، واستدارت سمكتها ، ورفقت جفونها ، وأبيض ما حولها فى حسن وجهها . وحوريت العين : استودت كلها ، كأعين المها والغنم . ونعذا المعنى هو المراد هنا . وباغم : اسم فاعل من بغمت الظنية ونحوها (كنع ، وقصر ، وضرب) : أى صاحت إلى ولجها بأرغم ما يكون من صوتها . =

بِأَلْفَ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَأَصْفَاتِهِمْ إِذَا الْعُودُ ضَمَّتْهُ أَكْثُ الْعَوَاجِمِ (٦٨)
وَمَا الشَّعْرُ مِنْ دَائِبِي ، وَلَا أَنَا شَاعِرٌ وَلَا عَادِي نَعْتُ الصُّوَى وَالْمَعَالِمِ (٦٩)
وَلَكِنْ حَدَانِي جُودُهُ ، فَاسْتَشَارَنِي لِوَصْفِ مَعَالِيهِ الْعِظَامِ الْجَسَامِ (٧٠)

= والفرس هنا : وصف هذه الروضة بأنها مقبل أمين ، ويرتفع خصيب لكل ما يلقى إليها من أسراب الطير والحيراء . وصلة ما عدده الشاعر من أوصاف الرياض بأخلاق الممومنين وصفاتهم وثيقة واضحة ؛ فإن فيهم ما في الرياض من المزاي والمحسن العامة ، كالطيف ، ورقعة الحواشي ، وأريج الناس لهم ، وإقبالهم عليهم ، وإحسانهم إليهم ..

(٦٨) «بألف» : الباء زائدة . وألف : غير روضة في البيت الرابع والستين : «فا روضة غنّاء ..» وهو اسم تفصيل من الطيف : بمعنى الرق ، والرافة . أو الرقة والطافة . وأخلاقهم : أخلاق الممومنين : وهم الأسرة المحمدية العلوية ، ومن عندهم الشاعر في البيت الحادي والستين : «فبوركت في مملك ..» . والود : الخشبة . أو الفصن بعد أن يقطع . والعوامج : جمع عاجمة : اسم فاعل من عجم الإنسان الشيء (من باب نصر) : أي عصفه ، ليعلم صلاته من رعايته . وصمّت فلاناً . وصمّت عوده : أي امتنعت واعتبرته ؛ فالشرط الثاني كناية عن التجربة والاعتبار .

والمنى : إذا اخترت هؤلاء الممومنين علمت أن صفاتهم وأخلاقهم في لطافة الروضة التي وصفها في أربعة الأبيات السابقة .

(٦٩) الدّأب : العامة ، والشأن . والنمت : الوصف . والصوى : جمع الصوى (بوزن القوة) : وهي ما غلظ من الأرض ، وارتفع . وما نصيب من الحجارة ونحوها ، ليكون دليلاً في الطريق . والمعالم : جمع معلم (بوزن مذهب) : وهو ما يستعمل به حل الطريق من أثر ونحو . ولعله يشير بالشرط الثاني من هذا البيت إلى ما اعتاده شعراء المديح من وصف معالم الطريق ، وشققات السفر في رحلتهم إلى الممنوع كنوعاً يفضلها ، وتعليقاً لشأنه ، واستزادة لطلابه . وقد ألمّ الشاعر بشيء من هذا في هذه المديحة ، فوصف في نحو ستة أبيات ما ضافه مع رفاته ورواحلهم من مخامرة السرى والغروب والإعياء : لبسُ المشقة ، وعظم المشقة ، وطول السفر ، ووعورة الطريق . وقد مهد الشاعر بهذا البيت للبيتين الآتيين ؛ فإنما نظم هذا الشعر مدفوعاً بحيد الممنوع ومكرّماته وصلاياه ، وأجاده متأثراً بفوائده ومعامده ومزايده .

(٧٠) «لكن» : حرف ابتداء . وتقيد الاستدراك ؛ ففي البيت السابق قال : إن الشعر ليس من دأبه ، ولا من عادته . ولعله يقصد شعر المديح . أو يؤثّر التواضع في هذا المقام ، عل خلاف ما اعتاده من الافتخار بشعره . أو يميز عن حقيقة أمره إن صحّ أنه نظم هذه القصيدة في الطور الأول من أطوار حياته الأدبية قبل أن يجتمع له عوامل النبوغ والتفوق ، والازدهار والافتخار . أو لعله يقصد التمهيد لهذا البيت والبيت الذي بعده ؛ ولهذا استدرك ، فقال : ولكن متاقب الممنوع حدّثني إلى نظم هذه المديحة . وحدهاء على كلا : يسه عليه ، وحشّه . وحداني جوده : أسألي الممنوع إليه بكرمه وصفاته . =

وَكَيْفُ ، وَجَدَوَاهُ تَنَتَّ صَنِيعَ هِمَّتِي وَهَزَّتْ إِلَى نَظْمِ الْقَرِيضِ قَوَادِي (٧١)
فَيْلَكَ لَآلٍ ، أَمْ رَبِيعٌ تَفْتَحَتْ أَزَاهِرُهُ كَالزُّهْرِ ، أَمْ نَظْمٌ نَاطِلِمٌ (٧٢)

سنن قولهم : هذا الخاضع للإيل : أى ضننى لها ؛ لينشطها ، ويحفها على السير ، ويحفف عنها متاعب الإحمال والأسفار . واسم هذا الفناء : الحذاء . واستشارى : أثارى ، وهابنى ، وهو هنا بمعنى حادى واستهالى . وفاعله ضمير الجود . ومعاليه : معال الممدوح : جمع مبتلاة : وهى الزينة والشرف . والنظام : صفة العمال : جمع عظيمة : صفة من عظم الشيء : أى جبل ، وقصم ، وكبر ، وكثر . والجسام : صفة أخرى العمال : جمع جسيمة : صفة من الجسامة : وهى العظم والفضامة .

يقول : إنه لم يتود نظم الشعر ، ولكن مناقب الممدوح وبكراته أثارت شاعريته ؛ فنظم هذه المدحة في وصف معاليه العظيمة ، والتنويه بمحامده الجسيمة ، وتمجيد مفاخره وزياده .

(٧١) « كيف » : اسم استفهام ، مبنى على الفتح . ويطلب به تعيين الحال . والواو بعده : واو الحال . والجملته بعدها حالية : أى وكيف لا أصف بشعرى معالى الممدوح ومناقبه ومحامده والحال أن جدواه وصفاياه وبكراته أثارت شاعريتى ، وسفزتنى إلى القول والتفتنى والإشادة والتحميد . والاستفهام هنا : معناه التصحيب ، أى الإنكار ، أو التثني : أى لا يلىق بى أن أسكت في هذا المقام . ولو سكنت ، ولم أنظم هذه المدحة لكان سكوتي مثار المجد والبهش . أو لأنكرتُ على نفسى هذا السكوت ، وأذكره الناس حل ، واستهجنوا منى ومايوه . وجدواه : جدوى الممدوح : وهى العطية . والقصير : وسط المضد . أو المضد كلها : وهى غليظ النزاع : ما بين المرفق والكثف . والهمة : العزم القوي . والقريض : الشعر . والقوادم : الرايات التى فى مقدم جناح الطائر ، وهى كبار الريش ، الواحدة قادمة . ويراد بالقوادم : الأجنحة . وقد كرر الشاعر في هذا البيت معنى البيت السابق ؛ ففيه أن جود الممدوح حذاء ، فاستشاره لوصف معاليه النظام الجسام . وفي هذا البيت أن جدوى الممدوح ثنتٌ ضيع همه ، وهزت قوادمه لنظم القريض . وكنتى ضيع الهمة ، وهز القوادم : تميزان مجازيان . أو كنايةتان عن إثارة شاعريته ، وشغل عواطفه لإكبار الممدوح ، والإصجاب به ، ولظم الشعر في مدحه ، والتفتنى بمحامده وزياده .

(٧٢) « تلك » : إشارة إلى أبيات هذه الأملوسة ، أو كلماتها . والكلام هنا على الاستفهام مع حذف همزته : أى أفنك لآلٍ ، أَمْ ربيع ... ؟ . وللآل : الدَّور . الواحدة لؤلؤة . وسلفت همزة الجمع للتخفيف . والربيع : الأخضر الناضر من النباتات والشجر . وأزاهره : أزهاره . وكالزُّهر : أى كالكوكب الزُّهر : جمع الأزهر : وهو النير الزاهر ، المضيء . المتألى : والاستفهام هنا من تجاهل المعارف : وهو سوق المعلوم مساق المجهول لفرض بلاغى . . والفرض هنا : المبالغة . في التنويه بهذه القصيدة ، وتظيم شأنها ، فالشاعر يعلم الحقيقة ، ولكنه تجاهل ، وأدعى أن الأمر قد اتبس عليه ؛ لفرض الذى أشرنا إليه . ومن تجاهل المعارف فخل هذا الفرض - وهو المبالغة في المدح - قول البحرى :

ألم برق سرى ، أَمْ ضو مصليح أَمْ اجسامها بالمخطر الضاحى ؟ -

وَمَا هُوَ إِلَّا عِقْدٌ مَدَحَ نَظْمَتُهُ لِيَجِدَ عَلَاهُ فِي صُدُورِ الْمَوَاسِمِ (٧٣)
 قَعِشَ مَا تَغَنَّتْ بِالْأَرَاكِ حَسَامَةُ وَمَا اتَّجَهَتْ لِلْبَرْقِ نَظْرُهُ شَائِمِ (٧٤)
 لَكَ السَّعْدُ حِذْنٌ، وَالْمَهَابَةُ صَاحِبٌ وَشَخْصُ الْعَلَا وَالتَّصْبُرِ فِي زِيَّ خَادِمِ (٧٥)

= بالغ الشاعر في تعظيم هذه المدحة ، وحسن كلامه بحسن بديهي منوي ، هو تجاهل العارف .
 وضمن هذا التحمين تشبيه شعره في هذا الشأن بالآل والدر ، وأزهار الربيع المفتحة العطرة البهجة ،
 والنجوم الزاهرة النيرة ، المتلألئة اللامعة ؛ ولا ريب أن في هذا التعظيم تعظيماً لشأن الممدوح .

(٧٣) « وما هو » أي وما « نظم النظم » في البيت السابق . والمقد (في الأصل) : غيظ
 ينظم فيه الخرز ، أو اللؤلؤ ، أو نحوه ، ويحيط بالمتق لزيته . وجمعه عقود . ونظم النظم ، أو عقد
 المدح : هو هذه المدحة . والجيد : المتق . أو مستقيم . أو موضع القلادة منه . وصلاً : علا الممدوح ؛
 أي راعته وشرفه . وشله السلاء . والصدور : جمع الصدر : وهو مقدّم كل شيء ، وأوله . والمواسم :
 جمع موسم (بوزن مجلس) : وهو مجتمع الناس . ومواسم العرب : أعيادها الكبيرة ، ومهافلها الضخمة .
 ومهافلها ، وأصولها التي كانوا يجتمعون فيها .

جمل الشاعر مدحته هذه قلادة ، نظم فيها اليهود النفيس القيم من شعره ؛ ليستفيد ، ويتغنى
 به في صدور المحافل والجمعات الكبيرة الحاشدة ، ويزدان به شرف الممدوح وعلاؤه . ولا يخفى ما في هذا
 البيت من العنت والتكلف .

(٧٤) « عش » : أمر يراد به الدعاء . و « ما » : في شطري هذا البيت . : مصدرية ظرفية ؛
 فهو يدعو الممدوح أن يعيش مدة اتجه كل شائم بنظراته إلى البرق . وبدة تفتى الحسام على الأراك : جمع
 أراك : وهي شجرة يستاك بقضبانها ، طويلة ، فاعمة ، كثيرة الأغصان ، متقابلة الأوراق ، خرازة
 العود . ولها ثمر أحمر داكن ، في عناقيد ، يسمى البربر . وعنفودها يعلل الكف ، ويؤكل . وهي من
 أشجار البادية ، تنبت في البلاد الحارة . وتكثر في شبه جزيرة العرب ، وتوجد في صحراء مصر الجنوبية
 الشرقية . وشائم : اسم فاعل من شام الإنسان السحاب والبرق (من باب ياح) : أي نظر إليه ؛ ليعرفه
 أين يصحبه ، وأين يحضر .

دعا الشاعر للمدح بطول العمر ، ورشد العيش ، وسعادة الحياة ، ورطب هذا ببناء الحسام .
 وشيم البرق لما يحملانه من معنى الثوام والبقاء . ولما يدلُّ عليه الفناء من الإقياح والطرب ، وما يبرش
 به البرق من المطر والخير العام .

(٧٥) السعد : السعادة ، والبركة ، واليمن ، وأن يوفق الله تعالى الإنسان للخير ، ويعينه على تحصيله .
 والتحنن (بكسر الحاء) : الصديق ، والصاحب . وجمعه أصدقاء . والمهابة : مصدرها به : أي أجسله ،
 وعظمه ، أو حذره ، وخافه . ومنه رجل مهيب : أي حياه الناس ، ويؤثرونه ، ويطلبونه ، ويخافونه .
 والشخص : كل جسم له ارتفاع وظهور . وسواد الإنسان وشيره تراه من بعيد . وجمعه أشخاص . والزي : =

وَقَالَ يَذْكُرُ أَيَّامَ الشَّبَابِ :

أَسْأَلُ الدِّيَارَ عَنِ الْحَبِيبِ وَفِي الْحَشَا
دَارَ لَهُ مَاهُولَةٌ وَمَقَامٌ^(١)

— الحينة ، والمنظر ، والصورة ، والزمن : اللباس ، وجمعه أزياء . وإضافة «شخص» إلى اللا والنصر : يراد بها تشخيصهما ، وتخصيصهما ، والتحديد لقوله : « في زمرى خادم » . ويلاحظ أن جميل هذا البيت كلها أخبار يراد بها الدعاء للمفجع .

عظم الشاعر هذه القصيدة الطويلة بهذا البيت الذي جمع فيه لمعونه السعادة في صورة صديق صادق الود ، وسنتين كريم المخاضة . وللهابة في هيئة صاحب رفاقه ، ولا يكاد يفارقه . والمعالي والنصر في زمرى عظيم يقومون بخدمة ، وتوفير عزه ومنته ، ورفاهته وهنائه

* * *

• يمارض البارودي بهذه القصيدة قصيدة أبي نواس التي ملح بها الأمير محمد بن هارون الرشيد ، ومطالما :

يا دار ، ما فعلت بك الأيام ؟ لم تبق منك بشاشة تشام
وفي رواية « تشام » . وفي رواية أخرى :
يا دار ، ما فعلت بك الأيام ؟ ضامتك ، والأيام ليس كضام
فالقصيدتان متوافقتان في الوزن والزور.

(١) أسأله عن كذا : مضارع سألته عنه . هذه هي اللغة العالية المشهورة . ومن العرب من يقول : « أسأل » بحذف الهزة للتخفيف ، ونقل فتحها إلى السين قبلها . والكلام هنا يحتمل الخبر ، ويحتمل الإنشاء : أي الاستفهام الصحيح بحذف همزة . والمعنى على الخبر : إلى أسأل الديار عن حبيبي والحال أنه مقيم في قلبى . وعن الاستفهام : أسأل الديار عن حبيبي والحال أنه مقيم في قلبى ؟ فهو يتعجب ، ويعجب غيره من هذا السؤال . ويريد بالديار : المنازل المهجورة التي ارتحل عنها الحبيب وأهله وعشيرته . والحشا : ما اضطربت عليه الضلوع ، أي انطوت ، واشتملت : أي ما سواه الصدر . أو هو ما سواه البطن . ويراد به هنا : القلب ، وجمعه أحشاء . زالوا : زار الحال ، والجملة بعدها حالية وفي الحشا داره . وله : للحبيب . وماهولة : غامرة بأهلها . ومقام (بضم الميم) : اسم مكان من أقام بالمكان إقامة : أي استقر فيه ، وقوتلن . وهو تأكيد لمعنى « دار ماهولة » . أو هو « مقام » (يفتح الميم) : بمعنى منزلة ومكانة .

والمعنى : أقف بالديار الحرة ، والمنازل المهجورة أسألها — في لغة وحسرة — عن كانوا فيها من أصحابي الذين أحفظ لهم الود ، وأحبهم من قلبى جميل الإعزاز والإكرام ، أو المعنى : أسأل الديار عن الحبيب . . . ؟ ! فهو يتعجب من سؤاله ، ويعجب غيره . ووجه التعجب والتعجب : أنه لن يجد عند هذه الديار جواباً عن سؤاله . والبيت الآن يوشع هنا .

وَمِنْ النَّاءِ سُؤَالُ خَاشِعَةِ الصُّوَى بِبَيْدِ الْفَنَاءِ ، جَوَابُهَا إِزْمَامُ^(١)

ذَكَرَتْ بِهَا النَّفْسُ اللَّجُوجُ زَمَانَهَا إِنَّ التَّذَكُّرَ لِلنَّفُوسِ غَرَامُ^(٢)

(٢) الناء : التعب ، والجهد ، والمشقة . والصوى : جميع صوة (يوزن قوّة) : وهي ما غلبت من الأذى وارتفعت . وحجارة مركبة ، تجعل أعلاماً في الطريق ، ليعتد بها المسافرين في الصحارى وغيرها . ويراد بها هنا : آثار الديار التي هجرها أهلها ، ودخلوا عنها ، فأصبحت خالية خالية على عروشها . وخاشعة الصوى : الصوى الخاشعة : بمعنى الساكنة . أو الخربة المهجدة ، التي لا أثر فيها للحياة أو العمران ؛ من قولهم : غشج الجدار ، فهو غاشج : إذا انقضى ، وقصدح ، وقصدعى ، وسقط ، واستوى بالأرض . والفناء : النبيذ ، والهلاك ، والانقراض . وببدا الفناء : حال من خاشعة الصوى ، مؤكدة لمناحا . وجولها إزمام : جولها سكوت ، وصمت ، وعجز عن التلق والكلام : أي وإن تجد لسؤالك متدا جولاً .

« في البيت السابق وقف بالديار المهجورة ، والمنازل الخربة يسألها عن كانوا فيها من أحيائه ، مبهراً بهذا عن حسرتة يلفته .

وفي هذا البيت يقول : إنه يجهد نفسه ، ويشتقّ عليها باستخيار هذه الأطلال الخالية ، والرسوم الفاتية ؛ فلأنها لن « تد » إليه جوليه ، وإن تحفّف عنه شيئاً بما يكابده ويشاليه من تباريح الشرق ، ولوأجج النجيد ، وحرق الصبابة ، ومرارا الحسرات .

(٣) ذكر الشيء ، وتذكّره تذكّراً : أدام حفظه واستحضاره . أو تَجَسَّدَ في ذهنه ، وجرى على لسانه بعد نسياله . وبها : بالصوى الخاشعة : أي بالديار المهجورة . والمراد « فيها » أو « بنسبها » ؛ فالجاء في « بها » : بمعنى « في » . أو هي لبيان العلة والسبب . ولجج في الأمر بلحاجاً وبلحاجة : لازمه ، وأجج أن ينصرف عنه . أو تماهى فيه معانداً ؛ فهو ، وهي بلجج : أي شديدة العجاجة . وزمانها : زمان النفس : حيناً كانت ذائعة مع الحوى ، ودواهي الصبابة ولباساته ، ومباهج الحب والقرّيب . أو زمان هذه الديار : حيناً كانت مرتعاً للحب والهر ، وللتلاق والوصال . والغرام : العذاب الدائم اللازم . ولنفوس : متعلق بـ « غرام » . والشطر الثاني تنزيل جار مجرى المثل ، مؤكدة لمعى الشطر الأول ؛ فالذكريات قد تثير الأفيحيان المنسية ، وتجدد الحسوم والآلام ، وتكون مبعث حذاب دائم ، يلازم المرء ، ولا يكاد يفلّقه ، ولذا يدعى الحزين ، أو المهوم بالسُّلوان : أي النسيان .

والمنس : أنه كان قد أغلذ إلى شيء من السلوان ؛ فلما رأى هذه الديار ، ولجج في سؤلها ، وأطال الوقوف بها ، ذكرته ما كان ناسياً ، فهيّجت أشجائه ، وسبّه عذاب التذكّر ، والحزين إلى ذلك الملقى السعيد البعيد .

إِذْ لِلْهَوَى نَمْرٌ يَرِفُ ، وَلِلصَّبَا كَأْسٌ تُشَفُّ ، وَلِلْمَنَى إِلْمَامٌ^(٥)
تَسْتَنُّ فِيهَا الْعَيْنُ بَيْنَ مَخَانِسٍ فِيهَا السَّلَامُ تَعَانُقٌ وَلِزَامٌ^(٥)
فِي فِتْيَةٍ فَاضَ النِّعَمُ عَلَيْهِمْ وَنَحَامٌ التَّجَبُّلُ وَالْإِعْظَامُ^(٦)

(٤) الهوى : الحب ، والمشق . ويلاذ النفس إلى ما تستلذ . والهوى أيضاً : الشيء الموهى : أى المبوب ، المرغوب ، المشتهى . ونمر الهوى : نتائجه المشبهة ، ورفاله المتشعبة . ويرف : يعتز . ويتلأأ من الرى والنشأة والحسن . والصبا (يكسر الصاد) : الحداثة وصغر السن . ويقرب منه القفاة والشباب . ويراد بالصبا أو الشباب : دواعيه ويلاذاته من الهوى والمرح ، والصحة والنشاط ، وهنأة الحياة ، ورضا البال . والكأس : القدرح ماعدام فيه الشراب . أو الإثناء يشرب فيه ، وهى مؤنثة . . وتشفت (بالبناء للمجهول) : أى تشرب كلها . والمراد استيعاب متع الصبا ، ووسرات الشباب ، والغفنام كل فرصة للاستمتاع بما يحتاج من المباحج واللذات . أو هى تشفت (بالبناء للمعلوم) : مضارع شفت (يوزن خفف - يسخف) . يقال : شفت الإثناء وغيره : أى رقى ، فظهر ما وراءه . وشفت الشراب : أى راق وصفه . والمنى : الأماني ، والآمال . واحداً منها مشية . وإلمام : مصدر أَلِمَ الشيء : بمعنى قربه . وألم بالقوم ، وعليهم : أى أتام ، فذل بهم ، وزارهم .

يقول : ذكرتهى هذه الديار ذك الزمان السعيد ؛ إذ كنت أجنى ثمار الهوى رفالة ناضرة ، وأرشف كنوس الصبا صافية راققة ، وأستمتع بلذات الشباب ورفاله ، وأسدق بقرب الأماني ، وتحقق الآمال .

(٥) تستن : تغلق وتزوج مستقبله غدرة فى مرح ونشاط . وفيها : فى الديار حينما كانت عامرة بأهلها . والعين : حسان العين من النساء : جمع عيناة : صفة من العين (يوزن الفرح) : وهو أن يعظم سواد العين ، ويتسع فى جمال . ويراد بالمخانس : ما يؤرخن ويصحبهن من الحجال ، وأنكفود ، والسود : جمع مخنس (يوزن مذهب ويجلس) . . ولازمه ملازمة ولزاماً : حالته .

يصف ما كانت تزدان به تلك الديار الآلهة العامرة ؛ إذ كانت مسرحاً ومرتناً للعين الحسان المحدثات ، يمرسن فى غفودهن ، ويستشعرن البهجة والسرور والانشرح ، ويصممن روح الألفة والمحبة والوداد ، ويتبادلن التحايا بالاشتياق والانترام والعتاق .

(٦) « فى فتية » : متعلق بـ « إلمام » فى البيت الرابع . و « فى » : معناها هنا المصاحبة . وفتية : جمع فتى : وهو الشاب : أى والمنى إلمام مع فتية . وغيضان النعم عليهم : وقوعهم فى وده العيش ، وغبشة الحياة ، ونشأة الشباب ، ورضا البال . ونعاهم : رفهم ، وأهل شأنهم . من قويم : فلان ينميه حسب . (وبابه رى) . ويجمله تجيلاً : عظمه ، وقدره ، وكرمه . وأعطاه إعظاماً : فضله وكبره ، وجمله . أو رآه عظيماً . أو عدّه عظيماً .

يشير إلى ما سقى من زين الهوى والمرح ، والهوى والشباب ، والمتعة والسرور فى صحبة شبان من أماله ، تصرف فى وجوههم نخسرة النعم ، ويرفلون فى ثياب البهجة والرفاهية ، ويحتفلون بالجميع مكافة سامية ، ويلقاهم الناس بالتوقير والتعظيم .

ذَهَبَتْ بِهِمْ شَيْمُ الْمُلُوكِ بَعْلَيْسَ فِي تَلْعَابِهِمْ هَنْرَ ، وَلَا لِإِبْرَامَ (٧)
لَا يَنْطَلِقُونَ بِغَيْرِ آدَابِ الْهَوَى سُمِعَ النَّفُوسِ ، عَلَى الْبَلَاءِ كِرَامَ (٨)
مِنْ كُلِّ أَبْلَجٍ ، يُسْتَضَاءُ بِنُورِهِ كَالْبُنْدَرِ ، جَلَّ صَفْحَتُهُ غَمَامَ (٩)

(٧) ذهبت بهم : صاحبتهن ولا زواجهن . وهنهم : بالفتية . وشيم الملوك : أخلاقهم وطباعهم ، وعاداتهم ، وبصالحهم ، وسجاياهم : جميع شمة (بوزن قيمة) : والمراد أن هؤلاء الفتيان قد اتصفوا بما يتصف به الملوك من الشيم العالية ، والامداد الحميدة ، والسجايا الكريمة . والتلعاب : مصدر يلعب الكثيره ، من اللعب ولعب ، وألعب : سجد الكلام ، وانطأ ، والبطل ، وما لا خير فيه ، وما لا ينفع ، (وبلعه كفرج ، وضرب ، ولصر) . والإبرام : مصدر أبرمه : بمعنى أضجعه ، وأملته ، وأسامه . برأ لهم ويعلم من عيوب الخلد والإبرام : ولا ريب أن جذمهم وصرامتهم أشدّ بهذا وبرأه من هذه العيوب . منح هؤلاء الفتية بأنهم مؤهّبون - في جذمهم وعزيم - بأداب الملوك ، مبرّون من العيوب والنقائص التي تلبس الشباب عادة ، ويشين كثيراً من الشبان . ولا ريب أن هذا الملح يتضمن الفخر بنفسه ، فإنه صاحبهم وفروهم ، وشانه شأنهم . وربما أشار بهذا إلى ما يعتقد به من حسبه ونسبه ، وأنه من سلالة أمراء وملوك .

(٨) وأو الإجماعة في « يظفون » : شعير ، « الفتية » الذين فاض النعم عليهم .. ، وذهبت بهم شيم الملوك ... ويراد بأداب الهوى : ما يلائم طريق الطريق ، ولا يكاد يفارقه من عفة القلب والسان ، وما يليق به ، ويناسبه من الكلام المستطرف الذي لا يشين قائله ، ولا يندش الحياء . ومع (بضمين) : جميع صبح أو صبح (بوزن غشون أو فصيح) : صفة من السباحة : وهي الجود ، والبذل في العسر واليسر من كرم وسخاء . ومعج النفوس : كرامها . والبلاء : الاختبار بالهنة ، والشدة ، والمضرة ، والحادث ينزل بالمرء ، فلهمة ويحزله . وقد يبلو الله عباده بالخير والمسرّات : فالحنة والمنصة جميعاً بلاء . والأولى لتقصي الصبر . والأخرى لتقصي الشكر ، وهي أعظم البلاءين . وفي القرآن الكريم : « ولبلوكم بالشر والخير فتنة » وإلينا ترجمون « الآية رقم ٢٥ من سورة الأنبياء » ، « وهل البلاء » متعلق : « كرام : أي كرام مع البلاء . أو كرام في البلاء .

منح هؤلاء الفتيان بأن حبيب عدوي حريف ، وشهياتهم كلها محصورة في لطاق الفتنة والاستقامة ، وكلامهم في الهوى يجرى مع الأدب والطرف ، والهاقة والكياسة ، وإذا ابتليوا بالهوان والبلاء والمضار ، أو بالخير والعلانية والمشار ، كانوا - في جميع الأحوال - بمعصاة النفوس خيرين كراماً . وقد أسلفنا أن منحاً لصحبته يتضمن الفخر بمعاملته ومنتأبه .

(٩) « من » : بيانية . وما بعدها بيان وتفصيل ل هؤلاء الفتية الذين فاض النعم عليهم ... وذَهَبَتْ بهم شيم الملوك ولا ينطقون بغير آداب الهوى ومن كل أبْلَج : من كل شيء أبْلَج : أي طلق الوجه : مفرق الجبين ، وأوسع الكرم والمعروف . وصفحة كل شيء : جانب . ويراد بصفتي البدر : وجهه . والقنم : السحاب . والقطعة منه ضامة .

سَهْلُ الْخَلِيقَةِ ، لَا يَسُوهُ حَلِيسُهُ بَيْنَ الْمَقَامِ ، وَاضِحٌ بِسَامُ^(١١)
 مُتَوَاضِعٌ لِلْقَوْمِ ، تَحَسَّبُ أَنَّهُ مَوْلَى لَهُمْ فِي الدَّارِ ، وَهُوَ هُمَامُ^(١٢)
 تَتَقَاصِرُ الْأَفْهَامُ دُونَ فِعَالِهِ وَتَسِيرُ تَحْتَ لَوَائِهِ الْأَقْسَامُ^(١٣)

== وصف كل امرئ من هؤلاء الصحاب الشبان بالبشاشة ، وفضارة الوجه ، وإشراق الهيأ ، وإفراق باليلج أو التجلية إلى الله من ذوى المروء والكرم ، وشبهه بالبدر ، قسم ضيائه ، وتكشف عنه السحاب ، فأظهره وجلاً ، وقال : إن الناس يستضيئون بأنوار هؤلاء الممدوحين ، ويتلون بهت بهم . وفي التشبيه بالبدر معنى الرقة ، وبهاة الشأن .

(١٠) « سهل » : غير المختلج مخلوف : أى هو سهل . أو صفة لـ « أبلج » في البيت السابق . والخليفة : السجية ، والطبيعة التى يطبع المرء عليها . ويشتق بها . وجمها خلاق . و« بين » : ظرف بمعنى « وسط » . وهو متعلق بـ « واضح » . والمقامة (بفتح الميم الأول) : القوم ، والجماعة من الناس . وبسَام : صيغة مبالغة من البسم : وهو أقل الضحك ، وأحس . ويراد به : البشاشة ، والأريحية ، وطلاقة الوجه ، وإشراق الهيأ . فهو تكرر لمعنى البلج في البيت السابق .

ما زال الشاعر يمتدح هؤلاء الصحاب ، ويثوهم بمادهم ، فكل امرئ منهم يمتاز بالبشاشة ، والأريحية ، وإفراق الهيأ ، وسهولة الطبع ، ولين الجانب ، ورقة القلب ، لا تميمه اللطافة واللطف ، ولا يلقى جلساءه ، بل يقبل عليهم برسم طليق ، ويخلق سمح ، ويثر بسام ، ولذا كله لبه شأن هؤلاء الممدوحين ، وعظم بين الناس قدريهم ، ومحت فقيم مكالتهم ، واشتهروا بجله المزايا والفضائل .

(١١) « متواضع » : غير المختلج مخلوف : أى هو متواضع . أو غير يحد غير : أى هو سهل الخليفة متواضع . أو مولت لـ « أبلج » : أى من كل أبلج سهل الخليفة ، متواضع . والمولى : العهد ، والتابع ، والمسود . والمسام : السيد الشجاع . والسخي : الكرم . ورجل هُمام : عظيم الهمة : وهى العزم القوي ، والإرادة المؤكدة . وجملة « وهو هام » : جملة حالية .

أصاف الشاعر هنا إلى محمد أصحابه الشبان حمدة التواضع ، والبعد عن التجب ، وبرأهم من الكبرياء الممقوة ، وقال : إن الواحد منهم يكفين للناس جلاليه ، ويتواضع ، ويخشع ، فظنه تائباً ، أو مسوداً ، وهو في حقيقة أمره سيد كريم ، سخي شجاع ، كبير النفس ، عظيم الهمة .

(١٢) « تتقاصر : تميز ، أو تتضائل ، أو تنقص » أو تنهى . و« دون » : ظرف مكان : وهو هنا بمعنى « تحت » ، أو بمعنى « قبل » : أى أن أفهام الناس تتقاصر قبل أن تصل إلى فعال كل امرئ من هؤلاء الفتية . أو أن مستوى تلك الفعال فوق مستوى أفكار الناس ، وأن أعماله فائقة ، لأنه فائق الفهم ، والتفكير ، والهمة ، والطموح . والفعال (بكسر الفاء) : الأفعال : أى الأعمال : جميع فعل . أو هى للفعال (بفتح الفاء) : بمعنى العمل الحميد ، والفضل الحسن ، والكرم ، والتخير . والواء : الحكم : وهو دون الراية . والأقوام : جميع قوم : وهم الجماعة من الناس تجتمعهم جماعة يقوين لها ==

فَإِذَا تَكَلَّمَ فَالْمُغْوِسُ خَوَّاضِعٌ وَإِذَا تَنَاضَصَ فَالْصُّفُوفُ قِيَامٌ (١٣)

« مَدَحَ كُلَّ شَابٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الشَّبَانِ بِأَنَّهُمْ أَعَالَهُ عَالِيَةً حَسِيدَةً ، فَاتَّقَتْ بَاهِرَةً ، تَقْصُرُ دُونَ تَحْقِيلِهَا أَهْلَامُ النَّاسِ : أَيْ يَدْرِكُ بِفَعْلِهِ مَا يَسْبِقُ عَنْهُ خِيَالُ التَّحْقِيلِ ، أَيْ أَنَّ أَفْعَالَهُ أَوْسَعُ وَأَسْمَى وَأَعْظَمُ مِنْ قِصُورَاتِ الْأَفْعَالِ ، وَتَقْصِيلَاتِ الْأَفْعَالِ .

وَفِي الشُّطْرِ الثَّانِي إِشَارَةٌ إِلَى سَمَوِّ قَدَرِهِ ، وَصَلَوْ مَنَزَلَتَهُ ، وَإِعْجَابِ النَّاسِ بِهِ ، وَاتِّقَادِهِمْ لَهُ .

(١٣) فاعل « تكلم » : غندير « كل أبلج » في البيت التاسع . وخواضع : جميع خاضع ؛ ويراد بمضوع الرجوس إذا تكلم : خشوع المستمعين ، ورعاية استماعهم ، وحنن إنصاتهم ، والتفاهم بكلماته ، واستجاباتهم لتوجيهاته ، وانطباعهم لما يأمرهم به . وتناضص : يريد تكلف النهوض ، وحاول القيام . واللى في القاموس وغيره : تناهض القوم في الحرب ؛ أَيْ نَهَضَ كُلُّ إِلَى صَاحِبِهِ ، وَأَسْرَعَ كُلُّ فَرِيقٍ إِلَى مَقَابِلَةِ عَدُوِّهِ . ويكون التناضص كذلك فيما يشبه الحروب ، كالخصومات والمنازعات . وفي معنى الصفوف أن الناس يجتمعون إليه في اصطفااف واتساق ونظام . وقيام : جميع قائم . وفي القرآن المجيد : « وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سُبْحَانًا وَقِيَامًا » (الآية رقم ٦٤ من سورة الفرقان) . وفيه أيضاً : « وَلَقَدْ فُتِحَ فِي الصُّورِ ، فَصُفِّحَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ . ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ » (الآية رقم ٦٨ من سورة الزمر) .

ويراد بقيام الصفوف إذا تناهض : أنه إذا هم بالقيام لمخادعة مكانه بعد الفراغ من كلامه نهضت صفوف الناس تنظيماً له وإجلالاً . أو المراد أنه إذا نهض لأمر من الأمور العامة تبعتها الجماعات ، وانقادت له ، ونهضت بنبوذه ، فالمنهوضين من حبه وولائه يحتلون في المجتمع مراكز القيادة والرياسة ، وصلة الشطر الثاني بالشطر الأول واضحة وثيقة .

أطرى الشاعر في هذا البيت ، وصبة الأبيات قبله أصفاؤه الذين كانوا يصاحبونه ، إذ الهوى شمر يرف ... ويصنّفونه اليد ، ويخلصون له الإحشاء أيام شبابه ، وفوه بكثير من محامدهم ومزاياهم : فهم أهل ترف ورفاعة ويتم فيهم فيهم . ومزلتهم بين الناس عالية قيمة مرموقة ، مقرونة بالتعجيل والتعظيم . وآدابهم في جدّهم وعزيم آداب الملوك والعظماء . وكلامهم في الحب والفرح ، والهو والفراغ لا يتعجلز حدود العفة والحياء ، والظرف واللباقة . ونفوسهم طيبة غيرة ، عظيمة كريمة . وإذا ابتلوا بالهن والبلبلاء ، والشداك والملمات ، أو بالمنع والمطايا ، والنم والمسرّات - كانوا مستحاض كرماء ، أجواداً أحرّة . وفي وجوبهم البشر والطلاقة ، والإشراق والضياء . وفي سجاياهم وطباعهم اليسر والسوية ، والأريحية والسباحة ، ولين الجانب ، والتواضع الحميد ، مع الحمة العالية ، وإكرام الجلساء والخطاء . وأفعالهم أوسع وأسمى ، وأعظم وأكرم من تحصيلات الأفهام ، وقصورات الأفهام ؛ ومن أجل ذلك أعجب الناس بهم ، واستحووا لكلامهم ، وقلما لقياهم ، وساروا تحت لوائهم .

ويلاحظ أن الشاعر في هذه الأبيات الثمانية (٦-١٣) التي اختص بها هؤلاء الفتية ، قد كرّر بعض المعاني والأفكار بأساليب مختلفة ؛ فبعض شائهم ، والمفردة المرموقة التي كانت لهم ، أشير إليها في البيت السادس من أبيات هذه القصيدة . ثم تكررت الإشارة في البيت التاسع وما يليه من الأبيات . وأبليت القامان تأكيد وتكرار لمعنى البيت السابع . والبيت الثالث عشر تفصيل وتكرار لمعنى الشطر الثاني من البيت الثاني عشر .

حَتَّىٰ انْتَبَهَتْهَا بَعْدَ مَا ذَهَبَ الصَّبَا إِنَّ الْخَلَاعَةَ وَالصَّبَا أَحْلَامُ^(١٤)
لَا تَحْصِبُنَّ الْعَيْشَ دَامَ لِيُمْتَرِفِ هَيْهَاتَ، لَيْسَ عَلَى الزَّمَانِ دَوَامُ^(١٥)
تَأْتِي الشُّهُورُ ، وَتَنْتَهِي أَيَّامُهَا لَمَعَ السَّرَابِ ، وَتَنْفَضِّي الْأَعْوَامُ^(١٦)

(١٤) الصبا في الشطر الأول : الفتاة والشباب . والصبا في الشطر الثاني : الصبوة : أي جملة الفتوة ، والميل إلى اللهو ، ومرح الشبان ومبهم ، وانقيادهم لقوامي الهوى والغرام . والخلاعة : مصدر شلع (من باب غلف) ، فهو خليع : أي انقاد لهواه ، وشلع رداء الحياء ، وتَحَكَّ ، واستخف ، واستهتر . والأحلام : جمع حلم (بضم فسكون ، أو يضمنين) : وهو رقيباً للنائم .

والمعنى : ما زلتنا سادرين في لذات الهوى ، ومتع الشباب ، فاعين بأحلام الصبا ، ومرح الفتاة ، حتى أيقظتنا المشيب ، فانتبهنا من غفلتنا ، ووطننا لما كنا فيه ، وما صرنا إليه . والشطر الثاني تذييل جبار يجري المثل ، مشعر بالأسف والتدم : فإن الخلاعة والهجون ، وعبث الشباب ولهو ، والانتقاي للهوى ودواعيه ، والانطلاق وراء الشهوات والذوات ، لا يمدو أن يكون أحلام نائم ، لا تلتئ أن تبهدها يفتقته ، ولا يبق بعدها إلا حسرتة وندامته . وفي هذا البيت وأريمة الأبيات بعده انتقل الشاعر من إطراره صحابه إل ما يشبه الحكمة أو العظة ، مذكراً بسرعة زوال الحياة ، وقصراً عمر الإنسان فيها ، وانطوائه بالموت الذي يترقبه ويترصد .

(١٥) العيش : الحياة . والمترف (بصيغة اسم المفعول) : المتعم الرافه الذي لان عيشه ، ورغد واتسع وطاب . من أترف إترافاً : أي وسع عليه ، ورَفَّهه ، وذلكه . أو الذي أترفه التمتع أو المال : أي أبطره ، وأفسده ، وأطفاه ، فتجبر ، واشتدَّ حُصْرُه ، واستكباره ، واستهتاره . أو هو بصيغة اسم الفاعل : من أترف الرجل إترافاً : أي أصرَّ على البش ، وتسلَّط ، وظلم ، واستكبر واستطاع ، وتجلوز الحد . و«هيات» (بتثنية الآخر) : اسم فعل ماضٍ : معناه بَسَدَ : أي بَسَدَ دَوامُ العيش للمترف ؟ فحياته زائلة . وزوالها قريب محتم . أو بَسَدَ أن يدوم عيش الترف والمترف ، فقد ينقلب حاله ، فيشق بشظف العيش والحمران ، ويتجبرع مراوة الحسرة والحسرات . و«ليس على الزمان دوام» : تذييل جبار يجري المثل ، معناه : أن الزمان لا يبق معه شيء . أو لا يبق فيه شيء . أو لا يبق على شيء ، فهو يَفْضِي الحياة والأحياء . و«على» هنا : معناها المصاحبة . أو الظرفية .

والمعنى : أن الحياة لا تدوم على شيء الله جلَّ جلاله ، وأن الزمان كفيف بالقبض على مع العيش ولذاته ، وعلى أعمار الناس جميعاً ، مترفين ، وغير مترفين . وصلة هذا البيت بالذي قبله : أن حياة الترف والتعم التي كان الشاعر ينعم بها مع أصدقائه في عهد الفتوة والشباب قد ذهب بها الزمان ، ولم يبق لهم غير عيش الشيخوخة وأوصافها ، وغير العظة واللبرة والحسرة والندامة .

(١٦) لمع البرق وبغيره لمعاً (من باب قطع) : برَّقَ ، وأضاء ، وتلألأ . وفي اللع أو المعان معنى السرعة . والسراب : ما يشاهد في نصف النهار ، من اشتداد الحر ، كأنه ماء في المغاوير ونحوها =

وَالنَّاسُ فِيْمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَارِدٌ أَوْ صَالِدٌ، تَجْرِي بِهِ الْآيَامُ^(١٧)
لَا طَائِرٌ يَنْجُو، وَلَا دُوٌّ مِخْلَبٌ يَبْعَى، وَعَاقِبَةُ النَّفْسِ حِمَامٌ^(١٨)
فَإِذَا هُمُومُ النَّفْسِ عَنكَ إِذَا اخْتَرَتْ بِالْكَأْسِ، فَهِيَ عَلَى الْهُومِ حَسَامٌ^(١٩)

= تنكس فيه أغيلة البيوت، وصور الأشجار وغيرها. ويضرب به المثل في الكلب والخنزير والتمويه، فيقال: «هو أخلج من السراب».

يقول: إن الأيام والشهور والأعوام تمرّ بنا لامة مسرعة خادعة، كأنها لمان السراب. وفي القرآن الكريم: «والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة، يحسبه الظلمان ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا، ووجد الله عنده، فبقاه حسابه». والله سريع الحساب. الآية رقم ٣٩ من سورة النور.

(١٧) «ذلك»: إشارة إلى إتيان الشهور، وانتهاء الأيام، وانقضاء الأعوام: أي إلى دوران الزمان وحركته المصوّرة في البيت السابق. والناس فيها بين ذلك: أي في أثناء حركة الزمان ودورانه. ووارد: أي مقبل على الحياة: أي مولود يستقبل الحياة الدنيا. وهو في الأصل اسم فاعل من ورد الماء وفيره: أي أشرف عليه، وصار إليه، وداناه، وبلغه، وواقاه. ونصاد: خلاف وارد: أي صادر من الحياة الدنيا، مدبر ضئ. مفارق لها. وهو في الأصل اسم فاعل من صدر عن الماء وفيره: أي رجع عنه، وانصرف. وتجزي به الأيام: أي تسرع به إلى الموت والحلاك. والجري، أو الإسراع هنا حقيقة لا شك فيها: فإن عمر الإنسان في الدنيا محدود قصير:

بينما يرى الإنسان فيها محسراً حتى يرى غيراً من الأخبار
والمعنى: أن الناس في أثناء حركة الزمان ودورانه إما مولود يستقبل الحياة الدنيا، وإما مفقود يفارقها في سرعة. قال تعالى: «ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتصافون بينهم». (الآية رقم ٤ من سورة يونس).

(١٨) «ينجو»: المراد ينجو من الموت. والمخلب: غفر كل سبع. والحمام: الموت. والمعنى: أن الموت لا بد منه. وهو نهاية كل المخلاتق، ولن يسلم منه طير، ولا سبع، ولا حيوان، ولا إنسان. وفي القرآن الكريم: «كل نفس ذالقة الموت. ثم إلينا ترجعون». الآية رقم ٧ من سورة النعكبوت. اتجه الشاعر في هذا البيت وثلاثة أبيات قبله إلى جلالته الحكمة، أو العظمة، والتذكير بقصر عمر الإنسان في الحياة، وسرعة زوالها بالموت، وهو قضاء محتوم على كل المخلاتق. وبين الصبيب المستغرق أن يتنقل الشاعر من هذا إلى التريغيب في الخمر، ووصفها في أحد جسر بيتاً، أي في أكثر من سبع هذه القصيدة.

(١٩) أدرا: أمر من دأ عنه الشيء بكذا (من باب منع) أي دفعه به عنه دفعا شديداً، وضّاه، وأبداه، وردّه بقوة. والهوم: الأحران: جمع هم. وأصرت: نزلت، وألئت، وأصابت. وقاعه ضمير الهوم والكأس. الإثاء يشرب فيه. أو اللقح مادام فيه الشراب. وهي مؤنثة. ويراد بها هنا: الخمر. وبالكأس متعلق بـ «أدرا». والحسام: السيف القاطع.

فَالْعَيْشُ لَيْسَ يَبُومُ فِي الْوَانِهِ إِلَّا إِذَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْجَامُ^(٢٠)
 مِنْ خَمْرَةٍ تَدْرُ الْكَبِيرَ إِذَا انْتَشَى بَعْدَ اشْتِعَالِ الشَّيْبِ وَهُوَ غَلَامُ^(٢١)
 لَيْبِ الزَّمَانِ بِهَا ، فَغَادَرَ جِسْمَهَا شَبَحًا تَحَبَّرَ لِدَرْكِهِ الْأَفْهَامُ^(٢٢)

« في الآيات الأربعة السابقة تذكير بالموت ، وسرعة زوال الحياة ، وقصر عمر الإنسان فيها . وفي هذا البيت عشرة الآيات التالية رغب الشاعر في الخمر ، وحض على تحسبها ، وزعم أنها تذكّر المتاعب النفسية ، وتذهب بها . ثم وصفها ، وأطال في وصفها ؛ ولعلّ الصلة بين التذكير بالموت ، والرغبة في الخمر أن مطاردة الموت للإنسان ، وما يقاسيه في حياته من عداوة الزمان يؤلّب عليه المهدوم والأحزان ؛ والخمر - في زعم الشاعر - دواؤها والدائرة لها . أو لها غرضان منفصلان ، لا صلة بينهما . وفي بعض شعر البارودي طفرات من هذا القبيل . ومن عادة بعض الشعراء أن يستطردوا في بعض قصائدهم لوصف الخمر وتزيينها عن رغبة فيها ، وإدماها لها . وقد يكون الوصف والتزيين مجرد التلهي ، والانتطاع للملكة الشعرية ، والانتطاع في مجالها ، وإضافة هذا الضرب أو الفن إلى ضروب القول ، وفنون الشعر ، وألوان البيان .

(٢٠) يريد بالعيش : المعيشة المنيعة ، والحياة الممتعة . ويريد بالوان العيش : أنواع التمتع ، وصنوف اللذات ، وضروب المتع . ودارت عليه : دارت على العيش : أي خالطته ، وامتنعت به . والجام : الكأس ، وهي مؤنثة ، فارسية الأصل ؛ ويراد بها الخمر .
 يزعم أن جامات الخمر إذا دارت على مستنها هيئات لم عيشاً متمماً شيئاً ، وأدامت لهم ألوان المتع ، وضروب اللذات .

(٢١) « من خرة » : بيان للجام في البيت السابق : أي دارت عليه جامات الخمر . وقد يكون المشتق محذوفاً ، تقديره « ارتشف » مثلاً . وقد يستعمل هذا التمييز لتجنب الإلحاد به التحسين والتزيين ، والرغبة والتحبیب : أي ناهيك من خرة ؛ كأنها تهاك بلذتها عن تطلّب غيرها . وتذر : تدع ، وتترك . ويريد بالكبير : الأشيب . وانتشى : سكر . واشتعال الشيب : ظهوره وكثرته وانتشاره في شعر الرأس ؛ مستعار من اشتعال النار . والغلام : الصبي إذا طرّ شارب ، وشارف البلوغ . ويراد به هنا الشاب الفتي . وجملة « وهو غلام » : جملة جالية .

يقول : إذا احتسى الأشيب الخمر ، وسكر بها تركته شاباً فتياً : يريد أنها تردّ إليه قوة الشباب ونفادته . أو أنها تجرّده من وقار الشيخوخة وزرائفها ، وتقريه بمرح الشباب ولغو .

(٢٢) لعب الزمان بها : كناية عن تضييقها ؛ أي تركت مع الزمان الطويل حتى قدّست ، وطابت . وصفت ، وجددت . وغادر : ترك . والشبح : ما بدا لك شخصه غير جليّ من بعيد . وشجع الشيء : ظله ونشأه وصورته . وهو يكنى بصيرورة جسمها شيئاً عن فرط رقتها وخففتها ولطافتها بالتمتيق . وحار =

حَمَرًا، دَارَ بِهَا الْحَبَابُ فَصَوَّرَتْ فَلَكًا تَحْفَ مَسَاءَهُ الْأَجْرَامُ^(٢٣)
لَا تَسْقِمُ الْعَيْنُ فِي لَمَعَانِهَا وَتَزِلُّ عِنْدَ لِقَائِهَا الْأَقْدَامُ^(٢٤)
تَعْشُو الرُّكَّابُ، بَلَّانَ تَبْلُجَ كَأْسِهَا سَارُوا، وَإِنْ زَالَ الضِّيَاءُ أَقَامُوا^(٢٥)

— بحر : نظر إلى الشيء ، ففشي عليه ، ولم يجد لسييله . ولدركه : من أجل إدراكه . أو في سبيل إدراكه .

يقول : إنها خرجيدة معتقة ؛ طال عليها الزمان وتلاها ، حتى رقت ورأقت ، وصار جسمها — لفرط رقتة ولطافتها — كالشيخ الخفي ، تحار العقول في إدراكه ، ولا يتعدى إلى معرفة حقيقته .

(٢٣) « حمراء » : خير مبتدأ محذوف : أي هي حمراء . أو نعت لعمدة في البيت الحادي والعشرين : أي من خرة حمراء . والحباب : الفلقايع التي تملو على وجه الماء أو البحر ، كالقوارير : وهي البمايل : والنشأعات . ومن كلامهم : « ملأ الحباب حل الشراب » . وفاعل « صورت » ضمير البحر : أي صورت بجهاها . والفلك : الفضاء يدور فيه الكوكب . وحف القوم الرزيل (من باب رد) : أي أطافوا به ، وأبدعوا ، واستداروا حوله . والأجرام : الكواكب والنجوم .

أشار في أول البيت إلى لبن البحر . وقال : إنها إذا صببت في كتونها ، ومزجت بماء قبل شربها ، دارت فيها البمايل ، وظهرت فوقها بياض لامة متلافة ، فصورت لشاربها فلكا تدور فيه النجوم ؛ فبحس البحر يشبه الفلك أو مياه الفلك . والبمايل أو النشأعات ، أو الفلقايع البياض التي تصف بالفلك : أي تدور فيه ، وتملوه ، وتطيف به : هي كواكب ونجومه . والفرض من هذا الكلام وأمثاله ترين البحر ، والتريف فيها .

(٢٤) « تزل » : تزلزل ، وتسقط .

يقول : إن البحر — ثلاثة لمعنها ، وطرط تلالها — يضطرب نظر الناظر إليها ، ولا تثبت العين عند رؤيتها ، كما لا تثبت عند رؤية شيء شديد الضياء . وإذا تصالحا شاربها أسكرته ، فاضطربت من السكر ساقاه ، وترنح ، وتعليل ، وزلقت قسامه .

(٢٥) عشاشعو (كما يدعو) . وعشي يمشي (كرمى يمشي) : ساء بصرة بالليل . والركاب : الإبل تركب ، ويرسل عليها . واحشها راحلة . وجمعها ركائب . والمراد هنا : الإبل وركبائها . وتبلج : أشرق ، وأضاء . وأقاموا : تفرغوا عن السير ، وقعدوا عن السفر ؛ فالإقامة هنا : خلاف السير . يبلغ الشاعر في تصوير صفاء هذه البحر ونقاها وشدة لمعنها ؛ فيقول : أن الإبل وركبائها تسود أبصارهم في ظلمات الليل ؛ فإذا صبروا البحر تلالا في كتونها ، وأفرقت ؛ فساروا في ضيائها ، واستبانوا لهم الطرق ، وتيسر السير والسفر . وإذا زال ضيؤها بعد احتسابها عادت الظلمات ، واستجمت السبل ، وشق السرى ؛ فقموا عن الرحيل ، واضطروا إلى الحب والإقامة .

حُسِبَتْ بِأَكْلَفَ ، لَمْ يَقُمْ بِقِنَائِهِ نُورٌ ، وَلَمْ يَبْرَحْ عَلَيْهِ ظَلَامٌ^(٢٦)
 حَتَّى إِذَا رَقَدَتْ ، وَقَرَّ قَرَارُهَا بَلِسَتْ ؛ فَلَيْسَ لِنُورِهَا إِبْلَامٌ^(٢٧)
 تَسِمُ الْعُمُونَ بِنَارِهَا ، لَكِنَّهَا بَرْدٌ عَلَى شُرَابِهَا وَسَلَامٌ^(٢٨)
 فَاصْفُلْ بِهَا صَدَأَ الْهُمُومِ ، وَلَا تَكُنْ غِرًّا تَطِيرُ بِلَبِّهِ الْأَوْهَامُ^(٢٩)

(٢٦) نائب فاعل «حسبت» : ضمير النحر . ويراد بالحس هنا : التعتيق . وأكلف : نعت لمنوت معلنوف : أى حسبت فى وعاء أكلف ، من الأوعية التى تحتفظ فيها الخمر ، للتعتيق : صفة من الكَلَف : وهو حرة تشربها كدرة وسواد . يقال : دنّ أكلف : وهو الراقد العظيم ، يحفر له فى الأرض لإقامه وتقبية . والكلفاء : مؤنث الأكلف . يقال : نجابية كلفاء : أى فى نجوبها ككَلَف . والفناء (بكسر الفاء) : الساحة فى الدار ، أو بجانبها ، أو أمام البيت . ويراد بالفناء هنا : المكان الذى تكوين به أوعية التعتيق ، كال«دن» ، والراقد ، والنجابية . وجمعه أفنية . وبرح الشيء (من باب تعب) : زال من مكانه . ويقال فى الاستمرار : ما برح يفعل كذا . ولم يبرح الدنّ الأكلف عليه ظلام : أى لم يزايله الظلام ، ولم يفارقه ؛ فهو ملازم له ، محيط به ، مستمرّ حوله ، وهو تأكيد لمعنى «لم يقم بقينائه نور» . ويبدو أن تعتيق الخمر يتطلب ظلمة المكان الذى يشتمل على درناها أو غوايبها . يقول : إن هذه الخمر عَشَقَتْ فى دنّ أكلف ، ظلّ طويلاً فى مكان مظلم مغم ، لا يكاد يرى شيئاً من الفناء ، ولا تكاد تزايله الظلمات .

(٢٧) رقد (من باب نصر ودخل) : نام . ويراد بالرقود هنا : الإقامة والاستقرار والسكون . وقَرَّ قرارها : أى أقامت وأطمأنت ، وسكنت ، وثبتت . وهو تكرار لمعنى «رقدت» : أى حتى إذا تمّ تعتيقها سلسلت : أى سهلت ، ولانت ، وطابت ، وصاغت ، ولذّت . (وبابه فرح ، وظرف) . واللوق : مصدر ذاق من (باب قال) . ويراد به هنا : المذاق : أى الطعم . ويلاحظها غير مؤلم : أى سائلة ، طيبة المذاق ؛ فهو تكرار وتأكيد لمعنى السلاسة .

(٢٨) وبه (من باب وعد) : جعل له سمّة (بوزن عدة) : أى علامة يعرف بها . وتسم الخمر عيون شاربها : أى تترك فى عيونهم حرة كحسرة النار ، كأنها سمّة يعرفون بها . والشُرَاب : جمع شارب : اسم فاعل من شرب . أو هى شُرَاب : أى كثير الشرب : صيغة مبالغة من شرب . وفى صيغة المبالغة هنا حصصٌ ضمنيٌّ على إدمان الخمر . والسلام : والنجاة من الآفات . وفى القرآن الكريم : « قلنا : يا نازر ، كوفي برءاً وسلاماً على إبراهيم » . (الآية رقم ٦٩ من سورة الأنبياء) .

(٢٩) اسفل : أسر من حقله (من باب نصر) : أى جلده ، وطمسه ، وأزال صداه . وبها : بالخمر . وصدأ المجموع : أى المغموم المشبه بالصدأ ؛ فهو من إضافة المشبه به إلى المشبه . والمغموم : الأحرزان ، واحدهم مغم ؛ ولا ريب أنها إذا رانت على القلب والعقل والحواس فطنت بما بها يفضله الصدا =

وَأَعْلَمَ بِأَنَّ الْمَرَّةَ لَيْسَ بِخَالِدٍ وَلِلدَّهْرِ فِيهِ صِحَّةٌ وَسَقَامٌ (٣٠)

= بالحديد والمعادن الصلبة ؛ فهو ينطلى جوهرا ، ويشتقها . والفرد : من لا خبرة له . ومن يندفع إذا خُدِعَ . وتطير بلبه : تلعب به ، وتزيله . والب : العقل ، وجمعه ألباب . والأوهام : الهواجس والوساوس ، مفردا وهم .

ينحدر إلى الخمر ، ويرغب فيها ، ويضم إليها تلعب الأحزان والوساوس . ويقول لمن يخاطبه : لا تستمر في غراقتك وجهلك ، ولا تدع الأوهام تسيطر عليك ، وتلعب بعقلك ؛ ففى اصطاعتك أن تزيد هذا كله بمقاربة بنت الحان .

وصف الشاعر الخمر ، وزينها ، ودعا إليها فى أحد عشر بيتا (١٩ - ٢٩) أى فيها يقرب من ثلث هذه القصيدة ؛ فزم أنها تدور عن النفس ما يساورها من المصوم والأحزان . وكرر هذا الزيم وأكده فى البيتين الأول والأخير من هذه الأبيات ، أى فى التاسع عشر والتاسع والعشرين . كما زم أنها توفى لشاربها متع البشر ، ولذاذة الحياة ، وتجعل الشيب شبانا . ثم بالغ فى وصف متيقظها ، ونقاها ، وصفاتها ، ولبانها ، ولطافتها ، وسلاستها ، ولفتها ؛ ففرض هذه المعانى فى ستة أبيات . وأشار إلى بعض آثار الخمر فى حين معاقبتها وأجسامهم .

وفى عشرة الأبيات الآتية ختم الشاعر هذه القصيدة بالحكمة ، وشفى من فلسفة الحياة والموت .

(٣٠) المرة (مثقلة الميم) : الإنسان . والسقام : الملة ، والمرض . (وفعله من باقى تعب ، وقرب) . ويدهر المرء : مدته حياته .

والمعنى : أنه لا سبيل إلى خلود الإنسان فى هذه الحياة ؛ فلعلت مصيره المحتوم ، والحلاك نهائيه التى لا مفر منها . وأحواله فى الدنيا متغيرة متقلبة بين الصحة والمرض والقوة والضعف والسرور والحزن ، واللذة والبؤس ... ولعل الصلة بين شطرى هذا البيت أن التقلب المثار إليه فى الشطر الثانى فذير بهلاك الإنسان ، وطى حياته ، أو أن الحياة نفسها تهلك المرء وترديه . والبيت الآتى يشير إلى هذا المعنى ويؤكد له .

انتقل الشاعر فى هذا البيت وقسمه الأبيات بعده إلى الحكمة ، وشفى من فلسفة الحياة والموت ، وبين أن رأيه فى بعض ما يحيط به من ظواهر الكون ، وأحوال الوجود . وبها ختم هذه القصيدة التى ذكر فيها أيام شبابه . وما كان له فيها من رفقة وصحاب ، وممتعة ولهو ، وصبوة ، وروح ، وهوى وغرام ... وجبره هذا إلى ذكر الخمر وزينتها ؛ لأنها فى زعمه من لذائذ الشباب ومتمه . ثم تاب إلى رده ، واستيقظ ضميره لإحباط ما قدّمه من حديث الهوى والهوى ، والخمر والمجانة ، والنسب والملاحة . وإلغاء هذا كله بسرد الحكمة والموعظة الحسنة ، وتبصير اللاهين والخلماء بتفاهة الدنيا وسفارتها . وغرورها وخذاعها « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » (الآية رقم ١٨٥ من سورة آل عمران) . ويلاحظ أنه جنح للحكمة والموعظة والتذكير بالموت فى خلال هذه القصيدة مرتين : مرة فى أربعة أبيات ، من البيت الخامس عشر إلى البيت الثامن عشر . ومرة أخرى فى عشرة أبيات ، من البيت الثلاثين إلى التاسع والثلاثين ، أى إلى نهاية =

يَهْوَى الْفَتَى طَوْلَ الْحَيَاةِ ، وَإِنَّهَا دَاءٌ لَهُ دُونَ الشَّغَافِ عَقَامٌ (٣١)
فَاطْمَحَ بِطَرَفِكَ ، هَلْ تَرَى مِنْ أُمَةٍ خَلَدَتْ ؟ وَهَلْ لِابْنِ السَّبِيلِ مَقَامٌ ؟ (٣٢)

= القصيدة : فمجموع أبيات الحكمة أربعة عشر بيتاً ، وهي أكثر من ثلث هذه القصيدة . ويحمد له أنه في حديثه عن هو الشباب ومرحه قيد نفسه ، كما قيد رفاقه بأداب الهوى ، وحديد الاستقامة . ويذهبهم وتعدّح معهم بالترفع عن الطغر ، وإيفار الجذ ، والتحلّى بمآل الشيم وكثير من الفضائل ؛ ولكن يستغرب منه بعد هذا كله أن يجرى قلبه ، ويتعلق لسانه بحديث الخمر وترينها والترغيب فيها ، وهي أم الكبائر ، وكبرى الرذائل ؛ ولعله قصد أن يجمع في هذه القصيدة فنوناً شتى من القول بصرف النظر من مراعاة ما ينبغي أن يكون بينها من صلوات وروابط وبمناسبات . شأنه في هذا شأن من يحتلّ مثالم ، ويقتضى بهم ، وينسج على متوالم من قدامى شعراء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام . وقد أسلفنا أن الشاعر قد يذكر الخمر لمجرد إرضاء شاعريته ، أو استيعاب أغراض الشعر ، أو تدرّيب نفسه على هذا الغريب من ضروب القول ، أو تنويع الكلام ، والافتنان فيه ، أو التشبه بمن رعوأ في وصف الخمر والدموع إلها ، كأي نؤاس وأمثاله .

(٣١) يهوى : يحب ، ويشتهي . ويراد بالفتى هنا : الإنسان . و « دون » : ظرف مكان منصوب ؛ وهي هنا بمعنى « فوق » . أو بمعنى « قرب » . أو بمعنى الملازمة والمخالطة ؛ فالداء يخاطب الشغاف ويلاسه ، ويتصل به أوثق اتصال . والشغاف (كصحاب) : خلاف القلب . أو حبيته ، وسودائه . وداء عقام (يفتح العين وضماً) : أي ضئال ، أو صبيّاه ، أي لا طيب له ، ولا يبرّه منه ، ولا أمل في شفاء من يصاب به .

واللعنى : أن كل إنسان يشتهي امتداد حياته ، ويتمنى إطالة عمره ، ولو فطن وتدبّر ، لعلم أنه يشتهي ما يضره ، ويستحق ما يؤذي ؛ فإن الحياة نفسها داء صيّا يخامر قلبه ، ولا يرجى شفاؤه . وهي إلى هذا لا تخرج بحمل إليه ألمٌ والتم ، وتربيه بالمتاعب والآلام ، وتؤسّد عيشته بالتكدير والتنفيس . وإن تنامع الأيام والليالي لا يفتأ يؤذيه ويضيقه ، ويشغله ويهنيه ، حتى يقيم أخذ عينه ، ويستهزئ عليه . وقد يكون المراد بطول الحياة في هذا البيت : الخلود ، ليسبق مع ما قبله وما بعده . ومن شعر أمير الشعراء أحمد شوقي بك في هذا المعنى :

فإن الحياة قصّل الخلد إذا ليسته ، وتيسّل الحسّر

(٣٢) اطمح : أمر من طمح يصره إلى الشيء (من باب خضم) : أي ارتفع واستشرّف ونظر . وطمح يصره إليه : أي رضع ، وسدّق به إليه ، وشدّد النظر . والظرف : العين ، والنظر . و « من » في الشطر الأول زائدة لتوكيد الكلام ، وتقوية مضمونه . كما في قول الله تبارك وتعالى : « فارجع البحر ، هل ترى من خطور » (الآية رقم ٣ من سورة الملك) . والاستفهامان في هذا البيت : منهاها الثاني : أي لا خلود لأتسن الأسم ، ولا إقامة لابن السبيل . وابن السبيل : المسافر . ولا ريب أن الإنسان في الدنيا ابن سبيل ، وهابر طريق . والدنيا طريقته إلى الآخرة دار الجزاء والخلود . ومقام (بضم الميم ، أو بفتحها) : مصدر ميمي ، أو اسم مكان ، أو اسم زمان من أقام بالمكان إقامة ، أي لبث فيه دوماً ، واتخذ وطناً . أو من قام على الأمر (من باب قال) : أي دام وثبت . =

هَذِي الْمَدَائِنُ قَدْ خَلَّتْ مِنْ أَهْلِهَا بَعْدَ النَّعِيمِ ، وَهَذِهِ الْأَهْرَامُ (٣٣)
لَا شَيْءَ يَبْقَى ، غَيْرَ أَنَّ خَلِيعةً فِي الدَّهْرِ تَنْكُلُ دُونَهَا الْأَحْلَامُ (٣٤)

= والمعنى : أن النظرة العابرة في أسواق الحياة والناس تقطع أن الإنسان في الدنيا ابن سبيل ، وعابر طريق ، وأن إقامته فيها غير ممكنة ؛ فللموت ورواه يرقبه ويطلبه ، وهو لا يفتأ يَسْخَرُمُ الأمم والجماعات ، ويطلو حياة الأحياء « كل نفس ذائقة الموت . وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فن زسرح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز . وما الحياة الدنيا إلا متاع الفرور » . (الآية رقم ١٨٥ من سورة آل عمران) .

(٣٣) الأهرام : جمع هرم (يوزن جبل) : وهو بناء ضخم من الحجارة الضخمة ، قاعدته في الغالب مربعة ، وجدرانها ، أو وجوهها الجانبية ، أربعة مثلثات ، تلتقي رؤوسها في نقطة واحدة ، هي رأس الهرم ، أو قمته . وقد اشتهر الفراعنة من قداماء المصريين ببناء الأهرام لتكون مقابر لهم . وأكبرها هرم « خوفو » غرباً مدينة الجيزة . وأقصاها الهرم المدرج بسقارة الملك « زوسر » أول ملوك الأسرة الثالثة .

في البيت السابق قال : إن الإنسان ابن سبيل ، وعابر طريق ، وإن الموت جادٌ دائمٌ في رقبته وتطلبته ، مريعٌ باعترام الأحياء من الناس فرادى وجماعات . وإن الدنيا دار سفرو رحيل ، وليست دار إقامة وتخليد . وفي هذا البيت أشار إلى كثرة من طوامم الردى ، وأكلتْهم الأرض ، وزايلهم الترف والنعيم ، وسعروا ما كانوا فيه من رفادة العيش ، وهنأة الحياة ، وتركوا ما شيئوه وهرموه من الديار والقصور ، والمخاف والآثار ، والمدن والأمصار تنمام ، وترى أخبارهم ، وتجعل لنا العبر والنظرات البالغات ؛ ونخص الأهرام بالذكر لأنها أظهر وأكبر ، وأعل وأشهر ، وأعظم وأضخم ما خُصِدَ الفاني شاهداً بأنه - مع صبريته ، وعظمت ، وبارع حيلته ، وفائق قوته - قصير العمر ، سريع الزوال ، ضعیف في يد الموت .

(٣٤) « لا شيء يبقى » : تلخيص وتأكيد لمعنى الآيات الأربعة السابقة ؛ فالعالم لا يبقاء لها ، والخلائق كلها إلى هلاك وفناء . والخلية : اسم من عذبه : أى خثله واغتره ، وأظهر له خلاف ما يتخيه ، وأراد به المكروه من حيث لا يظن . و« في هنا » : بمعنى المصاحبة ؛ فالخلية تصاحب الدهر ، وتلازمه ، ولا تكاد تفارقه . أو هي بمعنى « من » ؛ فالخلية من الدهر . والدهر هو الخلد . والإنسان هو الخلود . أو هي زائدة لتوكيد الكلام ؛ فإنه بدونها يستقيم : أى لا شيء يبقى ، ولكن خلية الدهر تفصل الموقول . والدهر : الزمان الطويل ، والأمد الممدود ، وعمر العالم ؛ وقد اعتاد الناس أن ينسبوا إليه الخير والشر ، والمسرّة والمساءمة . وقد يراد بالدهر هنا : الدنيا ؛ فإنها في الحقيقة هي الخالدة . وتنكُل : تضعف ، وتسهو ، وتقصّر ، وتضمحل ، وتنكسر : مضارع نكل ، (كضرب ، قصد ، وتمب) . ودونها : دون الخلية : أى تحتها ، أو معها ، أو بالقرب منها ، أو قبلها ، أو أمامها ؛ أى تضمنت الأحلام تحت تأثير الخلية : جمع حلم (يوزن قُصْل) : وهو القفل . =

وَلَقَدْ تَبَيَّنَتْ أُمُورٌ بَیْغِیرَهَا وَأَتَتْ عَلَى النَّفْسِ وَالْإِبْرَامِ (٣٥)
فَإِذَا السُّكُونُ تَحَرَّكَ ، وَإِذَا الْخُمُومُ دُ تَلْهَبُ ، وَإِذَا السُّكُونُ كَلَامُ (٣٦)
وَإِذَا الْحَيَاةُ - وَلَا حَيَاةٌ - مَيِّتَةٌ تَحْيَا بِهَا الْأَجْسَادُ وَهِيَ رِمَامُ (٣٧)

— والمعنى : أن العالم يفتى ، والدنيا لا يقاء لها ، والخلق كلها إلى هلاك وزوال ، « كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » (الآية رقم ٢٦ والآية رقم ٢٧ من سورة الرحمن) . وكان ينبغي ألا يغفل الناس عن هذه الحقيقة التي يرون شواهدا ماثلة بين أيديهم ، ولكن الدنيا تترهم بزخرفها ، والذهر يخدعهم ، ولا يفتأ يلهمهم فيها عييل وتعميمات تصنف أمامها عقول الغافلين ، وبصائر المغمومين . (٣٥) الأمور : الأشياء ، والأحوال ، والفنون : جميع أمر . يريد أمور الحياة ، وأحوال الناس ، وظواهر الوجود . وتبينتها : تفرقتها . أو تأصلتها حتى انقضت ، وبانت لى ، وظهرت ، وانكشفت . وتبينت الشيء : أوضحت ، وأظهرته ، وكشفت ، وسبلته . وتبينت الأمور بغيرها : أى تفرقتها وكشفتها بأشياءها وظلالها . أو بأضدادها وما يخالفها ؛ فالضد يظهر الضد . والإنسان يستطيع معرفة الأشياء الخفية ، وكشف غوامضها وأسرارها إذا قاسها بأشياءها ، أو قرنها بأضدادها . وأتى على : أى ومر في ، وكان من تجاربي .

في البيت السابق نبه ووصف بفتاء العالم ، وهلاك الخلاق . وأشار إلى غفلة كثير من الناس عن هذه الحقيقة التي لا مرأ فيها ، وانخداعهم بباطل الحياة الدنيا وزخرفها . وفي هذا البيت أخرج نفسه من غمار هؤلاء الغافلين المغمومين ، وقال : إنه عرف كثيراً من شئون الحياة ، وأحوال الناس ، وظواهر الوجود ، وأسرار الكون ، وغفايا الأشياء ، ودقائقها ، بتأمل أشياءها وظلالها ، وتعرف أضدادها ونفائضها ، وطول الضكر والتبصر والتبصر ، وكثرة ما مر به ، ووقع تحت تجاربه من الأحداث المختلفة ، والأمور المتناقضة . وفي أربعة الآيات التالية تفصيل وتعميل لهذا المعنى .

(٢٦) « إذا » : معناها هنا المفاجأة . وتختص بالجمال الاسمية . ولا تحتاج إلى جواب . ولا تعج في الابتداء . ومعناها الحال : أى ولقد تبينت الأمور بغيرها .. ففوجئت بأن السكون تحرّك .. والحمود : مصدر خذت النار (من باب قمد) : أى سكن لها ، ولم يطفأ جرها . بخلاف حسدت . وتلهبت النار تلهباً : انتقدت .

والمعنى : أن ما يبدو من سكون النهر ويهادنته هو في حقيقته تأهب للحركة والبلى والفتك . وهو تحت خوده الظاهر يتقد ويتلهب . وهو في صمته وسكوته متكلم بالمواظع والبر . أو المعنى : أن الحياة متغيرة متقلبة ، والدنيا لا تثبت على حال ؛ فهي متقلبة المشاهد ، مختلفة الأوليان ؛ فالذي تراه فيها ساكناً يعود بعد رهة متحرّكاً ، والخامد لا يلبث أن يتلهب ، والساکت إلى نطق وكلام ، وإضلاع وبيان .. (٢٧) « الحياة » مبتداً ، غيره « مَيِّتَةٌ » : أى موت . يريد أن الحياة في نظر من تدبروها موت : أى تبطل الأحياء ، وتضمحل ، كما قال أمير الشعراء « أحمده شوق بك » : —

هَذَا يَحُلُّ وَذَلِكَ يَرْحَلُ كَارِهًا عَنْهُ : فَصْلُحُ تَارَةً ، وَخِصَامُ (٣٨)
فَالنُّورُ - لَوْ بَيَّنَّتْ أَمْرَكَ - ظُلُمَةً وَالْبَدَنُ - لَوْ فَكَّرْتَ فِيهِ - خِطَامُ (٣٩)

= فإن الحياة تقلّ الحسديد إذا ليسته ، وتُجِبُّ الحسِرُ
أو المني : أن الحياة نهايتها التي لا بدّ منها موت لا شكّ فيه . وجملة « ولا حياة » معترضة بين
الجلد والخبرة ؛ لتأكيد معنى « منية » أو لتقرير تفاهة الحياة الدنيا ، وقلة جلواتها ، وسرعة تقصّيتها ،
وذهاب نعيمها ، واتصالها بالموت . وجملة « تحيا بها الأجساد » صفة لـ « منية » : أي تحيا منها .
أو تحيا عنها . أو تحيا وهي متلبسة بها . وجملة « وهي رمام » حال من « الأجساد » : جمع رمة
(بورن ذمّة) : وهي ما يكلّ ، وتفتّت من عظام الميت .

ومعنى الشطر الأول : أنه حينما تبيّنت له الأمور ، علم أن الحياة موت ؛ إذ هو نهايتها القريبة
المحتوية . وهي إلى هذا تافهة ، قليلة الفناء ، سريعة الزوال . ومعنى الشطر الثاني : أن الموت الذي يطرأ
على الإنسان تمحقبه - يوم البعث والنشور - حياة باقية خالدة ، تدبّ في الأجسام وهي دم بالية ؛
فلا تلبث أن تحيا حياة تامة روحية وبسيانية . قال الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم : « وضرب لنا مثلاً
ونفى حُكْمَهُ . قال : من يحيي العظام وهي رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة . وهو بكل خلق عليم » .
الآية رقم ٧٨ والآية رقم ٧٩ من سورة يس .

(٣٨) « هذا » : إشارة إلى المولود الجديد المقبل على الدنيا . و « ذلك » : إشارة إلى الراحل منها ،
المفارقة لها بالموت . و « حلّ » المكان ، و « حلّ » به (من يأتي رذ) ، و « جلس » : نزل فيه . وكارها : حال من
فاعل « يرسل » . و « دعه » : متعلق بـ « يرسل » . والتفسير المبرور يرجع إلى اسم الإشارة في أول البيت :
أي هذا مولود يحمل بالدنيا ، وذلك والد مثلاً يرسل عن مولوده كارهاً مسكراً . والثارة : المرة . أو الحين ،
والمدة ؛ أي فالأمر صلح مرة ، وخصام مرة أخرى . جعل الدنيا تصالح الناس بالمواليد ، وتخاصمهم
بطلّ حياة الأحياء ؛ فالولادة صلح و سلام . والموت حرب وخصام .

والمنى : أن الناس يفرحون بالمولود الجديد ، ويحزنون للفراق من يصيبه الموت منهم ؛ وهكذا حال
الدنيا ، أو الدهر ؛ فهو أحياناً صلح و سلام ، وأحياناً حرب وخصام .

(٣٩) بين الشيء تبيناً ؛ أوضحه ، وأظهره . وبيّنتْ أَمْرَكَ : أي تبيّنتْ حقيقة حالك
في هذه الحياة بطول التفكير والتدبر .

ومعنى الشطر الأول : لو تدبّرت ما يهرك من نور الحياة ، علمت أنه في حقيقة ظلمة ، لأنه لا يلبث
أن يغلق حل الرّمح منك ، ويحسّب لك الأسي والحسرات ؛ فالوجود قريب من الدم ، والموت نهاية
الحياة ، والدنيا تفرّ المغتربين بها ، وتخدعه بما تبديه من ضيائها وروائها ، ويهيجها وزخرفها . ومعنى
الشطر الثاني : أن بهد الحياة يبدو - مع التبصر والتفكير - ختاماً لها ؛ لشدة الاتصال ، وقصر المسافة
بينهما ؛ فلله لا يتكاد يستقبل الحياة حتى يرغم على توديعها ، واختتام حياتها فيها . والفرض من هذا
البيت وتسعة الآيات السابقة تنبيه الناظرين ، ووعظ المفرورين بالدنيا ، والتصح والتذكير بما ينتفع
البصائر ، ويظهر القلوب ، ويهيئ إلى سواد الصراط .

تعليق وجيز*

جاءت هذه القصيدة في تسعة وثلاثين بيتاً . وفي مقدمتها وقف الشاعر بالديار المهجورة ، يسألها في لفة وحسرة - عن رحلو عنها من أحبائه ، ويتحدث عن ماضيه البعيد السعيد في رحابها . ويصف من كنّ يمرس فيها من الذين احسان المحدثات . كل هذا في خمسة أبيات . وفي تسعة الأبيات التي بعدها ألقى إخوان الصفاء من أصدقاء فتوته وشبابه . ونوه بمزايدهم وآدابهم ، وسمو مكانتهم الاجتماعية . وكأنه أراد بهذا أن يفخر بنفسه ؛ فإن المرء يصاحب من يشاكله ويناسبه ، « وكل قرين بالمقارن يقتنى » . وفي نهاية هذه الأبيات أيقظه نذير المشيب من أحلام الصبا والخلاصة « إن الخلاصة والصبا أحلام » ؛ فجنح في أربعة الأبيات بعدها - لما يشبه الحكمة والموصظة والاعتبار بسرعة زوال الدنيا ، وقصر عمر الإنسان فيها . ومن المصيب الغريب أنه جعل هذه الأبيات نفسها توطئة لوصف الخمر وتزيينها ، والدعوة إليها في أحد عشر بيتاً ، أي فيما يقرب من ثلث هذه القصيدة ؛ ولكنه ما لبث أن صفا من نشوة الخمر ، فاستمداد رشده ، وإطلاق لقلبه ، وانجذبت عنه غنابة الفنى والحرى ، فغمم القصيدة بشرة أبيات كرّر فيها بعض معاني الأبيات ١٥ - ١٨ . وضممتها طائفة أخرى من الحكم ، وشيئاً من ثمار تجربته ومعرفته ، وشيئاً من ظواهر الوجود والعدم ، وأسر الحياة والموت ، مشيراً إلى ما في طبيعة الدهر أو الدنيا من الخداع والتفرير ، وتضليل العقول والأحلام ؛ وكانت هذه الأبيات العشرة مملكت الختام .

وإذا كان الشاعر قد جعل عنوان هذه القصيدة : « وقال يذكر أيام الشباب » ، فإن تصريحه بتلك الأيام لم يتجاوز ثلاثة عشر بيتاً ، أي ثلث أبيات القصيدة . ويحمد لها فيه حرصه على أن يحجب نفسه وأصدقاء شبابه مواطن الربيب والشبهات ، ويرفع وزياهم عن الدنيا والخطيئات . وإذا استثنينا أبيات الخمر استطعنا أن نحصي هذه القصيدة من شعر اللفة والحكمة ، والتحذير من خداع الدنيا وزخرفها ، وتصوير المنة والأدب العالي ، ومكارم الأخلاق .

هذا ، ومن عادة بعض الشعراء أن ينظّموا بعض شعرهم في وصف الخمر ، أو يذكروها في بعض قصائدهم ومقطوعاتهم . وليس في هذا دليل قطعي على الشرب ، أو المفاخرة ، أو الإحسان ؛ فإن منهم من يحمس - على حقته ، وبهذه عناء - يذكروها استطراداً ، وانطلاقاً في مجال شاعريته ، أو استجابة لموسى عارض ، وهو برى ، أو حرصاً على استيعاب فنون الشعر ، ورغبة في إضافة هذا الفن إلى غروب =

• يأتي التعليق قبل شرح القصيدة ، أو في مقدمة الشرح وفاتحته ، أو في أثنائه ونقصته ، أو خاتمتها ونهايتها . ويتسع التعليق عندنا للتوطئة والتهديد ، أو التحليل ، أو التلخيص ، أو البيان والتفصيل ، أو النقد ، أو التخلصة ، أو التصويب ، أو الممايزة ، أو الإحصاء والاستقصاء ، أو الموازنة والمفاضلة ، أو التمتع ، أو التذليل ، أو التاريخ ، أو التحقيق ... أو غير هذا من التتميعات .

ويعتاز الجزء الثالث من شرح ديوان البارودي بكثرة التعليقات التي تفتح أبواب الدراسات الواسعة المستفيضة .

وفي التعليق هنا تحليل ، وتلخيص .

= القول ، وألوان البيان ، أو بحكاية لغيه من الشعراء الذين أغرقوا في وصف الخمر ، وتشبيها ، وزيناها ، والدعوة إليها ، والاشوة بها ، وذكر أوصيائها ، وتحياتها ، وسقائها وتذمائها . وفي عدة مواضع من شرحنا هذه القصيدة عرّفنا ملاحظات وتعليقات ذات بال ، واجتهدنا أن نبرئ القصيدة من عيوب البفورة والانتصاب والتفكك ، فتكلفتنا ربط فنيها وأغراضها ومبادئها بروابط واضحة مقننة .

ولعل الشاعر قصده أن يجمع في قصيدته هذه فنونا شتى من القول ، بصرف النظر عن مراعاة ما ينبغي أن يكون بينها من صلوات وروابط ومناسبات . شأنه في هذا شأن من يحتوى مثالمه ، وينسج على منوالهم من قدامى شعراء العرب في الجاهلية و صدر الإسلام ؛ إذ كانوا في كثير من الأحيان يرتجلون الشعر ارتجالا ، ويتنقلون من غرض إلى غرض آخر انتصابا ، بلا تحييل ، ولا تلطّف ، ولا تهديد للفرض الجديد والمضى اللاحق .

وقد أسلفنا أن البارودي بهذه القصيدة -- يمارس : أي يبارى ويحاكي في الوزن والروي -- أبا نواس في قصيدته المشهورة التي مدح بها الأمير محمد بن الرشيد . ومطلبها :

يا دار ، ما ضلت بك الأيام ؟ لم تبق منك بشافة تشتم

رواية الويلة الأدبية لهذه القصيدة

قرأنا هذه القصيدة في الجزء الثاني من «الويلة الأدبية» الشيخ حسين المرصى ص ٤٨١ - ٤٨٣ ،
فأينما روايتها تخالف مناجاة في أصل الديوان المخطوط الذي بين أيدينا ؛ وهذا أثرنا - بعد أن نشرنا
القصيدة كما جاءت في أصل الديوان - أن نعرضها كما روتها الويلة الأدبية ، ونشرح ما انفردت بروايتها ،
وخالف الأصل ، مع ملاحظة أن تاريخ نسخ هذا الأصل ١٠ من سبتمبر سنة ١٩٠٨ وتاريخ نشر
الجزء الثاني من الويلة الأدبية سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) :

ذَهَبَ الصَّبَا ، وَتَوَلَّى الْأَبْسَامُ فَعَلَّ الصَّبَا ، وَعَلَى الزَّمَانِ سَلَامٌ (١)
تَأَلَّهْ أَنْسَى مَا حَيِّتُ عَنْهُوَدَهْ وَلِكُلِّ عَهْدٍ فِي الْكِرَامِ زِمَامٌ (٢)

(١) الصبا (بكسر الصاد) : الحداثة ، وصغر السن . ويقرب منه الفتاة والشباب . ومن دعوى
الصبا والشباب ويلاصباهما : الهوى ، والمرح ، وجهلة الفتوة ، والتشبه بالصبيان في غفهم وأعمالهم ،
والانقياد للهوى والغرام . وتَوَلَّى : أدبرت ، ذهبت . ويراد بالأيام والزمان : أيام الصبا ، ومن
الشباب . والسلام : التحية . ويراد بالخبر في الشطر الأول : إظهار الأسمى والتعزُّز ، والتحصُّر على
ذهاب الصبا ، وانقضاء أيامه . ويراد بالشطر الثاني الدعاء للصبا والزمان بالتحية والسلام ، وتكرُّم تلك الأيام .

افتتح الشاعر هذه القصيدة في الأصل المخطوط لديوانه بالقوف بالديار المهجورة يسألها - في لفة
وحسرة - عن رحلوا عنها من أحياء الذين يحفظ لهم الود والوفاء ، ويسلطهم من قلبه على الإعزاز والإكرام .

أما في هذه الرواية (أي رواية الويلة الأدبية) فقد افتتح القصيدة نفسها بإظهار الحزن والأسى
والتحسُّر على فوات أيام الصبا والشباب ، وذهاب ما كان له في تلك الأيام من بهجة وشمعة ، ومرح ولهو ،
وهوى وغرام . ثم حَسِبَا ذلك الزمان في الشطر الثاني ، وحَسِبَا ذكر أيامه تحية تؤكد معنى الأسف والتجسُّر
والتمسُّك في الشطر الأول ، وتَمَّ على تمام وفاته لذلك العهد ، وعطوذه في قلبه ، وشدة التعلق به ،
والتزجر إليه ، وما يضاهي في حاضره من الشوق والحزن إلى ذلك الماضي البعيد السعيد . والبيت الآتي
يبرز هذا المعنى ويوضحه ، ويؤكدّه ، ويفصّله .

(٢) « تَالَه » : اتاه حرف جرّ القسم . ولفظ الجلالة مقسم به ، مجرور بالتاء . و « تَاه »
أنسى : تاه لا أنسى ؛ فحذف حرف اللين هنا ، وهو « لا » ؛ لأن الكلام لا يلغى بلفظه ؛ إذ
لو كان إثباتاً لم يكن به من تأكيد الفعل باللام واللين ، فإذا خلا منهما كان القسم على اللين ؛ أي كان
جوابه نفياً لا شيئاً . ومن أمثلة هذا في القرآن الكريم : « قَالُوا : تَاهَ تَفْتَأُ تَذَكَّرُ يَصِفُ ، سَتَى تَكُونُ
حَرَمًا ، أَوْ تَكُونُ مِنَ الْمَالِكِينَ » (الآية رقم ٨٥ من سورة يوسف) : أي تاه لا تفتأ . و « ما »
مصدرية ظرفية : أي تاه لا أنسى عهد الصبا مدة حياتي : جمع عهد : وهو الزمان : والمراد ما كان

إِذْ نَحْنُ فِي عَيْشٍ تَرَفٌ ظِلَالَةٌ وَلَكِنَّا بِمُعْتَرِكِ الْهُدَى أَكْثَامٌ^(١)

= له في صباه وشبابه من متع ولذات ، ولقاعات ومودعات لا يفترق بين لها ، ويتعلق بها ، ويمجن إليها ، ويحصر عليها . و « في » : بمعنى المصاحبة : أي ولكل عهد مع الكرام ذمام . أو هي بمعنى « اللام » . أو بمعنى « حل » . أو بمعنى « من » . أو الكلام على حذف مضاف : أي ولكل عهد في علق الكرام وذمتهم حق وحرمة . والكرام : جميع الكرم : صفة من الكرم بمعنى العام : وهو اسم للمحاسن الكبيرة ، والأخلاق العظيمة ، والأفعال الحميدة التي تظهر من الإنسان . أو هو جماع الفضائل والمحامد والمكرمات . والذمام : الحق ، والحرمة ، والكفالة ، والأمان ، والضمان . والشر الثاني تذييل جار مجرى المثال : مؤكداً لمعنى الشر الأول ، وفيه فخر ضمني بكرمه ووفائه ، وحرصه على صيانة المهود ، ومراعاة المواقف ، وتمتد الأذنة والحق .

أكد بالقسم في الشر الأول وفاته طوال حياته لأيام صباه وشبابه ، وتعلقه بكريات تلك الأيام المحبة إليه ، العزيزة عليه . ثم أكد هذا المعنى مرة أخرى في الشر الثاني الذي أجراه مجرى الحكم والأمثال وضمنه الفخر بكرمه ومحامده وفضائله التي تفرض على مثله كفالة المهود ، وضمان الأذمة ، وحسن رعايتها . (٣) « إذ » ظرف لحدث وقع في الزمن الماضي . وهذا البيت متصل بالنسبة قبله في المعنى والإعراب ، فانشأ عن يمين ما تولى وذهب من عهد الصبا والشباب حينما كانت عيشته مع إخوان الصفاء هنية طيبة وارقة لللالل . والعيش : المعيشة والحياة . و « ترَف » : تمتد ، وتوسع ، وتبسط بنا ، وتقدر حولنا . من قويم رف القوم به : أي أحسنوا به ، وأحاطوا به . و « رفَّت » عليه النعمة ، أو السعادة : أي ضفت ، وسينت ، واتسعت ، وتمت . أو هو من قويم : ذهب من كان يحسنه ويرفه : أي يرضيه ، ويحببه ، ويحنو عليه ، ويمجن إليه . والظلال : جميع الظل : وهو ضوء شمع الشمس إذا استترت عنك بحاجز . ويراد بظلال العيش : طبيعته ولذاته ، وسمته ، ورفاهته ، وهنائه ، ونعيمه . والعرب تميز بالظل عن العزة والمنة ، والرفاهية ، والنعيم ، وغضارة العيش وسعة ولينه وطيبه . والمعترك : موضع الاعتراك ، وهو الازدحام . ويطلق أيضاً على موضع الحرب والقتال . وقد يكون مصدراً ميمياً : أي ولنا آثار في اعتراك الأهواء . وقد يكون اسم زمان : أي حين تترك الأهواء . والمهوى : الحب والنرام . والمهوى : ميل النفس إلى الشهوات ، وانحرافها عن الجادة . والمهوى : النفس المنحرفة ، المائلة إلى شهواتها . والمهوى : الهوى : أي الشيء المشتهى ، وجسمه أهواء . والآثام : الذنوب والخطيئات ، وآثامها ما لا يسئل من الأموال والأعمال . والوارث في أول الشر الثاني : وار الحال . والجملة الاسمية بعدها حالية . ومعناها : أنهم لم يتحرجوا من الآثام وهم مالدون في مجال الهوى والمجون ، حيث تتلاقى الأهواء ، والرقائب ، وتعترك الشهوات والذات . يذكر بالحسنة والمهفة ، والإعزاز والإكرام ما مضى من أيام الصبا والشباب ، وأولت الهوى والمجانة ، حينما كان يحيا مع إخوان الصفاء حياة الرفاهة والنعيم ، ولا يتحرجون أن يساروا الأهواء ، ويتقاعدا لها ، وينفسوا في حسانها ، ويعتكروا عليها ، ويرتكبوا في سبيلها الخطايا والمخزومات . ويلاحظ أن هذا المعنى لم يرد مطلقاً في أصل الديوان ، ولا يكاد يواظم معنى الآيات الآتية التي يطير بها الشاعر صحبه ، وينوء بحملهم ، ويرفعهم إلى مرتبة العفة والاستقامة ، والتأديب بآداب الملوك .

تَجْرِي عَلَيْنَا الْكَأْسُ بَيْنَ مَجَالِسٍ فِيهَا السَّلَامُ تَعْلَنِي وَلِزَامٌ^(٤)
 فِي فِتْنَةٍ قَاصِرِ النِّعَمِ عَلَيْهِمْ وَنَمَامُ التَّبَجُّلِ وَالْإِعْظَامِ^(٥)
 ذَهَبَتْ بِهِمْ شَيْمُ الْمُلُوكِ، فَلَيْسَ فِي تَلْعَابِهِمْ هَذَرٌ، وَلَا إِبْرَامُ^(٦)
 لَا يَنْطَقُونَ بِغَيْرِ آثَابِ الْهَوَى سُمُّ النُّفُوسِ، عَلَى الْبَلَاءِ كِرَامُ^(٧)
 مِنْ كُلِّ أَيْلَاجٍ يُسْتَصْلَمُ بِنُورِهِ كَالْبَدْرِ حَتَّى صَفَحَتِهِ غَمَامُ^(٨)
 سَهْلُ الْخَلِيقَةِ، لَا يَسُوهُ جَلِيلُهُ بَيْنَ الْعَمَامَةِ، وَاضِحٌ، بِسَامُ^(٩)
 مُتَوَاضِعٌ لِلْقَوْمِ، تَحَسَّبُ أَنَّهُ مَوْتَى لَهُمْ فِي الدَّارِ وَهُوَ هُمَا^(١٠)

(٤) تجرى علينا الكأس (بالبناء لفاعل) : أي تمر بنا ، أو تلطف علينا ، أو هي تجرى علينا (بالبناء للمفعول) : أي يسهرها علينا السقاة ، ويمرون بها في مثابة وملااة : أي بلا توقف أو انقطاع .
 والكأس : قبح الشراب : أي الإثناء بشرب فيه ، وهي مؤنثة ، وجسمها ككوس . وقد تطلق ويراد بها الخمر . ومجالس : جمع مجلس : وهو مكان الجلوس . وقد يطلق على جماعة الجالسين . والسلام : التحية . والتماثق : مصدر تماثقا : أي عاتق كل منهما صاحبه : وهو أن يضمه بيديه إلى صدره ، ويجمع عنقه إلى عنقه . ولا يكون التماثق إلا في المحبة والوداد . ولازمه ملازمة ولزاما : عاتقه ؛ فالإزام تكرر وتأكيده لمعنى التماثق .

يصف - على ما يبدو - مجالس اللهو والمعاورة والشراب . ويقول : إن ككوس الخمر كانت تمرر علينا فيها بتتابع وانتظام ، وإن المجتمعين في هذه المجالس متوحدون متحابون ، فإذا تلاقوا حبيا بعضهم بعضا بالتماثق والزام . ونفس هذا البيت في غرطية ١٠/٩٠٨ : ١٩٠٨ :

تستنّ فيها العين بين مخاضٍ فيها السلام تماثق ولزام

ويلاحظ أن التحية بالتماثق والزام لائحة مأثوبة في الشبان والرجال ؛ فالشطران في بيت الويلة الأدبية متلازمان متسقان .

(٨) في أصل الديوان «جلى» بالجم . وفي رواية الويلة الأدبية «جلى» بالحاء المهملة . وقد تكون من الأخطاء المطبعية . وقد يكون المعنى أن الغمام إذا أحاط برحه القمر شاعف حسه ووجهه ، وأظهر تلاقه ورواه ، وكان حلية وزينة له .

تَرْنُو الْعَمُونَ إِلَيْهِ فِي أَفْصَالِهِ وَتَسِيرُ تَحْتَ لِسَوَاتِهِ الْأَقْسَامِ (١١)
 فَإِذَا تَكَلَّمَ فَالْعُمُوسُ خَوَاضِعٌ وَإِذَا تَنَاقَصَ فَالْصُقُوفُ قِيَامٌ (١٢)
 نَلْهُو وَنَلْعَبُ بَيْنَ خُضِرِ حَدَائِقِ لَيْسَتْ بِغَيْرِ خُبُولِنَا تُسْتَامُ (١٣)
 حَتَّى انْتَبَهْنَا بَعْدَ مَا ذَهَبَ الصَّبَا إِنَّ اللَّذَاذَةَ وَالصَّبَا أَحْلَامُ (١٤)
 لَا تَحْصِبَنَّ الْعَيْشَ دَامَ لِمُتَرَفٍ هَيْهَاتَ، لَيْسَ عَلَى الزَّمَانِ قَوَامٌ (١٥)

(١١) ترنو : تديم النظر مع سكون الطرف . (وبابه سا) . وإليه : إل « كل أبلغ يستضاء بنوره » في البيت الثامن . أو إل « كل في من الفتية الذين فاض النعم عليهم » في البيت الخامس . ورُنُو العيون إليه في أفصاله : كناية عن عظيم التقدير والانهيار والإعجاب بتلك الأفعال الحميدة المنظمة الباهرة . والشطر الثاني مطابق لما جاء في أصل الديوان . أما الشطر الأول في هذا الأصل فنصه : « تتناصر الأنعام دين فاله » وفيه مبالغة وتكلف وتعمق . ورواية الوسيلة الأدبية جارية على الطبع ، بعيدة عن التكلف .

(١٢) استامت للماشية : تَنَقَّلَتْ في المرعى والكلأ والنبات ، وَرَعَتْ ، وَأَكَلَتْ حيث شامت . والمراء أن الحدائق الخضراء والمزارع والحقول والرياض النضرة الواسعة كانت مجالاً فسيحاً لهم وتخيولهم ، ومرتناً مقصوداً عليها وعليهم يرتعون فيه ، ويلعبون ، ويلهون ، ويمرحون .

يصف ما كان فيه مع هؤلاء الضحباب من مرح واستمتاع ، ولهو ولعب في حدائق فاضرة ، ورياض بهيجة ، كانت مقصورة عليهم وصل غيولهم ، مختصين بها ، يمرحون فيها ، ويرتعون ، وينعمون بلا مزاحم أو منافس . وفي البيت إشارة إلى أنهم من الفرسان الماهرين في ركوب الخيل ، وأن الفروسة كانت من عاداتهم ، أو الأعمال التي حنقوها ، والرياضات المحببة إليهم . وهذا البيت من الأبيات التي انفردت بروايتها الوسيلة الأدبية . ولا وجود له في مخطوطة ١٩٠٨/٩/١٠ . ويلاحظ أن عدد أبيات هذه القصيدة في هذه المخطوطة تسعة وثلاثون بيتاً . وعدد أبياتها في الوسيلة الأدبية أربعون بيتاً .

(١٤) الشطر الثاني من هذا البيت تدليل جبار يجري المثل ، مفصل ومؤكّد لمعنى الشطر الأول ؛ فقد انتبه الشاعر وحسبه من غفلتهم بعد ذهاب الصبا والشباب ، فاستشعروا الحسرة والتدم ، وعلموا أن ما شغلهم من هوى وطرب ، ولهو ولعب ، ولذات وسرعات لم يكن غير أحلام ، لا ثبات لها ، ولا اعتداد بها . ونص هذا البيت في أصل الديوان المخطوط :

حتى انتبهنا بعدما ذهب الصبا إن الخلاعة والصبا أحلام

ويلاحظ أن الخلاعة : التهنك ، والاستخفاف ، والانقياد للهوى . واللذذة : أو اللذة قد تكون فيها لا يستهجنه العقل ، ولا يحرمه الدين .

تَأْتِي الشُّهُورُ ، وَتَنْتَهِي سَاعَاتُهَا لَمَعَ السَّرَابِ ، وَتَنْقُضِي الْأَعْوَامُ^(١٦)
وَالنَّاسُ فِيهَا بَيْنَ ذَلِكَ وَلَوْ أَوْ صَادِرٌ ، تَجْرِي بِهِ الْأَيَّامُ^(١٧)
لَا طَائِرٌ يَنْجُو ، وَلَا ذُو مِخْلَبٍ يَبْقَى ، وَعَاقِبَةُ الْحَيَاةِ جِثَامُ^(١٨)
فَإِذَا هُمُومُ النَّفْسِ عَنْكَ إِذَا اعْتَرَتْ بِالْكَأْسِ ، فَهِيَ عَلَى الْهُمُومِ حُسَامُ^(١٩)
فَالْعَيْشُ لَيْسَ يَدُومُ فِي الْوَانِي إِلَّا إِذَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْجَلَامُ^(٢٠)
مِنْ خَمْرٍ تَذُرُّ الْكَبِيرَ إِذَا انْتَشَى بَعْدَ اشْتِعَالِ الشَّيْبِ وَهُوَ غَلَامُ^(٢١)
لَعِبَ الزَّمَانُ بِهَا ، فَقَادَرَ جِسْمَهَا شَبَحًا تَهَافَّتْ ذُوهُ الْأَوْهَامُ^(٢٢)
حَمْرَاهُ ، دَارَ بِهَا الْحَبَابُ ، فَصَوَّرَتْ فَلَكَا تَحُفُّ سَمَاءَهُ الْأَجْرَامُ^(٢٣)
لَا تَسْتَقِيمُ الْعَيْنُ فِي لَمَعَانِهَا وَتَزِلُّ عِنْدَ لِقَائِهَا الْأَقْدَامُ^(٢٤)
تَعْشُو الرُّكَّابُ ، فَإِنْ تَبَلَّجَ كَأْسُهَا سَارُوا ، وَإِنْ زَالَ الضِّيَاءُ أَقَامُوا^(٢٥)
حَسِبْتَ بِأَكْلَفٍ ، لَمْ يَصِلْ لِفَنَائِهِ نُورٌ ، وَلَمْ يَسْرَحْ عَلَيْهِ ظَلَامُ^(٢٦)

(١٦) في أصل الديوان المخطوط : « تأتي الشهور ، وتنتهي أيامها ... »

(١٨) في أصل الديوان المخطوط : « وعاقبة النفوس حسام »

(٢٢) تهافت : أصلها تهافت ، ثم حذف إسدى التامين تخفيفاً : أى تتساقط في تنابع . من قول : تهافت الغرائز على النار . وذوهُ : دون الشيخ : أى فوقه ، أو عليه ، أو بالقرب منه . والأوهام : أضغاث من الظنون : جمع وهم (بوزن وعد) : وهو الشيء يندور في الخاطر : أى يقع في الذهن . ومعنى البيت : أن هذه الخمر مصقت زبانا طويلاً حتى صفت ، ووجدت ، وركبت ، وراقت ، وصارت لفرط رقتها ولطافتها كالشيخ الخفى الذى لا يدرك إلا بالتوهم والتخيل . أو الذى تتساقط الأوهام دونه ، ولا تكاد تدركه الظنون . والفرس المغالة في تصوير رقتها وجودتها بعد أن تملأها الزمان . وفي الأصل المخطوط : « ... شيئاً تحار لذلك الأوهام » .

(٢٦) في الأصل المخطوط :

« حسبت بأكلف لم يقيم بفنائيه نور ، ولم يبرح عليه ظلام »
ومعنى « لم يصل إلى فناءه نور » قريب من معنى « لم يقيم بفنائيه نور » . والفعل « يبرح » لا يستقيم معناه هنا ، فهو من الأخطاء المطبعية . والصواب ما جاء في أصل الديوان : « لم يبرح عليه ظلام » .
ديوان الهارودي - ٣ -

حَتَّى إِذَا أَصْلَقَتْ ، وَظَلَّ رِذَاهُمَا وَثَبَتْ ، فَلَمْ تَثْبُتْ لَهَا الْأَجْسَامُ (٢٧)
 وَقَدَّتْ حِمِيَّتَهَا ، فَهَلَوَا مَرْجُوهَا بِالْمَاءِ بَعْدَ الْمَسَاءِ ، شَبَّ حَيْرَامُ (٢٨)
 تَسِيمُ الْفُتَيَّانِ يَنْوَرُهَا ، لَكِنَّهَا بَرَدٌ عَلَى شُرَاهُمَا وَسَلَامُ (٢٩)
 فَاصْفُلْ بِهَا صَدَأُ الْهُمُومِ ، وَلَا تَكُنْ غِرًّا تَطِيشُ بِلُبِّهِ الْأَلَامُ (٣٠)

(٢٧) اصطقلت: تحركت في دفتها وجاشت، واضطربت اضطراباً يشبه غليان الماء في القدر، وفوران السائل بقوة الحرارة. واصطقلت: مرجت بالماء. والقدام: ما يوضع على فم الوعاء سداً له. ووثبت: طرفت، وقفزت. والمراد أنها فارت، وغلت، واشتد اضطرابها في أنبيها. ولها: من أجلها. أو بسببها، فاللام هنا: لام التعليل، ويبيان السبب.

والمنى: أن الخمر إذا مرجت بالماء بعد تحقيقها فارت واضطربت، فأطارت سداد وعائها. وإذا شربها شاربها سكر، وترنح بسببها جسمه، وتمايل من السكر، وزايله الثبات والاعتدال والاستقرار، وفقدت الرزاقه والاحتشام والوقار.

والبيت السابع والعشرون الذي يقابل هذا البيت في أصل الديوان:

حَتَّى إِذَا رَقَدَتْ ، فَقَرَّ قَرَاهَا سَلَتْ ، فَلَيْسَ لِلْيَقِينِ إِلَّا لَامُ (٢٨)
 وَقَدَّتْ ، انْقَلَدَتْ ، وَاشْتَمَلَتْ ، وَتَلَبَّتْ . وَحِمِيَّةُ الْخَمْرِ ، وَحِمِيَّاهَا : سَوْرَتُهَا ، وَشَدَّتُهَا . أَوْ إِسْكَارُهَا . أَوْ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ فِي الْبَيْتِ السَّابِقِ مِنَ الْإِصْطِلَاقِ وَالْفُورَانِ وَالْيُتُوبِ وَالْثُورَانِ وَالْإِصْطِرَابِ . وَثَبَّتْ النَّارَ : تَوَقَّدَتْ . وَالضَّرَامَ : لَبَّ النَّارَ . أَوْ اشْتَغَلَهَا فِي الْخِلْفَاءِ وَنَحْوِهَا .
 والمنى: أن هذه الخمر تمزج بالماء مراراً؛ لتخفيف حدتها وسورتها، وتلطيف شدتها وحميئتها. ولولا هذا لانقادت اتقاد النار. والفرض المبالغة في وصف سورتها، وبيان شدة تأثيرها. ولعله يشير بهذا إلى جودتها وحسن تمتيقها.

وقد انقردت الوحيلة الأدبية برواية هذا البيت الذي لا يوجد له في أصل الديوان.

(٢٩) في أصل الديوان المخطوط: «تسم العين بنارها». وكلمة «النار» أتيق من كلمة «النور» فإن ماقري الخمر ويد منها يميزون بحمرة في عيونهم تشبه حمرة النار.

(٣٠) الفَرَّ من الناس: من تَمَسَّوْهُ الخيرة والتجربة والفطنة. ومن يسهل خدعه والتفريه به. وتطيش: مضارع طاش (من باب باع): بمعنى اضطرب وانحرف. أو خف، أو زق، أو ذل. وطاش عقله: ذهب. أو خف، وتشتت؛ فجهل، أو أعطى. واللب: العقل. ويراد بالآلام: آلام العيش، ويتابع الحياة وهميها. وتطيش بلب الآلام: أي تلعب الآلام بعقله. أو تضطرب وتورد في قلبه؛ فتشتت ذهنه، وتزله عن الصواب. أو هو مضارع أطاشه إطاشة: أي جعله يطيش: أي تطيش الآلام له (بزيادة الياء في المفعول، به لتوكيد الكلام).

وَاعْلَمَ بَلَّانَ الْمَرْءَ لَيْسَ بِخَالِدٍ وَاللَّهُ فِيهِ صِغَةٌ وَسَقَامٌ (٣١)
يَهْوَى الْفَتَى طُولَ الْحَيَاةِ ، وَإِنَّهَا دَاءٌ لَهُ - لَوْ يَسْتَبِينُ - عُقَامٌ (٣٢)
فَاطْمَحَ بِطَرَفِكَ ، هَلْ تَرَى مِنْ أُمِّهِ خَلَّتْ؟ وَهَلْ لَابِنِ السَّبِيلِ مَقَامٌ؟ (٣٣)
هَذِي الْمَدَائِنُ فَذَخَلْتَ مِنْ أَهْلِهَا بَعْدَ النَّظَامِ ، وَهَنَ فِيهِ الْأَهْرَامُ (٣٤)

= زعم أن الخمر تنسى شاربها مومته وأجزائه ، وتزيل وساوسه وتتابعه ، وتوفر له أسباب المتعة والسرور ورياح البال . وقال في الدعوى إليها ، والترويب فيها ؛ فمكس الحقيقة ، وقال : إن المتعدين عنها أغوار تلذذ الآلام الحياة بألباهم . وهو يعنى بالشطر الثاني تأكيد الشطر الأول ؛ فالخمر - في زعمه - تصقل صدأ الحسوم ، وتعالج الغرارة والنفلة ، وتوقظ الذهن وتنبيهه ، وتصفون الألباب من العيش والخفة .

والذي في أصل الديوان : « ... ولا تكن غرّاً تلير بلبه الأوهام »
(٣٢) استبان الشيء : ظهر وبان واتضح . واستبانته : عرفه . أو استوضحه . أو أبانه وكشفه وأظهره ؛ فالعمل لازم متعدي . وجسلة : يستبين . معترضة بين التمت وتتموته ؛ « عَقَامٌ » نعت لو داء .
والمعنى : أن الإنسان يجب أن يطول عمره في الحياة الدنيا ؛ ويتنقذ هذا ، ويرغب فيه ، ويترقى إليه ، ويحرص عليه

أرى كلنا يعنى الحياة بسعيه حريصاً عليها ، مستجاباً بها ، صَبَّاحاً
ولو استبان حقيقة الأمر ، أو استبان له الأمر ، لعلم أن الحياة داء عياد ، لا بُدَّ له ، ولا شفاء منه . وحسبك منها ما تحمله إليك من الحسوم والآلام العيش وتتابعه ومشكلاته ، وما يهلكك من بلاياها ولؤلؤها وروزايها . ولأثير الشغراء أحد شوقي فيما يناسب هذا المعنى ويشاكله ويبرزه :

فإن الحياة تقلّ الحديداً إذا لبسته ١٤ وتقبل الحجر
وفي أصل الديوان المخطوط :

جوى الفتى طولي الحياة ، وإنها داء له دون الشفاف عقم

والغرض من هذا البيت وأمثاله التنزيه في الدنيا ، والتحذير من الاغترار بها ، والتهاون عليها ، والافتخار بزخرفها وباطلالها ؛ فإن هذا كله سبب كثير من الشرور والآثام .

(٣٤) « بعد النظام » : أى كانت هذه المدن عامرة بأهلها ، يسودها النظام ، ويزينها الترتيب والانساق ، فلما خَلَّتْ منهم ، ذهب نظامها وبهاجم ، وأصابها ما يصيب المساكن المهجورة الخاوية من الخراب والاسار . وفي أصل الديوان المخطوط :

هوى المدائن ، قد خَلَّتْ من أهلها بعد التمتع .. . »

لَا شَيْءَ يَخْلُدُ ، غَيْرَ أَنْ خَلِيعَةً فِي الدَّهْرِ تَنْكُلُ دُونَهَا الْأَخْلَامُ (٣٥)
وَلَقَدْ تَبَيَّنَتْ الْأُمُورُ بِغَيْرِهَا وَآتَى عَلَى النَّقْصِ وَالْإِبْرَامِ (٣٦)
فَإِذَا السُّكُونُ تَحَرَّكَ ، وَإِذَا الْخُمُ دُ تَلَهَّبُ ، وَإِذَا السُّكُوتُ كَلَامُ (٣٧)
وَإِذَا الْحَيَاةُ - وَلَا حَيَاةَ - مَيِّتَةٌ نَحْبَا بِهَا الْأَجْسَادُ وَهِيَ رِيَامُ (٣٨)
هَذَا يَحُلُ ، وَذَلِكَ يَسْرَحُلُ كَارِهَا عَنْهُ ، فَصْلَحُ تَارَةً ، وَخِصَامُ (٣٩)
فَالْتَوَرُّ - لَوْ بَيَّنْتُ أَمْرَكَ - ظُلْمَةٌ وَالْبِدْنَةُ - لَوْ فَكَّرْتُ فِيهِ - خِنَامُ (٤٠)

وَقَالَ يَصِفُ رَوْضَةَ الْمَقْيَاسِ :

أَلَا ، حَتَّى بِالْمَقْيَاسِ رِيًّا الْمَعَالِمِ وَقُلْ لَهَا مِثْلًا نَحِيْبَةً قَادِمِ (٤١)

(٣٥) في أصل الديوان : « لا شيء يبقى »

وقد أسلفنا أن عدد أبيات هذه القصيدة في أصل الديوان المخطوط تسعة وثلاثون بيتاً . ويبدوها في
الوسيلة الأدبية أربعمائة بيتاً . وأشارنا إلى ما ورد فيها ، ولم يرد في أصل الديوان . وإلى مواضع الخلاف
كلها .

• روضة المقياس : جزيرة في نهر النيل ، شرق الجزيرة ، وغربي الفسطاط (مصر القديمة)

وقد كثرت فيها الآن المساكن السكنية الكبيرة المرتفعة . ودكاكين البدالين والكواخين وغيرهم من أرباب
الحرف والمهن والتجارات . وكثُر سكانها من الطبقة المتوسطة ، وأخذت طابع الأحياء الشعبية ؛ فشابهت
حتى النيل (وهو جزء منها ، متصل بها) ، وفقدت أكثر المعالم التي عنها البارودي ، وتفتت بها ،
ولم يبق فيها غير بقية قليلة من المساكن الفخمة ، والقصور الجميلة ، والحدائق النضرة التي تُشتمل ماضيها
البهيج الفاخر الذي يمنه الشاعر بهذا الوصف البليغ المتع . وسُميت « روضة المقياس » لأن في نهايتها
من الجنوب مقياساً قديماً كان يقاس به المستوى الذي يصل إليه ماء النيل في ارتفاعه وانخفاضه .

(١) « ألا » : حرف استفهام : أي أداة يبتدأ بها الكلام . وتقيد التنبيه ، وتشعر بعظم شأن
ما يليها ، وتثير الاهتمام به . وحى : أمر من حيَّاه تحية : أي سلم عليه . أوقال له : حيَّاك الله : أي
أطال حياتك ، وبارك عمرك . وريثاً ، وريثاً : مؤثّر وريثان : وهو ضد العثشان . والريث : الربيع
الطبيبة الذكيّة : والمعلم : جميع معلم (يوزن مذهب) : وهو السلامة ، والأثر ، وما يستدل به على الطريق .
ويراد بالمعلم هنا : منازل هذه الجزيرة ، وما فيها من مظاهر الحياة ، ودلائل النعم ، وآثار الحضارة والعمران .
وريا المعلم : المعلم الريانة . وصفها بالري مشيراً إلى ما يزيها من النضرة والبهجة ، والمحب والثناء . =

مَلَاعِبُ آدَامَ ، وَمَلَوَى حَمَائِمَ وَمَسْقَطُ أُنْدَاهُ ، وَمَمْرَى نَسَائِمَ^(٢)
أَخَاطَتِ بِهِ لِلنَّبِيلِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ جَدَاوِلُ تُسْقِيهِ سُلَالُ الْقَمَائِمِ^(٣)

= وفضارة العيش فيها ولينه وسعته ورفاهته . أو إلى ما طاب وسلع من أنسام هذه الممالك وألقابها العطرة .
وقلّ : فعل ماضٍ من القلّة : غدت الكثرة . أو هو أمر من قلّه (من باب ردّ) : أى حمّله ،
ورقه . ومله أقلّه . ولما : لروضة المقياس . أو لمملها . و« تحيية » : فاعل « قلّ » بمنها الأول .
وفعلها بمنها الثانى . وتحية قادم : أى تحية مقبل عليها ، قاصد إليها ، مشغوف بها .

حسباً الشاعر فى الشطر الأول روضة المقياس وبمملها المارة الناضرة تحية إعرزاز وتقسيم ، وتكريم
وتعظيم ، وفوه بما يزينها ، ويرفع شأنها من الفضارة والارتواء والحصب والنماء ، وأمارة الحسن والبهجة ،
وظواهر الممران ، والحياة الوداعة المانعة ، الطيبة السعيدة . ولكنه ما لبث أن استقلّ التحية فى الشطر
الثانى من البيت ؛ كأنه رأى هذا الوطن الصغير المزيز الكريم جديراً بما يفوق التحية والسلام من شواهد
الإعرزاز والإكرام .

أو اتبس من كل مستمع له ، معنى يأمره أن يشاركه فى هذه التحية . أو جرّد من نفسه شخصاً
آخر ، أو تمخّل أن معه رفيقاً ، وطلب إليه فى الشطر الأول أن يحى روضة المقياس وبمملها الروانة
البهجة . ثم طلب إليه مرة أخرى فى الشطر الثانى أن يحصل إليها تحيته ، وتحيات أمثاله الذين يرحّب بهم الشوق
والوجد والحنين ، وتعلّقهم الإعجاب والإكبار والانهار .

(٢) « ملاعب » : خبر لمبتدأ محذوف . والتقدير : هى (أى روضة المقياس) ملاعب :
جمع ملعب . والآرام : جمع رُم (يكسر فسكون) : وهو الظى : أى الغزال الأبيض . وتشبه
به الفتاة الحسناء فى جمال الجيد واللينين ، والرشاقة ، وخفة الحركة ، وحسن النشئ . والأنداء :
جمع الندى : وهو المطر . وقطرات صغيرة من الماء تسقط فى أثناء الليل على الأرض ، وعلى أوراق الأشجار
والأشجار من بخار الماء المتكاثف فى طبقات الجوّ الباردة . والممرى : اسم مكان من المرمى (بوزن
الهدى) : وهو السير ليلاً . ويراد به هنا السير مطلقاً . والنسائم : جمع النسيم : أى الريح البتة
الطيفة اللينة .

يصف بعض ما يميز هذا الروض الأريض من مظاهر الحياة ، ومشاهد الطبيعة : ففتياته حسان
بيض كالنزالان ، يلعبن ويرتمنن فى مرج ودعة ، وخفة ورشاقة . والطير تأوى إلى أشجاره لحصبه وأمنه .
وفى الشطر الثانى إشارة إلى أندائه ونسائمه ، وهى من محاسن جوّه وهوائه ، وأسباب نفسته وفضارته .

(٣) به : بالمقياس المذكور فى البيت الأول . ويراد به : روضة المقياس . ومن كل جانب :
تأكيد لمعى الإحاطة . والجداول : القنوات والترع ، والأنهار الصغيرة ، واحدها جدول (بوزن جعفر) .
وتسقيه : مضارع سقا . أو أسقا : أى أرواه . وسلاف كل شيء : خالعه . والسلاف : أفضل
الخمر ، وأخلصها . ويراد به هنا : المطر . والقمام : جمع غمامة : وهى السحابة . وترتيب البيت =

تَدُورُ مَدَارَ الطُّوقِ مِنْ حَيْثُ تَلْتَقِي مَسِيرًا ، وَتَنْسَلُ انْسِلَالًا الْأَرَاقِمُ^(٤)
إِذَا ضَاكَحَتْهَا الشَّمْسُ رَفَّتْ مَوْتُونَهَا رَقِيفَ الثَّنَائِيَا خَلْفَ (حُمُرِ) الْمَبَاسِمِ^(٥)

== مع توضيح معناه : أحاطت بروضه المقياس من كل جوانبها جداول الليل (أي جداول من الليل) تسق هذه الروضة سلاف الغمام ، أي مياه الأمطار .

يصف ما كان في جزيرة الروضة على عهد من جداول كثيرة تُجَدِّقُ بالجزيرة ، وسماق تجري بالمياه المدية الغزيرة في حدائقها وبساتينها ؛ قرويا ، وتكسبها الفضارة والنضارة ، والرونق والبهجة ، والحسن والروام . ويقول : إن مياه هذه الجداول النيلية سلاف السحاب ، أي مياه الأمطار . ولا غرو ؛ فإن النيل وفيضانه ورواقده وفروعه من الأمطار الغزيرة التي تسقط في منابه . وقد يكون المراد : تصوير الجزيرة بمقتضى ما النيل وما تفرع منه إحدائقاً تاماً من كل جهاتها ، ويروى بها مجاهه العذبة ؛ وفي الأصل سلاف الغمام .

(٤) « غائل » تدور : ضمير « جداول » في البيت السابق . و « مدار » : مصدر ميمي بمعنى الدوران . و « حيث » : ظرف مكان مبني على الضم . وتضاف إلى الجمل . والمسير : السير . وتلتقي مسيراً : أي تلتقي التقاء مسير ؛ أي تتلاقى وتتصل في سيرها وجرياتها . أو تتلاقى سائرة ؛ أي تستعمل المصدر حالاً . وتَنسَلُ : تتخلق في استخفاف وهذو . ومصدره الانسلاخ . والأراقم : جمع الأرقم : وهو الحية فيها سواد وبياض . أو هو ذكر الحيات . أو أخبثها .

وهذا البيت تكرار وتأكيد لمعنى الإحاطة في البيت السابق ؛ فالجداول تحيط بروضه المقياس إحاطة تامة ، وتتلاقى في مسيرها ، وتدور حولها ، دوران الطوق بما يلتف حوله . وفي الشطر الثاني إشارة إلى انسياب مياه هذه الجداول في سرعة وهذو وتدافع ؛ كأنها الحيات تجري وتتدافع ؛ في مشيا . وقد يكون المعنى : أن نهر النيل وما تفرع منه يطوق هذه الجزيرة تطويقاً تاماً ، ويجري حولها مياه في سرعة وهذو ، كما تساب الأراقم .

(٥) ضاحكتها الشمس : ضاحكت الشمس الجداول : أي أشرقت بضيائها على مياه هذه الجداول فتلألأت ، ولعت ، واستنارت كأنما تفحك تفحكاً . ورفت : لعت ، وبرقت ، وتلألأت ، واهتزت نضارة وحسناً . ومصدره الرث والرفيف .. وتتوينا : تتون الجداول : جمع من : وهو الظهر . ويتن كل شيء : ما ظهر منه . ويتن الماء : سطحه . والثنايا : ما يظهر من الأسنان عند الابتسام . والواحدة ثنية (بوزن قضية) . وعدها أربع في مقدم النعم : ثلثان فوق . وثنتان من تحت . والكلمة التي بين قوسين وهي (حمر) : جمع أحمر - تكلمة من عندنا للأصل المخطوط الذي بين أيدينا . وقد أسلفنا أن النقص ، وأخطأ ، والتحريف والتصحيف فيه غير قليل . وبهذه التكملة استقام وزن البيت ومعناه . والمباسم : الثور . واحداً مبسم (بوزن مجلس) . وهو في الأصل : اسم مكان من بسم الإنسان (من باب ضرب) أي انفرجت شفتاه عن ثناياه ضاحكاً بفون صوت . وهو أخف الفصح وأقله وأحسنه . ومثله الابتسام ==

وَلَا سَلْسَلَتَهَا الرِّيحُ أَبَدَتْ سَبَائِكًا مُقَدَّرَةً ، كَالْوُثْمِ قَوْقَ الْمَعَامِصِ^(٦)
تَجُوسُ خِلَالَ الْبَاسِقَاتِ ، وَتَنْتَهِي إِلَى سَاعِدٍ فِي غَمَرَةِ النَّبِيلِ سَاجِمِ^(٧)
تَرَى جَوَلَهَا الْأَشْجَارَ وَلَهْيَ مُكِبَّةٍ عَلَى الْمَاءِ ، فَعَلَ الصَّادِيَاتِ الْحَوَائِمِ^(٨)

٦ ویراد باللباس هنا: الشفاه : جمع شفة . وغلف حمرا الملباس : أى وراه الشفاه الحمر . وحمرتها ونضرتها دليل قوة الحياة في المتبسم .
واللهي : أن الشمس تطلع على هذه الجداول ، فظهر محاسنها ، وتلاذ مياها في صفاء ونقاء ، كأنها ثانيا الحسان ترف مع الابتسام .

(٦) سلسلتها الريح : أى جرت فوق مياها ؛ فكان لاحتكاكها بسطحها تلفس وتجسده وتثن يشبه السلاسل . وأبدت : أظهرت . وفاعله ضمير الريح : أى أظهرت الريح فوق مياه الجداول ما يشبه السباك . أو الفاعل ضمير الجداول : أى أظهرت الجداول بفعل الريح وسلسلتها لمياها ما يشبه السباك : جمع سبيكة . وهى كلمة من الفضة أو الذهب أو غيرها ، ذوبت ، وصبت في قالب ، لتخرج على صورة مطلوبة ، كالقصبان مثلا . ومقدرة : اسم مفعول من التقدير : مصدر قدّر الشيء بالشيء : أى قاس به ، وجعله على مقداره . وقدّره على جملة على مقدار مخصوص ، ووجه مخصوص . والوتم : غطوط ورسوم وصور وكتابات تكون في يد الموشوم ، أو وجهه ، أو صدره : من وشمه (كعبده) : أى غرز الموضع المراد وشمه بالإبرة ، ثم ذرّ عليه التثبور : ويسمى التثليج : وهو دخان الشم . ولون أثر الوتم أخضر أو أزرق . والمعاصم : جمع المعصم (بوزن المنبر) : وهو موضع السوار من اليد .
يقول : إن الرياح الينة اللطيفة تجرى فوق مياه هذه الجداول ، فتسلسلها ، وتظهر على سطحها ما يشبه السباك المقدرة . ثم شبه هذه السباك فوق سطح الماء بالوتم فوق المعاصم ؛ فالسباك وشم ؛ لما فيها من تقدير وصناعة وقياس وإتقان . والماء تحيا معاصم لصفاته ، وتلاذ له ولعانه .

(٧) تجوس خلال الباسقات : تدور فيها ، وتتردد بينها ، وتتوسطها . (ويابه قال) . وفاعله ضمير الجداول . والباسقات : طول النخيل والأشجار . وفاعل : تنهى : ضمير الجداول . والساعد : مجرى الماء إلى البحر ، أو إلى البحر . وغمرة النيل : زحمته ، وبلته ، وكثرة ماله . وجمعهما غمار (بكسر اللين) . و. ساجم : نصت ل. ساعد : اسم فاعل من سجم الماء (من باب دخل) : أى سال ، وجرى ، وانصب . أو من سجمه : بمعنى أسأله وصبه ؛ فالساعد ينصب في النيل . أو يصب مائه في النيل . يقول : إن هذه الجداول تدور وتجري بين طول النخيل ، والأشجار المرفقة العالية . ثم ينتهى بها اللطاف إلى مجراها المنصب في غمرة النيل ؛ فهى من النيل ، وإليه .

(٨) حوما : أى حول الجداول . وهى : صفة من وله الصبي إلى أمه (كعبده ، وجبل ، وورث) : أى فرح إليها ، ولما . وولته الأم إلى ولعها : أى حثت إليه ، فهى وكلهى ، وهو وكلهان . وسكبة : اسم فاعل من أكب على الشيء : أكبايا : أى أقبل عليه ، وشغل به ، ولزمه . والصاديات : جمع صا

وَمُنْبِثَاتٍ فِي الْهَوَاءِ ، كَأَنَّهَا بَيَّارِقٌ لَهْوُرُكَزَتْ فِي الْمَوَاسِمِ^(٩)
مِنَ اللَّاءِ قَدْ أَلَيْنَ يَشْرَبْنَ ، أَوْ تَلِي مَنَابِتَهَا غَوَرَ الْبَحَارِ الْخَضَارِمِ^(١٠)

= صادية : اسم فاعل من العدى : وهو العطش الشديد . والحوام : جمع حائمة أو حاتم : اسم فاعل من حام الحيوان (من باب قال) : أى عطش . أو حام الطائر وغيره حول الشيء ، وحام عليه : أى داربه ، وأطاف عليه .

يصف الأشجار الكثيرة القائمة حول الجداول ، وعلى حافتها وشواطئها . ويتخيلها والهة ، مقبلة على الماء إقبال الحيوان أو الطير إلى اشتد بها العطش ؛ فهي تحوم عليه ، وتطوف به ، وتدور حوله .

(٩) «الوار» في أول البيت : حرف عطف . و« منبثات » : معطوف على « ولى » في البيت السابق : أى ترى الأشجار حول الجداول ولى ... ترى التخييل منبثات : أى ذاهبات مرتفعات في الهواء . والبيارق : جمع يرق (يوزن فاعل) : وهو الراية ، أو السلم الكبير . و« ركزت » : غرزت في الأرض ، وثبتت . و« فاعله ضمير البيارق . والمواسم : المحافل والأعياد الكبيرة ، والجامع الكبيرة من الناس ، واحدها موسم (يوزن مجلس) .

والشاعر في هذا البيت وأربعة الأبيات بعده يختص التخييل بالوصف والتصوير ؛ فهي منبثة مرسله عالية بأسقة ذاهبة في الهواء ؛ ذات سف كثر أثيث ، وأضغان مرقعة طويلة ، تهتز وتضطرب كأنها دابات كبيرة مضطربة ، أقامها الناس - في محافل المرح والحب ، ومواسم الهوى والسرور - على أعمدة طويلة عالية ، مركزة في الأرض ، ذاهبة في السماء .

(١٠) «من» في أول البيت : لبيان التخييل المنبثات في الهواء . واللآء : اللؤلؤ ؛ وهو اسم موصول بجمع المؤنث . و« لاء » واللاق : وحذف يائهما جائز . وآلبن : أقسم ، وحلفن . وآلبن يشربن : أى آلبن ألا يشربن ؛ فمختلف النفي ، وقد رء بعد القسم ؛ ولهذا امتنع توكيد الفعل . ولو كان الكلام مثبتاً لوجب توكيده . و« أو » بمعنى « إلا » . أو بمعنى « إلى » . وقيل : تكون وتقترب . ويراد بمنابث التخييل : جنورها وأصولها المذهبية في أعماق الأرض . واحدها منبت (يوزن مجلس) : وهو اسم مكان على غير قياس من نبت الزروع (من باب نصر) : أى نشأ وظهر وخرج من الأرض . وغفور البحر : قمر وصفه . وجمعه أغوار . والخضارم : جمع خضرم (بكسر فسكون فكسر) : وهو البحر الأخضر العظيم الواسع العميق الكثير الماء . والمعروف أن النخلة أو الشجرة تنشق بالماء في أول غرسها وهي صغيرة ، فإذا تمت امتدت جلورها في باطن الأرض ، فأمدتها بالماء والغذاء .

يقول : إن هذه التخييل أقسم ألا يشربن الماء من باطن الأرض إلا إذا امتدت جنورهن فيه ، ووصلت إلى حق بعيد يسلمى أغوار البحار الزاغرة العظيمة العميقة . والفرض الإشارة إلى يسوق النخل ، وتقام نباتها ، وذهب فروصها في السماء بعد ذهاب أصولها في أعماق الأرض .

إِذَا لَاعَبَتْ أَعْرَافَهَا الرِّيحُ خَلَّتَهَا فَوَارِسَ تَعَصُّوبِ السُّيُوفِ الصَّوَارِمِ (١١)
يَلُوحُ بِهَا طَلْعٌ نَفِيدٌ ، كَأَنَّهُ فَرَائِدُ سَاوَى بَيْنَهَا كَفٌ نَازِمٌ (١٢)
إِذَا مَا أَتَى مِيقَاتَهَا ، وَتَضَرَّبَتْ حَسِبْتَ عَقِيقًا فِي صِحَافِ الْكَامِثِ (١٣)

(١١) أعراف النخيل : أعاليها : أى فروجها وسفنها وأغصانها المنتشرة فى روسها وحول أعناقها . مفردهما حرف (بوزن قفل) . ولأصابت الريح أعرافها : عشت بها ، وحركتها . وشلتها : ظننتها : أى ظننت النخل الباسقات . وفوارس : جمع فارس : وهو الماهر فى ركوب الخيل . وفوارس الجيش أو فرسانه : هم المحاربين على ظهور الخيل . ويصاه يصوه صوا (من باب عدا) : : ضربه بالعضا . والمراد هنا : مطلق الضرب . والصوارم : القواطع : جمع صارم : وهو الحاد القاطع .

يقول : إذا حركت الرياح سف هذه النخيل ظننتها جماعة من الفرسان المهارين بمجالون أقدامهم بسيفهم القواطع ؛ وذلك لأن السفة تحركها الريح ، فتتحرك وهي متصلة بالنخلة ؛ فيخيل إلى من يراها أنها سيف يهتز فى يد محارب .

(١٢) يلوح : يبدو ، ويظهر . وبها : بالنخل الباسقات . وطلع النخلة : ما يبدون ثمراها فى أول ظهوره . وأول البلع : طلع ، ثم خذل ، ثم بلع ، ثم بسر ، ثم رطب ، ثم تمر . والطلع أيضاً : فيه يخرج من النخلة كأنه لعلان مطبقان . والحسّل بينهما منصود . والطرّف محذ . وبمباراة أخرى هو خلاف يشبه الكوز ، ويفتح من حب منصود فيه مادة إخصاب النخلة . وهذا الغلاف ، أو الرءاء يسمى الكمامة (بكسر الكاف) . وجمعهما كاثم . ونفيد : منصود ، مجتمع ، منسّق ، منسق . وفرائد : جمع فريدة : وهي الجمهرة النفيسة . وسأوى بينها : سأل بين الفرائد : أى جعلها ماثلة ، متعادلة ، متشابهة متساوية . والكف مؤنثة : وهي اليد . أو هي الراحة مع الأصابع . ولما ظم : اسم فاعل من نظم الإنسان القول ونحوه (من باب ضرب) : أى ألّفه ، ونسّقه ، وجمعه فى سلك .

يصف الشاربين يتنظم فيها الطلع فى أول ظهوره ، ويشبهه بالحوار أو اللال جمعتها ، ونسقها وصارت بينها كف نازم ماهر . أو يصف الحب المنصود الذى يفتح عنه طلع النخلة ، فيبدو منسقاً فى الكاثم .

(١٣) ميقاتها : ميقات الفرائد : أى وقت نضجها . ويراد بالفرائد : الطلع المنصود فى أظافه أو شاربينه . وتضربت : أحمرت . وقاعله ضمير الفرائد فى البيت السابق . وحسبت : ظننت : أى حسبت الفوائد عقيقا . والعقيق : غرز قفص أحمر اللون . أو هو حجر كريم أحمر ، يعمل منه فضوص الخواتم ونحوها . يكون باليمن ، وبسواحل البحر الأبيض . وأحدثه عقيقة . والصحاف : آنية الطعام . وأحدثها صحفة . والصحة أيضاً : قصبة كبيرة منبسطة ، تشع الخمسة . والكاثم : أوصية الطلع وشكله ، وكيزانه ، وأغشيته . وأحدثها كامة . ويراد بالكاثم هنا : الأذواق ، أو الشاربين =

مَسَارِحُ لَهُوَ ، لَوْرَأَى الشَّعْبُ حُسْنَهَا لَعَضَّ عَلَى مَا فَاتَهُ بِالْأَبْهَامِ^(١٤)

= إلى يتنظم فيها البلع ويتسق . وصحاف الكلام : الكلام الشبيه بالصحاف ؛ فهو من إضافة المشبه به إلى المشبه .

— يصف البسر إذا لَوَّنَ واحمرَّ . ويشبَّهه في أعذقه أو شاربته بالمعيق في الصحاف .

وصف الشاعر في هذا البيت وأربعة الأبيات قبله ما كان على عهده في روضة المقياس من التخیل الباسقات ، وعبث الريح بسفنها ، وعمق جنورها في باطن الأرض إلى مثل أغوار البحار العظيمة العميقة . وذكر الطلع والبسر . واستعان على الوصف والتخیل ، والتصور بمدة تشبيهات قريبة مألوفة في الجميل من التظم والتشتر ؛ فانبثقت التخیل في الهواء ، واضطرب سمفها الفارح في الجوّ بين الأرض والسما - يقرّ بها من صورة الجوارق المنتشرة الخافتة في ربوس أعده طويلة عالية . والسف المتهتز المضطرب في ربوسها وأعناقها سيوف ضاربة قاطعة في أيدي فرسان محاربين . وظلمها النفيد فرائد متسقة منتظمة مثالة . وبسرهما الأحمر في أعذقه عقيق في صحاف .

(١٤) المسارح : جمع مسرح (بوزن منهب) . وهو في الأصل : اسم مكان من سرح المشاة (من باب نفع) : أي تنقلت في المرمى ، ورعت الكلأ والشب والنبات . وباد بمسارح الهو : ما كان الشاعر ولأمثاله في هذه الرياض الأريضة ، والمروج الناضرة ، والحنان الزاهرة ، والقصور الفاخرة من ملاحب ، وملاذ ، ومنازه ، ومتنديات يجنون فيها كل ما يشتهون من المرح والسرور ، والمتع واللذات . وباد بالشعب (بكسر هـ) : شعب بوّان : وهو موضع عند شيراز ، ببلاد فارس (لإيران) ، كثير الشجر والمياه ، يعدّ من جنات الدنيا ، وقد اجتازه أبو الطيب المتنبي وهو في طريقه إلى حشد الدولة بن بويه ؛ فوصفه بقصيدة من عيون شعره ، مطلعها :

مغاني الشعب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان
ومنها :

ملاعب جنّة لو سار فيها سليمان ، لسار بترجمان
طبّت فرساننا وأنجيل ، حتى غشيت - وإن كرم - من الحران
غولنا تنفض الأضغان فيه على أعرافها مثل الجمان
فسرت وقد حجب الشمس حتى وجّه من الضياء بما كفاني

ورأى الشعب حسنها : رأى حسن هذه المسارح . والأبام : جمع الإبهام : وفي الإصبع الغليظة الخامسة : كبرى أصابع اليد ، أو الرجل . وفيها سلاميتان . وفي غيرها ثلاث . مؤنثة . وقد تذكّر . وباد بالأبام هنا : إبهام اليد . ولعل الجمع يشير إلى كثرة النقص وتكراره . وعضّ بالأبام ، وعضّ عليها : كناية عن التمسك والحسرة ، والتئيط . وفي القرآن الكريم : « ويوم يعضّ الظالم على يديه » يقول : ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً (الآية رقم ٢٧ من سورة الفرقان) . وعضّ شعب بوّان بأبامه =

ذَكَرْتُ بِهَا عَصْرًا تَوَلَّى ، وَلَكِنَّهُ تَقَصَّصَتْ . وَمَا عَهْدُ الزَّمَانِ بِذَاتِهِمْ (١٥) .
وَمَا تَحْسُنُ الْأَيَّامُ إِلَّا بِأَهْلِهَا وَلَا الدَّارُ إِلَّا بِالصَّادِقِ الْمُسْلِمِ (١٦)

= على ما فاته : أي تحسر وتلهف على ما لم يصل إليه ، ولم يتيأ له من محاسن روضة المقياس بالقاهرة .
يقول : إن ما وصفه ، أو أشار إليه من منازل روضة المقياس وبمعالها ، وجداول النيل فيها ،
وغياضها ووروجها وروقياتها وبيئاتها - ملاعب وملاعب فائقة المحاسن ، باهرة المفاخر . ولو رأى شعب
بأن هذه الجزيرة النضيرة ، لعرف أنها سبقته وناقضه بمباهجها ومحاسنها ؛ فاشتد أسفه وندمه ، وعصف
أصابه حسرة وكدا .

(١٥) ذكرت : تذكرت ، واستحضرت ، وحفظت . وبها : أي بمسارح الهوايا المشار إليها
في البيت السابق . والعصر : الدهر ، والزمان . وتولى : أدبر ، وذهب . والجملة الفعلية صفة لـ «عصر» .
وتقصص : انقصت ، وفنت ، وانصرفت ، وذهبت . والجملة الفعلية صفة لـ «لدة» . والعهد :
الموثق ، والذمة ، والمودة ، والوفاء ، والضيان ، والأمان ، والحفاظ ، ورعاية الحرمة . وما عهد الزمان
بدايم : تذييل منناه : أن الزمان لا وفاء له ، ولا أمان . وفي طيه التحول والتكسر . وبين دأبه التقلب
والتنفير . وشكوى الزمان أو الدهر عادة قديمة في الناس ، وبخاصة الشعراء . وهم ينسبون إليه ما يلم
بهم أو يصيغهم من الخير والشر والحسنة والفسادة .

يقول : إنه تذكر برؤية هذه المسارح والملاعب والملاهي والمتنديات ما قضاه فيها من متع الصبا ،
ولذات الشباب ، وروح الفتاه . وإن الزمان متقلب لا وفاء له ، ولا دوام لوده « من سره زين سادته
أزمان » . وفي البيت معنى الحسرة والأسف ، والحنين إلى الماضي وذكرياته ، والتلهف على ما فات .

شتم الشاعر بهذا البيت القسم الأول من هذه القصيدة التي اختص بها «روضة المقياس» . وفيه
وصف بمعالها ، وفوه بمحاسنها ، وأشاد بمزاياها . ثم تحسر على أيام هائلة عزيرة كانت له في هذه الجزيرة .
وهو في الأبيات الآتية يعود إلى ذكر العصر الذي تولى ، والذات التي تقصص ، ويحسن الثناء على مصابه
في ذلك العهد ، عهد الصبا والشباب . ويتمدح بالمحامد والفضائل التي شابههم فيها وشابهوه . وفي أثناء
هذا تلازمة الذكرى والحنين ، ويستشعر الأسى والحسرة ، ثم يتم القصيدة بما يشبه البقرة والاعتبار
بتقلب الدنيا ، وقلة وقاها ، وأنها حرب وكرب وبلاء على المكثرين بها ، المتخذهين بزخرفها وباطلها
« وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » . (الآية رقم ١٨٥ من سورة آل عمران)

(١٦) الملامح : المواقف .

يقول : إنما تحسن الأيام بحسن أهلها ، وتصلح بصلاحتهم ، وتطيب بالحياة فيها لكرام الأحرار ،
فإذا خلت من هؤلاء ، وسيطر عليها التام الأشرار ، كانت حرباً وبلاء ، وكرباً وبالاً على الكريم
الصالح . وكذلك الديار لا تصح عند المرء إلا إذا كان له فيها صديق صادق الدوامه ووفائه في الأخلاق
والمشارب ، والسيرة والسلوك ، وإلا كانت جهالة موحشة مقلقة لا تطلق .

فَبَا نِعَمَ مَا وَلَّتْ بِهِ دَوْلَةُ الصَّبَا وَلَمْ تَرَعهُ مِنْ عَهْدِنَا الْمُتَقَادِمِ (١٧)
 إِذِ الْعَيْشُ أَفْنَانٌ ، وَنَحْنُ عِصَابَةٌ أُولُو تَرْفٍ : مَا بَيْنَ عِيسَادٍ وَهَانِمِ (١٨)
 نَسِيرٌ عَلَى دِينِ الْوَفَاءِ ، وَلَمْ يَكُنْ سِوَى الْحُبِّ مِنْ قَاضٍ عَلَيْنَا وَحَاكِمِ (١٩)

(١٧) « يا : » حرف تنبيه . أو هو حرف نداء . والمتنady محفوف . و « نم » : فعل جامد يفتح للمح . وفاعله كلمة « ما » . و « ولّت » : أدبرت . و « ذهبت » . و « دولة » : فاعل « ولّت » . والصبا (بكسر الصاد) : الحدادّة ، وصفر السن ، والفتاة ، والشباب . ودولة الصبا : ريمانه ، وصطوته ، وظلّته ، وصنوفه . ويراد بما ولّت به دولة الصبا : ما كان لهم في صباهم من متع ولذات ، وملاذ ومسرّات . ولم تره : لم تحفظه . ولم تره : وفاعله ضمير « دولة » . و « رعى له حرته أو عهده » : لاحظ ، و « راعاه » وحفظه ، و « رعى به » . و « من » : بيانية . وما بعدها وهو « عهد » : بيان للضمير المفعول به المتصل بالفعل « رعى » . والمعهد : الزمان . أو هو ما كان بينهم وبين (دولة الصبا) من حرية ، وقمة ، وموثق ، وأمان . والمتقادم : القديم . ويلاحظ أن الملح : « نم » يشمل ما ولّت به دولة الصبا ، وهدهم المتقادم الذي لم تره تلك الدولة .

يمح في أسى وطفة وسرة ما ذهب بذهاب دولة الصبا والشباب من المرح والطرب ، والهوى والهوى ، واللذات والمسرّات . ويقول : إن تلك الدولة لم تبق شيئا من ملاهبسات ذلك العهد القديم العزّز . وفي الآيات الآتية تفصيل وبيان لبعض محاسنه .

(١٨) « إذ » : اسم مبنى على السكون ، يدل على ما مضى من الزمان . وهي هنا مضادة إلى الجملة الاسمية بعدها . وظرف لتلك الأحداث الماضية المشار إليها في هذا البيت والآيات التالية . والعيش : المعيشة والحياة . وأفنان : ضروب ، وأنواع ، وأحوال ، وظلها فنون . والمفرد فن . ويراد بأفنان العيش هنا : لذاته وتمعنه المتنوعة الكثيرة . والمصابة : الجماعة من الرجال . ويشلها المصبة . وأولو : أصحاب . فالترف : التمتع ، ورفد العيش ، وطيب الحياة . وفاد : ذاهب متعلق . وأصله الذهاب في الغفوة : بين الفجر وطلوع الشمس . وهانم : اسم فاعل من هام (من باب ياح) : أى خرج على وجهه في الأرض ، وذهب لا يدرى أين يتوجّه . أو من هام بالشيء : أى أحبّه ، وشغف به . ويراد بالهاني والهائم : الرجل الغارغ من أعمال الجدل ، وهوم الحياة ، المنصرف إلى اللهو والتنعيم ، المتعلق في فنون الأهواء واللذات .

يفصل بعض محاسن ماضيه ، وما ذهبت به دولة الصبا والشباب ، فيقول : إنه كان ينعم مع جماعة من صحبه في فنون الرفاهة والترّف ، وينطلقون في ضروب الأهواء واللذات ، ويتقلّبون في ألوان المرح والطرب والتمتع والهوى ، لا يشغلهم من ملاحهم شغل ، ولا يحدهم عنها حادّ من مقتضيات الجدل . وهوم الحياة . (١٩) يراد بالدين هنا : الخلق ، والسيرة ، والمادة ، والحال ، والشأن ، والحكم ، والقضاء . و « من » في الشطر الثاني زائدة . والفرس من زيادتها هنا : للتنقيص على العموم . كما في قوله الله تبارك وتعالى : « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » . فأرجع البصر . هل ترى من لظهور ؟ (الآية رقم ٣ من سورة الملك) . وقاض : اسم فاعل من قضى (من باب رعى) : أى حكم ، وفصل . ومعنى الشطر =

إِذَا قَالَ مِنَّا قَاتِلٌ ، قَامَ دُونَهُ شَهِيدٌ عَلَيْهِ ، صَاحِبٌ ، غَيْرُ آثِمٍ (٢٠)
يَحُومُ عَلَيْهِ وَالْمَنَابِتُ مُسَفَّةٌ . وَيَنْتَرُ عَنْهُ فِي صُلُورِ اللَّهَازِمِ (٢١)

— الثاني : أن الشايج والملاقات كانت بينهم قوة طيبة على اللوام ، بسبب الحب والوفاء ؛ فلم يجد ما يدعو إلى الاختصاص والتقاضى والاحتكام . وإن وجد شيء من هذا فسرعان ما يرده الحب والوفاء إلى الألفة والاجتماع والائتلاف .

يقول : إنه كان هو وصهبه في ذلك الماضي السعيد يبتغون بالوفاء ، ويتخلفون به ، ويلتزمون نهجه ودينه ، ولا يكادون يحميرون عنه . وأن الحب والوداد والإخلاص وصدق الإخاء — كان رباطهم الوثيق الذي يؤلف بين قلوبهم ، ويجمع ميولهم وشاعرهم ومشاعرهم . وإلى الحب وحده كانوا يتقاضون ويحتكمون . (٢٠) قام دونه : قام أمامه ، أو بين يديه . وشهيد على القاتل : أي شاهد عليه . أو نصير له ومعين ، يؤيد بشهادته قلب صاحبه وصديقه . وغير آثم : غير خاطئ : أي غير مذنب ؛ وهو تأكيد لمعنى صادق في شهادته .

والمنى : أنه كان هو وصهبه متناصرين متفقين ، لا يكادون يختلفون ؛ فإذا تكلم أحدهم ، أو تحدث ، أو أخبر بغير ، أو قال قولاً ، أو رأى رأياً ، أو ذهب ملعباً ، أو اجتهد في أمر ما — أيده إخاؤه بشهادتهم له دون أن يتجاوزوا حدود الصدق والحق ، والاستقامة والصلوب .

أو المنى : أنهم كانوا مجتمعين على النصيح والإخلاص والمصارعة إلى إصلاح الخطأ ، وقوموم الاعوجاج ؛ فإذا انحرف أحدهم بمقاله عن السداد قام بين يديه منهم من يشهد عليه في صدق واستقامة ، وتخرج من الإثم ، قاصداً بشهادته التنبيه على الخطأ ، وإصلاح الانحراف .

أو المنى : أنه إذا أوبأ أحدهم إلى شدة وقع فيها ، أو خطر تعرض له ، قام بين يديه من يعينه وينصره في صدق ، وتخرج من الإثم .

(٢١) يحوم عليه : يدور به ، ويطفئ عليه . والمراد يدافع عنه ، وينصره ، ويحميه . وقاطله ضمير الشهيد في البيت السابق . والمنابِت : جمع المنية : وهي الموت . ومُسَفَّةٌ : دانية قريبة ؛ ويدلأ : يدفع ، ويحاش عنه ، ويتصر له ؛ فهو تأكيد لمعنى « يحوم عليه » . وجملة « والمنابِتُ مسفة » حال من قاتل « يحوم » . وصته : عن صاحبه . « وفي » هنا : بمعنى « الباء » : أي يدفع عنه الشر والأذى والعنوان بصور اللهازم : جمع صدر : وهو مقدم كل شيء . وصدر الرمح والسيف ونحوهما : أعلاه ، وبقدمه ، وما يكون به العلم والفرس والإصابة . واللهازم : جمع لُذْم (يوزن جعفر) : وهو الحادّ القاطع من السيوف والأشنة ونحوها . ويجوز أن يراد بصور اللهازم : مجال الموت ، ومواطن الهلاك ، ومعدات الإصابة والقتل والإهلاك . وصل هذا تكوين « في » بمعناها الأصل : وهو الظرفية والظرفية هنا مكانية .

يقول : وكان الواحد منا يدافع عن صديقه ، ويحوطه بنفسه ، وينصره ويحميه ، ويدلأ عنه الشر والضرر ، والأذى والعنوان ؛ لا يبال في سبيل نصرته وحياته ما يتعرض له من أسباب الموت ، ومعدات الهلاك .

إِذَا الْهَيْئَةُ غَضِبَتْ ، وَتَرَجَّحَتْ بِسَوْرَةٍ ، أَغْرَى الظُّبَا بِالْجَمَاجِمِ (٢٢)
 فَقَدْ مَرَّ ذَاكَ الْعَصْرُ إِلَّا لُبَانَةٌ مُعَلَّقَةٌ بَيْنَ الْحَشَا وَالْحَيَازِمِ (٢٣)
 إِذَا ذَكَرَتْهَا النَّفْسُ يَوْمًا تَرَاجَعَتْ عَلَيْهَا عَقَابِيلُ الْهُومِ الْقَدَائِمِ (٢٤)

(٢٢) أَلْهَبَتْ : أثارته وهيجته . مستعار من ألهمت النار الخابياً : أى أوقدتها وأشعلتها حتى صارت ذات لب . وغضبة : اسم مرة من الغضب . وَتَرَجَّحَتْ : به : مالت . والسورة : المرة ، أو الأسم من سار (من باب قال) : أى هاج وثار ، وغضب ، ووثب ، واحتدّ واشتدّ ، وبطش ، وقَتَلَكَ . وأغريه بكذا إغراءً : خسفت عليه ، وأولته به ، ودفعته إليه . والظبا : جمع ظبة (بضم ففتح) : ربي حدّ السيف والسنان ونحوها . والجماجم : الروس ، واحدها جمجمة : وهى عظم الرأس المشتغل على الدماغ .

يتحدّ بلسانه وبسالته صحبه ، وشدة بأسهم ، وأنهم أهل حمية وشجاعة ، فإذا غضب أحدهم وثار ، فزع إلى أسلحة الكثرة والقتال ، وأهل في رمون أعدائه السيوف والرماح .

وهذا البيت يختم خمسة أبيات (١٨ - ٢٢) فوّده فيها الشاعر بأصدقائه شبابهم الذين اجتمعوا معه على الحب والولع ، والتمسح والتملح ، وصدق الإخاء والصفاء . واختصر بما كان له ولهم من الحمية والنجدة ، وشدة البأس ، وقوة المراس ، وإطلاق لب الغضب بالكفاح ، وحدّ السلاح . وفي الأبيات أسف وتلهف على ذهاب دولة الصبا والشباب ، وما كانوا يتقبلون فيه من فنون اللهو والمتعة ، وألوان الترف والترفاة .

وفي أربعة الأبيات الآتية (٢٣ - ٢٦) تكرر لمضى التمسح والتلهف على ذلك العصر ، وما كان لهم فيه من منازل الأنا والطمأنينة والسرور ، وما لم يدركوه فيه من البانات والحوائج والمطالب . وفي البيتين الأخيرين (٢٧ - ٢٨) ختم الشاعر قصيدته هذه بما يشبه العظة والاحتجاج بتقلب الدنيا ، وقلة وثاقها ، واختراع الناس فيها بالأمال الكاذبة ، والأمانى الداهية .

(٢٣) « ذاك العصر » : إشارة إلى دولة الصبا ، وزين الشباب . والبالاة : الحاجة من غير فاقة ، ولكن من جهة : أى من فرط رغبة وولوع . والحشا : ما اضططعت عليه الضلوع ، وما سواه البطن ، ويجمعه أحشاء . والحيازيم : جمع حيزوم (يوزن غيشوم) : وهو الصدر ، أو وسطه . والشرط الثاني كتابة من شدة تعلقهم بهذه البالاة ، واستقرارها في قلبه وظنوب صحبه .

يأسى ويتحسر على ذهاب عصر الصبا والشباب . ويضايق أساء وخسره ان كانت له في ذلك العصر لبانة لم يلبها . وما زالت معلقة في قلبه ، مستراداً لآلامه . أو أنه بانقضاء ذلك العصر قد استيسر منها ، ومع هذا بقيت تشغل باله ، وتثير يلباله .

(٢٤) ذكروها : ذكرت البالاة : أى تذكرها : من الذكر : وهو تذكها النسيان . وتراجعت : رجعت . وعليا : على النفس . والعقابيل : الشدائد ، ويقايا المال ونحوها . مفريدها عقيل (يوزن =

وَمَنْزِلَةٍ لِلْأَنْسِ كُنْصَا نَحْطَهَا وَتَرَعَىٰ بِهَا اللَّذَاتِ رَعَى السَّوَاتِمِ (٢٥)

عَفَتْ ، وَكَانَ لَمْ تَفْعَنْ بِالْأَمْسِ ، وَالتَّقَتْ عَلَيْهِمَا أَعَاصِيرُ الرِّيحِ الْهَوَاجِمِ (٢٦)

= عصفور . والحوم : جمع هم* : وهو الحزن والغم* . والقندائم : جمع قديم* ، أو قدام (بوزن غراب) : وهو خلاف الحديث : من القدم (بوزن النب) .

يؤكد هذا البيت معنى الشطر الثاني من البيت السابق ، ويفصله ؛ فإن البانة التي لم يبلنها الشاعر في عمر فتاته وشبابه قد جزته فواتها ، وحز في نفسه عدم تحقيقها له ، وأفسده انقطاع أمه فيها . وبقي قلبه متعلقاً بها بعد يأسه منها ؛ فكلما تذكرها جددت له الأسى والحسرات ، وتوالت عليه بقايا تلك الحوم والأحزان القديمة . وقد تكون هذه البانة للشاعر وحده . وقد تكون له ولصبيه الذين أشار إليهم ، فترجمهم في الآيات السابقة .

(٢٥) الولد في أول هذا البيت : أو « رب » : أي ورب منزلة ؛ فهي مخلوقة بعد الولد . ومعناها هنا : التكثير ؛ فنازل الأنس التي كانوا يحطونها في صباهم كثيرة غير قليلة . والمنزلة : المنزل ، والدار . وبمعناها منازل . والأنس : ضد الوحشة . أنس به ، وإليه (مثلثة النون) : ألفه ، وسكنت إليه نفسه ، وأطمان به قلبه ، وفرح ، ونجحت به وحشته . ونحطها : نحطها ، ونقيم بها . حل* المكان ، وحل* به (من باب نصر وجلس) : نزل به ، كاحتطه . ورعى اللذات : فباشرها ، وفتتح بها . مستمر من رعت* الماشية الكلأ والنبات (من باب سعى) : أي سرحت* فيه ؛ وأكلته* . وبها : بمنزلة الأنس التي كنا نحطها . والسوأم : جمع سائمة ؛ وهي الماشية الراعية : اسم فاعل من سامت* الماشية (من باب قال) : أي رعت* حيث شامت . أو دامت* على الكلأ . أو خرجت* إلى المرعى .

يذكر بتلهف وتحنن منازل الأنس والهوى ، والمرح والطرب التي كانوا يحطونها ليأس شبابهم في تلك الجزيرة الصغيرة . وما كانوا يرتعون فيها من غروب اللذات والشهوات ، وفنون الملاهي والسرور . (٢٦) عفت* : زالت* ، واخت* ، ودوست* ، وبليت* . وقاعله ضمير المنزلة في أثبت السابق . وفي بالمكان (من باب مضى) : أقام به ، واستقر* ، وسكن ، وأطمان* . وكان لم تكن بالأس : أي كأن لم تكن . أو كأن لم تكن عامرة بأهلها ، يقيمون بها هائتين مستمتعين . ومن كلامهم : « شئوا بديارهم ، ثم قتلوه » أي أقاموا بها ، ثم انقرضوا . وفي القرآن الكريم ، في مثل الحياة الدنيا : « فبعيلناهم حسبيداً » ، كأن لم تكن بالأس « (الآية رقم ٢٤ من سورة يونس) . والتقت* : تلاقت* ، واجتمعت* . وعليها : على المنزلة . والأعاصير جمع إعصار : وهو ريح تهب بشدة ، وتثير الغبار ، وترتفع به ، وتستدير ، كأنها عمود يصعد في السماء . والهواجم : صفة الرياح : جمع هاجمة : اسم فاعل من هجم عليه (من باب دخل) : أي انتهى إليه بفتة ، على غفلة منه . أو دخل عليه بغير إذن . والتقاء الأعاصير الهواجم على منازل أنسهم وطعمهم بجزيرة الروضة : كناية عن اعتاد تلك المنازل والملاهي ، ودورسها وعفاها وذهاب أثرها .

وصف في هذا البيت والذي قبله ما صارت إليه منازل أنسهم ولتهم ومرح شبابهم من وحشة وشقاء ، وعفا وغراب . وفي البيتين معنى التحسر والتلهف ، والأسى والحسرة على انقضاء ذلك الزمان السعيد ، وذهاب ذلك العيش الرغيد .

وَمَا خَيْرٌ دُنْيَا لَا بَقَاءَ لِعَهْدِهَا وَمَا طِيبٌ عَيْشٌ رَبِّهِ غَيْرُ سَالِمٍ (٢٧)
عَلَى هَلِهِ تَمُوتُ اللَّيَالِي ، وَتَنْقُضُ حَيَاتُ الْمُنَى فِيهَا ، كَأَحْلَامٍ نَائِمٍ (٢٨)

(٢٧) « ما » في شطري هذا البيت : اسم استفهام ، يسأل بها عما لا يقبل . والاستفهامان متناهما انتهى ؛ فالدنيا لا خير فيها ، ولا بقاء لعهدا . والعيش لا طيب إلا بسلامة ربِّه ، وهي متدرة ، أو متممة . والمهد : الرؤيا . والمودة . والموفق . والأصل فيه : حفظ الشيء ، وتمهده ، وبرااته حالاً بمحال . ثم أطلق على كثير مما ينبغي أن يحفظ ويصان وراعى . وطالب الشيء طيباً : لذاً ، وسلا ، وجاد ، وسن . والعيش : الحياة . وما تكون به الحياة من المظم والمشرب والمخل . وربِّه : صاحبه . والمعنى : أن الدنيا لا خير فيها ، ولا غناء ، ولا عهد لها ، ولا وفاة ؛ فهي متقلبة متغيرة ، متلونة متكررة ، تمضي تنقض ، وتسلم لتتخذ . والعيش لا يطيب فيها للإنسان إلا إذا سلم من الهن والرزايا ، والبلايا والآفات . وبهايات هيأت .

(٢٨) « على هذه » : الإشارة إلى الخلطة ، أو السنة ، أو الطبيعة ، أو الحالة التي عتاها في البيت السابق ؛ وهي قلة خير الدنيا ، وانطباعها على الخداع والندم ، وبُعدّها عن اليقظة والأمان ، ومراره معيشة الإنسان فيها بكثير ما يتعرض له من الهن والبلايا ، وكثرة ما يضائيه من الرزايا والآفات . وينقض : يفتي ، وينقطع . وسدث : ما يحدث به ، ويغورق الأفقس ، وعلى الألسنة من الأمان والآمال . وواحدة التي منية (بوزن بغيعة ومعناها) : أي ما يبتغيه الإنسان ، ويتمناه ، ويرغب فيه ، ويجب أن يصير إليه . والأحلام : جمع حلم (يضم فسكون ، أو بضمين) : وهو رؤيا النائم . ويفسر المثل بأحلام الناس في كذب الأمان ، ونعية الآمال ؛ فيقال : « هذه أحلام نائم » : للأمان الكاذبة التي لا سبيل إليها .

عَمَّ الشاعر هذه القصيدة بهذا البيت الذي أكد به ما قبله ؛ ففى البيت السابق أشار إلى خداع الدنيا وباطلها وفدورها ، وكثرة تنكرها وتغيرها ، وقلة وفائها وأمانها . ومراره عيشة الإنسان فيها بكثرة ما يتعرض له ، ويصاب به من الهن والرزايا ، والبلايا والآفات .

وفى هذا البيت كرر هذا المعنى نفسه ، ومزجه فقال : وعلى هذه الخلطة أو الحالة تلعب الليالي والأيام ، وتمضي الأوقات والأعوام ، وتنقض أحاديث الأمان والآمال . وتنتهى إلى الكذب والخذلية ؛ كأنها أحلام نيام .

تعليل

أولع الشاعر بروضة المقياس ؛ فذكرها في كثير من شعره ، وخلع عليها كثيراً من صور الحسن والبهاء ، والجمال والرواء . وانتفض هذه القصيدة بصحتها ، ولكنه ما لبث أن رأى التحية قليلة غير وافية =

• ادبج إلى ص ٣٣١ فيها بيان واف لما يتسع له التعليق . وفى التعليق هنا تحليل وتلخيص .

من بالتعبير عما يكنه لتلك الجزيرة الأثيرة من الحب والوفاء ، واليود والإعجاب ، والإعزاز والإكرام .
وتقتنى بكثير من محاسنها ومزاياها . وما تزدان به من معالم العمران ، وآثار النعم ، وهجمة الرياض والمروج ،
وفضرة الحدائق والبساتين . وأشار إلى فتياها الحسنات الفاتنات ، وطيورها الواحدة الآمنة ، وأعطارها
القليلة الخفيفة ، ونسائها العلية اللطيفة ، وجداولها اللذبة الجارية التي تكثر فيها ، وتطيف بها .
ووصف أشجارها الناضرة الراحلة ، وغفلها الباسقات المثمرات . وفضلها على شعب بون . وهو من أعظم
جنات الدنيا ، وإحدى عجائبها وروائعها . كل هذا في أربعة عشر بيتاً من ثمانية وعشرين بيتاً ، هي
عدة أبيات هذه القصيدة .

وفي عشرة الأبيات التي تلها استشر الأسف على فوات ما كان له في تلك الجزيرة النضرة إيمان
فوقه وشبابه من مئة ولو ، ومرح وطرب ، وأصدقاء أوفياء حسمت بهم تلك الأيام والديار .

وتدح - في لفقة وأسى - ما ذهب من هذا كله بذهاب دولة لصبا والشباب . وذكر - في أم
وتوصح - ما نقصته تلك الدولة من عهدهم للقديم السعيد . وتدح بما اجتمعوا عليه من الوداد والإخلاص ،
والتناصر والتعاون ، والياس والنجدة ، وما تصموا به من لذات العيش وسروره ، ورفاهته وهنائه . ثم
عابده الحنين إلى ذلك العهد ، والتلفف على قوائمه . وأشار إلى لبانة له ، أوله ولم لم يلفوها ، وظلوا
متعلقين بها ، وكلما ذكروها جددت لهم الحلم والهم ، وضاحت الأسمى والحسرات .

وفي أربعة الأبيات الأخيرة كرر التفتى بما كانوا يحتلونه في تلك الروضة الأريضة من منازل الأوس
والهوى ، ومواقع المتع والذلات ، وكرر الأسف على غفلتها وغفلتها ، وذهب كل أثر من آثارها .

ثم ختم القصيدة بما يشبه النظة والاعتبار بتقلب الدنيا وتغيرها ، وقلة وفاتها وأمانها ، وكثرة عداها
وغدورها ، ومراره عيشة الإنسان فيها بكثرة ما يمرض له ، ويصاب به من الازعاج والقلق ، والنحن
والرزايا ، والبلياء والآفات .

* * *

وقد أسلفنا أن الصور الجميلة الرائعة التي رسمها الشاعر لروضة المغياس في هذه القصيدة ، وفي كثير
من شعره - قد عدا عليها الزمان ، وشوحتها نوائب الحداث . ولم يبق منها على نضرة وجهته إلا القليل .
أساً الكثيرة الغالية فقد عفت ، واندثرت ، أو تغيرت معالمها وشواهداها . ونقدت الجزيرة أكثر ما كان
يميزها ويزينها من الهدوء والسكينة ، والبهاء والنظافة . وذهب أكثر حداثتها وقصورها ، وقامت فيها
عمارات سكنية كبيرة . وكثرت في شوارعها المتاجر والدكاكين ، وكدرها صياح الباعة الجوالين ،
وشابهت الأحياء الوطنية في الازدحام والحلبة والضجيج .

ويشل هذا يقال في روضة المنيل ، وهي جزء منها ، متصل بها ، وقد تقتنى بها الشاعر ، وصورها
تصويراً جميلاً في بعض شعره .

وفي خلال شرحنا لهذه القصيدة تحليلات أخرى مفصلة ، وملاحظات ، ونقد ، وتعليقات ذات
بال .

وَقَالَ ، وَكَتَبَ بِهَا مِنْ حَرْبِ الرُّوسِيَا * سَنَةَ أَرْبَعٍ وَتَسْعِينَ وَمِائَتَيْنِ وَأَلَّفَ
هَجْرِيَّةً إِلَى صَدِيقِهِ الْعَلَّامَةِ الشُّيْخِ «حُسَيْنِ الْمَرْصُفِيِّ» * :
يَا قَاعِيسَ الطَّرْفِ ، إِنَّكَ كَمْ تَنَامُ ؟ أَمْهَرْتَنِي فَيْدَكَ ، وَتَلَامَ الْأَقَامُ» (١)

* حرب الروسية: يريد الحرب التي كانت بين روسيا وتركيا. أعلنتها روسيا ، وبدأت بها في
أبريل سنة ١٨٧٧م (الموافق شهر ربيع الآخر سنة ١٢٩٤هـ) ، وتنتهتها رومانيا ، ثم الحرب ، والجبل
الأسود. وانتهت هزيمة تركيا ، وعقد معاهدة «سان ستافان» في مارس سنة ١٨٧٨. وهذه المعاهدة
نالت كل من رومانيا ، والصرب ، والجبل الأسود استقلالاً. وبتحت «البوسنة والهرسك» ، وبلغاريا استقلالاً
إطوياً. وأعلنت روسيا «باطوم» و«آرزن» و«قارص». وقد استعادت تركيا مصر ، فأعيد لها «الحدود
إسماعيل» بحملة عسكرية ، «نزلت» في «ويزة» من ثغور البحر الأسود. وحاربت في «أكرانيا»
و«بلغاريا». وكان «عمود ساي البارودي» من كبار ضباطها. وقد ترك حسن بلات ، فنحوه
في نهاية تلك الحرب رقية أمير اللواء ، و«نيشان» الشرف ، والوصام المحيى من الدرجة الثالثة .

• الشَّيْخُ حُسَيْنُ بْنُ أَحْمَدَ الْمَرْصُفِيِّ (للتَّوْفِيقِ) (١٣٠٧-١٨٨٩م) : عالم ، لقيح ، أديب . نسبته
إلى «مرصفا» من قرى مركز ينبا ، بمحافظة القليوبية ، بمصر . تعلم في الأزهر ، ونبغ في علوم اللغة
العربية وآدابها . ثم اشغل بتدريسها في الأزهر ودار العلوم . ومن تلاميذه وأصدقائه : حفي ناصف ،
ومحمود ساي البارودي ، وعبد الله فكري . ومن مؤلفاته «الوسيلة الأدبية للعلوم العربية» في جزأين .
وقد نشرت هذه القصيدة بالجزء الثاني منها ص ٤٩٧-٤٩٨ طبعة مطبعة المدارس الملكية ، بدمرب
الجمائيز بالقاهرة سنة ١٢٩٢ هجرية .

(١) الطرف : العين . وبرد ينماس العينين : فتورهما . وهو من محاسنها . ومن أمارات الخفر ،
والاحتشام ، وشدة الحياء . والاستفهام في الشطر الأول : معناه الاستبطاء . و«فيك» : في التفكير
فيك ، والاستفهام بأمرك . أو بسببك ، ومن أجلك . كما في قول الله تبارك وتعالى ، في قصة يوسف :
«فذل لكن الذي لمتني فيه» (الآية رقم ٣٢ من سورة يوسف) . والأنام : الخلق ، والناس . وللانزيم
من طول نوم المحبوب : خلوت قلبه من الحب والحرى ؛ فهو رضى الببال ، هادئ النفس ، ناعم الخاطر ،
لا يكاد يهتم بمن أحبه ، وأخلص له ، وتعلق به ؛ ولا يكاد يفكر فيه ، أو يشفق عليه ، أو يسيء بأمره .
ينادي من يتوعد إليه ، ويتنزل به ، متغنياً بفنن حبه ، متوهاً بما يتم عليه هذا الفنن ومن الخفر
والاحتشام والاستحياء المحمود ، شاكياً انصرافه عنه ، وقلة اهتمامه به ، كأنه في نوم عميق عما يقاسمه
منه ويضاهيه من لواحي الوجد ، وتياريح الشوق ، وسرور الصباية التي أرتقت ، وأسهرته ، وحيرته
راحة التماس وأمتنته ، وأطالت لياليه ، وضاعفت همومه وأوصابه ، على حين أن الناس يتعمون
بنوم هادئ فلم مريج .

أَوْشَكَ هَذَا اللَّيْلُ أَنْ يَنْقَضِيَ وَالْعَيْنُ لَا تَعْرِفُ طَيْبَ الْمَنَامِ (١)
وَنَالَهُ مِنْ ظَمِيرِ الْحَمَى ؛ إِنَّهُ جَرَّعْنِي - بِالْصَّدِّ - مُرُّ الْحَمَامِ (٢)

= ويلاحظ أن الشاعر قدّم هذا النزل الرقيق اللطيف بين يديّ الشكوى والعتاب . وفي البيت براءة استبلاحة ، أو ما يشبهها ؛ لأنه - مع هذه الممتعة الرقيقة التي ساقها الشاعر في صورة النزل - يشتر بشكواه وقأله من انصراف المرمى عنه ، وضنته بالكتابة إليه ، والردّ على رسائله ، والحقيقة أن الشاعر وهو في الحرب الروسية التركية كان قد كتب إلى بعض أهله وأصدقائه بمصر - بينهم المرمى - عدة رسائل تموتّت في طريقها ، وتأنر وصولها إليهم ؛ فاستبدّت به اليأس والأفهام ، واستشعر التلق والموت ، فجهت به للظنن مذهباً بعيداً عن الحق والسادد . وسألق بيان واف لهذه الحقيقة التي أججت هذه الماطقة التيلة ، وأنتجت هذا الأدب الرائع .

(٢) أوشك : أسرع ، ودنا ، وقرب ؛ فهو من أفعال المقاربة ، ويفيد معها المسارعة . وطالب الشيء يطلب طيباً : لذّة ، وحسن ، وحلا ، وجمال . شكاني البيت السابق إعراض الحبيب عنه ، وقلة اهتمامه بأمره . وقال : إن الريد والشيء والعصابة برحت به ؛ فأزقته ، وأسهرته ، وحرمته لذة النوم ، وأسنة الناس . وهذا البيت تكرار وتأكيّد لمعنى الأرق والسهر .

والبيت الثالث في رواية الوسيلة الأدبية . ج ٢ ص ٤٩٧ :

الله في عين جفاها الكسرى فيكم ، وقلب قد براه القرام

وهو البيت السادس في أصل الديوان المخطوط . والبيت الرابع في رواية الوسيلة الأدبية .

قد رحم المائل حال ، فما يرعى لللى في الحرق باللام

وهذا البيت لا وجود له في أصل الديوان ؛ ولهذا كانت هذه أبيات هذه القصيدة في رواية الوسيلة الأدبية تسعة عشر بيتاً . وعدد أبياتها في أصل الديوان ثمانية عشر بيتاً .

(٣) الويل : حزن ، ألم ، وحزن ، وويله : أسلوب نذيرة . وهي هنا : نداء المتوجّع منه . والأصل : « ياويل » ثم حلفت « يا » . وشتم المنتوب : أي : المتوجّع منه بالألف وهما السكت . والظنن : الغزال . وقشبه به الحسناء من النساء في الرشاقة ، ولطف الحركة ، وحسن التثني ، وجمال الجيد والنعين ، ويجمعه ظباء . والحصى : ما يحصى ، ويصان ، ويحافظ عليه ، ويدافع عنه . يقال : حصى المكان (من باب روى) : أي منه ، ودفع عنه ، وجعله حصى ، لا يقرب ، ولا يجترأ عليه . والمراد أن المختزل به مصون محبوب ، في مكان منيع محمي حصين ، لا يجترأ عليه ، ولا يسهل الوصول إليه . وهذا المعنى كثير شائع مأثور في شعر النزل القديم الذي أولع البارودي بمحاكاته وزديده . وجرّعه اللواء ونحوه : سقاها إياه شيئاً فشيئاً . والصدود : الإعراض ، والانصراف . مصدر : صدّ عنه : أي مال عنه ، وأعرض ، وانصرف . وضله الوصال ، والإقبال ، والاحتفال . والحمام : قصاه الموت ، وقدره .

يَغْضَبُ مِنْ قَوْلِي «آه» ، وَهَلْ قَوْلِي «آه» - يَا بَن وَدَى - حَرَامٌ ؟ (٤)
لَا كُتِبَ تَعْرَى ، وَلَا رُسْلُهُ تَأْتِي ، وَلَا الطَّيْفُ يُوَاتِي لِسَامَ (٥)

= تَوَجَّعَ من صمود ذلك الحبيب المحبَّب المنبُح . وقال : إن إعراضه عنه شقٌّ عليه ، وأوجعه ، وآله ، وحزنه ، وأغناه . ثم بالغ ، فقال : إنه جرَّعه مرارة الموت بسبب هذا الصَّدِّ والمجران .

(٤) فاعل « يغضب » ضمير « ظلي الحمى » المكثى به عن الحبيب المنفزل به . و « آه » : اسم فعل : معناه أشكو ، وأتوجَّع ، وأتأوَّه . والود : والوداد (بتثنية الواو فيهما) : المودة والمهبة . وابن ودّ : حبيبه الذي يتفزل به ، ويشكو صدّه ومعيه ، ويتوجَّع من إعراضه عنه . والاستفهام في البيت : معناه النفي ، أو الإنكار : فهو ينفي تحريم التأوُّه والتوجَّع . وينكر على حبيبه غضبه من التأوُّه وتألُّم : أي ييب عليه هذا الغضب ، وينهاه عنه . أو يجب منه . وعمل هذا يحتمل الاستفهام معنى التعجب : فهو يوجب من تحريم التأوُّه ، والنفس على التأوُّه .

يصدّ عنه حبيبه ، ويجرّعه بالصَّدِّ آلاماً جساماً ، ويضطرّه إلى التأوُّه ، والتوجَّع . ثم يغضب من تأوُّهه وتوجَّعه ؛ كأنه يحرم هذا عليه ، ويمنعه منه ؛ ولهذا عقَّب على الغضب والتحريم باستفهام يفيد النفي ، أو الإنكار ، أو التعجب . والبيت في جملة أسلوب سهل قريب بليغ من أساليب العتب الرقيق المؤثر الطيف .

(٥) كتبه : أي كتب « ظلي الحمى » المكثى به عن الحبيب الذي يتفزل به ، ويشكو صدّه وإعراضه وجهانه . ولكتب (يضمّين ، أو يضم فسكون) : الرسائل : جمع كتاب . وتثرى : متواترة ، متتابعة . والرسل (يضمّين ، أو يضم فسكون) : جمع رسول : وهو المرسل (اسم مفعول من الإرسال) . وقد يأتي بمعنى الرسالة : واحدة الرسائل . ولعل هذا المعنى هو المقصود هنا : أي أن حبيبه المنفزل به قاطعه كل المقاطعة ولم يرسله مطلقاً ، لا بالمتواتر المتقارب الكثير من الرسائل ، ولا باليسير : المتقطع ، المتباعد ، القليل منها . والطيف : الخيال الطائف الذي يراه التأمُّ في نومه : أي طيف الحبيب . ويوأتى : يأتي . ولم يفلان (من باب رد) : أي أتاه ، فنزل به وزاره ، زيارة قصيرة . واسم المرة منه كسمة . وجمعها لمام (بوزن صباب) . ومثله ألم به لماماً . ويقال : هو يلقانا لماماً : أي يلقانا لقاءً يسيراً قليلاً . وهو يزورنا لماماً : أي يزورنا غيباً : أي في الأسابيع : أي زيارات قليلة قصيرة ، متقطعة ، متباعدة ، غير متصلة . ويلاحظ أن « لماماً » هنا واجب النصب ؛ على أنه مفعول مطلق : أي يلمّ لماماً . أو على أنه حال : أي يوافينا ملمساً بنا . ولكن الشاعر سكّنه بحكم القافية ، وجرياً على لغة « ربيعة » التي تميز الوقوف على الاسم المنصوب المتون بالسكون ، كما لو كان مرفوعاً ، أو مجزوراً ؛ فيقولون في « زرت صديقاً » : « زرت صديق . » ومن شعر أبي الطيب المتنبّي في مثل هذا ، من قصيدة دالية يمدح بها عضد الدولة أبا شجاع :

أبلغ ، لو عاذت الحسام يسه ما خشيت رايماً ، ولا صائد*

قامله حبيبه مقاطعة تامة ، وضنّ عليه برائله ورسله ، ولم يزره حتى يجياله وطيفه ، فشقّ هذا عليه وصعبُ لده ، فشكا ، وتألَّم ، وتوجَّع ، وعاتب . وهذا البيت تفصيل ، وبمثيل ، وتكرار ، وتأكيد لمعنى البيت الثالث .

اللَّهُ فِي عَيْنِ جَفَاهَا الْكَرَى فَيَكُفُّمُ ، وَقَلْبٍ قَدْ بَرَّاهُ الْغَرَامُ (٦)
طَالَ النُّوَى مِنْ بَعْدُكُمُ ، وَانْقَضَتْ بِشَاشَةِ الْعَيْشِ ، وَسَاءَ الْمُقَامُ (٧)

(٦) لفظ الجلالة في أول هذا البيت منصوب على تقدير : خافوا الله ، أو اتقوا الله . وجفاهها : زايلاها وفارقها . من قولهم : جفاه صاحبه (من باب جدا) : أي أفرض عنه ، وقطعته . ورضه وأصله وآتسه . والكرى : النوم : أو التماس (وفعله من باب صدى) . وهو قاعل «جفاه» . فزيكهم : من أجلكم ؛ أي بسبب الجفوة والإعراض والقطعية . وما أكابده وأهوانيه من التملق بكم ، والتفكير في أمركم ؛ ذوقه هنا : منهاها التحليل ، كما في قوله الله تبارك وتعالى ، في قصة يوسف عليه السلام : « فذ لك أن الذي لُتْسِنَتْ فِيهِ » (الآية رقم ٣٢ من سورة يوسف) . « قلب » معطوف على « عين » : أي واتقوا الله في قلب . وبراه : هزله ، وأضعفه ، وأضعاه . مستأمر من برئت القلم ونحوه (من باب رى) . والغرام : الزكوع : وهو أن يخلق الإنسان بالثبث تملقاً شديداً ؛ فلا يستطيع التخلص منه . والغرام أيضاً : الحب المذموم للقلب . والغرام : المذاب الدائم الملازم . وقد أسلفنا أن هذا البيت ترتبه الثالث في رواية الوسيلة الأدبية .

بَسَّحَ به الشوق والحزن إلى أحيائه ، وأذاب الغرام فؤاده ، وجفا التماس عينيه ، ولانزه الأرق وانسداد ؛ فسَّحَّ إلى الله بالشكوى ؛ وطلب إليهم أن يرحموه ، ويرفقوا بحاله ، ويشفقوا الله فيه . ويلاحظ أن الشاعر في خمسة الأبيات السابقة استخدم ضمير المفرد المخاطب ؛ ثم ضمير المفرد الغائب . واغتنى في الكلام بين الخبر ، والإنشاء ، والنداء ، والاستفهام ، والندبة ، والتوبيخ ، والإجمال ، والتفصيل . وأجاد الشكوى والنتاب ، والاستعطاف والاسترحام ؛ فهز المشاعر ، وأثار المواقف . وبلغ بمثل هذا الشعر الرقيق السهل ، المذهب البليغ غاية الإمتاع والتأثير . وهو في هذا البيت والبيت الآتي ، أي في البيتين السادس والسابع ينتقل إلى ضمير المخاطبين ، ويشكو طول النوى والأرق ، ويترجى الغرام ، وسوء المقام ، أي يكرّر بعض المعاني السابقة . ولملح يقصد بضمير المخاطبين في هذين البيتين : من كتب إليهم في عصر ، وتأخروا أجوبتهم ، مع شدة حنينه إليهم وإلى الوطن العزيز .

(٧) النوى : الفقرة والبعد . وهي مؤنثة . وانقضى : ذهب ، وانصرم ، وزال ، وفقى . والعيش : الميشة والحياة . وبشاشة العيش : طيبه ، ولذته ، وهجته ، وجماله . مستأمر من بشاشة الوجه : أي تملأه ، وإشراقه ، وطلاسته ، واستشاره . وساء : شاء ، وسقمت ، وقبح . والمقام (بضم الميم) : الإقامة ، أو مكانها ، أو زمانها : من أقام بالمكان : أي لبث فيه ، وبكث ، واستقر ، واعتاده وطناً . أو هو المقام (بفتح الميم) : من قام يقوم قياماً ؛ بمعنى قُبِيتَ ، وركَّزَ ، واستقر ، واستمر ، ودام . وقام الماء : أي ثبت في مكانه متحيراً لا يجد ، منفلاً .

باعتدت الفقرة بينه وبين أحيائه وأصفيائه ؛ فساء مقامه في غربته ، وذهب ما كان يحبه في حضرتها من بشاشة العيش ، وطيبه ، ولذته ، وهجته ، وجماله ، وبهائه ، وإشراقه . وشكا طول البين والنوى والبعد والفراق .

أَزْتَحُ إِنَّ مَرَّ نَسِيمُ الصَّبَا وَالْبُرَى لِي فِيهِ مَعَا ، وَالسَّقَامُ^(٨)
يَا لَبَنِي فِي السَّلَكِ حَرْفٌ سَرَى أَوْ رِيْشَةٌ بَيْنَ خَوَافِي الْحَمَامِ^(٩)
حَتَّى أَوَافِي مِضْرَ فِي لَحْظَةٍ أَقْفِي بِهَا فِي الْحُبِّ حَقَّ الدُّعَا^(١٠)

(٨) النسيم : الريح الطيبة ، اللطيفة ، اللينة ، لا تحرك شجراً ، ولا تحسني أثراً . وقد نسمت الريح (من باب ضرب) نَسَمًا ، ونَسِيًا ، ونَسِيَانًا : أي هبَّتْ لطيفة لينة . والصبأ (يفتح الصاد) : ريح مهبها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار (مؤنثة) : وهي أحب الرياح إلى العرب ، وألفظها في جزيرتهم ؛ ولهذا أولع شعراؤهم بها ، وأكثروا من ترديدها في شعرهم . ونسيم الصبا : هبوبها بلفظ ورقة ولين . أو هو من إضافة العام إلى الخاص . أو هو من إضافة الشيء إلى مرادفه ، أو ما يشبه مرادفه . وفيه : في قسم الصبا . والسقام : المرض .

يقول : إن نسم الصبا الذي يمر به من جهة أحيائه وأصقائه في مصر يحمل إليه أسباب الشفاء والمرض جميعاً في وقت واحد ؛ لأن هذا النسيم ينمشه ويربحه بما يحمله إليه من روائح الأحباب ، وروائح الأصحاب ، وروحة الجن ونسيمه . وهو في الوقت نفسه يسقمه ويفضيه بما يهيج ، ويثيره ، ويجذبه ، ويجتذبه في قلبه من ذكريات الوجد ، وتيارات الشوق ، ولوايح الحب والفراق .

(٩) « يا » : حرف تنبيه . أو هي حرف فداء . والمتنادي عطوف : أي أي من أتملق به ، وأهتو إليه صباهي ووجدني . و« ليت » : حرف تمنّ يتملق بالمستحيل غالباً . وبالممكن قليلاً . والشاعر هنا يتملق بالمستحيل . والسلك : الخط . وجسمه ملوك ، وأسلاك ؛ ويراد به هنا : أسلاك البرق : « التلغراف » أو المواصلات السلكية التي تربط البلاد والناس بعضهم ببعض ، وتقرب البعيد ، وتُحسِّنُ الغائب . ويراد بالحرف : الواحد من حروف الهجاء المكبوكة لكلمات الرسائل البرقية ونحوها . سرى : سار . من السرى (بهز المنى) : وهو السير ليلاً . والخوافي : ريشات من الجناح ، إذا ضم الطائر جناحيه خفيت . واحتشأ حافية . والتوادد : الريشات الظاهرة في مقدم الجناح ، وهي كبار الريش . ويراد بالحمام : حمام الزايل . وهو نوع من الحمام كانوا يدرّبين الواحدة منه على الطيران إلى مسافات بعيدة ، برسالة يعلّقونها في عنقها ؛ فتضلل بها في الجو إلى حيث عودها أن تطير . اسم فاعل من زجل الإنسان الحمام (من باب نصر) : أي أرسله إلى يده ؛ فهو حمام الزايل .

يسرّح بالشوق بالشاعر ، واشتدت صباهه وحنينه إلى أحيائه بمصر ؛ فتحنى لو كان حرفاً من حروف الرسائل التي تسرى في أسلاك البرق . أو ريشة من حمام الزايل التي كان يحمل الرسائل من قطر إلى قطر بين أطفال الأرض وبلاد العالم ؛ فهو يتحق إلى الإنلام بمصر ، بوسيلة ما ، حتى ولو كانت متمذرة : أو مستحيلة . وفي البيت الاتي بيان الغرض أو النية من هذا التمني .

(١٠) أوافي مصر : أنزل بها . وافي القوم موافاة : وفد عليهم ، وأتامم ، ونزل بهم . واللحظة : الوقت القصير . وفي الأصل : اسم مرة من لحظه (كنهه) : أي نظر إليه ، وراقبه . ويقال : =

مولاي ! ، قد حَالَ مِيرُ النوى فكلُّ يومٍ مرَّ بى ألفَ عامٍ^(١١)

= جلست عنده لحظة : أى وقتاً قصيراً ، ومدة سيرة ، كتدر لحظة العين . وأقصى : أودى . من قولم : قضى المدين دينه : أى أداه ، ووفاه . وفى الحب : فى مجال الحب ودائره . أو بسبب الحب ، ومن أجله ؛ فـ « فى » هنا : طريقة ، أو تعليلية . واللام (بوزن الكذب) : العهد ، والحق ، والحكمة . وجمعه أذمة (بوزن أذنة) . وفلان ذمام : أى عهد يلزم الذم من يضيحه ، أو يفرط فيه . وحقّ للنام : من إضافة الكلمة إلى مرادفها . أو إلى ما يفسرها : أى أقصى فى هذه البرعة القصيرة حقّ الحب ، أو ذمامه : أى ما يحقّ علّ أن أتى به ، ولؤدّه من حقوق الحب ، وما يلزمنى مراعاته من أذمته وجرماته .
تمنى أن يلمّ بمصر لإلمة قصيرة سريعة ، يقضى فيها ما يوجب عليه الحب والوفاء من الحقوق والمهود والأذمة والحرمات .

سلك الشاعر فى هذا البيت وتسمة الأبيات قبله المسلك المعتاد فى النزل . وهو فى حقيقة الحنين والشوق ، والشكوى والعتاب ؛ والحب الصادق لأخذه ونضلته الذين تملّص قلبه بهم ، وأخلص لم اليأس ، وأصغاهم بالإقبال والاحتفال ، والإعزاز والإيثار . وفى مقدمتهم الشيخ حسين المرسى . ويلاحظ أنه فى خمسة الأبيات الأولى خاطب الواحد ، وتحدث عنه . وفى خمسة الأبيات التالية خاطب جماعة الذكور المقلاء ، وتحدث عنهم . وفى هذه الأبيات المشرّة شكاً الصلود والإعراض ، والاحتجاب والامتناع ، وطول النوى ، وبعد الشغف ، وانقطاع الرسل والرسائل ، وما عااته لهذا السبب فى غربته من الأرق والوصب ، ومرارة النيش ، وتجنّبهم الحياة . وقال : إن نسم الصبا قد يمرّ به من قبل وطنه ، فيجعل إليه الصحة والألحاح ، والمرضى والشقاء فى وقت واحد . وتمنى لو أتيت له لإلمة قصيرة بمصر يقضى فيها حقوق الحب والفرام . فهذه عشرة أبيات من ثمانية عشر بيتاً (أى نصف القصيدة تقريباً) نظمها الشاعر فيها يشبه النزل ، وضمّنها أرقّ المواقف ، وأذيل الشاعر ، وأصلح المودة ، وأتمّ الوفاء لأهله وخلصاته وأصفيائه .

وهو فى ثمانية الأبيات الأخيرة ، أى فى النصف الآخر من هذه القصيدة ينادى الشيخ حسيناً المرسى ويخاطبه ، ويشكر إليه مرارة النوى ، وقسوة الفقرة ، وطول الأيام والليال . ويشير إشارة جملية إلى ما كان يلبسه ، ويحيط به ، ويتنمر فيه من كتائب الجند ، وساحات القتال ، وجماهير المتحاربين ، ويخيل فرسانهم ، وصرامة المراقبة والحراسة ، وعظمة البحر الأسود من ورائهم ، وطبيعة الأرض التى كانوا يجاربون فيها ، ويذمّ أهلها وسكّانها ، ويعلم الضجر والتبرّم ، ويكره الشكوى ، وعذاب أحبابه الذين لم يرسلوا ، ولم يجيبوا عن رسائله .

(١١) « مولاي » : نادى مضاف إلى ياء التكلم . وحرف النداء ، وهو « يا » محذوف . والمولى : الوليّ المحبّ . والسيد والساحب . والنمى . والقريب . والشاعر يتّجه بالنداء والشكوى إلى مولاه : أى وليّه وصديقه الشيخ « حسين المرسى » . ومرر النوى : مرارتها . وهى ضدّ الخلاوة . وهى مرّ الطعم . ومرر بين المرارة والنوى : الفُرقة ، والبعد . وهى مؤنثة . يقال : شطّط بهم النوى : أى أبعثوا فى البعد =

أَنْظُرْ حَوْلِي ، لَا أَرَى صَاحِبًا إِلَّا جَاحِرًا ، وَخَيْلًا صِيَامًا (١٢)

« والشعر الثاني من هذا البيت يتم على تيرم الشاعر ، وقلقه ، وضجيره ، وشدة ما يضانيه من ألم ، وضيق الصدر ، والشوق والحنين ، والتمنى . بالأهل والصحاب ، والوطن والديار ؛ فالأيام ، واليالي ، والأزمنة والأوقات إنما تطول في حسن الخزين ، والقلق ، والمهموم ، وأشباههم ؛ كما تقصر وتسرع في حس المرح الفرح ، المسرور ، الناعم البال . ومن شعر الملك الفضيل : امرئ القيس الكنتى ، يشكو طول الليل :

وليل كوج البحر أرضى سذوله علّ بأفول الموم لبيتل
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً ، وقاه بكلكل
ألا ، أيما الليل الطويل ، ألا انجل يصبح . وما الإصباح منك بأمثل
فياك من ليل : كأن نجويه بكل مغار القتل شدت بيليل

يشكر الشاعر إلى صديقه الشيخ « حسين المرصني » مرارة البعد ، ووحشته ، وقسوته ، وطول أمد الفراق . وقد ضاعف ألمه واليلوى إنقطاع رسائل الأحباء ، وشدة الحنين إلى اللقاء ؛ فكان كل يوم يمر بالشاعر في غربته كأنه ألف سنة . وفي هذا مفالة ظاهرة ، ولكنها مستأفة في مثل هذا المقام .

(١٢) جاحر : جمع جمهور (بوزن صفور) . وهو من كل شيء : منطه ، وكثرته ، وما اجتمع منه وتراكم . وجمهور الناس : منطهم ، وجماعتهم ، وتترتهم . ويراد بالجاحر هنا : كتائب الجند ، وقرق الجيش ، وجماعات المتحاربين . والخيل : جماعة الأفراس . لا واحد لها من لفظها ، بل الواحد فرس . وجمعها خيول وأخيالك . وقد تطلق الخيل على الخيالة والفرسان ، وهم أصحاب الخيل ، وركبائها . أو الماهرين في ركوبها ، والماربون على ظهورها . ومن كلامهم : « كم عنده من خيالة ورجالة » و « جامنا بخيله ورجله » : أي بفرسانه ووشاته . وصيام : جمع على غير قياس لصائم . والصوم (في الأصل) : الإمساك عن الطعام ، أو الكلام ، أو المشي . وقرص صائم : أي تمسك عن السير ، أي قائم ، ساكن ، واقف في مصامه : أي في موقفه . أو تمسك عن العلف ، وهو طعام الحيوان . أو قائم على غير اعتلاف . وصوم الفرسان : صمتهم ، وسكوتهم ، وإمساكهم عن الكلام . وحق : « صيام » أن يكون منصوباً ؛ لأنه صفة المنصوب قبله ، وهو « خيلاً » . وقد سكنه الشاعر بحكم التقافية ، ومحاكاة لهجة « ربيعة » التي تميز الطريف على الاسم المنصوب المنين بالسكون ، بعد حذف نون التثنية المتباعدة ألفاً ، فينبغي في صورة المرفوع ، أو المجرور إذا وقفت عليه . وقد شرحنا هذا شرحاً وأياً في البيت الخامس من أبيات هذه القصيدة : « ... ولا العليف يوافق لأم . » . وشئنا له بشئ من شعر أبي الغلب المتنبى .

التفت الشاعر حول له ، واتجه يمينه ويسرة ، يتفقد موارفه وأصحابه ، ومن يؤنس ، ويخفف وحشته وحينه ، ومرارة النوى ؛ فساء أنه لم يجد غير ما يحيط به ، ويلايه ويفرّه في ميدان الحرب ، وساحة القتال من كتائب الجند ، وقرق الجيش وجماعات المتحاربين ، ويحيطهم القائمة في سكون ، وتعل غير اعتلاف .

وَدَيْدَيَانَا صَارَخَا فِي السُّجَى رَجِعْ وَرَاءَ ، إِنَّهُ لَا أَمَامَ (١٣)
يُقْبَلُ الصُّبْحُ ، وَيَمُتُّ السُّجَى وَتَنْقُصُ النُّورُ ، وَيَأْتِي الظُّلَامُ (١٤)
وَلَا كِتَابٌ مِنْ حَبِيبٍ أَتَى وَلَا أَخُو صِدْقٍ يَرُدُّ السَّلَامَ (١٥)

(١٣) الدَّيدَانُ : الحارس ، والرقيب ، والطليعة . وهو مطوف على « جماهير » في البيت السابق . ودجى الليل : حناده ، وظلماته . واحشها دجية (بوزن مدية) . وشهلا الدياجي : كأنه جمع دجاجة . وارجع وراء : أي صارخاً ، بقوله : « ارجع وراء » . وراءه : هنا : ظرف مكان : بمعنى « خلف » . وقد قطع عن الإضافة لفظاً وتقديراً ، فنزل منصوباً . وحكمه في هذا حكم « قبل » و « بعد » . وإليه لا « أمام » : أي إنه لا يسمح لك أن تتجه في سيرك إلى الأمام ، وأمام : بمعنى « قدام » . وهو هنا : شبه « وراء » .

يصف الحراس والرقباء في مشاهد الحرب ، ومواطن القتال ، وما يجازونه به من البقعة الشديدة ، وما يقعون به الثلاثة من الأضرار والنواهي ، والتنبيهات الصارخة الصارخة ، وبخاصة في الليالي الداجية المظلمة .

(١٤) يُقْبَلُ : يُسْتَقْبَلُ . انتقلتُ الأمر : أي استقبلته . أو استأنفته . أو ابتدأته .. ويراد بالصبح والنور : النهار . وبالسجى والظلام : الليل : أي يأتى النهار ، ويمضي الليل ، ويأتى الليل ، ويمضي النهار : أي تتوالى الأيام والليالي ، وتقلب الأزمنة والسيورات مع انقضاء الساعات والرسائل . فالبيت متعلق بالآيات الآتية .

(١٥) الكتاب : الرسالة ، والخطاب . وجمعه كتب . وأخو الصديق : الصديق الوثيق ، والأخ الصادق الإخاء . ويرد السلام : رد التحية : أي يجيبه تحية ماثلة لصحته . والمراد برد السلام : إجابة الشاعر عن كتبه ورسائله التي أرسلها إليه أسفاته في مصر ، ولم تصل إليه بخودها ، وظن أنهم قصروا في الرد والإجابة . وفي التوسيلة الأدبية ج ٢ ص ٩٧ - ٩٨ نشر مؤلفها الشيخ « حسين المرصى » هذه القصيدة ، وقدّمها بقوله : « وكان - رحمه الله - كُتِّبَ لبناء دية كتيبة : ولم تصل إليهم ، وظن وصولها ويقصدهم عن المبادرة بالإجابة . وقد وصل إليه يوم قدمه إلى مصر أحد كتابي كتيبته في بعد مدة طويلة من كتابته .

ورد الشاعر في هذه البيت والبيت الذي قبله شكواه وتألمه من انقطاع الصلات بينه وبين أحبائه وأسفاته بمصر ، فلهم لم يندعوا بالكتابة إليه ، ولم يجيبوا عن كتبه ورسائله . وهو في انتظار هذه الكتابة أو الإجابة براتب تحليه اليقين واليقين ، وبعد الأيام والساعات في قلق وشجون من هذه العظيمة التي ضاعت ما يقاسيه من بُعد الشقة ، وطول النسي ، ومرارة الفرية ، وقسوة الزحفة ، وشدة الشوق إلى الوطن والأهل ، والقيار والأخلاء .

فِي مَضَبَةٍ مِنْ أَرْضٍ «دَبْرِجَةٍ» لَيْسَ بِهَا غَيْرُ بُغَاثٍ وَهَامٍ^(١٦)
وَرَأَيْنَا الْيَحْرُ ، وَتَلَقَّاهُمَا سَوَادٌ جَيْشٍ مُكْفَرٍ لُهُامٍ^(١٧)
فَيْلِكَ حَالِي - لَا رَمَتْكَ النَّوَى - فَكَيْفَ أَنْتُمْ بَعْدَنَا يَا هُمَامُ^(١٨)

(١٦) «في مضبة»: متعلق بـ «يقبيل» في البيت الرابع عشر. والمضبة: الرابية: وهي ما ارتفع من الأرض. والجبل المنبسط الممتد على وجه الأرض. وجمعه مضاب. و«دبرجة» أو «دبروجة»: إقليم زراعي في جملته. وفي غابلات. مساحته نحو خمسة آلاف ميل مربع. يقال: على البحر الأسود جنوبي دلتا نهر الطونة (الدلتا). وتنقسمه.. بينهما رومانيا وبلغاريا، ويقع في الجنوب الشرقي من الأولى، والتمثال الشرقي من الثانية. وقد تداولته في تاريخه القديم عدة دول، وسيطر عليه الأتراك العثمانيون من القرن الخامس عشر إلى سنة ١٨٧٨ م. والبنات (بثلاث الباء): شرار الطير، وما لا يصيد منها، ولا يربى في صيده؛ لأنه لا يؤكل. أو هو طائر أبث اللون (أي أبيض إلى الخضرة، أو أغير) أصفر من الرخة، بطنه الطيران. والقام: جمع حامة. وهي فوح من اليوم للصيغ، تألف للطيور والأماكن الخفية. ويراد بالبنات والهام هنا: طعام الناس، وأرقاعهم، وأوشابهم، وأعلامهم وأوباشهم، ويصلحهم.

يقول: إن الأيام والليال تتوالى عليه وهو في أرض ليس بها إلا طعام الناس وأوشابهم؛ وقد شبههم مرة بالبنات، وهي من شرار الطير وأحقرها، ويرة أخرى باليوم، وهي من أشأمها وأقبحها. والبيت يتم على الفصح والبيان؛ فمعناه متصل بمعاني الآيات السابقة، وبالفرض الأصلي من القصيدة.

(١٧) «يرادنا البحر»: لعله يريد البحر الأسود؛ فإن «دبرجة» تظل عليه. ورواية الوصلة الأدبية «من خلفنا البحر». وتلقاها: حذائنا. أو أماننا، أو تجاهنا. يقال: قدما تلقاه، أو تجاهه: أي مستقبين له. وهو في الأصل مصدر لقبح (كرهيه) لقاء، وتلقاه (بوزن تبيان). ثم توسعوا فيه، فاستعملوه لحرف مكان: بمعنى جهة اللقاء، ومكان الملقاة. وسواد الناس: متعلمهم، وكثرهم. وسواد المسكر: كثرته، وما يشتمل عليه من المضارب والآلات، والدلواب، وغيرها من أدوات الحرب والقتال. ويصكهز: كثير، كثيف، متراكب. أو عابس، ضيف، غيف. وببش لهام (بوزن غوايب): أي كبير عظيم، كأنه يلهم كل شيء: أي يزدره ويستهله.

يصف ما كان يحيط بهم، ويحاصرهم في تلك الحرب الضارية؛ فالبحر من خلفهم. وأمامهم جيش عظيم مزيج بيزنات، كثير العدد والعتاد.

(١٨) «لارمتك النوى»: جملة دعائية؛ فهو يدعو للمخاطب ألا تقشط به النوى: أي لا تنزع به الدار، ولا يمن في البعد، ولا يفرق شمله. وفي هذه الجملة - مع الدعاء - إشارة إلى ما يكايده ويضانيه في ميدان الحرب من الخيم والصجر، والشوق والحزن؛ جمد أن شطت به النوى، وفركت يته =

« وبين أهله وصحبه ، وانقطعت الرسائل والصلات . والحمام : السيد الشجاع السخي من الرجال . والرجل العظيم الهمة : يعنى المزمع القوي ، والإرادة للصارمة ، والتعلق بممالك الأمور .

أجمل الشاعر في هذا البيت الخفاى معنى هذه القصيدة ، فأشار إلى حاله التى فصلها في الأبيات السابقة . ونادى صديقه الشيخ حسيناً المرصنى نداء مديح وتكريم ، وإعزاز وإطراء بالسيادة والشجاعة ، والسخاء وبُعد الهمة . ودعا له بدوام ما يتم به من اجتراح الشمل ، ورخاء البكال . وأشار بهذا الدعاء إلى ما يعانيه في غربته من الهم والفسح ، والشوق والحنين إلى أهله وصحبه ووطنه . وسأل منهم بمد أن فرقت التوى بينه وبينهم ، ورددت به في ذلك المرى السحيق ، فشسخت الدار ، وبرز المزمار ، وانقطعت الرسائل والاتصالات .

تعليق *

هذه القصيدة من أرق الشعر وأحبه ، وأجوده وأصلفه . شأنها شأن كل ما نظم به البارودى في محنته أو غربته ، أو متفاه . أو فيها غاضبه من المامع والحروب . أو فيها أجمع عاطفته ، وأثار شاعريته من أحداث الدهر ، وشدائد الليالى والأيام ، فقل هذا الشعر يخرج من قلبه ليحل بقلوب قرائه ويستمع به ، ويؤثر فيها أبلغ تأثير ، ويغله خلود الزمان ، ولا ينال القدم من بعده وقوته ، ورقته وطوئته .

وعدة أبياتها في أصل الديوان المخطوط ثمانية عشر بيتاً . وفي رواية الوسيلة الأدبية تسعة عشر بيتاً ، اختصها الشاعر بما يشبه الغزل ، وهو في حقيقته الحب الصادق ، والمودة الخالصة ، والوفاء ، والتكريم ، والشوق والحنين إلى أخطائه وخلاته الذين أغلص لهم اليد ، وأصفاهم بالإقبال والإعزاز .

وفي خمسة الأبيات الأولى منها مخاطب الواحد ، وتحدث عنه ؛ فحبيه ناص الطوف ، مفرق في النوم ، لا يكاد يأبه له ، أو يحتم به . وقد أثقله هذا الإعراض وأرقه ، وأضججه وأسهره ، وأطال ليله ، وسود نهاره ، وأقص عليه مضجعه ، وسرته لذة النوم ، وأسنة النعاس ، وجرحه مرارة الأوصاب والآلام حتى أشق حال الموت .

وحبيه إلى هذا محبب متنع ، وقد أمضت بهتمته واحتجابه ، وضاعف ما يلقى من الحيز والصد ، واضطره إلى الجهر بالتوجع والتأوه ، فلم يترث لتوجعه وتأله ، ولم يرسم صباهه وقرامه . بل غضب ، وثار ، وغالى في مقاومته ، والإعراض عنه ، وشن عليه رسائله ورسله ، واشتدّت غنائه حتى منع طيفه أن يلتم به إلاانة قصيرة في المنام ، فبلغ منه الجهد والعتت ، واشتد به الكرب والبلاد :

١- يا ناص الطوف ، إلى كم تنام ؟ أسهرنى فيك ، وفام الأنام

٢- أوشك هذا الليل أن يقضى والعين لا تعرف طيب المنام

٣- ويلاه من ظلي الحصى ؛ إنسه جرحى بالصد سر الحمام

• في صفحة ٣٣١ من هذا الجزء بيان واف لما تنسج له التعليقات . وفي التعليق هنا تحليل ، وتلخيص ، ولقد وجيز .

= ٤ - يغضب من قول «آه» ، وهل
 ٥ - لا كتبه ترى ، ولا رُسْله تأتى ، ولا العليف يوافق لما

وفى البيت السادس وأربعة الأبيات بعده انتقل إلى خطاب جماعة الذكور المعلاء ، والتحدث عنهم وكأن هذا تمهيد ، بل انتقال إلى الفرض الأساسى من هذه القصيدة ، وهو الولد والحنين ، وشكوى الإعراض والقطيعة ، وعتاب أصفيائه وخلصائه الذين توهم أنهم قاطموه ، فلم يرسلوه في غربته ، ولم يرِدْوا على كتبه ورسائله . بل إن هذا الفرض يكاد يُلْمَسُ في كل بيت من أبيات هذه القصيدة ، حتى في خمسة الأبيات الأولى التي جاءت فيها يشبه الغزل .

أَمْسَحَتْهُ القِطْعَةُ في الأبيات ٦ - ١٠ وأغشاءه ألمٌ ؛ فجفا النوم صينته ، وبرى الفراق فؤاده ؛ فَجَسَّارٌ إلى الله بالشكوى ، وتَوَسَّى على جلال الله ويبررته ، ودعا إلى مخالفة الله وتقواه .

وفى هذه الأبيات أن الفُرْقَةَ باعدت بينه وبين أغلّاته ؛ فغسلت الدارَ ، وعز المزمار ، وطالت النوى بدمعٍ ؛ فساه مقامه في مقربة ، وذهب ما كان ينم به في قريحهم من بشاشة العيش ، ورحاء البال . وقد يمرّ بهم من قبلهم نسيم الصَّبَا ؛ فيحمل إليه الازدحام والشفاء ، والمرض والشقاء في وقت واحد . ولما برّح به الولد والجد ، وأغشاء الحنين والشوق تمنى لو كان حرقاً من حروف الرسائل البرقية ، أو ريشة في خُبابة من حمام الزاجل ، ليُلمَ بمصر لئلا تصيرة ، يؤذى فيها حقوق الحب ، ويؤى بعدهم ، ويرضى أذعته وحرمانه ؛

- ٦ - الله في عين جفاها الكسرى فيكم ، وقلب قد براه الفراق
- ٧ - طال النوى من بدمعكم ، واقفقت بشاشة العيش ، وساء المقام
- ٨ - أرقاع إن مرّ نسيم الصَّبَا والبرء لى فيه ممأً والسقام
- ٩ - ياليتنى في السلك حرف سرى أو ريشة بين غوا في الحمام
- ١٠ - حتى أوفى مصر في لحظة أقضى بها في الحب حقّ النمام

وفى البيت الحادى عشر وسبعة الأبيات بعده غصّ بخطابه صديقه الشيخ حسيناً المرصق ؛ فشكا إليه مرارة النوى ، وطول الأيام والأيام . وأشار إشارة مجملّة وسبيرة إلى ما كان ينمرفيه من كتاب الجند ، وبيدان الحرب ، ومعدّات القتال . ثم ردّ شكواه من انقطاع الصلّات بينه وبين أحبائه ، وقال : إنه في انتظار كسبهم ، وارتقاب الردّ على رسائله إليهم -- راقب تماقب الليل والنهار ، ويعدّ الأيام والساعات في قلق وضجر . ثم كرّر إشارته المجملّة إلى أرض القتال ، وما يحيط به فيها . ثم غنم قصيدته بيت أجمل فيه ما فصله في الأبيات السابقة ، مشيراً إلى حاله التكة ، ساللاً عن أحوال غلّاته . ودعا ، وطمح ، وضجر ، وآلم ، وحنّ ، واشتاق . ولو تدبرنا كل بيت من أبيات هذه القصيدة ، لرأيناها منطوية على الولد والحب ، والألم والضجر ، والشوق والحنين ؛

- ١١ - مولاي ، ! قد طاك مرور النوى
 ١٢ - أنظر حول ، لا أرى صاحباً
 ١٣ - وديبانا صاروا في الدجى
 ١٤ - يقتبل الصبح ، ويعفى الدجى
 ١٥ - ولا كتاب من حبيب أرى
 ١٦ - في حغبة من أرض « دبرجة »
 ١٧ - وراعي البصر ، ولقائنا
 ١٨ - فلك حالى - لا يمتلك النوى - فكيف أتم بعدنا يا همام ؟

ويلاحظ أن الأسلوب متنوع ، متنقل بين النداء ، والاستفهام ، والتمني ، والتعجب ، والتعجب والإنشاء . وهذه إحدى مزاياه ، وسبب من أسباب رونقه وقوته ، وشدة تأثيره في النفس .

ومن المعاني التي كررها الشاعر في هذه القصيدة : أرقه وسهاده ، فقد جاء صريحاً في الأبيات :
 الأول ، والثاني ، والسادس . وكذلك كرّر شكوى الصد ، وانقطاع الكتب تكراراً صريحاً في الأبيات :
 الثالث ، والخامس ، والخاص عشر . أما المفردات أو الألفاظ المكررة فقليلة جداً ، ومنها كلمتا
 « النوى » و « الدجى » .

والقصيدة كلها تدور حول غرض واحد ، أو اثنين ، هما الشكوى ، والنتاب . والموازنة ، أو المفاضلة
 بينها وبين ما قاله الشاعر في مثل هذا المقام تجعلها مرجحة ، مفضولة ، قليلة ، ضيقة ، متواضعة ،
 حل ولم ما أشرنا إليه من مزاياها ، فقد غاض الشاعر حربين في حملتين مصريتين ، لنصرة الدولة
 العثمانية : الأولى حرب جزيرة « أفرطش » . (ومن أسمائها قديماً وحديثاً « جريد » و « كريد » و « كريت »
 سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م) حينما ثار أهلها ، وخرجوا على السلطان العثماني . والثانية الحرب التي شنتها
 « روسيا » ودويلات البلقان على الدولة العثمانية سنة ١٢٩٤ هـ (١٨٧٧ م) . ثم شارك في الثورة العراقية
 وكان من قادتها ، واحتمل معهم نتيجة الهزيمة العسكرية بعد أن غلبهم جيش الاحتلال الإنجليزي ،
 ودخل القاهرة في ١٥ من سبتمبر سنة ١٨٨٢ . هذه هي الحروب الثلاث التي غاض البارودي - غمارها .
 وله في الحرب الكريتية ، والحرب الروسية التركية عدة قصائد ، كل واحدة منها أطول من هذه القصيدة
 الميمية ، وأجود ، وأمل مكانة في مجال الأدب والتاريخ ، فيها - مع تمدد الأغراض ، وكرتها وتنوعها -
 إسهام في وصف الحرب ، وعناية بتصويرها ، وتصوير شتى المواطنين والمشار إلى تتخلل في صدر محارب
 شجاع ، متفتح الذهن والحواس ، بعيد عن أهله وصحبه ووطنه . وفيها رقة وعذوبة ، وقوة وروعة ،
 وجزالة وفصامة ، وشدة ، ولين ، فالأسلوب يجري مع الغرض ويشاكله ، ويناسبه ، ويؤلمه .

وفي الجزء الأول من شرحنا لديوان البارودي ، طبع سنة ١١٤٠ بمطبعة دار الكتب المصرية
 بالقاهرة أربيع من هذه القصائد :

— الأولى حاتية ، ص ١٠٦ - ١١٤ نظمها وهو في الحرب الروسية التركية في ثمانية وأربعين بيتاً ومطلعها :

هنيئاً لـ « ربا » ما تغمّ الجوانسح وإن طوّحتْ بي في هواها الطوائس
وعتاجها :

فإن عشت صافحت الأتريا وإن أمت فإن كرمياً من تغمّ الصفائح
وفيها : غزل . وحنين إلى الوطن . وتغنّ بروضة المقياس . ووصف للحرب في ثمانية عشر بيتاً ،
أي في أكثر من ثلث القصيدة . ثم ختمها بطلاقة من الحكم والأمثال . وفيها مع هذا قدر بنفسه ،
واعتماد بمزاياء . وقلماً ينسب البارودي مثل هذا حتى في أماديحه ؛ فهو يجري على سنن أبي الطيب المتنبي
وأشاله من شمراء القنصر ، والاعتزاز بالنفس . وقرأ هذه القصيدة في طبعة دار المعارف بالقاهرة
سنة ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م أول قافية الحاء ص ١٥٦ - ١٦٤ الجزء الأول .
والقافية دالية - ص ١٥٦ - ١٦١ نظمها في سبعة وعشرين بيتاً ، وهو يكافح المتمردين على
السلطان الخاني من أهالي جزيرة « أفرطش » « كريت » . ومطلعها :

سرى البرق مصرياً ، فأرقتي وحسدي وأذكرني ما لست أنساه من عهد
ونعاجها :

فهذا الذي ألقاه منك على النسوى فراغى وثاق يابنة القوم أو شلى
وفيها حنين إلى مصر . وتغنّ بروضة المقياس وجدالها ، وتحسّر على ما طواه الدهر من عيشه الرغيد
في تلك الجزيرة الأريضة . وغزل . وشوقي . ويلاحظ أن هذه القصيدة غلت من الإشارة الصريحة إلى
الحرب الكريتية ؛ كأن الحنين اشتدّ بالشاعر ، وشغله الغزل ، فأنساه ما كان يفره من شذائه الوثى ،
وجاهد الحرب ، وويلات القتال . وقرأها في طبعة دار المعارف بالقاهرة ج ١ ص ٢٠٤ - ٢٠٩ .
والثالثة دالية . ص ١٦١ - ١٧٢ نظمها في ثلاثة وستين بيتاً ، وهو يحارب روسيا ، وحلفاءها
من دويلات البلقان ، ويحث بها إلى الشيخ حسين المرصى . ومطلعها :

هو الين ، حتى لا سلام ، ولا ردّ ولا نظرة يقتضى بها سقمه الوجد
وعتاجها :

فلذلت محسوداً على المجد والمسللا فليس بمحسود حتى ولسه ندد
وفيها : شكوى الين . إشارة إلى قطار سكة الحديد . بيان أثر الفراق في نفوس المتحابين . وقوفه
بمنازل أسبائه . تصبّره على التوى وشدايقها . حكم وأمثال . تحديث بنم الله عليه . تمدّح وإبهاء وفخر
بكثير من محامده وبناتيه . عتاب . شوق وحنين . وحبّ . ووفاء . أربعة عشر بيتاً (أي ربع القصيدة
تقريباً) في وصف الحرب الروسية التركية ، والانتصار بما كان له فيها وفي نظائرها من شدة بأس ،
وصبر على القتال ، وغيرهما من مزايا المحاربين الأشداء الشجعان . وفي القصيدة إلى هذا كله أبيات =

== تدل على دين ، وعلق ، وجوع إلى الله ، وتعلق بالله . وفيها معان أخرى رائعة قيّمة ، وأغراض أخرى عالية ذات بآل . واتّرها في طبعة دار المعارف بالقاهرة ، ج ١ سنة ١٣٩١هـ - ١٩٧١م ص ٢٠٩-٢١٩ .
والرابعة دالية . ص ١٧٢ - ١٧٦ نظمتها في سبعة وعشرين بيتاً يوم عيد الفطر وهو في الحرب الروسية التركية . وسلمها :

أراك الحسى ، شوق إليك شديد وصبرى ونفى فى هواك شريد
ونما :

ألا ، أما اليوم الذى لم أكن له ذكوراً ، سوى أن قيل لى : هو عيد
أتأتنا ليس الجديده سفاهة وألواننا ما قد علمت جديد ؟
وختامها :

صلى الله يقضى قرابة بعد غريبة فيفرح باللقيا أبى ووليد
وفيها : حين إلى مصر . شكوى الوحنة والفربة . بيان لتفاوت حظوظ الناس في الحياة . وصف للحرب الروسية التركية . هجاء لزن رآهم في تلك الحرب من الأعداء . وفي القصيدة مع هذا إشارة إلى البلد التي كان يحارب فيها . وتبيح الغشود أمامه من البلغار ، والروم وغيرهم من أعداء الدولة العثمانية ، والارواجين عليها . وتراها في طبعة دار المعارف سنة ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م . ج ١ ص ٢٢٠ - ٢٢٤
وفي الجزء الثاني من الوسيلة الأدبية للشيخ حسين المرصى - ص ٤٩٦ - ٥٠٠ طبعة سنة ١٩٢٢ هـ (١٨٧٥ م) بمطبعة المدارس الملكية يدرب الجساميز بالقاهرة - ثلاث من قصائد البارودى في الحرب الكريتية والحرب الروسية التركية : إحداها هذه الميمية التي شرحناها في الصفحات السابقة ، وختمتنا شرحها بتحليل ، وتلخيص ، وتعليق ، ونقد وجيز . وقد روتها « الوسيلة الأدبية » في نسخة عشر بيتاً ، أى زيادة بيت واحد عن رواية أصل الديوان المنسوخ بتأريخ ١٠ من سبتمبر سنة ١٩٠٨ م والأخرى الدالية التي أشرنا إليها في الصفحة السابقة ، ونشرناها في الجزء الأول من شرحنا لديوان البارودى طبعة سنة ١٩٤٠ في ثلاثة وستين بيتاً : « هوالين ، حتى لا سلام ، ولا رد » .. ص ١٦١ - ١٧٢ والثالثة نونية في ستة وثلاثين بيتاً . نظمتها وهو يحارب لإخماد ثورة أفريطس « كريت » . وسلمها :

أخذت الكرى بمعاقد الأجناس وهما السرى بأعنة الفرسان
ونختامها :

شرف خصصت به ، وأخطأ حاسد سماته ، فهلى به ، وقلان
ونستشها إن شاء الله تعالى محققة مضبوطة مشروحة في الجزء الرابع (وهو الجزء الأخير) من شرحنا لديوان البارودى .

وفي تقديم الشيخ حسين المرصى لهذه القصائد الثلاث : « أن هذا الأمير (يمنى البارودى) باشر الحرب

= مرتين يصدق وشهادة وعلمومة ، حتى إن الناس كانوا يتعجبون - كما أخبرني من حقيرة في تلك المواقف - من خشونة بأسه على ترف تشققه ، ولطف حسه : المرة الأولى حرب سكان جزيرة أفرقيطس ، المعروفة الآن بجزيرة « جريد » حين خرجوا عن الطاعة (جريد طاعة السلطان العثماني) ستة شتاتين وثمانين ومائتين وألف ، والثانية حرب الروم سنة أربع وتسعين ومائتين وألف .

وقد رأينا أن تم الفائدة ينشر المجية كنا رويها للوسيلة الأدبية ، بعد أن نشرناها كما جاءت في أصل الديوان المخطوط ، ليمتدح القارئ على القوارق اليسيرة بين الروايتين في عدد الأبيات ، وترتيبها ، وبعض المقدرات :

- ١ يا ناصح الطرف ، إلى كم تنام ؟ أسهرني فيك ، ونام الأنام
- ٢ أوشك هذا الليل أن يتنقى والليل لا تعرف طيب المنام
- ٣ الله في عين جفائها الكرى فيكم ، قلب قد بره القفرام
- ٤ قد رسم العاذل حال ، فسا يرضى للى في الهوى بالسلام
- ٥ ويلاه من ظبي الحسى ، إنه جرحى بالصدى مرّ الحسام
- ٦ يغضب من قتل « آه » ، وهل قتل « آه » يا بن دوى حرام ؟
- ٧ لا كعبه ترى ، ولا رسله تلقى ، ولا لطيف يوافق الحام
- ٨ طال النوى من بدكم ، وانقضت بشاشة العيش وساء المقام
- ٩ أرتاح إن مرّ نسيم الصبا والبره لى فيه معاً والسقام
- ١٠ ياليتنى في السلك حرف سوي أو دشة بين عوالى الحسام
- ١١ حتى أوافق مصر في لحظة ألقى بها في الله حق النسام
- ١٢ مولاي ، قد طال مرير النوى فكل يوم مرّ في ألف حام
- ١٣ أنظر حلى لا أرى صاحباً إلا جماهير ومغيباً صيام
- ١٤ ويدياناً صاروا في النسي اتبع وراء ؛ إنه لا أمام
- ١٥ يقتل الصبح ، ويمضى الدجى وينتفى النور ، ويأتى الظلام
- ١٦ ولا أغو صدق يرد السلام ليس بها غير بنات وهام
- ١٧ في حضية من أوس « دبرجة » سواد جيش مكتهز لثام
- ١٨ من خلفنا البحر ، وتلقانا فكيف . أتم بدنا ، يا هام ؟
- ١٩ فظك حال ، لا يرتك النوى

وقد أسلفنا أن البيت الرابع في رواية الوسيلة الأدبية لم يرد في أصل الديوان . وسنناه : أن الحب أذله ، وبنيكه ، وأشقاه ، وأغناه ؛ حتى رقت له عذالة ، وأشفق عليه لاعمور ، ورأى حاله الماتيون . فأبوا أن يضاحقوا أوسابه بالقوم ، والذل ، والعتاب .

وَقَالَ :

حَتَّى مَنَعَنِي الْهَوَى بِوَادِي الشَّامِ وَأَدْعُ بِاسْمِي تُجِيبُكَ وَرُقَى الْحَمَامِ (١)

* نظم البارودي هذه القصيدة الرائعة (٤٥ بيتاً) في مدح الأمير «شكيب أرسلان» (١٨٦٩-١٩٤٦) الملقب بأمير البيان، وهو أديب، ناقد، كاتب، شاعر، لغوي، خطيب، مؤلف، صحفي، مؤرخ، سياسي، رحالة. جاهد غير جهاد في سبيل وحدة العرب، وأخوة الإسلام. وكان متديناً، محافظاً على الصلاة. عقيدته عقيدة أهل السنة، وشعاره شعارهم، وإن نسب إلى دروز لبنان، وهم فرقة من الشيعة. وهو ابن الأمير حمود بن حسن الأرسلاني. وينتهي نسبه إلى الملك المنصورين ماء السماء الخميني. وأمه شركسية. وزوجته شركسية. ومن تربيته بنفسه؛ أنه من سلالة «الأشراف» و«آل البيت»؛ لأن أجداده قد تناسلوا من الفاطميات. ومن تعريف غيره بالدروز: أنهم جنس من الفرس. أو العرب الذين هم من أصل فارسي. وهم من دعاة الخليفة الفاطمي «الحاكم بأمر الله». ولد بالشويفات من قرى لبنان. ودفن بها. وشكيب أرسلان: كلمتان فارسيتان: الأولى بمعنى الصابر. والآخرى بمعنى الأسة.

(١) معنى الهوى: منزل الحب، وموطن الغرام: والشام، والشام، والشام: الإقليم الشمالي الغربي من شبه جزيرة العرب. ويراد بوادي الشام: البلاد الشامية التي تشمل فلسطين، وسوريا، ولبنان. ومن لبنان الأمير «شكيب أرسلان» مدح البارودي في هذه القصيدة التي اختصها بالفرد، وجعله مقدمة بين يدي المديح. وأدع باسمي: اهتف باسمي، وفادف. وورق: جمع أوراق، وورقاء: صفة من الورقة: وهي سواد في فبرة. وحمامة ورقاء: رباحية اللون. أو في لونها يبيض إلى سواد. أو هي التي يضرب لونها إلى الخضرة.

خاطب الشاعر صاحباً كان معه. أو جرّده من نفسه شخصاً آخر — على عادة الشعراء — وطلب إليه أن يحمل تحيته وسلامه إلى منزل حبه وحياته، ويغني هواه وغرامه بالديار الشامية، أي بلبنان. وقال له: إذا هتفت باسمي هناك أجابتك ورق الحمام. وتعليل هذا صريح في البيت الآتي؛ فحين يقرضه بطول حنينه.

والشعراء يتجهون — من قديم الزمان — إلى الحمام، يتناجون به، ويطربون لسمجه وهديره، ويتخللونه مثلاً «نحنين الواجد العصب» والهاشقي المسهام، والحزين الملتاع. ويترجم العرب أن الحذيل: فرخ الحمام، كان على عهد نوح عليه السلام. ثم مات عطشاً وضيقاً. أو صاده جوارح من الطير؛ فقام من حمامة إلا وهي نحن، إليه، وتبكي عليه. ومن شعر بعض قدامى الشعراء:

أقول — وقد فاحت بقرني حمامة أيا جارتا، لو طمئنين بحالي

أيا جارتا، ما أنصف الدهر بيننا تمال أقفاسك الحميم، تمال

ديوان البارودي ٧-

هَنْ يَغْرِقَنِي بِطُولِ حَيْنِي بَيْنَ تِلْكَ السُّهُولِ وَالْأَكَامِ (٢)
فَلَقَدْ طَالَمَا هَتَفَنَ يَشْدُوِي وَتَنَاقَلَنَ مَا حَلَا مِنْ هَيَايِ (٣)
وَلَكُمْ سِرْتُ كَالنَّسِيمِ عَلِيلاً أَتَقَرَّى مَلَايِبَ الْأَرَامِ (٤)

(٢) هن : أي وُزقي الحمام . وحْنٌ حنياً : صوت طرباً ، أو توجساً . وحْنٌ إليه حنياً : اشتاق . والحنين : صوت يردده الوالد الحزين . أو الصب المستهام ، والمناشق المشتاق . والسهول : الأراضي المنبسطة : جمع سهل . والأكام : التلال ، والأراضي المرتفعة ، وهي خلاف السهول : جمع أكَم (يوزن شجر) . وواحدة الأكَم أكمة : (يوزن شجرة) . ويراد بالسهول والأكام : ما انبسط ، وما ارتفع من أراضي الشام .

في البيت السابق حمل صاحبه تحيته وصلاته إلى منى هؤلاء وهيامه ، ويُنزل حبه وفرامه ببلاد الشام ، وقال : إن حمام تلك البلاد تحببه إذا هتف باسمه هناك وفاداه . وفي هذا البيت يبين سبب هذه الإجابة ، فهن يعرزن الشاعر بكثرة ما سمعت من قطريه وحنيه في طول تلك البلاد وعرضها ، وفي كل بقعة من بقاعها .

(٣) هتفت الحمامة : صاحت . أو مدت صوتها . أو سجت ، ورجعت . وشدا الشعر يشدوه شدواً (من باب عدا) . وشدا به : تفتى به ، وترسم ، وطرب . والشادي : المنشد . وهتفن يشدوي : هتفت ورق الحمام بمثل شدي ، أي تشبّهت في ، وتفتت بمثل غنائ . أو استحسنت شعري ، وتأثرت بنسجي وغزلي ، وطربتي له . من قوطم : هتف فلان بفلان : إذا أشاد به ، ومدحه ، وأطراه . والحمام (في الأصل) : شدة اللطش . ومن المحاز : هو هائم بفلانة : إذا اشتد عشقه لها ، وشغفته بها . وبه هيام : أي ما يشبه الحنين من المشق . ويراد بهيامه : شدوه : أي ما تفتى به من شعر الغزل والتشبيب والنسيب بأحبائه في ديار الشام ؛ إذ الشداثر من آثار الهيام .
تقيل أن سجع الحمام يروى الشام ترديد لشده ، وتناقل لحلو هيامه . وهذا التخيّل تأكيد وتفصيل لحنى البيت السابق ، ومعنى الشطر الثاني من البيت الأول ؛ فقد اشتد تعلّقه بمن يهواه في ذلك الوادي ، وطال حنيه وشغافه ، وبرّح به الوجد والشوق ، حتى عرفته الطير ، ووقّت له ، وتأثرت به ، وشاركته فيه ، فطربت قطريه ، وتفتت بمثل غناؤه .

(٤) « ولكم » : اللام : لام الابتداء . وفائدتها تأكيد مضمون الجملة التي بعدها . و « كم » اسم ثنائي ، مبنى على السكون ، يبرّح به من عدد مهمم القدر والجلس ؛ ولهذا يحتاج إلى تمييز . وتمييزها هنا محلول . والاعتقاد : ولكم مرة ، أو مرات سرت .. ويحي هنا خبرية بمعنى كثير . والنسيم : الريح اللطيفة البينة ، لا تحرك شجراً ، ولا تنفث أترأ . وعليلاً : حال من التاه في « سرت » : أي حال من فاعل « سار » : صفة من العلة : وهي المرض الشاغل . وهو هنا مرض الحب والفراق . أو حال من النسيم : أي ولكم سرت كالنسيم الليليل ؛ فهي صفة مؤكدة لحنى النسيم : وهو اللين ، وضمت الحركة . وأتقرى : أقصد ، وأحج . من قوطم : تقرى البلاد : إذا طاف بها ، وتمييزها أرضاً أرضاً ، وسار فيها =

فِي شِعَارٍ مِنَ الصَّنَى ، نَسَجَتْ بِخُيُوطِ الدُّمُوعِ أَيْدِي الْقَرَامِ^(٥)
كُلَّمَا شَمْتُ بَارِقًا خِلْتُ ثَغْرًا بَاسِمًا مِنْ خِلَالِ تِلْكَ الْخِصَامِ^(٦)

= ينظر أحزائها وديارها وأناسها . وجملته « أتقرى » حال من « التاء » في « سرت » أي ولكم سرت كالنسيم عليلًا متفريًا ملاعب الآرام : جمع رثم (بكسر فسكون) : وهو الظبي الخالص البياض . ويجمع أيضًا على آرام . وتبته حسان النساء بالآرام : أي الظباء : أي الغزلان في الرشاقة ، ولطف الحركة ، ورحمن النبي ، وجمال العين والأعناق .

أشار بالملاعب إلى هو المتفرج بين ولعين . وأشار بكثرة سيره ، وتقريه إلى هيامه بهن . وأشار بالنسيم العليل إلى ما يميز سيره وتقريه من اللطف واللين ، والخفة والبرقة ، والاستغفاه من هين الماذن . أو إلى ما كان يكابده ويفضاه في أثناء سيره وتقريه من علل الحب ، وأوصاب الهوى ، وتبايع القرام . ولعل البيت الآتي يرجح هذا المعنى ويفصله .

(٥) القرام (بكسر الشين وفتحها) : ما تحت الدثار من اللباس : وهو الثوب الذي يمل شعر الجسد : أي يلاصقه ويمسّه . و « من » : بيانية . والفصي : مصدر ضني (بوزن وفي) : أي اشتد مرضه ، حتى نحل جسمه ، وتمكّن منه الضعف والخرال . أو هو المرض الخامر الذي كلما ظن برؤه نكس . ويكثر استعمال الصنى في مثل هذا المقام : أي فيما يقاسيه العاشق « الصب » المستهام من أوصاب الوجد ، ولواجم الحب ، وحرق السبابة والقرام . وخيوط الدموع : الدموع المنسجمة للفرجة المتتابعة المنصبة التي تتصل قطراتها بعضها ببعض ؛ فتبدو كخيوط ؛ فهو من إضافة المشبه به إلى المشبه . والقرام : الزلوع بالشيء ، والتعلق الشديد الذي لا يستطيع التخلص منه . والقرام : المذاب الدائم . والحب المذهب للقلب . و « في شعار » متعلق بـ « سرت » أو بـ « أتقرى » في البيت السابق .

يقول : إن أيدى الحب والقرام نسجت له من خيوط دموعه شعاراً هو الصنى ، مشيراً بهذا - في ضوء من التكلّف - إلى تبريح الوجد به ، وكثرة بكائه ، وشدة ضعفه وهزاله .

(٦) شام البرق والسحاب (من باب باع) : نظر إليه ليتعرف أين يتجه ، وأين يطر . والبارق : سحاب ذو برق . ويراد به هنا البرق : وهو ضوء يلعب في السماء على إثر انفجار كهربى في السحاب ، وجمعه برق . أو المعنى : كلما شمت برقاً بارقاً : أي مثلاً لا لأملاً . وعطت : ظننت . والتغر : مقدم القم . وما يبدو من الأسنان عتد الاقسام . وجمعه ثمرور . وباسماً : اسم فاعل من يسم (من باب ضرب) : أي أفرجت شفتاه من ثناباه ضاحكاً يدرن صوت . وهو أعف الضحك ، وأقله ، وأحسنه . والخلل : جمع خلل (بوزن جبل) : وهو الفرجة بين الشيتين . والخيام : جمع خيمة (بوزن نسيمة) : وهي المئزر . والبيت يتخذ من الصوف أو القطن ، ويقام على أعواد ، ويشد بأخواب . وكل بيت يبنى من أعواد الشجر ، ويلقى عليه نبت يستظل به في الحر . أو كل بيت لم يبن من حجارة ، ولا ما يشبهها ، أو يقوم مقامها .

وَالْهَوَىٰ يَجْعَلُ الْخِلَاجَ يَقِينًا وَيَتَنَرُّ الْحَلِيمَ بِالْأَوْهَامِ^(٧)
خَطَرَاتُ لَهَا بِمِرَّةٍ قَلْبِي صُورًا لَا تَزُولُ كَالْأَخْلَامِ^(٨)

= يشبه البرق تلعب من خلال السحب بفقر التبدل الحسان تبسم من خلال الخيام . وفي البيت معنى أن المنقول بين محبتات ، وأنهن يحين في غلورهن حياة المرح والهناء ، وأن وجودهن تشرق بانبساطات حلوة تضاعف حسنهن ، وتشتعل القلوب إليهن .

(٧) الهوى : الحب ، والعشق ، والفرام . ويراد بالخلاج : الشك ، أو الظن ، أو اليأس : مصدر خالج قلبى أمر : أى خامره ، وغالطه ، ونزغنى فيه فكر . واليقين : العلم الذى لا شك فيه . وهو خلاف الخلاج . وغره (من باب رد) : غده ، وأطمعه بالباطل . والحليم : صفة من الحلم (بكسر فسكون) : وهو المقل ، والرزاق ، والقياس ، والأناة ، والصبر . وضده : الجهل ، وهو الخفة ، والنزق ، والطيش ، والسفه . والأوهام : اللطون ، والأخيلة ، والحواس التى تقع في الدن ، ولو لم تكن لها حقائق . جمع وهم (يفتح فسكون) .

والمنى : أن الحب يستحق الحب ، ويستجوبه ولو كان رزقاً ثابتاً ، راجع المقل ، فهو الإدراك ، شديد التفكير . إنه يغمسه بالأوهام الكاذبة ، والأمانى الباطلة ، ويغمسه في غير طمع ، ويحصل ما يتخيله من الأمور المشككة فيها كاليقين الذى لا شك فيه . والترض بيان سحر الحب وتمويهه ، وبالغ أثره في قلب الحب ، وعقله وحواسه ، وما يتبع ذلك الأثر من بلبلة الفكر ، وضلأ الحكم ، وسوء التقدير ، وفساد التقدير ، والافتراء بالأوهام ، والجري وراء الأباطيل . ويلاحظ أن هذا البيت يجري مجرى الحكم والأمثال .

(٨) خطرات : غير مبتدأ مخوف . والتقدير « هي خطرات » : جمع خطرة : اسم مرة من خطر له الأمر : أى لاح في فكه ، أو مرّ بباله ، أو وقع في غلده . ويراد بالخطرات هنا : ذكريات الحب ، وما مضى من شوقه . ومِرَّة قَلْبِي : أى قلبى الشبيه بالمرأة ؛ فهو من إضافة المشبه به إلى المشبه ؛ إذ القلب كالمرأة يعلّى الصور ويحفظها . ويراد بالقلب هنا : الدن ، أو العقل ، أو الإحساس والإدراك ، وقوة الذاكرة والحافظة . ولا تزل كالأخلام : أى لا تنسى ، ولا تنهب كما تزل الأخلام وتنسى : أى أنها صور ثابتة باقية عصفرة ؛ لا يتورها الصياح أو النسيان . والأخلام : جمع حلم (بضم فسكون) : وهو رؤيا الناسم .

والمنى : أن كل ما مضى من تاريخ حبه ، وأطوار عشقه ، وأحوال غرامه ، مذكور عنده ، غير منسى . وهو إلى هذا أثر لديه ، عزز عليه . وأن كل صورة من صور ذلك الماضى ثابتة مستقرة باقية في صفحة قلبه . وأن هذه الخطرات أو الذكريات لا تفتأ تحضر بيباله ، وتلوح بذهنه ؛ فتجسد تملقه بذلك العهد العزيز السعيد . والآيات الآتية توضح هذا المعنى وتفسّله ، وتقرّنه وتؤكداه .

مَا تَجَلَّتْ عَلَى الْمَخِيلَةِ إِلَّا أَذْكَرْتَنِي مَا كَانَ مِنْ أَيْسَى^(٩)
 ذَاكَ عَصْرٌ خَلَا ، وَأَبْقَى حَلِيْقًا نَعْمَاطَهُ بَيْنَنَا كَالْمَدَامِ^(١٠)
 كُلَّمَا زَحَزَحْتَ بَنَانُهُ فِكْرِي عَنْهُ سِتْرَ الْمَخِيَالِ لَاحِ أَمَامِي^(١١)

(٩) تجلّت: بدت ، وياقت ، وظهرت ، واكتشفت . وقاعله ضمير الخطرات ، أو الصور في البيت السابق . والمخيلة : الخلق . ويراد بها صفحة خياله . أو قوة التخيل ، والتشبيه ، والتصوّر ، والتذكّر . وأذكّرني : جعلتني أتذكّر . ويريد بآيائه : أيام حبه وغرامه .
 يقول : إنه كلما تخيل هذه الصور تذكّر ما تشير إليه من أحوال ذلك الماضي المحبب إليه ، العزيز عليه . يريد : أن صور تلك الأيام السعيدة وذكرياتها لا تفتأ تتجلى في ذهنه ، فتزيج حنيه إلى ماضيه .

(١٠) العصر : الزمان ، ويراد به : زمن الحوى والحب . وخلا : مضى ، وذهب ، وانقضى . وأبقى : خلّد . ويراد بالحدث : أخبار الحب ، وأطواره ، وقارنيه ، وذكرياته . ونعماطه : نناوله وقناعه . والمدام : الحمر .

يشير - في مختصر وتلهّف - إلى ما مضى من زمن هواه وغرامه ، وما خطّه ذلك الزمن من تاريخ ، وأحداث ، وأخبار ، وذكريات حلوة لليلة شجية ، محببة إليه وإلى رفاق شبابه ولغو ؛ فهم يتماطون بينهم هذه الأحداث والذكريات كما يتماطلي الحمر شاربوها وبه منها في لذة ومتعة ، وإقبال واحتفال .

(١١) البنانة : الإصح . أو طرفها : أي القعدة العليا منها . وجمعها بنان (بوزن سباعه وسحاب) . والفكر : النظر ، والتدبير ، والروية . وإعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول . وجمعه أفكار . وفكر في الأمر ، أو المشكلة ، وتفكّر فيها : أحمل خامرها فيها ، وتأسّسها ، محاولاً التوصل إلى حلّها . ومنه : أي عن العصر الذي خلا ، وهو زمن حبه وغرامه . والخيال : الخلق . والوهم والظن . وما تشبّه لك في اللحظة أو المنام من الصور . وجمعه أخيلة . وخیال الماضي : ظلاله ، وأطيافه ، وذكرياته ، وصوره الباقية في اللفظ . وسر الخيال : الخيال الشبيه بالسرّ ؛ فهو من إضافة المشبه به إلى المشبه . ولاح : بدا ، وظهر . وقاعله ضمير العصر في البيت السابق .

يتخيّل الشاعر عصر حبه وغرامه ، وتكثر في ذهنه الأخيلة والأوهام ؛ فتصيبه عنه حقائق ذلك العصر وأحداثه . وكلما أراح بتفكيره هذه الحبيب والأستار تجلّت من رؤياها الحقائق والأحداث ناصعة خالصة ، لا يشوبها وهم ، أو تزويد ، أو اختلاط ، أو اعتكار ، حتى كأنه يراها عيناً ؛ فهو دائماً بين تخيل تلك الأيام ، وتذكّر تام لحوادثها .

هذا ، وقد اعتدنا في تحقيق ديوان البارودي على نسخة خطية . نقلها بخط «مصطفى عبد الحامق» في ١٠ من سبتمبر سنة ١٩٠٨ ، فوق في كتابته كثير من الخطأ والتشويه ، والتعريف والتصنيف ، والتقصير والإزالة . وأصابته هذه العيوب أو بعضها ثمانية من أبيات هذه القصيدة ، منها هذا البيت -

يَا نَسِيمَ الصَّبَا - فَدَيْتُكَ - بَلَّغْ أَهْلَ ذَاكَ الْجَمْعِ عَيْبَرَ سَلَامِي^(١٢)
وَأَقْبِرْ عَنِّي حَقَّ الزِّيَارَةِ ، وَادْكُرْ قَرِطَ وَجْدِي بِهِمْ ، وَطُولَ سَقَايِ^(١٣)
أَنَا رَاضٍ مِنْهُمْ بِذِكْرَةِ وَدِّ أَوْ كِتَابِ إِنْ لَمْ أَفْزَ بِإِلْسَامِ^(١٤)

= الذى أصيب في شعره ؛ فأختل في الوزن والنظم ، واضطرب الكلام وتعمد ، وبغى المعنى وفسد .
وهذه صورته المحرقة بقلم الناسخ :

كلما زحزت بتأني فكسرى عنه يستر الخيال لاح أمامي
(١٢) النسيم : الريح اللطيفة ، الطيبة ، اللينة ، لا تحرك شجراً ، ولا تفسى أرضاً . والصبا
(بوزن الصبا) : ريح تهب من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار (مؤنثة) . وهى أحب الرياح
إلى العرب في جزيرتهم ، وألطفها عندهم ، وطالما ناجهاها شعراهم ، وحملوها تحاياهم إلى من يحبون .
وإضافة النسيم إلى الصبا من إضافة المأمور إلى الخاص . أو من إضافة الكلمة إلى ما يفترها . أو إلى
شبه مرادفها ؛ فإن اللفظ والركة واللين يجمع النسيم والصبا ، ولهما ترتاج النفوس ، وهما تسر وتنشط .
وفيهما : جملة دعائية ، يقولونها لمن يحبونه ، ويحزنونه ، ويعظمونه . ومثلها «جسنت فذلك» و«جسنى
أله فذلك» . وأصلها من قولهم : فداه يقدي فداى وفداه : أى استغفنه بما أو غيره ، فخلصه مما كان
فيه . وفداى الأمير ، وفداه ، وفداه : أى استغفنه من الأسر بالمال ، أو غيره . والحى : المكان يسمى
وهسان ويدافع عنه في فلا يجترأ عليه ، ولا يتشرب منه . وأهل ذاك الحى : أصحابه الذين تعلق بهم ،
وثقت نفسه إلى لقائهم ، وضاعف توفاه بهد الدار ، وصعوبة المزار . والمير : أخلاط من الطيب .
نادى ريح الصبا فداه إعزاز وتكريم ، وإقبال واحتفال ، وإيثار ومغادة . وحملها تحية الطيبة
المحترمة ، وسلامه الذكى الزاكي إلى من تعلق بهم في أرض الشام ، وأجرى حديثه عنهم مجرى
الغزل ، أو النسيب ، أو التشبيب ؛ ولا غرو فهو حديث الصب المستهام عن تيممه ، وشغفه حياً .
(١٣) اقض : أمر من قضى عنه الحق ، أو الدين : أى أداه وفداه فائياً عنه . والأمر
لنسيم الصبا . وحق الزياره : الزيارة الواجبة على المستحقين لهم . والقرط : اسم من الإفراط : وهو
مجاورة الحد من جانب الزيادة والكمال ، والوجد : الحب : مصدر وجد به (من باب وجد) : أى
أحبه حياً شديداً . والسقام : المرض .
في البيت السابق حمل نسيم الصبا سلامه وتحية لمن يحبهم في أرض الشام . وفي هذا البيت طلب
إليه أن يتوب عنه في زيارة هؤلاء الأحباب ، ويبلغهم ما يكابده ، ويقاسيه من قرط الحب وأوصا به ،
وطول السقام والحيام .

(١٤) الذكرة (بضم فسكون) : ضد النسيان . والود (بتثنية الواو) : المودة والمحبة ؛ وذكره
البيد : أن يذكره بمحبتهم ومحبتهم . أو أن يذكروا حبه ووداده ، ويقدره حق قدره . والكتاب :
الرسالة ، والخطاب . والعام : القاء اليسير ، والزيارة القصيرة . من قولهم : فلان يزورنا لماً =

هُمْ أَبَاحُوا الْهَوَى حَرِيمَ قُوَادِي وَأَذَلُّوا لِلْعَاذِلِينَ خَطَايَا^(١٥)
أَتَمَّنَّا لَهُمْ ، وَدُونَ الثَّلَاقِ قُلُغَاتٍ مِنْ لُجٍّ أَخْضَرَ حَلَايَا^(١٦)

— أَى حَيْثَا : أَى فِي الْأَحْيَاءِ : أَى حَيْثَا بَعْدَ حِينَ : أَى زِيَارَاتٍ تَصِيرُهُ قَلِيلَةً ، مُتَقَطَّةً ، فَبِرْ
حَصَلَةٍ . الْوَادِعَةُ تَسَمَّى (بِفَتْحِ اللَّامِ) .

تَمْنَى أَنْ يَزُورَهُمْ أَوْ يَزُورَهُ زِيَارَةً إِيَّاهُمْ ، فَإِنْ تَصَوَّرَ الْفَقَاءَ أَتَمَّنَى وَأَوْعَدَ أَنْ يَذْكُرُوا وَدَادَهُ ،
وَيَحْفَظُوا مَحَبَّتَهُ ، أَوْ يَصِلُوا بِرِسَالَةٍ مِنْهُمْ تَخَفِّفُ مَا يَضَافِيهِ مِنْ حَرِّ الْقَيْدِ وَالْفَرَامِ ، وَيُبَارِجُ الْعِصَابَةَ وَالشَّوْقَ .
(١٥) هَمْ : يَرْيدُ أَحْبَابَهُ الَّذِينَ تَمَلُّقُ بِهِمْ فِي وَادِي الشَّامِ ، وَصَاقِ حَدِيثِهِ عَنْهُمْ فِي الْأَيَّامِ
السَّابِقَةِ مَسَاقِ الْفَزْلِ ، أَوْ النَّسِيبِ ، أَوْ التَّشْيِيبِ . وَأَبَاحَهُ الْفِي : جَعَلَهُ لَهُ حَلَاً مَبَاحاً . وَالْحَرِيمَ : الشَّيْءَ
الْمَحْرَمَ الْخَصِيصَ الَّذِي يَصَانُ ، وَيُدَافَعُ عَنْهُ ، فَلَا يَنْتَهِكُ ، وَلَا يَمَسُّ ، وَلَا يَقْرُبُ مِنْهُ ، وَلَا يَجْتَزِي عَلَيْهِ .
وَأَبَاحُوا الْهَوَى حَرِيمَ قُوَادِي : أَى كَانَ قَلْبِي عَزْماً مَصُوناً مَحْتَمِلاً فَأَعْدَرُوا حَرَمَهُ ، وَصَانَتِهِ ، وَتَمَنَّنَتْهُ ،
وَبَسَلُوا حَلَاً مَبَاحاً لِحُبِّ الْفَرَامِ ، يَسْتَوِي عَلَيْهِ ، وَيَحْتَظُّهُ ، وَيَتَكَبَّنُ مِنْهُ ، وَيَتَبَيَّنُ ، وَيَسْتَعْبِدُ .
وَالْعَاذِلُونَ : الْآثِمُونَ . جَمْعُ الْعَاذِلِ . وَالْطَّلَامُ : الْإِزْمَامُ ، وَالْمُقَرَّدُ ، وَكُلُّ مَا وَضِعَ فِي خَطَمِ الْجَبْرِ :
(أَى أَنَّهُ) لِيُقَادَ بِهِ . وَمِنْ الْمَجَازِ : وَضِعَ الْخَطَامُ عَلَى أَنْفِ فُلَانٍ : أَى مَلَكَهُ ، وَأَذَلَّهُ ، وَاسْتَبَدَّ بِهِ .

وَالْمَحْنَى : أَنَّ قَلْبَهُ كَانَ عَزْماً حَصِيناً ، حَنِيقاً حَمِيماً ، فَلَمَّا تَمَلَّقَ هَؤُلَاءِ الْأَحْبَابَ كَانَ حَبْلُهُ لَمْ
أَتَدَّ مِنْ مَنَعَتِهِ ، وَأَقْبَى مِنْ قُوَّتِهِ ؛ وَهَذَا أَحْلَاهُ الْهَوَى ، وَاسْتَحْلَاهُ ، وَاسْتَبَاحَهُ ، وَتَمَنَّنَاهُ ، وَأَغْرَى
بِهِ الْمُنَازِلِينَ ، وَبَكَّتْهُمْ مِنْهُ ، وَجَرَّاهُمْ عَلَيْهِ : فَكَدَّرَ وَاحْيَاتِهِ بِالْوَمِّ وَالْتَمَطَّةِ ، وَضَافَعُوا أَوْصَابَهُ بِالْعَذَلِ
وَالْتَفْرِيعِ .

(١٦) أَمَّنَّا لَهُمْ : أَى أَمَّنَى لِقَاءَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَحْبَبْتَهُمْ فِي لُبَانٍ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ . وَتَمْنَى الشَّيْءَ :
قَدَّرَهُ ، وَتَصَوَّرَهُ ، وَرَغِبَ فِيهِ ، وَأَحْسَبَ أَنْ يَصِيرَ إِلَيْهِ . وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ الْفَتَى فِي الشَّيْءِ الْمُسْتَحِيلِ ،
أَوْ الَّذِي يَتِمُّ رَاحِلُ الْحَصُولِ عَلَيْهِ ، وَيَصْعَبُ الْوَصُولُ إِلَيْهِ . وَدُونُ : ظَرْفٌ مَكَانٌ مُنْصَوَّبٌ . وَهُوَ نَحْنُ
« قَبْلُ » كَمَا تَقُولُ : دُونَ لِحْطَلِ الْقَمَرِ مُتَابِعٍ وَأَهْوَالٍ وَأَخْطَارٍ . وَالْقُلُغَاتُ : جَمْعُ قُلْغَةٍ (بُورْنِ غُرْفَةٍ) :
وَهِيَ مَا يَرْتَوِشُ مِنْ جَانِبِ الْجَبَلِ : أَوْ مَا عَلَا وَارْتَفَعَ مِنْ رَأْسِهِ . وَقَدْ قَاتَ الْبَحْرُ مَا عَلَا مِنْ أَمْوَاجِهِ
وَارْتَفَعَ كَالْجِبَالِ . وَجَمْلَةُ « دُونَ الثَّلَاقِ قُلُغَاتٍ » : جَمْلَةُ حَالِيَةٍ . وَ« مِنْ » : بَيَانِيَّةٌ . وَمَا يَبْدُو بِإِيَّانِ
لَمَّا قَبِلَهَا . وَاللَّجْ : مِثْلُ الْبَحْرِ ، وَتَرَدَّدَ أَمْوَاجُهُ . أَوْ عُرْضُهُ وَسَطُهُ . وَبَطْنُ الْجَبَةِ : أَوْ هِيَ وَاحِدَتُهُ .
وَاللَّجْ : الْبَحْرُ : مَعْلُومٌ لِحَالَتِهِ ، وَقَلَّطَمْتُ أَمْوَاجَهُ . وَبَحْرِيٌّ : وَاسِعٌ زَاغِرٌ ، عَظِيمٌ ، مُتَمَرِّجٌ .
وَالْأَخْضَرُ : الْبَحْرُ ، لِأَنَّ مَاءَهُ يُضْرِبُ إِلَى الْخَفَرَةِ مِنْ صَفَائِهِ . وَطَامٌ : اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ طَمَأَ الْبَحْرُ
(مِنْ بَابِ سَمَاءٍ وَوَي) : أَى اسْتَلَّ ، وَزَادَ ، وَارْتَفَعَ ، وَطَفَى .

تَمَلَّقَ لِلشَّاعِرِ مِنْ أَحْبَابِهِ فِي الدِّيَارِ اللَّبَنَانِيَّةِ الشَّامِيَّةِ ، وَاسْتَعْمَمَ بِهِمْ ، وَتَمْنَى لِقَائِهِمْ ، وَرَغِبَ فِي وَصَالِهِمْ
وَإِنْ حَالَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ حَوَائِلُ وَصَقَبَاتٍ ، مِنْهَا بَحْرٌ بَلَمَى يَنْشَاءُ مَوْجَ كَالْجِبَالِ . وَيَلَاظِظُ أَنَّ الشَّاعِرَ
اسْتَعْرَضَ فِي هَذَا الْبَيْتِ وَتَسْمَةَ الْآيَاتِ لِيُوصِفَ الْبَحْرَ وَالسَّفْنَ ، وَشَقَّاتِ الرِّخْلَةِ بَيْنَ مِصْرَ وَالشَّامِ .

صَائِلُ الْمَوْجِ كَالْفُحُولِ تَرَاعَى مِنْ هَيَّاجٍ ، وَتَرَفَعِي بِالْغَامِ (١٧)
 وَتَرَى السُّفْنَ كَالْجِبَالِ ، تَهَادَى خَافِقَاتِ الْبُسُودِ وَالْأَعْلَامِ (١٨)
 تَعْتَلِي تَارَةً ، وَتَهَيِّطُ أُخْرَى فِي فَضْلِهِ بَيْنَ السُّهْنِ وَالرَّغَامِ (١٩)
 هِيَ كَالدُّنْمِ جَامِحَاتٌ ، وَلَكِنْ لَيْسَ يُفْنَى جِمَاحُهَا بِلِجَامِ (٢٠)

(١٧) صائل (بالجر)؛ صفة لأجنس ، وهو البحر في البيت السابق . أو (بالرفع) : خبر لمبتدأ محذوف : أي هو صائل : اسم فاعل من صال (من ياب قال) : أي وثب ، وسطا . وقهر ، وغب . والمهج : ما علا من سطح الماء ، وتنايع . الواحدة موجة . والجمع أمواج . والفحول : جمع الفحل : وهو الذكر القوي من كل حيوان . ويراد به هنا : البعير . وترأى : أسلمه تراءى ، ثم حذف لإحدى التامنين تخفيفاً . وتراغت الإبل : تصابحت . ودفا البعير : صوت ، وضج ، وبيكب . والرغاء : صوت ذوات الخف من الحيوان . ومن : « تمليلية : أي لبيان العلة والسبب . وترعى : ترى ، وتكس ، وتكلف . أو تترى : أي يرى بعضها بعضاً . والغام (بضم الهمزة) : زيد أفواه الإبل . يصف تموج البحر ، واضطرابه ، وهيجانه . ويصور الحدير ، والتصميم ، والجلبة ، والنزيد يرتعى فوق أمواجه العالية الصائلة الهائجة المتلاطمة ، ويشبهها بالإبل إذا ثارت وهاجت ، فتجاوبت بالرغاء ، وكلفت بالغام . وهذا البيت تأكيد وتفصيل لمعنى الشطر الثاني من البيت السابق .

(١٨) تهادى : تمايل في سيرها ، وترفع . وأصله « تهادى » ، ثم حذف لإحدى التامنين تخفيفاً . يقال : تهادى تهادياً : أي مشى وحده مشياً غير قوي ، متأيلاً . وجاء تهادى بين الاثنين : أي مشى وهو يعتمد عليهما في مشيته . وخافقات : حال من فاعل : تهادى : جمع خافق وخافقة : اسم فاعل من خفقت الزاوية ونحوها : أي تحركت : واهتزت ، واضطربت . والبند : جمع البند (بوزن الفهد) : وهو السكّ الكبير (فارسي معرب) . والأعلام : الرايات . واحدها علم (بوزن جبل) . شبه السفن بالجبال في العظمة والضيخامة والهيكل العام . وأشار - إلى هيجان ذلك البحر وثورانه - بتفريق بينهما ، وترسمها في سيرها ، وتمايلها - مع ضخامتها - ذات العينين ، وذات الشبال . والآيات الآتية تنوز هذا المعنى وتفصله . ويلاحظ أن كلمة « تهادى » لا تنهض به هنا ، ولا تقوم بالتصوير الذي يريده الشاعر .

(١٩) السُّهْنُ : كوكب خفي من بنات نض النصرى . والرغام (يفتح الراء) : التراب . أو الرمل المخلط بالتراب . ويراد به هنا : قعر البحر .

يقول : إن السفن - على ضخامتها وقوتها - يتحكم فيها بحر مائج هائج ، وموج فائر ثائر ، يرفعها قارة إلى السماء ، وينحدر بها مرة أخرى إلى غور البحر . وهي مقالة مقبولة في مثل هذا المقام .

(٢٠) « هي » أي السفن . والدم : الخيل السود . جمع أدم ودماء . من الدمة (بضم فسكون) : وهي السود . ويهاجمات : عاتقات ، عاصيات : جمع جامح ، وهاجمة : اسم فاعل من -

كُلُّ أَرْجُوحَةٍ تَرَى الْقَوْمَ فِيهَا خُشَعًا بَيْنَ رُكْعٍ وَقِيَامٍ^(٢١)
لَا يُفَيِّقُونَ مِنْ دُورٍ : فَهَآؤِ لِيَكُنِّيهِ ، وَرَاعِفُ الْأَنْفِ دَاهِي^(٢٢)

= جميع الفرس (من باب خضع) جموعاً، وجماعاً : أى عتا عن أمر صاحبه أو راكمه، واستعصى عليه، وقلبه، وخرج من قيادته، وذهب به لا يشق. ومن الهياز : جمعت السفينة : أى تركت قصبها ؛ فلم يصطلحها ملاحوها. و« جماعت » خبر المبتدأ « هى ». ويشق : يكف، ويُسح. وبابه رى. والجماع (فى الأصل) : الحديدة فى فم الفرس، ثم سموها مع ما يتصل بها من الحكنتين، والذارين، والعنان : أى السير - جلفاً.

شبه تلك السفن فى ذلك البحر المسائل الموج بالهيل الجائعة. وقال : إذا استطاع الفارس أن يكبح جماع فرسه بالجماع، فإن الملاحين لا يستطيعون حيلة، ولا يمتثلون سيلاً لكبح جماع السفين إذا جمعت ؛ لأنها إما تضطرب باضطراب البحر، وتبدأ بهلولة. ولا قدرة للرّبان وأعرانه على تهدئة البحر إذا هاج.

(٢١) الأرجوحة : ما ترتجح براكها : أى تهتز، وتعمل، وتتحرك، وقد تكون خشبة أو شبيهها، تعلق بحبل، ويركها الصبيان. وقد تكون حيلة يشد طرفاه فى عارضة مرتفعة ثابتة، ويقعد فى وسطه الصبيان، واحداً بعد واحد، ويميلون به فىجى ويلهب، ويعلو ويسفل مملئاً براكها فى الهواء. وقد تكون فى أشكال وميثاق أخرى كثيرة منوعة، أساسها الانزياح، والتهلج، والتأيل، وسرعات الارتفاع والانخفاض، والذهاب، والإياب. ويراد بالأرجوحة هنا : السفينة يرضها، ويتخفها، ويميلها، ويثبت بها موج البحر، وهيجانه، واضطرابه، وحصف الرياح، واشتدادها، وتنازحها. وخشعاً : جميع خشع : اسم فاعل من خشع (من باب خضع) : أى تفلأ من ذلك، وسكن، ونضجع، واستكان، وخضع. ويراد بالخشوع هنا : الخوف. وركع : جمع راكم : اسم فاعل من ركع (من باب خضع) : أى انحنى، وطأطأ رأسه، وخضع، وتواضع. ومنه ركوع المصل : وهو انحنائه فى صلاته بعد القيام ؛ حتى تنال راحتاه وركبتيه ؛ أو حتى يطمئن ظهره. وقيام جمع قائم : اسم فاعل من قام (من باب صام) : أى وقف، وانصب، واحتدل ؛ ومنه قيام المصل : وهو خلاف الركوع والسجود.

يصف عنف اهتزاز هذه السفن بحصف الرياح وتنازحها، وموج البحر وهيجانه ؛ ولهذا يشد بركابها البرجل والخوف، وتحرك بحركاتها المتغيرة أجسامهم، كما يتحرك المصلون بين القيام والركوع.

(٢٢) لا يفيقون : لا يتيقنون. مضارع أفاق السكران من سكره. والناثم من نومه. والفاطر من غفلته. والمنشئ عليه من غشيقه : أى صم، ولثيته، واستيقظ، وعاد إلى طبيعته. والدوار (بضم الدال وفتحها) : الدوران يأخذ فى الرأس. ومنه دوار البحر : وهو ما يصيب راكبه من الغشقة والغفول، وفقدان الرشد، وضبط الفهم والحس والإدراك. وهلو : ساقط : اسم فاعل من هلى (كرى) : أى سقط من علو إلى سفلى : أى سقط من قيام : أى وقع بعد أن كان قائماً منتصباً. وليديه : تأكيد لمنى الحويان، أو الانهواء. ومن كلامهم فى الفعل على الخمم أو الدو : « البدين =

يَسْتَفِيضُونَ ، فَالْقُلُوبُ هَوَافٍ حَذَرَ الصَّوْتِ ، وَالْمَيْمَنُ مَوْكِي (٢٣)
 فِي وَعْثِهِ يَحْلِيهِ بَدْعُهُ لِحَالِ الْمُؤْمِنِ السَّلَامِ (٢٤)
 ذَاكَ بَحْرٌ يَلِيهِ بَرٌّ تَرَائِي قَبِيهِ خَوْصُ الْمُطِيِّ مِثْلُ النُّعَامِ (٢٥)

= والقم : أي يسقط اليمين والقم . هـ : هـ : اسم فاعل من يصف (من باب نصر وقطع) : أي خرج
 الدم من أنفه .. والاسم الزماني (بضم الزاء) : وهو خروج الدم من الأنف . أو هو الدم يخرج من
 الأنف . ودام : اسم فاعل من دى الجرح (من باب صدى) : دعى ، ودعى : أي خرج منه الدم ؛
 والمراد دلى الأنف ؛ فهو تفسير وتأكيده لعمى : زاحف الأنف ؛

يصف أثر حذار البحر الحاج في ركاب السفن المرجحة ؛ فيضهم يغلبه الدوار ، فيسقط من
 قهام . وبضمهم يرفع .

(٢٣) يستفيضون : يطلبون الفوئ ، والنجدة ، والإقامة ، والنصرة ، والنجاة ، والسلامة .
 وهواف : جمع هاف : اسم فاعل من هفا الفؤاد : أي خفق ، واضطرب . وسوام : جمع سامة :
 اسم فاعل من سما البحر : أي شتم ، وانفتح . حلم يطوف .. وهو البحر أو شخصه من أمارات
 طلبة الخوف ، وشدة القزع .

يشته الخوف ركاب السفن المرجحة في البحر الدائر ، ويقتضهم شبح الموت غرقاً ، فتعلق أظفارهم
 وتخشع أوصادهم ، ويستغيثون القريب العالقين . ووالعالمين : الضمير في البحر تدل من تدعيم إلا إياه . -
 (الآية رقم ٦٧ من سورة الإسراء) -

(٢٤) 'الوفاة' (بكسر اللام وبضمها) : الظرف يحصى فيه الشيء : أي يجمع ويحفظ . وبجمعه
 أوعية . ويراد بالوفاة هنا : السفينة . وهذا الخلد الإبل يحويها : ساقها ، وحشها حل السير بالهداء :
 وهو الفناء لها . والهداء : مصاب دعوت الله : أي ويحيوت منه الخير ، وأبهرت إليه ليكشف عن الضمير
 والشعر . والحلال : حطم القدر . ويتضمن يوسف الله تعالى : وفي القرآن الكريم : «تبارك اسم ربك
 ذي الجلال والإكرام» (الآية رقم ٢٨٠ من سورة الرحمن) . والمؤمنين : من أسماء الله تبارك وتعالى :
 ومعناه القريب ، والحافظ ، والمؤمن (من آمن من الخوف) ، والمؤمنين : والشاهد ، والمسيطر على كل
 شيء ، والظاهر على خلقه بأعالمهم وأرزاقهم وآجالهم . «والعالم» : والعالم (في وصف الله عز
 وجل) : هو الذي لا يخفى عليه شيء .. «إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ، ولا في السماء» . (الآية
 رقم ٥ من سورة آل عمران) .

شبه السفن بالإبل ، وقال : إن ركابها يحلونها بالهداء يصحبون به إلى المؤمنين للملم القدير ،
 ذي الجلال والإكرام . وهم بهذا الهداء يهابون الخوف والكرب والبلاء ، ويستغيثون الله تعالى ، الأسوة
 ويرجون منه السلامة والنجاة والمليحة .

(٢٥) يليه : يدنو منه ويقرب . وليراد يعصلي به ، ويتبعه من غير خاضع . وترائي : تتابع
 وتتوالى ، وتتتابع . وأصله : «تترائي» ثم حقت إحصاء التتابع تخفيفاً . «هفي» : أي في ذلك البر الوصي
 السويح . وبغير أخوص : بقلعة خوصاء . «والليل غوص» : أي يهربها صغيرة . ضيقة ، غائرة . (وفضه =

فَمَوَادِي بِمِصْرَ ثَاوٍ ، وَقَلْبِي فِي إِسَارِ الْهَوَى بِأَرْضِ الشَّامِ (٢٦)
أَخَذْتُ النَّفْسَ بِالْمَنَى ، وَهِيَ تَأْبَى وَخِطَاعُ الْمَنَى غِذَاكَ الْأَنَامِ (٢٧)

= من باب تعب . والمطى : المطايا : جمع مطية : وهي ما يمتطى : أي يركب من الثواب (لذا ذكر والملاطش) ؛ فالبحر مطية ، والنافقة مطية . والنام : جمع النامة . وهي مركبة من خلفة الطير وخلفة الجبل . وتشتهر بشدة العذو ، وسرعة الجرى . وتراعى غوص المطايا بركبانها في ذلك البركاننام : كناية من عظم واتساعه . وتباعد أطرافه ونواحيه .

يتدفق الشاعر لقاء أحيائه بأرض الشام ، ولكنه يرى سبيله إليهم جدّ صير ؛ فبينه وبينهم ذلك البحر العظيم المائل الحاجج الذي وصفه في تسمّة الأبيات السابقة ، وأشار إلى تموجّه واضطرابه ، وترجع السفن فيه بركبانها ، وانتقالهم منه إلى سفر آخر طويل شاقّ في برّ واسع فسيح ، تمتدّ الأطراف ، متباعد النواحي .

صور - في إسهاب - مشقّات الرحلة وعقباتها ، وصعوبات السفر وأخطاره ، وتوصّر الطريق وتصرّه . وهذه بهذا البيت والبيتين الآتيين الغرض الأساسي من هذه القصيدة ، وهو مدح أمير ألبان « شكيب أرسلان » .

(٢٦) سواي : شخصي وجنائي . وثاو : مقيم ، مستقر . ومصر : متعلق ؛ « ثاو » . والإسار : القيد : وهو سبر يقيد من الجمل ، ويقيد به الأسير ونحوه . والإسار أيضاً : مصدر أسره (من باب ضرب) : أي قيده . يقول : إن جنّاته مقيم بمصر ، ولكن فؤاده أسير الغرام بأرض الشام .

(٢٧) أخذت النفس (من باب قطع) : أخطتها ، وأغرّها ، وأطمعها ، وأمتتها . وظلّه خادعه خادعة وعدّاءاً . والمنى : الأمانى والآمال . وأحسّها منية . وهي : أي النفس . وتأبى : المراد تأبى الاعتداع ، وترفض الخديعة . وخداع المنى : أي الخداع بالمنى . أو الأمانى الخادعة . والآلام : الخلق والناس . ومعنى الشعر الأول : أنه يحاول أن يخون نفسه ، ويطمعها بالآمال ، ويعتجها بلقاء أحيائه ؛ ليخفف ما يساورها من الوجد ، ويوقّر لها شيئاً من الراحة والطمأنينة ورحاء القلب . ولكنها ترفض الخديعة ، وتأبى أن تتقرّ ؛ ولهذا لا تفتأ تضانى تبايح الصباية والشيق ، وصرق الوجد والغرام .

والشعر الثاني : تذييل جار مجرى المثال . ومعناه : أن اعتداع الناس بالأمل يحفزهم إلى العمل ، ويهيئ لهم شيئاً من راحة النفس ، ورحاء البال ، ويمدّهم بقيى السعى والكفاح في هذه الحياة ، ويخفف عنهم كثيراً من شقائهم ومتاعبها ؛ فكبايحها الناس بالنداء ، أي بالطعام والشراب يحبون بالأمانى والآمال ؛ وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

وليست حياة المرء إلا أمانياً إذا هي خضعت ، فالهياة على الإثر
ويقول الآخر :

أطل النفس بالآمال أوقها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

فَمَتْنِي يَسْمَحُ الزَّمَانُ ، فَالْقَى بِـ «شَكِيبِ» مَا فَاتَنِي مِنْ مَرَامٍ (٢٨)
 هُوَ خَلٌّ ، لَيْسَتْ مِنْهُ خِلَالًا عِيقَاتٍ ، كَالنَّوْرِ فِي الْأَكْثَامِ (٢٩)
 صَادِقُ الْوُدِّ ، لَا يَخِيسُ بِعَهْدٍ وَقَلِيلٌ فِي النَّاسِ رَغَى اللَّيَامِ (٣٠)

(٢٨) الاستطعام في أول هذا البيت : معناه التقى ؛ فهو يمتنى على الزمان أن يحقق له ما يرغب فيه ، ويحرص كل الحرص عليه ، وهو لقاء حبيبه وعلوه أمير البيان «شكيب أرسلان» . وفي صفحة ٣٩٩ ترجمة وجيزة له . وقد يكون الاستطعام هنا للاستبطاء ؛ بمعنى أنه يمدّ الزمان بطيئاً متولّياً ، ويستحبه ويستعمله ، لتحقيق أمله في لقاء حبيبه . وهذا هو البيت الأول من الأبيات الصريحة في المديح ، وهو الغرض الأصل الأساس من هذه القصيدة . ومصح (من باب نفع) : لا ، وسجل . أو انقاد بعد استصواب أو بذل ، وسخا ، وجاد . ومصح له بحاجة : يسرها له ، وقضاها . والمرام : المطلب ، والمراد .

يمنى أن يلاقيه الزمان ويسأله ؛ فيلقى بقاءه حبيبه «شكيب» ما يرويه في حضرته من غبطة وألفة ، وإزجاج وسعادة .

(٢٩) هو : أي مدح : الأمير شكيب أرسلان . والخل (بكسر الخاء وضمة هاء) : الصديق المختص . وجسمه أخلل . والخلل : الخصال . وأخلتها غلة (بوزن الخصلة ومناها) . ويراد بالخلل هنا : مناقب الممدوح ، وفضائله ، وخصاله الحميدة . وصيقات : صطرات ذكيات : جمع صيغة من صيغة من عبق به الطيب (من باب فرح) : أي ليق به ، وبظهور فيه رائحته . واليزور : الزمر . أو الأبيض منه . وأشدته نورة (بوزن زهرة) . وجسمه أنوار (بوزن أزهار) . والأكام : جمع كم (بكسر الكاف ومشددة الميم) : وهو غطاء النور : أي الغلاف الذي يحيط بالزهرة ، فيسترها ، ثم ينشق عنها . والشرط الثاني تخصيص وتحديد للخلل ، وتقويه بها ؛ فخلل الممدوح فضائل ، وعامد ومكررات ، بها عبق الطيب ، ولها محاسن الأزهار .

جمل الممدوح في عداد أخلاله وأصفياه وخصاله ، ونوره بما أفاده من محامده وفضائله وزياده .

(٣٠) الود (بتثنية الواو) : المودة والهيبة . وشاس بالمهد (من باب باع) : نقشه ، ونكته ، وشانه ، وطرد به . والمهد : الموثق ، والوفاء ، والضيان ، واللمة ، والأمان ، والمودة . والليام : المهد ، والكفالة ، والحيرة ، والحق . وجسمه أذنة . وروى اللمام : حفظه ، وصيافته ، والوفاء به . مصدر رعاه رعا . في هذا البيت تفصيل لبعض غلال الممدوح المنوره بها في البيت السابق . والشرط الثاني تذييل جاز مجرى المثل ، مؤكداً لمعى للشرط الأول ؛ فالممدوح من قليل الناس الذين يصدقون الود ، ويوفون بالمهد ، ويعينون الأذنة والحمرات ، والحقائق ، والمواثيق حقّ رعايتها .

جَمَعْنَا الْآدَابُ قَبْلَ التَّلَاقِ بِنَسِيمِ الْأَرْوَاحِ ، لَا الْأَجْسَامِ (٣١)
وَبَلَّغْنَا بِالْوُدِّ مَالَمَ يَنْلُهُ بِحَيَاةِ الْقُسْرَى ذُو الْأَرْحَامِ (٣٢)
فَلَيْتَ لَمْ نَكُنْ بِأَرْضٍ ، فَإِنَّا لَا تَصَالِ الْهَوَى بِدَارِ مُقَامِ (٣٣)

(٣١) الآداب : جمع الأدب : وهو البليغ الجميل من النظم والنثر . والباروى وشكيب كلاهما شاعر ، فائز ، أديب ، فاه . وقد أنفت بين قلبيهما صناعة الشعر ، وبزواله الأدب ، وجمعهما على الوداد والتحاب قبل أن يتلاقيا ويتراميا . ونسيم الأرواح : قوتها . من قولهم : « وإن فلانا ليلق انسيم » : إذا كان باق القوة والصلابة . ونسيم الأرواح : متعلق بـ « جمع » : أى جمعتنا الآداب بنسيم الأرواح قبل أن تترامى وتلتق أجسامنا ، فالتلافى التفرس ، ويتوافق الأرواح تفرين الاشتراك فى صناعة الأدب ، ونظم الشعر . ويضاف إلى هذا أن هذين الشاعرين الأدبيين المختصين بمدحهما على العهد قبل التلاقى والتراعى

ينتو بالتوافق والاختلاف الروحى القوي الذى أوثق الروابط والصلات ، وقوى الأواصر والعلاقات بينه وبين غلبه وصفه : أمير البيان « شكيب أرسلان » . ويقول : إن نسب الأدب جمع بين روحهما قبل أن يتلاقى جسمهما .

(٣٢) فى الأصل المخلوط الذى بين أيدينا : « بحيات القربى » (بالهاء المفتوحة) . وهو تحريف وضطأ لملاى من الناسخ . ولو قال : « بصلات القربى » لكان أوضح وأليق . والقربى : القرابة فى الرسم . وذو الأرحام : أصحاب القرابات ، كالإخوة ، وأولاد الأعمام . جمع رسم (يوزن ككف) : وهى فى الأصل : مستودع الحنين فى أحشاء الحبل : أى بيت منبت الولد ، وموطن تكوينه فى بطن أمه . ثم أصبحت قرابة . أو أصلها وأسبابها ، لأن الأقرباء يفرجون من رحم واحدة . وسحاة القربى : الحياة القائمة على قرابة الرسم و « ذوو الأرحام » فاعل « ينال » .

يقول : إن المودة الصادقة ، والهبة الخالصة جعلتهما إلفين متكافئين ، تجسمهما صلات وأواصر أقوى وأمتن من صلات ذوى الأرحام ، فقد تكون صلة الأدب أوثق من صلة القرابة والنسب . وقد تفوق صداقة الصديق أخوة الأخ الشقيق . وفى المثل : « وبـ صديق خير من شقيق » .

(٣٣) اللام فى أول هذا البيت : لام الابتداء : أى إلى يبدأ بها الكلام . وفائدتها تركيد مضيق الجملية بعدها ، وتخليص المضارع الحال ، أى الزمن الغاضر . ولئن لم تكن بأرض : أى لئن لم نجتمعنا الآن أرض واحدة ، أى بلد واحد ، فإننا . . . ، إذ كان الباروى - حينها نظم هذه القصيدة - مقيماً بمصر . وكان صديقه ، وأخوه الروسى « شكيب » مقيماً ببلتان . وكان لبنان يستند من أراضى الشام . واللام فى أول البشتر الثانى تعليلية : أى فإننا بسبب اتصال الهوى ، ومن أجل توثيق المحبة والمودة بيننا - بدار مقام . واتصال الهوى : وثيقة أسباب المحبة والمودة ، ودوامها بينهما . ودار مقام : أى بدار واحدة من دور الإقامة والاستقرار والاطمئنان : صدمى من أقام

وَأَتَّبِلَافُ النَّفُوسِ أَصْدَقُ عَهْدًا مِنْ لِقَاؤِ لَمْ يَقْتَرِنَ بِدَوَامٍ (٣٤)
أَلْمَى لَهُ بَدِيهَةً رَأَى نُورَكَ الْقَيْبِ مِنْ وَرَاءِ لُثَامٍ (٣٥)

— بالمكان إقامة : أى نزل به ، واستقر فيه ، ولم يهاجره .

فرمى الديار بين الباروى وهدسه « شكيب » ؛ إذ كان الأول مقوماً بمصر ، والثاني يقيم بالشام ، ولكن الحب والود والوفاء جمع روحهما ، وخفف أثر هذا الاقتران الجفائي ، وجعلهما كالملتصقين بشخصهما في دار واحدة من دور الإقامة والاستقرار . ويبدو أن الاتصال أو التلاقى الشخصى لم يكن ميسراً لهما ؛ ولهذا أظن الشاعر في بيان بعد الشقة ؛ وشطوط الدار ، وصعوبة المزار . وكره هذا المعنى في الأبيات التي افتتح بها هذه القصيدة ، وساقها مساق الغزل ، أى عرضها في صورة النسيب ، أو التشبيب ، وهي في حقيقتها وجوهرها الحب الصادق ، والحب الخالص ، والوفاء والشرق والحزن إلى صديقه « شكيب » . كما أظن في بيان قوة الاتصال الروسى ، وأنه يفوق الاتصال الجسائى ، ويفضله ، ويعلوه . وفي البيت الآتى تكرار وتأكيد وتميز لمعنى هذا الاتصال وقوته وصداقه وقوته وتفوقه .

(٣٤) اتلاف النفوس : توافقها ، والتسامح ، واجتماعها على الآتية والهجبة . والمهد : الوفاء ، والموتى ، والمودة . وفي الحديث : « إن كرم العهد من الإيمان » . وكرم العهد : رعاية المودة . ويراد باللقاء في الشطر الثاني : تلاقى الأشخاص والأجسام . وهو بطبيعته مؤقت غير دائم . ولا ريب أن اتلاف النفوس متصف بالصدق ، مطبوع على اليد ، مقرون بالدوام والبقاء . أما تلاقى الأشخاص والأجساد المهد من اتلاف النفوس والأرواح ، فإنه قليل القناء ، سريع الفناء . ويلاحظ أن الشاعر أجرى هذا البيت مجرى الحكم والأمثال . وأكد به البيت السابق . وهو أن نفسه مضادة الاقتران الجفائي ، وتمسك التلاقى الشخصى ، وتباعد الديار ، وصعوبة المزار .

ولمضى : أن تمازج الأرواح وتوافقها ، والتسامح ، واجتماعها على الآتية والمودة غير وأبقى وأرق وأصدق عهداً من أن يتلاقى الأشخاص تلاحياً حاراً محدوداً مؤقتاً ، لا يقاء له ، ولا دوام . وفي الحق أن مودة القلوب والأرواح هي المودة الصادقة الباقية ، على الرغم من اقتران الأشخاص ، وتباعد الأجسام . وقد يكون المعنى : أن ربط تفسير المودة وصدق العهد مع تباعدهما غير وأبقى من اجتماعهما على صلة من اليد ضعيفة مؤقتة لا تدوم .

(٣٥) ألقى : خبر ليجتل محلوف . والتقدير : هو : أى الملعوج ألقى : أى ذكرى ، متحدث النفس ، صادق الفراسة . والبينة : السرعة ، والمباينة . وسداد الرأى عند المفاجأة . وبارئ : التدبير الشديد الصائب . وبديهة الرأى : الرأى المبتدئة ، الذى يلقيه إليك ، ويهلك به في سرعة وإصابة ، وبلا تحيف . أو الرأى البديع الرائق المحبب . من قولهم : « لفلان بدائه في الكلام » : أى بدائع وصغائب . وقيل « فكره » : ضميم . والثناء : ما يعلل الألف والنغم من ثواب أو ثوب . ويراد بالثناء —

وَقَرِيضٌ كَمَا وَفَّتْ تَسَمَّتْ بِضَمِيرِ الْأَزْهَارِ إِسْرَ الْغَمَامِ (٣٧)
هَزَنِي شِعْرُهُ ، فَلَقِمْطَ مَنِي فِكْرُهُ كَانَ حَطَلًا فِي الْغَمَامِ (٣٨)

هذا : الحجاب والستار . ومع من وراء الغمام : تأكيد لمن الغيب ، لأن الغيب بطبيعته محجوب عن مستور .

قوة بالمعنى المنعوج ، وتوقد ذهنه ، وصدق فراسته ، وبداعة رأيه ، وسرعة تفكيره ، وحملة تدبيره ، وهذا ونحوه يستطيع أن يكشف الحجب ، ويخترق بصفه الأستار ، ويدرك ما لا يدركه غيره من الغيوب والأسرار .

(٣٦) القرقيص : الشعر . وهو مطوف على « بنية » في البيت السابق . ورش به (من باب وصى) : سقى به ، ونم عليه . والمراد بالرش أو الرشاية هنا : النشر ، والإذاعة . والتسبات : جمع التسمية (بوزن القصبة) : وهي الريح البينة الطيبة اللطيفة ، لا تترك شجرة ، ولا تمسئ أثرًا . ومثلها التسم . أو هي جمع نسمة (بفتح فسكون) : اسم مرة من نسعت الريح (من باب ضرب) : أي أثلت لطيفة ، لينة ، طيبة . ويراد بضمير الأزهار : ما تضمه وتغويه ، أي ما يكون كاسمًا فيها من ريحها ، وروائحها الطرية الذكية . وجاء على إثره : أو في إثره : أي في عقبه . وكان هذا إثر ذلك : أي بعده . والغمام : السحاب . ويراد به المطر . الواسعة غمامة (بوزن سحابة) .

شبه شعر المنعوج ربما الأزهار والرياحين ، تحلها الرياح البينة الطيبة اللطيفة ، وتشرها شب المطر ، في صفاء الجو ونقاؤه ، وهدوء الطبيعة وروائها ، فهو شعر ذكي "نق" ، طهر حق ، ينشئ النفوس ، ويحثل القلوب ، ويرق الأذهان ، ويطرب الأذان . ولا مير البيان « شكيب أربلان » ديوان شعر . وقد رأى البارودي بقصيدة مهمة ، عنوانها : « النعم للماضي في رثاء محمد سامي » . وعدد أبياتها خمسة وستون بيتًا . ومثلها :

يا ناظرًا أليًا تبيكان فما ؟ أهكذا عهدنا أن نحفظ الذما ؟

لو صار كل سواد منكسا يبقا على الصديق لما أنصفناه ، لما

ونحنها :

فأذهب عليك غيمات الكهين ساء همي بتركك دمع المزن منسجا

هانت بمصرحك الأوزاء أجمعها ظلي يمزج من رزه ولو عظما

توفي البارودي في شوال سنة ١٣٢٢ هـ الموافق ديسمبر سنة ١٩٠٤ م

(٣٧) هزى شعره : أطربني ، ورائقي ، وأعجبنى ، وحرك مشاعري . والفكرة : إعمال الخاطر في الأمر . والصورة الذهنية لأمر ما . والفكرة أيضًا : الفكر : وهو إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول . وما يعطى بالقلب من المبادئ . ويرد الخاطر بالتأمل والتدبر لطلب المبادئ . ولك في هذا الأمر فكر : أي نظر وروية .

سُئِلَهَا الْقَوْلُ بَعْدَ لَأَيِّ ، فَبَصَّتْ بِبَيْسِيرٍ لَمْ يَرَوْ عَوْدَ ثَمَامٍ (٣٨)
فَارْضَ مِنِّي بِمَا تَيَسَّرَ مِنْهَا رَبُّ تَمْدِيدِهِ غَنَى عَنْ جِمَامٍ (٣٩)
وَلَوْ أَنِّي أَرَدْتُ شَرْحَ وَدَادِي وَاشْتِيَاقِي - لَضَاقَ وَسْعُ الْكَلَامِ (٤٠)

= يقول : إن شمر المدوح ، وما نظمه في إطرالي هنّ مشاعري ، وسرك وجداني ، وأثار إعجابي ، فأيقظ مني فكرة كانت قائمة في ذهني . ولعله يريد بها تلك التوبة الفكرية التي أوجت إليه هذه الأبيات القليلة التي شكر بها المدوح ، وأطراه ، وأشاد بشعره ، وأحسن الثناء عليه . ومدتها ثمانية عشر بيتاً من خمسة وأربعين بيتاً ، هي عدد أبيات هذه القصيدة . ومعنى هذا : أن الفرض الأصل الأساسي الذي أنتجته تلك الفكرة لم يتجاوز الثلث إلا قليلاً ، وإن كانت الأغراض الأخرى قد مهدت له ، وغمشت . والبيت الآن يرجع هذا المعنى ، ويوضحه .

(٣٨) سئِلَهَا القول : سمت الفكرة القول : أي أردته منها ، وكلفتها إياه ، وأزيتها به . وبعد لأي : أي بعد جهد ومشقة . وبصّت : وضعت ، ونصحت . والمراد أنتجت إنتاجاً قليلاً شيئاً . من قولهم : « بسّ الحجر » : أي تشع منه الماء ، ورشح ، ونفض ، وسال قليلاً قليلاً ، شبه الرشح . وبصّت عينه : أي دامت قليلاً ، وبيسير : بقليل شيئاً . وهو تكرار وتأكيد للمعنى « بصّت » ؛ لأن الأبيض لا يكون إلا بالقليل اليسير . وأرواه يرويه إرواه : سقاء ، وأشبهه ، وأزال سلطه . وإثام (بضم الثاء) : نبت ضعيف ، لا يطول . أو عشب من القصبيلة النجيلية . فروعه مزدسمة متجمعة ، ومنه الثمام السنبلي . ويسمى اللخن في السودان . وأحدها ثمامة . وبه يضرب المثل في القلة والضعف . ويراد بمدح الثمام : الفرع ، أو الفصن ، أو الثامة الواحدة ، على قلتها وضعفها ، وقلة ما يروىها من الماء .

يقول : إنه بذل جهداً ، وعانى مشقة ، حتى أيقظ فكرته من سباتها ، وأعدّها للإنتاج . ولما أرادها حل القول لم تسمح إلا بالتأفف اليسير ، القليل الضئيل الذي لا يروى غلة ، ولا يسدّ خلّة . والفرض التنويه بالمدوح ، وتعليل شأنه ، وبيان ما يستأمله من الإفاضة في المديح ، والإطناط في حسن الثناء عليه .

(٣٩) منها : أي من الفكرة : أي من الشعر القليل الذي أنتجته فكرتي . والممد (يفتح فسكون) : الماء القليل الذي ليس له مدد . والجمام : الكثير المجتمع من كل شيء . وجمام الماء : معظمه ، وكثرته ، ومجمعه . والشطر الثاني لتبديل جاز مجرى المثل . وصلته بالشطر الأول أن اليسير القليل الذي بصّت به فكرة الشاعر ، قد يغني عن الكثير الزفير الذي لم يتيسر له ، ولهذا طلب إلى المدوح أن يرضى به ، ويقبل طرده .

(٤٠) الوجع (بضم فسكون) : الساقة ، والقوة ، والجلدة ، والجهد ، والاستطاعة . وسّع الكلام : مجاله وقطاعه .

في البيت السابق رجاء من مدحوه أن يرضى بالقليل اليسير الذي نظمه في مدحه ، وشكّره ، والتنويه =

أَنَا أَهْوَاكَ فِطْرَةً ، لَيْسَ فِيهَا مِنْ مَسَاغٍ لِلنَّقْصِ وَالْإِبْرَامِ^(٤١)
وَلِذَا الْحُبُّ لَمْ يَكُنْ ذَا دَوَاعٍ . كَانَ أَرْسَى قَوَاعِدًا مِنْ شَمَامِ^(٤٢)

بشعره ، مستلوكاً بأن قريحته لم تبش إلا بهذا القليل اليسير . وفي هذا البيت تفصيل لاحذاره ، وزيادة في مناه ، فإنه لو انطاعت له فكرته وقريحته ، واستطاع الإطناب والإسهاب ، والإقاشة والإنسياب لضاق نطاق الكلام ، وقصر التعبير عن بيان ما يضائيه من الحنين إلى الممدوح ، وما يضمرة له من الرذ الصادق ، والحب الخالص ، وما يستأله من جميل الثناء ، ويلبغ الإطراء .

(٤١) أهواك : أحبك . والخطاب لصديقه ويُدْرَسُه « شكيب » . والفطرة : الخلقة التي يكون عليها كل موجود أول خلقه . والفطرة : الطبيعة السليمة لم تُشَبَّ بِمِيب . وفطرة الإنسان : صفته الطبيعية وأهواك فطرة : أي أحبك حباً فطرياً طبيعياً ، خالصاً نقياً ، لا يميجه التكلف والرياء ، ولا يشوبه التصنع والمداواة . وليس فيها : ليس في الفطرة . ومن « في أول الشطر الثاني زائدة قبل اسم « ليس » المؤشِّر . وهي تزداد كثيراً في مثل هذا التركيب . والغرض من زيادتها تأكيد الكلام . وتقوية مضمون الجملة . ويراد بالمساغ هنا : المدخل ، والمنفذ ، والمجال . وهو اسم مكان من ساغ الشيء (من باب قال) : أي جاز فعله وأبج . وساغ الشراب والطعام : أي سهل اتخاذه ومخله في الخلق . أو هو « مساغ » (بضم الميم) : مصدر ميمي بمعنى الإسافة : مصدر أساغه : أي جعله سائفاً . ونقص : مصدر نقص الشيء (من باب قتل) : أي أسفه بعد إحكامه . ونقص البناء : هسه . ونقص الجبل أو الفزل : حلّ طاقاته . ونقص ما أبرمه غيره : أي أبطله . والإبرام : ضد النقض : مصدر أبرم الأمر : أي أحكمه . وأبرم الجبل : أي قتله من طلقين . وأبرم الثوب : أي قتل غزله طلقين . ويراد بالشطر الثاني : أن لفطرة ثابتة محكمة ، لا تبدل فيها ، ولا تغير .

ولمضى : أنه يجب هذا الصديق حباً خالصاً نقياً ، صادقاً قوياً ، مركزاً في فطرته التي لا تبدل فيها ، ولا تغير .

(٤٢) اللوامي : الأسباب ، والدوافع . جمع دافع ، أو داعية . وسب ذو دواع : أي حب تكلف ، غير خالص . وإنما يقوم على الأسباب والدوافع والمصالح القريبة التي تحمل الناس على تكلفه وتصنعه . وأرسى : أثبت ، وأرسخ : اسم تفصيل من رسا الشيء (من باب عدا وسبا) : أي ثبت ، ورسخ . والقوقاع : جمع قواعة : هي من البناء ونحو أصله وأساسه . وشام (بوزن سحاب) : جبل . ولمضى : أن الحب إذا كان خالصاً نقياً ، مبراً من شوائب التناق والرياء ، أو اللوامي الموقوتة ، والمصالح القريبة التي تحمل الناس على تكلفه وتصنعه — كان أقوى وأدوم ، وأرسخ وأثبت من المجال الراسيات . ويلاحظ أن هذا البيت يجري مجرى الحكم والأمثال . وصلته بالذي قبله واضحة وثيقة ؛ فإن الحب المبرد من اللوامي هو الحب الفطري للقرى للقرى .

وهذا قريب من قول أمير الشعراء أحمد شوقي :

وإذا الحب كان عقد وداد لم يجل منه من . وفيه « وتجنّى

فَتَقَبَّلَ شُكْرِي عَلَى حُسْنِ وَدِّ رُحْتُ مِنْهُ مُقَلِّدًا بِوَسَامٍ (٤٣)
 أَتَبَاهِي بِهِ إِذَا كَانَ غَيْرِي يَتَبَاهِي بِزِينَةِ الْإِنْعَامِ (٤٤)
 دُمْتُ فِي نِعْمَةٍ تَرِفُ حُلَاهَا فَوْقَ فَرْعٍ مِنْ طَيْبٍ أَصْلِكَ نَائِي (٤٥)

(٤٣) يريد : « حسن الود » : المحبة والمودة الخالصة التي ظهرت فيما نشرته بعض الصحف أو المجلات من شعر « شكيب » أو مقالاته الصحفية التي أطرى بها « البارودي » ، وأشاد فيها بأدبه وشعره . ورحت : حدثت ، أو صرت . من الرواح : وهو السير في المشي . وفده الغفر : وهو السير في الصباح . ويستعملان لطلق الغياب أو العيادة ، أو المضي ، أو الانطلاق ، أو المسير في كل وقت من ليل أو نهار . و « منه » : أي من حسن الود : أي بسببه ، ومن أجله ، ف « من » هنا للتعليل . وقد تكون بمنها الأصل : وهو ابتداء الفاية : أي رحت مُقَلِّدًا من الود بوسام ؛ فالود هو الذي قلده ذلك الوسام الرفيع . وقلده التلاوة : جعلها في عنقه . وقلده نعمة : أعطاه عطية . أو أسدى إليه معروفًا . والوسام (في الأصل) : السمة ، أو العلامة ، وما يؤرم به الحيوان من ضروب الصور والعلامات التي تُصْلَحُ ، وتميز من غيره . ويطلق الآن على حلية أو نحوها ، يمنحها رئيس الدولة من امتياز بعمل يستحق من أجله التمجيد والتكريم . ويطلق الوسام عادة على صدر من أحسن عملًا ؛ مكافأة له عليه .

أحب « شكيب » « البارودي » ، وأعجب به ، وتودد إليه ؛ فتود في بعض شعره ، أو بعض مقالاته الصحفية بشاعريته ومحامده ؛ فشكر له البارودي هذا الوداد ، وهذا التنويه ، وأفتخر به ، وقال : إنه يزيتة وزهوه ، كما يزهر الوسام من تقلده . والبيت الآتي يؤكد هذا المعنى ويمزجه .

(٤٤) أتباهي : أزهر ، وأفتخر . وبه : أي بالوسام المكثي به في البيت السابق عن حسن ود المملوح ، وإشادته بشعر البارودي وأدبه وبتألقه ومحامده .

يقول : إذا كان غيري يفخر وزدان بما أنعم عليه من أرومة وقلائد ونحوها ، فإنني أفخر وأزدان بـ « هذا المملوح وأخوته وصداقته » ، وما أولاني إياه من ثقة وإطراء .

(٤٥) « دمت في نعمة » : جملة دعائية . وجملة « ترف حلاها ... » : نعت لـ « نعمة » . والنعمة (بكسر النون) : الحالة الحسنة التي يستلها الإنسان ، والإنعام ، والخفض ، واللذة ، والتخصيب والرفاهة والمسرّة . واليد البيضاء الصالحة ، وما أنعم به عليك من رزق ومال وغيره . والنعمة (بفتح النون) : التتم ، والتمتع ، والترفيه ، وطيب العيش ، وسنّه ، وليته ، ورغده ، وفخارته ، واتساعه . أو هما لهذه المعاني كلها . أو النعمة (بالكسر) : الإنعام . و (بالفتح) : التتمّ . و (بالضم) : المسرة . ورفت عليه النعمة ، أو السعادة : فسّفت ، وسبّغت ، ونمت ، وزكت ، وكثرت ، واتسعت . ورف الثبات ونحوه : اهتزّ من الرّيح والنفثارة . ورف البرق وغيره : برق ، ولمع ، وقلاقل ، وألح (بكسر الحاء وضمة) : جمع حلية (بكسر الحاء) : وهي الزينة : أي ما يتزين به من مصوغ المدينيات أو الحجارة الكريمة النفيسة . وحل النعمة : نفسانها ، وهجتها . وطاب الشيء : طيب طيبًا : زكا ، =

وطهر ، وجاد ، وحسن . والطيب : الأفضل من كل شيء . وطيب أصله : أصله الزكيّ الكريم ، المتحلّي بالفضائل ، المتحلّي من الرذائل و « نام » : صفة لا « فرح » : اسم فاعل من نما الشيء (من باهى سماءه) : نى كثر ، وزاد ، وارتفع .
دعا الشاعر لمحبسه في ختام هذه القصيدة بدوام ما ينم به من الرفاهة ، وفضارة العيش ، ورغاء أقبال ، وحسن الحال . وأشاد - مع الدعاء - بقرود المندوح وأصوله ؛ فالأصول طيبة زكية ، شريفة كريمة . والفروع مثلها زاكية ناصية في شرف ومجد ، ومزة وعلاء .

تخليق وحيز *

أشرنا في أثناء الشرح إلى الأغراض التي تنقل فيها الشاعر : فالثلث الأول - وهو خمسة عشر بيتاً - غزل ، أو تشبيب ، أو نسيب مذهب رقيق ، هو في جوهره وحقيقته وهذه الحب الصادق ، والود الخالص ، والوفاء التام ، والشرق والخيرين إلى لقاء ذلك الصديق الكريم بأرض الشام :

(١) حى ملى الهوى بواضى الشام وادع باسمى تهبك ورق الحمام

(٢) من يرفنى بطول ستنى بين تلك السهول والأكام

(٣) فلقد طالما هتف بشدهى وثقاتن ما حلا من هيامى

(٤) ولكم سررت كالنسيم هيلاً أتقرى ملاصب الآرام

(٥) في شمار من الضنى نسجه بخيوط السموع أهدى الفرام

ومن المعاني المألوفة في مثل هذا المقام أن يحسّل الحب نسيم الصبا سلامه وتحيته لمن تيسمه وتبهمه ، ويرجو أن يرجى وده ، ويحفظ عهده ، ويصله برسالة أو كتاب :

(١٢) يا نسيم الصبا فديتك بلسغ أهل ذاك الحمى هير سلاى

(١٣) وانقص عنى حق الزهارة وأذكر فرط وجلى بهم ، وطول سقامى

(١٤) أنا وادع منهم بذكره وده أو كتاب ، إن لم أفر بسلام

ويبدو أن اللقاء الشخصى كان صعباً غير ميسر ، ولهذا انتقل الشاعر من النزول إلى وصف البحر بحبسه من معوقات اللقاء . واستطرد لوصف السفن ، واضطرابها براكبيها ، وما يساورهم من التلق والفرح في ذلك البحر العظيم المائج المائج ، المضطرب التائر . كل هذا في تسعة أبيات :

(١٦) أجتاهم ، وودون التلاق تغلات من لجّ أخضر طالى

(١٧) صائل الموج كالسهول تراعى من هياج ، وترقى بالقام

(١٨) وترى السفن كالجبال تهادى غلقتات البسود والأعلام

* يشمل التخليق هنا على التماثيل والتلخيص ، والتعريض .

(١٩) تمثل تارة ، وتبسط أخرى
 (٢٠) هي كالدلم جملحات ولكن
 (٢١) كل أربوسة ترى القوم فيها
 (٢٢) لا يفيقون من دوار : فهو
 (٢٣) يستغيثون ، فالقلوب هواف
 (٢٤) في ولاء يحول بهاء
 في قضاء بين السما والارض
 ليس يثنى جماعها بلجم
 عشماً ، بين ركع وقيام
 ليديه ، وراعت الأنف داه
 حذر الموت ، واليون سواي
 بللال المهيمس العلام
 وفي البيت الخامس والمقرين أشار إلى مايل البحر من برّ صبح فسبح :

(٢٥) ذاك بحر يليه برّ ترى فيه غوص المكي مثل الشام
 ولا ريب أن البحر والبرّ كانا أمّ الفواصل الطبيعية التي تحول بينه وبين ذلك الحبيب في ذلك الزمان .

وفي بيتين بعد هذا قال : إن شخصه بمصر وقلبه في إسمار الهوى بأرض الشام . وعمل نفسه بأمل اللقاء ؛ ليخفف ضها بعض ما تكابده وتقاسيه من حرق الوجد ، وتياريح الشوق ، وحرارة الصباة والفرام .

ونمها النقل إلى الغرض الأصل الأساسي ، أي إلى صريح المديح في ثمانية عشر بيتاً ، هي هتمام هذه القصيدة التي امتازت برقة الهوى ، وصدق العاطفة ، وعذوبة اللفظ ، وإحكام النسيج ، وروعة النظم ، وجمال الموسيقى ، وبلاغة القول ، وسحر البيان . وقد ضمن المديح كثيراً من المعاني والتعابير الرائقة الفالقة ، الصادقة القوية .

(٢١) جستنا الآداب قبل التلاق
 بنسيم الأرواح ، لا الأجسام
 (٢٢) وبلغنا بالوجد ما لم يتله
 بحياة القوي ثور الأرقام
 (٢٣) فلئن لم تكن بأرض فافا
 لا تصال الهوى يداد مقام
 ولشاد بكثير من عماد المديح ونتاجه وزياده ، وشكر له ، وأحسن الثناء عليه :

(٢٥) ألمى ، له بديهة رأى
 كملك النيب من وده لنام
 (٢٦) وقريش كما وشت نصبات
 بفسير الأضمار إثر القسام
 (٢٧) فتقبل شكرى حل حسن ود
 رحمت منه مقلداً يوصام

وأجاد الاعتذار من إقلاقه ، وفضوب معيه ، وجمود قريحته ، وضيق فكرته :

(٢٩) فارض من بما تيسر منها
 ربة تمد فيه غنى عن جمام

(٤٠) ولو أني أدبت شرح ودادي
 واشتياق لفضاك وسع الكلام

ولم يفته أن يسوق بعض أبياته مساق الحكمة أو للكل :

(٧) والهرى يحصل الخلج يقيناً ويشتر الحلیم بالأوهام

(٣٤) واكتلاف النفوس أصدق عهداً من لقاء لم يقترن بدوام

(٤٢) وإذا الحب لم يكن ذا دواع كان أرسى قواعداً من شام

وقد يأتي الشعر الثاني من البيت تليلاً جاريًا مجرى الملل :

(٢٧) وضطاح المني غذاء الأنعام

(٣٠) وقليل في الناس رضى اللام

وفي القضية إلى هذا كله ما يتم على قلبي الشاعر، وصحة حقيقته، وقوة إيمانه، وفرضه في الشدائد

إلى الله ، ونشوه بلال الله :

(٢٤) في وعاء يحضونه بدعام لجلال المهيمين الملام

أَبْيَاتٌ ، وَرِسَالَةٌ

وَكَانَ الْأَمِيرُ «شَكِيبُ» أَرْسَلَنَ ، ذَكَرَ أَبْيَاتًا لِصَاحِبِ هَذَا الدِّيَّوَانِ
فِي بَعْضِ مَقَالَتِهِ الْأَدَبِيَّةِ الَّتِي كَانَ يُرَاسِلُ بِهَا جَرِيدَةَ الْأَهْرَامِ ، وَأَتْنَى
عَلَى قَائِلِيهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُصْرَحَ بِاسْمِهِ

ثُمَّ أَوْرَدَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَبْيَاتًا فِي مَقَالَةِ أُخْرَى ، نَوَّهَ فِيهَا بِاسْمِهِ ، فَقَالَ
بَشْكْرُهُ عَلَى ذَلِكَ . وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ بِهَذِهِ الْأَبْيَاتِ ، وَبِالرِّسَالَةِ بَعْدَهَا :

أَتَسْنَدُ بِذِكْرِي بِأَدْنَى وَمُعَقَّبًا وَأَمْسَكْتُ لَمْ أَهْمِسْ ، وَلَمْ أَتَكَلَّمْ^(١)
وَمَا ذَاكَ رَحْنًا بِالْوَدَادِ عَلَى أَمْرِي حَبَانِي بِهِ ، لَكِنْ تَهَيَّبْتُ مَقْدَمِي^(٢)

« في صفحة ٣٩٩ ترجمة وبجيزة الأمير البيان » شكيب أرسلان » .

(١) الذكر: الصيت ، والثناء ، والشرف ، والعلاء . وأعاد بذكره : رفته بحسن الثناء عليه .
ويادئاً : اسم فاعل من بدأ الشيء ، وبدأ به : أى افتتحمه . وقدمه . أو فعله قبل غيره ، وفعله .
ومعقَّباً : اسم فاعل من عقبه تعقيباً : أى خلفه ، أو جاء على أثره . والمعقَّب : خلاف البادئ . وأمسك
عن الأمر : كف عنه ، وامتنع . وأمسك عن الكلام : سكت . وهمس إلىّ بجديته (من باب ضرب) :
كلّمني به همساً : أى كلاماً خفياً ؛ فالهمس : كلّ خلقٍ من كلام ونحوه . وضده الجهر .

ومعنى الشطر الثاني : أنه صمت وسكت سكوتاً تاماً ؛ فلم يجهر بكلامه ، ولم يخافت به . والبيت
الآتى يبين سبب هذا الصمت الموزن .

(٢) « ذاك » : إشارة إلى إمساكه عن الكلام ، وصمته وسكوته . والقنن (بكسر القاف)
وفصها : البثل . (وفعله كتب وضرب) . وسباه كذا . وسباه بكذا : أعطاه إياه بلا عوض
أو جزاء . وتوبيخه : مبالغة في هابه : أى أجلسه ، وضطّعه ، أو حذره ، وخافه ، واتقاء . ومقدم
(يفتح فسكون ، أو يضم فسكون) : مصدر ميمي من قدم على الأمر . أو أقدم عليه : بمعنى تقدّم ،
وأقبل ، وشجع ، وجسّر ، واجترأ .

يريد أنه تهيّب الإقدام على مراسلة ذلك الأمير العظيم ؛ وبسبب هذا التهيّب أمسك عن الكلام
برهة من الزمن .

ومعنى هذا البيت والذى قبله : أن الممدوح ، وهو الأمير «شكيب أرسلان» نوه بالبارودى ،
وضطّعه ، وتوبّخه إليه ، ورفعه بحسن الثناء عليه بدءاً وعوداً ، فأمسك البارودى برهة عن شكره ،
تهيّباً له ، لا بخلاً بالوداد ، ولا تقصيراً فيه .

فَلَمَّا وَقَدْ حَقَّ الْجَزَاءُ ، فَلَمْ أَكُنْ لَأَنْطِقَ إِلَّا بِالشَّيْءِ الْمُنْعَمِ (٣)
وَكَيْفَ أَذِدُ الْفَضْلَ عَنْ مُسْتَقَرِّهِ وَأَنْتَ الَّذِي نَوَّهْتَ بِاسْمِي، وَرَشَنْتَنِي
وَأَنْتَ الَّذِي نَوَّهْتَ بِاسْمِي، وَرَشَنْتَنِي

(٣) و «أنا» : حرف شرط وتوكيد . و «اللو» : بعدها : واو الحال . والجملة بعدها حالية .
و «الفاء» : بعدها : فاء الجزاء والجواب . و «حق» : ثبت ، ووجب ، ولزم . والجزاء : الثواب ،
والمكافأة . والثناء : اسم من أثنى عليه خيراً ، وبخير : أى وصفه به . وأكثر ما يذكر الثناء : فى صامد
الناس ، فىئى حالاً ، فقالاً ذكره : أى يمد . ويكرر . والمنعم : المزعوف ، المرقش ، النقش ،
الزينة ، الحسن ، ولبات منعم : أى ملتصق ، مجتمع .

احتاج الشاعر من بدأ بالتودد إليه ، والإقبال عليه ، والتنويه به تحريصاً ، ثم تصريحاً ؛ وبسبب
هذا الاحتياج أسلك بركة سيرة عن الكلام والمجاجة ؛ ولكنه ما لبث أن رأى ذلك التودد الكريم حقاً
بالجزء والاحتفال ، جذراً بالاحتياط والإكرام ؛ فلم يسه إلا أن يجهر بفضله ، ويقدر صدق وداؤه ،
ويصله بمحامده ومكارمه ، ويحسن الثناء عليه ، ويسدى للملح إليه .

(٤) الاستغناء من أول هذا البيت : معنى اللنى : أى لا سبيل إلى ذود الفضل ، وإنكار ضوء
الشمس . وقد يكفى معنى التصجب ؛ فالشاعر يتعجب من نفسه ، ويعجب غيره إذا هو حاول زيادة
الفضل ، أو إنكار ضوء الشمس . وقد يفيد - مع التصجب - الاستنكار ، والاستعجاب ، والاستهجان ؛
كما فى قول الله تبارك وتعالى : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ؟ » (الآية رقم ٢٨
من سورة البقرة) . وأخوذ الفضل : أبهله ، وأدغمه ، وأمتعه . (وبابه قال) . والفضل : الإحسان
ابتداء بلاعة . ولا ريب أن الممدوح أقبل على الشاعر ، وأحسن إليه ابتداء من غير علة . والفضل
والفضيلة : الخير والبر . وضدما النقص والتقصية . والفضل (فى الأصل) : الزيادة . وأكثر
ما يستعمل فى الزيادة المحمودة ، كفضل العقل ، والعلم ، والمروءة ، والحلم . واستقرّ الفضل : مكان
استقراره ، وإقامته ، وتمكّنه ، وثباته . فى الشطر الأول إشارة إلى أن فضل الممدوح مستقرّ فيه ،
ثابت له ، متمكن منه ، مقيم معه ، لا يكاد يفارقه ، أو يحيد عنه . وفى الشطر الثانى إشارة إلى
أن ذلك الفضل ذائع شائع ، تامّ مפור ، ظاهر مشهور . وتوصفت فى فلان الخير توصفاً : أى
تقرّرت فيه ، ورايت فيه محاياله ، وأماواته ، وآثاره ، وعلاماته . ويراد بالتوصم هنا : الرقية ،
والإبصار ، والمعرفة التامة الیقينية .

مدحه بالخير والبر ، والفضيلة والمروءة ، والابتداء بالإقبال والإحسان . كما مدحه بنباهة إنشائه ،
ومرّ القدر ، وطول المكانة ، وذُوب صيته فى الناس .

(٥) «اللو» فى أول هذا البيت : واو الحال . والجملة بعدها حالية . وهو متصل بالبيت السابق ؛
أى وكيف أزيد الفضل ، وأذكر ضوء الشمس والحال أنك نوهت باسمي ، ورشنتني ... ونوهت بفلان .
ونوهت باسم فلان : أى شهره ، ورفع شأنه ، وضمّته . ورشنتني : أحسنت إلى ، وقضيت على . وأصله

لَكَ السُّبْقُ دُونِي فِي الْفَعِيلَةِ، فَاشْتَمَلَ بِحِلَّتِهَا ، فَأَلْفَضِلُ لِمَتَقَسَّمِ (٧)
وَدُونُهَا - يَا بَنَ الْكِرَامِ - حَبِيرَةً مِنْ النِّظْمِ سَدَاهَا بِمَدْحِ الْعَلَا فَعِي (٨)

= من الريش : وهو كسوة الطائر . ومن الهجاز : رشت فلاناً (من باب باع) : أي قويتُ جناحه بالإحسان إليه ، وأعنته ، وأغنيته ، وفمشته ، وأصلحتُ حاله ؛ فارتاش ، ورتيش . ويراد بالقول هنا : ما قاله الأمير « شكيب أرسلان » وشره في جريدة الأهرام من تقريره شعر « البارودي » ، والتنبؤ به باسمه ، والإشادة بذكوره ، وإحسان الثناء عليه . وسرا الشيء عنه (من باب عدا) : زعمه ، وألفاه ، وكشفه . والقناع : ما ينطى به الرأس ، أو يستر به الوجه . وتوهم الشيء توهمًا : تمسكه وتغيبه ، كان في الوجود ، أو لم يكن . وتوهمتُ به سبًا : ظننتُ . وقناع التوهم : أي التوهم الشبيه بالقناع ؛ فهو من إضافة المشبه به إلى المشبه ؛ إذ التوهم هنا - بحسب الحقيقة النثرية الناصحة - ويسترها ، ويغيبها ، ويخفيها . تمثيل « شكيب أرسلان » في بعض مقالاته الأدبية التي نشرتها له جريدة الأهرام - بأبيات من شعر « البارودي » ، وأشاد بذكوره ، وزعمه باسمه ، وأحسن الثناء عليه ؛ فقوى بهذا الإحسان جناحه ، وأظهر فضله ، وأعل مقامه ، وعظم شأنه ، ويطيئ الناس حقيقة أمره ، وعمو قدره ، وكشف عنه مقانع الأوهام الخاطئة ، وحسبب الظنون السيئة .

(٦) التفضيلة : الدرجة الرفيعة في الفضل والخير وحسن الخلق . واشتمل بالثوب : تلفت به . وأداره على جسمه كله . والحلة (يضم الهاء) : الثوب الجلد الجديد ، أو الثوب الساتر لجميع البدن . أو ثوب له بطانة . أو ثوبان من جنس واحد . أو ثلاثة أثواب : قميص ، وإزار ، ورداء . أو هي إزار ورداء . ولا تسمى حلة حتى تكون من ثوبين .

سبق « شكيب » إلى التمثيل بشعر « البارودي » ، والتنبؤ به باسمه ؛ فاعترف له الشاعر بالسبق والتقدم والفضل . ودعا له أن يبقى على الدوام متأزماً بالحماد ، مرتدياً بالفضائل ، سباقاً إلى المفاخر والمكرمات .

(٧) « دون » : اسم فعل : بمعنى « أخذ » . و« دونكها » : أخذها ؛ أي أخذ هذه الحبيرة : وهي الجديدة الناعمة الموصلة من الثياب . والنظم : الكلام المنظوم ؛ أي الموزون المقفى . وهو خلاف النثر . ويراد بالحبيرة من النظم : هذه القصيدة : أي هذه الأبيات السبعة ، على تشبيها بالحبيرة ، أو الحبير . والقصيدة من الشعر : سبعة أبيات ، فأكثر . وسدأها : نظمها ، وأنفها ، وقالها . والأصل سدئ النساج الثوب تسدياً : أي أقام سداه . والسدئ : ما يمد طولاً في النسيج . والقصمة : ما يمد عرضاً . ومن الهجاز : سدي مطلقاً حسناً .

ناداه بقوله : « يا بن الكرام » فأشار بهذا النداء إلى أن الكرم - وهو جماع الفضائل والحماد والجليل الكريمة - متأصل فيه ، وفي آبائه الكرماء . وقدم إليه هذه القصيدة (من سبعة أبيات) نظمها في الثناء عليه ، وإطراء فضله ، ونباهة شأنه ، وعمو قدره . وسدح رفته وشره وصلاحه . واعترف له بالسبق إلى الفضائل ، والتقدم في المكرمات . ثم أردف هذه القصيدة بالرسالة النثرية الآتية :

و هَلِيهِ أُنْبِيَاتٌ تَقَطَّرَتْ ^(١) بِهَا الْقَرِيحَةُ ^(٢) بَعْدَ الْعَمَمِ ^(٣) ، وَتَنَفَّسَتْ لَهَا
الطَّبِيعَةُ ^(٤) بَعْدَ مُعَانَاةٍ ^(٥) السَّقَمِ . جَعَلَتْهَا شُكْرًا لِمَا قَرَأَتْهُ فِي الْأَهْرَامِ مِنْ
عَوَاطِفِ الْبِرِّ وَالْإِكْرَامِ . وَلَوْ لَا أَنَّى فِي مَكَانٍ حَرِيدٍ ^(٦) ، وَقَدْ حَانَ ^(٧) قِيَامُ
الْبَرِيدِ ^(٨) ، لَأَطْلَتُ عَيْنَانِ ^(٩) الثَّنَاءِ ^(١٠) ، وَمَلَأْتُ صَدْرَ الْإِنَاءِ ^(١١) . وَكَسَوْفَ
أَفِي بِلِيْمَةٍ ^(١٢) الْوَعْدِ ، لَنْ أَضَاهَا نَجْمُ السَّعْدِ ^(١٣) . فَاقْبَلْ مِنِّي عَلَى عَتَلَوْه ^(١٤)
الدَّارِ سَلَامًا عَلَى جَنَاحِ الْبِدَارِ ^(١٥) .

(١) تَقَطَّرَتْ القرية بالأيات : أُنْتُجَتْهَا ، أَوْ جَادَتْ بِهَا ، أَوْ قَدَرَتْ عَلَيْهَا . مِنْ قَوْلِهِ : تَقَطَّرَتْ
الْأَرْضُ بِالنَّبَاتِ : أَيْ تَشَقَّقَتْ عَنْهُ ، وَأُغْرِجَتْهُ . (٢) وَقَرِيحَةُ الْإِنْسَانِ : طَبِيعَتُهُ . وَمَلَكَهَ يَسْتَطِيعُ
بِهَا إِبْتِدَاعَ الْكَلَامِ ، وَإِبْدَاءَ الرَّأْيِ . (٣) وَالْعَمَمُ (بفتح الميم) : أَوْ يَفْتَحُ فَسْكَوْنٌ ، أَوْ يَضْمُ فَسْكَوْنٌ :
مصدر عَمِمَ الزَّوْجَانِ (كَفَرَحَ ، وَلَمَسَ ، وَكَرَمَ ، وَصَيَّ) : أَيْ كَانَ بَيْنَهُمَا أَوْ بَاحْضَهُمَا مَا يَمْنَعُ النَّسْلَ
مِنْ دَاخِ أَوْ شَيْخُوخَةٍ . وَعَمِمَ الْقَرِيحَةُ : تَوَقَّفَهَا عَنْ الْإِنْتِاجِ : أَيْ عَنِ الْقَوْلِ ، وَظَنَمِ الشَّعْرِ . (٤) وَالطَّبِيعَةُ
الْحَسْبِيَّةُ . وَالْقَوَّةُ السَّادِيَّةُ فِي الْجِسْمِ ، وَبِهَا يَصِلُ إِلَى كَالِهِ الطَّبِيعِيُّ . وَبَرَادُهَا هُنَا : شَاعِرِيَّةُ الشَّاعِرِ ،
وَمَوْجِبَتُهُ ، وَقَوَّتُهُ ، وَاقْتِدَارُهُ ، وَاسْتِعْدَادُهُ لِنَظْمِ الشَّعْرِ . وَبَرَادُ بِنْتَفَاسِ الطَّبِيعَةِ : إِبْلَاغُهَا ، وَبَرُوقُهَا ،
وَشَفَافُهَا ، وَتَخَلُّصُهَا مِنَ السَّقَمِ ، أَيْ الْمَرَضِ . أَوْ الْمُرَادُ أَنَّ الطَّبِيعَةَ الشَّعْرِيَّةَ الْفَرِحَتْ أَنْزَلَتْهَا ، وَوَجَدَتْ
رَاحَةً لِنَتَفَاسِ بَعْدَ مُعَانَاةِ السَّقَمِ . وَتَنَفَّسَتْ لَهَا : أَيْ تَنَفَّسَتْ بِهَذِهِ الْأَيَّاتِ السَّيِّئَةِ . أَوْ بِسَبِّهَا ، وَمِنْ
أَجْلِهَا . (٥) وَهَاتِي السَّقَمَ وَخُصِّهِ مَعْلَانَةً : كَابَدَهُ ، وَقَاسَاهُ ، وَضَافَاهُ ، وَرَكَّبَ هَوْلَهُ وَصَمُومَتَهُ ،
وَاحْتَمَلَ مَشَقَّتَهُ وَشِدَّتَهُ (٦) وَالْحَرِيدُ : الْمَحْتَزِلُ ، الْمَتَبِّدُ ، الْمُنْفَرِدُ . وَبَرَادُ الْمَكَانِ الْحَرِيدِ : النَّائِي
الْبَعِيدُ . (٧) وَحَانَ الْأَمْرُ : جَاءَ حَيْثُ ، وَقَرِبَ وَقْتُهُ . (٨) وَالْبَرِيدُ (فِي الْأَصْلِ) : الْقَدَابَةُ الَّتِي تَحْمِلُ
الرِّسَالَةَ . وَيُمْكِنُ إِطْلَاقَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ يَحْمِلُهُ مِنَ سَيَارَةٍ ، أَوْ طَيَّارَةٍ ، أَوْ بَاحِرَةٍ ، أَوْ قَطَارٍ . وَيُطْلَقُ
الْبَرِيدُ أَيْضًا عَلَى الرِّسَالَةِ وَالرَّسُولِ . (٩) وَالْعَيْنَانِ : سَيْرُ الْجَبَامِ الَّتِي تَحْمِلُ بِهِ الْقَدَابَةَ ، وَيُقَادُ بِهِ الْقَرْنِ
وَنُصْبُوهُ . (١٠) وَالثَّنَاءُ : اسْمٌ مِنْ أَتَى عَلَيْهِ : أَيْ وَصَفُهُ بِخَيْرٍ . وَإِطَالَةُ عَيْنَانِ الثَّنَاءِ : كُنَايَةُ عَنِ الْإِطْنَابِ
فِيهِ . (١١) وَالْإِنَاءُ : الْوِطَاءُ لِلطَّعَامِ وَالشَّرَابِ . وَجِسمُهُ آتِيَةٌ . وَجَمْعُ الْآتِيَةِ أَوَانٌ . مِثْلُ رِيقَاءٍ وَأُسْفِيَةٍ ،
وَأَسَاقٍ . وَمِنْهُ صَدْرُ الْإِنَاءِ : كُنَايَةُ عَنِ الْإِسْبَابِ فِي الشُّكْرِ ، وَالْإِطْنَابِ فِي الْمَدِيحِ ، وَإِطَالَةُ الْإِطْرَافِ :
فَهْوَ يَعْني «أَطْلَتُ عَيْنَانِ الثَّنَاءِ» . (١٢) وَثَمَّةُ الْوَعْدِ : حَقُّهُ ، وَحَرَمَتُهُ ، وَمَا يَنْبَغِي لَهُ مِنَ الصَّدَقِ وَالْوَفَاءِ .
(١٣) وَإِضَافَةُ نَجْمِ السَّعْدِ : كُنَايَةُ عَنِ إِسْمَاعِيلَ اللَّهِ لَهُ ، وَتَوَقُّفُهُ لِيَاكُ ، وَتَسْيِيرُهُ لِأَمُورِهِ ، وَإِعَانَتُهُ
عَلَيْهَا . (١٤) وَطَلَّ عَدَوَاهُ الدَّارَ : أَيْ مَعَ بَعْدِ الدَّارِ ، وَطَعَّ الْمَزَارَ . (١٥) وَالْبِدَارُ : الْمَسَارِفَةُ :
مصدر بَادَرُ إِلَيْهِ مَبَادِرَةً وَبِدَارًا : أَيْ أَسْرَعَ إِلَيْهِ ، أَوْ عَاجَلَهُ . وَبَادَرَهُ الْغَايَةُ ، وَبَادَرَهُ إِلَيْهَا : أَيْ
سَبَقَهُ إِلَيْهَا .

وَقَالَ يَزْنِي وَالْبَيْتَةُ ، وَقَدْ وَرَدَ نَعْمَهَا وَهُوَ فِي الْحَرْبِ * :

هُوَ كَانَ لِي أَنْ أَلْبَسَ الْمَجْدَ مُظْلَمًا فَلَمَّا مَلَكَتُ السَّبْقَ عَفْتُ التَّقْدِيمَ (١)
وَمَنْ عَرَفَ الدُّنْيَا رَأَى عَسَا يَسْرُهُ مِنَ الْعَيْشِ هَمًّا يَتْرُكُ الشُّهْدَ عُلَقَمًا (٢)

* رأى الميت (من باب رأى) : بكاه بعد موته . وعدّ محاسنه . ويقال : رثاه بقصيدة . ورثاه بكلمة . ورماه نعيًا (من باب رمى) ونعيًا (على وزن فعل) : أذاع خبر موته . ورماه لنا : ورماه إلينا : أخبرنا خبر موته . وورد نعيها : أي جاءه خبر موتها . ولعله يريد بالحرب : حرب الثورة العرابية ، واحتلال الجيش الإنجليزي مصر سنة ١٢٩٩ هـ (١٨٨٢ م) . وكان البارودي من قادة تلك الثورة ، الضاربين في غمرتها .

(١) الهوى : مصدر هوىه (كرضيه) : أي أحبه ، وتملّقت به نفسه . والهوى أيها : النشوة الملهية : أي المهيوب ، أو المرفوب فيه . والمجد : العز ، والشرف ، والرفعة ، والملاء . ولبس المجد : تحصيل أسبابه ، وتمكّن منه ، والافتخار به ، وبلوغ غايته . وهو تمييز مجازي ، كما يقال : لبس الحياء . والحياء لباس التقوى . وكما قيل : « تأزّر بالمجد » ، ثم ارتدى . وبمعنى : متميزًا ظاهرًا . وهو حال من فاعل « وألبس » أو حال من « المجد » حيث ملكت السبق : أي ملكت أسبابه ، وتمكّنت منه ، وبلغت غايته . وعفْتُ التقدّم : أي زهدت فيه ، وانصرفت عنه . وفي الأصل المخطوط الذي بين أيدينا « عفت التقدما » .

والهوى : أنه كان من أهوائه وأطماعه ورفائيه أن يلبس المجد ، ويتميّز به ، ويبلغ في الحياة الدنيا سجدته وسعاده ، ودأبه واجتهاده — كل ما يبلغه أمثاله من الأماجد الأعلام الناهجين الطامحين ، ذوى الهمم القوية المالية ، والمقاصد الرفيعة البعيدة ، فلمّا أحرز قصبة السبق في هذا المجال ، وتملّك الوصول إلى تلك النمايات ، وظفر بها ، وتمكّن منها — تخلى عنها ، وأثر الزهد والقناعة ، وعاف الانطلاق والتقدّم ، وانصرفت نفسه عن المتابعة والمخاطرة .

وهذا المعنى يناسب مقام الرثاء والحزن والقباض النفس ، ويمدّ تمهيداً لمعنى البيت الرابع من أبيات هذه القصيدة :

إذا كان عسى كل حى منية فسيان من حلّ الوعد ، ومن سما

وهو في البيت نفسه مناسباً لما كان يستشعره الشاعر ، ويتجسّسه في أثناء نظم هذه المخرّجاتين الحسرة ، وبربرة المخرّجة ، وعيبية الأمل في الثورة العرابية .

(٢) العيش المهرشة والحياة . والممّ : التلقن ، والحزن ، وجمعه هموم : مضدره الأمر (من باب ردّ) : أي حزنه وألقته . وأحبه ماله . والتهجد (بفتح الشين وضمة هاء) : عمل النحل مادام لم يصير من شمه . والمطمع : كل شيء مرّ . والمطمع : الحنظل : وهو نبات يمتد على الأرض كالبطيخ . ثمرة =

وَأَيُّ نَعِيمٍ فِي حَيَاةٍ وَزَاوَعَا مَصَائِبُ لَوْ حَلَّتْ يَنْجُمُ لَا ظُلْمًا^(٣)
إِذَا كَانَ عُقْبَى كُلِّ شَيْءٍ مَنِيَّةٌ فَمِيسَانٍ مَن حَلَّ الْوَهَادُ ، وَمَنْ مَمَّا^(٤)

— في حجم البرتقال . ويضرب المثل بمرازمة .

والمعنى : أنه لو فكر الحكيم العاقل في الحياة الدنيا ، وأدرك بصيرته حقيقتها ، لعلم أن مباحها وحلاوتها متصلة اتصالاً وثيقاً بجموعها ووزارتها ؛ فهي قد تسرّ وتفرح ، ولكنها لا تلبث أن تحزن وتؤسف . وإذا سقطت الخلق مرة ، جرت عتلك المرة مراراً ؛ فسرو العيش فيها منطو على القلق والحزن . وما بالك بسرور عابر موقوت سريع التحول والزوال ، ولا يعقب بطبيعته غير الأذى والحسرات ؟ وهذا المعنى كثير في شعر الحكمة ، والزهد ، والفلسفة ؛ فأبو نواس يقول :

إِذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لِيَبِيبَ تَكَشَّفَتْ لَهُ هُنَّ صَوْدٌ فِي ثِيَابٍ صَدِيقِ .

وأبى الشعراء أحمد شوقي يقول :

سحبك الدنيا احتشاد ليكا وأهالها مصائد الأتین

والبيت الآن يوضح هذا المعنى ، ويمزجه ، ويؤكده .

(٣) الاستهزاء في أول هذا البيت : معناه النفي . والنعم : النعمة والسكنة والطمأنينة ، والراحة ، وخفض العيش ورفده ، وفضارة الحياة وفشارتها ، وحنن الحال ، ورضاء البال .

والمعنى : أن حياة الإنسان في الدنيا مهددة بكارثات وتكبات ، لو أصابت الكواكب النيرات لأخفأت أضواءها ، وجعلتها ظلمات بعضها فوق بعض ؛ فأكد لي نعم البال مع هذه الحال ، وأبين مجد الطمأنينة والاستقرار ؟ . وهذا كله توضيح وتأكيد للمعنى البيت السابق .

(٤) حقى كل شيء : آخره ، ونهايته ، ونهاجته . وظلها العاقبة . والموت . وجسمها منايا . وسيان : مثلاً ، أو مثلاً ؛ أو مثلاً ؛ أو مثلاً ؛ وهو المثل والمساوى والتظاير . وحلّ الوهاد : نزل بها : جمع وهدة : وهي الأرض المنخفضة . وما : علا ، وأرتفع ، وتعالى . والمراد سما إلى القيم والنجاح . والمعنى : أن الموت يسوّى بين الثنايه والخالل ، والرفيع والوضيع ، والأمير والسوقة ، وهو نهاية محزنة لكل شيء من المخلوقات ، ولا إله إلا هو . كل شيء هالك إلا وجهه » (الآية رقم ٨٨ من سورة القصص) . وإذا كان الأمر كذلك فلا فرق بين من عاش متزويجاً مقموراً ، ومن رفض حظّه أو اجتباّه ، أو طمعه ، أو طموحه إلى أعلى مراتب الرفعة والسمو ، والنباهة والعلاء . والفرس : التزهد في الدنيا ، وتوطين أمرها ، والنهي عن الاختيار بها ، والتكالب عليها ، ومكافحة الحرص للمنوم ، وتخفيف الحزن على ما فات منها ، وتزوية المصابين بيلايها ، وإعانة الأحياء على إحبال مصائب الموت ، وبخاصة موت الأهل والأقرباء والأحباب . وهذا المعنى أو بعضه يؤمّن الزهد الذي أشرنا إليه في شرح البيت الأول من هذه القصيدة ، ويوضحه ، ويفصّله ، ويمزجه .

وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّا نَرَى الْحَقَّ جَهْرَةً وَنَلَهُوْا ، كَأَنَّا لَا نَحَافِزُ مِنْكُمْ^(٥)
يَوَدُّ الْفَتَى فِي كُلِّ يَوْمٍ لُبَانَةً فَإِنْ نَالَهَا أَنْحَى لِأُخْرَى ، وَصَمًا^(٦)
طَمَاعُهُ نَفْسٌ تُورِدُ الْمَرْءَ مَشْرَعًا مِنَ الْبُؤْسِ لَا يَعْلَمُوهُ أَوْ يَتَحَطَّمَا^(٧)

(٥) العجب : روعة تأخذ الإنسان عند استعظام أمر ، لوصف فيه ، زائد على المألوف ، مع غفاه السبب . وبثله التمتعيب : أى وما يدعو إلى العجب ، أو بما يتعجب منه أنا نرى الحق ونلهو... والحق : الثابت الذى لا شك فيه ، ولا مرأه . ويريد به هنا : ما أشار إليه فى الأبيات السابقة من هوان أمر الدنيا ، وخذاعها ، واختلاط مباحها بأحزانها ، وسرعة زوال نعميها ، وترصد الموت للإنسان ، وكثرة ما يهدد حياته وعيشته من حقد ثان البشر ، ونواقب الزمان . ورأى الشيء جهره : أى رآه عياناً ، غير مستتر عنه بشيء . ونلهو : نلعب : أى نفعل ، ونلذل ، ونشغل ، عن هذا الحق الذى يطالبعنا ، ونطالعه كل وقت ، وزمان عياناً . والنتم : التتم : مصدر ميمي من نتم على الأمر (من باب طرب ، وسلم) : أى قندم ، وأسف ، وكروه بعد ما فعله .

والمعنى : أنه بما يثير اللعش ، ويدعو إلى العجب أن الناس يفترقون بزخرف الدنيا وباطلها ، ويفترقون فى اللهو والناب ، وهم يملكون علم اليقين أن نعميها سراب خادع ، وأن حياتهم فيها عقوقه بالمصائب ، وأن عواقب هذا الاغترار قدامات وحسرات .

(٦) الفتى (فى الأصل) : الشاب الحداث أول شبابه بين المراهقة والرجولة . وتقول العرب : فى من صفته كيت وكيت ، من غير تفرقة بين الشيخ والشاب . وهذا المعنى هو المراد هنا ، بل المعنى يشمل الفتيان والفتيات ، وكل المتكالبين على الدنيا من رجال ونساء ؛ ويلاحظ أن هذا البيت وأكثر الأبيات السابقة ، وكثيراً من الأبيات اللاحقة تيمرى بجرى الحكم أو الأمثال . وإليانة : الحاجة من غير غفلة ، بل من نهمة : أى إقراط فى الرغبة أو الشهوة . وأنهى : مال ، وقصد ، وأقبل ، واتجه . وصمم فى كذا ، وعمل كذا تصميماً : أى مضى فيه بهزم قوى ، وحرص شديد ، وجد وصبر ، ونية معقولة ، وإرادة قاطعة .

يصف حرص الناس ، ونهمهم ، وتضائهم على لبانات الحياة ؛ فكلما ظفر الواحد منهم بلبانة أقبل على أخرى فى عزم قوى ، وتصميم أكيد . وفى غير قناعة ، أو اعتدال ، أو قصد ، أو احتجار . وصلة هذا البيت بالأبيات السابقة واللاحقة : أن نهات الناس على لبانات الحياة . وحرصهم على جسمها ، وإسرافهم فى تحصيلها — هو فى حقيقته طمع منموم ، واغترار بالدنيا ، وجرى ورامها ، وغلغلة عن الحق والمعبىر . وهو فى الوقت نفسه شىء يدعو إلى العجب . وفى أربعة الأبيات الآتية تفصيل لهذا ، وتصریح بشىء منه ، وبيان المواقف . وفيها معنى السلطة والاعتبار .

(٧) الطماعة : شدة الطمع : مصدر طمع (من باب كرم) : أى كثر طمعه وساء ، واشتد حرصه وجشعه . وأورده الماء : جملة يرده ، ويشرف عليه . والمشرع (بوزن المذهب) : مورد الماء ، =

أَرَى كُلَّ حَيٍّ غَافِلًا عَنْ مَصِيرِهِ وَلَوْ رَامَ عِرْقَانِ الْحَقِيقَةَ لَأَتَتْنِي^(٨)
فَإَيْنَ الْأَلَى سَادُوا ، وَيَادُوا ؟ أَلَمْ نَكُنْ نَحِلُّ كَمَا حَلُّوا ، وَنَرَحَلُ مِثْلَمَا ؟^(٩)

== حيث يُسَنُّ منه بلا رشاء . و « من » : بيانية ؛ فالشرح بيته اليوس ؛ وهو أشدّة ، والمكروه ، والافتقار ، واشتداد الحاجة . ولا يمدّه : لا يتجاوزّه ، ولا يتعداه . و « أو » : بمعنى « إله » أو بمعنى « ولا » : أى أن ذلك المصروف في الطبع يلتزم مورد اليوس إلى أن يتحلّم ، ويتكسر ، ويفى ، وملك . أو أنه لا يجاوز مورد اليوس إلا إذا تحلّم وملك .

يقول : إن تكاليف الناس على لياقات الحياة ، وحرصهم على جمعها ، وإسرافهم في تحصيلها - سببه ما اضطرت عليه نفوسهم من طمع شديد ، وجشع عميق ، لا يلبث أن يوردهم مورد اليوس ، والفقير ، والشدة ، والضيق ، والشقاء والهلكة .

(٨) معنى الشطر الأول : أن الموت مصير كل مخلوق حي ، وأن غفلة المرء عن الموت غفلة عن مصيره المحتم . وغفل عن الشيء ، فهو غافل : أى سها عنه من قلة التحفظ واليقظ . أو تركه إهمالا من غير نسيان . ويراد بالعرفان : المعرفة الواسعة الشاملة ، الواضحة المشرقة . ويراد بعرفان الحقيقة : أن يعرف الإنسان حقيقة مصيره ؛ ليتدبر أمور الموت والحياة ، ويستفتح بهذا التدبر . وانتهى إلى كلما : انتصب إليه ، واعتزى ، والمراد : انتصب إلى الحقيقة ، واتصل بها الاتصال النافع ، وعرفها تمام المعرفة . أو المراد انتصب إلى أصله الميت الغافى ، وهو آدم . ويعرف أن الموت نهاية كل آدمى ، وانتظ بهذه المعرفة الواضحة ، أو الحقيقة التى لا ريب فيها :

صاح | فسر ، ولا ترك ذاكر المزمع ؛ ففسحاه ضلال مبین

والمنى : أن الحياة الدنيا قد تشغل الناس ، وتغفيمهم في الغفلة ، وتغفيمهم بزعمها ، وتغفيمهم بإطاعتها ، وتلهيهم عن مصيرهم المحتم ، وهو الموت القريب المترقب . ولو أراهم كل امرئ معرفة هذه الحقيقة التى لا مراء فيها لا تنصب إليها ، واتصل بها ، وتدبرها ، وأطال النظر والتفكير فيها . أولا تنصب إلى أصله الغافى ، وهو آدم ، ويؤمن أن الموت نهاية كل آدمى ، وأنه مترقب به ، ومترقب له ، وأن عمره في الدنيا قصير ، وسياحته موقوفة محدودة ... وبئس على هذا كله سلوكه ، وأعماله ومعاملاته ، وتصرفاته في هذه الحياة القصيرة الفانية ، والغرض التنبيه والوعظ . وإليتان الآتيان يوزان هذا المنى . -

(٩) شاد البناء (من باب باع) : رفقه وأعلاه وأحكم بنيانه . أو زينه ، وطلاه بالذهب ؛ وهو الجص ، والملاط ، وكل ما تطل به الحيطان . وبأدوا : هلكوا ، وانقرضوا (وبابه باع) . وحلّ الملكائن : وحلّ به (من بابى قعد ، وضرب) : نزل به . أو سكن فيه : ورجل عنه (من باب منح) : غادره وتركه ، ووطن عنه . والرحيل : خلاف الحلول . والتركيب المقصود في الاستفهام الثانى : « ألم يكونوا يحلّون كما نحلّ » ، ويرحلون مثلما رحل ؟ . أو المنى : ألسنا نحلّ المنازل التى حلّوا بها قبلنا ، ونرحل مثلما من هذه الحياة كما رحلوا ؟ والاستفهام للتقرير . =

مَضَوْا ، وَحَفَّتْ آكَارُهُمْ غَيْرَ ذُكْرٍ تُشِيدُ لَنَا مِنْهُمْ حَيَاتًا مُرَجَّمًا (١٠)
سَلِ الْأَوْرَقَ الْفَرِيدَ فِي عِلْبَاتِهِ أَنَا حَ عَلَى أَشْجَانِهِ ، أَمْ تَرْتَمًا ؟ (١١)

= والبيت وثيق الاتصال بالبيت قبله ، فإن الناس أو أكثرهم غافلون عن مصيرهم ، جاهلون بالحقيقة التي ينبغي أن يعرفوها معرفة عميقة هادية ؛ ولهذا نههم الشاعر في هذا البيت بهذين الاستفهامين ، ووسط وبصر بالمواقف ، وجدا إلى الاختيار بين سبقنا إلى هذه الحياة ، وكانت لهم في الأرض إقامات ورحلات وعمارات وسكان ، وحضارات ومبانيش ، ثم طوهم الردى ، وأصابهم ريب الموت . والبيت الآتى إتمام وتأكيد وتعميق لهذا المعنى . وفى القرآن الكريم : « أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ، فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ . كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ ، فَا أَضَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » . (الأنبياء رقم ٨٧ من سورة غافر) .

(١٠) حفا الأثر (من باب حفا) : ديس ، وبلى ، وزال ، وإحى . وأكثر السابقين ؛ ما خلطوه من ديار ومبانيش وعمارات وأخبار . والذكر (يضم فسكون) : الشيء يجرى حل السان ، أو فى القلب بعد نسيانه . وذكرته بلساني وقلبي ذكراً ، وذكرته بلساني وقلبي ذكراً . وتشييد : المراد تروى ، وتحدث ، وتثقل . وفاعله ضمير الذكر . والإشادة (في الأصل) : رفع الصوت بالشئ . وحديث مرتب : مخطون غير متيقن . وفى ترجيع أحاديثهم وأخبارهم إشارة إلى تشييد العهد بهم . والمعنى : أن هؤلاء الذين شادوا ، وبنوا ، وأثاروا الأرض وعمارها قد طوهم الموت ، وبعد العهد يتنا ويبنهم ، وصفت بمفاهيم آثارهم وبمفاهيمهم ، ولم يبق منها غير ذكريات وأحاديث ظنية تجري أحياناً على ألسنة الناس ، ويرويها عنهم رواة الأخبار .

(١١) « س » : أمر من سال يسأل (بشغيف همزة) . والأصل سأل يسأل . والأورق : الطائر الرماحى اللون . ومثله الورقاء ، والنريد : الكثير العدد . غرد الطائر (من باب فرح) : أى رفع صوته بالغناء ، ورجسه ، ونداه ، وطرب به . والمقبات : الأخصان . واحشها حبة (بورق قصبة) . وطاحت الحساة (من باب قال) : سجت : أى ردت صوته على طريقة واحدة . وثافت المرأة على الميت : بكت عليه صائحة مجزع وويل ، واستبكت شرباً بنواحها . وه على : منهاها هنا التمايل : أى ناح لأشجانه ، أى بسببها ؛ فالأشجان حلة النوح وسببه . واحشها شجن (بورق سبب) : وهو ألم والحزن والأسى . وترجم : رجع صوته ، وطرب به ، وحشى شناه حسناً :

يقول : إنك تسمع سجع الحمام ، وتفريد الطير على الأخصان ؛ فلا تدرى أيسج حزناً ، أم يتفنى سروراً . يشير بهذا إلى ما يلحظ فى الطير والحيوان والناس من اختلاط الأصوات وتشابهها فى الحزن والفرح ، والنسي والتبشير ؛ فالنوح والبكاء يقارب الترحم والغناء ، كما قال أبو العلاء المعرى :
« وشبه صوت النسي إذا تم من بصوت البشر فى كل نادى أبكت تلك الحساة ، أم حنت حنت على فرح غصنها المياد والعرض تهين الأمر وتخفيه على الولاه الحزين ، والأهيب الملتاح » .

تَرْجَحَ فِي مَهْدٍ مِنَ الْأَيْكِ ، لَا يَنْبِي يَعْمَلُ عَلَيْهِ مَسَائِلًا وَمُقَوِّا (١١)

يُنَوِّحُ عَلَى فَقْدِ الْهَدِيلِ ، وَلَمْ يَكُنْ رَأَى ، فَيَأْكُلُ كَيْفَ تَهَكِّمًا (١٢)

== وقد يكون الاستفهام في الشطر الثاني من تجاهل المعارف ؛ فالشاعر يعلم أن الأورق الفريد ينوح حزناً في عذاباته ؛ بدليل البيت الثالث عشر : « يَنْوِّحُ عَلَى فَقْدِ الْهَدِيلِ ... » ولكنه ساق هذا المعلوم مساق المجهول ، واستفهم في حيرة ودهشة ، ووله وجزع ؛ ليضاعف التأثير بكلامه ، ويرفع درجته في مراتب البلاغة والبيان .

(١٢) تَرْجَحَ : تَمِيلُ ، وَيَتَوَزَّرُ ، وَيَتَحَرَّكُ . وفاعله ضمير « الأورق الفريد » في البيت السابق . والمهد في الأصل : الموضع ، أو الفراش ، أو السرير مهده الصبي ؛ أي يَوْمًا ، وَجِيئًا ، لِينًا فيه . وبهذه الطائر : ما يألفه ، ويسكنه ، ويعبده ، ويحبه راحته وطأنته من الأشجار الملتفة الناضرة . و« من » : بيانية ؛ غايتها ، وهو الأيك بيان لما قبلها وهو المهد . والأيك : جمع أَيْكَة : وهي الشجر الكثير الملتف الكثيف . ولا يَنْبِي : لا يَفْتَرُ ، ولا يَتَوَذَّرُ ، ولا يَكُلُ ، ولا يَضِفُ . وهو لا يَنْبِي يفعل كذا : أي لا يَزَالُ يفعله ؛ أي يفعله باستمرار ؛ بلا ضعف أو كلال ، أو إعياء ، أو تنور . ويميل عليه : أي يميل على الأيك : أي على فئس من أغصان الأيك : أي يجترّ فئسه ، ويتحركه ، ويترجح . و« مَسَائِلًا » و« مُقَوِّا » : حالان من فاعل « يميل » وهو ضمير « الأورق الفريد » ؛ أي فهو مائل مرة ، ومقوم مرة أخرى : أي مستقيم ، معتدل ، مستو ، غير مائل : اسم مفعول من قَوَّمَهُ تقويمًا ؛ أي عدله ، وأزال ميله وعبثه ، وأقامه صوابًا . أو هو بصيغة اسم الفاعل ؛ بمعنى مُشَقَّقَوْمٌ أو مستقيم . والحركة الدائبة بين الميلان والاعتدال تصوير وتقصيل وتأكيد لحس الترجح في أول البيت ؛ فالطائر فوق الفئس لا يفتأ يترجح ، ويتوزر ، ويتحرك ، ويميل ، ويستقيم .

(١٣) فاعل « ينوح » : ضمير « الأورق الفريد » . والمهديل (فيا تزع العرب) : أب الحمام ، أو فرخ كان على مهد نوح عليه السلام . ثم مات عطشًا ، وضيمه . أو صاده جارج من جولوج الطير ؛ فإ من حمامة إلا وهي تحن إليه ، وتبكي عليه . و« يَأْكُلُ » أسلوب استفادة ؛ وهي نداء من يمين على دفع شدة ، كقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « يَأْكُلُ للمسلمين » . والمستفاد به في البيت لفظ الجلالة . والمستفاد لأجله مخوف ؛ فالشاعر هنا يستثني الله نفسه ، أو لهذا الطائر الأورق الفريد الذي ينوح على فقدان المهديل . والاستفهام : « كيف » هنا : معناه التسجي . وتهكّم : تندم : أي تحسّر ، وأسف ، وحزن . وتهكّم : تنهّي يَرْقَم . والمراد سجع وهذر ونابح .

الحمام سميات تتولى على طريقة واحدة ، وتمّ . على ما يشبه الحزن والأسى ؛ ولهذا يقال : ناحت الحمامة . والشاعر يستثني الله نفسه أو الحمام ، ويعجب : كيف اشتدّ حزن كل حمامة ، واتصلت نياحتها على ذلك الفرخ ، أو الجذع القديم الذي لم تره .

وَشَتَانٌ مِّنْ يَّبْنِي عَلَى غَيْرِ عِرْفَةٍ جَزَافًا ، وَمَنْ يَّبْنِي لِيَهْدٍ تَجَرُّمًا (١٤)
 لَعْنَتِي لَقَدْ غَالَ الرَّدَى مَن أُجِئَهُ وَكَانَ يُوْدِي أَنَّ أُمُوتَ وَيَسْلَمًا (١٥)
 وَأَيُّ حَيَاةٍ بَعْدَ أُمٍّ فَقَسْنُهَا كَمَا يَفْقِدُ الْمَرْءُ الزُّلَالَ عَلَى الظُّلْمَا (١٦)
 تَوَلَّيْتُ ، قَوْلِي الصَّبْرُ عَنِّي ، وَعَادَتِي غَرَامٌ عَلَيْهَا ، شَفَّ جِسْمِي ، وَأَسْقَمًا (١٧)

(١٤) « شتان » : اسم فعل ماضٍ ، بمعنى افرق ، وتباين ، وبُعدٌ ، واختلاف . وعرقه (بكسر فسكون) : عرفان ، أو معرفة : مصدر عرفه . ويجازفه جزافًا وبجاجة : أي باه ، أو ابتاع منه بلا كمال ، أو وزن . والجزاف (بتشديد الجيم) : الخدش والظن والتعجب في البيع والشراء . ويجازف في كلامه : أي تكلم بلا تبسّر . وبكاه جزافًا : أي بكاه حل غير معرفة . والعهد : الزمان . وتجرم : تصرم ، يضي ، وانقضى ، وذهب ، وانقطع ، وبجلة « تجرم » : صفة له عهد .
 يقول : إن الذين شامع ، والفرق بعيد بين بكائه وبكاه الحمام ؛ فالحمام يبكي حل جدّه له قديم لم يره ، ولا يكاد يمرره . والشاعر إنما يبكي والدته ، وهي أحبّ الناس إليه ، وأحسّهم عليه ، وأقرّهم منه ، وينوح حل ما انقطع من زمانها ، وما ذهب بلهاها من عهد وحقوق ، وحرمان وموتات .
 والبيت الآتي يوضح هذا المعنى ، ويفصّله ، ويؤكّده ، ويعرّزه .

(١٥) اللام المفتوحة في أول البيت للابتداء . وفائدتها تأكيد مضمون البسلة بعدها . وممرى : حياى . وهو مبتدأ . وبغيره محذوف . والتقدير : ولمرى قسى : أي ما أقسم به : أي أقسم بممرى ، وأحلف بحياى . واللام الثانية « لقد .. » واقبة في جواب القسم . وقال : اغتال : وأرى ، وأهلك .
 واليد (بتشديد اليم) : المودة والمحبة .

يقول : كان مما يؤدّه ، ويرغب فيه ، ويعمرس عليه ، ويتشناه أن يحمله الله فداء لأمّه ؛ فموت وتيقن لها العاقبة والسلامة . وبلاغه القسم في صدر هذا البيت : أن نبي أمّه إليه وهو في الحرب أجزمه وسزّنه جزئاً شديداً ، حتى انتهى به الجزع إلى ما يشبه النشوى أو التلهوى ، ثم التشتكك والازتياب ، فكان بين مصدّق لثمنه ومكّلف ؛ فاختفى الحال تأكيد الخبر بهذا القسم .

(١٦) الاستفهام في أول البيت : معناه انّى . والزلال : اللها الطوب الصافي السائغ البارد السلس . و« حل » : بمعنى « مع » فهو هنا للمصاحبة . والظلماء : شدة العطش . وسبّلت الحزّة هنا لضرورة وزن الشعر .

يقول : إنه لا قية الحياة بعد وفاة والدته . ولقد غالتّها المنون مع شدة تعلّقه بها ، واحتياجه إلى برّها وحناها ، وحرصه حل حياتها وسلطانها ؛ ولهذا جزع جزعاً شديداً . والبيت الآتي تأكيد معنى الجزع .

(١٧) تولّيتى ، وولّيتى : أدبر ، وذهب ، وضي ، ولّيتى ، وتولّيتى . وفاعل « تولّيت » : ضمير « الأم » في البيت السابق . وعادى : أتاني ، واتّابى ، وتردّد إلى ، وتكرّر حلّ . أو أصابني مرّة =

وَلَمْ يَبْنُ إِلَّا ذُكْرَةً تَبَعْتُ الْأُمِّيَّ وَطَيْفٌ يُؤَافِينِي إِذَا الطَّرْفُ هَوَّمَا^(١٨)
وَسَكَتَتْ لِيَمِينِي قُرَّةً ، وَلَمْهَجَتِي سُرُورًا ، فَخَابَ الطَّرْفُ وَأَقْلَبَتْ مِنْهُمَا^(١٩)
فَلَوْلَا اعْتِقَادِي بِالْإِقْضَاءِ وَحُكْمِهِ لَقَطَعْتُ نَفْسِي لَهْفَةً وَكُنْتُ مَسَا^(٢٠)

« بعد أخرى . والفرام : الولوج : أى التسلق الشديد . والحب : المذهب للقلب . والشعر : والمذاب
الدائم الملازم . ويراد به هنا : الأسف والأسى والحزن الشديد . وشقته الممّ أو الحب (من باب رد) :
حزله ، وأغله ، وضمره ، وأزقه ، وأضناه . وأسقمه . أمرضه .

توفيت أمّه ، فلم يجد صبياً على موتها ، واشتدّ حزنه عليها ، وتقلّست عليه وطأة الأسى والحزن ،
حتى أرواحته الحزال ، والفنى ، والتحول ، والسقام .

(١٨) الذكرة : اسم من ذكرت الشيء بعد نسيانه : أى تذكّره . والأسى : الحزن . والطيّف :
الخيال الطائف ، يراه النائم . أو هو صورة الشيء ، وخياله الذى يتراءى للإنسان فى اليقظة ، أو فى المنام .
ويؤافينى : يأتينى . أو يفاجئنى . والطرف : العين . وهوم تهوّم : قام نوعاً خفيفاً . وهوم عينيه :
وسّته ، وفصاهه .

لم يبق بعد وفاة أمّه إلا خيالها الذى يطيف به فى المنام ، وذكرياتها التى تيمث الأسى ، ويجتذّ فى قلبه
الحزن والأسف .

(١٩) اسم « كانت » : ضمير الأم فى البيت السادس عشر : أى وكانت أمى قرّة ليمى .
والقرّة : البهجة والسرور . وأصله من قرّ اليوم : أى رد . أو من قرّ بالمكان : أى استقرّ به ، وسكن ،
وأطمأن . وبمراجعة هذين الأصلين قيل : أقرّ الله عينه : أى أعطاه حتى قرّت عينه ، وسكنت ، وأطمأنت ،
ولم تلطم إلى شيء فوق عطاء الله . أو حتى زدت ، ولم تسخن : أى ظلت باردة مسرورة ، لا يصبها
ما يسوها . فالسرور دمة باردة ، والحزن دمة حارة . والمهجة : الروح ، والنفس . أو القلب .
وخاب : خسر ، وحرم ، وسُخ . والطرف : العين . ومنها : أى من القرّة والسرور .

(٢٠) المفهوم من المحجمات القوية التى أحلّمتنا عليها أن فعل « الاعتقاد » يعنى بنفسه إلى
المفعول به ، فتقبل : اعتقدت كذا : إذا صدّقته ، وعقدت عليه ضميرك وقلبك ، أو تدبّنت به .
ويلاحظ أن الشاعر هنا عدّى الاعتقاد بالياء « فلولا اعتقادى بالإقضاء » ، كأنه ضمّته معنى « الإيمان »
الذى يمتدّى بالياء . والإقضاء : فصل الأمر . ويراد به هنا : قضاء الموت وقدره وحكمه الذى لا معقب
له ، ولا بدّ من نفاذه . أى فلولا إيمانى بأن الموت لا يردّ ، ولا يدفع ، وأن الله كسبه على كل شيء من
خلقه ، وبجمله نهاية محبوبة لهذه الحياة الدنيا لقطعت نفسى . واللهفة : الحزن ، والتحسر على الفاتت .
وعطفها أو قريب منها التندّم : مصدر تندّم على الشيء : أى تحسّر عليه وتلهّف وحزن .

فَبَا خَبْرًا شَفَّ الْقُوَادَ ، فَلَوْشَكَتْ سُوَيْدَاؤُهُ أَنْ تَسْتَجِيلَ ، فَتَسْجُمَا (٢١)
إِلَيْكَ ، فَقَدْ قَلَمْتَ عَرَشًا مُنَمَّا وَقَلَلْتَ صَمْعَامًا ، وَذَلَلْتَ صَبِيغًا (٢٢)
أَشَادَ بِهِ النَّاعِي ، وَكُنْتُ مُحَارِبًا فَالْقَيْتُ مِنْ كَفِّي الْحَسَامَ الْمُصَمَّا (٢٣)

— والمعنى : أنه يؤمن بأن الموت من قضاء الله الذي لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه . ولولا هذا الإيمان للحيت نفسه حل أمه حشرات .

(٢١) يرید بالخبر : نبأ الموت : أى نعى أمه إليه وهو فى الحرب . وشفَّ الخمّ والمرض ونحوهما (من باب رد) : هزله ، ونخله ، وضمره ، وأزقه ، وأوهنه ، وأضناه . ولوشك : سرع ، وقرب ، ودنا . وهومن أفعال المقاربة . وسويداء القواد : سواد القلب ، وجهته (تصغير السوداء) . وتستجیل : تحوّل ، وتغيّر ، وتقلب عن حالها ، فتصير بعد جودها وتلوب . وتسجم (بالبناء لفاعل ، أو بالبناء للمفعول) : تسيل ، وتتصبّ . أو تُسال ، وتُصبّ : الأول مضارع سجم اللعق والمطر ونحوهما (من باب دخل) : أى انسجم ، وسال ، وجرى ، وانصب . والثانى من سجمت العين دمعها ، وسجمت السحابة ماعا (من بابى ضرب ودخل) : أى أسالته ، وصبّته ، فانسجم ، وانصبّ ، وانسكب . يقول : إن نعى أمه إليه شفّ قلبه ، وكاد يذيه ، ويسيله ، وينهب به ، ويقضى عليه ، ويردّ به .

(٢٢) « إليك » : اسم فعل أمر : بمعنى تنعّ حتى ، وتباحث حتى . والمخاطب الغدير بمعنى النوى فى البيت السابق . وثَلَمْتَ : كسرت ، وحطمت . والعرش : العزّ . وقوام الأمر ، وسلاكه ، وركن الشيء ، ودعامته وعماده . وثُلّ عرشه : أى وهى أمره ، وضمت شأنه ، وذهب عزّه . والمنع : المنع القويّ العزيز ، الحصين ، الذى لا يقدر عليه من يرده . وثَلَمَ عرشه المنع : أى أوهى ما كان قويا من أمره ، وضعفه ، وأضعف سُنَّتَه . وثَلَمْتَ : كسرت ، وحطمت . مبالغة فى « قلّه » . والصمصم : السيف للصارم ، الحاد القاطع ، الذى لا يثنى . وذَلَلْتَ : أضعفت ، وأوهنت ، وأخضعت . والضميم : الأسد الواسع الشدق .

والبيت كله — كالبيت الذى سبقه — مبالغة مقبولة فى بيان ما كان لنعى أمه من أثر سيّء شديد فى نفسه ، وفى حياته . وفى البيت — مع هذا — فخر شئى بما كان له من عزة ومنه ، وقوة وبأس شديد ؛ فإن الكلمات : (العرش المنع . والصمصم . والضميم) تشير إلى هذه المفاهيم ، بل إلى أكثر منها . (٢٣) أشاد بالناعى : أجلته ، ورفع به صوته . و « به » : أى بالخبر : وهو نعى أمه إليه . والناعى : الذى ينهى الحيت (من باب نعى) : أى يذيع خبر موته ، ويبلّغه . والحسام : السيف الحاد القاطع . والمصم : اسم فاعل من صمّ السيف ونحو تصميماً : أى نسيب ، وعضّ ، وقطع ، وطبق ، ومعنى إلى العظم ، وأصياب المفعول .

مازال الشاعر يبالغ مبالغة مقبولة فى بيان أثر نعى والدته إليه وهو يحارب ؛ فقد سمع النعى ، فاهتزّت له مشاعره ، واضطرب أمره ، واشتد به الجزع ، فألقى سلاحه ، وأحضر برهة عن القتال وانزال .

وَطَارَتْ بِقَلْبِي لَوَعةٌ لَوْ أَطْعَمْتُهَا لَأَوْشَكَ رُكْنُ الْمَجْدِ أَنْ يَنْهَضَا (٢٤)
وَلَكِنِّي رَاجِعْتُ حِلْمِي ، لِأَتَشْنِي عَنْ الْحَرْبِ مَجْمُودَ اللَّقَاءِ مُكْرَمَا (٢٥)
فَلَمَّا اسْتَرَدَّ الْجُنْدَ صَنِيعٌ مِنَ الدُّجَى وَعَادَ كِلَا الْجَيْشَيْنِ يَرْتَادُ مَجْشِمَا (٢٦)

(٢٤) طارت: بقلبي: ذهبت به في عنف وقوة، وشغفة وسرعة. والوعة: حرقه في القلب، والم من دم ونحوه. و«لو» هنا: حرف يفيد امتناع الجواب لا امتناع الشرط، فالشاعر لم يطلع الوعة، فلم يهدم مجده، وبقي راسخاً شامخاً قوياً متيناً.. وأوشك: دنا وقرب وأسرع. وركن الشيء: أحد جوانبه التي يستند إليها، ويقوم عليها. والمجد: المزم والشرف، والرفعة والملاذ.

والحنى: أن نهي أمه إليه لإخذه وأجزمه وأحرق عقاده. ولو انقاد لبيعة الحزن، لطوفت حل نفسه، رنيرت مجرى سلوكه في الحياة، وأثمدته من مواصلة الحرب والقتال، وهذا ينهار ما وسع وسما من عزه ومجده، وشره وصيته. والبيت الآتي يؤول به هذا المعنى.

(٢٥) واجعت حلمي: رجعت إليه، وأهدتني يهديه، وهولت عليه. والحلم: الأناة، والصبر، والوقار، والمقل، وضبط النفس. وأتني من الحرب: أهدني منها، يهد أن تفسح أوزارها. ويراد باللقاء: ملاقاته الأعداء واستقبالهم وموايبتهم. واللقاء المحمود: هو القائم على الكفاح والجلاء، وشدة الهأس، والاستبسال، وحسن البلاد.. و«محمود اللقاء»: حال من فاعل وأتني. و«مكرمًا»: حال ثانية: اسم مفعول من كرمه تكريمًا: أي أكرمه، وعظمه، وفشله، ونسبه إلى الكرم بمعناه العام، وهو جماع الفضائل والامداد، والمكرمات، والأخلاق الفاضلة، والخاصات الكبيرة، والأعمال العظيمة التي تظهر من الإنسان. وفي مقدمتها الجهاد في سبيل الله، وحرب الدفاع عن النفس والوطن.

يقول: إنه حالج الجرح والأسى بمراجعة حلمه وعقله، ليواصل جهاده، ويمرر على طبعه وعقله الكرم، ويهد من تلك الحرب بالتمجيده والتكريم.

(٢٦) الصيغ (بكسر فسكون): ما يصيغ به: أي ما تلون به الثياب ونحوها. والصيغ: المصبرخ. ويراد به هنا: بللعات الليل ودياجيه. و«من»: بيانية؛ فإيها وهو الدجى بيان لما قبلها وهو الصيغ؛ جمع دجية: وهي الظلمة. ويرتاد: يطلب ويحتمل (يرتد مجلس ومقعد): اسم مكان من جثم الإنسان والطير والحيوان (من باب ضرب ومعد): أي لزم مكانه، فلم يبرح. أو وقع على صدره، أو تلبذ بالأرض، أو بركه كما يبرك البعير. ويراد بالهشم هنا: المكان الملازم الذي يجد فيه الجيش المخارب منت ومطانيته وراحته المحققة. واسترد: دجى الليل الجند: أي وجد المستحاربين فيها أسدله الليل من حادسه ودياجيه وظلماته فرصة مقيسة، وفترة محمودة يرجعون فيها إلى شيء من الراحة والاستجمام، ويحذون فيها شيئاً من السكون والطمأنينة. وجواب «وما» في صدر البيت الآتي.

صَرَفْتُ عِنَانِي رَاجِعًا ، وَمَسْدَامِي عَلَى الْخَدِّ يَفْضَحْنَ الضَّمِيرَ الْمُكَمَّلَا (٢٧)
فَيَا أُمَّتَا ؛ زَالَ الْعَزَاءُ ، وَأَقْبَلْتُ مَصَائِبُ تَنْهَى الْقَلْبُ أَنْ يَتَلَوَّمَا (٢٨)
وَكُنْتُ أَرَى الصَّبْرَ الْجَمِيلَ مُتَوَبِّعًا فَصِرْتُ أَرَاهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَائِمًا (٢٩)

(٢٧) «صرفت عناني راجعاً» : جواب «لما» في البيت السابق . وصرفت الشيء (من باب ضرب) : ردته عن وجهه . والعنان : سير اللجام الذي تملك به الدابة ، وتقاد . و«صرفت عناني» : كناية عن عودته ورجوعه من صف القتال إلى حيث يستجم فيما حيرته بالحجم . و«راجعاً» : حال مؤكدة لمضى «صرفت عناني» . والمدايع : جمع للمدح : وهو مسيل المدح . أو مجتمعه في نواحي العين ، ويراد بالمدايع هنا : النمرح . والضمير : ما قصده في نفسه : أي تسميته وتباليغ في كنهانه ، وتحرص على إخفائه . وكنتم الشيء تكتيماً : بالغ في كنهانه وستره . والمكتم : اسم مفعول منه . وهو صفة مؤكدة لمضى «الضمير» .

ومضى هذا البيت والى قبله : أنه في ظلمات الليل أغلقت الجيشان المحاربان إلى شبه هدنة قصيرة مؤقتة . وفي أثناء عرجة الشاعر إلى مسكره فاضت عيناه بدموع غزيرة ، أظهرت ما حرص على كنهانه من الأسى والجزع والحزن الشديد .

(٢٨) الأُمّة : الأُمّ . ويا أُمَّتَا : منادى مضاف إلى ياء المتكلم التي قلبت «ألفاً» . والأصل يا أُمَيَّ : أي يا أُمَيَّ . وزال : ذهب . والعزاء : الصبر ، والسلوان . وتلوم على الأمر ، وتلوم فيه : تلبث فيه ، وتمكث ، وترثث ، وانتظر . ويراد بتلوم القلب هنا : صبره ، وقنّيه ، وإخلاده إلى السكينة والطمأنينة ، وسلوه من هذا المصاب الجلل .

ينادي أمّه بعد موتها فداء حمزّون ، وتحتجج . ويعلم أنه لا سبيل إلى الصبر والعزاء والسلوان ، فإن مصيبتها فيها من المصائب التي تجلّ عن الصبر ، وتستصعب على العزاء والسلوان .

(٢٩) الصبر الجميل : هو الصبر الذي لا يساوره الجزع ، ولا شكوى فيه إلى أحد غير الله تعالى . أو هو الصبر عند الصلوة الأولى : أي حبس النفس من الجزع ، وبجهاذتها على احتمال المصيبة ، قبل أن يخفّ أثرها بالسلوان والنسيان . والمقوبة : الثوب ، وحسن الجزاء . والمائم : مصدر أئِمَّ (من باب علم) : أي عمل ما لا يجلّ ، ويقع في الإثم . وهو الذنب والخطيئة .

كان يرى الصبر الجميل من الفضائل والصلاعات التي تستأهل حسن الثواب ، وبغير الجزاء ، فلما ماتت أمّه ، اشتدّ جزعه عليها ، وعاف كل دواعي العزاء والسلوان ، بل صار يرى الصبر الجميل في هذا المصاب من الآثام والخطيئات . وهذه كبرى مبالغاته في رثاء أمّه ، والتصوير الشرقي لجزعه ، وشدة حزنه عليها .

وَكَيْفَ تَلَذُّ الْعَيْشَ نَفْسٌ تَلَذَّرَتْ مِنْ الْحُزْنِ ثَوْبًا بِالْمُوعِ مُتَمَسِّمًا؟^(٣٠)
تَأَلَّمْتُ فَقَدَانِ الْأَحْيَةِ جَازِعًا وَمَنْ شَفَّهَ فَقَدْ الْحَيِّبَ تَأَلَّمًا^(٣١)
وَقَدْ كُنْتُ أَخْفَى أَنْ أَرَاكَ سَقِيمَةً فَكَيْفَ وَقَدْ أَصْبَحْتَ فِي التُّرْبِ أَهْطَلًا؟^(٣٢)
بَلَغْتَ مَدَى تَسْمِينٍ فِي خَيْرِ نَعْمٍ وَمَنْ صَحِبَ الْأَيَّامَ دَهْرًا تَهَلَّمًا^(٣٣)

(٣٠) الاستفهام في أول هذا البيت معناه انني؛ فالنفس الحزينة لا يلدّها لها العيش . وتلذّرت ؛ ليست الدرع ؛ وهو القميص أو الثوب . ومنه ؛ بمثابة . والحزن بيان للثوب . والتركيب في الأصل ؛ وتلذّرت ؛ ثوباً من الحزن . ونعته ؛ نقشه ، وزخرفته ، ورقشه ، وزينه ، وشأه ؛ فهو شتم .
يصف شدة حزنه ، وكثرة بكائه على أمّه . ويقول ؛ إن النفس الحزينة لا تلتذّ بالعيش ، ولا تعرف الحنّاء ، ولا تطيب لها الحياة .

(٣١) يبدو لنا أن الفعل « تألم » لازم غير متعدّ ، وأن « فقدنا » نصب على نزع الخافض . أو على تصمين « تألم » معنى فعل متعدّ مثل « شكّا » . والاستعمال المعروف لنا ؛ « تألم » . منه ؛ إذا تشكّمت منه ، وتوجّع . و « جازعاً » ؛ حال من فاعل « تألم » ؛ اسم فاعل من الجزع ؛ مصدر جزع (من باب تمب) ؛ أي ضعلت مضتعه (قوله) عن حمل ما نزل به ، ولم يجد صبراً . والجزع أبلغ من الحزن ؛ فإن الحزن عام ، والجزع ؛ الحزن الذي يصرف الإنسان عما هو بصدده ، ويقطعه عنه . وشفّه الهـ ، أو الوبد ، أو الحزن أو نحو (من باب رد) ؛ ضمّره ، وحله ، وهزله ، وأوهنه ، وبراء ، وأرقه ، وأضناه . وفقد (من باب ضرب) فقداً (هوذين ضرب) ، وفقدانا (بكسر الفاء وضمتها) . والشطر الثاني تذييل جار مجرى المثل ، مؤكّد لمعنى الشطر الأول .

والمعنى ؛ أن الموت طوي من كان يحبهم ويحبوه ، فحزن ، وجزع ، وتشكّمت ، وتألم ، وتوجّع وتفتّح لفقدانهم . وما زال الجزع يساوره ويقالبه حتى شفه وبراء ، وحله وأضناه .

(٣٢) الأعظم ؛ العظام . واحداً عظـ ، مثل سهم ، وأسهم ، وسهام . والاستفهام في الشطر الثاني يتم على التخصّص والتوجّيع ، والأسى والحسرات .

يقول ؛ كنت لشدة تعلقى بأبي أحرم كل الحرص على صحتها وسلامتها ، وأكره لها المرض ، وأحاف أن يصيبها شيء منه . فكيف تراني اليوم بعد أن طواها الردى ، وفانت نفسها ، وأكلت الأرض جسماً . ولم يبق منها خير جثة هامدة ، وعظام بالية في التراب ؟

(٣٣) للمدى ؛ الأمد ، والمساقة ، والفاقة ، والتهاية . وبلغت مدى تسمين ؛ أي عشت في الدنيا تسمين سنة . والنعمة (بكسر النون) ؛ الحالة الحسنة التي يستلها الإنسان ، والإنعام ، والخص ، واللذة ، والخصب ، والرّفاة ، والحسرة ، واليد البيضاء الصالحة . وما أنم به عليك من رزق ومال وغيره .

إِذَا زَادَ عُمْرُ الْمَرْءِ قُلَّ نَصِيبُهُ مِنَ الْعَيْشِ. وَالنَّقْصَانُ أَقْفٌ مِّنْ نَّمَا (٣٤)

« والنمّة (يفتح النون) : التّمتّع ، والترفّ ، وطيب العيش ، وحسنه ولينه ورفعته ، وغضارته ، وقضاوته ، وإتساعه . أو هما هذه المعاني كلها ، ولا فرق بين كسر النون وفتحها . أو النّمّة (بالكسر) : الإِنعام . و(بالفتح) : التّمتّع . و(بالضم) : الممرّة . وصحب الأيام : عاش ، ومارس الحياة ، وتقلّب في أمورها . ولأدھر : الزّمان الطّويل . وصحب الأيام دھراً : طالت مصاحبته للأيام ، وامتدّ عمره في الحياة الدّنيا .

يقول : إن والدته طالت عمرها في الدّنيا ، وعاشت خيراً حيّة تسعين عاماً ، ولكن طوله عمر الإنسان في الدّنيا ، وأمدّاد حياته فيها قليل يهدم جسمه ، يطوّى حياته ، والقضاء على الممتّرين . والشّطر الثّاني تعليل جاز مجرّي المثل .

وما يناسب هذا المعنى ، أو يتصل به في القرآن الكريم قول الله تبارك وتعالى : « ومن نَسِمْهُ نَنَكْسِهْ في المخلّق » (الآية رقم ٦٨ من سورة يس) . وقوله عز وجل : « الله الذي خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة » (الآية رقم ٥٤ من سورة الروم) . وقوله تبارك وتعالى : « هو الذي خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم يخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ثم لتكونوا شيوخاً . ومنكم من يتوفى من قبل ، ولتبلغوا أجلاً مسمى ، ولعلكم تعقلون » (الآية رقم ٦٧ من سورة طه) .

(٣٤) العيش : المعيشة ، والحياة . وما تقوم به الحياة من المظن والمشرّب ، والدخول . ويراد بالعيش هنا : لذاته ، وشمته ، ووسرّاته . والآفة : كلّ ما يصيب شيئاً فيفسده : من عافة ، أو مرض ، أو قحط ، أو نحو . وما (من باب روى ، ومما) : زاد وكثر . و« النقصان آفة من نَمَى » : في معنى « لكل شيء إذا ما تم نقصان » .

وهذا البيت شرح وتفصيل لمعنى الشّطر الثّاني من البيت الذي قبله « ومن صَحب الأيام دھراً تَهْدِمُها » فزيادة عمر المرء في الدّنيا : هي طول مصاحبته للأيام . وقلة نصيبه من العيش هي التّهدّم . و« النقصان آفة من نَمَى » : تعليل مؤكّد لهذا المعنى . والحياة إنّما تطيب بالصّحة والشّباب ، فإذا زاد عمر الإنسان ، وطالت مصاحبته للأيام ، قلّ حظّه من متع الحياة ولذاتها ووسرّاتها ، ونقص التّصير بالصّحة والشّباب ، فتكدّ رتّ حياة الممرّ ، وبسات حالته ، وفقدت معيشته ، وسُمّ الضعف والعجز ، كما يقول أبو الطّيب المتنبي :

وإذا الشيخ قال « أدّ » فأكّد ليّ حياة ، وإنما الضعف ملاّ

آفة العيش صمّة وشباب فإذا وليّا عن الممرّ ولّى

أبدأ تستدّ ما تبّ السدّد يا ، فإلّيت جريها كان بخلا

ويلاحظ أن بيت البارودي وهذه الأبيات الثلاثة تجري مجرى الحكم والأمثال ، وأن البيت الثّالث منها قريب من معنى البيت الأوّ : « فإلّيتنا كنّا تراباً .. »

فَيَا لَيْتَنَّا كُنَّا تُرَابًا ، وَكَمْ نَكُنْ خُلِقْنَا ، وَلَمْ نَقْدَمْ إِلَى الدَّهْرِ مَعْلَمًا (٣٥)
 أَبِي طَبَعُ هَذَا الدَّهْرِ أَنْ يَتَكْرَمَا وَكَيْفَ يَدَى مَنْ كَانَ بِالبُخْلِ مَغْرَمًا (٣٦)
 أَصَابَ لَدَيْنَا غِرَّةٌ ، فَأَصَابَنَا وَأَبْصَرَ فِينَا ذِلَّةٌ ، فَتَحَكَّمَا (٣٧)
 وَكَيْفَ يَصُونُ الدَّهْرُ مُهْجَةً عَاقِلٍ وَقَدْ أَهْلَكَ الْحَبِيبِينَ : عَادًا ، وَجَرُّهُمَا (٣٨)

(٣٥) «فيا ليتنا» : «يا» : حرف فداء . والمنادى علوف . أو هي لجرء التنبيه . «وليت» حرف تمنٍّ ، يتعلق غالبًا بالمستحيل أو المصطّر . يقدم من سفره (كلم) قديمًا ، ويقدم (يوزن مطع) . يقدم على الأمر : أقبل عليه . يقدم إلى الأمر : قصد إليه . يقدم (كنصر) : تقدم . ويراد بالدهر : الحياة الدنيا . والمبارزان : «ولم تكن خلقنا» «ولم نقدم إلى الدهر» : كلناهما تفسير بتأكيد لمضى : «فيا ليتنا كنا ترابًا» .

اشتد جرح الشاعر على أمه ، وحمله الأذى على التبرّم بالدنيا ، فقصى لو كان فيها ترابًا ؛ فلم يصحبها ، ولم يخلق فيها بشرًا ، يمسّ ويشعر ، ويتأمّ ويتنصّع ، ويشقى بمصائبها ونكباتها ، ويتعسر كلما استردّت حياتها . كما قال المتنبي :

أبداً تستردّ ما تهبّ الدنف يا ، فها ليت جيدها كان بخلا

وفي القرآن الكريم : «يوم ينظر المرء ما قدمت يداه» ويقول الكافر : يا ليتني كنت ترابًا . (الآية رقم ٤٠ من سورة النبا) .

(٣٦) الدهر : الزمان الطويل . والأبد المديد . وبمعنى الحياة الدنيا كلها . وقد اعتاد الناس وبخاصة الشعراء - أن ينسحبوا إلى الدهر الخبير والشمر ، والمرة والمساء . والشاعر في هذا البيت ، وبمعنى الأبيات بهذه يلمّ الدهر ويشكو ويتبرّم به ، ويشعر بمساويه . وتكرّم : تكلف الكرم . وتكرّم عن الشرف والشوائب : أي تنزّه عنها ، وتطهّر وترفع وتباعد . والاستطعام في أول الشطر الثاني : معناه الننى . ويؤى القاتل القتل (من باب روى) : أصلى وليّته ، أو أهله دينته ، وهي العرض المال . والمعلم : المولى بالشعر ، لا يصبر على مناقشته .

يقول : ليس في طبع الدهر شيء من التكرّم ، أو الخبير . ولكن في طبيعته الشرّ والشوائب . وإنه ليقول ، وينسى ، ويترأّ ، ويصيب ، ويهمل كلّ البخل بالندية ، أو التوميص ، أو ترضية الرزقين والمصابين .

(٣٧) الفرّة : الفعلة في البقطة . يقال : أصاب منه غرّة ، فيطش به . والدلة : الدلة ، والخصف . وتحكّم : الفرء بالحكم ، واستبدّ ، وتصرف كما يشاء فيها تحكّم فيه . يقول : إن الدهر ويبدد فينا غفلة ونسفاً ، فرمانا بسهامه ، وأصابنا بكوارثه ، واستبدّ بنا ، وتحكّم

لينا . (٣٨) الاستطعام في أول هذا البيت : بمعنى الننى ؛ فالدهر لا يصون المهج ، ولا يحافظ على

هُوَ الْأَرْقَمُ الْخَدَّاعُ ، يَخْفِئُ إِنْ رَمَى وَيَغْفِرُ إِنْ أَوْفَى ، وَيُضْمِي إِذَا رَمَى^(٣٩)
فَكَمْ حَانَ عَهْدًا ، وَاسْتَبَاحَ أَمَانَةً وَأَخْلَفَ وَعْدًا ، وَاسْتَحَلَّ مَحْرَمًا^(٤٠)

— الأرواح ، ولكنه يملك ، ويقتل ، ويلتزم . والمهجة الروح ، والنفس ، أو الدم ، أو دم القلب خاصة . وماتل : لاجئ . والمراد : لاجئ إلى الدهر ، متحصن به ، محتم فيه : اسم فاعل من عقل إليه : أي بلغ ، وأحصى ، وتحصن . أو هو اسم فاعل من عقل (من باب غريب) : أي تجيز بالمثل والإدراك ، والتمييز ، والتفكير . والمعنى : أن عقل الماتل ، وطلعة العين ، واحتباس الحس لا يصطبه من غوائل الدهر . والباقي أول الشطر الثاني : وأوال الحال . والمعنى بعدد حاله . والمعنى : واحد أحياء العرب ، أو المعلن من بطونهم ، أو القبيلة . وعاد : قوم « هذ » عليه السلام ، وكانوا بالأحقاف بين حمران وحمر موت باليمن . وهذه هي عاد الأولى . أما عاد الثانية فهي قبيلة « صالح » عليه السلام ، ونسب « ثمود » . وكانت تسكن « الحجر » بين الحجاز والشام ، إلى وادي القرى في طريق المسافرين من « يثرب » (وهي المدينة المنورة) إلى تبوك . ويهرم (بولته قتل) : « حى » من أحياء اليمن ، ومنهم تزوج سيدنا إسماعيل بن سيدنا إبراهيم عليهما السلام .

والمعنى : أن الدهر ألقى قبيلتي « عاد » و«جرم» والقرين الأولى . وهذا دأبه وعادته : فلهيات أن يحفظ أرواح هريم من الناس ، أو يحصى من احتسى به ، أو يميز من التجأ إليه ، أو يقي من غوائله عقل الماتل ، وطلعة العين ، أو يدفع شره تفكير أو تدبير .

(٣٩) الأرقم : الدهر الشديد ، الكثير الهلايا والأحداث . والخداع : صفة مهالفة من خدعه (من باب قطع) : أي غطه ، وفره ، ويكره به مكرًا سيئًا ، وأظهر له خلاف ما يظفيه ، وأراد به المكره من حيث لا يعلم . ويخفى : يفتد ، ويخون ، ويتنقض العهد : لمسارح غفره (من باب ضرب) . أو أغفره إغفارًا . وعاد : حلفه ، وحماه ، وصانه ، ووقاه ، وتمهده ، وقولاه . وأوفى بالوعد والعهد : وفى ، والإيفاء والوفاء : ضد التندر والإخفار والحياة . ومعنى : « يخفى إن رمى » ، ويغفر إن أوفى : إن الدهر يضمم الإخفار والتندر والحياة ، وإن أظهر الرماية والبقاء والوفاء . أو المعنى : أن رمايته إغفار ، ووفاه غفر : أى هو بطبيعته غفر غدار ، لا يرعى عهدًا ، ولا يقي بوعده ، ولا يهون حقًا أو حرمة أو نخسة ، ولا يكاد يدين بالمسألة والوفاة . ويصسى : يصيب الهدف إصابة تامة .

أشار الشاعر بهذا البيت إلى كثير من شرو الدهر وشيائنه ، كالشدّة ، والقسوة ، والبطلان ، والإخفار ، والتندر ، والإقصاء ، والخداع ، والخيافة ، وكثرة ما يصيب به الناس من الهلايا والأحداث . والبيت الآتي في جملة تكرار وتأكيد لمعنى هذا البيت .

(٤٠) « كم » : خبرية تدلّ على عدد كبير . وتميزها محذوف : أي كم مرة أو مرات . وفاعل « حان » : ضمير الدهر . والعهد : الموثق ، واللمعة ، والحرمة ، والأمان ، واليمن ، والوفاء ، والضمان —

فَإِنْ تَكُنِ الْآيَامُ أَحْتَتْ بِصَبْرِهَا عَلَيَّ ، فَأَيُّ النَّاسِ يَبْقَى مُسْلِمًا ؟ (٤١)
وَلَا تُؤْنِي لِأَقْدَرِي أَنْ عَابِقَةَ الْأَمْسَى - وَإِنْ طَالَ - لَا يُرَوِّى غَلِيلاً تَضُرُّهُمَا (٤٢)
وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تَرَى الصَّبْرَ سُبَّةً عَلَيْهَا ، وَتَرْغَى بِالتَّلَهْفِ مَغْنَمًا (٤٣)

والجدة . واستباحه : حذاه مباحاً : أى حلاً غير ممنوع . والأمانة : البرية . والشيء الذى يأمنك
غيرك عليه . واستباح الأمانة : غابها . واستحل المحرم : حذ الحرام الذى لا يحل ، ولا يجوز فعله حلاً
مباحاً ، غير محظور ، ولا ممنوع .

والبيت تكرار ، وتأكيده ، والتفصيل ، وتعليل لمضى البيت السابق .

(٤١) أى على الدهر : أى عليه ، وأهلكه . وصرف الأيام : وصرف الدهر : لولاه ومصابه
ومدائله . وجسمه صريف . وأحنت على الأيام والليالي بصرفها : أى صبت عليه بلاهاها ، وأصابته
بكوارثها . والفطر الثانى دليل جازم على الخلل . والاستفهام فيه : بمناء النسي ، ولله معنى التضرى
والنسي ، فإنه لا سلامة لأحد من صروف الزمان ، ولا نجاة لإنسان من الخلدان .

وهذا البيت عظام ستة أبيات فى شكوى الدهر ، وبيان شوائبه وشروبه . وفى قريب من هذا المعنى
يقول أبو الطيب الخنسي :

حسب الناس قبلنا ذا الزمانا وعنام فى شأنه ما عثانا
وترلوا بفصحة كلهم منّا ، وإن سرّ بغيرهم أحياناً
ربما تحسن الصنيع لباله ، ولكن تذكر الإحسانا

(٤٢) الغليل : شدة العطش ، وحارته . وتضرم : اشتد ، وجاوز الحد : من تضمرت النار :
أى انقادت . واشتعلت . كوريد بالغليل المختصرم : تحسره وتلهفه ، ويجزمه ، وشدة حزنه لولاه أنه .
وطائل : طال : فى تفسير الأسي : وهو الحزن . وألأسا : العلاج والمداواة .

ولمضى حل الأول : أن الظلمة الحزن ، والتمادى فيه لا يطفى ما يضاهيه من حرق الوجد والتحسر ،
ولوعات ألم والتلهف ، فالده لا يمالج بالده ، وإنما يمالج الناسى والتضمرى ، ويداويه التصبر والسلوان ،
وكان الشاعر يبنى نفسه من الجزع ، ويحمله على الصبر والسلوان . والمضى حل الثانى : أن حزنه حل
أمره شديد ، متأجج ، متجدد ، لا يهدى فيه الناسى والتصبر ، ولا يداويه التضرى والسلوان . وكأنه
بهذا يملن يأسه ، ويؤس من يحاول تعزيته .

(٤٣) السبّة : العار والتلهف : مصدر تلهف على القاتل : أى حزن ، وتحسر . والمغم :
الغنىمة : وهى ما يؤخذ من المخاربين فى الحرب فتوة وجهراً . ويراد بالمغم هنا : التريح والكسب .

فى البيت السابق أكد الشاعر أن الحزن - وإن طال لا يروى غليله ، ولا يطفى لوعته ، ولا يرد
القائت ، وهذا المعنى حسن لنفسه الصبر ، وأرادها حل السلوان . وفى هذا البيت استدراكه ، ثم خالف

وَكَيْفَ أَرَانِي نَاسِيًا عَهْدَ خُلَّةٍ أَلِفْتُ هَوَاهَا نَاشِئًا ، وَمُحْكَمًا ^(٤٤)
وَلَوْلَا أَلِيمُ الْخَطْبِ لَمْ أَمِرْ مُقَلَّةً بِدَمْعٍ ، وَلَمْ أَفْقَرُ بِقَافِيَةٍ فَمَا ^(٤٥)

= هذا الحكم ونقصه ، فقال : إن نفسه لا ترضى الصبر ، ولا تقبل التجلّد ، بل تراه سبّةً وهاراً .
وترتاح لدوام التحزّن والتلهّف ، وتراه مفنأً ووجهاً .

ويلاحظ أن هذا البيت قريب من معنى البيت التاسع والعشرين :

« وكنت أرى الصبر الجميل مشوية فصرت أراه بعد ذلك مأثماً »

وهما من المبالغات في رثاء أمه ، وتصوير شدة حزنه عليها .

(٤٤) الاستفهام في أول هذا البيت : معناه انى ، فهو لن ينسى عهد أمه وذكرها . أو معناه التعجب مع الإنكار ، فهو إذا نسى عهد أمه كان نسيانه مثار العجب والدهش ، ودمعة الاستنكار والاستعجاب . وأرانى ناسياً (بالنسياء للمجهول ، أو بالنسياء للمعلوم) : الأول بمعنى أنسى ناسياً . والثاني بمعنى أذهب إلى النسيان وأنساه . ولم يسمع مضارع « رأى » بمعنى الظن إلا مبتدئاً للمجهول . والعهد : الموعد ، والوفاء والحفاظ ، والمودة ، والمعرفة ، ورعاية الحرية . والعهد : الزمان . والخلة (بنسب الخاء) : الخليل والصديق . يستوى فيه المذكر والمؤنث ؛ لأنه في الأصل مصدر . والخلة : الصداقة والمحبة المختصة التي لا تخل فيها ، ولا يرضى : أو التي تفتقت القلب ، فصارت خلاله : أي في باطنه . والخلة (بكسر الخاء) : المصادقة والإعلاء . ويريد بالخلة : أمه الحبيبة . أو محبة أمه ، وشدة تعلقه بها . وعهدها : موثقتها ، والوفاء لها ، والحفاظ علىها ، ورعاية حقها وحرماتها . وألفه (من باب علم) : أنس به ، وأحبه ، واعتاده . والمهوى : مصدر هوته (من باب هوى) : أي أحبه ، وتعلقت به . والثانى : الغلام جاوز حد الصغر ، وشب ، ونما . والمحكم : اسم مفعول من حكموه في الأمر تحكماً : أي فوضوا إليه الحكم فيه : أي جعلوه حكماً يفصل في المنازعات . وحكموه : وقضوه ، وأقاموه سأكماً . وهذا كله لا يكون إلا عن تجربة وعلم في المحكم . وهو خلاف الثافى أو الشاب أحدث . وفي القاموس أن المحكم (بوزن المحدث) : الشيخ المجرب .

والمنى : أنه أسبّ أمه كل الحب ، وتعلق بها غلاماً وكهلاً ، أو صبيّاً وشيخاً ؛ فلن ينسى عهدها ، ولن يخفّ حزنه عليها . والبيت تكرار وتأكيد وتصيل لمعنى البيت السابق .

(٤٥) أليم : مؤلم ، موجع . والخطب : الأمر الشديد ، والنائلة : والمصيبة . ويجمعه خطوب . ويرى الخالب أنثاقه (من باب رى) : مسح ضرعها ، فدرّ لبنها . والمقلة (بوزن الفرقة) : شحمة العين التي تجمع سوادها وبياضها . ويرى مقلته بالدمع : أي أرسل الدمع من عينه غزيراً . ومعنى الشطر الأول أن وفاة أمه كان خطباً أيماً أجزمه وأيكأه . وفقره (من باب فقح) : فقه . وفقره بقافية : أي فطق بشعر . والقافية في الشعر : الحروف التي تبدأ بمشرك يليه آخر ساكنين في آخر البيت ، بقافية هذا البيت مثلاً : « ة فا » : أي من التاء المربوطة المنونة إلى ألف « فا » . وقد يراد بالقافية الرويّة

فَيَا رَبَّةَ الْقَبْرِ الْكَرِيمِ بِمَا سَوَى وَتَقْتِكِ الرَّدَى نَفْسِي وَأَيْنَ؟ وَقَلَّمَا^(٤٦)
وَقَلَّ يَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ فِدْيَةَ رَاحِلٍ تَحْرَمُهُ الْيَقْدَارُ فَيَمَنَ تَحْرَمًا^(٤٧)
سَقْتَكِ يَدُ الرِّضْوَانِ كَأَنَّ سَكْرَامَةً مِنَ الْكَوْثَرِ الْفَيَاضِ مَعْسُولَةَ اللَّحْمِ^(٤٨)

هو الحرف تبنى عليه القصيدة ، وتنسب إليه ، فهذه المراثية - مثلاً - ميمية ، وقائيتها : أي رويتها حرف الميم . ويراد بالقافية هنا : الشعر . أو البيت الواحد من الشعر .

يقول : إنما شجاء وأبكاه ، وأنطقه بهذه المرأة فادح الخطب ، وشدة المصاب .

(٤٦) ربة القبر : صاحبه . والكريم : العزيز النفيس : صفة من كرم الشيء (بوزن عظم) : أي عز ، ونفيس . وه الهاء هنا السببية ، فإنما انتصفت هذا القبر بالكرم والدمعة والغفلة ؛ لأنه سوى جنة أمه : أي عسها ، واشتمل عليها . ووقاه الله سوء : كلاء منه ، وحفظه ، وصانه ، وسماه . والردي : المهلك . و« وتقتك الردي نفسي » : أي وتقتك بنفسي من الردي . وهي جملة دعائية ، كما تقول لمن تلتد به بنفسك : أي ترمي نفسه أعز عليك من نفسك : « جنيلي الله فذاك » . و« أين » أداة استفهام ، يطلب بها تعيين المكان . و« قلما » : « قل » : فعل ماض ، اتصلت به « ما » الزائدة ، الكافاة عن محل الرفع ؛ فلا يحتاج الفعل معها إلى فاعل ، وتلها جملة فعلية . والتقدير : « وقلما يعبى هذا الدعاء » . وتقيد « قلما » التثني الصرف ، أو إثبات الشيء القليل . وهي هنا : فني الصرف . « فأين » : استفهام عن مكان وجود أمه . و« قلما » فني لهذا الوجود الذي أزاله الموت . أو فني لفائدة الدعاء التي قدّمه بقوله : « وتقتك الردي نفسي » .

نادى أمه فداء إعراز وتكريم ، ويحمد القبر الذي سوى جشها ، وتنامى أنها ماتت ، فدعا بأن تكون نفسه فداء لها من الردي والسوء . وما لبث أن استدرك ، فقال : إنه لا قيمة لهذا الدعاء ، ولا فائدة منه ؛ فقد أدرك الموت أمه ، وطواها الردي .

والبيت الآتي شرح وتفصيل وتأكيده لهذا المعنى .

(٤٧) الاستفهام في أول هذا البيت : معناه التثني ، فالبيت لا يستطيع فداؤه ، وفداء من الأسر وضوء : أي استعذه . حال أو غيره ، فخطبته بما كان فيه . والفدية : ما يقدم من مال وضوء لتخليص المفقود . وراحل : اسم فاعل من رحل : بمعنى ارتحل ، وسار ، وبضى ، وذهب . وتحرّمه : استأمله ، وأرداه ، وأهلكه . وأفناه . والمقدار : التقدير (يفتح اللّاف والذال) : أي الحكم ، والقضاء الذي يقضى به الله على عباده . ويراد به هنا : قضاء الموت . وفيمن تحرّم : أي في حداد من تحرّمهم من الناس . وقد تكون « في » هنا : بمعنى المصاحبة : أي مع من تحرّمهم الموت وأفناهم .

(٤٨) الرضوان (بكسر الراء ، وضمه) : الرضا الكثير . وهو من مصادر رضيه (بوزن لقيه) : أي استأمره وقبله . والمراد : رضوان الله تبارك وتعالى . والكأس : القدح ، أو الإناء يشرب

وَلَا زَالَ رَيْحَانُ التَّحِيَّةِ نَاضِجًا عَلَيْكَ، وَهَفَافُ الرُّمَّاحِ مُتَنَسِّمًا^(٥١)
لِيَبْكِكَ عَلَيْكَ الْقَلْبُ، لَا التَّيْنَ، إِنَّنِي أَرَى الْقَلْبَ أَقْوَى بِالْمُهْودِ وَأَكْرَمًا^(٥٢)

فيه . وهي مؤنثة . والكلمة : اسم بمعنى التكريم ، أي الإكرام والإعزاز . وسقطك يد الرضوان كأس كرامة : أي كأساً يراد بها التكريم ، والحفاوة ، والإعزاز ، والاحتفال . والكور : الخير العظيم . أو هو نهر عظيم في الجنة ، تتشعب منه الأنهار . والقياس : صيغة مبالغة من فاض الماء : أي كثر ، وزاد ، حتى سأل . ويمسولة : مزوجة بالمثل . وهي صفة لكأس . والمراد ما فيها من الشراب . والي (مطلقة اللام) : سمة مستحسنة في باطن الشفة . وقد يطلق الي على الرق البارد : أي العاب البارد . ويراد بالي هنا : الشراب الشهى الذي حوِّله الكأس .

دها الله تبارك وتعالى أن يفيض على أمته من بحره العظيم ، ويفضله العم ، ويفضله برحمته ورضوانه وكرامته وإحسانه .

(٤٩) الرِّيحَان : لبت من فصيلة الشفويات ، ذو رائحة ذكية عطرية . أو هو كل نبات طيب الرائحة . أو هو الرحمة والرزق . والصحة : السلام . وريحان التحية : الريحان الرامز إلى التحية . أو التحية الشبيهة بالريحان ، فهو من إضافة المشبه به إلى المشبه . ولبات ناضر : ذو نصرة . وهي الحسن والرواق ، والهبة ، والجبال ، والإفراق ، والبريق ، والصفاء ، والبهاء . وهفَّاف : صيغة مبالغة من هفَّ الرِّيح : أي هبَّ ، ففسح هفيلها : أي صوت هبوبها . وريح هفَّاف : طيبة ، سريعة السور . ويراد بالرمَّاح : رضوان الله تبارك وتعالى ، ورحمته ، وكرامته ، وإحسانه ، وحفاوته ، وغفرانه . وتتنسَّم (بصيغة اسم الفاعل) : لطيف الخفيف ، طيب ، معتدل الحركة : من تنسَّمتُ الرِّيح : أي هبَّتُ هبوباً زويداً . أو أوج ، صغر ، ذكى الرائحة : من تنسَّم المكان بالطيب : أي أوج ، وفتح فيه الطيب وانتشر . أو هو تنسَّم (بصيغة اسم المفعول) : من تنسَّمتُ الرِّيح تنسماً : أي تشمتها في أريجها وشعور بالسور . وتنسَّمتها : تنسَّمت منها : أي ملأت منها رثي ، واستعمت بها ، وتبعت نسيمها . ومن الشطر الثاني : ولا زلت تنسَّمين ، وتنسَّمين بالطيب الهفَّاف ، الأوج الطيب ، الذكى السَّحَر من رحمة الله وبرِّه ضالاه .

والبيت كله دهاء سار خالص لولائه بأن تتوالى عليها باستمرار مرضاة الله تبارك وتعالى ، ورحمته وكرامته ، وبرِّه وإحسانه إلى أن يبعث الله من في القبور .

(٥٠) اللام المكسورة في أول البيت : لام الأمر ، وتسمى لام الطلب . والمهود : جمع المهود : وهو الموق ، وأمين ، والحفاظ ، والأمان ، والمنة ، والالتقاء ، والمعرفة ، والمودة ، والوصية ، والضيان ورواية الحرمة .

آثر أن يبكي أمته بقلبه ، لا بعينه ، وصرَّح في الشطر الثاني بسبب هذا الإيثار ، فإن القلب لا يتصور إلا في قصة البرِّ والكريم ، وأعلى مراتب الوفاء بالمهود ، ويعبر بالقلب عن الروح ، والنفس ، =

قَوْلُهُ لَا أَنْسَاكَ مَا ذَرَّ شَارِقُ وَمَا حَنَ طَيْرٌ بِالْأَرَاكِ مُهَيِّنًا^(٥١)
عَلَيْكَ سَلَامٌ لَا لِقَاءَهُ بَعْدَهُ لِمَا الْحَشِرُ لِثِيْلَقَى الْأَخْيَرِ الْمُقَدَّمَا^(٥٢)

والمقل ، والهم ، والعلم ، والإحساس . وهو مركز الحب والملاطفة ، ومنبع الرحمة والحنان ، ويصدر الخبر والإحسان ، وحزن القلب أشد الحزن وأصدق ، ولديه وأبقى .

(٥١) « ما في الشطرين الأول والثاني : مصدوية زمانية : أي لا أنساك مدة ذور الشارق ، وبدة حنين الطير : أي مدة الحياة الدنيا كلها ، فإن الشمس لا تفتأ تشرق وتغرب ، والطير لا تبحر تمنّ ويقيم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . يذرت الشمس (من باب قد) : ظهرت أول شروقها . والشارق : الشمس حين تشرق . ومن الطير : من الحنين : وهو صوت الطير عن حزن وتوجع : أو عن شوق وتوقان نفس ، أو فرح وسرور . أو هو من الحنان : بمعنى الترحم والطف ، وربة القلب . والأراك : واحدته أراك : وهي شجرة كثيرة الفروع ، عذابة العود ، متقابلة الأوراق ، يستاك بغصنها . ولها ثمر أحمر داكن ، يركل . وتنت في البلاد الحارة ، وفي صحراء مصر الجنوبية الشرقية . ويراد بالأراك هنا : الشجر مطلقاً . وهيئاً : حال من الطير : اسم فاعل من هيئ : أي تكلم ، وأغنى كلامه . أو غشت بصوته .

أقسم بالله تبارك وتعالى أن ين كلّ البقاء بعهد أمّه ، ويذكروها بحجته آت بعد الآباد ، ودهر الداهرين . (٥٢) لقائه (بكسر اللام وفتحها) : أحد مصادر لقيه (كرضيه) : أي استقبله ، وصادفه ، وراه . والحشر : مصدر حشر الله الموتى (من باب نصر وضرب) : أي يجمع من قبورهم ، ويجمعهم . قال تعالى : « وحشرناهم ، فلم نغادر منهم أحداً » (الآية رقم ٤٧ من سورة الكهف) . وقال تعالى : « فسيحشرهم إليه جميعاً » . (الآية ١٧٢ من سورة النساء) . ويوم الحشر : يوم القيامة : ويوم التلاق : ويوم البعث : ويوم النشر : ويوم النشور . ويراد بالأخير والمقدم : لللاحقين والسابقين ، من شهدوا الحياة الدنيا ، وأثأروا الأرض ، وعمروها ، وحلّوها بها ، ورحلوا منها ، من عهد آدم إلى أن تقوم الساعة ، ويرث الله الأرض ومن عليها ، في يوم القيامة يتلاق المقدم والأخير ، والوالد والولد ، ومن عاشوا في طفولة الدنيا ، وأوائل الزمان ، ومن عاشوا في شيخوخة الدنيا ، وأواخر الزمان ، قبيل قيام الساعة .

تعقيب وجيز

أطال البارودي في رثاء أمّه ، وتجاوزت مراثيه حسين بيتاً ، ثمّ كلها على التلجّع والحزن العميق ، وتناول أوليئها ما أثر من المراثي في الشعر العربي . والملم بتاريخ محمود سامي البارودي لا تدهشه هذه الإطالة وهذه الإجابة : فقد تطفّى والده وتركه صغيراً لم يتجاوز سبع سنوات ، فتولّت أمّه أمره ، وأصنّت تربيته ، وقصرت حياتها وجهدها على تنشئته وتربيته ، وكفالتة ، وتمازى العناية به ، حتى كان له في الحياة ذلك الشأن العظيم ، والمقام الرفيع ، والصيت الذائع ، والأثر الخالد ، فلا غرو أن تعلق بأمله طفلاً ، وبأفهامه ، وشاباً ، وكهلاً ، وشيخاً ، ووفى لها كلّ الوفاء ، وبرّها غاية البرّ ، واشتدّ جزعه عليها بعد وفاتها ، وبكأها ذلك البكاء الحارّ ، وصوّر بهذه المراثية شيئاً من برّه ، ووفائه ، وجزعه ، وتلقّجه .

وَقَالَ يَرْفِي أَحَدَ قَوَادِ الْجَيْشِ ، وَقَدْ مَاتَ بِأَقْرِطَشَ :

أَيُّ فَتَى لِلْعَظِيمِ نَسْبُهُ شَاطِعَ عَلَى أَنْصُلِ الرِّيحِ دَمُهُ^(١)

• رَفِي الميث (من بابي روى ، وهذا) : يكاء بعد موته ، وعدد محاسنه . وكلما إذا نظم فيه شمرًا . ويقال : رثاء بقصيدة ، ورثاء بكلمة . ومن مصادر هذا الفعل : الرثاء ، والمرثاة ، والمرثية .
و«أقْرِطَشَ» . وتسمى «كريت» ، و«كريد» ، و«جريد» : جزيرة مشهورة ببحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) ، تقع في الجنوبي الشرقي من بلاد اليونان ، وتبلغ مساحتها ٣٢٣ ميل مربع . وعدد سكانها (إحصاء سنة ١٩٥١) ٤٦١٢٤ نسمة . وقد احتلها الأتراك المنيون نحو قرنين ونصف قرن من الزمان (من سنة ١٦٤٥ إلى سنة ١٨٩٨ م) . وفي أثناء الحكم التركي اعتنق كثير من أهلها الدين الإسلامي . ولا تزال فيها إلى اليوم بعض آثار هذا الدين الخنيف ، كالمساجد .
ومن أورداتها في وجه الحكم التركي : ثورة سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م) . وقد شبت بتشجيع روسيا ، وساعدة اليونان ؛ فأرسلت الدولة العثمانية جيشاً لإخمادها . وبثت الخديوي إسماعيل من مصر لجنحة عسكرية ، كان «عبد سامي البارودي» من كبار ضباطها . ومن شعره وهو في تلك الحرب قصيدته التي مطلعها :

سرى البرق مصرياً ، فأرقى وحلى وأذكرني ما لست أنساه من عهد
وتسبته التي مطلعها :

أخضت الكرى جمائد الأجفان وهفا السرى بأمة الفرمان

وقد انتهت تلك الثورة بمنح الجزيرة بعض الامتيازات في المؤتمر الذي انعقد بباريس في ١٢ من جمادى الآخرة سنة ١٢٨٩ هـ الموافق ١٩ من سبتمبر سنة ١٨٦٩ م . وفي سنة ١٨٩٧ م شبت فيها الثورة الكبرى التي انتهت بإزغام تركيا على تركها في ١٤ من نوفمبر سنة ١٨٩٨ م . وهنا لبثت أن انضمت إلى اليونان ، وما زالت إلى اليوم يونانية .

• • •

(١) قيل إن المرث هذه القصيدة هو «إسماعيل سليم» ناظر الجهادية ، والقائد العام للحملة المصرية في حروب «كريد» .

«أَيُّ» : اسم استفهام أضيف إلى «فَى» . والاستفهام هنا : معنى التعظيم . أو معناه النفي : أي لن نجد بعد اليوم فتي عظيماً فندبه للأمر العظيم . وهو مع التعظيم أو النفي إم على الأسى والتعسر . وقد تكون «أَيُّ» هنا : خبرية دالة على معنى الكمال ، وإقامة صفة لنكرة محذوفة . والتقدير : المرثي فَيُّ أَيُّ فَيُّ : أي كامل في صفات الفتيان ، سائر لحامدهم ، جامع لمزاياهم وشير شياهم . وتقيل العرب : فَيُّ من صفته كيت وكيت ، من غير تفرقة بين الشيخ والشاب . ومن كلامهم : «هو فَيُّ بين الفتوة» : وفي الحرية والكرم ، والجلود والسناء ، والمروية . والفَيُّ : السخى الكريم ذو المروية . والعظيم : أي للأمر .

أَسْلَمَهُ صَحْبُهُ ، وَمَا عَلِمُوا أَن سَوْفَ يَمْنَحُو وَجُودَهُمْ عَدَمُهُ (١)
زَالَ الْأَلَى حَاذَرُوا مَصَارِعَهُمْ وَلَمْ تَزَلْ عَنْ مَكَانِهَا قَسَمُهُ (٢)

— العظيم ، والشأن الخطير ، والحلب الجلل . وقتديه : ندعو . فديناه لكنا ، وإلى كذا (من باب نصر) فانتدب له : أى دعواه ، فاستجاب ، وصارح . وشاط دمه : بطل ، وضعب هدرا . وأشاط السلطان دم فلان : أى أهدره ، وأبطله ، وأباح قتله . وشاط دمه على أنفصل الرماح : سأل ، وتصيب والمضى : أنه قتل وهلك بأنفصل الرماح . قال الأصبى :

قد تخضب العيرى مكنون سائله وقد يشوط على أرواستنا البطل

ويبدو أن الشاعر اختار الفعل « شاط » ، وتممده ، وقصده : لأن أصحاب المرمى ، ومن كانوا فى قيادته ، وتحت إمرته من الجنيد أسلموه ، وسخّذوه ، وقصموا عن نصرته ، فكأنهم أشاطوا دمه . ويمكن أن يمتدحه أعداءه وأعدائهم . والبيتان الآتيان يرجسان هذا المعنى ، بل يمزجان ويؤكدانه . ونصل الرمح : سناله الذى يقطع ، ويحرق ، ويقتل . وجسمه أنفصل ، ونصال ، ونصلى . والرماح : جمع الرمح : وهو فتاة فى رأسها ستان يطلن به .

والمضى : أن المرمى كان بطلا عظيما . وقد قتل بسلاح أعدائه ، وتهاون أصحابه ، فلم يبق بعده عظيم ينتدب للأمر العظيم .

(٢) أسلمه : سخله ، وأهله ، وتركه لعموه ، أو لمن يفتك به ، أو يضره ، ويؤذيه . وصحبه صحابه ، ورفاقه ، المفرد صاحب . وما علموا : ولم يعرفوا .

والمضى : أن أصحاب هذا الفقيه العظيم تهاونوا به ، وقصموا عن نصرته ، جاهلين أن حياتهم بدونه لا قيمة لها . أو غافلين عن أنهم فقدوا يفقدونه حصنهم الحصين ، ودرهمهم الثمينة ، وشيخ حام لهم ، وأقوى مدافع عنهم ، فأصبحت حياتهم بعده فى خطر ، وأرواحهم فى قبضة أعدائهم .

(٣) زال من مكانه ، وزال من مكانه يزول زوالا : تحوّل عنه ، وانتقل منه ، وفارقه . والألى : الذين . وحلر القوم (من باب تعب) ، وحاذره : خافه ، واحترز منه ، وتنبه . وقواه : والمصارع : جمع مصرع (بوزن مذهب) : مصدر ميمي ، أو اسم مكان من صرعه (من باب قطع) : أى طرعه على الأرض . ثم شاع استعماله فى القتل والفتك ، ف قيل للقتل : صريع . وجسمه صرعى . كما قيل : صرعه المنية . وصرعه ريب الموت . وهذه مصارع القوم . ولكل جنب مصرع . والذين حاذروا مصارعهم : أى جبنوا ، ونكسروا على أقدامهم ، وحلروا الموت : وهم أصحاب القتل ، وجنّده ، ومن كانوا تحت إمرته وقيادته فى الحرب والقتال . والشطر الثانى معناه : أن المرمى لم يفارق مكانه ، ولم ينكسر على حقيقه ، ولم يتهيب بجميع أعدائه عليه ، وانفضاض صعب من حوله ، بل ثبت وصبر ، وجهاد ، وجهاد حتى قتل فى أعلى مراتب البطولة والإقدام .

يقول : إن أصحاب المرمى خافوا ، وجبنوا ، وفروا حذر الموت ، وظلوا عن قائدهم ، وأسلموه . فلم يبال هذا ، ولم يخجل به ، بل ثبت ثبات الأبطال ، وجهاد وجهاد حتى قتل .

طَلَحَ بِجَبَانِهِ الرَّدَى ، وَرَقَا إِلَى سَمَوَاتِ رَبِّهِ نَسْمُهُ (١)
 نِعْمَ قَتَى الْحَرْبِ فِي الْهَبَاجِ إِذْ شَبَّ لَطَى الْبَاسَاءِ ، وَاعْتَلَى صَرْمُهُ (٢)
 قَدْ أَلِفَتْ صُحْبَةَ الْقَنَا يَدُهُ وَاعْتَادَ كَبَيْكَ فِي السَّمَاحِ قَمَةُ (٣)

« وفي معنى الشطر الثاني من هذا البيت قال أبو تمام في مراثيه لأبي نصر ، محمد بن حميد الطائي ، وكان من قواد الدولة العباسية ، ثم قتل في إحدى وقائع الغزوية ، أصحاب « يابك » الحرب :

وقد كان قوت الموت سهلاً ، فردة إليه الحفاظ المر ، وألحق الوعر
 ونفس تواف العار ، حتى كأنما هو الكفر يوم الروح أودعه الكفر
 فأثبت في مستنقع الموت رجله وقال لما : من تحت أخمصك الحشر

(٤) طاح (من باب قال ، وباع) : هلك . وطاح به : أطاحه ، وأهلكه ، وأفناه . والجبان (بالهاء والسين) : الجسم ، والجسد . والردى : الموت ، والمهلك ، ورقا الطائر يرقو : مها ، وارتفع في طيرانه . والنسم : جمع نسمة (يفتح النون والسين) : وهي النفس والروح . وألف تعالي باري النسم : أي خالق الطيور والأرواح . ويراد بالنسم هنا : روح المرثي .
 والمعنى : أنه إذا كان الردى قد طاح بجبان ذلك الفقيه العظيم في تلك الحرب العاتية ، فإن روحه الطاهرة قد صعدت إلى باريها مع أرواح الأبطال الشهداء في سموات الله ونعيمه ، وبيئاته ورضوانه .

(٥) « ثم » : فعل جامد لمح الجلس . والمقصود بالذات فرد من ذلك المجلس . ويسمى ذلك الوليد المخصوص بالملح . نحو ثم أنشيت عمر بن الخطاب . أو عمر بن الخطاب ثم أنشيت . والمعنى هنا : ثم في الحرب المرثي فلان . أو المرثي فلان ثم في الحرب . ولا يلاحظ أن الشاعر لم يصرح باسمه ، بل قدم هذه المرثاة بقوله : وقال يرثي أحد قواد الجيش ... والفتى : السخي الكريم ، وفخر التجدد . وفي الحرب : بطلها المقدام . ويراد بالمهاج هنا : ثوران الحرب ، وشهتها ، وصغفرتها ، وهيبتها : مصدر حاج (من باب باع) : أي ثار ، وتحرك ، وأنبعث . ومنه « المهيجاء » : وهو من أسماء الحرب . وشبه النار : اشتدت ، واشتعلت . والفتى : لقب للنار الخالص ، لا دخان فيه . والباساء : الحرب . أو شهناء . واحتل : علا ، وارتفع . وصرمه : أي صرم الفتى : مصدر صرمت النار (من باب تمب) : أي قصرت ، وأتقتت ، واشتعلت . والنصرم أيضاً : لقب للنار . وشبه الضرام .
 يمنح المرثي بالجددة والشجاعة ، والقبات في البأساء ، والإقدام على الأهوال ، وركوب الأخطار ، والصبر على القتال والنزال إذا حصى الطويس ، ووجدت الحرب . وكان من كرمه وسخائه أن جاد بنفسه في حرب « أقر يمش » ، و « الجريد بالنفس أقصى غاية الجود »

(٦) ألفه (من باب علم) : أدس به ، وأسبه ، وأطمأن إليه ، واعتاده . وصبه (من باب سلم) صبابة : صببة : صاحبه ، ورافقه ، ولأزمه . والقتا : الرباع ، الواحدة قتاة ، ويراد بها ما يستعمله -

لَيْسَ بِعَيْنِهِ ، وَلَا وَكَلٌ بَلْ صَادِقٌ فِي اللَّقَاءِ مُعَرِّفُهُ
إِنْ صَالَ قَتْلَ الْعِدَا بِصَوْلَتِهِ أَوْ قَالَ أَرَوْتُ مُشَاشَنَا كَلِمَةً

« فالحبيب من أسلمة القتال ، و« عليك » : تركيب يفيد الاستجابة ويؤكد بها . وأصله من ألب بالفتح الجلبا . أو من لب يه (من باب نصر) لبأ : أى أقام به ، وزنه ، ولم يبرحه . وتبى التأكيد ، ويضيف إلى كلف المتعاطف . « منته » : أنا محقق على طاعتك إليجا بعد إلياب : أى فاقمة بعد إقامة ، يجب لك إجابة بعد إجابة . أو منته : التبعي إليك ، وقصدي ، وإقبالى حل أمرى . من غير : تولى تغلب حكى : أى تواجها وتهاذبا . والسبح . والسياسة : الجود ، والكرم ، والسخاء ، والعداء .

والمنى : من عاصم المرئى وعلمده : أنه محارب شجاع مقدام ، ويجوز كرم محله ، وأن هذه التفاضل شاملة فيه ، مطروحة له ، لا تكاد تفارقه ، ولا يكاد يفارقها . والشطر الأول من هذا البيت فى معنى قوله إني أطلب المتبى فى شبيب بين جرير للمقبل بعد مرقه :

برغم « شبيب » قارق السيف كفه وكانا على الملمات يصطحبان

(٧) حياة : جبان ، خوفاً ، صيغة مبالغة من هابه : بمعنى حذر ، واحباه ، وخافه . ولولك (فتح الكاف وكسرها) : الجبان ، والمجاز للتصنيف الذى إذا نابه أمر لا يهض فيه ، ولا يقدم عليه ، بل يكله لئلا يغيره ، ويراد باللقاء : ملاقاته العدو ، واستقباله ، ومواجهته ، ومجاملته ، ويكمنه فى الحرب والقتال . والمصدق فى اللقاء : الثبات ، والصبر ، والشجاعة ، والإقدام فى الحروب والشدائد ، والمخوف والمهلك ، والأهوال والأخطار . واعترف للأمر اعتراكاً : صبر عليه ، وقوى ، وتجلد . والمترف : مصدر ميمي بمعنى الاعتراف . وهو هنا : الصبر الصادق الثرى على مكاره الحروب وشدائدها وبأسائها . و« صادق » : خبر مبتدأ محذوف : أى المرئى صادق . وه فى اللقاء : متعلق به . و« معروف » : فاعل « صادق » .

وصفه بالصبر ، والتجلد ، والقوة ، والثبات ، والشجاعة ، والإقدام ، فى الحروب والشدائد ، والمخوف ، والأخطار . وثنى عنه الجبن ، والصف ، والبسز ، والمخوف ، والتردد ، والإحجام .

(٨) صال : رثب مقاتلاً . (وبابه قال) . وصال على قرنه : حمل عليه ، وسطا ، واستطال ليقهره . ومن مصادره : الصرول ، والصرلان . والصولة : اسم مرة منه . وفله : ثلمه ، وكسره . (وبابه رد) . وفل الجيش : هزبه ، وقهره ، وغلبه . والعدا (يكسر العين ، وضمها) : الأعداء : جمع عدو . وه أو « فى أول الشطر الثانى : بمعنى « الولو » : أى إن صال فل ... وإن قال أروت ... وأرواه يرويه إرواه : سقاء ، وأشبهه ، وأزال عطشه . والمشاش (بضم الميم) : النفس . أو هو جمع مشاش : وهى رأس العظم العين الذى استطاع مضغه . والكلم : جمع كلمة .

والمنى : أن المرئى شديد البأس فى القتال . ويصولته من صولاته يستطيع كسر أعدائه ، وقهرهم ، وتشتيت شملهم . وه إلى شجاعته ، وقوته ، وإقدامه فى الحروب - أديب عذب القول ، ساهر البيان ، يقع كلامه من نفوس الناس موقع الماء من ذى الغلة الصادى .

يَنْكَبِتُ الْجَيْشُ حِينَ يَقْبِضُوهُ وَيَصْعُقُ الْقِرْنُ حِينَ يَلْتَزِمُهُ^(٩)
 بَكَى يَلْمَعُ الْقِرْنُ صِلَامُهُ وَأَتَشَقُّ مِنْ طُولِ حَزْنِهِ قَلَمُهُ^(١٠)
 فَمَنْ إِلَى مَلِكٍ الضَّعِيفِ إِذَا أَقْبَلَ لَيْلٌ، وَأَطْبَقَتْ ظُلُمُهُ^(١١)؟

(٩) ينكبت : ينهزم : ملأوح كفته (من باب ضرب) : فانكفت : أى صرفه من وجهه فانصرف . وانكفت : انقبض . وبرد بالهش : جيش الأعداء . ويقبض : يفاجته ، وحجم عليه ويأبته ، ويماجله . (وبابه سمع ، ومنع) . ويصعق : يهلك . أو يئس عليه . (وبابه تمب) . وصمته الصامقة (من باب فتح) : أصابته . وصمق (بالبناء المقبول) : أصابته الصامقة : وهى المذاب المهلك . وجسم ناري مشتل ، يسقط من السماء في رعد شديد . قرن المرء : مظه في الشجاعة ، والشدة ، والعلم ، والقتال ، وبغير ذلك . قرنك من يتلووك في قتال ، أو غيره . وجسمه قران . وملتزمه : يمتصقه . واعتصقوا في الحرب : أخذ كل منهم يمتصق قرنه .

(١٠) القرن : جدير السيف ، ووشية : وهو ما يرى فيه شبه مدب الفمل ، أو شبه التبار . وما يلح في صفحته من أثر تخرج الضوء . والصارم : السيف القاطع . ودع القرن : القرن الشبيه بالدمع .

جعل رقيق السيف ، وناه ، وما يلح في صفحته من أثر تخرج الضوء دعماً . وقال : إن سيف المرء يكاه هذا الدمع . وإن قلمه أتشق ، أى أفتلق وتلف من طول حزنه عليه . وفي البيت ما يدل على أن ذلك الفقيه العظيم كان كالبابوصى ، أى من أرباب السيوف والأقلام .

(١١) « من » : اسم استفهام ، يطلب به تعيين المقلد . والاستفهام هنا : معناه التثنية . وفيه مع التثنية الأسمى ، والتعزى ، والتحصن ، والتلف : أى لم يبق بعد وفاة ذلك البطل من يجير الضعيف ، ويحميه إذا ادلم الليل ، واشتد الكرب ، وعظم الخطب . وإلى : بمعنى « اللام » : أى فن يرتجى لحماية الضعيف ، وتأييده ، وإعانتته ، وإغاثته ؟ أو هن بمعناها الأصل : وهو انتهاء الغاية : أى فن يتدب ، أو يسارع إلى إغاثة الضعيف ، وإجاراته ؟ . أو فن يتنبه به الأمر إلى حيث يمد للضعيف ، ويحميه ، ويؤمّنه ، ويحميه . أو هى زائدة لتوكيد الكلام : أى فن يكون ملجأ الضعيف ، وبلاده ، وحسنه ، ومصلحته ؟ . وبرد بالضعيف : الخائف ، والمضطرب ، والفقير ، والملهوف ، والمحتاج ، ومن كانوا يلجئون إلى الفقيه ، ولواؤيون به ، ويتمثلون عليه . وملجأ الضعيف : حمايته ووقايته . أو حسنه ، وحماه : مصدر ميمي . أو اسم مكان من لجأ إلى الحصن ، أو المكان ، أو الشيء (من بابي تقع وتحمي) : أى لاذ به ، واحتصم ، وتحصن . وأحصى . ولجأ إلى فلان : أى استند إليه ، واحتضن به . والحصن ملجأ . وفلان ملجأ قويه : أى ملاذهم ، ومعتصمهم . أو هو ملجأ (يقص الميم) : من الجاه : أى حصه ، وحماه . وألجأه من الشيء : أى حصته في ملجأه منه ، وقواه . وأطبقت ظلمات الليل : كثرت ، وتزأكت ، وغطت الكون ، واشتدت حلولها . والظلم : الظلمات . واحداً =

وَمَنْ يَقُوْذُ الرُّحُوْفَ رَاجِئَةً وَالْيَوْمُ بِالْحَرْبِ سَاطِعٌ قَتْمَةٌ (١٧) ؟
 مَاتَ ، وَأَبْقَى شَجَى لِفُرْقَتِهِ يَكَادُ يَفْرِى قُلُوْبُنَا أَلْمَةٌ (١٨)
 فَأَذْهَبَ ، عَلَيْكَ السَّلَامُ مِنْ بَطَلٍ مَاتَ ، وَعَاشَتْ مِنْ بَعْدِهِ نِعْمَةٌ (١٩)

— ظلمة (يوزن غرقه) . وإقبال الليل ، وإطلاق ظلماته : كناية عن اشتداد الكرب ، وعظم الخطوب ، وإقبال الكوارث ، وتتابع النكبات .

والمنى : كان التقيد ملاذ الضحاف وبماذم في الشدائد والملمات ، وبموتة تقطعت بهم الأسباب ، وقتلوا النصير ، والمخير ، والمائل ، والغياث ، وأعوزهم المدافع القوى ، والحصن الحصين ، والسجين الفياض .
 (١٢) الاستفهام في صدر هذا البيت كاستفهام في صدر البيت السابق . والزحوف : جمع زحف : وهو الجيش الكثير المرمم ، يزحف إلى العدو . تسمية بالمصدر . يقال : زحف السكرو إلى العدو (من باب قطع) : إذا مشوا إليه ق ثقل لكثرتهم . وراجة : شبهة الحرب والقتال . أو زاخرة ، متحركة ، جاثية . وهو حال من « الزحوف » . واسم فاعل من زحف (من باب نصر) : أي تحرك ، وجاش ، واضطرب اضطراباً شديداً . وزحف القوم : تهيؤوا الحرب . واليوم : النهار . وبالحرب : أي بسبب الحرب ، أو مع الحرب . أو في الحرب : قالها هنا : للبيئة ، أو للمصاحبة ، أو لظرفية . واسطع : حال ، مرتفع ، منتشر . والفتام الأسود : وبطله القتال . و « الزاو » في أول الشطر الثاني : « وأره » الحال . والجملة بعدها حالية . وسطوح القتام : كناية عن اشتداد الحرب ، واحتدامها ، وتآجج فادها ، وقيامها على ساقها .

والمنى : أنه لم يبق بعد وفاة ذلك القائد البطل من يتولى — في حزم وإقدام ، وشجاعة ، وحسن تدبير — قيادة الجيش الجمرات ، يزحف بها في استمداد تام لملاقاة الأعداء في حروب ومعارك ، وممايع وقائع يشتد فيها القتال ، ويحصد التزائل ، ويرتفع القتال ، وتغنق الأعلام ، ويسود وجه النهار ، فلا يبق مع الحرب شيء من بياضه ، وضياؤه ، وإشراقه .

(١٣) الشجى : ألم ، والحزن ، والغم ، والأسى : مصدر شجى (من باب صدى) . وشجاء الأمر (من باب هذا) : حزنه ، وغمه . والفرقة : الافتراق : اسم من فارقة مفارقة وفراقاً . ويفرى : يشق ، ويقطع . (وبابه رم) . ولله : أي ألم الشجى والحزن .
 يصف شدة حزنه ، وحزن غيره من عرفوا بحمد الفقيه وقضائه في الحرب والسلام . ويقول : إنهم لا يفتقون يتجنبون لفراقه ، وإن ألم هذه الفجعة يكاد يمزق قلوبهم .

(١٤) « أذهب » : أضر من الذهاب ، أو الذهاب : يراد به الذهاب ، فالشاعر يدعو ، ويرجو أن يكون معنى المرثى ، وسيره ، وإرثاله ، وذهابه عن الحياة الدنيا ذهاباً إلى رحمة الله تعالى ، وانتقالاً إلى جنته ، ونعيمه ، ورضوانه ، واستقراراً في جوار الجح ، والمخلد ، والكرامة . و « عليك السلام » جملة أخرى دعائية . والسلام : السلامة من الآفات الظاهرة والباطنة ، والبرامة من العيوب والمنورات —

وَقَالَ يَتَخَيَّرُ :

سَلَامَةٌ عَرَضِي فِي خِصَارَةِ صَارِي وَإِنْ كَانَ مَالِي نَهْبَةً لِلْمَكَارِمِ (١)

— والسلام : الأمان ، والأطمئنان . والسلام : اسم من سلم عليه تسليماً : أي حياه بالسلام . ويراد بالسلام هنا : سلام الله تبارك وتعالى وتحيته ، وغفرانه وسفوفه . وتحيات من عرفوه ، فقبلوه ، وبكوه يسوع حارة ، ورؤوه مثل ذلك الرثاء البالغ ، ودعوه خير توديع . « من » : يمانية . وما بعدها ، وهو « بطل » : بيان لما قبلها ، وهو فاعل « اذهب » . أو الكاف في « عليك » . والمطلب للمرثي للتضجيع عليه . والبطل : الشجاع المقدام . وجسمه أبطال . وفعله بطل (بوزن كرم) ، ومصدره البطولة والبطالة (بوزن السهولة والشجاعة) . وسمى الشجاع بطالا ، لبطلان حياة عدوه : أي ضياعها عند ملاقاته في الحروب . أو لبطلان النظام وهوانها بشجاعته وإقدامه . أو لأن حياة البطل ، أو جراحته تظل عنده ، فلا يزالها ، ولا يكثر لها . أو لأن دماء من يقتلهم من أعدائه تبطل عنده ويهتر ، فلا تموت بالفتيات ونحوها . والتم : جمع للتمعة (بكسر التين) : وهي المارقة ، والتمنية ، واليد ، والمئة ، والفضل ، والإحسان . وتم المرثي : عوارفه ، وصنائه ، ومنته ، وأياديه ، ومآثره ، وبكروماته ، وصيرته العطرة ، وتاريخه المجيد ، وذكره الخالدة .

تعليق وجيز

جاءت هذه المرثية القصيرة الليفة الرائعة الفاتكة في أربعة عشر بيتاً ، تمّ كلها على تأجج عاطفة الرثاء ، وصدق شعوره ، وعظم وفاته للظلم ، وشدة تأثره بالفجيعة . هذا إلى تفرقه في كل ما عاينه ، وفظم فيه من أبواب الشر ، وفنونه ، وأغراضه ، وبخاصة باب المرائي . وفي هذا البيت الختامي دعا الشاعر المرثي برحمة الله وغشوانه ، وجميع له تحيات كل من عرفوه ، فعموم ، وكل من يقدرون بمجادة الماجدين ، وأعمال الخالدين . ودّع به الخالص السلام والتحية خير توديع ، وأتمى على شجاعته ، وإقدامه وبسالته ، وشدة بأسه في الحروب ، وأشاد بما غلده بعد وفاته من سيرة وتاريخ ، وبطولات ، وذكريات ، ونعم ، ومآثر ، وصنائع ، وعوارف لا يدركها الموت ، ولا يسيبها الفناء ، ولا ينال منها الدهول أو النسيان ، ولا يأتى عليها مرور الدهور ، ويقول الأديبات .

* * *

(١) عرض الإنسان : ما ينبغي أن يصونه ، ويحميه ، ويحافظ عليه ، ويدافع عنه من نفسه ، وجسده ، وشره ، وسببه ، وسلفه ، وبين يلززه أمره ، أو هو موضع الملح والزم من الإنسان . أو هو الخليفة المحمود . أو هو كل ما يملح المرء إذا حماه ، وصانه أن ينتقص ويثلب . وكل ما يذم من أهله إذا تهاون به ، أو قصر فيه ، أو أحجم عن نصرته وحمايته ، وجسمه أعراس . والخفارة (بتثنية الخفاء) : اللمة ، والعهد ، والحفاظ ، والإجارة ، والحماية ، واللمة : اسم من خفره ، وغفبه ، وغفر عليه (من باب ضرب ونصر) : أي أجره ، ومنته ، وحماء ، وأمنه . والصارم : السيف القاطع . ود إنّه في أول الشطر الثاني : وصليعة مجردة من معنى الشرط . ومناها هنا : « قد » أو « لو » : أي وقد كان مال نهبة ... أو ولو كان مال نهبة . ولولو قبلها : ولو الحال : أي سلامة عرضي في =

بَلَعْتُ حُلًّا لَا يَبْلُغُ النَّجْمُ شُلُومًا إِذَا هُوَ لَمْ يَنْهَضْ لَهَا يَبْقَاوِدِم^(١)
 إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَتَّزِبْ إِلَى اللَّهِ وَالصَّبَا فَمَا هُوَ إِلَّا مِنْ عِدَادِ الْجَاهِلِ^(٢)

= غفارة صابر، والحال أن ملك تبة المكارم : أي وضع شدة حرصي على سلامة عرضي فإن ملك ميله في المكرمات ؛ لأن الحرص على سلامة العرض قد يعجز الحرص المقيوت على سلامة المال . وتكون « القلوب » عاطفة إذا أسقطنا « إن » و « كان » ، واعتبرناهما في حكم الزائدين ، وإن لم يكن هذا الموضع من مواضع زيادتهما . والتهبة (بضم فسكون) : الفتية . والشيء المنهوب . واسم من هب الشيء (كعبل ، وجمع ، وكتب) : أي أخذه قهراً . والمراد : أن ملك ميله ، أجود به عن أوجهية ، وفطيلة ، وطيب نفس في وجوب الخير والبر والمكارم : أي المكرمات : وهي أفعال الكرم والجود ، ووجوب الخيرات والمبرات . الواحدة مكربة (بفتح ، فسكون ، فم) .

يعتز بشدة بأهله ، وقوة سلاحه ؛ ولهذا كان عرضه على الدوام مصوناً مخفوقاً ؛ محمياً تقياً ، بريئاً من البهوب والمناقص ، وهو مع سلامة عرضه كرم جواد ، سخي أرحم ، جزيل العطاء ، يبدل ماله بلا حساب في وجوب البر والخير والمكرمات .

(٢) الملا : جمع العليا : مؤنث الأعل . ويراد بها المال . والملا : الرقة ، والشرف . وشلها الملاة ، والملياء ، والملاء . والشلو : الأمد ، والناية . ونهض : قام ، وارتفع . أو أسرع . ونهض الطائر : بسط جناحيه ليظهر . والقوادم : عشر ريشات . أو أربع كياو في مقدم جناح الطائر . وأحدتها قادمة . والخواقي : الريشات التي تحق إذا ضم الطائر جناحيه . وأحدتها مخافة . والمراد هنا : الأجنحة التي تجمع القوادم والخواقي .

يفخر بأنه يبلغ من المال وآماد الرقة والشرف مرتبة تسمو كثيراً فوق الأفلاك ومنازل الكواكب والنجوم . وبإلغ في التصور الحسي لتلك المرتبة ، فقال : إن النجم لا يبلغها إلا إذا بسط جناحيه ، وطار إليها في قوة وسرعة . وهيئات .

(٣) طرب للفناء ونحوه (من باب فرح) : ارتاح له ، ونشط ، واعتز . وطرب منه . وله : شئت^١ واعتز من شدة فرح وسرور . أو من شدة حزن وهم . والمقصود هنا القرح والسرور . و « إلى » : بمعنى اللام .. والهو : كل ما لذّك ، واستمتعت به ، فألهاك وشغلك من هوى وطرب ، وغناه ونحوه . وقد يعبر بالهوى عن وسائل الترويح عن النفس . ومن زينة الحياة الدنيا ، وشماتها ، وملذاتها . والصبا : (بكسر الصاد) : الحداثة والصغر . أو التشبه بالصبيان في طهر ، ولهم ، ورتوبهم ، ورحمهم . وصبي إلى المرأة (كرضي صبا) بفتح الصاد . وصبا إليها يصوبها (بكسر الصاد) : مال إليها ، ومن ، وتشوق ، ويراد بالصبا هنا : دواعي الشباب ، وملذساته . وما يكون من مرح الشبان وطهر ، وشهواتهم ، ولذاتهم . ومن عداد الهائم ، أو في عدادها : أي يند منها . والهائم : جمع البهيمه : وهي كل ذات أربع قوائم من دواب البر والبحر ما هذا السباح والطيور . أو هي كل حيوان لا يميز .

فَاَيُّهٗ اَرْضٍ لَمْ تَجِبْهَا سَوَائِي ^(٤) وَغَمْرَةٌ بِأَسٍ لَمْ تَحْضُمْهَا صَوَائِي ^(٥)
وَمَا اللَّيْلُ إِلَّا هَبْوَةٌ مِنْ كَتَائِي وَلَا الشَّهْبُ إِلَّا لَمْعَةٌ مِنْ لَهَازِي ^(٥)

— يقول: إن الذي لا يطرب لضروب ألهم وفنونه، وملابسات الصبا ودواعيه، حيث الجدان، يلبد الإحساس، ضعيف الإدراك، لا يمتاز من البهائم والجمادات. والفرض الترفيع في الإقبال على متع الحياة ولذاتها. ويبدو أن هذا البيت مقم في آيات الفخر والابتهاء، وأن مكانه المناسب مع أبيات الموى والفرز، في القسم الثاني والأخير من هذه القصيدة. أو لعل الشاعر أراد أن يمهّد به لهذه الآيات. أو لعله يفخر؛ فإن الطرب بمناه التي فصلناه من قبل — لا يكون إلا مع رفاة الإحساس، ولطف الشعور، وهو الإدراك، وسلامة الذوق، وشدة الوجد، ورقة المهوى، وحرارة الشوق، وإكمال آدمية الإنسان، والبيت في جملة يدل على أن البارودي كان في صباه وشبابه — ابن كاس ولذة، يطرب ويلعب، ويلهو ويرتق، ويمرح ويفرح، ويصبو ويمشق، ويمجى مع الفؤاد في سباق. وهذه المعاني كثيرة مكررة في شعر هذه المرحلة، أو هذا الطور من أطوار حياته، حيث الشباب النضج، والكمال الكثير، والعيشة الرفاهية، والنفراغ الواسع، وكثرة المغريات الفاتنات. أو لعله لا يقصد بهذا الكلام ونحوه غير الانتفاخ في ضروب الشعر وأفراعه، واستيعاب فنونه وأبوابه، مجازاة ومحاكاة لمن حفظ لهم، واقتنى بهم من فضيل الشعراء.

(٤) الاستفهام في أول هذا البيت: ممناه الذي؟ فالشاعر يفخر بأنه لا توجد أرض لم تجبها سوائيه، كما ينفي وجود غمرة لم تحضها سوائيه: أي أنه قطع بسوائيه كل بقاع الأرض، وشاغس بسوائيه كل غرات البأس. وهي مائة مقبولة في مقام الفخر والمباهاة. وجواب الأراضى البلاد (من باب قال): قطعها بالتجوال فيها. ويريد بسوائيه: غيله وأفراعه: جميع سابقة، أو جميع سابق. والغمرة: الشدة والزرمة. والبأس: الحرب، أو الشدة فيها. وشاغس الغمرات والشدائد، والمخاوف والمكاره (من باب قال): أي اقتحمها، أو توسطها في جرأة وإقدام وبغير مبالاة. والصورم: جمع صلم: وهو السيف القاطع.

يفخر بشجاعته وشدة بأسه، واقتحامه الصعاب والعقبات، وإقدامه على المخاوف والمكاره، ويقول: إنه جـول غيله السابقات بقاع الأرض وأرجاعها، وشاغس بسلاحه المرفف غمار الحروب وشدايقها.

(٥) الهبة: الغيرة؛ وما يثار، ويسطع، ويرتفع، ويتنشر في الجو من الغبار وبقا التراب كأنه الدخان. والكتائب: جميع الكتبية؛ وهي الجيش. أو الطائفة منه مجتمعة. أو جماعة التحيل. والشهب: جمع شهاب (بوزن كتاب وكتب)؛ وهو الكوكب المضيء. وما يرى كأنه نجم مضيء انتفض من السماء. والهازم: جمع لزم (بوزن جسر): وهو كل شيء قاطع من سيف، أو سنان، أو غيرها.

ولمضى: أن الجيش الذي يقودها جرأة قوية عظيمة. وهي يستأهلك غيلها، وحركات الكر والفر —

جَنَانٌ تَحِيدُ الْأُمْدَ عَنْهُ ، وَعَزَمَهُ هِيَ الْمَوْتُ بَيْنَ الْمَازِقِ الْمُتَلَاخِمِ^(٦)
وَلَكِنَّتَنِي أَمْسَيْتُ لِلْحَبِّ خَاضِعًا وَلِلْحَبِّ سُلْطَانٌ عَلَى كُلِّ حَاكِمِ^(٧)

= تثير غباراً كثيراً كيفاً متراكباً ، يملأ الجو ، ويحجب ضياء الشمس ، فيجعل النهار المشرق المغشى ليلاً مظلماً قائماً . عل حين أن أسلحتهم المرفهة اللامعة تبرق في هذا الليل اللحمي ، وتلمع لمان النجوم المضيئة تنقش من السماء . وهذا قريب من قول بشار بن برد :

كأن مشار القطع فوق روصنا وأسيفنا ليل تهوى كواكبه

(٦) تحيد : تميل ، وتنتهي ، وتنتهى . وتباعد . (وبابه باع) . والأمد : جميع الأسد . وبه يضرب المثل في القوة والجرأة وشدة البأس . وقد يراد بالأساد أقرانه في الشجاعة ، وأنداده في التجرس بالحروب . وهم يعمدون عنه ، ويحشون بأسه ، ويرهبون بطشه ، ويحشون قتاله ، لتفوقه عليهم . والعزيم : المرة من العزم : وهو الإرادة القاطعة القوية . والعزيمة : الصبر والثبات ، والجدّ فيما يعزم عليه . وه بين : ظرف مجرم ، بمعنى وسط . ولا يبين معناه إلا بإضافته إلى ماله عدد ، أو مسافة ، ألوما يقوم مقامهما . ويلاحظ أنها أضيفت هنا إلى « المأزق » ، والمراد بين أجزاء المأزق : وهو المضييق الحرج . والمتلاخم : اسم فاعل من تلاخمت الأشياء : أى تضامنت ، وتلاصت ، واجتمعت بعد أن كانت منفصلة . وهو هنا تأكيد لحق « المأزق » . ويراد بالمأزق المتلاخم : شدائد الحرب وأهوالها . ويلاط القتال ومضايقه .

يلخر بقوة جناته ، وصلابة فؤاده ، وقوته في القوة والجرأة وشدة البأس وصف البطش على الأساد ، أو على من يحاربهم ويحاربونه من أنداده الأقوياء الأشداء ، ولهذا يعمدون عنه ، ويحشون سطوته ، ويحشون قتاله . وإذا خاض المامع ، وشفى الممارك ، واشتد البأس في ملاحم القتال ومضايقه ، كانت عزيماته وهجماته الموت الذريع لأعدائه ومحاربيه .

وفي البيت الآتي وأربعة الأبيات بعده استطراد للحب والهوى ، والنزول والغرام .

(٧) « لكن » : حرف يفيد مع التوكيد الاستدراك ، وهو أن تثبت لما بعدها حكماً مخالفاً لحكم ما قبلها ، فاقبلها أنه قوى القلب ، شديد البأس ، متمرس بالحرب والقتال ، يشأه أقرانه ، ويحميون عن ملاقاته ، وتحمل عزيماته وهجماته الموت الذريع لأعدائه ومحاربيه . وما بعدها أنه - في مجال الهوى والغرام - ضعيف مغلوب ، يخضع لسلطان الحب ، ولا يكاد يقاومه ، أو يفاليه . وأسيت : صرت . وأصله لإنادة التقيت بالمساء . والسلطان : القوة والقهر ، والسلطة والغلبة ، والسيطرة والولاية . والحاكم : من نصب للحكم بين الناس : اسم فاعل من حكم : أى قضى ، وفصل . وحكسته : منعه عما يريد ، وروده . وجسمه حكام . والشطر الثاني تذييل جار مجرى المثل . وصلته بما قبله أن الشاعر من المعانين الأقوياء ، والمحاربين الأشداء ، والحاكين ذوى البأس والسلطان ، ومع هذا كله فقد سيطر عليه الحب ، وأغضه لسلطانه .

وصف نفسه في البيت السابق بالشجاعة والإقدام ، وأخضر بقوة العزم ، وشدة البأس في الحرب

وَيَمِي مِنْ صَجِيمِ الْعَرَبِ حَوَازٍ طَفَلَةٌ
نَجِيلَةٌ مَجْرَى الْبَنْدِ ، رَبَا الْمَعَاصِمِ^(٨)
لَهَا نَفْزَةٌ لَوْ خَامَرَتْ قَلْبَ حَازِمٍ .
لَأَصْبَحَ مَسْئُوبَ النَّهْيِ ، غَيْرَ حَازِمٍ^(٩)
أَطَعْتُ الْهَوَى فِيهَا وَإِنْ كَانَ ظَالِمًا
وَعَاصِيَتْ فِي حُبِّي لَهَا كُلُّ رَاسِمٍ^(١٠)

= والقتال . وقال في هذا البيت : إنه مع هذا كله يطمأن للحب ، ويتواضع ، ويستكين ، ويخضع ؛ فإن الحب سلطاناً على كل ذي سلطان . وفي أرومة الآيات تشييب من أحبا ، وتعلق بها ، ووصف لحاسنها ومفاتنها ، وإطاعته الهوى فيها ، وانقياده لسلطانها ، وتخضوعه لحكمها .

(٨) الصميم من كل شيء : المحض الخالص . والعرب : لغة في التَّرب . وحوار : صفة من الحور (بوزن النحر) : وهو من عانس المين ، ومعناه : أن يشهد بياض يياضها ، وسواد سوادها ، ويستدير حلقها ، وورق جفونها ، ويبيض ما حولها . قيل : ولا توصف المين بالحور إلا إذا كان جسد صاحبها أبيض . وقيل : الحوراء من النساء : البيضاء ، لا يقصد بذلك حور حينها . وطفلة (بفتح فسكون) : رخصة ، ناعمة ، لينة ، رقيقة . ونحيلة : صفة من النحول : وهو الخزال . والبند : الخزام ، أو اللطاف يشد به الوسط . ويجرى البند : مكان حركة النطق أو الخزام ، وجرانها ، ودورانها في وسط المستحزم . ويجري البند : كناية عن وسط المتفزل بها ، أو خاصرتها . ونحيلها من الصفات المستحسنة في النساء . ورَبَاً : مثقلة : صفة من الرُّبى : وهونها ضد الخزال والنحول . والمعاصم : جمع المصم (بوزن المنبر) : وهو موضع السواد من اليد .

في البيت السابق قال : إنه - مع عزته وقوته ، وإيائه وكبريائه - يطمأن للحب ، ويخضع لسلطانه . وفي هذا البيت قال : إن محبته عربية خالصة . ونوره يهبط بحاسنها ومفاتنها ؛ فهي غصة بضة ، رخصة ناعمة ، لينة رقيقة ، حوراء بيضاء ، نحيلة الوسط ، لطيفة الكشح ، خيمصة البطن ، مثقلة الجسم ، لا يصعبها هزال أو نحول .

(٩) خامرت : غالطت . وحازم : قوي ، حديد الرأي ، محكم التدبير : اسم فاعل من حزم الرجل رأيه (من باب ضرب) ، وحزم أمره : أي ضبطه ، وأحكمه ، وأقنعه . ومسلوب : منتزح ، مفقود . من سلبته الشيء (من باب قتل) : أي أخذته منه غصباً ، وانزعتة قهراً . وسلبت المرأة فؤاد عاشقها أو عقله : أي استهوته ، وفقتته ، واستولت عليه . والنهى : العقل . يصفت نظريتها بأنها ساحرة فاتنة ، شديدة التأثير ، تخاطب قلب الحازم ، فقتضته ، وقبضته ، وتسلبه حزمه وعقله ، وتتركه أسير الهوى ، صريع الغرام .

(١٠) الهوى : مصدر هوى (من باب صدى) : أي أحبه ، وعشقه ، وتعلق قلبه به تعلقاً شديداً . وفي « في الشطر الأول للظرفية المجازية . وفي الشطر الثاني معناها التمايل . أو هي تعليلية في الشطرين : أي أطعت الهوى من أجلها . وعاصيت من أجل حبى لها كل راسم . وإن « في الشطر الأول من هذا البيت وصليته مجردة من معنى الشرط . وقد فصلنا الكلام عليها وعن الوار قبلها في البيت الأول من هذه =

وَمِنْ عَجَبِ أَمْرِ آيِينَ لِحُكْمِهَا وَأَكْبَرُ أَنَّ اتِّفَادَ طَوْحِ الْخَزَائِمِ (١١)
فَقَلْبِي حُرٌّ ، لَا يَلِيْنُ لِنُصُولِ وَعَوِيَّ صُلْبِي ، لَا يَلِيْنُ لِلتَّاجِ (١٢)

— الأبيات . وظلم المولى : أنه يُحَيِّمُ الماشق الصب ، ويَهَيِّمُهُ ، ويستعبدُهُ ، ويؤزِقُهُ ، ويفنيه ، ويذهب بقلبه . وحاماه مباحلة : شرح من طامعه ، وخالف أمره .

والمنى : أن حبه لعله الحسناء قد استبد به ، وظليه على أمره ، فانتقاد له ، وتماهى فيه ، واستملك به ، وأصر عليه ، ولم يكثر لشروبه وأثاقه ، ولم يستمع لنصح رصائه المشفقين عليه ، الذين يمتنون له الإفراج والسلوان ، والنجاة والمأقاة ، والخير والسلامة .

(١١) « من عجب » : خبر مقدم . « وهلك آيين حكمتها » : مبتدأ مؤخر : أي انتقادي حكمها بما يصحب منه . والمجبب والتصبب : حالة تمرض للإنسان عند الجهل بسبب شيء غير مألوف . أو رومة تأخذ الإنسان عند استعظام الشيء . أو لفعل نفسه الذي يصره الإنسان عند استعظامه ، أو استعظامه ، أو إنكاره ما يراه عليه . وصحب منه (من بانه طريد) : أنتكز لفلة اختياره إياه . وأدين : انتاع ، وأغضح ، وانتقاد . والحكم : القضاء . ويراد به : السلطان ، والسيطرة . وأكبر : أعظم . من الكبر والنظم (بوزن المنبه فهدل) . والصفة منهما كبير ، وعظيم . والمراد أنه يكبر على الانتقاد : أي يأباه ويرفضه ، ولا يقبله . ويقال : هو طوح يلك ، أو إرادتك : أي هو مثلك . « وفريق طوح الثنان » : أي ليس المقادة . والخزائم : جمع الخزامة (بكسر الخاء) : وهي حلقة من الشعر أو غيره . توضع في ثقب أنف الجبر وتحمى . وبها يربط الحبل الذي يقاد به : وهو الزمام . ومن الهجاز : جعلت في أنف فلان الخزامة : إذا أذنته وسخرته . وطوح الخزائم : تأكيد لمنى الانتقاد : أي أكبر أن انتقاد ، وأكبر أن أكون طوح الخزائم : فهو طوح لئادة من يهواه ، متقادها ، خاصم لحكمها ، أي كل الإله على غيرها . والبيت الآتي يفصل هذا المعنى ، ويميزه ، ويؤكد .

(١٢) الصولة : السيطرة ، والقلبة : والاستعلاء ، والقهر ، والسطوة في الحويدي ونحوه . وعام : اسم فاعل من حيم المود (من بانه نصر) : أي صفه ليختبر سلاتته أو غوره ورواحته . وعيم مرد فلان : أي امتحنه واختبره .

ومنى هذا البيت والى قبله : بأن في قلبه ، ونفسه ، وشغلته ، وطبئه الخرية ، والإياه ، والمزة ، والمثمة ، والقة ، والصلاية ، ورد الصولات والجماعات . ولكنه على الرغم من هذا كله تاملن لمن يهواه ، وغضخ لحكمها ، ودان لسلطاتها ، فكانت ذلك مثار السجب والدهش .

وَقَالَ فِي هَوَى* لَهُ وَقَدْ مَرَضَ :

دَعَّ حَيْبُ الْقَلْبِ يَا سَقَمٌ فَيَنْفَسِي ، لَا بِإِ الْكَمِ^(١)
كَيْفَ حَلَّ السَّقَمُ فِي بَدَنٍ خُطِئَتْ مِنْ حُسْنِهِ النِّعَمُ^(٢) ؟
يَا لَهَا مِنْ لَوْعَةٍ شَسَعَتْ رَمَكَنْ قَلْبِي وَهُوَ مُتْنِمْ^(٣) !
مَنْمُونِي عَنْ زِيَارَتِهِ وَجَمَى قَلْبِي لَهْ حَرَمِ^(٤)

* هوى (من باب هوى) : أحبه ، وتملق به . والهوى هنا : المهرى : أى المحبوب المشوق .

(١) دَعَّ : أترك . والسقم ، والسقم (بوزن التثنية والفتح) : مصدر سقم (من باب نصب) : أى مرضى ، أو طال مرضه .

رجا لمن أخلص له اليد ، وأصفاه بحبه — الإيلايل والصحة . وتسمى أن يحتل منه المرض والآلام .

(٢) (٤) الاستفهام فى أوله هذا البيت : معناه التثويب ؛ قال الشاعر يثيب من حلول المرض بهذا الجسد الجميل . وكان يبنى أن يحترم الحسن ، ويثيبه ، ولا يقترب منه ؛ لأنه مصدر نعم ، ومنع ، ومولود ، وأفضال .

(٣) (٢) يالها من لوعة : أسلوب تعجب : « يا » : حرف نداء . والمتنady مخلوقه : أى يا حبيبها . « من » : بياينة . وما بعدها وهو « لوعة » : بيان لما قبلها ، وهو « ها » ؛ فهو يتعجب من اللوعة . والتعجب : استعظام أمر ، لوصف فيه ، زائد على المألوف ، مع خفاء السبب . أو هو استعظام زيادة فى وصف الفاعل ، حتى سببا ، ويخرج بها للتعجب منه عن أمثاله . أو قل نظيره . واللوعة : حرقه الجسد والملم ونحوهما . ولا ريب أن اللوعة التى يماثها الماشق لا نظير لها ، وبخاصة إذا مرض مشرقه . لاهه الحب ، والاشوق ، والحزن ونحوه : أحرقه ، وأمرسه (وبابه قال) . وشعبت : صعدت ، وشقت ، وفزقت ، ومزقت . (وبابه قطع) . وركن الشيء : جزقه القوى ، وبجانبه المكين الذى يستند إليه . ويقوم به . ويراد ركن قلبه : قلبه القوى الركين للمتين . وألوا فى الشطر الثانى . وأو الحال . والجمللة الاسمية بعدها حالية . ومتنم : مجتمع مكثرت ، قوي .

(٤) (٤) البروق أول الشطر الثالث : وأو الحال . والجمللة الاسمية بعدها حالية . « له » : جار ومجرور ، متعلق بـ « حرم » . والحسى : كالتى الحمى ، المحظورة ، المحتج ، الذى لا يقرب ، ولا يجترأ عليه . والحرم : ما يحرمه الرجل ، ويدافع عنه . وما لا يعمل انتهاكه . والمكان الحصين ، المهيى ، المنيع ، المعتز ، الحمى الحشى ، فهو فى معنى « الحسى » . أو قريب من معناه ، مؤكده له . طلب الشاعر أن يعود حبيبه ، فنه أهله من عيادته بسبب كثرة ، أو الخوف ، أو نحوها ؛ فشق هذا على نفسه ، وأسفه ؛ إذ الحبيب يحل من قلبه حصناً حصيناً ، وحرماً آمناً ، لا يصيبه فيه سوء ولا يخشى عليه منه شر ، أو مكروه .

حَكَّمُوا أَنَّى بِهِ دَنِفٌ أَنَا رَاضٍ بِالَّذِي حَكَّمُوا^(٥)
 أَوْلُوا وَجَدِي بِهِ عَبَثًا لَيْتَهُمْ قَالُوا بِمَا عَلَّمُوا^(٦)
 أَنَّهُمْ بِنِي فِي مَوَدَّتِهِ وَالْهَوَى مِنْ شَأْنِهِ التَّهْمُ^(٧)

(٥) « به » : أى بحبيب القلب : أى بسبب عشق له ، ومن أجل تعلق به . ودنف المريض (من باب تذب) : اشتد مرضه ، وأشنى حل الموت ، فهو دنف (يفتحمين ، أو يفتح فكمز) . وقد شاع استعمال الدنف فى المرض الذى يسترى الماشق بسبب المشق ، ويلزمه ، ويقل عليه ، ويضيه . ويلاحظ أن المشق : هو الإغرام بالمشقة ، والإفراط فى حبها ، والاشتغال بها ، والإنصراف عن كل ما عداها .

والمعنى : أن هذا له ولائحه حكما أن الحب أدنفه ، وتخله ، وهزله ، وبراه ، وأضناه ، وكانهم أشفقوا عليه ، ونصحو له ، ورجعوا إقلاعه وسلوانه . والشرط الثانى يتم حل رفضه التصح وإيائه ، واستمساكه بالحب ، وإصراره عليه ، وتعاديه فيه ؛ فهو راض بحكمهم ، مستروح إك قضائهم ، غير مكترث لما أصابه من الضنى والتوله ، والوجد والحيام .

(٦) أولوا : فسروا ، وقدروا . وجدى به : حبى له . والعبث : اللعب ؛ والعمل الذى لا قيمة له ، ولا فائدة فيه . (وقله من باب فرج) . وقال به : رآه ، وحكم به ، ذهب إليه ، واحتقده . وقالوا بما علموا : أى قالوا ما يعلمونه .

والمعنى : أن عاذليه أساموا عن قصد تأويل حبه ؛ فعدوه من العبث ، فأسف وقائم ؛ لأنهم يعرفون فساد هذا التأويل ، وتجاهيه عن الحق والصواب . وتبقى فى الشرط الثانى أن يقولوا ما يعلمونه من صدق حبه وإخلاصه ، وطفته ، ونزاهته ، وجدته فيه ، وحرصه عليه ؛ ليسلم من تجنيهم وشروهم إلى أضرار إليها فى الشرط الأول من هذا البيت ، وفى البيتين الآتين .

(٧) فى الأصل المخطوط الذى بين أيدينا « تهمنى » . ويبدو أنه من تحريف الناسخ . والصواب : « أتهمى » . أتهمه بكذا إتهاماً ، وأتهمه إتهاماً . والاسم منه التهمة (بضم ففتح ، أو بضم فسكون) . وجسمها تهم . وأتهمه فى قوله : شك فى صدقه . وأتهمنى فى مودته : أى ارتابوا فى صدق مودتى لهذا المحبوب وأساموا الفن ، كما أساموا التأويل والتقدير . وقد تكون « ق » هنا التحليل : أى لتقوى لى التهم والأباطيل بسبب ما اتقده بينى وبين هذا الحبيب من حب ووداد . والمعنى : المشق ، والغرام ، والحب المفسى (وقله من باب صدق) . والشأن : الأمر ، والحال .

يقول : إن حاسديه وعداؤه رموه فى مودته الصادقة بالتهم الكاذبة . والمأشوقون معرضون عادة لكل ما تعرض له .

رَبُّ ، ١ قَتَّعَهُمْ بِفِئْتَيْنِهِمْ وَأَنْتَصِفَ مِنْهُمْ بِمَا زَعَمُوا^(٨)
وَأَشْفِ نَفْسًا أَنْتَ بَارِقُهَا فَلَيْلِكَ الْبُرْءُ وَالسَّقَمُ^(٩)

(٨) قَتَّعَهُمْ : أمر من القَتَعَ . ويراد به هنا : العقاب . والأصل : قَتَّعْتُ المرأة رأسها : أى فطَّعْتُه بالقَتَّاع . ومن المجاز : قَتَعَ فلاناً بالسيف ، أو العصا ، أو السوط : أى علاه به . والفريضة : الكلب ، واختلاجه . وانتصف : أمر من الانتصاف : وهو الانتقام والعقاب . و « الباءه في شطري البيت : تمليكية : أى سبيحة . والأمر للدعاء . وما » في الشطر الثاني : مصدرية . أو اسم موصول بمعنى « الذى » . ونظم : قال . أو أخبر . أو ظن . وأكثر استعمال الزم فيما كان باطلاً ، أو فيها يشك فيه ، ولا يرجى تحقيقه . وقيل : إن الزم كتابة عن الكلب . أو هو معنية الكذب .

في البيتين السابقين : شكاً حسدته ومذاذيه . وأشار إلى سوء تأويلهم له به ، وتجنهم عليه ، وديهم إياء بالهم الكاذبة . وفي هذا البيت دعا الله تبارك وتعالى أن يعاقبهم بأكاذيبهم ، ويستقم له منهم . ويلاحظ أن شطريه في معنى واحد ، أو معنيين متقاربين .

(٩) بَارِقُهَا : خالقتها . وإليك البرء والسقم : أى يبدك الأمر كله .

في ختام هذه الأبيات دعا الشاعر بالشفاء لحبيب قلبه الذى مرض ، ويخ من عيادته . وفي البيت معنى التضرع ، والابتهال ، والاجتهاد في الدعاء .

وقد يكون الدعاء لنفسه ، مُشيراً بهذا إلى ما يضانيه في هواء من أوصاب المشق ، ولوعات الفراق . وإنما يشفيه أن يجمع الله شمله بذلك الحبيب ، فيسعدهما التلاق والوصال .

وَقَالَ مُنَوَّهَا يَبْغِضُ فَحُولِ الشُّعْرَاءِ الَّذِينَ أَعْجَبَ بِهِمْ ، فَسَلَكَ سَبِيلَهُمْ ،
وَنَسَجَ عَلَى مَنَوَالِهِمْ . وَهُمْ :

١- أَبُو نَوَاسٍ الْحَسَنُ بْنُ هَالِي .

٢- وَمُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ الْأَنْصَارِيُّ .

٣- وَأَبُو تَمَامٍ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ الطَّائِيُّ .

٤- وَأَبُو عَبَادَةَ الْوَلِيدُ بْنُ عُبَيْدِ الْبُحْثَرِيِّ .

٥- وَأَبُو الطَّيِّبِ أَحْمَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ الْمُتَنَبِّئِيِّ .

مَضَى «حَسَنٌ» فِي حَلْبَةِ الشُّعْرِ سَابِقًا وَأَذْرَكَ ، لَمْ يُسَبِّقْ ، وَلَمْ يَأَلْ مُسْلِمٌ^(١)
وَبَارَاهُمَا «الطَّائِيُّ» ، فَاعْتَرَفَتْ لَهُ شُهُودُ الْمَعَانِي بِالَّتِي هِيَ أَحْكَمُ^(٢)

(١) مضى : ذهب . ومضى في الأمر : فُعل فيه ، وأتمه . و«حسن» : أبو نواس ، الحسن ابن هالي . وحلبة الشعر : مجالته ، وميدانه . وهي في الأصل : الدفعة من التحليل في الرهان خاصة . أو خيل تجمع لسباق من كل أوب : أي من كل فاحية ، لا من لإصطبل واحد . ثم أطلقت على مجال السباق . ومن كلامهم : «تَجَارَوْا فِي الْحَلْبَةِ» : أي في مجال التحليل السباق . ومن تعبيراتهم المجازية : «فلان يركض في كل حلبة من حلبات المهد» ويجمعها حلاب (على غير قياس) . و«سابقاً» : حال من فاعل «مضى» ، وهو «حسن» . وأذرك «مسلم» : أي وبأري مسلم بن الوليد الأنصاري «أبا نواس» ، فأدركه . ولحقه . ولم يسبق (بالبناء المجعول) : أي لم يسبق «مسلماً» أحد من أقرانه . أو هي (بالبناء للمعلوم) : أي لحق «مسلم» بأستاذه «أبي نواس» فأدركه ، ولم يسبقه . ولم يأل : لم يقصّر ، ولم يفتر : مضارع «ألا» (من باب عدا) : أي فتر ، وضعف . أو قصّر ، وأبطأ . و«مسلم» : فاعل «أدرك» .

نوه البارودي في هذا البيت بشاعرين من خمسة الشعراء الذين أشاد بهم في هذه الأبيات الخمسة ؛ فقال : إن أبا نواس سبق في حلبة الشعر ، وفاق غيره من الشعراء . وباراه مسلم بن الوليد ، فأدركه ولحقه ، غير سابق له ، وغير مقصّر عن منزلته .

(٢) باراه مباراة : سابقه ، وعارضه ، وفعل مثل فعله . و«الطائي» : «أبو تمام» ، حبيب ابن أوس . واعتترف بالتي : أقر به ، وشهد . وشهود المعاني : المعاني الشبيهة بالشهود : جمع شاهد . =

وَأَبْدَعَ فِي الْقَوْلِ «الْوَلِيدُ» فَشِعْرُهُ عَلَى مَا تَرَاهُ الْعَيْنُ وَشَيْءٌ مَنَعْنَاهُ (٣)
وَأَنزَلَ فِي الْأَمْثَالِ «أَحْمَدُ» غَايَةً تَبْدُءُ الْخَطْبَى مَا يَعْلَمُهَا مُتَقَدِّمًا (٤)

— وبإتي : أي بالصلة التي... وأحكم : اسم تفضيل من حكم (من باب قرب) : أي صار حكماً : أي صاحب حكمه : وهي الفلسفة ، والملم ، والتفقه ، والعدل ، والحلم ، وصواب الأمر وسداده ، والكلام الجاري مع الحق والصدق ، والقول الذي يقل لفظه ، ويجعل منناه . وأحكم الأمر إحكاماً : أحسنه ، وأتقنه .

يقول : إن أبا تمام بنى أبا نولس ومسلم بن الوليد . وإن المما في شعره تشهد بتجاهه إلى الحكمة . ومن كلام بعض قدامى النقّاد : « أبو تمام والمثنى حكيمان ، والبحتري شاعر » .

(٣) أبدع في القول : أجاده وحسنه . وأبدع الشيء : أنشأه . أو اخترعه على غير مثال سابق . والإبداع : إيجاد شيء غير مسبوق . وبدائع الشعر : أحسنه . ويقال : هذا من البدائع : أي مما بلغ الغاية في بابه . وأبدع : أتى بالبدیع : أي بالمبتدع المبتدع الذي لم يسبق . والوليد بن عبيد بن يحيى الطائي أبو عبادة البحتري . وكنى تسمية بالمصدر : أي موشى بحسن مزين ، مزخرف . وبطه منم : اسم مفعول من الغنم : وهي الخشي ، أو الخشية : وهي النقش ، والزينة ، والترقيش والترزين ، والتحصين بالألوان ونحوها . والأصل : ثوب موشى ، وموشى .

(٤) أدرك الغاية : بلغ النهاية ، ونالها ، وظفر بها : أي نهاية الإبداع والإتقان . والأمثال : جمع مثل (بوزن سبب وأسباب) : وهو القول السائر بين الناس ، المشتمل بمفرده : على الحالة الأصلية التي ورد فيها الكلام . أو هو جملة من القول مقصولة من كلام ، أو مرسله بذاتها ، تنقل مما وردت فيه إلى مشابهه ، بلا تغيير في الكلمات والألفاظ ؛ وذلك ليبين أحدها الآخر ، ويوضحه ويصوره . نحو قولهم : « السيف ضيحت العين » ؛ فإن هذا القول يشبه قولك : « أهملت وقت الإمكان أمرك » . . والحكم كالأمثال ؛ فكلاهما صور من الكلام بلغت الغاية القصوى في البلاغة ، من حيث إيحاء اللفظ ، وصحة المعنى ، وحسن البيان ، ولطف الإشارة ، وإصابة الغرض ، وصدق التجربة . والحكم والأمثال ترتفع التفسير ، وتنشط لفظها ، وتحرص على تداولها . والفرق بينهما : أن للمثل قول يحكي سائر ، يقصد به تشبيه حال الذي حكى فيه بحال الذي قيل من أجله . والحكمة قول واقع تقصن حكماً صحيحاً مسلماً . وكما يكون كل منهما ثراً يكون نظماً . والأمثال والحكم كثيرة جداً في شعر « أحمد بن الحسين أبي الطيب المتنبي » . وبطه يبله (من باب رد) : غلبه وسبقه ، وفلقه . و« غاية تبد الخطى » : أي أمد رفع بعيد ، لا تستطيع بلوغه خطوات متنافسه وسامعهم . و« ما » : قافية ؛ بمعنى « ليس » ، و« متقدم » (بصفة المصدر الميمي) ، أو بصفة اسم المكان ، أو بصفة اسم للفاعل) : أي ليس وراء ذلك الأمد البعيد الذي يله المتنبي بحكمه وأمثاله مجال سبق أو التقدم . أو ليس بعده مكان يتقدم إليه متقدم ؛ فهو غاية الغايات ، وأبعد الآمال ، وأعلى مراتب النبوغ والتفوق . والمترلة الرضعة التي سبأ إليها المتنبي في هذا الشأن تتميز غيره من الشعراء والحكماء .

وَسَرْتُ عَلَى أَكَادِمِهِمْ ، وَلَرَبُّمَا سَبَقْتُ إِلَى أَشْيَاءِ . وَاللَّهُ أَكْبَرُ (٥)

(٥) الأتار: جمع الأثر: وهو العلامة . وما خلفه السابقين . وأخبر المروى . ولستة الباقية . وأثر الشيء: بقيته وما بعده . وسرت على أكادهم: أي سرت على أكاد هؤلاء الشعراء الخمسة الذين نوهت بهم في أربعة الأبيات السابقة: أي سلكت سبيلهم ، ولتقتدي بهم ، ولتجت سبيلهم . و«لربما» اللام للاجتهاد . و«وب» : حرف يفيد الكثير في مثل هذا المقام ؛ لأنه مقام شعر وبهاجة . و«ما» زائدة بعد «وب» متصلة بها : أي وكثيراً ما سبقت هؤلاء القصود إلى غايات لم يصلوا إليها ، وطوقت أيولياً لم يطرقوها ، وابتعدت ما يحظر لهم على هلك . « والله أعلم » : تنذير في معنى ما سبقه : أي والله يعلم أي سبقهم إلى أشياء لم يصلوا إليها ، وكاد لم يصلوها ، وطوقت أيولياً لم يطرقوها . ولم ينس البارودي أن يغير بشعره حتى في حاشيته عن هؤلاء القصود . واحتراز الشاعر بقصده - وبخاصة ما كان مثل شعر البارودي - من الأمور المألوفة السائقة في مثل هذا المقام . ومن مثله يُقبل أدعاه السبق ، ولا يتداع ، والتجديد . والتعريض من التذليل في هذا البيت : تأكيد معنى السبق . وهو في قوة القسم بالله .

• • •

تَرَكَجُ وَجِيزَةً لِلشُّعْرَاءِ الَّذِينَ نَوَّهَهُمُ الشَّاعِرُ فِي أَبْيَاتِهِ السَّابِقَةِ*

(١) أبو نواس : أبوعل الحسن بن هاني بن عبد الأول بن صباح الحكسي (١٤٦ - ١٩٨هـ) (٧٦٣ - ٨١٤م) رأس المحدثين بعد بشار ، وشاعر العراق في عصره . وهو فارسي الأصل . ولد بقرية من كورة خوزستان . ونشأ بالبصرة ثم أخرجته والية بن الحباب الشاعر الماجن للكوفي إلى الكوفة . ثم قدم بغداد وهو شاب في نحو الثلاثين ، فالتصل فيها ببعض الأمراء ، وندسهم ، ثم أذن له الرشيد في مدسه ، فندسه . ثم خرج إلى دمشق ، ومنها إلى مصر ، ففتح أميرها « الحصب » . كما قصد بعض عمال الولايات ، وندسهم . ثم انقطع إلى ملج محمد الأمين ببغداد . ثم مات بها بعد أن سجن ، وخرج من سجنه . وقد نظم في جميع أفراس الشعر ، ونجح له طريقته الحضرية ، وأخرجته من الهجة البدوية ، وتصبب لبيانها على الحضرية ، ولتناثر بحضرياته ، ومقطعاته الجهنميات ، وأراجيزه الطرديات . واقتضى بشطافته والية بن الحباب ، فتقل النزل من أوصاف المؤث إلى المذكر ، على خلاف ما ألف العرب وأداهم . وهذا كله أختن الشبان في زمانه وبهذه : وساكوه ، ثم غلب هذا المذهب على أكثر الشعراء ، حتى صار الشاعر لا يمد طرفاً إلا إذا مزج شعره بشيء من الحضرية والجهنمية وإن كان في حقيقة أمره بعيداً عنها ، بريثاً منها . ولأي نواس ديوان شعر مطبوع ، وديوان آخر عنوانه « مجون أبي نواس » . ولأين منظور كتاب سماه : « أخبار أبي نواس » في جزئين طبع أولهما .

(٢) أبو الوليد ، مسلم بن الوليد الأنصاري ، الملقب بصريح التوفاني (١٣٠ - ٢٠٨هـ) =

• رجعتا في هذه الترجمات والتصرفات إلى عدة مراجع ، منها كتاب « الوسيط في الأدب العربي وتاريخه » .

= (٧٤٧-٨٢٣ م) ولد بالكوفة، والد التتبع في حيد، وبعده بالبيع في جوج إلى تكلمه ومنعته، والإستكساره. وقد انتفع إلى جريد بن حريز الشيباني نكاح الرشيد، ثم اتصل بالخليفة هارون الرشيد فقصدها، ثم حج البصرة، فاستمكته حنن، وكان من خلفه الفضل بن سهل وزير الملقين، غلام أملا بجران، اكتسب منها مالا كثيرا. ثم لزم بيت، وجعل يفتي أسئلة في الفلك مع أشاله من علماء الشراء. ولما فقد ماله عاد إلى الفضل بن سهل، فقلده الفتيان وبعدها، فاكسب منها المال الكثير. ولما مات الفضل لزم «سلم» مولا، وآثر التمسك بالبيعة، وقطع من الملح، وجعل مستسكا حتى مات بجرجان بالقرب من بحر قزوين إلى الجنوب الشرق منه.

(٣) أبو تمام، حبيب بن أوس بن الخثعم الطائي (١٩٠-٢٣١ هـ) (٨٠٦-٨٤٦ م). ولد من أبوين فقيرين في قرية «جلم» من قرى «حوزان» بسورية، حل يد ثمانية غراسخ من دمشق. وقيل صغيرا إلى مصر، فنشأ بها، وعمل مقفلا في جامع عمرو بن العاص، وكان يوصف ثابة العلماء ونادهم، ومنهم تعلم أبو تمام العربية، وحفظ كثيرا من الشعر، وعالج نظم حتى نبع في جميع فنونه، وبخاصة الرثاء، ويهد طريق الحكم والأشكال المتنبي وأبي العلاء المعري وأمثالها. ومن مصر خرج إلى بغداد، ففتح المتصم، ووزره محمد بن الزيات، وكيل الولاية بولايتهم. ثم ولده الحسن بن وهب صاحب ديوان الرسائل بريد الموصل، وقيل أن تم سجن توفى فيها. ومن مؤلفاته: ديوان شعره، والاعتبارات من شعر الشعراء. وفصول الحماة. وفنائه جبر والأخطار. والقصصيات، أو ديوان الحماة الصغرى. وشمل أبو العلاء المعري في المناظرة بين أبي تمام، والبحتري والمتنبي، قال: «أبو تمام والمتنبي حكيان، وإنما الشاعر البحتري».

(٤) أبو عيادة الوليد بن عبيد بن يحيى، البحتري، الطائي (٢٠٦-٢٨٤ هـ) (٨٢١-٨٩٧ م) ولد. بجنج (كجس)، بين حلب والفرات، ونشأ في قبائل طى وبغداد من البدو الصاريين في شواطئ الفرات؛ فطبع حل فصاحة للعرب، ولأدب في صباه أبا تمام، وعليه تخرج، ثم رحل إلى العراق، وأقام في رحاب الخليفة العباسي «المعتزل» ووزيره «الفتح بن خاقان»، وظل محظيا لهما إلى أن قتل، فعاد إلى الشام، وجعل يختلف أحيانا إلى رؤساء بغداد وسر من رأى إلى أن توفى بجنج. وله ديوان شعر مطبوع. وكتاب الحماة، وهو على مثال حسنة أبي تمام. وكان يقال لشعره: «سلاسل الذهب».

(٥) أبو الطيب، أحمد بن محمد بن الحسين، الحنظلي، الكوفي، المتنبي (٣٠٣-٣٥٤ هـ) (٩١٥-٩٦٥ م) الشاعر الحكيم، صاحب الأشكال الساخرة، والحكم البالغة، والمعاني للبشارة. وهو من سلالة عربية، من قبيلة جنى بن سعد المشيرة، إحدى قبائل البجائية. ولد بالكوفة، في محلة كندة، فتنب إليها، وليس يكنى. ونشأ في الشام. ولما نازح الشرين من منه خرج إلى بادية بني كلب، فأقام بها مدة، وعظم شأنه بين أعرابها، فوشى به إلى أمير حمص من قبيل الدولة الإغشيدية، وزعم حمزة والواشون به أنه ادعى النبوة في بني كلب، فلعق به لقب «المتنبي» وهو يكرهه، وبسبب هذه الرضاية سجن طويلا. وبعد خروجه من سجنه لبث مدة يتكلم بشعره، ثم وفد على سيف الدولة بن حمدان المندلي صاحب «حلب» سنة ٣٣٧ هـ فهدى بقصائد كثيرة، وتعلم منه =

وَقَالَ :

لَمَعْرُكَ مَا يُدْعَى الْقَتَى بَيْنَ قَوْمِهِ بِلَى كَرَمٍ حَتَّى يَكُونُ كَرِيمًا^(١)
وَكَنْ يَلْبَثَ الْمَرْءُ الضَّبْنَيْنُ بِمَالِهِ إِذَا خَافَ غُرْمًا أَنْ يُعَدَّ لَيْثِيمًا^(٢)

الفروسيّة ، وشارك في كثير من وقائمه العظيمة مع الروم ، حتى عُدَّ من أبطال القتال ، وبقى أثراً عنده إلى أن وُثِيَ به ، فاضطر إلى مغارقه ، وقصد « كافرًا الإغشيدي » أمير مصر ، فدمسه أَمَلًا . ولما خاب أمله فيه خرج من مصر على حين غفلة منه ليلة عيد النحرسة ٣٥٠ هـ ، وذهب إلى الكوفة ، ثم إلى بغداد ، وزار بلاد فارس ، فدح ابن العميد بأرجان ، وعضد الدولة بن بُوَيْه الديلمى بشرّاز ، ثم عاد إلى بغداد ، ثم خرج منها يريد الكوفة ، ففرض له في طريقه « فائق بن أبي جهل الأسدي » جماعة من أصحاب يبي ضُبَّة ، فقتلوا المتنبي ، وابنته ، وفلامه بعد دفاع مجيد ، بالقرب من دير العاقول ، في الجانب الغربي من سواد بغداد . وله ديوان شعر مطبوع . وقد استوعب كل أغراض الشعر وفنونه ، وأجاد في وصف المعارك ، والعتاب ، والمرأى ، ولعل باب المديح أوسع الأبواب في ديوانه . أما حكمه وأمثاله فإنها ثروة عظيمة خالدة فاق بها من سبقوه ، ومن لحقوه من حكماء الشعراء ، وأفادت منها اللغة العربية أعظم فائدة ؟ فما من كاتب ، أو خطيب ، أو متكلم ، أو مناظر ، أو مدبر ، إلا وله من حكم المتنبي وأمثاله مدد أيما مدد . وأبو العلاء الممرى - على فضله ، وتساقه في المفاخر والتصورات الفلسفية - اعترف لأبي العليّ المتنبي بالفضل ، وقدمه على نفسه وغيره .

* * *

(١) « لمعرك » : اللام : لام الابتداء . وعمر : حياة . وهو مبتدأ . وغيره محذوف . والتقدير : لمعرك قسماً : أى أحلف بحياتك . ودعوت أبى بلى . ودعوت عليه : أى سميت بهذا الاسم . ويراد بالدهوق هنا : المرققة . أو الاشتباه . أو الاتصاف .

والمنى : أن المرء لا يسمو بين الناس إلى مرتبة الكرماء ذوي النجدة ، والمروءة ، والجدود والسخاء إلا إذا كان كرمه خالصاً ، صادقاً ، حقيقياً ، نقياً ، لا تكدره شائبة من شوائب المن ، أو الإيهام ، أو الرياء والنفاق ؛ فإن الناس لا يثنون طويلاً بالظواهر الكاذبة المحبقة ، يطعنوا الزجل ، ويخفون تحمها نقيضها . والبخيل الذى يدعى الكرم ، وينافق فيه ، لا يلبث أن يفضح أمره ، وتتكشف للناس حقيقته . والبيت الآتى يبرز هذا المعنى ، ويؤكده ، ويوضحه ، ويفصله .

(٢) لبت بالمكان (من باب فهم) : مكث ، وأقام . وما لبت أن فعل كذا : أى ما أبطلأ ، وما توفى ، ولا تأخر عن فعله . ولن يلبث الفسطين أن يُعَدَّ لثيماً : أى سرعان ما يوسم بالظم . وضم بالثي « كصب » (وضرب) : يجل به بجللاً شديداً ، فهو ضنين . والظم ، والنرم ، والفرامة : الخساسة : = ديوان البارودي - ٣

فَلَيْسَ الْفَتَىٰ مِنْ حَازَ مَالًا ، وَلَئِنَّمَا فَتَى الْقَوْمِ مَنْ أَغْنَتْ يَدَاهُ عَدِيمًا^(٣)
فَمَزَبَنَ مَا تَخْتَارُ فِي الْفِعْلِ ، وَلِئَمْسَ لِنَفْسِكَ حَظًّا كَيْ تَكُونَ عَظِيمًا^(٤)

= مصدر هزم في مجارته (كصب) : أي هسر ، ولم يريح . والقيم : ضد الكرم .

يقول : إن الذي يبخل بماله ، ولا يتفق منه في وجوه البر والخير ، والمروءة والإحسان ، غافلة المغمى ، والخسران - سرعان ما يصبه الناس بالقوم والفسانة ، والمهانة والحقارة ، وشح النفس ، وذناة الطبع .

(٣) الفتى (في الأصل) : الشاب الحدث أول شبابه ، بين المراهقة والرجولة . ويتوسع العرب في استعماله . فتقول : هو فتى من صفته كيت وكيت ، من غير تمييز بين الشيخ والشاب . ويقولون : هذا فتى بين الفتى : وهي الحرية ، والكرم ، والجود والسخاء ، والمروءة والتجدة . وحاز المال وغيره (من بابي قال وكتب) : اقتناه ، وجمعه ، وضمه ، وملكه . والعديم : الفقير الذي لا مال له . وجمعه عدماء .

يقول : ليست الفتوة والرجولة الحقيقية في حيازة المال ، والظن به ، والحرس عليه . وإنما تكون مع الكرم والجود والسخاء ، ولعل المال في وجوه البر والخير والمروءة . وسيد القوم من أعبد المستنجد ، وأغنى بماله المعدم ، وسد حاجة المحتاج .

(٤) مز : أمر من ماز الشيء من غيره (من باب باع) : أي عزله ، وفصله ، وفرزه ، ونجّاه . وكذا ميزه ، وأمازه ، فامّاز ، وامّاز ، واستأز ، وتميز . وتميّز القوم : تفرقوا . قال تعالى « يميز الله الخبيث من الطيب » (الآية رقم ٣٧ من سورة الأنفال) وقال تعالى : « وامّازوا اليوم أيها المجرمين » (الآية رقم ٩٩ من سورة يث) ومايز بين الشيئين ، أو بين الأشياء بمازته . هذه هي التمييزات المروءة لنا في هذه المادة ؛ فكلمة « بين » تأتي بعد الممازاة . ويلاحظ أن الشاعر جاء بها هنا بعد الميز . و « مز بين ما تختار في الفعل » : أي مايز بين ما تختاره من الأفعال ، وفاضل بين الأعمال ؛ لتتقى منها ما يريح شأنك بين الناس . أو مايز بين ما تختاره لنفسك فيما تفعله ، لتتقاع عن القبيح ، وتنبه إلى الحسن . و « اتمس لنفسك حظًا » : أي اطلب لنفسك نصيبًا مؤخرًا من البر والخير ، والكرم ، والمروءة ، والجود ، والسخاء ، والتجدة ، والأريحية ، والفضل ، والإحسان .

يقول : مايز بين الأفعال والأخلاق ، وتخير أفضلهما ، وجسّل نفسك بها ؛ لتكون من عظماء الناس . والآيات الأربعة في تعظيم شأن الكرم ، والدعوة إليه ، والترغيب فيه ، والحض عليه . وتهجين البخل ، وتقييح القوم ، والتفكير بهما .

وَقَالَ عَلَىٰ طَرِيقَةِ الْمَدِيحِ :

لَهُ نَظَرٌ تَأَمُّ جُودَ ، وَيَأْمُرُ أَثَارَتَا
غَمَامَيْنِ سَالَا بِالْفَوَاضِلِ وَالْدَمِ^(١)
فَكَمْ أَحَبَّتِ الْأَوَّلَىٰ لُبَانَةً مَعَشِيرِ
وَكَمْ أَرَدَتِ الْآخَرَىٰ حُشَاةً مُّجْرِمِ^(٢)

(١) له : للممدوح . والنظرة : اسم مرة من نظر الشيء ، ونظراً إليه : أى أبصره ، وتأمله بعينه . ونظر في الأمر : أى تدبره ، وفكر فيه ، ويقينه . والجود : الكرم ، والبدل ، والسخاء . والياس : القوة ، والشجاعة ، والإقدام ، وللشدة في الحرب والقتال . وأثار الثبار ونحوه : هيج ، وشره ، وأظهره ، وأسلمه . والدمام : السحاب . واحده غمامة (يوزن سحابة) . وإثارة الغمام : تحريكه وسوقه . والفواضل : الحيات ، والنم النظيمة ، والخيرات ، والموارف ، والصلايا ، والمكرمات . الواحدة فاضلة . وإثارة الغمامين اللذين يسيل أحدهما بالفواضل ، والآخر بالدم : تعبير مجازي يوضح ما قبله ويفصله : أى للممدوح نظرة مقرونة بالرضا تثير صحاباً ، وتسوقه إلى معتبه ، فيجرى عليهم بالنعم والمحابات . وله نظرة أخرى مقرونة بالغضب تثير صحاباً ، وتسوقه إلى المجرمين ، فينصب عليهم بالتجريح والتقتيل ؛ فهما نظرتان مختلفتان : نظرة تنتج الجود والفواضل ، ونظرة تنتج اليأس ، وتسيل الدماء .

مدحه في حالتي رضاه وبغضه ، أو في حالتي سلمه وحربه ؛ فهو في الرضا والسلام كريم سخي جواد معطاء ، يهود على معتبه بالفواضل الكثيرة ، والنم العظيمة ، ويفيض بالخيرات والمكرمات . وهو في الغضب والحرب مقاتل شجاع ، باسل مقدام ، شديد اليأس ، قوي المراس ، تكاثر في أعدائه طعناته ، وتتهمهم جراحاته .

(٢) « كم » في شطري هذا البيت : خبرية ، بمعنى كثير . والأولى : نظرة الجود . أو الغمامة التي تسيل بالفواضل . والآخرة : نظرة اليأس . أو الغمامة التي تسيل بالدم . واللبانة : الحاجة . وجمعها لبان (بضم اللام) . والمشر : جماعة الناس . وجمعه معاشر . وأردت : أهلكت . والحشاشة (بضم الحاء) : بقية الحياة . أو بقية الروح في المريض والجريح المَحْشُوعِ على الموت . ويراد بها هنا : النفس ، والروح .

يقول : إن الممدوح يحب بجوده وكرمه لبانات الناس ، ويقضى حوائجهم ، ويحقق الواسع البعيد من آمالهم . ويرى ببأسه وشدة ، وبطله وقوته نفوس المجرمين الآثمين ، ذى الشر والأذى ، والبني والمعنون . والبيت توضيح وتفصيل لمعنى البيت الذي قبله .

وَقَالَ :

عَلِيلٌ ، أَنْتَ مُسْقِمُهُ فَمَا لَكَ لَا تُكَلِّمُهُ^(١) ؟
 سَرَى فِيهِ الضَّنَى حَتَّى بَدَتْ لِلْعَيْنِ أَعْظَمُهُ^(٢)
 فَلَا إِنْ بَاخَ تَعْلِيْرُهُ وَلَا إِنْ نَاخَ تَرْحُمُهُ^(٣)
 إِذَا كَانَ الْهَوَى ذَنْبِي فَقُلْ لِي : كَيْفَ أَكْتُمُهُ^(٤) ؟

(١) عليل : مريض . من ألمة : وفى المرض الشاغل . وهو خبر لمبتدأ مخلوف . والتقدير : عبك عليل . وسقم (من باب تعب) : مرض . أو طال مرضه . وأسقمه : أمرضه . وسقام الحب : ما يعانيه المحب من إعراض الحبيب ، وصدوده ، وهجرانه . وما يقاسيه لهذا السبب من الوبس ، والفسق والوله ، والأرق ، والحلم ، والتلق ، والوجد والصبابة ، وحرارة الشوق ، ولوعة الهيام . والاستفهام فى الشطر الثانى : معناه الإنكار ؟ فهو يتكر على حبيبه صده عنه ، ويستهن بإعراضه من تكليمه . وقد يكون معناه الاستعظام والاسترحام ؟ فهو يستعظمه ويستميله ، ويرجو أن يرحمه بمحادثته ، والإقبال عليه . وقد يكون التعجب ؟ فهو يتعجب ويستجب فخره من إعراض ذلك الحبيب عنه ، وضته بالتحدث إليه ، مع ما ينطه من هيام به ، وبقائه فى هواه . والشاعر يخاطب من يتنزل بها بضمير المذكر ، تشبهاً بكثير من شعراء العصر العباسى الذين حفظ لهم ، واقتضى بهم . وهذا خبر قليل فى شعر البارودى .

(٢) سرى : سار . من السرى (بوزن الهدى) : وهو فى الأصل : السير ليلاً . ويقال : سرى فيه السم ، وألحمر . وفيه : فى الليل الذى أسقمه حبيبه . يريد نفسه . والضنى : شدة المرض ، ونحوه الجسم . ضنى (من باب صدئ) : مرض مرضاً ملازماً حتى أشرف على الموت . أو مرض مرضاً غامراً ، كلما ظن برؤه فكس . والأعظم : العظام ، جمع عظم ، (مثل سم ، وأسهم ، وسهام) . والشرط الثانى : كناية من نحوه وضعفه وهزأه ؟ فقد اشتد تأثير الضنى فى جسده ، حتى أذاب ما يكسو العظام من اللحم . وهذا البيت تفصيل وتأكيده لحنى الشطر الأول من البيت السابق .

(٣) باخ : ظهر (وبابه قال) . والمراد باخ بصره : أى أباحه وكشفه وأظهره . وفاح (من باب قال) : بكى ، واستبكى غيره .

يشكو ما يضايقه من جفوت حبيبه وقسوته عليه ؟ فإنه لا يلتصق له المذر إن خفت من نفسه ، فباح ببعض ما يكتمه من أسرار الهوى والفرام . ولا يرق له إن لاهه الحب ، واشتد به الوجد ، فقلبه البكاء والمويل .

(٤) يقول لمن يحبا : وإذا كان ذنبى إليك أنى أهواك ، وأتلقى بك ، وأنى على الرغم منى أبوح بالهوى والفرام ، فأعبرينى : كيف أكتمه ؟ لأننى بكتانه فضيك ، وأفوز برضاك ؟ . =

وَكُنِيَ أَنْتَ مُرْسِلُهُ وَكُنِيَ أَنْتَ مُرْسِلُهُ (٥)
وَلَا وَاللَّهِ مَا لِي فِي الْهَوَىٰ ذَنْبٌ ، فَأَعْلَمُهُ (٦)
فَوَيْلِي مِنْ غَرِيبِ الدَّلِّ لِي أَبْلَانِي تَحَكُّمُهُ (٧)

= وهو بهذا الاستفهام يمتحن نفسه ، ويقيم عذره ؛ ويحاول إقناع مشرقه بأنه لا سبيل إلى كتمان الحب ، وإخفاء أمره ، وأنه لا بد من ظهور آمارات المشق في العائق الصب المستهام ؛ وعلى هذا لا يليق بالمشفقة أن تنضب ، وتضاعف بنفسيها أو صاب عافقها ، بل ينبغي أن تلتبس له الملمر ، وتشفق عليه ، وترق له ، وترحمه . وهذا الشرح يتصل هذا البيت اتصالاً وثيقاً بالبيت السابق ، والبيتين اللاحقين .

(٥) أرسل النعم إرسالاً : أطلقه ، وأساله ، وأجره . وهذا البيت وثيق الاتصال بالبيت الذي قبله ؛ فالروى في شطريه : وأو الحال . واجلسه بعدها حاله : أي قفل لي : كيف آثم هوى وأحال أنك بمصلودك عن تمذبي ، وتكلم قلبي ، وتجرى دمي ؛ فيفتضح بالهكاه وآثار الآلام النفسية ما أحاول كتمانها ، وأحرص على إخفائه من أمري وأمرك .

(٦) « فأعلمه » : حق المضارع هنا أن ينصب بأن المفصلة بعد فاء السببية . ويمكن قلعه من هذه الفاء ، ورفعه بتقدير اسم قبله ، يرب مبتدأ ، خبره جملة « أعلمه » . والتقدير : « فأنا أعلمه » . وإنما حملنا على هذا التفرج حرسنا على سلامة البيت من « الإصراف » : وهو عيب من عيوب القافية : ومنه اختلاف « المهجري » : أي اختلاف حركة الروى المطلق ، فالروى في هذه القصيدة الميم ، وحركته النجمة . ومن أمثله قول الخبطية :

الشر صعب ، وطويل سكته إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
هوت به إلى الخفيض قلته يريد أن يحبره فيحجمه

أي فهو يحجمه .

قرر الشاعر في هذا البيت أن ساحة بريته من ذنوب الهوى ، وآثام الغرام ، وأكد تقريره بالقسم الذي صدر به كلامه . والفرض استالة الحبيب واستعطافه . وقد أسلفنا في شرح الأبيات السابقة أن لوحة الحب ، وحرقة الوجد ، وتيارات الشوق تمذب الحب وتكبله وتضنيه ، وتبهله وتؤرقه وتبكيه ، فتكشف الخلق المكتوم من أمره ، وتططمع الناس على مكتون سره ، وأن صلود الحبيب وتحكمه ، وإعراضه وترده سبب هذا كله ؛ فهو وحده المسئول عن انكشاف أمر المحب إن عد هذا الانكشاف من الأخطاء أو اللغوب . وفي البيتين الآتين زيادة لإيضاح وتفصيل وتأكيد لهذا المعنى .

(٧) ويل : ذناب ، وشقائق ؛ فالويل : كلمة عذاب . والويل : الهلاك . وحلول الشر . والذل : مصدر دلّت المرأة على زوجها (من باب ضرب) : أي أظهرت جرأة عليه في تلطف ، كأنها تخالفه ، وما بها من خلاف . والذل : الحالة التي يكون عليها الإنسان من السكينة والوقار في الحياة والمنظر والشمائل وغير ذلك . ويل (كخف) دلاً : تاه ، وتكبر ، واضفر . وأدل على محبه لإدلالاً : =

قَرَدَدَ فِي مَحَبَّتِهِ وَلَمْ يَسْمَحْ بِهَا قَسَهُ^(٨)
 غُزَالَ أَحْوَرُ الْعَيْنِ نِ ، لَا يَسْلُو مَتَبَهُ^(٩)
 بِهِمْ يَحْبِسُنْ صُورَتِهِ فُنُودَى ، وَهُوَ يَقْلِمُهُ^(١٠)

« وثق محبته ، فأقرط عليه : أى حمله مالا يطيق . ولعل هذا المعنى هو المراد هنا . وغريب الدل : أى دله غريب غير مألف : أى أقرط الحبيب فيه ، وخرج به عن حد القصد والاعتدال . وأبلان : جهنقى ، وأنسانى ، وأعيان ، وأشقانى . مستعار من أبلت الثوب : أى أغلقت ، وهلهته ، وأذهبت جدته . والتحكم : الاستعداد ، والتغلب ، والسيطرة .

يشكروا مضانيه ، ولا يكاد يطيقه من الجهد والمشقة ، والمنت والمذاب ، بسبب تحكم الحبيب وسيطرته ، وإفراطه فى الدل والتمسك ، وضنائه بالإقبال والوصول .

(٨) بها : بالهبة . ولم يسمح بها فه : أى لم يصارح بما فى نفسه من أمر الحب ، ولم ينطق بشئ من هذا ، ولم يجر حل لسانه .

وبعنى البيت : أنه أحب هذه الحسنة ، وشغف بها ، وبدأ فى قوله وحمله وسلوكه أثر هذا الحب الصادق القوى ، ولكن محبته لم تسار به فى شئ من هذا ، وبدت كأنها مترددة فى حبها له ، أو غير مكثرة لهماه وغرامه ، وضنت عليه بكلمة من كلمات الحب تشافه بها ، فتصلح حاله ، وترجع باله . والتردد فى الهبة ، وعدم التصريح بها ، والإضراب عن التكلم فيها .. كل هذا قريب من معنى البيت السابق ، أى من معنى الدل الغريب ، والتحكم اللين الذى أضى المحب وطبده ، وأبلاه .

(٩) غزال : خبر لمبتدأ محذوف . والتقدير : هو (أى الحبيب) غزال : وهو الشادن : أى ولد الذئبة إذا تحرك ، وترصرع ، وشى . وتشبه المرأة بالغزال فى جمال الجيد ، أى المتق ، وجمال العين وحسن سمها ، وفخوها ، وشفقة الجسم ، وشفقة الحركة ، وحسن التثني . وأحور : صفه من الحور (بفتح الجيم) : وهو من محاسن العين . ومعناه أن يشتد بياض بياضها ، وسواد سوادها ، وتستدير حدقتها فى سمة مستحسنة ، وترق جفونها ، ويبيض ما حولها . وقد حورت العين (من باب فرح) . قول : ولا توصف العين بالهور إلا إذا كان جسد صاحبتها أبيض . وسلا ، وسلا عنه : نسيه ، وتمزى عنه ، وتسل ، وصبر على بُسْده ، وطابت نفسه بعد فراقه . والمتيم : الذى تيممه المشق : أى عبده وظله . ومتم : فاعل « يسلو » : أى لا يسلوه متيمه .

يُشَبِّه محبته بالغزال ، وينو بحمال عينها ، ويقول : إنها بحاسنها ومفاتنها تيمم عاشقها ، وتيممها ، وتدلله ؛ فيبقى على اللوام مستهماً بها صبا ، لا يكاد يسلوها ، أو ينصرف عنها ، أو تغليب نفسه بشيها .

(١٠) هام فلان بفلاتة (من باب باع) : هونها ، وشغف بها ، واشتد عشقه لها . وفاعل « يجم » « فؤادى » . ويحسن صورته : أى يحسن صورة الغزال الأحور العينين الذى لا يسلوه متيمه . =

نَسَبْتُ بِهِ ، فَبَانَ عَلَى جَبِينِ الشَّعْرِ مِيسْمُهُ^(١١)
 قَمَا لِي فِي الذِّي أُمْلِيهِ مِنْ فَضْلٍ ، فَأَغْنَمُهُ^(١٢)
 وَلَكِنْ حُسْنُهُ يَبْدُو إِلَى عَيْنِي ، فَتَرُسُّهُ^(١٣)

« و « الوار » في الشطر الثاني : واو الحال . وجملة « هو يظلمه » : جملة حالية . و « هو » : أى النزول . يقول : إن قلبه متهم بها ، مفتون بحسنها ، ومع هذا تظلمه ، وتغديه ، ويجور عليه ، ويتغصبه حقه بدلها وصلودها . والبيت الثامن من أبيات هذه القصيدة يشرح الجملة الحالية في نهاية هذا البيت ، أى هو يهواها ، ويحب بحسن صورتها ، ومع هذا تظلمه بترودها في الهبة ، وإغراضها عنه ، وقلة اكتراثها له ، ويغفلها عليه ، حتى بكلمة طيبة تطلب بها خاطره ، وتريح به .

(١١) نسب الشاعر بقلادة . شَبَّ بها في شعره ، وتنزل ، وعرض هواها وجها . وبه : أى بالنزول الأسور العينين الذى لا يسلبه متبعه . وإلجين : ما فوق الصدغ ، عن بين الجبهة ، أو شملها ، وهما جبينان . والجبهة بين جبينين . وقد يطلق إلجين على الجبهة . ويراد بجبين الشعر : ديباجته ، وأسلوبه ونظمه . والجسم : العلامة ، والسمة ، وأثر الحسن والجمال . وجسمه مياصم ، ويسمى : أى ميمم النسب المفهوم من نسب . أو ميمم « الفزال » ؛ فإن الشمره يحسنون شعرهم ، ويزينونه بالنسب والتشبيب وأوصاف النساء ومحاسنهن .

يقول : إنه شب هذه الحسناء ، فظهرت في شعره محاسنها . أو المعنى : أنه لما نسب بهذه الحسناء تحسن شعره بهذا النسب ، وترين ، وراق وشاق .

ومن خصائص شعر النسب ، أو الفزل ، أو التشبيب — الملوحة ، ورقة الحواشي ، وجمال الأوصاف ، وبلاغة التشبيهات ، وتأنجج العاطفة . وفيه هو النفس ، وإرتياح خاطر .

(١٢) أمل الكاتب على الكاتب إملاء : ألقاه عليه ، وقاله له ، فكتب عنه . و « من » زائدة لتوكيد الكلام . والفضل : الإحسان ابتداء بلا علة . وأغنمه : أغوزبه بلا مشقة . أو أناله بلا بدل (وبابه فهم) . فأغنه : أى فأنا أغنم هذا الفضل : أى أغنم جزاءه وعمرته . والمصارح مرفوح . وجملة « أغنمه » خبر المبتدأ « أنا » . و « راجع إعراب » فأعلمه في البيت السادس من أبيات هذه القصيدة .

في البيت السابق قال : إنه نسب محبوبته ؛ فازدان شعره بجمالها ، أو بجمال هذا النسب . وفي هذا البيت قال : إنه لا فضل له فيما عليه من شعر الفزل أو النسب ، وإنما الفضل كله لمن يتنزل بها ، ويزين شعره بمحاسنها . وثلاثة الأبيات الآتية تؤيد هذا المعنى .

(١٣) حسنه : أى حسن الفزال الأسور العينين الذى لا يسلبه متبعه : أى حسن الحسناء التى يتنزل بها . و « إل » هنا : مرادفة اللام : أى يبدو لى . قال تعالى : « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون » (الآية رقم ٤٧ من سورة الزمر) . « وبدا لهم سيئات ما كسبوا » (الآية رقم ٤٨ من سورة الزمر) . « فبدت لهما سيئاتهما » (الآية رقم ١٢١ من سورة طه) . وترجمه (من باب نصر) : «

وَيَسْتُرُ لَفْظُهُ دُرًّا عَلَى سَمْنِي ، فَأَنْظِمُهُ (١٥)
 وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا لَاحَتْ بِإِنْسِقِ الشَّعْرِ أَنْجُمُهُ (١٥)
 فَقُلْ مَا شِئْتُ فِي شِعْرِي وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَحْكَمُهُ (١٦)

= نَحْطُهُ . أَوْ تَكْنِيهِ . أَوْ تَصَوُّرُهُ .

وهذا البيت يوضح معنى البيت السابق ، ويفصله ، ويؤكدده ؛ فإن محاسن المتنزل بها تروقه وتبهره ؛ فلا يمتد أن يصورها بشعره .

(١٤) نثر الحب وغيره (من بابي نصر وضرب) : رماه متفرقا . وفاعله ضمير الغزل في البيت التاسع . والدر : جمع درة ؛ وهي اللؤلؤة العظيمة ، ونظم الدر وغيره (من باب ضرب) : جمعه ، وأنظمه ، ونسقه في سلك ، أو خيط ، أو نظام . ومن الهجاز : نظم الشعر ، ونظم الكلام . يقول : إنه يستمع لما تترده هذه الحسنة من ألفاظ تشبه الدر ، فينبغي بجمعها وتنسيقها . يريد أن ما ينظمه من شعر الغزل والتشبيب من وحى هذه المحبوبة الجميلة وإلهامها . ولولا اختفائه بها ما استطاع أن يزيد ثروة الأدب ، ويثقف قراءه بهذه الروائع .

(١٥) ذلك : إشارة إلى النسيب ، أو الغزل ، أو التشبيب . أو إشارة إلى محاسن محبوبته . ولاحت : بدت ، وظهرت . والألق : الناحية . وينتهي ما تراه العين من الأرض ، كأنما التقت عنده بالسما . ويراد به هنا : السماء . أى بسماء الشعر : أى بالشعر الشبيه السماء . أو بما علا وراق من الشعر .

والمنى : أن الشعر يزدان بالغزل ، وتصوير محاسن المتنزل بها ، كما تزدان السماء بكواكبها ويجوؤها النيرات .

(١٦) أحكمه : أى أكثره إقتاناً وإحكاماً ، وأجوده حبسكاً وسبكاً : اسم تفضيل من حكم (من باب قرب) : أى صار حكيماً : أى ذا حكمة . ومن معانى الحكمة : الكلام الذى يقلل لفظه ويجعل معناه . ويجرى مع الحق والصدق ، والصواب والهدى ، ويقوم على الإقتان والإحكام . ومن حديث النبي صلى الله عليه وسلم : « إن من لشعر لحكمة » : أى قضية صادقة . وشعر حكيم : أى حكم متين ، رائق ، رائع ، لا اختلاف فيه ، ولا اضطراب . والشرط الثانى تذييل جارى مجرى المثل . ومعناه : أن خير القول وأفضله ما أصاب الحق ووافقه ، وقام على السداد والرشاد ، ورفضه الإحسان والإقتان فى مراتب البلاغة والبيان . وصلت بالشرط الأول : افتخار الشاعر بأن شعره من غير القول وأفضله وأحكمه وأقويه .

والمنى : ألمح شعري بما شئت ، وقرظه بما استطعت من كلمات المديح والإطراء ، وعبارات التعريظ وحسن الثناء ؛ فإنه من سحر البيان ، وخير الكلام ، وأفضل القول وأحسنه . وقد ضاعف محاسنه وزاياه ما زانه من حديث الغزل ، أو النسيب ، أو التشبيب ، وعواطف الحب والهيوى ، ومواقف العشق والغرام ؛ =

وَقَالَ :

وَقَاتِنَسَ الْحَدِيثَ ، لَهَا نِكَاتٌ تَحُولُ بِسِحْرِهَا دُونَ الْعَرَامِ (١)
شَكُوتُ لَهَا ضَنْىَ جَسَدِي ، فَقَالَتْ بِطَرْفِي مَا بِجَسَدِيكَ مِنْ سَقَامِ (٢)

= وصور العصابة والحياض . وقد أسلفنا أن الشاعر استخدم في هذه القصيدة وفي كثير غيرها ضمير المذكر ، وهو في حقيقة أمره يتنزل باللوث ، مشبهاً بكثير من شعراء العصر العباسي الذين حفظ لهم ، وإثنتي بهم . كما أسلفنا في التعريف يأتي نواس أنه نقل الغزل من أوصاف المئذنت إلى أوصاف المذكر ؛ فخرج بذلك من مألوف أدب العرب ؛ إذ لم يكن هذا معروفاً قبله وقبل شيطانه وألبه بن الحجاب ، فافتتت بشعرها كثير من الشعراء في زمانها ، وبعده . وحاكوها في المجهيزات ، الحمريات ، وغلب عليهم هذا المذهب ، وإن لم يكونوا من ذوي الخلاعة والمجون .

* * *

(١) وفاتنة : أى ورب فاتنة . « رب » : حرف جر ، حذف بعد الواو لفظه ، وبقي عمله . ومعناه هنا : التقليل ؛ فإن نظائر هذه الحساء المتفرق بها - قليل . وفاتنة الحديث : أى كلامها ممجوب رائق ، يستعمل الأسجاع ، ويحول القلوب : اسم فاعل من فتته الشيء : أى استهواه ، واستماله ، وراقه ، وأعجبه . والنكات ، والنكتات : جمع النكتة : وهى النقطة فى الشيء تخالف لونه . ومن الجواز جاء بنكتة ، أو نكت (بوزن نقطة ونقط) فى كلامه : أى أتى فيه بطرف ولطائف ، وأشياء مستحددة ، رائقة ، عجيبة . وتحول : تحجز ، وتمنع . (وبابه قال) . وفاعله ضمير « النكات » ، أو ضمير « فاتنة الحديث » . ويسحرها : أى يسحر النكت . أو يسحر « فاتنة الحديث » . والسحر الكلاسي : غرابة الكلام ، ولطافته ، ورفقته ، وهنويته ، وحسن تأليفه ؛ وهذا ونحوه يؤثر فى القلوب ، ويجعلها من حال إلى حال ، أو يحتلها ويستميلها كما تسال بالسحر . والمرام : المطلب . وبرام الشاعر : الموصل . وميصرح به فى البيت الثالث من هذه الأبيات . وتحول يسحرها دون المرام : أى يحول سحرها بين الماشق ومرامه : أى يعترض له ، ويججزه ، ويمنعه من إدراك مطلبه ، وبلوغ مرامه . يقول : إن حديث هذه الحساء ممجوب مطرب ، رائق فائق ، فائق جذاب ، تزيه ، وتقضاع تأثيره نكت ساحرة باهرة تستأثر بسجع الماشق وقلبه ، وتلهيه عن مطلبه ومرامه .

(٢) الضنى : المرض المزمن ، والحزال الشديد : مصدر ضنى (من باب ضنى) : أى اشتد مرضه وطال ، حتى تسحل جسمه . أو مرض مرضاً ملازماً ، حتى أشرف على الموت . أو مرض مرضاً متتابعاً ، كلما ظن برؤى نكس . وأكثر ما يستعمل الضنى فى مرض الماشق المزمن ، والعصب المتجهم . والطرف : العين . ومن محاسن عيون النساء : الفتور ، والبين ، والسكون ، وانكسار النظر ؛ لأنه من أمارات الخضر والحياة ، وهو مستحب فى النساء . وعلى العكس من هذا حدة النظر فهى وبثته . والاستقام : المرض . ويراد به هنا : فتور الطرف ، وليته ، وسكونه ، وانكسار النظر . =

فَقُلْتُ: عِدِّي بِوَصْلِ مِنْكَ صَبًا بَرَّتْهُ يَدُ الصَّبَابَةِ وَالْغَرَامِ^(٣)
فَقَالَتْ: سَوْفَ تَلْقَانِي قَرِيبًا قُلْتُ: مَتَى؟ فَقَالَتْ: فِي الْمَنَامِ^(٤)

= شكا إلى « فاتنة الحديث » تحول جسده وهزله ، ومايمانيه ويضانيه من أوصاب الهوى والغرام ؛ فقالت له - على سبيل الفخر والزهو ، أو المداعبة والملاطفة ، والمباينة والممازحة - : يطرق مثل ما يجسك من مقام . ووجه الشبه بينهما الفتور ، غير أن فتور جسده من شئ الحب ، وفتور طرفها من الخضر والحياه .

(٣) عدى: أمر من وعده الأمر ، وعده بالأمر . وياه المحاطية فاعل « عد » . والوصل : ضد الهجران . وفعله من باب وعد . وطله الوصال . ويكون في حفاف الحب ودعائه . والصب : المشوق المستهام : صفة من الصباية (بوزن القنعة) : وهي الشوق . أو رفته وحرارته . أو رقة الهوى ، وحرارة الوجد . وبرته : أخته ، وهزله ، وأخلته . وهو من مجاز اللفظ . والأصل : يرى العود ، أو الحجر ، أو نحوهما (من باب رى) : أى نخته . ويرى القلم : أى سوى طرفه للكتابة . والغرام : الهوى وأحب الشديد الذى يعلب القلب . وأن يتوَلَّع المرء بالثوى : أى يحرس عليه ، ويعلق به تعلقاً شديداً ، فلا يستطيع التخلص منه . والغرام أيضاً : المذاب الدائم الملازم . ويراد به هنا : عذاب الحب ، وأوصابه ، وآلامه .

سألها وعد الوصال ؛ فإنه مستهام بها ، صب . وقد برَّح به الوجد والحيام ، واشتدت به الصباية والغرام ، حتى ضنى ، وذهبت مُنْتَهَى جسده ، وهزل ، واستحق المرحلة والطف ، والحنان والإشفاق . وفى وصلها كل الرحمة ، وكل ما يمتناه فى الحياة . وفى البيت الآتى جواب هذا السؤال الرقيق الذى ذكرنا به قول عاشق « عيلة » :

غفنى يا حبلَ حنى ، وأعلمنى
إن فى بىردى جسماً ناعلاً لو توكَّلت عليه لانهدم

(٤) « سوف » : حرف مبنى على الفتح ، يختص بالمضارع ، ويختصه الاستقبال : أى يردع من الزمان الضيق ، وهو الحال إلى الزمان الباسع ، وهو الاستقبال ؛ ولهذا يسمونه حرف تنفيس : أى توضيح . قيل : وهو يقتضى معنى المماطلة والتأخير : أى أن مدة الاستقبال معه أوسع من مدة الاستقبال مع السنين ؛ فإذا قلت لصديق : « سأزورك » ، كان المعنى : أن مدة الاستقبال ضيقة محدودة قريبة . وإذا قلت له : « سوف أزورك » كان المعنى أن مدة الاستقبال واسعة فضيحة محدودة ، غير محدودة ، وليست قريبة . وقيل : إنها مترادفتان : أى بمعنى واحد ، ولا فرق بينهما ، أى ليست مدة الاستقبال مع « سوف » أوسع من مدة الاستقبال مع « السنين » . ويستعملان فى الوعد ، وفى الوجد . و« سوف » هنا : للوعد . والمتام : النوم . ورأى فى متامه كذا : أى حلَّم به . تريد أنه سوف يلقاها فى رؤيا منامية ، وفى جوابها معنى التحكم والسخرية ، أو الممازحة والمباينة . وفيه رفض للوعد بالوصال .

سألها وعد الوصال ، فأخلفت ظنه ، وخيبت رجاءه .

وَقَالَ :

دَنَيْتِي إِلَيْكَ غَرَابِي فَهَلْ يَحِلُّ مَلَامِي ؟^(١)
 يَا ظَالِمِي فِي هَوَاهُ هَلَّا رَعَيْتَ ذِمَامِي ؟^(٢)
 حَتَّامٌ تُعْرِضُ عَنِّي وَلَا تَرُدُّ سَلَامِي ؟^(٣)
 عَطَفْنَا عَلَى ؛ فَإِنِّي بَرَى هَوَاكَ عِظَامِي ؟^(٤)

(١) الغرام : الهوى ، والحب الشديد الذى يندب قلب المحب ويضنيه . والمغرم : أسير الحب . وأغرم بالشيء إغراماً : أى أولع به ، وحرمس عليه ، وتعلق به تعلقاً شديداً . والاستفهام فى الشطر الثانى معناه التنى ، أو الإنكار ؛ فهو لا يحل لحبيبه أن يشحى عليه باللامّة . أو هو ينكر عليه أن يلويه على غرامه وتوليه به ، ويهيب العذل منه ؛ ويهناه عنه .

يقول : إن ذنبه إلى من يحبه ويهواه أنه مستهام به ، حريص عليه ؛ فمن المستنكر أن يذله هذا الحبيب ويلويه على حبه له ، وتعلقه به . يريد أن الهوى والغرام ليس ذنباً ، ولا إثمًا ، وإلها هو أصرّة قوية وثيقة ، وصلة قلبية راسخة تقتضى الإقبال والاحتفال ، لا العذل والملام .

(٢) فى هواه : أى بسبب حبه له ، وتعلق به . أو فى سبيل الهوى والغرام . والغرام : الحرمة ، والحق ، والمهد . ودعى له ذمامه (من باب سى) : : لاحظته ، وحفظه . أو أحسن إليه برعاية حقه ، والحفاظة عليه . و«هلا» هنا : تفيد التناوب واللوم على ترك الرعاية ؛ لأنها داخلية على الفعل الماضى . وإذا دخلت على المستقبل أفادت التحفيض : أى الحث . والتحريض . وصلة الشطر الثانى بالشطر الأول : أن حبيبه لم يراع ذمامه : أى لم يراع حق الهوى والغرام ، ولم يحفظ عهد الحب وسهرته ؛ فظلمه بهذا ، وجار عليه ، وهضمه . ومن الظلم فى الهوى كذلك ما أشار إليه الشاعر فى بعض هذه الأبيات من إغراض الحبيب وتمنعه ، وظواهر جفوفه وتساوته .

يشكو ما أصابه بسبب حبه وغرامه من ظلم الحبيب له ، وإغراضه عنه . ويماتبه لأنه أهل ما ينبغي حفظه وبراعته من عهد الحب ، وروثقه ، وحقوق الهوى وسرماته .

(٣) «حتام» : أصله «حسى» «ما» : أى إلى متى ؟ . «حسى» : حرف جر : بمعنى : «إلى» . و«ما» : اسم استفهام ، اتصل به «حسى» ، فحملت ألفه للتخفيف . وأعرض عنه إغراضاً ، صد عنه ، وبال ، ولى ، وجفا ، وأدبر . وضده الإقبال . والاستفهام هنا : معناه الاستبطاء . وعدم رضى تسمية المحب وسلامه : إحدى صور الظلم ، والإغراض ، والجفوة والقسوة ، والقطيعة ، والإدبار . (٤) برى الهوى عظامه (من باب رى) : أى اشتد به الوجد ، ورجح به المشق حتى تحله ، وهزله وأضناه ، وأذا به . وهو من مجاز اللغة . والأصل : برى القلم ، أو السود ، أو الحجر ، أو نحوه أى نخته .

فَكَيْفَ تُنْكِرُ وَجْدِي ؟ أَمَا رَأَيْتَ سَقَامِي ؟^(٥)

وَبَنَاءَهُ مِمَّا أَلَايَ مِنْ لَوْعَتِي وَهَيْبَتِي^(٦)

رَقَّ النَّسِيمُ لِحَالِي وَسَالَ قَمْعُ الْقَمَامِ^(٧)

وَسَاعَلَتْنِي ، فَتَحَاتْ عَلَى وَرْقِ الْحَمَامِ^(٨)

(٥) وجد بقلان (من باب وجد) وجداً : أى أحبه حباً شديداً والسقام : المرض الطويل : مصدر سقم (من باب تعب) : أى طال مرضه . ويراد به هنا : سقام الحب ، وضناه ، وأوصابه ، وآلامه . والاستفهام فى الشطر الأول : معناه التسبب ، فإن غرامه بهذا الحبيب قوى صادق ، بين ظاهر ، وأمارات وجده واضحة كل الوضوح ، وبها سقامه . وإنكار الحبيب أو جهله هذا الوجد ما يثير العجب والدهش . والاستفهام فى الشطر الثانى : معناه التقرير : أى إثبات سقامه ، وإلا عترف الخاطب (هو حبيبه) حل الإقرار بما يصير فى وجهه سببه وجسمه من القسوة والهيام ، والإعتراف بما يراه من شواهد الوجد وأماراته ، وأوصاف الإفرام وآلامه . وقد يكون الاستفهام لئلا : أى أأست ترى سقامي ؟ أى وإنك ترى سقامى وأوصافاً جليلاً فى وجهى وجسمى ، فلا معنى لإنكار وجدى بك . وهذا ونحوه من أساليب الإقوال وما يتطلبه من التردد إلى الم محبوب ، وإظهار الهيام به ، وتشكيك الإعراض والصدود . وقد أسلفنا أن البارودى يجرى فى كثير من غزلياته على سنن وألبه بن الحبيب ، وأبى نواس ومن تسجروا على متوالهما من الشعراء الذين خرجوا بالفرز من مألوف أدب العرب ، فنقلوه من أوصاف الخواث إلى المذكر ، وأولعوا بهذا المذهب ، وإن لم يقصصوا من ورائه إلا الحكاة والتلفظ .

(٦) «ويلاه» : أسلوب ندية . وبه هنا : نداء المتوجع منه . والأصل : «يا ويل» ، فحذفت «يا» وأبدلت ياء المتكلم ألفاً ، وزيدت بعدها «هـ» السكت . والويل : كلمة شر وعذاب . أو كلمة يهين بها عن التفتيح والتجريح ، وتشكى الألم الشديد . وروعة الحب : حرقته ووصبه . والهوى : جنين العشق .

(٧) رق له : رسه ، وأشفق عليه . ورق : دق ، وتشتت ، وضعف ، ولطف . والنسيم : الريح الطيبة الينة اللطيفة ، لا تحرك شجراً ، ولا تملأ أترافاً . والقمام : السحاب . وأحدته خامة (يوزن سحابية) . وضع القمام : المطر .

(٨) فاحت المرأة الميت ، ومثل الميت (من باب قال) : بكى عليه ؛ يصيح ويويل ويجزع . واستبكت غيرها . وفاحت الخامة : سجمت ، ورددت صوتها على طريقة واحدة . ونواح الحمام يطير كأنه صوت الحزين الواجد ، ودين الوجة والألمى . وفاحت على : أى فاحت من أجل : أى شاركنى فى لوعتى وهيباتى ، فتاحت رقة ، وإشفاقاً على . وحمامة ورقاه : رمادية اللون . وألجم ورق (بضم فسكون) . فى هذا البيت والذى قبله اخن الشاعر من استعطف حبيبه ، وكسب مودته ؛ فتخيّل أن الطيبة والطير تشاوركه فى وجده ، وترق لحاله ، وترق له ، وتشفق عليه ، وكان من آثار هذه المشاركة رقة النسيم ، وبكاء القمام ، ونواح الحمام .

فَيَا سَجِيرَ قُوَادِي فِي يَفْقَتِي وَمَسَلِي^(٩)
مَتَى يَفْزُوزُ يَوْضَلِ أَسِيرُ لَحْظِكَ «أَسَاي»^(١٠)

وَقَالَ :

قَالَتْ أَرَأَيْكَ عَلِيلَ الْجِسْمِ، قُلْتُ لَهَا مِنْ شَفَةِ الْحُبِّ أَبْلَى جِسْمُهُ السَّقَمَ^(١١)
قَالَتْ : فَهَلْ مِنْ دَوَاءٍ يُسْتَطَبُّ بِهِ قُلْتُ : الْوَصَالُ، فَرَأَحَتْ وَهْيَ تَبْعِيمِ^(١٢)

(٩) سمر (من باب نصر) : لم يم ، وتحدث ليلاً . وسامره : حدثه ليلاً . وميمرك : مسارك . هذا هو الأصل . ثم توسع في استعمال السمر والمسامر : فكان صاحبك الذي تألفه ، وتأنس به ، ويتحدث إليه ، ويحدث إليك في الليل أو النهار .

وفي البيت إشارة صريحة إلى أن الغرام أو التعلق الشديد ، أو الولوع بهذه المعبودة مسيطر على قلب الشاعر ، وحواسه ، وشاعره ؛ فهو يحب لها ، مستمهاً بها ، حريص عليها ، لا يفتأ يذكرها ، ويناجيها ، ويتعلق بها في نهاره وليله ، ويقفته وفنوه .

(١٠) الاستفهام في أول البيت : معناه الاستبطاء . أو التفتي . والأسير : المأسور المقيّد . ولحظ المعبودة : نظراتها الفاتنة الساحرة : مصدر لحظته ، ولحظت إليه (من باب قطع) : أي نظرت إليه بلحظاتها : وهو مؤخر العین مما يلي الصدغ . ومن كلامهم : «فتنته الحظاظها ولحظاتها» . و «سأى» : اسم الشاعر : «عمود سأى البارودي» . وقد أسلفنا أنه في كثير من غزلياته يشير إلى الخوفاً بضمير المذكر اقتداءً بمن سبقه إلى هذا ، وتطاول به من شعراء العصر النبأى .

* * *

(١١) عليل : سقيم مريض . وشفه الحب : هزله ، وأخذه ، وضمره ، وأرقه ، وأوصبه ، وأغشاه . وأبلاه : هزله ، وأخذه ، وأذابه ، وأضعفه . والأصل : أبل الاستعمال الخوب إبلاء : أي أخلفه ، وأذهب جده وقوته ، وصيره بالياً ، رثاً ، خليلاً . والسقم : مصدر سقم (من باب تمب) : أي مرض ، أو طال مرضه . ويراد بالسقم هنا : ما يصيب العاشق الصب المستمهاً من الوصب ، والفتنى ، والهيام ، والصبابة ، والتوله ، والانهول ، والذهول ، والتحول .

ورأه حبيبه مبتلاً ، نال الجسم ، فسأته عن سبب هذا ، فأجابها أنه يحب لها ، مستمهاً بها ، وأن الحب إذا اشتد شف الجسم وأبلاه .

(١٢) « من » : زائدة ؛ لقولها بعد الاستفهام هل ، كما في قول الله تبارك وتعالى : « فارجع البصر ، هل ترى من فطور ؟ » (الآية رقم ٣ من سورة الملك) . والفرض من زيادتها تركيد السوم : أي فهل من دواء ما ؟ . ويستطبع به : يتدلى به . والولول في الشطر الثاني : وأو الحال . والجملة بعدها حالية . =

قَبِيتُ فِي حَبْرَةٍ ، لَا الْقَلْبُ مُضْطَرِبٌ وَلَا الْوُضُوءُ إِلَى مَا يَشْتَهَى أُمُّ^(٣)
وَمَنْ أَطَاعَ هَوَاهُ غَيَّرَ مُكْتَرَبٍ بِمَا يَكُونُ ، فَعَقِبَى أَمْرِهِ نَسَمٌ^(٤)
وَقَالَ نَاطِلًا قَوْلَ رَجُلٍ أَحَبَّ امْرَأَةً دُونَ^(١) قَدْرِهِ^(٢) ، فَقَدَّلَهُ^(٣) عَمَهُ ، فَقَالَ :
يَا عَمُّ^(٤) ، لَا تَلَمْ مُجْبِرًا^(٥) عَلَى سَعْيِهِ^(٦) ، فَإِنَّ الْمُقِرَّ^(٧) عَلَى نَفْسِهِ مُسْتَعْنٍ عَنْ

== سألت من دواء يَطْبُهُ ويدأويه ، فقال : دواؤه وشفاؤه في أن تصله ، ولا تهجره ، فانصرفت عنه وحل شفتها ابتسامه أنجلج والحياه والاحتشام . أو المخرج ، والاحتياط ، والإحجام . أو الإعراض والإدبار ، وقلة الاكتراث ، وعدم المبالاة .

(٣) مضطرب : صابر . ويشتهي (بالبناء لقنابل) : أي يشتهي القلب . أو هو (بالبناء للمفعول) . وأسَم : حين ، يَمُن : واضح ، يسر : سهل ، قريب المتناول .

والمنحى : أن إعراض حبيته عنه ، وعدم اكتراثها له ، وضنها بالإقبال والوصال ، وإيمانها في الصدود والهجران - أوقعه في الحيرة والارتباك ، وجعله يمانى لهم والتم بالليل والنهار ، وسلبه نعمة الصبر والطمانينة ، وجرحه مرارة الحسرة والحزبان ، وأشعره العجز عن بلوغ ما يتوق إليه ويشتهي ويتناهى . وهو شبه تمهيد للبيت الآتي : (٤) غير مكترث : غير مبال ، وغير مهم . يعقب كل شيء : آخره ، وعاقبته ، ونهايته . والأمر : الشأن ، والحال .

والمنحى : أنه انقطاع لدواعي الحب والموى ، ولم يبال عواقبه . فالتفتى أمره إلى ما شكاه في البيت السابق من الأرق والقلق ، والحيرة ، والعجز ، والجزع والحزبان ، ولهذا استعمر الأسف والتندم ، وكره ما كان من انقياده لأسباب المشق والفرام ، وقد ساق الشاعر هذا البيت مساق الحكمة أو المثل ، وشتم به هذه المقطوعة الغزلية القصصية ؛ فصرخ بهذا على المألوف في مقام الغزل ، أو النسيب ، أو التشبيب ؛ فإن الملائق الصب المستحسب لا يكاد يشعر بشيء من الأسف أو التندم على حبه وفرامه ، ولا يكاد يفكر في المظهر بالتندم لو أحسه ، وهو في كل حال يكافح العذل والمذال ، ويجد لذته وسعادته في حبه وفرامه ، بل في حياته وآلامه لو أضناه الوجد والصبابة ، وأوصبه صلود الحبيب وإعراضه ، وهجره وانقضاضه .

• • •

(١) ودون : ظرف مكان ، منصوب . وتأتى لمان كثيرة ، ويتضح منها ما تصاف إليه . وهي هنا بمعنى « تحت » (٢) وقدر الشيء : مبلغه ، ومقداره ، ومساويه به ومثاله . وأحب امرأة دون قدره : أي عشق امرأة أقل مرتبة منه : أي منزلتها في المجتمع دون منزلته ؛ فهي ليست كفتا له ، ولا يليق بمثله أن يتخلى بظفها ، ولهذا كان تعلقه بها سبباً وعاراً يقتضى الأرم والتأنيب . (٣) وعذله (من باب ضرب وتضير) : لأمه . (٤) ويأمن : منادى مضاف إلى ياء المتكلم ، سلفت الياء ، وبقيت كسرة الميم دليلاً عليها . وفي مثل هذا خمس لغات أخرى غير هذه اللغة . (٥) والهير (بضمه) اسم المفعول : الميكتر : من أجبره على الأمر إجباراً ؛ أي أكرهه عليه ، وسلب إرادته واختياره (٦) والسقم والسقم (بوزن المرض) والمقذر ، والكلام : العلة والمرض . أو هو المرض الطويل (ونفله من باب تمب) . ولا تلم مجبراً على مقمته : أي لا تلم مجبراً مع مقمته : أي لا تجمع عليه بلایا الإجبار ، والسقم ، والمرض ، فن الظلم والإعنات أن تملك سببا أفنائه الموى والصبابة ، وشفه الوجد والفرام ، وأطال سقامه وأوصابه ، بعد أن سلبه إرادته واختياره ، وأوقعه في أشراكه وسبائله . (٧) الإقرار ==

مُنَازَعَةٍ^(٨) خَصْمِيٍّ^(٩)، وَإِنَّمَا يُلَاحَظُ مِنَ اقْتِرَافِ^(١٠) مَا يَقْدِرُ عَلَى تَرْكِهِ. وَلَيْسَ أَمْرُ
الْهَوَى^(١١) إِلَى الرَّأْيِ^(١٢) فَيَمْلِكُهُ^(١٣)، وَلَا إِلَى الْعَقْلِ فَيَنْدَبُهُ^(١٤) بَلْ قُدْرَتُهُ^(١٥)
أَغْلَبُ^(١٦)، وَجَانِبُهُ^(١٧) أَعَزُّ^(١٨) مِنْ أَنْ تَنْفُذَ^(١٩) فِيهِ حِيلَةٌ^(٢٠) حَازِمٌ^(٢١)،
وَلَطْفٌ^(٢٢) مُحَالٌ^(٢٣).

== بالذنب : الاعتراف به . والمقر : اسم فاعل منه . يقال : أقر على نفسه بالذنب . وأقر بالحق : أي
اعترف به ، وأثبت . (٨) وفازعه في كذا منازعة : جاذبه في الخصومة ، وغالبه ، وجادله . (٩)
والخصم : الخصام ، والمنازع ، يفتي ويجمع . أو يستوي فيه للفرد ، والثنى ، والجمع ، والمذكر ،
والمؤنث . وخصامه خصامة وخصاماً : نازعه ، وجادله ، ولاحاه . والمائل اللام يشبه الخصام . والمائل
أو القوم : لئلا من ألوان الخصومة والملاحاة ؛ فإذا أقر الملموم على نفسه ، وأصترف بذنبه فلا داعي إلى
مخاصمته ، ولا معنى لإعناته بالبلل والوم ؛ إذ المخاصمة والمنازعة إنما تكون مع الاختلاف والإلكار .
(١٠) واقترب : ارتكب ، واكتسب . واقترب الذنب أو الخطيئة : أي أتاها ، وارتكبها ، ركسها ،
وخالطها ، وفعلها . « وإِنَّمَا يُلَاحَظُ مِنَ اقْتِرَافِ مَا يَقْدِرُ عَلَى تَرْكِهِ » : تكرار وتأكيد لمنى قوله : « لا تأثم
مجبوراً » ؛ فإن من وقع في الهوى أو غيره مضطراً ، مفلوجاً على أمره ، مسلوب الإرادة والاختيار ، عاجزاً
عن ترك ما يقع فيه - وجب أن ترفع عنه الملامة ، ويلتص له العذر . (١١) والهوى : الحب ،
والشق ، والغرام . (١٢) والرأي : النظر ، والعقل ، والتفكير ، والتدبير . وبجسمه آراء . (١٣)
ويملكه : أي يملك أمر الهوى : أي يملك التصرف فيه ، والإقبال عليه ، أو الإقلاق عنه ، أو
الحد منه برأيه ، وحقه ، وتفكيره ، وتدبيره ، وإرادته واختياره . (١٤) ودبر الأمر ، ودبر
فيه تدبيراً : ساسه ، ونظر في عاقبته ، وفعله عن فكر وروية ، مقدراً نتيجته وعقباه . (١٥) وقدرته :
قدرة (دوى) أي قدرته ، وقوته ، وسلطانه ، وسيطرته . (١٦) وأغلب : اسم تفضيل من
غلبه : أي قهره ، وأعتز عليه . والمراد أن قدرة الهوى غلبة قاهرة ، تفوق غيرها من القوى والقدرات ؛
فهي أشد وأعنف مما يقاومها ويغالباها ، ويجاول الاعتراض لها . (١٧) وجانب الشيء : شقه . وفاحيته
وجهته ، وطرفه . ويراد بجانب الهوى : منتهه ، وقوته . (١٨) وأعز : أقوى ، وأمن . (١٩) وتنفذ
فيه : تصببه ، أو تضعفمه . من قويم نفذ السهم (من ياب دخل) : أي خرق الرمية ، وخرج منها .
(٢٠) والحيلة : الحلق ، وبجودة النظر ، والقدرة على دقة التصرف في الأمور . (٢١) والحازم :
اسم فاعل من حزم رأيه ، أو أمره : أي ضبطه ، وأتقنه ، وأخذ فيه بالثقة . (٢٢) واللطيف في العمل :
الرفق فيه . (٢٣) والمحال : طالب الشيء بالحيلة : اسم فاعل من أحال احتيلاً : أي قلب الفكر ،
وأجاد النظر والتدبير ، حتى انتهى إلى المقصود ، وحقق الغرض ، وأصاب الهدف ، وبلغ الغاية .
ولطف المحال : رفق ، وحسن حيله .

آلَا ، لَا تَلْمُ صَبًا عَلَى طُولِ سُغِيرِهِ وَدَعَهُ ، فَلَيْسَ الْأَمْرُ فِيهِ لِيَحْكِيهِ ^(١)
 فَلَيْسَ الْهَوَى مِمَّا يُرَدُّ بِجِهْلَةٍ وَلَكِنَّهُ يَنْشِي الْفَتَى دُونَ عَزَمِهِ ^(٢)
 وَمَا يَسْتَوِي جَانِ أَتَى الْإِثْمَ طَائِعًا وَاتَّخَرُ لَمْ يَقْرُقْهُ إِلَّا بِرَغْبِهِ ^(٣)

(١) « آلا » : حرف استفهام وتوبيخ : أى أداة يفتتح بها الكلام ، وتبدأ بها الجملة ، وتقدّم التوبيخ ، وتحقيق ما يمتدح وتأكيد . وهى هنا تؤكد التوبيخ من لوم الصب المستهام ، وتشدده . والصب : المشرق المستهام ، والمشرق المولان ، وهو الولع الشديد : من صب إليه صبابة : أى كلف به ، ورق ، واشتاق . والصبابة : رقة الهوى ، وحرارة الشوق ، والولع الشديد . وجهه : أثره ، وبخيل عنه . وهو تأكيد لمعنى « لا تلمه » فى الشطر الأول . والأمر : الشأن والحال . وفيه : أى فى طول سقمه الناشئ من صبابة ، ورقة هواء ، وحرارة شوقه ، وشدة تعلقه بمحبوبته ، واشتغاله بها ، وتبريح الوجد به . والحكم : مصدر حكم ، أى قضى ، وفصل . ويراد بالحكم هنا : الإرادة والاختيار

والمعنى : أن الماشق الصب المستهام الذى تيمم الهوى ، وأغناه الغرام — لا ينبغي أن يضاعف بالوهم وجهه ، وتزاد بالملح عليه ، فإن إرادته فى هواء مطبقة ، واختياره مفقود ، ولا حيلة له فى رد الصبابة ، أو تخفيف وطأها ، ولن يستطيع الاستجابة لماذله ، فالإغواء عليه باللائمة عبث ومرحاج ، وظلم وإعتات . والبيت الآتى يؤيد هذا المعنى ، ويعززه ، ويؤكدته .

(٢) ثبتت ظننا على وجهه (من باب رى) : إذا ردّ دونه ، وصرفته عن وجهه ووراده ، ووجهته إلى حيث جاءه . والأصل : ثبتت الثوب ونحوه : أى طويته ، ورددت بعضه على بعض . ويراد بالفتى : المرء العاقل ، والصب المستهام . أو المحتال الذى يحاول رد الهوى بجياله . ودون : ظرف مكان منصوب ؛ ولما حذو معان ، تنصيح بما تنصاف إليه . ومن معانيها السائلة هنا : « فوق » ؛ فالهوى يطوى الصب فوق عزمه : أى يبطّل عزمه وإرادته ؛ فيشتبه على وجهه ، ويصرفه عن مراده ، ويظلمه على أمره لو عزم شيئاً من المقاومة والمداينة . وقد تكون بمعنى « قبل » ؛ فالهوى يثنى الفتى ، ويرده عن مراده قبل أن يؤكد إرادته بالزمم : أى يشمره العجز واليأس ، بمعنى أن سلطان الهوى وقوته فوق سلطان العزم وقوته . والزمم : الصبر ، والجذل . والنية الصادقة . والإرادة القوية القاطنة . واللبثات والشدّة فيما يزمم عليه الإنسان . والإرادة المتقدمة لتولين النفس على ما يرى ضله . (وضله من باب ضرب) .

والمعنى : أن الهوى يطعمه قاهر غلاب ، لا تردّه حيلة محتال ، ولا يخفف وطأته تدبير مدبر . والصبابة تغلب الصب على أمره ، وتصرفه عن وجهه ، وتسلبه حريته واختياره ؛ فقوتها وسلطانها فوق إرادته وعزمه . والتميم المستهام لا ينبغي أن يحذل ويلام ؛ فالمرء لا يلام إلا على ما أقرّقه باختياره ، وفق اصطلاحه الإقلاع عنه .

(٣) الخافى : الإثم المذهب . والإثم : الذنب ، والخاطيئة . ولأن الإثم : أى وقع فى الإثم ، وأذنب ، وارتكب الخطيئة . وقرف الإثم (من باب ضرب) ، وقارقه ، وأقرّقه : آثاه ، وارتكبه ، وضمه ، =

إِذَا مَا أَمَرُ الْمَرْءُ يَوْمًا يَلْتَبِسُ فَمَاذَا أَلَى تَغْنِي لَجَاجَةٌ خَصِيهِ (١)
وَقَالَ :

مَنْحَكُ الْقَابِ الْمَلَأَ فَاذْعَنِي يَا سَيِّ

— وقع فيه . وفعل ذلك برحمه . وعلى الرغم منه : أى حل كرهه منه : أى بلا إرادة واختيار . والرمح (بتثنية الراد) : الكرّه ، والتقسّر ، والقهر . ورفقه (كلمته ، ومنه) : كرهه . والرمح ، والرفام (فى الأصل) : التراب . الرقيق . يقال : ألقاه فى الرغام : أى مرّغه فى التراب . ثم استمير هذا التعبير للقهر والإذلال ، والإحالة ، والإكراه ، والقصر ، والإجبار .
يقضى الاستواء ، أى التساوى ، والمقابل ، والتعامل بين جانبيين : أحدهما ارتكب الإثم طالما غفّاراً ، والآخر لم يفتقره إلا سرعاً مكثراً .

والمنع : أنه إذا عدّ الهوى ذنباً كان من النخوب القسرية التى يرتكبها المرء وهو مسلوب الإرادة والاعتبار ؛ فلا يبنى مساهمة بلواه بالمدل والملامة ؛ « وإنما يلام من أقرّب من يقدر على تركه » .

(٤) الاستفهام فى الفطر الثانى : معناه النقي ، فلجاجة الخاسم لا قيمة لها ، ولا فناء فيها إذا استسلم له خصمه ، وأقرّب له بلذيه . وتغنى : تغلب . وما يغنى عنك هذا : أى لا يجزئ ، عنك ، ولا ينفعك . والنجابة : الخادى فى الخصومة ، وبلازمتها ، والإصرار عليها .

والمنع : أن إقرار اللذنب يلبّيه كاستسلام المقاتل لخصمه ، وأحرف الخاسم بحق خصمه ؛ فمن البت أن يتبادى ذلك العدو أو الخاسم فى القتال ، أو الخصومة . وإذا أقر العاشق بمشقه ، وجب حل عاذله أن يرحمه ، ويكف عن قتله ؛ « فليس أمر الهوى إلى الرضى فيملكه ، ولا إلى العقل فيهديه ؛ بل قدرته أغلب ، وبجانبه أمرٌ من أن تنفذ فيه حيلة حازم ، ولطف عتال »

• • •

• أغفلت الثورة المصرية العرابية . وفى أحقابها ضرب الاحتلال المسمى الإنجليزى على مصر فى ١٥ من سبتمبر سنة ١٨٨٢ وفى ٣ من ديسمبر سنة ١٨٨٢ حكم على « محمود سائى البارودى باشا » وسنة من رفاته قادة تلك الثورة بالإعدام ، ولم يلبث الخديو توفيق أن استبدل به النقي للمؤيد ، والتجريد من الألقاب والأبلاك والمقوق الوطنى ، وبعد سبعة عشر عاماً هذا الخديو عباس حلى الثانى عن البارودى ، ثم من الأحياء من وفاته . وفى السادس من جمادى الأولى سنة ١٣١٧ هـ (الثانى عشر من سبتمبر ١٨٩٩ م) وصل البارودى إلى ميناء السويس ، ففرحت مصر بعودته فرحاً شديداً ، واستقبله الوطنيين والأدباء بمقارفة بالغة . وفى ١٨ من المحرم سنة ١٣١٨ هـ (١٧ من مايو سنة ١٩٠٠ م) أمر الخديو أن تعاد إليه ألقابه وأبلاكه وحقوقه المدنية .

لظم الشاعر هذه القصيدة . — فيها فطن — بعد أن طال به النقي ، وساوره اليأس ، وبرزه من مثاقه تباريح أحمية قبل أن يبرق أمل السمو عنه . أوفى المدة التى بين عودته من مضاف وإعادة ألقابه إليه ، وكانت الجرائد والمجلات ، والأدباء ، والكتاب يصرخون من التصريح بلقب البارودى الرئيس السابق لوزارة مصرى ؛ فأرسل إليه هذا التحريح بهذه الميمية الرائعة . وفيها — مع الاستخفاف بالرب والألقاب ، ولطوهرها الخلافة — سكتة ، وصنعة ، وإرشاد ، وزهد ، وتزجيد فى الدنيا وزخرفها .

(١) منحك : أصطحك ، ووجعت لك . (وبهاية فنع) . والمطالب لمن كان يتحرج من كتابة —

ديوان البارودى —

إِذَا كَانَ عَقْبَانُ الْجَلِيدِ إِلَى بَيْلَى فَلَا فَرْقَ مَا بَيْنَ الْحَدِيثِ وَلَا الرَّسْمِ^(١)

ـ لقبه ، ودعاه به . أو لصاحب حقيق ، أو غيالي ؛ فقد يجرّد الشاعر من نفسه شخصاً ويخاطبه .
والألقاب : جميع لقب (بوزن سبب) : وهو ما يطلق على المرء ؛ فيفيد اللحن ، أو اللم ، ويشعر برفته .
أو ضمت . أو هو اسم وضع بعد الاسم الأول للتشريف ، أو التشريف ، أو التحقير . أو هو اسم
يسمى به الإنسان سوى اسمه الأول . ويشعر بجلع ، أو ذم ، باعتبار معناه الأصلي . والمراد هنا :
ألقاب للحن ، والتكريم ، والتشريف ، والتعظيم ، مثل « الباشا » ، وصاحب المعالي ، وصاحب الدولة ،
وصاحب المقام الرفيع . والملا : الرضة ، والثرف . وشله الملا . وأدعى باسمي : يريد نادق باسمي
بجرءاً من ألقاب التكريم والتشريف . ودعاه يدعو : صاح به ، وفاداه . ودعاه زيداً . ودعاه يزيد :
أى سماه به . والحرف : الكرم . ورجل حرف : أى كريم ، عزيز ، خالص من شوائب الآثم ، بعيد
عن المذلة والخوان . وجسمه أحرار . وتسمى : تملى ، وترفع . وهو نقيص « تخفض » وتحمط .

والمنى : أن قيمة المرء بأفعاله وأعماله ، لا بما يحصله من ألقاب الرضة والملا ؛ فهي لا ترفع
الحرف الكريم إن ضلّعت عليه ، ولا تحط من قدره إن تجرد منها ، وهو بجزئته وكرمه عزيز كريم ، عالي
القدر ، رفيع المقام ؛ ولهذا زهد الشاعر فيها ، ورفى عنها ، وشغلها على من يفرح بها ، ويفتر يزغرفها ؛
وطلب أن ينادى باسمه مجرداً منها . والفرض رفع الحرف عن المتحيزين من ذكر ألقابه ، وتبوين الأمر
عليهم . وفى البيت - مع قلة الاكترات لألقاب الملا ، وعدم المبالاة بها - ضفر وأبناه بأنه من الأحرار
لكرام الأحرار . وفى القصيدة معنى الرغب عن الدنيا وزينتها ، وإثبات الباقيات الصالحات .

(٢) عقبان الشيء : نهايته وآخره . والجديد ، والحديث : كلمتان مترادفتان ، بمعنى واحد .
والبل : ضد الجدة ؛ وفقيض الحداثة : مصدر بل الثوب ونحوه (من باب رضى) : أى أخلق ، ودثر
وذهبت جدته ؛ فهو بال : أى خلق ، أسما ، مهمل . وما « ولا » الثانية زائدة فى الشطر الثانى .
والكلام بضمها : « فلا فرق بين الحديث والرسم » . ولا نعرف وجه زيادة الأخيرة هنا . ولو أبدلت « بها »
« أو » التى بمعنى « وأو العطف » لاستقام الوزن ، وسجى الكلام على ما نعرفه ونألفه « فلا فرق
ما بين الحديث أو الرسم » . والرسم : ما كان لاصقاً بالأرض من آثار الديار ؛ وباد به هنا : البالي
القديم الفانى . وهو ما يقابل الجديد الحديث الزاوى .

يقول : إذا كانت نهاية الجديد أن يبل ويفى ، فلا فرق بينه وبين القديم البالي : أى لا ينبغي
أن نفرق بالزاهى الخلاف من متاع الدنيا ؛ فنتعلق به ، ونهافت عليه . وصلة هذا البيت بالنى قبله أن
ألقاب الملا من متاع الدنيا التى رغب عنه الشاعر ، وزهد فيه . والآيات الآتية تفصل هذا المنى ،
وتوضعه ، وتبرزه وتؤكد . وهو ما يتطلبه مقام التزهد فى الدنيا ، ويلزم الجوانب لهذه القصيدة .
قال تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » (الآية رقم ٢٠ من سورة الحديد) .

تَأْمَلُ إِلَى الدُّنْيَا بِعَيْنِ بَصِيرَةٍ لَعَلَّكَ تَرَضَى بِالْقَلِيلِ مِنَ الْقَسَمِ (٣)
عَمَّا أَمِيشُ إِلَّا خَطَرَةً عَرَضِيَّةً تَزُولُ كَمَا زَالَ الْحَيْثُ مِنَ النَّسَمِ (٤)
وَهَلْ نَحْنُ إِلَّا مِثْلُ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا؟ فَسَلْ عَنْ «جَلِيسٍ» أَيْنَ وَلَتْ؟ وَعَنْ طَقْمٍ*

(٣) تأمل : أمر من تأملت الشيء ، وتأملت فيه : أى تأدبرته ، وأعدت النظر فيه مرة بعد أخرى ، مستحيين له ، حتى عرفته ، واستيقنته . وهـ إلى : بمعنى « فى » . وإذا ضمنا « تأمل » معنى « النظر » ، كانت « إلى » بمنهاها الأصل . تقول : نظرت إلى الشيء : بمعنى نظر العين : وهو الإبصار والروية . أو نظرت القلب : بمعنى التفكير والتدبر . وبين بصيرة : أى عين قوية ، صادقة الإبصار ، كاشفة البصيرات ، محققة المرئيات . ويراد بالعين البصيرة هنا : اللقطة ، وقوة الإدراك ، والعلم ، والخبرة ، وصحة الحكم ، والارتفاع بالنصح ، وسداد التقدير . وهـ لعل : حرف يفيد الترجى : أى إذا نظرت إلى الدنيا ، وتأملتها بين بصيرة — رجيت أن تفيد من هذا النظر والتأمل ، وترقى ما يحسدك ، وهو أن ترضى بالقليل من القسم . وقد تكون « لعل » هنا : للتعليل : أى تأمل الدنيا بين بصيرة لترضى بالقليل من القسم . والقسم (بكسر فسكون) : الحصة ، والنصيب ، والجزء من الشيء المقسوم . أو القسم (بفتح فسكون) : معنى الخطأ : أى ما يخطئ .

وفى البيت : أن الاستحصار فى أمر الدنيا ، والاحتراز من خداعها وأطباعها المؤدية ينتهى بالمستبصر إلى الزهد ، والفتنة ، والرضا ، والعلمانية .

(٤) العيش : المعيشة ، والحياة . ويراد بالخطرة : البرهة ، والمدة البسيرة ، والزين القليل . تقول : ما ألقاه إلا خطرة بعد خطرة : أى إلا حيناً بعد حين . وعرضية : نسبة إلى العرض (بفتحين) : وهو ما يطرأ ويؤزل من مرض وغيره . والعرض : اسم لما لا دوام له . يقال : هذا الأمر عرض : أى عارض زائل . وعرضية : تأكيد لمعنى «خطرة» . وكلتاها بيان ، وتعبير قوى عما يريد الشاعر من قصر مدة حياة الإنسان فى الدنيا ، وسرعة زوالها . والشطر الثانى تأكيد آخر لهذا المعنى . وزال : زوالاً : ذهب ، وبغى ، وانقضى . وفاعل « زول » : ضمير : «خطرة» ، وبالجملة صفة ثالثة لها : أى خطرة عرضية زائلة . والحديث : السريع . يقال : ولئى حديثاً : أى أدبر ، وذهب مسرعاً . وهـ من : بيانية . والنسم (بفتح فسكون) : مصدر نسمت الريح (من باب ضرب) : أى تحركت ، وهبت . ويراد بالمصدر هنا : الريح نفسها . أو هبوبها وحركتها العارضة السريعة الزوال . أو هى النسم (بفتحين) أى الريح اللينة . أو نفس الريح إذا كان ضعيفاً . أو أوتها حين تقبل بلين قبل أن تقتد . وسكنت : السين لضرورة وزن الشعر . والنسم (أيضاً) : طير سراع كالخطاطيف ، تملون خشمرة .

يقول : إن حياة الإنسان فى الدنيا ليست إلا برهة قصيرة ، تزول فى سرعة هبة الريح ، أو طيران سراح الطير . وصلة هذا البيت بما قبله وما بعده ، وموضوع هذه القصيدة — والحكمة وثيقة ؟ فالدنيا خادعة فانية ، وحياة الإنسان فيها سرية الزوال ، والطلع يمشى ويتردى ، وفى الزهد والفتنة راحة وسعادة . (هـ) الاستهزام فى أول البيت : معناه التنى : أى لست إلا مثل من كان قبلاً . وهـ جليس =

تَزُودُ مِنَ الدُّنْيَا بِمَا فِيهِ بُلْغَةً فَسَوْفَ تُعَاقِبُ الْجَدْبَ يَا رَاعِيَ الْكَلْبِ ۝

« و » علم : قيلتان من العرب البائدة ، كانتا تسكنان « البجمة » إلى الجنوب الشرقي من « نجد » في عهد ملوك الطوائف من القروس . وهما من ولد لا وذي بن آدم بن سام بن نوح ، عليه السلام . و « أين » : اسم استفهام ، يطلب به تعيين المكان : أي وأسأل عن قبلي « علم » و « جديس » : إلى أي مكان ولنا ؟ : أي أدبرنا وذهبنا . والفرض من مثل هذا الاستفهام : الوض ، والتنبه . أو حمل الخطاب على الإقرار بالحقيقة التي يغفل المرء عنها إذا غرته الدنيا ، وانخفض بزعرها وباطلها ؛ فما لا مراء فيه أن الإنسان يعيش في الدنيا برهة ، ولا يلبث أن يفارقها بالمولت ؛ فلا ينبغي أن يفتربها ، أو يطمئن إليها . والشرط الثاني مؤكداً لحسن الشرط الأول . والبيت كله في معنى البيت السابق : وهو أن حياة الإنسان في الدنيا قصيرة موقوتة ، وزواله عنها حتم مقضى . وهذا شأن الحياة والناس مذ خلق الله آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

(٦) « تزود » ، أخذ الزاد ، وهو ما يتخذ من الطعام للسفر . وما يخبره المرء للانفتاح به وقت الحاجة . وتزود : أمر يراد به هنا : النصح والإرشاد . ومن الهجاز : « التقوى خير زاد » . و « تزودوا من الدنيا للآخرة » . وفي القرآن الكريم : « وتزودوا ؛ فإن خير زاد التقوى » (الآية رقم ١٩٧ من سورة البقرة) . والبلغة (بضم فسكون) : ما يكفي لسد الحاجة ، ولا يفضل عنها : أي ولا يزيد عليها . ويراد بالبلغة هنا : ما يبلغك مأمئك وسلاتك في الدار الآخرة من التقوى وصالح الأعمال . وتعالى : تقامى : وتكايد : من المماناة : وهي المقاساة ، والمكابدة ، والمضاماة . عانيت = الأمر : أي قاسيت شدته ، وكابدت متاعبه ، وتحملت على جهده ومشقة . والجذب : القسط ، والمهل : أي يبس الأرض ، وانقطاع قبتها لانقطاع المطر عنها . والراعى : اسم فاعل من رعى الإنسان الماشية : أي جعلها ترحل ، وترعى ، وترتع ، وتأكّل الكلأ والنبات . والوسمى (بتشديد الباء . وضعفت هنا لضرورة وزن الشعر) : أول مطر الربيع . سمى بذلك لأنه يسم الأرض : أي يملأها بالنبات ؛ فإذا مطرت بالوسمى ، اخضرت بالكلأ والنبات ؛ فكان لها كالسمة ، أو الأثر ، أو العلامة . ويراد بالوسمى : كلأ هذا المطر ونباته . وراعى الوسمى : من يقود الماشية في المرعى ، ويمكنها من أن ترحل ، وتوسم ، وترتع ، وترعى حيث شاءت ، وتأكّل من هذا الكلأ والنبات .

والبيت في النصح ، والوعظ ، والإرشاد ، والتذكير بالعواقب ، والحسن . حل التزود من الدنيا للآخرة ؛ فاللذني دار عمل ، والآخرة دار جزاء . ولا ينفع الإنسان فيها إلا ما ادخره لنفسه في دنياه من التقوى وصالح الأعمال . والشرط الثاني وثيق الاتصال بهذا المعنى ؛ فإن المقصر في الادخار يقامى — بمد حلاوة الجدة واللحن — مرارة الفقر والحمران ؛ كراعى الوسمى ، يفرح اليوم بما ترتع فيه ماشيته ، ويغفل عن غده ، فإذا انقطع المطر ، وبست الأرض ، كابد هو وبماشيته مشقات أهل الجذب ، ومتاعب القسط والحمران .

لَعَمْرِي لَنِعْمَ الْمَرْءُ مَنْ بَاتَ رَاضِيًا بِمَا حَصَبَهُ مِنْ قَيْضِهِ سَابِقُ الرَّسْمِ (٧)
تَفَلَّسَفَ قَوْمٌ فِي الْمَقَالِ ، وَمَا دَرَوْا جَرِيرَةَ مَا أَبْقَوْا عَلَى الدَّهْرِ مِنْ وَسْمِ (٨)

(٧) « لعمرى » : اللام للابتداء . والعمر : الحياة . وهو مرفوع بالابتداء ، مضاف إلى ياء المتكلم . والخبر محذوف . والجملة من أساليب القسم . والتقدير : لعمرى قسمي : أى أحلف بحياتي . و« لنعم » : اللام : واقعة في جواب القسم . و« نعم » : فعل غير متصرف ، لمنح الجنس ، والمقصود بالذات فرد من ذلك الجنس . وبات : أدركه الليل ، وبات يفعل كذا : إذا قبله ليلاً . ويراد بالبيات هنا : الصيرورة التي تشمل كل أوقات الليل والنهار . وشصه : أعطاه شيئاً كثيراً . وشصه بكذا : أثر به على غيره : أى جعله له دون غيره . وفاعله « سابق الرسم » . والفيلس : الكثير . الغرير . والرسم : الكتابة والخط . (وقوله من باب نصر) . ويراد بسابق الرسم : ما رسمه الله بباركته تعالى : أى ما قضاه وقدره للإنسان في الأزل من الرزق وغيره .

يمتتح الراضى ببطاء الله ، مطمئن قلبه على الإيمان ، وما قدره الله له في الأزل من الرزق وغيره . ويؤكد المنح بالقسم . ويدعو إلى القناعة ، ويرغب فيها ، ويحضن عليها ؛ فإن الطمع للزور ، والتكالب على سخط الدنيا أس للثرو والأكام . ويبدو أن هذا البيت شبه تفصيل وتوضيح ، وتأكيد وتكرار للمعنى الشطر الثاني من البيت الثالث : « لعلك ترضى بالتقليل من القسم » . وهو من ثمار الاستحصار في أمر الدنيا ، وتفرغها على حقيقتها .

(٨) تفلسف : تماطى الفلسفة : أو سلك في بحوثه طريق الفلاسفة . أو تكلف طريقتهم دون أن يحسنها . والمعنى الأخير هو اللاحق هنا . والفلسفة : كلمة يونانية ، مركبة في الأصل من كلمتين معناهما : حب الحكمة . أو إيفاء الحكمة . وتفلسف قوم في المقال : أى اتجهوا في مقالاتهم إلى الفلسفة ، ولولوا بها كلامهم وبحوثهم في تكلف وتنطع ، بلا اعتدال ، وبلا إحسان ، أو نظر في القيم الخلقية والروحية . وما دروا : أى ولم يعلموا ، ولم يفطنوا . (وبابه رى) . والجربة : الحناية ، واللاب : وحل الدهر : أى مع الدهر . أو حل مدى الدهر : أى طول الدهر . وهو الأبد . أو الزمان الطويل ، أو الأبد الممتد . أو مدة الحياة الدنيا كلها . و« من » : بيبانية . والوسم : السمة ، والآخر ، والعلامة . ولعلها محرفة من « وسم » : وهو الصندع والشق . أو الميب والمار .

والمعنى : أن جماعة من الناس اتجهوا في تفكيرهم وأقوالهم وكتاباتهم اتجهات فلسفية غير سديدة وغير مجدية في علاج الانحراف ، وضعت التفرس ، وتدهور الأخلاق ؛ ولم يفطنوا للعواقب الزمنية ، والآثار السيئة التي تركتها هذه الفلسفات في المجتمع ؛ وهذا أفسوا ، ولم يسلموا . وضاعفوا الأدواء ، ولم يبالوا شيئاً منها ، وسجروا على أنفسهم وحمل غريم جزائر وضحايا بقاتية ما بين الزمان . والفرض صرف الأذهان عن هذا التفلسف الملتصق بالقيم ، وتنبهها على العلاج للتأنيب المستقيم . والبيت الآتي يبرز هذا المعنى ويؤيده .

وَكَلَّوْا رَاجِعُوا هَذِي النُّفُوسَ لَعَالِجُوا
بَعْرَكَ الْخَطَايَا مُغْضِلَ الدَّاءِ بِالْحَسَمِ^(٩)
قَدْخَ هَلِوِ الدُّنْيَا وَإِنْ هِيَ أَقْبَلَتْ
عَلَيْكَ بِإِيْمَاضِ الْبِشَاشَةِ وَالْبَسْمِ^(١٠)
قَلَّوْا جَرَّبَ الْإِنْسَانُ أَخْلَاقَ دَهْرِهِ
لَأَمْسَكَ بِالْيَاسِ الْمُرِيحِ عَنِ الْعَسَمِ^(١١)

(٩) هذه النفوس : إشارة إلى النفوس المريضة المنسقة التي حاول المتفلسفون علاجها بفلسفتهم الملتوية الخاطئة . والخطايا : جميع الخطيئة : وهي الإثم ، والجريئة ، والذنب ، والجنابة . وداء مغضل : أى عضال ، عقام ، عياء ، لا يرجى البرء منه : اسم فاعل من أعضل الداء الأطباء : أى أهماهم ، وأعجزهم أن يداووه . والحسم : مصدر حسم (من باب ضرب) فالتحسم : أى قطعه فانقطع . وحسم الداء : عالج ، وداواه ، وأزاله بالدواء الناجع .

والمنى : لو درس هؤلاء المتفلسفون نفوس الناس دراسة واعية مبصرة لبعثوهم بخطاياهم ، وحلواهم على اجتنبها بوازع السلطان ، ووازع القرآن . وهذا هو العلاج الحاسم لهذه الأدواء المستعصية .
أو المنى - كما يبدو من جو هذه القصيدة - أن علاج النفوس المنسقة بسبيله علاج التكاليف على الدنيا ، والإفراط في حبا . فإذا عولج افتتان الناس بها ، استقاموا على الطريقة ، وأقبلوا على الصالحات ، وقيل تفكيرهم في الخطايا . وهذا هو العلاج الصحيح ، والدواء الناجع الذى يحسم أدواء النفوس وشروطها .
يلقى هذا المنى ويمزجه ما قدمناه في شرح البيت السابق من أن الفلاسفات المكتوبة الخاطئة ضاعفت الشر والفساد ، وكانت الجراثيم الباقية هؤلاء المتفلسفين .

(١٠) دح : أترك . ويراد بترك الدنيا : الإعراض عنها ، والإزهد فيها ، والاحتباس من خداعها وباطلها . والإيماض : مصدر أومض البرق : أى لمع لمعاً خفيفاً ، وظهر . والبشاشة : تهلل الوجه وتلاؤبه ، وإشراقه ، وطلائقه . وإيماض البشاشة : ما يلازمها من تألق الوجه ، ولعانه ، وإشراقه . والبسم : أقل الفسحك وأحسنه : مصدر بسم (من باب ضرب) . وبثله الانبسام ، والتبسم . وإقبال الدنيا عليك بالانبسام ، وإيماض البشاشة : تصوير حسي بليغ لما في طبيعتها من التفرير والتخل والتخادع ، والبخاذية الكاذبة الخادعة الفاتنة .

وهذا البيت يرجع إلى الكافي الذى ذهبنا إليه في شرح البيت السابق ، وهو أن علاج الفساد ، والانحراف إنما يكون بعلاج التكاليف على الدنيا ، والإفراط في حبا . والانخداع يزغرفها ، فإن الافتتان بها ، والتهافت عليها ، والانقياد لأصحاب الفلسفة المادية سبب الشرور والجراثيم والآثام .

(١١) يراد بأخلاق الدهر : طباعه ، وكرامته . وقد اعتاد الناس من قديم الزمان أن ينسبوا إلى الدهر ما يصيهم من البلبا والشدائد ، ويصمونه بالفنر والتخل ، وكثير من المقاييس والناقص . أو المراد بأخلاق الدهر : كرامته الدنيا وشروطها وقتنها . أو المراد أخلاق معاصرينا وأهل زماننا :

نميب زماننا ، والميب فينا وما لزماننا عيب سوانا

وأمسك بالياس : اتخذ به ، واعتصم ، ولأذ ، واستمسك ، وتعلق . وأمسك من الأمر : كف عنه .
والعسم : الطمع (وقله من باب ضرب) . ويراد به : الطمع المحقوت ، والحرص المردى ، والتهافت =

فَمَنْ لِي بِرَأْيِ صَادِقٍ أَقْتَنِي بِهِ مَذَارِجَ قَوْمٍ أَدْرَكُوا الْأَمْرَ بِالْقَسَمِ^(١٢)
بَرْتَنِي تَبَارِجُ الْحَيَاةِ ، فَلَمْ تَلْعَ لَدَى سَمَوَى رُوحٌ تَرَدَّدَ فِي جِسْمِ^(١٣)

= والتكالب على حطام الدنيا . و « لو » في أول البيت : شرطية ، وتقيد امتناع الحجاب لامتناع الشرط : بمعنى أن الإنسان لم يقطع عن المسم ، ولم يخلد إلى اليأس المريح ، كأنه لم يحرب أخلاق زمانه ؛ وسبب هذا أن طمعه في المنافع الموقوتة ، وعوره الشديد على حطام الدنيا ينسبه ما يشجعه من التجارب المرة القاسية ، وما يصيبه من كراهة الدهر وبلا ياه .

والمنى : أن طمع الناس في الدنيا يدفعهم إلى التكالب عليها ، ويوقعهم في كثير من الشرور والمهلك . ولو جرب المائل هذه الحياة لزهد فيها ، وانصرف عن ملاحها ، واستراح إلى اليأس منها ، وأطلع عن أطعاه المردية ، وطوى آماله المستحسنة . أو المنى : أن في طبع الدهر التقلب والتغير . والطمع فيه يرمض الطامع لشرور هذا التقلب وصدماته . وإنما الأمن والسلامة في الإخلاص إلى اليأس الذي يظفر اليأس راحة البال ، وطمأنينة النفس .

أو المنى : أن في أخلاق الكثرة الدالية من الناس الشر والفساد ، والنجاسة والندوان . والتجربة الصاعدة تجعل المائل حل أن يقطع حبل رجائه فيهم ، ويخلد إلى اليأس منهم ، ويرقب عليه حياته ؛ ليتوق شرم ، ويأمن كيدهم ، ويستريح من متاعب التزاحم والتهاشم ، والتكالب على الحطام والتلاف .

(١٢) « من » : اسم استفهام ، يطلب به تعيين المائل : أي من يأتي لي برأي صادق .. أو يندى برأي صادق . والفرض من الاستفهام المنفى . والرأي : العقل ، والتدبير . وجبل ذو رأى : أي ذو بصيرة وحذق بالأمور . واقفاه : تبعه ، وسار في أثره . وأقنى به : المراد أسلك بنور ذلك الرأي الصادق ونهياه وهداه مذارج قوم .. أي مذاهبهم ، ومسالكهم ، وطرقهم : جمع مذج (بوزن مذهب) . أو مدرسة (بوزن مدرسة) . ويراد بالامر : شأن هذه الحياة وسالها . والقسم (بفتح فسكون) : الرأي ، والعقل ، والتدبير ، والخلق . وأن يقع الشيء في قلبك ميقظ الفطن والتفتين ، ثم يقوى حتى يصير يقيناً ، وحقيقة ثابتة لا شك فيها . وأدركوا الأمر بالقسم : أي أدركوا أمر هذه الحياة بالرأي الصادق ، وهداية الله تعالى وتسليله .

يعنى أن يمتحن إلى رأي صديق ، يفرض له ظلمات هذه الحياة ، ويكشف له بعض ما خفى من أسرارها ، ويخفف عنه شروها وتناحها ، ويسلك في نوره مسالك الذين فطنوا لها ، ووقفوا على حقائقها ، وسلموا من آفاتها وتباريحها . فاليثبات الآتي يرجع هذا المنى ويوضحه . ولعل صلة هذا البيت بالرأي قبله أن القوم الذين أدركوا الأمر بالقسم ، وعنى أن يكون له رأي صادق يقضى به أكارهم ، ويسلك في ضياه طريقهم - هم أولئك الذين جربوا أخلاق دهرهم ، فقلقوا عن الطمع المستعوز ، وأدخلوا إلى اليأس المريح . والآيات الأربعة الأخيرة من هذه القصيدة تنمّ على ما كان الشاعر يشتمره من تبرد وقلق ، وحيرة وآلام نفسية .

(١٣) بره (من ياب روى) : هزله ، وأخفله ، وأضغته ، وأضناه . مستعار من برى العود ، =

يَقُولُونَ «مَحْمُودٌ» ، وَيَا لَيْتَ أَتْنِي كَمَا زَعَمُوا ، أَوَلَيْتَ لِي طَالِعًا كَأَسْمَى (١٤)

وَقَالَ :

قَالُوا : أَلَا تَصِفُ الْغَرَامَ لَنَا حَتَّى يُحِيطَ بِتَعْنِيهِ الْفَهْمُ ؟ (١٥)

= أو الحجر ، أو القلم ، أى تحته وتسميته . وتباريح الحياة : شدائدها وبلاياها . وبرج به الأمر تبريحاً : أى أتبعه ، وجهده ، وألح عليه بالمنت والمشفقة ، وآذاه أذى شديداً . ولم تدع : لم تترك . والرجح : النفس (يفتح فسكون) . أو النفس (يفتحين) . ويجوز تذكره وتأنيسه . وتردد : أصله تردد ، أو يتردد (مضارع حلف أوله للتخفيف) . أو هو تردد (فعل ماضى) .

يشكو ما فاه به ، وأثقل كامله ، وبراء ، وأغنائه من شدائد الحياة ومتاعها التى لم تبق في جسده غير روح قلقة مترددة ، لا تكاد تعرف السكينة ، أو الطمأنينة ، أو الراحة والاستقرار .

أو المعنى : أن هذه الشدائد والأوصاب الثقيل برته ، وبذهبت بكل قوته ، وتركته مهزولاً ، فتولى أنفاسه ، ويتقطع من الضعف والعجز ، والكلال والإعياء .

وقد تكون «الروح» بمعنى القوة والهمة . وعلى هذا يكون المعنى : أن تباريح الحياة برته وأغنته ، ولكنها لم تلحظ بكل قوته وهمة ، وصبره وعزمه . وهذا مثل قوله في إحدى قصائده البائية :

لم تدع صولة الحوادث من غير أشلاء همة في ثياب

(١٤) «محمود» : اسم الشاعر «محمد سائى الباروتى» . و«يأيت» : «يا» : حرف تنبيه ،

أو حرف نداء . والمناذى محذوف . و«ليت» : حرف تمن . والتمنى هنا متعلق بالممكن المرغوب فيه . وكما زعموا (من باب نصر) : أى كما قالوا . أو مثلما ظنوا . وطائع : مطيع ، متقاد . (يفعله من بابي قال ، وضاع) .

والمعنى : أن الناس يورثون باسمه «محمود» ، ويظنون أنه محمود الحال ، ورغى البال . ومع أن حقيقة أمره على خلاف هذا ، فإنه يتمنى أن يكون كما يزعمون ، كما يتمنى أن يجد من يوائمه ويطيعه ، كما يوائمه اسمه ويطيعه . فإن اسم المرء كظله أطوع شيء له ، وألصق شيء به . والصلة بين هذين التمتين أنه إذا ظفر بمن يتقاد له ويطيعه . أو بانال الرق ، والصديق الصادق الذى يوائمه ويؤايسه ، غلبت عنه — بإخلاصه وصديق مودته — شدائد الحياة وبلاياها ، وهما له شيئاً من النبطة ، وارتياح النفس ، وحسن الحال ، ورضاء البال .

• • •

(١) «ألا» : أداة مركبة من هزة الاستفهام و«لا» التانيية . ومعناها هنا : التحفيظ :

وهو حثّ بقوة . أو العرض . وهو طلب بلين .

فَأَجَبْتُهُمْ : هِيَ هَاتِ أَنْتَ مَا يَحْتَلُّ دُونَ صِفَاتِهِ الْوَلَهُ^(١)
 الْحُبُّ يَنْقُذُ بِالْقَوَادِ كَمَا يَنْقُضِي عَلَى غُلَوَائِهِ السَّهْمُ^(٢)
 يَغْنُو لِسَوَازِيهِ الْمَلِكُ ، وَلَا يَقْوَى عَلَى صِلَمَائِهِ الشُّهْمُ^(٣)

(٢) «حيات» بثلاث الأعراس : اسم قبل ماض . معناه بِمَحْدٍ ؛ فهي كلمة تفيد التبعيد .
 ويحتمل : عرض . والمراد : يمينا ، ويسمى . و«دين» : ظرف مكان منصوب . وهو هنا بمعنى
 «قبل» : أى يسمح الزم قبل أن يصل إلى صفات الغرام وأسراره : أى لا سبيل إلى وصله ، وكشف
 سره . والزم : ما يقع في اللحن من الخاطر ؛ فالأوهام من عطرات اللحن أو القلب . أو هو مرجوح
 طرق المردد فيه . أو هو اللحن ، والتمثل ، والتخيل ، والتصوير . (وفله من باب ومد) . ويثله التوهم .
 ووضعت الشيء : توهمته ، وتخيّلته . وتمثّلته ، وتصوّره . أو وقع في غلوى ، ودار في خاطري . ويلاحظ
 أن «الزم» أوضح من «التهم» وأبلغ في الدلالة على ما يريد الشاعر في هذا البيت ، وهو تملّك لمت
 الحب أو الخوف أو المشق أو الغرام ، وصعوبة التّوقّف على شيء من مخالفته وأسراره .

في البيت الأول سأله بعض صحبه — بأسلوب العريض ، أو التخصيف — أن يصف لهم الغرام من
 سجن معارفه ويقاربه وصفاً صحيحاً دقيقاً ، فحيط به ألهامهم إحاطة تامة شاملة ، ونقّب على ظواهره
 وبواطنه وأسراره ، وبنقائمه ، ومضلاته وغفائمه . وفي البيت الثاني أجابهم بأن هذا كله ما يهي الأنهام
 ويسجل الأوهام .

(٣) فله السهم ونحو (من باب دخل) : غرق الروية ، وخرج منها . ويراد بالتلوّذ أو التلّاذ
 هنا : الاستقرار والمكث والبقاء . ويقضى : ينقذ . والتلوّذ : التلوّز ، والحيلة ، والسرعة ، وبها ورة
 حد التقصّد والاحتفال . والسهم : عود من خشب يسوى ، ويركب في طرفه نصل حاد من الحديد الصلب ،
 وجمعه سهام . ويظهر التّبال ، وبالتّيل والسهام يرى الصائد ونحوه عن القويس ونحوها . ويقضى السهم على
 ظلاله : انقلاذه في حدة ، وشدة ، وقوة ، وسرعة بالغة .

لم يحاول الشاعر وصف حقيقة الحب ، وكشف سر الغرام . وإنما أشار في هذا البيت إلى بعض
 ظواهره . وصوّر بالتشبيه والتّمثيل الحسى كيف يستحيل الحب على قلب الحب ، ويستكثّر منه ، فقال :
 إنه يقضى إليه في سرعة السهم وقوته وحظّه ونقائمه ، فيصيبه إصابات بالغة فائقة ، ويستغرقه ، ولا يكاد
 يبرحه ، أو يزيّله .

(٤) يمتنع : يذلل ، ويضعف ، ويستكين ، ويتقاد (وبابه مما) . وفي القرآن الكريم : «وحيث
 الحيوا إلى القويم» : أى عصمت مستأجرة بمعناه (الآية رقم ١١١ من سورة طه) : «وسوته : أى لسورة
 الحب : أى سطوته وشده وحدته ، وإلهه ، وسلطانه . والشهم : الجلد ، القوي ، الصلب ، الشديد .
 والذكيّ : الفؤاد ، المتحدّ للذهن . والسديد الرأى . والسديد الناظر الحكم . والصبور على القيام بما حُمِّلَ . =

وَقَالَ فِي غَدَاةِ أَنْسٍ *

أَدْرِهَا قَبْلَ تَغْرِيدِ الْحَمَامَةِ فَمَا يَنْفِي الْهُمُومَ سِوَى الْمُدَامَةِ^(١)
مُعْتَقَةً ، إِذَا سَلَكَتْ ضَمِيرًا مَحَتَّ عَنْهُ الْكَالَةَ وَالسَّامَةَ^(٢)

= في البيت السابق صور الشاعر كيف يصيب الحب قلب الحب . وفي هذا البيت تصوير بليغ لسيطرة الحب وسوته ؛ فإنه يصيب صاحب الملك والسلطة والقوة والسلطان والبأس الشديد ، فلا يسه إلا أن يستأسر له ، ويمنو لسلطانه ، ويصدم للشهم القوي الجلد اللدكي ؛ فلا يعجلد لصدماته ، لا يكاد يقوى على الصمود ، أو المقاومة . وفي هذا المعنى يقول بعض الشعراء :

نحن قوم تلجينا الأعين النجم لى ، على . أننا نلجى الحديد
وترانا لدى الكرخة أحمرأ وأنى السلم للحنان عبيدا

* * *

* الغداة : ما بين الفجر وطلوع الشمس . والأنس (بضم نسين) أو بفتحين) : ضد الوحشة ؛ وقد أنس به ، وإليه (كفرح ، وضرب ، وكرم) : أى سكن إليه قلبه ، وألفه ، وذهبت به وحشته ، وفرح ، واستبشر ، وأطمأن .

(١) أدريها : يريد أدرك ككس الحمر علينا . والأمر لساقها الذى يطوف بأكوابها على شاربها . وتغريد الحمامة : هديرها ، أو هديلها : مصدر غرد الطائر : أى رفع صوته بالفناء ، وطرب به تطريباً . وقيل تغريد الحمامة : أى قبل أن تطلع الشمس ، ويعد النهار . والهموم : الأحزان والمتاعب النفسية . وأحداها هم : مصدر هو الأمر (من باب رد) : أى ألقفه ، وحزنه . والمدامة : الحمر .

جلس الشاعر في الصباح الباكر مع بعض ندمائه يحضون الحمر في أنسة ومضة ، ولذة وسرور . وطلب إلى ساقها - في رغبة وحرص - أن يطوف بكتوبها عليهم قبل تغريد الطيور ، أى قبل وضع الصبح ، وإعداد النهار ، زاحماً أنها تريل الهموم ، وتقبض الأحزان .

(٢) معتقة (بالنصب) : حال من مفعول « أدري » في البيت السابق . وهو التفسير « هاه . أو (بالرفع) خبر لمبتدأ محذوف : أى هى معتقة . وخر معتقة : قديمة . وتعتيقها : تركها في دنائها وغوايبها زماناً طويلاً ، لتحتق ، وتقدم ، وتطيب ، وتصفو ، وتجود ، ويقوى أثرها ، وتعلو قيمتها ، ويرتفع ثمنها . وسلك الطريق أو المكان أو نحوها (من باب دخل) : ذهب فيه ، ودخل ، ونفذ . ويراد بالتفسير هنا : قلب شاربها ، أو عقله ، أو ذهنه . أو ما يشمل جسمه وإحساسه . ومجاه (من بابي عدا ودى) : أزاله ، وأذهب أثره . والكلالة : الإعياء ، والهجز ، والضعف ، والتعب ، والتراخي . والسامة : الملل ، والضيق ، والفسح .

=

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ أَصْبَحَتِ الْفَوَادِي لَهَا فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ عَلَامَةٌ (٣)
فَكَمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ مَجْرَى عَذِيرٍ وَكَمْ فِي الْجَوِّ مِنْ مَسْرَى عَصَامَةٍ (٤)

— في البيت السابق زعم الشاعر أن الخمر تنفي الحسوم ، وتذهب الأحزان . وقد يكون هذا صحيحاً من حيث إنها تميم إحساس صاحبها ، وتقتل وجدانه ، وتورثه بلبلة لا يشعر معها بهم أو حزن . وفي هذا البيت زعم أنها تمحو الكلاله والسمامة . وهذا — فيما يبدو لنا — غير صحيح ؛ فالخمر تخمر العقل واللحم والحي والإدراك ؛ أي تستره وتغليه ؛ أي تذهب به وتغفيه . أو تخامره ؛ أي تخالطه ، تغفيه ، وتضعف الحواس ، وتحدّر الضمير . ويمسها في الدرك الأسفل من الكسل والفتور ، والعمول والحمود ، والجز والإحياء . يقوم ، ويقعد ، ويمشي ، ويتحرك ، ويتكلم ، ويعلق في تمش وتلثم ، وكلاله وتراخ ، ولا وهي ، أو إدراك

(٣) الاستفهام في أول هذا البيت للتقرير ؛ أي حمل المخاطب على الإقرار بظلمة ما يصوره من مشاهد الطبيعة ، وآثار الأقطار . أو هو التصويب ؛ أي إثارة عصبه وإنذاره ، واستغفامه لهذه المشاهد الرائعة الممتعة والفوايد . أمطار الصباح . الواحدة غادية ؛ وهي مطرة الغداة . أو السحابة تنفأ فتصغر غداة ؛ أي بين الفجر وطلوع الشمس . وعلامات الفوايد ؛ سماتها ، وأمازها ، وآثارها في بقاء الأرض ونواحيها من الغدران ، والأنهار ، والكلا ، والنبات .

في البيتين الأول والثاني ؛ ذكر الشاعر الخمر ، وطلب إلى سائقها أن يطوف بكنوبها عليهم قبل فتريد الطير ، وطلوع الشمس ، واعتداد النهار . وأشار إلى بعض صفاتها ، وبعض مزاياها في زعمه . وفي هذا البيت والبيت الآتي انتقل إلى التنبيه والتقرير . أو الترفيب والتصويب من أمطار الصباح ورويتها ، والتنويه بآثارها في نواحي الأرض وجوانبها ، وعلاماتها في آفاق السماء وأجوائها . وإنك ترى النبات غب المطر أعظم ما يكون خضارة ونضارة ، وحسناً وإزدهاراً . ولعل الصلة بين ذكر الخمر وأمطار الصباح أنهما مبعث متعة ولذة ، وبهجة وارتياح . وقد نظم الشاعر هذه الأبيات الستة في غداة أنس ، أدبرت فيها عليه وجل فساته وبشاريه كتيس الخمر ؛ فالتلوا بها ، واستمتعوا بما رأوه في هذا الصباح الباكر من مشاهد الطبيعة ، وحركات السحاب ، وسقوط المطر ، وآثاره في الأرض . . . وهذا هو هذا كله من أمازات مواتاة الأيام وبهجتها ، وإقبال الزمان وبصافاته .

(٤) « كم » في شطري البيت ؛ خبرية تدل على عدد كبير . وتمييزها في الشطرين مجرور بمن . وللتدوير ؛ القطعة من الماء يفادها السيل . أو يندوها إغداراً ؛ أي يجاوزها ، ويتركها وراءه ؛ فهو ضيل بمعنى مفاعل ، أو مفعول (بصيغة اسم المفعول فهما) . وجسمه خدر وفردان (يوزن كتب وقضبان) . وفلق الغدران على الأنهار ، والترج ، والقنوات ، ويجاري المياه . ومسرى ؛ مسير ؛ اسم مكان . أو مصدر مسمى من سرى (من باب سجرى) ؛ أي سار . والنفامة ؛ السحابة . وجمعها غمام . وغمام (يوزن سحاب) . ذكر في هذا البيت والذي قبله أمطار الصباح ، وعلاماتها وآثارها في الأرض والسماء ؛ ففى الأرض غدران كثيرة تسيل وتجري . وفي السماء غمام كثير يتحرك ويسير .

فَبَايِرْ صِفْوَةَ الْآيَامِ تَقْنَمْ لَلَّذَاتَهَا ، وَلَا تَخْشِ الْمَلَامَةَ^(٥)
وَلَا تَحْزَنْ عَلَى شَيْءٍ تَسَوَّلْ فَإِنَّ الْحُزْنَ مِقْرَاضُ السَّلَامَةِ^(٦)
وَقَالَ :

مَتَى يَنْقَضِي عُمْرُ الْحَيَاةِ ؟ فَتَنْقَضِي مَارِبُ كَانَتْ عِلَّةً لِلْمَظَالِمِ
تَسَاوَتْ نَفُوسُ الْخَلْقِ فِي الشَّرِّ ، فَاصْتَعِدْ بِرَبِّ الْبَرَايَا مِنْ جَهْلٍ وَعَالِمٍ^(٧)

(٥) بادرت الشيء : ساربت إليه ، وطالته . وبادرت خبري الناية : وبادرت له : سبقت إليها ، وأدركتها قبله . ويراد بصفوة الأيام ولذاتها : ما يحسنه لك الزمان من فرص الصفاء والنقاء ، ورضا البال . وما يجده فيه من شهوات النفس ولذاتها ، وتمع الحياة وبهاجها . ولللامة : القوم . يرغب في انتهاز ما تتجده البال والأيام من فرص . الموائمة والمياسرة ، والمصافاة ، لاغتنام الملائد ، والاستمتاع بها . وشهوات النفس . وينهى عن خوف اللامة ، والاستماع للأثم ؛ فإن هذا يكدر الصفر ، ويذهب بالطمأنينة ، ويعوق عن السير في الطريق الذي رسمه ، وزينه ، وحسنه ، ودعا إليه ، وحسن عليه ، وهو حضور مجالس الأتس ، والاستمتاع بتعوات اللهو ، واحتساء الخمر ، وتعليل مشاهد الطبيعة ، وبجمال الكون . . .

(٦) تولى : أدبر ، وذهب . والمقراض : أداة القرض : أي المقص الذي يقص به الثوب وغيره . وهما مقراضان : أي شترتان . وقرض الشيء (من باب ضرب) : قطعه .

في البيت السابق دعا إلى مبادرة صفوة الأيام ، واغتنام لذاتها ، والإعراض عن اللاتمين ؛ لاستبقاء طمأنينة النفس وبسومتها . ومن المحافظة على هذه الطمأنينة ألا يحزن المرء على فائت أيما كان ، فإن الحزن يكثر الصفر ، ويكثر العيش ، ويذهب بهجة الحياة ، وينالض الذاذقة والمفاناة . وقد شدد الشاعر النهي عن الحزن ، وبالف فيه ، فقال : إنه يقترض سلامة الحزين ، ويمرجه الأمن ، ويلقيه في الهلكة .

(١) الاستفهام في أول البيت : للاستبطاء . أو للتشكيك ؛ فهو يستبطئ فناء الحياة ، وإنصرامها ، وانقضاء عمرها ؛ أي يمدّه بطيغاً ، ويضيق بهذا البطله ويتبرم . أو يتشكى هذا الانقضاء ، ويقدره ، ويتوق إلى ، ويرغب فيه ، ويمرص عليه . والمآرب : الحاجات ، والمطالب الحيوية . جمع مأرب (بوزن مذهب) . أو مأربة (بتشديد الميم) . وطلة : سبب . يستعجل ، أو يتمنى أن تقف الدنيا ، وينهى عمرها ؛ لتقطع بقضائها حاجات الناس وطلمهم ؛ فإن التكالب عليها سبب الضرر والآفات ، والخصومات والمظالم في هذه الحياة .

(٢) الخلق : الناس . واستعاذ بالله من الشر أو من الشيطان : أي لجأ إليه ، واعتصم به ، ورجأ حفظه ووقايته . وإبرأيا : جمع البرية : وهي الخلق ، والناس . والأمر في الشطر الأول لتصح والإرشاد .

وَلَوْ عَرَفُوا مَا أَنْكَرُوهُ لَا يَقْنُسُوا بِأَنَّ نَعِيمَ النَّهْرِ يُخْذَعَةُ حَالِمٍ (٣)

« وهذا البيت توضيح وتفصيل وبيان وتأكيده لحق البيت السابق ؛ فقد أشبه تهرم الشاعر ، وزاد سخفه ، وساء ظنه ، وضايق صدره بالناس علمهم وجاهلهم ؛ حتى قرر أن تفهمهم معاوية في الشر ، وقلوبهم متعلوية على الفساد ، ووضح أن يستماد بأفقه منهم ، ويصمان به عليهم .

وهذا المعنى كثير في الشعر العربي ، يسوقه الشعراء مساق الحكمة والمثل ، ويردونه في مقام النصح والإرشاد والتنبيه والتلميح . وقد تهمهم عليه بواضت خاصة أو عامة ، لممارسة الزمان ، وقلة الخلق ، ونكد الدنيا ، وورارة الحياة ، وانتشار الفساد والأفلام ، ونتاج الشرور والمظالم . يستهين فيها العالم وأبجائله ، والغنى والفقر ، والرفيع والوضع ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل مأمم . وفي هذا المعنى ، أو ما يقرب منه يقول أبو فراس الحمداني :

وقد صار هذا الناس إلا أنظهم ذكلاً على أجسادهم ثياب
ويقول غيره :

عنى الذئب فاستأنت بالذئب إذ عرى وصوت إنسان فكنت طامير

ويقول البارودي :

تثير الناس عما كنت اسمعه واستحكم الفخر في العادات والحكم
وظل أحدهم من تلقاء من رجل ألقى على الخلق من ذئب حل فم

ويقول أحمد شوقي :

ولو صودوا من فواحش الطباع توألوا عليك سباع الصبور
فأرب وجه كصافي النير تشابه حامله والنسر

(٣) وأو الجملعة في « مرثية » ضمير « الخلق » بمعنى الناس في البيت السابق . وأنكره : جهلوا . أو جعلوه . والخدعة (بتثنية الخاء) : الاسم من خدعه (من باب قطع) : أي خله ، وبكره مكرأً شيئاً ، وأظهر له خلاف ما يظن فيه ، وأراد به المنكره من حيث لا يعلم .

والمعنى : أن الدنيا تخدع الناس أحياناً بالناتل للليل اليسير المكتوب من النعم والمصلحة ، وفضارة الميوس ، وحسن الحال ، ولكنها لا تلبث أن تسترد هذا كله ، وتجرح المزمرة الأسمى والحشرات ، كرجل وجع لذيرة شيئاً ، فلما فرح به أعده منه ؛ فكان أسفه عليه أكثر من فرحه به . أو كحالم الخدع برعة قليلة بلادة حكمه ، فلما استيقظ لم يجد شيئاً . والناس يجهلون هذه الحقيقة . أو يفرطونها ، ويتجاهلونها . ولو عرفوها ، أو احتفظوا بها ، وانتصروا بالمعرفة أو الاصراف — لتيقنوا أن الدهر بالناس قلب ، وأندبها خداعة غرارة ، فاستزروا منها ، ولم يتكالبوا عليها ، ولم يتدحوا في شرورها وآسها ؛ وفي القرآن الكريم : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » (الآية رقم ٢٠ من سورة الحديد) . ومن شعر أبي الطيب المتنبي فيها يناسب هذا المعنى :

أبدأ تسترد ما تهب السدنة يا ، فياليت جودها كان يُسَخَّلَا

تَأْمَلْ رُؤَيْدًا يَا بَنَ وَدِّيَّ ، هَلْ تَرَى عَلَى صَفَحَاتِ الْأَرْضِ غَيْرَ مَعَالِمٍ ؟^(٤)
يَظُنُّ عَرِيْلُ الْقَوْمِ فِي الطَّبِّ بُرَاهَ وَلَمْ يَدْرِ أَنَّ الطَّبَّ لَيْسَ بِسَالِمٍ^(٥)

== وَبَنَ شَرَّ شَيْءٍ :

فلا تفرك من حصر حليته قليس يترك ما أصلى على أحد
(٤) رويداً : متعبلاً مثلاً . تصغير رويد (بوزن عيد) . من قولهم : هو يمضي على رويد :
أي على مهل . أو تصغير « إرواد » على الترخيم : مصدر أرود في مشيه : أي رفق ، وأتاد ، وتمهل ،
وتأنى . وابن رده (بتثنية الواو) . : صديقه ، وسبيبه ، وعديته ، وعجليه . ونداء المخاطب بابين الذي
لاسيكاته ، والتأثير فيه ، وحصله على الالتماط ، وقبول النصح والإرشاد . والاستفهام بمل : معناه اني :
أي لو تأملت ما رأيت غير المعالم . وصفحات الأرض : جوانبها ، وفواحها ، ووجوهها ، جمع صفحة .
والعالم : جمع معلم (بوزن مذهب) : وهو العلامة والأثر .

ينصح ويرشد ويهبط ويدعو إلى التأمل والتفكير والتدبر في إرواد واتحاد وإطالة نظر في الالتماط
بمن أناروا الأرض ومروها قبلنا ، وما لبثوا أن أهداهم الردى ، وطولاهم هادم اللذات ، ويفرق الجفاعات ؛
فلم يبق بعدهم غير معالم وأثار ، فيها ذكريات ومظلات لمن أراد أن يعتبر .

في البيت الأول استبطاً ، أو تحق فناء الحياة الدنيا ؛ لتفنى معها مآرب وأطماع تلاهبها مظالم متعابجة ،
وشرور متجددة ، وظلمون ممتنون ، لا يكادون يحسون المسألة أو المهادنة . وفي البيت الثاني : اشتد
سخطه على الناس ، وتطيرته منهم ؛ فرباهم بالشر والسوء ، ودعا إلى التمتع بآفة من عالمهم وبجاهلهم .
وفي البيت الثالث : رباهم بالغلظة والجهل ، أو التغافل والتجامل والانخداع بالكافة الزائل الذي لا بقاء له ،
ولا خير فيه من نعم الدهر ، وزخرف الحياة الدنيا . ولو انتبهوا من غفلتهم ، وعرفوا ما جهلوا أو اعترفوا
بما أنكروه لآيقنوا أن هذا النعم حلم حالم ، وخدعة خادع محتمل . وفي البيت الرابع : دعا إلى التأمل
والتهمس ، للالتماط بمن سبقوا إلى هذه الحياة ؛ فأناروا الأرض ومروها أكثر مما عمرناها ، وما لبثوا
أن طولاهم الردى ، وأتى من آثارهم ما يبعث على العظة والاعتبار .

(٥) الطب (مطقة الطاء) : علاج الجسم والنفس . والطب (يفتح الطاء) : الطبيب المداوى .
وإضافة الليل إلى القوم للإشارة إلى عجزهم عن إنقاذه من براثن العلة والمرضى القاتل . أو ليعصمهم جميعاً
بوصفه وإرشاده .

والمنى : أن المريض المحتز بقربه وعشيرته ، والطبيب الحاذق الماهر إذا حان أجلهما لم يجد في حلم
الطب ما يشفهما ، ويدرك الموت ههما ؛ فإن السلامة لم تكتب لإنسان أيضاً كان . وصلة هذا البيت بما قبله
أن الليل التي يظن في الطب شفاء ، ويجهل أن الطبيب نفسه غير ناج - مخدوع بنعم الدهر ، غافل عن
القائم الشاخص على صفحات الأرض من الآثار والمعالم والدير والمظلات . والفرس من هذا كله التصغير
والتكثير ، والنصح والتحذير ، والوعظ والإرشاد ؛ لتخفيف حدة المطامع والمظالم ، وعلاج ما انطوت ==

فَطَرُ لِلْسَّهَى ، أَوْ فَاتَخَذَ لَكَ سُلَمًا لِيَتَرَقَى لِي إِلَى أَبْرَاجِهِ بِالسَّلَامِ^(٦)
وَكَيْفَ تَنَالُ النَّفْسُ فِي الدَّهْرِ حَيْثُ تَلَدَّ بِهَا ، وَالْدَّهْرُ غَيْرُ مُسَالِمٍ^(٧)

— عليه النفوس من الشر والندى ، وما أضمن الناس فيه من الانقراض بالدنيا ، والتكالب على حطائها . وفيما يقرب من معنى هذا البيت يقول أبو الطيب المتنبي :

يموت راعي الضأن في جهله ميتة « جالينوس » في طبه
وربما زاد على عمرو وزاد في الأمن على سريسه

(٦) السبا كوكب صغير ، غنى الضوء ، من بنات نعلن الصغرى ، يصنع الناس به أبصارهم . وأبراجه : أى أبراج السبا . وأبراج النجوم : منازل المختصة بها في السماء . واحدا برج (بوزن قفل) . والسلام جمع السلم .

والمنى : أنه لا سبيل إلى السلامة ، ولا نجاة من الموت . قال تعالى : « أينا تكفينا يدرككم الموت ولو كنتم في بريج مشية » (الآية رقم ٧٨ من سورة النساء) . يقال زهير بن أبي سلمى في مملته :

ومن هاب أسباب المنايا ينلسه وإن يرق أسباب المياه يسلم .

(٧) الاستفهام في أول البيت : مناه المنى : أى لا سبيل إلى أن ينال المرء في دهره حياة راضية لليلة . ويراد بالدهر : الدنيا . أو الزمان . أو مدة حياة الإنسان في الدنيا . والراو في الشطر الثاني : واو الحال والجملة بعدها حالية .

والمنى : أنه لا سبيل إلى حياة راضية ، يستمتع بها الإنسان ، أو يلحقها ، أو يطعن إليها في دهره ، أو دنياه ؛ فإن في طبعها الخداع والندى ، وهى لا تفتأ تخاتله وتماصره ، وتصاربه وتغاضبه ، وتكدر صفوه ، وتنقص حياته ، وتسلبه الأمن والطمأنينة ، وتفقده بالهلايا والتكبات .

تعليق وجيز

يبدو أن هذه المقطوعة من السرديبيات التى نظمها البارودي لما نازح السين ، وفعلت عليه الهوى ، واستبد به اليأس ، وانظمت الدنيا في حنيه حتى استطال عمرها ، وتمنى زوالها ؛ لتتقضى المظالم بانقضاء المآرب والمطامع ، وانقضاء التهاوت والتكالب . وقد اشتد تهرمه بالناس جاملهم وعالمهم حتى فرح إلى الله تعالى ، واستماذ به من شروحه . وفى القصيدة — إلى هذا — زهد وتزهد ، وسطة واعتبار ، وتبصير وتيقن ؛ فالعشرة الراضية بعيدة المنال ، والدهر غير مسالم ، والسلامة لم تكتب لإنسان .

ولا ريب أن شموه بأنه مظلوم كان مملأ جوارب نفسه ، ولغاقت قلبه طوال إقامته في ذلك المنفى المسحق . وإنك لتحص هذا الشعور المتوقد في هذه القصيدة ، وفى نظائرها من السرديبيات الباكية المبكية .

وَقَالَ :

خَلِيلًا ، مَا فِي الدَّهْرِ أَطْوَلُ حَسْرَةً مِنْ الْمَرْءِ يَلْقَى فُرْصَةً فَيَخِيْلُ^(١)
وَأَنْ أَمْرًا يَلْقَى قَوَاضِي نَعْمَةٍ بِأَرْضٍ ، وَيَنْوِي غَيْرَهَا لَعْلِمُ^(٢)

(١) خليل : منادى مضاف إلى ياء المتكلم . وحرف النداء ، وهو « يا » مخلوق . مثنى خليل : وهو الصديق المختص الذي لا خلل في صداقته . أو الخالص . أو الصادق الذي أصنى المودة وأحصاها . تخيل الشاعر أن معه خليلين : أي صاحبين ، أو صديقين ، أو رفيقين . ولذاهما مسدياً إليهما نصحه وإرشاده . مجزئاً حديث هذا مجرى الحكم والأمثال . وهذه إحدى خصائص لغة الشعر ، ومادة الشعراء من قديم الزمان ؛ يتخيل الواحد منهم أن له رفيقاً ، أو رفيقين يصطحبانه في غفوة ورواحه ؛ فيتحدث إليهما ، ويصفحهما وده ، ويختصهما بمنهجه ، ويفضي إليهما أسرته ، ويكنون صدره ، ويمنحهما وصاياه ، وصفوة تجاربه في الحياة . والدهر : الزمان الطويل ، والأمد الممتد ، ومدة الحياة الدنيا كلها . ويهر : لادن : مدة حياته . والحسرة : التأسف ، والحزن ، والتلهف الشديد على الشيء الفات . والفرصة : المظنة المشرومة ، تجبأ لك برهة قليلة ، فإذا لم تقتنضها نمت وتحصرت . ومن المرء : أي من حسرة المرء : أي ليس في الوجود حسرة أطول من حسرة ذلك الذي تواتيه الفرصة ، وتجبأ له ، فيفرط فيها ، ويفسدها . ويضمين من الفرصة (من باب ياع) : أي يقعد عن انتهازها واغتنامها . من قولهم : خام عن اقتناص غنموه ، وعلم فيه : أي أحسم ، وتراجع ، وجبن ، وتكص على حقيقه .

يقول : إذا صادف المرء فرصة مواتية . فعلم أنها ، ولم ينتهزها ، اشتد أسفه عليها بعد فواتها ، وطالت حسره ولطفه . والفرض الحس على انتهاز الفرص المواتية ، وعدم التفريط فيها ، وحسن الانتفاع بها .

(٢) النعمة (يكرم فسكون) : المرة ، والمحب ، والفضل ، والبر ، والخير ، والإحسان ، والحالة الحسنة التي يستلها الإنسان ، وما أنعم به عليك من رزق ومال ونحوهما . والنعمة (يفتح فسكون) : الرفعة ، والتتميم ، والتحق ، وابن العيش ، ورفده ، وحسنه ، واتساعه ، وطيبه ، ونفسه . أو هما بمعنى واحد ، وبناء الأول (في الأصل) : بناء اسم الهيئة ، أو الحالة . وبناء الثانية : بناء اسم المرة . وفواصل النعمة أو النعم : كثرتها ، وزياتها ، واتساعها ، وسبوغها ، وفورها . ولهم فواصل : سوايغ موفورة ، عظيمة . الباحدة قاضلة . وينوي غيرها : أي يقصد أرضاً غيرها : أي ينادر الأرض التي نوى فيها فواصل النعم ، ويرتجل عنها إلى أرض سواها . ولهم : ملوم : من الآم يلوم لإلته ؛ أي آق ما يلام عليه : أي فعل ما يستحق عليه اللوم والعذل ، والتكدير بالكلام القارص المولم .

يقول : إذا طابت حياة المرء في بلد ، وتوالت عليه فيها نعم الله تعالى وفواضله الجليلة - ويجب عليه أن يقيم بها ، ولا يريم . فإذا تركها ، وقصد إلى غيرها كان جديراً أن يندم ، ويحسر ، ويعذل ويلام . ومصلحة هذا البيت بالذي قبله : أن المثل من أرض أكرمته ، وأفاضت عليه من نعمها وشيئاتها =

وَقَالَ :

أَخْوَالِ الْعِلْمِ فِي الدُّنْيَا لِذِي الْجَهْلِ مُحَرَجٌ وَكُلُّ لَهُ عِنْدَ الْقِيَاسِ مَعَالِمٌ^(١)
فَلَوْلَا وَجُودُ الْعِلْمِ مَا عَاشَ جَاهِلٌ وَلَوْلَا وَجُودُ الْجَهْلِ مَا عَاشَ عَالِمٌ^(٢)

= وفواصلها ، كالعلم من فرصة ثمينة مواتية ، تهيأت له ، وتيسرت ، وأمكنته ، وصهلت عليه ، فزهد فيها ، وأعرض عنها ، ولم يبدعها ، ولكنه ما لبث أن تحسر ، ويقدم ، وأسف أسفاً شديداً بعد فواتها ، فالحسرة والندم والأسف ، والوقوم والمذل والتأنيب يجمع هذين الشخصين ، أو هاتين الحالتين .

* * *

(١) محجوج (بصفة اسم الفاعل . أو بصفة اسم المفعول) : محتاج : من أحوج الرجل إحواجاً : بمعنى احتاج إلى غيره . أو من أحوج فلاناً إلى كذا : أي جملة محتاجاً إليه ، فالفعل « أحوج » يأتي لازماً ومتعدياً . ومعنى الشطر الأول : أن العالم يحتاج إلى الجاهل ، والجاهل يحتاج إلى العالم ، فلا غنى لأحدهما عن الآخر . وكل : أي وكل من العالم والجاهل . والقياس : المقايضة ، والموازنة ، والتقدير ، بالاعتبار . ومعالم : خصائص ، وعلامات ، وآثار ، وصفات مميزة . جمع معلم (بوزن مذهب) .

ومعنى البيت : أن للناس جميعاً : علمهم ، وجهلهم ، ونهجتهم ومعالجهم يحتاج بعضهم إلى بعض ؛ ويتعاونون في الدنيا على إثارة الأرض ، وحرارتها ، وجلب المنافع ، ودفع المضار . وأن المجتمع الإنساني إنما يتنظم ويقوم على تفاوتات أفرادهم واختلافهم ، وتباينهم في الخصائص والمؤهلات ، والقوى والمميزات ، والطبائع والعالم ، والمشايير والمذاهب . ومن الأقوال المأثورة : « الناس بخير ما تفاوتوا » ، فإن تساوا هلكتوا . ومن الشعر الذي يطلبه هذا المقام :

الناس الناس من يسودوا خافرة
بعض ليضع وإن لم يضرها - خدم
والبيت الآن يبرز هذا المعنى ، ويؤكد كده .

(٢) معنى البيت : أن العلم والجاهل ، والقوة والضعف ، والفني والفقر ، والنباهة والعمول ، والعلماء والجهال ، والأقوياء والضعفاء ، والأغنياء والفقراء ، والتأهين والتململين . . . يحين جميعاً في الدنيا باختلافهم ، وتباينهم ، وتناقض صفاتهم وأحوالهم . والمجتمع الإنساني في حاجة إلى هؤلاء جميعاً ؛ ولا يقوم إلا على أساس هذا التفاوت والتناقض ، والاختلاف والتباين . وفي القرآن الكريم : « نحن قمنا بينهم مبدئهم في الحياة الدنيا » ورفنا بعضهم فوق بعض درجات ؛ ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً » (الآية رقم ٣٢ من سورة الزخرف) . أي ليستخد بعضهم بعضاً في حوائجهم ، ويستسخر بعضهم بعضاً في مهامهم ؛ فيكون بينهم من التعاون والترافد ما يتنظم به أمر المعاش والمسرور .

أو المعنى : بالعلم يحيا الجاهل ، وبالجاهل يحيا العالم ، أي أن العلم يمد وسائل العيش للناس جميعاً ، وفيهم الجهلاء . وفي رحاب العلم ، وآثاره ، وأصواته ، ونغماته ، ومنافعه يحين حياة طيبة راغدة . والجاهل = ديوان البارودي - ٢

وقال :

أَنَا فِي الْحُبِّ وَفِي لَيْسَ لِي بِالْفَنَرِ عِلْمٌ^(١)
لَا تَعْلَمُوا بِي سَوًّا إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ لَأَثَمٌ^(٢)

وقال :

أَنَا فِي الدَّهْرِ ضَالِّعٌ بَيْنَ فَهْمٍ فَاتِكِ حَدُّهُ ، وَجَدُّ كَهَامٍ

== ميدان عمل العلماء ، ومجال نشاطهم . وسياهم إنما تقوم على مكافحته ، وتبديد ظلماته ، وتوضيح المعميات ، وكشف أسرار الكائنات ؛ فإذا ذهب الجهل لم يبق العلماء عمل .

* * *

(١) يتملح بأنه وفي لمن يحب ، يحافظ على اليد ، بعيد كل اليد عن الدنر ، والحيافة ، ونقص المهذ . وعدم علمه بالدنر : أي جهله به : تمييز قوي في فن الدنر من نفسه ، وبطلة ساحته منه . والوفاء في الحب يتضمن معنى المغاف ، والترفع عن الريب والشبهات . والشطر الثاني تأكيد لمعنى الشطر الأول . ومن فخریات البارودي في إحدى لامياته :

فأمر خيال الفساد في خلدي ولا تلوح حيات الشر في خالي
فكر سليم ، ونفس حرة ، ويدي عامولة ، ولساني غير غشال

(٢) الإثم : الخطيئة ، والذنب . والشطر الثاني مقتبس من القرآن الكريم . قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ؛ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » (الآية رقم ١٢ من سورة الحجرات) . وإثم : أي مؤثم : أي وقع في الإثم . والافتباس من المحسنات البديعية اللفظية : وهو أن يضمّن الأديب كلامه شيئاً من القرآن الكريم . أو الحديث النبوي الشريف ، لا حل أنه منه ، بقصد تزيين الكلام وتحسينه ، ومضاغفة قائله ، ورفع منزلته في درجات البلاغة والبيان . وصلة الشطر الثاني بالشطر الأول أن ظن السوء من الخطايا والآثام ؛ لأنه مجرد تهمة ، أو توهم لا يستند إلى دليل قاطع ، ولا يقوم على أساس صحيحة ، أو سبب ظاهر . مع كون المظنون به ممن شوهه منه التستر والمصالح ، وأولست منه الأمانة والوفاء في ظاهر أمره . وفي الحديث النبوي الشريف : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَّمَ مِنَ الْمُسْلِمِ دَمَهُ ، وَعَرْشَهُ ، وَأَنْ يَظُنَّ بِهِ ظَنَ السُّوءِ » .

وصلة هذا البيت بالبيت الذي قبله : أنه إذا كان الوفاء في الحب ، واليأس عن الدنر من أخلاق المحب كان معنى هذا أن حبه عديم مفيد ؛ فلا ينبغي أن يسه أحد به الظن ، ويجري وراء الأوهام والترهات ، ويريه في حبه بالريب والشبهات ؛ فإن هذا كله من ظن السوء ، أي الظن المذموم الذي يأثم صاحبه ، ويستحق به العقاب من الله رب العالمين .

* * *

(١) حد كل شيء : شبهاته ، وحدته ، وطوره الرقيق الحاد القاطع ، كحد السيف والسكين ونحوهما .

حُزْتُ عِلْمًا ، وَمَا رُزِقْتُ قَبُولًا فَكَأَنِّي مَجْلَّةُ الْأَحْكَامِ^(١)
وَقَالَ :

إِذَا مَا كَمَنْتُ الْحُبَّ كَانَ شَرَارَةٌ وَإِنْ بُحْتُ بِالْكِتْمَانِ كَانَ مَلَامًا^(٢)

— وحده فانتك : أى ماضى ، قاطع ، يتار . من قويم : فلان فانتك القلب : إذا كان جريئاً ماضياً . وفهم فانتك حده : أى فهم حاد ، قوى ، نشيط ، واسع ، راجع ، ثاقب ، فائق . وأجد (يفتح الجيم) : الحظ ، والبخت . وجد كهام : حظ سيئ عاثر . من قويم : سيف كهام : أى كليل ، لا يقطع . وصد الحاد الباهر .

يقول : إنه — فى حياته — ضائع ، أى غير سديد ، ولا مجدود ، ولا محظوظ ، على الرغم من حدة فهمه ، وتوقد ذهنه ، وفائق طفته ، وفير ذكائه . وإنما ضيحه ، وسروره السعادة فى حياته كهامه جده ، وتكثر حظه . وفى البيت أن حدة الفهم لا تسد الفهم إلا إذا قاربها حسن حظه ، فإذا اجتمع عليه فطر الذكاء وكهامه الجد شق بينهما ، وشعر ، وقص ، وضاع . والبيت الآخر يؤكد هذا المعنى . ويفصله ، ويمشله .

(٢) لم يرزق القبول لكهامه جده ، وتكثر حظه . والمجلة : الصحيفة فيها الحكمة ، والكراسة ، والكتاب . وتطلق فى عصرنا على كل صحيفة عامة ، أو متخصصة فى فن من الفنون ، تظهر فى فترات معينة ، بخلاف الصحف اليومية . والأحكام : جمع حكم (يضم فسكون) : مصدر حكم بالأمر . وحكم بينهم : أى قضى ، وفصل . والمراد بمجلة الأحكام القضائية .

فى البيت السابق شكاً ضياعه وشقاءه بين حدة فهمه وكهامه جده . وفى هذا البيت تأكيد وتمثيل لهذه الشكوى ، فإنه — مع حدة فهمه ، وغزارة علمه ، واتساع معارفه — يمارس سوء حظه ، فلا يجد من الناس ما يكافئ فضله ومزاياه من القبول والرضا ، والإقبال والاحتفال . مثله فى هذا مثل مجلة الأحكام القضائية ؛ فلما تمى كل العناية بدراسة القضايا التى تنشرها ، وتستقصى ما يتصل بها من الحقائق العلمية ، والدراسات القانونية والاجتماعية ، والملايسات الشخصية والنفسية ، ولكها مع هذا كله لا تلقى من جماهير القراء ما تستحقه من الإقبال والارتياح والانتشار والرواج .

• • •

(١) الثرارة : واحدة الثرار : وهو ما يتطاير من النار . وأجزاء صغيرة متوهجة ، تنفصل عادة من جسم يحترق . ويراد بالكتمان فى الشطر الثانى : الحب المكتوم . وللام : الألم والملل . وكان ملأماً : أى كان البوح بالحب المكتوم سبب الملل والملامة .

يقول : إنه إذا كتم حبه وغرامه ، وأخفى فى قلبه وجده وعيانه أنجبته الكتمان ، وضاعف لوعته وحرقة . وإن نفّس عن نفسه ، فباح بشيء منه ، وشكا تولىه وصبايته كشف بشكواه المستور من أمره ؛ فنصدى لملل الماذلين ، وتكدّر بملامتهم .

فَكَيْفَ اخْتِيَالِي بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَشْكَلَا عَلَى ، فَصَارَا شِقْوَةً وَغَرَامًا ؟^(١٧)
وَقَالَ بَعْدَمَا اسْتَقَالَ مِنْ وَزَارَةِ الْحَرْبِيَّةِ * ، يَدُمُ بَعْضُ الْوُزَرَاءِ :
مَالِي يَوْمَكَ بَعْدَ الْيَوْمِ إِلْسَامٌ فَادْهَبْ ؛ فَانْتَلَيْتُمُ الْمَهْدَ نَعْمًا^(١٨)

(٢) الاستفهام في أول البيت : معناه التني . وهو مع التني يتم على الحيرة ، والفسح ، والضييق ، والأسف ، أي لا حيلة له في التوفيق بين هذين الأمرين : وهما كتمان الغرام ، مع حسن احتماله ، أو إظهاره لتخفيف عن نفسه ، مع اتقاء ملامة اللامعين . واحتمال احتيالا : طلب الشيء ، أو عالج به بالحيلة ؛ وهي الحق ، وسجدة النظر ، والقدرة على دقة التصرف في الأمور . والأمر : الشأن ، والحال ، والشيء . وأشكلا : خفيا ، ولتجسا ؛ فصعب علاجهما ، والتوفيق بينهما . والشقوة (بكسر الشين وفتحها) : الشقاء ، والشدة ، والنسر ، والحرج . وشله الشقاوة . وشدها السعادة . والغرام : المذاب الدائم الملازم . والنسر ، والشدة ، والمصيبة ، والمهلك . وفي القرآن المجيد ، في وصف جهنم : « إن عذابها كان غراما » (الآية رقم ٦٥ من سورة الفرقان) .

يقول : إنه لا حيلة له في علاج أمرين أشكلا عليه ، وهما كتمان الحب مع حسن احتمال أو صابه . أو إظهاره مع اتقاء ملامة اللامعين ، وعزل المذآل ، وممارسة الحاقدين والحاسدين ؛ فهما أمران ملتزمان مضطربان ، تظاهرا عليه ، وغلبا حقه ، وتديبوه ، واحتياله ، وكانا سبب شقاء وتقس ، وشرد دائم ، وعذاب وأصعب لا يكاد يفارقه .

• • •

* في غرة ربيع الأول سنة ١٢٩٨ هـ (السادس من فبراير سنة ١٨٨٦ م) عزل الخديو « توفيق » و « عثمان رفق » وزير الحربية في وزارة « مصطفى رياض » ، وأسند هذه الوزارة إلى « محمود سامي البارودي » في مستهل الثورة المصرية ؛ فسار في عمله سيرة وطنية خالصة ، واجتهد في تنقية الجو ، وإقامة العدل ، وإصلاح المفاسد . وفي ٢٥ من رمضان سنة ١٢٩٨ هـ (٢ من أغسطس سنة ١٨٨٦ م) اضطر إلى الاستقالة من وزارة الحربية ، ووزارة الأوقاف التي كانت معه من قبل ، بسبب السمايات وأنما التي أتممت بأنه ضالع مع « أحمد عرابي » وجماعة الضباط الثائرين . ويبدو أنه أجبر يوشك على مفارقة القاهرة ، والإقامة في ضيعة بقرقرة ، وهي إحدى قرى مركز « أجا » دقهلية . ولا ريب أن هذه الاستقالة ، أو الإقالة قد أساءت إصابة بالغة في أمانيه الشخصية ، وبهتته الوطنية ؛ ولهذا اشتدت ثورته النفسية ، واشتد سخطه على من سعى به ؛ فجاء بهذه الجملة المتقدمة للاذعة .

(١) الود (بتثنية الواو) : المودة والمحبة . وألم بالقوم إلصا : أتاها ، فتلزمهم ، وزارهم زيارة غير طويلة . ومعنى الشعر الأول : أن الشاعر لن يمنح المهجو مودته وثقته بمدح اليوم ، ولن يقبل منه التودد ؛ فهي تقديمة أبدية دائمة . وفي الشعر الثاني تفسيرها وتعليلها . والمهد : الموتق ، والوفاء ، والنمة ، ورعاية الحرمات والمودات . وفي الحديث : « إن كرم المهدي من الإيمان » . وكرم المهدي : رعاية المودة . وضده لؤم المهدي : أي إهمال المودة ، وخيانة الموتق ، والتندر بمن عاهدك ووافقك ، واعتمد عليك ،

قَدُمْتُ أَحْسَبُنِي أَدْرَكْتُ مَارِبَةً مِنْ الْمُنَى، فَإِذَا مَا خِطْتُ أَحْلَامُ^(١)
 هَيْهَاتَ مِنِّي الرِّضَا مِنْ بَعْدِ تَجْرِبَةٍ إِنَّ الْمَوَدَّةَ بَيْنَ النَّاسِ أَقْسَامُ^(٢)
 فَاطْلُبْ لِنَفْسِكَ غَيْرِي، إِنَّنِي رَجُلٌ يَأْتِي فِي الْقَدَرِ أَخْوَالٌ وَأَعْمَامُ^(٣)
 كُلُّ امْرِئٍ تَابِعٌ أَعْرَاقَ نَبْعَتِهِ وَالْخَيْرُ وَالْشَّرُّ أَنْسَابُ وَأَرْحَامُ^(٤)

= وأطمان إليك . وجعل لثم العهد : أى لا يرى عهداً ، ولا يحفظ ودّاً ، ولا يثق لمعاهد . ونعام : صيغة مبالغة من النسيمة : وهى اسم من ثم الحديث : أى قصه ، وسى به ليوقع فتنة ، أو وحشة ، وقطعة وإفساداً بين الناس (وفعله من بابي قتل وضرب) .

قاطع الشاعر ذلك المهجو ، وقال : إنه لن يتوحد إليه بعد اليوم ، ولن يتخذ بطواهروده ؟ فقد عرف بالتجربة المرة أنه لثم غادر ، شيعة الضيعة ، وشيعة العهد .

(٢) أحسبني : أظنني . والمأربة (مثلثة الراء) : البغية ، والأمنية . أو الحاجة . والمثني : الأمان والأمال . الواحدة منية (يضم فسكون) . وضلت : حسبت وظننت . والأحلام : جمع حلم (يضم فسكون) ، أو بضمينين : وهو رؤيا اللثام .

عرف الشاعر هذا المهجو ، وأتصل به في الوزارة اتصال صحيحة ومودة ، ووثق به ، وأطمان إليه ، وظن أنه بهذا الاتصال قد اكتسب صاحباً وثيقاً ، وحقق بصحبته شيئاً من مآربه ومطالبه في الحياة ، وشيئاً مما يأمله الوطن ويرجوه يتعاون الوزراء والمستوليين والقادة من أبنائه ، فإذا ظنه وهم وهباء ، وإذا صاحبه هذا غادر لثم ، هادم تمام ، مراوغ مخادع ، لا وقفه له ، ولا قيمة عنده للعهد والذم والمواثيق .

(٣) هيات : اسم فعل ماض مبني على الفتح : بمعنى بعد ، فهي كلمة تعيد . ومن العرب من يكسرها . ومنهم من يضمها ؛ فهي مثلثة التاء . وجربه تجريباً وتجربة : اختبره مرة بعد أخرى . وأقسام : جمع قسم (يكسر فسكون) : وهو الحصة ، والنصيب ، والجزء من الشيء المقسوم .

والشطر الأول من هذا البيت في معنى الشطر الأول من البيت الأول ؛ فالشاعر يجهر بشدة سخطه على المهجو ، ويؤكد إصراره على مقاطعته ، ويقول : إنه لن يرضى عنه بعد ما جربه من نفاقه وغدوره ولؤيمه وشذابه ، وسوء صحبته ، وكذب وداده . والشطر الثاني تنذير جبار مجري المثل . وبعنا : أن المودة بين الناس تخطف باختلافهم : فنها ما يقوم على الصدق والإخلاص . ومنها ما يقوم على الخداع والتدليس ، فهي أقسام وأنواع شتى متباينة . وصلته بالشطر الأول أن مودة المهجو للناس من النوع الكاذب المزيف .

(٤) مازال الشاعر يؤكد إصراره على مقاطعة المهجو ، والتفوق من مصاحبه . وفي البيت تعرض بنذره ونسيته ، وفخر من الشاعر بإيائهما ، والترفّع عنهما ، وتعجيد لأخواله وأعمامه ، أى أصوله من جهق أمه وأبيه ؛ فأنهم أروؤه هذا الإباء ، والترفّع عن الدنيا والنقائص ، والحرس على الفضائل وإعظامه .

(٥) الأعراق : الأصول : جميع عرق (يكسر فسكون) . والنبيمة : واحدة النبع : وهو شجر ينبت في قلال الجبال ، تنخذ منه التمسّ والسهام . ومن الهجاز : فلان من نبتة كريمة : أى من أصل كريم =

فَانْظُرْ لِغَيْلِ الْفَتَى تَعْرِفْ مَنَاسِبَهُ إِنَّ الْفِعَالَ لِأَصْلٍ الْمَرْءُ إِعْلَامٌ^(٦)
وَلَا يَغْرُنْكَ وَجْهُ رَاقٍ مَنَظَرُهُ فَالْتَّصِلْ فِيهِ الْمَنَاسِبَ وَهُوَ بَسَامٌ^(٧)

== ومعنى الشطر الأول: أَدَّ كل إنسان يتبع أصول أسرته، ويمجى في الخير والشر، والمناقب والمثالب على ما ورثه من عهده وأبائه. والأنساب: القرابات: جمع نسب (بوزن سبب). والأرحام: جمع رحم: وهي القرابة. أو أسباطها. أو أصلها (يذكر ويؤنث).

والمنى: أن كل إنسان يصدر في أفعاله وأقواله، وتصرفاته ومعاملاته عن أصله وعهده؛ فهو في هذا كله متأثر بنسبته، مشغول إلى منتهى، تابع لمرقه، متصل ببيئته، مرتبط بها في تربيته الأساسية، لا يبعد عن هذا كله، ولا يكاد يخالفه. ولا ريب أن الناس معادهم مختلفة، وأعرافهم متباينة، وأخلاقهم وأعمالهم تنم على معادهم وأصولهم، وتكشف قيماتهم وأعرافهم، «وكل إناء بالذي فيه ينفخ». والشطر الثاني تنزيل جار مجرى المثل. وفيه تفصيل وتوضيح وتأكيد لمنى الشطر الأول؛ فشرار الناس وأرذلهم يجمعهم مشابهة ويويل وعلاقات. وخياريهم وأمثالهم تربطهم مبادئ ومُشَلُّ وأتجاهات. والخير والشر كذلك؛ فبين الشريرات أوامر وأوصاف وأناساب. وبين الشرور صلات وروابط وقرابات. والبيت الآتي يؤكد هذا المنى.

(٦) مناسبة: أصوله وأعرافه، وقوم كرام المناصب والمناصب: أي كرام الأوجال والأعراق. والفعال: جمع فعل (بوزن ظل وظلال). أو هو الفعال (بفتح الفاء): مصدر فعل (كذهب ذهباً). والفعال (بوزن الكلام): الوصف الحسن، والوصف القبيح. والفعل يكون في الخير، أو في الشر. وإعلام (يكسر الهزة): إظهار، وإبانة: مصدر أعلمه: أي عرفه، وأبانه. أو جعل له علامة يتميز بها ويظهر. أو هي أحلام (بفتح الهزة): جمع علم (بفتحتين): وهو العلامة المميزة.

وهذا البيت توضيح وتعزيز لمنى البيت السابق؛ فإن أعمال المرء وتصرفاته تنم على أصله وهرقه. والشطر الثاني تنزيل جار مجرى المثل، مؤكداً لمنى الشطر الأول.

(٧) لا يغرنك: لا يصدعك. ويراد بالهوى: النصيح والإرشاد. والبيت كله مجرى مجرى الحكيم والأمثال، وكذا البيت الذي يليه. غره (من ياي رد وقد): غتله، وغدعه، وأطمعه بالباطل. وراق (من باب قال): صفاً وحسن. وراقى الشيء: أحببني. وفصل الروح والسيوف والسهم والسكين ونحوه: حديدته. أرسده الذي يقطع ويمجى ويقتل. والمناسبا: جمع المنية: وهي الموت. والواو بعدها: واو الحال. والجملة الاسمية بعدها حالية. وبسام: لاسع، رائق، صاف، راق، جذاب، خلاب. وأصله صيغة مبالغة من بسم (من باب ضرب): أي انفرجت شفتاه عن ثناياه شاحكا بدون صوت. والبسم: أخف الضمك، وأقله، وأحسه. ويثله الايتسام.

يحدّر الاغترار بالفاحدين من الناس، الذين يلقونك بوجوه راققة باسمة، مستبشرة، مشرقة وهم يضمرون لك الشر والأذى، والحقد والبغضاء. والشطر الثاني تنزيل جار مجرى المثل، مؤكداً لمنى الشطر الأول؛ فال اتصال تبدو لك لامة براققة، وهي مع لماتها وبريقها الخادع أدوات قتل وفك، =

مَا كُلُّ ذِي مَنَسَرٍ فَتَحَنَّنَ . كَانِيَرَةً كَلًّا ، وَلَا كُلُّ ذِي نَابِيْنٍ ضِرْعَامٌ^(٨)
فَلَنْ يَكُنَّ غَرْنِي حِلْيَةً فَلَا عَجَبُ إِنَّ الْحَصَامَ لَيَنْبُوْ وَهُوَ صَمَصَامٌ^(٩)

= يعطش وإهلاك . وصلة هذا البيت بموضوع هذه القصيدة أن المهجو من المخادعين الخائنين ، وقد خدع الشاعر برهة بهذه الكاذب ، وظاهره الخلاب .

(٨) المنسر (بوزن المقوم والمجلس) : الطائر الجارح : مثل المنقار للبر الجارح . والفتنلاء : العقاب الينة الجناحين : وهي من الطيور الكاسرة الجارحة ؛ قوة التحالب ، مسرولة ، لها منقار قصير أعقف ، هو مشرها . ويسرها حاد ، يضرب المثل بحدته وقوته . وكاسرة : صفة لفتنلاء : اسم قاتل من كسر الطائر جناحيه : إذا ضمهما وهو يريد الوقوع . و «فتنلاء» بالتصميم : خبر «ما» العاملة عمل «ليس» كما في قول الله تبارك وتعالى : «ما هذا بشراً» (الآية رقم ٣١ من سورة يوسف) . ومن العرب من يحملها . وعلى هذا تكون «فتنلاء» مرفوعة على أنها خبر للمبتدأ «كل» . و «كلا» بحرف معناه الردع والزرجر . أو هو بمعنى «حقا» لتأكيد ما قرره في الشطر الأول . أو هو للاستفتاح والتثنية . أو هو حرف جواب بمعنى «نعم» . والثاب : السن بجانب الرباعية . يذكر ويؤثّر . وللإنسان نايان في كل فك . قيل : ولا يجمع في حيوان ناب وقرن . والضرعام : الأسد الفسار الشديد .

استخدم الشاعر أسلوب النفي والتثنية المشدد ، والردع والزرجر ، فكثف المغرر بكل ذي منسر أن يحسه فتنة كاسرة ، كما منع المندوع بكل ذي نابين أن يظنه أسداً ضارياً ، أي لا تغريك الظواهر ، وأجبت عن الحقائق الكامنة وراءها فتميز الخبيث من الطيب ، فالبيت وثيق الاتصال بالذي قبله ، مؤكدة لعنا . وأربعة الأبيات الآتية تحمل ندم الشاعر على ما كان من حسن ظنه بالمهجو ، واغتراره بظاهر أمره .

(٩) الحلم : العقل ، والأناة . وقد يراد به الحزم ، وضبط الأمر وإحكامه ، والأخذ فيه بالثقة . وضده الخفة والنزق ، والبطش والسفه . والحق والجهل . والحسام : السيف الماضي القاطع البتار . وثبا السيف عن الضربية (من بابي عدا وثبا) : أي لم يصعب . وصيف صمصام : قاطع ماض ، لا يتثنى . وجملة «وهو صمصام» : جملة حالية .

والمنى : أنه في حقيقة أمره ، وغالب أحواله يعقل محترس ، حازم وأح ، عتاط لنسه ، وأن حلمه مع كل النوام يصبر ويهدئ . ويحفظه ويقيه . وأن اغتراره بالمهجو برهة كان من السقطات القليلة التادرة التي لا تأثير السحب ، ولا تدمر إلى الدش . والشطر الثاني تذييل جار مجرى المثل . وفيه تأكيد لمعنى الشطر الأول . وفيه فخر ضمني بحلمه . واعتذار عن سقطته أو غشته في تقدير المهجو ، واغتراده برهة بظواهر المداغة الكاذبة ، وتقصيره في كشف حقيقته ، وتعمّر ما انطوت عليه نفسه من سوء والفنية . إن غشا الشاعر في هذا الصدد كان من الأخطاء القليلة التادرة التي لا تميمه ، ولا تنقص كفايته وقوته . إنه كيوه جواد سيقاق ، وثيرة حسام صمصام . وكان الشاعر أراد بهذا البيت أن يمزى نفسه ، ويخفف عنها ما ساروها من الأسف . والندم ، والتبذير والكمد بمد أن غره المهجو وشدهم زائف مظهره .

ظَنَنْتُ خَيْرًا ، وَلَمْ أَذْكُرْ عَوَاقِبَهُ فَكَانَ شَرًّا . وَبَعْضُ الظَّنِّ أَقَامٌ^(١٠)
فَيَا لَهَا ضَلَّةٌ ! مَا إِنَّ أَبْهَتْ لَهَا حَتَّى تَرَدَّتْ بِهَا فِي الشَّرِّ أَقْدَامٌ^(١١)
أَلَبْتُ أَكْذِبُ نَفْسِي بَعْدَهَا صَفَهَا إِنَّ الْمُنَى عِنْدَ صِدْقِ النَّفْسِ أَوْهَامٌ^(١٢)

(١٠) ولم أذكر عواقبه .. أي ولم أضل لتأتج هذا الظن : أي ظننت بالمهجو الخير والإخلاص وصدق الوداد . وقد تدرت سلامة المواقب ، فكان ظني شرًا : أي خاطئًا سيئًا المواقب ؛ إذ عاد على يندر المهجو وأذاه ونعيمته ولؤم عهده . وهذا قريب من قوله في البيت السابق : « غرني حلمي » . والآكام : جمع الإثم : وهو الخطيئة والجريمة والذنب .

في البيت السابق قال : إن حلمه أشر وشره ؛ ولكن غفلته وإقراره كانا كبرية جواد ، ولبؤة صميم . وفي هذا البيت معنى التحصر والأسف والتندم ، ولوم النفس التي أحسنت الظن بالمهجو ، ولم تحفظ لمواقب ظنها إلا بعد التجربة المرة التي كشفت فساد طويته ، ولؤم عهده . والجملة الاسمية في نهاية البيت : « وبعض الظن أقام » تؤكد هذا المعنى ؛ فإن ظنه بالمهجو كان من الظنون الآتية الخاطئة بما جره عليه من سوء العقبى ، وشر الجزاء . والبيت الآن يردد هذا المعنى ، ويمزجه ويؤكدده .

(١١) « يالها » : أسلوب تمجيب : أي ياحسبها لها : أي الفسلة (يكره الضاد) : بمعنى الضلال ؛ وشغلها الفسلة (يفتح الضاد) : اسم مرة منه . ولا ريب أن الشاعر حينما أحسن ظنه بالمهجو كان ضالًا بعيدًا عن الهدى والرشاد ، غير موفق لقصد والسداد . وهـ إن « زائدة بعد « ما » النافية . وأبه له . وأبه به (كنس ، وفرح) : أي فطن له ، وتنبه ، أو اهتم به . ولها : الفسلة ؛ أي لما كان فيه — بسبب حسن ظنه — من غفلة وتجاه من الصواب . وتردت : هوت وسقطت . وبها : أي بسبب الفسلة .

يقول : إنه لما أحسن الظن بالمهجو ، ووثق به ، وأطمأن إليه لم يكن على حدى ورشاد ، وإنما كان في خطأ وضلال ، ولم يقطن لهذا الضلال إلا حينما تدرى في شر المهجو ، وأذى بسمايته ونعيمته ، واستبان له غدره ولؤم عهده . وقد أكد هذا المعنى بالتعجب الذي أثار نفسه ؛ فافتتح به البيت . وفيه معنى التحصر والتندم على حسن ظنه بالمهجو .

(١٢) آلى إيلاء : أقسم وحلف . وأكذب نفسي : أي لا أكلمها ؛ فالكلام هنا معنى بتقدير حرف التثنية ، وهو « لا » وكذبت نفسه : أوثقه مالا حقيقة له . وكذب نفسه ، وكذبت نفسه : إذا حلفنا وحدته بالأمانى البعيدة ، والأمور التي لا يبلنها وبمه ، ولا تصل إليها مقدرته ، وما لا يكاد يتحقق من الآمال ؛ فالكذب هنا : الحديث النفسى المبنى على التخيل والإيهام . وبعبارة : أي بعد هذه الفسلة ، والتجربة المرة . وصفها : أي بسبب الفسلة ، ومن أجله . أي أقسمت لا أحدث نفسي بعبارة حديث السفة والفسالة . والسفة : الخفة والطيش ، والتزق ، والمهل ، والحمالة ، ونقص العقل ، وسوء التصرف . ومنه يتصلق بالأوهام والتهافت ، والجري وراء الآمال الكاذبة ، والانفصاع بالأخيلة الخادعة . وضده الحلم . والمنى : الآمانى والآمال . الواحدة منية . والأوهام : جمع الوهم (يوزن الوعد) : وهو ما يقع في الذهن ، وما يخطر بالخلد ، أي البال أو القلب من الخواطر والمواجيس . أو هو مرجوح طرفي المتردد فيه ؛ قالهيم أقسمت من الظن . (وفصله من باب وعد) .

فَيَا بَنَ مَنْ تَزْدَرِيهِ النَّفْسُ مِنْ ضَمَّةٍ فَمَا يُحَسِّنُ لَهُ وَجَدٌ وَإِعْدَامٌ^(١٣)
 دَعِ الْفَخَارَ ، وَخُذْ فِيمَا خُلِقْتَ لَهُ مِنَ الصَّغَارِ ؛ فَإِنَّ الطَّنَجَ الْإِرَامَ^(١٤)
 وَأَذْكُرْ مَكَانَكَ مِنْ «عِبَاسٍ» حَيْثُ مُضَتْ عَلَيْكَ فِي الدَّارِ أَعْوَامٌ وَأَعْوَامٌ^(١٥)

— أقسم ألا يحدث نفسه بعد هذه الضلة بالأمانى البهيمية الكاذبة ، وألا يتقبل منها مثل هذا الحديث الذي يشبه السفه ، أو يتصل به . واعتزم أن يأخذها حل الدوام بالحيلة والخلد ، وسو الظن العاصم من الزلل والضرر ، وصمم أن يجرى في تصرفاته وبماملاته واتصالاته بالناس على منبج الحلم والحكمة والاستئناس . والشطر الثاني تنديل جاري مجرى المثل ، مؤكداً لمن الشطر الأول ؛ فحديث النفس وأمانها — حتى مع صلفها — أديام وهواجس وغواطر تقسية قلما تصح أو يتحقق منها شيء . وصلة هذا البيت بالنبي قبله واضحة وثيقة ؛ فإن الضلة التي ترى بها في شر المهجو — لم تصبه إلا لتعلق نفسه بالأمال الكاذبة ، والأديام الخادعة .

(١٣) تزدريه النفس : تحقره ، وتهاون به ، وتستهفه . و « من » : تعليلية ، كما في قول الله تعالى : « ما غلبناهم أغرقوا » (الآية رقم ٢٥ من سورة فوج) . والضمة : يفتح الضاد وكسرها) : الذلة ، والمهانة ، والنجسة ، والدنائة . ورجل وضع : أي ذقه حقير ، ساقط ، لا قدر له . ويراد بالوحيد والإعدام : الوجود والعدم . ولم نجد لها سريجين بهلين المحتين فيما بين أيدينا من المعجمات . اشتد الغضب بالشارح ، وتآججت ثورته النفسية ؛ فامتد « هجاءه » في هذا البيت إلى والد المهجو ، وزعم أن الناس يزدرونه ويحتقرونه لحسنة وضعته وانحطاط شأنه ، ولا يكادون يشعرون به لحقارته وقفاهته ؛ فيجوده وصفه في نظرم سيان .

(١٤) دع : اترك . والفخار (يفتح الفاء) : اسم من فخر الرجل (من باب نفع) : أي زعي وقبح . أو افتخر بما فيه ، أو في آياته من مزايا وبكاره ، ومنقلب ومحاسن ، وحسب ونسب ونحو ذلك . أو هو الفخار (بكسر الفاء) : مصدر فاعره مفاخرة . ونخذ : أسر من أخذ في الأمر : أي شرع فيه ، وزاوله ، وباشره . وأخذ به : أمسك به . وعلى هذا تكون « في » : بمعنى « الباء » . وغلقت له : طبعت عليه : أي جبلت ، وضربت ؛ يريد أن الصغار ، والذلل ، والضعف ، والفضة ، والخوان مركز في غلقتهم وطبعه وجبلته وفطرته . و « من » : بيبانية ؛ فما يندح بيان لما قبلها . وألزم الشيء : أثبته وأدامه . وألزمه الشيء إلزاماً : أوجب عليه ، وأثبت له ، وأدامه . وسنى « الطنج إلزام » : « أن انهجو طنج على الصغار ، قلزمه ، ووجب له ، وثبت فيه ثبات الطينائع والسجايا والفرائز والجليلات » فلا يكاد يفارقها ، ولا تكاد تفارقه .

يقول للمهجو : لا تحاول الزهو ، أو التماطل ، أو الفخر ؛ فإذلك لن تجد ما تقنشر به ؛ فاستمسك بما خلقت له ، وطبعت عليه من الصغار والخوان ؛ فإنه لا مناص لك منه ، ولن يستطيع امرؤ التخلل عن طبيعته وبهيمته .

(١٥) عباس الأول بن موسى بن محمد علي ، رأس الأسرة المصديقية العلوية التي حكمت مصر —

نَبِيْتُ مُرْتَفِعًا فِي ظِلِّ تَشْكِرَةٍ لِكُلِّ بَاغٍ بِهَا وَجَدٌ وَتَهْنِئَةٌ
وَفَوْقَ ظَهْرِكَ لِإِلْتِفَافِ مُمْتَرِكٍ وَفِي حَشَاكَ لِنَارِ الْفِسْقِ إِضْرَامٌ^(١٧)

= زهاء قرن ونصف قرن من الزمان (١٤٨ سنة) . ولد عباس الأول . بحجة من يلاذ الحجاز سنة ١٨١٦م وتوكل في الشام على الأعمال الإدارية والحربية ، تحت إمرة عمه إبراهيم . ثم تولى هذه الأعمال في مصر حيث عينه جده حاكماً للقاهرة . وكان لا يألف الأجانب ، ويتزعج إلى الاستبداد بالحكم ، والتباعد عن الشعب ، والمحافظة على القديم ولو كان غير صالح . ولما ارتقى عرش مصر ، وتولى حكمها في نوفمبر سنة ١٨٤٨ بعد وفاة عمه إبراهيم - كانت سياسته في جعلها رعية ، تتجافى عن الحكمة والعدل . ولما جمد له تفضيف الضرائب ، وتوسيع الأمن والملائمة ، والاستقرار والرعاية للفلاح في أرضه . وقد مات مقتولاً في قصره فيها سنة ١٨٥٤م . عباس : علم مصروف : أى مثني . وإنما منع من أنصرف ، أى من التثنية في هذا البيت اضطراراً لسلامة وزن الشعر .

يقول : إن المهجو كان في عهد عباس الأول غاملاً ساقطاً منزوياً في داره ، لا يكاد يفارقها ، ولا يكاد يحس به أحد . وقد لبث زماناً طويلاً في هذا الخمول والازدواء .

(١٦) مرتفعاً : حال من فاعل « تبيت » : إشارة إلى الكرسي المرتفعة التي يجلس عليها رؤاد الحانات . أو لعلها محرقة من « مرتفعاً » أى تبيت متكئاً على مرتفع (بوزن منبر ، أو مجلس) : وهو موصل للبراق بالفضد . والمسكر : كلمة فارسية من معانيها : بيوت يكثر فيها الشراب والملاهي . وبناء كالكصر ، حوله بيوت يجمع فيها الشُّطَار : أى الخبثاء الفجسار . وظل المسكرة : سواد الحانة (وهي حانوت الخسار) : أى ضومعا للضعيف الخلفت . أو ظلها : كنفها ، وجانبا : أى تبيت مرتفعاً . في ركن من أركانها ، أو زاوية من زواياها . والباغي : الظالم ، الفاسد ، الفاجر ، المفسد ، الفاسق . وجهاً : بالمسكرة . والوجد : الحب ، والفرج . والتهجم : الحب الشديد ، واللوع بالشر ، وشدة التعلق به .

هباء بأنه ملحن خمر ، مستهيم بالحانات وبيوت الهو والشراب ، يبيت فيها طوال ليله مرتفعاً لوقائق السكرى ، متكئاً متكاه المنزى والمبار ، يتادم أمثاله من الشطار الفسقة البهائم الفجار .

(١٧) الأنفاس : جمع نفس (بفتحين) : كناية عن المنتهزين من الرجال . ومتركة : مصدر ميمي . أو اسم مكان من الاعتراك . وهو اللاذحام والتدافع . والشر الأول : كناية عن أن المهجو مأبون ، مهتك المرض . والحشا : ما أطوت عليه الضلوع ، وما حواه البطن . وجهه أشباه . والفسق : الخروج عن طاعة الله ، والاستخفاف بأوامره تعالى وتواحيه ، ومجاورة حدود الشرع . والإغرام : مصدر أضمرت النار : أى أوقعتها ، وأشعلتها .

وى المهجو بالأنفة زهتتك المرض . وصور شدة فسقه وإغراقه في الفجور بالنار المتوقدة الملتبئة التي لا يفتأ الشيطان يشعلها ويحججها . والبيت كله إقلاق في الهجاء .

وَيَلْمُهَا خَزِيَّةً طَارَتْ بِشُنْعِهَا صَحَائِفٌ ، وَجَرَتْ بِاللِّمِّ أَقْلَامٌ^(١٨)
فَانْخَسَأَ ، فَمَا الْكَلْبُ أَذْنَى مِنْكَ مَنْزِلَةً وَ«أَخْسَأَ» لِمِثْلِكَ إِعْزَازٌ وَلَا كِرَامٌ^(١٩)
هَذَا الَّذِي تَكَرَّرَ الْأَبْصَارُ طَلَعَتْهُ فَحَظُّهَا مِنْهُ إِيذَاءٌ وَإِسْلَامٌ^(٢٠)

(١٨) الوليل : الهلاك . وحلول الشر . وكلمة عذاب ، وتفجيع ، ولجماع ، وإيلام . وويله : كلمة مركبة . والأصل : ويل لأمه . يريدون الدماء عليه . ثم استعمل في التعجب . وويلها خزية : أسلوب تمجيب وتعجيب من خزية المهجو (بكسر الخاء ، وتنصها) : وهي البالية ، والفضيحة التي وقع فيها . وتغرب تمييزاً للضمير قبلها ، وهو «ها» . وظلها خزي (يوزن رضى) : أى وقع في بلية يضر ، فانتفضح بذلك ، وبذل . وهان . والشنة (يسم فسكون) : القبح الشديد القبيح الفاضح . وطارت بشتها : أى شهرت الخزية . وأعلتها ، وأذاعتها ، ونشرتها . وفاعله «صحائف» : جميع صحيفة .

في خمسة الآيات السابقة (١٣-١٧) إقذاع في الهجاء ، وتنديد شديد بالمهجو ، وتصريح بمقاييسه ومناقضه ، وتهتك ، وتقريله في عرشه ، واستهتاره بالشراب ، ولومه بالسوق ، وانتفضاح أمره ، وانكشاف مساويه . وفي هذا البيت تأكيد لهذا الانتفضاح ، وتعجب وتعجيب من مخازيه الشنيعة الفظيعة التي أذاعتها الصحف ، وجرت بلمها الأقلام .

(١٩) أخسأ : أمر من خسأ الكلب (كنع ، وخضع) : أى بد ، كاخسأ . وخسأ : طرد ، وأبعد . ويقال : أخسأ عني : أى ابتعد . وتحصل هذه الكلمة - مع الإبعاد والطرده - معنى الإذلال ، والإهانة ، والتحقير ، والاستخفاف والمقاب . وأذن : اسم تفصيل يتسهل الهمة : من دق دقاة : أى صار دقياً : أى ذليلاً ، خسيساً ، حقيراً . أو من الدق : بمعنى القرب . ويراد به هنا اصطلاح المتزلة : وهي المرتبة ، والمكانة .

انحط المهجو في نظر الشاعر إلى منزلة الكلب ، فأبعد وطرده بالكلمة التي يطرد بها الكلب ، وهي «أخسأ» قائلًا : إن الكلب ليس أدنى من المهجو ، ولا أخقر ، ولا أقل منه منزلة . ولكنه ما ليث في الشطر الثاني أن بالغ وتزايد في الهجاء ، فحمل المهجو أدل من الكلب وأخس . ورأى كلمة «أخسأ» قليلة لا تكافئ خسته ودنائه ، بل رآها لعله إعزازاً وإكراماً ، كالرعى اللبون من الطعام مثلاً ، يماهه الإنسان ، وتكرم به الغناب والبهائم .

(٢٠) هذا : إشارة إلى المهجو . وطلعت : وجهه . أو رؤيته . وظلها : حظ الأبصار : أى نصيبها . وبته : من المهجو .

والمنى : أن الناس يكرهون المهجو ، ويتأذون بطلعه ، ويتألمون من رؤيته . وهذا قريب من قول أبي الطيب المتنبي :

وأحبال الأذى ، ورؤية جاتم . ه ظلام تقصى به الأجسام

فِي وَجْهِهِ سِمَةٌ لِلْفَنَنِ بَيِّنَةٌ وَبَيْنَ جَنَبَيْهِ أَحْقَادُ وَأَوْغَامُ^(٢١)
لَهُ عَلَى الشَّرِّ إِقْدَامٌ ، وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا عَنِ الْخَيْرِ وَالْمَعْرُوفِ إِحْتِجَامُ^(٢٢)
كَاتَمًا أَنْفَهُ مِنْ طُولِ مَسْجَلَتِهِ فِي حَانَةِ اللَّهْوِ حَرْفٌ فِيهِ إِذْغَامُ^(٢٣)
كَمَقَرَّبِ الْمَاءِ يَمْشِي مِشْيَةً صَدًّا فَخَلْفَهُ عِنْدَ جِدِّ الْأَمْرِ إِقْدَامُ^(٢٤)

(٢١) سمة : علامة . ويئة : واضحة ، جليلة ، ظاهرة . والأحقاد : الأسنان : جمع سقذ : وهو الاطواط على العداوة ، وإضمار البغضاء ، ورَبَّصَ فرصة الإيقاع . بالمحقق عليه - والأوغام : جمع وغم (يفتح فسكون) : وهو الحقد الثابت في الصدر ، والشحناء ، والبدواة ، والبغضاء ، والسخيمة ، والفسقية . يقول : إن المهجو يغطي على الحقد والفسقية ، ويضمصر لغيره الشحناء والبغضاء ، وتقرأ في وجهه أملوات النذر والحيانة ونقض العهد والمواثيق .

(٢٢) الإقدام : مصدر أقدم على الأمر : أى اجتراً عليه ، وشجع ، وأسرع في إنجازه بلا تردد أو توقف . والإقدم على السبب : رضى به ، وسكن إليه . والمعروف : اسم لكل فعل يعرف بالعلل أو الشرع حسنه . وفسده المنكر : وهو ما يتكره العقل أو الشرع : أى يقيسه ويستجته ، أو يحرمه ، أو يكرهه . والإحجام : ضد الإقدام : مصدر أحجم عن الشيء : أى تكس عنه ، وكف ، وبجبن .

يقول : إن المهجو جرى مقدام على الشرور والآثام ، بمن مرق في المفاصد والأسماء ، وهو مع هذا محمم بمخيل في الخيالات والمبررات ، جبان شحيح في المحامد والمكرمات .

(٢٣) السجدة (بكسر السين) : الاسم من سجد (من باب دخل) . أو اسم الهيئة منه . (ويفتح السين) : اسم المرة . والحانة : موضع بيع الخمر : أى حانوت الخمر . والإدغام : مصدر أدغم الحرف في الحرف . والحرف الذى فيه إدغام : الحرف المضمم ، كالدال في « حد » ، والضاد في « انقض » . والمشى : أن المهجو من معنى الخمر ، الملعين ، بمجالس اللهو والشراب في الحانات ؛ فهو لا يفتأ يتردد إليها ، ويطلق الخلوطين فيها . ومن عادته أن يتكنى بألفه على مناصبها ؛ ولطول انكفائه وانكباب أنه عليها بمخيل إليك أنه دخل فيها ، وأدغم ، كما يدغم الحرف في الحرف . وقد يكون المعنى : أن المهجو أفسس ، أى مفترش الأذن . وفيه - مع انخفاض قصبة - شيء من الفلفظ والضحامة . ولم يكن القطس طبيعياً فيه . وإنما جاءه من طول جلوس المهجو في دكاكين الخمارين ، وسوانيت اللهو والشراب ؛ وطول انكبابه أو انكفائه بألفه على مناصب الخمر ؛ فشابه الحرف الذى أدغم في غيره ، فأفقده الإدغام استواء وانصافه .

(٢٤) مقرب الماء : سرطان الماء الذى يعرف بـ « أبو جنبو » . ومن خصائصه أنه يستطيع - وهو يمشى على الأرض - تغيير اتجاهه دون التفات ، أى من غير أن يتحنى جسمه في أثناء تغيير الاتجاه . ومن عادته أن يتحرك جانبياً ؛ فشيته غير مستقيمة ، يل فيها هوج ، وميل ، والتواء ، وانحراف . وأغلب أنواعه مائية . والمشية (بكسر الميم) : هيئة المشى . والصمد : الناحية ، والجانب ، والجهة . =

أَبْدَى بِعَاتِقِهِ الْمَنِيْلُ سِمِيَّتَهُ وَحَتَّ مَوْضِعَهُ مِنْ كَفِّهِ الْجَبَامُ (٢٥)
وَكَيْفَ يَصْلُحُ أَمْرُ النَّاسِ فِي بَلَدٍ حُكَّامُهُ لِبَنَاتِ اللَّهِوِ خُدَّامُ (٢٦)

= ويمشى مشية صداداً : أى يمشى مشية جانبية ؛ فهي ليست معتدلة ، ولا مستقيمة ، ومشية الصدد هي وجه الشبه بين المهجو وعقرب الماء . وصورتها صورة التردد والالتواء ، والإحجام والتأخر ، والتأويل والتكسر ، والتكوص والتراجع . وخلفه : ظهره . وخلف : وراء . وضدحا « قُدَّام » تكون ظرفاً ، وقد تخرج عن الظرفية ، فتصرف . والأمر : الشأ . والحال . وجد في الأمر (من باب نصر وضرب) . اجتهد . والاسم منه الجِد (بكسر الجيم) . وجد (من باب ضرب) : غد « هزل » (من باب ضرب أيضاً) والاسم منه الجِد (بكسر الجيم) . وجد الأمر : الحالة التي تتطلب الجِد . وجد به الأمر : حمله على الجِد والاجتهاد والصرامة . وإقدام : مصدر أقدم . أوهى « قُدَّام » : غد « خلف » : وخلفه قُدَّام : فرح وتفسير وتأكيده لمشي مشية الصدد ، أى إذا جد به الأمر استبرأ ما ينبغي أن يستقبله ، وأحجم وتأخر ، وتأويل وتكسر ، وحين تردد . وقلمنا يعرف السكران جد الأمر ، أو يحس به . وخلفه إقدام : أى إقدامه تفهق ، أى لا يعرف الإقدام ، ولا يستطيعه ، أى يقدم بالرجوع إلى الخلف ، ويتكسر على عقبيه إذا جد به الأمر . وهذا وصف له بالجن والخور ، والإحجام والفرار إذا حزب الأمر ، وجد الجِد ، ويجب على الحر الثبات والإقدام . ولا ريب أن مشية الصدد صورة من صور التردد والتأخر ، والتأجيل والإحجام . وجاء في الشطر الأول بالانحراف والوضوح والتفريع في مشية . وهذه مشية السكران . وجاء في الشطر الثاني بالجن والفرار في مواطن الجِد والإقدام

(٢٥) عائق الإنسان : ما بين منكبه وعائقه . وسيمته : سيمة المهجو : أى علامته التي يتميز بها من غيره ، ويعرف بها . وحته (من باب رد) : فركه ، ودلكه ، وقشره . وإجام : الكأس (فارسية) مؤنثة) . ويراد بها هنا : كأس الخمر . ومعنى الشطر الثاني : أن الإجام تركت في موضعها من كف المهجو أترأ ظاهراً بائياً ؛ لأنه ممن خر ، لا تفارق كأسها كفه . والفرض المبالغة في تصوير إدمانه .

اعتاد المهجو أن يضع متدليه على عاتقه ؛ فكان هذا من سبائه الظاهرة . واعتاد كذلك شرب الخمر وإدمانها ؛ حتى تركت كأسها في كفه أترأ ظاهراً . وربما كان المراد بالشرط الأول من هذا البيت : أن المهجو غافل الخمارين والتدك ، واندمج في سلكهم ؛ فتشبه بهم . وبين عادة التناول (وهو من يقوم على خدمة القوم في الأكل ، أو الشرب) أن يضع على عاتقه متديلاً ، أو شيئاً يشبه المتديل ، كالفوط مثلاً .

(٢٦) يصلح (بالبناء المعلوم) : مضارع صلح (كدخل ، وكرم ، وفتح) . ويصدره الصلاح . والصلوح . أو هو (بالبناء المجهول) من الإصلاح . والاستفهام في أول البيت : معناه ألقى : أى لا سبيل إلى صلاح أمر الناس أو إصلاحه في بلد حكامه لاهين فاسقين . وبنات الأهو : الماجنات الساقطات المواهر من النساء .

يقول : إن شئون الناس في بلد ما لا يرجى لها صلاح أو إصلاح إذا كان حكامه غداً المواهر الماجنات . والمراد أن المهجو من أهل الفجور والفساد ، المنغمسين في اللهو والمجون ، المتفادين للاهيات =

قَدْ يَمْتَنُهُ الْمَخَازِي ، فَهِيَ نَازِلَةٌ مِنْهُ يَحِثُّ تَلَايَ اللُّؤْمُ وَالذَّامُ (٢٧)
 مَا إِنْ أَصَبَتْ لَهُ خُلُقًا ، فَأَحْمَدُهُ فَكُلُّ أَخْلَاقِهِ لِلنَّفْسِ آلَامُ (٢٨)
 فَظٌّ ، غَلِيظٌ ، مَقِيَّتٌ ، سَاقِطٌ ، وَجِيمٌ وَغَدٌ ، لَثِيمٌ ، ثَقِيلُ الظَّلِّ ، حَجَامُ (٢٩)
 جَاءَتْ بِهِ عَجَزٌ لَيْمَسَتْ بِطَاهِرَةٍ لَهَا بِمَدْرَجَةٍ الْقَشْحَاءُ أَرْلَامُ (٣٠)

= الساقطات . ومن نكذ الدنيا هل مصر أن يتولى مثل المهجر أمرها ، أو يتقلده فيها منصباً كبيراً ، أو يتصبّ للحكم والسلطان ، وكيف تستقيم شئون الناس ، وتصلح أحوالهم مع فساد هذا الحاكم وأمثاله ، وإغرائهم في الخلالة والمهانة ؟

(٢٧) يمتنه : قصده ، وطلعت به ، ولم تنصرف عنه . والمخازي : 'فصل أو الأعمال البسيطة القيمة القاصرة الشائنة المذلة . جمع غزوة (بسيطة اسم الفاعل) . أو غزوة (بوزن مهواة) . أو جمع حل غير قياس لغزى وشغرى (بوزن علم وهوى) : مصدرى شغرى (كلم) بعدما استملا استعمال الأسماء . وشغرى : وقع في بلية وشغ ، وانفصح ؛ فذل بذلك ، وهان . والؤم : لقيصة تجمع الشح ، ومهانة النفس ، وبسطة البليغ ، وندانة الأصل . والذام : العيب ، والملمة ، والتهينة . اتسم المهجو بالذل والحران ، ووهم بالمقايح والفضائح ، وتلاقى فيه القوم والمناسبات وشافته الخزيات المتبذات .

(٢٨) «إن» : زائدة بعد «ما» لتقوية الكلام وتوكيد معناه . وأصبت : وجدت .

غالب الشاعر المهجو وزامه في المناصب الحكومية الكبيرة ، وعرفه معرفة صحيحة ؛ فلم يجد في سيره وسلوكه ، وأخلاقه وطبائعه ما يرتضى ويحمد ، بل أثبت التجرة أن أخلاقه كلها مردودة لقيصة سيئة رديئة ، تؤلم النفوس ، وتغشّر القلوب . وفي البيت الآتي تشهير وتنديد بكثير من هذه الأخلاق الوضيعة والصفات الحقيرة .

(٢٩) فظ : صفة من التفظظة ؛ وهي القسوة ، والنفث ، والشدّة المسهنة . وريبل فظ : غليظ الكبد ؛ قاس جاف ، حنيف صر ، كره الخلق والخلق . وفي القرآن الكريم : «ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضتوا من حولك» (الآية رقم ١٥٩ من سورة آل عمران) . ومقيت : مقوت ، بنفس ، مكروه أشد الكراهية : صفة من مقته (من باب قتل) : أي أبغضه أشد البغض من أمر قبيح . ومناطق : رذل ، دين ، حسيس ، لثيم في نفسه وحسبه ، ذفه ، سافل ، لا وزن له ، ولا قدر ، ولا اعتبار . ووجيم (بوزن كنف) : عابس الوجه ، مطرق لشدة الحزن ، ساكت على غيظ شديد ، أوهم ، أو خوف . أو هي وجيم (بفتحة) أي لثيم بجمل . ووغد : أحقق ، ضعيف العقل . أو رذل ذفه . والظل من كل شيء : شخصه . ومن المجاز : ظلال ثقل الظل ، بانه التسم : أي ثقل على الناس ، بقيت إليهم ، مكروه منهم . والحجام من يعالج المريض بامتصاص جزء من دمه . ورفقه الحجام (بوزن الكتابة) . وأداة الاحتجام : المحجم أو المحجمة . والحجام ثقل الظل على الناس .

(٣٠) المجز : مؤخر الشيء (يذكر ويؤخر) . أو هي من الرزبل والمرأة ؛ كما بين الوركين . ويراد هنا عتا : فرج المرأة . وليست بطاهرة : ليست خفيفة ، ولا محصنة . ولما : العجز . والمندرج (بوزن =

مُسْتَقِظٌ لِلْمَخَازِي ، غَيْرَ أَنَّ لَهُ طَرَفًا عَنِ الْعَرِضِ وَالْأَوْتَارِ نَوَامٌ (٣١)
أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِلَّا مِنْ عَدَاوَتِهِ فَلَمَّا لَبَّيْكَ اللَّهُ عَظِيمُ (٣٢)

(= المترية) : المسلك والطريق . أو قارة الطريق وسطه ، ووسطه . والنمشاء : ما شنع ، وفتح ، وانشد
قبحه ، وجاهز الحد من الأفعال والأقوال . وقد يَكْنَى بالشمشاء عن الزنا . والأزلام : جمع زلم (بوزن
قلم) : وهو السهم الذي لا ريش عليه . ويشله القنح (بكسر فسكون) . وكانت العرب في جاهليتها
تستقيم بالنداح أي الأزلام . والمعز أزلام بدرجة الشمشاء : كناية عن احتيادها الفاحشة والرديلة .
والزلام أيضاً : الظلف : أي الظفر المشقوق لبقرة والغلي والشاة ونحوها . أو الذي خلف الظلف . وقد يراد
بالأزلام : القوائم والأقدام ، يشار بهذا إلى قوتها وصلابتها . وما بدرجة الشمشاء أقدام : أي احتادت
السير في طريق الشمشاء . وهو تفصيل وتأكيد لقوله « ليست بطاهرة » .

هجا الشاعر في هذا البيت المهجو بهجاء أمه ، والتعريض بها ، ورماها بالتفريط في غرضها .
كما هجا في البيت الثالث عمر من هذه القصيدة بهجاء أبيه ، ووصفه بالفسقة والخسوف ، وازدراء
الناس له ، وبهاونهم به .

(٣١) مستيقظ المخازي : متبه لها ، حريص عليها ، مولع بها . والطرف : العين ، والنظر .
وفي الأصل « طرف » بالرفع ، وهو خطأ نحوي . و« غير أن » : بمنزلة « لكن » . وفيه الاستدراك : وهو أن
ثبت لما بعدها حكماً مخالفاً لحكم ما قبلها من الكلام ؛ لما قبلها وهو استيقاظ المهجو للمخازي يتأنس
ما بعدها ، وهو نية عن العرض والأوتار . والعرض : موضع الملح والذم من الإنسان . يقال : هو عرض
العرض : أي ليس فيه ما يثلب ويمايب . ويقال : هو مهتك العرض : إذا شانت المنافع والممايب . أو العرض :
ما يلح المرء إذا صانه وقاه وحافظ عليه ، ويذم إذا فرط فيه ، أو تهون به ، أو قصّر في الدفاع عنه ،
كالنفس ، والولد ، والدين ، والشرف ، والمال ، والحسب والنسب .. والأوتار : جمع وتر (بكسر
الواو وفتحها) : وهو اللاحل ، والثأر . و« نوام » : نمت لـ « طرف » مقطوع عن منوقه . والتقدير :
هو نوام : أي كثير النوم .

هجا في الشطر الأول بالإفراق في المقايح والشروع ، والتمادي في المنزيات والآثام ؛ فهو مستيقظ لها ،
مولع بها ، لا يكاد يرا منها ، أو يفضل عنها . وهجا في الشطر الثاني بيلادة الحسن ، والغفلة عن مرضه
وثاراته ؛ فهو لا يدار على مرضه ، ولا يبالي أن يثلب ويحتك ، ولا يأخذ بثأره ، ولا ينتقم من وقوه ،
ولا يحاول الدفاع عما يلزمه الدفاع عنه .

(٣٢) عداوته : أي عداوة المهجو ، وصلى عليه بئس هذا الهجا . والجلال من الصفات
التي اختص بها الله « ذو الجلال والإكرام » . ومعناه : التناهي في عظم القدر . وهو أبلى من الجلالة .
وأعظمه إعظاماً : فضحه وكبره وفضله . أو رآه عظيماً .

والحق : أن عداوة الشاعر لمثل هذا المهجو ليست من الذنوب التي يرجى فيها من الله المغفرة ،
ولكنها تمجيد وتعليق لجلال الله وفضله ؛ وكأنها من المبادات والقربات ؛ فالشاعر يتقرب إلى الله تعالى
بالإيمان في مثل هذا الهجا ، والتنديد بما يعقته الله عز وجل ، وينهى عنه من الخزي والقواش ، والشروع
والآثام .

فَاذْهَبْ كَمَا ذَهَبَ الطَّاعُونَ مِنْ بَلَدٍ تَقْفُوهُ بِاللَّعْنِ أَرْوَاحُ وَأَجْسَامُ (٣٣)
وَهَاكَ مَا أَنْتَ أَهْلٌ فِي الْهَجَاءِ لَهُ فَالْهَجْوُ فِيكَ لِنَقِصِ الْحَقِّ لِإِرَامِ (٣٤)
مِنْ كُلِّ قَافِيَةٍ فِي الْأَرْضِ سَائِرَةٌ لَهَا بِعِزِّكَ إِنْجَادٌ وَلِإِتْهَامِ (٣٥)

(٣٣) الطاعون : الوباء . أو الموت من الوباء . أو داء وري وبائي فاش عام ، سببه جرثومة تصيب الفئران ، وتقلها البراغيث منها إلى الإنسان . وتقفوه : تتبعه ، وتسير وراءه ، وتقلقه وترميه (وبابه عدا ، وسما) . واللعن : العنود ، والإيذاء من الخير : مصدر لعنه الله (من باب قطع) : أى سخط عليه ، فطرده من رحمة ، وحرمه توقيفه . ولعن فلان فلاناً : أى دعا عليه ، وسبه ، وأغزاه .

المهجور في نظر الشاعر شرير مفسد ، يصيب غيره بالسوء والأذى . وشروبه فاشية عامة ، ولهذا شبهه بالطاعون . وعده ، أو دعا عليه ، أو تمنى أن يذهب عن البلاد ؛ لينهب بنهبه الشر والفساد ، والأذى والفساد ، مشيحاً من قلوب الناس والستم بالسب والزرايات ، ولملت ، واللعنات .

(٣٤) « هاك » اسم فعل أمر ، بمعنى « غذ » . وهو أهل لكذا : أى مستحق له ، جدير به ؛ (الواحد والجمع) . وه في الشعر الأول : بمعنى « من » : أى وعذ من الهجاء ما تستأمله . وقد تكون معناه الأصل ، وهو الظرفية : أى وعذ ما تستأمله في أمر الهجاء . وهجا هجواً وهجاء : فمه ، وفند به ، وبدد ماله ويقالعه وسلاويه . ونقص الشيء (من باب قتل) : أفداه ببدد إسماعه . ونقص الحق : إهداره وتضييعه والتفريط فيه . وفنده لإرام الحق : أى إسقاطه ، وإحياؤه . مستعار من أبرم الحبل ونحوه : أى قتله من طائفتين . وأبرم الشيء : أحكمه .

وبمعنى الشطر الثاني : أن المهجور فاسد مفسد ، وأن هجوه والتتديد بمخازيه يعدّ فساداً ، ويصلح إفساده ، ويرم ما نقضه من الحقوق ، ويشارك ما انتهكه من الحرمات ، ويحيى ما أماته من الكرامات .

(٣٥) « من » في أول هذا البيت : بيانية ؛ فإبعدها ، وهو « كل قافية » ؛ بيان لما قبلها في البيت السابق ؛ وهو « المهجور » : أى هجو تسيير به القوافي وتذيئه وتشبهه . والقافية في الشعر : الحروف التي تبدأ بمحرك يليه آخر ساكنين في آخر البيت . وبعبارة أخرى : هي من آخر البيت إلى أول متحرك قبل ساكن بينهما ؛ قافية هذا البيت مثلاً وهام . وقد تطلق القافية ويراد بها الروي ، وهو حرف بنيت عليه القصيدة ، وفست إليه ؛ فهذه القصيدة ميمية ، وقافيتها الميم . ويراد بالقافية هنا : القصيدة أو البيت من أبياتها . وسائرة في الأرض : ذائعة ، شائعة ، منتشرة ؛ بلديوع اسم الشاعر ، ونباة شأنه ، وعمو قدره ، وهجاب صيته بين الناس : اسم فاعل من سار الكلام ، أو المثل ، أو نحوه (من باب باع) : أى شاع وذاع واشتهر وانتشر . ولما : أى لقافية . والمرص : ما يمح ويمن الإنسان ، وهو ما ينبغي أن يصونه من نفسه وشرفه ودينه وحسبه وماله وعلاقته المحمودة ومآثر آباءه . ومن كلامهم : « هوئي المرص » : أى يرى من الصيب . و« أكرمت عه عروى » : أى صنت عنه نفسى . والإنجاء : =

شِعْرٌ لِيُوجِزَ الْمَحَازِي مِنْهُ سَافِيَةٌ بِحَاصِبٍ ، وَلِأَنفِ الْجَهْلِ إِزْغَامٌ ٣٧٠
تَبَلَّ الْعِظَامُ ، وَبَقِيَ ذِكْرُهُ أَبَدًا فِي كُلِّ عَصْرِ لَهُ سَجْعٌ وَتَرَنَامٌ ٣٧١

« مصدر أنجد : أى ارتفع . وضده الإتهام : مصدر أتهم : أى انخفض . والأصل : أنجد المسافر : أى صعد إلى التجد : وهو ما ارتفع من الأرض ، وصكّب . وأتهم : أى هبط ، أو انحدر إلى تهامة : وهى الأرض المنخفضة بين ساحل البحر والجبال فى الحجاز وإيمن . ومن كلامهم : غار وأنجد . وسار ذكره فى الأغوار والنجاد . ومعنى أنجاد القوافى وإتهامها فى عرض المهجور : تنهيدها بالمهجو ، وتشهيرها به ، وتمزيق عرضة ، وكشف معايبه .

وهذه الأهجوّة نشر الشاعر مقايح المهجور فى آفاق الأرض ، وفضحه ، وشهره به ، وأذاع ما تلوث به عرضه من الفحريات المنتهيات .

(٣٦) « شعر » : خبر مبتدأ محذوف : أى هو شعر . والمراد شعر الهباء الذى وصفه فى البيت السابق بالديروع والسيورة ، والإنجاد والإتهام فى عرض المهجو . ومنه : أى من هذا الشعر . وسالية : اسم فاعل من سفت الريح التراب ونحوه (من باب رى) : أى حملته ، وذرّته ، ونسفته ، وفزّته ٣٧٠ فالريح سالية . والجمع سواف وسافيات . وسفا (من باب سما) : أسرع . وسحاب : اسم فاعل من حصب (من باب ضرب ويقتل) : أى دما بالحصب : وهى صفار الحصى . والخاصب : الريح الشديدة تحمل الحصباء والتراب . ويراد بالخاصب هنا : ما تثيره الرياح وتبنيه وتلدوه ، وترى به من الحصى والتراب ونحوها . والجمل : السفانة ، والجفء ، والعلقة ، وصو الخلق . والجهل : نقيض العلم . وأرشمه إرشاءً : ألقاه فى الرغام : وهو التراب . وأرشم أنفه . يكتنئ بهذا كله من الإذلال ، والقسر ، والإهانة ، والإكراء .

جمل شعره كالدرايات وسافيات الرياح ، تحصب فى المهجور وجهه بخاذه ، وترجم قبائمه وفشائه ؛ وتقله بإظهار جهله .

(٣٧) بلى اللرب ونحو (من باب رضى) : ذهبته . جذته ، وأدركه البلى ، وشايف الفناء . وعظام بالية : أى دميم ، متفتحة ، فقدت الحياة . ويراد بالعظام : عظام الحق من الناس . والقصير المضاف إليه فى « ذكره » يعود على « شعر » فى البيت السابق : أى شعر هذه الأهجوّة . والذكر : المحدث ، والحفظ الشيء . والشعر يجرى على اللسان : أى ويبتلى هذا الشعر مذكوراً حقيقة ، لا يهوىك التسهان . و « أبداً » : ظرف زمان للمستقبل ، ويبدل على الاستمرار . ويبقى أبداً : أى ويبقى بقاء دائماً خلدًا . والعصر : الزمن . وله : الشعر . وسجج الشيء (من باب فجح) : استوى ، واستقام ، وأشبهه بضمه بعضاً . وسججت الحمامة والثائقة : رددت صوتها على طريقة واحدة . ورث الحمام والميد والقوس وكل ما استلذ صوته ترهماً ، وترلماً : رجع صوته ، وطرب به ، وتغنّى ، وأجاد الفناء .

وقال يَهْجُو :

هَجَوْتُكَ غَيْرَ مُبْتَدِعٍ مَقَالاً يُسَوِي مَا بَيْنَكَ مِنْ دَنْسٍ وَشَوْمٍ (١)
فَإِنْ تَجَزَّعَ فَمِنْ خَوَرٍ وَجُسْبَنِ وَإِنْ تَصْبِرَ فَمِنْ ضَعْفٍ وَلَوْمٍ (٢)

أطال الشاعر هذه الأهمية ، وأقذع فيها المهجور ، ولذعه بها ، وأوجسه وآذاه ، وسلفه بلسان حاد . ثم عشتها متعمداً بخلود شهره ، مقصداً بسلام صيته وذكره ؛ فالتاس يفتن جبالاً بعد جبل ، وقبلاً في إثر قبيل ، وأهاجيه غفلة ، وشمره باق على الأبد ، يفتنى به المفتن ، وزدده بالإحجاب والتمريم كل الأذنة والعصور .

• • •

(١) هجاء (من باب هذا) : وقع فيه بالضم ، وشتمه ، وسبه ، وذمه ، ولذعه به ، وعدده معانيه . والأسم منه الهجاء (يوزن كتاب) . ومبتدع : اسم فاعل من ابتدع الشيء ابتداءً : أي ابتدأه ، وأختره ، وأنشأه على غير مثال سابق . ويراد بالشرط الأول : أن الشاعر لم يتجنّ على المهجور بهجالة ؛ وإنما هجاء بما فيه من مناقص وشائب . ودنس الثوب ونحوه (من باب تمب) : توضع ، وتلطخ ، وتلوث . ودنس حرمة وخلقه ، فهو دنس (يوزن قلبي) . والشؤم : السوء ، والشر ، والفساد . وفداه العين ، والفأل ، والبركة .

يقول : إنه لم يتجنّ على المهجور بهجالة ، ولم يره إلا مساويه ، وبما فيه ، وما يدنس خلقه وهرسه من شرور وقذار .

(٢) جزع (من باب تمب) : فعلت منه (أي قوته) عن حمل ما نزل به ، ولم يجد صبراً عليه . والجزع أشد وأبلغ من الحزن ؛ فإن الحزن عام . والجزع : حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده ، ويقطعه عنه . وأغور : الضعف والانكسار . (وفعله من باب تمب) . والجبن : صفة الجبان : وهو الذي يتيبب الإقدام على ما لا ينبغي أن يخاف . أو هو الذي يهجم حيث ينبغي الإقدام . والشفة (يفتح الصاد وكسحا) : الوضاعة ، والدناة ، والخسة ، والاحتطاط . ورجل وضع : ذقه خسيس ، ساقط ، لا وزن له ، ولا اعتبار . والقوم : نفيسة تجميع عدة نقائص ، كشح النفس ، ودنائة الأصل ، والمهالة . وفداه الكريم .

يقول لهذا المهجور : فإن تجزّع من الهجاء فإيما هو جزع الضعيف الجبان ، وإن تصبر عليه كان صبر الشجاع العظيم : بمعنى أن جزعه وصبره لا يصدران إلا عن نفس موصومة بالضعف والجبن والوضاعة والقوم .

قد يكون المعنى عاماً ؛ فلهجور إذا جزع كان جزعه على الدوام مقروناً بالغور والضعف ، والجبن والإحجام . وإذا صبر لم يكن صبره فضيلة ومعدة ، وإيما هو صبر التمام والأحشاء .

وَقَالَ فِي رَجُلٍ :

أَلَا ، مَنْ مُعِينِي عَلَى صَاحِبٍ جَرَعْتُ بِصُحْبَتِهِ الْمَلَقَمَاءَ^(١)
يَسُوهُ الْخَلِيلَ ، وَيُوْذِي الْجَلِيلَ ، وَيَأْتِفُ إِنْ زَلَّ أَنْ يَنْدَمَا^(٢)
يَلُومُ عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ جَسَرِي وَيَغْضَبُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَفْهَمَا^(٣)
فَإِنْ قُلْتُ : « مَهْلًا » لَوَى شِدْقَهُ وَإِنْ لَمْ أُجِبْ قَوْلُهُ بَرَّعَلَمَا^(٤)

(١) « أَلَا » : حرف استفهام وتوبيه . و « مَنْ » : اسم استفهام ، يطلب به تعيين المائل . والاستفهام هنا : معناه الحق ، فالشاعر يتحس . ويأمل أن يجد من يعينه ويظايره على هذا الصاحب المعاصر . ويجرح الماء ويحرق (من باب فهم وقطع) : شر به ويلمه . وبصحبته : أى بسبب مرافقته له ، وبصاحبه لياه . أو معها . أو فيها . والملقم : شجر شديد الحرارة . أو هو الخنظل . أو هو كل شيء مرّ . والشرط الثاني كناية عما كاد به الشاعر وضائعا من المتاعب والمصائب بسبب صحبته لهذا الصاحب المعاصر النكد . وفي الأبيات الآتية تفصيل لكثير من معانيه ومساويه . ويبدو أن هذه المصاحبة كانت اضطرارية إجبارية ، أى أن البارودي كان مضطرا إليها ، مجبرا عليها :

ومن لكذ الدنيا على الحرّ أن يرى عدوا له ما من صداقته بدّ

حاصر هذا الصاحب الشاعر بممارسة شديدة ، وجبره في صحابته الصاب والملقم ، حتى ضاق به ذرعا ، فاستنجد ، واستنثا ، وطلب من يظايره عليه ، ويخفف عنه ثقله وبلواه .

(٢) الخليل : الصديق المختص ، والصاحب الخالص الناصح (فعيل : بمعنى مفاعل) . والجلس : المجالس . ويأتف : يستنكف ، ويستكبر ، ويكره (وبابه تمب) . وزل : أخطأ . وزل عن الحق أو الصواب : انحرف . (والفعل كضرب وتمب) . والاسم الزلة . والزلة : الخليطة ، والسقطة . من هبوب المهجور إنداء جلسائه ، والإسادة إلى أخطائه ، والتشبث بالخطأ والزلل ، وللتنادي إلى الجهل والسفه .

(٣) إن هذا الصاحب ينحى بلامته على غير المذنب ، ويسارع إلى الغضب قبل الفهم ، وتحكيم العقل . وهذان عيان بيان على حماقته وجهله . والإنحاء بالملامة على غير المذنب إحدى نتائج الغضب الأحق الخاطئ المجهور .

(٤) الشدق (بكسر الشين وفتحها) : جانب القم مما تحت الخد . ولى الشدق : كناية عن التبرم والغضب . وأمانة من أمارات السخط والإعراض : وبرلم : اغتاض ، وأدل شفثيه من الغضب . يقول : إن طلبت إليه التؤدة والرفق لكيلا يمتلكه الغضب الأهورج ؛ فيزلّ ، ويلوم غير المذنب - تبرم ، وسخط ، وضاق ذروعه بهذه النصيحة الخالصة . وإن التزمّت بلزاته الصمت ، وآثرت السكوت ، -

لَهُ جَهَلَاتٌ تُبَيِّتُ الرُّضَا وَحَقُّ يَكَادُ يُسِيلُ الدَّمَا^(٥)
يُكَابِرُ فِي الْحَقِّ إِنْ مَضَى وَلَا يَدَعُ الظَّنَّ أَوْ يَأْتِمَارُ^(٦)
فَلَا أَنَا مِنْهُ أَرَى رَاحَةً وَلَا أَنَا عَنْهُ أَرَى مَنَسَمًا^(٧)

« وأعرفت من سفاهته ، ولم أجب قوله — أشد قبحه وغيظه وسخطه ؛ فحماقته مستعصية على العلاج ، متأينة على الطبيب المعالج . وهذا المعنى شبه تفصيل ، وتوضيح ، وتأكيد لمعنى الشطر الثاني من البيت الثاني : « ويأبى إن زل » أن يتدما . وفي البيت الآتى تشهير بشيء من نتائج جهلته ، ومعالج حماقته .

(٥) جهلات : جمع جهلة : اسم مرة من الجهل : بمعنى السفاهة والحماقة ، والخلفة والطيش ، ولقص العقل ، وسوء التصرف ، والحق (يضم فسكون أو بضمين) : قلة العقل ، أو فساد (وعلته من بابي كرم وكرم) . ومثله الحماقة . وهو مرادف للجهل في هذا البيت ، أو قريب من معناه . والدماء (بكسر الدال وضمها) : فالأول جمع دم ، وأصله الدماء ، والثاني مفرد .

والمعنى : أن المرافق لهذا المهجو قد يرضى عنه برهة قبل أن تنكشف له عيوبه وسأواه ، ولكنه لا يلبث أن يسقط عليه بجهلته وسفاهته ، وحماقته التي تثير الغتة ، وتكاد تسيل الدماء . أو المعنى : أنه بجهلته وسفاهته يسقط من يصاحبه أشد السخط ، ويقتل رضاه ، ويفير شغبه ، ويكاد يحضله حل الفكك به ، وإسالة دمه .

(٦) يكابر في الحق : يجاحد فيه ، ويماند ، ويلجس ، ويغالط عليه ، ويحاول إحباطه . من المكابرة ، وهي المعالفة والمداينة والملاحاة . ومنه (من باب رد) وأمنه : آله وأوجهه ، وشق عليه . ولا يدع : لا يترك . ويراد بالظن : ظن السوء ، القائم على الظلم والإثم . ويأتم (من باب علم) : يقع في الإثم : وهو الذنب والخطيئة . وه أوه : معنى « إلى » ، أي يتشبث بظن السوء إلى أن يتردى في مهوأة الإثم والخطيئة . وفي القرآن الكريم : « يأبى الذين آمنوا ، اجتنبوا كثيراً من الظن ؛ إن بعض الظن إثم » (الآية رقم ١٢ من سورة الحجرات) . . والظن المجهى عنه في هذه الآية الكريمة هو ظن السوء بأهل الخير . وفي الحديث : « إن الله تعالى حرم من المسلم دمه وعرضه ، وأن يظن به ظن السوء » .

(٧) المئسم (بوزن المجلس) : الطريق ، والمذهب ، والوجه .

ومعنى الشطر الثالث : أنه يعزى إلى قطع صلته بهذا الصاحب المتعصب الفكرة ؛ ولكنه لا يكاد يجد الخيلة أو الطريق إلى ما يرغب فيه ويتمناه . وهذا المعنى يتصل بهيت أبي الطيب المفضي :

وبن لكذ الدنيا حل الخرف أن يرى دعوا له ما من صد الله بسعد

تَسْلُكُ أَنْبَى بِهِ وَخَشَّةٌ وَعَادَ نَهَارِي بِهِ مُظْلِمًا^(٨)
فَلَا رَحِمَ اللَّهُ يَوْمًا جَرَى عَلَى بِهِ طَائِرًا أَشْلَمًا^(٩)
وَقَالَ :

كَمْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ وَلَرُبَّ قَالٍ بَدَّ شَأُو مُقَدَّمٍ^(١٠)

(٨) تبدل : تغير . وأنس به ، وإليه (كطرب ، وضرب ، وقرب) : أى ألفه ، وسكن إليه قلبه ، وأطمأن ، وارتاح ، وفرح . والاسم من الأانس . (بضم فسكون) أو هو أحد مصادره . وضده الوحشة : وهي الخلق ، والوحدة ، والملم . وبه (فى الشرطين) : أى بسبب ذلك المهجر ، وما خسانه الشاعر من معاييه وبلياده . وعاد : صار . والشرط الثانى تميز وتأكيد لمضى الشرط الأول ؛ فلأنه كناية عن الأانس والألفة . والإغلام أو الظلمة : كناية عن الوحشة والملم .

(٩) فاعل « جرى » : ضمير « اليوم » . وبه : أى بصحبة المهجر . و « طائراً » : حال من ضمير « اليوم » . والأشام : المشتوم . وبن كلامهم : جرى لهم الطائر الأشام : أى أصابهم اللثوم : وهو الشر ، والسوء ، والبلاء ، والويل .

اشتد تيرم الشاعر بذلك المهجر ؛ فدعا الله تبارك وتعالى ألا يرسم ذلك اليوم الذى عرف فيه المهجر ، واتصل به اتصال لزوب واضطراب ؛ فإنه يوم غص وشأمة وفر وبلاء . والشاعر يجرى هنا على ما تعود به كثير من شعراء ، وتعوده الناس ، وبخاصة الشعراء من شكوى الأيام والأيام ، أو الزمان ، أو الدهر كلما أصابهم فى حياتهم شر أو بلاء ، أو مكروه ؛ فهم يضيفون إلى الدهر كل هذا لكونه فيه . وبن كلامهم : دهرهم أمر : أى أصابهم به الدهر . وبن شعر بعض الشعراء :

جهت لسمى الدهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

* * *

• هذه القصيدة من صغريات البارودى ، وحين شعره ، وفيها - مع الفخر - وفاء لمصر ، وتعلق بها ، وإنشاء عليها ، وتفنن بمحاسنها . ويذكر أنها مما نظمته فى شيوخه وأواخر أيامه ؛ فبعد عودته من منفاه فى سبتمبر سنة ١٨٩٩ استقبله الناس بحفاوة بالغة ، وعادت داره - بشارع حيطة العدة بالقرب من ميدان باب الخلق ، بالقاهرة - متنى الأدباء والشعراء ، وأهل العلم . وفى إحدى فنونه سأل الأديب الشاب « مصطفى صادق الرافى » شيئاً من شعره الحديث ، فقال : إن « حنتره بن شداد العيسى » يقول :

هل غادر الشعراء من متردِّمٍ أم هل عرفت الدار بعد ترويض ؟

وقد نفقت هذه القصيدة يقول :

كَمْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ وَلَرُبَّ قَالٍ بَدَّ شَأُو مُقَدَّمٍ

والقصيدتان على وزن وروى واحد .

(١٠) « كَمْ » : اسم ثنائى مبنى على السكون . وهي هنا خبرية تكل على عدد كثير ؛ فلما ترجمت إلى غادرها الشعراء حددها كثير . وغادره : تركه وأيقاه . ومتردِّم (مصدر ميمي) : أى مجال تردِّم =

فِي كُلِّ عَصْرِ عِصْرِي ، لَا يَنِي يَفْرِي الْقَرِي بِكُلِّ قَوْلٍ مُحْكَمٍ (١)

— (أو اسم مفعول . أو اسم فاعل) من تَرَدَّدَ كلامه تَرَدَّدًا : أى تنبه حتى أصلحه ، وسدَّ خلله . أو من تَرَدَّدَ الكلام : أى احتاج إلى الإصلاح والتحرير والتنقيح والتلخيص ، مستعار من تَرَدَّدَ ثوبه : أى رنمه . وتَرَدَّدَ الثوب : أى أعلق حتى ساق له أن يقع . والمراد أن السابقين من الشعراء تركوا للاحقين مجالاً واسعاً فسيحاً للقول ، والافتنان فيه ، والتجديد ، والابتداع . وهو خلاف قولهم : « لم يترك الأول للآخر شيئاً » . ورب : حرف خافض يفيد التقليل أو التكتير . وهو هنا التكتير ؛ لأنه في مقام الفخر والمباهاة ، والتعويه بالتالين ، أى التابحين ، أو اللاحقين ، أو المتأخرين . وقال : اسم فاعل من تلاه (من باب سما) : أى تبعه ، وجاء بعده . وضده المقدم : اسم مفعول من قدمته تقدماً : خلاف أخرته تأخيراً . أو اسم فاعل من « قدم » اللزوم . ومعناه تقدم . وبذء (من باب رد) : غلبه وظفاه ، وفضله ، وكان خيراً منه . والشأر : الغاية والأمد .

يقول : إن من سبقوه من الشعراء قد تركوا له ولأمثاله مجالاً واسعاً فسيحاً للقول ، والافتنان فيه ، والتجديد والابتداع . وقد يفوق اللاحق السابق ويبله في هذا المجال .
ويلاحظ أن الشطر الأول من هذا البيت يطابق — في أكثر ألفاظه — الشطر الأول من مطلع معلقة الشاعر الجاهلي الفارسي النابه « عنتره بن شداد العبسي » :

هل غادر الشعراء من موقدٍ ؟ أم حل عرفت الدار بعد توهم ؟

وإن اختلف المعنيان ؛ فعنتره يعنى أن الأول لم يترك للآخر شيئاً ، وأن الذين سبقوه إلى القول لم يهدروا مقالاً لغائل ، أى لم يتركوا له ، ولا لأمثاله مجالاً للقول ، أو شيئاً يصلحونه ويحددونه ، ويفتنون فيه ، لأن القداى في رأيه قد استعجبوا غنون الكلام ، وضروب البيان ، وبلغوا فيه أهل مراتب الإجابة والإفئان . والبارودي يقول : إن من سبقوه من الشعراء تركوا له ولأمثاله مجالاً فسيحاً يبدعون فيه ، ويفتنون ، ويتسابقون ويتفاضلون ، وينهلون الأوائل ، وتفوقون عليهم . ويلاحظ كذلك أن البارودي نظم هذه القصيدة على وزن معلقة « عنتره » ورويا .

(٢) حبرى : نسبة إلى « حبر » (بوزن جعفر) : وهو — فيما تزم العرب — موضع بالبادية تكثر فيه الجن ؛ فإذا تسجروا من شيء فاق غيره ، وارتقى إلى مرتبة الكمال ، وبلغ الغاية في القوة ، أو المهارة والخلق والإفئان ، أو جودة الصنعة ، نسبوا إلى حبر ؛ فقالوا « حبرى » . وبحبرية الشاعر أو الكاتب : مقدرته على التوليد والتجديد ، والابتداع والافتنان ، وتقوُّفه على غيره في هذا المجال . ولا يني : لا يفتر ، ولا يفسم ، ولا يتوكل ، ولا يصيبه كلال أو إعياء . وفلان لا يني يفعل كذا : أى لا يزال يفعله : أى يفعله بدموية وجد واستمرار . وفري الشيء يفريه (من باب ري) : قلعه على وجه الإصلاح . والفري : الأمر المجيب . وفلان يفري للفري : إذا أجاد عمله وأحكمه وأتقنه ، وأقَّى فيه بالعجيب . والחקم : المختار ، اسم مفعول من أحكمت الشيء إحكاماً : أى أتقنته وأجدهته كل الإجابة .

وَكَفَّاكَ بِي رَجُلًا إِذَا اخْتَبِلَ النَّهْيُ بِالصَّمْتِ ، أَوْ رَعَفَ السَّنَانُ بِعَنْدَمٍ^(٣)

أَحْيَيْتُ أَنْفَاسَ الْقَرِيضِ بِمَنْطِقِي وَصَرَعْتُ فُرْسَانَ الْعَجَاجِ بِلَهْدَيِ^(٤)

= هذا البيت تأكيد لحسن البيت الأول . وفيه تنويه بمقاورة الشعراء الذين ازدادت بهم مصروفهم ، وأضافوا إلى التراث القديم جديداً بديعاً ، حكماً فائقاً . وفيه أيضاً فخر عسفي بأنه عبقري زمانه ، ونسج وجده ، والبارودي صادق في هذا الفخر ، بعيد عن التزديد والمبالاة . وفي الأبيات الآتية تمزيق وتفصيل لشعره وأبتهاله .

(٢) كفَّاكَ بِي رجلاً : أسلوب يفيد الفخر بأنه الرجل الذي تكفى به الكفاية ، ويصفى به عن سواء من الرجال . واختل لسانه : حبس (بالبناء المجعول فيهما) ، فلم يستطع الكلام . والنهى : العقل . أو العقول (جمع نهية) . وقد يكون المراد بالنهى هنا : الألسنة ؛ فإن اللسان ترجمان العقل . والصمت : بيان وتأكيد لحسن الاعتقال . أو معنى احتقلت بالصمت : أن الصمت احتقلها : أى حبسها . فصيرت من التفكير أو النطق . واعتقال العقول والألسنة بالصمت : كناية عن نضوب القرائح ، وغوب الأذهان ، والعجز عن الإصحاح والبيان . ووصف فلان (كنصر ، وينع ، وكرم ، وفى ، وشم) : خرج من أنه الدم . وسنان الريح ونحوه : نضله : أى حديدته التى تقطع ويجرح . والندم : دم الأخوين . أو هو شجر من القرنيات الغرافية ، أحمر الساق ، وورقه كوردة شجر القوز : أو هو عشب نبات يصعب به . ويراد بالندم هنا : دم الجرحى والمقتل من المحاربين . ووصف الأسة بالدماء : كناية عن استمرار القتال ، واعتداد لفظ الحرب والقتال .

يعتمد بأنه الرجل الذي يحوك عليه ، ويكنزح إليه في مجال المفاال ، ويميدان القتال . والبيت الآتي يوضح هذا المعنى ويفصّله ويؤكدّه .

(٤) أحييت : جواب « إذا » في البيت السابق : أى إذا احتقلت النهي أحييت .. وإذا وضعت الأسة بالدماء صرعت ... وقد يكون كل من البيتين مستقلاً في الإحراب ؛ فالبيت الأول : أنا الرجل الذي يكفى به إذا احتقلت النهي ، ووصفت الأسة . وهذا البيت مفصل لما قبله . والأنفاس : جمع نفس (بضمين) . والقريض : الشعر . والمنطق : النطق والكلام . وصرعه (من باب قطع) : طرسه حل الأرض . ويراد بالصرع هنا : الإصابة والمقتل . والفرسان : المهرة في ركوب الخيل .. وفرسان الجيش : المحاربون على ظهور الخيل : جمع فارس وهو في الأصل راكب الفرس . والعجاج : الثبائر والندمان . ويراد به هنا : الثبائر التى تنهه سنابل الخيل ، وحركات المتحاربين في الكرّ والفرّ ، والمجوم والدفاع . وفرسان العجاج : أى فارس الحرب والمقتال . والهدم : كل شيء قاطع من ستان أو سيف أو غيرها . وصيف لهم : حاد قاطع .

اختصر في هذا البيت والبيتين السابقين بأنه الرجل الذي يعتمد عليه ، وفي كل الغناء إذا احتقلت العقول ، وانعدمت الألسنة ، واستند القتال ، وسالت الأسة بالدماء ؛ فهو عبقري زمانه . ويعقريته =

وَفَرَعْتُ نَاصِيَةَ الْعُلَا بِفَضَائِلِ هُنَّ الْكَوَاعِبُ فِي النَّهَارِ الْمُطْلِمِ (٥)
 سَلَّ مِصْرَعَتِي لِنَّ جَهَلْتُ مَكَانَتِي تُخْبِرُكَ عَنْ شَرَفٍ وَعِزٍّ أَقْدَمَ (٦)
 يَلِيهِ، نَشَأْتُ مَعَ النَّبَاتِ بِأَرْضِهَا وَلَكِنَّتُ ثَغَرَ غَيْرِهِ الْمُتَبَسِّمِ (٧)

= تتجلى في مجال المقال ، وميدان القتال ؛ إذ بحث الشعر العربي من مرقد ، ورد إليه الحياة والقوة ، ونافس به فعل الشعر في أزهى صوره ، ورفعه نبراساً قوياً لمعاصريه وثابهم من الأدباء والشعراء ، فهو أكرمهم وقادهم ، ورائدهم وأستاذهم . وفي ساحة الحرب والنزال ، وبرز على الأقران ، وصرع الفرسان ؛ وهذا ملح ، وبه ، وأشرق ، وتفوق ، وشهد لنفسه مجداً باقياً ما بين الزمان .

(٥) فرحت الجبل ونحوه (من باب رفع) : صمدته ، وطوته ، وأزقيته . والناصية : مقدم الرأس . أو شعر مقدم الرأس إذا طال . أو نهاية منبت شعر الرأس عند الجبهة . والعلاء : العلاء ، والرفعة ، والشرف . أو هو جمع العليا : مؤنث الأهل . وناصية العلاء : قمة المعالي ، وأعلى مراتبها . والفضائل : جميع الصفات : وهي الدرجة الرفيعة في حسن الخلق .

يقول : إنه بمحامده وزاياه فاق غيره ، وعظم شأنه بين الناس ، وبلغ أهل مراتب الرفعة والرمزة ، والشرف والعلاء . وفي الشطر الثاني سجل فضائله كوكباً ونجماً لامة متلألئة في النهار الغائم . وقد يكون معنى الشطر الثاني : أنه إذا أظلم النهار بفساد الناس وبذللهم أضاءته فضائله ومحامده ، أي يبدد بمكارم أخلاقه ظلمات الحياة وأسوأها .

(٦) المكانة : المنزلة ، ورفعة الشأن ، وسمو القدر . وعن « في الشطر الثاني : مرادة « الباء » . استعبرته من كذا ، فأعبرني به : أي أنبأني . والشرف : العلو ، والجد . قيل : ولا يكون الشرف إلا بالآباء : أي لا يمدُّ المرء شرفاً إلا بشرف آبائه . وشرف الرجل (من باب كرم) : علت منزلته ، وسما قدره ؛ فهو شريف من قوم شرفاء ، وأشراف . والمز : والمز : القوة والمنعة . وضده اللذل والمهالة . ويراد بالأقلام : القديم : أي النال ، أو التقليد . وضده الطواف ، أو الطريف ؛ فمزه وشرفه وبجده تالده ، أئبل ، أصبل فيه ، وفي آبائه من قبله .

يلغز بسمو منزلته ، وجلال قدره ، ورفعة شأنه ، وأصاله شرفه ومزه ، وأثالة مجادته ، وبجله . ويقول : إن مصر وأهلها يعرفون له كل هذا ، ويعجبون به . وفي ستة الأبيات احتجاز بمصر ، وتحدث بفصلها ، وتثني بمحامدها .

(٧) « بله » : غير مبتدأ محذوف : أي أنا في صباه بله (بوزن فرج) : صفة من البله . (بوزن الفرج) . ومن معانيه : حسن الخلق ، والفضلة عن الشر ، وقلة الفضلة لمداد الأمور . والبله والأبله : من شره ميت . ومن غلبته سلامة صدره . ومن كلامهم : هو في عيش أبله : أي نام دعي . وفي شباب أبله : أي رافه متنسم ، كأن صاحبهما غافل عن الطوارق . ويقولون : خير أولادنا الأبله القليل . ومنه : هو في بلهنية من عيشه : أي في رخاء ورفد ورفاهة وسمة . ونشأ الصبي : نما وشب ، وترعرع . وبأرضها : أي بأرض مصر . وأقم : التثبيل . (وفعله من باب فهم ، وضرب) . =

فَنَسِيبَهَا رُوحِي، وَمَعْدِنُ تَرْبِيهَا جِسْمِي، وَكَوْثَرُ نَبِيلِهَا مَحْيَايَ^(٨)
فَإِذَا نَطَقْتُ فَبِالْثَنَاءِ عَلَى الَّذِي أَوْلَيْتُهُ مِنْ فَضْلِي عَلَى وَأَنْتُمْ^(٩)

== والثمر : الجسم : وهو ما تقدم من الأستان . أو ما يظهر منها مع الابتسام . وقد يطلق الثمر ، ويراد به الفم . ونشأته مع النبات : إشارة إلى غضارة طفولته ، ونضارة صباه ، وبهجة حياته في هذه البيئة الناعمة الناضرة . وأنتم هنا : كناية عن الشرب . والثمر : كناية عن المشرب ، أو المورد ، أو الموضع الذي يشرب منه . وغديره : غدير النبات : أي ما يروى النبات ويسقيه من الغدران ، والأنهار ، والترح ، والسواقي ، والفتنات . ولو قال : « غديرها » : أي غدير مصر ، أو غدير أرضها ، لكان أقرب وأظهر . والثدير (في الأصل) : القطعة من الماء يفاودها السيل مفادرة . أو يندرها إغداراً : أي يتحركها ، ويقيها ، ويغلفها وراه بعد انحساره ؛ فهو فاعل في معنى مفاعل ، أو مفعول (بصيغة اسم المفعول فيها) . وقد يطلق الثدير على النهر وقعو . وللتيم : اسم فاعل من تيم تيماً : أي انفرجت شفتاه من ثباته ضاحكاً بدون صوت . وهو أخف الضحك ، وأقله ، وأجمله . والثدير بصفاة ماله ، وحسن رواه يحو كالتيم .

يقول : إنه نشأ وما ، وشب وترعرع في أرض مصر ، مع نباتها في بلهنية ورفاهية ، ونعمة عيش ، ورخاء بال ؛ وإذ كثيراً ما شرب من غدرانها الجارية النقية ، وقنواتها العذبة الصافية ، وطالما استمتع بما امتازت به هذه البيئة من طبيعة ساحرة باهرة . وفي كلمة « به » إشارة إلى اللذة التي يتميز بها العيش في صباه ؛ فعبثته مع أمثاله من الصبيان كانت غافلة ساذجة ، رضية هنية .

(٨) نسيمها : نسيم مصر ، وهو الريح الطيبة اللينة ، ونسبت الريح (من باب ضرب) : هبت لينة لطيفة . ومعدن الشيء : مركزه ، ويستقره ، ويمكن أصله . والثرب : التراب . وفي القرآن الكريم : « هو الذي خلقتكم من تراب » (الآية رقم ٦٧ من سورة غافر) . والكوثر : البليغ الكثرة . أو البلد الكثير . أو الخير العظيم ، أو النهر . أو نهر عظيم في الجنة ، تستلجم منه أنهارها . وهل المعنى الأخير يكون « كوثر نيلها » من إضافة المشبه به إلى المشبه : أي نيلها الغني بكوثر الجنة . وأهلها : الحياة . وساعة دمه : حياة جسمه .

يقول : من هواء مصر ، وريحها الطيبة العذبة يتنفس ويمشي ، وتحمي روحه ولبسه . ومن ترابها ، أو من نبات تربها وسواها يتغذى جسمه وينمو ويتكون ويتجدد . ومن نيلها العذب الفرات ، في الخير العظيم ، والثلج اللقيم تجري الحياة متدفقة قوية في دمه ؛ فهو مدني لمصر بروحه وجسده وكل أسباب وجوده وسكانه .

(٩) الثناء : ما يذكر في محامد الناس ، فيثنى حالاً " فقالوا " ذكره : أي يكرر ، ويعاد ، ويتجدد . وهو اسم من أثني عليه : أي مدحه ، ووصفه بخير . وأولاه معروفاً : أسأله إليه ، وصنعه ، وقدمه . وفاعل « أولته » : ضمير « مصر » . و « من » : ببيانته ؛ فإبعدها وغو الفضل والأتم ==

أَهْلِي بِهَا ، وَأَحِبِّي ، وَكَفَى يَوْمَ فَخَرًّا مَلَكَتْ بِهِ عِيَانَ الْأَنْجُمِ ^(١٠)
وَأَحَقُّ دَارٍ بِالْكَرَامَةِ مَسْنُولٌ لِلْقَلْبِ فِيهِ عِلَاقَةٌ لَمْ تُصَرِّمْ ^(١١)
مَيَّ جَنَّةِ الْحُسْنِ الَّتِي زَهَرَتْهَا حُورُ الْمَهَا ، وَهَزَارُ أَيْكَيْهَا قِمَى ^(١٢)

= بيان لما قبلها ، وهو « الهاء » : أى ضمير المفعول به فى « أولته » . وأفضل عليه : أحسن إليه . والفصل : الإحسان ابتداء بلا علة . والأنتم : جمع نعمة ، أو نعماء ، وهى الخفض ، والدعة ، والمال ، والرزق والصنمية ، والمئة ، والفصل ، والحال الحسنة .

ينبع بما أسندته إليه مصر من فواضل ونعم كثيرة ، تستحق أن يذكرها حل الدوام بالحمد وحسن الثناء . وفى البيت السابقيين ، والبيت الآتى بيان وتفصيل لبعض هذه النعم والفواضل .

(١٠) أحبى : من أحبهم ويحبونى : جمع حبيب : وهو المحب . وكذا الم محبوب . وكفى بهم فخراً : أى وكفى فخراً بأهل وأحبى : أى فخرى بهم يفنى عن كل ما يفخر به الآخرون ، فأننا لا أباهى غيرى إلا بهم . وحسبى من الفخر أن أنسى إليهم . وأعز بهم . والمنان : سير اللجام الذى تمسك به الدابة وتقاد . وجمعه أمنة . واستلاك أمنة النجوم والكواكب : كناية عن التحكم فيها ، والسيطرة عليها . وهذه كناية عن يلوفه أهل مراتب الرفعة والجهد ، والعز والشرف ، والسناء ، والملاء . وجملة « ما كنت به عنان الأنجم » : صفة لـ « فخر » .

يقول : من مزايما مصر وفواضلها التى ترطب لسان يذكرها ، وحسن الثناء عليها - أن أهل وأحبائى يقيمون بها ، ويمتصون فى رحابها . ثم افتخر وتباهى بمحامدهم ومناقبهم ، وإنشائه إليهم . وقال : إن هذا الفخر أمله نعمة الرفعة والملاء .

(١١) أحق : أول ، وأجدر . وفلان حقيق بكذا . أى جدير به ، مستحق له . ويريد بالدار والمنزل : مصر . والكرامة : اسم من الإكرام ، أو التكريم : أى الإعزاز والتأظيم . وعلاقة : صلة قوية ، وصداقة ، وصحبة ثابتة . ولم تصرم : لم تقطع (وبابه ضرب) .

يقول : لقلبه بمصر وأهلها علاقة وثيقة ثابتة لا انفصام لها ، فلا غرو أن كانت أحب بلاد الله إليه ، وأزهرها عليه ، وأحقها بذكره وتكريمه . وفى البيت السابق والبيت اللاحق تفصيل وتعليل لتعلق قلبه بمصر ، وإظهارها بالإعزاز والتكريم .

(١٢) يراد بزهرات مصر : فتياتها الحسن الجميلات : حل التشبيه بزهرات النبات فى النضارة والنفاسة ، والإيقاظ والإشراق ، والرواء والبهاء . والخور : جمع حورا : صفة من الخور (يفتحون) : وهو من محاسن العين . ومناه : أن يشتد بياض بياضها ، وسواد سوادها ، وتستدير حلقها ، ويحسن اتساعها ، وتقرق جفونها ، ويبيض ما حولها . قيل : ولا توصف العين بالخور إلا إذا كان جسد صاحبها أبيض . ولها : البقر الوحشى . واحدة مهابة . والخور من صفات عينها . والجزاز (بوزن سلام) : ملأ من طيور الفرد ، صوته حسن . فارسيته « هزار دستان » . وزم بعضهم أنه التعديل . والآية : =

مَا إِنْ خَلَعْتُ بِهَا سُيُورَ تَعَامِي حَتَّى لَيْسَتْ بِهَا حَمَائِلُ مِخْلَى^(١٣)
وَعَنَيْتُ عَنْ قُلَّتِي بِعَامِلِ أَسْمَرٍ^(١٤) وَسَلَوْتُ عَنْ مَهْدِي بِصَهْوَةِ أَذْمَرٍ^(١٥)

= واحدة الأيك : وهو الشجر الكثير المتلف .

جبل مصر جنة الحسن ، ونحو بنفارة نقيتها ، وحسن ، وجمال عيون ، وشبهن بحور لها . وقال :
إنه شاعر مصر الذي لا يفتأ يتنقى بحاسنها ومفاسرها .

(١٣) « إن » : زائدة لتوكيد مفسون الكلام بعدها . وأكثر زيادتها بعد « ما » النافية إذا دخلت على جملة فعلية أو اسمية : أي لم أخلع .. حتى ليست . . فالتبس تال الخلع على التنقيب .
وشلع الشيء (من باب شلع) : زعمه ، وألقاه . والسور : جمع سير : وهو ما يقدر مستطيلاً من الجلد ونحوه ، وتعلق به الثمام وغيرها : جمع تميمية : وهي حوذة ، أو خرزة وقطاع ، أو نحوها تنظم في السير ، ثم يعقد في عنق الطفل ، يموذونه بها . وهي - في زعمهم - تدفع العين والحسد ، وتمصه من الشر ، وقويه السوء . وتعلق الثمام : كناية عن الطفولة والصغر . وشلعها : كناية عن تجاوزتها ، وبلوغ الرشد . والحامائل : جمع حمالة (بوزن رسالة) : وهي علاقة السيف ونحوه . والحزم : السيف القاطع : اسم آلة من خدمه (من باب ضرب) : أي قطعه بصره . وليس حمائل الحزم : كناية عن الرجولة والقوة ، والاضطلاع بهما الحياة . وفي هذه الكناية أيضاً إشارة إلى التأهب لمبارك القتال ، وتمام الحرب والنزال .

يشير إلى أطوار نشأته وتربيته بمصر . ويقول : إنه لما جاوز طور الطفولة دخل تورا في طور الرجولة . والبيت الآن تنزيه وتأكيد وتفصيل لهذا المعنى .

(١٤) غنيت بكلا من كنا : اكتفيت بالأول ، واستغنيت عن الثاني (وبابه رضي) . والقلعة (بوزن الكرة) : من لعب الصبيان : وهي عود صغير ، غليظ الوسط ، دقيق الطرفين ، يرمى على الأرض ، ثم يمسز بالمثل ، فيرتفع في الهواء قليلا ، فيضرب بالمثل ضربة أخرى قوية ، فيضلق كالسهم ، ويمرر وراء الصبيان . وعامل الريح : أعلاه ، وصدره : وهو ما يلي سنامه . والأسمر : الريح : وهو قناتة في رأسها ستان من الحديد الصلب يطن به . ويلا عن الشيء (من باب ساء) : نسبه وطأبت نفسه بعد فراقه ، والمهد : القراش ، أو السريحي الصبي ويوطأ لينام فيه . والصهوة : موضع السرج من ظهر الفرس . وصهوة كل شيء : أعلاه . والذمة : للسواد . وفرس أدم : اشتدت وفتته ، أي حركته ، حتى ذهب بياضه .

بانتقاله من طور الطفولة والصبا إلى طور الشباب والرجولة استغنى عن لعب الأطفال ، وزهد فيها ، واستبدل بها أدوات الحرب ، وأسلحة القتال ، ونسى المهد ، وطأبت نفسه بفراقه . واحتل صهوة الخيل ، وتمرس بركوبها ، وأرلج بالفروسية .

وَقَجَرْتُ يَنْبُوعَ الْبَيَانِ بِمَنْطِقِي عَذِبٌ ، رَوَيْتُ بِهِ غَلِيلَ الْحَوْمِ (١٥)
 وَلَكُمْ أَزْرَتْ غَيَابَةٌ مِنْ قَسْطَلِي بِمُهَنْدِي ، وَخَلَلْتُ عَقْدَةَ مُبْرَمِ (١٦)
 أَخْخَالُ طَوْرًا فَوْقَ ذِرْوَةِ مَبْسَرٍ وَأَكْرُ طَوْرًا فَوْقَ نَهْدِ شَيْطَمِ (١٧)

(١٥) فجر الماء (من باب نصر) : بجهه : أى شق له طريقاً ، وفتح له منفذاً ، فسال وجرى . والينبوع : عين الماء . ومن الهجاز : فجر الله عل لسان فلان ينابيع الحكمة . والبيان : المنطق الفصيح . والحجة . والكلام يكشف عن حقيقة حال ، أو يحمل فى طياته بلاغاً . وينبوع البيان : أى البيان الشبيه بالينبوع ، فهو من إضافة المشبه به إلى المشبه . والمنطق : الكلام . وعذب : سائق سهل . وعذوبة الكلام : سهولته وبلاغته وحسن موقعه فى الأسجاع والقلوب . ورويت : سقت . والغليل : ثلثه الطلح ، وحرارته . والحوم : المطاش : جمع حاتم : اسم فاعل من حام (من باب قال) : أى صلت .

يفتخر بانطلاق لسانه ، وعذوبة بيانه ، وروائع أدبه : شعره ، ونثره . ويقول : إن هذا الأدب الرفيع البديع ، المتبحر الرائع يقع من نفوس الناس موقع الماء من ذى الفلحة الصادى .

(١٦) « ولكم » : « اللام » : لام الابتداء : يبتدأ بها الكلام ، وتؤكد مضمون الجملة بعدها . و« كم » : اسم يفيد التكثير . وأزرت : هيئت ، ونشرت . والغيابة : كل ما غيب شيئاً ، وسره ، وواراه . ومن « بيانية » . والقسطل : بيان للقيادة : وهو العيار الساطع الذى تثيره فى الحرب سنايك الخيل ، وسرعات المتحاربين . وكثرة ما أثاره فى الحروب من غيابات القساطل : كظلية عن أنه محارب شجاع ، شديد اليأس ، يقود جندته قيادة قوية مستبسة . والمهند : السيف المطبوع من حديد الهند . وكان أجود السيوف متعهم . وبهرم : موثق بحكم . وأصله الخيط ، أو الخبل من طاقين يفتلان حتى يصيرا واحداً .

يتلمح بشجاعته فى الحروب . ومقدوره على الحل والإبرام . وحسن قصره فى الأمور .

(١٧) احتال احتيالاً : تبحر وتكبر ، وتمايل فى مشيه من الزهو والإحسان بالنفس ، والشفقة بها . والطور : المرة ، والثارة . وذروة كل شيء (بكسر الهمزة وضمها) : أعلاه . وكر الفارس (من باب رد) : عاد مرة بعد أخرى ، وذلك إذا فرّ الجولان ، ثم عاد للقتال . وكرّ : حل عليه : حمل عليه فى الحرب ونحوها : أى هجم . وفرس نهد : قوى ضخم . وفى الأصل المخطوط « نهر » بالراء وهو من أخطاء الناسخ . والشيطم من الخيل والإبل : الطويل الجسم ، القفى القوي ، السريع .

يفتخر ببريذه فى مجال الخطابة ، وبهارته فى ركوب الخيل ، وبمرسه بالكر والفر ، وشجاعته فى ميادين الحرب والقتال .

حَتَّى رَبَّاتٌ مِنَ الْمَمَالِي هَضْبَةٌ شَمَهُ تَزْلِقُ أَخْمَصَ الْمُتَسَمِّمِ (١٨)
 نَشَأَتْ بِطَبْيِ لِلْقَرِيضِ بَدَائِعُ لَبَسَتْ بِنَحْلَةٍ شَاعِرٍ مُقَدِّمِ (١٩)
 يَصُبُّو بِهَا الْحَكْمَى صَبْوَ عَاشِقٍ وَتَخِفُ مِنْ طَرْبٍ عَرِيكَةٌ مُسْلِمِ (٢٠)

(١٨) رَبَّاتٌ : علوت ، وارتفعت ، والمال : جميع الملاحة : وهي الرفة والشرف والحضبة : الجبل المنبسط ، الممتد على وجه الأرض ، وجمعا هضاب . وشاه : عالية مرتفعة « من » : بيانية . والترتيب الأصل لهذا الكلام . « حتى رَبَّاتٌ هَضْبَةٌ شَاهٌ مِنَ الْمَالِ » . وزلقت القدم (من باب تمب) : لم تثبت ، وزلت ، وسقطت ، وأزلقها إزلاقاً : أزلقها وأسقطها . والأخص : باطن القدم الذي يحتاج من الأرض . ويراد به هنا : القدم . والمتسمم : اسم فاعل من تسمنت البحر : أي ركبته سنامه . ومن الهجاز : تسم فلان ذروة الشرف : أي علاها وارتقاها .
 في البيت السابق افتخر بتريزه في حليات الفصاحة والحطابة ، وساحات الوفي والقتال . وفي هذا البيت نوه بالفاية التي وصل إليها ، والمرتبة التي ارتقاها ؛ فقد تسم ذروة الجبل والشرف ، وبلغ في الرفة والملاء المنزلة التي تناسب هيبته ، ولا تنطاع لسواه .

(١٩) نَشَأَتْ : حدثت ، وتجددت . والقريض : الشعر . وبدائعه : زوائله الممجة المطرية التي بلغت الغاية ، ورافقت الأشياء والنظائر . ومعنى الشعر الأول : أن شعره مطبوع ، أي يجري على الطبع والسليقة ، ولا يبيعه التكلف والتصنع . وهو إلى هذا بديع مستحدث ، رائق فائق .. والتحلة (بكسر فسكون) : اسم من انتحل فلان شعر غيره أو قولي غيره : إذا ادعاه ، ونسبه إلى نفسه . يزيد أن شعره من إنشائه وابتداعه ، وليس فيه شيء مستحل . والشعر الثاني تأكيد لمعنى الشعر الأول .

افتخر بأنه ينظم الشعر باستعداد لطريق قوي فائق ، وأنه يأتى فيه بالروائع والبدائع ، ولا يدعى لنفسه شيئاً من شعر غيره .

(٢٠) صبا إلى الشيء يصبو صبوة (من باب صبا) : مال إليه ، وحنّ ، وتشوّق . ويلاحظ أن الشاعر عدّى هذا الفعل بالياء ؛ كأنه ضمته معنى أولع ، أو أحرم ، أو هام ، أو نحو هذا . وقد تكون الياء هنا السببية ، أو التمييز . وبها : أي ببدائع شعره . والحكمى (١٨٦ - ١٩٨ هـ) (٧٦٣ - ٨١٤ م) : أبو نواس ، الحسن بن هاني بن عبد الأول بن صباح الحكمي : شاعر المراء في عصره ولد في الأهواز (من بلاد خوزستان) ، ونشأ بالبصرة ، ورحل إلى بغداد ، فاقبل فيها بالخلفاء من بني العباس ، وودع بعضهم . ثم خرج إلى دمشق . ومنها إلى مصر ، فدفع أميزها الخفيف بن عبد الحميد العمري ، ثم عاد إلى بغداد ، فأقام بها إلى أن توفي فيها . وقد أعجب بشعره كثير من أئمة الأدب ، ولم يقل الشعر إلا بعد أن روى لكثرة شعره الغريب وشواجره . وهو أول من نهج الشعر طريقته الحضرية ، وأخرجته من الهجة البدوية وقلمه في جميع فنونه وأغراضه ، وأشهره وأجوده خرباته . وله ديوان شعر مطبوع . وتخص : تسرع ، وتندشط وتهتز . والطرب : خفة من سرود وفرح ، أو من هم =

قَوْنُهُ بَعْدَ اِعْوَاجِ قَنَاسِهِ وَالرَّمْعَ لَيْسَ يَرُوقُ غَيْرَ مَقُومٍ (٢١)
فَقَرَّ يَكَادُ السَّخَرُ يَبْلُغُ بَغْضَ مَا فِي طَيْبِهَا لَوْ كَانَ غَيْرَ مُحَرَّمٍ (٢٢)

= وموزن. وطرب لغناه (من باب فرح) : أى أوتاح له ، ونشط ، واهتز . والمريكة : الطبيعة ، والنفس .
ومسلم (٧٤٧ - ٨٢٣ م) : أبى الوليد ، مسلم بن الوليد الأنصارى ، الملقب بصريح الفوائى : من
الشعراء الناجين المبرزين فى العصر العباسى الأول . أجاد الشعر وهو صبي . وبلغ الرشيد والبرامكة .
وكان خليفاً ماجناً ، ثم جنع للتسك والعبادة ، وظل متسكاً حتى مات بمرجبان ، بالقرب من بحر
قزوين سنة ٢٠٨ هـ .

فى البيت السابق انضمر بأن شعره كله بذائع وروائع بمعدة من التكلف والتعشيل ، جارية على الطبع
والسليقة ، وفى هذا البيت : أن هذه البذائع والروائع تسحب المتقنين من فعل الشراء وتطرحهم . ولو
رواها أبو نواس ومسلم بن الوليد وأمثالهما لتعلقوا بها أشد التعلق ، وعرضوا عليها كل الحرص .

(٢١) قيوته : قويت شعرى : أى عدته ، وأزلت حوجه . والمصدر التقويم . وطله أو قربه منه
التهديب ، والتحرير ، والتفتيح . والفتاة (فى الأصل) : الريح الأجيء . وكل حصاً مسفوية ،
أو موعة . والتقويم قناة الشعر : تغيير مجازى فى معنى التهديب والتحرير والتفتيح : أى تخلص الكلام
من مبربه ، وإخراجها جيداً محكماً وإلقاً . والريح : قناة فى رأسها سنان من الحديد الصلب يطعن به .
وروق : يسحب ويسر . (وبابه قال) : ويقوم : اسم مقبول من التقويم : بمعنى التهديب والتحرير
والتفتيح والإصلاح .

فى البارودى بتحرير شعره وتنقيحه قبل إقراره وإعلانه مقتدياً بمن سبقوا إلى تهذيب كلامهم ،
كالشاعر الجاهل الحكيم زهير بن أبى سلمى ؛ إذ كان صاحب روية ، يحذف فصول الكلام وحشوه ،
ويهدب ما يقوله . والشطر الثانى تذييل مؤكدة لمعنى الشطر الأول ؛ فالمرح إنما يصلح للاستعمال
ويجرب ورووق به تقويمه وتهديبه ، وتنقيحه وإصلاحه .

(٢٢) فقر الكلام والشعر : نكته ، وبسله ، وأجزائه ، وأشطره ، وأبياته . والفقر (فى الأصل) :
عظام السلطة النظرية . الواحدة فقرة (يكثر فسكون . أو يفتح فسكون) . ورواد بما فى طيبها :
ما تطوى عليه الشعر ، أى الأبيات ، أى ما تتضمنه وتشتمل عليه من المزايا التى ترضىها فوق مرتبة الشعر
الخلال ، كروعة التأليف ، وإبداع التركيب ، وسنن الإخراج ، وقوة التأثير فى الأسجاع والأبصار
والقلوب والأذهان .

بالغ البارودى فى هذا البيت ، فبسل شعره فوق الشعر الخلال ، أى أبلىح منه ، وأشد تأثيراً فى
النفس . وهى مبالغة مألوقة مقبولة .

مُتَشَابِهُ الطَّرْقَيْنِ ، يُنْبِئُ صَدْرُهُ عَمَّا تَلَاحَقَ ، فَهُوَ بَادِي الْمَعْلَمِ (٢٣)
 أَحْكَمْتُ مَنَظِقَهُ بِلَهْجَةِ مُفْلِقِي يَقِظُ الْبَدِيَّةِ ، فِي الْقَرِيضِ مُحْكَمِ (٢٤)
 يَبْدُو أَهْبَةً كُلُّ قَارِسٍ بِهَمَةٍ وَيَزُمُّ شَيْشَقَةَ الْفَتَيْقِ الْمَقْرَمِ (٢٥)

(٢٣) تشابه الطرقتان : أشبه كل منهما الآخر . وأنباء . بكذا ، وأنباء كذا . وهو هنا مضمّن معنى فعل يتمدى ؛ « عن » مثل « يكشف » . أو أن « عن » هنا : مرادفة « الباء » . وتلاصق : تتابع وتوالي . وباد : واضح . والمعلم (بوزن المذهب) : العلامة (بوزن الرمالة) : وهي الأثر . وما يستدل به على الطريق . ويريد بتشابه طرق شعره ، وإنباء صدره ، أي مقدمة بما تتابع بعده : أن شعره متّال في البصر والبيان . وبادي المعلم : أي واضح المعالم ، لا يكاد يخفى منه شيء . وهو تأكيد لما قبله .

هذا البيت والذي قبله مطبوعان في الأصل المخطوط الذي بين أيدينا . وعلى الرغم من تحسبهما استعملنا قراءتهما ، وأثرنا لغيرهما .

(٢٤) أحكمت : أتقنت . ومنظفه : منطق شعرى : أي النطق به بمدح حبك لسجى ، وإثقان نظمه وتأليفه . والبهجة : اللسان ، ولغة الإنسان التي جبل عليها ، فاعتادها . وأطلق الشاعر : أي بالمعجب البديع الرائق الفائق ، فهو مفلق . والبديّة : حضور الجواب ، وصداد الرأى عند المفاجأة . ويراد بيقظة البديّة هنا زيادة حل ما تقدم : صفاء اللحن ، وطقنة الشاعر ، وتمام استبداده لنظم الشعر في شئ فنونه وأغراضه . ومحكم : حكم يفعل بين المتحاكين .

يتمدح بصفحة لهجته ، ويقظة بديعته ، وصفاء ذهنه ، وإثقان شعره ، وإحكام منطقته ، وإعجازه الناس مهذباً فائقاً ، وهو إلى هذا كله من نقدة الشعر ، المحكمين فيه .

(٢٥) يبتد : يأخذ أخذ مغالبة ومقاومة ومنازعة . وفاعله : غمير الشعر . والأهبة : المدّة أي الاستعداد . والفارس : الماهر في ركوب الخيل ، المتمرس بحسن استعمالها في الحرب وغيرها . والبهمة (بضم فسكون) : الشجاع يستهم على قرنه وجه غلبته : أي لا يستطيع أنزاله وأفداده التغلب عليه ، أو النيل منه . ومن كلامهم : « فلان فارس بهمة » . وليث غابة » . ويراد بفارس الهمة هنا : الجأر المتفوق في قول الشعر . وابتدأ أهبة : إحيات عدته ، وكسر شوكته ، والتغلب عليه . وزم الجبر ونحوه (من باب رد) : خطبه : أي جعل حل أنفه خطأماً : أي زياناً ، وشبه به . وفي الأصل المخطوط « يذم » بالذال . وهو من أخطاء الناسخ . والشقشقة : شئ كالقارعة ، يخرجها الجمل من فيه إذا حاج ومدّر . ويقال للقصيح : « هدرت » شقشقتها » : أي أفصح في الكلام . ويراد بالشقشقة هنا : الفصاحة والسنن . والفتيق : الفصيح ، الحاد السان . والمقرم (بصيغة اسم المفعول) : السيد المعظم المكرم . ويراد بالفتيق المقرم : الشاعر المفلق . وزم " شقشقتها " كناية عن قهره =

ذَلَّلْتُ مِنْهُ غَوَارِبًا لَا تُنْمَطِي . وَخَطَمْتُ مِنْهُ مَرَارِنًا لَمْ تُخْطَمِ (٢٦)
 شِعْرٌ جَمَعْتُ بِهِ ضُرُوبَ مَحَاسِنٍ لَمْ تَجْتَمِعْ قَبْلِي لِحَيِّ مُلْهِمٍ (٢٧)
 فَلَمَّا نَسَبْتُ فَتَنْتُ كُلَّ مُقَنَّعٍ وَإِذَا نَأَمْتُ دَعَرْتُ كُلَّ مُلْهِمٍ (٢٨)

= والتغلب عليه ؛ فهو في معنى اجتذأ الأهبة . والشرط الثاني في معنى الشرط الأول .
 والبيت مبالغة في الفخر بشعره ، وتصوير مقدرة الشعرية ، ومثله بين الشعراء ؛ فهو يمسك منافسيه ،
 ويغلب أئداده ونظرائه ، ويفوق الفائزين ، ويميز المغلطين .

(٢٦) ذلت : مهلت : ومهدت . ويسرت . ومنه : من الشعر . والغوارب : جمع الغارب .
 وهو من البحر : ما بين سنامه وعنته . ولا تنمطي : لا تركب : أى لا يسهل ركوبها . وخطمت
 البحر ونحوه (من باب ضرب) : جمعت الخطام : أى الزناب ، على خطمه : أى مقدم أنفه وفه .
 وبالخطام أو الزناب تقاد الدابة وتذل . ومنه : من الشعر . والمرارن : جمع مارن : وهو الجزء القين
 من الأنث . والشرط الثاني في معنى الشرط الأول . و « غوارب » و « موارن » منوعان من الصرغ ، أى
 التثنية ؛ لأنهما على صيغة منتهى الجموع . وضروبة وزن الشعر تبيح تنوين المنوع من الصرف ،
 كما تبيح المكس ، أى منع المصروف من التنوين .

يقول : إنه ذلل غوارب الشعر ، وخطم موارنه ، وطوَّعه للاستطاة والركوب . يريد أنه بهمه من مرقدته ،
 وكشف أسنانه ، وفتح مناره ، ويسر لغيره طريقه ، ودلل مصاعبه ، ورد إليه ما كان له في أزهى صصوره
 من الهبة والرواء ، والقوة والأزدهار . أو المعنى : أنه امتطي من الشعر مطايا لم يمتطها أحد قبله ،
 وعظم ما لم يعظم من موارنه ، يكفى بهذا عن أنه استحدث في شعره ما لم يسبق إليه من الروائع والبدائع ،
 وما يمتص على غيره من الطرائف والطلائف .

(٢٧) جمعت به : جمعت فيه ؛ فالباء هنا : بمعنى « في » كما في قول الله تبارك وتعالى : « ولقد
 نصرمك الله ببدر » . (الآية رقم ١٢٣ من سورة آل عمران) . وضروب : صنوف ، وأنواع : جمع ضرب .
 ومحاسن جمع على غير قياس لحسن . وكأنه جمع محسن (بوزن مذهب) . ويراد بالحي : الإنسان ،
 أو الشاعر . وشاعر ملهم : شاعر موفق موهوب : اسم مفعول من الإلهام : مصدر إلهامه الله الخبير : أى أوحى
 إليه به ، وإلهامه في روعه ، ولقَّنه إياه ، ووقَّنه له .

والمعنى : أنه بمقدريته ، وقوة شاعريته استطاع أن يجمع في شعره مزايًا وأنواعًا من المحاسن لم يجمع
 لغيره من شعراء الشعراء .

(٢٨) نسب الشاعر بقلادة : شهب بها في شعره : أى تغزل بها ، ووصف محاسنها ومفاصلها ،
 وشده تعلقه بها . والنسيب : الشعر المنقول به . وهو أرق الشعر وأعذب . وفنت : استملت واستويت .
 والمقنع : المستور الوجه بالفتح ونحوه . وهو هنا كناية عن المرأة المحببة . ونأمت القوس (كضرب
 ومنع) نسيما : صوتت . وكانت من أدوات القتال : وهى آلة على هيئة هلال ، ترى بها الهمام . =

كَأَرْوِضٍ تَسْمَعُ مِنْهُ نَعْمَةً بُلْبُلٍ وَالْفَيْلُ تَسْمَعُ مِنْهُ زَاوَةَ ضَيْغَمٍ (٢٩)
أَدْرَكْتُ قَاصِيَةَ الْمَحَامِدِ وَالْعَلَا وَشَاوْتُ فِيهَا كُلَّ أَصِيدٍ مُسْنِمٍ (٣٠)
فَأَنَا ابْنُ نَفْسِي إِنْ فَخَرْتُ، وَإِنْ أَكُنْ لِأَعْرَمٍ سَلَفِ الْأَكْأَامِ أَنْتَمِي (٣١)

= ولتتم أيضاً : صوت الأسد . وذعرت : غوفت ، وأزعجت : (وبابه قطع . والمثلث : كناية عن المحارب : وهو من غلب بالتمام فيه وطرف ألقه .

يفتخر بأنه شاعر غزل يستهوى بفزله الحسان المحجبات . وهو إلى رقة نصيبه ، وطوبى شره - محارب شديد البأس ، قوى المراس ، يفزع في الحرب أعداءه بصيحته ، أو بنامة قوسه ، وقمعة سلاحه . أو المعنى : أن شعري الغزل والنسب رقيق عذب مياسر ؛ يستميل الحسان المحجبات ويفتنهن . وهو في الحساسة جزل مستحكم القوة ، إذا أُنشد في الحرب حصن به جنده ، وأرهب به المحاربين من أعدائه . والبيت الآخر يبرّج هذا المعنى .

(٢٩) الرضى : أرض مخضرة بأنواع النبات . والنخمة : حسن الصوت ، والتطريب في اللغاء . والبلبل : طائر صغير من طيور الغرد ، ومن فصيلة الخواثم ، يضرب المثل بحسن صوته ، وعلاقته لسانه . والبلي : الأجمة : أى الشجر الكثير الملتفت ، وماوى الأسد . وزئير الأسد : صوته . واسم المرة منه زائرة : والتضيق : الأسد الواسع الشدق .

والمعنى : أن شعره متفاوت بتفاوت فنونه وأغراضه ؛ فهو في النسب ونحوه عذب رقيق سهل . وفي الحساسة ونحوها جزل قوى ضخم ؛ فنخمة البلبل : كناية عن الرقة والمنوبة والسهولة . وزائرة الضيق : كناية عن الجزالة ، واستحكام القوة ، ومجانبة الرقة .

(٣٠) قاصية الشيء : غايته ، ونهايته ، وأقصاه . والمحامد : جمع محمده (بوزن مسألة) : وهى ما يحمده المرء به ، أو عليه . والعلا : جمع العليا . وشغلها المحال : جمع المحلاة . والعلا : الرقة والفرف . وشاوت القوم (من باب عدا) : سبقتهم . وفيها : فى العلا والمحامد . والأصيد : المتكبر ، المزهو بنفسه . وكل ذى حول وطول من ذوى السلطان . ومن يرفع رأسه كبراً . وبلك أصيد : لا يلتفت من زهو يميناً ، ولا شمالاً . ويسم بالثني : حال مرتفع : اسم فاعل من أَسَمَ إسماً : بمعنى علا وارتفع . أو هى « مسَم » (بالهاء) : اسم فاعل من استسى الشيء استسأه : أى نظر إلى مساوئه وأعله . وهى من الإنسان ، أو الاستسأه : صفة مؤكدة لمعنى « أصيد » من الصيد (بوزن الطرب) : وهو الزهو والتكبر ، والفيه ، والفخر ، والنظر العالي .

يفخر بأنه وصل إلى غاية ما يطمع فيه الأماسيد الأعلام ، وتظفر بأقصى ما يطمح إليه العظماء الأكادام من الممال والمكادام ؛ وسبق في هذا المجال كل عظيم سبق .

(٣١) أنا ابن نفسى : أى أنا عصابى ، سودتى نفسى ، ونهضت في كفايائى وأخلاقى وأعمالى . ولم أتعتمد على غيرها فيما أدركته من قاصية المحامد والعلا . والأعز : المشهور ، الكريم الفعال . والسالف : جمع سالف : اسم فاعل من سلف (من باب قدم) : أى تقدم وسبق . أو مضى وانقضى . = ديوان البارودى - ٣

وَالْفَخْرُ بِالْأَبَاءِ لَيْسَ بِسَافِعٍ ۖ إِنَّ كَانَتْ الْأَبْنَاءُ خُورَ الْأَعْظَمِ (٣٣)
هَذَا ، وَرِيتَ لَذَّةً بِأَشْرُتْهَا ۖ فِي ظِلٍّ أَخْضَرَ بِالْعَصَرِ مُنْتَمِ (٣٤)
طَفِيقَ النَّسِيمِ يَحُوكُ وَتَى بُرُودِهِ ۖ بِأَنَامِلٍ تَمْرِي خَيْسُوطَ الْمَرْدَمِ (٣٥)

= وسلف الرجل : آبائه المتقدمون . والأكارم : جيع الأكرم : اسم تفضيل من الكرم . وأنتهى : انتهى .
وأنشأ .

يقول : إن فخرت فإنما أفخر بنفسى ، لا بأبائى ، وإن كانوا من الفر الأعلىين الأكارم . افخر
فى الشطر الأول بأنه عصاى ، وفى الشطر الثانى بأنه عظامى .

(٣٢) غور : ضعاف . وشوار : ضعيف . والأعظم : العظام . واحدا عظم . وخود أو خؤوة
أعظم الأبناء : كناية عن ضعفهم .

والمنى : أن المرء قد يكتفى من أصل ما جده قوى ، عزيز كريم ، فإذا شالفت آباءه ، وصلى غير
سليمهم ، وفطر فى تراهم ، وانحدر إلى مهوى الخور والضعف ، لم ينفعه فخره هؤلاء الآباء الأماجد
الكرام ، ولم ينف عنه ما كان لهم من مجد ومز ، وجاه ومؤدد . وقد أجرى الشاعر هذا البيت مجرى
الحكمة والمثل ، وأكد به معنى الشطر الأول من البيت السابق ؛ فالإنسان لا يحق له أن يفخر إلا بفضل الله
وأعماله العظيمة ، وبسامية الحميدة .

(٣٣) اسم الإشارة فى أول هذا البيت يشير بانتقال الشاعر من الأغراض السابقة إلى غرض
آخر ، هو وصف بعض ما استمتع به من رياض مصر ، وبحاسن طبيعتها . و« رب » : حرف
خافض يختص بالنكرة . وينهى التقليل ، أو التكثر بحسب المقام وسباق الكلام . ويتصل به تاء التأنيث
ساكنة ، أو متحركة ، فيقال : « ربت » . وهو هنا لتكثر ؛ لأنه فى مقام الفخر والمجادة ،
والتحدث بكثرة اللذات التى باهرها : أى استمتع بها متعة تامة ، كأنما لاسمت بشرقة بشرتها . والظل :
ضوء شمع الشمس إذا استقرت هناك بمجاز . ويعبر بالظل من الرحاب ، والكتف ، والرفاهة ،
والنسيم ، والجز والمخنة ، والستر والوقاية ، وبضارة العيش ورفده ، وبتع الحياة وهجتها . وأخضر :
صفة لموصوف مخلوف : أى فى ظل روض أخضر . والمرار (يفتح العين) : بهار يثبت بالبادية ،
طيب الرائحة . وأحدته عراة . ويراد به هنا : أزهار الروض وأنواره ذات الرائحة العطرة الذكية .
ومنهم : مرقش مزين ، مزخرف

يصف ما اغتنمه من متع الحياة ولذاتها فى ظلال روض نصير ، يزدان بأزهار طيبة الرائحة .

(٣٤) طلق يمل كذا : أى بدأ ، وجعل ، وأخذ ، وشرع . أو واصل الفعل : أى
استمر فعله . وهو خاص بالإثبات ؛ فلا يأتى مع النفي . (وأبواه طوبى ، وجلس ، وضرب) . والنسيم :
الريح الطيبة العطيفة اللينة ، لا تحرك شجرة ، ولا تفتى آتراً . ويراد بالنسيم هنا : الريح التى تثير السحاب .
ويحوك : ينسج . والرثى : الثياب المشوية : أى المنقوشة . ووشى الثوب (من باب وشى) : حسنه =

فَيْكُلٌ أَفْقِي مُزْنَةٌ فَيَاَصَةٌ وَيَكُلُّ أَرْضِ جَدُولٌ كَالْأَرْقَمِ (٣٥)
هَاتِيكَ تَجْرِي فِي السَّمَاءِ كَأَنَّهَا سُفُنٌ، وَهَذَا فِي الْخَمَائِلِ يَرْتَمِي (٣٦)
فَالرُّوْضُ بَيْنَ مَوْشَحٍ وَمُؤَوِّزٍ وَالزَّهْرُ بَيْنَ مُدْنَرٍ وَمُدْنَرَمٍ (٣٧)

= ونمته، ونقشه؛ وزخرفة بالنقوش والألوان. وبروده: أي برود الروض؛ جمع برد (بضم فسكون): وهو كساء غطط ليخفف به. ويحكوشى بروده: أي ينسج بروده ويوشها ويخرقها. والأنايل: أطراف الأصابع وروبوها المنتهية بالأظفار. والريح تحرى السحاب (من باب رى): تستوره، وتنتزل منه المطر. ويراد بالخيوط: المطر يسقط من السحاب في انسجام وتتابع واتصال، كأنه الخيوط. والحزم (بوزن المنبر): من أنواء المطر: أي النجوم المبشرة بالمطر. وهما مرزمان مع الشرعيين.

يصف أثر الرياح في إسقاط الأمطار من السحب، وأثر الأمطار في إحياء الأرض، وإنصار مثل هذا الروض، وترتيبه بمختلف النبات والشجر، وألوان الورد والزهري. ويلاحظ أن الكلمات والتعابير المجازية في هذا البيت كثيرة مترابطة مزدحمة؛ وقد مالت به إلى الثقل والتكلف؛ وأغفلت أو كادت تنسى في أطوارها وجه الحقيقة المشرق المستنير. وهو في الأصل المخطوط الذي بين أيدينا بديل بيت مفروب عليه بقلم الشاعر فيما ظن. ونصه:

ملك الهلاك من الغمام بلوه حكا، وأدزم فيه نوع الرزم

وهما متاثلان في التكلف والثقل.

(٣٥) الأفق: الناحية. والمزنة: السحابة الممطرة. وفيأصة: صيغة مبالغة من فاض الماء؛ أي زاد، وكثر حتى سال، وجرى. والجداول: النهر الصغير. والأرقم: ذكر الحيات، أو أعينها. وبجسمه أراقم. ويشبه الجداول بالأرقم في الانسحاب. يصف كثرة السحب الممطرة، وانتشارها في الأفاق، وكثرة الجداول وفنوات الماء، وانسحابها بين الأشجار والزروع كالأراقم.

(٣٦) هاتيك: إشارة إلى المزة في البيت السابق. وهذا: إشارة إلى الجداول. والخمائل: جمع خميلة (بوزن سفينة): وهي الموضع تكثر فيه الأشجار. والشجر المجتمع الكثيف الكثير المتلف، الذي لا يرى فيه الشيء إذا وقع في وسطه. ويرتعى: يزيد ويكثر. يشير بالارتقاء إلى كثرة ما ينساب بين الخمائل من الأنهار والجداول، وفيضان مياهها وغازاتها.

(٣٧) موشح: موشى، مزخرف، مزين. أو مكسو بأنواع النبات والزروع والزهود؛ فهي تزينة كما زين الشاح لابس. والمؤزور: اسم مفعول من التأزير: مصدر أزره: أي ألبسه الإزار؛ وهو ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن. أو هو كل ما ضحك وستره. ومن الجازر أذر النبات الأرض تآزيراً؛ أي كسأها وغطاها. ومدنر (بصيغة اسم المفعول): أي يشبه الدنانير. (وبصيغة اسم الفاعل): أي مشرق مثلاً كالدينار؛ وهو لقد ذهب قديم من نقود الدولة الإسلامية. =

طَلَقُ الْجَبِينِ ، تَبَسَّمتْ أَزْهَارُهُ عَنْ دُرٍّ قَطِرٍ كَالْعُقُودِ مُنَظَّمِ (٣٨)
عَيْقُ الْإِزَارِ ، كَأَنَّما جَرَتْ الصَّبَا فِيهِ بِجُودَةٍ عَبَسِيرٍ لَمْ تُخْتَمِ (٣٩)

= دُرُّ السَّكَاكِ الذهب تدنيراً : أى غربه دنائير ؛ فالزهر مدنر على التشبيه بالدنار . ودُرُّ الوجه تدنيراً : أى أشرق وتلألأ كالدينار ، فهو مدنر : أى مشرق متلألئ . ومدنم (بصيغة اسم المفعول . أو بصيغة اسم الفاعل) : أى يشبه الدرهم : وهو قطعة من النقود الفضية القديمة . الأول من قولهم : رجل مدنم (يفتح الماء) : أى كثير الدرهم . ولثاني من قولهم : درمت الخبازي : أى صار ورقها كالدرهم . في البيت السابق شبه السحب المطيرة المتحركة في السماء بالسفن الجوارى في البحار . ونوه بكثرة الجداول وتدفقها بالمياه النزرية الجارية بين الحمايل والأشجار . وفي هذا البيت وصف أثر الأمطار والجداول في إسفاء الأرض ، واكتساء مثل هذا الروع بأنواع الزروع والنبات ، وزيّنه بما يشبه الدرهم والدنانير من ألوان الورد والزهر .

(٣٨) الجبين : ما فوق الصدغ عن يمين الجبهة أو شامها . وهما جبينان . وقد يطلق على الجبهة ، وعلى الوجه . وطلق : صفة من الطلاقة : وهى تهلّل الوجه ، وإشراقه ، واستبشاره . وتبسم الإنسان : انفرجت شفاهه عن ثناياه ضاحكاً بدون صوت . وهو أخف الضحك وأحسنه . وتبسم الأزهار : تفتحتها الجزئ ، وظهورها في أجمل صورها . والدُرُّ : اللؤلؤ . واحدة درة . والقطر : المطر . واحدة قطرة . ويراد به هنا : الندى : وهو بخار الماء ، يتكاثف في طبقات الجو الباردة في أثناء الليل ، ثم يسقط على الأرض قطرات صغيرة ، تحملها الأزهار وأوراق الأشجار في الصباح . ودُرُّ قطر : أى قطر يشبه الدر في النقاء والصفاء واللؤلؤ . والعقود (بكسر فسكون) : وهو غيط ينظم فيه الخرز أو اللؤلؤ أو نحوهما ، ويحيط بمنق المرأة لئلا . ومنظم : منظوم ، منسق .

وصف هذا الروع بطلاقة الجبين والإشراق والرواء . وقال : إن أزهاره تفتحت في أجمل صورها . وضاعف جمالها وبهاها ما تحمله أوراقتها من قطرات الندى في الصباح . وشبه هذه القطرات بما يزين النساء من قلائد الجواهر ، وعقود الدرر واللؤلؤ المنسقة .

(٣٩) عَيْقُ به الطيب (من باب فرح) : لئق به ، وظهرت فيه والحمته الذكية العظيمة ؛ فهو عَيْق . وإزار الروعى : ما يكسوه وزينه من الشجر والزروع والنبات والزهر . والصباء : (يفتح الصاد) : ريح مهبها من مشرق الشمس . وهى أحب الرياح إلى العرب ، وأطيبها في جزيرتهم ؛ ولهذا لُحج بها شعراهم . وفيه : في الروعى والجوقة (بالهمز والتلين) : سقط صغير : أى سلية مستديرة ، مغطاة بالجلد ، يحفظ فيها المطار الطيب . والمعنبر : مادة صابئة ، لا طعم لها ، ولا ريح إلا إذا سحقته ، أو أحرقته . ولم تختم : أى مفتوحة ، يفرج منها الطيب ويتشمر .

والبيت في وصف ما تحمله ريح الصبا وتشره من روائح الأزهار والرياحين التى تكسو هذا الروع الأرضي .

صَبَحَ الْقَمَامُ غُصُونَهُ ، فَتَرْتَحَتَ طَرَبًا لِرَجْعِ الطَّائِرِ الْمُتَرَنِّمِ^(٤٠)
 قَنَسِيْمُهُ أَرْجٌ ، وَطَائِرُ أَيْكِهِ هَزَجٌ ، وَجَلَوْنُهُ بَسْرُودُ الْمَبْنِيِّ^(٤١)
 يَسْتَوْفِقُ الْأَلْبَابَ حَسَنُ رُوَائِهِ وَيَصِيدُ عَيْنَ النَّاطِرِ الْمُتَوَسِّمِ^(٤٢)

(٤٠) صبحه (من باب فتح) : سقاء الصُّبُوح : وهو شراب الصباح . والقمام : السحاب .
 واحدة قمامة . ويراد بالصُّبُوح : سبب القمام ، أو حب المزن ، أو البرد (يفتح الباء والراء) : وهو
 الماء الجاهد ينزل من السحاب قطلاً سناً . وترتحت : تمايلت واهتزت . والطرب : مصدر طرب الإنسان
 (من باب فرح) : أي غف واهتز لشدة حزن ، أو شدة فرح وإقياح . ورجع الصوت : صلاه .
 ورجع الطائر ترجيعاً : شدا ، وترنم ، وردد صوته . وترنم : طرب بصوته ، وشدا ، وتغنّى ، فهو مترنم .
 يصف سقوط سبب المزن على أغصان الشجر صباحاً في هذا الرّوض الأريض ، وتمايلها بحركات
 الرياح البينة اللطيفة ، وحركات الطيور المتفرقة فيها . وقد تحيل أن الأغصان رنحت لما شربت
 الصُّبُوح ، وأطربها شدة الطير وترنيمه .

(٤١) أرج الطيب (من باب فرح) : فاح ، وانتشرت رائحته الذكية . ونسيم أرج : أي عطر
 بما يجعله من شدة الورد والزهو والرياحين . والأيك : جمع أَيْكَة : وهي الشجر الكثير الملتصق .
 والهزج : التفتني والتطرب ، وكل صوت فيه ترنم خفيف مطرب . وطائر هزج : يفر ، ويضطرب .
 (وفله من باب فرح) . والجندول (بوزن جعفر) : مجرى صغير ، يشق في الأرض السقيا . والبرود :
 (بوزن رسول) : كل ما يرد به شيء ، كالشراب يبرد به الفلة : وهي السطح الشديد ، أو خراجه ، وجندوله
 برود : أي ماؤه عذب بارد تلقع مرو . والجسم (بوزن الجلس) : الكثر : وهو مقدم الأسنان ،
 وموضع الابتسام . ويراد به هنا : اللذائق . من قيطم : «واقه ما يسمت فيه» : أي ماذاقته .

ما زال الشاعر يتغنّى بمحاسن الطبيعة ومباهاها في هذا الرّوض الأريض ، فنسيه متعطر بشذا أزهاره
 ورياحته . ومياه جداوله عذبة رائقة ، باردة ناعمة . وأشجاره كثيرة ملتفة ناضرة ، تفرد الطيور عليها
 تغريد النشوة والإقياح والابتهاج .

(٤٢) الألباب : العقول . واحدا لب . والرواء : المنظر الحسن . والمتوسم : اسم فاعل من
 توسمت فيه الخير : أي تبينت فيه أثره ، وتمرفته . وتوسم الشيء : تفرسه وتقبله .
 ينبو بما أمتاز به هذا الرّوض النضير الزاهر من حسن الرواء ، والهجبة والبهاء ، وهذا يصيد
 الناظر ، ويقيّد الأنظار ، ويجتذب الألباب ، ويجتذب القلوب .

وهذا البيت ختام عشرة أبيات (٣٣ - ٤٢) وصف بها الشاعر ما استمتع به من مشاهد الطبيعة
 الساحرة في الرياض واليساين ، والأزهار والرياحين ، والجندول والأنهار ، والقمام والبرد ، وطيور الفرد ..
 وهو في الأبيات الآتية إلى نهاية هذه القصيدة يتجه إلى ما يشبه الحكمة ، والزهو ، والتزجيد في الدنيا ، -

وَالزَّمَنُ طَوْعٌ يَدُ الزَّمَانِ ، يَقْوَدُهُ قَوْدَ الْجَنَيبِ لِعَسَايَةِ لَمْ تَعْلَمْ^(١٣)
فَلَكْ يَكُونُ ، وَأَنْجِمٌ لَا تَأْتِي تَبْلُو وَتَغْرُبُ فِي فضاء أَقْتَمِ^(١٤)

= والتمصع والإرشاد ، وتوجيه الأبصار والبصائر إلى ظواهر الكائنات وغوايها ، وإعليان الإنسان للزمان ..
وفي أثناء هذه المعاني وما يتصل بها استطراد لدم الجنبه ، وحض على الإقدام ، واقتصر بشجاعته في
الحروب ، وكثرة ما ظفر به من وجوه النصر ..

(٤٣) امره (مثقلة الميم) : الإنسان . وطوح يد الزمان : أى متقاد له 'تمام الانقياد . من
قولهم : « هو طوح بلك ، أو إرادتك » : أى خاضع لك ، متقاد ، متطاع . وقاد الإنسان الداية
(من باب قال) : مضى أمامها أعداءً بمقودها . والجنب : الفرس ، أو الأسير ، أو نحو ، تسيطر
عليه ، وتقوده إلى جنبك : فهو ضليل بمعنى مفلول ، من جنبه (من باب قتل) : أى قاده إلى جنبه .

يقول : إن الزمان يسيطر على الإنسان سيطرة تامة ، ويسلبه إرادته واختياره ، ويقوده على الرض
منه إلى غايات ونهايات مجهولة . ولعله يقصد إلى الوضد والإرشاد ، بتنبيه الإنسان على ضعفه في يد
القتضاء والقدر ؛ فهو متطاع مستسلم ، لا يستطيع الفكك بما قدر له ، وهو إلى هذا يجهل مستقبله كل
الجهل ، ولا يكاد يعرف ما ينتهى إليه أمره . وفي القرآن الكريم : « وما تدري نفس ماذا تكتب غداً ،
وما تدري نفس بلى أرض تموت . إن الله عليم خبير » (الآية رقم ٣٤ من سورة لقمان) .

(٤٤) الفلك : الفضاء في السماء يدور فيه النجم . وجسمه أفلاك . وقد يطلق الفلك ، ويراد
به النجم . ويراد بالفلك الدائر : دوران النجوم ، والكواكب في أفلاكها . وفي القرآن الكريم : « وهو
الذى خلق الليل والنهار ، والشمس والقمر ، كل في فلك يسبحون » (الآية رقم ٣٣ من سورة الأنبياء) .
والأنجم : النجوم . واحدها نجم : وهو الكوكب . ولا تأتلى : لا تقصر ، ولا تفتقر ، ولا تنوفاً .
وهو لا يأكل أن يفصل كذا : أى يذأب فيه ، ويستمر بلا فتور أو تقصير . وتبلى : تظهر . وتغرب :
تغيب . وغربت الشمس (من باب دخل) : أى اختفت في مغربها . والأقتم : القائم : وهو ما كان
لونه أغمر ضارباً إلى سواد أو حمرة : من القسمة (بضم فسكون) : وهى لون فيه غيرة وحمرة (بضم فسكون
فيهما) ، أو سواد غير شديد .

في البيت السابق قرر أن الزمان يصحكم في الإنسان ، وأن المقادير تسيره وتقيده وتسيطر عليه ،
وتقوده إلى غايات يجهلها كل الجهل ، ولا يكاد يستبين منها شيئاً . والقرص من هذا التقرير أن يجد
الإنسان عن غلوائه ، وتكبهره ، وتبهره في أرض الله . وفي هذا البيت وجه الأبصار والبصائر إلى
الكواكب والنجوم الدائرة في أفلاكها ، وما يمتدورها من الشروق والغروب في ذلك الفضاء الواسع القائم
المائل . ولعل الصلة بين هذين البيتين أن الإنسان إذا تدبر ما يراه من ملكوت الله ، علم أنه خلق شتيلاً في
هذا العالم العظيم ؛ فاستيقظ عقله وضمره ، واستقام تفكيره وتدينه ، وصح إدراكه وفهمه ، ونفثته معافوه ،
وتجاربته ؛ فاهتدى إلى سواء الصراط ، وسبيل الحق والرشاد . قال الله تبارك وتعالى في القرآن الحكيم :
« خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (الآية رقم ٥٧ من
سورة غافر) .

صَوْرٌ إِذَا نَادَيْتَهَا لَمْ تَسْتَجِبْ أَوْ رُمْتَ مِنْهَا النُّطْقَ لَمْ تَتَكَلَّمْ^(٤٥)
 قَدَحَ الْخَفِيُّ ، وَخَذَ لِنَفْسِكَ حَظَهَا مِنْ أَبَدًا لَكَ ؛ فَهَوَ أَهْنَأُ مَعْنَمٍ^(٤٦)
 لَا يَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ بَيِّنُغَ مَا نَأَى عَنْهُ ، وَكَوْ صَعِدَ السَّمَاءَ يَسْلُمُ^(٤٧)

(٤٥) صور (بضم الصاد وكسرها) : جمع صورة ؛ وهي الشكل ، والتقال المجمع . وصورة الشيء : ماهيته المبردة ، وحياله في اللحن أو العقل . وصفته ، وهيئته ، وقنوه ، ووجهه . وكل ما يَصَوِّرُ . ويراد بالصور هنا : ما تراه من ظواهر الكائنات الصائفة ، متحركة ، أو ساكنة . وما أشار إليه في البيت السابق من الأفلاك والنجوم والكواكب ، والأفشاء الأقم . ولم تستجب : لم تجب . استجابته ، واستجاب له استجابة ، وأجابته إجابة : رد إليه الجواب ، وأفاده عما سأل . ورام الشيء (من باب قال) : أراد ، وطلبه ، ورافقه .

والمنى : أننا لا نرى من الكائنات التي مثل لما في البيت السابق غير صورها وظواهرها . أما ما وراء هذه الصور والظواهر من أخفايا والأسرار ، والحقائق والظواهر ، والكيفيات والنايات - فلا سبيل إلى اكتشافه أو معرفته . والبيت الآتي يميز تخلفا المنى ويؤكد .

(٤٦) دح : أترك . وهو أمر يراد به النصيح والإرشاد . والحظ : الحصة والمصيب . وبدأ : ظهر ، واتفق . والبادئ : الظاهر الواضح للكشوف . وفصد الخفى المحجب المستور . وأهنا : اسم تفضيل من هنق الشيء (من باب ظرف) : أي تيسر من غير كد أو مشقة . أو من هنق له الطعام (من باب فرج) : أي ساغ ، ولد ، وطاب : وحشأ الطعام والشراب (من باب نفع وضرب) : أي ساغ ولذ لي . والمغنى : الفينة ؛ وهي ما يأخذها المحارب من حذوه عنوة وقهرًا . أي هي المكسب . وكل ما ظفر به المرء ، وفاز به . ويقال مغنى يارث : أي طيب . وجمعه مغنم .

ينصح أن يأخذ كل امرئ لنفسه ما ينفعها من ظواهر الكون ، وصور الكائنات ، والمعارف القريبة المفيدة للمهياة للإنسان ؛ فإنها غير المغنم وأيسرها . وينهى عن الكد في طلب ما لا ينفع لنا إدراكه من الخفايا والغيوب والمحجبات التي لا سبيل إليها ، ولا قدرة لنا عليها . والبيت الآتي يكرر هذا المنى ويؤكد .

(٤٧) لا يستطيع المرء يبلغ : أي لا يستطيع المرء أن يبلغ ، بقدره «أن» المصدرية المناسبة ، وتأتي لها مع المضارع بمصدر يهرب مفعولاً به : أي لا يستطيع المرء بلوغ ما نأى عنه : أي الناقص البعيد الذي لم يتجأ يقطره واستمداده ليلوذه وإدراكه .

والمنى : أن الإنسان لا يمكنه الوصول إلى ما لم يقدر له ، ولو توصل إليه بكل الوسائل . وهو تأكيد لمنى البيت السابق ، وتكرار المنى من طلب الخفايا والغيوب التي لا سبيل إليها ، ولا قدرة لنا عليها .

بَيْنَا يَشْقُ بِهِ الْجَوَاهُ تَرْفَعَا أَهْوَى بِهِ فِي كِسْرِ بَيْتٍ مُظْلِمٍ^(٤٨)
 إِنَّ الْحَيَاةَ شَبِيهَةٌ مَا لَمْ تَكُنْ غَرَضًا لِأَمْرَةٍ ظَالِمٍ لَمْ يَرْحَمْ^(٤٩)
 لَا أَرْتَضِي عَيْشَ الْجَبَّانِ، وَلَا أَرَى فَضْلًا لِيذِي حَسَبٍ إِذَا لَمْ يُقَدِّمْ^(٥٠)

(٤٨) « بينا » : ظرف زمان : بمعنى المفاجأة . ويشقّ به الجواه : أى يشقّ السلم بالإلحاح الجواه . أو يشقّ الإنسان بالسلم الجواه : جمع جو : وهو الفضاء بين السماء والأرض . والترفّ : الارتفاع والاحتلاء : أى الترفع ترفعاً . أو حاله كونه مترفعاً . وأهوى به : أى سقط السلم بالمره بفتة . وكسر البيت : جالسه .

ولعله يكفى ب سقوطه فى كسر البيت المظلم من الخيبة والإخفاق . أو لعله يريد بكسر البيت المظلم : القبر ؛ فإن الذى يحاول بلوغ ما ذلّى عنه ، أى ما لم يهبأ له ، وما لا سبيل إليه ، ولا قدرة له عليه - يهلك ديناً وبلوغه وإدراكه . أو لعل المعنى : أن الإنسان فى حياته الدنيا يتقلب بين الشدة والرخاء ، والياس والرجاء . وقد يسعى إلى هدف من أهدافه البعيدة ، ويكد فى طلبه ، ويجد فى سماءه ، ويتخذ إليه ما صعب وتقر من الأسباب والمسائل ، حتى إذا ما خيّل إليه أنه اقترب منه وداناه - انهارت بفتة وسائله وأسبابه ، وانتهت به إلى الردى والهلاك . والفرس النهى عن الطمع المحقوت ، وتضييع الوقت والجهد فى طلب المستحيل أو شبهه .

(٤٩) شبهة : مشبهة ، لذيلة ، محبوبة ، مرغوب فيها . والفرض : الهدف الذى يرمى إليه . والبنية ، والحاجة ، والقصد : أى ما يبتغى ، ويراد ، ويطلب . والإسرة : الإمارة ، والحكم ، والولاية والسيطرة ، والسلطان . يقال : تأمر علينا فلان ، ضامت أمرته : أى سادت ولايته وحكمه . والمعنى : أن الحياة تحب ، ويرغب فيها ، ويحرص عليها إذا قامت على العدل والطمأنينة ، والرحمة والإحسان ، والمزة والحرية ، والإخاء والمساواة . فإذا انتهت الإمارة والحكم إلى مستبد غاشم غفل غليظ القلب فقدت الحياة - بظلمه وقسوته - بهبتها وفصرتها ، وأصبحت عمقوة بغيشة ، ووجب على الناس أن يزعجوا ذلك الظالم الذى كدرها عليهم ، ويغلموا إمارته بكل ما يستطيعون من وسائل الكفاح والنضال .

(٥٠) حسب المرو : ما يمدد من متاعه وبغائره وأفعاله الكريمة . أو شرف الأصل ، وما يتبى به الإنسان من مغائر آباءه . وأقدم يقدم إقداماً : شجع واجترأ على المخاوف والمخاطر . وضده الجبن والنكوص والإحجام .

يفخر بأنه عزيز أبى ، لا يرضى حياة الجبناء ، ولا يعترف لامرئ بفضل وإحسان إلا إذا كان باسلاً شجاعاً مقداماً ، يكافئ الظلم ، ويدفع عن نفسه ووطنه حاره وشناره . ويرى أن الجبن والنكوص والإحجام يضع كل متاعه المرو وبغائره ، وكل ما يعتز به من شرف آباءه ومجدهم . وصلة هذا البيت بالنالى قبله واضحة وثيقة ؛ فإن إمرة المستبد الظالم تسوئ حياة المظلّمين ، وتقيسها وتقيسها ، وتفلسفها -

وَكُرْبٌ مَلْحَمَةٌ سَوِيَتْ قِنَاصَهَا عَنْ وَجْهِ نَصْرِ بِالْقَبَارِ مَلْثَمٌ (٥١)
لَوْ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عِلْمٌ بِالَّذِي فِي الْغَيْبِ لَمْ يَفْرَحْ، وَلَمْ يَتَنَدَّمْ (٥٢)

« كل الإضداد . والراضى بهذه الحياة ذليل جبان ، مجرد من الفضل والخير ، والشهادة والكرامة ، والمروءة والإباء ، وإن كان حسيباً نسيباً ، كرم الأصول والآباء .

(٥١) « لرب » : « اللام » : حرف يبتدأ به الكلام ، ويؤكد مفسد الحملة التي يمدده .
« وب » : حرف خافض ، لا يقع إلا على نكرة ، ويفيد التكرير في مثل هذا المقام . وملحمة : حرب شديدة . وسراعه الثوب ، أو الدرج ، أو نحوها (من بابي حدا ، ورس) : نزع ، وألقاء . والقنص : ما تنطى به المرأة رأسها . وما يستر به الوجه . وملثم : اسم مفعول من لثمه تلثياً ، أى طلى فيه ، أو أنفه وما حوله بالقلم : وهو الثقاب ونحوه .

في البيت السابق افتخر بمزته وإياه التمس ، ومفته مهيئة الجبناء والأذلاء . وفي هذا البيت افتخر بكثرة ما اقتضه من ملاحم القتال ، وكثرة انتصاره على الأعداء . وقال : إن هذا النصر لم يأت سهلاً ، وإنما كان نتيجة كفاح مرير ؛ فالمبارك التي غاض غمارها ، وكشف أقمعها كانت لجوء عنيقة ، والانتصارات التي ظفر بها كانت وبيجها مغطاة بالقيح الغائم الكثيف الذي أثارته سنايك الخيل ، وهجمات المحاربين ، وحركات الكرّ والفرّ . والصلة بين البيتين واضحة ؛ فكل منهما فخر بالجماعة والإقدام .

(٥٢) « لو » في أول البيت : حرف يفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط ؛ فالشرط هنا ممتنع ، وهو اطلاع الإنسان على الغيب ؛ ولهذا امتنع الجواب ؛ فكان منه الفرح والبهر ، والمرح والأفر . وكان منه الحزن والجزع ، والتندم والتسمر . وعلم بالشيء : شبر به ، وأحسن . والغيب : ما غاب عن حواس الإنسان ، واحتجب وراء علمه وإدراكه ، وصبر عقله عن اكتناؤه وتحديد ، وكشف حقيقته وجوهه . وفي القرآن الكريم : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب » (الآية رقم ١٧٩ من سورة آل عمران) . والمعنى : أنه لو أطلع الإنسان على الغيب ، وعرف ما سبق به القضاء ، وما قدره الله تبارك وتعالى له في الأول من الخير والشر ، والنفع والضرر ، والإصابة والإخفاق .. وإطمان قلبه ، وسكنت نفسه إلى قضاء الله تعالى وقدره - لم يعبأ بما تحمله إليه الأقدار من أسباب البشر والسرور ، ويعول الأذى والحزن ؛ فلا يستغنى العطب أو البطر والمرح ، ولا يستغنى الخوف ، أو الحسرة والتندم . ولكنه يجهل الغيب ، ولا يحد في نفسه الطمأنينة إلى قضاء الله ؛ ولهذا تناوبه الفرح والتندم . وفي القرآن الكريم : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ، ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم . والله لا يحب كل غفلان غفور » (٢٢ و ٢٣ من سورة الحديد) . وفي الحديث الشريف : « فرح ربكم من الخلق ، والأجل ، والرزق » . والنرض من هاتين الآيتين الكريمتين ، وهذا الحديث الشريف تربية نفس المؤمنين على الامتنان إلى قدر الله ، والرضا بقضائه الله عز وجل ؛ فإذا فرح كان فرحه شكراً ، وإذا حزن كان حزنه صبراً .

فَدَعَ الْأُمُورَ إِلَى مُتَبَرِّ شَأْنِهَا وَأَرْعَبَ عَنِ الدُّنْيَا بِنَفْسِكَ تَسْلَمُ^(٥٣)

وَقَالَ :

يَأَيُّ غَزَالٍ فِي الْخُدُورِ تَهِيمٌ وَغَزْلَانُ نَجْدٍ مَالَهُنَّ حَوِيمٌ^(٥٤)

(٥٣) يراد بالأمر: أسرار الناس ، وشؤون الحياة الدنيا ، وما لا قدرة لك على تغييره أو تعديله ، أو التصرف فيه من هذه الشئون والأحوال . ويدبر شأنها : المتصرف فيها ، وهو الله تبارك وتعالى . ووجب الإنسان بنفسه عن الدنيا (من بابي طرب وجمع) : زهد فيها ، وأعرض عنها ، وتخرج منها ، ولم يندفع بزعمها وبماثلها .

في الشطر الأول دعوة إلى التسليم والالتئاد ، والرضا بقضاه الله تعالى وقدره . وفي الشطر الثاني ترميد في الدنيا ، وتغيير من زخرفها وباطلها . ولا ريب أن النجاة والسلامة فيها دعا إليه ، وحض عليه من الزهد والتسليم ؛ وفيها علاج ما أشار إليه في البيت السابق من التعلق النفس بالتألم حل احتجاب القلب وراء بصر الإنسان وبصيرته ، وبخيه من المغالجات التي يخيلها له القدر ، وتقلبه بين ألوان متقلبة من الشعور والمأطفة ، والإحساسات والانفعالات ، كالفرح والحزن ، والذة والألم ، والارتياح والندم ، والانبساط والالتقياض .

* * *

(١) « أي » : أسم استفهام ، يطلب به تعيين أحد المتشاركين في أمر يسمها . والاستفهام هنا من تجاهل العارف . ويراد به تعظيم المستفهم عنه ؛ فالشاعر يعرف الغزال الذي يهيم به . وإنما تجاهله تعظيماً لشأته ، وتقديراً بنباهته ، واشتبار أمره ، وفطرت حسنة . وقد يكون للإتكاف ؛ فهو بهذا الاستفهام ينكر حل نفسه ، أي يلوحها وينهاها عن الهيام بمن لا سبيل إليها ، ولا أمل في وصلها . والغزال : ولد الغنمية إذا شذن ، أي تحرك وشق ، وقوى ، واستثنى من أمه . وأثناء الغزاة . وجمعه غزلان . وقد جرى شعراء العرب من قديم الزمان على تشبيه الجميلات الحسنات من نسائهم ونقياتهم بالغنم والغزلان ، في الرثافة ، ولطف الحركة وضيقها ، ولين المعاطف ، وحسن التثني ، وجمال الجسد والهيئة . والبارودي مقتد بهم ، فاسج على تناولهم بمحذ لشأته . والغفور : جمع غفور (بكسر فسكون) ؛ وهو من عند المرأة في ناحية البيت . أو هو كل ما وارك وسرق من بيت ونحوه . والعربي يهيم بالمرأة المحبوبة المحببة ، لا بالمحبوبة المحبوبة . وهام الرجل بالمرأة يهيم بها دائماً وثباتاً . والشاعر هنا يخاطب نفسه . أو شتمها جرده من نفسه . أو رقيقاً تخيل أنه معه يلازمه ؛ فهو يحاوره ، وينصح له ، ويحذره ، ويضفي إليه بأسراره . و « نجد » : قسم من الجزيرة العربية ، بين الحجاز والعراق ، وساحلته « الرياض » . وقد تفرق كثير من قدامى الشعراء بطيبي تراه ، ونقاء هوائه ، ونضارة نباته ، وجمال نسائه . والبارودي - كما أسلفنا - مفتون ببشيمه ، مولع بمحباتهم ، والتفتيه بهم ، ومجاراتهم في فنونهم ، وأغراضهم ، وأحباتهم ، وأساليبهم . وحميمك : صديقك ، ووديك : وصيك الذي -

يَقْدُنْ زِمَامَ النَّفْسِ وَهِيَ أَيْسَةٌ وَيَخْذَعْنَ لُبَّ الْمَرْءِ وَهُوَ حَكِيمٌ^(١)
فَيَاكَ أَنْ تَغْفَى اللَّيْلَارَ مُحَاطِرًا قَلُونِ حِمَاهَا لِلْأَسْوَدِ نَقِيمٌ^(٢)

= توده ویدک. وقرینک الذى تهم بأمره. والواو فى أول الشطر الثاني: واو الحال. والجملة بعدها حالية. وما لمن حليم: أى ليس لمن أهتام بمن يتوعد للين، ويتعلق بمن؟ فهن يعرضن عن هؤلاء، ويصدحن عن بهم بمن.

أولع الشاعر بفتاة غنوية غنوة، فتنته بفطر جمالها، ووطئه بدلالها، فهام بها، ومنز عليه وصالحا، وكان شأنها معه شأن الحسان المحببات من نساء نجد، يستصين على عشاكن، ولا يلقن من غير الإعراض والصدود.

(٢) قاد الرجل الدابة (من باب قال): مضى أمامها، أعادها بمقودها. والزيماء: المقود: أى الحبل الذى تقاد به الدابة. وفى القود أو للقيادة: معنى التسلط والتحكم والسيطرة. وأية: حزيمة حرة، منيحة، مستصية، مرفوعة، من الإيهاء: وهو الابتهاج، والاستصاء: والترفع. وضده الخضوع، والتذلل، والانقياد. والبلطان الاسميان فى نهاية الشطرين الأول والثاني: حاليان. والواو قبل كل منهما: واو الحال. وضده (من باب قطع): غتله، وقره، وأظهر له خلاف ما يشفيه، وأراد به المكروه من حيث لا يعلم. ويراد بالخلع أو الخلدية هنا: الاستهزاء، والفشة، والقولبة، والتهم. والب: العقل. ولب حكيم: أى راجع فاهج، محكم متقن، لا يسبل استهزاء، ولا يتنى الخفادح. وأمرؤ حكيم: أى مشغل بالحكمة: وهى العلم والفلسفة، والكلام الذى يوافق الحق والصدق، ويطلق الصواب والسداد. أو هى إصابة الحق بالعلم والعقل. أو هى معرفة الموجودات وفق الخبرات.

والمنى: أن حسان نجد يفتن بجمالهن الباهر ذوى الآلاب الزاجعة، والمقول الناضجة من الأداة الأخرى، والفلاسفة الحكماء، ويستويهم ويهينهم، ويسيطرون عليهم، ويصحبونهم فيهم؟ فلا يملكون حيلة، ولا يملكون سبيلا. وفى البيت فسر ضمنى بأنه عزز قوئ، أى النفس. راجع العقل، وأسس الإدراك.

(٣) «ياك أن تغفى الديار»: أسلوب تحذير وتقويف: وهو تنبيه المخاطب على أمر مكرره ليحذره. ويراد بالديار: منازل حسان نجد، أى أحذرك غشيان هذه الديار، أى دخولها. ومحاطرًا: حال من قائل «تغفى» وهو تأكيد للتحذير والتقويف: اسم قائل من خاطر بنفسه مخاطرة: أى جازف بها، وأشغفها على خطر، وعرضها لهلاك. والشطر الثاني تمليل للتحذير فى الشطر الأول. وه دون: ظرف مكان منصوب. ويوضح معناه عما يضاف إليه. ومن المعاني اللاحقة به هنا: «أبام» و«قبل». وألحى: المكان المصون الهوى المتنع، الذى لا يقرب، ولا يجترأ عليه، وحماها: أى حمى هذه الديار. وكلها عمية محمّنة. ويراد بالأسود: الرجال الشجعان الأشداء البواسل الذين يحمون الديار، ويؤمنون الحسان المختزلين، وهم أهلون الذين يشارون عليهم، ويبالغون فى حبهم =

فَوَارِسٌ لَا يَعْصُونَ أَمْرَ حَبِيبَةٍ وَلَا يَرْهَبُونَ الْخَطْبَ وَهُوَ عَظِيمٌ^(٥)
يَعْصُونَ فِي حُجْبِ الْأَكْلَةِ ظَبِيَّةٌ لَهَا نَسَبٌ بَيْنَ الْحَسَنِ صَمِيمٍ^(٦)

= وصيائين . ولتسم : صوت الأسد . والخطاب في الشعر الأول لنفسه . أو الشخص الذي جرده من نفسه ، أو الرقيق الذي تخيل أنه معه يصحبه ويلزمه .

جعل محاولة غشيان تلك الديار غاطرة بالنفس ، وتعرضاً للهلكة ؛ إذ يحرسها ، ويبالغ في حمايتها ، ويغار على من فيها من الحسان رجال من أهلها أولو قوة ، وأولو بأس شديد ؛ ولهذا حذر وأذهر ، وهدد وغوف . وهو من أساليب الفزل العربي القديم الذي يبالغ في تصوير مناعة المنزل بها ، وتمسك لغائها ، ورتب على هذا تأجيج الوجة والصباة في قلب السب المستهام .

(٤) « فوارس » : خبر مبتدئ محذوف . ولتقدير : « هم » : أي (الأسود في البيت السابق) فوارس : جمع فارس : وهو الماهر في ركوب الخيل . ومن تمسك بالحرب على ظهورها . والحمية : الألفة ، والمحافظة على الحرم ، وشدة الليرة على المرض ، والمغالاة في صيانتها ، والدفاع عنه . ولا يرهبون : لا يخافون . والخطب : الأمر الشديد الخطير ، يكثر فيه التخاطب ، وجمعه خطوب .

وصف حراس الديار بالفروسية . وقال : إنهم ذوو ألفة وحمية ، وإياه ونحوه ، وبغرة شديدة على المرض ، ومغالاة في حجب فتياتهم ، وحماية نسائهم ، لا يبالغون في هذا السبيل بالشذائد والأخطار والخطوب الجسيمة . يريد التزديد في التحذير والتخوف ، والمغالاة في تصوير مناعة المنزل بها ، وصعوبة الوصول إليها .

(٥) صان الشيء (من باب قال) : حفظه في مكان أمين . وصياغة المرض : وقايته عما يعينه . ووار الجساعة في « يعصون » : ضمير « فوارس » في البيت السابق . والحجب : جمع حجاب (بوزن كتاب وكتب) : وهو السر الذي يحجب الشيء ويستره ، ويخفيه . والأكلة : الحجب والستور . الواحد لإكليل : وهو شبه الغشاء يحيط بالشيء . حذفت همزته ، وقصفت الكاف بمدها ، ثم جمع على أكلة (بوزن دليل وأدلة) وإن صح جمع لإكليل على أكلة استغنيا عن هذا التصريح . وإضافة الحجب إلى الأكلة : من إضافة الشيء إلى مرادفه . والظبية : الفزالة . ويراد بها الفتاة المنزل بها . والنسب : القرابة . ونسب فلان في بني فلان : أي هونهم . والحسان : جمع الحسناء . وصميم : خالص محض .

يقول : إن المنزل بها عنمة محببة ، يصونها فرسان من أهلها بسلاء أشداء ، صناديد مغاير . وفيها رشاقة الظباء وخفتها ، ولطف حركاتها ، ولين ماطقتها ، وحسن تفتتها ، وجمال عيونها وأجسادها . وحسبها بين حسان النساء صميم محض ، أصيل ثابت ، نقي خالص ، بارع فائق .

مِنَ الْهَيْفِ ، أَمَا نَعَتْ مَا فِي إِزَارِهَا قَرَابِ ، وَأَمَا خَضَرُهَا فَهَيْفٌ^(٦)
 أَنَاةٌ بَرَاهَا اللَّهُ فِي الْحُسْنِ آيَةٌ يَكِينُ إِلَيْهَا جَاهِلٌ وَحَلِيمٌ^(٧)
 يَمِيلُ بِهَا سُكْرُ الشَّبَابِ إِذَا مَشَتْ كَمَا مَالَ بِالْقَصْنِ الرَّوِيُّ نَسِيمٌ^(٨)

(٦) الهيف : جمع هيفاء : صفة من الهيف (بورن للفرح) : وهو دقة الخاصرة ، وضوء البطن ، ولطافة الكشحين . والهيف من عحاس المرأة . وضده البداة ، والترهل . ونمت : صفة . والإزار ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن . وما في إزارها : كناية من أعضائها وروادفها . وراب : نام مثل « بادن » اسم فاعل من ربا الشيء (من يلبى عدا ، وبما) : أى نما وزاد . ونصرها : وسجلها . وهضم : خيم . ضامر : نحيل .

وصفها بالهيف ، واعتلاه الروادف ، ودقة الخصر وضوءه ، ونحافتها خلقة ، لا حزلا . وهذه كلها من عحاس النساء ومفاتيهن . وهو قريب من قول كعب بن زهير بن أبي سلمى في قصيدته اللاحقة المشهورة « بآلت سعاد » : « هيفاء مقبلة ، عجزاء مدبرة » .

(٧) الألفاء من النساء : المترقة المنصة ، فيها فتور ووزانة . وبراهما الله : خلقها . (وبابه قطع : وأصله الحزم) وآفة البائئ . والآية : العلامة والأماراة . والمعجزة . ويدين لها : يعطيها ، ويقادح لها ، ويضعف ويضامن . ويراد مع هذا : أنه يفتن بها ، ويصحب بحسبها . ويلاحظ أن الشاعر عداه « إلى » فقال « ويدين إليها » حل التوضيح في استخدام حروف الجر . وقد تأنى « إلى » : بمعنى « اللام » في فصيح الكلام . وجاهل : اسم فاعل من الجهل : بمعنى الجفوة ، والسفاهة ، والخلقة ، والنزق ، والطيش ، والحق . وضده الحليم : صفة من الحلم . ويراد بالجاهل والحليم : الناس جميعاً على اختلاف مشاربهم وطباعهم وزعماتهم ، فكلهم مفتونون بحسبها الباهر ، وبجمالها الساحر .

يقول : إن المنزل بها فتاة مترقة رافهة متصمة . فيها رزانة الحلم ، ورجاحة العقل ، وفتور الرفاعة والترف ، ودلال الفتوى . وقد خلقها الله تبارك وتعالى آية في أرضه الحسن الباهر ، والجاهل الساحر الذي يفتن الناس قاطبة ، ويجهز الرززين والطائش ، ويدين الحليم والجاهل .

(٨) يميل بها : يحيلها : أى يحيلها فتاًيل في مشيتها وزعمه ، وتنتبه . أو هو من قولهم : مال به الهوى : أى غلبه ، واشتد فيه أثره . وأعطاه سكر الشباب : أى قوته ، وفتوته ، وزهوه ، وغيلاته . وفطن : روى : ناضر ، غض ، ناعم ، ريان ، غصير . والنسيم : الريح الطيبة اللطيفة الآتية . ومال النسيم بالقصن : أماله ، وحركه حركات خفيفة لطيفة .

يقول : إذا مشت غلبها زهو الشباب وقوته ونضارته : فتأملت وتبخترت . مزهوة ممجية بنفسها كما يحزن القصن الروى النضير بحركات النسيم العليل ؛ فسكر الشباب في هذا التصوير التليخ يشبه النسيم العليل . وبخبرة المتأمل بها تشبه احتزاز القصن النضير .

لَعَمْرُكَ مَا أَذْرَى ، أَدْمَيْسَةُ يَبْلُغُهُ : ﴿ قَوَّدَتْ فِيهَا الْجُنُنُ ، أَمْ هِيَ رِيمٌ ؟ ﴾^(٩)
يَكُونُونِي أَنْ هَمْتُ وَجَدًا بِحُسْنِيهَا وَأَيُّ أَمْرٍ بِالْحُسْنِ لَيْسَ بِهِمْ ؟^(١٠)
وَهَلْ يَغْلِبُ الْمَرْءُ الْهَوَى وَهُوَ غَالِبٌ وَيُخْفِي شَكَاةَ الْقَلْبِ وَهُوَ كَلِيمٌ ؟^(١١)

(٩) « لمرك » : « اللام » : للابتداء . « و عمر » : حياة . « والكاف » : ضمير المخاطب .
والأسلوب يفيد القم : أي لمرك قسي : أي أسلف بحياتك . والاستفهام في البيت : من تجاهل العارف ؟
والشاعر يعرف حقيقة ما يستفهم عنه ، ولكنه يسأل متجاهلاً للإجابة والتثنية وتظيم شأن المتفزل
بها ، وتشبيها بالنسبة والرثم . والدمية : الصورة المزينة المثلثة . واحتفال من العاج وغيره . والبيعة
(بكسر الباء) معبد النصارى . وبثلهما الكنيسة . وتشبه البيع والكنائس بمقدسات النصارى من الذي
والمنازل والصور الجميلة الرائقة . وتردد الحسن : تكرر ، ورجع مرة بعد أخرى . والمراد أن حسنها
متجدد حتى « قري » ، رائع رائع جذاب . والرثم : الظبي : أي الفزال الخالص البياض . سهلت هزته فصارت
له . وقد جاءت في الأصل المخطوط « ديم » بالذال ، وهو من تحريف النسخ .

بأسلوب تجاهل العارف قال الشاعر : إنه لا يعرف حقيقة هذه الفتاة : أي من الآرام والنزوان ،
أم من تماثيل البيح ودي الكنائس ؟ وأكد كلامه بالقسم الذي صدر به البيت . والفرس : التثني
بحسبها الباهر السامر ، الرائق اللائق ، الحلي المتجدد ، الفائق الجذاب .

(١٠) هام بالقي (من باب باع) : أحبه ، وتعلق به . وجداً : حباً . وهو مفعول مطلق
« هام » مرادف لمصدره ، كأنه قال : يلمونني أن همت بحسبها هيفاً . والاستفهام في أول الشطر الثاني
معناه النفي : أي لا يوجد امرؤ لا يحب بالحسن ، بل كل إنسان يحب به وهواه .

لأنه عدالة من أجل هيامه بهذه الحسنة ، فخطأه ، أو اعتل إليه ، واحتج لنفسه بأن الحسن
يجب ويمتق ، وتعلق الإنسان به من الأمور الطبيعية التي لا يستطيع انفكاكها منها ، ولا ينبغي أن يلام
عليها . والشطر الثاني استفهام منق ، وتثنية جار مجرى المثل ، وثيق الاتصال بالشطر الأول ، فيه قامت
حجة الشاعر الماشق ، وانفتح صدره ، كما انفتح خطاً لأمميه . والبيت الآتي يوضح هذا المعنى ويؤكد .

(١١) غلبه (من باب ضرب) : قهره ، واعتق عليه . وغالب : اسم فاعل منه . والاستفهام
في أول البيت : معناه النفي ، فالإنسان لا يستطيع أن يغلب الهوى ، وليس في مقدوره أن يخفي شكاة
قلبه الكليم . والهوى : الحب . والمشق : والرشد ، والفرام . والشكوى : والشكاة أيضاً :
المرض ، والتوجع من ألم ونحو . وكليم : جريح : فمحل بمعنى مفعول من « كلمه (من باب ضرب) :
أي جرحه . والملتان الاسميان في نهاية الشطرين الأول والثاني : حاليان .

وهذا البيت معزز بقيت التي قبله ، فالحسن فائق جذاب ، والفرام بطبيعته قهار غلاب ، ولا قدرة
للإنسان على صدّه أو منالته . ومن شأنه أن يخفف قلب الماشق ويفضيه ، ويؤجج لوعته وصبايته ،
ويضطره إلى الجهر بالشكوى ، والتوجع . وكثير من هذا يرجع إلى صدور الحبيب وإرضائه ، كما
يتضح من بعض الأبيات الآتية .

فَإِنْ أَلَّكَ مَحْسُورًا بِهَا ، قَلْبُهَا مَلَكْتُ حِنَانَ الْقَلْبِ وَهُوَ كَظِيمٌ ١١٢
وَكَاذَبْتُ فِيهَا مَا لَوْ انْقَضَ بَعْضُهُ عَلَى جَبَلٍ لَأَنْهَالَ مِنْهُ قَوِيمٌ ١١٣
فَيَا رَبِّةَ الْبَيْتِ الْمُنِيرِ جَوَارُهُ أَمَا مِنْ مُسَامٍ عِنْدَكُمْ فَأَسِيمٌ ١١٤

(١٢) محسوراً بها : « الباء » السببية . والمراد أشتاق حبها ، وأشتاق صديدها . والمحسور (في الأصل) : من حسره السير : أي جهده وأعباه . ويعبر محسور : أي ذهب قوته ، فلا الهبات له . وحسر النظر بصري : فهو محسور : أي كل وانقطع من طول النظر . و « ربما » : « رب » حرف جر لا يليه إلا نكرة ، فإذا لحقته « ما » كفت عن العمل ، وعيانه للدخول على الأفعال والمعاني . وهو هنا يفيد التكثير ، فالشاعر يشكو كثرة ما يكظمه في نفسه ، ويطوى عليه قلبه من الحسوم والأوصاب . والعنان : سير الجمال التي تمسك به الدابة وتقاد . وعلقت حنان قلبي : كناية عن ضبط النفس ، وكظم الفيط ، و« إضافة التعديل والتخييل » والصغير إلى الكبير ، والآلام . وكظم : الخبط ، محقق ، مهمم ، مغمم : فعل بمعنى مفعول من كظمه الفيط أو المهمم ، أو التهم ، أو نحو : أي أغض بنفسه . أو بمعنى فاعل من كظم فيطه (من باب شرب) : أي حبسه في نفسه . والحيلة الاسمية في آخر البيت : جملة سالية . والواو قبلها : واو الحال .

يشكو ما يشبه ويشفيه من الحب وإعراض الحبيب . وهو لا يفتأ يكظم هذا ، ويطوى قلبه على الأوصاب اتقاء البذل والشاقة . هذا ، وربما كانت كلمة « محسوراً » محرفة عن « محسوداً » ، فالناس قد يصدون الماشق الوطان . وقد يقوم هذا الماذلين على الفيرة والحسد . والمعنى على هذا : إذا كان الناس يرون عشق نعمة ، ويمتنعون زوالها هي إليهم ، فإنهم وأهمون ، وإن أكلت ما يتقلون من الحسوم والمتعصب ، وأطوى قلبى على كثير من الأوصاب والآلام . وفي البيت الآخر إشارة جملة إلى هذا الذي يتقله ويكظمه ، ويطوى عليه قواذه .

(١٣) كابد الأمر : عالاه وضائاه ، وقاسى شدته . وفيها : أي بسبب المتفعل بها ، فقد جمعت عليه لوعة الحب ، وقسوة الصدود . وانقض : سقط . وبعضه : أي بعض ما أكابده وأقاسيه . وأنهار : أثار وتساقت ، وأندهم . ومنه : أي من الجبل . وقوم : معتدل ، منتصب ، قائم ، ثابت ، مستقر ، راسخ .

يقول : إنه من أجل عشقه هذه الحسنة ، وفي سبيل هذا العشق يكابد أوصاباً وآلاماً ، ويداني متاعب وأوجاعاً جداً . بعضها رواسى الجبال . وفي الأبيات الآتية بيان وتفصيل لهذا الإجمال .

(١٤) ربة البيت : صاحبة ، ومالكته وسيدته . والمخير : الحمى الحصين . والجوار (بكسر الجيم) : الجورة : مصدر جاوره . والاسم منه الجوار (يضم الجيم) . وأن تعلى غيرك ذمة تجمير بها . وتقول : أنا في جوار فلان : أي في عهدته وحمايته ، وأمانته وذمته . والجوار أيضاً : الجيران : جمع جار . وجوار الدار (فتح الجيم) : طوارها : وهو ما كان على حدها ، ويؤاثرها . ويراد بمناعة

بَخِلَتْ عَلَيْنَا بِالسَّلَامِ ضَمَانَةً وَجَدُّكَ مَطْرُوقُ الْفَرَسَاءِ كَرِيمٌ^(١٥)
فَكَيْفَتَ تَلَوْمِيْنِي عَلَى مَا أَصَابَنِي مِنَ الْحُبِّ يَا لَيْلَى وَأَنْتِ غَرِيْمٌ^(١٦)

= جواريتيها : أنها وقوها بمحتون الجار ، ويجوزون المستجير . أو المراد تصوير تحبها ومنعتها ، وتسر وصالحا . و « أما » : الحزمة : للاستفهام . و « ما » : نافية . أو اسم بمعنى « شيء » ومعناها هنا : التي . أو العرض : وهو طلب الشيء برفق ولين . وسامت الماشية (من باب قال) : رعت . وأسأماها الراعي يسميها إسامة : أخرجهما إلى المرعى . وبسم (بضم الميم) : اسم مكان . أو مصدر مبني بمعنى الإسامة . وأسأم إليه يبرسه : رماه به . ومن المجاز سميتها الوصال : أي عرضته عليها ، وأردته منها . . ويلاحظ أن المضارع في آخر هذا البيت مرفوع على أن الفاء للاستئناف ، والكلام بعدها مستأنف : أي فأنا أسم . ولو كانت فاء السببية لوجب نصب المضارع بعدها بأن المضمرة ؛ وبالنصب تختلف المجري ، أي حركة الروي المطلق . وهذا عيب من عيوب القافية ، اسمح الإصراف .

في الشطر الأول : ناداهما نداء - استعطف ، فهي سيدة بيت جواره منيع حصين ، والمستجيرة فيأمان وأطمئنان . أوهي صاحبة بيت يحبها ويمنها ، فلا يجد عاشقها سهيلا إليها . وفي الشطر الثاني سامها الفداء والوصال . وتعي أن يخفف لوعته برؤيتها وترديد النظر إليها ، وأن يجد في رساها موقلا وملاذأ . (١٥) ضمانة : بخلا شديداً ، وهو مفعل مطلق « مؤكدة » بخل مرادف لمصدره . والوار في أول الشطر الثاني : وأو الحال . والجملة الاسمية بعدها حالية . وأجلد : أبو الأب وأبو الأم . وطرق الباب : قرعه . وطرق القوم : جأهم ليلا . وطرق الطريق : سلكه ، وصارفيه : والفناء : الساحة : أي الفضاء في الدار . أو مجازها أو بين الدور . ومطروق الفناء : كناية عن جوده وكرمه وسخائه ، وكثرة متفقيه ، أي طالبي معرفته وبره .

بخلت عليه بالتحية والسلام ، أي لم تبدأ بهما ، أو لم تردهما عليه ، فكره هذا منها ، فذكرها به ، وعاتبها - في الشطر الأول - عتاباً لينا لطيفاً ؛ لملها تحسن مراجعته ، وتقلع عن هذا الصدد المضي ، والمهجران الأليم . وفي الشطر الثاني تأكيد لهذا العتاب ، ومحاولة استعطف وتقريب ، وإغراء وترغيب ؛ لملها نتيج نصح آياتها الكرام الأخيار الأجواد ، وتجري على سنتهم في البر والجد والسباحة .

(١٦) الاستفهام في أول البيت : معناه التحجب . و « تلويحي » : أصلها « تلوييني » ، وحذفت إحدى التوئين لتخفيف . و « من » : تمليلية : أي سببية ؛ فإن الحب سبب ما أصابه من الأوصاب . أو بيانية إذا قلنا بعدها وقيل الحب مضافاً مثل « لواصيح » ، فالواصيح الحب وحرقه : بيان لما أصابه . و « ليل » : اسم مشروقة . والوار بعدها : وأو الحال . والجملة الاسمية بعدها حالية . و « غريم » : مديون أو خصم : (فيميل) يستوى فيه المذكر والمؤنث . يريد أنه دائن لها بإقباله عليها ، وتعلقه بها . وهي مديونة له : تدرسه عنه ، ولا تباليه ، ويتخاصمه وتماصره ، وتمتنيته وتشقيه بالمطال وتسويق الوصال .

يعجب من ليلاه ، ويمسبب منها غيره ؛ فهي تلومه على ما أصابه من حرق الريد والفرام ، ولواصيح الحب والهيام ، وأوصاب الصدود والمهجران مع علمها أنها سبب هذه الإصابات بإعراضها عنه ، وتجاهلها لغرامه ، وإمعانها في إعناكه .

وَقَدْ عِشْتُ دَعْرًا لَا أَدِينُ لِظَالِمٍ . وَلَمْ يَحْتَكِمْ بَوْمًا عَلَى زَيْمٍ^(١٧)
 فَانْتِ (التي) مَرَهَتْ عَيْنِي بِالْبَكَا وَأَسْقَمَتْ هَذَا الْقَلْبَ وَهُوَ سَلِيمٌ^(١٨)
 تَنَامِينٌ عَنْ لَيْلِي ، وَعَيْنِي قَرِيحَةٌ وَتُسْجِنُ قَلْبِي ، وَهُوَ فَيْكٍ مُلِيمٌ^(١٩)

(١٧) الدهر : الزمان الطويل ، والأمد المديد . ويريد به مدة حياته قبل أن يأسره الموت ، ويصره الغرام . ولا أدين : لا أخضع ، ولا أنقاد ، ولا أستكين . واحتكم عليه : جاز فيه حكمه . أو سيطر عليه بحكمه وسلطانه . وزيم : حاكم ، أو رئيس .

يقول : إنه عاش حياته كلها حراً عزيزاً ، يأبى الضيم ، ويرفض الهوان ؛ فلم يخضع لظالم ، ولم يسيطر عليه حاكم ؛ فلما اجتلب هذا الحب فقد في مجاله عزه وحريته ، وقوته وسيادته ؛ إذ تيمته هذه المحبوبة وخلته ، فأصبح أسير الموتى ، صريع الغرام . وفي البيت إشارة إلى أنها تظلمه بصودها عنه وتمنيه . وصلت باللي قبله أنها تحاصمه وتمتته ، وتضاعف - بإعراضها عنه ، زفلة أكثرها له - لوعته وبالواه . وفي البيتين الآتين بيان وتفصيل لبعض هذا العنت والوصب .

(١٨) في الأصل المخطوط الذي بين أيدينا خطأ ونقص غير قليل . والكلمة التي بين قوسين « التي » تكملة من عندنا أضفناها إلى هذا البيت ، فاستقام بها وزنه . والمرة (بوزن التسب) : مرض يصيب العين ، فيقرحها ويفسدها . ومرة البكاء عنه تمريجاً : قرحها وأفسدها .

أشار في هذا البيت إلى بعض ما أصابه من ظلم هذه الحبيبة وإحسانها ؛ فأنها بصودها عنه تضنيه ، وتؤرقه وتبكيه ، وقد اشتد بكاءه ، وطال أرقه حتى تقرحت عيناه . وهي بالإعراض والتعطية تحصله ما لا يكاد يطيقه من ألم والضنى ، والأسى والحسرات ؛ ولا ريب أن هذا يمرض الصريح السليم من الأفكار والقلوب . ويحلم القوى الشديد من النفوس والأجسام .

(١٩) ناست مشرقته عن ليله : غفلت عما يقاسيه في ليله من الحرق والحرقة ، والأرق والبكاء ، ولم تبال شيئاً من هذا ، ولم تكثر له . والوَار في شطري هذا البيت : وأو الحال . والجللتان بعدها حاليتان . وصيته قريحة : مجروحة ، قرحها الأرق وطول البكاء . والشجو : ألم والحزن . وشجاء (من باب عدا) : غمه ، وحزنه . أو هيج حزنه ، وأجج لوعته ، وأثار شجته وشرقه . وأشجاء يشجيه لإشجاء مثله . وفيك : أي يسبك ، ومن أجلك . ولم اسم فاعل من ألام لإلام : أي فعل ما يستوجب لومه وعذله .

يشكو قلة أكثراتها له ، وغفلتها عما يقاسيه ويضاييه طوال أيامه لياليه من ألم والشجن ، والضنى والوصب ، حتى تقرحت عيناه باتطال الأرق ، وكثرة البكاء . أما قلبه فقد استحق أن يلام ويعدل ؛ إذ اشتد تملقه بها ، وأفرط في حبها ، وهي مع هذا لا تفقأ تحزنه وتضجيه ، وتمتته وتضنيه ، وتبثادى في العطية والإعراض .

مَنْحَتُكَ نَفْسِي ، وَهِيَ نَفْسٌ حَزِيذَةٌ عَلَى ، وَمَا لِي مِنْ هَوَاكِ قَسِيمٌ^(٢٠)
 فَإِنَّ بَكَ جِسْمِي عَنْ فَنَائِكَ رَاحِلٌ فَإِنَّ هَوَى قَلْبِي عَلَيْكَ مُقِيمٌ^(٢١)
 شَكُوتُ لِي مَنْ لَيْسَ يَرْحَمُ بَاكِيًا وَمَا كُلُّ مَنْ يُشْكِي لِأَتِيدَ رَحِيمٌ^(٢٢)
 فَحَتَامَ أَلْقَى فِي الْهَوَى مَا يَسُوءُ فِي وَأَحِيلُ عِبَاءَ الصَّبْرِ وَهُوَ عَظِيمٌ^(٢٣)

(٢٠) قسم : حصة ، وحظ ، ونصيب .

يقول : إنه وهب لها نفسه ، وهي أعرّضه عليه ، وأكرم شيء لديه ؛ فاستأثرت لها ، وتولّمت بها ؛ ولكنّها - حل الرّغم من هذه الحبّة النفسية الكريمة - لم تكثّر له ، ولم تقال به ، ولم تمنحه شيئاً من حبا وإقبالها .

(٢١) يقول : إنه مفادير ديارها ، راحل عن منازل قلوبها بشخصه وجبانه ، أما قلبه فسيبقى حل القوام مقبلاً لديها ، حريصاً عليها ، مستهافاً بها صبيحاً .

(٢٢) « باكيًا » : حال من تاء الفاعل ، وهي ضمير المتكلم في « شكوت » . أو مفعول به « رحيم » .

شكا إليها ما يؤلّه ويبيكه ، ويؤرقه ويفضيه من لواحي الهوى ، ولوجعات الفراق ، ومراراة الصديد والإحراض ، فلم تحاول إشكائه ، أو تخفيف همه وبلواه ، ولم يجد لديها شيئاً من الرحمة أو العطف ، أو الحنان ، أو الإحسان . والشرط الثاني تذييل جار مجرى المثل ، مؤكّد لمعنى الشرط الأول ؛ فقد يشكو الملهوف الممنّى إلى من لا يرحم ، فيتعمى ويتصام ، فتذهب شكواه أدرج الرياح ، ولا يبقى غير الإغفاق وغيبية الرجاء وزيادة الأوصاب والحسرات . ويبدو أن قسوتها عليه ، وإغراقها في الجفوة والقطيعة هو الذى حمله على الرحيل عنها بحسره ، وإن بقى قلبه متعلقاً بها ، مقبلاً على ودّها . ولعله - بإعلان هذا الترحال - يقصد استئثارها إليه ، واستيطانها عليه .

(٢٣) « حَتَامَ » : « حتى » : حرف يفيد انتهاء الغاية ؛ فهو بمنزلة « إلى » في المعنى والعمل . و « ما » : اسمية استهفامية ، حذفتم ألقها تخفيفاً ، والاستهفام هنا : معناه الاستهزاء ؛ فالشاعر الناشق يعلن تجربته بما يسوءه في سبيل هواه وفرامه ، ويجهز بالشكوى من أعباء جسام تنوء به وتثقله ، ويدّ - ما يعاسره ويضايقه من المهوم والمواقف بطيشاً ، ثقيل الوطأة ، لا يكاد يفارقه ، أو ينفذ عنه . وفي الهوى : أى بسبب الهوى . أو في سبيل الهوى . وصاهه يسوءه (من باب قال) : حزنه ، وقصه ، وآذاه ، وفعل به ما يكرهه . والعبء : الحمل ، والثقل (بكسر فسكون في كل منها) . والجمع أعباء ، وأحمال ، وأثقال .

أشار الشاعر في كثير من أبيات هذه القصيدة إلى ما يكابده ويمانيه في سبيل حبه وفرامه من أوصاب وأوجاع . وهو في هذا البيت يجهز بضجره وتعبه ، ويستعطف ما يسوءه ويثقله ، ويشكوماً يحمله ويهبطه من أعباء التجلّد والمصابرة ، وهي أحمال ثقّال ، تنوء بها رواشى الجبال .

وَأَنَا لَحَرُّ بَيْنَ قَوْمِي ، وَأَنَا تَعَبَدَنِي حُلُو الدَّلَالِ رَجِيمٌ^(٢٥)
وَأَنَا وَإِنْ كُنْتُ الْمُسَالِمَ فِي الْهَوَى لَنُو تُذَرَّلَ فِي النَّائِبَاتِ خَصِيمٌ^(٢٦)
أَفْلُ شَبَاةِ الْخَصْمِ وَهُوَ مُنَازِلٌ وَأَرْهَبُ كَرِّ الطَّرْفِ وَهُوَ سَقِيمٌ^(٢٧)

(٢٥) تعبدني : استعبدني ، واصل حريق . ودلال المرأة : حسن حديثها ، ولطف مزاجها ، ورغبة كلامها وظلها على القلوب : اسم من دلت المرأة على زوجها (من باب ضرب وتعبد) : أي أظهرت جرأة عليه في تليف ، كأنها تتألفه ، وليس بها خلاف . والدلال من محاسن النساء ومفاتنهن . وحلاوته تأكيد لمنته . ورقيم : صفة من رخم الصوت والكلام (كظرف ونصر) : أي رقة ، وسهل ، ولان . وجارية رخيمة ورقيم : منطلقها سهل لين ، وكلامها حلو رقيق .

ويلاحظ أن الشاعر تنزل بضمير المؤنث من أول هذه القصيدة إلى البيت الحادي والعشرين . ثم عدل إلى ضمير المذكر في هذا البيت ، والبيت الثاني والعشرين .

افتخر بحريته وحرته بين قومه وعشيرته ، ووصف المنفلول بها برخصة الكلام ، وحلاوة الدلال . وقال : إنها جعلت هذه المحاسن والمفاتن تيمته ودخلته ؛ فكان أسير الهوى ، صريح الغرام . وفي البيت إشارة إلى أنه لم يطمأن قط لغيرها .

(٢٥) أتندرا : الحفاظ ، والمنعة ، والنخوة ، والقوة ، والألفة ، والحمية . وفلان ذو ندر : قوي ، مدافع ، عزيز ، أبي ، شديد البأس ، صعب المراس ، لا يسهف ، ولا يلين . والنائبات ، والنواب : النوازل ، والمصائب ، والكوارث ، والحوادث التي كنوب الإنسان : أي تنزل به ، وتصيبه . الواحدة نائبة . وخصم : فيل من خاصمه خصاصة وخصاماً : أي شارباً ، ونازعه ، وجادله ، وغالبه في الخصومة ، فهو خصم (يفتح فسكون) ، وخصام ، وخصيم . والمخاصمة : هذه المسألة .

يفخر بأنه قوي عزيز ، شديد البأس ، متمرس بالخصومة والكفاح في الحروب والملمات . ولكنه على الرغم من هذا متفاد لمن هوأه ، مسالم متطامن في مجال الحب والغرام . والبيت الآخر يفصل هذا المعنى ويعززه ويؤكدده .

(٢٦) فله (من باب رد) : كسره ، وسطحه . وشبابة السنن ونحوه : حده القاطع الجانح . وخصمه ، وخصيمه : مخاصمه ومنازعه وغالبه في الخصومة . والمراد قرنه ، وعدوه ، ومنازله في الحرب والقتال . وشبابة الخصم : قوته ، وصرامته ، وقلمه الشديد . والوارو في شطرى البيت : وار الحال . والجملتان الإيميتان يهداهما حاليتان . ومنازل : محارب مقاتل : اسم فاعل من نازله في الحرب والقتال منازلة ونزالاً : أي قابله وجهاً لوجه ، وكلمته مقاتلاً محارباً . وأرهب : أخاف ، وأهيب . (ويابه طرب) . والطرف : العين . وكره : حركة جفته . أو نظراته السائرة . وهو في الأصل مصدر كره الفارس على قرنه في الحرب (من بابي رد) ودخل : إذا حمل عليه ، وهجم . ويقال : أنهزم =

أَلَا ، قَاتَلَ اللَّهُ الْهَوَى ، مَا أَلَنَّهُ ! عَلَى أَنَّهُ مُرُّ الْمَذَاقِ أَلِيمٌ (٢٧)
طَوَيْتُ لَهُ نَفْسِي عَلَى مَا يَسُوهُهَا وَأَصْبَحْتُ لَا يَلْوِي عَلَى حَيِّمٍ (٢٨)

== عنه ، ثم كر عليه . وكر بعد ما فر . وطرف سقيم : فآثر ، غير حديد . وفيه ضعف مستحسن . وفتور
الطرف من محاسن النساء .

في هذا البيت والبيتين قبله جمع الشاعر بين الفخر والفرل ، فهو مقاتل شجاع ، شديد البأس ،
قوة المراس ، يغل في الحرب شاة خصمه ، ويكرم شوكرته . وفي السلم يجيب النظرات الفائرة الساحرة
التي تصرع الماشق الوطان :

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضف خلق الله إنسانا .
وما يتصل بهذا المعنى ، أو يقرب منه قول الشاعر :

نحن قوم تلينا الأعين النجس لى ، حل أننا نذيب الحديد
وترانا لدى الكريمة أحمرأ رأ ، وفي السلم الحصان حيدا

(٢٧) « ألا » : حرف استفتاح وتنبه . وقاتل الله الهوى : أسلوب تمجيب . وما أَلَنَّهُ : أسلوب
آخر من أساليب التمجيد ، فهو بالجملة الأولى يتمجبه من الهوى . وبالجملة الثانية يتمجبه من لذاذته
مع مرارته وإيلاجه ، فما يثير السجب أنه مر حلو ، مؤلم لذيد . وأليم : مؤلم ، موجب .

تمجبه الشاعر من الهوى والفرام ، فهو يستهوى الماشق استهواء لا نظير له . ثم تمجبه ، وصعب
غيره من أنه يصعب القلة والألم ، والحلاوة والمرارة . ولذة الهوى وحلاوته في استمتاع المحب - في الحب
العذرى - بما امتازت به محبوبته من اللغات والمحاسن ، وجمال الجسم والطبع ، والخلق والنفس والروح .
ومرارته وإيلاجه فيما يليجسه ، وينشأ عنه من اللوعة والحرقه ، والوجد والفضى ، والملم والأرق ، والشوق
والصباية ، والصد والإعراض ، والتعجب واليكاء ، والقدرة والمهام ، والمذل والملام . والبيت الآق
يشير إلى شيء من هذه المتعصب والآلام .

(٢٨) في الأصل المخطوط : « طويت له نفس » . وطوى نفسه ، أو فزاده على الأمر (من
باب روى) : كتمه ، وأخفاه . وله : الهوى : أى يسببه ، ومن أجله ، ويسوها : يحزنها ، ويذلها ،
ويضئها (وبابه قال) . وأصبح : صار . ولوى عليه (من باب روى) : عطف ، وبين كلامهم :
« مر لا يلوى على أحد » : أى لا يقف ، ولا يقيم عليه ، ولا ينتظره ، ولا يأبه له . والحميم :
القريب ، والصديق الذى تودده ويودك .

يشكو ما رماه به الهوى والفرام من الانطفواء على الأوصاب والآلام ، والافتراق بالمعوم والأحزان ،
وجفوة الأقرباء والأهل ، وهذا تصور وتمثيل لبعض ما أشار إليه في البيت السابق من مرارة الحب
وإيلاجه .

فَمَنْ لِي بِقَلْبٍ غَيْرِ هَذَا؟ فَلَمَّ نِي بِهِ عِنْدَ رَوْحَاتِ الْفِرَاقِ عَلَيْهِ (٢٩)
كَأَنِّي أَذَارِي مِنْهُ بَيْنَ جَسَوَانِي لَقَى، حَرُّهَا يَكْوِي الْحَشَا، وَيُضِيمُ (٣٠)
بَكْوَتْ (لَهُ) طَعْمَيْنِ: أَمَّا مَذَاقُهُ قَلْبٌ، وَأَمَّا سُورُهُ فَوَجِيمُ (٣١)

(٢٩) «من»: اسم استفهام، يطلب به تعيين المقلاء، ويراد به هنا: انتي: أي أنتي
أن أجد من يبدلي بقلبي هذا قلباً يتجلى لروحات الفراق: جمع روعة: اسم روعة من راع (من باب
قال): أي فرح وصال. و«به»: متعلق بـ«عليه» أي لذي علم بقلبي، صيرر بضمه، وقلة
احتثاله لروحات الفراق.

في البيت السابقي أشار إلى شيء من مرارة الحب وآلامه. وفي هذا البيت إشارة إلى لون آخر من
ألوان الألم والمرارة، وهو فراق الحبيب وبعده. ويحيز قلبه عن احتال روعات هذا الفراق ولو صاته.
ولهذا تمى أن يستبدل به قلباً متجلداً قوياً، يصبر على المكان، ولا يبالى بالمخاوف. وفي البيت الماضي
والعشرين قال: إنه يرسل عن الشهيرة بمسأله، أما حبه وفرامه فهاك لها، مقصور عليها، مقيم
لا يريم، فقلعه يشير هنا إلى هذا الرحيل الذي سلم قلبه، فتمى تديله.

(٣٠): في الأصل المخطوط: «كأنى أدري». و«أدري»: و«أدري» (بالهمزة والتثنية): دافعه،
وقاومه، وكفاهه، وإقناؤه. ومنه: من الفراق. أو من الهوى: أي بسببه، ومن أجله. وبالجملة:
أصلاح الصدر. وأحدتها جالحة: من جنح: أي مال، وانحنى، وأصعج. والقلبي: النار، أو أوطها
التخالص، لا دخان فيه. وحرمها: حرّ القلى: أي حرارتها. والحشا: ما انضمت عليه الفضلوع،
وحواها الصدر، وجمعه أششاء. وضاه: (من باب باع): ضاره: أي شره، و«عده»: وآله، وأذاه.
والبيت تفصيل وتمثيل لما شكاه وأجمله في البيت السابق من روعات فراق الأحباء. أو هو تصوير
عام لما يكابده الحب ويضاهيه من البؤس والصباية، ولوعة الحب، وروعة الفراق.

(٣١) بلوت: جربت، واعتبرت. (وياباه هذا). وما بين القصين: له: تكملة من هذنا
استقام بها وزن البيت ومعتاه. وقد أشرنا من قبل إلى بعض ما يجب الأصل المخطوط الذي بين أيدينا
من نقص. ونسطل، وتحريف، وتصحيح. وله: الهوى. و«أما»: حرف شرط، وتفصيل، وتوكيد.
ومذاقه: طعمه الأول: أي ما يتلوقة العاشق في ابتداء الأمر من حلوة المشق والمذاقة. وعذب: سائق،
لذيذ، حلو، هنيء، طيب، مريء (وفعله من باب سهل). وسور الشيء: بقيته. وسار الطام
والشارب (من باب منع). وأسار: أي أبى في الإنهاء بقية: وهي السور. ويراد بالسور: العلم
الثاني من طعمي الهوى والفرام: أي ما يتجرعه العاشق في نهاية الأمر من مرارة العشق وآلامه. وطعام
وشيم: ثقيل، رديء، مجروح غير مستمراً، ولا يكاد يلازم أكله، أو يصلح له. وأمر وشيم العاقبة:
أي نهايته وبيلة، سيئة، ضارة، مفعولة.

والحنى: أن الحب في أول أمره سائق طيب، حلو طيب، هنيء شيم، فإذا جد فيه الحب وأمعن =

وَجَرَّبْتُ إِخْوَانَ الصَّفَاءِ ، فَلَمْ أَجِدْ صَدِيقًا لَهُ فِي الطَّبِيبَاتِ قَسِيمٌ (٣٢)
لَهُمْ نَزَوَاتٌ بَيْنَهُنَّ تَفَلَّوْتُ وَعَنْ عَلَى طُولِ اللَّقَاءِ - قَسِيمٌ (٣٣)

= قاسى حرقه ولواصحه ، واكسوى بشبابه ولوعاته ، وأخسته أوصابه وآلامه . وفي البيت السابع والعشرين قال : إن الحب لذيق مؤلم ، حلومر .

في هذا البيت وأربعة الآيات قبله أشار الشاعر إلى بعض خصائص الحب ، وبعض آثاره في المحبين . وفي سبعة الآيات الآتية اتجه إلى ما يشبه الحكم والأمثال ، وعرض تجربته المرة فحين ظنهم أخلاء وإخوان صفاء ، وشكا كثرة الشر والفدر ، وقلة الخير والوفاء ؛ ثم فزع إلى الله تعالى يرجو رحمته ، ويعتمد في أمره عليه وحده . ثم حض على مصارعة المحن ، والتجملد للشدائد . ونغم القصيدة بأن فصح الباحثين والمجتسرين أبواب الأمل والرجاء ، وعلق الأمور كلها بإرادة الله التي تفرج الأزمان ، وتقم الحاجات ؛ ولعل صلة هذا كله بما سبقه من أحاديث المحوى والغزل : أن المشق وبلاياه وآثاره ينضج عقل الماشق ، ويكثر تجاربه ، ويربط روحه وقلبه بنتقال حي من تماثيل الحسن والبهاء ، ويمهد سبيله إلى حق التفكير وهدية التدبير ، وتقدير الجمال في كل مجال ، والانطلاق في آفاق الحكمة البالغة ، والمثل الصادق ؛ هذا إلى رفاة إحساس الماشقين ، ودقة شعورهم ، وتأنج حواسلهم ، وشدة تأثرهم بما يلاهم ، ويميط بهم من أحوال الحياة والناس .

(٣٢) إخوان الصفاء : الأعدان ، والأغلاء ، والخلصاء ، والأصفاء من الإخوان والأصدقاء الذين صفت مودتهم . وصدقت أخوتهم . ویراد بالطيبات : المحامد والمكرمات ، وما ينبغي أن يكون في الأصدقاء ، وإخوان الصفاء من البر والخير ، والصدق والوفاء ، والنصح والإخلاص ، والتعاطف والتراسم . وقسم : حصة ، وسط ، ونصيب .

يتبرم من ظنهم إخوان صفاء ، وأصدقاء أوفياء ، ويعلن سخطه عليهم ؛ لأنه لما جرهم في محنته غطأت التجربة ظنه بهم ، ونصبت رجاء لهم ، وأثبت تجردهم من الطيبات والمحامد . وفي البيت الآتي إشارة إلى بعض مقالبهم .

(٣٣) لم : لمن جرهم ، وكان يظنهم إخوان صفاء . ونزوات : حداثات ، وبواد وشرور ، وحماقات : جمع نزوة (بوزن جمرة) : اسم مرة من قوم : نأ به الشر : أي ثار وتحرك . وهو يمزو إليه : أي يتوثب ويتسرع . (وبابه عدا) . وبينهن تفلاوت : أي نزوات متفلاوة مختلفة باختلاف أمصاها وتقلواتهم في الاحتداد والتسرع ، والتتنزى إلى الشر ، والغضب الأهوج الأحق . والمن (بوزن المن) : مصدر من حة (كرد ، وضف) : أي أعرض عنه ، وصدف ، وانصرف . وعلى طول اللقاء : أي على الزحف من طول اللقاء ، واستعداد الصعبة .

رى من خبرهم من هؤلاء الإخوان بالاندفاع إلى الشر ، وسرعة الغضب في حسنة وطيش ، وكثرة البواد والمحفوات ، على تفلاوت بينهم في هذه الميوب والتناقص . وقال : إنهم أعرضوا عنه في الملمات إحراضاً مريباً شديداً ، وأحجموا عن نصرته ومواساته ، على الزحف من طول ما كان بينه وبينهم من صفة وتلاق ؛ مما يؤكد أن وقام صديق صفاء ، ودغم نفاق ورياء ، وإخامهم كاذب غير صادق .

بِمَنْ يَتَّقُ الْإِنْسَانَ وَالْعَدُوَّ شَيْمَةً لِكُلِّ ابْنِ أَنْثَى وَالْوَفَاءَ عَقِيمٌ (٣٤)
فَلَا تَعْتَمِدْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ فِي الَّذِي تَوَدُّ مِنَ الْحَاجَاتِ فَهُوَ رَجِيمٌ (٣٥)
وَلَا تَبْتَغِشْ مِنْ مَخَنَةِ سَاقِهَا الْقَضَا لِيَلَيْكَ فِكْمٌ بُوَسَّ ثَلَاثَةٌ نَجِيمٌ (٣٦)

(٣٤) الاستغنام في أول هذا البيت : معناه انثى ، فالإنسان لا يكاد يجد في الناس من يأمنه ويثق به ، ويطمئن إليه ، ويمتد في الشكائد والملمات عليه . وأنى له هذا مع قلة وفاتهم . وانطواء قلوبهم على الغدو والخيانة ؟ . والشيمة : الخلق ، والدرزة ، والطبيعة ، والجلبة التي طفر الإنسان عليها . وجميعها شيم (بكسر فتح) . والفاء عقيم : أى مغموم ، لا وجود له : صفة من العقم : وهو (في الأصل) : ألا يلد الرجل أو المرأة بسبب داء ، أو شيخوخة ، أو غيرها . والواو في شرطى البيت : واو الحال . والجلملتان الاسميان بعدها حاليتان .

اشتد سطو الأشعار على من نقضوا عهده ، وفدروا به ، وقدموا عن نصرته في محنته ؛ فنبذ في هذا البيت للمبالغة والتزديد ؛ فجرد الناس من الوفاء ، وريامهم بالفساد ، وقال : إنه مركوز في طباعهم وبيلاهم ؛ فلا سبيل إلى إربهم منه ، وتزويجهم عنه ؛ وهذا لم يجد يثق بإنسان ، أو يطمئن إليه ، أو يحول عليه . وهو في منالته وتقليده وتشاومه من الناس ، وتبرمه بكثرة الغلبة يجرى مجرى كثير من الشعراء الذين سبقوه إلى هذا المعنى ، والذين لحقوه فيه ؛ فأبو تمام يقول :

إن شئت أن يسود ظنك كله فأجله في هذا السواد الأعظم
ليس الصديق بمن سبك ظاهراً متبهاً عن باطن متجهم
وأما الشعراء أحمد شوقي يقول في رائيته الطويلة المشهورة التي نظمها في « أبي الهول » :
ولو صودروا من فوضى الطباع قولوا عليك سباع الصور
فيا رب وجه كصافي أنصير تشابه حامله وانصير

(٣٥) في البيت السابق تغليب من الناس وتشادهم ، وتبرم بهم ، وسخط على من جرهم من إخوانه وصحابه ، ونقص منهم يده ، وريامهم بالفساد ونقض العهد ، والإنفاق والخيانة . والصديق من الصديق والوفاء ، وأعلن أنه لا يثق بهم ، ولا يأمنهم ، ولا يطمئن إليهم . وهذا البيت شبه علاج لهذه الآفة النفسية ؛ فقد فرغ منهم إلى الله رب العالمين ، وبعأ إليه ، واستجاره ، ودعا إلى الاعتماد عليه وحده في كل ما يقتضاه المرء ، ورضي فيه ، ويحتاج إليه ؛ فإنه تبارك وتعالى يقبل على من قصد إليه ، وتوكل عليه ، ويستره برحمته وإحسانه وإفضاله وإنعامه « ومن يتوكل على الله ، فهو حسبه » (الآية رقم ٣ من سورة الطلاق) . والبيت الأخير وثيق الاتصال بهذا المعنى « مؤكداً له .

(٣٦) لا تبتش : لا تكتشب ، ولا تحزن . وهو نهي يراد به النصيح والإرشاد . والمحنة : ما يعمن به الإنسان من البلاء والشدائد . وجميعها معن : اسم من محنة (من باب قطع) : أى امتحنه ، واختبره وبلاء ، وجربه ، وفخته . وفي القرآن الكريم : « ويطوكم بالشرا والخير فتنة » (الآية رقم ٣٥ من سورة =

فَقَدْ تَوَرَّقُ الْأَشْجَارُ بَعْدَ قُبُولِهَا وَيَخْضَرُ سَائِقُ النَّبْتِ وَهُوَ هَشِيمٌ (٣٧)
إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ لِنَصَامٍ حَاجَةً أَتَيْتَكَ عَلَى وَشِكٍ وَأَنْتَ مُقِيمٌ (٣٨)

«الأنبياء» وفيه : «وأحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون» (الآية رقم ٢ من سورة المتكوت) ويراد بالقضاء هنا : حكم الله الذي لا يرد «والله يحكم» لا معقب لحكمه . (الآية رقم ٤١ من سورة الرعد) . و «كم» : خبرية تكثيرية . تمجدها «يؤس» : وهو المفقعة والفرور . وضده النعم . وقوله : لجه ، ومعقبه ، وعطفه ، وجاء في أثره . والابتئاس ، والحزن ، والاكتئاب من ملاهيات اليأس ولوازمه ونتائجها .

ينبى عن الابتئاس والجرح ، ويحفى على الصبر والتجمل لما يقدره الله تعالى ويقضيه من الخن والبلايا . والتدليل في نهاية البيت يضاهف هذا التضيض ويلكده ، ويحيى النفوس لقبوله ، والالتصاح به ، فالإيقاع له ، فاليلوس ، أو الهنة مقلقة لا تلج أن تزول ، ويعقبها النعم ، ورضا الهال والأيلع من هذا قبل الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم : «فلن مع العسر يسراً» (٦ و ٧ من سورة الفرح) .

وصلة هذا البيت بأربعة الآيات السابقة واضحة ، فالشاعر جرب إخواناً ظنهم أولياءه ، فغيبوا عنه ، ولم يجد لأحد منهم نصيباً في الطيبات ، بل رأى القدر في طبايعهم ، وكانت هذه التجربة المرة من الخن والبلايا التي طرأ بها إلى الله ، وعزى نفسه وبغيره بهذا البيت والبيت السابق والبيتين الآخرين . (٣٧) «قد» : حرف يفيد التحقيق والتكثير في مثل هذا المقام ، فهي بمنزلة «كم» الخبرية التكثيرية في البيت السابق . وهشيم : يابس متكسر : فعيل : بمعنى مفعول : من الهشم : وهو كسر الشيء اليابس الأجوف . (وعطفه من باب ضرب) .

في البيت السابق قال : إن اليأس يملوه النعم ، ويححو أثره . وهذا البيت تأكيد وتعزيز ، وتفصيل وتعميل لهذا التدليل ، فذهب الأشجار ، وتهشم سيق النبات صرورة من صور اليأس أو الهنة . والإيقاع والإحضرار أمانة من أمانات النعم والبهجة ، والحياة الناعمة الناعمة . (٣٨) أتيتك على وشك (بضم الواو وفتحها) : جاءتك في سرعة وعجلة . والوارى في الشطر الثاني : وأو الحال . والجملعة الاسمية بملحها حالية .

نجد الشاعر في البيتين الثاني والثلاثين والثالث والأربعين بين ظنهم أصدقاء ، وإخوان صفاء ووفاء ، فأخلفوا ظنه ، وغيبوا رجاءه . ثم أورد بعدها خمسة أبيات فيها يشبه الحكمة والمثل ، غاسها هذا البيت وهو ختام هذه القصيدة الطويلة . وممنا : أن الأمور كلها مملقة بإرادة الله عز وجل ، مرتبة بمشيئة الله ، وبالإرادة الإلهية وصلها تنفرج الأزمات ، وتتكشف الكروب ، وتتم الحاجات ، وتصارع في يسر وسهولة إلى من يرسمه الله من عباده ؛ فلا ينقل إليها قدساً ، ولا يجهد نفسه يسفر أو رجيل . وقد أشرنا من قبل إلى وثاقة اتصال هذا البيت بالبيت الخامس والثلاثين . والفرض مهما ومن أشالها : تقوية الإيمان بالله ، وتوثيق صلة الإنسان بربه الكريم للرحمن ؛ ليقوى بها على مكافحة الكروب ، والتجمل بالخطوب ، والفوز بسعادة الدين ، والدنيا ، والآخرة .

وَقَالَ :

سَبَقْتُ بِالْفَضْلِ ، قَاسِمْتُ مَا وَحَا قَلْبِي كُنْتُ أَوَّلَ هَذَا الدُّرِّ مِنْ كَلْبِي ^(١)
 يَا رَايِدَ الْوُدِّ ، قَدْ صَادَقْتُ مُنْتَجِمًا بَيْنَ الْجَوَانِحِ ، فَأَنْزَلُهُ ، وَلَا تَرِم ^(٢)
 أَوْ لَيْتَنِي مِنْكَ فَضْلًا قَدْ مَلَكَتْ بِهِ قَلْبِي ، فَهَاكَ يَدِي فِي الْوُدِّ ، فَاحْكِم ^(٣)

(١) رياء : لقاء (وبابه وحى) . وأولى : آخرى ، وأجدر ، وأحق ، وأعلو ، وأزرب : اسم لفعل من اليل (برزخ الرمي) : وهو النور والغرب . والدر : الدرر الكبير . الواحدة درة . ودرن : يمانية . والكلم : أى كلمات هذه المدة وأيامها ، بيان للدر .

أسدى الممدوح إلى الشاعر معروفًا ، وضح له جميلًا ، فظم هذه الأمدحة في التنويه بفضله ، والشكر له ، واغتر به بأن كلماتها تشبه اللال والدور في الرواء واللفظة . وقال الممدوح : اسمها من ذلك أصل الناس بها ، وهي جزاء ، ما سبق به ، وقدمته إلى من الخير والبر ، والإتمام والإحسان .

(٢) رائد الود : طالبه . أو السابق إليه . والرائد (في الأصل) : من يهبط فيه ليرود ثم الماء والكلأ : أى يطلبه ، ويطلبه ، ويبحث عنه في مظالمه ، فيسوق إليه ، ثم يهرم به . (ولعله من باب قال) . وصادفه مصادفة : لاقاه ، ووجدته من غير موعد ، ولا توقع . والمنتجع (بصفة اسم المكان) : الموضع يقصد لما فيه من كلاً ولاء . ومن الهجاز : انضمت فلاناً : أى لعبده طالباً معروفه . والجوانح : الأضلاع القصيرة مما يل الصدر . أو هي أضلاع الصدر التي تتصل ريوها ، وتلتق أطرافها في وسط الزور . الواحدة جانحة . وصحت بذلك لما فيها من الميل والموج ، والالتفاف والجنوح والاختناء . والشاعر يكنى بالمنتجع الذي بين جوانحه من قلبه : فالممدوح قصد الشاعر ، وتقرب إليه ، منتجعاً صداقته ومودته ، فتقبله بقبول حسن ، وأحل من قلبه محل الوداد والإعزاز . ولا ترم : أى لا ترم المنتجع : أى لا تبرسه ، ولا تزيله . وهو تأكيد لمحل النزول ، والحلول ، والإقامة والاستقرار . يقال : ما رام مكانه ، وما رام من مكانه : أى لم يفارقه ، ولم يبرسه ، ولم يفاده ، ولم يرسل عنه (وبابه باح) .

خطب المصمغ مودة الشاعر ، واتمس أخوته وصداقته : فوجد لديه حسن القبول والإقبال ، وأخفاوة والترحيب والاحتفال ، ويادله ودًا ، وأحل من نفسه وقلبه محل الإعزاز والإكرام . والبيت الآخر تكرار وتأكيد وتميز لهذا المعنى .

(٣) أوليتي : متحنى ، وأعطيتي . وهاك : اسم فعل أمر : بمعنى غدا . وهاك يدي : تمثيل يراد به الموافقة والمعاهدة ، أو الطاعة الأخوية ، والاستسلام الاختياري ، والالتقياد للنواحي الإغواء والمجدة والمحببة والصداقة . وفي الود : أى في أمر الود وشأنه أو نسبته ، ومن أجله . واحكم : أمر من الاحتكام :

إِنَّ الْمَوَدَّةَ إِنْ صَحَّتْ عَدَلَتْ نَسَبًا بَيْنَ الْأَبَاعِدِ تُغْنِيهِمْ عَنْ الرَّحِمِ (١)
فَتَقِي بِدِيَّةِ عَهْدٍ فِيكَ صَادِقَةً فَلَيْسَ كُلُّ خَلِيلٍ صَادِقٍ الدَّمِ (٢)
وَأَعْلَى إِذَا لَمْ أَجِدْ فِي الْقَوْلِ مُتَسَعًا فَالْمَرْءُ لَا يَبْلُغُ الْأَفْلَاقَ بِالْهَيْمِ (٣)

== وهو الانفراد بالحكم، والتصريف والسلطان. وقد مهد له بقوله: «فهاك يدي»: أي أطعتك وانقذت لك في شأن الرد؛ فمر في هذا الشأن بما شئت تجعز سمياً مطيحاً.

خطب هذا الصديق ربه الشاعر، وأولاه فضله؛ فلك بالإحسان قلبه، وحمله على تعظيم وداده وتحكيمه وإطاعته، والانقياد لأمره.

(٤) يراد بصحة المودة: صداقها وفقاؤها، وصداقتها، وخلوصها من شوائب الكذب والرياء والنفاق. وقدت: صارت. والنسب: القرابة. ومثلها الرسم. وهي (في الأصل): منبت الخنثى، ومواضع تكون الولد في بطن أمه. ثم أطلقت مجازاً حل الرصلة وصلاقة القرابة، أو أصلها أو أسباطها. (تذكر وكوث). وجسمها أرسام. والأبعاد: جميع الأبعد: صفة من البعد. ويراد بالأبعاد، أو البعده: الأجانب الذين لا يجمعهم صلة القرى، أو الرسم أو النسب.

ساق الشاعر هذا البيت مساق الحكمة أو المثل؛ ليؤكد به معنى البيتين السابقين. ولا ريب أن المودة الصحيحة الخالصة الصادقة تربط الأروء بأوثق الروابط والصلات، وتقي عن أواخر القرى والنسب والرسم، وتقوم مقامها. وقدت مسدداً؛ بل قد تفضلها وتفرقها. وفي المثل: «رب صديق خير من شقيق».

(٥) فلان ذمة: أي عهد يلزم إذا غلبه؛ فإضافتها إلى العهد هنا: من إضافة الكلمة إلى مرادفها. والغرض التأكيد والتعجيب. وصداقة: صفة لها. وجسمها ذم. وفيك: معك. أو إليك. أو ليا يني وبينك. يريد أنك أولي فضل ومودة؛ فأطعك الذمة والعهد، والموئق والضمان أن أتحدث في رعاية هذه المودة وصيانتها والمحافظة عليها، وإيجازاتها بصدق الوداد والإعلاء، وبوفور الإخلاص والوفاء.

وائق الشاعر هذا الصديق الذي راد الرد، وسبق بالفضل، وعاهده أن يكون ويده وبخله، ثم دعاه إلى الثقة به، والأطمئنان إليه، والاعتماد عليه؛ فإنه من الذين يعون الرد، ويوطنون بالعهد، ويصرون للدم والحرمات، وحقوق الصداقات والمودات. والشرط الثاني لتكليف جاري مجرى المثل، مؤكداً لحق الشرط الأول؛ فالشاعر من الأخلاء الأوفياء ذوي الدم الصادقة، والعهود الوثاق. وفي الناس منافقون مرايون كثيرون، يظهرون لك الرد والخلاعة، ويدعون الإخلاص والوفاء، وقلوبهم منطوية على التدر والتخاية، والكرامة والبغضاء.

(٦) متسعاً: مصدر ميمي، أو اسم مكان، أو اسم فاعل: أي اتساعاً، أو مكاناً واسعاً، أو مجالاً يتسع لما أريده وأحرص عليه من الإطناب في إطرائك وحسن الثناء عليك، وفاء بحقك، وكفاة لفضلك. والأفلاك: جميع تلك (بوزن سبب): وهو الفضاء في السماء يدور فيه النجم أو ==

لَا زِلْتَ تَرْفُلُ فِي أَثْوَابِ عَافِيَةٍ مَوْشِيَةً بِطَرَاكِ الْحَمْدِ وَالنَّعْمِ^(٧)

= الكوكب . وقد تطلق الأفلاك ، ويراد بها النجوم والكواكب . والحمم : جمع حمة (بوزن قمة) : وهي الزم القوى ، والإرادة القاطنة .

اتمس الشاعر من صاحبه المعذرة إذا شاق به تطلق الكلام ؛ فلم يطل مدحه وإطراده ، ولم يطلب في حسن الثناء عليه ؛ فإن منزلة هذا الصديق الودود منزلة الأفلاك والكواكب والنجوم ؛ وذلك غاية لا يبلغها بليغ القول ، وسحر البيان ، ولا يصل إليها جهد الشاعر عل الرغم من بعد همته ، وموفور كفايته ، وقوة حزمته . والشطر الثاني تذييل جار مجرى المثل ، متضمن تعظيم المنسوح ، والتثنية يسمو مكانته ، وحسن الاعتذار عن التقصير في مدحه . وما زال بلوغ الأفلاك والكواكب فوق جهد البشر وإن قاربها محولاتهم .

(٧) رفل (كنصر ، وفرج) : جرد ذيله جرداً حسناً ، وتبحر في سيره . ورفل في ثيابه : أطاها ، وجراها متبحراً مزهواً . موشية : صفة لأثواب : أي مطرزة ، مزينة منقوشة ، مزخرفة بالخيوط الملونة ، والرسوم ، والنقوش وما شاكلها من وسائل التطريز والتزيين والتحصين . وطراز الثوب : علمه وشبهه ، ورمحه ، وزينته ، وعلامته التي يعرف بها ، وتميزه من غيره . والطراز أيضاً : النمد والشكل . ومن حسن التأليف في هذا البيت : أن الأثواب تناسب الرفل أو الرفلان . والثوب والطراز يناسبان الثياب والألباس . والحمم يلائم النعم ، ويقترن بها .

عَمَّ الشاعر هذه الأبيات السبعة بالمدح لصاحبه ووديده أن يبقى عل الدوام رافلاً في ثياب العافية والسلامة ، مزهواً بحلل الصحة والرفقة ، حامداً محموداً منتعماً برغد العيش ، وطيب الحياة .

تطبيق وميز

هذه القصيدة عل صفرها ، وقلة أبياتها جمعت المدح ، والمدح ، والمدح ، وحسن الاعتذار . وجرى بعض أبياتها مجرى الحكم والأمثال ؛ فالمدح راد اللذ ، وسبق بالفضل ، وأحسن إلى الشاعر ابتداء بلاغة . وكلمات الشاعر - عل قلتها وجازأتها - دور ولآل عظيمة استأطعها المنسوح سبقه إلى الفضل ، وصنف وداده ، وحبه أواصر الخلقة والمهبة والصحة والصداقة . وذمة الشاعر في قبولها والوفاء بها ، والمحافظة عليها - صادقة نقية ، وعهده محكم وثيق ، وقلبه أسير هذه الرابطة أو العلاقة الأخوية الطقوية ، وهمة عالية نقية ، ومنزلة المنسوح ومحامده ومزاياه في أهل مراتب الرفعة والسمو ؛ بحيث لا يكاد يبلغها ، أو يحيط بها ، أو يتسع لها بليغ الكلام ، وسحر البيان . وقد أشرنا في أثناء الشرح إلى ما جرى مجرى الحكم والأمثال ، وهو البيت الرابع ، والشطران الأخيران من البيتين الخامس والسادس ، أي أكثر من ربع هذه القصيدة .

وَقَالَ :

خَلُّ الْيَتَابِ ، فَلَوْ طَلَبْتَ مُهَلَّبًا أَعْيَاكَ مَطْلَبُهُ بِهَذَا الْمَسْأَلِ (١)
 إِنْ كَانَ لِي ذَنْبٌ لِكَيْلِكَ جَرَى بِهِ قَلْبٌ ، فَإِنِّي مِنْ سُلَالَةِ آدَمِ (٢)

(١) خلّ المتاب : دعه ، وأتركه : أمر يراى به النصيح والإرشاد . أو يحض الاحتاس ، من خلله تخفية ، أى تركه والصرف عنه . ويرجع النصيح والإرشاد أن الإغصا حل جفوات الرقيق ، والإعراض عن ملاسته ومعابه قد يكون علاجاً لزلزله ، واستبقاء المودة بين الرفقاء والأصدقاء . وقد يمتق المتاب شدة الخلاف ، ويقصاف الجفوة والمودة . ومن كلامهم : « الكريم ربما أغصى وبين جنبه نار الله » . وأعياءك : أصغرك ، واستعصى عليك . والمطلب : مصدر بمعنى الطلب . والمآل : الخلق والناس .

يقول لمن حاول أن يصعب عليه ، ويلجئه في تسخط ، ويذكره بما كرهه منه : دح المتاب ؛ فإنى لست مبرأ من الخطأ ، وإن الرجل المهذب المصوم من الغنات والزلزلات لا وجود له في هذا العالم . وهذا الكلام يمد من الشاعر اعتدافاً بخلته ، واعتدافاً عنه ، واعتدافاً لماتيه ، أى ترصيه له ، واستبقاء لونه ، وإزالة لأسباب سخطه ومعيه ولونه . وأليت ، ألا يوضح هذا المعنى ، ويمزج ، ويؤكد .

ويقرب من هذا قول النابغة الذبياني الشاعر الجاهلي :

ولست بمستيق أحاً لا تلتسه على شمت ؛ أى الرجال المهذب ؟

وقول بشار بن برد ، أشعر غفرى الدولتين : الأموية والعباسية :

إذا كنت في كل الأسور معاتباً صديقك لم تلق الله لا تماتيه

فمن واحداً ، أو حل أخاك ؛ فإنه مقارب ذنب مرة ، وبهائسه

إذا أدب : لم يترعب مراراً على القلى ظمعت ، وأبى الناس تصفو مشارب ؟

(٢) القدر : ما يقدره الله تعالى على عباده : أى يقضى به ، ويحكم . والشاعر يريد أن ذنبه إلى معاتبه كان من الأمور التى جرى بها قدر الله تعالى وحكمه وقضاؤه ؛ فهو ليس من أفعاله الاعتيادية ؛ فلا ينبغي أن يتكره عليه ، ويؤاخذ به . وقد يذنب المرء ذنباً غير مقصود ، أى نتيجة خطأ أو نسيان ؛ يرفع عنه اللوم والمعاتب والمؤاخذة . وفي القرآن الكريم : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل ، فنبى ، ولم نجد له عزماً » (الآية رقم ١١٥ من سورة طه) . والسلالة : النسل ، والولد ، والنزوة . وآدم : أبو البشر . وفي هذا البيت إشارة واضحة إلى خطيئة سيدنا آدم التى أخرجه من الجنة . قال الله تبارك وتعالى في سورة البقرة : « وقلنا : يا آدم ، اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رزقاً حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة ، فتكونا من الظالمين . فآذنا الشيطان منها ، فأخرجهما ما كانا فيه . »

وَقَالَ :

سُكُوتِي إِذَا دَامَ الْحَدِيثُ كَلَامٌ وَتَقْلِيْبُ عَيْنِي فِي الْوُجُوْهِ مَلَامٌ^(١)
وَصَبْرِي عَلَى الْأَيَّامِ لَا مِنْ مَذَلَّةٍ وَلَكِنْ يَدٌ مَقْلُوْلَةٌ وَحَسَامٌ^(٢)

« وَقُلْنَا : اهبطوا ، بضئكم لبعض عدو . ولكم في الأرض مستقر » وبتاع إل سين . فخلق آدم من ربه كلمات ، فتاب عليه ؛ إنه هو التوب الرحيم » (الآيات ٣٥ و ٣٦ و ٣٧) .

أشار الشاعر إلى خطيئة آدم أبي البشر عليه السلام . وقال : إنها كانت بقضاء الله وقدره ، ومن المألوف الطبيعي أن يكون أولاد آدم خطائين . والفرض : التمسيد لعذره ، والتئصل من تيمات ذنبه ، وتخفيف وقعه ، وتوهمين أمره ، وتأكيد ما أشار إليه في البيت السابق من أن الناس غير معصومين ، وليس فيهم مهذب ، أي يرى من الأخطام والتفائض ؛ فلا ينبغي أن يتعذبه صاحبه هذا بلومه ومتابه ، ويرسمه بموسمته وتقريهه ؛ فبالصلح والتساع قطع الخصومات ، وتستيق المودات .

* * *

(١) الملام : القوم ، والمعلل ، ومثله الملامة .

يبدو أن البارودي نظم هذه الأبيات بعد سبتمبر سنة ١٨٨٢م ، أي بعد أن سقطت مصر في قبضة الاحتلال العسكري الإنجليزي الذي سيطر على البلاد ، واعتقل قادة الثورة العربية ؛ فكثر حديث بعض الناس عنهم ، وعن الثورة ، وما كان يطلع فيه الشاعر ؛ فلم يسمه إلا أن يقاب عينيه في وجوههم تقليباً يحمل معنى الملامة والعتاب ، واستنكار هذه الأحاديث المتأثرة بدعايات الاحتلال وأذنا به . وقد عد سكوته الاضطراري في قوة الكلام الذي يحمل الحجة والبرهان ، ويحيط هذه الدعايات الكاذبة المضلة .

(٢) صبره على الأيام : صبره على شدائد الزمان وتكباته التي أصابته في نفسه وأهله وماله ووطنه . ومقولة : مبدقة ، بمنجزة من الحركة والعمل ، مربوطة بالنقل (يضم التثني) . وهو ملوك من حديث أوجله أو نحوها يحمل في حق الأخير ونحوه ، أو في يديه لإذلاله وتقبيد حركته ، وسلب حريته . والحسام : السيف القاطع . وفي الكلام حذف : أي ولكن يد مقولة ، وحسام مقول كلك .

والمنى : أن الصبر على الشدائد والملمات محمدة إذا لم يكن من مذلة أو ضعف أو هوان أو استسلام . ولقد تجلج الشاعر للأحداث والكموارث ؛ وصبر على ما جاءت به الأيام من المحن والألام صبر الإبادة الأمرة ، ذوي النفوس المترفة القوية ، بعد أن خلعت يده ، واعتقل لساه ، وشكّب على أمره ، وجرد من سلاحه وماله وسلطانه ، وكل وسائل المقاومة واللداع . ولويق لديه شيء منها ما صبر ، ولا قعد عن الكفاح والتضال . وهو بهذا المنى يعهد لمنى البيت الآتي ؛ فيحسن الاعتذار عن صبره ، ويحتج لنفسه ، ويتئصل من التيمات ، ويحيط لوم اللاتمين ، وباطل المبطلين .

الْأَمَّ عَلَى أَنِّي صَبَرْتُ ، وَهَلْ فَتَى عَلَى الصَّبْرِ - إِنَّ قَلَّ الْمُعِينُ - يُلَامُ ٢٩

وَقَالَ *

يَا بَانَةَ ! مَنْ لِي بِضَمِّكَ ؟ يَا زَهْرَةَ ! مَنْ لِي بِشَمِّكَ ٣٠

(٢) يراد بالفتى هنا : المعنى العام الذى يجمع الفتيان والشبان ، والكهول والشيوخ ؛ فإن العرب تقول : هو فتى من صفته كبت وكبت من غير تفرقة بين الشيخ والشاب . ويقولون : « هذا فتى بين الفتوة » : وهى النجدة والحرية والكرم والشجاعة . والاستفهام فى البيت : معناه التنى ، أو الإنكار : أى لا يجوز أن يلام الصابر إن فقد المعين ، أى المساعد والتصير والظهير والهير . وإن شئت علامة كانت جذيرة بالاستنكار والاستهجان . لتجافها من الحق والصدق ، والمعدل والإنصاف ، والسداد والصواب .

فى البيت السابق قال : إنه صبر على ما جاءت به الأيام من المحن والألام صبر الأبي القوي العزيز الذى جرد من كل وسائل الكفاح والدفاع . وفى هذا البيت استنكار لقيه على هذا الصبر بعد هذا التجريد ، وبعد أن فقد المعين والتصير . والأبيات الثلاثة منسجمة مؤلفة ؛ فى البيت الأول أجبر على السكوت ، ومنع الكلام ، أو أمرب عنه إضراب للمعنى من حجة ، المقترن على البيان والإلتناع ، واكتفى بتقليب طرفه فى وجوده فدفته لائماً عاتياً . ولكنه ما لبث فى البيتين الثانى والثالث أن أظهر تخمينهم ، وأقام حجة ، وأرضع حذر ، وبين وجه صبره ، ودفع عن نفسه المذلة والظلم ، وقال : إنه فقد الأعضاء والأعوان ، وجرد من وسائل الكفاح والنضال ، وسقط فى ميدان الشرف والجهد والمرة والكرامة مقبوط الأموة الأباهة المكانحين الأبطال ؛ فلا ينبغي أن ينسى على مثله بلوم أو تريب .

ويلاحظ أن هذه الأبيات الثلاثة مضروبة عليها فى الأصل المخطوط الذى بين أيدينا . وقد أثرتا عليها ونشرهما حرصاً على الإمام والإفادة .

هذا ، وقد نظم البارودى أكثر شعره وأجوده بعد إخفاق الثورة العربية ، واحتلال الإنجليز مصر . فأتى لتنديده بالمحتلين المحدثين ؟ وأين تمجيده لصاحبه وزلفاه فى الجهاد والجلاد ، ثم فى الهنة والبلاد ؟؟

* هذه الأبيات رويها الميم ، والكاف بهذه حروف وصل . ويصح أن تكون الكاف نفسها روياء ؛ وعلى هذا تتدرج الأبيات فى قافية الكاف ؛ فالأمران جائزان صحیحان ، والأول مستحسن راجح .

(١) البانة : واحدة البان : وهو ضرب من الشجر سبط القوام . وفيه مع السبوة والاحتدال لين وبرقة . وورقه كورق الصفصاف . وبالبان تشبه حسان النساء فى حسن الطول ، وجمال القد ، واعتدال القوام ، والبرقة . و« من » فى شرطى البيت : اسم استفهام ، يراد به الفتى ؛ فالشاعر يرغب فى ضم من ينزل بها وشمها ، ويضى أن يجد من يمهته على تحقيق تلك الرغبة . وبين الزهرة والشم اختلاف قوى ، =

يَا بِنْتَ سَيْدَةِ النَّسَا ١٠ تَرْفُقِي بِحَيَاةِ أُمِّكَ^(١)
 مَا فِي مَنِيْتُ شَجَرَةٍ إِلَّا بِهِ أَسْرُ لِسَمِيكَ^(٢)
 كَلَّا ، وَلَا فِي مُهْجَتِي مِنْ طُولِ صَدِّكَ غَيْرُ هَمِّكَ^(٣)
 أَصْبَحْتُ مُتَتَنِّعَ الْكَرَى لَمَّا جَسَّائِي بَدَّرَ تِمِّكَ^(٤)

— وتناسب واضح . وفي الزهرة — إلى ذكاه الرائحة ، وطيب الأريج — معنى النضرة والبهاء والإفراق ، والغضارة والروث والرواء . وفي البانة مع السبوبة والاعتدال ، معنى المرونة والرخاسة وحسن البين . شبه المتغزل بها بالبانة ثم بالزهرة ، ومعنى أن يمان من عناقها وشبهها .

(٢) بهجة أُمِّك : ألياء : حروف قسم . وحياة أمها مقوم بها .

استحلف بمشقة بهجة أمها أن ترفق به ، وترحمه ، وترق له ، وتعطف عليه .

(٣) المنيث (بهز المناس) : موضع النبات : أي المكان الذي ينشأ منه ، ويظهر ، (وطله من باب نصر) . ومنيث الشجرة في الجسم : أصلها واستقرها . ويراد بمنابت الشعر : الجسم كله : ظاهره ، وباطنه . والسهم : عود من خشب يسوى ، ويركب في طرفه نصل بحديد ، ويرى به عن القوس العربية ، وكانت من أدوات الصيد والقتال عندهم . ويرد السهم كثيراً في لغة الشعر ، وبخاصة في باب الغزل والنسب . وسهام الحسان : محاسنها ، ومفاتنها ، ونظراتها الساحرة التي تسهوى بها العاشق ، وتلهيه .

والمنى : أن قلبه ووجدانه ، وهو طله ومشاغره تأثرت كل التأثر بمحاسن المتغزل بها ونظراتها الباهرة ؛ ففجع صريع الحب ؛ أسير الغرام .

(٤) «كلا» : حرف جواب : بمنزلة «إلى» : أي «لعمري» . والجواب هنا لتصديق المخبر ؛ أي تأكيد معنى البيت السابق . أو هي بمعنى «ألا» الاستفهامية التي يبتدأ بها الكلام ، وتفيد التحية . أو هي بمعنى «حقاً» : مصدر حق الأمر : بمعنى صبح ، وثبت ، وصل . والمهجة : النفس ، والروح ودم القلب . وقد تطلق ، ويراد بها القلب . و «من» هنا : تمهيلية ، كما في قول الله تبارك وتعالى : «ما بخطيئاتهم أغرقوا» (الآية رقم ٢٥ من سورة نوح) . والصد والصلود : الإحراض والقطيعة ، والصلود ، والمجران . وضده الإقبال والوصول ، واللقاء ، والاحتفال . والحزم : الخزن ، والقلق .

في البيت السابق قرر أن مهاهما أصابته إصابات شاملة ؛ ففجع أسير الحب ، صريع الغرام . وفي هذا البيت أن طول إغراضها عنه أذابه وأغشاه ، ولم يبق في قلبه غير المهرم والأحزان .

(٥) الكرى : النوم والتماس . ويغشى : أغمض ، وغشى . واليدبر : القمر ليلة كاله ، وتنام ضياله في منتصف الشهر الربيع . ويدرك (يتلوث التاء) : يدرك التمام ؛ فالتم تأكيد معنى البدر ، =

إِنْ لَمْ تَجِدِي بِاللِّقَا ۖ عَلَى الْمُحِبِّ ، وَلَا بِالنَّفْسِ
فَقَسَمِي لِي مَرَّةً حَتَّى أَفُوزَ بِلَيْثِمِ كُفْكُ

وَقَالَ :

دَعِ الْهَزْلَ ، وَاحْذَرِ تَرَهَاتِ الْمُنَادِمَةِ فَكَمْ مِنْ غَوِيٍّ قَدْ أَسَالَ الْمُنَى دَمَهُ^(١)

= وقد جرى للمتفزلين حل تشبيه الحسنة بالهذر في الإغراق واليهاء ، والرواء ، وحسن الطلبة ، وجمال الحياء ، واكتمال المحاسن .

شبهها بالقمر الممثل المشرق البهي ، الباهر النام . وقال : إنها جفته ، وأعرضت عنه ؛ فشق عليه الجفاء والإعراض ، ولأزمه ألم النفس ، والأرق والسهاد .

(٦) ألم : التقبيل . (وفله من بابي فهم ، وضرب) . وجواب وإن « الشرطية في البيت الآتي ، ونصاعى » .

(٧) تسامح في كذا : تساهل . ولكم : مدخل اليد ومخرجها من الثوب . وجسمه أكام .

• • •

(١) الأمران في الشطر الأول : النصيح والإرشاد . والمزول : المزاح والدعابة . (وفله من باب ضرب) . وضده الجحد والصرامة . والمراد الهزل المقنوت الذي يقوم على قبح الكلام ، ويخالف أدب الإسلام . ومن معاني الهزل : الهديان ، واسترخاء الكلام . والترهات : الأباطيل ، وما لا نفع فيه من الأقوال ، الواحدة ترهة . (بوزن سَكْرَةٍ) والمنادمة : مصدر نادمه : أوى رافقه ، وشاويه ، وسامره . و« كم » : غيرة ، تقليد الكثير . وتمييزها « غوى » : وهو المتفاد لغوى ، المهمل في الجهل ، الممن في الضلال . والمنى : الأمان والآمال . الواحدة منية (بضم فسكون) .

ينبى عن المزج الفاسد ، والمزول المقنوت ، ويحذر من ترهات وأباطيل المتجالسين على الشراب ، وهديان السكر ، والفرارح المسترخى من كلام السكارى ؛ فإن هذا كله انهماك في الجهل ، والتفاد لغوى ، وإسكان في الضلال ، وسجى وراء أمانى خادعة ، وآمال كاذبة ، لا تنتج غير الشر والخيبة ، والبوار والخسران . والصلة بين شطري البيت واضحة ؛ فإن الهزل المزول ، والمزاح المليب ، وترهات المنادمة ، من الغواية والضلال . والتي تلابسه وتفتقرن به الأمانى الخادعة الكاذبة التي كثيرا ما تسهوى الغواية الفاسدين ، وتوردهم موارد الهلكة . وفي البيت من المحسنات البديعية الفظية جناس تام بين « المنادمة » في نهاية الشطر الأول ، و« المنى دمه » في نهاية الشطر الثاني . وقلما يتكلف البارودى المحسنات البديعية ، أو يرغب فيها ، أو يحفل بها .

فَمَنْ ، لَا تَقْنَمُ بِالْقَوْلِ قَبْلَ انْتِقَادِهِ قَرُبُ كَلَامٍ قَضَى مِنْ قَائِلٍ فَمَنْ^(١)
وَقَالَ :

لَا تَعْلِنَنِي عَلَى وَفْرِ سَمْعَتِي بِوِ
لِلْمُعْتَفِينَ ، فَإِنِّي مَاجِدُ الْهَيْمِ^(٢)

(٢) الأمر ، والنهي في أول الشطر الأول : التصح والإرشاد . و « ه » : اسم فعل أمر : بمعنى اكشف ، واستمع : أي من الكلام الذي لا قيمة له ، ولا خير فيه . ولا تقه : لا تنطق : مضارع فاه بالقول (من باب قال) : أي نطق به . وانتقاد القول : قصصه وتفتيشه ، وتدبره وتسميحه ؛ لتصرف حيويه ، وتغييره من سميت ، وإخراج زيفه وقاسمه ، وإلغاء باطله وسقطه ، وتنقيته من الشوائب والمنزلات ، ثم إرساله سيداً صالحاً ، سليماً مستقيماً . و « رب » : حرف جريفة التكرير في مثل هذا المقام . وجروره واجب التكرير . وقض الشيء (من باب رد) : فرقه ، وكسره ، وفككه ، وقطعه . وفي الفم جهاز النطق والكلام . وأهم أجزائه اللسان والأستان . وقد يطلق للفم ، ويراد به الأستان ، فإذا فُست تفسر النطق ، وصحب الكلام . والشطر الثاني : تلييل جار مجرى المثل ، مؤكدة لمعنى الأمر والنهي في الشطر الأول ، ممزوجة بالتصح والإرشاد الذي قصد إليه الشاعر ، أي قرب كلام قضي من قائله له . وفي هذا البيت أيضاً جناس تام بين صدره وصيغته : أي « ه » « ه » « ه » .

في البيت السابق قُبِحَ الشاعر المزلز للمقوت ، وترحات المانحة ، وحلّ ومنهما ، وأمر بالكف عنهما ؛ فإنهما من النفي والفضائل . ثم أشار في الشطر الثاني إلى كثرة الفتوة اللذين أضرت بهم الفتوة وأمانها الخاصة الباطلة .

وفي هذا البيت رسم للتأطيق طريق النجاة والسلامة من آفات النطق ، وفضول القول ؛ فحضر على مراجعة الكلام ، ولقده ، ووزنه وتهذيبه ، وحسن اختياره ، وتدبره قبل الإلهار به ؛ ليسار الحكمة والرشاد . وبالغ في التصح والإرشاد ؛ فأشار في الشطر الثاني إلى كثرة من أودوا بسبب فساد كلامهم ، وضلاله استنهم ، وانحرف أقوالهم ، واختلأ بها الحذر والترهات

* * *

(١) حذله (من باب ضرب ، ونصر) : لاهه . والوفير : المال الكثير الواسع . وجمعه وفور . ويصح بكذا (كفتح) سماساً ومباحة : نجاد ، وأصله ، وسننا ، وبذل في السر واليسر عن كرم وإحسان ، ورضا وأزتياع . والمعنى : اسم فاعل من اعتفاه : أي جناه يطلب معروفاً وبره ، وكريمه وإفهامه . وماجد الهيم : ليليل الطباح ، شريف السجاية ، كريم الأخلاق : جمع شيمة : وهي الخلق ، والفريزة والطبيعة ، وإجلية إلى جبل عليها الإنسان : أي فطر عليها ، وخلق ، وطبع . بذل الشاعر في عصره مالا كثيراً لبعص مفتفيه ؛ جرياً على نبله في البر والخير ، والفضل والمروءة ؛ فقامه بعض صحبه ؛ فتهرم بولوه ، ونهاه عنه ، واقتضى بأنه ماجد أرمحي ، كريم الخلال ، نبيل الخصال ؛ يعطي في السر واليسر عن رضا وأزتياع لتندى بالبلد ، وحسب ونشاط إلى المعروف والإحسان .

إِنَّ لَمْ يَكُنْ لِفَقْتِي جُودٌ يَسُدُّ بِهِ مَقَاقِرَ الصَّحْبِ ، فَالْمَمْرَأَةُ كَالْعَدَمِ (٢)
فَإِنْ يَكُنْ قَلٌّ مَالِي بَعْدَ وَفَرِكِهِ فَإِنَّ مَالِي لَا يَفْوِي عَلَى كَرَمِي (٣)

(٢) يراد بالفق: هنا : المنى العام الراسع الذى يشمل الفتيان والشبان ، والكهول والشيوخ ، فإن العرب تقول : هو فق من صفته كيت وكيت « من غير تفرقة بين الشيخ والشاب . ويقولون : « هذا فق بين الفتوة » : وهى النجدة ، والحرية والكرم ، والشجاعة . والجد : الكرم ، والبذل ، والسخاء ، والطاء . والمفاقر : الحاجات ، ووجوه الفقر والإعواز . لا واحد لها . أو هى جمع لفقر على غير قياس . أو جمع لفقره بمعنى فقر . ويقال : سد الله مفقره (من باب رد) : أى سد خلته ، وأغناه . والصحب : جمع صاحب (كراكب وركب) . ويقال : هذا مثراة للمال : أى مكثرة له (يفتح فسكون فيها) . ويراد بالثرثرة هنا : الثراء ، والبنى ، والثروة ، وكثرة المال . والدم : الفقر ، والإعواز . يقول : إذا لم يكن المرء جواداً كريماً ، يسد بالكثير من ماله حاجات المحتاجين ، ويعين العفاة والمعوذين من مصابه وخلافه — فثراؤه وفقره سيان ، لا يفرقان ، ولا يتبايزان . والمنى : أنه لا قيمة للثروة وكثرة المال إلا بالاتفاق المحمود فى وجوه المروءة والوفاء ، والخيرات والمبرات . أما المنى البهيل ، فإنه فى حقيقة أمره معدم فقير . وفقره مرذول عقوق ، وباله وغناه شروهاً عليه وعلى غيره . وقد أجرى الشاعر هذا البيت مجرى الحكم والأمثال ، وأثرقت صلتها بالبيت السابق ، فأقام به حبيته ، ودمغ عدل الماثلين ، وملازمة اللاتمين ، وعظم شأن الجود والأجود ، وأزرى بالبهيل والبخلاء .

(٣) وفرة المال : كثرته ، واتساعه .

ومنى البيت : أن كرمه أقوى من جدته ، وأريحيته أعظم من ثرائه ، وأن الجود يفقر ، وأنه كان غنياً ، واسع الرُجْد ، كثير المال ، فما زال ينفق منه فى وجوه الخير والبر ، والنجدة والمروءة ، والفضل والإحسان ، حتى صار إلى القلة والنضوب . وهذا المنى يجرى مع بعض ما يشير إليه قول الشاعر :

لولا المشقة صاد الناس كلهم الجود يفقر ، والإقدام قتال

ولا ريب أن البارودى أقام مجده وسيادته على ما اضطلع به من المشتقات والأعمال الجسام . ولقد كان الجود والإقدام من أظهر صفاته ومزاياه .

تطبيق وبيان

* فى السادس من جمادى الأولى سنة ١٣١٧ هـ (الثانى عشر من سبتمبر سنة ١٨٩٩م) عاد البارودى إلى مصر من منفاه « سرنغيب » . وفى ١٨ من المحرم سنة ١٣١٨ هـ (١٧ من مايو سنة ١٩٠٠م) ردت الحكومة المصرية إليه ماصادرتة قبل نفقه من ثروته وأمواله وأملأكه ؛ وفى سبب نظم هذه الأبيات قيل : إنه بعد عودته من المنفى ، وقبل أن ترد إليه أملاكه قصد فى منزله صديقه الشاعر « حافظ إبراهيم » ؛ فأنشده ملحمة دالية فى سببه وثلاثين بيتاً ، لانتحتها بالفرل :

تمسدت قتل فى المسوى ، وتمسداً فأتمت عيني ، ولا لحظه اعتدى

ونشرت بتاريخ ١٥ من أكتوبر سنة ١٩٠٠ وجات فى باب المدايح والتهاني من ديوان حافظ =

وقال :

الشَّعْرُ زَيْنُ الْمَرْءِ مَا لَمْ يَكُنْ وَبَسِيلَةٌ لِلْمُنْذِرِ وَالْمُنَادِمِ^(١)
قَدْ طَالَمَا عَزَّ بِهِ مَعَشَرٌ وَرُبَّمَا أَزْرَى بِقُفُومٍ^(٢)

= إبراهيم - ج ٥ - ص ٨ - طبعة سنة ١٩٤٨ بالمطبعة الأميرية بالقاهرة . وكان من هذه الملاحه :

أتيت ول نفس أظلت جندالها سيققى عليها كربها اليوم أو غدا
فإن لم تداركها بفضل فقد أتت تودع مولانا ، وتستقبل الردى

فلما سمع البارودى من حافظ هذين البيتين بكى ، وطلب إليه ألا ينشرها ، فاستجاب ، وأطاع ، ونشيت القصيدة يوم ١٥ / ١٠ / ١٩٠٠ خالية منها . ثم جاءت في ديوانه خالية منها كذلك .

سمع البارودى في منزله هذه القصيدة من حافظ ، فقدم إليه أربعين جنيهاً ، هي كل مافيه الشعرى في ذلك الوقت (قبل أن ترد إليه أمواله) . وقال : إنما بكيت لأنى عشت إلى زمن يقدم فيه مثل إلى مثلك هذا المبلغ القليل .

وسفر « خليل مطران » هذه القصة ، واستمع للدالية ، ورأى المنحة التي قدسها البارودى إلى حافظ ، وكأما أحسن البارودى أن « خليل » يلويه ؛ لأنه تبرع بمعايشه كله - ولم يبق منه شيئاً لنفسه وأسرته وأطفاله ؛ فقال هذه الأبيات : « لا تمذلنى على وفى .. » .

وفى القصة معان ومرام عالية نبيلة ، منها : رقة عاطفة البارودى ، ورهافة إحساسه ، وشدة عطشه على المحتاج ، وسرعة استجابته للمعنى ، وبإلغ تأثره بأدب الأديب ، وشعر الشاعر ، ووثاقة الصلة بينه وبين « حافظ » ، وواسع كرمه ، وانطلاقه في مجال البهجة إلى الغاية ، وتآدبه بأدب القرآن العظيم : « ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة » (الآية رقم ٩ من سورة الحشر) . هذا إلى فخره الصادق بمحامده ، واعتزازه بمجادة شيعه ، وبموشائله ، وحرصه على كيان إحسانه ، وصيانة كرامة المحتاجين من إخوانه .

* * *

(١) وسيلة : وصلة وذرية . والذام : مصدر ذامه (من باب باع) : أى ذمه ، وهابه .

والمنفى : أن الشعر يزين الشاعر ويجمله ما لم يستخدمه في الملح الكاذب الذى يجرى مع المنق وللتفاق . أو في المهجاة للظالم الذى يقع به في أمراض الناس .

(٢) « قد » هنا : حرف يفيد التأكيد . ومثله « طالما » : « طال » فعل ماض ، اتصلت به « ما » الزائدة ؛ فكفته عن عمل الرفع ، وأغشته من الفاعل ، وجعلته شيئاً ؛ « رب » ونصصته بالدمعول على الجمل الفعلية . « عز : قوى ، وأبى الضم » ، ورفض المذلة والمهانة ، وكان ألياً عزيزاً (وبابه قل) . وبه : بالشعر . ومعشر : جماعة من الناس أمرهم واحد . وجمعه معاشر . وربما : بمعنى طالما : « رب » حرف يفيد التأكيد في مثل هذا المقام . و « ما » : زائدة يملأها ، متصلة بها . وأزرى به . إزاده : تهاون به ، وسخره ، وصغره . وأقروا : معاشر : جمع قوم : وهم الجماعة من الناس تربطهم =

فَاجْعَلْهُ فِيمَا شِئْتَ مِنْ حِكْمَةٍ أَوْ عِظَةٍ ، أَوْ حَسَنِيٍّ نَأْمِي^(٣)
وَاهْتِفْ بِهِ مِنْ قَبْلِ إِبْلَاقِهِ فَالْسَّهْمُ مَتَّسُوبٌ إِلَى الرَّأْيِ^(٤)

== رابطة يشتركون فيها ، ويقويون لها . وأزرى بالقوام : نفرض « عز به معشر » .

والبيت تكرار وتأكيد للمعنى السابق ؛ فالشعراء الذين يترقبون بشعرهم عن كاذب الملح وفاحش ،
المجاهد يسلكون الجدّد ، ويستقيمون على الطريقة ، ويميّزون حياة المزة والإياء ، ويستحقون التحقير
والإكرام . والذين يتخلونه وسيلة إلى الملح والمجاهد القائلين على التناقض والتناقض ، والكذب والتجني ،
والفجور في أعراض الناس ينصرفون عن المجادة ، ويستحقون التحقير والتقصير ، والمقت والإزراء .
أو المعنى : أن الشعر من أقوى وسائل التأثير والتشهير ، والدعاية والإعلام ، وهذا طالما أمرٌ وأذلّ ،
ورفع وخفض ، وأنه وأجل ، وكبر وسحق . وإنما كانت له هذه النتائج والآثار بمزاياه التي انفرد بها
كسهولة حفظه ، ويسرّ استظهاره ، والحرص على روايته ، وسرعة تسياره وانتشاره ، وحلاقة نغمه
وموسيقاه ، وامتداده على إثارة المعاملة والشعور ، ومخاطبة القلب والوجدان . والمعنى الأول مرجوح ،
والثاني هو الأرجح .

(٣) الأمر في أول البيت : للنصح والإرشاد . والحكمة : كلام قلّ لفظه ، وجيلٌ مناه ،
ووافق الحق ، ودعا إليه ، ونصح عليه ، وما إلى أعلى مراتب البلاغة والبيان . وفي الحديث الشريف :
« إن من الشعر حكمة » : أي قضية صادقة . والسطوة : اسم من وسطه (من باب وعد) أي نصحه ،
وذكره بالمواقب ، وأمره بالطاعة ، ووصّاه بالتبذير . وقيل : إن الوعد زجر مقرون بتخويف . وحسب
المزح : شرف أصله ، وكرم محتده ، وما يبدؤه من مفاخر آباءه . أو ما يهيم به ، ويرغب شأنه من
كرم ، وخلق ، ودين ، ونبأ ، ومفاخر ، وأعمال محمودّة . ونام : اسم فاعل من نما الشيء (من
باب نما ، ورى) : بمعنى كثر ، وزاد . أو بمعنى علا ، وارتفع . وفلان ينميح حسب . وقد نماه جد
كريم : أي رفعه ، وأعلى شأنه .

في البيت الأول قال : إن الشعر يزين الشاعر ما لم ينظمه في كاذب المديح ، وفاحش المجاهد ،
وتجريح الأعداء . وفي البيت الثاني قال : إنه يسير ورتبه وقوة تأثيره طالما أمر أقوالاً ، وأذلّ آخريين .
وفي هذا البيت نصح للشاعر ، وأرشده ، ورسّم له طريق الاستقامة والإرشاد ؛ فلا يتجاوز بشعره الحكمة
البالغة ، والمثل السائر ، والموضحة الحسنة ، والتثويه بالجاهة ، والتزييف في الكرمات ؛ بل يمدح ذوي
الحسب والدين ، أو الشعر بالمتناب والأعمال المحمّدة ، أو بما خلده الآباء من المآثر والأفعال الحميدة .

(٤) حثف به (من باب ضرب) : صاح به ودعاه . أو صاح مادّاً صوته مع تردّده في حنجرته
وتربّجه . كما تهتف الجماعة .. ويراد بالحناف هنا : أن يربّع الشاعر شعره ، ويردّد في نفسه ولغته
قبل أن يجرّ به ، ويخرجه فنان . ومن قبل لإطلاقه : أي من قبل إعلانه للرواية للناس .
والإطلاق (في الأصل) : مصدر أطلقه : أي حله ، وحرره ، وأرسله ، وخلّ سبيله . ورواية الوسيلة ==

« الأدبية ج ٢ ص ٥٠٣ : « واحتف به من قبل تسريحه » : مصدر سرحه : أى أرسله . وسرح الشاعر شعره : نغمه وفضه . وحل هذا المعنى يقال : « واحتف به من بعد تسريحه » . والسهم : عود من خشب ، يسوى ، ويشبث في طرفه نصل حاد قاطع جارج «ن الخيليد الصلب ، ويرى به من القوس ونحوها . والرأى : اسم فاعل من رأى عن القوس ، ورمى عليها رمية ، ورواية : أى أطلق سهمها لصد أو القتال . والشطر الثاني تمليل وتمليل للشطر الأول ، وتلليل جاز مجرى المثل . ويمناه : أن ما يعمل الإنسان معزولاً إليه ، لاصق به ، محسوب عليه ؛ رقهه إذا كان مجوداً محكماً محموداً ، ويخفزه ويرى به إذا كان مختلاً معتلاً مذموماً . وإنما يستبين قدر الموهبة بما يزاوله وينسب إليه من الأقوال والأعمال .

دعا كل شاعر إلى تنقيح شعره وتهذيبه قبل إخراجيه . وضرب المثل بالسهم إذا أحكم الرأى تسديده رفع شأنه ، وأصاب الهدف . وإذا تهاون به أخطأ الرمية ، وأزرى عليه . ومن كلامهم : « خير الشعر الحلو المنقح » . وما قيل في وجوب تهذيب الشعر قبل إخراجيه :

لا تعرضن على الرواة قصيدة ما لم تكن بالفت في تهذيبها
فإذا عرضت الشعر غير مهذب عوه منك وساوياً تهلى بها

بيان وتعليق

قال صاحب الوصلة الأدبية : ج ٢ ص ٥٠٣ :

ونبه بقوله : « واحتف به من قبل تسريحه » على أنه لا ينبغي أن يكتب الشاعر بالنظرة الأولى ؛ فليفس خداع ، وربما تنبهت بعد أن غفلت ، واستبحت ما استحسننت ؛ وللك يقول الأول :

لا تعرضن على الرواة قصيدة ما لم تكن بالفت في تهذيبها
فإذا عرضت الشعر غير مهذب عوه منك وساوياً تهلى بها

والبارودي في هذه الأبيات الأربعة ينظر إلى أبى نواس في قوله :

الشعر ديوان العرب أبدأ ، وعنوان الأدب
لم أعد فيه مفاعري وينبع آياتي النجب
ويقطع لمات وبعثا حلت منهن الكتب
لا في المذهب ، ولا الهجا ، ولا المبرن ، ولا اللعب

وَقَالَ :

أَيُّهَا الشَّاعِرُ الْمُجِيدُ ! تَدَبَّرْ وَاجْعَلِ الْقَوْلَ مِنْكَ ذَا تَحْكِيمٍ (١)
لَا تَدُمُ اللَّثِيمَ ، وَامْدَحْ كَرِيمًا إِنَّ مَدَحَ الْكَرِيمِ دَمُّ اللَّثِيمِ (٢)

(١) المجيد : اسم فاعل من الإجادة : يعنى التجويد ، والتنويق ، والإحسان ، والإتيقان .
أوهو المجيد (بوزن فاعِل) من المجد ، أو المهادة : وهى التبل ، والشرف ، والمكارم الماثورة عن الآباء .
وشاعر مجيد : يأتى بالجميل الرائق من الشعر . وشاعر سديد : يتحرى بشعره مساك التبل والشرف ، ويرجو أن يبلغ به مرتبة الأماجد الشرفاء . وتدر : أمر من تدبر الأمر تدبراً . وتدر فيه : أى ساه ، وأطال التفكير فيه ، ونظر فى عاقبته . والتحكيم : مصدر حكمه فى الأمر : أى فوض إليه الحكم فيه . وسكته : جملة حكماً . وقول ذو تحكيم : قول سديد ، فيه قطع الحكم . وكلام يفصل بين الخطأ والصواب ، ويميز الباطل من الحق ، والخيث من الطيب . وشعر ذو تحكيم : شعر يحكم : أى ذو حكم صحيح فاصل فيما يتناوله من الأغراض . أو يرجع إليه ، ويعمل عليه ، كأنما يحتل بين غيره من الأقوال محل الحكم والقضاء ، والولاية والإمارة . والأمر والنهى فى هذا البيت والبيت الآتى يراد بهما النصيح والإرشاد .

والمعنى : أن الإجادة ، أو المهادة تتطلب من الشاعر التدبر والتفكير ، وإطالة النظر ، ووزن الكلام قبل إطلاقه ، والعناية بتفقيحه وتهذيبه ، وأن يلتزم به منج الرشد والإصابة ، والحكمة والسداد ؛ وهذا يأتى شعره مجوداً محكماً ، يرجع الناس إليه ، ويعملون عليه ، ويفيدون منه أيما إفادة .

(٢) الكرم (بمعناه العام) : جمع الفضائل ، والأخلاق الكريمة ، والمحاسن الكبيرة .
والأفعال العظيمة المحمودة التى تظهر من الإنسان . والكرم (بمعناه الخاص) : الإطعام بسهولة فى العسر واليسر ، والسخاء ، والجود ، والبذل فى الخيرات والمحامد ، والمكرات والمبرات عن رضا وانفراح ، وأريحية وإشفاق . والكرم : صفة من الكرم . وجمعه كرام ، وكرماء . والقوم : ضد الكرم . ورجل لقيم : دفعه النفس والأصل ، شحيح ، غسيس ، دون ، مهين ، رذل ، حقير . وجمعه لثام ، ولثاء . والشرط الثانى من هذا البيت يؤكد الشرط الأول . وتبليغ جار مجرى المثل . ومعناه أن الشاعر إذا مدح كريماً ، ونوّه بمحامده وفضائله ، وأشاد بسموته وسطته ؛ فقد أشار بهذه الفضائل والمكرات إلى أضعادها من مناقس البخیل وبغائىها ، فأزرى بها ، وقبحها ، وهيجتها وفضّر منها . وهذه الإشارة تفى عن التصريح بلم البخیل وهيجاته .

يقول : أهل اللثم ، ورضع عن التصريح بلمه ، ولا تجعله موضوعاً لشمرك . وامدح الكرم بما يستحقه ؛ فإن مدحك لياه ، وتوبيحك بصفاته ومزاياه ذم ضنى لثم الموصوف بأضداد هذه الصفات . وصلة هذا البيت بالذى قبله : أن التدبير ، والتحكيم ، والإجادة تفرض حل الشاعر المجيد أن ينصرف بشعره عن هجاء اللثام ، ويتجه به إلى مدح الكرام ؛ وهو بهذا المديح يحقق غرضين ، ويصيب هدفين فى وقت واحد .

وَقَالَ :

حَتَّى الشَّيْبِ عُوْدِي فَأَسْتَقَامَتْ رَوِيَّتِي وَلَوْلَا أَنْجَنَاءُ الْقَوَاسِمِ مَا صَرَدَ السُّهْمُ^(١)

وَقَالَ يَفْتَحِرُ :

فِي قَائِمِ السَّيْفِ إِنْ عَزَّ الرُّضَا حَكَمُ فَالْحَكْمُ لِلْسَّيْفِ إِنْ لَمْ تَصْدَعْ الْكَلِمُ^(٢)

(١) حتى العيد وغيره (من باب رى) : ثناء ، ولواء ، وعوجه ، وقوسه ، فأنهى انهاء إلى الغلف ، وتقوس ويريد بموده : قامته . والعيد (في الأصل) : الثمن بعد أن يقطع . وكل خشبة ، دقيقة كانت ، أو غليظة ، وطبة كانت أو يابسة . والروية : الفكر ، والنظر ، والتدبر . اسم من روى في الأمر ترويتا وتروقة (بوزن تفعيل وتفعلة) : أي نظريه ، وتفكر في ظروفه وملازماته وعواقبه . واستقامة رويته ، أو رويته : استقامة تفكيره ، وصحة تدبيره ، وحسن نظره ، وسداد رأيه . والقوس : آلة على هيئة دلال ، أو نصف دائرة ، ترى بها السهام ، مؤنثة ، وقد تذكر . وكانت من أدوات الصيد والقتال . وصرد السهم تصريداً : أصاب الرمية ، وغرقت منها شاة سده . والسهم : عود من خشب ، يسوى ، ويثبت في طرفه فصل حاد جازح من الحديد الصلب ، ويرى به عن القوس .

في طبيعة الإنسان الجرح من الشيب ، والابتساع به ، فإنه لذير الموت ، والمؤذن بغروب شمس الحياة . وقد اتجه كثير من الشعراء والحكماء إلى تحسبه وتزيينه ، وتصوير مجامده وزاياه ، محاولين بهذا رد الابتسامة الحلوة ، وإشراقة النبتة والطمانينة إلى وجوده المرمى والشيوخ .

والشاعر هنا يشير إلى ما يتركه الشيب في الأشب من أصحاج عوده ، وانحناء قامته ، وينوء بما يصحب هذا من استقامة رويته ، ونفاذ بصيرته ، وسلامة نظره وتفكيره ، وسداد رأيه وتدبيره ، وصلق خبراته وتجاربته ، وصحة ملاحظاته ومعارفه .

والشطر الثاني تمثيل وتصديق لمخى الشطر الأول ، وتنبيل جبار مجرى المثل ، فإن السهم لا يصيب الهدف إلا بانحناء القوس ، وكذلك الأشب لم تستم رويته إلا بانحناء عوده ، وتقوس ظهره ، وكان الله تبارك وتعالى عودته من ضعف قواه الجسدية مضاعفة قواه العقلية .

* * *

(١) قائم السيف : مقيسه . والمراد السيف نفسه . وعز : صعب ، واستمعى . أو شق ، واشتد . ويراد بالرضا : رضا ، ورضا من تفاوضه من غصوننا وأعدائنا . وحكم (بفتحين) : حاكم ، أو فاضل في الخصومة . أي إن عز التراضي ، أو شق على نفوسنا الرضا بما يريدنا عليه خصمنا - احتكمنا إلى السيف ، واتخذنا عليه . والحكم (بضم فسكون) : القضاء ، والفصل في المنازعات والخصومات . وإن لم تصدع الكلم : أي إن لم تحسم النزاع كلمات المفاوضة والملازمة والمخاصمة . والصدع (في الأصل) : الشق في الأجسام الصلبة ، كالزجاج ونحوه . ومنه استعير صدع الأمر : أي فصله =

تَأْتِي فِي الضَّمِّ نَفْسٌ حُرَّةٌ وَيَدٌ
وَعَزْمَةٌ بَعَثَتْهَا هِمَّةٌ شَهَرَتْ
أَطَاعَهَا الْمُزْهَقَانِ: السَّيْفُ وَالْقَلَمُ^(١)
بِهَا عَلَى الدَّهْرِ عَضْبًا لَيْسَ يَنْتَلِمْ^(٢)

= وحسه . (وباه قطع) . وصدر بالحق : أي جهر به وصرح ، مفرقاً بينه وبين الباطل .

يدعو إلى الاعتماد على القوة الحربية ، واستخدام السلاح في حسم المنازعات ، ونفى الخصومات إذا أغفقت المفاوضات ، وصحب التراضي ، ولم تنتج كلمات الملاينة والمحاسنة . والشطران في معنى واحد . أو في معنيين متقاربين . والثاني يؤكد الأول ويمزجه . والبيت يجري مجرى الحكمة أو المثل . وقد مهد به الشاعر للنفس بنفسه في البيتين الآتين .

(٢) الضم : مصدر ضامه (من باب باع) : أي ظلمه ، أو أضاره ، أو ضاربه ، وأضر به . وضامه حقه : انتقصه ، وضمه . وسيف مرهف : حاد ، حاسم ، قاطع ، بتار . وقلم مرهف : قوي بلين ، شديد التأثير . مستعار من رهافة السيف .

في البيت السابق اعتمد بالكفاح ، وقوة السلاح ، وآثر الاحتكام إلى السيف إن عز التراضي ، ولم تقنع كلمات المسالة والمحاسنة . وفي هذا البيت اقتصر بمنزلة نفسه ، وكرم طبعه ، وحرصه على الحرية ، وتقديره من كل شوائب الآثم والمبيدة ، ومقدرته الحربية والكتائبية ؛ فهو محارب شديد البأس ، قوي المراس ، وأديب مرهف القلم ، ناصح البيان ؛ وهو لهذا كله يأبى الضم ، ويماف ذلك ، ولا يقبل الضير ، ولا يرضى بالخوان .

(٣) « الواو » : عاطفة . و « عزمة » معطوف على « نفس » في البيت السابق . والعزمة : الجدة ، والإرادة القوية القاطمة ، المؤكدة . والشدة : والصبر ، والثبات فيما يعزم عليه ، أي فيما تمقد عليه النية . وبعضها : أيقظتها ، وأهبتها . والهمة (بكسر الهاء ، وفتحها) : العزم القوي : مصدر عزم (من باب ضرب) : أي جد واجتهد ، وثبت ، وصبر . وعزم الأمر ، وعزم عليه : أي أراد فعله ، وعقد عليه نيته ، ووطن بالنية والإرادة نفسه عليه . ومن كلامهم : « له همة عالية » ، و « هو بعيد الهمة » . وشهر المحارب سيفه (من باب قطع) : سله ، وجرده ، وأخرج به من غمده ، ورضه ، يريد الكفاح ، والجلاد . وجها : بالعزيمة . والذهر : الزمان الطويل ، والأمد الممدود . والعرب تضيف إليه الخير والشر ، والحسنة والمساءة . وقد يطلقون على المنازلة والكارثة . ويراد بالذهر هنا : ما يصيب الناس ، أو يهددهم من الخطوب والكتابات . والسقب : السيف الحاد القاطع . وليس ينتلم : لا يكل ، ولا يقل ، ولا ينجو ، ولا يضيئ . ثلثة (من باب ضرب) فانكلم : فله ، وكسره فانكسر .

اقتصر في هذا البيت والذي قبله بنفسه الحرية الأبية ، وعزمته القاطمة القوية ، وهمة البعيدة الفنية ، وكفاياته الحربية والأدبية . وقال : إنه بهذا كله أبى الضم ، وترفع عن المذلة ، وكافح نوازلك الدهر ، وبجالد صروف الزمان بسيف بتار ، لا يصيبه الوهن أو الكلال .

وَفَتِيَّةٌ كَأَسْوَدِ الْعَاقِبِ ، لَيْسَ لَهُمْ إِلَّا الرَّمَاحُ إِذَا احْمَرَّ الْوَعْيُ أَجْمٌ^(٤)
كَالْبَرْقِ إِنْ عَزَمُوا ، وَالرَّعْدِ إِنْ صَدَمُوا وَالْقَيْثِ إِنْ رَجِمُوا ، وَالسَّيْلِ إِنْ هَجَمُوا^(٥)

(٤) الفتية ، والفتيان : جميع قى : وهو الشاب ، أو التابع . ومن كلامهم : « هذا قى بين الفتوة » : وهى الحرية ، والكرم ، والشجعة ، والشجاعة ، والسماة ، والبروة . والولوى فى أول البيت : عاطفة . و « فتية » : مطوف على « نفس » فى البيت الثانى ؛ فالشاعر تأخى له القسم نفسه الحرة ، وبده المتمرة باستخدام القلم والسلاح ، ويزينه المكافئة لتوالب الحدثان ، ويختار بسلام كأسود العاقب : جميع غابة : وهى الأجمة ذات الشجر الكثير الملتصق المتكاثف . والعاقب مساكن الأسود أو الآساد . ومن كلامهم : « كأنه لىث غابة » . « وهو من ليوث العاقب » . والرماح : جمع ربح : وهو قناة فى رأسها سنان من حديد صلب قاطع جارح ، يطمئن به . وكان من أدوات الحرب والعدا . والوعى : الحرب لما فيها من الجلبة والأصوات المخططة . وأحمرار الوعى : كناية عن استمرار القتال ، وشدة البأس ، وكثرة ما يسيل من دماء الجرحى والقتل . والأجم : جمع أجمة (بوزن قصبة) : وهى الشجر الكثير المتجمع الملتصق ؛ فهى بمعنى الغابة . وهى أيضاً مأوى الأسد . والأجم (بضمين) : الحصن . وبجمله أجام . شبه فتياته : أى جنوده وأتباعه بأسود العاقب ، وبجمل رياحهم وأسلحتهم أجمات ، أو غابات ، أو عراقن أو حصوناً يمتصون بها ، ويمتلئون عليها ، ولا يفزعون إلا إليها إذا حصى البوليس ، واشتد البأس ، وقامت الحرب على ساقيها .

فى البيتين السابقين انتصر بأفه من أباة القسم ، ذوى النفوس الحرة المقررة العززة الأبية . ثم يتألم كفايته الحرية والأدبية ، ثم يهتبه العالية القوية ، ويزينه الصارمة المكافئة لغدر الزمان ، وفوالب الحدثان ، وحوائل البنى والطينان . وهو فى هذا البيت يمتز بفتياته البسلامة اللين يحتمون بالسلاح ، ويمسكون الجلود والكفاح إذا جدّ الجدّ ، واشتدّ البأس ، ودعا داهى الحرب والقتال . وفى ثمانية الأبيات الآتية وصف مفصل ، وإطراده وحسن ثناء على هؤلاء الفتيان والأتباع ، أو الجند والأعوان ، أو الرفاق والصحاب ، أو الآباء والأجداد .

(٥) النيث : المطر الخاص بالخير ، وفيه معنى الرحمة العامة ، والإحسان التام . وفى البرق والرعد معنى القوة والسرعة . وفى الهجوم معنى المباغتة والمفاجأة .

يمتدح هؤلاء الفتيان بأنهم إذا حزوا أمراً ففسدوه فى سرعة البرق الخاطف وقوته ، وإذا حاربوا عدواً كان صدامهم له ، وهجومهم عليه كالرعد الجالب القاصف ، والسيل العارم الجارف الذى لا يبعد ولا يطاق . وهم فى السلم رعاة محسنين كرماء ، ورحمتهم واسعة شاملة عامة ، وفيث لا ينقطع ، ولا ينفض .

إِنْ حَارَبُوا مَعْشَرًا فِي جَهَنَّمَ غَلَبُوا أَوْ خَاصَمُوا فِتْنَةً فِي مَحْقِلٍ خَصِمُوا^(٦)
لَا يَرْهَبُونَ الْمَتَانِيَ أَنْ تُلِيمَ بِهِمْ كَانَتْ لِقَى الْمَتَانِيَ عِنْدَهُمْ حَرَمٌ^(٧)
مُرْتَهَبُونَ ، حَسَنٌ فِي مَجَالِسِهِمْ وَفِي الْحُرُوبِ إِذَا لَاقِيَتْهُمْ بِهِمْ^(٨)

(٦) المعشر: الجماعة من الناس أمرهم واحد . والجعلل : الجيش الكثير ، فيه الخيل والفرسان .
وخاصمه فخصمه (من باب ضرب) : غلبه في الخصومة : وهي المنازعة والمجادلة والملاحاة . والفِتْنَةُ :
الطائفة ، أو الجماعة من الناس . والجعلل : أغلس وكان الاجتماع . وهو اسم مكان من حفل القوم
(من باب ضرب) : أي اجتمعوا ، وأشدوا . وبثله احتفلوا .

مدحهم بأنهم الثالوث المنتصرون على أعدائهم وعصومهم في ميادين الحرب والقتال ، ومحافل الخصام
والجدال . وفي هذا تنويه بشجاعتهم وإقدامهم ، وكفايتهم الحربية والعقلية والمنطقية ، وسفور بداهتهم ،
وقوة حججهم ، وإطلاق آرائهم ، ونصاعة بيانهم ، وكل ما تتطلبه الغلبة في هذه الميادين من المزايا
والمؤهلات .

(٧) لا يرهبون : لا يخشون ، ولا يخافون (وبابه تصد) . والمتانيا : جمع المتنية : وهي الموت . وألم به :
أنه ، فترك به . والقي (يضم فسكون ، أو يفتح فسكون) : اللقاء . مصدر لقيه (كرهيه) . وحرَمُ
الرجل : ما يحيط به ، ويدافع عنه ، ويقاقل دونه . والحرمان الشريفان : بيت الله تعالى بمكة ، ومسجد
نبيه صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وثالثهما المسجد الأقصى ببيت المقدس . والحرَم : جمع حرمة
(يوزن مهجة ومهج) : وهي ما يجب القيام به من الحقيق ، ويحرم التفريط فيه ، ولا يحل انتهاكه .
والمراد بهذه المعاني كلها أن المدحوسين يلقين المتانيا في جرأة واستيسال وشجاعة وإقدام ، ورضا وإنشراح ،
كانهم يلقون شيئاً شائعاً رائقاً ، محبباً لديهم ، عزيزاً عليهم .

في البيت السابق قال : إنهم الثالوث المنتصرون على أعدائهم في الحروب . وفي هذا البيت بيان
لأهم أسباب الغلبة والنصر : ففي الشطر الأول أنهم لا يهترون الموت ، ولا يتهيبونه . وفي الشطر الثاني
أنهم يتقبلون عليه في غبطة وإرتياح ، ويلقونه لقاء المشوق المستبام لما يشوقه ويستبويه .

(٨) مرفهون : يحيين حياة الرفاهية : وهي التمتع ، والخصب ، وسمعة الرزق ، ولين العيش ،
ورفده ، وطيبه . وحصان : جمع حسن . وجم : جمع همة (يضم فسكون) : وهو المحارب الشجاع
الذي يستهم على أعدائه أماته ، أي لا يهربون كيف يتقبلون عليه ، ومن أين يؤخذ ؟ فهو مستعص
عليهم ، خالط ظافر .

يقول : إنهم في مجالس السلم حسان . وأدعيت رافهون ، تعرف في وجوههم نفرة التمتع . وفي ميادين
الحروب أشدها بسلامه ، مستهينون على عدوهم ، لا يكاد ينال منهم تيلاً ، ولا يكادون يهربون الدمة ،
أو الرهينة ، أو الحوادة والاستقرار . والباروت من طراز هؤلاء الرقاق أو الأعوان . وشأنه في الحرب
والسلم شأنهم ، وكانما يصف نفسه ؟ ويشعر بما يزيه ويردهه .

مِنْ كُلِّ أَزْهَرٍ ، كَالدَّيْنَارِ غُرَّتُهُ يَجْلُو الْكَرْبَةَ مِنْهُ كَوَكَبٍ ضَرِمٌ ^(٩)
 لَا يَرْكُنُونَ إِلَى الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا إِذَا هُمْ شَعَرُوا بِالذُّلِّ ، أَوْ نَقِمُوا ^(١٠)
 فَدَحِيبَ الْمَوْتِ كَرُمَةُ الضَّمِيمِ فِي نَفَرٍ لَوْلَاهُمْ لَمْ تَذُمَّ فِي الْعَالَمِ النِّعَمُ ^(١١)

(٩) « من في أول البيت : يمانية . وما بعدها هو « كل أزهر » بيان لما قبلها في البيت السابق ، وهم الحسان المرفهون . ورجل أزهر : أبيض ، نير ، مشرق ، مغنى الوسخ ، نابه اللسان . والدينار : نقد ذهبي قديم من نقود الدولة الإسلامية ، قيمته نحو نصف جنيه مصرى من الذهب . وفرة الرجل : طلعته ، ووجهه المشرق المغنى . ويحلو : يكشف ويزيل ، ويذهب (وبابه علما) . والكربية : النازلة والكارثة ، والداحية ، والشدة في الحرب . وكرواته النهر : شدائده ، وما يكره منه . ومن الرجل الأزهر . وضرم (بفتح فكسر) : مشرق مغنى . وقد يكون المراد بالكوكب القمر : السيف اللامع المصقول ، وأسلحة القتال والجلاذ ؛ فالمندوسون يكشفون كرواته الحروب ، ويكسبون لأنفسهم ولبلائهم النصر والغلبة بحسن استخدامهم لما يحملونه من الأسلحة اللامعة المصقولة ، وأدوات الجهاد والجلاذ . ويلاحظ أن أكثر كلمات هذا البيت : وهي الأزهر ، والدينار ، والوفرة ، والكوكب ، والقمر - تدور كلها حول الإشراف والإضاءة والتلألؤ .

شبه هؤلاء الزهر الحسان المرفهين بالكواكب النيرة ، ولتنجوم اللامعة في سماء الميزة ، وطول القدر ، وبهاية الشأن ، وحرور النفع ، وذهاب صيبتهم في الناس . وقال : إن وجوبهم مشرقة متألقة كالدنانير ؛ وإلهم هذه المزايا يضيئون جوانب الحياة ، ويبدون ظلمات الخطوب ، ويكشفون عن الناس الكرواته ، ويسارعون إلى النجدة ، ويكافضون في الشدائد والملمات . وقد أسلفنا أن البارودي إذا نوه هؤلاء الرفاق أو الأعران ، فكأنما يفتخر بحماسته ومتابعه ؛ لأنهم على شاكلته ، ومن طرازه .

(١٠) « ركن إلى الدنيا (كمخض ، وقعد ، وعلم) : مال إليها ، واعتمد عليها ، ووثق بها ، وسكن وأطمأن . وزينة الدنيا : ما يحرص عليه الناس من متاعها ، كالمال ، والأثاث ، والرياش . وفي القرآن الكريم : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ، والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة وانجيل المسوية والأنعام والحارث . ذلك متاع الحياة الدنيا . والله عند حسن المآب » (الآية رقم ١٤ من سورة آل عمران) . ونقم الأمر (من باب ضرب وفهم) : أنكرو ، وصابه ، واستهجنه ، واستعجبه ، وكرهه أشد الكراهية .

والحق : إذا أسعوا الذل ، أو تهدم الضيم ، أو رأوا ما يصاب ويتم - زهدوا في الدنيا وزينتها ؛ وغلبوا ثياب الرفاقة والنعيم ، وجاهدوا وجالدا مستبشرين مستعدين الموت في سبيل النزة والكرامة ، ودفن الهوان والمعنون .

(١١) الضم : مصدر ضامه (من باب باع) : أبى ظلمه ، أو أذله ، أو أسر به . وضامه : حقه : انتقمه وغنمه . وكره الضيم (بفتح الكاف وضبها) : كراهيته ، وإبائه (وبابه فهم) . و « في » : بمعنى « إلى » . قال تعالى : « ولكن الله يحب إليكم الإيمان ، وزينه في قلوبكم » -

مَاتُوا كِرَامًا ، وَأَيَقَنُوا لِلْعَلَا أَثَرًا . نَالَتْ بِهِ شَرَفَ الْحُرِّيَةِ الْأُمَمُ (١١٧)
فَكَيْفَ يَرْضَى الْفَتَى بِالذَّلِّ يَحْمِلُهُ وَالذَّلُّ تَأَنَّفُهُ الْعَبْدَانُ وَالْعَدَمُ؟ (١١٨)

= (الآية رقم ٧ من سورة الحجرات) : أى قد حجب كره الغنم الموت إلى فقر . والنفر : ما دون العشرة من الرجال . أو النفر ، والرهط ، والقوم : بمعنى الجمع . ولا واحد لها من لفظها . ويراد بالنفر هنا : من نوب بهم الشاعر في سبعة الآيات السابقة . أو يراد بهم : أباة الغنم في كل زمان ومكان . والعالم : الخلق والناس . ويراد بالنم : ما يتسع لكل الأمن والسلام والطمأنينة والحق والعدل والإنصاف ، والعزة ، والحرية والكرامة . والتعاون والإغاثة والمساواة ، والمال ، والتخفص والذعة ، واستقلال الوطن ، ورفد العيش ، وحسن الحال ، ورعاه الببال .

ولمضى : أن النم إنما تقدم للناس في هذا العالم بمن يحافظون عليها ، ويدافعون عنها من الأزمة الأباة الأحرار الذين كرهوا الغنم ، فأحبوا الموت ، واستعدبوا ، وأعدوا أنفسهم . وهربوا وأرواحهم لكافة البلى والعدوان ، ومহারبة الظلم والطغيان ، وتحصيل أغلال المذلة والهلوان . ويلاحظ أن الشاعر انتقل في هذا البيت والبيت الذى بعده من التخصيص إلى التعميم ، أى من امتداح ذفاقه وأعدائه إلى تمجيد أباة الغنم الذين ماتوا كراماً ، فكان موتهم ثمناً غالياً لحریات أمهم وبلادهم .

(١٢) في البيت السابق قال : إن هؤلاء النفر كرهوا الغنم ، فأحبوا الموت ، واستعدبوا ، وهدأ أدماء العالم ما ينم به من العدل والإغاثة والرخاء والسلام . وهذا البيت زيادة بيان وإيضاح لهذا للمضى ، فإن هؤلاء المكافحين الأبطال ماتوا في سبيل المجد والجهاد أزمة أجياداً ، كراماً أجياداً ، وبدلوا أرواحهم في رضاء وألقاح ، فلم يته الأمر بموتهم ، بل خلدوا للممالي آثاراً حميقة باقية ، حققت لأمتهم ما كانت تطمح إليه ، وتحرص عليه من الحرية والعزة ، والمنمة والقوة ، والمهابة والكرامة ، والسعادة والاستقلال .

(١٣) الاستفهام في أول هذا البيت : مناه التصيب . أو الإنكار ، فهو يتصجب ويتعجب من أن يرضى الفتى بالذل ، ويحمل عاره وشاربه . وفى التصيب هنا معنى التوبيخ والتقريع . أو هو ينكر هذا ، ويصيه ، ويستقيسه ، ويستبينه ، وينهى عنه . ويراد بالفتى هنا : الإنسان مطلقاً ، فإن الفتيان والشبان والكهول والشيوخ والرجال والنساء مطالبون جميعاً بدفع الذل ومقاومته ، والتخلص منه بكل ما يستطيع من القوى والوسائل . ويحمله : يحمله ، ويصبر عليه ، ويستكين له . وتأنفه : تستنكف منه ، وتكرهه ، وترفع عنه ، وترفضه ، وتبأه (وبأبه تصب) . والعبدان (يضم العين وكسرها) : العبيد : جميع عبد : وهو الرقيق المملوك لغيره . والوار : في أول الشطر الثاني : أو الحال ، والجملة بعدها حالية .

في البيت السابق قال : إن الأبطال الكرام ماتوا وهم يدافعون عن أنفسهم وبلادهم عار الذل ، وسبة الهوان ، فكان موتهم في هذا السبيل علاه ومجداً باقياً مخلداً على مدى الدهور والصور . وكان من آثار هذا الدفاع المجيد ، وبذل المهج والأرواح أن نظرت أمهم بشفرة الحرية والعزة ، والمنمة والكرامة . وفى هذا البيت عجب وعجب ، واستكروهين أن يرضى المرء بالذللة ، ويقم على الغنم وهو يعرف =

إِنْ لَمْ يَكُنْ لِيَفْتَى فَضْلٌ وَمَخِيئَةٌ فَلَنْ وَجِدَانَهُ فِي أَهْلِهِ عَسَلَمُ^(١٥)
فَالْجُلْمُ مَا لَمْ يَكُنْ عَنْ قُنْزَةِ خَوَرٍ وَالصَّبْرُ فِي غَيْرِ مَرَضَةٍ الْمَلَانَمُ^(١٦)
فَارْغَبْ بِنَفْسِكَ عَنْ حَالِ تَضَامٍ بِهَا فَلَيْسَ بَعْدَ اطْرَاحِ الذِّلِّ مَا يَجُومُ^(١٧)

— تاريخ هؤلاء الكرام الخالدين، ويرى الخدم والعبيد يستنكفون من الذل، ويعلم أنهم بهذا الاستنكاف خير منه وأشرف، ويعلم فوق هذا أن الموت أخف وأهين، وأكرم وأعظم من حياة المهين الذليل؛

ذلٌّ من يهبط الذليل يمشي ربٌّ يمشي أخفّ منه الحمام

والفرض من مثل هذا البيت الخفض على إياه الضم، ودفع المكدلة بالكفاح وقوة الصلاح، وبلى الموعج والأرواح.

(١٤) الفضل : الإحسان ابتداء بلا حلة . وهو في الأصل الزيادة ، وأكثر استعماله في الزيادات الحميدة ، كفضل العلم ، والحلم ، والشجاعة ، والنجدة ، والتغير ، والبر ، والحيمة ، والمروءة ، والتفوق ، والألفة . والحمية (بوزن المعصية) : الحماية ، والمنعة ، والمزة ، والحق : مصدر حتى الشيء يحويه حماية وحمية : إذا منعه ، ودفع عنه ، وجعله حتى لا يقرب ، ولا يمتدّ عليه . والشاعر يريد بالوجدان : الوجد : شد الدم . ولم نجد صريحاً بهذا المعنى فيما بين أيدينا من المسجمات . يقول : إذا لم يكن للمرء فاضلاً كريماً ، قوياً عزيزاً ، أياً شجاعاً ، يحسّ ضاره ، ويصون حماه — فقد تفتت في أهله وقومه ، ويسقط قدره ، وهان على الناس أمره ، واستوى وجوده وعدمه .

(١٥) الحلم : الأناة ، وضبط النفس ، والصنم ، والتصامح : مصدر حلم (ككرم) : أي تأني ، وسكن عنه غضب أو مكروه ، مع قدرة وقوة . والمجور : الضعف والانكسار . والمرضاة : الرضا . والملا : الغلاء ، والرغبة ، والأشرف . وجميع العليا (كأكبرى والكبر) .

وسمى الشطر الثاني : أن الصبر يصمد ويصمد مقبته ، ويمد من الفضائل إذا رغبته المالح ، وصدر عن حزة وقوة ، وشرف ورفعة ، وإباء ومنعة ، فإن لم يكن كذلك حدث من الرذائل ، وأنتج الندم والحسرة ، واقترب بالهوان والمذلّة .

أما الشطر الأول فإنه في هذا المعنى ، أو فيما يدانيه . وهو قريب من قول أبي الطيب المتنبي :

كل حلم أتى بعين اقتصدار حجة لا يجيئ إليها التام

ولا ريب أن القول بجميع نقائص كثيرة ، منها المجور والانكسار ، والضعف المزرى .

(١٦) رغب عن الشيء (من باب طرب) : لم يردّه ، وزهد فيه ، وأعرض عنه ، وتركه متعمداً . ورغب بنفسه عن الشيء : كرهه لها ، ورأى بها عنه ، واستنكف منه ، ورفع . وضاها (من باب باع) : ضاره ، وقهره ، وظلمه ، وأذله . وبها : بالخال : أي فيها ، أو بسببها . واطرح الشيء اطراحاً : طرحه ، وألقاه ، ونبذه ، وأبعده . ووصمه (من باب وعد) : ثلبه ، وعابه . —

وَلَا تَخَفْ وَرَدَّ مَوْتٍ أَنْتَ وَارِدُهُ مَنْ أَخْطَأَتْهُ الرَّزَايَا غَالَهُ الْهَرَمُ^(١٧)
إِنَّ الْعَلَا أَثَرَ نَحْيًا بِذِكْرِهِ أَسْمَاءُ قَوْمٍ طَوَى أَحْسَابَهَا الْقَدَمُ^(١٨)

— يحضّر على إياه القسيم ، ويكافئه العظم ، والفرح عن المهانة . ويقول : إذا أنقيت عن نفسك رداء الذل والاستكانة لم تجد بعدها شيئاً يعيبك : أى برئ عرضك من كل المثالب والنقص ؛ فقد جعلها كلها فى نطاق الملة والهوان .

(١٧) ورد الماء وغيره (كود) : بلغه ، ووافاه ، وصار إليه ، ودالاه . والاسم منه الورد (بكسر فسكون) . واسم الفاعل وارد . ومعنى الشطر الأول : أنه لا ينبغي أن تهيب الموت ؛ فإذك وارده لا محالة ، وشارب كاسه حتى الإمالة . والرزايا جمع الرزية (بالهمز والتسهيل) : وهى المصيبة . ويراد بها هنا : مصيبة الموت . وغاله (من باب قال) : أخذه من حيث لا يدرى ، فأهلكه وأرداه . والهرم : الشيخوخة (وفعله من باب قصب) .

والمعنى : أن اتقاء الموت أو الاحتراس منه غير ممكن ؛ فإن المرء ميت لا محالة « كل نفس ذائقة الموت » (الآية رقم ١٨٥ من سورة آل عمران) . وإذا كان الأمر كذلك ، فمن البار أن تكون جباناً . والشطر الثانى تدليل لتأكيد انحناء الموت ؛ فإذا أخطأ إنساناً فى طفولته ، أو صباه ، أو شبابه ، أو كهولته — أصابه قطعاً فى هربه وشيخوته . وصلة هذا البيت وثيقة بالآيات التى قبله ؛ ففيه حصص قوى صريح على الجحد بالنفس فى سبيل دفع الذل ، وإياه القسيم ، واتقاء العار ، وحماية الثمار . وما يناسب هذا المعنى قول أبى الطيب المتننى :

غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحات ، ولا يلاقى الهوانا
ولو أن الحياة تبقى بحلى لمددنا أضلنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بد فمن الصجر أن تكون جباناً

(١٨) الذكرة : الصيت ، والثناء ، والشرف ؛ والذكر الحسن ، والسيرة الطيبة تنتشر بين الناس . ويراد بأسماء قوم : ما اقترن بأسماء المجاهدين فى سبيل العزة والكرامة من أعمال البطولة والجهد . والأحساب : جمع حسب (كسب وأساب) : وهو الكرم ، وشرف الأصل ، وما يمدّه المرء من مناقبه ومفاخر آبائه .

والمعنى : إذا رغب المرء بنفسه عن القسيم والهوان ، ودفعه من قومه بالجهد والاستبسال الذى لا يهيب الموت ولا يباليه — غلبه لنفسه شرفاً وهلاجه تبقى على الدهر آثاره وأغباره ، وتحيا بين الناس ذكرايته وبطولاته ؛ فلا تفتأ تنشر ما يحاول القدم عليه من حسب المجاهد ومناقبه ؛ فالجهاد فى سبيل العزة والكرامة ، والاستبسال فى دفع القسيم والهوان من المالى الخالدة التى لا يطورها القدم ، ولا يأتى عليها النسيان . أو المعنى : أن العلا أثر خالد ، يبقى على الدوام صيته ؛ فيسعى ما أقدر من مكارم أصحابه ، وينشر ما طواه القدم —

وَقَالَ :

أَلَمْ يَبَانَ أَنْ يَزَعَى عَنِ الدَّهْرِ مُغْرَمٌ أَمْ الْعَمْرُ يَفْتَنِي وَالْمَارِبُ تُعْتَمِدُ ؟^(١)
أَحَاوِلُ وَصَلًا مِنْ حَبِيبٍ مُنْعَمٍ وَيَغْضُ أَمَانِي النَّفْسُ غَيْبٌ مُرْجَمٌ^(٢)

= من أحسابهم . ولا ريب أن ما دعا إليه الشاعر في الأبيات السابقة ، وحس عليه من الفعل والحمية ، وإياه الضم ، والطرح اللذ ، يكسب الملاء ، ويخلد الذكر .

تلخيص وتعليق

افتتح الشاعر هذه القصيدة ببيت أجراه بحرى الحكمة والمثل ، وجعله تمهيداً للفخر ببعض مناقبه في البيتين الثاني والثالث . وفي سبعة الأبيات بعد هذا (٤ - ١٠) نوه بطائفة من مصبه ورفاقه ، أو جنته وأهوانه ، وأشاد بمزاياهم في الحرب والسلام . وفي البيتين الحادى عشر والثاني عشر مجد (بصفة عامة) أباة الضم الذين ماتوا كراماً مجاهدين ، فكانت دلائل اثني العالى لحریات أهم ، ونزة بلادهم . وفي ستة الأبيات الأخيرة نحا إلى الحكم والأمثال المتصلة بموضوع هذه القصيدة ، وهو إياه الضم ، والحرص على الكرامة . والطرح اللذ ، وحماية الحرية بالكفاح وقوة السلاح ؛ والاستهانة بالموت في هذا السبيل ، وتكريم الأبطال الخالدين الذين لا تقتأ مصالحهم ، وأكابرهم الخالدة ، وذكرياتهم المتجددة تجمي تاريخهم المجد ، وتنتشر ما يحاول التقدم طيه من أحسابهم ومناقبهم . فهذه ثمانية عشر بيتاً من شعر الفخر والحفاة منسجمة ملتزمة تحتل مرتبة عالية من شرف المعنى ، وبجزالة اللفظ ، وجمال النظم ، وقوة الجرس ، وتحريك التاليف .

* * *

(١) أَلَمْ يَبَانَ : أَلَمْ يَحْن . أَلَمْ يَحْن (من باب رحن) : حان ، وقرب ، ودنا ، وحضر . وبغرم : عاشق مستهام . وه أم : بمعنى « بل » . وتقيد الإضراب . والمآرب : الحاجات ، أو المطالب ، أو الأمانى : جميع ماؤب (يؤزن مذهب) . أو مأربة (بتثليل الراء) .

أولع الدهر بممارسة العاشقين ، وتعلم آملهم ؛ فالواحد منهم يشق بأوصاب الحب ، ومراره القلبية والمجبران ، ثم يترك الموت قبل أن يتحقق شيء من مأربه ومطالبه . والشاعر هنا مفرم مستهام ، يشكو زمانه ، ويلويه في سخط ، ويعاتبه تمنياً أن يُصْغَب أمثاله بالمهادنة والمياسرة ؛ ليرضوا عنه ، ويهتتوا إليه . ولكنه ما لبث أن أضرب عن هذا التمنى مستهشاً ، مستشعراً الحزن والحسرة ؛ لأنه رأى عمره يحدو في طريق الفناء والعدم ، وتبقى معه حاجاته وأمنياته المعلقة .

(٢) حاول الشيء : أرادته ، وطلبه بالحيلة . والوصل : الرصال ، والقرب . ونسبه المجبران ، والقطعية . ومنع : منع يصعب الوصول إليه ، ولا يستطاع الاتصال به . والأمانى (بالتخفيف والتشديد) : المنى ، والأمال . الواحدة أمنية . ومرجَم : تأكيد لمنى الغيب . وحديث مرجَم : لا يقف على حقيقته . =

وَمَا كُلُّ مَنْ رَامَ الظَّالِمَ نَالَهَا وَلَا كُلُّ مَنْ خَاصَّ الْكَرِيمَةَ يَغْنَمُ^(٣)
يَسْرُ الْفَتَى مِنْ عَشْقِهِ مَا يَسُوهُ وَفِي الرَّاحِ لَهُوَ لِلْمُفْجُوسِ وَمَغْرَمُ^(٤)
وَلَوْ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عِلْمٌ بِئَلَهُ عَلَى خَافِيَاتِ الْغَيْبِ مَا كَانَ يَنْدَمُ^(٥)

= ويرجم بالغيب : أى تكلم بما لا يعلم . ويرجم ترجياً : تكلم بالظن والتخمين ، لا بالعلم واليقين .
ويراد بالغيب المريم : البعيد المستصحب .

يقول : إنه تعلق بحبيب يمنع لا سبيل إلى وصله . والشطر الثانى قليل جاز مجرى المثل ، مؤكداً لحن الشطر الأول ؛ لمحاولات الشاعر فى هذا الشأن غير مجدية ، وأمنياته من الأمور البعيدة المستصعبة .

(٣) رام الشيء (من باب قال) : أراد ، وطلبه . والظالم : جمع الظلمة . ويراد بها هنا : معال الأمور ، وبجلائل الرغائب ، ومطالب النعمة ، والمتصينات الواسعة الكبيرة . وخصائص الماء ونحوه (من باب قال) : دخله ، وبشئ فيه . وخصائص الفمرات : اقتحمها . والكرمية : الحرب . أو الشدة فيها . وضم الشيء (من باب فهم) : فاز به بلا مشقة . أو ناله بلا بدل . وضم الغارزى فى الحرب : نظر بمال عدوه ، وأغلبه بالقهر غنيمته .

ساق الشاعر هذا البيت مساق الحكم والأمثال ؛ ليمزى نفسه عما أشار إليه فى البيت السابق من إعطافه فى محاولاته ، وتعدُّر الرمال ، وتمنُّع الحبيب ، وتمصيه عليه ؛ فالمره قد يروم الظالم ، ويعطيه دائماً جاهداً ، فلا يظهر بشئ منها . وقد يحفوس الكرائه ، ويمجد فى الحروب بغير منم .

(٤) الراح : الخمر . والهوى : المتعة والمال . والمغرم : الغرامة ، والخسارة . وقد يراد به : لإثم والذنب .

والمنى : أن الماشق يسره من عشقه مقدماته وظواهره ، وتسويه عواقبه وبواطنه ؛ كالخمر يجد فيها شاربها ما يلهه ويلهبه . وفيها مع اللذة والهوى خسارة زائماً كبير .

أو المنى : أن الماشق يستلذ به - فى محاولات اتصاله بمحشوقته - كل ما يبذله من جهد ووقت وتفكير وتقدير ، وأموال ومناغم ، ويحصل فى هذا السبيل ما لا يكاد يطيقه من الأوصاب والآلام . ولا ريب أن كل هذا يسويه ويشيره ، ويضنيه ويذنيه . مثله مثل شارب الخمر يجد فيها ما يلهه ويلهبه ، وهى مع هذا تلتفت لنفسه والخلق والمقل والجسم والمال .

(٥) الخافيات : جميع خافية : اسم فاعل من خفى الشيء (كرمى) : أى استتر وغاب ، ولم يظهر . والخافيات من الغيب ؛ فإضافتها إليه من إضافة الكلمة إلى ما يرادفها ، أى يساويها فى المعنى .

يقول : لو اطلع الإنسان عل ما خفى عليه من أمور الغيب ، لاستشعرت نفسه السكينة والطمأنينة ؛ فلم يأسف على فائت ، ولم يكره شيئاً بعد فعله ، ولم تجد الحسرة ، أو الندم ، أو الأسى إليه سبيلاً .
وفى القرآن الكريم : « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما مسنى السوء » (الآية رقم ١٨٨ -

كَتَمْتُ الْهَوَىٰ خَوْفَ الْوُشَاةِ ، فَلَمْ يَزَلْ بَيْنَ النَّمْعِ حَتَّى بَانَ مَا كُنْتُ أَكْتُمُ^{١٧}
وَكَيْفَ أَدَارِي النَّفْسَ وَهِيَ مَشْوَقَةٌ وَأَحْلُمُ عَنْهَا وَالْهَوَىٰ لَيْسَ يَحْلُمُ^{١٨}
وَتَحْتَ جَنَاحِ اللَّيْلِ مَجِيئُ لَوْعَةٍ يَرِقُّ إِلَيْهِ الطَّائِرُ الْمُسْتَرْثَمُ^{١٩}

— من سورة الأعراف . وصلة هذا البيت بما قبله : أن الماشق قد جرى وراء أقدام ورجعات وأمان بعيدة مستحسية ، وأن محاولته في هذا السبيل تسوء ويجهده ، وتثنيه وتقضي . وكثيراً ما ينجرح في نهاية الخفاف حرارة الحسرة والحزن . ولو كان له علم يكشف أمامه هذه الخفايا والمغيبات لاطمأن نفسه إلى الواقع المحسوس ، أو المرتقب المعلوم ، وعرفت ما قدر لها ، وما لم يقدر ؛ فهدأت ، واستراحت من مخاوف الغيب المجهول ، وفاجأت القدر المقدر ؛ وأظلمت عن المساعي الخفيفة المضنية ، ولم يجد التلم أو الأسف إليها سبيلاً .

(٦) الوشاة : جمع الواشي . وهو الخزام : اسم فاعل من الوشاة : وهي التهمة ، والسعي بالفساد بين الناس (والفعل من باب ويح) .

والنمى : أن الحب شفه ، والوجد أبكاه ؛ فأظهر البكاء ما كان يكتمه من الصباية والحيام ، وتباريع الحمى والفرام ، واكتشف أمره الوشاة ، وهم خصومه وأعداؤه الذين يخافهم ، ويتقرب بالكتبان شرم . (٧) الاستهتام في أول البيت : معناه النقي . ودأبه (بالهمز والتسجيل) مداورة : حالته وخادعه ورائفه . أو لاطقه وحاسه ولايته ، ورقق به ، وأشفق عليه . أو خالفه ودافعه وإقناده . وألوى في شطري البيت : وأو الحال . والجملتان الاسميان يمتدحا حالتيه . وأحلم عنها : أدارها وألاقتها وأرققها ، وأصبر عليها . يقال : حلم عن الشيء . وإلح حلم عن العصاة : أى لا يعاجلهم بالعقاب (والفعل كقرب) .

في البيت السابق قال : إنه حاول جاهداً أن يكتم الهوى خوفاً من شرور الوشاة ، وإقناده لمكايدهم ؛ فلما برح به الوجد بكى ، ففضح بكائه أمره ، وكشفت دمعه سره . وفي هذا البيت شبه اعتذار عن بكائه ، وبعينه عن كتمان سره ؛ فإن الماشق القصب المستهتام لا يستطيع مداورة نفسه ، أو إخفاء قصائده من لوائح الصباية ، وتباريع الفرام . والهوى يطعمه ثائر ظلمه ، قهار غلاب ، لا يعرف الحلم والأناة ، أو المصابرة والمداورة ، ولا يستطيع إخفاؤه وكتمانها .

(٨) لوعة الحب ونحوه : حرقته . ولاحه (من باب قال) : أشرقه وأضاءه . ويريد بابين اللوعة : نفسه . و « تحت جناح الليل » : كناية عن أرقه وسهره ، ووجدته والتياحه في ظلمات الليل والناس نيام . ورق له : رسمه ، وصطف عليه . و « إلى » هنا : بمعنى « اللام » . والمترنم : اسم فاعل من ترنم الطائر وكل ما استلذ صوته : أى طرب بصوته تطريفاً ، وتقنى ، ورجع .

يشكر بعض ما يقاسمه من آثار الحمى ويلايساته كالأرق وسهر الليل ، والصباية والالتياح . ويخيل أن الطائر المفرد يبر بغيره من رفته له ، ومشاركته لإياه ، ورأفته به ، وحنانه عليه .

إِذَا مَدَّ مِنْ أَنْفَاسِهِ لَاحَ بَارِقٌ وَإِنْ حَلَّ مِنْ أَجْفَانِهِ فَاصٌّ خِضْرٌ^(٩)
وَإِنْ الَّتِي يَشْتَاقُهَا الْقَلْبُ عَادَةٌ لَهَا الرُّمُحُ قَدْ ، وَالْمِهْنَدُ مِغْصَمٌ^(١٠)
يَسْمُ بِهَا صُبْحٌ مِنَ الْبَيْضِ أَزْهَرُ وَيَكْتُمُهَا نَفْعٌ مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمٌ^(١١)

(٩) يراد بالبارق : البرق . ولاح : أومض ، ولاح ، يلح . و« من » في شطري البيت : معناها التبييض . وحلّ أجفانه : فتح عينيه . والخضرم (بكسر فسكون فكسر) : البحر العظيم . والكثير من كل شيء . وفيضان الخضرم هنا : كناية عن شدة بكاء « ابن اللوة » وغزارة دموعه ، واستمرار التبايع ، وشرقة ، وشدة وجدده .

ما زال الشاعر يشكو ما يعانيه من تبريح السيد والصبابة ؛ فقلبه ملتاح محترق ، وأنفاسه طويلة مملوءة ، حارة ملهبة ، تكاد ترى بشر يروض إرعاض البرق . وبكائه شديد كثير ، وعيانه تفيضان بلمع منبر غزير .

(١٠) أنادة : الفتاة اللينة ، الناعمة ، المثنوية . (والقلع من باب فرح) . والرمح : قناتة في رأسها ستان من حديد صلب جارج قاطع يطن به . وكان من أدوات القتال والصيد . والقند : القنعة . وقامة المرأة : قواصمها ، واعتدالها ، وحسن طولها . ويشبه قند الحناء بالرمح في الاعتدال ، والاستواء ، والروقة . والمهند : السيف المطبوع من حديد الهند ، وكان غير السيوف عند العرب ، وحديثه خير الحديد . والمعصم : اليد ، أو موضع السوار منها . شبه يدها بالسيف في البياض والنعاء والصفاء .

يقول : إن المشوقة التي تهيمه عادة هيفاء ، قدح الرمح ، ويدها السيف . يكنى بهذا عن معال الأمور ، وتعجيد القوة الحربية ، والتمرس باستخدام الأسلحة وأدوات الحرب والقتال . وميصرح بهذا أو بمعناه في البيت الخامس عشر والأبيات التي تليه .

(١١) يَمُّ بها (من بابي نصر وضرب) : يَمُّ بالفائدة : أي يظهرها ، ويبدعها ، ويجعلها . وهو تعبير مجازي من المِّم أو التِّمِّية . ومن كلامهم : « نَمَّتْ عَلَى الْمَسْكِ رَأْمَتُهُ » . والبيض (بكسر الباء) : السيوف : جمع الأبيض . أو هي البيض (يفتح فسكون) : جمع بيضة : وهي المففر ، أو الخيوة من الحديد ، أو من زرد الحديد ، يجعلها المحارب فوق رأسه ، أو تحت القلنسوة . وصبح أزهر : مشرق مغص . وتزوين « أزهر » لضرورة وزن الشعر . والتقع : القبار الساطع . ويراد به : النبار القائم الذي تتبره في ميدان القتال سنايك الخيل وحركات المتحاربين في الكرّ والفرّ ، والهجوم والدفاع . ورمع مظلم : أي تقع أقم أسود ، كأنه ظلمة الليل الحالكة . و« من » في شطري البيت : بيانية .

يقول : إن هذه أنادة يظهرها لسان السيوف ويريقها في أبنى المتحاربين ، وتلألأ الخيوات والمبارز مؤدروسهم . ويخفيها النبار القائم الأسود الذي تتبره في ميدان القتال وسباه المعركة ، سنايك الليل . وحركات المتحركين ، وتزاحم امعرسان في الكرّ والفرّ ، والهجوم ، والدفاع . وقد أسلفنا أنه يكنى بأنادة عن البطولة في الحرب . وأنه أولع بالبيض القواضب ، لا بالبيض الكواضب .

إِذَا رَأَسَلْتَ كَانَتْ رِسَالَةٌ نَجَّيْهَا بِضَرْبِ الطَّبَّا تُوسَى، وَيَا لَطْفَنَ تَعْمَمُ ١١٧
لَهَا مِنْ دِمَاءِ الصَّيْدِ فِي حَوْمَةِ الْوَعَى شَرَابٌ، وَمِنْ هَامِ الْقَوَارِيسِ مَطْمٌ ١١٨
فَإِنَّكَ الْبَنَى لَا وَصْلَهَا مَتَوَقَّعٌ لَدَيْنَا، وَلَا سُلُوكُهَا مَبْصُورٌ ١١٩

(١٢) راسله مراسلة : أرسل إليه رسولا ، أو رسالة . وفاعل « راسلت » : غير « غادة » في البيت العاشر . والشاعر يكتئب بها عن الحساسة ، والبطولة الحربية ، وشدة البأس في القتال والنزال . والمراد : راسلت عاشقها من أبطال الوعى ، وصناديد القتال . والظبا : جمع ظبة : وهي الحد القاطع من السيف ، والسنان ، والخنجر ونحوه ، بأرضي إليه ، وله بكذا : أمره به ، ودعاه إليه . وأوسى : أوبا وأشار . وأصل الوسى : الإيقاظ السريية . والظن : مصدر طعنه بالرمح ونحوه (من بابي قطع قتل) : أى ونحوه ، وضربه بسنانه . وتوسى بضرب الظبا : أى توسى إلى عاشقها أن يضربها بطلاتهم أعضام في الحروب . وتعمم (من باب نصر) : تلبو ، وتغرب ، وتختبر وتمتحن . وقد يراد بالعمم : التدريب والتمرين والتعود . وفى الشطر الثانى قصر أو تخصيص طريقته بتقديم ما حقه التأخير : أى أن هذه لفادة لا توسى إلا بضرب الظبا ، ولا تعمم إلا بالظن .

يقول : إن هذه الفادة ترسل عاشقها من أبطال الوعى ، وصناديد القتال . وإن كتبها إليهم ورسائل حبها لا تتمر الاختيار والتدريب ، والتحميس والتشجيع والحض على الجهاد والكناف ، والاعتبال في القتال والنزال ، والتمرس باستخدام السلاح ، والضرب والظن بالسيف والرمح لكسب النصر ، وبطولة الحرب .

(١٣) ها : أى لفادة المكئب بها عن البطولة الحربية . والصيد : جمع الأصيد : وهو المتكبر المزهو بنفسه . وكل ذى حول وطول من ذوى البأسين والبطالان . وألوى : الحرب ؛ لما فيها من الجلبة والأصوات المخلطة . وحومة الوعى : ميدان الحرب . وساحة القتال . أو أشد موضع فيه . والحام : جمع الحامة : وهي الرأس . أو أعلاه . أو وسطه . وقد تطلق على الجلبة . والفوارس ، والفرسان : جمع فارس : وهو الممارف ركوب الخيل ، المتمرس باستخدامها في القتال . وفرسان الجيش : هم المحاربون على ظهور الخيل . وطعم : طعام . و « من » فى شطرى البيت : بيانية . والترتيب الأصل للكلام : لفادة فى حومة الوعى شراب من دماء الصيد ، وطعام من هام الفوارس ، أى جشهم .

يقول : إن هذه الفادة مولة بدماء الصيد ، ودامات الفرسان وجشهم ؛ فها شرابها وطعامها فى ساحات الوعى والقتال ، وسومات الحرب والنزال . والفرض تصوير شيء من خصائص البطولة الحربية ، وزايدا صناديد الحرب ، وأبطال القتال ؛ فإن مهم التطويح بربوس أعضائهم ، وتمزيق جشهم ، وإسالة دماهم ؛ وهما يحطون القوى البشرية المتصدية لهم ، ويكسبون الحرب ، ويتم لهم الغلبة والنصر .

(١٤) « تلك » : إشارة إلى الفادة فى البيت العاشر . واللام فى « تلك » لام البعد ، فإن منزلة تلك الفادة عالية رفيعة بعيدة . ووصالها صعب عسير غير يسير . وتوقع : مأول ، مرتقب . ولدينا : =

عَلِقْتُ بِهَا ، وَهَى الْمَمَلِ ، وَقَلَمًا يَهْمُ بِهَا إِلَّا الشُّجَاعُ الْمُصَمَّمُ^(١٥)
 هَوَى ، لَيْسَ فِيهِ لِلْمَلَامَةِ مَسَلَكٌ وَلَا لِأَمْرِى نَجَاحٌ يَدِ النَّفْسِ مَالَمُ^(١٦)
 تَلَذُّ بِهِ الْآلَامُ وَهَى مُبِينَةٌ وَيَحْطُو بِهِ طَمَعُ الرَّدَى وَهُوَ عَلَقَمُ^(١٧)

١٥ عندنا . والسلولان : النسيان : مصدر سلاه ، وسلا عنه (من ياب سياه) : أى نسيه ، وطابت نفسه بعد فراقه . ويصترم : اسم مفعول من التصرم : بمعنى التجلبذ : أى التصبر : يريد أن السلوحها غير متجلبذ عليه : أى غير مستطاع .

يقول : إن تلك الفادة بعيدة المثال ، لا يترقب وصلها ، ولا يستطيع نسيانها ، أو التجلبذ لفراقها ، والصبر حل بعدها . والمراد : أن عشق الماشق لما لا يلايه ما يلايس عشق الفتيان الفتيات من الواصل والمهجرات ، والهام والسلولان . وهو يهد هذا البيت الآق ، وفيه أنه لم يعشق غير الممالى ، وعظايات الأمور ، وبطولات الحرب ، وأعمال الشجاعة والإقدام .

(١٥) علقت بها : هويتها ، وعشقتها ، وأحببتها (وبابه طرب) . والمعال : جمع الملاة : وهى الرقة والشرف . ونظها الملا والملاء . وهام بها : شغف بها حباً . والمصمم : الملقى فى الأمور بزمرة ثابتة صامدة ، وإرادة قوية قاطمة . اسم فاعل من صمم فى الأمر ، وصمم عليه تصميماً : أى مقص فيه يزم قوى ، ورلى ثابت .

يقول : إن الفادة التى أشرف بها : هى الرقة والشرف ، ومعالي الأمور ، والبطولات الحربية ، وأعمال الكفاح والنضال التى لا يهواها إلا ذور الشجاعة والنجدة ، والمزم القوى ، والإرادة القاطمة ، والبأس الشديد .

(١٦) هوى : غير لمتدل مخوف . والتقدير : هو هوى : أى حب وعشق وغرام . والملامة : اللوم والمذلل . وسلك : طريق . ونجابا متاجاة : سارّه : أى أسرّ إليه الحديث ، ونخافت به . وبه : بالهوى . وبأثم : أثم وقذب .

يقول : إن تعلق المرء بالممالى ، وهيامه بها من الهوى المصمود ، والمغلق خلال الذى لا أثم فيه ، ولا تثرىب حل صاحبه ، وليس للمذل أو الملامة طريق إليه ، أى ليس فيه ما ينفض الماشق ، ويكثر صفوه ، وفى استطاعته أن يجهز ويخافت به وهو آمن مطمئن .

(١٧) تلذ : تحلو وتطيب وتشتهى . (وبابه سلم) . وبه : بالهوى : أى بسببه ومن أجله . أو فى سبيله . ومبيرة : مهلكة مردية ، قاتلة . والرذى : الموت والأهلاك . وهو : أى طمع الردى . وعظم : شديد المראה . والواو فى شطرى البيت : وأوالحال . والجلتان الاسميان بعدها حاليتان .

تعلق الشاعر بالممالى ، والبطولات الحربية ، وعظائم الأمور ، وأحبها كل الحب ، وحبها لما نفسه وحياته ، وصم إليها مريضاً عليها ، مستحماً بها حباً . وهو فى هذا السبيل يستسهل الصعب ، ويستلذ الآلام المردية ، ويستعذب مرارة الموت ، ويرى فيه حلوة الهد الخالد ، والشرف الباقي ، والذكر الحى ، والصيت الذاهب فى الناس .

فَمَنْ يَكُ بِالْبَيْضِ الْكَوَاصِبِ مُغْرَمًا فَلَا يَكُ بِالْبَيْضِ الْقَوَاصِبِ مُغْرَمًا^(١٨)
 أَيْسَرُ وَأَنْفَاسُ الْقَوَاصِبِ رَكْدٌ وَأَسْرَى وَالْحَاظُ الْكَوَاصِبِ نَوْمٌ^(١٩)
 وَمَا بَيْنَ سَلِّ السَّيْفِ وَالْمَوْتِ فُرْجَةٌ لَدَى الْحَرْبِ إِلَّا رَيْثَمًا أَتَكَلَّمُ^(٢٠)

(١٨) البيض في الشطر الأول : جمع بيضاء : أي فن يك مغرمًا بالبيض الحسان الكواصب من النساء . وفي الشطر الثاني : جمع أبيض : وهو السيف . وبينهما جناس تام ، وهو من المحسنات البيعية اللفظية . والكواصب : جمع كاصب : وهي الفتاة التي كصب ثعبا : أي نهد ، وثنا . وانتهى ، وبرز ، وأفرت ، وظهر ، وارتفع . والمغرّم : المخلع بالشيء : أي الذي اشتد تعلقه به . وصيف قاصب : حاد ، مهبط ، قاطع ، صارم ، يتّار . وصيوف قواصب .

يقول : إذا أفرم أمثاله من الشبان بالبيض الحسان التواحد من النساء ، وهاموا بهن ، فإنه الصب الحسام بالسيف القواصب ، وأسلحة القتال وحشاده ، وبطولات الحرب والنزال . والبيت وثيق الاتصال بالأبيات التي قبله ، ففيها ولوح الشاعر بالجمال ، وتنبهه بأمثاله ونظراته من الشبان المصممين ، أي المزوم القوي ، والبأس الشديد .

(١٩) الأولى شطري هذا البيت : وأوالحال . والجملتان الاسميان بعدها حاليتان . والأنفاس : جمع نفس (يفتحين) : وهو نسيم الهواء ، وحركة الريح إذا كانت ضعيفة لينة ، قبل أن تهب ، وتكور ، وتمصف ، وتشتد . والقواصب : جمع عاصف ، أو عاصفة : وهي الريح إذا عصفت (من باب ضرب) : أي هبت بعنف ، وهاجت ، وثارت ، واشتعلت . ويراد بالقواصب هنا : الفتن ، والمضطرب ، والحروب . وركد : ساكنة ، هادئة : جمع راكد ، أو راكدة . ولعل المراد : أنه يسير في ميدان القتال بين جندته متفقدًا أحوالهم محمسًا لإيام ، وأسا خطط الهجوم والدفاع ، قبل أن يلتحم الجيشان ، ويقوم الحرب على ساقها ، ويحمي القواصب ، ويضطرم الشر ، ويشد البأس . وقد تكون «ركد» محركة عن «ركض» : جمع راكض وراكضة : من ركض الغرض ونصوه : إذا ضرب الأرض برجله ، وعدا ، وأسرع . وكل هذا يكون المعنى : أنه إذا عصفت الحرب ، واشتد البأس ، واضطرم الأمر ، وظلم الخطب ، سارق الحركة ، وشاحن غبارها في جراحة وشجاعة وإقدام ، وفي غير ميالة ، أو اكتراث . وأسرى : أسير ليلًا . والألحاظ : جمع لحظ وهو النظر بمؤخر العين من أحد الجانبين . ويراد بالألحاظ هنا : الصيود . ونوم : جمع نائم . ونوم الحاظ الكواكب والنجوم : كناية عن ظلمة الليل الخالكة ، وصواده القاتم . ومعنى الشطر الثاني : أنه يسير في الليل المظلم المغم ، الخالك السواد بجراحة وشجاعة ، لا يبال الخاف ، ولا يهاب الأخطار . والبيت كله تمدح بالشجاعة والإقدام على المخاوف والأخطار ، والتدريس بالحروب والمضطرب .

(٢٠) «سَلِّ» الماخرب سيفه على عدوه (من باب رد) : شهو : أي أخرجه من غده ، ورقبه مجالداً مضارباً . وبينهما فرجة : أي انفراج ومسافة قصيرة ، وقد حدها الشاعر في الشطر الثاني بقوله : -

أَنَا الْمَرْءُ لَا يَنْتَبِهُ عَمَّا يَرِيئُهُ نَهَيْتُ الْمَدَا وَالشَّرَّ عُرْيَانُ أَشْأَمُ (٢١)
أَغْيَرُ عَلَى الْأَبْطَالِ وَالصَّبْحُ أَشْهَبُ وَأَوَى إِلَى الضَّيْفَانِ وَاللَّيْلُ أَدَمُ (٢٢)

« وينا أنكلم » أى مقدار تكلمى. ولمله يريد يتكلمه : أمره لجنوده بشهر السيوف ، واستخدام الأسلحة ، وإطلاق نيرانها . وقد يكون المراد يتكلمه : تعريفه بنفسه . ويجهره باسمه ولقبه ، كما كان يفعل أبطال العرب فى حروبهم . وأوى : ظرف مكان بمعنى « عند » . وقد تستعمل فى الزمان . يقول : إذا تأهب للقتال فرعان مايفتك سلاحه بأعدائه ، ويستحضر فهم القتل . يضر بشجاعته ، وشدة بأسه ، وقمره بالقتال ، وحسن استخدامه للملاح ، وسرعة فتكه بعموه . وإذا لاحظنا أن البارودى قلته حربى ، كان فى البيت - زيادة على ما تقدم - إشارة إلى صراته ، وبحكم قيادته ، وصارفة جنده إلى طاعته ، وفائق دريهم بالجلاذ والفراب .

(٢١) لا ينبيه : لا يصره ، ولا يريده (وبابه رى) . ويرويه : يريده ، ويطلبه (وبابه قال) . ونهيت المدا : أصولهم الشديدة المزجية . والنهيت (فى الأصل) : صوت الأسد وزفيره . أو هو صياحه دون الزفير . والمدا (يضم المين وكسرهما) : الأعداء : جمع علو . وهو جمع لا نظير له . أو هو اسم الجميع . وأشأم : مشتم : من الشؤم : وهوالتشاؤم ، والتطير . وشده ايمن ، والفأل ، والبركة . والوار فى الشطر الثانى : وأوالحال . والجملعة الاسمية بعدها حالية . ويرى الشير قشويه : كناية عن شدته ، وضراوته ، واستحزازه .

يفتخر بأنه ماض ، مصمم ، جرى ، مقدم ، قوى العزم . شديد البأس ، ذومراس فى الحروب والشدائد إذا علانتهيت المدا ، وأبلى الشر ناجديه ، وحسى الوطنى ، واستحرق القتال . (٢٢) أغار على أعدائه إغارة : دفع عليهم الخيل . أو هجم عليهم ، وأوقع بهم . والاسم منه : الغارة . والأبطال : جمع بطل : صفة من البطولة : وهى الشجاعة . والبسالة ، والإقدام ، وشدة البأس ، وقوة المراس فى الحروب والشدائد ، والنظام ، والملمات (والفعل من بابى سهل وظرف) . وإغارته على الأبطال من أمدانه دليل على أن بطولته أقوى وأشد ، وأعمل وأعظم من بطولاتهم : وأشهب : صفة من الشهب ، أو الشهبة : وهى يياض يشوبه ، أو يظلب عليه سواد . وتونين « أشهب » هنا لفرورة وزن الشعر . وشبهة الصبح : وقت الفجر ، وهومن الأوقات التى تناسب الإغارة والهجوم والمباغتة . والوار فى شطرى البيت : وأوالحال . والجملتان الاسميان بهما : حاليان . وأوى له (كرس) : رقه له ، ورحمه ، وأكرمه . وأوى إليه : عاد إليه ورجع . والضيفان : جمع الضيف . وأدم : أسود ، مظلم ، مم . ودومة الليل وظلمته : إشارة إلى كرم الضيافة : ففى الليل المظلم تشتد حاجة السارى إلى من يضيئه ، ويؤويه ، ويؤنسه ، ويكرمه . وذلك فى البيضة الصحراوية وما يشبهها . والبارودى مولع بنقل صورها ، وشاكاة القداى من شرها العرب . اقتصر فى الشطر الأول بالشجاعة والإقدام ، والتفوق على أئداده وأقرانه من الأبطال المحاربين . وتعد فى الشطر الثانى بالجود والسخاء ، وإيواء الضيوف وإكرامهم والخفاوة بهم .

وَيَصْحَبْنِي فِي كُلِّ رَوْعٍ ثَلَاثَةٌ : حُسَامٌ ، وَطِرْفٌ أَعْوَجِيٌّ ، وَلَهْدَمٌ^(٢٣)
وَيَنْصُرْنِي فِي كُلِّ جَمْعٍ ثَلَاثَةٌ : لِسَانٌ ، وَبَرَّهَانٌ ، وَرَأْيٌ مُحْكَمٌ^(٢٤)
فَمَا أَنَا بِالْمَقْمُورِ إِنْ عَنْ حَادِثٍ وَلَا بِالذِي إِنْ أَشْكَلَ (الْأَمْرُ) يَفْحَمُ^(٢٥)

(٢٣) صحبه (من باب سلم) : رافقه ، وسامره ، ولازمه ، وكان صاحبه ورفيقه . ومن الهباز : صحبه الله : أى حفظه ورعاه . والروع : الحرب . والخوف والفرع . والحسام : السيف القاطع . والطريف (بكسر فسكون) : الفرس الأصيل الكريم . وكان المحارب لا يكاد يستغنى عن جواده . وأعرجى : نسبة إلى « أعرج » : وهو فرس لبني هلال ، تنسب إليه الأعرجيات . وهو ضرب من جباد الخيل وكرامها . والهدم : الحاد القاطع من الرياح والسيوف والأسمه ونحوها .

(٢٤) يريد بلسانه : فصاحته ، ولسنه ، وسحر بيانه . والبرهان : الحجة البينة الفاصلة . والرأى : النظر ، والاعتقاد ، والإصابة في التدبير . وربيل ذورلى : أى ذوبعتيرة ، وحلق بالأمور ، وتدبير محكم شديد . ورأى محكم : شديد رشيد ، يرتضيه الناس ، ويعلمون إليه ، وينزلون عليه . وهو الأصل اسم مفعول من التحكم : مصدر حكمتوه في أمرهم : إذا اختاروه ليكون حاكماً أو حكماً يؤسوسهم ، ويدبر أمورهم ، ويفصل في منازعاتهم .

في البيت السابق : اختر ثلاثاً ينتصر بها في الحرب : وهى سيفه ، وجواده ، ورمحه . يشير بها إلى كل القوى والمعدات والعتاد الحربي . وفي هذا البيت : « تلح بثلاثة ينتصر بها في السلم » : وهى فصاحته ، وحجته ، وسداد رأيه . يشير بها إلى كل مؤهلات الغلبة ، والفتوة في التلوات ومؤتمرات التفاوض والجدال والتفارع بالحجج والبراهين .

(٢٥) المقصود من الناس : الخامل المظنور . وضده التابه المشهور . ومن لك الشيء (كرد ، وغش) : بدا ، وظهر أمامك وأعرض . والحادث : الكارثة ، والناثية ، والمصيبة ، والنازلة . ومثله الحادثة . وأشكال الأمر : التبس ، واختلط ، واستغلق ، وغفيت بعماله ، واستهيمت حقيقته . والأمر : الشأن ، والحال ، والشيء . وهذه الكلمة تكلمة من عندنا ، أضفناها إلى البيت : فاستقام بها وزنه يميناً . وقد أشرنا من قبل إلى بعض ما يوجب الأصل المخطوط الذى بين أيدينا من النقص ، وأخطأ ، والتعريف ، والتصنيف . ويقسم (بالبناء للمعلوم) : يما ، ويمجز . يقال : قسم الرجل (كنه) : إذا صجز ، وصكت ، ولم يستطع جواباً . أو هو بالبناء للمجهول : من الإضمار : مصدر أضمه : إذا أسكته بالحجة في خصومة أو غيرها . وأقسمه الم ونصوه : أى ذهب بنشاطه .

يريد أنه في التوازن والحداثات نابه ظاهر ، مشهور مقصود ، يفرح الناس إليه ، ويعولون عليه . وهو في المضلات ومشكلات الأمور حلال المقد ، شديد الرأى ، هاد إلى الصواب . وصلة البيت بما قبله وما بعده واضحة وثيقة .

لِسَانِي كَنْصَلِي فِي الْمَقَالِ ، وَصَارِي
كَغَرِبِ لِسَانِي حِينَ لَمْ يَبْقَ مُقَدِّمٌ (٢٧)
إِذَا ضَلْتُ فَلَدْتَنِي ، فِرَاسٌ بِشَيْخِهَا
وَلَا نَقَلْتُ حَيَاتِي وَشَيْبٌ وَ « أَكْثَمُ » (٢٨)

(٢٧) النصل : الحديدة القاطعة الجلوسة في الريح والسهم والسيف والسكين ونحوها ؛ فالسيف مثلا مركب من نصاب ونصل ، فإذا تجرد من نصابه : أي مقبضه ، بقى نصله . ولسانه في المقال كنصله في القتال : تمدح بكفايته الحربية والكلامية : فهو في الحرب تام الأهبة ، ماضٍ السلاح ، ذومراس وقوة ويأس شديد . وهو في السلم ذليق اللسان ، حذب المنطق ، قوى الحجية ، ساهر الليالي . والصارم : السيف الماضى الحاد القاطع . وغرب كل شيء : حده الجوارح القاطع ، كغرب السيف والسكين ونحوهما . وغرب اللسان : طرفه وحده ، حيث يبدو اللسان ، والدلالة ، والطلاقة ، والنصاحة ، والبلاغة ، والبيان . وصاربه في القتال كغرب لسانه في البيان والمقال : تكرار الشطر الأول يراد به التوكيد . ويقدم : اسم فاعل من الإقدام : بمعنى الشجاعة . أو هو مقدم (يوزن مذهب) : مصدر مبني من قدم (كنصر) : أي شجع ، وجرو ، وأقدم . أو من قدم قومه : أي تقدمهم ويقومهم : أي حين لا يوجد تقدم متقدم ، أو شجاعة شجاع .

/يفتخر بأن سيفه ولسانه متشابهان متكاملتان متفوقتان في ساحة الحرب والقتال ، وبجمال المقال والبيان / وأنه يفرد بهذه المنقبة أو المزية إذا حوت الشجاعة الأدبية ، والشجاعة الحربية .

(٢٧) صال على قرنه في القتال (من باب قال) : حمل عليه : أي هجم عليه ، وسطا ، ووثب ؛ ليظهره ويغلبه . وفداء تقدية : استنقله بحاله ، أو ينفضه ، فضاضه بما كان فيه . و « فراس » قبيلة عربية ، تنتمي إلى فراس بن غنم بن ثعلبة ، من كنانة ، إحدى القبائل المضرية . وقد عرف بنو فراس بالشجاعة . ومنهم ربيعة بن مكرم : الفارس المشهور . ولعل البارودي يمتني هنا ، ويعدده شيخ هذه القبيلة وفارسها . ومعنى الشطر الأول : أن صولاته على أعدائه في الحروب تبهير المشهورين بالشجاعة والإقدام وشدة اليأس . ومن ظواهر انهيارهم وإصباهم وتقديرهم أنهم يفدونه بساداتهم وشيوخهم وذوى الرئاسة فيهم / ولعل المراد بشييب : شييب بن شيبة بن عبد الله التميمي المنقرى الأختى : أديب الملوك ، وجليس الفقهاء ، وأشعر المساكين : من أهل البصرة . ولنصاحت نذب بالخطيب . وكان شريفاً من العامة ، يتادم خلفاء بني أمية ، ويقصد إليه أهل بلده في حواراتهم . توفي سنة ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) . وفي الأصل المخطوط الذي بين أيدينا « أقم » . ولعل التنازع حرقه من « أقم » بن صفى بن رباح بن الحارث بن غاشن بن معاوية التميمي ، المتوفى في السنة التاسعة الهجرية (٦٣٠ م) : حكيم العرب في الجاهلية ، وأحد المصنفين . سمع برسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، فقصد إليه في مائة من قومه ، يريطون الإسلام ، فأدركه الموت في الطريق ، قبل أن يصل إلى المدينة المنورة . قيل : وهو من تمنيم الآية الكريمة : « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ، ثم يدركه الموت ، فقد وقع أجره على الله » (الآية رقم ١٠٠ من سورة النساء) . ومن كلماته -

فَلَا تَحْتَقِرْ فَضْلَ الْكَلَامِ ، فَإِنَّهُ مِنْ الْقَوْلِ مَا يَبْنِي الْمَعَالِي ، وَيَهْدِمُ (٢٨)
وَمَا هُوَ إِلَّا جَوْهَرُ الْفَضْلِ وَالنَّهْيِ يُسَرِّدُ فِي سَبِيلِكَ الْمَقَالِ ، وَيُنْظِمُ (٢٩)

= الماثورة التي جرت مجرى الحكم والأشكال : « من فسدت بطلانته كان كمن خسر بطلاناً » . « من لم يهتد بهد خسر » . « الملاح يورث الضغائن » . « من سلك الجدد أمن النار » . « من ماته بقي الخدر » . « ويل الشيء من الخلق »

يفتخر بأنه غلاب في ميادين الحرب والقتال ، متفوق في مجالات الفصاحة والبيان ؛ فهو إذا حارب بهر للصناديد من أبطال العرب ، ورأوا حياته أغل من حياتهم ، ففدوه بأنفسهم وبشيوخهم . وإذا تكلم أو خطب ، أو جرى لسانه أو قلعه بشعر أو نثر حياه تحية للتكريم والإعجاب أشهر فصحاء العرب ، وأحظم حكمائهم .

(٢٨) فضل الكلام : مزينه ، وأثره ، وقوته . والمعالي : جميع المصالح : وهي الرتبة ، والشرف ، والهنر ، والمجد . وظلها الملا . والملاء . ويهدم : أي يهدم المعالي . أو يهدم النقص والمثالب ، وما ينقص المعالي والأسماء ؛ فالشاعر المجدد النابه يظهر بشعره فضائل من يمدحهم ، وينتق مآثرهم ، ويلعن مجرميهم ، ويؤذي لهم ذكراً وصيفاً وولداً ومجداً . وعلى العكس من هذا إذا هجا وهدم هجاءه معالي المهجورين ، وأزرى بهم ؛ وشوه الجليل من صورهم وسيرهم وأعمالهم . أما حمله المثالب والنقص ، فلهنا : أنه يحاربها ، ويقتبها ، ويغري الناس فيها ، ويصرفهم عنها ، فهذه أمثلة موضحة لفضل القول البليغ ، والبيان الساهر ، وزايا الكلام ، وقوة تأثيره ؛ فإن منه ما يبني ويرفع ، ومنه ما يهدم ويخفض ؛ فهو سلاح ذو حدين ، تراه في الخير أعظم الأسلحة أثراً . وفي الشر أفسحها وأشدّها فتكاً ؛ ولهذا اهتم الناس كل الاهتمام بالدعائيات الكلامية ، ووسائل التمرين والإعلام في مجال السلم والحرب ، والسياسة والاقتصاد ، والوظف والإرشاد .

(٢٩) هو : أي الكلام ، أو القول . وظلها المقالة ، والمقال . والنهي : العقل . أو هو جمع نهية (بوزن مديّة) : وهي العقل . قيل : وإنما سمي العقل نهية أو نهى ، لأنه ينهى عن التقيح . ويسرد : ينسج ، أو ينظم . مستعار من تسريد الدرع الزردية وهو نسجها بشك طرق كل حلقتين ، وتسميرها . وثائب فاعل « يسرد » : ضمير « جوهر » : أي وليس الكلام إلا حقيقة الفضل والعقل ينظمها المتكلم في سلك مقاله . والسلك : الخيط الذي يحاط به . أو ينظم فيه الخرز أو القلزم ، أو نحوهما . وينظم : يؤلف ، ويصنع في تناسق ونظام . وهو شبه تكرار وتأكيد لمعنى « يسرد » ؛ فالقائل سلك يتنظم بجواهر العقول والفضائل .

في البيت السابق نوّه بفضائل الكلام وزاياه ، وأثوره ، وإقتضاه على بناء المعالي ، وهدم المثالب . وفي هذا البيت جعله أداة لإظهار الفضائل ، وجواهر العقول وتعارفها ؛ فتقرؤها ، أو تسميها في تأليف المقال ، ونظمه .

فَمَا كُلُّ مَنْ حَاكَ الْقَصَائِدَ شَاعِرٌ وَلَا كُلُّ مَنْ قَالَ النَّسِيبَ مُتَمِّمٌ (٣٠)
فَلَنْ يَكُ حَضَرُ الْقَوْلِ وَلِيٌّ ، فَلَنْتِي بِفَضْلِي وَإِنْ كُنْتُ الْأَخِيرَ فَقَدْ كُنْتُ

(٣٠) حاك التوب : نسجه (وبابه قال) . ومن المجاز : حاك للشاعر الشعر . والقصيد : جمع القصيدة : وهي من الشعر سبعة أبيات فأكثر . والنسيب : مصدر نسب الشاعر بالمرأة (كضرب ونصر) أي عرفني بهاها وجها ، وشبب بها في شعره ونزل . ومتيم : مستهام ، برح به الوليد ، واشتد به المشق . من تيمه الهوى أو الحبيب : أي استمده ، وتيسره ، وأوله ، وذهب بعقله .

يقول : إن المرء قد ينظم الشعر ، ويحكي القصائد ، ولا يمدح هذا شاعراً ؛ إذ الشعر ينبغي أن ينبع من شعور صادق ، وإحساس مرهف ، وعاطفة قوية . وقد ينظم كذلك شمرأ في النسيب ، وهو لا يكاد يعرف الشوق أو الولد أو الصباية . والشعر الثاني توضيح وتمثيل لمعنى الشطر الأول . ولعل صلة هذا البيت بالبيتين اللذين قبله : أن الكلام : (شعره ، وعطايته ، ونثره) إنما يبني ويهدم ، ويعرض جواهر العقول والفنائل إذا قام على الاقتناع والتأثر ، وصق النظر ، وقوة الإدراك ، ورعاية الإحساس ، ولطافة الشعور ، وتدفق العاطفة . هذا إلى المقدرة القوية الطبيعية على الإصباح والإبانة ، والنظم والتأليف ، والإقناع والتأثير .

(٣١) يراد بمصدر القول : زمن إجابة الشعر والنثر ، وعصر قوة الأدب وازدهاره . وولي : أدير ، وذهب ، ومضى ، وانقضى . وفضل البارودي هنا : مزينه ، وموجبه ، وكفايته الفريدة العالية ، ولصعاده الفطري القوي ، ومقدرته الأدبية الفائقة ، وقنائه الكثير الرائع من الشعر والنثر الفني . ويفضل : أي بسبب فضل ، ومن أجله ؛ فالباء هنا : تعليلية : أي سببية . و«إن» في الشطر الثاني مجردة من معنى الشرط : أي فإن متقدم بفضل ، سابق ، عالي المرتبة ، رفيع المكانة ؛ ولو كنت الأخير في حساب الأزمنة والصور : أي ولو كان عصرى متأخراً لاحقاً ، وزماني مسبوفاً بأزمنة القوة ، والإجابة ، والإبداع ، والازدهار .

في البيت السابق ضرغير صريح ، وإشارة ضمنية إلى أنه شاعر صادق الشعور ، مرهف الإحساس ، رقيق العاطفة ، محسن مجيد ، يمدح شعره على فضله ورجاحة عقله . وقد مهد لهذا المعنى بالبيتين اللذين قبله . وفي هذا البيت أنه - وإن تأخر به زمانه عن زمن الابتداع والإجابة - نهضت به همته وقضه ، وقدمته مواهبه ومزايده ، وشهرته أدبه وشعره ، ونافس به السابقين المبرزين من الأديباء والشعراء . حتى لحق بهم ، أو قاتهم . وكأنه ينتظر في هذا إلى قول الشاعر :

وإني - وإن كنت الأخير زمانه - لآت بما لم تنطه الأوائل

وَقَالَ فِي الْمَلِكِ *

• قيل إن المدح هذه القصيدة هو الشيخ جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ - ١٨٩٧) للمصلح الديني ، والحكيم الفيلسوف الذي اضطلع بالزمامات الروحية ، والفكرية ، والسياسية ، وبث نبضة الشرق ، وكافح بقلمه ولسانه الاستعمار والجمود ، والاستبداد والاستعباد ، وأهاب بالأمم الإسلامية أن تفهم الإسلام على حقيقته ، وترجع إلى مبادئه الصحيحة ، وتطهروا من البدع والأوهام والخرافات والأباطيل التي أغرت المسلمين ، وهدمت مجدهم التليد العريق ، وبكثرت منهم الأجانب والحكام المستبدون .

تنتقل جمال الدين الأفغاني في كثير من البلاد الإسلامية ، والشرقية ، والأوربية ، داعياً إلى الله ، غملاً في دعوته ، حريصاً عليها ، مستهماً بها ، وأهاباً لها جهده وحياته ، فوجّه الله له من رحمته ونصرته ، وتأييده وتمجيده ، وشرح لرسالته صدور تلازمه ويريد به ؛ فكان منهم أساطين الدين والعلم ، والفلسفة ، والأدب ، والسياسة ، والاجتماع .

جاء جمال الدين مصر لأول مرة في أواخر سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٧٠ م) ولم يلبث بها غير أربعين يوماً . ثم عاد إليها في أوائل المحرم سنة ١٢٨٨ هـ (مارس سنة ١٨٧١ م) وهو في نحو اثنتائه والثلاثين ؛ فغضب إليه الخديو إسماعيل ، ووزيره مصطفى رياض أن يقيم بمصر ؛ فكان لروحه ومبادئه وتعاليمه أثرها في المجتمع المصري . ومن تلازمه ، أو أصدقائه ويريد به الذين أقبلوا عليه ، واستمعوا له ، وأصغروا به ، وأفادوا منه ، واعتقدوا آراءه ، واحتملوا بهديه ، أو أظهروا له التقدير والولاء : الأمير محمد توفيق ابن الخديو إسماعيل ، والشيخ محمد عبده ، ومحمد سامي البارودي ، وعبد الله اندم ؛ غطيب الثورة المرابية ، وكثير من أقطابها ؛ فهو أيها ، وهي - في حقيقتها - استمرار الحركة السياسية التي يشها على عهد الخديو إسماعيل . ولو قدّر له أن يبق في مصر حين نشوبها لأمد غادتها بأرائه الحكيمة ، وتجاربها الرشيدة ، وبنهم الخطل والشطط ، وجههم - بإذن الله - إلى الغلبة والنصر ؛ ولكن شامت الأقدار والسناس الإنجليزية أن ينفي جمال الدين من مصر والثورة المرابية أخرج ما تكون إلى وأيه وسكنته ، وصدق نظره وتقديره ؛ فأنقذ مجلس الوزراء برياسة الخديو توفيق ؛ وأصدر قراره بنفيه ؛ فقبض عليه ليلة الأسد السادس من رمضان سنة ١٢٩٦ هـ (٢٤ من أغسطس سنة ١٨٧٩ م) ؛ ولم يسمح له حتى بأغص ثيابه ، ونقل صباح الثلاثاء ٨ من رمضان سنة ١٢٩٦ هـ (٢٦ من أغسطس سنة ١٨٧٩ م) إلى الباغية التي أقتله من السويس إلى بجاي بالهند . ومن المريب الموقوف المزم أن يكون محمد سامي البارودي . من أعضاء الوزارة - (وزير الأوقاف) - التي قبلت ظهر الحين السيد جمال الدين الحسين الأفغاني وفتته من مصر بشر أساليب النذر والحياة ، والقسوة والفظافة ، والتجني والاختلاق ، زاعمة في بلاغها الرسمي أنه « رئيس جمعية سرية من الشبان ذوي العيش ، مجتمعة على فساد الدين والدنيا » . ومن كلام المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرازي : « أن موقف البارودي في هذه الحادثة لا يمكن تمويهه ، أو الدفاع عنه بأي حال » . وقد اعتمدنا - في كتابة هذه الترجمة - على ما كتبه الرازي عن الأفغاني .

يَا لَكَ مِنْ بَنَى آدَبٍ! أَطْلَعْتَ فِكْرُهُ ذَائِقَةَ الْأَنْعَمِ^(١)
 حَظَرَ مَدَى قَصَرَ عَنْ شَأُوهُ كُلُّ أَخِي سَابِقَةٍ وَمَرْجَمِ^(٢)
 فَهُوَ إِذَا قَالَ عَلَا، أَوْ جَرَى بَرَزَ، أَوْ نَاضَلَ لَمْ يُخْجَمِ^(٣)
 فُو فِكْرُهُ فَاضَتْ بِمَا أَوْدَعَتْ مِنْ حِكْمَةٍ، كَالْعَارِضِ الْمُشْجَمِ^(٤)

(١) «يا لك»: أسلوب تعجب. «ومن»: بيانية. وثيقة الأنهم: النجوم الثابتة: أى المصيبة البتة. والمناسبة واضحة قوية جميلة بين الإطلاع وثواب النجوم. يقول: إن المملوح أدب ألمى، ذهت معتقد، وفكره ثاقب، يستج أدباً عالياً والماً، فائقاً مشرقاً، كالنجوم الثواب. والتعجب في أول البيت مبالغة محسوسة في هذا المديح. (٢) المدى: الغاية، والأمد. وظله الشأو. وقد يراد بالشأو: الحمى. ومن كلامهم: «فلان بيشأو»: أى حال الحمى. وأخو السابقة: السابق المتقدم. والسابقة: السبق في الجرى وغيره. وله سابقة في هذا الأمر: أى سبق الناس إليه. والمرجم من الرجال (بوزن المنبر): القوي الشديد. والمرجم: السيد. ولسان مرجم: قوَال. والكلمات: «حاز» و«قصر» و«مرجم» محرقة في الأصل المخلوط الذى بين أيدينا: فالأولى مرسومة بالذال المسبعة. والثانية كتبت بزيادة «ياء» بعد «الراء». والثالثة كتبت «يرجم». وقد أشرنا في عدة مواضع من هذا الشرح إلى ما يجب هذا الأصل من نقص وزيادة، وضطاً وضوض، وتحريف وتصحييف.

يقول: إن المملوح بلغ في الأدب، وبهاة الشأن، وسمو التفكير غاية بعيدة، ومربية رفيعة حين يلوغها كل سيد هام قوى شديد، متقدّم سباق. وهى مبالغة مقبولة في مقام المديح والإطراء لرجل كان نصيح وبعده، وفريد زمانه، وإمام عصره.

(٣) برز: سبق وتقديم، وفاق. وناضله: باراه في الرى. ومن المهاز ناضل عن قويه: أى خلى عنهم، ودافع. ولم يحجم: لم يتودد، ولم ينكس: مضارع أحجم عن الأمر: أى تهيبه، وخصافه: فرجع عنه، ولم يقدم عليه. ويراد بنى الإحجام إثبات الإقدام.

مدحه بالمقدمة الكلامية، والسمو بقوله في مراتب الفصاحة والبلاغة، والإقناع والتأثير، والتبريز على أنفاده ونظائره في حلبة الأدب والبيان. وقال: إن غيره يسجن من مباراته في هذه الحلبة. وإنه قوى جرى، معتقد ذو مراس في المناضلات الفكرية والكلامية. وفى هذه المدة إشارات ودلائل تكاد تقطع أن المقصود بها هو الأستاذ الإمام الشيخ جمال الدين الأفغانى الذى أكبره البارودى، وأفاد منه.

(٤) يراد بالفكرة: الذهن، والمقل، والفهم، والفكر، والغلطة، وقوة الإدراك، وضغنتى النظر، وإحكام التدبير. «ومن»: بيانية. والحكمة: قول، يمتاز بإيجاز اللفظ، وجلال المعنى، وصدق التجربة، وإصابة الفرض، وجمال التصوير، وإحكام التعبير؛ ولهذا تحمل الحكم والأمثال أعلى مراتب البلاغة والبيان، وإذا تخطت الأدب (شعره، ونثره) أورثته رواجاً، وأكسبته قبولاً، وأرتاحت =

ذَلِكَ فَتَى ، نَبَعَتْهُ لَمْ تَلِينِ لِجَالِبِهِ مِنْ حَوَرِ النَّمَجِ (٥)
أَلْفَاظُهُ تُعْزَى إِلَى «يَعْرُب» وَفِكَرُهُ مُعْتَبَسٌ مِنْ «حَم» (٦)

= النفوس لها ، وضطبت لحفظها ، وقد أولتها الألسنة والأفلام في كل زمان ومكان . والمعارض : المجابهة . يعترض في الألفاظ بكثرة حتى يسه . ومعجم : مطر ، غزير المطر : اسم فاعل من أجتبت السماء إنجاباً : لى أسرع مطرها وقام .

في البيت الأول نوه الشاعر بفكرة الممدوح التي تطلع ثواقب الكواكب والنجوم . وفي هذا البيت تكرار لهذا المعنى ، غير أنه تخصص بهت تميم ، وتفصيل بعد إجمال ؛ ففكرة الممدوح هنا تقيس بالحكم البالغة فيضان المعارض المتجم ، لى المطر الغزير . وبوجه الشبه بين حكم الممدوح والمعارض المتجم : الفيضان ، والفتارة ، والكثرة ، واتساع الإفادة ، وعموم النفع . وفي القصيدة تكرار ، وإلحاح على الفكر والفكرة ؛ لأن الممدوح مصلح ديني واجتماعي ، وفيلسوف عظيم ، أظهر خصائصه التفكير الصحيح السليم الشامل الواسع الذي لم يتقيد ببيئة أو وطن أو نطاق معين .

(٥) الفتى (في الأصل) : الشاب الحدث أول شبابه بين المراهقة والرجولة . والعرب تتوسع في استيماله ، فتقول : هو فتى من صفته كيت وكيت ، من غير تمييز بين الشيخ والشاب . ومن معاني الفتى : النسخ الكرم ذوالنبتة . والممدوح هنا كهل أو شيخ . ونبتة : عوده . وفي في الأصل : واحدة شجر النبق الذي ينبت في قلل الجبال ، وتتخذ منه القسي والسهام . ومن كلامهم : « فلان صليب النبق » : إذا كان شديد المراس . وعاجم : اسم فاعل من عجم الشيء (من باب نصر) : لى عصفه ، ليعلم صلابته من رغبته . و « من » : تمليكية ، أي سببية . والخود : الضعف والانكسار . والمعجم (بوزن المذهب) : مكان المعجم ، ودوحه .

مدحه بشدة البأس ، وقوة المراس ، وبرأه من كل معاني الضعف واللين ، والخود والانكسار . ولقد تعرض الممدوح في حياته لكثير من البلاد والاختيار المنيب القاسي ، كالأبداد والفتى والتشريد والاضطهاد . وسورب في دعوه الإصلاحية الكبيرة ؛ فكانت نبته أقوى وأشد ، وعوده أمتن وأصلب من البلايا والشدائد ، والزوايا والنكبات . واستطاع بقوة إرادته ، وصلابة مزجه ، وصحة إيمانه ، وصدق يقينه أن ينشر مبادئه وآراءه ، ويؤسس مدرسته الشاغرة الخالدة في مصر وفيها من بلاد العرب والإسلام . ومن تلاميذه هذه المدرسة محمود سامي البارودي .

(٦) ألفاظه : ألفاظ الممدوح وكلماته ومبانيه . وتعزى : تنسب . و « يعرب » : بن نبطان : أبو القبائل اليمنية ، وجد العرب العاربة ، وهم الذين جلا عن سق الفرات ، واختاروا اليمن منازل لهم ، وامتزجت لقبهم بلغة سابقهم من قبائل العرب البائدة ؛ ثم انتشروا في أنحاء الجزيرة العربية . ومن أمهات قبائلهم : كهلان ، وحسير . ويقال : إن « يعرب » أول من تكلم بالعربية ، وبه سمى العرب عرباً . ومعتبس : مأخوذ ، أو مستفاد . وفي القرآن الكريم : « انظرونا نفتيس من نوركم » (الآية رقم ١٣ من سورة الحديد) . و « حم » - فيما يبدو لنا - : ترقيم أو تسجيل ، أو اختزال ؛ جمشيد : اسم -

لَمْ يَنْظَمْ الْخَوْشِيُّ عَجَبًا بِهِ وَلَمْ يُسَمِّ الْوَرْدَ بِالْحَوْجَمِ (٧)

لَكِنَّهُ رَازَ الْحَبَا ، فَاتَّعَى بِوَاضِحِ الْقَوْلِ عَنِ الْمُعْجَمِ (٨)

= أحد ملوك الفرس قبل الإسلام وكان يدعى أيضاً « جشاد »، ومعنى « جم » : القمر ، أو الشمس . ومعنى « حيد » أو « شاد » : الشجاع ، أو الشجاع . وهو أول من اتخذ للتبريز أعظم أعياد الفرس . ومن سيرة أنه نظم شعير الملك تنظيماً يدل على رجحان عقله ، وثقافته ، وسداد رأيه ، وبحكم تقديره . وقد بقيت بعده أنظمته إلى الفتح الإسلامي .

وصل الشاعر مدحوه بأصاين وأصاين شاعرين عظيمين : أحدهما عربي ، ومنه لسانه الذليل الفصيح . والآخر فارسي ، ومنه فكره الخائب المتقيد . وما أعظم أن يجمع مثل هذا الإمام المعلم المحدث ، الخطيب المحاضر ، الأديب الفيلسوف - ما تفرق من المزايا والمحامد في أجناس الناس ، وفي الأمم .

(٧) نظم الأشياء (من باب شرب) : ألفها ، وجسمها ، وضم بعضها إلى بعض في اتساق وتناصب وانظام . وحوشى الكلام : وشبهه ، وفريقه ، وفاسقه . وقد مثل الشاعر له في الشطر الثاني : « الحوجم » وهو الورود الأحمر . وأحدته : حوصلة . وصحبياً به : إصجاباً به : أى ارتياعاً له ، وإرتضاء ، ورسوراً . يقطع : إن المملوح في نظمه وتآليفه ، ومشائفهاته وكتاباتاته ، ودروسه ومحاضراته يتشبه على الدوام السهل اللطيف ، الساتع الزائق ، التقريب المألوف ، المشرق الواضح من مفردات اللغة وتراكيبها . وليس من أولئك الذين يتكلفون الغريب الوحش ، ويمججون باليد النافر ، فيتعرفون من سجع الفصاحة ، وحسن البيان . والبيت الآتي في هذا المعنى .

(أ) راز (من باب قال) : جربه ، واختبره ، وقدره . ورازه : وزنه ؛ ليحرف قدره وثقله . وراز صنعته : قام عليها ، وأصلحها . وراز ما عنده : طلبه ، وأرادته . والحجا : العقل ، والبطنة . والمرد أنه راز الحجا فيها ينظمه ويؤلفه وينشئه ويتحدث به : أى اعتمد عليه في الوزن والتقدير . والتقد : وحسن الاختيار . وأكتى بالشئ : استغنى به ، وقنع . وقد اتصله الشاعر استعمال مراده ؛ فإنه يقال : استغنى بكذا عن كذا . وللمعجم : اسم مفعول من الإعجام : مصدر أصح التكلم كلامه : أى أجهه ، وأغفاه ، وعقده ، وذهب به إلى العجى ، وتجانى عن الفصاحة والوضوح والبيان . والإعجاب : الإعجاب .

عز الشاعر بهذا البيت ما أشار إليه في البيت السابق ، فالملوح يعتمد - في حديثه ، وفيما ينشئه من الأدب - على العقل والبطنة ، ويحسن الاختيار والاختيار ، وبحكم الذوق السليم ، والطبع المستقيم ، فلا يركب من التثني والتكلف ، ولا ينساق وراء الحوشى النافر ، وللمعجم المستجهم ، بل يؤثر على الدوام اليسر والسهولة ، والإيضاح والإتصاف .

دَانَ لَهُ بِالْفَضْلِ عَنْ خَيْرَةٍ كُلُّ فَصِيحِ الْقَوْلِ ، أَوْ أَغْنَمَ^(١)

دَلَّ عَلَى مَعْلَمِيهِ فَضْلُهُ دَلَالَةُ الثَّبَرِ عَلَى الْمَنَسَمِ^(٢)

وَقَالَ :

يَذُلُّ عَلَى أَنْ لَيْسَ فِي الدُّعْرِ رَحْمَةٌ خِيَانَةُ شِمْرِ مَبْعَثَ عَدُوِّ ابْنِ مُلَحِمٍ^(٣)

(٩) دان له يدين (كباع بيع) : انقاد له ، وأطاعه . ويراد به هنا : الإقرار والاعتراف .
وفصيح القول : منطلق اللسان ، واضح الكلام ، واثق البيان . وقد يكون المراد به هنا : العربي .
والأعجم ، والأعجمي ، والمعجمي : خلاف العربي . والمعجم : خلاف العرب .
في البيت السادس من هذه الملحمة وصل الشاعر هذا الملعون الكرمي بالعرب والمعجم ، وعزاه إليهما ،
فقال : إن أعداه عربية ، وأفكاره فارسية ، أو جمع في أدبه وبيانه مؤلفا هاتين القوتين العريقتين ،
وهاتين الأمتين العظيمتين .

ولعله في هذا البيت يكرر هذا المعنى بالإشارة إلى كفاية الملعون وبراعته ، ولتثبوت بفضله وقوته
في القتال . أو لأدبين العربي والفارسي ، حتى أقر له العرب والمعجم هذا الفضل ، واعتزفوا بسبقه وتبريزه
اعتزافاً مؤسفاً على الخبرة والتجربة ، والعلم والمعرفة .

(١٠) المدن (بوزن المجلد) : مكان كل شيء فيه أصله ومركزه . ومعدن الجواهر من ذهب
وفضة ونحوها : مناجمها ، أي المواضع التي تستخرج منها . ويراد بمعدن الملعون : قطره ، وجبلته ،
ومجتمعه ، وأصله . والثبر : الذهب قبل أن يسبك ويصاغ ويضرب ، أي فُتاته ، أو ترابه حينما
يستخرج من المنجم قبل صياغته ، ومناجمه . والمنجم (بوزن الملهب) : المكان الذي يوجد فيه الذهب
ونحوه ، ويستخرج منه ، قالنبر في مكان ما يدلنا على منجم من مناجم الذهب في ذلك المكان .

شم الشاعر هذه الأملوحة القصيرة البليغة بهذا البيت شديداً بمزايا الملعون وفضائله وجماله ، منوهاً
بكرم معدنه ، وشرف أصله ، ومجادة مجتمعه . والملعون بين الناس نفيس عزيز ، رفيع القدر ، عظيم
النفع ، يتنافس المتنافسون في الإقبال عليه ، والتقرب إليه ، والإفادة منه ، كالذهب بين الجواهر
والمعادن . وتمتاز هذه القصيدة بالصدق ، والبعد عن المبالاة التي يقوم عليها المديح في الكثير الغالب .

* * *

(١) شمر (بكسر فسكون) . أو (يفتح فكسر) ، وسكنت الميم للتخفيف ، أو امرأة لوزن
الشعر ، وقد استأنمنا في ضبط هذا الاسم بالقاموس . وشمر بن ذى الجوشن الضبابي : عتي من رؤساء
مروان ، كانت إقامته بالكوفة ، وشارك في قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما . فطلبه المختار الثقفي
بلم المقتول ، فخرج من الكوفة ، فقتل في خارجها سنة ٦٦ هـ (٦٨٦ م) .

وعبد الرحمن بن ملجم المرادي التتلي الحيرى : قاتل ثائر ، فارس شديد البأس . أدرك الجاهلية .
وهاجر في خلافة عمر . ثم شهد فتح مصر ، وسكنها . وكان من شيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه .
وشهد معه حرب « صقين » . ثم خرج عليه ، وانتمى مع آخرين من أمثاله بلى ، ومعاوية ، وعمر -

هَمَّا مَنَحَمًا شَرًّا ، وَصَنَوْا ضَلَالَةً . وَكُلُّ أَمْرٍ فِي الدَّهْرِ يَغْزَى لِمَنْعِهِمْ .
شَقِيَانِ ، هَامَا فِي الضَّلَالِ ، فَأَصْبَحَا دَرِيَّةً لَعْنٍ مِنْ قَصِيحٍ وَأَعْصَمِ .

— ابن اللطاس ليقولهم ، قصد الكوفة ، وترى بصل ، فلما خرج من بيته صلاة لتفجر في المسجد افتتاله ليلة السابع عشر من رمضان سنة ٤٠ هـ (٦٦٠ م) . وما لبث الحسن من حل أن قتله ضاماً بعد وفاة أبيه بثلاثة أيام .

احتاد الناس وبخاصة الثمراء أن يضيفوا إلى الدهر الخمر والشر ، والمسرّة والمساءة . كما احتادوا أن يحمّروا يشكوا ؛ كأنهم يخاصونه تيمناً ما يصيبهم من الشدائد والفتن . وتجريد الدهر هنا من الرحمة مخالفة في تفتيح الجرمين المشار إليهما في هذه الأبيات . وقد يكون المراد بالدهر أهله ، أي الناس الذين يعيشون فيه . وتجريد يشمل القتاتلين وأتباعها من ذوي القدر والحياة ، وكل من اقترف الشر ، أو أمان عليه ، أو سكت عنه ، أو رضى به ، أو قصر في دفعه ومكافأته ، ولم يحاول إنكاره وتغييره .

مات علّ بن أبي طالب رضى الله عنه مقتولاً بيد ابن ملجم . ثم مات ابنه الحسين رضى الله عنه مقتولاً بيد « شمر » ؛ فقطع الشاعر كل التفتيح هاتين الجرميتين ، وجرد الزمان أو أهله من الخير والرحمة . وما بالك برجلين مظلومين من غيار المؤمنين . ومن عزة رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتلان غيلة وفدراً ؟ وشيئة وظلماً ؟ !

(٢) منج الشر . مدنه ، وأصله ، ويكان أبنائه وأندفاعه . والصنوان : شئ الصنو (بكر فسكن) : وهو الأخ الشقي . والابن . والهم . والنظر . والمثل . وإذا خرجت فخلتان أو أكثر من أصل واحد ، فكل واحدة منهن صنو ، والثلثان صنوان ، والجمع صنوان . ويعزى : ينسب ، ويتصل ، ويصمى .

جعل هذين القتاتلين القادرين مدق الشر والمو ، والأذى والإجرام ، والظلم والبدوان ، والفساد والإفساد . وهما من الفؤاية أو الضلالة أو خواها ، أو ابتاعها ، أو المماثلان لها ، أو التابان من أصلها ، أو المظفران منها . والشر الثاني تذييل جار مجرى المثل ، من زلخى الشر الأول ؛ فكل أمرى في هذه الحياة ينتهى إلى أصله ، وينسب إلى مدنه ، ويتصل ببنيته ، ويمجى على خلقه وطبيعته ؛ فابن الهداية والخير مهتد بخير . وابن الضلالة والشر ضالّ مضلّ ، غيّر أئيم ، صي شرير .

(٣) هام (من باب ياع) : خرج على وجهه في الأرض ، لا يدرى أين يتوجه . وهام في الأمر : تخير فيه ، واضطرب ، وتردد ، وذهب كل ملجأ . ويراد بهما في الضلال : الإيمان ، والتماض . والدرية : حلقة ، أو دائرة يتعلم عليها الطمن والرى . والتمن : الطرد والإبعاد على سبيل السخط . ولعله الله (من باب منح) : طرده من رحمته ، وأبعده عن الخير . وفي القرآن الكريم : « يوم لا ينفع الظالمين من ذنوبهم ، ولم ألمنة ، ولم سوء الدار » (الآية رقم ٥٢ من سورة غافر) . وأصبحت دريئة لمن : أي صاروا هدفاً تتوالى عليه لمنات الاعمين . وضيح : منطلق اللسان بكلام صحيح واضح (وفله من باب ظرف) . والأصم : خلاف الفصيح . ويراد بالفصيح والأصم : العربي والعجمي ؛ أي الناس جميعاً . غلبت على هذين الشقيين شقوتهما ، وأمعنا في الفؤاية ، وهما في الضلال ؛ فارتكبا جرميهما ؛ فتأبعت عليهما لمنات الاعمين ، من العرب والعجم والناس أجمعين .

لَقَدْ فَوَّقَا سَهْمَيْهِمَا ، وَتَطَاوَلَا إِلَى قَلْبِكَ عَالٍ مُحَاطٍ بِأَنْجُمٍ^(١)
لَعْمَرَى ، لَقَدْ بَايَا بِخِزْيٍ وَكَعْنَةٍ وَمَنْ يَحْتَقِبْ خِزْيًا مِنَ اللَّهِ يُرْجَمْ^(٢)

(٤) فوق السهم تفويهاً : جعل الوتر في فوقه عند الرى . والفوق : مشق رأس السهم حيث يثبت الوتر . والسهم : عود من خشب يسوى ، ويركب في طرفه لصل من حديد صلب حاد قاطع جارح ، يرى به عن القوس ، وكان من أدوات الصيد والقتال . ويراد بتفويق السهمين : إحداهما لرى والإصابة والقتل . وتطاول إلى الشيء : مد عنقه ليراه ، أو يطلع عليه . وتطاول : تمدد قائماً لينظر إلى بعيد . والفلك : مدار النجم : أى الفضاء الذى يدور فيه . ويراد بالفلك السالى : كل واحد من القتاين الشهيدين العظيمين . ويراد بالأنجيم : أنصافه الناهيون اللامدون . وأحاط القوم بالبلد : أحاطوا به ، واستداروا حوله . وعمل هذا يقال : فلك يحيط بأنجم ؛ فهو يحيط بها ، وهى تدور في إطاره ، وتجرى في نطاقه . وإذا فسرت للإحاطة بالحفظ استقام التركيب ؛ فالفلك محاط بالنجوم ، وهى التى تحوطه ، وتحفظه ، وهى له مائة وإتية . وقد راد بالفلك : النجم . وعمل هذا يقال : إن القتل الشهيد كان نجماً عالياً يحيط به نجوم من شيعته وأنصاره . ويمكن أن يقال : إن ذلك الفلك العالى يحيط به أفلاك أخرى بكواكبها ونجومها .

في البيت تعظيم وتعجيد ، وتعسر شديد على هذين الشهيدين العظيمين ؛ إذ كان كل منهما رفيع المنزلة ، عظيم الشأن ، هادياً إلى الخير ، يحيط به نجوم لامة من شيعته وأنصاره . وكان من دواى الأسف الشديد أن يتطاول إليهما ، ويمتدى عليهما هذان الشقيان المائمان في الغواية ، الممعتان في الضلالة ، المأموران بكل لسان .

(٥) لعمري : أسلوب قسم : أى أحلف بحياتى . وباه : عاد ، ورجع . وأنزى : الذلل والهوان ، والفضيحة والعار ، والسوء والاذنكار . واحتقب الإثم : ارتكبه واكتسبه . واحتقب الشر والخطيئة : حملهما : ويراد بالخرى في الشطر الثانى : سبب الخرى : وهو الإثم ، والخطيئة ، والظلم والبغى ، والعدوان والظلمانيان . ورجسه (من باب قتل) : رماه بالرجم : أى الحياة . ومن يحتقب خزيًا يرجم من الله : أى ومن يقترف خطيئة يلمنه الله ، أو يستحق عذاب الله وانتقامه . وشر الخطايا والجرائم قتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق . وفى القرآن الكريم : « من قتل نفساً بغير نفس ، أو فساداً فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » (الآية رقم ٣٢ من سورة المائدة) . وفيه « ومن يقتل مؤمناً متعمداً ، فجزاؤه جهنم خالداً فيها ، وغضب الله عليه . ولعنه ، وأعد له عذاباً عظيماً » (الآية رقم ٩٣ من سورة النساء) . والشطر الثانى تذييل مجرى مجرى الحكم والأمثال ، ويؤكد معنى الشطر الأول .

ارتكب هذان الشقيان جرمتها الكبرى بقتل اثنين من خيار الصحابة ، وأعلام المسلمين ، وعرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فبما بالذل والهوان ، والخزى والعار ، والفضعة والاذنكار . واستحقا لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . وقد أكد الشاعر هذا الحى بالقسم الذى صدر به البيت ، كما أكد به بالشطر الثانى - وهو تذييل جار مجرى المثل - فإن المحرم الباغى ، الظالم الشرير جدير بسخط الله وعذابه ، ولعنته ونقمته ، ومقابله وانتقامه .

ديوان البارودى - ثالث

وَقَالَ :

وَمَا مِصْرُ عُمَرُ الدَّهْرِ إِلَّا غَنِيمَةٌ لِمَنْ حَلَّ مَغْنَاهَا ، وَنَهَبُ مَقْعَمٍ ^(١)
تَدَاوَلَهَا الْمُلُوكُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ وَنَالَ بِهَا حَظًا فَصِيحٌ وَأَعْجَمٌ ^(٢)
فَمَا أَهْلُهَا إِلَّا عَبِيدٌ لِمَنْ سَطَا وَلَا رَيْعُهَا إِلَّا لِمَنْ شَاءَ مَغْنَمٌ ^(٣)

(١) مصر الدهر : مدى الدهر : أى طوال الزمان . أو فى كل الأزمنة والمصور ، وفى كل مراحل التاريخ وطواره . والغنيمة : ما يأخذه المحاربون من مال أعدائهم ويتناقم عنه وقهرًا . والمكسب عمومًا . وما يفوز به الغام بلا بدل ، ويناله بلا تعب . والمراد : أن أموال مصر وكنوزها وغلاتها وغيرها ميسرة للأجانب الوافدين عليها من شتى البلاد والأقطار ، ويختلف الأمم والأجناس ، يتكلمون على الرض من أهلها الذين يعيشون فى بلادهم غرباء أذلاء ، يكايون شغل العيش ، ويتجربون مرارة الحرمان . والمعنى : المنزل الذى غشى به أهله : أى أقاموا فيه ، واستقر بهم المقام ، أو طال . والنهب : الغنيمة ، والمال المنهوب ، أى المأخوذ من أصحابه عشوة وقهرًا وقسراً .

والمعنى : لم تكن مصر طوال حياتها إلا غنيمة باردة ، وبالا منهوياً يقتسمه الأجانب للذين يؤدون عليها ، ويستقرون بها ، ويتحكمون فى مواردها وغلاتها ، على حين أن معظم أهلها يعيشون عيشة الشغل والفضل ، والهاون والحرمان . والبيتان الآتيان يؤكدان هذا المعنى ويفصلانه .

(٢) تداولت الأيدي الشئ : أخذته هذه مرة ، وهذه مرة . ويقال : تداولت أقدام اللاعبين الكرة . والحظ : الحصة والنصيب . والحظ أيضاً : الجدة والبخت . فصيح : منطلق اللسان بكلام فصيح سليم ، وبيان واضح قويم . والأعجم : خلاف الفصح : وهو من فى لسانه عجمة : أى لكنة . ويراد بالفصح والأعجم : العرب والمسلم : أى من يتكلمون بالعربية ، ومن يتكلمون بغيرها من اللغات . أو المراد مختلف الشعوب والأمم ، وشتى الأجناس والألوان . وهو تأكيد لمعنى « من كل أمة » .

فى البيت السابق قال : إن مصر كانت ومازالت على مدى الأزمنة والمصور مغنماً بارداً ، ونهباً مقبلاً بين الأجانب الذين يمتصونها من كل أقطار الأرض ، وأجناس الناس . وفى هذا البيت توضيح وتفصيل وتأكيد لهذا المعنى : فقد تملكها ، وقهرها ، وسيطر عليها ، واستبد بها ، وتحكم فى مواردها وأمورها ملك ، وملك ، وملك ، وهالك وحكام من شتى الأمم والشعوب ، ويختلف الألوان واللغات . ونال كل منهم حظاً موفوراً من أموالها وكنوزها ، وغلاتها وغيرها .

(٣) سطا عليه . وسطا به (من باب عدا) : قهره ، وأذله بشدة البطش . وسطا الفس على المتاع : انتهبه بقهر وبطش شديد . وريع كل شئ : فضله ، وزيادته على الأصل ، وريبه ، وطلته ، وثمرته . وسنتفه : وهى فى الأصل المخطوط « ريع » بالياء . ويقم (يوزن منسوب) : غنيمة .

هذه ثلاثة أبيات فى معنى أن مصر طوال عمرها مغلوبة على أمرها ، مسلوطة الإرادة والحرية ،

عِدَاؤُكَ فِي سِلْكِ الْبَرِيَّةِ خِزْيَةٌ وَدَعْوَاكَ حَقَّ الْمُلْكِ أَذْهَى وَأَعْظَمُ (١)
لَقَدْ هَمَّتِ الدُّنْيَا عَلَى النَّاسِ عِنْدَمَا رَأَوْكَ بِهَا فِي مُلْكٍ «يُوسُفَ» تَحْكُمُ (٢)

= متداولة بين حكام من غير أهلها، يستبدون بها، ويسمونها الخسف والملافة، والأهوان والخمران .
وهي إلى هذا مرتع غصيب القوافلين عليها من كل جنس ولين ، وصحة وملة ، يستبدون أهلها ، وينهبون
خلاتها وغيرها . وقد جعلها الشاعر مقدمة وتمهيداً للآيات الآتية في حجة حاكم أجنبي ، يظن أنه
الخدو « توفيق » الذي نكب مصر بلد الاحتلال العسكري الإنجليزي ، وأضراره ، ومآله وشأله .
(١) فلان عداده في بني فلان : أي يمد منهم ، وينسب إليهم . والسلك : الخط الذي يتخطاه به .
والذي يظن فيه الخرز وهو . والبرية : الخلق ، والناس . ويراد بسلك البرية : المجتمع الإنساني . أو جماعة
البشر . والخزفة (يفتح فسكون ، أو بكسر فسكون) : الشر ، والبلية ، والخصلة يستحيا بها .

ومنى الشطر الأول : أن اتياه المهجور إلى بني البشر ، وانتسابه إلى المجتمع الإنساني بخره ، ويسوءه ،
ويشينه ويبيسه ، ويؤذيه ويؤذيهم . ودعواك : ادعائك : اسم من ادعى الشيء : أي زعم أنه له حق ،
أو باطلا . ويراد بالملك : ملك مصر . وأدعى : المراد أنطق وأشنع وأقبح من انتسابك إلى جماعة الناس .
دهاء الأمر يدهاء : إذا زل به . ودعته داهية : أصابته . وهي الأمر المنكر ، والثابتة الشديدة . زدهاء :
أصابه داهية . زدهاء : عابه وتنقصه . وأعظم : أي أعظم قبلاً ، وأشد كبراً .

في ثلاثة الآيات السابقة مهد الشاعر لهجاء . وفي هذا البيت قال المهجور : إن انتسابك إلى بني
البشر يضرهم ويؤذيهم ، ويشينهم ويؤذيهم . ودعواك أن ملك مصر حق ثابت لك ادعى من هذا الانتساب ،
وأشد كبراً : بمعنى أنه لا يستحق الملك ، ولا يجوز عنه من بني آدم .

(٥) « يوسف » بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام . اشتد حلف أبيه عليه بعد موته
أمه « راحيل » ؛ فأحب هذا الطفل لإخوته لأبيه ، وأضره الكيد له ، فألقوه في غيابة الحب ، وزعموا
لأبيهم أن اللب أكله . وير بالحب بعض السيارة ، فالتقطوه ، وحملوه إلى مصر ، وباعوه صغيراً
لمزرها ، فنشأ في بيته ، وترعرع . وفي مصر آتاه الله الحكيم والنبوة ، وجمع شمله بأبيه وإخوته وأهله .
وفي القرآن الكريم أحسن القصص ، ومنه سورة يوسف ، وفيها قصته وأطوار حياته إلى أن صار عزيز
مصر ، المدير لأموها ، المتصرف في شئونها ، القائم على عزلتها ، المكين الأمين ، والنبى الذى أرسله
الله بالهدى ودين الحق ، فنجع الناس على توحيد الله تعالى وعبادته ، وأذاقهم حلوة الأمن والعدل ،
والرفاهة والرخاء ، وأظلمهم بحكم عبقري مثالي ، زاهر صالح .

ولمضى : تداول مصر في قدم الزمان وحديثه حاكمان مختلفان كل الاختلاف ، وحكما على طرف
لنقيض : حكم المهجور القائم على الظلم والإفساد ، وحكم يوسف الصديق القائم على العدل والإنسان .
ولما رأى الناس المهجور يعمى حيث أصبلح يوسف ، هانت عليهم الدنيا ، وسقط اعتبارها عندهم ، ورأوا
الحياة ذليلة مهينة ، حقيرة وضئيلة . والفرس تصور سقط المصريين على المهجور ، واستغفاهم بالدنيا ،
واحتقارهم للحياة في عهده ، وبيان شيء من المفارقات والاختناقات التى شهدتها مصر في ماضيا وحاضرها .

فَلَا تَكُ أَوْلَتْكَ الْمَعَادِيرُ حُكْمَهَا فَقَدْ حَارَهَا مِنْ قَبْلُ عَبْدٌ مُزْنَمٌ^(١)
وَشَتَعَانْ عَبْدٌ بِالْمَحْجَةِ نَاطِقٌ وَحُرٌّ إِذَا نَاقَشْتَهُ الْقَوْلُ أَغْنَمٌ^(٢)
فَهَذَا أَذْكَ الْمُلْكَ وَهُوَ مُعْزَزٌ وَذَلِكَ أَعَزُّ الْمُلْكَ وَهُوَ مُهْضَمٌ^(٣)

(٦) المقادير : جميع المقدر . ويراد بها قدر الله تعالى بقضائه وحكمه . أو اختلاف الأيام والأحوال ، وانقلاب الدولة والزيان . وسأزها : حاز مصر : أى استولى عليها وحكمها . والعبد : الرقيق المملوك لغيره . ومزْنَمٌ : دعى ، تملق بمن ليس منه ، أو بغير قومه . ويراد بالعبد المزمَن : « كالفور » ابن عبد الله الإغشيى (٢٩٢ - ٣٥٧ هـ) (٩٠٥ - ٩٦٨ م) : وهو عبد حبشي ، اشتراه محمد ابن طنج الإغشيى ملك مصر سنة ٨٢١٢ ؛ فنسب إليه ، وما لبث أن أعتقه . وكان حبياً في القلعة والدعاء والشجاعة والكماسة وسمن السياسة . وبهذه المزايا ترقى في حاشية ملكه وسيد ، وبما زالت معه قصده به حتى طول الملك سنة ٣٥٥ هـ واستقامت له الأمور سنتين وأربعة أشهر إلى أن قُتِلَ بالقاهرة سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٨ م) . ولأبي الطيب المختبى عدة قصائد في مدحه ، ثم هجائه .

في ثلاثة الأبيات الأولى أن مصر لبثت طوال عمرها مغلوقة على أمرها ، يتداولها حكام من غير أهلها ، وينهب غلاتها الأثافيون من كل صنوب وحطب . وفي هذا البيت : أنه إذا كانت الأقدار قد أثرت المهجور حكم مصر وهو أجبنى منها ، فقد تولّاها من قبل كافور الإغشيى وهو عبد مُزْنَمٌ حبشي ، أى ما زالت هذه البلاد يتداولها حكام أجانب من كل جنس ولون ؛ فهي مطية ذلول لكل راكب ، ومرض قريب لكل طالب . وفي الإشارة إلى كافور تحقير المهجور ، واستعفاف به ، وسطاً من قدره . وفي البيتين الآتين ممازجة بينهما ضاعفت التحقير والتحقير ، وجعلتها على طرفي نقيض ؛ ففى كافور محامد ومناقب ، وفى المهجور مناصب ومطالب يأتى بيانها .

(٧) شتان : اسم فعل ماضٍ : بمعنى اختلف . وشتان عبد وسر : أى اختلفا ، وبمعد ما بينهما . والمهجة : جادة الطريق : أى وسطه وبطنه . أو الطريق المستقيم الواضح النير . وناطق بالمهجة : أى لطفه فصيح صحيح ، وكلامه واضح مستقيم ، يبلغ به مراده . وناقشته القول : حاورته ، وجادلته وكلمته . وأغْنَمٌ : ماضٍ غير فصيح : فيه خسة : وهى السجسة والكسرة .

يقول : اشتد التباين بين كافور والمهجور : فالأول واضح المنطق ، مستقيم التبرير ، ملصق من مراده . والآخر أغمأ ألكن تقبل اللسان ، حبيباً بالبيان ، عاجز عن الجدل والحوار . وإذا كانت الفجة من العيوب التى تحط من شأن الأئمة ، وتقص قدره ، فهى فيمن يتصدون الملك ، والحكم والرئاسة هب فطبع شنيع فاحش .

(٨) هذا : إشارة إلى المهجور . وذلك : إشارة إلى كافور . والورود في شطرى البيت : وأو الحال . والجليلتان الامتحانان بهما حالان . وبهضم : شحيف هضم .

يقول : إن المهجور طول أمر مصر وهى عزيزة قوية ، فأخذ ملكها وأضعفه بهضم إدارته ، ولساد -

فَمَنْ شَكَّ فِي حُكْمِ الْقَضَاءِ، فَهَلْوَ جَلِيَّةُ مَا شَاءَ الْقَضَاءُ الْمُحْكَمُ^(٩)

سياسة ، واستخلافه للأجانب الذين تدعوا في شفيته ، وسيطروا عليه . وكافور على النقيض من هذا ؛ إذ تولى الملك وهو ضعيف يحتاج ، قنونه وأمره بكهامة وحسن سياسته ومال همه وكفايته ؛ ووجه المماثلة في هذا البيت ، والذي قبله وقع الشاعر كالمودى إلى القنة ، وعطف المجهول إلى الخسيس ، مع تساويهما في أنهما من الحكام الأجانب الذين تداولوا مصر عبر الدهر من كل أمة وقلة ، ومن كل جنس ولون .

تداولوا الملوك من كل أمة . وقال بهما حظاً فصيح وأصم
(٩) يراد بالقضاء : قضاء الله تبارك وتعالى وقدره : أى ما قضى به وحكم ، وما قدره في الأزل على العباد والبلاد . وهذه : إشارة إلى قصة مصر التي أجعلها الشاعر في ثلاثة الآيات الأولى . وأجلية : الخبر اليقين . وجلية الأمر : حقيقته . وما شاء القضاء : أى مشيئة الله عز وجل وإرادته ، وما قضى به ، وحكم . وحكم الأمر (من باب ضرب) : أوجب . أو أحكمه . وحكم به : قضى به وحكم ، فهو محكوم . هذا ما لمعه . ويبدو أن التضمين توسع أريد به التذكير والمبالغة .

والمنى - فيما يبدو لنا - : أن أمور الحياة والناس تجري كلها بقضاء الله تعالى وقدره ، وسكمه المحض الذي لا يد منه ، ولا يهين عنه ، ولا يفر من لقائه ، ولا حيلة للناس في اتقائه . ومن ساوره الارتباب في هذا وجد في مصر ما يحو شكه وأربابه ؛ فأعلمها مغلوبين على أمرهم من قدم الزمان ، محكوم عليهم بالمللة والغرور . وكنوز بلادهم وغيرها تهب مقسم للأجانب الوافدين عليها من كل حذب وصوب . أما حكمها فسخرية المسافر ، وهزلة المهالز ؛ يتولاها أشتات من البيض والسود ، والترك والصم ، وشقى الأجانس والأمم . وإن صح^{١٠} أن هذه فكرة الشاعر ، وهذا مراده من البيت ، رجوا ألا يكون فيه احتذار ، أو شبه احتذار من الذين رفسوا بالذل ، وأقاموا على الضم ؛ فإن الله تبارك وتعالى لا يرضى لعباده الضعف والالتماس . ولا ريب أن محافظة المرء على عزه وكرامته ، ووطنه وحرية ، ومرضه وماله واجب يفرضه العقل ، ويحسه الدين . وعليه أن يكافح البغي والعلوان ، ويقاوم الفساد والطغيان بكل ما في طاقته من الوسائل ، مؤمناً أن الموت خير وأكرم من حياة المللة والغرور . وعليه أن يهاجر إذا لم يجد من الهجرة مخلصاً . قال تعالى في القرآن الكريم : «إن الذين يتوكلوا بالمللثة ظالمى أنفسهم ؛ قالوا : فم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين في الأرض . قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة ، فتهاجروا فيها ؟ فأنزلناكم أمواتاً جهنم ، وساءت مصيرهم » (الآية رقم ٩٧ من سورة النساء) .

تخليق

- استحكمت الأتية السياسية بين الخديو « توفيق » ووزارة « محمد سامى البارودى » التي أنكرت^{١١} على الدولتين الإنجليزية والفرنسية تدخلهما في شئون مصر ، كما أنكرت حل « توفيق » ضمه وتنازله ، وأصبحت حل قبوله الإنذار الإنجليزي للفرنسى ، واستقالت في السادس والعشرين من مايو سنة ١٨٨٢ وما لبثت الحرب الإنجليزية العرايية أن توقفت بعد هذه الاستقالة بنحو ستة أسابيع ؛ إذ أطلق الأسطول الإنجليزي قذائفه على حصن الإسكندرية صباح الثلاثاء ٢٢ من شعبان سنة ١٢٩٩هـ (١١١١ =

وَقَالَ :

رُدِّي الْكَرَى لِإِرَاكِ فِي أَحْلَامِهِ إِنْ كَانَ وَعْدُكَ لَا يَنْجِي بِلِمَايِهِ^(١)
 أَوْ فَايَبَيْتِي قَلْبِي إِلَيْكَ ؛ فَإِنَّهُ جَارِي هَوَاكَ ، فَقَادَهُ بِزِمَامِهِ^(٢)
 قَدْ كَانَ خَلْفَنِي لِمَوْعِدِ سَاعَةٍ مِنْ يَوْمِهِ ، فَقَضَى مَمْسِرَةَ عَلَيْهِ^(٣)

= يولية سنة ١٨٨٢م) ويبدو أن هذه القصيدة في هجاء «توفيق بن إسحاق» نظماً البارودي عقب استقالته من رئاسة الوزارة ، أو حينما ضرب الأسطول الإنجليزي ميناء الإسكندرية ، أو قبيل ذلك عندما الغادر الأليم ، أو لما بدت بوادر النكسة والهزيمة ، أو لما اشتدّ سخط النرابيين على «توفيق» ويكرأوا في خلمه. ومن السجيب أنك لا ترى في شعر البارودي هجاء مباشراً صريحاً للإنجليز ؛ وهم «أُسُ الشَّرِّ» والندر ، والكيد والدناء ، والكربز والبلاء ، والمعدون والطغيان .

* * *

(١) الكرى: النوم . واللماح: التهدد والحق . وفي الأصل المخطوط : « بزمام » بالزاي . وهو من تحريف الناسخ .

يقول : إن المشق سلبه نومه ، وأرثه الأرق والسهاد . ومشتقته تمد بالوصال ، ولا شكك تدنى بذمة الودع ، أي بحقه وحرمة . وقد مرّ لقائهما ، واستمست عليه رؤيتها في اليقظة ؛ فطلب إليها أن تردّ إليه أمانة التماس ، وراحة النوم ، ليرأها في منامه وأحلامه . ولا ريب أن الحلم أو الرؤيا المنامية تخفف ما يورثه ويفضيه من حرق الوجد والصباية ، ولواجب الشوق والفرام .

(٢) جاري هواك : جرى مع الحب ، وسار به ، وقبجه ، والفقاد له ، ووقع في أسرهِ . والزمام : المقود . وقاده بزمامه : أي قاد هواك قلبى بزمام القلب ؛ فالهوى قائد . والقلب مقود . والزمام حبل المقادة وأداتها .

استهوّت هذه الحسناء التي يشبب بها ، وسيطرت عليه ، وسلبته عقله ، وأورثته الأرق والسهاد، وحرمته أمانة التماس ، ومطلعه بحقه في القرب والوصال ؛ فضرها في هذا البيت واللى قبله بين ثلاثة : أن تفي له بوعدها ، ليسد بقرها . أو تردّ إليه النوم ، ليرأها في الأحلام . أو تعيد إليه فؤاده ، وتقلق إيساره ، ليحيى حياة اللمعة والاستقرار. وفي سعة الآيات الآتية حديث شائق عن قلبه الذي تعلق بهذه الحسناء ، وانقاد الهوى ، ووقع في أسرهِ .

(٣) خلفى : تركى ، وفارقنى . وقضى : مضى وذهب . ومسيرة : سير . والمراد أن غيبته طالت وانقطعت . أو هي « قصا » (من بابى عدا ، وسبا) . يقال : قصا عنى : أي بعد عنى ، ونأى . يقول : إن قلبه فارقهُ عل أن يمدّ إليه بعد ساعة واحدة ، فما لبث أن وقع في شرك الهوى ، وإسار الفرام ، فظالت غيبته وانقطعت ، وبعدت الشقة بينهما ، وقصرت المودة .

لَمْ أَذَرِ : هَلْ ثَابِتٌ إِلَيْهِ أَنَاثُهُ أَمْ لَمْ يَزَلْ فِي غِيٍّ وَهَيْبَةٍ^(٤)
 عَهْدِي بِهِ صَعْبُ الْقِيَادِ . فَمَا لَهُ أَلْقَى يَدًا لِلْسُلْمِ بَعْدَ غَرَامِهِ^(٥)
 خَلَعَتْهُ سَاحِرَةٌ الْعُيُونِ بِنَظَرٍ مِنْهَا ؛ فَمَلَكَهَا عِذَارَ لِحَامِهِ^(٦)

(٤) ثابت : رجعت وصادت (و به قال) . والآفة : الحلم والرجاء ، والتوبة ، والرزاة .
 والقي : الإيمان في الضلال ، والتمادي في الباطل . وإلھام : جنون المشق . والاستفهام في أول البيت :
 من تجاهل المأرب . والفرض منه إظهار التحسر والتلطف ؛ فالشاعر يعلم أن قلبه مازال سادراً في غيه
 وهيامه ، وأن أناته لم تعد إليه . و « أم » في الشطر الثاني مقطعة بمعنى « بل » وتفيد الإضراب .

في البيت السابق قال : إن قلبه فارقه مستهتماً بتلك الحسنة ، خلال غيابه عنه ، وانقطعت صلته به .
 وفي هذا البيت سأل في تجاهل ولطف وحسرة : هل عادت إليه أناته ، فأنتزع من غرابته ، وأصبحت عودته
 مرجوة ؟ ولكنه ما لبث أن أضرب عن هذا السؤال ، وقرر في يأس وأسى أن قلبه مازال سادراً في غرامه
 وهيامه .

(٥) العهد هنا : العلم والمعرفة . وعهدي به صعب القياد : أي عرفت قلبي لا ينقاد ،
 ولا ينطاع . والاستفهام : معناه التمتع ؛ فهو يتمتع من القياد ، وقد عرفه من قبل أيماً قوياً عصبياً ،
 لا يلين ، ولا يستكين . وقد يكون للإنكار ؛ فهو ينكر على قلبه هذا الانقياد ، ويصيه ، وينهاه عنه . ومن
 معاني اليد : الطاعة والاستسلام . والسلم : المسألة والصلح . وألقى يده إلى السلم : أي خضع وتطامن ،
 واستكان .

يقول : إنه عرف قلبه قوياً أيماً ، مترفعاً عصبياً ، لا يلين ، ولا يستكين ، ولا يتطامن ، ولا ينقاد ؛
 فلما أفرم بهذه الحسنة ذهب الغرام بإيائه وكبريائه ، وفرض عليه الخضوع والتطامن ، والانقياد والاستسلام ؛
 فكان هذا مثار المحب والمحب ، أو الإنكار والاستهجان .

(٦) يقولون : عين ساحرة ، وعيون سوارح ؛ يشيرون بالسحر إلى ما فيها من جاذبية وأسالة
 وتأثير شديد ، وحسن فائق ، وجمال باهر . واللبام : ما يعمل في فم الفرس ونحوه من الحديد والحكمتين ،
 لينمنه من مخالفة راكبه . والمذار : ما سأل من اللجام على خد الفرس ، وهو السير . أو العنان .
 وملكها عذار لحامه : كناية عن أنه جعلها مالكة لأمره ، مسيطرة عليه ، متحكممة فيه .

يقول : إن مشقته خلعت قلبه بنظرة من-عينها الساحرتين ؛ ففزع في غرامها ، وانقاد لها ، وسار
 في ركابها . وهو تكرر لمع الشطر الثاني من البيت السابق ، أي أفرم بها فانقاد لها . والتزيادة هنا :
 هي التثنية بينيتها الساحرة ، ونظراتها الفاتنة .

يَا ، هَلْ يَمُودُ إِلَى الْجَوَانِحِ بَعْنَمَا سَلَبْتَ فَنَاءَ الْحَىٰ تُنِنِي لِجَامِهِ ٧٩
تَاللهِ ، لَوْ مَلَكَتْ يَدَايَ جِمَاحَهُ لَعَقَدْتُ قَائِمَ رَسْنِهِ بِخِذَامِهِ ٨٠
يَا لَايِمَ الْمُشْتَقِ فِي أَطْرَابِهِ مَهْلًا ، إِلَيْكَ ، فَلَسْتُ مِنْ لُؤَامِهِ ٨١

(٧) « يا » : حرف تنبيه . أو حرف نداء ، والمخاطب محبوف ، والاستفهام للتثني . والجوانح إصلاح الصدر . أو هي الفصوص تحت الأتراب ، مما يلي الصدر . وأحدها جناحة . ويراد بالجوانح : استيوع القلب ، واستقرار في صدره . والقي (بكسر فسكون) : واحد الأثناء . وأثناء الشيء : تقاضيه . وأثناء الحبل : طاقاته وقواه . ويراد بشئ الجام : عنائه ، أو سيره أو حبله . وفي الأصل المخطوط : « ملى جلمه » . ويلاحظ أن كلمة « جلم » جاءت في البيت السابق ، وأعيدت في هذا البيت ، وهذا عيب من عيوب القافية اسمه « الإيطة » . والشطر الثاني من هذا البيت : كناية عن أن هذه الحساء استهوت قلبه ، وعلبت له ، وسيطرت عليه ، وتحكمت فيه . ويلاحظ أن الشاعر كرر هذا المعنى في أكثر الأبيات السابقة .

في صدر البيت تنبيه ، أو نداء لكل من يستمع له ، ويعينه على أمره . ثم استفهام تعني به عودة قلبه إليه . أو استيعاد هذه العبودية ، واستئثار منها بعد أن سيطرت هذه الحساء عليه ، وتحكمت منه ، وتملكت زمامه وقياده .

(٨) جمع الفرس ونحوه (من باب خفض) جماعاً وجمعاً : عتا عن أمر صاحبه ، وهزه ، واستعصى عليه ، وظفه . أو تغلب على راحيه ، وذهب به لا يثنى . أو عار : أى انفلت ، فركب رأسه ، ولم يثبته شيء . وملكت يداي جماعه : أى استعظمت السيطرة عليه . والرسن (بوزن سبب ، والتسكين هنا لضرورة الوزن) : ما كان من الأئمة على أنف الدابة . والحبل الذي يقاد به البعير ونحوه . وقد جاءت في الأصل المخطوط « رصفه » بالفاء . وقائم للرسن : طرفه الذي يمسك به من يقود الدابة . والخدام : جمع خدعة (بوزن قصبة) ؛ وهي الساق . والتقيد . وسير غليظ محكم كالحلقة ، يشد في رصغ البعير ونحوه . وعقد قائم للرسن ؛ بخداع البعير ونحوه : كناية عن إحكام تقييده ، ومنه من الجموح والإفلات ؛ فإن الرسن أو المقد يرتبط أنه يساقه ، أو بالقيد الذي في رصغه ، أو بالحلقة المشدودة في رصفه . وعده علة توجب وموالت تمكن منه ، وتشدد عليه ، وترده إلى الطاعة والانقياد .

يقول : لو ملكت السيطرة على قلبي لرجدته عن الهيام بهذه الفتاة .

(٩) يراد بالمشقاق : الماشق الصعب . ووقفه : تعاطية : أى سببية . والأطراب : جمع الطرب : ويراد به : لوعة الشوق وحرارته . وطرب (من باب فرح) : خف ، واهتز ، واضطرب فرحاً ، أو حزناً ، أو ارتياحاً . أو هي الإطراب : مصدر أمر به : أى أثار فيه الطرب . وإليك حى : اسم فعل أمر : بمعنى ابتعد حى ، وتجنب . ولست من لؤامه : أى أنك لم تجرب المشق والشوق ، ولم تتحرق بنارهما ؛ فلا يحق لك أن تلوم الماشق المشقق . =

أظننتَ لوعته فكمامة مازح . فطَفِيتَ تَعْلِيلَهُ عَلَى تَهَيُّامِهِ ^(١٠)
 إِن كُنْتُ تُنَكِّرُ شَجْوَهُ ، فَانْظُرْ إِلَى أَنْفَاسِهِ ، وَتُمْسِجِهِ ، وَمَقَامِهِ ^(١١)
 صَبٌّ ، بَرْتُهُ يَدُ الضَّنَى ، حَتَّى اخْتَفَى عَنْ أَعْيُنِ الْعَوَادِ غَيْرَ كَلَامِهِ ^(١٢)

= هذه الطرب والاختياق إلى من يحبها ؛ فلامو لائحته ، فتاداه طالباً إليه الرقيق به ، والابتعاد عنه ، والإشفاق عليه بالإقتران من حذله ؛ فإنه لم يحرب شيئاً مما يقاسيه ذوو الصبابة والغرام . ولو حرب ، لرفق وشارك ، وأشفق ، وحذر . وقد انتقل الشاعر في هذا البيت وخسة الأبيات بعده من حديثه من قلبه إلى المتحدث عن الشوق والطرب . ، واللوعة والصبابة ، وما يضانيه العشاق المتمسكون من ملاهبسات المشق وأكثاره وأوصابه .

(١٠) اللوعة : حرقة الهوى وليلد الشوق والحزن ونحوه . وتطلق بفعل كذا (كفرح ، وضرب) : أى جعل ، أو استمر ، وواصل الفعل . وهو خاص بالإثبات . وهام بها تهياماً : شغفتها حباً .
 لم يحرب اللام عشق المستهام ، ولم يكابد التياح الهوى والغرام ؛ فظن حرقة وصباته فكامة فاكه ، ومزاج مانع ، فحبل يذله ، ويضاعف بالملل متاعه وأوصابه ؛ فأنكر الشاعر عليه هذا الظن الخاطيء الجائر ، وهابه ، ونهاه عنه . وقد يحتمل الاستفهام - مع الإنكار - معنى التقرير .
 (١١) الشجو : ألم ، والحزن (وطفه من باب عدا) . والسقام : المرض . وأنفاس الشجي حارة متتابعة ، أو طويلة ممتدة تم على شجو وهمته ، وتظهر أوصاب الهوى وآلآه . وهل المكس منها أنفاس الخليلين .

في البيت السابق : أنكر على لائحته خطأ ظنه ، وصو تقديره لوعة المتناح ، وتهيام المستهام . وفي هذا البيت وضع أمام عينيه ثلاثة شواهد تبطل ظلمات جهله ، وتحمله على الإقرار بالحقيقة ، والإقلاع عن العذل ؛ وهى أنفاس الصب ، ودموعه ، وصقامه ؛ فهوىماني أوصاب الهوى ، ويهكى بدموع حارة ، ويبتس السعداء . والبيت الآتى فى معنى السقام ، وآثار الضنى .

(١٢) صَبٌّ : صفة من الصبابة ؛ وهى رقة الشوق ، وحرارة الهوى . والضنى : مصدر ضنى (من باب ضنى) : أى مرض مرضاً ملائماً ، فتمكن منه الضعف والغرزال ، وأشرف على الموت . أو هو المرض المخامر الذى لا يزال يماود المريض ، وكأنا ظن برقه انتكس . ويكثر استعمال الضنى فى أوصاب الهوى والحلب ، وتبايح الشق والغرام . والعواد : جمع عائد : اسم فاعل من عاد المريض (من باب قال) : أى زاه .

بالغ فى تصوير أثر الصبابة فى الصب المستهام ، فقال : إنها برقه وأضته وأذابت جسمه ؛ فلم يبق فيه غير صوت خافت يندل حواده عليه . وفى مثل هذا المعنى يقول أبو الطيب المتنبي :

كفى بحسنى نحولاً أنى وجل لولا غطاطيتى إياك لم ترفى
 ووج تردد فى مثل الخلال إذا طارت الريح عنه الثوب لم يين

نَطَقَتْ مَدَامِيهٗ بِسِرِّ صَمِيرِهِ وَذَكَتْ جَوَانِحُهُ بِنَارِ غَرَامِهِ ^(١٣)
 طَوْرًا يُخَامِرُهُ الذَّهُولُ ، وَتَارَةً يَبْكِي بُكَاءَ الطُّفْلِ عِنْدَ فِطَامِهِ ^(١٤)
 يَصْبُو لِمَى بَابِ الْعَقِيقِ ، وَرَنَدِهِ وَغَرَارِهِ ، وَبَرِيرِهِ ، وَيَشَاوِرِهِ ^(١٥)

(١٣) المدامع : مabilia اللامع ، ومواضع اجتماعه في فواحي العين . والمدامع : المآقي : وهي أطراف العين . ويراد بها هنا : الدموع . ويريد بسرّ ضمير : ما كان يحرس على إظهاره وكتمانها من أسرار حبه وغرامه . وذكت النار : توقّدت ، واشتد لها . والجوانح : أضلاع الصدر . ويراد بها هنا : القلب ، وما حوله الصدر ، ومركز الإحساس والشعور . والغرام : الولوج والشدق ، وشدة تعلق الحب بمحبوبته . والغرام أيضاً : الغذاب . ويراد به هنا : عذاب الحب والوجد ، وتباريح الهوى والصبابة .
 تأجّجت نيران الغرام في صدره ، وبرّح به الوجد والشوق ؛ فبكى ، فكتفت دموعه أمره ، وأظهرت ما كان يحرس على كتمانها من أسرار حبه .

(١٤) الطور : والتارة : الحين والمرة . ويخامره : يخاطبه ، ويلابه ، ويفطيه . والذهول : التثله ، والتثجير ، وغياب الرشد عن الأهل ، وشغل يورثه سرنأ ونسياناً . (وفضله كنع ، وقمب) .
 ونظام الطفل : فصله من أمه ، ومنعه من الرضاع . وفي المقام يشد بكاء الطفل ، وتسو حاله .
 في البيت الثاني عشر شكاً ما برأه وأذابه من الصبابة والفسق ، حتى غنى عن عواده ، ولم يبق فيه غير الأثين الخافت ، وآهات التوجّع والتحنن والشكوى . ولولاها ما رآه ، ولا أحسّ به أحد . وفي البيت الثالث عشر شكاً تأجّج نيران الغرام بين جوانحه ، وغلبة البكاء عليه ، وغزارة الدموع في عينيه ، وآلمه أنها كشفت ما حرص على ستره من أسرار حبه .

وفي هذا البيت اشتد به الأمر ، وتقلب بين حالين : فهو إما غارق في الدهول ، مستلب الحب . فاقطد الوحي ، وإما منتحب لتتحاب الرضيع حرم أحب محبوب إليه ، وأهز عزيز عليه .

(١٥) يصبو إليه : يمزج إليه ، ويميل ، ويمجن ، ويشوق . واليان : ضرب من الشجر ، لين ، سهل الغرام ، ورقه كورق الصفصاف . وتشبه به قدود الحسان . أي قاصاتهن في حسن الطول واعتدال القوام ، واللين والمرونة . والعقيق : حلم على جصلة مواضع بالمدينة ، والجماعة ، وهامة ، وتجدد الطائفة . وتعتاز هذه الأماكن كلها بالعين المذبة ، ومغفرة الزرع والنخيل ، ومغفرة المروج ، وهجرة الطبيعة . وقد تنقّى الشعراء الفزاون في شبه الجزيرة العربية من قديم الزمان بزواى العقيق ، وجملمو معنى غرامهم ، وصرق التئيد الحسان الذي تنفزاوا بهن ، وتوقّدوا إلىهن . والبارودي يحاكمهم في هذا ، ويقتندي بهم ، وينسج على منوالهم . والرند (يفتح فسكون) : شجر طيب الرائحة ، من فصيلة الغاريات ، وقد يطلق على الورد ، والآس ، وهما من الأشجار النطرية . والرمار : جمار ناعم أصفر ، طيب الرائحة . وقد يطلق على الترجس البرى . واحدته عرارة . والبرير : ثمر الأراك إذا اشتدّ وصلب . الواحدة بريرة . والأراك : واحدته أراكّة : وهي شجرة كثيرة الفروع ، غوارة الورد ، تتخذ منها المسوايك . وثمرها أحمر ، =

وَإِذْ سَرَىٰ فِي جَوِّهِ كَنَسِيمِهِ وَيَكِّي عَلَىٰ أَغْصَانِهِ كَحَمَامِهِ ^(١٦)
أَرَجُ النَّبَاتِ ، كَاتَمًا غَمَرَ الثَّرَى طَيْبًا مُرَوَّرُ ^(١٧) «الْخَضِرُ» بَيْنَ إِكَامِهِ

«هَذَا كُنَّ اللَّيْلِ ، يُوَكِّلُ . وَتَبَّتْ فِي الْبِلَادِ الْخَارَةِ . وَالشَّامُ : شَجَر طَيْب الرَّائِحَةِ وَالْعَطَم ، يَسْتَاكُ بِقُضْبَانِهِ ، لَا تُحْمَرُ لَهُ ، وَإِذَا قُطِعَ شَيْءٌ مِنْ أَوْرَاقِهِ وَأَغْصَانِهِ سَالَ مِنْهُ سَائِلٌ أَيْضُ يَشْبَهُ الْبَيْنَ . وَاحِدَتُهُ بِشَامَةٌ .

صَبَا الشَّامُ إِلَى وَادِي الْمُعْتِيقِ فِي هَذَا الْبَيْتِ وَالْأَيَّاتِ الْآتِيَةِ جَرِيًّا عَلَى عَادَةِ النَّزْلِ مِنْ قَدَاسِ شَمَرِهِ الْعَرَبِ فِي جَزْءِهِمْ ، وَاقْتِدَاءَهُمْ ، وَتَشْبِيْهًُا بِمَا جَرَى عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ مِنَ الْأَخْيَالِ وَالصُّوَرِ ، وَالْعَوَاطِفِ وَالْإِنْفِعَالِ وَالْمَعَانِي وَالْبَيِّنَاتِ ، وَالْمَعَانِي وَالْأَسَالِيبِ ، وَرَدِيدًا لِمَا رَلَقَهُمْ مِنَ النَّبَاتِ وَالزَّهْرِ ، وَالنَّسِيمِ وَالطَّيْرِ ، وَالْمُنَاطِلِ وَالْمَشَارِبِ ، وَظَوَافِرِ الْعَالَمِيَّةِ ، وَجِبَالِ الْكُوْنِ ، وَبَحَارِ الْحَسَنِ مِنْ فِتْيَانِهِمْ وَنَسَائِهِمْ .

(١٦) سَرَى (مِنْ بَابِ رَمَى) : سَارَ لَيْلًا . وَالْمُرَادُ مُطْلَقُ السَّيْرِ . وَفَاعِلُهُ ضَمِيرٌ «الْمُشْتَاكُ» فِي الْبَيْتِ الثَّاسِعِ . أَوْ ضَمِيرٌ «صَبَّ» فِي الْبَيْتِ الثَّانِي عَشَرَ . وَالنَّسِيمُ : الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ الْعَلِيفَةُ الْهَيِّبَةُ . فِي الْبَيْتِ السَّابِقِ صَبَا إِلَى وَادِي الْمُعْتِيقِ ، مَنَازِلُ حَبِّهِ ، وَبُغْيُ غُرَامِهِ ، وَتَعَلَّقَ بِمَا يَمْجُزُهُ وَزَيَّنَهُ مِنْ أَشْجَارِ رِيَّاهِ ، وَنَبَاتَاتِ حَطَرِيَّةٍ ذَكِيَّةٍ ، وَطَبِيعَةِ نَاصِرَةِ زَاهِرَةٍ . وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ تَعَلَّقَ بِمَنْ يَحِبُّهَا وَهِيَ هِيَ

وَمَا حَبَّ الْإِنْبَارَ شَفَقْنَ قَلْبِي وَلَكِنْ حَبَّ مِنْ سَكَنِ الدِّيَارِ .

وَقَدْ تَشَبَّهَ بِبَعْضِ الْكَلِمَاتِ إِلَى بَعْضِ مَحَاسِنِهَا وَمِفَاتِيْهَا ، كَحَسَنِ طَوْلِهَا ، وَجِبَالِ قَدَّهَا ، وَاعْتِدَالِ قَوَامِهَا ، وَلَيْسَ جِسْمُهُ وَلَمُوعُهُ وَمِرْوَنَتُهُ ، وَطَيْبُ رِيَّاهَا ، وَنَفْسُهُ عَمِيحًا . وَفِي هَذَا الْبَيْتِ قَالَ : إِنَّهُ حَرَى فِي جَوْزِ هَذَا الْوَادِي سَمَرِي نَسِيمِهِ ، وَسَجَّعَ عَلَى أَغْصَانِهِ سَجَّعَ حَمَامِهِ . وَهُوَ تَصَوُّرٌ بَالِغٌ لَشَوْقِهِ وَنُصْبَانِهِ وَشِدَّةَ وَلَوْجِهِ بِأَهْلِيَّةِ وَدِيَارِهِ .

(١٧) أَرَجُ النَّبَاتِ : أَيُّ نَبَاتِ هَذَا الْوَادِي طَيْبٌ حَطَرِيٌّ ذَكِيٌّ الرَّائِحَةِ . (يَطْلُهُ مِنْ بَابِ فَرَحَ) . وَيُلاحِظُ أَنَّ الْأَشْجَارَ وَالنَّبَاتَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا فِي الْبَيْتِ الْخَامِسِ عَشَرَ ذَاتَ رَائِحَةٍ حَطَرِيَّةٍ ذَكِيَّةٍ . وَغَمَرَهُ الْمَاءُ وَغَمَرَهُ (مِنْ بَابِ نَصَرَ) : عَلَا ، وَعَمَّ ، وَسَوَّاهُ ، وَضَافَهُ . وَالثَّرَى : الْأَرْضُ . وَالْثَرَابُ الثَّرَى . وَرَدَادُ الطَّيْلِيبِ : الْأَرِيحُ ، وَالْخَضِرُ ، وَالْإِنَّمَاءُ ، وَالْإِيْمَنُ ، وَالْبَرَكَةُ . وَ«الْخَضِرُ» (يَكْسُرُ فَسَكَنَ) أَوْ يَفْتَحُ فَسَكَنَ ، أَوْ يَفْتَحُ فَكَسَرَ) : صَاحِبُ سَيْدِنَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ : نَبِيٌّ ، أَوَّلِيُّ ، أَوْ حَوْدِثِيٌّ : أَيُّ فَوْقِ الْوَلَايَةِ ، وَدُونِ النَّبِيِّ . وَقِصَّةُ تَصَاحُبِهِمَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ : مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : «فَوَجَدَا جَبَدًا مِنْ عِبَادِنَا آتِيَاهُ رَحْمَةً مِنْ عَنَدِنَا ، وَعِلْمَانَهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا» إِلَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : «ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا» (الْآيَاتُ رَقْمَ ٦٥ - ٨٢ مِنْ سُورَةِ الْكَهْفِ) . وَالْإِكَامُ (يُوزَنُ الْجِبَالُ) : تَلَالُ الْأَرْضِ وَدَوَابِهَا وَمَرْقَعَاتُهَا . الْوَالِدَةُ أَكَّةُ (يُوزَنُ نَصْبَةً) .

مَا ذَاكَ الشَّامُ يَتَشَفَّى بِوَادِي الْمُعْتِيقِ ، وَادِي هَوَاءَ ، وَبُغْيُ غُرَامِهِ ، وَيَنْوَتْهُ بِزَيَّاهُ ، كَأَنَّ «وَادِي» أَكَّةَ الْخَضِرِ مَرَّ بِأَكَامِهِ ، وَصَارَ فِي أَرْجَائِهِ ؟ فَأَخْصَبَتْ تَرْبَتُهُ ، وَطَابَ ثَرَاهُ ، وَأُورِجَ نَبَاتُهُ ، وَعَمَّ الْيَمِينَ وَالْبَرَكَةَ ، وَالزَّكَاةَ وَالْإِنَّمَاءَ

مَالَتْ خَمَالُهُ بِخَضِرِ غُصُونِهِ وَصَفَتْ مَوَارِدُهُ بِزُرْقِ جَنَامِيهِ (١٨)
 بِاصَابِحِي ! إِنْ جِئْتَ ذِيكَ الْحَمَى فَاحْذَرْ عَيْنَ الْيَمِينِ مِنْ آرَائِهِ (١٩)
 وَأَسْأَلُ عَنِ الْبَدْرِ الَّذِي كَسَمِيهِ فِي نُورِ غُرَّتِهِ ، وَبَعْدَ مَرَامِهِ (٢٠)

(١٨) الخصال : جمع الخصلة : وهي الشجر الكثير المجمع المتلف الذي لا يرى فيه الثمرة إذا وقع في وسطه . وكل موضع كثُر فيه الشجر خُميلة . والموارد : المناهل والمشارب : جمع موقفة (برزة مجلس) . والجسام : جمع جم (وزن قل وتلال) : وهو الكثير المجمع من كل شيء . أو هو جمع جمعة (بضم الجيم) : وهي من الماء مظمه . وماء أزرق : شديد الصفاء والنعاء . وجسام زرق : مياه صافية رالقة نقية ، كثيرة غزيرة ، وفي الشطر الأول إشارة إلى نسيم ذلك الوادي الذي يميل النصفين ويمررهما حركات لطيفة . وقد تكون الإشارة إلى كثرة النصفين التي تميل بها أشجارها . وفي الخصرة معنى الحياة ، والبهجة ، والنضارة ، والنضارة .

(١٩) ذِيكَ : « ذبا » : تصغير « ذا » : وهو اسم إشارة المفرد المذكر . والكاف : حرف خطاب . والحسى : المكان الحمى المصون المنيع . وفيه إشارة إلى تمنع المتغزل بين ، واحتجابين ، وصعوبة الوصول إلين ، وشدة بأس من يقتوي بحراسته . ويراد بالحسى : وادي العقيق : أي ديار محبوبة وأزواجه . واليمين : جمع عيناء . وهي المرأة التي اتسمت عينائها في حسن وبسال . وفي القرآن الكريم في وصف نساء الجنة : « وسور عين كأثال القلور المكنين » (الآية رقم ٢٢ والآية رقم ٢٣ من سورة الواقعة) . والآرام : جمع رُم : وهو الظهي الخالص البياض . وتشبه به الحسناء من النساء في الرشاقة والمروءة ، ولطف الحركة ، وحسن الثني ، وبسال الجيد والمعينين .

أشار إلى وادي العقيق ، ونسائه العين البياض الحسان المصونات الشبهات بالظباء والفولان . وحذر صاحبه أن تسحره عينين وبغائتين ؛ فيقع في مثل ما وقع فيه من أشراك الهوى ، وسجالات الفرام . وجعل التنويه بين في هذا البيت تمهيداً لإفراد محبوبيته بفزله وتشبيهه في الأبهات الآتية . وفداء الصاحب في مثل هذا المقام أسلوب شائع مألوف في الغزل ، ويمكن حذفه من خصائص لغة الشعر .

وقد أشرنا في عدة مواضع من شرحنا إلى ولوح البارودي بالبيئة العربية البدوية ، وكثرة ما يورده في شعره من صوراً وخصائصها ، وعادات أهلها ، وطبيعة الحياة فيها .

(٢٠) يريد بالبدو محبوبيته . ويريد بسميته : البدر الحقيقي : وهو القمر الممثل ليلة تمامه في منتصف الشهر القمري . وسميك : نظيرك . وبين كان اسمه كاسمك . والقرة (في الأصل) : بياض في جهة الفرس . وفرة الإنسان : وجهه . والمرام : المطلب . ورامه (من باب قال) : أراده ، وطلبه .

طلب إلى صاحبه أن يسأل في وادي العقيق عن مشقته بين العين الحسان اللاتي أشار إليهن في البيت السابق . وكأنما أراد تمييزها له ؛ فشبها بالبدو في ضياء وجهها ، وإشراق جبينها ، يرمز قنودها ، ونهاة شأنها ، وصعوبة الوصول إليها .

فَلَا اِسْتَبَهَتْ ، وَلَمْ تَجِدْ لَكَ هَادِيًا فَاسْمَعْ اَيْنَ الْقَلْبِ عِنْدَ خِيَامِهِ (٢١)
فَبِلَيْكَ الْوَادِي غَزَالَةٌ كِلَةٌ تَرَوِي حَلِيثَ الْفَتْلِ عَنْ ضِرْغَامِهِ (٢٢)
ضَاهَتْ بِقَامَتَيْهَا مَسْرَاعٌ قَنَاصِهِ وَحَكَّتْ بِلَحْظَتَيْهَا مَضَاةَ حُسَامِهِ (٢٣)

(٢١) اشتبه الأمر عليه : اختلط ، والتبس ، وبقى وجهه . ويراد باشتباه صاحبه : صومعه اعتدله إلى المشقة ؛ فهو في معنى « ولم تجد لك هادياً » . وأين قلبه : دقائقه المالية المضطربة . والأصل : أن المريض أينما ؛ إذا تأوّه ، وتوجّع . وأنت الفرس ونحوها : أي رنّ وترها في اعتداد . ونحوها : خيام البدو ، أي الحبيب : جميع خيمة : وهي المنزل . والبيت يتخذ من الصوف أو القطن ، ويقام على أعواد ، ويشد بأطناب . والبيت يبنى من أعواد الشجر ، ويلقى عليه تبت يستعمل به .

يقول لصاحبه : إذا اختلط عليك الأمر ، ولم تجد من يذكك على محبوبي في حماها ؛ فاستمع لأعين قلبي في خيانتها تجد إليها بلا مشقة . وفي البيت إشارة لطيفة إلى أن هذه المشقة قد غلبت ليه ، واستلبت فولاده ؛ فهو أسير لديها ، مشدود إليها ، يئنّ أينما ، ويحنّ حينئذ . وترى مثل هذه الإشارة أو هذا المعنى مغلصاً في سمة أبيات سابقة (من الثاني إلى الثامن) .

(٢٢) الغزاة : أي الغزال ، وهي اللظية . والغزاة : الشمس عند ارتفاعها . والكلّة : السور . وفلك به (من بابي ضرب وقتل) فتكاً (بتثنية الفاء) : انتهز منه فرصة ، فقتله على غرة ، وغدبه ، واغتاله . أو بطش به ، وقتله بمجارة . وضرغامه : ضرغام الولي . والضرغام : الأسد الضاري الشديد . والرجل الشجاع . وفي « الكلّة » إشارة إلى وقاحة المتنزل بها ، أو احتجابها . وكلاهما مما يضاف صباة الصب المستهام .

شبه محبوبته بالظبية ، أو بالشمس . وقال : إنها رافعة ناعمة محبة عنمة . وإذا حدثت غيرها روت أنباء فتك الحسان بمشاقتهن . أو فتك ضراغة ذلك الوادي بمن يحاول الوصول إليهن ؛ فهن في حرارة نقطة قوية ، شديدة مستحكمة . أو المعنى : إن هذه النادة الحسناء تصرع عشاقها كما تصرع الأسد فراسها .

(٢٣) ضاهاه : شاكله ، ومائله . والقامة : القدّ ، والقوام : وحسن الطول . والمسراع : اسم من سرّح الشيء تسريعاً ؛ أي سهله ويسره . وسرحت المرأة شعرها : ريسلته ، وشطّطته ، وخلطت بعضه من بعض بالمشط . ويراد بسرّح القنّاة : اعتدالها واستوائها ، على التشبيه بالشعر المرسّل المنحرف . أو هي السراع (بكسر السين) : جميع سرسة (يفتح السين) : وهي الشجرة الطويلة المعتدلة تشبه بها القامة في حسن الطول ، والاستواء ، والاعتدال ، والمرولة . وتتخذ منها القنّاة : وهي الريح الأجوف . والنصا المعتدلة المسقوفة المشدّبة . وحكّت : ضاهت ، وشابنت ، ومائلت ، وشاكلت . والقطعة : النظرة السريعة بمؤخر العين . ومن كلامهم : « فتتّ شظائرها وأحاطتها » . والحسام : السيف الحادّ القاطع ومضاه : حدثه ، ونفاذه ، وسرعة قطعه . والصمير الغير والمضاب إليه في « قنّاته » =

هِيَ مِثْلُهُ فِي الْفَتْكَ ، أَوْ هُوَ مِثْلُهَا سَيَّانٍ وَقَعَ لِحَاطِظِهَا وَسَهَامِهِ (٢٤)

فَسَقَى الْحِمَى دَمْعِي إِذَا ضَنَّ الْحَيَا بِجُحْمَانِ دِرَّتِهِ سُلَاقَةً جَسَامِهِ (٢٥)

س : « ساهمه » يعيد على « فرغام » الراوى فى آخر البيت السابق .

يقول : إن الحسناء التى يتنزل بها ، قائمتها معتدلة ، مستوية ، فى حسن طول استواء ومع الرابع الشعاع المقدام من رجال ذلك الراوى . ونظرتها فائنة ساحرة فاتكة فتلك سيفه البتار . والبيت الآتى تكرار وتأكيد لمعنى الشطر الثانى من هذا البيت .

(٢٤) هى : أى الحسناء التى يشبب بها . أو نظراتها الفاتكة . ومثله : مثل « الفرغام » : أى الشعاع المقدام من رجال وادها . أو مثل سيفه البتار . و « أو » : بمعنى « وأو » العطف . وهى مثله ، وهو مثله : أى هى تشبه فى الفتك بمشاتها ، وهو يشبهها فى الفتك بأعدائه . والشطر الثانى تكرار لهذا المعنى . وسيان : مثنى « سى » : وهو المثل ، والشبيه ، والنظير . ولحاطها (بكسر اللام) : لحظاتها : جمع لحظة : وهى النظرة السريعة ، تكوين مؤنصر العين . والسهام : جمع سهم : وهو عود خشبى يمسوى ، ويركب فى طرفه نصله : أى حديدته الفاتكة الجارحة ، وروى به عن القوس . وكانت القسى من أدوات الصيد والقتال : أى سيان يقع لحظاتها فى قلوب عشاقها ، ويقع سهامه فى صدور أعدائه .

والبيت تكرار وتأكيد لمعنى الشطر الثانى من البيت السابق ، فالحسنة المتغزل بها نظراتها فائنة ساحرة فاتكة ، تتم المشاق وتسهرهم وتصرعهم ، كأنها سهام الحارِب الشعاع ، أو الصياد الماهر من رجال وادها ، وأبطال قوتها .

(٢٥) الحمى : المكان الحمى المصون المنيع . وباد به : وطن الشاعر ، ومبنى شبيبته وطوبه ، وسرح حبه وفرامه . ومن (كتب وضرب) : شح وبخل . والحيا : المطر . والجمان الثؤلؤ . وصب يصاغ من الفضة على شكل الثؤلؤ . واحده جمانة . وباد به هنا : قطرات المطر على التشبيه بجيمات الفضة وصغار اللؤلؤ فى الصفاء واللقاء . والدرية (بكسر الدال وفتحها) : اللبن أو كثرته . وتشتاعر لسطر . وسلافة كل شيء وسلافه . خالسه . والجمان : إناء للشراب والطعام ، يكون من الفضة أو نحوها . وهى مؤنثة ، فارسية الأصل . وقد غلب استعمالها فى الكأس : أى قلح الشراب . وسلافة الجمان : ما تحويه من خالص الشراب . ويلاحظ أن الكلمات المجازية مالت بالبيت إلى الثقل والتكلف ، ونجحات عن اليسر والسهولة والطبع والسابقة . والترتيب الأصل لهذا الكلام : « فسق دمعى الحمى سلافة جامه إذا ضن الحيا عليه بجمان دونه » .

يلعب لوطنه بالسقيا والرى والخصب والتغير المخور ، فإذا بخل عليه المطر بمائه التزير النقي الصافي أرواء بخالصة دموعه ، وهى دموع الحب والشوق ، والحنين والوفاء ، والإعزاز والتكريم . وفى هذا البيت وثلاثة الأبيات يمدد انتقال من الغزل والتشبيب إلى تمجيد الوطن ، والتحدث بتمعه وأبياده .

يَا حُبْلًا حَصْرُ الشَّبَابِ ، وَحُبْلًا رَوْضُ جَنِينَتِ الْوَرْدِ مِنْ أَكْثَامِهِ (٢٩)
 حَصْرٌ ، إِذَا رَمَمَ الْخِيَالُ مِثَالَهُ فِي لَوْحٍ فِكْرِي لَاحٍ لِي بِتَمَامِهِ (٣٠)
 إِنِّي لَأَذْكُرُهُ ، وَأَعْلَمُ أَنَّنِي بَاقٍ عَلَى التَّيْبَعَاتِ مِنْ أَكْثَامِهِ (٣١)

« هذا ؛ فخلقه بوطئه شديد ، وولاه له تام ، وبره به مطور ، وشوقه إليه لا ينقطع ، ولا يفتر . وهو لا يفترق بتقضى مجلسه ، ويحدث بإفضاله عليه ، ويشكر إحسانه إليه .

(٢٩) « يا : حرف تنبيه . أو حرف نداء والمثنى محذوف . وحصر الشباب : زمني ، وطوره . وحبلًا : أسلوب مدح . والمخصوص بالمدح في العبارة الأولى « حصر الشباب » . وفي العبارة الثانية « روض » . وهو البستان النضير . والأرض الخصبة ذات الماء والخضرة . وجنيت الورد ونحوه (من باب رى) : تطلعت من شجرة . والأكام : جمع كم (بولن كن " وأكتان) : وهو خطاه الزهرة : أى الغلاف الذى يحيط بها ، فيسترها ، ثم ينشق عنها . ويريد بالروض : حصر شبابه . ويريد بالورد : ما استمتع به من لذات الشباب وبهاجه .

(٣٠) انفعال : قوة التخيل : وهي إحدى قوى العقل . وفي استطاعة كل فاعل أن يتخيل الشيء : أى يصوره . ومثال الشيء : صورته التى تمثل صفاته ، وتصوره تصويراً تاماً . واللوح : ما يكتب فيه ويرسم . يكون من الخشب والورق المقوى وغيرهما . والفكر : إعمال العقل فى المعلوم الذى يعين على تعرف المجهول . ويراد به هنا : اللحن . ولوح فكري : فكري الشبيه باللوح . ولاح : بدا ، وظهر ، والفتح . ولطافه فسير « مثال » .

يشير إلى شدة تعلقه بشبابه الراحل ، وحنيه إليه ، وتأثره به ، وتذكّره لمصره ؛ فإذا تخيّل رأى صورته حاضرة أمامه ، مرسومة فى ذهنه ، واضحة جليلة ، حية قوية ، تامة كاملة ، مفصلة مفصلة .

(٣١) أذكرو : أذكر حصر شبابي : أى أذكّره ، ولا أنساه . والتبعات : جمع تبعة : وهي حاقبة الأمر ، ومبغية ، وما يترتب عليه من أثر . وكثر استعمالها فى الآثار السنية ، وما يترتب على الأفعال من شروء . وأكام : جمع كم : وهو الذنب ، والبحرية ، والخطيئة . ومن : ببيان . والأكام بيان للتبعات . ولعل المراد بهما ما يمتنع له أكثر الشبان فى شبابهم من المرح والقهو ، والنسب والمجانة ، وأطعمى والغرام . ولعل مراده ببقائه عليها : دوام تذكّره لها ؛ فإن المقيم على الشيء يذكّره ، ولا يكاد ينساه . وفى الذكرى راحة للثقل وشفة .

فى البيت السابق وصف قوة تذكّره لمصر شبابه ، وشدة تأثره به ، ومقدّره على استحضار صورة تامة واضحة فى ذهنه . ويبدو لنا أن هذا البيت تأكيد لهذا المعنى ؛ فإن تعلقه بذلك العهد بعد فواته يحضر على الدوام فى ذهنه وتذكّره ما كان له فيه من متع ولذات ، وشهوات وسرات . ولعل البيت الآتى يمتدح هذا المعنى ويرجسه .

مَا كَانَ أَحْسَنَ عَهْدَهُ لَوْ دَامَ لِي مِنْهُ الْوَدَادُ. وَكَيْفَ لِي بِتَوَالِيهِ؟ (٣٢)
وَالدَّهْرُ مَصْدَرٌ جَبْرٌ لَوْ أَنَّتَا تَتَلَوُ سَجِلَ الْعَدْرِ مِنْ آثَامِهِ (٣٣)
عَمْرَى، لَقَدْ رَحَلَ الشَّبَابُ، وَعَادَنِي شَيْبٌ تَحَيَّفُ لِحَتِي بِشَغَامِهِ (٣٤)

(٣٢) عهد : عهد الشباب : أي زمانه . منه : من الشباب . أو من عهده . والاستغناء في الشطر الثاني : مناه الثاني . وهو مع الثاني يتم على الأمل والتحصن والتلطف والحزن على شبابه بعد فواته ، وانقطاع مصافاته ووداده .

يقول - في تحزن وتوجع ، ولغة وحسرة : لا سبيل إلى دوام زين الشباب . ولو دام لكان جذراً أن يتجيب من حسه وجهه ، ويقاه منه وسركه .

(٣٣) السجل : القدر ، أو الكتاب يدون فيه ما يراد حفظه وتسجيله . ويلاحظ أن الشاعر كرر كلمة « آثامه » في البيتين الحادي والثلاثين والثلاثين . وهذا عيب من عيوب القافية اسمه « الإيالة » وهو إعادة كلمة الروي لفظاً ومعنى من غير أن يفصل بين الكلمتين المكررتين سبعة أبيات فأكثر . وقد سبق هذا العيب نفسه في البيتين السادس والسابع من هذه القصيدة .

في أربعة الأبيات السابقة اشتد تعلق الشاعر بشبابه الراسل ، واشتدت حسرته على فواته . وفي هذا البيت شكاً الدهر ، ويبرم به ، وسخط عليه ؛ فإن ذهب شبابه أثر من آثار تقلب الدهر ، وتحيف الزمان وتجرد من الخير والبقاء . ولو قرأنا من سجلات آثامه وجرازه سجل غدره وغياناته لافتقاده منه كثيراً من الخير والصفات ، وتوقينا كثيراً من الشرور والآفات .

أو المعنى : أن الدهر سجل لما يكون في الحياة الدنيا من خير وشر ، وسرات ومسامات ، فإذا قرأنا ما حواه هذا السجل من شرور وغيانات اتعظنا واعتبرنا ، وتوقينا أنفسنا أن تقع في مثل ما وقع فيه غيرنا . وهذا المعنى وثيق الاتصال بما قبله وما بعده ؛ فإنه لما تحسر على فوات عهد شبابه ، وتعلق ذهنه وفكره بذكريات ذلك العهد ، قرأ في سجل الزمن صوراً وأمثلة من غدر الناس وغيانات بعضهم لبعض ؛ فاحتبر بها ، ودعا غيره إلى الاعتبار والامتناع . وأجرى البيت مجرى الحكم والأمثال .

(٣٤) عمرى : أسلوب قسم : أي أحلف بحياتي . وعادني : عراقي وأصابني . وتحيف لحي : تنقص سوادها ، وذهب به . وآثامه : شعر الرأس الذي يجاوز شمة الأذن . أو الذي يلم بالمتكب : أي يقرب منه . ويراد بالثمة هنا : شعر الرأس مطلقاً . وثمام الشيب (يفتح الثاء) : بياضه . وهو في الأصل : جمع ثمامة : وهي شجرة ذات زهر أبيض وثمر أبيض ، تنبت في فتن الجبال . وإذا ليست اشتد بياضها ؛ ولهذا عبروا بها عن الشيب وبياضه . وشدة تعلق الشاعر بشبابه الراسل ، وشدة تهرمه بالشيب للملم سوتحت له أن يصدر هذا البيت بالقسم ؛ فهو يؤكد به - في آسى وحسرة - أن شبابه ذهب ، ومعنى ، ورحل ، وانقضى . وحل محله الشيب ، وهو نذير الموت والحلاك ، ورائد الردى والفتناء . وكأن المقام مقام شك وإرتياب في قلة متاع الدنيا ، وذهاب زينها وجهتها ، وسرعة الرحيل عنها ، وسرعة انقضاء زهرة السمر ونضارتها ؛ فهو يحس هذا الشك بهذا القسم .

وقال :

أَعِذْ عَلَى السَّعْمِ ذِكْرَ الْبَانِ وَالْعَلَمِ . وَأَعِزْ شَايِبَ دَفْعِي إِنْ جَرَتْ يَدِي .^(١)
 مَلَاعِبُ لِبَصْبَا أَقْوَتْ ، وَمَا بَرَحَتْ . مَلَاعِبًا لِلْأَسَى وَالْأَعْيُنِ السُّجْمِ .^(٢)
 كَانَتْ لَنَا سَكَنًا ، حَتَّى إِذَا (قَوِيَتْ) . مِنَّا ، عَدَتْ سَكَنًا لِلرَّيْحِ وَاللَّيْمِ .^(٣)

(١) البان : ضرب من الشجر . ومن معاني العلم : العلامة والأثر . ويشار بالبان والعلم إلى أماكن معينة في شبه الجزيرة العربية ، ويدها شمراء العرب قديماً في أشعارهم ، وأكثروا من التفتي بها ، والحنين إليها . والباروصى معتد بهم ، ناسج على منوالهم ، مولع بمفانهم ، ويواظفهم ، ويصورهم وأعيالهم ، وأساليبهم ، ناقل عنهم ما تغزوا به من المواطن والديار ، وما استوقفهم من اللحن والآثار . وهو هنا يني بالبان والعلم : ملاعب نشأته وصباه ، ومنازل حبه وغرامه . والشايب : جمع الشويوب (بوزن المصفور) : وهو الدفعة من المطر . وشايب دمه : أي دمه الغزير الكثير المهملر للشتات الشبيه بشايب المطر . وإذا تقرّحت العين من كثرة البكاء اختلط دمعها بدم القروح .

طلب إلى صاحب حقين ، أو خيال ، أو شخص جرده من نفسه أن يردد على سمعه حديث الديار التي يحين إليها ، ويأمن عليها ، كما طلب إليه ألا يلوّيه إذا أُنشئت ذكرياتها أشجاناً ؛ فبكى ، وطال بكائه ، واشتد ، حتى حيث عيناه ، وجرت بالدم حموه غزيرة متتابعة .

(٢) أقوت : أقفرت ونحلت . و « ملاعب » في شطري البيت متنوعة من الصرف ، أي التثنية . وإنما فوّت لضرورة وزن الشعر . والثانية جاءت مشكلة للأولى ؛ لوقوعها في صهيها ؛ فالملاعب لا تناسب الأسي والحزن ، وإنما تلائم الصبا والصبر والجدّة وما يلاصقها ويلازيها من اللعب والهوى ، والمرح والسرور . والمشكلة من المحسنات البديعية . و السجم : جمع سجوم (فقول بمعنى فاعل) من سمجت العين دمعها : أي أسالته ، وصبيته .

في البيت السابق أشار بالبان والعلم إلى أماكن عزيزة عليه ، أثيرة لديه . وفي هذا البيت : بين أنها كانت ملاهي طفولته وصباه ، وساحر له يورسه في حداثته وصغره ؛ فلما خلت من أهلها بقيت قائمة تجدد ذكريات ماضيه ، وتثير الأسى والشجن ، وتوجع الحنين والبكاء .

(٣) في الأصل المخطوط الذي بين أيدينا نقص . والكلمة التي بين قوسين في نهاية الشطر الأول (قويت) تكلمة من عندنا استقام بها وزن البيت ومعناه . ومن الكلمات المرادفة للاتفة هنا : صغرت (بوزن تبت) ، وعويت (بوزن رضية) ، وكلها بمعنى خلت ، وأقفرت . وضدت : صارت . والليم : جمع ديمة (بوزن قيمة وقيم) : وهي المطر يدمم أياماً . أو يدمم في سكون ، بلا رعد ، ولا برق . والمعنى : أقمتا زماناً في هذه الديار المزينة واهنين ناعمين في ظلال الدعة والأمن ، والسكينة والطمانينة ؛ لاهين هائتين بمرح الطفولة وهيجتها ، ونشاط الصبا وطفوه ؛ فلما فارقناها تداولها الرياح والأمطار ؛ فلم يبق منها غير الأملاط والآثار .

لَمْ أَتَّخِذْ بَعْدَهَا دَارًا أَقِيمُ بِهَا إِلَّا تَذَكَّرْتُ أَيَّامِي بِذِي سَلَمٍ^(٤)
 وَكَيْفَ أَنْتَى دِيَارًا قَدْ تَشَأْتُ بِهَا فِي مَنَيبِ الْمَرْبِ بَيْنَ الْأَهْلِ وَالْحَتَمِ^(٥)
 يَا مَنْزِلًا، لَمْ يَدْعُ وَشَكَ الْفِرَاقِ بِهِ إِلَّا رُسُومًا كَوَحْيِ الْخَطِّ بِالْقَلَمِ^(٦)

(٤) «ذو سلم» : موضع في جزيرة العرب ، رددته قداى للشمره في أشعارهم . وقد أسلفنا أن البارودي أولع بإحياء الشعر القديم ومحاكاته ؛ وترديد ماورد فيه من الأماكن والمغاني والديار والآثار . وهو هنا يشير إلى سلم ، وألبان ، والعلم إلى ملاحيه وملاحيه في طفولته وصغره ، وسارعه ومراثيه في حداثته وصباه . وهذه كلها لا تتجاوز الديار المصرية التي ولد فيها الشاعر ونشأ ونما ، وشب وترعرع ، وعاش ومات .

والفكرة في هذا البيت وثلاثة الأبيات قبله واحدة ، هي وفاءه للملاعب صباه ، وديار شبابه ، وشدة تعلقه بها بعد إقوائها ؛ فكلما سكن بعدها داراً غيرها تذكّر أيام لموه وسمته ، ومرحه وهجته في تلك الملاعب ؛ فاشتد حنينه إليها ، وتأجج حزنه عليها .

(٥) الاستفهام في أول هذا البيت : معناه اللحن . وحشم المرء : خاصته الذين يفضيئون لنفسه ، ويفضون لفنهم ، ويميزونهم ما يحزنه ، ويقومون على خدمته من أهله وأقاربه ، أو خدمه وصبيده ، أو صحبه وبيوته .

والبيت في معنى الأبيات الأربعة السابقة ؛ فلاعب صباه مرموق بحبه وحنينه ، ملذكورة بإعزازة وتقديره ؛ ولا غرو فضا نشأ نشأة العزة والكرامة ، والنعم والرفاهة بين من كانوا يحولونه ويتمهدونه ، ويمسحون بأمره من أهله وحشمه .

(٦) لم يدع : لم يترك . وشك الفراق (يفتح الزاوي وضمها) : سرعة البين والرحيل . ورسوم المنازل والديار المهجورة : آثارها الباقية . ومثلها الأساطل والدمن ، المفرد رسم . والوحى : الكتابة . ووصى الخط بالقلم : كتابة من يخط بقلمه على ورق ونحوه .

نادى - في تحسر وتلهف ، ووجد وأسى - منيت عزه ، وملاعب صباه ، وديار نشأته ، قائلاً : إن أهلها أقاموا بها برهة ، وما لبثوا أن فارقوها ، وارتحلوا عنها ؛ فتداولها الريح والأمطار ، وواصل التحرية والتخريب ؛ فلم يبق منها غير رسوم وآثار ، شبهها بكتابة من خط بقلمه على ورق أو نحوه . وهذه إحدى صور الحياة في البادية والبيئة الصحراوية العربية ؛ فإقامة البدو في منازل موقوفة محدودة ، وإرتحالهم عنها مفروض محتم ، وشك سريع ، فإذا زایلها تناوبها الريح والأمطار ، ولا تزال بها حتى تمحوها ؛ فلا يبقى منها غير الدمن والطلول .

أَيْنَ اللَّيْنِ بِهِمْ كَانَتْ نَوَاطِرُنَا تَرَعَى الْمَحَاسِنَ مِنْ قَرَعٍ إِلَى قَدَمٍ^(٧)
وَدَعَتْ شَطْرَ حَيَاتِي يَوْمَ فُرْقَتِهِمْ وَصَافَحَنِي يَدُ الْأَحْزَانِ وَالْهَرَمِ^(٨)
فَيَا أَخَا الْمَعْلَى لَا تَجْعَلْ يَلَاحِظَهُ عَلَيَّ ؛ فَالْحُبُّ مَعْلُودٌ مِنَ الْقِسَمِ^(٩)
أَسْرَفَتْ فِي اللَّوْمِ حَتَّى لَوْ أَصِيبَتْ بِهِ مَقَاطِعُ الْحَقِّ لَمْ تَسْلَمْ مِنَ التُّهَمِ^(١٠)

(٧) «هم» : فهم ؛ قاله هنا : الفطرية . ونواظرنا : عيوننا . جميع الناطر . وترعى : تنظر وتراقب ، وتلاحظ . والمحاسن : جميع عل غير قياس لـ «حُسْن» . وفرع المرأة : شمرها الشام . والتقريب الأصل لهذا الكلام : أين اللين كانت نواظرنا ترى فهم المحاسن من قرع إلى قدم .

في ستة الآيات السابقة ذكر الشاعر - بالأولى والخمين - ملاعب صباه ، وصالح لحو ، وديار نشأته في الزَّين بين أهله وحشمه ، وسك في تشبه وحنيه ، وبره ووقاته لتلك الديار ملك شعره العرب في ياديه ، ونهج نهجهم ، ونسج عل منولم . وفي هذا البيت اتجه إلى ذكريات الغزل بمن كان يولم ، ويأس من ، ويتلمن في تلك الديار ، ويمتغ فاطريه بالجمال الحسى الذى يشمل أجسامهن من الفروع إلى الأقدام . وسأل - في حسرة ولطفه ، وأسى ولوعة - عن المكان الذى انتقلت إليه ، لعله يجد السبيل إليه ، ويعاود التقرب منهن ، ويستأنف رعى محاسنهن . ويلاحظ أنه وضع « اللين » موضع « اللوى » ، و« هم » موضع « هن » . وقد لا يكون هذا من الغزل ، وإنما هو الحُب والوفاة ، والشوق والخمين إلى من عرفهم ، وأسى بهم في ملاعب صباه من أهله وأقربائه ، ورفقه وغلاته ، ولذاته وأترابه ، فتيناها وفتيات . وأراد بمحاسنهم : فضائلهم وزياتهم ، وأراد بالفروع والتقدم : الشموك والتشميم : أى كانت نواظرنا ونفوسنا تسعد وتبتهج بمحلمهم الثمالة ، وزياتهم الثمالة .

(٨) ودعت : المراد فارقت . وشطر الشيء : نصفه . والمهرم : الشيخوخة ، وأقصى الكبر . (وقوله من باب تمب) .

في البيت السابق سأله متحسراً عن اللين كان يرى بعينه محاسنهم في ملاعب صباه ، وأيام شبابه . وفي هذا البيت قال : إنه فارق يوم فارقتهم - الشطر القوي القى - للبيح النضير من عمره وشبابه ؛ فتراكت عليه المعلوم والأحزان ، وسارعت إليه الشيخوخة وأوصافها .

(٩) أشعر المذل : المذل الذلل . واللائمة : المذلة . وشظها الملازمة . والقوم . والقسم : جميع قسمة (يوزن تنة وتين) : وهى الحظ والنصيب .

يريد أن الحب من المخطوط المقدرة المحتوية ، والأمور المبرمة المقتضية إلى لا مناص منها ، ولا حيلة للمحب في اقتائها ، أو التخلّص منها ؛ ولهذا كان من التلم والإعنات أن تعاجله بالوم والتشريب .

(١٠) قطع الأمر : فصله . والمقطع : موضع القطع . ويجمعه مقاطع (يوزن مذهب ومذهب) . وأصبت بلوكم مقاطع الحق : أى كان لوبك صائباً سديداً ، قائماً على الحق والصدق ، بعيداً عن الباطل =

فَارْتَحَمَ شَبَابَ قَتْنَى الْوَتِ يَنْصَرِيهِ أَيَدِي الضَّنَى ، فَفَعَلَا لَحْمًا عَلَى وَصْمِهِ ^(١١)
تَأَفَّلُوْهُ مَا غَنَرُوْهُ الْعُلَّانِ مِنْ أَرْبَى وَلَا التَّلَوْنُ فِي الْأَعْلَاقِ مِنْ شَيْبَى ^(١٢)

= والصنى . والهم جمع تمة (يوزن غرة وطية) : وهى اسم من أتمه فى قوله : لى شك فى صفه . وأتمه بكذا : لى أدخل عليه التمة فيه ، وظنها به . يقال : أتمه بالحقه ظلًا : لى ظنه حاقًا .

فى البيت السابق : ذمًا لآتمه إلى التريت والقرى ، ونهاه عن المسارعة والمجلة ؛ فإن الحب من الأنور المحمودة المقسوة ؛ فليس من البطل أن يلام المرء على شئ اضطرارى خارج عن لإدائه واختياره . وفى هذا البيت شكًا الإشراف فى اللوم ، وقال : إنه يدعو إلى إهمام اللئيم ، ويشكك فى كلامه وإن كان محققًا . والفرس من البيتين إحباط المثل ، وحمل الماذنين على الإفلاح عنه ؛ فإنه يمارس الحب ، ويضاف أوصابه .

(١١) أوى به : ذهب به ، وأهلكه . وأوداه . وألوى الضنى ينصرته : ذهب بها ، وضاعها . والنصرة : الرزق والحسن ، والبهاء والنعمة . والضنى : الداء المخامر ، والمرض المزمن ، والجزال الشديد ، والإشراف على الموت . وضعا : صار . والوصم : خشبة الجزال التى يقطع عليها اللحم . وكل ما وقيت به اللحم من الأرض . وضعا المريض لحماً على وصف : تغيير يراد به ذهب الصحة ، وإتهيار القوة ، وانحلال الجسم وتبدله .

فى البيتين السابقين حاول إسكات عاذله ، وتحميته عنه ؛ فلامه فى البيت الأول وحاسنه . وعاشته فى البيت الثانى وضاعه ، قائلاً إنه أسرف فى اللوم ، وجاوز القصد والاعتدال ؛ فلم يعلم من أتمه والشبهات . وفى هذا البيت عاد إلى الملازمة والمهاسة ، بل ترك إلى استرحام لآتمه واستطافه ؛ فإن الحب هزل وعمله ، وأشقاه وأضناه ، وألوى بنصرة شبابه ، وبالف فى إيصابه وضاعه ، وضاعت اللوم همه وعمه ، وأوجاعه وبلواه .

(١٢) التندرة : المرة من التندر : وهو الحياطة ، ونقص العهد . والملائن : الأخلاء : جمع الخليل : وهو الصديق الخالص ، أو المختص (فعيل بمعنى مفاعل) . والأرب : البهية : وهى ما يبيت فيه المرء ويريد ويطلب . أوىه : أوىه : أى علق وسلوكى . والأدب : وباهة النفس — بالتعلم والتهديب — على ما يبنى . لى ليس للتندر بأخلاق ما أطلبه وأبتغيه وأفكر فيه . أو ليس من سلوكى وعقلى . أو ليس ما يلام أذى ويساره . وتلون الأخلاق : ضحها وانحللها . من قلم : فلان تلوّن : لى متقلب متغير ، لا يثبت على علق . والشيم : جمع شيمة (يوزن قيمة قيم) : وهى الخلق والفرزة ، والطبيعة ، والجلمة التى جبل الإنسان عليها : أى فطر ، وعلق ، وطبع .

انتصر بالبقاء لأخلاقه ، ولشبات على ما اعتاده ، وفطر عليه من حميد الخصال ، وحسن الشيم . وأكّد هذا التندر بالنقص الذى صدر به البيت . وصلته بالأبيات السابقة واضحة وثيقة ؛ فهو يقر : لمن أحسم ، مقيم على ودهم ، بعيد عن التلون ، لا يزال — فى سبيل حبه ووفائه — لوم اللئيم ، ولا يكثر لئلا الماذنين ؛ فإن المثل عمولة يرد بها صرف الحب عن البقاء ، وحمله على نقص العهد ، والتندر بمن أحبه .

فَكَيْفَ أَنْكِرُ وَدَا قَدْ أَخَذْتُ بِهِ عَلَى الْوَفَاءِ عُهُودًا بَرَّةً الْقَسَمِ ١٣٩
 لَنْ لَمْ يَكُنْ لِيَفْتَى عَقْلٌ يَصُونُ بِهِ عَلَاتِقَ الْوُدِّ صَاعَتَ ذِمَّةٍ الْحَرَمِ ١٤٠
 وَأَتَيْنَ مَنْ تَمْلِكُ الْأَحْرَارَ شَيْئَهُ وَالْفُتُورِ فِي النَّاسِ دَاغٌ غَيْرَ مُنْجِمِ ١٤١
 فَأَنْقُضَ يَدَ بِلْكَ مِنَ الدُّنْيَا؛ فَلَسْتُ تَرَى خِلًا وَفِيًّا ، وَعَهْدًا غَيْرَ مُنْصَرِمِ ١٤٢

(١٣) الاستفهام في أول البيت : معناه التني . والمهود : جمع عهد : وهو المؤقت . وإيحين : وبرة صادقة . والقسم : إيحين : اسم من أقسم بالله إقساماً : أي حلف . يريد أن يده لأود الله قائم على عهد ومواثيق قوية متينة ، وأن وفاءه بهذا الود وحرمه على دواحه شديد تام ، فلا سبيل إلى إنكاره ، أو التهاون به ، أو التقصير فيه . وهو تأكيد لمعنى البيت السابق .

(١٤) حلائق الود : علاقته ، وأواصره ، ورحابه ، وأسيابه ، وروابطه . الواحدة علاقة (بكسر العين) . والعلاقة (يفتح العين) : الصداقة . والحب . وفي في هذا الأمر علاقة : أي تعلق وارتباط . واللثة : العهد ، والكفالة ، والحق ، والأمان والضمان . والحرم : جميع حرية (بضم فسكون) : وهي ما يجب القيام به وريائته ، وحرم انتهاكه والتفريط فيه من حق ، أو ذمة ، أو مصبة ، أو مودة وصداقة ، أو نحو ذلك . وما يمكن إحلاله محل النقل هنا : القلب ، والخلق ، والدين .

يقول : إن عقل المعامل يفرض عليه صيانة أواصر المودات الموقودة بينه وبين أودآله وأحبابه ؛ وهذا يقتضي أن يكون وفياً لهم ، برّاً بهم ، حريصاً عليهم . فإذا اعتلّ العقل أو اختلّت تقطعت أسباب الحب ، وانقضت موثائق الوفاء ، وضاعت الحقوق والمهود ، والذم والحرمات . وهو تأكيد لمعنى الود والوفاء في البيتين السابقين .

(١٥) غير منقسم : غير منقطع : أي داه عياه ، لا طب له ، ولا بره منه .
 يعني أو يستبعد وجود الحرّ الكريم الذي يأمر الأحرار بشيعة النبيلة ، وسجاياء الحميدة ، وبره وفائه وصديق وداده . وسبب هذا التني أو الاستبعاد أن الغدر شائع في طبائع الناس ، وداه فضال لا سبيل إلى علاجه . وفي البيت روح التشاؤم ، والتبرم بالناس . وخسة الآيات الآتية كلها في هذا المعنى . ومنها انتقل الشاعر إلى من أودى بغيرهم وأحقادهم وفساد طواياهم ، وسوء خلطهم .

(١٦) نفّض يديه من الدنيا (من باب نصر) : أعرض عنها ، وزهد فيها ، ولم يندخل بها . والمهد : المؤقت ، وإيحين ، واللثة : العهد ، والضمان ، والأمان ، والمودة ، والوصية . ومنقسم : منقطع . ويراد بالأمر في أول البيت : النصيح والإرشاد .

لم يجد الشاعر الخلل الرق ، ولا الصديق الصادق الذي يحفظ عهده ، ويصون دمه ، ويرعى ذمائه ، ويصني له إغنامه ؛ ولهذا حانت الدنيا عليه ، وسقطت في عينيه ، فنفض منها يديه ؛ إذ لا قيمة لها عنده إلا بالأخلاء الأوفياء ، والأصفاء الخالصاء الذين يوفون بالمهود ، ويخلصون في المودات ، ويرعون الحقوق والحرمات .

هِيَاهُ ، لَمْ يَبْقَ فِي الدُّنْيَا أَخُو ثِقَةٍ يَرَعَى الْمَوَدَّةَ ، أَوْ يُقْبَى بِدَ السَّلَامِ (١٧)
 فَلَا يَفْرَنُكَ مِنْ وَجْهِ بَشَاشَتِهِ قَالَ نَارُ كَامِنَةٍ فِي نَاحِيَةِ السَّلَامِ (١٨)
 تَغَيَّرَ النَّاسُ عَمَّا كُنْتُ أَتَسَمَعُهُ وَاسْتَحْكَمَ الْغَدْرُ فِي السَّادَاتِ وَالْحَكَمِ (١٩)

(١٧) هِيَاهُ : اسم فعل ماضٍ : بمعنى يمشي . وما بعدها في هذا البيت تفسير لها ، تأكيد لمعناها .
 وَأَخُو ثِقَةٍ : شخص أو صديق يوثق به ، ويطمأن إليه ، ويؤمن على الحق والحرمان . ويرعى المودة :
 يصرن المحبة القائمة بينه وبين أحبائه ، ويحافظ عليها ، ويثق بمحبتها . ومن معاني اليد : الطاعة ،
 والافتقار ، والاستسلام . والسلم : اسم من سلم تسلياً : أى انقاد ، وضعف ، واستسلم . وسلم عليه :
 حياه بالسلم . ويلقى يد السلم : أى يتقاد للبراعى الأخوة ، ويخلص فيها ؛ فهو فى معنى « يعزى للمودة » .
 وهل هذا توكيد « أو » : بمعنى « وإلا » البطف . أو يلقي يده بالتحية والسلام فى صدق وإخلاص .

والبيت تكرر وتأكيد لمعنى البيت السابق ؛ فقد أعوزه الأخلاء الأوفياء ، والثقات المؤمنين من صحابه
 وإخوانه الذين يرعون الود ، ويوفون بالهدى ، وينقادون لما يقتضيه الإغناء ، ويبرمون من التفاق
 والرياء .

(١٨) لا يفرنك : لا يخدمك . غره : غدهه ، وأطعمه بالباطل ، وأراد به المكروه من حيث
 لا يعلم . وبشاشة الوجه : تلهه وبشره وطلاقة . وكامنة : متوارية مستترة ، مستغفية . والسلم : شجر
 شائك ، ينمو فى البلدان الحارة ، ويدعى بورقه . وأسدته سلمة (بوزن قسبة وقصب) . وناحية السلم :
 السلم الناحية : أى القديم البال المتخضت .
 يحذر الاضطرار بالرجوع الضاحكة ، واللقاءات الخادعة ، والبشاشات الزائفة التى تخفى تحتها المحتل ،
 والشر ، والكيد ، والندى .

(١٩) السادات : جمع سادة . والسادة : جمع سيد ، أو سائد . والمصدر السيادة ، والسود ،
 والسؤدد . والحشم : العبيد ، والخدم ، والأتباع . واستحكم الغدر فى السادات والحشم : شيوخ الخيانة
 ونقض العهد فى الناس جميعاً ؛ عليهم وسفلتهم ، وغدوهم وغادهم ، وانتشار الغدر بينهم على وجه
 الاستحكام والثبات والاستقرار ، كأنه مركز فى طابعهم وجبلاتهم . وفى هذا البيت وأربعة الأبيات
 قبله كثر الشاعر - بالإشارة - أو بصريح العبارة - ذكر الغدر وكثرته فى الناس . وهذا التكرير
 على كثرة ما أصابه من أذى الغادرين وكيد الخائنين .

كان الشاعر يحسن الظن بمن ينهزم بهذا الكلام ، وقد بنى حسن ظنه على السماع ؛ فلما جربهم
 تبين له أنهم أهل نفاق وغدر ، وشر وطعان . والبيت الآتى فى هذا المعنى ، أو فيها يقرب منه .

وَقُلْ أَغْنَىٰ عَنْكَ مَنْ تَلَاقَهُ مِنْ رَجُلٍ أَغْنَىٰ عَلَى الْخَلْقِ مِنْ ذَنْبٍ عَلَى غَنَمٍ (٢٠)
 مِنْ كُلِّ أُنثَىٰ فِي عَرِينِهِ فَطَسَّ خَالٍ مِنَ الْفَضْلِ، مَمْلُوءٍ مِنَ النَّهَمِ (٢١)
 سُودُ الْخَلَائِقِ، دَلَّاجُونَ، مَا طُبِعُوا عَلَى الْمَحَارِمِ هَدَّاجُونَ فِي الظُّلَمِ (٢٢)

(٢٠) ظل : صار . والأصل : ظل يظل كذا : إذا عمله بالتهار دون الليل . وأغنى : امس .
 تفصيل من عدا عليه حوائجاً : أي ظلمه ، ونجاوز الحد في ظلمه وعدوانه . والخلق : الناس .
 وهذا البيت وثيق الاتصال بالذي قبله ؛ فإن الشاعر ظن هؤلاء الناس في مرتبة عالية من العدل والإحسان ؛
 فلما بلامهم وكلم في التذلل الأسفل من الجور والفساد ، وكان فتكهم بغيرهم أشد وأقوى ، وأذكى وأنفذ
 من فتك الذئاب بالأغنام . يشير بهذا إلى ما في طبائعهم من الشر والأذى ، والبنى والعدوان ، والظلم
 والظفان . أجرى الشاعر هذا البيت وستة الأبيات قبله مجرى الحكم والأمثال ، وأحارها كلها حول فكرة
 واحدة ، هي شروح القدر في الناس . وكأنما مهد بها لسبعة الأبيات الآتية التي هجا بها من سقط عليهم ،
 وقيم منهم .

(٢١) « من » في أول البيت : بيانية . وما بعدها وهو « كل أنثى .. » : بيان لما قبلها :
 وهم الذين أغفلوا ظن الشاعر ، وغيروا رجاءه ، ونقضوا بغيرهم مظهرهم ، وكانوا شرّاً من الذئاب .
 وأنثى : قبيح دميم ، سيئ المنظر . والعريين : ما صلب من عظم الأنف . وفطس : انخفاض قسبة
 الأنف : أي انفراسه في الوجه . وضده الشمم : وهو ارتفاع في قسبة الأنف ، مع استواء أعلاه .
 والفصل : الخير ، والفضيلة ، والإحسان . وضده النقص ، والشر ، والارذيلة . ولانهم : الإفراط في
 شهوة الطعام وغيره . وراد به هنا : الحرص والشره ، والطمع للمقوت ، والنقص والخالب التي تنقص
 الفضل والفضيلة ، والخير والإحسان .

ويمام بالنمامة ، وضو الويدو ، وفطس الأنوف ، وقبح المنظر ، وسوء المنبر ، وبجردهم من الفضل
 والخير ، وريام بالنهم والطمع للمقوت ، وشي الخالب والنقص .

(٢٢) أخلاق : جميع الخلقية : وهي الطبيعة التي خلق الله المرء عليها . ويسمر بالسود في مثل هذا
 المقام عن الشر والقبح والسوء . وسود أخلاق : طبائعهم سيئة قبيحة . مردولة محققة . ودلاجون : جميع
 دلاج : من قويم بات ليلته يذبح دليوساً : أي يسر عامة الليل . وهو في مقام المجاهد : كناية عن سوء
 السلوك . أو من دلاج قريب يصله : إذا نهض به متغلاً . والمراد أنهم يشقون مثقلين بكثرة ما يحملونه
 من الأوزار والحائز . « و » : نافية . وطُبع على كذا : نشأ عليه ، وتعود . وفي الأصل المتحطوط
 « طبعوا » . والمحارم : جميع محرم (بوزن مذهب) . وأوجع محربة : وهي ما حرّم الله تعالى . وما لا يصلح
 اتبهاك من عهد أو ميثاق أو نحوها : أي لم يطلعوا على اتقاء المحارم ، ولم يتأدوا احترام الهوى ،
 وصيانة الحرمات ، ورعاية الأدم . وهداجون : جميع هداج : صيغة مهالفة من هدج (كسرب) :
 أي مشى متثقلًا في ضعف وأرمانش . والمهتبان في ظلمات الليل : كناية عن ارتداد مواطن الرب والشجاعت ،

لَا يُحْسِنُونَ التَّقَاضِيَّ فِي الْحُقُوقِ، وَلَا يُؤْفُونَ بِالْعَهْدِ إِلَّا خِيفَةَ النَّعْمِ (٢٣)
 تُعْمَرُ الْوُجُوهُ مِنَ الْأَحْقَادِ، تَحْبِسُهُمْ - وَهُمْ أَصْحَاءٌ - فِي دِرْعٍ مِنَ السَّعْمِ (٢٤)
 فَلَا فُكَامَةَ فِي قَوْلٍ وَلَا عَمَلٍ وَلَا أَمَانَةَ فِي عَهْدٍ وَلَا قَسَمٍ (٢٥)
 بَلَّوَتْ مِنْهُمْ خِلَالًا لَوْ وَسَمَتْ بِهَا وَجَهَ الْفَرَالَةَ ثُمَّ تَشْرِيقٌ عَلَى عِلْمٍ (٢٦)

« وإتيالك الحمرات، وإرتكاب المحرمات؛ فالتقصن الفاسق يلبس الليل، ويستتر بسواده، ويمشي وراء زوجته، ويغتاظ لشهواته. وقد يكون المديان في الظلمات: كناية عن الرشايات والهمائم، والكيد والمكر السيئ، والسعي بالإفساد.

(٢٣) التقاضى في الحقوق: المطالبة بها، واستردادها من آخرها. والكلام هنا يشل الحقوق العامة والحقوق الخاصة. والتم: جمع قنعة: وهي القوة والانتقام.
 وصمهم بالمعز والتمصير في تقاضى الحقوق الوطنية، والحقوق الشخصية، وهم لا يؤفون بالعهد والعقد، ولا يحرمون الأيمان والمواثيق، ولا يراعيون الذم والحمرات إلا إذا خافوا العقوبة والانتقام؛ فهم ضماض لتام جبته.

(٢٤) الأحقاد: جمع حقد: وهو الضغن، والافتراء على العداوة، وإضرار البغضاء؛ والنفسب الثابت في القلب. وسقد عليه (من بابي ضرب وتجب): أضر له العداوة، ورأى فرصة الإيقاع به؛ ولا ريب أن عجز الخلق عن إيذاء المحقود عليه يضاهي الحقد في نفسه، ويوجب ناره، ويضاعف آثاره في الوجه وغيره. - وتحصمهم: تظلمهم. وجلة «وهم أوصاء»: جملة حالية. وللدع: القمص. والسقم: المرض.

انطوت قلوب المهجوين على الأحقاد والضغائن، وعجزوا عن إيذاء المحقود عليهم؛ فبدت وجوههم مصفرة شاحبة، فإذا رأيتهم فلتنتهم مرضى، وهم في حقيقة الأمر أوصاء، وما تراءى في وجوههم صفرة الضغينة والمعز، لا صفرة لليلة والمرض.

(٢٥) النمامة (يفتح الذال وكسرهما): النمة، والحق، والكفالة، والضمان، والحجرة، والعهد، والأمان. وللنمامة (يفتح الذال): الحياة والحجل والإشفاق من الذم والهم. والعهد: ما يجب مراعاته، والمحافظة عليه، والوفاء به من الذم والحمرات، والأيمان والمواثيق، والحقوق، والكفالات ونحوها. والقس: التمين: وهو اسم من أقسم بالله تعالى: أي حلف.

جرّهم في أقوالهم وأعمالهم من الحياة والحجل، أو من مراعاة النمة والحق، كما جرّهم - في عهدهم وأيمانهم - من الصدق والأمانة.

(٢٦) يلوّث: يغيرت، وجرّيت، وامتنعت، وصرفت. (وبابه علما). ومنهم: من المهجوين أو من الناس الذين خالطهم وعلمهم. والخلل: الخصال، والشيم، والعياب، والأخلاق. الواحة =

لَمْ أَذِرْ، هَلْ تَبَعَتْ فِي الْأَرْضِ نَائِغَةً أَمْ هَلِوْ شَيْعَةُ الدُّنْيَا مِنْ الْقَدِيمِ؟ (٢٧)
لَا يُذَرِّكَ الْمَجْدُ إِلَّا مَنْ: إِذَا تَهَضَّتْ بِهِ الْحَمِيَّةُ لَمْ يَقْعُدْ عَلَى رَعْمٍ (٢٨)
لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْمَسَاعِي مَا يَبِينُ بِهِ فَضْلُ الرِّجَالِ تَسَاوَى النَّاسِ فِي الْقِيَمِ (٢٩)

= خُطَّة (بفتح الخاء) . وسمعت (بتاء المتكلم ، أو بتاء المخاطب) . وسمه (من باب وعد) : كواه ، وأثر فيه بسمة أو كى . أو جبل له سمّة : أى علامة يعرف بها . والفرزلة . الشمس . والعلم : الجبل . يقول : لو تطلّع وجه الشمس بما حرقه من نقائص هؤلاء المهجوين وخصالهم اللئيمة ، لاحتجبت أوصياءه وصيدا .

(٢٧) نَيْغ (فتح) : ونصر ، وضرب ، ودخل) : بدأ ، وظهر . والثابفة : اسم فاعل منه . ويراد بها هنا : الظاهرة المستحدثة . والشاعر يشير بها إلى ما يلازم ويترفع فيمن خالطهم وعاملهم من سوء الخلال ، وقبح الخصال ، ولؤم الطباع ، وفساد القناعات والأخلاق . وهـ أم : في الشطر الثاني للإضراب . والثابفة : الخلق ، والطبيعة ، والبدادة . وفي الأصل المخطوط « الدم » وصوابها « القدم » . جرب الشاعر المهجوين ، واختبر من خالطهم من الناس ، وتجرّع ما ساءه وحزنه ، وفاحشه ، وآذاه من سوء خلطهم ، وفساد طبعهم ، واستحكام القدر والخيانة في عاصمتهم وخصالهم ، وسوقهم وسادتهم ، فاستنهم في امتحان وأسف : أهله ظاهرة مستحدثة في الناس ، جدت بعد أن لم تكن ؟ ولكنه ما لبث أن أضرب عن هذا السؤال ، وقرر في الشطر الثاني أن هذه طبيعة الحياة والناس منذ خلّقوا .

(٢٨) الهجد : العز والرفعة ، والنبيل والشرف . والحمية : القوة النفسية إذا كثرت وزادت وتأثرت في الإنسان . ويمير بها في مثل هذا المقام عن الأنفة ، والترفع عن الدنيا ، والمحافظة على المحارم ، والدفاع عن العرض والشرف ، والغضب للعتة والكرامة إذا انتقصت أو مسّت بسوء الرغيم : الذل والهوان : مصدر رغم (من باب تعب) : أى ذل وهان وأكره على شيء . لا يرضاه . ونهضت به حميته : رفعت في مراتب العزة والكرامة ومعالي الأمور ، وأبت حايه أن يقيم على الضيم ، أو يرضى بالهوان . وفي الأصل المخطوط « دغم » . وفي المحجمات : -أدغمه الشيء : أى ساءه . وأدغمه الله : أى سواه وبجبهه وأذله . وأرغمه الله وأدغمه : أى أذله وأخزاه . ورأغم دأغم . ورغماً دغماً .

يقول : إنما يذرك الهجد ذو الحمية والأنفة الذي يأبى الضيم ، ولا يقيم على الذل ، ولا يرضى بالهوان . ساق الشاعر هذا البيت والذي بعده مساق الحكم والأشكال . ولعل الصلة بين هذه الحكمة والهجاء الذي سبقها أن المهجوين اغترفوا بمناقصهم عن الجادة ، وبعثوا عن الهجد والحمية والفضل وشرف الخلال . وسكروا الأخلاق .

(٢٩) المساعي : المكرمات وأعمال الخير والبر ، والمحاسن الكبيرة التي تكسب صاحبها الشرف والهجد ، واحداً منها . والمساعي أيضاً : جميع المسمى (بوزن المرمى) : مصدر ميمي : بمعنى السعى ، والمسلوك ، والتصرف ، والعمل ، والكسب . ويبين : يبدو ويظهر ويتضح وينكشف . والفضل : الخير ، =

فَأَيُّ غَامِضَةٍ لَمْ تَجْطُهَا فِعْلَانِي ؟ وَأَيُّ بَاذِخَةٍ لَمْ تَعْلَهَا قَدَيِّ ؟ (٣٠)
وَكَيْفَ لَا تَسْبِقُ الْمَاضِينَ بَادِرَاقِي وَالسَّهْمِيَّةُ تَخْفَى الْفَتَكَ مِنْ قَلْبِي ؟ (٣١)

= والتفضيلة ، والإحسان . وشده التقص ، والرذيلة ، والإساءة . وقيمة الشيء : قدره ، ووزنه ، واعتباره وجمعها قيم (بوزن ديمة وذيم) .

والمنى : أن الناس يتفاوتون في مراتبهم ودرجاتهم وأقدارهم يتفاوت أعمالهم وسامعهم . ومهمهم وكفاياتهم ، فالساعي النبيلة الحفيدة ، والأعمال الصالحة العظيمة تشهد لأصحابها بالغفل والإحسان ، وترفعهم في مراتب المجد والسود . وعلى العكس منها الساعي الرضيعة المبقوطة ، والأعمال السيئة المردودة ، أو التافهة الحفيرة ، أو المعتلة الفاسدة ؛ فلها تجرد أصحابها من الخير ، وتنزل بهم إلى الخسيس . والقرص الحس على المكرمات وأعمال الخير والبر ، والمروءة ، والإحسان ؛ فيها يظهر فضل الأفاضل من الناس ، وفيها يتنافسون . ولولاها لاحت الفوارق والمميزات ، وتساوى الناس في الغافل ، والعالم والماعول ، والقوى والضعيف ، والذكي والذلي ، والتقى والفاجر ، والحسن والمسيء . وفي البيتين الآتين يتنقل الشاعر إلى النخر ببعض مناتيه .

(٣٠) الاستفهام في شطري البيت : معناه أليس ؟ ففطنته تجلو كل غامضة ، وقدمه تملو كل باذخة . والفطن : جمع فطنة : وهي الخلق ، والمهارة ، والدكاء ، وحدة العقل ، وجودة الفهم ، وقوة الذهن ، وقام استمداده لإدراك ما يد عليه . وبلغ الجبل ونحوه (من باب دخل وفجر) : طال ، وعلا ، وارتفع ، فبان علوه وارتفاعه . ويراد بالباذخة : المرتبة الرضيعة العالية من مراتب المجد والبر ، والشرف والسود . فهو يتسم بفطنته وهمة وكفايته ما يصحب على غيره من معالي الأمور ، والمقاصد البعيدة الكبيرة . وهله يملو (من باب ما) : رقيه ، وصحده .

افتخر بفطنته وهمة وقوة عزيمته ؛ وهذه المزايا وأشباهها يحلو غولمض الأمور ، ويحل المشكلات ، ويعتصم بالمقبات ، ويتسم ذروة المجد والسود ، ويحقق الآمال اللواسة ، ويدرك المقاصد البعيدة .

(٣١) البادرة : البديهة . ويراد بها : ما يرتجله من الشر والنشر والخطب والأدب والبيان . وريح سمهري ، وريح سمهري ، وقناة سمهري : نسبة إلى « سمهر » (بوزن جعفر) : وهو رجل اشتهر عند العرب بتنظيف الرياح وتقويمها . يريدون بنسبها إليه : أنها أجود الرياح وأضاهها . وفلك به (من باب ضرب وقتل) : بطش به ، وقتله مجاهرة . وأقراو في أول الشطر الثاني : وأو الحال . والجملعة بدها حالية .

يفتخر بتفوقه وسبقه في مجال الأدب والبيان . وهو يرتجله من الشر والنشر والخطب يفوق للماضين من فعل المشرء ، وأساليب الخطابة والسن . وقلمه أبلغ أثرًا ، وأعظم خطرًا من أفعى أسلحة الحرب والقتال . والصلة وأحسة بين بيني الفخر وبين الحكمة قبلهما .

لِكُلِّ عَصْرِ رِجَالٌ يَذْكُرُونَهُ بِهِ ۖ وَالْفَضْلُ بِالتَّغْيِيرِ أَيْسَ الْفَضْلُ بِالْقَدَمِ ۝

وَقَالَ * :

مَنْ لَيْعِنُوْا إِنْسَانَهَا لَا يَنْسَأُ ۖ وَقُوَادُ قَصَى عَلَيْهِ الْقَرَامُ ؟^(١)
أَقَطَّ اللَّيْلَ بَيْنَ حَزْنٍ وَكَمَمٍ ۖ وَسَهَادٍ ، وَالنَّاسُ عَنِّي نِيَامٌ^(٢)

(٢٢) يقول : لكل زمان دولته ورجالته الذين اشتهروا به ، واشتهر بهم . وبفضل الأفاضل منهم لا يكون يقدم الزمان ، أو حداته . وإنما يكون بما تنطوي عليه قلوبهم من الفضائل وكرم الخلال ، وما يخلقه من الأعمال العظيمة ، والآثار النافعة ، والمساكن والمكارم . والبيت يجري مجرى الحكم والأخلاق . وصلت بهي الغنى قوله أن البارودي من أدباء العصر الحديث وشعراته ، ومع حدائته وحداثة عصره بـ " اقتطاع الليل " وبفصلهم ، وفاق الأوائل وبشعرهم . وكأنه يفتي قوله القائل :

والى - وإن كنت الأخير زمانه - لآت بما لم تصطبه الأوائل

ويلاحظ أن كلمة « القدم » مكررة في البيتين السابع والثامن والتاسع . وهذا عيب من جوب الثانية اسمه « الإطالة » ، وهو إعادة كلمة الروى لفظاً ومعنى من غير أن يفصل بين العطفين المكررين سبعة أبيات على الأقل .

• • •

* ينال بارودي هذه القصيدة قصيدة لأبي الطيب المتنبي مطلعها :

لا افتخار إلا لمن لا يقسام مدرك ، أو محبوب لا ينام

فالقصيدتان متفتحتان في الوزن والروى . وفي بعض الملقى ،

(١) إنسان العين : حنقها . أو ناظرها . أو سوادها . أو الخال الذي يرى في سوادها . وقضى عليه : صرعه ، وقطعه . والقوام : المشق .

لشد به الوجد والقوام ، فذهب بقلبه ، وأورثه ألم والأرق ؟ فاستجند بمن يمينه حل أمره ، ويصنف أوصاه وضامه . والحبيب المنزول به غير من ينجده بقربه ووصاله ، ويرد إليه أمة الناس ، ويحيى قواده ، ويحقق مراده .

(٢) أقطع الليل : أنقذه كله . وهو من مجاز اللغة . كما يقال : قطع اللقاة . وقطع النهر : أي عبره واجتازته من أحد شاطئيه إلى الآخر . والسهاد : الأرق ، والسهر . والجملعة الاسمى في الشطر الثاني : جملة حالية . ونام عنه : فغل عنه ، ولم يأبه به ، ولم يكثر له ، ولم يتم بأمره ، فهو قائم ، وجمعه نيام .

في البيت السابق انتصح هذه القصيدة بسؤال يحمل معنى الاستفاضة والاستنجا ؛ لعله يجد من يرى -

لَا صَبِيحٌ يَرْتِي لَيْسًا بِتِ الْفَا هُ ، وَلَا مُسَبِّدٌ - فَلَيْنَ الْكَرَامِ ٣٩
 لَمْ تَدْعُ لَوْعَةَ الْعَبَابِ مِنِّي غَيْرَ نَفْسٍ غَدَاوَهَا الْآلَامُ ٤٠
 رَقٌّ طَمَعُ النَّسِيمِ رِقْقًا يَحَلِي وَيَكِي - رَحْمَةً - عَلَى الْحَمَامِ ٤١
 وَيَنْفَسِي - لَوْ كُنْتُ أَمْلِكُ نَفْسِي - قَمِيرٌ نُورُهُ عَلَى ظِلَامِ ٤٢

ـ حاله ، ويستمتع لشكواه ويحبه حل أمره . وفي هذا البيت شكاً فقدان التصير والخير ، وضلة الناس عنه ، وقلة اهتمامهم بأمره ، وهو يقضي لياليه كلها جزئياً باكياً ، قد أوتيه الوجه والعبابة ، وأغناه الهوى والفرام . والبيت الآخر تفصيل وتأكيده لهذا المعنى .

(٣) رَقٌّ له (من باب رعى) : رحمه ، ورقٌّ له ، وحنا عليه . وبات يقبل كذا : إذا فعله ليلاً . وهو يشير بما بات يلقاه إلى ما صرح به في البيت السابق من الحزن واليأس ، والأرق والسهاد . والعاشق الصب للمستحباب يلقه كل هنا ويكابه ويحانه ليلاً ونهاراً ، غير أن ليله ألقى عليه من نهاره . ولجسد : التصير ، والخير ، والمعين : اسم فاعل من أسعد : ألى أماته وأتبعه . وه آية : اسم استعظام ، يطلب به تعيين المكان . ويراد بالاستعظام هنا : الاستجداد والاستقامة . وكروام الناس : كرواظم وخيازم الذين يرقون لخله ، ويشفقون عليه ، وينفقونه من كربه وبلاءه .

فصل الشاعر في هذا البيت ما أجمله في البيت السابق ، وأجمل ما فصله : أجمل ما يلقاه في ليله . وفصل أمر الغافلين عنه من الناس : فلم يجد فيهم مسداً يسده ، ولا صديقاً يرقى حاله ، ولا كراماً يرقى له ، ويعنو عليه .

(٤) لم تدع : لم تترك . واللوحة : الحرق . ولاحه الحب (من باب قال) : أسرته ، ولطفه ، وألوهيه . والعبابة : رقة الهوى ، وحرارة الشوق .

(٥) النسيم : الريح الخفيفة لليلة الصليفة . ورقّة طبع النسيم : ليه واحتضانه ولطف حركته .

في أربعة الأبيات السابقة وصف حاله ، وهي حال الصب المستحباب ، وشكا واستنجد ، وتكلم وتوجع ؛ ولما رأى غفلة الناس عنه ، وقلة اهتمامهم بأمره ، حذى نفسه في هذا البيت ، فتخيل أن النسيم يرقى به ، ولشوق عليه ، فرق ولان ولطف لعله يستطيع برقته ولطفه ولطافته أن يخفف وجده ، ويهون لوعته . كما تخيل أن الحمام شاركه في حرقته وصباهه فتاح ويكي ، وشدا وترنم ، وشغى وصبح ، ويذر ويصبح راقه به ، وسناقاً عليه .

(٦) شِبَّةٌ حبيبه بالقمر . وقال : إنه شبتن عليه بالقاء والوصال ؛ فلا يكاد يستمتع بشيء من ضيائه وحاله ؛ ولهذا يعيش كئيباً ملتحاً في ظلمات الصدور والمجمران . ثم قال : إن نفسه ليست له ، وإنما هي لهذا الحبيب ؛ فقد تهيمتها وأسردها ، ولو عادت إليه لنداه بها .

تَسْتَطِيبُ الْقُلُوبُ فِيهِ الرِّزَايَا وَتَلَدُ الضُّعَى بِهِ الْأَجْسَامُ^(٧)
 صَنَمٌ ، حَامَتِ الْقُلُوبُ عَلَيْهِ فَانْظُرُوا : كَيْفَ تَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ؟^(٨)
 غَيْرَتُهُ الْوُشَاةُ ؛ فَازُورْ عَنِّي وَهُوَ مِنِّي بِنَجْوَةٍ لَا تُرَامُ^(٩)

(٧) استطابه يستطيعه : يجده طيباً حسناً ، قلده النفس ، وترتاح له . وفيه : فؤاد الحبيب المتفزل به : أي في سبيل حبه والتعلق به . والرزايا : المصائب والبلايا . الواحدة رزية ، أو رزية (بالهمز أو بالتخفيف) . ولدت الإنسان الشيء ، وبالشئ (من باب سلم) : أي وجده ليداً شبيهاً . والفنى : الداء الخاف ، والمرض الملازم الذي يشرف به المريض حل الموت . وكلما ظن أنه برئ منه انعكس (وفعله من باب صدى) . وأكثر ما يستعمل الفنى في أوصاف المشق ، وآلام الغرام . وبه : أي بالحبيب ، أو بالحلب : أي بسببه ، وفي سبيله . والترتيب الأصلي لكلمات الشطر الثاني : وتلد الأجسام الضعى به : أي بالقصر الذي كان نوره على حاشقه عتمة وظلاماً .

والحنى : أن الحب العذري المغيف الصادق يحسب قلب المحب ونفسه وجسده لاحتمال ما يلقاه في سبيل الغرام من الرزايا والبلايا ، والأوصاب والآلام ، بل يجعلها في نظره وحسه طيبة شبيهة بعتمة اللبدة ، كالمكافئ في سبيل أمنية عزيزة عليه يجد في متاعب الكفاح لذته وراحته .

(٨) الصنم : الوثن : وهو تمثال من حجر أو خشب أو معدن ، كانوا يصنعونه بأيديهم ، ويؤمنون أن عبادته تقرهم من الله . وجمعه أصنام . وحام حول الشيء ، وحام عليه (من باب قال) دار حوله ، وظاف به .

حاكي الشاعر بعض الشعراء المتحضرين في عصر الدولة العباسية ، فاستخدم في غزله ضمير المذكر . وهو هنا يشبه مشوقه بالصنم ، ويشير بهذا التشبيه إلى فائق حسنها ، وتعلق القلوب بها . وفي الشطر الثاني يستمرى الأنظار ، ويسجب ، ويسجب غيره من افتتان الإنسان بالجمال المحسوس ، وبراعة التصوير ، وحسن التقسيم .

(٩) الرشاة : جمع الراشي : اسم فاعل من الرشاية : وهي التهمة والسعاية . وشئ كلامه : زوره وزخرفته بالكذب ، وسعى به ليقيم فتنة ، ويفسد به بين الناس . وازور عني : أعرض عني ، وقال وانصرف . والنجوة : ما ارتفع من الأرض . وهو بنجوة عني : أي هو بعيد عني ، مفرق في البعد . ولا ترام : لا تتال ، ولا يستطاع الوصول إليها . والأصل : رام الشيء (من باب قال) : أي أرادته وطلبه . ومن كلامهم : « هو بعيد المرام » .

يشير إلى أثر الرشاية في تقطيع العلاقات والروابط بين المتحابين ، فيها تغير حبيبه ، وتبدلت حاله ؛ فأعرض عنه ، وبعده ، وأصبح بعيد المرام ، صعب المنال .

زَعَمُونِي أَتَيْتُ ذَنْبًا ، وَمَا لِي - يَعْلَمُ اللَّهُ - فِي هَوَاهُ أَكْأَمُ (١٠)
 سَوْفَ يَلْقَى كُلُّ امْرِئٍ مَا جَنَّاهُ . وَلِلَّهِ اللَّهُ تَرْجِعُ الْأَحْكَامُ (١١)
 يَا نَبِيَّيْ ! عَلَّلَانِي ، فَلَنْ تَهَ لِكَ نَفْسٌ قَدْ عَلَّلَتْهَا النَّدَامُ (١٢)

(١٠) زعم : ظن . ووار الجماعة : ضمير الوشاة في البيت السابق . وأكثر استعمال الزم
 فيما يكون كاذباً أو باطلاً . أو فيما يكون موضع شك وارتياب . ويعلم الله : جملة معترضة بين
 المجتدل والخبر ، لتأكيد الكلام ؛ كأنها قسم . والأثم : الإثم والذنب .

زم الوشاة لحببه أنه ارتكب في الحب ذنباً ، قدفع عن نفسه هذا التزم الكاذب ، وأكد براة
 هؤلاء من الأرزار والشبهات ، وإذا برئ الحب من الإثم والريبة كان عذرياً نقياً ، عفيفاً شريفاً ، يستحق
 الإكبار والاحترام . والبيت تفصيل لبعض ما أجمله في البيت السابق .

(١١) جنى (كرى) جناية : أجرم وأذنب . وجنى الذنب حل غيره : جرد إليه . وتجنى عليه :
 رماه بإثم لم يرتكبه . ومنى الشطر الأول : أن كل جان سوف يلقى جزاء جنايته أو تجنيه ، أي سوف
 يؤخذ بذنبه وجبريته . وترجع (بالبناء للمفعول) : من الرجوع : مصدر رجع إليه الشيء (من باب
 ضرب) : أي رده إليه وأعادته . أو هو (بالبناء للفعل) من الرجوع : مصدر رجع الشيء (من باب
 جلس) : أي عاد . والأحكام : جمع الحكم : مصدر حكم بكذا : أي قضى به ، وفصل .

في البيت السابق شكاً تجنى الوشاة عليه ، وإسأتمهم إليه ، ويرأ نفسه من أكام المحرق ومزالقه .
 وفي هذا البيت أن كل جان مجزى بجنايته وتجنيه . وكأن الشاعر يحاول بهذا محو أثر الوشاية في نفس حبيبه ،
 وردع الوشاة وزجرهم وتحذيرهم عقاب الله وانتقامه . وللشطر الثاني تدويل يؤكد الشطر الأول : « والله
 يقضى بالحق » (الآية رقم ٢٠ من سورة غافر) . « وله الحكم ، وإليه ترجعون » . (الآية رقم ٧٠ من
 سورة القصص) .

(١٢) نديك : متادك : أي مسامرك ، ومصاحبك ، وجليسك على الشراب : فيقول بمعنى
 مفاعل . وجمعه ندام (بوزن كرم وكريمة) . ومثله التئام . وجمعه ندام (بوزن غضبان وغضاب) .
 وعمله باللعطام وشره تمليل : شغله به وغلّاه . وعمله : معناه سقياً بمد سقى . وعمله : عاجله من علته ودأواه .
 وقد يكون التمليل بتأنج القول ، وحلو الكلام ، وطرب الحديث . والبيت الآتي يرجع هذا المعنى
 ويظهره ويؤيده .

نادى نديمين أو خياليين نداء استجد واستغاثة راجياً منهما أن يمالجا ما يقاسيه من غنى
 الحب ، وكيد الوشاة . أو يمتصاه الحمر نهلاً وطلاً ؛ فلما في زم شاربها تداوى الكلام ، وتسلّى من المحوم .
 وفي البيت تنويه بفضل الندامة ، وقيمة كلامهم ، وأثرهم الحمود في إنقاذ شمله من براثن الكرى والمهلك .
 وفيه إيمان بفائدة التمليل المطلوب .

رُبُّ قَسْوٍ يَرُدُّ لَهْفَةَ قَلْبٍ وَكَلَامٍ تَجِفُّ مِنْهُ الْكَلَامُ^(١٣)
وَمِنْ النَّاسِ مَنْ تَرَاهُ سَلِيمًا وَهُوَ ذَاكَ تَلَوَّى بِسِ الْأَفْهَامِ^(١٤)
قَدْ- لَعَمْرِي - بَلَوْتُ دَهْرِي عَمَّا أَخْ مَلْتُ مِنْهُ مَا تَحْمَدُ الْأَقْوَامُ^(١٥)

(١٣) « رُبُّ » : حرف خافض لا يقع إلا على نكرة . وهو هنا يفيد التكرير . والاهفة : الحزن والأسى ، وتختصر على الفاء . ولغة قلب الماشق : استراقه ، ولجته ، ووجه ، ويترجح الوجه به . وردت الهمزة : صرفها ، وإزالتها . والكلام في آخر البيت : الجروح : جميع كلم (بوزن سبم وسهام) . كلمه (من باب ضرب) : جرحه . وجفاف الكلام : اندمالها ، وبريقها ، وشفاؤها ، وزوال أثرها . وبين « كَلَام » و « كَلَام » جناس ، وهو من الحسنات اللفظية البديعة ، جاء هنا عقراً ، وجمع به الطبع من غير تكلف ؛ فحسن العبارة ، وضاعف تأثيرها ، ووقع منزلها في مراتب البلاغة والبيان .

ينوءُ بالثناء وأقوالهم التي تقع من قلوب الملهفين موقع الماء من ذي النلة الصادي ؛ فتعالج جراح نفوسهم ، وتصرف عنهم الهمزة والالتباس ، وترد إليهم الرضا والارتياح . وقد يكون المعنى علماً يشمل من يملكون الأمراض النفسية بجلو الكلام ، ويذهب الحديث ، والقول الساحر ، والحكمة البالغة . وفي هذا البيت وتسمه الأبيات بسده إلى نهاية القصيدة ، جنح الشاعر لما يشبه الحكم والأمثال ، وشكا ما عاينه وأذله من عيوب الناس وفتاتهم ، وبخاصة الفخر والتفاخر .

(١٤) تراه : تحبه ونظيره . أو تبصره وقمائه . أو تتوهمه وتتخيله . أو تعلمه وتتيقنه (بالبناء المجهول ، أو بالبناء المعلوم) . وسليماً : أي سليم القلب والضمير ، سالماً من الأحقاد والضغائن ، والمخالب والملايح . و « هو داء » : جملة حالية : أي تحبه سليماً والحال أنه غير سليم . وقد بالغ فيجمله الله نفسه . وتلوى : تمزج (وبابه صدى) . والأفهام : جميع فهم : وهو حسن تصور المعنى ، وجودة استعداد الذهن للاستيعاب . جعل الأفهام تلوى به ، لأنها تتنهدح برعة يسلمة ظاهره ، فكانها تمزج ، ويعيقها للمرض عن العمل ، فلا تكشف فساد باطنه .

يقول : وبين الناس من تتفكك سلامة ظاهره وهو في حقيقة أمره شر وبلاء ، وأذى وباء يصيب الأفهام ؛ فيموتها عن كشف باطنه ، واثقاه شره . والترض التحذير من الظواهر الخادعة الكاذبة التي تتقن حشواً المحقد والظن ، والمكر والتدبر ، والتحلل والإجرام .

(١٥) لعمرى : قسم بحيثى . العمر : الحياة . واللام : لام الابتداء . وعمرى : مبتدأ أضيف إلى ياء التثنية . والخير محذوف ، تقديره قسى ، أو ما أحلف به . ويلوت : اختبرت ، وامتنحت وجربت . والدهر : الزمان الطويل ، والأمد الممدود ، وبلدة الحياة الدنيا كلها . ودهر المرء : مدة حياته . وأحمدته إحساناً : وجهه حميداً . أو رضى فعله أو منهجه . أو ارتاح له ، وسر به . وحمدته (من باب فهم) : رضى عنه ، وارتاح له . والأقوام : جماعات الناس : جميع قوم .

اعتاد الناس أن يضيفوا إلى الدهر ما يسره ويسوهم من الخير والشر ، والظن والشر ، ويرتّبوا =

فَقُلْنَا: سَحَابٌ ، يَأْتِي اللَّهَ أَرْضَنَا بِهِ ، وَرَوَانَا ، فَهُوَ بِالنَّاسِ أَرَأَيْتَ (١٣)
 فَمَا تَمَّ أَنْ سَارَتْ بِهِ الرِّيحُ سِيرَةً إِلَيْنَا ، وَوَأْفَى رَائِدُ الْحَيِّ يَحْلِفُ (١٤)
 فَقُمْنَا إِلَيْهِ وَاتَّقَيْنَ بِجَوْدِهِ نَمِيرُ ، وَيَعْرُونَا السَّرُورُ فَتَهْتِفُ (١٥)
 دَنَا ، فَتَنَاولْنَا خِيَاشِيمَ مُزِينِهِ قُعُودًا ، فَظَلَّتْ وَهَى بِالْمَاءِ تَرْعَفُ (١٦)
 وَطَافَتْ بِهِ الْوِلْدَانُ يَحْطِجْنَ مَعَهُ بِأَكْوَابِهَا ، وَالْهَيْمُ يَذْنُو فَيَغْرِفُ (١٧)

(١٣) يَأْتِي الله : ياحرف نداء ، والمنادى محفوف ، أيلى لنتبيه . وروانا : سقانا ، والمفهوم من المسجعات أن القمل روى (من باب رضى) لازم غير متعد ، يقال : روى السلطان من الماء وقروى وأرؤى ويعزى بالهمزة أو التضعيف ، فيقال أرويته ورويته ، غير أن العرب اشتقت من الثلاثى المتعدى اسم الفاعل « راوية » وأطلقوه على المزادة التى فيها الماء ، وعلى البعير أو الدابة التى يسقى عليها الماء ، كما سقوا الرجل المشى لقومه راوية ، وكل هذا يجعل استعمال « روى » (كروى) بمعنى « أروى » سائقا . وأرأف : اسم تفضيل من الرأفة ، وهى أشد الرحمة ، (وفعله كظم وقطع وطرب) .

(١٤) به : بالسحاب . وسيرة : اسم مرة من السير . ووافى : وادى . والرائد : الذى يرسل فى طلب النجدة ، والرائد الكلال والمراد به هنا : أخير بأحوال السحب وأنواعها ، والمطر منها وغير المطر . والحى : العلى من بطون العرب ، والجماعة ينسبون إلى أب واحد ، وعلمة القوم . وحلفت : المراد يحلف إن ما شئناه من السحاب مطر .

يقول : فما أعمنا كلامنا عن السحاب حتى وجهته الرياح إلينا ، وأقبل خير الحى يؤكد أنه مطر .

(١٥) واثقين بجوده : واثقين بفزارته ، مطمئنين إلى اتساعه وكثرته ، والجود (بفتح فسكون) : مصدر جاد المطر (من باب قال) أيوبل واشتد وكثر واتسع وقزر . ويسرونا : يفشانا . ونهتف : من الخفاف (بضم الهاء) وهو الصياح والصوت الشديد المأل ، (وبابه ضرب) والمراد نصيح من الفرح .

(١٦) دنا : قرب ، أى السحاب . وتناولنا : أخذنا . والخياشيم : جمع الخيشوم (بفتح فسكون فضم) وهو أقصى الأنف ، وقد يطلق على الأنف . والمزئ : السحاب ، أو أبيضه ، الواحدة مزنة (بضم فسكون) . وقمودا : قاصدين . وظللت : بقيت ودامت ، أى خياشيم المزئ . وترعف بالماء : المراد يسيل منها وينصب ، من قوم : وصف الإنسان (كنصر ونع وكرم وهى ربيع) أى خرج من أنفه الدم .

(١٧) الولدان : الأطفال والصبيان . وعطلين : عطلين وينترن ، من قوم : أغلت بيده فخلجته من بين أحماله ، (وبابه ضرب) . والأكواب : جمع كوب ، وهو كوز لاهرة له . والهم : يسكر الماء وشديد الهم) : الشيخ الكبير البال

والمراد أن وقع هذا المطر قد عم وشمل ، وأصبح تناوله هينا حتى على الضعاف .

فَلَايَا بِلَايٍ مَا تَوَلَّيْتُ حُدَاكُهُ مُزْمَجِرَةٌ هَوَجَاءُ بِالْقَابِعِ تَعْفِيفٌ (١٨)
 قَابَقْنِي لَنَا أَثَرًا حَمِيدًا ، وَرِعْمَةٌ لَهَا مَسْحَبٌ نَضْرُ ، وَجَبِبٌ مَقُوفٌ (١٩)
 كَذَلِكَ ، مَا كُنَّا لِنُكْفِرَ صُنْعَهُ عَلَى أَنْ يَغْفِرَ النَّاسُ بِالشَّرِّ آكَلُفٌ (٢٠)

(١٨) تقول العرب: فعلت ذلك بعد لائي، أي بعد احتباس وليت وإبطاء وشدة وجهه وشقته، ويقولون: لايا حرفت كذا، ولايا بلاي ركبت، وبلاي ماكلمته (بزيادة) ما، لتوكيد الكلام) قال الشاعر:

فَلَايَا بِلَايٍ مَا حَمَلْنَا * حُلَّ ظَهْرٍ مَحْبُوكٍ شَدِيدٍ مَرَاكِلَهُ

وَوَلَّيْتُ الشَّيْءَ : ولَّيته وازمته واشغلت به . والحذاء (كغراب وكتاب) : حذاء الإبل على السير وصفيها والثناء لها ، ومن المجاز : الريح تحمِلُ السحاب ، أي تسوقه وتحركه وتثبته . ومزجرة : ريح مزجرة ، أي لها صوت شديد سموم . وهوجاء : فئيدة عاصف تثير النبال وتقلع البيوت . والقابِع : الأرض المستوية المنبسطة التي لا يخالطها رمل فيشرب مائها . وتصف : تثبته (وبابه غريب) .

يقول : إن الريح المجرعاء المزجرة العاصف الشديدة قد حملت هذا السحاب وساقته بلاي وشقته . وهذا كناية عن ثقله وكثرته وغزارة ماله .

(١٩) أبق . أي المطر المنهمر من هذا السحاب . والأثر (بفتح) : بقية الشيء ، وسكنت الثاء هنا لفعلورة الوزن . وحيداً : محمداً . ويسحب : اسم مكان من سحب (من باب منح) أي جره ، يقال سحب الثوب والنمل ، أي جرفته حل وسحب الأرض ، والمراد بالمسحب هنا : الليل . ونضر : حسن . وجيب القميص ونحوه : ما يفتح منه حل النسر . ومقوف : موشى مزين فيه خطوط بيض ، وأصله من النوف (بضم الفاء وسكون الواو) وهو فقط يبيض في أطراف الأحداث ، الواحدة فوقة (بضم فسكون) . يقول : إن المطر أبق لنا أثراً محموداً ، ونعمة لو كانت ذات ثوب لكان ثوبها نصير الليل ، مقوف الجيب ، يشير بهذا إلى ما يتخلقه المطر من الرى والإغصاب والنضرة والبهاء ، وإنبات أنواع الكلال والشجر والبر والنبات .

(٢٠) كذلك : خبر لمبدأ محذوف ، أي الأمر والشأن في السحاب والغيث والمطر مثل ذلك الذي حكيناه وقتلناه . صنعه : صنع المطر ، مصلو صنع إليه مرفعاً (كنع) ، ومن كلامهم : ما أحسن صنع الله تعالى منك ! وكفران النعمة : جحودها وسرها . وآكلف : اسم تفصيل في غير موضعه ، والمراد كلف (بفتح فكسر) صفة من كلفت بالشيء (من باب فرح) أي هجعت به ، وأجبرت ، وأولعت ، وأحبته ، وتعلقت به .

وَقَالَ وَهُوَ مُتَرْجِمٌ مِنَ الْفَارِسِيِّ :

هَتَفَ الدِّيكُ سُحْرَةً فَاصْطَبَحْنَا لِهَتْفِهِ^(١)
بَشْرَابٍ كَعَيْنِهِ وَكَبَابٍ كَعُرْفِهِ^(٢)

وَقَالَ :

حَيَاتِي فِي الْمَهْوَى تَلَفْتُ وَأَمْرِي فِيهِ مُخْتَلِفٌ^(١)
أَبَيْتُ اللَّيْلَ مُكْتَتِبًا وَقَلْبِي فِي الْحَشَا يَجُوفُ^(٢)
فَنَوَيْ كُلَّهُ سَهْرٌ وَعَيْشِي كُلَّهُ أَسَفٌ^(٣)

(١) السحرة : وقت السحر (يفتحين) وهو آخر الليل قبيل الصبح . واصطبحنا : شربنا الصبوح (يفتح الصاد وبهم الباء) وهو كل ما شرب في الصباح ، وكثر إطلاقه على الخمر التي تشرب في الصباح . وهتف الطائر ويغره (من باب ضرب) هتفاً (يفتح فسكون) وهتافاً (بضم الهاء) : صاح وصوت . (٢) كعينه : كعين الديك في النقاء والصفاء ، وقد ضربوا المثل بذلك ، فقالوا : أصنى من عين الديك ، ومن المشجور في ذلك قصيدة علي بن زيد الباهلي التي منها :

دعوا بالصبوح يوماً فجاءت • قينة في يمينها يُدْرِيقُ
قدمته حل عقارب كسعين إلا • عليك صلتى سلاخها الرأوبق

والكباب : العلم المشرع المشوي . ويعرف الديك (بضم الدال) ويكنى (بضم الهمزة) : حمة مستطيلة في أهل رأسه ، وبوجه الشبه بين الكباب ويعرف الديك الحمة مع اللهكة .

(١) المهوى : المشق والغرام . والتلف : الهلاك والصب (وبابه تعب) . والأمر : الشأن والحال . ويختلف : غير متفق ، والمراد مضطرب .

يشير إلى ما يلاقيه العاشق من آلام جسام قد تهلكه ، وتودي بحياته ، وفي الشطر الثاني إشارة إلى الأحوال المختلفة المضطربة التي يتقلب فيها ذوو الصباية والغرام من هجر ووصال ، وإعراض وإقبال ، وسخط ورضا . . .

(٢) مكتتباً : اسم فاعل من الاكتتاب ، وهو الكتابة ، وصو الحال ، والانتكاس من الحزن وشدة ألم . والحشا : مأخوذ الجوف ، وما اشتملت عليه الضلوع . ويجف : يضطرب ويثقل خفقاناً شديداً (وبابه وه) .

(٣) العيش : المعيشة والحياة . والأسف : الحزن الشديد (وبابه تعب) .

والمعنى : أنه يمضي وقت النوم كله في سهاد وسهر ، وأن حياته صارت بما يلاقيه من المعجز سلسلة من الأسف والحسرات .

وَمَا أَخْضِيهِ مِنْ وَجْدِي وَخَزَنِي قَوْقَ مَا أَصْفُ^(٤)
 فَهَلْ مِنْ صَاحِبٍ يَرْنِي لِمَا أَلْقَى فَيَنْعَطِفُ؟^(٥)
 أَبَقُلْنِي الْهُوَى ظُلْمًا وَمَا فِي النَّاسِ لِي خَلْفُ؟^(٦)
 وَهَبْنِي فَارِسَ الْهَيْجَا ۚ أَغْشَاهَا فَتَنْكَشِفُ^(٧)
 أَلَيْسَ الْهَيْشَقُ سُلْطَانًا لَهُ الْأَكْمَوَانُ تَرْتَجِفُ؟^(٨)
 إِذَا كَانَ الْهُوَى خَصْمِي فَقُلْ لِي: كَيْفَ أَنْتَصِفُ؟^(٩)

(٤) الوجه : حدة الهيام ، وظلة الهوى .

يقول : إن ما يكتمه ويستره من الوجد والحزن أعظم مما يصفه ويظهره .

(٥) يهتف له : يرحمه ويرقه له ويترجع . وينطفئ : يمتد ويشتق ويرسم . والاستفهام في أول البيت للمتنى .

يشتمى أن يجد صاحباً يرحمه ، ويمتنع عليه ، ويترجع له ، ويرى لما يلقاه من الكتابة واضطراب

البال ، والسهر والأسف والوجد الشديد .

(٦) خلف : عريض وبذل .

ومعنى الشطر الثاني : أنه ليس في الناس من يفي غناه ، ويسد مكانه ، ويخلفه في الفضل

ونباهة الشأن .

(٧) الهيجاء : الحرب . وأغشاه : أجبها ، والمراد أعريض غمارها ، وأصل فيها . وتتكشف :

تنجل ، والمراد تنجل شدتها ، وتتكشف عن نصري .

(٨) ترتجف : تهتز وتضطرب اضطراباً شديداً .

ومعنى هذا البيت والذي قبله : أنه على فروسيته وشجاعته وشدة بأسه وعظم سطوته لا يستطيع

مقاومة سلطان المشق ، ولا مغالبة تباريح الغرام .

(٩) الخضم : الخاسم . وانتصفت من خصمي : أخلت به حتى .

والعني : أنه لا سبيل إلى التغلب على الهوى والاتصاف منه .

وقال :

قَلْبِي عَلَيْكَ يَرِفُ وَعَسْبَرَتِي لَا تَحِفُ^(١)
وَأَنْتَ يَا نُورَ عَيْنِي بِسَلْوَعَتِي تَسْتَحِفُ^(٢)
قَدْ شَفَّنِي طَوْلُ وَجَلْدِي وَالْحُبُّ دَاءٌ يَشْفُ^(٣)
فَارْحَمْ - فَدَيْتُكَ - صَبَاً إِلَى لِقَاكَ يَخِفُ^(٤)

وقال :

عَيْنِي لِيُعْدِلَكَ أَصْبَحَتْ لَا تَسْتَقِيلُ الْجَفْنَ ضُخْفًا^(١)
إِنْ سَأَلْتُهَا فِي غَمْرَةٍ مِنْ أَدْمِي، يَبْدُو وَيَخْفَى^(٢)

(١) يرف "عليك" المراد بهواك، ويعلق بك ويحببك، أو يحيطك ويصونك، واللى في اللسان
وغيره: فلان يرفئنا، أى يحيطنا، ويحفظ علينا، ويذهب من كان يحفقه ويرفقه، أى يقصده ويحميه ويشفق
عليه، فاللفظ متعد. كما ترى. وفي اللسان أيضاً: ورفئت عينه ترف: (بضم الزاء وكسرهما) أى اغتبطت
وذلك سائر الأضواء، وعلى هذا يكون المعنى: قلبى يشفق ويحفظ ويحيط، ويهتز ويضطرب من أجلك، أو إشدائاً
عليك. والمعبرة: النعمة، أو النعمة قبل أن تفيض، أو هى أن ينهل النعم، ولا يسع البكاء.
(٢) القصة: رقة الحب وشدة، ووجع القلب من الهوى والوجد والحزن، يقال: لاهه الحب
(من باب قال) وألتاح فؤاده، أى احترق من الشوق. وتستخف: تستبين، ولاتهم ولائبال.
(٣) شفه الحزن والحب (من باب رد): لذع قلبه وأحرقه، أو بزله وأغله وأضممه. والوجد:
الهوى والحب.

(٤) صباً: صاباً عاشقاً مستهاماً مشتاقاً، صفة من الصباغة، وهى رقة الهوى، وحرارة الشوق. ويخف:
إلى لقاءك (بضم اللام): يبادر ويسارع.

(١) لاستغفل الجفن: لاستطيع حمله، ولا تقوى على قطره. والجفن: غطاء العين من أعلاها وأسفلها.
والمعنى: أن بكاهه على بعد حبيبته كثر واشتد حتى ضغفت عيناه، وصارت لا تقوى أن تحمل
أجفانها.

(٢) إنسان العين: ناظرها. والشمرة: الماء الكثير. ويبدو: يظهر.
بصف بكاهه على بعد حبيبته، وكثرة ما تلطفه عينه من الدموع.

البيت الثاني مِنْ قَوْلِ ذِي الرِّمَّةِ * :

وَأَنْسَانُ عَيْنِي يَحْسِرُ الْمَاءَ تَارَةً
وَقَالَ يَحُثُّ عَلَى السَّعْيِ :

تَغْرُبُ إِذَا أَتَرَبْتُ ، وَالتَّمِيمِ الْغَنَى فَمَا الْبُزْ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ التَّمَسُّفِ^(١)
فَقَدْ يَعْلَمُ الْإِنْسَانُ فِي عَقْرِ دَارِهِ مَنَاهُ ، وَيَلْقَى حَظَّهُ فِي التَّطَوُّفِ^(٢)

(٥) الرِّمَّةُ : قطعة من جبل بال ، وذو الرِّمَّةِ : لقب أبي الحارث غيلان بن عقبة ، شاعر ملاح
عَزَلَ ، نابه الذكر ، اشتهر بحبِّ مَنَةٍ ، وشبَّ بها ، ووصف الإبل والبادية ، وشمره بأوى تغلب عليه
الخرافة ، ويكثر فيه الغريب ، وكان يحمل مع الفرزدق حل جرير ، وكانت وفاته بالبادية سنة ١١٧ هـ .
(١) هذا البيت من قصيدة مظلما :

أدأبا مجزوى ! هبت العين حيرة فناء المهرى يرفض ، أو يتفرق
جزوى (كقصوى) : موضع . والمبرة : النعمة . ويرفض : يتفرق ويسيل . ويتفرق : يتعدّد
ويدور ويترجك .

يحسر الماء (من باي ضرب وقتل) ، يكشفه ويزيله ، من قولهم : حسر الإنسان كنهه عن ذمامه ،
وحسر عمامته من رأسه ، أى كشف . ويحمر (بكسر الجيم وضمتها) : يجتمع ويكثر ، أى ماء العين .
يقول : إن إنسان حينه يزيل اللعج عن نفسه أحيانا ، فيتكشف ويظهر ، وأحيانا يجتمع اللعج
ويكثر حتى يفرقه ويغشيه .

(١) أتربت : قلّ مالك وانقضت ، يقال أترب الرجل ، أى لصق بالتراب من الفقر . والنسر :
أمر من الاتمسك ، وهو الطلب . والنز : خلاف الدلّ ، وهو أيضا القوة والشدة ، والغلبة والرفعة
والاستناح . والتسّف في اللغة : الأغص على غير الطريق ، والسير بغير هداية ، وركوب الأمر بلا تدبير
ولأروية ، والمراد به هنا : البرقة والإقدام على ركوب المخاوف والأحوال في ابتداء الشيء وطلب المنز
(٢) علمت الشيء (من باب طرب) : فقلته . ومقر الدار : وسطها . والمنى : جمع منية (بضم فسكون)
وهي ما يريده الإنسان ويبتغى ويقوم إليه . والتطوّف : مصدر تطوّف حول الشيء ، أى طاف به وأحاط
به واستدار .

يقول : إن الإنسان كثيرا ما يعلم أمانيته وآماله إذا لزم عقر داره ، وقعد عن السعى ، وكثيرا
ما يلقي نصيبه من الفضل والخير والغنى والنز إذا هو تطوّف وسعى وجدّ ودأب .

فَكُلُّهُ مَكَانٌ يَضْمَنُ الرِّزْقَ لِلْفَتَى إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ عَلَيْهِمُ التَّصَرُّفُ^(٣)

(٣) يضمن الرزق : يتكفل به ويلتزمه . والفتى : الشاب الخلت (مفتحين) إذا كان في طرامة السن ، وكثيراً ما تطلق العرب على الرجل الكامل ، تفضيل : فتي من صلبته كيت وكيت ، من غير تمييز بين الشيخ والشاب . والمديم : الأحق (وفطه ككروم) ، والتصرف : الاحتيال والاكتساب ، مصدر يؤم . فلان يتصرف ، أى يحتال ، أو يكتسب ، وهو يتصرف في الأمور ، أى يتقلب ، ويقولون : صرفه في أماله وأمواله ، فتصرف فيها ، وتصرفت به الأحوال ، أى تقلبت ، والمواد بعدم التصرف : الضعيف الرأي ، التقليل الخيلة ، العاجز ، السيئ التصرف .

والفتى : أن الإنسان يستطيع أن يكتسب ويرزق ، ويستنبط المال واليسر والرخاء لنفسه من كل أرض إذا لم يكن أحق قاسد العقل ، ضعيف الرأي ، قليل التدبير ، سيئ التصرف . وهذا قريب من قول الشاعر :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

قافية القاف

قَالَ يَرُوضُ الْقَوْلَ وَيَنْتَعُ الْبَازِي وَالْأَسَدَ وَالْحَيَّةَ :

سَكَنَ الْفَوَادُ ، وَجَفَّتِ الْأَمَاقُ وَصَصَتْ عَلَى أَغْقَابِهَا الْأَشْوَاقُ^(١)
وَنَزَعَتْ عَنْ نَزَقِ الشَّيْبَةِ وَالصَّبَا بَعْدَ الْمَشْيَبِ ، وَلِلشَّبَابِ نِزَاقُ^(٢)
لَا الدَّارُ دَارٌ يَعُدُّ مَا رَحَلَ الصَّبَا عَنْيَ ، وَلَا تِلْكَ الرِّفَاقُ رِفَاقُ^(٣)

• في بعض أبيات هذه القصيدة ثورة نفسية عارمة، وتهديد صريح باستخدام السلاح ، وللقائدانار الحرب ، فلملّ البارودي نظمها بعد سقوط وزارته في التاسع من رجب سنة ١٢٩٩ هـ (السادس والعشرين من مايو سنة ١٨٨٢ م) . أوقبل هذا بقليل لما اشتدّ الجفاء بين الوزارة والخديو وتطبيق « ، ووصلت الى الإسكندرية قطع من الأسطولين الإنجليزي والفرنسي » في ١٩ من مايو سنة ١٨٨٢ ، وقدمت قصصا الحكويين الإنجليزية والفرنسية إنذار حكومتها إلى الوزارة في ٢٥ من مايو سنة ١٨٨٢ ووافق الخديو « تطبيق » على تدخل هاتين الدولتين . وقد تكون الأبيات الثلاثة المأخوذة في هذه القصيدة من الشعر الذي لم يقصد به الشاعر غير مجازاة نزعة الحماسة الفخرية ، ومحاكاة من أروعهم من شعراء الحملة والفخر . ويلاحظ أنّ القصيدة كلّها في رياضة القول وتذليله والتمرّس به ، والتمرن عليه .

(١) سكن الفواد : هداً واطمأنّ . والأماق : جمع موق (بضم فسكون) وهو طرف العين مما يل الأنف . وبقت على أحقابها : ولّت وانصرفت وذهبت .

يصف ما صار إليه بعد المشيب ، فهو قد أقبل عما كان يشغله ، وبرز نفسه ، وبيح عواطفه ، إيمان الشباب من الهوى والشرق والغرام ، فهذا قلبه ، وجفّت أتماقه ، وغاضت دموعه ، وذهبت أشواقه ، واتّصف بما يتّصف به الشيوخ من السكينة والهدوء والوقار .

(٢) نزعت : كلفت وأقلمت وانتهت . ونزق الشيبه : طيش الشباب ، وخفة الخدانة ، مصدر نزق (كفرج) ، وشله النزاق (بكسر النون) وهو مصدر نازقه نزاقاً ونزاقة . والصبا (بكسر الصاد) جهل الفتوة ، والانتقاد لدواعي الهوى . والصبا (بكسر الصاد أيضاً) : الصغر ، وهو قريب من الشيبه والشباب ، يقال : هذا صبيّ ، أي غلام ، بين الصبا .

(٣) رحل : انتقل وذهب . والرفاق : جمع رفيق ، وهو صاحب ، ومن يرافقك في السفر وغيره . يشير إلى تغيير الأحوال ، وتبدّل مظاهر الحياة بعد فوات الصبا ، وذهاب الشباب .

وَلَقَدْ جَرَيْتُ مَعَ الْغَوَايَةِ وَالصَّبَا
وَلَيْسْتُ هَذَا الدَّهْرَ مِنْ أَطْرَافِهِ
هَذِي لِغَاغِرَةِ الْمُنُونِ يُسَاقُ^(٦)
لِلَّهِ أَيَّامٌ لَنَا مَعْرُوفَةٌ
سَبَقَتْ ، وَلَيْسَ لِسَبْقِهِنَّ لَحَاقُ^(٧)

(٤) الغواية : الضلال والانهماك في الجهل. والصبا : جيلة الفتوة ، والهور من الغزل ، والانتقاد لأسباب الهوى والشوق ، والاستسلام لمرح الشباب ودواعيه . والكيمت من الخيل : ما كان لونه بين الحمرة والسواد ، صفة من الكثرة (بضم فسكون) . والغرام : المشق والحب الشديد . يقول : إنه انقاد في شبابه لدواعي الغواية والصبا ، وانهك في أسباب الهوى واللهم والجهل والفتوة ، وجري في هذا السبيل جرى القوس الفتوة السباق ، ثم ذيل الكلام بقوله : « والغرام سباق » أي إن الشبان يتسابقون في ميدان الهوى والعشق والغرام ، فلا غرو أن كان في شبابه من أولئك المتسابقين .

(٥) ليست هذا الدهر : من قولهم : فلان قد لبس الناس ، أي بلبس مهم ، ولبس أهله ، أي تملأ وتمتج بهم زماناً ، ويقولون : لكل زمان لبة (بكسر فسكون) أي حالة يلبس عليها ، من شدة ورغاه. وزنته : يخطئه وقته . وشئ خلق (كسب) : بال ، قد فني ، وذهبت جدته ، يستوي فيه المذكر والمؤنث . ويقولون : ثوب أخلاق ، وقربة أخلاق ، وجعل أخلاق (جمع خلق ، كسب وأساب) ، يصلون المفرد بالجمع ، وذلك إذا شاعت الخلقة في أجزائه ، وتقضى البلى في نواحيه . والبيت كناية عن أنه جرب الزمان ، وخبر الدهر ، وحرف أطواره وأحواله .

(٦) الوديمة : واحدة الودائع ، يقال استودعته مالا ، وأودعته إياه ، أي دفعته إليه ، ليكون وديعة عنده ، ويلاحظ أن الوديمة مستردة كالعمارية ، والمهدي : ما يهديه الحاج ونحوه إلى بيت الله الحرام بمكة من النعم (بفتحين) والمال والمتاع ، وأكثر ما يطلق على النعم ، أي المال الراعية ، كالإبل والغنم . وغافرة : اسم فاعل من فغر الحيوان فاه (من بجلي منع ونصر) أي فتحو ، والمنون : الموت ، لأنها تمن (كثرة) كل شيء ، أي تضعفه ، وتقصه ، وتقطعه .

يقول : إنه لما جرب الدهر ، وخبر الأيام عرف أن الشباب كالوديمة المستردة التي لا تلبث أن تذهب عن المستودع وتزول ، وأن الإنسان يساق إلى موت فاغر فاه ، متأهب للانتقامه وابتلاعه ، مثله في ذلك كمثل المهدي يساق للذبح ، ويقاد للهلاك .

(٧) سبقت : ذهبت وفضت بسرعة . ولحق به (كسح) لحاقاً (بفتح اللام) : أدركه وليس لسبقهن لحاق : لا يمكن أن يلحقها لاحق ، ولا يمكن أن تسترد وتستعاد . يأسف على أيام الشباب التي مضت بسرعة إلى غير عودة .

حَيْثُ الصَّبَا نَهَبَ ، وَسَلَسَالَ الْهَوَى
فِي جَنَّةِ خَضْرَاءَ ، وَرَدَّ خُلُودَهَا
سَفَرَتْ بِهَا الْأَقْصَارُ مِنْ أَطْوَافِهَا
فَالْتَطَّقُ جَهْرً ، وَالتَّحِيَّةُ قُبْلَةً
لَا يَسْأَمُونَ اللَّهُوَ بَيْنَ مَلَاعِبِ
يَفْتَنُ عَقْلُ الْمَرْءِ فِي تَصَوُّبِهَا
عَذَبٌ ، وَآيَةُ السُّرُورِ دِهَاقٌ^(٨)
زَاهٍ ، وَعَيْثُ مُدَامِهَا عَيْدَاقٌ^(٩)
وَتَجَمَّعَتْ يَفْنَائِهَا الْعُشَاقُ^(١٠)
بَيْنَ الْأَحْيَةِ ، وَالسَّلَامُ عِنَاقٌ^(١١)
قَدْ قَامَ فِيهَا لِلْخَلَاعِ سَاقٌ^(١٢)
وَتَحَارُّ فِي تَمْثِيلِهَا الْأَحْدَاقُ^(١٣)

(٨) نهب : غنيمته . والسلسال : الماء السلس اللطيف السالغ البارد الصافي النقي . والهوى : الحب . والمشق : والآفة : جمع إزاء (كرداء وأردية ، وسقاه وأسقية) . وكأس دهاق (بكسر الهمزة) : متعة ملهى . وفي البيت بيان لبعض ماحزنه قوائمه من أسواق الشباب .

(٩) جنة خضراء : حديقة مخضرة فضفاضة . وزاه : فضير حسن . والنهيب : المطر . والمدام (بضم الميم) : الخمر . وفيداق : غزير كثير .

يصف بعض منازل الهوى ، ويسارح اللهو واللذة والمرح والسرور ، فقد كان هو وأمثاله يرحلون في حديقة مخضرة فضفاضة نصيرة ، زاهية الزهر ، تدار فيها عليهم الخمر بكثرة وإغداق (١٠) سمرت : أشرقت وأضامت . ويراد بالأقمار : الحسنان من النساء . والأطواق : جمع طوق ، وهو ما أحاط بالمتع من حل وزينة . وتجمع القوم : اجتمعوا . وفناء الحديقة : ما اتسع من أرجائها وفواحيها ، ما غيظ من فناء الدار ، وهو سمة أمانها ، وما امتد من جوانبها ، كالساحة .

(١١) التحية : السلام ، وما يحيط به الناس بعضهم بعضاً إذا تلاقوا . والعناق : مصدر عانقت صديق ، أي التزمت ، وأدليت حتى من حلقه .

(١٢) سَمَ الإنسان الشيء ، وسَمَ منه : ملّ منه وسجّر . والملاعب : مواضع اللعب ، المفرد ملعب (كذهب) والخلاعة : الاستبصار والاحتفاف والتهتك واللحن ، وأصلها أن الرجل في الجمالية كان إذا غلبه ابنه ، أو من هو منه يسيل - جاء به إلى الموم ، ثم نادى « أيها الناس ! هذا ابن فلان ، وقد خلعت ، فإن جرّ لم أحسن ، وإن جرّ عليه لم أطلب » يريد : قد تيرأت منه . ثم قيل لكل شاطر خلع ، وهي خلية ، وقد خلع (من باب كرم) خلاعة . والساق : ما بين الكعب والركبة (وهي مؤنثة) . والشطر الثاني كناية عن وفور أسباب اللهو والخلعة ، من قولهم : قامت الحرب على ساقها ، إذا اشتدت ، وقام فلان على ساق وعلى رجل في حاجتي ، إذا جدّ فيها واجتهد .

(١٣) افتن : فلان في حديثه افتتاناً : أخذ في فنون وضروب من القول ، وجاء بالأقوالين ، أي الأنواع المختلفة . وسار البصر ببحار حيرة (يفتح فسكون) : نظر إلى الشيء فغشيه غموم ، فانصرف عنه . والتمثيل : التصوير . والأحداق : البهين ، جمع حقة (بفتحين) ، وهي السواد المستدير وسط العين .

فَعَلَّ الْمُرُوجَ مِنَ الْخَمَائِلِ رَفَرَفٌ وَعَلَى الْخَمَائِلِ لِلنَّيُّومِ رُؤَا^(١٥)
 بَعَثَ الرِّيحَ لَهْنٌ مِنْ أَنْفَاسِهِ فَسَمَتْ طِبَاقٌ فَوْقَهُنَّ طِبَاقٌ^(١٦)
 دُنْيَا نَجِيمٍ لَا بَقَاءَ لِحُسْنِهَا وَنَجِيمٌ دُنْيَا مَا لَهَا مِثَاقٌ^(١٧)
 فَلَقَدْ مَضَى ذَاكَ الزَّمَانُ بِحُسْنِهِ وَسَمَا إِلَى الْهَمِّ وَالْإِيرَاقِ^(١٨)

= والمعنى : أن هذه الحقيقة معجبة فاتنة ، بإهرة الحسن ، تامة الرواء ، يذهب العقل في تصويرها لمذاهب شتى ، ويرسم لها صوراً متنوعة ، وتبحر العين وتنهر إذا أبصرتها .

(١٤) المروج : جمع مرج (يفتح فسكون) ، هو أرض ذات كلال يرمى وبنت كثير . والخمائل : جمع خيلة ، وهي الرخصة ذات الشجر . والرفرف : الرف ، أو ما تدلّى من جوانب الخلاء ، واحدة ررفة . ورفرف القمص يغريه : أسفله يذيله . والنجوم : جمع نجم (يفتح فسكون) ، وهو السحاب . والرواق (بهم الزاء وكسرها) : سقف في مقدّم البيت .

يشبه المروج بيت في الخمائل رف ، والسحاب سقف . أو يشبه ما تهدّل من أغصان الشجر ، وتدلّى من أفنان الأيك على مروج هذه الحقيقة وأعشابها بما تدلّى من جوانب القسطاط ثم يجعل الغمام سقفاً لتلك الحقيقة .

(١٥) الأنفاس : جمع نفس (يفتحين) ، هو نسيم الهواء ، إذا هبّ طيباً طليلاً لطيفاً منمّشاً ، والمراد بأنفاس الريح : النسيم المعطر بأريج أزهاره . وصمت : علت وأرتفعت . والسواول طبال : طبقة فوق طبقة .

ويريد بالشرط الثاني أن الريح حينما جاء إيتانه نمت الخمائل مختلفة في الطول والقصر .

(١٦) الميثاق : العهد كالديوث (يفتح فسكون فكسر) .

يشير إلى ما يصير إليه نعيم الدنيا وحسنها من الفناء والزوال ، وإلى أن الدنيا غادرة مغتربة لا يعلمان إليها ، ولا يوثق بها .

(١٧) الهمّ : الحزن . وسما : علا وارتفع . والمراد أن الهمّ وصل إليه ، وغلب على أمره . والإيراق : مصدر أرقه ، أي أسهره . أو هو مصدر أروق الصائد ، إذا أخطأ وشاب ، وأروق الغازي ، إذا أخفق ، وأروق الطالب ، إذا لم يبلّ مطلبه .

يتحصّر على ما فات من لذات زمن الصبا ، ويحاسن عهد الشباب ، ويشكو ما يساوره من الهمّ والحزن والنسجر ، والأرق والسهاد ، أو خيبة الأمل ، وانقطاع حبل الرجاء .

وَعَدَوْتُ حَرَانَ الْفُؤَادِ كَأَنَّمَا صَافَتْ عَلَى بَرْخِيهَا الْأَفَاقُ^(١٨)
 نَفِستُ عَلَى بَنُو الزَّمَانِ شِمَاتِي فَلَهُمْ بِذَلِكَ خِصْفَةٌ وَنَزَاقُ^(١٩)
 حَسِبُوا التَّحَوُّلَ فِي الطَّبَاعِ خَلِيقَةً وَتَحَوُّلُ الْأَخْلَاقِ لَيْسَ يُطَاقُ^(٢٠)
 تَاللهِ أَهْدَأُ أَوْ تَقُومَ قِيَامُهُ فِيهَا الدَّمَاءُ عَلَى الدَّمَاءِ تُرَاقُ^(٢١)

(١٨) غدت : صرت. وحران : صفة من الحوارة ، وريحل حران : شديد العطش ، وحرارة الفؤاد كناية عن الفجر والقلق ، ونبلة الحم ، وذهاب السكينة والطمأنينة . والرجب (يقسم الرءا وسكن الحاء) السمة . وآفاق الأرض : نواحيها وأطرافها ، الواحد أفق (بضمين ، أو يقسم فسكن) .
 يصف ما صار إليه بعد ذهاب زمن الشباب وفوات مباهجه من الحسرة والفجر والقلق ، ونبلة الأمل ، وذهاب السكينة والطمأنينة .

(١٩) نفس فلان على الشيء : حسنى عليه ، ولم يرى أهلاً له . وبابه فرح) . والشياثل : جمع شيا (بكسر الشين) بمعنى الخلق والطبيعة والسجية . والخفّة : العيش . والنزاق : التزق (بفتحين) وهو الخفّة والعيش والجمل والحق ، وفى اللسان : المنازق : الكثير الكلام والتزق ، ولا شك أن فله نازق ، ويصدره التزاق .

يقول : إن أهل زمانه نفسوا عليه شياثله ، وحسنوه على أخلاقه ، ثم يميهم بالخفّة والعيش والحماقة والجمل .

(٢٠) حسبه صالحاً (بكسر السين) أحسبه (بفتح السين وكسرها) : ظننته . والخلقة : الطبيعة والسجية .

والمعنى : أن أهل زمانه لما نفسوا عليه أخلاقه ظنوا أنهم يستطيعون تحويله عنها ، وحمله على مجاراتهم فيما تعودوه ، وفطروا عليه ، ولكنهم فى ذلك غلطون ؛ لأن تبديل الأخلاق غير مستطاع . ويمحزون أن يراد أنهم حينما حسبنى على شياثلى ظنوا أنهم يستطيعون أن يجعلوا أخلاقهم مثل أخلاق وهذا غير مستطاع .

(٢١) تافه أهدأ : تافه لأهدأ ، كما فى قول الله تعالى على لسان أبناء سيدنا يعقوب عليه السلام : « تافه تفتأ تذكر يوصف حتى تكون سرسأ ، أو تكون من المالكين » أى لا تفتأ . الآية ٨٥ من سورة يوسف . وكافى قول امرئ القيس :

قلت : يمين الله أبرح قاعداً « ولو قطعوا رأسى لندك وأرسلوا

أراد « لأبرح » فحلف « لا » وهو يريد « أو » . « أى » : بمعنى إلا . والمراد بالقيامة : الحرب والقتال . ونزاق : تنسب ، أراق فلان الماء ونحوه يرقه : صبه .

يقول : إنه لن يهدأ ثاره إلا إذا اشتعلت نيران الحرب ، ودارت رحاها ، وسجرت فيها اللماة غزيرة .

تَرَقُّدُ عَيْنِ الشَّمْسِ فِي سَتَرَاتِهَا وَيَضِلُّ فِي هَبَوَاتِهَا الْإِمْرَأُ (٢٣)
 شَعْوَاهُ تَلْتَمِهُمُ الْقَضَاءُ ، وَيَرْتَقِي مِنْهَا عَلَى حُبِّكَ النِّهَاءُ نَطَاقُ (٢٣)
 أَنَا لَا أَقْرُ عَلَى الْقَبِيحِ مَهَابَةً إِنَّ الْقَرَارَ عَلَى الْقَبِيحِ نِفَاقُ (٢٤)
 قَلْبِي عَلَى ثِقَةٍ ، وَنَفْسِي حُرَّةٌ تَأْبَى الدَّيَّ ، وَصَارِمِي ذَلَالُ (٢٥)
 فَعَلَامَ يَحْفَتِي الْمَرْءُ فَرْقَةً رُوحِهِ ؟ أَوْ لَيْسَ عَاقِبَةُ الْحَيَاةِ فِرَاقُ ؟ (٢٦)

(٢٢) يراد بارتداد عين الشمس : احتباسها واخفاء نورها. والسترات : جمع ستر (يفتحون)
 وهي ما استقرت به كائنات ما كان ، كالستر والستارة (يكرس النين فيها) . والهبوات : جمع هبوة (يفتح
 فسكون) وهي الثبرة (يفتحون) ، ويظهر الهباء ، وهو دقائق التراب الثائري الجو كاللدخان .
 يريد أنها حرب عنيفة شديدة ، يتخذ في سياتها ما يحجب ضياء الشمس من غبار كثيف
 تثيره ستابك الخيل وحركات المتحاربين ، أو دخان ينبعث من ملدافها .

(٢٣) غارة شعواه : مغرقة فاشية منتشرة . وتلتم : تبتلع . وحيك الساء (يضم الحاء والياء) :
 طراقتها ، وطرائق نجوئها ، المفرد حيككة أو حياك (ككتاب) . والحبك : تكسير كل شيء ، كالرملة
 إذا مرّت عليها الريح الساكنة ، والماء القائم إذا مرّت به الريح . والنطاق : كل ما شددت به وسطك .
 يصف هذه الحرب بالشدة والانتشار والامتاع ، ويريد بالشر الثاني ما يرتفع من غبارها
 ودخانها عيلاً بأقطار السماء كالنطاق .

(٢٤) لا أقر (يكرس القاف وفتحها) على القبيح : لا أستقر عليه ، ولا أطمئن إليه ، ولا أسكت
 عنه ، من القرار بالمكان ، وهو الاستقرار به . والمهابة : الحفر والخوف . والنفاق : أن يظهر الإنسان
 خلاف ما يضمّر .

يقول : إنه لا يسكت عن الأفعال المنكرة القبيحة ، ولا يقيم عليها هيئة وحدرًا من أصحابها
 ويعدّ القرار عليها من الرياء والنفاق .

(٢٥) الدّي : الخسيس الدن (وأصله الحمز : دفعه) . والصارم : السيف القاطع الذي لا ينثى .
 وذلاق : حادّ ماضٍ نافذ يضار ، من ذلق السنان والسكرين ونحوها (كفرج وكرم) أي ذرب (كتب)
 وصار حديدًا ماضيًا . ولم نذكر على فمّال من هذه المادة ، والمفهوم من كلام بعض الصرّيين أن فمّالا
 لا ينتفاس إلا من فعل ثلاثي متعدّ ، ولكنه ورد من اللازم كثيراً .
 يفخر بأن قلبه على ثقة من أمره ، وأن نفسه حرة كريمة ، تأبى الدنّ الخسيس من الأمور ،
 وأنه شجاع ، صارم السيف ، قوى العدة .

(٢٦) في البيت حصر على الشجاعة والإقدام على المهلك ، وفيه تبيكيت الجبناء الذين يفرون من الموت
 ومرواقيهم . وربّما أن يكون اسم ليس في البيت ضمير الشأن ، وأن الحملة بملها خبرها .

فَارْغَبْ بِنَفْسِكَ وَهَيِّ فِي أَثْوَابِهَا
لَا خَيْرَ فِي عَيْشِ الْجَبَانِ يَحُوطُهُ
عَابُوا عَلَى حِمِيَّتِي وَنِكَائِي
فَاضْرَحْهُمْ ضَرْحَ الْعَيُونِ قَدَاتِهَا
فَالنَّاسُ أَشْبَاهُ ، وَسَتَى بَيْنَهُمْ
تَذْنُو الْجُسُومُ ، وَتَبْعُدُ الْأَخْلَاقُ (٢٧)

(٢٧) رغبت بنفسي عن الشيء : اجتويته وزهدت فيه وكرهته . وهي في أثوابها : وهي في الحياة الدنيا ، فالشاعر يريد بالنفس : الروح ، ويريد بالأثواب : الجسم والبدن ، وقد عبر بالجمع لأنه يعمل كل جزء من أجزاء الجسم ثوباً لنفسه ، وبمثل هذا كثير في كلام العرب . وفي الشطر الثاني إشارة إلى كثرة بلاد الله واتساعها .

والمعنى : فارغب بنفسك ما دمت حياً عن الدنيا ، وقبول الذل ، والقرار على القبيح ، وإذا نيا بك موضع فهاجر إلى غيره ، كما قال الشاعر :

فَأَقَمَ بِلَدٍ مَا أَصَبَتْ كَرَامَةٌ وَإِذَا نِيَا بِكَ مَثَلٌ فَتَحَوَّلَ

(٢٨) العيش : المحيطة والحياة . ويحيط به ويكتنفه . والإملاق : الفقر .

(٢٩) الحمية : النفس والألفة والاستكاف وإياء الضيم . والنكابة : اسم من قولك نكيت في العنق (كربت) : إذا قتلت وجرحته وألغمت ، أو إذا كثرت فيه المراح والقتل ، فوهنوا لذلك .

والمعنى : أنه مجبول على الحمية والألفة وإياء الضيم والنكابة ، فلا ينبغي أن يعاب بهذه الصفات ، كما لا ينبغي أن تعاب النار بالإحراق ، لأنها لا تكون ناراً إلا إذا أحرقت . فكان الشاعر يشير بهذا إلى أنه لا يكون رجلاً إلا إذا كان ذا حمية ونكابة .

(٣٠) الضرح : التنحية والرى ، ضرحه (من باب منع) غمّاه وضمه وطرحه ، ورى به في ناحية . والتقاة : واحدة التقى ، وهو كل ماسق في العين فإذاها وجأها . وحذار : احذر واحترس . وعلق الشيء بالشيء (كسب) : نسب به واستمسك وتعلق ، والملاق : جمع علق ، اسم فاعل من علق . والمعنى : فاضرح هؤلاء العيائين ، كما تضرع العيون الأقداء ، واجتنبهم ، وترقع عنهم ، واحترس أن يعلق بك عائق منهم .

(٣١) أشباه : مشابهن ، واحد شبه (بكسر فسكون ، أو بفتحين) . وقوم شتى : مثرتين مختلفين . وتذنو : تقرب . والجسوم : جمع جسم .

يقول : إن الناس متشابهون متقاربون في صورهم وأجسامهم ، ولكنهم مختلفون متباعدون في أخلاقهم وسجاياهم .

فَاعْرِضْهُمْ ، وَاخْتَرْ تَشَابُهَ أَمْرِهِمْ
لَا تَحْسِبَنَّ الرِّقَّ يَنْزِعُ عَنْهُمْ
شُرَّوَالِ الضَّلَالَةِ بِالْهَدَى ، وَاعْتَرَفَهُمْ
فَقَرَى الْقَتَى مِنْهُمْ كَأَنَّ بِرَأْسِهِ
مُتَلَوْنَ الْأَخْلَاقِ بَيْنَ عَشِيرِهِ
لَا تَسْتَوِي الْأَعْلَالُ وَالْأَطْوَالُ (٣٣)
الشَّرُّ دَاءٌ مَا لَهُ إِفْرَاقُ (٣٣)
لَيْنُ الْحَيَاةِ ، وَمَاوَاهَا الرِّقْرَاقُ (٣٤)
نَزَعَ الْجُنُونُ ، فَلَيْسَ فِيهِ لَيَاقُ (٣٥)
جَهْلًا ، كَمَا يَتَلَوُّ الشُّقْرَاقُ (٣٦)

(٣٢) الأمر : الشأن والحال . والأعلال : جمع غل (كقفل) وهو طوق من حديد يجعل في العنق والأطواق : جمع طوق (يفتح فسكون) ، وهو حل (يفتح فسكون) يجعل في العنق .
يدعو إلى تعرف الناس ، والتمييز بينهم ، ويحذر الإغترار بما قد يبدو من تشابه بين أمور الاختيار والأشياء ، فلنهم على الرض من هذا التشابه الظاهري مختلفون في أخلاقهم ، كما صرح بذلك في البيت السابق ، ومثلهم في ذلك كتل الأعلال والأطواق ، كلاهما يوضع في العنق على اختلاف المعنى والحقائق ، وشتان بين ما يتخذ حلية وجمالا " وزينة ، وما يجعل للأسر والقهر والإذلال .

(٣٣) لا تحسبن : لا تظنن . والرق : الطلف ولين الجانب ، وهو ضد العنف . وينزع : يقتلع (وبابه ضرب) . والغل : (بكسر اللين وتشديد اللام) الحقد والصفن . وإفراق : براء وشفاء .
يقول : إن الرق والطلف ولين الجانب لا ينزع حقد الحاقدين ، ولا يستل سخيمتهم ، لأن الغل والحقد والضغينة من الأدواء التي لا تعالج ، ولا يرجى منها براء وشفاء ، وهذا قريب من قول المتنبي :

سوى وجه الحساد داء ، فإنه إذا حل في قلب غليس يحول

(٣٤) شروا : ابتاعوا واشتروا ، والمراد : استبدلوا ، وهم حساده وأعدائهم الذين وصهم بالجبن والمهانة ، والانطواء على الحقد والبغضاء . واعتزم : غرهم وخذلهم ، من قولهم : اغتره الأمر ، أي أثناء حل غرته (بكسر اللين وتشديد الراء المفتوحة) . والرقاق : المتائل اللامع .
يقول : إنهم استحيوا العمى والضلال على الهدى والرشاد ، وغرهم رضاء العيش ونعومته ، وخذلهم زخرف الحياة ورويقها .

(٣٥) النزغ : مصدر نزع (من باب نزع) أي غشه وطمعه ، ومن المجاز : نزع الشيطان ، كأنه ينخسه ليخيه على الناس ، والمراد بنزع الجنون : القوة والحوس والحساسة . واللياق (يفتح اللام) : الاستقراء والرياسة واللبات في الأمر .

(٣٦) متلون الأخلاق : لا يثبت على خلق واحد . والعشير : القبيلة . والشقراق (بكسر الشين وسكون القاف) : طائر يسمى الأخيل (يفتح فسكون ففتح) في حسم المحدث ، مرقط بجمره وخضرة وبياض =

لَهْجٌ بِعَارِيَةٍ الْحَيَاةِ ، وَمَا دَرَى أَنَّ الْحَيَاةَ إِلَى الْمُنُونِ مَسَائِدُ (٣٧)
لَوْ كَانَ يَسْلُمُ فِي الزَّمَانِ مِنَ الرَّدَى حَتَّى لَعَاشَ بِحُجُوءِ السَّبْدَائِدُ (٣٨)
أَرَبَى عَلَى شِعْرَاخٍ أَرْعَنَ بَاذِخٍ سَامٍ ، لَهُ فَوْقَ السَّحَابِ طَائِدُ (٣٩)

== وسواد ، وقد وصفه صاحب المصباح بأنه دين الحماة ، أخضر اللون ، أسود المنقار ، وباطراف جناحيه سواد ، ويظهرهما حمرة ..

يقول : إن الفتى من هؤلاء الملمومين يجمع ألواناً متناقضة من الأخلاق ، كما يجمع الشقراق ألواناً مختلفة .

(٣٧) لهج : مولع مفرى ، شديد التعلق . والعارية (بتشديد الياء ، وقد تخففت في الشعر) : استعيرته من غيرك ، كأنها منسوبة إلى المار ، لأن طلبها عاريج ، أي من قولهم : تمارروا الشيء واحترروه ، إذا تداولوه . وقد جعل الشاعر الحياة كالعارية ، لأن العارية مرجوعة ، والحياة إلى فناء ، والماقل إنما يستمتع بالحياة كما يستمتع بالعارية التي يوقن أنها ليست له ، وأنه مضطر إلى ردّها بعد حين . قال الشاعر :

إِنَّمَا أَنفُسُنَا عَارِيَةٌ * وَالْعَوَارِي قُصَارُ أَنْ تَرَدَّ
أَيُّ غَايَتِهَا وَأَعْرَاجُهَا أَنْ تَرَدَّ . ويرى : علم (وبابه رمي) . والمنون : المنية والموت ، وهي مؤنثة ، من المن (يفتح الميم وتشديد النون) وهو القطع أو النقص . وساق : اسم مكان ، أو مصدر من ساق الإنسان الماشية (من باب قال) .

ومعنى الشطر الثاني : أن الحياة تسوق الأحياء إلى الموت . أو هي طريق يستاقون فيه إلى الموت . (٣٨) الردى : الهلاك والموت . وعاش : المراد سلم ونجا من الهلاك . والجو : ما بين السماء والأرض . والسبداق (يفتح فسكون ففتح) : الصقر ، أو الشاهين ، أو البازي ، أو كل صائد من جوارح الطير ، كالبنانة والشاهين .

والمعنى : لو أمكن أن يسلم حتى في الدنيا من الهلاك ، وينجو من الموت لسلم الصقر ونجا بما امتاز به من قوة ومنعة ، فهو يعيش في حصن منيع من طبقات الجو .

(٣٩) أربى : ساء وطلا وانقطع ، من قولهم : أربى فلان على الحسين ، أي زاد ، وهذا يربى على ذاك ، أو من قولهم : أربى الرجل بغيره ، إذا أقام على رايته ، وهي ما ارتفع من الأرض . والشعراخ : رأس الجبل وقمته . وجبل أربى : ذروة (بكسر الراء) طول ، واحدها رين (يفتح فسكون) ، وهو أنف عظيم يتقدم الجبل . وباذخ : شاخ عال . وسام : شاعر مرتفع . والسحاب : جمع سحابة . والطاق : ناشز يندم من الجبل ، أي جزء عظيم مرتفع ، يبدو بارزاً خارجاً من الجبل .

والمعنى : أن ذلك الصقر أو البازي يبعد في طيرانه ، ويرتفع ارتفاعاً عظيماً ، ويمعن في طبقات الجو العليا ، حتى إنه ليرى على قمة جبل أربى ، باذخ شاعر شامخ ، يسمو فوق السحاب . وهذا كله كتابة عن قوة ذلك البازي ومنتهى واقتداره .

وَلَا تَرْهَبِ الْأَخْطَارَ فِي مَلَكِبِ الْعَلَا
فَمَنْ هَابَ شَوْكَ النَّحْلِ عَادَ، وَلَمْ يَجْنِ^(٣٠)
وَلَوْلَا مُعَانَاةُ الشَّدَائِدِ مَا بَكَتْ
مَرَايَا الْوَرَى بَيْنَ الشَّجَاعَةِ وَالْجُبْنِ^(٣١)
فَإِنْ لَمْ تَحِذْ فِي الْمَدَنِ مَا شِئْتَ مِنْ قَرَى
فَأَصْبَحْ؛ فَإِنَّ الْبَيْدَ خَيْرٌ مِنَ الْمَدَنِ^(٣٢)

(٣٠) الهَي في أول البيت : لتصح والإرشاد ورهبه (من باب طرب) : حذره وخافه. والأخطار : جمع خطر (يوزن سبب وأسباب) : وهو الإشراف على الهلاك ، وخوف التلف . وشاطر ينقسه تخاطرة : أى فعل ما يكون الخوف فيه أغلب . والملا : الرفعة والشرف . ومثله التلاء . والملا أيضاً : جمع العليا (يوزن الكبرى والكبر) . وهابه : حذره وخافه . وشوك النحل (بالهاء المبهمة) . أى هى «شوك النحل» (بالهاء المهملة) . وجنى الثمرة (من باب رى) واجتناها : تناولها من منبتها .

يخصر على اتصاحم الأخطار لبلوغ الأوطار ، ويدعو إلى ركوب الأهوال في طلب المعالي ، وتحقيق الآمال . والشطر الثانى تذييل جار مجرى المثل ، مؤكداً لمضى الشطر الأول ، فن «تبيب الخواف أخفق ، وباه بالخرمان» ، «ولابد» دون الشهد من لبر النحل . «وصلة هذا البيت بما قبله وما بعده ظاهرة ، وهى التخصيص على إزاء الضم ، ومكافحة الظلم ، والترغيب في حياة المزة والكرامة . ويلاحظ أن الأبيات التى تقصد إلى النصيح والإرشاد ، ويجرى مجرى الحكم والأمثال كثيرة في هذه القصيدة ، وأكثرها في مثل هذا المعنى .

(٣١) عاناه معاناة : قاساه ، وكابده ، وضاناه . والشدائد : الصعاب ، والمشاق ، وما يجرى به الناس من البلياء ، وما يهزمهم من حوادث الدهر . ومعاناة الشدائد : ركوب الأهوال والصعوبات ، والقرى بالنوائب والأفات . وبدت : انقضت . وظهرت . والمزاي : المنازل ، والمواقع (كما فى تهذيب اللغة للأزهري) . الواحدة مزية (يوزن عطية وصفايا) . والورى : الخلق ، والناس ، والأنام الذين على وجه الأرض . وفى الأصل المخطوط «ولو» وإنما يستقيم المعنى والوزن : «لولا» .

يقول : إن مواقع الناس ومنازلهم في حياتهم الدنيا تلبو متفاوتة بين الترفيعين : الشجاعة ، والجبن . أو حسب ما يميزهم من الإقدام والإحجام . وإنما يظهر هذا التفاوت ما يكابدهونه من صعوبات الحياة ، وما يهزمهم من بلياء الدهر ، فالملكاح الهبالد شجاع مقدام ، وللمستسلم المستكين جبان رعديد . والفرص الحضر على مكافحة التواضع ، ومجاهدة الخطوب في صبر وثبات ، وعزم وقوة ، وشجاعة وإقدام .

(٣٢) المدن (بضم فسكون ، أو بضمين) ، وكلذا المفاين : جمع المدينة : وهى المصر الجامع ، أى الكورة الكبيرة ، تقام فيها الدور ، والأسواق ، والمدارس ، وغيرها من المرافق العامة . والقرى . (يوزن الرضا) : ما يقدم إلى الضيف . وقصر المضيف ضيفه يقرى (كفداء يقديه) : أكرمه ، وأحسن إليه بما يقتضيه حسن الضيافة . ويراد بالقرى هنا : ما تتطلبه حياة الأحرار الكرام قوى الألفة والحمية من المزة ، والحرية ، والكرامة ، والمثمة . وأصحح : أمر يراد به النصيح والإرشاد : من أصحح إصباحاً : أى خرج إلى الصحراء . والبيد (بكسر الباء) : الفلوات ، والمغازات ، والصحارى ، والأراضي الواسعة المقفرة . الواحدة بيداء (يوزن صحراء) .

صَحَارٍ يَبِيعُشُ الْمَرْءُ فِيهَا بِسَبِيهِ شَلِيدَ الْحُمَا غَيْرَ مَغْفُورٍ عَلَى دَمْنِ (٣٣)
وَأَيُّ حَيَاةٍ لِامْرِئٍ بَيْنَ بَلَدَةٍ يَظَلُّ بِهَا بَيْنَ الْعَوَائِنِ وَاللَّخْنِ؟ (٣٤)

— في هذا البيت وتمة الأبيات الآتية يتلخّص الشاعر العيشة البدوية ، ويميّزها إلى "الحُرِّ" الأبيّ الكريم ، ويتضح له أن يتأذى بنفسه عن حياة المذلة والهناء ، فإن لم يجد في المدن والحواضر ما يرضى نفسه وحبيته ، ويلازم عزّه وكرامته — يجب أن يهاجر منها إلى البيد والقبائل ، والصحارى والقفلات ، فإن فيها ما يرضه ويرضيه . . . يعيش أهل المدن عيشة الرفاهة واللذة ، وينعمون فيها بمزايا الحضارة وال عمران . ويعيش البدو عيشة الشغل والخشونة ، ويمشون في باديتهم حياة البداوة والحرمان . وفي سبيل الحرص على الحياة الحرة العزيزة الكريمة فضلّ الشاعر البيد على المدن . وفي الأبيات التالية تفصيل وتعليل لهذا التفضيل ، والصلة بينها وبين الأبيات السابقة واضحة وثيقة :

وفي الأضرّ منّا لِكريمٍ عزّ الأذى وفيها لمنّ وأمّ العلّا مُتَسَوِّلٌ

وفي القرآن الكريم : « إِنَّ الَّذِينَ تَوَقَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ، قَالُوا : فِيمَ كُنْتُمْ ؟ قَالُوا : كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ . قَالُوا : أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً ، فَتُهَاجَرُوا فِيهَا ؟ قَالُوا لَيْلَكُمْ مَا وَكَلْتُمْ بِهِمْ ، وَوَسَّاتُ مَعِيرًا » . (الآية رقم ٩٧ من سورة النساء) .

(٣٣) الصحارى (يفتح الراء وكسرهما) : جميع صحراء . وصحار (بوزن جوار) غير مجتهد عليل . والتقدير : هي صحار ، ويمش المرء فيها بسيفه : أي يحيا فيها متحداً على سيفه ، يحصى نفسه وسورته بقوة سلاحه ، ولا يجد فيها ما يجده في المدن والحواضر من الغنى والهناء ، والكرامة والإذلال ، والتجريد والتقييد . وسمياً كل شيء : شدته وحده . ومن كلامهم : « هو شليد الحميا » : إذا كان عزيز النفس قوياً أياً . ويغنى : اسم فاعل من أغنى على ما يكره إغناءه : أي سكت ، وصبر عليه . وأغنى عنه على القلى : أي صبر على الأذى . والذين (بكسر فسكون) : ما انحط من الهر والطين فتليده . وظله الذين (يفتح فسكون) : وهو السارقين ، أو السجين ، أي الساء والزلزل المخطئ بالرماد . والشاعر يكتفى بالذين هنا عن الأذى والغنى ، والسوء والفساد .

في البيت السابق فضلّ الشاعر البيد على المدن تفضيلاً "جملاً" ، بقوله : « فإن البيد غير من المدن » . وفي هذا البيت تفصيل وتعليل لهذا التفضيل ، فمن مزايا الحياة في البيد والصحارى أن يعيش فيها الحر الكريم عزيز النفس أياً ، معتمداً على سلاحه في حماية حوزته ، وصيانة عزّه وكرامته ، لا يقيم على ضيق ، ولا يصبر على هوان ، ولا يسكت عن سوء ، ولا يغنى على قلى . وفي الأبيات الآتية مزيد من البيان والتفصيل .

(٣٤) الاستفهام في أول البيت : معناه اللئى ، أو التحقير ، أو الإنكار والاستهجان . وبين بلدة : أي بين أجزائها ونواحيها . ويظلّ : يقيم ، ويتنق . ويستمر . والموائن : اللواحق . ومما جمع على غير قياس للمثنان والدخان (بوزن واحد ، ومعنى واحد) . وقد يراد بالمثنان : النهار . والدخن :

لَعَمْرِي لَكُوْخٌ مِنْ ثَمَامٍ يَنْتَلِعُ أَحَبُّ إِلَيَّ قَلْبِي مِنَ الْبَيْتِ ذِي الْكَنْ (٣٥)
وَأَطْرَبُ مِنْ دِيكَ يَصِيحُ بِكُوْةٍ أَرَاكِيَّةٌ تَدْعُو هَدِيلاً عَلَى غُصْنِي (٣٦)

== (يفتح فسكون) : ارتفاع دخان النار : مصدر دخنت النار (كنع ، وفصر ، وجلس) : أي ظهر دخانها ، أو كثرت ، ودخن القود : أي ألق بالدخان . ودخن الدبار : أي سلع ، وارتفع ، وانتشر . أشار إلى بعض صيوب المدن ، وأذكر الحياة فيها وعابها واحقرها . وكفى بالعوائف والدخن عن فساد الجو ، وفساد البيئة ، وفساد المحيطة .

(٣٥) « لعمري » : اللام : لام الابتداء . والعمر : الحياة . وهو مبتدأ ، والخبر محذوف : أي لعمري قسمي : أي أحلف بحياتي . واللام الثانية واقعة في جواب القسم . والكوخ (بضم الكاف) : بيت مستمن من قصب ، بلا كوة . والثام (بضم التاء) : نبت ضعيف ، أو عشب من الفصيلة النجيلية يسمو إلى نحو متر ونصف متر . واحدته ثمامة . والتملة (بوزن القلعة) : ما ارتفع من الأرض . وما أتهبط منها ؛ فهومن الأضداد . وما أتسع من فم الوادي . والكن : (بكسر الكاف) : وقاء كل شيء وسره . وكل ما يرذ الخروالبرد من الأبنية وغيرها . ويريد بالبيت ذي الكن : البيت الحضري الذي اجتمعت فيه أسباب الصحة والرفاهية . ويقابله الكوخ المتخبط من الثمام في تلة من تلال الصحراء . وفي تفصيل البادية على الحاضرة ، وإشاراً أكويخ البادية ونعيمها على مساكن المدن وقصورها تقلي إحدى لسان البادية :

لَبَيْتٌ تَحْفَتُ الْأَرْوَاحُ فِيهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَصْرِ مُنِيفٍ

(٣٦) أطرب : اسم تفصيل من طرب منه ، أو طرب له (من باب فرح) : أي غفّ واهتزّ للهدى فرح وسرور ، أو شدة حزن وهم ؛ أو شدة شوق وحنين . وطرب للفناء : ارتفع له ، ونشط ، واهتز . وأطره إطراباً : أي جملة يطرب . وحق اسم التفصيل هنا أن يكون من الرباعي ؛ فيقال : الأراكية أهد إطراباً من ذلك الصباح ، وقد يكون من قبيل قويم ؛ « النسل أصل من الخل » ؛ « الصيف أسر » من الشتاء ؛ بمعنى : أن الأراكية تطربك بهديرها ، والديك يزجرك بصياحه ؛ فهما تأثيران متناقضان ، والأول أقوى وأهد وأبلغ من الثاني . والكوة (بفتح الكاف وضمها) : فرجة : أي فتحة في الجدار . أي الحائط ، يدخل منها الهواء والفضو . والكوة (بلفظ الحبشة) : المشكاة ؛ وهي كوة غير نافذة . ويراد بالأراكية : الحمامة : نسبة إلى الأراك ؛ وهو شجر من الحمض ، يستاك بقصبانه . واحدته أراكة ، وتثبت في صحارى البلاد الحارة . ودعا يدعوه : صاح به ، وناذاه . وأهدل : فرخ الحمام . أو الذكر من الحمام الوحشي . أو هو - فيما تزعم العرب - فرخ الحمام ، كان على عهد نوح عليه السلام ، مات عطشاً وضيقاً ، أو صاده جارح من جوارح الطير ؛ فام من حمامة إلا وهي تحن إليه ، وتبكي عليه . فاضل بن هدير الحمام الوحشية على أفصان شجر البادية ، وصياح الديكة في كوى منازل الحاضرة ، فأكثر الأول وفضله ، وأحبه وارتضاه . والبيت من أبيات التنويه بالعيشة البدوية ، وتزين حياة الصحاري والغنى والرفار ، حيث يجد فيها الحر الكريم ما يرضى عزه وإياه ، وحريته وكبرياه .

وَأَحْسَنُ مِنْ دَارٍ وَجِيمٍ هَوَاؤُهَا مَيْبُتُكَ مِنْ بُحْبُوحَةِ الْقَاعِ فِي صَخَرٍ (٣٧)
تَرَى كُلَّ شَيْءٍ نُصَبَ عَيْنُكَ مَا يَلَا كَأَنَّكَ مِنْ دُنْيَاكَ فِي جَنَّتِي عَذَنٍ (٣٨)
تَلَوُّرُ جِيَادُ الْخَيْلِ حَوْلَكَ شُرْبًا تُجَاذِبُ أَطْرَافَ الْأَعْيَةِ كَالْجِنِّ (٣٩)

(٣٧) هوا وجيم: رديء، فاسد، ثقيل، غير ملائم. والمبيت والبيات: مصدر بات في مكان كذا: إذا أقام به ليلاً. ويقال: بات في البرية: أي الصحراء: أي صار إليها، وأقام بها. والبحبوح (بضم الباءين) من كل شيء: وسطه، وشيخه. والقاع: أرض مستوية مطمئنة مما يحيط بها من الجبال والأكام، تنصب إليها مياه الأمطار، فتحبسها، ثم تنبت العشب. والصخر: الأرض الواسعة المنبسطة، لا شجر فيها. وصحن الدار: ساحتها، ووسطها. وصحن القلاة: ما اتسع منها. و«من» في الشطر الثاني: بيانية. والترتيب الأصل للكلام: مبيتك في صحن من بحبوحه القاع: أي في فضاء فسح من قيعان الصحراء أحسن من إقامتك في دار وجيم هواؤها.

وهذه صورة أخرى من صور المفارقة والمباينة بين البيتين اللدنية والبدنية: فهو الدار في المدن وجيم وبيل فاسد رديء. وهوا القيعان والصحن والباحابيح في الصحارى والقبائل والفولوات نقى نظيف، صحنى لطيف، لا يحمل المقيمين بها غير الصحة والعافية، والسلامة من الآفات والبلات.

(٣٨) نصب عينك: أمامهما: من نصب الحيز والبناء والرمح ونحوه (من باب ضرب): إذا أقامه، ورفعه، وجعله قائماً ظاهراً أمام عينيه. ومائل: قائماً مستصباً. وهو تكرار وتأكيد لمعنى «نصب عينك» (وفعله من باب دخل). و«من»: بمعنى «في»: أي كأنك في دنياك مقم في جنات النعم والخلود. أو معنى البذل: أي كأنك بذل دنياك مقم في جنتي عدن. والجنة: كل حديقة أو بستان يستمر بأشجاره الأرض. والجنة هنا: دار النعم الخالد في الآخرة. وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم كثيراً: بالإنفراد، والثنائية، والجمع. قال تعالى: «وَلَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتُ» الآية رقم ٤ من سورة الرحمن. وفي جنتي عدن: أي في جنتي استقرار، وثبات، وإقامة، وعلوية: من عدن بالمكان (من بابي ضرب وقد): إذا لزمه، وأقام به، ولم يورسه.

من مزاييا الصحراء أن الطيبة فيها - حبيبتها ووسطها، وجمالها ونعاسها - ظاهرة ماثلة للمقيمين بها، والمتنقلين في أرجائها، لا يجهلون منها شيء. وقد بالغ الشاعر في تزيينها وتخصيبها والترغيب فيها، فقال: إن أهلها يستشعرون السعادة ورياح البال، كأنهم في جنات الخلد والنعم التي وعد الله بها عباده المؤمنين. (٣٩) جياذ الخيل: غيارها وكرامها: جمع جواد: وهو الكرم النجيب النفيس منها. وشرباً: جمع شارب، أو شروب: اسم فاعل، أو صيغة مبالغة من شرب (كقهم) شرباً (بتثنية الشين). وهو حال من جياذ. وجياذيه الخيل ونحوه. وجياذياه: أي تنازله، وجلبه كل منهما إلى نفسه. وطرف كل شيء: منتهاه. وجميعه أطراف (بوزن سيب وأسباب). والأعنة: جمع عتان (بوزن زمام وأزمة): وهو سير الهجام الذي تملك به الدابة. والجن: خلاف الإنس. وجم يضرب المثل في النشاط والقوة. رعة الحركة، وشدة البأس.

إِذَا سَمِعْتَ صَوْتَ الصَّرِيحِ تَنَصَّبْتَ فَتَذَرُكَ مَا لَا تُبْجِرُ الْعَيْنُ بِالْأُذُنِ^(١)
فَيْلِكَ - لَعْمَرَى - عَيْشَةُ بَدْوِيَّةٌ مُوْطَأَةُ الْأَكْتَفِ ، رَاسِخَةٌ الرَّسَنِ^(٢)
وَمَا قُلْتُ إِلَّا بَعْدَ عِلْمٍ أَجَدَ لِي يَغِينُنَا نَقَى عَنِّي مُرَاجَعَةُ الظَّنِّ^(٣)

= في البادية أجود أنواع الخيل ، يقعنها البدو الركوب ، والزينة ، والحرب ، والصيد . وإنه ليمتدح أن تلتزم حركك ريثما يجاذب أطراف أعضائها ، في مثل نشاط الجينة وطلعتها .

(٤٠) صوت الصريح : صوت المستغيث أو الاستغاثة . وتنصبت : أقامت آذانها ، ورفعتها ، وبدت عليها أمارات الاهتمام والتأهب ، والاستعداد . وأدركه الفهم إدراكاً : لحقه ، وبلغه ، وقاله يشير إلى بعض المزايا المعروفة في جهاد الخيل ، فإن آذانها قوية السمع ، مرفهة الحس ، كذلك بها ما لا تذكره غيرها أو حينئذ الناس من المخلوقات ، فهي متفوقة على الأبصار ، لا تكاد تسمع صوت الاستغاثة حتى تراها في تمام الأهبة والاستعداد . وهي - إلى أصلاتها ولجائها - معوددة سرعة الإيجاد ، وقوة الاستعداد ، فإن طبيعة الحياة في البيئة الصحراوية تتطلب مثل هذا ، وتلحس إليه .

(٤١) ولعمري : اللام : لام الإهداء . ومرى : حيال ، أي أقم بحياتي . وسيلة القسم معترضة بين المبدأ وبغيره . والمعيشة : معيشة الإنسان ، وحالته في حياته . والبادية : لغناء واسع من الأرض فيه المرعى والكثا . وطلها ، أو في ممتها ، أو فيها يقرب منه الصحراء . وفدها الحاضرة : وهي المدن والقرى والريف . والبدو : سكان البادية . والحضر : سكان الحاضرة . وبدوية : نسبة إلى البدو ، أو البادية . وموطأة : مهياة مهيئة . والأكتاف : الجوارب والذواشي : جميع كنف (بوزن سبب) . وراسخة : ثابتة مستقرة : اسم فاعل من رسخ الفهم (من باب غطخ) . والركن : واحد أركان البناء ونحوه : أي جواربه وأسنده التي يستند إليها ، ويقوم عليها . ويراد بالركن هنا : الأركان . والشطر الثاني : كتابة عن يسر الحياة في البادية وسهولتها وطلتها واستقرارها كما يراها للشاعر . وهذا كله مقبول في مقام التصفين والتزيين ، والتأريظ والتحييب .

يقول : إن الحياة البدوية أكتافها موطأة مهيئة ، وأركانها راسخة ثابتة ، ويؤكد قوله بالقسم في سبيل الإقناع بإيفاد هذه الحياة وتقضيئها . وهنا البيت ختام حشرة أبيات عرض فيها الشاعر بعض صور البيئة الصحراوية الممتدة الرائعة ، وقوة بعض مزاياها ، وسحبها إلى الأحرار الكرام الذين يضيقون بحياة الحواضر والمدن ، ولا يجدون فيها ما يرضى لإقامتهم وزيارتهم وكرامتهم . وهو يرى أن الاستقرار وطيب العيش لا يكونان إلا مع البرة والحرية ، وهما موزونتان لسكان البوادي والصحاري .

(٤٢) أجد الشيء إجداداً : أحسنه وألججه . وأجد له العلم يقينا : أي رفع علمه وسماعته إلى مرتبة اليقين : وهو أقوى مراتب الإدراك الذي لا يساور شك أو ارتياب . وراجعه مراجعة : رجع إليه ، واطروده . والظن : إدراك الذهن الشيء مع تربيحه . وهو خلاف اليقين . وسيلة "أجد" في يقينا : صفة لـ "علم" : أي وما قلت ما قررت في عشرة أبيات المابقة إلا عن معرفة قوية صادقة ، ارتفعت =

فَقَدْ ذُقْتُ طَعْمَ الدَّهْرِ حَتَّى لَفَظْتُهُ وَعَاشَرْتُ حَتَّى قُلْتُ لِابْنِ أَبِي ذَعْنَبٍ (٤٣)
وَكَوْلَا أَخْ أَحْمَدْتُ فِي الْوَدِّ عَهْدَهُ عَلَى حَدَثَانِ الدَّهْرِ - مَا كُنْتُ أَسْتَشْنِي (٤٤)

إلى مرتبة اليقين . وبجملته : « نفى عن مراجعة الظن » نعمت ! « يقينا » : أى يقينا لا يشوبه شك أو ظن ، ولا يساوره توجع أو اتقاب .

والمنى : أن قوله السابق فى الحياتين : البدوية والحضرية نفوس على العلم واليقين ، لا على الظن والتخمين . (٤٣) ذقت طعم الدهر : أى خبرته وبلوته ، وتمرست بأحداثه وفوائده . ويرتد إلى اليأس والألأم ، فلقت منها الحلو والمر ، واليسير والسير ، والطيب والتكد . أو يريد أنى غالطت الناس ، وعرثتهم عن خبرة وتجربة . ولفظ الشيء من فمه (من باب ضرب) : رماه ، وطرحه ، وكلف به . ولفظت طعم الدهر : أى لفظت طعمه ، أو لفظت الدهر ، أو لفظت الناس : أى برئت بهم ، وضجرت منهم . أو المراد أن تجرئى للدهر والناس تمت وكملت ، وزادت وفافت . وعاشرت الناس : غالطهم ، وصاحبهم ، وساورهم . وابن أبي : أى . وذعن : أتركى ، وتنتج عنى . والشرط الثانى تكرار وتأكيده لمنى الشرط الأول .

يقول : إنه غير الحياة ، وحلب الدهر أشطره ، وتمرس بخبره وشربه ، وعاشرت الناس وغالطهم ، فبرم بهم ، وضاق ذرعه حتى يلمى قرياه . وهذا البيت شبه تعليل البيت الذى قبله ، فقد قال ما قاله فى حياة اليأس ، وحياة الحضر ، لأنه ذاق طعم الدهر . . . يضاف إلى هذا أن الخبرة والمعاشرة اللتين أشار إليهما هنا وثبتهما الاتصال بالعلم واليقين اللذين أشار إليهما فى البيت السابق . أما صلته بالآيات التى تليه ، فإنه توطئة وتهديد لامتناع صديق برّ وفى استثناءه الشاعر من مباشره ، ولؤه بفضائله ومكرماته . ويلاحظ أنه أجرى بعض هذه الآيات مجرى الحكم والأمثال .

(٤٤) أخ : أى صديق . ومن أمثال العرب فى الأخ الصديق : « ربّ أخ لك لم تلده أمك » . « إن أخاك من أمك » . وأحمده إحماداً : وجده محموداً ، وارتاح له . واليد واليداد . يتشلت اليدو فيهما ، واليدوة : الهبة . وفى اليد : أى بسبب اليد : أى بسبب ما أكتسبت أنتجربة الصادقة من مديته وحبته ووفائه وإخلاصه وصديق وداده . أو المنى : فى أمر اليد وشأنه ونطاقه ودائرته . ومعهده : زمانه : أى زين صحبته . والمهد أيضاً : القضاء ، والحفاظ ، ورعاية الحرية ، والأمان ، والذمة ، والافتقار ، والمعرفة : أى أحمدت فى أثناء وداده ما كان من وفائه وحنانه . . . و « حل » : بمعنى « مع » . أو بمعنى « فى » . وحديثان الدهر : فوائد الزمان ، وسوالبه ، وكوارثه ، وأرزاقه .

فى الآيات : (٢٠ و ٢١ و ٢٢ و ٢٣) جأر الشاعر بالشكوى ، ويترجم بالناس بعد أن غالطهم ، وضاق ذرعه حتى يلمى قرياته . وفى هذا البيت استثنى أخاً حديقاً بلّاه فى شدائد الدهر ، فأحمد عهده ، وارتاح له ، ووثق به ، وأحسن الثناء عليه . وفى إطراره ، والإشادة بفضائله ومعامده نظم اثنى عشر بيتاً ، أى أكثر من خمس هذه القصيدة ، وإن كان قد أجرى بعض هذه الآيات مجرى الحكم والأمثال .

وَرُبَّ بَعِيدٍ الدَّارِ يُضْفِيكَ وَدَّهَ وَمَا الْوُدُّ فِي الْقُرْبَىٰ وَإِنْ هِيَ أَوْجَبَتْ
وَمُقْتَرَبٍ يَنْجِي عَيْكَ وَلَمْ تَجْزِ (٥٥)
وَلَكِنَّهُ فِي الطَّبْعِ وَالشَّكْلِ وَالْوَزْنِ (٥٦)
فَلَا أَدَبٌ يُجْلِي ، وَلَا نَسَبٌ يُثْنِي (٥٧)
سَمِعْتُ بِهِ عَنْ «أَخْنَفِ الْجَلْمِ» أَوْ «مَعْنَى» (٥٨)

(٥٥) «وب» : حرف خافض ، يفيد في الشطر الأول قلة الأوداء . وفي الشطر الثاني كثرة الجناة من الأقرباء . ويريد ببعيد الدار : الصديق الذي لا تربطك به صلة رسم أو نسب . وضده المقترَب . وأسماه الودَّ إضماراً : أغلصه له ، وكان صادق المحبة والإخاء ، حريصاً على البرِّ والطَّاء . وجنى عليه (كرم) جنائياً : أجرم في حقِّه ، وأذنب ، وأساء إليه ، واحتسب عليه . في الثني عشر بيتاً من هذه القصيدة خصَّ الشاعر بِدِيحِهِ هذا الأخ الصديق الذي لا تربطه به صلة رسم أو نسب أو قرابة . وفوَّه في الشطر الأول من هذا البيت بطلانه وإغلاصه ، وصفاء دمه ، وصديق إخائه . وشكا في الشطر الثاني ما أصابه من أترابه الذين جنىوا عليه ، وأساءوا إليه ، عل الرغم من براعة ساحته ، وسلامة طويته .

(٥٦) القريب والقرباة : أسرة الرسم ، وصلة النسب . وألف «القريب» : ألف التثنية المقصورة . وأوجب الشيء إيجاباً : ألى جملة واجباً لازماً ثابتاً . والمراد أن قربي الرسم من شأنها أن تفرض المودة وتوجبها وتحتملها بين الأقرباء . ويراد بالطبع والوزن والشكل : التوافق والوفاء والانسجام بين الودَّيين أو الأوداء . والمعنى : أن قرابة الرسم من شأنها أن تحتم التوادَّ والتراسم بين الأقرباء ، ولكنها كثيراً ما تتخلَّف ، فتكون الجفوة والقطيعة . وإنما يكون الودَّ الصادق المشرِّف بما يكون بين الودَّيين أو الأوداء من توافق ووفاء والتلاف .

(٥٧) الوديد : المحب . والخلة (بضم الخاء) : الصداقة . والأدب : رباضة النفس بالتعليم والتلهي على ما ينبغي . وأجدى مجلدى إجداء : نفع وأفاد . والنسب : قرابة الرسم . وجمعه أنساب . وأدنى الشيء يدنيه إدفاء : قرَّبه تقريباً .

يقول : إن الأدب والنسب لا يعقدان أواصر المودة بين الناس إذا لم يكن بين الأوداء صداقات خالصة تخلط قلوبهم ، وتثقلت بها أرواحهم . وهذا البيت والبيتان قبله من الأبيات التي جرت مجرى الحكم والأمثال . وهي غير قليلة في هذه القصيدة . وفي ثمانية الأبيات الآتية أطرى الشاعر ذلك الأخ الصديق الذي لم يصمِّح باسمه ، ووصف تملُّقه به ، ولشقيقته إليه ، وولوعه لفراقه .

(٥٨) أنكر الشيء إنكاراً : جحده ، ولم يعترف به . والأحنف بن قيس : من سادات التابعين ، يضرب به المثل في الحلم . وهو الأناة ، وضبط النفس ، ورجاحة العقل ، والصبر المحمود ، وكان الأحنف - إلى حلمه - شهماً عزيزاً في قومه ، إذا غضب غضب له مائة ألف سيف ، لا يسألون لماذا غضب . توفي سنة ٦٧ هـ .

« وأبو الوليد من بن زائدة » : اشتهر بالشجاعة ، والجود ، وجزالة السطاء ، وخصه الشاعر مروان =

لَإِنْ لَمْ تُصْرِّحْ بِاسْمِهِ خَوَّفَ حَامِدٌ يَنْمُ عَلَيْهِ ، فَهُوَ يَتَمَنَّاهُ مَنْ أَهْلِي (٤٩)
عَلَى أَنْ ذِكْرَهُ - وَإِنْ كَانَ تَالِيًا - سَمِيرٌ فَوَادِي فِي الْإِقَامَةِ وَالظَّنِّ (٥٠)
أَنُوحَ لِيُغْلِي عَنْهُ حُزُنًا وَلَوْعَةً كَمَا نَحْنُ مِنْ شَوْقِي وَجَمِيلَ مَعْنَى بَشَرِي (٥١)

— ابن أبي حفصة : بأكثر مدحه . حاشى في دواقي بني أمية ، وبني النعمان ، ثم قتله الخوارج سنة ١٥١ هـ . عرف الشاعر في ذلك الألف فضائل ويكرهات سجلته بصدق كل ما رواه التاريخ من فضائل الأئمة ابن ليس ، وبمن بن زائدة وأما لما من خطباء العرب وأجوادهم . والفرض تجميد الممدوح ، والتعويه بمحامده ، ورفعه إلى مستوى الشخصيات التاريخية الخالدة التي اشتهرت بشرف الأخلاق (٤٩) حاسد : اسم فاعل من الحسد : وهو تحقير زوال لصفة من مستحق لها . وربما كان مع ذلك سعى في إلغائها . وتم عليه (من بابي قتل وغرب) : وفى به . والاسم التهمة : وفى النهاية : والسماوية وتؤيين الكلام بالكذب ، والتعريض ، والإفراء ، والإنسداد بين الناس . وأنى : أريد ، وأقصد (وبابه دى) .

أخفى الشاعر اسم ذلك الأخ الصديق خوفاً عليه من حاسد فكتبت يسمى به عند الحاكمين ، ويؤييه بالسماوية والتهمة . ويبدو أنه كان متحيزاً من غلصاء الشاعر وأصفيائه ؛ فإذا انتهت إليه هذه القصيدة — علم أنه المقصود بالمديح والإطراء الذى استوجب التوبيخ عشرين بيتاً منها .

(٥٠) ذكر التوبة (كسبر) : تذكره ، واستغفره ، وسقطه ، وبجرى في ذمته ، وعمل لئالاه . والذكرى : كثرة التذكير . وألف التاليف المصنوعة . وفي القرآن الكريم : « وذكر ، فإن الذكرى تنفع المؤمنين » الآية رقم ٥٥ من سورة الداريلات . « وما هي إلا ذكرى للبشر » الآية رقم ٣١ من سورة المدثر . واسم كان : سمير « أخ » في البيت الثامن والأربعين : « فذاك أخ » . وفى معنى (من باب سى) : بعد عنه ، فهو ناه . والسمير : المسامر : فاعل بمعنى مفاعيل : من المسامرة : وفى فى الأصل : الحديث بالليل . ويراد بها هنا : الحديث مطلقاً . وسمير فؤاده : مؤلّسه الذى يسكن إليه ، وتؤول به وحشته . والذكرى : اسم « أن » . وسمير غيرها ، وهما مختلفان فى التذكير والتأنيث . وقواعد النحو تقتضى التطابق ؛ فتقول : الذكر سمير الفؤاد . والذكرى سميرة الفؤاد . ويمكن توسيع هذا الاختلاف بعدة مسوغات ، منها : أن « الذكرى » تأنيهاً مجازياً ، غير حقيقى ؛ فيجوز فى غيرها التأنيث والتذكير . ومنها تأويلها بالذكر ، أو التذكير ، أو التأنيث . ومنها أنها مضافه إلى المذكر « ذكراه » . ومنها تشبيه سمير بـ « فاعل » الذى هو بمعنى « مفعول » . وأقرأ تفسير الإمام النسخ لقول الله تبارك وتعالى : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » الآية رقم ٥٦ من سورة الأعراف . والظن : السير بالارتجال (وقطعه من باب قطع) . وفي الإقامة والظن : أى فى دوام واستمرار . يقول : إن ذكرى هذا الأخ لا تكاد تفارقه ، وهو يأنس بها ، ويرتاح لها مع بعد الشقة ، ونزوح الدار .

(٥١) نال (من باب قال) : بكى فى جزع وصويل ، واستبكي غيره . والوامة : بحرقه فى القلب ، وألم من حب وشوق ، أو حزن وهم ، أو نحو ذلك . ولعاه الحب ونحوه (من باب قال) أحرقه ، وألّاه ، وأمرسه .

« وجميل » بن عبد الله بن معمر ، من بني عذرة بن سعد ، من قضاعة : أشهر البشائر العلويين —

فَعَنْ لِي بِوَ غِلًّا كَرِيماً نِجَارُهُ ؟ فَقَدْ سَمِعْتُ نَفْسِي مُعَاشِرَةَ الْهَجْرِ (٥٢)
تُجَادِبُنِي نَفْسِي لِأَنْبِيءِهِ ، وَكُونْنَا أَهَؤُولُ مُلْتَجٍ الْقَوَارِبِ مُسْبِقِ (٥٣)

= في زمانه ، كان صادق الصباية والشفق . ولد ولشأ بواحي القرى ، شبال المدينة ، وتوفى وفطن بمصر سنة ٨٢٢ هـ (٧٠١ م) . خلق « بغيته » بنت حسباً بن ثعلبة ، من بني الأسب ، وهم من بني مُدْرَةَ ، فالعاشق ومضيقه طروشان ، يجمعهما جدما الحال « مُسْنٌ » ، وهو من ربيعة ، وربيعة من بني حنزة . وفي « جميل » لـ « بغيته » كل الولاء ، وشجرتها ، واشتهر بها حتى سمي « جميل بغيته » ، وتماها في شعره « بِنٌ » و « بَغْة » و « بَيْنٌ » و « بَغِيته » ، ولم يتناول بغيرها ، ولم يتزوج . وأما حل حبها والتشبيب التي بها يحول بينها وبين الزواج في عرف البر وماداتهم ؛ ولهذا زوجها غيره ، فلم يقتر تعلقها بجميل ، ولم تجد عنه سلواً . ولما نعى إليها غنى سلها ، وبكته أحرَّ البكاء . وأخبارها كثيرة شائعة شائعة في الأثافي ، وأمهات كتب الأدب ؛ وفي بعض مؤلفات « عباس العقاد » .

والبيت تصوير بلوغ رائع لشدة تعلق البارودي بذلك الصديق ، وولادة ما كان بينهما من أواصر وصلات تلتق روابط القرابة والرحم . ويلاحظ أن البارودي في هذه القصيدة لم يستعمل « التواضع » و « القوة » في التعبير عن حزنه لفارقة بُنيَّاته وولده وأهله . وفي الشطر الثاني إشارة إلى قصة « جميل » و « بغيته » ، وهي من أروع قصص الحب القرية ، العفيف ، العذري ، الخالص ، النقي ، المستقل فوق الثواب والشبهات .

(٥٢) « مِنْ » في أول البيت : اسم استفهام يطلب به تعيين المائل . والاستفهام هنا للتعني ؛ فالشاعر يتعني أن يحتاج له من يجمعه بذلك الأخ . وأصل « بكسر الخاء وبضمها » : التحليل والصديق المختص الخالص الذي أصق المودة ، وأصحبها ، وصدق فيها . وكریم : صفة من الكرم بمناهة العام ؛ وهو « جماع الحسنات الكثيرة ، والأفعال الحميدة التي تظهر من الإنسان بإرادته واختياره . وفداه القوم : وهو « جماع كثير من المبالغ والنفائس . ونجاره » (بكسر النون وبضمها) : أصله ، وبغته ، وحسبه ، وشرف أبائه . وكریم التجار : شريف الأصل ، مابذ المختد ، فاضل ، محبذ في حسبه . والمعاشرة : المخاطبة ، والمصاحبة ، والمعايشة . والهجمن (بضم فسكون) : جمع هجين (بوزن ضنين) ؛ وهو التيم . وأصله الرجل من أب عربي ، وأم غير عربية ، أو أمّة غير محبنة . في الشطر الأول مدحه بصدق الإغناء ، وكرم المختد ، وتعي أن يجمع به شمله . وفي الشطر الثاني : تبرّم بمن عاشرهم من الأتنام المجهنم . وهو شبه تحليل لهذا التعني ؛ ففي رسايب أخلاقه يبالغ سكتة من مخالطة أعدائه .

(٥٣) مجاذبني نفسي إليه : أي تشدقني إليه ، وتربطني به . وهو تعبير عن فرط الشوق ، وقوة التعلق ، وشدة الحنين ، وفزع نفس الشاعر إلى ذلك التحليل الكريم التجار . وأولو : أو الحال . وأجليلة بعدها حالية . و « دون » : بمعنى « بين » . أو بمعنى « قبل » : أي بين منزل ومنزله ، أو قبل =

لَعَلَّ يَدَ الْآيَامِ تَسْخُو بِلُغِيَّةٍ أَرَاهُ بِهَا بَعْدَ الْكَرَازَةِ وَالْفَسَنِ^(٥٤)
وَلَمَّا نَى - وَإِنْ طَالَ الْمِطَالُ - لَوَائِقُ بِرَحْمَةِ رَبِّي، فَهُوَ ذُو الطَّوْلِ وَالْمَنِّ^(٥٥)

= التلاق المأمول أهو يل : أى مخاوف وأخطار : جمع أهوال . وواحد الأهوال : هويل (مثل قول) : وأقول ، وأقارويل : وهو الفزع . والأمر الشديد الخيف . وهائل الأمر (من باب قال) : أفرغى . ومن كلامهم : ركب هويل البحر ، وأهواله ، وتهاويله . ويلتج : اسم فاعل من التج : البحر التجاجاً : إذا اضطرب ، وتلاطمت أمواجه . وغوارب البحر : أعلى موجة ، جمع غارب . ويسئن : مضطرب ، متلاطم الأمواج ، وهو تأكيد لمنى « ملتج » الفوارب : مستعار من استئان الفرس : وهو « عدوه » فى إقبال وإدبار ، وزعل ونشاط . ولعل المراد بالمستن « الملتج » الفوارب : البحر الأحمر والمحيط الهندي ؛ وهما يصفلان بين مصر وسرنديب .

أشار الشاعر فى هذا البيت إلى بعض ما يحول بينه وبين ذلك الخل الكريم من حوائل وموانع بَعْدَتِ بِهَا الشَّقَّةُ ، وعلظمت المشقة ، ونزحت الدار ، وشغل المزار ، وكثرت المخاوف ، وتفاقت الأهوال فى بحر عظيم لُغِي ، نال مائج ، مضطرب هائج . ونفسه - على الرغم من هذا كله - لا تنفأ تجاذبه إلى ذلك الصديق . وفى العبادة معنى شدة الحرص عليه ، وفريط الحنين إليه .

(٥٤) « لعل » : حرف يفيد الترجى ، وهو هنا : ترقب شيء محبوب ، لا وثوق بمحصله ، وإن كان ممكناً . وقد اعتاد الناس منذ القدم أن يضيفوا الخير والشر ، والمسرّة والمساءة إلى الدهر ، أو الزمان ، أو الأيام والأيام . والشاعر فى هذا البيت يظف جانب الطبع والتفائل ، ويرجو أن تفر الأيام ما فقت ، وتصلح ما أفسدت ، وتجمع ما فرقت . وسخا يسخو سخاء : جاد ، وسخ ، وبذل ، وأعطى . ولقية (بضم فسكون) : لقاء . لئاء (بكسر اللام) : مصدر لقيه (كرفيه) . أو هى « لقيه » (بفتح فسكون) : اسم مرة من اللقاء . وأراه بها : أرى أشهى فيها : أى فى اللقية ، أو أراه بسببها . والكرّازة : البهل ، والشيخ ، والعشانة . وأصلها اليبس ، والافتقار . والفسن (بفتح الفاء وكسرهما) البهل الشديد .

وصف الأيام بالكرّازة ، وربما أن تجرد بعدها بلقية تجمع شمله بملك الأخ الصديق .

(٥٥) المطال (بكسر الميم) : المصاطلة ، والتسويق : مصدر ما طه بجه : إذا أجبل موعده الوفاء بعد مهة أخرى . أو وعد وأخلف الوعد عدة مرات . والطلوب (بفتح فسكون) : الإفضال والإتمام : مصدر طال عليه (من باب قال) : أى أنعم عليه ، وأحسن إليه ، وأمتن ، وأفضل . والمن : مصدر من الله حل عبده (من باب رد) : أى أنعم عليه نعمة طيبة . والمنة (بكسر الميم وتشديد النون) : النعمة الثقيلة الواسعة .

ختم الشاعر هذه القصيدة الطويلة الرائعة بهذا البيت الذى يحمل معاني التفائل ، والدعاء ، والطمئنان النفسى ، وتأكيد الثقة بالله تبارك وتعالى ، وإفضاله وإتمامه ، ورحمته وإحسانه ؛ فهو الرحمن المنان ، ذو الجلال والإكرام .

وَقَالَ وَهُوَ بِسَرْنَدِيْبَ يَتَشَوَّقُ إِلَى الْوَطَنِ ، وَيَذْكُرُ أَعْدَاءَهُ :

أَحَا (يُدِّ) بِكَ يَارَ حَنَانَةَ - الزَّمَنُ ؟ فَيَلْتَقِي الْجَنْنَ - بَعْدًا لَبِيْنُ - وَالْمَوَسْنُ (١)

أَشْتَأَقُ رَجْعَةَ أَبَائِي لِكَأْظَمَةِ وَمَا بِي الدَّارُ لَوْلَا الْأَهْلُ وَالسَّكَنُ (٢)

(١) يجب الأصل المخطوط الذي بين أيدينا كثير من تصحيحات الناسخ وتصريفاته . وفيه إلى هذا نقص وزيادة ، وأخطاء إملائية ، ونحوية ، ولغوية غير قليلة ، نبيها القارئ حل بعضها ، وأغفلنا الإشارة إلى كثير منها . وفي الشطر الأول من هذا البيت نقص آكلناه من عندنا حل عادتنا ، وباجتهادنا ، وجعلنا التكملة بين قوسين ، وبها استقام وزن البيت ومعناه . والاستفهام في أوله : معناه الحق . وبك : أي بقلالك . و « رَحْمَةً » : اسم ، أوصفه خبريته التي يتفزل بها ، ويتنى لقامها . وهو في الحقيقة يتنى بمصر ، ويصبو إليها . والرحمة (في الأصل) : واحدة الرحمان ، وهو نبي طيب الرأفة ، وجمعه رباحين . ويريد بالزمن : ماضيه السعيد ، وما كان يستمتع به في مصر قبل أن يهجرت إلى هنا ، وهناتة العيش . والجفن (يفتح فسكون) غطاء العين من أعلامها وأسفلها . وجمعه جفون ، وأجفان . والبين : من أسماء الأضداد ، فهو يأتي بمعنى الوصل ، وبمعنى الفارقة ، والمعنيان صالحان هنا ، والأول أرجح وأقرب . والوسن : النعاس : مصدر وسن (من باب تمب) : أي أخذ في النعاس . والتقى الشيطان : استقبل كل منهما صاحبه واجتمعا . ويراد باللقاء الجفن والوسن : استماعه بالنوم المني ، بعد معاناة الأرق والسهاد من طول الاثراق ، وسرقة الوجد ، وقسوة البعاد والافتراق وهو يكنى بالنوم عن رضاء البالك ، وأطمئنان النفس ، وصلاح الحال .

لأدى مصر فداء المشوق المستهام ، وتنى لقامها ، ليمد إليه ماضيه السعيد ، ويتم بعد الوصال برضاء البالك ، وأطمئنة النفس . وهناتة الحال ، والبينان الإتيان تكرار ، وتأكيد ، وتفصيل لهذا المعنى .

(٢) رجمة : رجوع ، وعودة . و « كأظمة » : موضع . أو جر : أي واد واسع حل سيف البحر ، على مرحلتين من البصرة ، وفيها ركابا (أي آبار) كثيرة ، وماؤها شروب : أي صالح للشرب . و « كأظمة » نوع من الصرف ، أي التئوين ، وإنما لَوَّتْ هنا لغزورة وزن الشعر . ويريد بها مصر وطنه . والأهل : الأقارب ، والعشيرة ، والزوجة . وأهل الدار ونحوها : سكانها . والسكن (يفتحين) : كل ما سكنت إليه ، واستأنست به ، وأطمأنت به نفسك من أهل ومال وغيرها . والشطر الثاني في معنى قول الشاعر :

وَمَا حُبُّ الدِّيَارِ شَتَقْتَنِي فَدَائِي وَلَكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيَارَ

فَهَلْ تَرُدُّ اللَّيَالِي بِمَقْصَ مَا سَلَبْتَ ؟ أَمْ هَلْ تَعُودُ إِلَى أَوْطَانِهَا الظُّنْمِ ؟^(٣٩)
 أَهَنْتُ لِلْحُبِّ نَفْسِي بَعْدَ جِرَّتِهَا وَأَيُّ ذِي عِزٍّ لِلْحُبِّ لَا يَهْنُ ؟^(٤٠)
 لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْهَوَى سِرٌّ لَمَا ظَهَرْتُ بِوَحْيِ قُدْرَتِهِ فِي الْعَالَمِ الْفِتَنِ^(٤١)

(٣٩) الاستفهام في شطري البيت : فلتنق ؟ فهو يعني أن تردّ الاليالى إليه وإلى أمثاله بعض ما انتزعت ، كما يعنى أن يعود المغتربون إلى أوطانهم . وقد اعتاد الناس - وخاصة الشعراء - أن ينسبوا إلى اليالى والأيام ، أو إلى الدهر والزمان - ما يحتاجهم من الشر والمساءة ، وألأساء والفراء . وهم في الحقيقة يقصدون من ظلمهم ، وأضر بهم ، وأساء إليهم من شرار الناس أوجبها بهم . وصلته الشيء : انتزعت منه ، وأخذته قهراً . (وبهاه قتل) . و « أم » في أول الشطر الثاني : حرف بمعنى « بل » كما في قول الله تبارك وتعالى : « قل هل يسقى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمات والنور » الآية رقم ١٦ من سورة الزمر . و « بل » هنا : للإضراب الانتقال : أى الانتقال من معنى إلى معنى آخر . والظنن (بضمين) جمع الظنينة ، وهى الراجلة : أى الركوبة يرحل عليها : من ظنن (من باب منن) : أى سار ، وارتحل ، وسافر . ويريد بالظنن : أمثاله المغتربين المحبطين عن أوطانهم .

سلبته اليالى حريته ، وأمنه ، وطماننته ، وما كان يستمتع به في وطنه بين أهله وصحبه من حياة طيبة وأدعة هنيئة ؛ فتنق في الشطر الأول أن ترد إليه اليالى بعض هذه الأسلاب . ثم تنق في الشطر الثاني أن يعود المغتربون إلى أوطانهم ، وهو بعض ما تمناه في الشطر الأول .

(٤٠) أهنت نفسي : أذلقتها : من الإحالة : وهى الإذلال والاستعفاف . والحب : أى بسبب الحب ، ومن أجله ؛ فاللام هنا : تعليلية . أبهى : أى في سبيل الحب . أبهى الحب (بكسر الحاء) : بمعنى المحبوب : أى تظاير للمحبيب ، وذلك ، والقاد . والمزة : القوة ، والغلبة ، والحبية ، والألفة . وضعا الذلة ، والضعف ، والمهالة . والاستفهام في أول الشطر الثاني : معناه : التنى ؛ فكل عزيز لوقى تهاور عزه وقوته تحت سلطان الحب والفراق . ويهن يهين (من باب وعد) : ضعت وانكسر .

يقول : إى سلطان الهوى والفراق يهدم حزة الأعزاء ، وقوة الأقوياء ، وإن المحبوب يسطر بسره الحب وسطرته على الحب المستهام ، ولو كان عزيز النفس ، شديد البأس ، قوى الشكيمة ، ذا أنفة وحيمة ، وإياه وكبرياء .

والغزل في هذا البيت ، وفي الأبيات التي قبله ، والتي بعده إلى البيت الثاني والعشرين من هذه القصيدة ، وفيها شأبهها من السرفدييات - هو في حقيقة وجد الشاعر وحيته إلى وطنه ودياره ، وتملقه بمن فارقه من أهله وصحبه .

(٤١) « لوه » حرف شرط وتقدير ، إذا دخلت على ثبوتين كانا متغيبين ، وإن دخلت على متغيبين كانا ثبوتين ، كما في هذا البيت . والمحنى : في الهوى سرّ ظهرت الفتن في العالم بوسى قدرته . والهوى : الحب والفراق . وسر الهوى : ما نحن في حقيقة أمره ، وشدة تأثيره في الحب المستهام . والوحي : الإيحاء =

فَكَيْفَ أَمْلِكُ نَفْسِي بَعْدَ مَا عَلِقَتْ
بِي الصَّبَابَةُ حَتَّى شَفَنِي الزَّهْنُ^(٦)
لَوْلَا جَرِيرَةُ عَيْنِي مَا سَمَحْتُ بِهَا
لِلدَّمْعِ تَسْفُحُهُ الْأَطْلَالُ وَاللَّحْنُ^(٧)

والإشارة . وفيه معنى السجلة ، والسرمة (وقوله من باب وهي) . والعالم : الخلق ، والناس . والفن : جميع فتنه (بكسر فسكون) : وهي تدلّه العاشقين ، وهيامهم . وفنتت المرأة عاشقها : أي أعجبه ، وأسأته ، وولته ، وشغلت بالهوى قلبه ، وسلبت عقله وقوّده . أو يراد بالفن : بليلة الأفكار ، والشذائذ ، والاضطرابات التي تضطرم بين الناس يسبب ما يكون بين فتياتهم وفتيانهم ، ورجالهم ونسائهم من علاقات الحب والغرام ، وما يلابسها من الفكرة ، والمثل ، والحقد ، أو يراد بالفن : ما ينتجه الهوى من مذاب المهبين أو صوابهم .

يشير إلى ما غنى حل الناس من أسرار الحب ، ومحبتيات الغرام ، وما يميزه من سرعة المقدرة ، وقوة السلطان ، وما يندوق الوجود من فتنه وآثاره . وفي ثلاثة الآيات بيان وتفصيل لبعض هذه الآثار . (٦) الاستفهام في أول هذا البيت : مناه النبي : أي فليست أمك نفسى ، ولم تبق لي سيطرة عليها ، ولا أستطيع التصرف في أمرى بإرادتى واختيارى . وعلق الشيء بالشيء (من باب تمب) : نشب فيه ، واستمسك به ، وتعلق . والصبابة : رقة الشوق ، وحرارة الهوى . وشفى : هزلنى ، ونحلتنى ، وضمرتنى ، وأضناني (وبابه رد) . والوهن (بفتح فسكون) : ضعف في البدن ، وفي الأمر ، وفي العمل . (وقوله كويده ، وفرح ، وودت ، وكرم) .

في البيت السابق أشار إشارة مجملة إلى فن الهوى في العالم ، وآثار المشق في العاشقين . وفي هذا البيت تفصيل لبعض هذه الآثار ؛ فقد نشبت الصبابة بالشاعر ، وبرّح به الشوق ، وتمكّن منه الحب ؛ فهزله وأضعفه وأضنانه ، وأفقدته السيطرة على نفسه .

(٧) لولا : حرف يدل على امتناع شيء لوجود غيره . وهي هنا داخلة على جملة من اسمية فعلية ؛ لربط امتناع الثانية بوجود الأولى . والثانية منفية في الأصل . وقد أفادت ولوى امتناع النبي : أي فنى النبي : أي الإثبات . والمعنى : أن جريرة عينه وأهمار دمه موجدان ثابتان ، والعلاقة بينهما : علاقة السبب بالمسبب . والجريرة : الجناية ، والذنب ، والخطيئة . وجريرة عينه : أنها نظرت إلى الحسنة المتخزل بها ، فهوىها ، وتعلق بها ، وكان من آثار الهوى ما أشار إليه في البيت السابق ، وما شكاه في هذا البيت من فربط وجدّه ، وكثرة بكائه ، وفزارة دمه . وصبح : جاد ، وأعطى ، وبذل . وصبح له بكلاً : أذن له فيه ، ووافقه على ما طلب : أي ولولا جريرة عيني ماسحت لعمى أن يحمرى بها . أي يحمرى فيها ، أو منها . أوعى من تصحيف الناسخ ، وصوابها سحبت . أي صبيت ، من قولهم : سح الماء والدمع ونحوهما (من باب رد) : إذا صبّه بشدة وفزارة . ويلاحظ أن الشاعر عدّاه إلى المفعول به باللام ، وهو متحد بنفسه : أي ولولا جريرة عيني ماسحت لعمى منها . وتسفحه (من باب قطع) أي تسفح الدمع : أي صبّه وتجريه . وفاعله « الأطلال » . أي رؤية الأطلال ، والوقوف بها : جمع طلل (يوزن سبب وأسباب) : وهو ما بقى شاخصاً : أي قائماً ظاهراً من آثار الديار التي هجرها أهلها .

دَعَتْ إِلَى الْإِثْمِ قَلْبِي ، فَاسْتَبَدَّ بِهِ شَوْقٌ تَوَلَّدَ مِنْهُ الْهَمُّ وَالشَّجَنُ (٨)
وَكُونُ مَا تَبَغَّيْتُهِ النَّفْسُ مِنْ أَرْبٍ بَيِّدَاءَ تَصْهَلُ فِي أَرْجَائِهَا الْمُحْصَنُ (٩)
وَفِي الْأَكْلَةِ آرَامٌ تُطِيفُ بِهَا أَمْدُ بَرَائِثِهَا الْحَطِيَّةُ اللَّذْنُ (١٠)

= ويثقلها الدمن : جميع دمنة (بوزن ملّة وثلث) : وهي آثار الناس ، وما سوّوه : أي آثار المنازل والديار التي ارتحل عنها أهلها ، فأقوت : أي خلّت منهم ، وشربت يحدّم .

والبيت صورة من صور الحب اليلوي القديم ، والعيشة البليوية في شبه الجزيرة العربية ؛ إذ كان طابها التفتّل في طلب الماء والمرعى ؛ فإذا مرّ الماشق بالأطلال والدمن وقف عليها ، وتغنّى بما كان له فيها مع مشوقته من لقاءات وذكريات ، تثير الوجد والصباية ، وتبثّ الأمل واليكاء . والبارودي متأثر بقدها الشمره ، يقتدى بهم ، وينسج على منوالهم ، ويحمي بشمره شعرهم ، ويعرض مثل هذه الصور التقليدية القديمة في مثل هذا المقام ؛ ليصير بها عن وجهه وحسينه إلى أهله ووطنه .

(٨) دعاه : صاح به ، ونداه . ودعاه إلى الشيء : أي حثه عليه ، وساقه إليه . وقاعل « دعت » : ضمير « حين » في البيت السابق . وقد أسلفنا أن نظرتّه إليها أوقعت في شرك الهوى ، وسبائل الفرام . والي : الجهل والضلال . وضده الهدى والرشاد . ويراد بالي هنا : آخرى والفرام . واستبدّ الأمر بفلان : غلبه ، فلم يقدر على ضبطه . واستبدّ قلبه الشوق : سيطر عليه ، وبرّح به . وتولّد الشيء من الشيء : نشأ عنه . ومنه : أي من الشوق . والهم : الحزن والقلق . والشجن : الحزن .

في البيت السابق قال : إن نظرتّه إلى الحسنة المتغزل بها كانت من جزائريته عليه ؛ إذ أوقعتّه النظرة في شرك الهوى ، وسبائل الفرام ، وبرّح به الوجد والهيام ؛ فبكى ، واشتدّ بكاءه ، وسجّ دمه ، واشتدّ الصبا به .

وفي هذا البيت : أن هذه النظرة ساقته قلبه إلى التي ، وحادثت به عن سبيل الرشد ؛ فغلبه الحزن والشوق ، وما نشأ منهما ، ولا يسهما من القلق والحزن .

(٩) « دون » هنا : ظرف مكان ؛ بمعنى « قبل » أو بمعنى « بين » . وتبغّيه : تريده وتطلبه . ومن : بناية ، فما بعدها ، وهو « الأرب » : بيان لما قبلها ، وهو « ما تبغّيه » . والأرب : الحاجة . أو الحاجة الشديدة . أو البنية والأسنة . والبيداء : القلاة ، والمغازة ، والصحراء . والصهيل والصهال : صوت الفرس (وفعله كضرب ونقع) . والأرجاء : التواصي : جمع رجاء (بوزن صدى وأصداء) . والمحصن : جمع حصان (بكسر الحاء) : وهو الذكر من الخيل . وصهيل المحصن في أرجاء البيداء : كناية عن امتداد قواحيها ، وتبادل أطرافها ، وصعوبة اجتيازها ، وبعدها ما يتتبعه الشاعر ويتساءل . والمعنى : أنه لا سبيل إلى بلوغ مبتغاه ، وتحقيق ما يتنصاه .

(١٠) الأكلّة : جمع إكليل (يكسر فسكون فكسر) : وهو شبه النشأ يحيط بالشئ . ويراد به هنا : السر الذي تصحب فيه الفتاة المهدّرة وتقصن . والإكليل أيضاً : منزل من منازل القمر . ويراد =

مِنْ كُلِّ حَوْرَاءٍ مِثْلِي الظَّنِّي، لَوْ نَظَرْتَ لِجَاوِدٍ لَشَجَّاهُ اللَّهُ وَالدَّدَنْ^(١١)
فِي نَشْوَةِ الرَّاحِ مِنْ أَلْمَاطِهَا أَنْزُ^(١٢) وَفِي الْجَاوِدِ مِنْ أَلْمَاطِهَا عَنْزُ^(١٣)

= بالأكلة : منازل الآرام ، أو الأقام ، أي الحساوات المختزل بن . والآرام ، يمثلها الأريام : جمع رُم (بكر فسكون) : وهو أظني (أي الفزال) : الخالص البيضاء . وتشبه به الحناء من النساء في جمال الجيد والعينين ، والرشاقة ، ولطف الحركة ، وحسن التثني . وتطيف بها : تحيط بها : والأسد : جمع أسد ، ويضرب به المثل في القوة والجرأة ، ويشبه به الرجل القوى الشجاع . وإطانة الآساد بالأكلة والآرام : كناية عن مناعة هؤلاء الحسان ، وبإلانة أهلن في حمايتهن ، وصعوبة وصول عشاقهن إليهن . وبرائن السباع والطير الصائدة : عابها : وهي بمنزلة الأظفار من الإنسان . واحدا « برن » (بوزن بُرغم) . والمطية : الرياح المنسوبة إلى الخط : وهو موضع ببلاد البحرين ، تباع فيه الرياح ، وتنبس إليه . واحدا المظي . وريح لدن (بوزن سهل) : وريح لدان (بوزن صيما) ولدن (بضم فسكون ، وضم الدال في مثل هذه الكلمة إتياع لضمه اللام قبلها) : أي فيها لين وروية . والدانة والبدونة من الصفات المستحسنة في الرياح .

في البيت السابق قال : إن له أرباً يصعب الوصول إليه . وفي هذا البيت تفصيل لهذا الإجمال : فأريه لقاء حسان كالآرام . محببات ، يحمنن بالسلاح رجال شجيمان أولو قوة ، وأولو بأس شديد .

(١١) « من » في أول البيت : بيانية ، فأبدعها وهو « كل حوراء » بيان لما قبلها ، وهو « آرام » . وحوراء : أي فتاة حوراء : صفة من الحور (بوزن الطرب) : وهو شدة بهاض بهاض العين ، مع شدة سواد سوادها ، مع استدارة حلقها ، ورقعة جفونها ، وأبيضاض ما حولها . أو شدة « بياضها وسوادها في شدة بياض الجسد » . والفعل من باب طرب) . والحوراء من النساء : البيضاء . والجميع حور (بضم فسكون) . قيل : ولا يكون حور العين إلا مع بياض البشرة . والظني : الفزال ، وتشبه حسان النساء بالظباء . وشجاء (من باب عدا) : أهمة ، وأطربه ، وشغل باله . واللهو : مصدرا بالفتح (من باب عدا) : أي أوسع به ، وأهزم . بالندن : اللهو ، واللهب .

العابد مقبل على عبادة الله تعالى ، مشتغل بها ، منصرف عن غيرها ، يمتد ما يتناقصها . والحور العين اللاتي شبههن الشاعر بالآرام بهارات الحسن ، فالحلقات الجمال ، ساحرات البهون ، لو نظرت إحداهن إلى حابه لفتته ، ولتتهته ، وسرقتته من النبادة والطامة . يكنى الشاعر بهذا كله عن فائق حسين ، وسحر نظراتهن ، وشدة تأثيرهن فيمن يراهن ، ولو كان من المياد الزماد .

(١٢) الراح : الغمر . ونشوتها (بتثنية النون) : سكرتها . والمطاطها : نظراتها : أي نظرات الحور اللاتي يتنزل بهن . ولطفه ، ولطف إليه (من باب قطع) : نظر إليه مؤخر عنه . ومن كلامهم « فتته أخطاهو ولطفانها . والأثر : العلامة والأمانة . وأثر الشيء : بقيته ، وما بعده في غيره . وجمعه آثار . والمآذر : جمع مؤذر (بضم الذال وتحتها) : وهو ولد البقرة الوحشية . والكلمة فارسية . وتشبه المرأة الحناء بالبقرة الوحشية في جمال العينين ، وحسن اتساعهما . والندن : جمع غنة (بوزن قلعة) : وهي صوت رخيم يخرج من الحياشوم . وفي تزيين الظني ونحوه غنة : وهي تزيين في صوته من نحو الحياشيم ، بون =

دَقَّتْ، وَجَلَّتْ، وَلَا تَتْ، وَهِيَ قَائِيَةٌ كَذَلِكَ حَدُّ الْمَوَاضِي لَيْنٌ خَشِنٌ (١٣)
 طَوَتْ بَيْنَ النَّوَى عَنَى بُدُورٌ دَجِي لَا يَسْتَتِيحُنَّ لِعَيْنِي بَعْدَهَا سَنُنُ (١٤)
 أَتَبَعْتُهُمْ نَظَرَاتٍ كُلَّمَا بَلَغَتْ أُخْرَى الْحُمُولِ نَظَرْنَا مَدَمْعٌ هَتُنُ (١٥)

== من كَفَسَ الألف .

فهو بنظرات الحور ، وليرات أصواتهن ، قائلا : إنهن هذه النظرات والبررات يستهوين العشاق ، ويلجئن بالباهج ، كالخمر تسكر شاربها ، ويغن الجاذر والظباء تطرب مستمعها . ثم بالغ ، فقلب التشبيه ، فقال : في سكرات الخمر آثار من خطائهن ، وفي غن الجاذر مشابه من رعاة الغافلين . وقد أسلفنا أن هذا التزلزل في حقيقته تصوير دقيق يبلغ لما يكابده في غربته ونفاه من الوجد والشرق والحنين إلى أهله وصحبه ووطنه .

(١٣) دَقَّتْ : رَقَّتْ : من الدقة والرقّة : وهما خلاف الضخامة والشفافة والغلظ والصلابة . وقابل « دَقَّتْ » : ضمير مستتر يعود على : الأرام في البيت العاشر . وجَلَّتْ : عظمت : وهي نقيض « دَقَّتْ » . ولأن النوى : سهل ، وأنقاد ، فهو لين : أي سهل مرن . وقاسية : اسم فاعل من القسوة : وهي الغلظ ، والصلابة ، والشدّة في كل شيء . وقلب قاس : جامد غير رحيم . وحسد كل شيء : طريقه الرقيق الحاد القاطع . وسيف ماض : حاد ، سريع القطع . وسيف ماض : ويزاد بمفعولة الحد : حده ، وبمضاه : وسرعة قطعه . وليته : مروّته : وهو ضد المشرّفة .

تزلزل في البيت العاشر بالحسان المحببات ، وشبههن بالأرام ، وشكا منا متعهن ، وتمسّر الوصول إليهن . ثم وصفهن في هذا البيت بالدقة والرقّة واللين ، يريد دقة الشعور ، ورقّة الطبع ، ولين الجانبين . وفيهن مع هذا كله عظمة نهجيّة ، وجلال ، وعشرّفة وغلظة وقساوة على العاشق الصبّ المستهام : شأنين في هذا كله شأن السيوف الموضي : فهي مع ليانها ومروّنتها حادة قاطعة .

(١٤) طوى الشيء (من باب وى) : ضم بعضه على بعض ، أو لفّ بعضه فوق بعض . والعلوّ : خلاف البسط . والنوى : البعد ، والفرقة . وهي مؤنثة . وطوى النوى عني : شبيته وأخفّته . وبين : أي بالأرام : أي بطيّهن وإيمانهن . والبدور : جمع البدر : وهو القمر ليلة تمامه واكتماله في منتصف الشهر القمري . والدجى : جمع دجبة : وهي الظلمة (بضم فسكون فهما) . ولا يستيتن : لا يظهر ، ولا يتضح . وبمدها : أي بمد النوى ، أو بمد بدور الدجى : أي بمد فرقها وبمدها ، وفيهاها . وسنن الطريق (مثلثة السين ، ويضمّتين) : نهجه وجهته .

شبههن بالأقمار المكتملة ، تشر الضياء ، وتبدّد الظلمات ، وتبيّث الارتياح والطمأنينة ، والبهجة والانتشراح : فلما طوين النوى عنه أظلمت الدنيا في وجهه ، واللتوت عليه الأمور ، واستبهمت أمامه الطرقات .

(١٥) أتيت الشيء الذي إتباعاً : ألحقته به ، وجعلته تابعا له . وأتبعتهم نظرائ : أي أرسلت نظرائ إليهم في أثناء الرحيل ، فهي تتبهم وتلتهم ، وتمير في إثرهم . ويلاحظ أن الشاعر استخدم في البيت السابق ضمير جماعة الإناث «هن» ، وأعادته على الحور في البيت الحادى عشر : «من كل حوراء» =

يَا رَاحِلِينَ وَفِي أَحْضَاجِهِمْ قَمَرٌ يَكَادُ يَعْجُدُّ مِنْ حُسْنِهِ الْوُثْنُ (١٦)
مُنُوا عَلَى بَوَصْلِ أَمْتَعِيدُ بِهِ مِنْ مُهْجَتِي رَمَقًا يَحْيَا بِهِ الْبَلَدُ (١٧)

— أول «الآرام» في البيت الماشر، أي البدور، أو الليزر الحسن اللاذق تقول جن. وفي هذا البيت والآيات التالية استخدم شاعر الذكر المقلا «أَتَبِعْتُمْ» «يَا رَاحِلِينَ» وفي أحضاجهم قمر. . . وقد أسلفنا أن التزل في هذه القصيدة ونظائرها ليس إلخ قصوراً بل يندرج تحتها بطلته ودياره، وحينئذ إن من فارقهم من أهله وصحبته. لقد اشتد به الوجد في مناه، فجعل ينظم هذه الأغاني الباكية المبكية، الشجيرة المشجية. والآخرى: الأخيرة. وضعا الأول، والحمل (بضم الحاء): جمع حمل (بكسر فسكون، أو بفتح فسكون): وهو الموجد. أو الجير عليه الموجد: وهو أداة ذات قبة، أو شبه بيت مكعب، يوضع على ظهر الجمل؛ لتركب فيه النساء. وثانها: صرفها «وردها» (وبابه ردى): أي ثنى النظرات، وردها، وسحبها. والمدح: مسيل النعم. أو مجتصع النعم في نواحي العين. ويراد به النعم. وجمع المدح مداح. والجمع هو المراد هنا: أي مدوح هن (بضمين): جمع هنون (بوزن صبور): أي غزير، منصف، محتاج. يقال: دس هنون، ودموح هنون.

وفي هذا البيت صورة بدوية لحوق من مواقف الوداع، شديد التأثير والتأثير في النفوس؛ فالشاعر يجع من فراقهم وفراقهم من أهله وأحبائه بنظرات حبه ووجده، وكلما بلغت نظراته أغريبات الرواحل والموادج ارتدت إليه يندرج غزيرة تهمل هلالاً.

(١٦) الراحلين: جمع راحل: اسم فاعل من رحل من البلد (من باب منح): أي ارتحل منها، وسار، ونفى. وفاء الراحلين هنا يتم حل الوجد والحسرة، والأسى، والصباية. والواو بعده: أو الحال. والجملة بعدها حالية: والأحداج: جمع الحدج (بكسر فسكون): وهو مركب من مراكب النساء كالموادج، والمهفة. و«من» في الشطر الثاني: تمليكية: أي يمهده الوثن لحسته، أو يسبق حسه، أو من أجل حسبه. والوثن: البنتال الذي يمد: يكون من الحجر، أو الخشب، أو النحاس، أو الفضة، أو غير ذلك. والوثنين: عبدة الأوثان.

نادى الذين فارقوه، وأرجعوا عنه نداء المتعلق بهم، المتحسر على فراقهم. ومخصر بوجوده وتحسره خلة منهم حسنه كالقصر. ثم بالغ في تصوير حسنها، فقال: إن الوثن — وهو مديد — يكاد يهبها لفرط جمالها.

ومعنى الشطر الثاني — في غير مبالغة — أن منزلة هذه الحبيبة في قلبه أعظم من منزلة الوثن في قلب الوثن. ولا حظ أن الشاعر ما زال مولماً بالصورة البدوية، أو العربية القديمة؛ فالحمل، والأحداج، والموادج، والرواحل، والمهفات كلها من أدوات العرب الرحلى، ويركب نسايتهم في الأسفار والتفتلات، وما احتادوا تغييره المرأة من الصيانة والحجاب.

(١٧) «من» عليه بكذا (من باب رد): أنهم به عليه. واليوصل: ضد الحجر: معصو وصله (من باب وعد). والمهجة: الروح والنفس. واليرق (بفتحين): بقية الروح. وبدن الإنسان: جسده. ديران البارودي: ٢

أَوْ فَاسْمَحُوا لِي بِوَعْدِي إِنَّ وَتَّ صِلَةً
لَمْ أَلْقَ مِنْ بَعْدِكُمْ يَوْمًا أَسْرُ بِهِ
يَا حَبِيرةَ الْحَيِّ ! مَالِي لَا أَنَالُ بِكُمْ
فَالْوَعْدُ مِنْكُمْ يَطِيبُ الْعَيْشَ مُقْتَرَنُ (١٨)
كَأَنَّ كُلَّ سُورٍ بَعْدَكُمْ حَزَنُ (١٩)
مَعُونَةٌ ؛ وَبِكُمْ فِي النَّاسِ يُعْتَوْنَ ؟ (٢٠)

== في البيت السابق نادى الراطلين عنه نداء الواجد بهم ، المتحسر على فراقهم ، وفؤده بالقمر الذي في أحدا جهنم . وفي هذا البيت اشتدت به لوعة الحبران حتى أشق على الحلاك ؛ فطلب إليهم أن يمتنوا عليه بوصال يمهده إلى جسده الحياة بإعادة البقية القليلة الباقية من رويحه المهلك في سبيل الحب والفرام .

(١٨) سمح له بكلذا (كفتح) : جاد ، وأعطى . أو وافق على ما أريد منه . ويراد بالوعد : وعد الوصال . وظله الوصل ، والصلة . وولت : فترت ، وضغفت . والمراد عزت وصعبت . والعيش : المعيشة والحياة . وطيب العيش : لذته وحلاوته . أو حسنه وجوده . أو زكاته وطهارته . ومقترن : متصل : أي وعدم بوصاله مقترن بطيب عيشه : أي يطيب عيشه ، ويهدأ باله ، ويهتأ حاله إذا صدره بالوصال ، ومنؤه بالإقبال .

في هذا البيت والذي قبله طلب إليهم الوصال الذي يمهده إلى جسده الروح والحياة ، فإن تيسر وتيسر قنع بوعده الوصال ؛ فقد ينشأ أمله ، ويهتئ باله ، ويطيب به حياته :

أَطَّلَ النَّفْسَ بِالْأَمَالِ أَوْجَهَا مَا أَضْيَقَ الْعَيْشَ أَوَّلَا قِسْمَةَ الْأَمَلِ !

(١٩) من بعدكم : أي من بعد فراقكم . وأخطاب الراطلين .

فارق أحبائه وفارقوه ، فافترق شمله ، وصابت بعدهم أيامه ، وزايله المرح والسرور ، ولازمه الغم والشجن . وتشبيه السرور بالخزن في الشطر الثاني : معناه أنهما قد تشابها وتشاكلا ، واختلطا ، والتبسا عليه ؛ حتى أصبح لا يميز أحدهما من الآخر ، بمعنى أن أمره كله أصبح بعدهم همسا وضعا ؛ وشجنا وسزنا . وقد تكون " كأن " للتعقيق ، وليست للتشبيه : أي فإن كل ما يبيت في نفوس الناس الفرح والسرور يثير في نفس القلق والشجر ، والغم والغم ، بعد أن حرموا النهر وصلحهم ، وفرق بين وبينكم .

(٢٠) حَبِيرة : جمع جار : وهو المهاجرون في السكن . والجار أيضا : الحليف ، والناصر ، والمجير . والحي : القبيلة من العرب . وأجمع أحياء . ويا حَبِيرةَ الْحَيِّ : أي يا من يجاورون حَيًّا . أو يا من يجاوروه ويصترفونه . أو يا حَبِيرةَ من حَيًّا : أي من أهلنا وبني بطننا . ومثل هذا النداء : أسلوب عربي قديم . والشاعر هنا يستجير كل من يرق له ، ويرق لحاله ، ويستطيع لإنجاده وبصرته . والاستظهار في البيت : « مَالِي لَا أَنَالُ بِكُمْ مَعُونَةٌ » : معناه التصعب ، أو الإنكار والاستهجان ؛ فهو يستجيب من قديمهم عن معونته ، والوفاء بحق الجوار . أو هو ينكر هذا القعود ، ويستعجه منهم . ولا أَنَالُ بِكُمْ : أي لا أَنَالُ مِنْكُمْ . والمهونة ، والمعن ، والإعانة ، النصرة ، والمساعدة . والواو في الشطر الثاني : أو الحال . والجملته بعدها حالية . وفي الناس : أي فيها يصيب الناس من الشدائد والأزمات . وقد تكون « في » : بمعنى « من » : أي وبأشكالكم من الناس يعتون : أي يستمان . وتقديم الحار والمجرور هنا يفيد القصر . والذي في القاموس وغيره : تماولوا ، واعتنوا : أي أعان بعضهم بعضاً .

مَاذَا عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ أَهْلُ بَادِرَةٍ إِذَا تَرَنْمَ فِيكُمْ شَاعِرٌ فُطِنُ؟^(٢١)
أَفِي السَّوِيَّةِ أَنْ يَبْكِي الْحَمَامُ، وَلَا يَبْكِي عَلَى لُفُوهِ ذُو لَوْعَةٍ ضَمِنُ؟^(٢٢)

== في البيت السابع عشر ، والثامن عشر اتجه الشاعر بخطابه إلى أحبابه مقتنياً عليهم الوصال ، أو البعد بالوصال . وفي البيت التاسع عشر قال : إن السرور فارقه بفراقهم ، ولازبه الأذى والحزن ببعدهم . وفي هذا البيت ناداهم مستنجداً مستعيناً . أو هو قد انتقل إلى فناء من يستطيرون إنقاذه ، واستنجد من يستنجدهم الناس في الشدائد والملمات ، متسجياً ، أو محتاجاً ، أو منكراً قموهم عن إبعاده وبم أهل شهامة ونجدة . وفي الشطر الثاني معنى الحزن والتعجب والحسرة على تلبية فداءه . وقد أسلفنا أن هذه الأبيات وأشغالها ظاهرها الغزل ، أو النسيب ، أو التشبيب ، وحقيقتها التفتي بوطنه ودياره ، والحنين إلى أهله وأحبابه ، وتغنى السودة لإيهم ، واحتجاج شمله بهم .

(٢١) الاستغناء في أول البيت :- معناه التفتي : أي لا تفرحوا عليكم ، وإن يلوصكم أحد . أو لن يصيبكم أذى . والوارو : واو الحال . والجملة الاسمية بعدها : جملة حالية . وأهل بادية : أي أهل نجدة ، وأصحاب موقعة . ويبدو إلى الخير : سارع إليه . والبادرة في الأصل : الغفصة السريعة ، وما يذكر من الغائب عند حديثه وفرضه . وترنم : رجس صوته ، وطرب به ، وتغنى . وفطن (بكسر الظاء وضمة) : ذو فطنة (بكسر فسكون) : ذي الفهم ، والخلق ، والمهارة ، وجودة استعداد الذهن لإدراك ما يريد عليه .

في البيت السابق نادى جيرة الحى مستعيناً بهم . وفي هذا البيت أنوه بجميعةهم ، وسرعة غضبهم لمن يستجبرهم . وفي أن يصيبهم حرج أو سوء إذا استمعوا لشاعر فطون ، يفتنى فيهم بشعره ، ويرد الحنين إلى أهله ووطنه . وفي البيت فخر بقطائعه . ولعله يقصد بمثل هذا الشعر تحريض الأحرار من بني وطنه على الغضب له ولأشغاله ، والمطالبة بملك أسارهم ، وإعادتهم إلى وطنهم .

(٢٢) الاستغناء في أول البيت : معناه التفتي : أي لا يستويان . أو ليس من العدل والإنصاف . والسوية : العدل والتسوية ، أو الاستواء والاحتدال . ويراد بكاء الحمام : سجهه وهديره وفؤاحه . والإناف (بكسر فسكون) : والأليف ، والمألوف : الحبيب ، والصديق ، والمؤانس : من ألفه (من باب علم) : أي أنس به ، وأراح له ، وأحبه . ويراد بالألف هنا : الزمان ، والأهل ، والصاحب . والقيمة (بفتح فسكون) : حرقه ألم ، والحزن ، أو حرقه الشوق والحب ، أو نحوهما . ولاعه الحب ونحوه (من باب قال) : أحرقه وأغشاه . وضن : زين (بفتح فكسر فيما) : أمرى مرض طال مرضه ، ولازته عظمته : من الضمامة والزمالة . وفي العلة الطويلة المزممة : والمرضى الضامر المزلة . ويراد به هنا : حلة السيد وأحلب ، والشوق والحنين . ويلاحظ أن البارودي وصفه ليشوا في مقامهم سبعة عشر عاماً ، أو تزيد . وبعضهم قضى نحبه في المنفى .

والمنفى : ليس من العدل أن يطلق الحمام في بكائه وفؤاحه ، ويستمتع الناس لسجهه وهديره ، ولا يسمح لمثل أن يترنم باكياً على من حبل بينه وبينهم من أهله وألفائه ؛ ففلاحه الشجر والرياح ، وأبكاه الفراق والبعد . وبدليل الحمام صوته الطيب ، وبكاهه الشاعر في مقامه صدى لما يضاهيه من لوائح الشوق والحنين ، وأوصاب التفتي والتشريد .

يَا حَبْلًا مِصْرُ لَوَدَامَتْ مَوَدَّتَهَا وَهَلْ يَكُونُ لِحَى فِي الْوَرَى سَكْنُ (٢٣)
 تَاللهِ مَا فَارَقَتْهَا النَّفْسُ عَنْ مَلِكٍ وَإِنَّمَا هِيَ أَيَّامٌ لَهَا لِحْنُ (٢٤)
 فَلَا يَسُرُّ عِدَائِي مَا بُلِيَتْ بِهِ فَسَوْفَ تَقْنَى وَيَبْقَى ذِكْرِي الْحَسَنُ (٢٥)

(٢٣) «يا حبلًا» : «يا» : حرف نداء ، والمنداء محذوف . أو هي حرف تنبيه . و «حبلًا» مصر : أسلوب مدح . و «لو» : حرف تقدير ، إذا دخلت على ثبوتين جعلتهما منفيين . أو هي حرف يفيد التخييل . والمودة : المحبة . والشرط : الثاني : تذييل جار مجرى المثل ، مؤكدة لحى الشرط الأول ، وهو زوال مودة مصر وانقطاعها بالنفي والإبعاد . والاستفهام في أوله : معناه النفي : أي وإن يكون يوم على في الوري سكن . والحى : صفة من الحياة . وضده الموت . والوري : الخلق والناس . والسكن : كل ما سكنت إليه : أي استرحت إليه ، وألفته ، واستأنست به . ويراد بالسكن هنا : الراحة ، والطمأنينة ، واجتماع الشمل ، ورياء الحال ، وهناء الحال .

في الشرط الأول مدح مصر وطنه الحبيب ، وأشار إلى أن نفيه منها ، وإبعادها عنها قد حرمه مودتها ، ونفى لو دامت له المودة . ثم عزى نفسه بالشرط الثاني قائلاً : إن الناس ممرضون مثل ما ابتلى به ، وإنه لا سبيل إلى دوام الاستقرار ورياء الحال في هذه الحياة .

(٢٤) الإيـن (بكسر ففتح) : جمع إيـنة (بكسر فسكون) : وهي الحفدة ، والضغن . ومن كلامهم : «إن الإيـن تجرأ» أي تجلب ألبالا والرزايا والآفات . وقد يراد بإيـن الأيام : ضغائن أهل الدهر ، وشرار الناس الذين انطلقوا للحقد والضغينة ، فتكلموا بالمجاهدين الأحرار .

يقول : إنه لم يفارق مصر عن سامة وضجر ، وإنما أبعدته عنها صروف الدهر ، وضغائن الزمان ، ويحزن اليالي والأيام . يشير بهذا إلى محنة تجريده وتشريده ، ونفيه وإبعاده عن وطنه في أعقاب الثورة العربية . وقد أكد قوله بالقسم الذي صدر به البيت .

(٢٥) «لا» في أول البيت : فاهية . والمضارع بعدها مجزوم بها : فالشاعر ينهى أعداده عن السرور بما بل به . ويراد باليـنى : الترويح ، أو التيسير . أو هي فاهية ، والفعل بعدها منفي مرفوع : بمعنى أن ما بل به الشاعر لا ينبغي أن يسر أعداده . والمدة (بضم الميم) : جمع المادي : بمعنى المدو ، والمعدى ، والمادي . ويلاه (من باب عدا) : جربه ، واستمته ، واختبره . وما بل به الشاعر : ما أصابه من النفي والإبعاد ، والبلاء والاضطهاد . وفي الأصل المخطوط : «سوف يفنوا» . وصحة الإعراب : «سوف يفنون» والتعديل الذي ذهبنا إليه : «سوف تقنى» يقيم الإعراب . وقاعله ضمير «عدائي» . أو هي : «سوف نقى» بنون التكميل ومعها غيره : أي سوف يصيبني ويصيبهم القناء والهلاك ، ويبقى من بعدى ذكرى الحسن . أو هي : «يفنى» أي سوف يفنى البلاء الذي بليت به : أي ينكشف ، ويزول ، ويذهب . والذكر (بكسر فسكون) : الصيت ، والثناء ، والشرف ، والملاء ، والشيعة الحسنة . والحسن : تأكيد لحسن الذكر .

عَلُّوا ابْتِمَادِي إِغْفَالًا لِمَنْفَبِي
وَذَاكَ عِزُّ لَهَا لَوْ أَنَّهُمْ فَطَنُوا^(٢٦)
فَإِنْ أَكُنْ سِرْتُ عَنْ أَهْلِي وَعَنْ وَطَنِي
فَالنَّاسُ أَهْلٌ، وَكُلُّ الْأَرْضِ لِي وَطَنٌ^(٢٧)
لَا يَطْمُسُ الْجَهْلُ مَا أَتَقَبْتُ مِنْ شَرَفٍ
وَكَيْفَ يَحْجُبُ نُورَ الْجَوْنَةِ الدُّخَانُ^(٢٨)

— فرح أعداء الشاعر بنفيه ، وسرم ما ابتل به ؛ فكبتهم ، وأحبط شامتهم بقوله في الشطر الثاني :
إنهم صائرون إلى العدم والفناء ، وإنه باقى محتلد ببناءة شأنه ، وسمو قدره ، مذكور بين الناس بالإطراء
وسنن الشناء . وفي البيت — مع هذا — تمزية لنفسه ، وضخ بهاء ذكره .

(٢٦) أغفل الشيء : إغفاله ؛ أهله ، وتركه . وأغفله من الشيء : جهله يغفل عنه : أي جهله
ويتركه . أو يسره عنه . وينساه . والمنقبة : المحمدة ، والمفسرة : والفعل الكرم المشهور . ومنقاب
الإنسان : ما عرف به من الخصال الحميدة ، والأخلاق الكريمة . و « ذاك » : إشارة إلى الابتعاد .
والنر والوزن : القوة والفطنة : مصدر عز (كفل) : أي قوى ، وبرى من اللذل . ولها : أي المنقبة .
وطعن للأمر (كفرح ، ونسر ، وكرم) : تبيته ، وطعمه ، وأدركه .

ظن أعداء الشاعر أن ابتعاده عن وطنه سوف ينسى الناس مناقبه ، ويظن صيته . وهو ظن خاطئ ،
قائم على قلة الفطنة ؛ وضحف الإدراك ؛ فالإبتعاد ، والنسي ، والبلايا تضاعف محامده وتطبع فضله ، وتقلد
ذكره ، وتنبه الغافلين على مفاخره ومكرماته ، وتقرن بالتمجيد والتعجيد وطنيته وتضحياته . وصلة هذا
البيت بالذي قبله واضحة وثيقة ؛ فالإبتعاد ، أو الإبتعاد عما يلى به الشاعر ، أي أصعب به ؛ ونكس .
ولصيته ومناقبه المزة والقوة ، والبقاء والخلود .

(٢٧) سار عنه (من باب باع) : فارقه ، وأبتد عنه .
سار الشاعر من أهله ووطنه مكروهاً مجبراً بحكم البنى والإبتعاد ؛ فمزى نفسه ، وهون شأنة أعدائه بمثل
هذا البيت ؛ قائلاً : إن الناس جميعاً في كل مكان أهله وشيعته ، وإن الأرض كلها وطنه وقره ،
ومأنسه وشواه .

(٢٨) طمس (من باب ضرب) : محاه ، وأزاله . ويقال : طمس النجم الكواكب ، أي حجب
ضوئها . وأتقب السراج : أضاءه . وأتقب النار : أبقيها وأذكأها . وشهاب ثابت : أي مضى . والشرف :
الرفعة ، والمجد ، وتلو المنزلة ؛ وسمو القدر . أو ما يندء المرء ، ويفخر به من المناقب والمآثر والمكرمات .
والاستفهام في أول الشطر الثاني : بمناته النسي . والمجوزة : الشمس . والدخن (يفتحان) : الدخان .
يقول : إن جهل الجلهاد ، وصفاة السفهاء لا تنال منه ، ولا تكاد تقوى على طمس ما أتقىه ، ورفع مناره
من المناقب ، والمآثر ، والأعمال اللامعة ، والمحسن الكيرة . والشطر الثاني يؤكد هذا المعنى ، وينهض بإزالته
كالحجة والدليل والبرهان ؛ فإن الدخان لا يكاد يحجب شيئاً من ضياء الشمس . وفي البيت فخر بالثاقب

قَدْ بَرَّعَ الْعِلْمُ أَقْوَامًا وَلَٰنَ تَرَبُّوا وَيَخْفِضُ الْجَهْلُ أَقْوَامًا وَلَٰنَ خَوَّنُوا^(٢٩)
 حَرْبٌ مِثْلُ لَهْ مِنْ فَضْلِهِ نَسَمٌ وَرُبَّ حَىٰ لَهْ مِنْ جَهْلِهِ سَكَنٌ^(٣٠)
 فَلَا تَفْرَنْكَ أَشْبَاهُ تَمُرٍ بِهَا هِنَاهَاتٌ ، مَا كُلُّ طَرَفٍ سَابِقٌ أَرَنْ^(٣١)

= المعنى : من مجده ، وكرمه ، وعلو قدره . ولعله يرشح بحدائقه الذين حاولوا التشكيك في وطنيته وإخلاصه ،
 وشرف مقاصده ، كما حاولوا التشهير بالثورة العربية ، وأهدأها النبيلة ، وحملوا على قادتها حملة عنيفة
 ظالمة بعد الغزوة والإخفاق والاستسلام : وسبوا الأبيات الآتية تجرى مجرى الحكم والأمثال ،
 ولا يصعب ربطها بما قبلها .

(٢٩) « قد » : حرف يفيد التحقيق ، أو التأكيد في مثل هذا المقام . و « إن » في شطري
 البيت مجردة من معنى الشرط ، فالعلم يرفع العلماء مع متر بهم ، والجهل يخفض الجاهل مع اختزالهم المال .
 وقرب الربيل (من باب تب) : اختقر ، كأنه لصق بالتراب . وغزن المال (من باب نصر) : أحرزه ،
 وجسمه ، وأخضره ، وجعله في الخزانة .
 يقول : بالعلم يرتفع قدر المرء ولو كان فقيراً . والجهل يخفض الجاهل ، ويؤذي به
 ولو كان ثرياً كثير المال .

(٣٠) « رب » : حرف غافق ، يختص بالنكرة ، ويفيد التأكيد في شطري هذا البيت .
 والفضل والفضيلة : الخير والخمسة . وهدما التنص والتقيصة . ومن الفضل : العلم ، والعمل الصالح ،
 وإتقان الكريم ، والنسب (بفتحين) : الروح ، أو نفسها . ويراد به هنا : الحياة الطيبة الكريمة .
 والكفن : أثواب يلف فيها الميت .

والمنى : أن الفضيلة ، والخير ، والعلم ، والعمل الصالح يحى الإنسان حياة طيبة كريمة ، أو يخلد له
 بعد موته الذكر ، وحسن الثناء . والجهل يميته ، ويضلّه ، ويسقطه ، ويؤذي به . ويحيط قدره . وهذا
 البيت والذي قبله يدران حول فكرة واحدة هي تحقير الجهل ، والتفكير منه . وتكريم العلم والفضل
 والتفكير لهما .

(٣١) هره (من باب رد) : مدحه ، وأطمعه بالباطل . والأشياء : جميع شيء (بكسر فسكون)
 أو بفتحين) : وهو المثل والنظير . وهيناه : اسم فعل ماض : ممتاز به ، فهي كلمة تجميد للتشابه ،
 أو للاهتمام به . والطرف (بكسر فسكون) : الكريم من الخيل . وأرن : مرع ، ليعط (ولعله
 من باب فرح) .

والمنى : أن الناس ليسوا سواء ، فلا تتطوع بما تشاهد من ظواهرهم . والعطر الثاقب قليل يؤكده هذا
 المعنى ، لأن الخيل معشاة ، ولكن ليس كل فرس نشيطاً مرعاً ، جواداً سيّافاً . وصلة هذا البيت بالبيتين
 السابقين واضحة : فكل الناس علماء وجهلاء ، وأغنياء وفقراء ، ومنهم المتصل بالفضيلة والخير ، والمحصرم
 بالارذيلة والشر ، والمحنى في إحصائه وفضله ، والمكفّن بمؤله وجهله .

فَلَا مَلَامَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ حَدَثٍ فَكُنَّا بِيَدِ الْأَقْدَارِ مُرْتَهَنُ (٣٢)
 لَوْ كَانَ لِلْمَرْءِ حُكْمٌ فِي تَصَرُّفِهِ لَعَاشَ حُرًّا ، وَلَمْ تَعْلُقْ بِهِ الْحَبَنُ (٣٣)
 وَآيُ حَيٍّ - وَإِنْ طَالَتْ مَلَائِكَةُ - يَبْقَى ؟ وَآيُ عَزِيزٍ لَيْسَ يُحْتَمَنُ (٣٤)
 كُلُّ أَمْرٍ عَرِضٌ لِللَّهِ يَرُشِّقُهُ بِأَنَّهُمْ لَا تَقَى أَمْثَالَهَا الْمُجَنُّ (٣٥)

(٣٢) الملام ، والملامة ، والوم : العذل ، والعتاب . وأحدث (بفتحين) : الأمر الحادث المنكر ، غير المعتاد . وأحداث الدهر : نوابه ومصائبه . والأقدار : جميع القدر : (وزن سبب وأسباب) : وهو ما يقدره الله تعالى : أي يقضى به ويحكم . ويرتبن (بصيغة اسم المفعول) : مرفوض ، محجس ، معقد .

والمنى : إذا كان الناس يلوون أحداث الزمان لأن لا أربها ، لأنها من الأقدار الجارية على الإنسان ، وكل امرئ مرتين بها ، هدف لها ، ولا سبيل إلى تقيها . ولعله يشير بمثل هذا البيت إلى أحداث الثورة العربية ومصائبها . والفرض التعزية ، وتخفيف أثر الهوى ، وتوبيخ الناس على احتيالها ، والتجملد لها . والأبيات الآتية ترد هذا المعنى وتؤكد .

(٣٣) الحكم : مصدر حكم (كنس) : أي قضى وفصل . ويطلق الحكم على الولاية ، والتمسك ، والسلطان . ويعرف في الأمر تصرفاً : أي احتال ، وتقلب فيه . وعلق به الشيء (من باب علق) : نسب فيه ، واستمسك ، وعلق . وألحق : جمع حنة (بكر فكين) : وهي ما يمتحن به الإنسان من الهلايا والمحن . والأبيات والآيات .

في البيت السابق : أن كل امرئ مرتين بيد الأقدار . وهذا البيت يرد هذا المعنى ويؤكد ، وليس للإنسان حكم في تصرفه ، ولهذا تقيدت حريته ، وأصابته النوايب ، ولو استطاع أن يجرى في أموره كلها على إرادته وسلطانه لعاش حُرًّا عزيزاً معافى من المحن والأرزاء .

(٣٤) الاستطعام في شطرى البيت : معناه النفي : ليس على من الخلق بقاء ولو طالت سلامته ، ولا دوام لعزة عزيز . وأمتن الثوب وظهر امتثالاً : ابتذله ، ولم يصنه . وأمتته : استعمله لسمته : أي لعلل بالخساسة . والامتنان هنا يقابل العزة : ففي القوم ، أو الإعرال ، والتمكريم ، والتميز . والمجتنب (بصيغة اسم المفعول) يقابل العزيز القوي ، النقيس الكريم ، لكل عزيز إلى امتنان وإعزاز . وفي معنى الشطر الأول يلقب كعب بن لؤي بن أبي سلمى في قصيدته المشهورة :
 « بانت سعاد . . . »

كل ابن أبيي وإن طالت سلامته يوماً على آلة حديد محمول

(٣٥) الفرض : الهدف الذي يرى إليه . ورفقه بالليل (من باب قتل) : رماه . وألهمهم : جميع سببهم ، وهو صيد من غشيب يسوق في طريقه لعل يرى به من القوس . وألحق : جمع حنة (وزن

فَلْيَسْتَبِ الدَّهْرُ ، أَوْ تَسْكُنْ نَوَافِرَهُ فَلَسْتُ مِنْهُ عَلَى مَا فَاتَ أَخْزَنُ (٣٧)
غَيَّبْتُ عَمَّا يُبْهِنُ النَّفْسُ مِنْ عَرَضٍ فَمَا عَلَى لِحْيٍ فِي الْوَرَى مِنْ (٣٧)
لَكِنِّي بَيْنَ قَوْمٍ لَا خَلَقَ لَهُمْ إِنْ عَاقَلُوا غَدَرُوا ، أَوْ عَاشَرُوا دَهَنُوا (٣٨)

== قلته وظل : وهي كل ما وارك وركك من سلاح عدوك ، وكل ما استوتت به منه . ولا تق أمالها الجن :
لئ لا تق القوايات أمثال هذه الأسم .

والحق : أن الناس جميعاً أهداف لأحداث الدهر ، ويلابها الزمان ، لا يقبهم منها واق ،
ولا يذهبها ضم دافع .

(٣٩) شنبم : شغب عليهم ، وهم (كنع ، وفرج) : هج الشرح عليهم . ويراد بنوافر الدهر :
ثوراته وشروبه وبشغباته : جمع نافرة : اسم فاعل من فحر : بمعنى شرد وأبعد . أو بمعنى قلب وقهر :
وأخزن : أخون .

والحق : أنه صل ويلاب الدهر ، وتعرس بأفكات الزمان حتى أعتاد التجمله ، وأصبح لا يزال
شغب اليبالي وشرها ، ولا يمبأ بسكونها وموادعتها ، ولا يحزن حل ما فاته من متاع الدنيا ،
وهجة الحياة .

(٣٧) غنيت عن الشيء : استغنيت عنه ، ولم أحتاج إليه (وبابه رفض) . و « من » بمانية
والرفض : متاع الدنيا . ويراد بالحق : الإنسان . والورى : الخلق والناس . والمئن : جمع مئة (بكسر
الميم فيها) : وهي المارقة ، والصنعة ، والإعلم ، والإحسان . وصلة الشطر الثاني بالشطر الأول : أنه
إذا استغنى عن عرض الدنيا ، وزهد في سخطها ، فقد وفر لنفسه المزة والكرامة ، وصانها ما يحبها ، وهذا
يقتضيه أن يترفع عما في أيدي الناس ، فلا يكون لأحد منهم صنعة أو منة يمن بها عليه . وفي هذا المعنى
أو فيما يقرب منه يقول في إحدى قصائده البالية .

خلقت عيوفاً ، لا أرى لابن سرقة لدى يداً أغشى لها حين يفسب

وفي الأبيات الآتية شكوى وتذلل من تخبئاً عليه ، وأسأوا إليه .

(٣٨) القوم : الجماعة من الناس تجتمعهم جماعة يقومون لها . وأخلاق (بفتح الخاء) : ما اكتسبه
الإنسان من الفضيلة بخلقه . وقوم لا أخلاق لهم : أي مجردون من الفضائل ، موصوفون بالارذائل . أو ليس
لهم حظ من الخير ، أو ليست لهم رغبة فيه . وفي القرآن الكريم : « أولئك لا أخلاق لهم في الآخرة » الآية
رقم ٧٧ من سورة آل عمران : أي لا نصيب لهم في ثبم الآخرة ، وليس لهم حظ من ساداتها . وعاقده
حل ١٣ : عاهده ، ووائقه . وغدر فلاناً ، وغدر به (كقتل ، وضرب ، وسب) : غانه ، ونقض عهده .
بعاشره : خالطه وصاحبه . ودهن (من باب قتل) : نافع : أي أظهر خلاف ما يبين . ودهنه
(من باب قتل وقطع) : خدعه ، وختله ، وشفقه ، وأظهر له خلاف ما يضره .
وصهمه بالندر والخيانة ، ونقض العهد ، والتفاق ، واللفش ، والتخادع ، ومداغة معاشره ، والتجرد
من الخير والفضيلة .

يُخْفُونَ مِنْ حَسَدٍ مَا فِي نُفُوسِهِمْ وَيُظْهِرُونَ خِدَاعًا غَيْرَ مَا بَطَنُوا^(٣٩)
يَا لِلْحَمَةِ ! أَمَا فِي النَّاسِ مِنْ رَجُلٍ وَارَى الضَّمِيرَ ، لَهُ عَقْلٌ بِهِ يَزِنُ؟^(٤٠)
أَكُلُّ خَيْلٍ أَرَاهُ لَا وَقَاهُ لَهُ ؟ وَكُلُّ قَلْبٍ عَلَى الْيَوْمِ مُضْطَلِنٌ؟^(٤١)

(٣٩) خادعه بخادعة وخداعاً : ختله : أى أظهر له خلاف ما يخفيه ، وأراد به المكروه من حيث لا يعلم . ويطن الشيء (من باب دخل) : خفى ، واستتر . ويطن الأمر (من باب نصر) : عرف باطنه . واطنت إبطناً : ستره وأغفاه . والإبطان يقابل الإظهار . والفعل الرباعي هنا : « أبطن » أيقن من التلاقي : « يعطن » .

في البيت السابق جردهم من الخير والفضيلة ، ووسمهم بالفساد ، والخيانة ، ونقض العهد والميثاق ، وقال : إنهم يداهون حتى غلطاهم ومعاشرهم . وفي هذا البيت قال : إنهم حاسدون يكرهون النعمة عند المحسود ، ويتسبون زوالها عنه ، وانتقالها منه إليهم . وهم يخفون الحسد في نفوسهم ، أو يكتنون البغضاء بسبب الحسد . والظطر الثاني تكرير وترديد لمعنى النهن أو المداينة في نهاية البيت السابق ، فالمداهنين منافقون مخادعون يظهرون خلاف ما يضمرون .

(٤٠) « بالحماء » : أسلوب استغاثة : وهي نداء من يمين هل دفع شدة . والحماة مستعاث به ، مجرور بلام مفتوحة : جمع الحامي : اسم فاعل من حماه (من باب روى) : أى منعه ، ونصره ، ودفع عنه ، وأجاره . و « من » زائدة لتوكيد الكلام . والاستفهام : لفتنى . ووار : اسم فاعل من ورى الزند (من باب وى) : أى خرجت ناره . ووردت النار : انتقدت . والضمير : استعداد نفسى لإدراك الخبيث والطيب من الأعمال والأقوال والأفكار ، والتفرقة بينهما ، واستحصان الحسن ، واستنباح القبيح . وضمير وار : أى مثق : بمعنى مرهف ، أو قوي ، أو مستيقظ . وفي الأصل « ورى الضمير » وهو من أخطاء الناسخ .

استغاث الحماة ، واستنصر أهل الحبيبة والنجدة ، وتفى أن يجد في الناس رجلاً حتى الضمير ، مرهف الإحساس ، قوى الوجدان ، له عقل يزن به الأمور ، ويميز به الخبيث من الطيب ، ويعمله على الاستقامة والخير والبر والوفاء ، ويدفعه إلى إجابة المستجير ، وإغاثة الملهوف .

(٤١) الاستفهام في أول البيت يحمل معنى التنجيب والتحزن لكثرة الصحاب المجريدين من البر والوفاء ، وكثرة القلوب التي تحمل الضغن والحقد . و « كل » بالنصب والرفع . والأول مترجّع . والآخر (بكسر الهمزة وضمة) : الخليل ، والصديق ، والصاحب . ومضطفن : حاقدين ، شديد البغض ، يضمرون الضغينة ، ينطوى على الكراهية .

في هذا البيت وثلاثة أبيات قبله اشتدّ تبرّم الشاعر بمن لا خلق لم من مباشره بعد ما قاساه من دهائهم ، وغدرهم ، وخداعهم ، وحسدكم ، وما عرفه من هوى الضمائر ، وسوء المكر ، وقساد التقدير والتدبير ، فاستغاث بالحماة ذوي النخوة والنجدة ، وسأل في قلهف وتأسف : أليس في الناس رجلاً له =

تَغَيَّرَ النَّاسُ عَمَّا كُنْتُ أَهْلُهُ فَالْيَوْمَ لَا أَتَبُّ يُعْنَى ، وَلَا يُعْلَنُ (٢١)
 فَالْخَيْرُ مُنْقَبَضٌ ، وَالشَّرُّ مُنْسَبِطٌ وَالْجَهْلُ مُنْتَشِرٌ ، وَالْعِلْمُ مُنْدَفِعٌ (٢٢)
 لَمْ تَلَقَ مِنْهُمْ سَلِيمًا فِي مَوَدَّتِهِ كَأَنَّ كُلَّ امْرِئٍ فِي قَلْبِهِ دَخَنٌ (٢٣)
 طَوَّاهُمْ الْغُلَّ عَلَى الْقِدِّ ، وَانْتَشَرَتْ بِالْقُدْرِ بَيْنَهُمُ الْأَحْقَادُ وَالْدَمَنُ (٢٤)

= قلب يديه للشد ، وظل يزن به الأمور ، ويسير يتبع له القبح ، ويمسح الحسن ؟ وأوجبه وأوجبه أن كل من ظنهم أخلاء أصلياء تألوا عليه بعد الحق ، وتجرعوا من البر والطاء ، كما اضطفت عليه القلوب ، وانطوت على الحقد والبغضاء . والآيات الآتية تدور حول هذه المعاني والأفكار .

(٢٢) أعهده : أمرته (وبابه فهم) . والأدب : رياضة النفس - بالتعليم والتأديب - حل ما ينبغي . والجعل من الظن والنشر أو كل ما أنتجه العقل الإنساني من ضرور المعرفة . والظن (بكسر الفتح) : جمع فطنة (بكسر فسكون) : وهي الخلق ، والمهارة ، ووجوب استمداد الذهن لإدراك ما يرد عليه .

ومضى الشعر الفاني : أن أدب الأدب ، وطلاقة الفطن لا يكادان يصحانه اليوم من ضرور الناس وغدوم ودعائهم . أو المضى : أن الآداب والفطن لا قيمة لها ، ولا غناء فيها ، ولا تكاد تقوى على تقويم ما أخرج من الأمور ، وإصلاح ما فسد من الأخلاق والطبائع . أما ما طرأ على الناس من التغير والتبدل ، وما أصابهم من التحول والانحراف ، فإن الآيات الآتية تشرحه وتفصله .

(٢٣) منقبض : منطو ، متزور . ومنسبط : منتشر ، عمت . والالتباس : خلاف الانبساط والاتساع والانتشار . والدخن : استر وتوارى ، ظهر مثلف : مطاوع دفته : جمع ستره ورايه وأعفاه .
 (٢٤) سلامة المودة : صفاتها ، ولقاؤها ، وهراتها من التفاف والدعان والرياء . والدخن (بالمصحين) : الحقد ، وبغاد الباطن .

في البيت السابق أشار إلى بعض فواید التغير والانحراف في أهل زمانه ، أو ليهن بمنهم من الناس فقال : إن عيبر قليل ، ودرم غالب ، مع شعور الجهل ، وانطواء نور العلم . وفي هذا البيت قال : إن للرهيم مغفرة على الحقد والبغاد ، وودائعهم قائمة على الرياء والتفاد .

(٢٥) الغل (بكسر اللين) : الضلع ، والدخ ، والحقد الكامن ، والمدايرة المستترة ، والقد (بكسر القاف) : السير قد من الجلد (أي يغل) ويطلع . والندب : الخانة ، يغلض العهد . وصدء الطاء . والأحقاد : جمع حقد (بكسر فسكون) : مصدر حقد عليه (كغضب) : أي أصبر له المدايرة ، وتربص لفرصة الإيقاع به . والدمن : جمع دمنة (بكسر فسكون) : وهي الضلع ، وإضمار المدايرة والبغضاء . والحقد القديم الدائم الثابت في الصدر .

دام بالانطواء على الغل والنفس ، وإضمار المدايرة والبغضاء . وقال : إن الواحد منهم يترقب =

فَلَا صَلِيقَ يُرَامِي غَيْبٌ صَاحِبِهِ وَلَا رَفِيقٌ عَلَى الْأَسْرَارِ يُؤَمِّنُ^(٤٦)
 بَلَوْتُهُمْ ، فَسَمِعْتُ الْعَمِيشَ ، وَانْمَرَقْتُ نَفَقِي عَنِ النَّاسِ حَتَّى لَيْسَ لِي شَجَرٌ^(٤٧)
 حِينَ يَكُنْ قَاتِنِي مَا كُنْتُ أَمْلِكُهُ فَالْبَعْدُ عَنْهُمْ لِمَا أَتْلَفْتُهُ ثُمَّ^(٤٨)
 كَفَى بِحَرْبِ النَّوَى سَلَامًا نَجَوْتُ بِهِ وَزُبُّ مَخْشِيَةٍ فِي طَيْهَا أَمِنَ^(٤٩)

= يصاحبه فرصة الإيقاع به ؛ فإذا تهيأت له النفق عليه بالعدو والحاجة ؛ فانتشر فيما ساكن
 يهيمه من الحقد والفسن .

(٤٦) راحه مراعاة : حفظه ، وأبق عليه . ورامى غيب صاحبه : أبق حفظه في غيبته ،
 ظم يظنه ، ولم يبق إليه بوشاية ، أو سحابة ، أو نعمة ، أو مكيدة ، أو غيرها . ومن معاني الغيب :
 السر ؛ ومن هذا يكون الشطر الثاني تكملاً للشطر الأول .

في البيت الرابع والأربعين أن المحدث القائمة بين الناس أو بين من يمتنعهم الفاسد - غير سليمة ،
 أي كاذبة عادية ، وأن قلوبهم متطوية على الفساد والأحقاد . وهذا البيت تكرر ، أو شبه تكرر
 لهذا المعنى ؛ فالصديق لا يرامى غيب صديقه ؛ لأن الصداقة مبنية على الصدق ، قائمة على النفاق .
 والرفيق لا يلقن على أسرار رفيقه ؛ لأنها مراقبة المداخلة والنفس ، والحاجة والخلع .

(٤٧) بلاء (من باب عدا) : أعصره ، وامتنعته ، وجبر به . والعميش : المنيعة والحياة . والشجن :
 الحاجة الشاقة ، والجفيع شجون وأشجان .

يقول : إنه جرب من يمتنعهم من الناس ، فبرعته المتجارية ؛ ففسجهم ، وول العميش بينهم ،
 حائر البعد عنهم ، ولم يبق له حاجة إليهم . واليهتان الاكبان في هذا المعنى ، أو فيها يقرب منه .

(٤٨) أكله : أهلكه وأفناه .

إليه يشير إلى مصادرة أموال وأملأك ، ولفظه من ولغه في أحقاب الفورة الغرابية . ويقول : إنه وجد
 الراحة والطمانينة في بعده عن أولئك الذين لدهم في الأبيات السابقة ، وإن هذا البعد المريح لمن لما فقدته
 من ماله ومعايه . ولا ريب أنه يعمل هذا البيت يعزى لنفسه ، ويكتب الغامعين به .

(٤٩) النوى : البعد ، ومعى مظلة . والسلم (بكسر السين وقصها) : الصلح ، والسلام ،
 وعلف الحزب (بكسر ولفظ) . وفي القرآن الكريم : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » الآية رقم ٦١
 من سورة الأنفال . والأمن (بوزن الفرج) : الأمان ، والطمانينة .

والمنى : إذا كانت النوى حرباً ووبالاً حل من يسلها ، فقد كانت على الفاسد هرباً وسلاماً ؛
 إذ أخرجته من الآفات وفرروا الناس في مصر . والشطر الثاني دليل على جبري اللول ، مؤكداً لهذا المعنى ؛
 فالإنسان قد يظن ما يتلو على الأمن والسلامة ، ويصل إليه الطمانينة وروضاء البال .

لَعَلَّ مُرْنَةَ خَيْرٍ تَسْتَهْلُ عَلَى رَوْضِ الْأَمَانِي، فَيَحْيَا الْأَصْلُ وَالْفَنُّ (٥٠)،
وَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ بَلَكٌ وَعَاقِبَةٌ وَكَيْفَ يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ الزَّمَنُ؟ (٥١)

وَقَالَ يَذْكُرُ سَفَرَهُ مَعَ الْجُنْدِ الْمِصْرِيِّ إِلَى جَزِيرَةِ «أَفْرِيطَش» سَنَةَ
ثِنْتَيْنِ وَتِسْعَيْنِ وَمِائَتَيْنِ وَالْفَهِجِيَّةَ (١٢٨٢ هـ - ١٨٦٥ م) حِينَ خَرَجَ

(٥٠) المُرْنَةُ: السحابة تحمل الماء، وجمعها المُرْن (بضم فسكون). واستهل المطر استهلا : اشتد أنصباه مع صوت. والروض : جميع روضة : وهي أرض غضيرة بأنواع النبات. والأمانى (بالتحفيف والتشديد) : جميع الأمنية : وهي البقية (بضم فسكون) : أى ما يطلبه الإنسان، ويترقب فيه، ويأمله ويبتناه. والفنن (بفتح ن) : الفصن المستقيم من الشجرة. وأصل الشجرة : ما يقابل الفروع. ويراد بحياة الأصل والفنن : حياة الشجرة كلها : أصلها ، ساقها ، وفروعها ، وأغصانها : أى حياة الأمانى المشبهة بالرياح .

فتح الشاعر لفظ أبواب الأمل الحى القوي ، المضيء المشرق ، وتقابل بمقتبله على الرغم من شرم حاضره ؛ واستشعر الراحة والطمأنينة في رياض الأمانى ، وربما أن ينتهى الأمر بانفراج الكرب والبلاء ، واستهلال الخير والرخاء .

(٥١) بدء الشئ : أوله وطاقته . وعاقبته : آخره ونهايته . والاستفهام في الشعر الثاني معناه التنى . وحدثنان الزمن : حوادله ونوالبه ومصائبه .

والمعنى : أن الزمن يطرحه متقلب لا يقوم على حال ؛ فإذا كانت بداية أمره إمتاعاً ومعاصرة للبارودى وأمثاله ؛ فالأمل أن تكون عاقبة أمره موادة ومعاصرة . جرى هذا البيت والذي قبله بجرى الحكم والأمثال ، وبهما ختم الشاعر هذه التولية الطويلة ؛ فكانا مسك الختام .

• «أفريطش» وتسمى «كريت» و «كريد» و «جريد» : جزيرة مشهورة ببحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) تقع في الجنوب الشرقى من بلاد اليونان ، وتبلغ مساحتها ٣٢٣٥ ميلاً مربعاً ، وعدد سكانها (بإحصاء سنة ١٩٥١) ٦٢١٢٤ نسمة . احتلها الأتراك العثمانيون نحو قرنين ونصف قرن من الزمان (من سنة ١٦٤٥ إلى سنة ١٨٩٨) . وفي أثناء الحكم التركى احتقن كثير من أهاليها الذين الإسلامى ، ولا تزال فيها إلى اليوم بقى آثاره كالمساجد . ومن ثوراتها في وجه الحكم التركى : ثورة سنة (١٢٨٢ هـ - ١٨٦٥ م) التى شجعتها روسيا ، وساعدتها اليونان ؛ فأرسلت الدولة العثمانية جيشاً لإخمادها . وبث الشهيد إسماعيل من مصر نجدة عسكرية ، كان «عمود سائى البارودى» من ضباطها . ومن شعره وهو في تلك الحرب قصيدته الدالية التى مطلعها .

سرى البرق مصرغياً ، فأرقتنى وحسنى وأذكرنى ما لست أنساه من عهد

وهي منشورة في الجزء الأول من شرحنا لديوان البارودى « الدالية الرابعة » . وقد انتهت الثورة . -

سُكَّانَهَا عَنِ الطَّاعَةِ ، وَيُعَرِّضُ * بِأَشْيَاءِهِ فِي نَفْسِهِ ، وَيَتَشَوَّقُ إِلَى مَضَرِّ :

أَخَذَ الْكَرَى بِمَعَايِدِ الْأَجْفَانِ وَهَذَا السَّرَى بِأَعْنَةِ الْقُرْسَانِ^(١)
وَاللَّيْلُ مَنَشُورُ الذَّوَابِ ضَارِبٌ فَوْقَ الْمَتَالِيعِ وَالرَّبَا يَجْرَانِ^(٢)

= بمنح الجزيرة الثائرة بعض الامتيازات في المؤتمر الذي انعقد بباريس في ١٢ من جمادى الآخرة سنة ١٢٨٦ هـ الموافق ١٩ من سبتمبر سنة ١٨٦٩ م. وفي سنة ١٨٩٧ م شُبِّتَ فيها القنطرة الكبرى التي انتهت بإرقام تركيا على تركها في ١٤ من نوفمبر سنة ١٨٩٨ م. وما لبثت أن انضمت إلى اليونان ، وما زالت إلى اليوم جزيرة يونانية .

• عرض بالثور تريفيا : أي الملح إليه ، ولم يبيته بقول صريح ؛ فالتمريض : خلاف التصريح .

ويلاحظ أن البارودي ولد في رجب سنة ١٢٥٥ هـ (أكتوبر سنة ١٨٣٩ م) ونظم هذه القصيدة سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م) وهو في نحو السادسة والعشرين ، أي في عتفوان قوته ، وريمان شبابه . ويجرب « أقرطاش » أول الحروب التي غاض غارها ، وصل لادها . وفي نهايتها أنعم عليه السلطان عبدالمعز العثماني بالوسام الثماني من الدرجة الرابعة ، وصل إثر عودته حيث الحيدور إسماعيل في وظيفة « ياور » في ٣ من جمادى الآخرة سنة ١٢٨٤ هـ (٢ من أكتوبر سنة ١٨٦٧ م) . والحرب الثانية هي الحرب الروسية التركية سنة ١٢٩٤ هـ (١٨٧٧ م) والحرب الثالثة حرب الثورة المصرية سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢ م) .

(١) أخذ به : أمسك به . والكرى : التماس (وطله من باب صدق) . والمعاقدة : جمع عقد (يوزن مجلس) : وهو موضع الاعتقاد . والأجفان : جمع الجفن (يفتح فسكون) : وهو غطاء العين من أعلاها وأسفلها . ومعاقدة الأجفان : ما تمتد عليه الأجفان : كناية عن اليقظة . وهفت الريح بالثور (من باب مدا) : حركته ، وذهبت به . والسرى : سير عامة الليل . والأعنة : جمع عنان (يكسر العين) : وهو سير الهجاء الذي تملك به الدابة . والقرسان : جمع فارس : وهو الماهر في ركوب الفرس . وفرسان الجيش : من يجارون على ظهور الخيل . وأعنة القرسان : أي أعنة أفراس القرسان . والمضى : أن الليل لفت الناس بأستاره : فناموا . أما الشاعر وجنوده فقد هفا سير الليل بأعنة خيلهم ، أي زلزلهم الكرى ، وبجهاهم النوم ؛ لأنهم في حالة حرب و قتال ؛ فالتاس في أمن و رضاء ، والهازيون في حرب وشقاء .

(٢) « الثور » في أول البيت : واو الحال . والجحلة الاسمية بعدها حالية . والذوابة : جمع الذوابة : وهي من كل شيء طرفة وأعلاه . والشفيرة من الشعر إذا كانت مرسله . وشمر في أهل ناصية الفرس . والشمر المنسدل من وسط الرأس إلى الظهر . وانتشار ذوائب الليل : كناية عن إطباقه ، وإظلامه ، وحلته ، وشدة سواده . والمتالح : الأراضي المرتفعة العالية . ومثلها الربا : جمع روبة (بتثنية الراد) . وجران البعير =

لَا تَمْتَنِينَ الْيَمِينَ فِي ظِلْمَائِهِ إِلَّا اشْتَعَالَ أَسِنَّةُ الْمُرَانِ (٣)
تَسْرِي (يُؤْ) مَا بَيْنَ لُجَّةٍ فِتْنَةٍ تَسْمُو غَوَارِبَهَا عَلَى الطُّوفَانِ (٤)
فِي كُلِّ مَرِيَاةٍ ، وَكُلِّ نَيْبَةٍ تَهْتَدُ سَامِرَةٌ ، وَعَزُفُ قِيَانِ (٥)

(٣) (بكسر الجيم) : باطن عتقه ، أو مقدّمه . وضرب البحر بجزائه : إذا برّك ، وهدّ عتقه على الأرض . وضرب الليل بجزائه : أي أقبل ، ورسا ، وثبت ، واستقر ، واليسط .
يقول : إن السرى هنا بأعنة الفرسان المحاربين في ليل مطبق حالك ، مقبل ثابت .

(٤) استبان الشيء يستبينه : تبيّنه ، ورآه ، وكشفه ، وعرفه ، وأتضح له ، وظهر . وفي ظلاله : أي في ظلمة الليل وبواريه . أو هي في ظلماته : جميع ظلمة . واشتعلت النار اشتعالاً : أقدت ، وألتهبت . والأسنة : جميع سنان (بكسر السين) : وهو نصل الريح : أي حديدته الجارية القاطعة . والمران : الرياح الفللة الصلبة : أي القبة في صلابته : من مرّ الريح ونحو (كدخل) : أي لأن في صلابته . الواحدة مرانة (بورن رواية وريان) . واشتعل أسنة المران : لمعها وبريقها .

يقول : إنك لا ترى في ظلمات هذا الليل الحالك إلا ما يحصله المحاربين ويستفيدونه من أسنة الرياح ، وأسلحة القتال اللازمة للقتال .

(٥) في الأصل المخطوط الذي بين أيدينا نقص . وما بين القوسين : (به) تكملة أضفناها من عندنا لإقامة الوزن ، ولإيضاح المعنى . وتسرى به : أي تسير بالليل : مفارح سرى (من باب رى) : إذا سار ليلاً . وأسرى أسره مظه . و « ما » زائدة لتوكيد الكلام . واللجة : معظم البحر ، وتزد أواجه . ولجة الماء : منظمه . واللجنة : الحرب . ولجتها : متفرقاتها ، وقطعها ، وشذبتها . وتسمو : تعلو وترتفع . وغواربها : أهلها : جميع غارب : وهو أهل كل شيء . وغوارب الماء : أمالي موجبه . والطوفان : الغليان العظم ، كالذي أماله قوم نوح . والسيل المغرق . والماء الغالب ينشئ كل شيء ويصوره ويضله . وغواربها : أي غوارب اللجة . أو غوارب الفتنة المشبهة باللجة . والسطر الثاني تصوير للثورة العارمة في تلك الجزيرة ، وما كان من شذبتها وعضتها ، واتساعها ، وطغيانها .

يقول : وفي هذا الليل اللمع عضتنا غمار الحرب العارمة القائمة على سائرنا في تلك الجزيرة .

(٥) المربأة (بورن المسألة) : المكان المرتفع العالي . والفتنة : الطريق في الجبل . وتهتاد الحمار يصح : هديره ، أو هديره : وهو صوته الذي يردده في حنجرفته (ويطه من باب ضرب) . والسامرة : المتسامرون : أي المتصعدون ليلاً . وتهتاد السامرة : صوت السمار وحديثهم . والعرزف : الفناء (ويطه من باب ضرب) . والقِيَان (بكسر القاف) : جمع قينة (بورن قصعة) : وهي الأمة : أي المرأة المملوكة : عداوت الحرة . وغلب على المرأة المغتنية .

ولعل المعنى : أن الثورة اندلعت ليراتها في كل نواحي الجزيرة ، وأن الناس سهروا لها ، وعلا صرخهم في شأتها ، وفتنت الجولوى والغليان لتعميس الثائرين ، وتضجيع المحاربين .

تَسْتَنْ عَادِيَّةً ، وَيَصْهَلُ أَجْرَدُ وَتَصِيحُ أَحْرَاسٌ ، وَيَهْتِفُ عَائِي^(٦)
قَوْمُ أَبِي الشَّيْطَانُ إِلَّا نَزَعَهُمْ فَتَسَلَّلُوا مِنْ طَاعَةِ السُّلْطَانِ^(٧)
مَلَكُوا الْفَضَاءَ ؛ فَمَا يَبِينُ لِنَاضِرٍ غَيْرُ التِّجَاعِ الْبَيْضِ وَالْأَحْرَصَانِ^(٨)

(٦) تستن: تهرى في نشاط على منها في جهة واحدة . أو تتمد إقبالا وإدبارا . والعادية : الخيل الخيرة تملو بفرسانها مسرعة إلى العدو . وجماعة القوم يمدون إلى القتال . وصهل الغرس (كضرب ومنع) . والصهيل ، والصبال : صوته . وفرس أجرد : قصير الشعر ، وبقته ، جواد سباق (والفعل من باب فرج) . وأجرد ممنوع من الصurf ، أى التتوين . وإنما نون هنا لضرورة وزن الشعر . وصاح (من باب باع) : صوت في قوة . وصاح به : دعاه ، واداه . وصاح عليه : زجره ، ونهره . والأحراس : الحراس : جمع حارس ؛ اسم فاعل من حرصه (من باب كتب) : أى يقاه وحفظه . ويهتف : يصيح ماداً صوته (وبابه ضرب) . ويهتف به : صاح به : أى دعاه واداه . ويهتف بره : دعاه وناشده . والماني : الأسير (وفعله من باب سما) .

في البيت إشارة إلى بعض ظواهر الكفاح والتمزاج ، ولوازم الحرب والقتال ، والتماع القوة ، وانتشار التمرد في كل أنحاء الجزيرة الفاترة ؛ ففى كل المراتب ؛ والشتابا ترى استناب العاديات ، وتمتع صهيل الجهاد ، وصياح الحراس ، ويهتف الأسارى .

(٧) يريد بالقوم : أهل جزيرة « كريد » الثائرين في وجه الحكم التركى . ونزفهم : إفسادهم ؛ مصدر نزفه الشيطان إلى المخاصى (من باب قطع) : أى حشّه عليها ، ورفقه فيها ، وأغراها بها . ورواية الويلة الأدبية للشيخ الموصى ج ٢ ص ٩٦ « خسرم » . والخسر (يفتح فسكون ، أو بضم فسكون) : الضلال ، والهلاك . وتسلوا : خرجوا . والسلطان : الملك . ويراد به هنا : سلطان تركيا . وكانت جزيرة « كريد » من أملاك الدولة المانية : أى البلاد الخاضعة للحكم التركى .

(٨) فى الأصل الخطوط : « ملوا » . وهو من تحريفات التناسخ . وادوا الجماعة فى « ملوا » : ضمير « قوم » فى البيت السابق . أو المعنى : ملأ أهاديون الفضاء ؛ وهم أهل الجزيرة الثائرون بأسلحتهم ، وألجش المتصدى لهم ، القائم بإخماد ثورتهم ، وديتهم إلى طاعة السلطان . وبين : يفتش ، ويبدو ، ويظهر . وائع البرق وفيره : لمع ، وبرق ، وأضاء . والبيض : السيوف . واحدها أبيض . والأخوصان (بضم الخاء وكسرها) : الأسمنة : أى فصال الرياح : أى حدادها القاطعة الجارحة . الواحد حرص (بضم الخاء) . ومن كلامهم : « وكبّ الخرص فى رعه ... » . « وكانّ خرصان الرياح كواكب » . والخرص أيضاً : الدرع (بكسر فسكون) : وهو قميص من زرد الحديد ، يلبسه المحارب ليق به نفسه من سلاح حوله . ودرع الحديد مؤنثة . وقيل : يلكّر ، ويثقت .

يقول : إن المتحاربين من الثائرين المسلحين وبكافهم من جند السلطان وأتباعه قد ملأوا الفضاء بمجموعهم . وكثرت فى أيلهم وعلى صدورهم وروسهم السيوف والرماح والأسمنة والدروع والبيشات والخيوات =

فَالْبَذَرُ أَكْثَرُ ، وَالسَّمَاءُ مَرِيضَةٌ وَالْبَحْرُ أَشْكَلُ ، وَالرَّمَاحُ قَوَائِي (٩)
وَالْخَيْلُ وَاقِفَةٌ عَلَى أَرْسَائِهَا لِيَطْرَادَ يَوْمَ كَرِيمَةٍ ، وَرِمَانٍ (١٠)
وَضَعُوا السَّلَاحَ إِلَى الصَّبَاحِ ، وَأَقْبَلُوا يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنِ النِّيرَانِ (١١)

= فلا يبين لميكن الناظرين غير التمامها ويريقها . والبيت كناية عن كثرة المتحاربين ، وكثرة أسلحة القتال ، ويحسن النفاية ، واحتدام المعركة ، أو تمام انتأهب لها .

(٩) في الأصل المخطوط : « غالبه » ، وهو من تحريفات النسخ . والبدر : القمر الممتلئ ليلة تمامه في منتصف الشهر القمري . وأكثر : صفة من الكثرة ، وهي من الأولان : ما إلى مال السواد والغبرة . وكثرة البدر هنا : احتجاب ضيائه ، وضياح صفائه في مشارق النقع ، وسحب الغبار المنعقد في جو المعركة . ومرض الساء : تمير مجازي في صم ، كدرة البدر ، وانطفاء أضواء القمر والنجوم في تمام المعركة ، وغبار الحرب . وليلة مريضة : أي لا يغوى لها نجم ولا قمر . وبجر أشكل : أي غالطت مياه حمرة الساء المتصبية من القتلى والجرحى . قال جرير :

فَا زَالَتْ الْقَتْلُ تَهْجُ دِمَاهَا بِدَجْلَةٍ حَتَّى مَاءِ دَجْلَةٍ أَشْكَلُ
وَالرَّيَاحُ : جمع ريح : وهو عود طويل في رأسه سنان : أي نصل : أي حربة من الحديد الصلب للطنان والقتال . ودوان : جمع دان : اسم فاعل من دنا الشيء (من باب سما) : أي قرب . والمراد أن الرياح دافئة من المقاتلين يسدها بمضهم إلى بعض . أو أنها متدانية متشابكة بأشباك الجيشين المتحاربين ، أي الثوار وكافحهم من جند السلطان وأعدائه المجاهدين في كبح جماحهم ، وإخاد ثورتهم . احتدمت المعركة بين المتحاربين ، واشتبهت رماحهم وأسلحتهم ، وكثرت حركات الكر والفر ، فأثارت سنايلك الخيل الدبار ، فانمقد في سماء المعركة ، فكدر البدر ، ومرضت الساء ، وسالت دماء القتلى والجرحى غزيرة ، فاحسرت بها مياه البحر .

(١٠) الأروسان : الأزمنة ، والأحثة ، والمقاريد . واحدها رسن (بوزن جمل) . ووقوف الخيل على أرسائها . كناية عن انقيادها ، وإذاعتها ، وانطباعها للفرسان . وطارده مطاردة وطراداً : حمل عليه : أي كثر عليه في الحرب ، وهجم . وطارده : دافعه وزاحمه . والكرمية : الحرب ، أو الشدة في الحرب . وراحت على كذا مراهقورمانا : خاطره ، وسابقه على الخيل . وقد يكون المراد بالرهان هنا : الكرمة والحرب ، فإنها مراعاة وخاطرة وسابقة إلى كسب النصر والغلبة .

يشير إلى عتائهم بتدريب الخيل ، وتوسهم بركوبها ، وإعدادها للطراد في الحرب والسياق . وكانت من أقوى صد القتال ، وأسباب النصر . ولا ريب أنها نهضت بأهليتها في حرب وكريت ه وأعانت على إخاد ثورتها .

(١١) وضع المهابر سلاحه في حموه : أي جالده وقاتله . ووضعوا السلاح إلى الصباح : أي قاتلوا بأسلحتهم طوال الليل . والتكلم بالأسنة النيران : كناية عن احتدام المعركة ، وقود نيرانها ، فقد =

حَتَّى إِذَا مَا الصُّبْحُ أَسْفَرَ، وَارْتَمَتْ عَيْنَايَ بَيْنَ رَبٍّ، وَبَيْنَ مَحَانٍ^(١٢)
فَإِذَا الْجِبَالُ أَسِنَّةٌ، وَإِذَا الْوُهَا دُ أَعْنَةُ، وَالْمَاءُ أَحْمَرُ قَانِي^(١٣).
فَتَوَجَّسْتُ فَرْطَ الرُّكَّابِ، وَلَمْ تَكُنْ لِهَبَابٍ، فَامْتَنَعْتُ عَلَى الْأَرْسَانِ^(١٤)

= انقطعت ألسنة التفاوض والتفاهم ، وانطلقت ألسنة النيران في حرب عوان .

في أربعة الأبيات السابقة قدّم الشاعر بانتطاع الثالين للشيطان ، وتجرّدهم على السلطان ، ووصف انتشارهم في تمالق وازدحام ، وكثرة ما حملوا من الأسلحة والأسنة والدروع . ثم التعمال الحرب بينهم وبين جند الخليفة وأهلوه . ثم أشار إلى بعض ظواهر المعركة ، وبعض لوازمها ونتائجها ، كنداف الرياح ، والاستيلاء بالسلح ، والتطارد بالليل ، وتنازع الكرواقر ، وثوران النقع ، وسطوح الغبار ، والنفاد القتام ، وكثرة البدر ، ومرضى السباه ، وكثرة القتل والجرحى اللذين امتزجت مداهم بمياه البحر ، فذهب صفاه وبقاؤه ، وبقيت شكلته وحمرته . وفي هذا البيت أن المعركة دارت طوال الليل في إقبال واحتباس ، وتسمّر واستبسال .

(١٢) « ما » زائدة بعد « إذا » . وأسفر الصبح : فصح ، وانكشف ، وأضاء ، وأشرق . وارتمت عيناي : وقعتا ، أي أبصرنا ، ورأنا : مطروح روى الشيء من يده رمية . والربا : التلال والجبال ويرتفعات الأرض : جمع ربوة (يثليل الراه) . والمحاني : جمع محنة ، أو محنة ، أو عناة : وهي من الوادي : منحناه ، ومنطقه ، ومنعرجه . والمحاني هنا تقابل الربا : أي بين مرتفعات الأرض ومنخفضاتها . وتكرار « بين » في مثل هذا الموضع غير معروف لنا في فصيح الكلام ، وفي القرآن الكريم : « يخرج من بين الصلب والتراتيب » الآية رقم ٧ من سورة الطلاق . وقد يقال : إن التكرار هنا للتوكيد . أو المعنى : بين أجزاء الربا ، وبين أجزاء المحاني .

(١٣) « إذا » في أول البيت : فجائية : أي لما أسفر الصبح ، وارتمت عيناي بين الربا والمحاني فاجأتني أن الجبال أسنة ... : جميع سنان (بكسر السين) : وهو نصل الرمح ونحوه : أي حديدته الجارسة القاطعة . والوهاد : جمع ودة (يفتح فسكون) : وهي الأرض المنخفضة . والأعنة : جمع عنان (بكسر العين) : وهو سير الهجام الذي يحكم الراكب به دابته . ويراد بالأعنة هنا : التحليل وفرسانها : فهو من إطلاق الجزء ، وإرادة الكل . وقان : شديد الحمز . وأصله الحمز : « قاني » : اسم فاعل من قنا الشيء (من باب غضم) : أي اشتدّت حمرة .

في هذا البيت والذي قبله : أنه لما انقشع الليل ، وأضاء النهار الكون - استبّال الشاعر ما رآه من ضخامة المعركة ، واتساع ميدان القتال في الربا والمحاني ، والجبال والوهاد ، وكثرة المتحاربين من الفرسان وغيرهم ، وكثرة الأسلحة وزمادات القتال ، وفزارة ما سال من دماء القتل والجرحى ، حتى قتلت بها مياه البحر . وفي التعبير والتصوير هنا مدالة شعرية سائلة .

(١٤) توجّست : تهيّئت ، وخلفت . والتوجّس (في الأصل) : التسمّع إلى الصوت الخفي مع الخوف . والفرد (يفتحين) : السابق المتقدم (للواحد والجمع) . والفرد (يفتحين) : الفرس السريعة . =

فَرِغَتْ ، فَرَجَعَتِ الْحَيَيْنَ ، وَإِنَّمَا تَحْتَانُهَا شَجْنٌ مِّنَ الْأَشْجَانِ (١٥)
 ذَكَرْتُ مَوَادِّهَا بِمِصْرَ . وَأَيْنَ مِنْ مَّاءٍ بِمِصْرَ مَنَازِلُ الرُّومَانِ ؟ (١٦)
 وَالنَّفْسُ مُؤَلِّمَةٌ - وَإِنْ هِيَ صَادَقَتْ خَطْفًا - بِأَوَّلِ صَاحِبٍ وَمَكَانٍ (١٧)

« والركاب (بورزن الكتاب) : الإبل أو المظايا : الواحدة واحدة من غير لفظها . ويراد بفرط الركاب : الخيل المتقدمة في ميدان القتال . وهما بهابه : غافله ، وحلوه ، وإقنامه . وامتنع من الأمر ، وعنه : كلف منه . والأروان : جميع ومن (بورزن سبب وأسباب) : وهو انخراط ، والمقيد ، والمانع ، والزيام يكون على أنف الدابة ، والخيل الذي تقاد به . أو هي الإروان : مصدر أرونت الفرس ونحوه إرواناً : أي شدته بالرسن . وبغله رسته (من باقى قتل وفرب) . ويراد باستناع الخيل حل الأروان : أن التوسيس والاحتياط حملها على التمتع والتأقوى ، وبمقاواة الإروان ، والتكروج عن طاعة الفرسان . يقول : لم تكن غيبتنا نقهيب الحرب ، ونصمم من القتال ، ولكنها - حل غير عادتنا - تروست وغافت ، فأصبحت وامتنعت حل الأروان . يشير بهذا إلى قول المعركة ، ويمهد للأبيات الآتية .

(١٥) فرح (من باقى تيب ، وينبع) : دهر ، وغاف . ورجع صوته ترجيحاً : رده في حلقه ، وكرن ، وقطعه . والحين : الشرق ، وقطبان النفس . أو صوت الشرق والحزن والتوجع والطرب . والاشجان : الحنين الشديد . والشجن : الحم ، والحزن ، والحاجة ، وهو النفس . وبجسمه أشجان (بورزن سبب وأسباب) (ولعله من باب طرب) .

في البيت السابق قال : إن الخيل تروست - حل غير عادتنا - فامتنعت حل الأروان ، وعبريت عن طاعة الفرسان . وفي هذا البيت : أنها لما تروست وطومت وودعت صوتها في حنين وفروق ، ولم يكن عنها إلا صوت الشجن والحزن . وفي البيتين الآتين زيادة بيان وتفصيل لهذا المعنى .

(١٦) ذكر القى : قد كثر ، أو حفظه في ذهنه ، أو استحضره ، أو فطن له ، أو جرى في خاطره به نسائه . والمواد : جميع المودة (بورزن الخيل) : وهو المنهل ، أو الطريق إلى الماء ، اسم مكان من رده الماء وفيره . أي صار إليه ، أو أشرف عليه ، أو دافاه ، أو بلغه . و « أين » : اسم يستعمل به عن المكان . والاستطعام هنا : معناه الاستبعاد . ويراد بمنازل الرومان : جزيرة « كريت » فقد حكمها الرومان قبل أن يسيطر عليها الأتراك . وفي ميمدة من ماء مصر ولهاها .

تروست الخيل ، وطومت ، وامتنعت حل الأروان ، لأنها ذكرت مناهلها بمصر ، فهاها بمدة المسافة بينها وبين وطنها ، وبرح بها الوحيد والشجن ، وودعت الحنين عن طرب وسون .

(١٧) مولة : اسم مفعول من الولوع بالشئ : وهو حبه ، والخيل إليه ، والرغبة فيه ، وشدة التعلق به . ورواية الوسيلة الأدبية للشيخ حسين المرصوف ج ٢ ص ٤٩٦ : « والنفس لامية » : اسم فاعل من لها بالشئ (من باب عدا) : أي أولع به . و « إن » هنا : مجردة من معنى الشرط : أي والنفس مولة بأول =

فَسَقَى السَّمَاءَ مَحَلَّةً وَمَقَامَةً فِي مِصْرَ كُلِّ رَوِيَّةٍ مِرْنَانٍ^(١٨)
حَتَّى (تَعُودَ) الْأَرْضُ بَعْدَ مُحُولِهَا شَتَّى التَّغَاءِ ، كَثِيرَةَ الْأَلْوَانِ^(١٩)

= صاحب ، أول مكان مع وجود الخلف . أو حل الرزم من وجوده وحضوره وحيازته . وصادلت : وجدت . والخلف : البذل ، والعوض ، وأول صاحب ومكان للتعليل : مصر وأهلها .

ذكرت الخليل مواردها بمصر ، فأولمت بها ، ورجعت حينها لفراق وطنها ، وبمدها عنه ؛ ولا غرو فإن النفس شديدة التعلق بأول صاحب ، وأول مكان حتى ولو وجدت خلفاً له ، ووضوحاً منه ، يقوم مقامه ، وبغنى عنه . والبيت يجري مجرى الحكم والأمثال ، ويمزج معنى البيت السابق ، ويمجد لحمة الأبيات الآتية . (١٨) السكاك : نجسان نيران : أحدهما في الشمال : وهو السالك الراسح ، لأن بين يديه كوكبا صغيراً ، يقال له : راية السالك وريحه . والآخر في الجنوب : وهو السالك الأعزل ، إذ ليس أمامه شيء من النجوم ، وهو من منازل القمر . وكانت العرب تصيف الأمطار والرياح ، والحر والبرد إلى الألوان وبعض النجوم ، وتربطها بها . و « سى السالك » : خبر يراد به الدعاء . والمحلة : موضع الخليل : أي النزول . والمكان ينزل فيه القوم . والمقامة (يفتح الميم) : المجلس ، والجماعة من الناس . والمقامة (يغم الميم) : موضع الإقامة ، وسماحة رويّة : أي مطرها غزير ، وقطرها عظيم ، وبقعها شديد . وبران (بكسر فسكون) : ذات صوت : هو صوت سقوط المطر : « مفعال » من الرنين . والسالك : فاعل « سى » ، وحلة : مفعول به أول . ومقامة : مفعول حل « محلة » . وكل مفعول به ثان . كما تقول : « مقام الله النبي » .

جعل السالك مصدر النبي ، ودعا محلات مصر ومقاماتها ، أي الوطن كله بالسكيا ، والمطر الغزير ، والفتح العميم ، والخير الشامل .

في أربعة أبيات السابقة أن الخليل ذكرت مواردها بمصر ، فترجعت بها ، ورجعت الحنين ، والافتقار بها للحنين ؛ لمالفت عاداتها ؛ لمهايت الحرب ، وتوجست فرحاً ، وأمنت على الأرواح . وفي هذا البيت وأربعة أبيات بعده التعليل للشارح إلى الدعاء للوطن ، والتعلق به ، والتفوي بهزايه .

(١٩) البيت في الأصل المخطوط ناقص . والكلمة التي بين القوسين (تعيد) : تكلمة أضفناها من متندا ؛ لاستقام بها الوزن ، وصح المعنى . وتعيد : تصير . عاد الأمر كذا : أي صار لإياه (وبابه قال) . ويعدد الإحتفال من حال إلى حال . ويريد بالأرض : أرض مصر . وأهلها ، والإجمال : الإجداب ؛ وهو انقطاع المطر ، ويبس الأرض ؛ وخلوها من الكلاء والنبات . ورواية الوسيلة الأدبية ج ٢ ص ٤٩٧ : « به ذبوا » : صعد ذبل البقل ونحوه (من باب دخل) : أي ذوى ، وقيل ماء ، ولهببت لدوهم ونضاربه . وفي : متفرقة . ونعى الزرع ونحوه (كرى) نماء : زاد ، وكثر . ويراد بالنبات : ما ينمو في الأرض من الزرع والنبات . ونبات شئ : أي متنوع متصف . والألوان : الألوان ، والأصناف . وأحدها لون . « وكثيرة الألوان » . تكرار وتأكيدها لحنى « شئ النبات » .

في البيت السابق دعا الوطن بالسكيا . وفي هذا البيت بيان لغاية السكيا ونتيجتها ، وهي أن تنصب الأرض ، وتمرع ، ويكثر ما تنبت من ألوان النبات ، وأنواع الزروع .

بَلَدٌ خَلَعَتْ بِهَا عِذَارَ شَيْبَتِي وَطَرَحَتْ فِي يُمْنَى الْقَرَامِ عِنَانِي^(٢٠)
 فَصَيْدُهَا) أَحْرَى النَّبَاتِ بوسْرَحَهَا أَلَمَى الظَّلَالِ، وَزَهَرَهَا مُتَدَانِي^(٢١)
 فَارْقَتْهَا طَلَبًا لِمَا هُوَ كَائِنٌ وَالْمَرْءُ طَوَّعُ تَقَلُّبِ الْأَزْمَانِ^(٢٢)
 حَمَلُ الزَّمَانِ عَلَى مَا لَمْ أَجِنِهِ إِنَّ الْأَمَائِلَ عُرْضَةُ الْحُلُثَانِ^(٢٣)

(٢٠) يريد بالبلد : مصر . وخلع ثملته ، أو ثوبه (من باب قطع) : نزعته ، وقلمه . وطراح الفرس ونحوه : السير الذي على خدعه من الجوام . ويطلق المدار على الرمن : وهو المقود : أي الخيل التي تقاد به الدابة . والشبيبة : الشباب . ويقال : خلع فلان عذاره : إذا أهلك في النوى ، وقيل : حياؤه واحتشامه . وخلع عذار شيبته : أطلق لشبابه العنان ، ويجرى في أهوائه وملاذاته . وطرح الشيء : رماه وألقاه (وبابه قطع) : والفرواح : الحب والمشق . والمئان (بوزن الكتاب) : سير الجوام الذي تحملك به الدابة ، وتقاد . والشرط الثاني : كناية عن انقياده لدواعي الحب والطمع والفرواح . وهو قريب من معنى الشرط الأول . أو هو من لوازمه ونفائمه ؛ فإنه لما خلع عذار شيباه ، أو عذاره في شياحه انطلق في ملاحيه ، وانطاع لدواعيه ، ويقع أسير الهوى ، صريح الفرواح .
 يعشوق إلى مصر ، ويشير إلى ما كان له فيها من متع ولذات ، ومباهج ومسررات .

(٢١) في الأصل : «فصيد» . و«ها» : تكلمة من عذافا ، صح بها الكلام ، واستقام الوزن . والفصيد : التراب ، أو وجه الأرض ، أو ما ارتفع منها . ونبات أخرى : اشتدت خضرته ، فضرِبَ إلى السواد . والسرحة : ما طال وعظم من الشجر . الواحدة سرحة . وظل أنى : أى كنهف أسود . أو بارد . والظلال : جميع الظل : وهو ضوء شامخ الشمس إذا استترت عنك بحاجز . ومئان : متقارب : أى يدنو بعضها من بعض .

وفي البيت تنويه ببعض مباحج مصر ومحاسنها الطبيعية ، كخضيب الأرض ، وسورة النبات ، وكثافة الشجر وخضرته ، ونضرتة ، وامتداد ظلاله ، وكثرة الأزهار والرياحين .

(٢٢) . كائن : مقدور واقع . والشرط الثاني تذييل جار مجرى المثل ، أو الحكمة مؤكدة لمعنى الشرط الأول ؛ فالأيام والليال تتقلب بالمرء ، وهو منطلاح لها ، محكوم بتصرفاتها .
 يقول : إنه فارق وطنه في طلب ما هو مسروق إليه ، مقدر عليه ، والإنسان متقاد للزمان ، يتقلب به ، ويجرى على غير ما يجره . وقد يفهم من هذا البيت أن الحكوية حملت الشاعر على المشاركة في سرب «كريد» ؛ فلم تكن له فيها رغبة ، أو اختيار .

(٢٣) حمل عليه الشيء (من باب ضرب) : حمّله إياه ، أو كلفه أن يحمله . وبني جنابة : أذنب وباجرتم . وما لم أجنه : أى ما لم أرتكبه من الجنائيات والذنوب ؛ فمعنى الشرط الأول : أن الزمان =

نَقَمُوا عَلَيَّ - وَكَذَلِكَ فَتَكْتُ - شَجَاعَتِي إِنَّ الشَّجَاعَةَ حِلْيَةُ الْفِتْيَانِ (٢٤)

فَلْيَهْنَأِ النَّهْرُ الْغَيُورُ بِرِخْلَتِي عَنْ مِصْرَ، وَلْتَهْذَأْ صُرُوفُ زَمَانِي (٢٥)

سحبلى ما أم أجته ، أو عاتقني وأنا بريء من كل ما يوجب العقاب . والأمثال : خيار الناس وأفاضلهم : جمع الأمثل (يوزن الأفضل) : اسم تفضيل من مثل مثالة (من باب شجع) : أي كان خيراً فافعل . وهو عرسه لكذا : أي ثوب عليه ، فاهض به . أو معرض له ، كالمخلف ينصب ليرى : فقصيه السجلم ونحوها . وحدان الدهر : نوابه وصالحه .

شكا في الشطر الأول الزمان ، فإنه حمل عليه ، وأساء إليه بلا ذنب أو جريرة . وأجرى الشطر الثاني مجرى الحكم والأمثال ، ليمزى نفسه ، ويخفف ضيقاً ، فإن خيار الناس معرضون لصروف الدهر ، أهداف لنواب الزمان ، وهم مع هذا أقوياء عليها ، متمسكون بها ، أهل لمكانتها . وفي - مع الشكوى والتعزية - صغر بأنه من الأمثال الأفاضل الكرام الأخيار ، أول القوة والبأس .

(٢٤) لقم عليه الأمر (كضرب وفهم) : كرهه ، وألكره عليه ، وما به . والواو : واو الحال . والمضمة الفعلية بعدها سالية . وفكك (كضرب وقيل) . فتكك (بتخفيف الفاء) فهو فالك : أي جرى شجاع مقدام ، يركب ما هم من الأمور ، وهدت إليه نفسه ، غير مهال . وحلية الرجل : صفته ، وعقلته ، وصورته ، وبهيمته . والفتيان : جمع الفتى : صفة من الفتوة : بمعنى الشباب . أو بمعنى السخاء والكرم والمروءة ، والنجدة ، والشجاعة ، والإقدام المجدد .

في البيت السابق قال : إن الزمان حسله ذلياً لم يقتره . وهو يريد بالزبان : أهل زمانه الذين نهضوا عليه ، وأساءوا إليه .

وفي هذا البيت قال : إنهم نقموا عليه شجاعته ، وكرهوا فتوته ، وإلمه يعنى من وراء هذا أن نقمهم عليه فدفعهم إلى إيماده من مصر في حرب لا يراها من الحروب التي تفرض على مثله أن يصلى نازها ، ويضرب في غمرتها . ولا ريب أنها أكلت كثيراً من المتحاربين . وربما كان من أماني المترصين به ، والتاقيين عليه أن يكون من حطب تلك الحرب . وفي الأبيات الآتية ما يسوغ هذا المعنى . والشطر الثاني من هذا البيت تذييل جار مجرى المثل ، وثيق الاتصال بالشطر الأول ، كأنه يقول : إذا كان الحاسدون قد نقموا على شجاعتي ، فما كان لي أن أتهجد منها ، لأنها من الفضائل الكبرى ، وهي زينة الفتيان ، وتعلقن من أخلاقهم ، وصلة متصلة فيهم .

(٢٥) همي (من باب فرح) سر به وأبتج . والنيور : الخائج الناقص . والأهمل : غار الرجل على امرأته ، فهو غيور . إذا ثارت نفسه لانصرافها عنه إلى آخر ، وكذلك إذا أبدت لغيره زيتها ومحاسنها . وغارت هي عليه ، أي ثارت نفسها لمثل ذلك . وغيرة الدهر هنا : ما يلقى به الشاعر ، ويدبره له من المشقة والمخاضة والمساءة . وصيوف الزمان : شروبه ، وقواتبه ، وحداته ، وصالحه .

في البيت الثالث والمشرين شكا الشاعر زمانه ، وقال : إنه أساء إليه ، وحمل عليه ما لم يه . وفي -

فَلَنْ رَجَعْتُ ، وَسَوْفَ أَرْجِعُ وَإِنَّمَا بِإِلَهِهِ - أَعْلَمْتُ الزَّيْمَانَ مَكَانِي (٢٦)
صَادَقْتُ بَعْضَ الْقَوْمِ حَتَّى خَانَنِي وَحَقِيقْتُ مِنْهُ مَقْبَبُهُ قَرَمَانِي (٢٧)
زَعَمَ النَّصِيحَةَ - بَعْدَ أَنْ بَلَغَتْ بِهِ - غَشَا ، وَجَازَى الْحَقُّ بِالْبُهْتَانِ (٢٨)

هكذا البيت عاود الشكوى ؛ فقال : إنه ما فني يشاكه ويمارسه ، ويسمى بهته وبين مصر حتى ارتحل عنها وفارقها ؛ فليتها بهذا الارتحال ، ولتبدأ سريره ؛ فقد نال حتى ما أراد . وهذا يذكرنا بقول الشاعر :

عجبت لسمي الدهر يهني ويهينا قلعة انقضى ما بيننا سكن الدهر
(٢٦) في الأصل : وسوف أرجع (أولفا) . وهو من تحريفات التناسخ . والمكان : الموضع .
أو المنزل ، ورفعة الشأن .

ولم الشاعر بالله تعالى ، واعتمد عليه ، وسكنت نفسه إليه ؛ فربما أن يكتب له النجاة والسلامة ، ويبيده إلى وطنه مطور الصحة والعافية ؛ فيعلم الزمان أنه في مكان الصمود لنوازل ، والتجمل لنوايل ، أو أن مكانته فوق سريره ، ومنزله أهل من أحداثه . وهو يريد أهل زمانه الذين تقموا عليه شجاعته ، فكادوا له ، وترهبوا به ، وتمنوا أن تلعب اللواهي ، وقتاله المنين في جرب كربة .
(٢٧) صادقة : اتفقت صديقا . أو كان صليها له . وصادقة المؤنة : أغلصها له . وحفظت منه منيه : أي راعيت ما تقرضه المصادقة ؛ فحفظته في ضيائه : أي لم أغته بالغيث ؛ أي لم أسي إليه في ضيئه بقول أو فعل يكرهه . ورياني : تحفل حتى ، وتكثر لي . أو أتيتني ، ومانني . أو أصابني بقره وأذاه .

يقول : إلى صادقت هذا الرجل ، وأغلصت له المؤنة ، وصنت ما ينبغي أن يصان من أمره وسره في حضوره وضيئه ، ولم أزل مضيقا بهمه ، مقربا حل وده حتى فاجأتني بقدري وضيائه ، ورياني بقره وأذاه .

(٢٨) النصيحة : قول فيه دعاء إلى صلاح ، ونهي عن فساد . وصددها الفس (بفتح اللين) : مصدر غش (من باب رد) : أي زين له غير المصلحة ، وأظهر له خلاف ما يفسر . والاسم الفس (بكسر اللين) . وزعم النصيحة غشا : أي ظننا ومدّها غشا . وبعد أن بلغت به : أي بعد أن بلغت به النصيحة الغاية : أي بعد أن اقتص بها ، وأبلغت مأسله . وجزاءه : كافأه وألأبه . والبهتان : الباطل ، والكذب الملقى . وبهته (كنهه) بهتاناً : قال عليه ما لم يفعل . أو أدهشه وحيرته بفضاعة باطله ، وإفترائه الكذب عليه .

نصح الشاعر هذا الرجل ؛ فأنقذ نصيحه وإرشاده . ولما بلغ الغاية التي أهلها تنكسر للتناصح الأمين ، وجمد حقه وفضله ، وأقرى عليه الكذب ، فمد نصيحه خداما وشقا ؛ فجمع بين تكرار الجليل ، والإساءة إلى الحسن ، والإغراق في الباطل .

فَلْيَجْرِ بَعْدَ كَمَا أَرَادَ بِنَفْسِهِ إِنَّ الشَّقِيَّ مَغْلِبٌ الشَّيْطَانِ (٢٩)
 وَكَذَا اللَّيْمُ إِذَا أَصَابَ كَرَامَةً عَادَى الصَّبِيحَ، وَمَالَ بِالْإِخْوَانِ (٣٠)
 كُلُّ امْرِئٍ يَجْرِى عَلَى أَعْرَاقِهِ وَالطَّبِيعُ لَيْسَ يَحُولُ فِي الْإِنْسَانِ (٣١)

(٢٩) الشق : صفة من الشقاوة : وهي خلاف السعادة . والمغلبة : الركوبة : للذكر والأنثى ،
 فالخير مغلبة ، والناقة مغلبة .

في البيت السابق أن الشاعر صادق هذا الرجل ، وحفظ فيه ، ونصح له ، فكافأه بهذا كله شر
 مكافأة ، إذ عناه ، وأساء إليه ، وافتى عليه الكذب . وفي الشطر الأول من هذا البيت : أنه هذا جرم
 نفسه المصادق المين ، والتناصح الأمين ؛ فأشقاها هذا الحرمان ، وجبرى بها في أتباع الضلال والخسران .
 والشطر الثاني تذييل يجرى مجرى المثل ، ويؤكد هذا الحس ؛ فالشيطان يركب الشق فيغريه ،
 ويشله ويشقيه .

(٣٠) القيم : صفة من القوم : وهو المهانة ، وشق النفس ، وبذانة الأصل ، وهو هذا من
 المشايخ ، والتفالس ، والمقاصح . وصد الكرم بمناء المام . وأصاب الشيء : أدركه ، وفاله . والكرامة :
 الكرم : مصدر كرم (كجل) : أي أحلى بسولة ، وبذل ، وجاد . وأصاب كرامة : أي أصاب
 من كرامة الكرماء وغيرهم وصلاهم . أو المراد بالكرامة : المال ، أو المنصب ، أو الحاء ، أو السلطان .
 وعادى صديقه : خاصمه ، وكان علوه وشائته . ومال بالإخوان : غلبهم : أي تنكّر لهم ، وقهرهم ،
 واعتزّ عليهم . وقد تكون الباء للمجاورة ؛ فهي مرادفة « عن » : أي ومال عن الإخوان : أي جفاهم ،
 وأعرض عنهم . وقد تكون للاستعلاء : بمعنى « عل » : أي ومال على الإخوان : أي ظلمهم وجار عليهم .
 إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت القيم تمردا

وصمه بالقوم ، وأجرى البيت مجرى الحكم والأمثال ؛ فالقيم إذا أصاب غيراً تنكّر لأصدقائه وإخوانه
 الذين أكرموا ، وأسنط إلى ؛ فجفاهم ، وماداهم ، وظلمهم ، وتمرد عليهم ؛ إذ الخير والكرامة والنعمة
 تظهر لزم القيم ، وتكشف من حسنه ومهالته ، وتضاهي لصاد طبيعته ، وتقره وطبيعته ؛ إن الإنسان
 ليطلق إلى رأه استغنى .

وهذا البيت شبه تكرار ، أو تلخيص لحس الأبيات الثلاثة السابقة ؛ وإن هذا الرجل بلقيه ، وسوء طبعه ؛
 شأن من صادق ، وجبه بشره من حفظ مفيه ، وتنكّر للتناصح الأمين ؛ فعدّ نصيحته شراً بهد أن اتفق
 بها ، ومادى إخوانه الذين أكرموا ، فالتفتوا من حوله ؛ فالتفت بنفسه ، وجبرى بها كما أراد في مسارب
 الضلال والخسران ، وأصبح من الأشقياء ، وبطابا للشيطان .

(٣١) أمراقه : أصوله : جمع عرق (يكسر فسكون) .. ويحول : يتغير ، ويتبدل
 (وبابه قال) .

يقول : إن كل إنسان يجرى في الخير والشر على ما تأصل فيه من الطباع والجيالات ، لا تبدل لهذا ، —

فَعَلَّامٌ يَلْتَمِسُ أَلْمُؤُوسَةً ؟ مِنْ بَعْدِ مَا عَرَفَ الْخَلَائِقَ شَأْنِي (٣٢)
 أَنَا لَا أَذِلُّ ، وَلَئِنَّمَا يَزْعُ الْفَتَى فَقَدْ الرِّجَاءُ ، وَكَلَّةُ الْأَعْوَانِ (٣٣)
 فَلْيَعْلَمَنَّ أَسْوُ الْجَهَالَةِ قَصْرُهُ عَنِّي وَإِنْ سَبَقَتْ بِهِ قَدَمَانِ (٣٤)

سرّاً تحويل . وهو بيت يجرى مجرى الحكم والأمثال . وصلته بأربعة الأبيات السابقة واسعة وثيقة ؛ فقد صادق الشاعر رجلاً ، ونصح له ، وأقام على وجه حتى خافه وماده ، وانطاع للشيطان غاصطاه ، وأشقاه . إن هذا الصاحب أساء بقلوبه إلى من أكرمه وصالاه ، وجرى كل منهما في الخير والشر على أحرافه وطباعه ؛ فلا سبيل إلى التحويل والتبديل .

(٣٢) « علام » : على أي شيء ؛ فهي « ما » الاستطعامية المسبوقة بحرف الجر « على » ؛ ولهذا حدثت ألفها . والاستطعام هنا يتم على الإنكار والاستهجان . وفيه مع هذا تأسف على التماس المساءة لمن يستحق الإحسان والتكريم . يلتبس : يطلب ويريد . ومناه (من باب قال) مساءة : فعل به ما يكرهه ، فأطاوله رحمه . والخلائق : جميع الخلقية ؛ بمعنى الخلق والناس . وشأنى : منزلى وقدرى ، وما عظم من أموري وأحوالي ، وما حمد من شمالي وأخلاقى .

يلتسر بنباعة شأنه ، ويمنزله بين الناس ، ويترك على حوله أن يلتبس بعد هذا مساءته . وصلة هذا البيت بالأبيات السابقة واضحة وثيقة ؛ فصاحبه الذى غاله ورياه جدواً يلتبس بمساءته بعد ما عرف كل الناس فضله وإحسانه .

(٣٣) « كلف » : ضمت ، وهان . ويزعه (من باب وضع) : يكتفه ، ويمنعه ، ويردّه . والمراد : يذله ، أو يهمله ، أو يرده مما يطمح إليه ، ويرغب فيه من حوائى الأمور . والأعوان : جميع من (يفتح فسكون) : وهو المعين والتصير .

برأ نفسه من الضعف والذلة . وقال : إنما يذل من فقد الآمال والأنصار . بمعنى هذا : انه قوى الرجاء ، كثير الأعوان ، عزيز مهيب ، فليح منيع . والفرض : تفتيش البدن من التماس مساءته ، وإحباط ما قد يحاوله من الكيد له ، والقدور به .

(٣٤) أسو الجهالة : الجاهل . وأكثر ما يذكر على سبيل الذم . وقصر عن الشيء (كقصد) : حيز عنه ، ولم يثله . وصدده التصور (يوزن للتصو) . و « إن » فى الشطر الثانى : بمعنى « لو » ، فأعو الجهالة قاصر عاجز عن إدراك شأن الشاعر ولو سبقته به قدماء .

أضمر الشاعر بعجده وبعد شأنه ، وعظم شأنه ، وقال : إن عدوّه عاجز عن إدراك ذلك الشأن على رغم ما قد يبدو من غلواهر سبقه وتقدمه . أى الحق : أن عدوّه عاجز قاصر حتى ولو حاول يكل جهده المسابقة والمجازاة .

وهذا البيت وسحة الأبيات السابقة فى ذلك الذى صادقه الشاعر فخانه ، وحفظ مفيبه فرماه ، وجازى الحق بالهتان . . .

فَلَرَبُّنَا رَجَعَ الْخَسِيسَ مِنَ الْحَصَى بِاللُّدْرِ عِنْدَ تَمَائِلِ الْمِيزَانِ (٣٥)
شَرَفٌ خُصِصْتُ بِهِ، وَأَخْطَأَ حَاسِدٌ مَسَاعَاتُهُ ؛ فَهَلَى بِهِ، وَقَلَّابِي (٣٦)

(٣٥) «ربما» : «رب» : حرف جر . وهي زائدة في الإعراب دون المعنى . وتفيد التكثير في مثل هذا المقام . وقد زيدت بعدها «ما» فكسبتها ، وهما تاء للدخول على الجملة الفعلية . ورجع الشيء (كقعد ، وقطع ، وضرب) : زاد وزله وثقل . والخسيس : الرذل ، الضعيف ، التافه ، اللدن الذي لا يمسأ به . والحصى : صفار الحجارة . الواحدة حصاة . واللدر : القلقل العظيم التكبير . وأحدثه دقة . وفي الأصل «عنه» ، وهو تحريف لـ «عند» . وتمايل الشيئان تمايلاً : تشابها ، وتساوياً ، وتعادلاً . وفي الوسيلة الأدبية ج ٢ ص ٩٧ «هند تراجم الميزان» . ويراد بتمايل الميزان : تعادل كليهما : أي تساويهما قبل أن يوضع الحصى في إحدهما ، واللدر في الأخرى . أو يراد بتمايل الميزان : استعداده لتقدير الموزون ، وضبط وزله . ورجع الحصى باللدر : أي خفّ اللدر ، فقلل الحصى ، وزاد عليه في الوزن .

في البيت السابق قال : إن الخسيس اللدن من الناس قد يسبق الماجد الشريف في مضمار الحياة . وهذا سبق لا يبرأ الحقيقة ، ولا يتقصا ، وهي أن سبق الخسيس حسنة وسقارته ، ويسبق الماجد الشريف مجده وشرفه ، ولو كان لاحقاً مسبقاً . وهذا البيت تمثيل يقوم مقام البرهان والدليل على صحة معنى البيت السابق ؛ فإلك توازن بين الحصى واللدر ، فيرجع الأول ، ويزيد وزنه ، ويصع هذا الترجسان تيقن لدرّ قيمته وثقله ، وتيقن الحصى حسنة وثقله .

(٣٦) الشرف : الرتبة ، والجد ، وعلو الحساب . وخصصت به : انفردت به ، ولم يشاركه فيه غيره . وأخطأ الهدف : لم يصبه . وحاسد : اسم فاعل من حسده : أي تمني أن تحصل إليه نعمة المحسود . أو تمني أن يصلها ، ويقلد عنه . والحساة : واحدة الحاسي في الكرم والجود ، وضروب الجهد . والعرب تسمى ماثر أهل الشرف والجهد مساعي ، لسميهم فيها . وأخطأ حاسد مساعته : أي أخفق حاسد ، فلم يصب ما طلبه من أمثال مكرماق ، على لم يشاركه ، أو لم يشابهني فيما اختصصت به من الشرف والجهد . وهلى (من باب ري) : أي تكلم بغير بمقول ، لمرض أو غيره ، وهلى بالهاء : إذا ذكره في حديثه . وقلام (كعداء ، ورياء ، ورضية) : أيقضه ، وكرهه غاية الكراهية ، فجهره واجتنبه .

اختصر مجلده وشرفه وعلو حسبه . وقال : إنه اختصّ بذلك الشرف والحسب العالي ، وإن حاسده حاوله فأخطأ ، أي لم تنهض به أعماله وأفعاله إلى ذلك المقام الرفيع ، فأتى به حسده إلى الهذيان ، وكراهية الشرفاء الأجساد . وشرة الأبيات الأخيرة من هذه القصيدة (أي أكثر من ريمها) تدور كلها حول ذلك الذي صادقه الشاعر ، وحفظ مغيبه ، وأخلص له النصيح ، فجازاه بالخيانة والبهتان . وفيها فخر ، وشكوى ، وهجاء . وبعضها يجري مجرى الحكم والأمثال .

وَقَالَ فِي صِبَاهٍ .

صَبَرْتُ إِلَى الْمُدَامَةِ وَالْفَسَوَانِي وَحَكَمْتُ الْقَوَايَةَ فِي عَسَائِي^(١)
وَقُلْتُ لِيُحْفَتِي - بَعْدَ امْتِنَاعٍ - إِلَيْكَ ، فَقَدْ عَنَانِي مَا عَنَانِي^(٢)
فَمَلِي عَنْ هَوَى الْمَحْسَنَاءِ صَبْرٌ يُوقِرُ عِنْدَ سَوْرَتِهِ جَنَانِي^(٣)

• يبدو أن هذه القصيدة اللاهية من شعره الذي نظمها بعد عودته من الاعتناق مع الخديو إسماعيل سنة ١٨٦٣ وهو في نحو الخامسة والعشرين في غيرة صباه ، وربما كان يشترك في حرب « كريد » سنة ١٨٦٥ - ١٨٦٧ وليس من الضروري أن يكون مثل هذا الشعر تصويراً حقيقياً لحماية لاهية ماجة ، فالبارودي مقتد بالفحول ، ناسج حل متوالفه ، حريص على مباراتهم ، وتجديدهم ، واستجاب أفراس الشعر ، وتقصى فنونه ، وطرق ما طرقوه من أبواب جدّه وطوره .

(١) صبا إليه (من بابي هذا وما) : مال إليه ، وحنّ ، وتشوّك . والمدامة : الخمر . والفواني : جمع الفانية : وهي المرأة التي ضنت بحسبها الطبيعي من الزينة ، والحسن المجلوب ، وحكمه في الشيء تحكما : جعل له الحكم فيه ، والسيطرة عليه . والفواني : الإيمان في الضلال ، والانهماك في الجهل . والعنان : سير الحجام الذي يملك به الدابة . وتحكيم الفواني في عتاله : كناية عن القيادة لها ، وسيطرتها عليه .

والشطر الثاني في معنى الشطر الأول . أو هو نتيجة له ، فإن ولجته بالخمر ، وصبرته إلى الحسان الفانيات من الفواني وأهله ، والانهماك في الجهل ، والإفراق في الضلال . أو لما صبا إليه . وأولع بالمدامة التي به الأمر إلى تحكيم الفواني في عتاله .

(٢) المفعلة : مصدر عَفَّ ، أي كَفَّ ، وامتنع ، وقرع عما لا يحلّ ، أو ما لا يعمل من الأعمال والأقوال . و « إليك » : اسم فعل أمر : بمعنى « ابعده » ، فيقال : « إليك عني » : في طلب التنصيص والابتعاد . وعناني كذا : عرض لي ، وشغلني ، وأحزنني .

في البيت السابق قال : إنه صبا إلى المدامة والفواني ، وحكم الفواني في عتاله . وفي هذا البيت : أنه قبل الصورة والالتطايح التي تردّ برهة ، فامتنع ، وكفّ بحكم حفته ، ولكنه مالم يأت أن يخرج عليها ، وباعدها لما عرض له ما شغله ، وعناه ، وسيطر عليه من أمور الهوى ، والهوى : والجهنم . والآيات الآتية توضح هذا المعنى وتفصّله .

(٣) الهوى : الحب ، والشق (وقله من باب صدى) . وصبر عنه : حبس نفسه عنه . ووقره توقيراً : حمّله حل الحلم واليقار ، والثبات والسكون ، والزنازة والاستقرار . وطاعه ضمير « صبر » . وسار (من باب قال) : وثب وثار . وسورة الهوى : شدته وسرّته . وحده وهياجه . والحنان : القلب . وسورته : أي سورة الهوى : أو سورة الحنان : أي ثورانه واضطراره بسبب الهوى .

وَكَيْفَ يَصِفُ مَنْ ذَاكَ عَلَيْهِ كُؤُوسُ هَوَىٰ مِنَ الْخَلْقِ الْحَسَنِ؟^(٤)
 أَجَاذِلُ ، خَطْنِي وَشُتُونِ قَلْبِي وَخُذْ مَا شِئْتَهُ فِي أَىِّ شَانٍ^(٥)
 فَقَدْ شَبَّ الْهَوَىٰ مِنْ رَامٍ نَصَحَى وَأَغْرَى فِي الْمَحَبَّةِ مَنْ نَهَانِي^(٦)

== قد يكون هذا الكلام مستأنفاً . وقد يكون من مقاله لفته لتأكيد إيمادها وتيسبها ، أى : قلت لعفى : لا صبرل من هوى الحسنة ، فقد صبرت إليها ، وتيسستنى ، وإن حبها ليساور قلبى ، فلا أجد صبراً يردنى إلى السكينة والوقار .

(٤) الاستفهام فى أول البيت : معناه الذى : أى لا يصفى . أو هو يفرق : مضارع أفاق السكران من سكره إفاق : أى صما ، وائتبه ، وعاد إليه وعيه وحقه . والكؤوس : جمع الكأس : وهى القنح : أى الإلقاء يشرب فيه . قيل : ولا تسمى الكأس كأساً إلا فيها الشراب . والخلق : جمع الخلقة : وهى السوداء المستعير وسط العين . ويراد بالخلق هنا : الميرون . والحسان : جمع الحسنة . أو الحسنة .

يشبب بالدانيات الثلاثى صبا إلين ، وتعلق بين ، وينتو بيمين ، وما فيها من السحر والفتنة ، والجاذبية والجمال . ويقول : إن نظراتهن ، أو النظر إلين كنوس حب وفراغ تدور على الحب المستهام ؟ فلا يكاد يصحرو أو يفرق . أو فلا يفرق بها صدره ، بل تشتت صباهته وهيامه .

(٥) الهزئة فى أول البيت : لنداء القريب . وعاذل : اسم فاعل من عذله (من باب ضرب وقتل) : أى لامة ، محاولاً صده عن هواء . ويغلى : أمر من غلا غلغلة : أى تركه ، وتغل عنه . والشدين : جمع الشان : وهو الأمر ، والحال .

فى البيت السابق قال : إن نظرة الحسنة إليه ، أو نظرتة إليها كأس هوى تدور عليه ، فلا يكاد يفرق منها . أو فلا يفرق بها ذرعه ، بل تصاعف وجده ومحبته . وفى هذا البيت اتجه إلى عاذله فى الهوى قائلا له : اتركنى مع شتون قلبى وساجاته فى هذا المجال : ولك ما تشاء فى أى شأن آخر غير شأن الهوى والفراغ . والفرض تيسسه من جدوى البذل ، فإن قلبه متعلق كل التعلق بهذه الحسنة ، ولا سبيل إلى صرفه عنها .

(٦) شب النار (من باب رد) : أولفها ، وأغمرها ، وولمها . والهوى : الوجد ، والحب ، والفراغ . ورام الهوى (من باب قال) : أرادته وطلبه . والنصح : مصدر نصحه ، ونصح له (كنه) : أى دعاه إلى ما فيه صلاحه ، ونهاه عما فيه الفساد . وأغراه بكذا إغراء : أولمه به ، وحضه عليه . و « فى » هنا : بمعنى « الباء » . أو ضمن « أغرى » معنى فعل يتصل به « فى » مثل « أغرق » . و « من » فى الشطر الأول : فاعل « شب » . و « الهوى » : مفعوله . و « من » فى الشطر الثانى : فاعل « أغرى » : أى وأغرائى من نهانى بالهبة . والشطران فى معنى واحد .

يقول : إن لاصمه ضاعف بنصحه هواء ، وهاجه ، وأجج فى قلبه نار . وإن ناديه من الهبة أغراه بها : وبنيه عنها حرصه على الإغراق فيها ؛ فالنصح والنبه أنتجا ضد المقصود منهما . وهذا البيت تمثيل =

رَضِيتُ مِنَ الْهَوَىٰ بِتَحْوِيلِ جَنَسِي وَمِنْ صَلََةِ الْبَحِيلَةِ بِالْأَمَانِي^(٧)
وَكُنْتُ بِطَالِبٍ فِي النَّاسِ خِلًا يُنَاصِحُنِي ، فَعَطِلَ قَدْ كَفَانِي^(٨)
بَلَوْتُ النَّاسَ ، وَاسْتَحْبَرْتُ عَنْهُمْ صُرُوفَ الدَّهْرِ آتَا بَعْدَ آتٍ^(٩)

سرقطصير وثأكيد لمن البيت السابق ؛ فإن عشقه وفرامه الهوى من حذل الماذل، ونفع الناصح، ونهى
الناهي ؛ بل إن العذل والنصح والتجرب يضاهف الهوى، ويضرم ناره، ويذكرى أواره .

(٧) التحول : المزال ، وضيف الجسم . ويحله المرض ، أو التعب ، أو الحب ، وأحله : أمر
حزله ، وأضعفه ، وبراه ، وأضناه (ويحل التحول كضعف ، وعلم ، وفصر ، وكرم) .. ووصله (من باب
وعد) وصلًا ، وصلة : ضد هجرة ، وأعرض عنه ، وبجاه . ويكون الوصل في خلاف الحب ، وفي دعائه .
والأمانى (بالتحفيف ، والتشديد) : جميع الأمنية : وهي ما يمتناه الإنسان ، ويعتقده ، ويرغب فيه ،
ويقدّر حصوله .

يقول : إن المشق لحله وحزله ، وأذابه ، وأرق جسمه ، وأضناه ، وإنه مع هذا كله راض به ، حريص
عليه . وإن مشوقه . بحيلة بالقرب والوصول ، مفرقة في الإعراض والهجرات ؛ ويرضيه منها أن تمليه
بالوصول ، أى تجعله مما يترقى إليه ويمتناه . أو تكلفه في حبه الآمال إن لم يمكن الوصول . وصلة هذا
البيت بالأبيات السابقة واضحة وثيقة . وفي الأبيات الآتية استيفاس من الخلل الهوى ، والصدق الصادق
الزيد . ولعل الصلة بين هذين المعنيين أو الرضين : أن المشق لا يقوم إلا على الحب الصادق ، والإخلاص
التمام ، أما الإيحاء بين الناس فأكثره قائم على الكذب والرياء والتفادى .

(٨) الخلل : الصديق المختص ، الصادق الود ، وبطله الخليل . ويناصحني : ينصح لى ،
وأنصح له . ونصح له المودة (كفتح) : أى أغلصها ، وأصفاها ، وأصفاها . وكفاني عقل :
أى أغنانى عن الأخلاق .

والمنع : أنه طلب الخليل المناصح ، فلم يجده ، واستيقض منه ؛ فاكثف بمقله يستنصحه ،
ويجتنى به ، ويطلبن إليه ، ويعتمد عليه بعد يأسه من المشور على الأخلاء الأصفياء . والأبيات الآتية
تفصّل هذا المنع وتؤكده .

(٩) بلاء (من باب عدا) : جربه ، واختبره ، وامتنحه . واستخبره : سأله الخبر ، أو سأله
دنه . ويقال : استخبرته من كذا ، فأخبرنى به . واستخبرت صروف الدهر عنهم : أى سألتها عنهم ،
وطلبت منها أخبارهم وأخبارهم ، وحقيقة أحوالهم ، وما يطن من صفاتهم وأمودهم . وصروف الدهر : فواصل
الزمان ، وشذائده الأيام : جميع صرف (بفتح فسكون) . والآن : الوقت والحين . وآتا بعد آت : أى حينًا
بعد حين : أى ألحمت فى السؤال ، وكررت الاستخبار ؛ فتكررت لى لإجابة ، وتأكدت ، وتوثقت ..
واستخبرت صروف الدهر عن الناس : أى عرفت حقيقة أخبارهم من نوابل الدهر ، وحداث الزمان .

جزى الله الشدادك كل خير عرفت بما علوى من صديق

فَمَا أَبْصَرْتُ غَيْرَ أَيْحَى كِلْدَابٍ خُلُوبُ الْوَدِّ ، مَصْنُوعُ الْحَنَانِ^(١٠)
يُصْرَحُ بِالْمَعَادَاةِ وَهُوَ نَاءٌ وَيَمْلُقُ فِي الْمَحَبَّةِ وَهُوَ ذَانِي^(١١)
لَهُ فِي كُلِّ جَارِحَةٍ لِسَانٌ يَلُورُ بِهِ عَلَى حُكْمِ الزَّمَانِ^(١٢)
فَلَا تَأْمَنُ عَلَى نَجْوَاكَ صَدْرًا قَرُبُ خَلِيلَةٍ تَحْتَ الْأَمَانِ^(١٣)

(١٠) الكلاب (بوزن الكتاب) : الكلب : مصدر كذب (كضرب) . ولغ الكذاب : الكذاب . وغلوب الود : أي وده كاذب خادع زائف : من غلبه (من باب قتل وكتب) : إذا خدعه بالسلطان ، ولطيف الكلام . والحنان : رقة القلب ، والرحمة : مصدرحن عليه (كخف) : أي حلف عليه ، وأشفق . وحنان مصنوع : أي حنان خادع كاذب ، لا ينبع من القلب ، ولا يتصل به .
في هذا البيت والبيت الذي قبله : أنه اختير الناس وجرهم ، وما زالت ضرور الزمان تكشف له حقائقهم ، وتنبئ إليه أخبارهم ؛ فلم يجد فيهم غير الخيانة والتفاني ، والود الكاذب ، والحنان الزائف . وفي الأبيات الآتية تفصيل وتأكيده لهذا المعنى .

(١١) يصرح بالمعاداة : يظهرها ، ويكشفها . وناء : بعيد (وفعه من باب سمي) . وذلُق اللبن والشراب بالماء (من باب نصر) : أي مزجه وخلطه ، فأكثر مائه . ومن الهجاز : فلان يملق الود : إذا لم يخلصه . وماذله في وده ماذقة ومذاقاً ، فهو مذاق . وذان : قريب (وفعه من باب سما) . والواو في شطري البيت : واو الحال . والجملة الاسمية يمد كل منها : جملة حالية .

يقول : إن أخطأ الكذاب ، الخلوب الود ، المصنوع الحنان إذا ابتعد عنك صرح بمداوته لك ، وإذا اقترب منك داهن في وده وماذق ، وكذب ويافق .

(١٢) له : أي لأغنى الكذاب ، في البيت الماثر . والجارحة : العضو العامل من أعضاء الجسد ، كاليد والرجل : اسم فاعل من جرح : أي عمل ، واكتسب ، وأفسد : مستعار من جرح بغطاء الأصل (وبابه قطع) . وجمع الجارحة بجوارح . والحكم (يضم فسكون) : مصدر حكم (كنصر) : أي قضى ، وفصل . والشرط الأول : كناية عن تعدد السنة الكلوب المذاق ، ونجاعتها عن الصدق والاستقامة . والمعنى : أن أخطأ الكذاب يتقلب بلسانه مع أحكام الزمان وتقلباته ؛ فمن سألته زمانه داهنه الكذاب بمسول القول ، وحلو الكلام . ومن عاداه دهره جرحه بأنياب وأغراس . وصلة هذا البيت بالبيتين السابقين واضحة وثيقة ؛ فالفكرة في الأبيات الثلاثة تنور حول الكذب والخيانة ، والتقلب ، والتلون ، وكلها نقائص وشوائب شائعة في الناس .

(١٣) انتهى في أول البيت : معناه النصح والإرشاد . والتنجي : آسر . والصدور وماؤه . وفيه القلب . ومن كلامهم «صدور الأحرار قبور الأسرار» . و «وب» : حرف جر ، يختص بالذكورة ، ويفيد التكثير في مثل هذا المقام . والتهدية : اسم من خدعه (من باب قطع) : أي غشه : أي أظهر له غلاف ما يحشيه ، وأراد به المكروه من حيث لا يعلم .

وَلَا يَتَزَوَّدُ قَوْلٌ دُونَ فِعْلٍ فَمَنْ الْحَسَنُ قَبِيعٌ فِي الْجَبَانِ^(١٤)
وَمَا أَنَا - وَالطَّبَاعُ لَهَا انْخِدَاعٌ - بِذِي تَرْفٍ يَرُوجُ بِالشَّئَانِ^(١٥)
رَحِيتُ بِشَيْمَتِي ، وَعَرَفْتُ نَفْسِي وَلَمْ أَذْخُلْ - لَعَمْرُكَ - فِي قِرَانِ^(١٦)

— في أربعة الأبيات السابقة : أنه اعتبر الناس ، عرف ما يجيبهم من المناقص والمطالب ، كالكذب ، والخلاعة ، ودوران الكلوب بلسانه مع أحكام الزمان وتقلباته . وفي هذا البيت نصيح وإرشاد ببناء حل هذه الظهرة ، فقال : بالغ في كتمان سرّك ، ولا تأمن عليه إنساناً ؛ فكثيراً ما يتجوى الخلل والخديعة تحت الأمان والاطمئنان ، وكثيراً ما يفتيك بغيره وشره من يحتل إليك أنه أمين على نجواك وسرك ، حريص على أملاكك وسلاحك .

(١٤) انتهى في هذا البيت كماله في البيت السابق : يراد به النصيح والإرشاد . وقرأ غروراً : خدعه ، وأطمعه بالباطل (وبابه رد) . واغتر به : الخدع . والجنى : لا تظنن إلى قول امرئ ما لم يصدقه فعله ؛ فالقول بلا فعل خداع وقنير ، وكذب وجبن . والجن نقيصة كبيرة تقع الجبان ، وتسمه بالضعف والخوان ، وتنحيه عن الخير ، ولا يبق له معها حسن أو فضيلة . أو معنى الشطر الثاني : أن هاجس الجبان قبله ، ومزاياء مشاين . وصلته بالشطر الأول : أن التفرير والخذاع بالأقوال المجرّدة من الأفعال — جبن وصف ولزم ويقع .

(١٥) الطباع : جمع الطبع : وهو السجية ، والقيمة ، والجليلة التي جبل الإنسان عليها : أي فطر وخلق . وظله الطهية . وانخدع الخداعاً : مطاوع خدعه : أي غطله ، وأظهر له خلاف ما يظنه ، وأراد به المكره من حيث لا يعلم . وجملة « والطباع لها الخداع » : جملة حالية مترتبة بين المبتدأ وخبره . و « فوه » : اسم بمعنى صاحب . والباء زائدة قبله ، وبعد « ما » النافية في أول البيت . والتريف : التهمة الواضحة : مصدر ترف (من باب فرج) : أي توسّع في التهمة . وروحه ترويضاً : أفرجه . وأخافه . والشئان (بمكر الشين) : جمع الشين (بفتح الشين) : وهو الجلد القديم الهالي اليابس الصلب ، تحركه تشمع له صقلاً . ومن أمطالم : « لا يقطع في بالشئان » : أي لا أقصع لحوادث الدهر ، ولا يروى ما لا حقيقة له . والقعقة : تحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت .

انتقل الشاعر في هذا البيت إلى الفخر ببعض شلاله ومكانه ؛ فطبعه قوي حذر لا يخدع . وهو تيس من المتزيين الذين يتشعرون لحوادث الدهر ، ويروهم ما لا حقيقة له . ولا ريب أن الترف والتوسع التهمة وثيق الصلة بالجبن والضعف ، والانخداع والخوف مما ليست له حقيقة ، أو مما لا يفي .

(١٦) الشبهة : الخلق ، والطهية ، والفريضة ، والمادة ، والجليلة التي جبل الإنسان عليها . ورثبت بشيئ : أي اعتزّت بها ، وفطنتها على غيرها ، ولم أعطها بما لا أرقصه من شيم الناس ، وأغلاظهم . أو المعنى : رثبت بشيئ من التفرير والخذاع والاختداع ، والفتح والجبن ، والكذب ، والضعف والخوف والالتماس والخوان . وعرفت خلفي : أي عرفت لها عزتها وكرامتها ، فجنبتها الجبن والضعف ، والخذاع —

وَمَا تُرِي الْمُدَمَّ هَوًى ، وَلَكِنْ عَقَلْتُ بِحَدِّ سَوْرَتِهَا لِسَانِي (١٧)
مَخَافَةَ أَنْ تَهَيِّجَ بَنَاتِ صَدْرِي فَيُظْهِرَ بَعْضُ سِرِّي لِلْعِيَانِ (١٨)
وَقَدْ بَلَوتُ النَّعْرَ - أَبْنِي صَدِيقًا ، أَوْ أَجْنُ إِلَى مَكَانٍ؟ (١٩)

= والانخداع ، والاتساع والارتياح . و« لمعرك » : قسم بحياة المخاطب لتأكيد الكلام . وهو جملة معترضة بين الفعل ومطلعه ، وهو الجار والمجرور : « في قرآن » . والقرآن (بوزن الكتاب) : الحبل يقرن به البحر ونحوه ، أي يربط ويقاد : أو يقرن فيه بيران . أو الحبل يشد به الأسير . ومعنى الشطر الثاني : أنه لم يدخل في شيء يذله ، ويؤن أمره . أو المعنى : أنه حرص على أن يبقى منفرداً بنفسه غير مقترن بغيره ؛ لكثرة ما رآه وبلاه من شوائب الناس صمايحهم .

في الآيات ٩ - ١٢ تنديد بمن خبرهم من الناس ، فهاهنا ضرورهم ولقاء صميم . وفي البيت ١٣ - ١٤ نصيح وإرشاد ، وتنبية وتعليل في صورة الحكمة والمثل . وفي البيت ١٥ - ١٦ غفر بترفعه عن العايب ، ومواطن الضحك والانتكاس .

(١٧) المدام (بضم الميم) : الخمر . والمعنى : مصدر هو به (من باب صدى) : أي أحبه ، ورفق فيه ، وتعلق به . وعقد الحبل ونحوه (من باب ضرب) : لتقيض حله . وعقد لسانه : أي قيّده ، وكفه ، وصانعه ، فلم يطلقه بما يشتهه ويفسره . وسورة الخمر : حديثها ، وشذبتها ، وقوة تأثيرها في شاربها : اسم من سار (من باب قال) : أي وثب ، وثار . وسار الشراب في رأسه : دار ، وارتفع فيه . وجد السورة : كسرهما ، أو منعهما : مصدر حذ (من باب رد) : أي منعه وكفه وصرفه .

والمعنى - فيما يبدو لنا - أنه لا يمدن الخمر ، ولا يشربها من تعلق بها ، أو رغبة فيها ، وإن شربها فيلصق واحدال وقلة ؛ فإنها - في زعمه - إذا كانت قليلة محدودة غير ذات سورة ، تمقد لسانه ، أي تقيده وتكفه وتصله وتضبطه ؛ فلا ينطق بكلمة تشتهه ، أو تضره وتؤذي به بإفشاء شيء من أسرار . والبيت الآن يرجع هذا المعنى ويخلصه .

(١٨) المخافة : الخوف ، مصدر خاف . وهو معمول لأجله ، يبين سبب الفعل « عقد » في الشطر الثاني من البيت السابق ، أي عقدت لساني بكسر سورة الخمر خفيًا من أن تهيج بنات صدرى . وجاء الفاء « ثار » . وجاهه : آثاره ، يمتلئ ويلزم (وبابه فيها باع) . ولطاعه على التمدى فسير « سورة » . أو ضمير « المدام » في البيت السابق . ويملعه « بنات صدرى » . ولطاعه على الزوم « بنات صدرى » . وبنات الصدر : الحشوم . وقد يراد بها هنا : الأسرار التي تكتم . أي مخافة أن تهيج سورة الخمر هوى ، فأبوح ببعض سري . أو مخافة أن تهيج سورة الخمر ما أكتمه من أسرارى ، فيظهر بتأثيرها بعضها . والبيان (بكسر الهمزة) : مصدر حاينه معانته وحيالًا : أي رآه بعينه . وهو تأكيد للمعنى الظهور والاتساع والانكشاف ، أي فيكشف انكشافًا تامًا لا ويب فيه ، ولا غطاء .

(١٩) « فم » : « في » : « حرف جر . و « ما » : اسمية استفهامية ، جرت « في » فصلت ألفها ، وبقيت الفتحة دليلًا عليها . ومعناها في أي شيء . أو المعنى : لأي شيء إذا كانت « في » بمعنى -

وَلَسْتُ أَرَى مِثْلَ صُنْعِ وَجْنِ الْبَيْتِ بِالرُّدَى يَتَسَابَقَانِ (٢٠)
 قِيَا مَنْ ظَنَّ بِالْأَيَّامِ خَيْرًا رُوَيْتَكَ، فَهِيَ أَقْرَبُ لِلْجِرَانِ (٢١)
 أَتَرْغَبُ فِي السَّلَامَةِ وَهِيَ ذَا ؟ وَتَجْمَعُ لِلْبَقَاءِ وَأَنْتَ قَانِي ؟ (٢٢)

« لام التعليل ». و « الواو » بمعنى : وأوالحال . والحيلة الفعلية بمعناها الحالية . وبلوت الدهر (من باب خدا) : جريته ، واختبرته ، وعرفته ، وتمرست بأحداثه ونوائبه . وأبغى : أطلب . وأريد . ومن إليه حينئذ : اشتاق .

والمنى : أنه ابتلى أهل زمانه ، فعرف أن إخوانهم كاذب ، وودادهم غادح ، وحنانهم مصنوع غير صادق ، فاستهين منهم ، وانصرف عنهم ، وشرذ بنفسه بعيداً عن أماكنهم وديارهم ويحسبهم .
 أو المنى : أنه ابتلى الدهر ، وتمرس بأفاته ، وعرف ما يحمله للناس من الصروف والأحداث ، وما يفتطمع به من البليات والشرور ، فزهد في الدنيا ، وانصرف عنها ، وأثر الوحدة والافراد ، ولم يجد غائلة من ابتداء الأصغاء ، واتخاذ الإخلاء ، والحنين إلى الأمكنة ، والاستقرار في الديار .

انتقل الشاعر في هذا البيت وأربعة أبيات بعده إلى التبرم بالزمان وأهلوه ، والتزهيد في الدنيا وباطلها ، وعاد بمعنا إلى ذكر الخمر ، والترغيب فيها ، زاعماً أنها تكشف هموم الحياة أو تخففها ، إرتعاجاً للمخاطب النفسية أو جوعتها . وقد أسلفنا أن هذه القصيدة ما نظمها الشاعر في صباه وشبابه ، وجميع فيها طائفة من أبواب الشعر وأغراضه ، وفنون الكلام وضروبه ، يروضه ، ويظهره ، ويجهد نفسه طريقه ، ويجاري به من سبقه من فحول الشعر ، وأمراء البيان .

(٢٠) جنب الليل (بضم الجيم وكسرهما) : ظلامه ، واختلاطه . أو طائفة منه . ويراد بالصبح والجنح : النهار والليل . والرؤى : الموت والحلاك (وقوله من باب صدى) .
 وهذا البيت توضيح وتأكيد لمنى بلاء الدهر في البيت السابق ، ولنتيجة للابتلاء والاختيار ؛ فإن الليل والنهار يتباريان ويتسابقان ويمتاقبان على الإنسان بالرؤى والحلاك ، والبليات والأفات .

(٢١) أروى في سيرة إردواد : رافق وأقاد وتمهل . و « رويد » : تصغير ترقيم ل « إردواد » . ورؤيتك : تمهل ، وأتد ، والمنى : لا تمهل فتحسن الظن بالأيام ، وتقرب منها الخير . والجران (بكسر الحاء وضمة) : اسم من حرن القريس ويحوي (كقصد وقرب) : أي عاصي صاحبها ، وعاصره ، وخرج من طاعته وقيادته .

والمنى : لا تحسن الظن بالأيام ، ولا تتخذ بها ، ولا تطمئن إليها ؛ فحرائها قريب متوقع ، وكثيراً ما تجبه الإنسان بالأذى والمكره . والفرس النصح والإرشاد ، وألخص على التثنية والتأني . وطول التدبر والتفكير في الحياة الدنيا ، والتحذير من زعورها وعداؤها .

(٢٢) الاستهزام في أول البيت : معناه التصعب ؛ فالشاعر هنا يتعصب ، ويصعب غيره ممن يرضى في السلامة . أو هو للإذكار والاستهجان . والراو في شطري البيت : وأوالحال . والحيلة الاسمية بعد كل منهما جملة الحالية . والسلامة داء : لأنه إذا كان الداء ينتهي بالإنسان إلى الموت والحلاك ؛ فلا ريب أن السلامة «

دع الدنيا ، وَسَلِّ اللَّهُمَّ عَنْهَا إِذَا اِشْكُرْتَ - بِصَافِيَةِ الدُّنْيَا (٢٣)
فَإِنَّ الرَّاحَ رَاحَةً كُلُّ نَفْسٍ إِذَا دَارَتْ عَلَى نَعْمِ الْقِيَانِ (٢٤)
مِنَ الْخَمْرِ الَّتِي دَرَجَتْ عَلَيْهَا أَفَانِينَ مِنَ الْعَصْرِ الْفَوَاقِي (٢٥)

= مثله ، وأن الموت نهاية كل منها ، وهو حتم لا محيص عنه ، ولا ملأ منه ، وإن طالت السلامة .
والمنى : أن المتهافل حل الدنيا يطعم في السلامة ، ويحرص عليها ، وهو يعلم أن الطمع والحرص لا ينجيانه من الموت ، ولا يؤخران أجله . ويجمع المال ويحويه ، وكأنه باق مخلد مع استيقانه بالردى والمهلك .
وكل هذا بما يثير الدهش ، ويدعو إلى العجب ، أو يدعو إلى الإنكار والاستعجاب . وفي خمسة الأبيات الآتية يعود الشاعر إلى ذكر الخمر ، ويحسبها ويرسبها ، ويدعو إليها ، ويرقب لها . وقد يكون الغرض من هذا كله مقصوداً حل رياضة القبول ، وبهاكاة القداى ، والتفعل بين اثنين شئ من الكلام ، وطرق ما طريقه من أبواب الشعر وأغراضه .

(٢٣) دح : اترك ، واجتنب . والحلم : الحزن والقلق والأفراح واضطراب النفس . وسلاخ من همه ، ومن همه تسلياً : كشفه عنه ، وأزأله . واشكرت : تكذبت ، وزال صفاتها . والدنان : جمع دن (بوزن سيم وسهام) : وهو الراتود العظيم ، لا يقعد إلا إذا حفر له في الأرض ، يكون كهيئة الحب ، إلا أنه أطول منه ، وأوسع رأساً . والحب : الحرة الكبيرة ، أو الخابية . وصافية الدنان : كناية عن الخمر الجيدة المشقة التي تركت زماناً في دناتها ، أي سبابها ، أو غوايتها حتى رقت ، وراقت ، وصفت .
يزعم أن الخمر تكشف هوم المهوم ، وتريح باله . ويقول : اترك الدنيا إذا كدرت عليك ، أي اعرض عنها ، ولا تشغل بها ، وأزل عن نفسك أحوالها بهت الحان ، صافية الدنان .

(٢٤) الزاح : الخمر . قيل : لأن شاربها يرتاح إذا شربها ، أي يستر وينشط . والنم : التطريب في الدناء ، أي ترجيع الصوت ، وده : وتقصيته . والقيان : الإماء المغنيات ، الواحدة قينة (بوزن بيضة) : وهي المرأة المملوكة ، أي خلاف الحرة . وقد يراد بالقيان هنا النساء المغنيات مطلقاً .

يزعم أن الخمر إذا دارت فكيفها حل شاربها مع لغعات الدناء - أراحت لقصيم ، وحملت إليهم السرور والفرح ، والاحتياج بلذات القرب ، وجماع الدناء ، ودولية الجوارح اليهيب الحسان ومن يفتنين .

(٢٥) درجت عليها : مرت عليها . وأفانين : غروب وألواح . وهو ينفق من الصرف : أي التفتين . وإنما لونا هنا لضرورة وزن الشعر . الواحد أفنين (بوزن أسطول) . أو هو جمع أفنان وفنن ، وما جمع فن (بفتح الفاء وتشديد النون) . والنصر : جمع نصر : وهو الزمان ، والدهر . ونصر أفانين : أي منوعة مختلفة ، وهذا أدى لتعريفها وأصنافها ، ولعل قيتها . والقواني : التي فئت ، وذهبت ، وانقضت : جمع القاني .

والمنى : أنها لم تهبط ، لقبة ، صافية ، مشقة بطول ما مر بها من المصور المتعبرة .

تَخَالَ وَمِيزَهَا فِي الْكَأْسِ نَارًا فَتَلْمِسُهَا بِأَطْرَافِ الْبَنَانِ (٢٦)
 فَخُذَهَا غَيْرَ مُدْخِرٍ نَفِيسًا فَلَيْسَ الْعَمْرُ يَدْخُلُ فِي ضَمَانِ (٢٧)
 وَخَلَّ النَّاسَ عَنْكَ ؛ فَلَيْسَ فِيهِمْ سَلِيمُ الْقَلْبِ عِنْدَ الْإِسْتِحْنَانِ (٢٨)
 تَمَائِيلٌ تَدُورُ بِلَا عُقُولٍ وَالْقَاطِطُ تَمَرٌ بِلَا مَعَانِي (٢٩)

(٢٦) تخال : تحسب وتظن . والوييس : اليعان والبريق (ولعله من باب وعد) . والكأس : القمح ، والكوب ، والإناء يشرب فيه . قيل : ولا تسمى كأساً إلا وفيها الشراب . ولمع (من باب ضرب وبصر) . وفي الأصل : « فصلهما » وهو من أخطاء الناسخ . والبنان : الأصابع . الواحدة بنانة . في البيت السابق أشار إلى تحقق الخمر التي يصفها ويصحبها ، ويدعو إليها . وفي هذا البيت إشارة إلى إحدى نتائج التمتع ، وهي الصفاء والتقاء ، واليعان والوييس الذي يحفل إلى الشارب أنها نار متقدة في الكأس ؛ ولهذا يتحرز منها ويعطيها ، فلا يصبها إلا بأطراف أصابعه .

(٢٧) مدخر (بالذال واللام) : اسم فاعل من ادخر الشيء ادخاراً : أي أهداه للعقب ؛ أو عبأه لبث الحاجة ؛ وفيه لمع : أي يتفلسف فيه ، ويرغب . والنفيس : المال الكثير . والعمر (بهم فسكون ، أو يفتح فسكون) : الحياة . واليهان : الكفالة . ومعنى الشطر الثاني : أنه لا شيء يضمن الحياة ، ويكفلها ، أي يلزم إطالتها وسلاستها من الآفات .
 يحض : على شرب الخمر ، وبذلك النفيس المال في شرائها قبل فوات الفرصة ، والقضاء الحياة .

(٢٨) خلَّ الناس عنك : أي أتركهم ، وأجشهم ، ولا تباليهم . وما بعده تعليل وتوسيع للتخلية المطلوبة . وسلامة القلب : كناية عن سلامة دواحي الصدر ، أي البراءة من آفات النفس وسوءاتها : كالخقد والحسد . وهمة : امتحان . : همة وصل ، وإنما قطعت هنا لضرورة وزن الشعر .
 يقول : لا تبالي الناس ، ولا تكثر ظلم ؛ فإنك إن اجتبرتهم رأيتهم مرضى القلوب ، معتل الضمائر ، يعمل بعضهم لبعض الحقد والضغينة ، ويتطوى صدورهم على البغضاء والشحناء .

في حصة الأبيات السابقة وصف الخمر ، وصحبها ، ودعا إلى احتشائها ، وفي هذا البيت وأربعة الأبيات بعده تنديد بمن شربهم ، فساده مخبرهم ، وقلامهم . وقد يكون هذا اقتضاباً ، أي التقالاً من غرض إلى غرض آخر بلا صلة ، أو تمهيد ، فالاحتضاب غير قليل في الشعر العربي القديم الذي تأثر به البارودي ، ونسج على منواله . وقد تكون الصلة بين هذين الممنوعين : أنه لما حض على شرب الخمر هوّن أمر الناس على شاربها ، فالتسهر بالشراب لا يبالي نقد الناس ، ولا يحفل بسلامتهم .

(٢٩) « تمائيل » : منحوخ من الصرف أي التثوين . وإنما فوّن هنا لضرورة وزن الشعر : جمع تمال : وهو الصورة . وما تحت من حبر ، أو صنع من نحاس أو نحوه كهيئة الإنسان وغيره .
 في البيت السابق قال : إن قلوبهم غير سليمة ، وإن التجربة تكشف ما تتطوى عليه صدورهم من -

تَفَافَهَتْ الْأَسَافِلُ بِالْأَعَالِي قَمَا يُنْزَى الْهَجِينُ مِنَ الْهَجَانِ (٣١)
 تَرَى كُلَّ ابْنِ أَنْثَى لَا يُبَالِي بِمَا جَرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْهَوَانِ (٣٢)
 يُدِلُّ بِتَفْصِيهِ إِنْ غِثْتُ عَنْهُ وَيُشْرِقُ بِالزُّلَالِ إِذَا رَأَى (٣٣)
 فَمَنْ لِي - وَالْأَمَانِي كَاذِبَاتٌ - يَوْمَ رَفَى الْكَرْيَةَ أَرْوَانِ (٣٤)

— الأصفهان والأحقاد . وفي هذا البيت شبههم بالثعالب المتحركة ، ويجردهم من العقول والألهام ،
 ويجرد كلامهم من المعاني والأفكار .

(٣٠) الهجين من الناس : من ولد من أب عربي وأم أجنبية . والهجين أيضاً : التيم .
 والهجان (بكسر الهاء) من كل شيء : خياره ، وخالصة ، وأجوده ، وأكره أصلاً ، ورجل هجان :
 كريم الحسب ، تقي الأصل .
 والمعنى : أن سفلة الناس وعلتهم ، وهجنهم وهجانهم غفلطون متشابهين في الشرور والمناقص ،
 لا يفتاوتون ، ولا يتمايزون . والشاعر في إحدى مبياته :

كفيع الناس عما كنتُ أسمعه . واستحكم القدرُ في السادات والحكم

(٣١) ترى كل ابن أنثى ، أي ترى كل امرئ ، كما يقال : ترى كل ابن أم . وجرى هل نفسه
 أو هل غيره جبرية : أي جنى جنابة . والمراد : بما جرّت عليه الدنيا . والهوان : الذل
 والحقارة .

في ثلاثة أبيات السابقة أشار إلى بعض النقاظ الشائعة ليعين بلام . وفي هذا البيت إشارة إلى
 لقيصة الصمصغ والحين ، وقلة المبالاة بما يصحهم من المذلة والهوان .

(٣٢) أدل عليه إدلالاً : اجترأ ، أو اقتصر . وظله ذلك عليه (كغف ، وول) . ومن
 كلامهم « همدل » بفضله وشجاعته . وشرق بالماء (من باب تمب) : غصن به ، أي وقف في حلقه ،
 فلم يكنه يسهه . والزلال : الماء العذب ، الصافي ، البارد ، السلس ، السهل ، الذي يزل في الخلق ، أي
 يمر فيه سريعاً . والشرق بالزلال : كناية عن الاضطراب ، والخور ، والإلتكاس .
 يقول : إن غبت عنه أدل بنفسه ، ويجري ، وأقتصر . وإذا رأى أعصب ، وأرتعه ، والكسر ،
 وبان كذب إدلاله ، فأخذاه يجهين محضه ، ويحشون مواجته .
 انتقل الشاعر في هذا البيت وسعة الأبيات بعده إلى التلميح بشجاعته ، وإقدامه ، وشدة بأسه وأنه
 بهذا يكبت أعداءه ، ويقذف في قلوبهم الرعب .

(٣٣) « فن ل يوم » : استفهام يراد به الحق ؛ والوأو : أو الحال . وإجملة الاسمية بعدها
 حالية . والأمانى (بالتخفيف والتشديد) : جميع الأمنية ، وهي البنية ، أي ما يبتغيه الإنسان ، ويطلبه ،
 ويرغب فيه ، ويقدر حصوله ، ويتوق إليه ، ويتمناه . وكذبت الأمنية ، فهي كاذبة : أي لم تتحقق ، =

أَلْعَبُ فِيهِ أَطْرَافَ الْعَوَالِي وَأَطْلِقُ بَيْنَ هَبَوَيْهِ حِصَانِي (٣٤)
تَرَانِي فِيهِ أَوْلَ كُلِّ دَاعٍ وَيَرْتَفِعُ الْقَبَارُ ، فَلَا تَرَانِي (٣٥)
إِلَى أَنْ تَنْجَلِيَ الْغَمَرَاتُ عَنْهُ وَيَعْرِفَنِي بِفَتْحِي مَن بَلَانِي (٣٦)

= ولم يظهر بها المتعنى ، والكريمة : الحرب ، أو الشدة فيها . ويوم أولان : يوم حصيب ، صعب ، شديد الخيل . والرون (يوزن القول) : أقصى المصارعة . وران اليوم (من باب قال) : اشتد حزمه ، أو شدة ، أو حوله .

يحق أن يفرض الكراه ، ويهزب في غمرات الحروب ، ليبقى في أيامها العصيبة كفايته الحربية ، ويرضى لزمته العسكرية . والجملة الحالية المعترضة في الشطر الأول : « والأمانى كاذبات » : تشير إلى شدة تعلقه بهذه الأمانة ، وشدة حرصه على أن تكون صادقة متحققة ، وليست كغيرها من الأمانى التي تشغل بال المتعنى برفة ، ولا تلبث أن تذهب أدراج الرياح . وقد يفهم من هذا البيت أن البارودي نظم هذه القصيدة قبل الثورة الكريمية في وجه الدولة العثمانية سنة ١٨٦٥م أي قبل أن يفرض أهل الحروب الثلاث التي عاشوا غمراتها ، وأطلق حصانها في هبواتها .

(٣٤) لأحبه ملاحية ولعاباً ؛ لعب منه . وفي ملاحية أطراف العوالي : إشارة إلى درجته ، وشدة بأسه ، ورياسة جافه ، وتمرسه باستخدام الأسنة والعوالي ، والقنا والرياح ، وسائر أنواع السلاح . ولا يحاط أن البارودي يحب السلاح ، ويعتق إلى استخدامه بحكم تربيته العسكرية ، فقد دخل المدرسة الحربية سنة ١٢٦٧هـ (١٨٥١م) في أوائل حكم عباس الأول . ولما تعلم الفنون العسكرية ، وتفخر بها في آخريات سنة ١٢٧١هـ (١٨٥٥م) في أوائل حكم سعيد باشا . وفيه : أي في اليوم الأول الذي تمناه في البيت السابق . والعوالي : جميع العالية . وهي أهل القنا . أو النصف الذي على السنان . والمهرة : الفبرة ؛ أي ما ارتفع وسطه في جو المعركة من الغبار الذي تثيره سنايك الخيل ، وقد ألق المتحاربين ، وحركات الكرّ والفرّ .

وفي البيت لتفصيل ويبدأ اليوم الحصيب الذي تمناه في البيت السابق ؛ ليطلق بين هبواته حصانه ، ويلاصق فيه أطراف القنا والرياح ، ويظهر مهارته في الكرّ والفرّ ، وركوب الخيل ، واستخدام السلاح .

(٣٥) ارتداع الغبار هنا : كناية عن احتدام القتال ، وقيام الحرب على ساقها . يقول : إذا دعا النداء إلى الحرب كنت أولم ، وإذا اشتدّ البأس ، واحتدم القتال - أمنت في غمراته ؛ فحسبني ما سطع والفتور ، والنعقد ، وتكالف من غبار المعركة ؛ فلا تسطيع رؤيتي في هذه الحالة .

(٣٦) تنجل : تنكشف ، وتزول . وهو منصوب بلقمة فائرة على الهاء ، وإذا سقطت هنا لضرورة وزن الشعر . وغمرات الحرب شدائدها وويلاتها ويكادها وأهوالها . ومنه : أي من اليوم -

حَبَّ أَتَا ابْنُ اللَّيْلِ وَالْخَيْلِ الْمَذَاكِي وَيَبْضِي الْهِنْدِ ، وَالشَّعْرِ اللَّذَذَانِ (٣٧)
إِذَا عَيْنٌ أَجَدَّ بِهَا طِمَاحٌ جَعَلَتْ مَكَانَ حَبَّتِهَا سِنَانِي (٣٨)

— الأروان : أى إلى أن تنهى شدائده وأحواله : وتضع الحرب أوزارها . وقد يكون الضمير في « حبه » راجعاً إلى الغبار ، فإذا انجلت الغمرات من الغبار ، انجلت أسبابه ؛ فانقشع وزال ، وظهر ما كان يحجبُه إرضيهِ . والفعل (بتثنية الفاء) : مصدر فتك (من باب ضرب وقتل) : أى ركب ما هم من الأمور ، ودعت إليه النفس غير مبال . والمقاتك : الجريء الشجاع المقدام . وبلاه : جربه واختبره وامتنعته (وبابه هذا) .

في البيت السابق قال : إن غبار المعركة يحجبُه من العيان . وفي هذا البيت : أنه ينكشف بالكشف الغمرات ، ويخرج من التجربة في نهاية الحرب مرفوعاً بفتكه ، وجراته ، وشجاعته ، وإقدامه ، وشدة بأسه ، وقوة شكيته .

(٣٧) ابن الليل : تكفى العرب بآبن كلنا عن ملازمه المتعلق به ، الذى لا يفارقه . والليل أعنى الليل وفيه المخاوف والأحوال ، والصواب والأخطار . وابن الليل : الذى يركب كل هذا ، ولا يباله ؛ فهو كناية عن الشجاعة ، ورباطة الجأش ، وشدة البأس . والمذاكى من الخيل : ما تمتّ ستته ، وكلت قوته . والبيض : السيوف . واحداً أبيض . وإضافتها إلى الهند لاشتهارها بالإفغان صنعها ، ونجارتها . والسمر : القنا والرماح . يقال : قنأ سمراء ، ورمح أسمر . والجمع سمر . والذنان (بكسر اللام) : جمع لدن ، ولدنة (بوزن سهل وسهلة) : صفة من اللدونة : وهى اللين والمرونة .
افتخر بانتحام الصواب ، وبكافة الأخطار ، وركوب المخاوف ، وبهارته في ركوب الخيل للقتال وفيه ، وتمرسه باستخدام الأسلحة ، وأهوات الحرب والتزال .

(٣٨) أجدّ في الأمر : اجتهد ، واشتدّ ، وبالح ، وأسرع . والطِمَاح (بكسر الطاء) : مصدر طمح بصره إلى الشيء (من باب خضع) : أى ارتفع واستعرف . ويقال : طمح المتكبر بهيته : إذا شغص بها ، وارتفع . وسية العين : إنسانها : أى نازها ، أو سوادها . والسنان (بكسر السين) : نصل الرمح ؛ أى حديدته القاطعة الجارسة . وأجدّ الطِمَاح بالعين : أى سطحت في إيجاد وببالفة واشتداد ؛ لم تحبّ هذا عن حدّ القصد ، والاستقامة ، والاحتدال ، وركب صاحبها رأسه ؛ فجميع ، وفشز ، وتكبر ، وتجبّر . وجعلت مكان حبتها سنانى : أى فقأتها ، وأعميت صاحبها .

يفتخر بأنه يكافح بسلحه ما يراه في علوه من جراح وفشوز ، أو انحراف واستخفاف ، أو تجبّر وتكبر .

وَقَالَ وَهُوَ بِسَرْدِيْبٍ يَتَخَوَّقُ إِلَى الْوَطَنِ ، وَيَذْكُرُ صَدِيقًا لَهُ :

وَأَطْلُ شَوْقِي إِلَيْكَ يَا وَطَنُ ! وَإِنْ عَرَنْتَنِي بِحُكِّ الْمِسْنِ (١)
أَنْتَ الْمُنَى وَالْحَبِيبُ إِنَّ أَقْبَلَ النَّهْ صُبْحُ ، وَهَمِّي إِنْ رَنَّقَ الْوَسْنُ (٢)

• الصديق المذكور في هذه القصيدة بحسن التناء : هو الشيخ محمد عبده (١٨٤٥ - ١٩٠٥) : عالم ديني آزري . ولد بحملة نصر ، بمحافظة البحيرة . ونهض بالتدريس في دار العلوم والأزهر . ولما وفد جمال الدين الأفغاني على مصر سنة ١٨٧٢ كان الشيخ محمد عبده من استمعوا له ، وأغادوا منه ، وتأثروا بأرائه . وهو الذي وجهه إلى الصحافة ، فخلق بها ، وكان رئيس تحرير الوقائع المصرية . ولما أعمدت الثورة العربية أحمل بعض تبعاتها ، فأبعد عن مصر ، فلقام برهة في بيروت ، ثم انتقل إلى باريس حيث شارك جمال الدين الأفغاني في تحرير « مجلة الحرية الوثقى » التي دخلت البلاد الإسلامية داعية إلى مكافحة الاستعمار والظلم . ثم عاد إلى بيروت ، فاشتغل بالتدريس بضع سنين . وفي سنة ١٨٨٩ أذن له في العودة إلى مصر ، فعمل القضاء ، ثم الإفتاء . وكانت دعوته الإصلاحية تقوم على نشر المبادئ الإسلامية الأصيلة المجردة من البلع والخرافات ، والنهوض باللغة العربية ، وتنبيه الشعوب على حقوقها في الحياة الحرة الكريمة . ومن مؤلفاته : رسالة التوحيد . والإسلام والنصرانية مع العلم والمدينة . وتفسير بعض أجزاء القرآن بمبجح جديد مفيد .

(١) « وا » : حرف نداء ، غنص « بالمحلوب التذبة . وهي هنا : لنداء المتوجع منه : وهو شوقه الذي طال وأمدد ، وبرح به ، وثقل عليه ، وجهده ، وأغناه . و « إن » في أول الشطر الثاني مجردة من معنى الشرط ؛ فهي حرف وصل : أي وأطول شوقي إليك يا وطن ؛ مع ما يعرف من الحزن . ويرتضى : أصابني (وبابه عدا) . وبجبك : أي بسبب حبك ، ومن أجله ؛ وفي سبيله . والحزن : البلاء والشدائد . الواحدة بحنة (يوزن مئة وزن) .

تعلق الشاعر بوطنه ، وأخلص له الحب ؛ ويدافع من هذا الحب ، وهذا الإخلاص ثار في وجه ظالميه ، والمفسدين فيه ؛ فأصابته بلاءا وكوارث ، منها التجريد ، والنتى ، والتشريد ؛ وهو حل الرغم من هذا كله ياق حل حبه ، والوفاء له ، والتعلق به ، يحتمليه ، ويحن إليه ، حينئذ طويلا متدا ، لا يخف ، ولا يمان . وفي الآيات الآتية تفصيل وتأكيده لهذا المعنى .

(٢) المعنى : جميع مينة (يوزن زبينة وزبي) : وهي البنية ، أي ما يبتنيه الإنسان ، ويطلبه ، ويرجيه ، ويرغب فيه ، ويتوق إليه ، ويقدره ، ويعتمده . ويشلها الأمنية . ويراد بالحدث : حديث النفس : أي ما يشغلها ، ويحارمها ، ويحتملها ، فتحدث به ، وتشغل إليه . أو المراد : حديث الشاعر مع غيره في شأن الوطن ؛ فهو لا يفتأ يردد حديثه بدافع الحنين ، والشوق ، وقوقان النفس . والحلم : مصدر همه الأمر (من باب رد) : أي أقلقه وأحزنه . وإن زاد أن بعده عن وطنه لا يفتأ يقلقه ويحزنه . والحلم أهفأ : ما هممت

فَكَيْفَ أَنْسَاكَ بِالْمَغِيبِ وَلِي فَيْكَ قُوَادٌ بِأَلْوَدِ رُؤَاهُنَّ (٣٥)
لَسْتُ أَبْلَى وَقَدْ سَلِمْتُ عَلَى الذِّ ذَهْرٍ إِذَا مَا أَصْلَبَنِي الْحَزَنُ (٣٦)
لَيْتَ بَرِيدَ الْحَمَامِ يُخْبِرُنِي عَنْ أَهْلِ وُدِّي ، فَلِي بِهِمْ شَجَنُ (٣٧)

فيه في نفسك : أي فكثرت فيه ، وأردته ، وتعلقت به . والرسن : أول التماس : أي خور الحراس ، ومقاربة النوم . ورفق النوم في عينه تزيقاً : أي خالطهما وعامرها .

يقول : إن وطنه منه ، وحديث نفسه ، وهمته في أول النهار ، وقبيل النوم ، أي في آتاء الليل ، وأطراف النهار ، فهو لا يفتأ يذكره ، ويتعلق به ، ويفكر فيه ، ويحنو عليه ، ويتوق إليه .

(٣) الاستفهام في أول البيت : معناه أكنى ؛ فهو لا ينسى وطنه ، ولا يسلوه . والمغيب : التغيّب : أي لن أنساك في غيبتي وبعدى عنك . والوود : أو الحال . والجملة الاسمية بعدها جملة حالية . والود : الحب . ومرتبن (بصيغة اسم المفعول) : ثابت ، مقيم على الود ، لا يريم . أو محبوب ، مقيّد بمجمل الود .

والبيت توضيح وتأكيد لمعنى البيت السابق ؛ فالشاعر لا يفتأ يذكر وطنه في مناه ، ولا يكاد يفتل عنه ، أو ينساه ، ولا غرو ؛ فإن قلبه متعلق به ، مقيم على حبه ، والوفاء له .

(٤) لا أباليه ، ولا أبالي به : أي لا أهتم به ، ولا أكرث له . وسلمت على الدهر : أي سلمت على مدى الدهر ، واستداده : أي سلامة باقية دائمة بقاء الزمان . و « ما » : زائدة بعد « إذا » الشرطية .

جمل الشاعر نفسه فداء لوطنه ، وطلب له دوام السلامة ؛ فهو لا يبالي ما يصيبه من الفم والحزن ، والبلايا والشدائد إذا سلم وطنه من الآفات والفتكيات .

(٥) « ليت » : حرف يفيد التمني . والبريد : أصله للدابة التي تحمل الرسائل . ويطلق على الرسول ، والرسائل . وكانوا يختارون نوماً من الحمام ، ويمرّونه الطيران برسالة يلقونها في عنقه ، فيطير بها إلى حيث عودوه ، ويسمونه حمام الزاجل : اسم فاعل من زجل الحمام ، وزجل به (من باب نصر) : أي أرسله إلى بعد . وأهل الشيء : أصحابه . وأهل وده : أسياده وأصفياءه . أو سكان وطنه الحبيب . والشجن : الحزن ، والحاجة الشاغلة ، وهوى النفس . وشجنى الأمر (من باب قتل) : أهمنى ، وشغلتني ، وأسرّني ، فشجنت شجناً (من باب تمب) . ولن بهم شجن : أي لن بهم حاجة شاغلة ، وهوى ، وتعلق ، وأهّام .

اشتدّ تعلق الشاعر بوطنه وأهله ؛ فعنى أن توافيه رسالة تذكّره على أخبارهم ، ومدى وفائهم له ، وبرّهم به . وفي الآيات الآتية تفصيل لهذا المعنى .

أَمُّ عَلَى الْوَدِّ ، أَمْ أَطَافَ بِهِمْ وَأَشْرَ أَرَامُ خِلَافَ مَا يَقْنُونَا^(٦)
 فَإِنْ نَسُونِي فَلَذَكَّرَنِي لَهُمْ وَكَيْفَ يَنْسَى حَيَاتَهُ الْبَدَنُ^(٧)
 أَصْبَحْتُ مِنْ بَعْلِهِمْ بِمَضْبَعَةٍ تَكْثُرُ فِيهَا الْهُمُومُ وَالْإِحْسَنُ^(٨)
 بَيْنَ أَنْاسٍ إِذَا وَزَنَتْهُمْ بِالذَّرِّ حِنْدَ الْبَلَاءِ مَا وَزَنُوا^(٩)

(٦) أطاف بهم : ألم بهم . ويقال : أطاف به كذا إطافة : أي آفاه ، فنزل به ، أو أحاط به .
 والرفاس : اسم فاعل من الرافى : وهي النخلة ، والسماوية ، والإفساد بين الناس بتأليف الكذب ، وتلوينه ،
 وتزيينه . ويقن الشيء ، ويقن به (من باب فهم) : علمه ، وتحققه ، واستيقننه .

يستفهم - في شجن ، واشتغال بال - ألم مقيمون حل وده ، موطون بهمده ، ألم ألم بهم واش ،
 فصرهم حته ، وأرام خلاف ما استيقنوه من حبه وإخلاصه ، وبره ووفائه .

(٧) الذكرة (بضم فسكون) : ضد النسيان ، وأن يجرى الشيء في ذهنك ، فذكره بقلبك ،
 وبلسانك . والبدن (بفتحين) : جسد الإنسان . والشطر الثاني دليل جار مجرى المثل ، مؤكدة لمعنى الشطر
 الأول . والاستفهام في أوله : معناه أليس .

يقول : إن نسيت أهل ودي فلن ذاك لم ، موت بهمدهم ، مقيم حل ودهم . ولا فرو ، فإنهم من
 بمنزلة الروح من الجسد ، وإن ينسى الجسد وروحه وسياحه .

(٨) المضبغة : المأثرة المنقطعة ، يضح فيها الإنسان وغيره . ويريد بها : منفاة التي ضيبتها ،
 وقطعه من وطنه وأهل وده . والهموم : جميع ألم . وهو الحزن والقلق . والإحسنة (بكسر
 فسكون) : وهي اللطيف ، والصفى ، والحنو الشديد ، وإضمار المداوة المسقوطة عليه ، وإبرص
 فرصة الإيقاع به .

فارق الشاعر وطنه ، وأهل وده ؟ فاستفعر الأسي والحسرة ، وشكا ما يعانيه في منفاة من ألم الحزن ،
 وما يكثر في أهل ذلك المنفى من الأسقام والضعاف . وفي الآيات الآتية تشهير بهم ، وإذاعة لأسمائهم .

(٩) الأناس (بضم الحزة) : الناس . ووزنت الشيء (من باب وعد) : قدَّله بالميزان ونحوه ؛
 أي وزنت وزله ، وقدره ، وقيمته . ووزن الشيء (من باب وعد أيضاً) : أي رجع ، وثقل . وهذا وزن
 درهماً ؛ أي يساوي درهماً في القيمة ، لا في الوزن والثقل . ويقول العرب : ليس فلان وزن ؛ كناية عن
 خسسته ، وضياحه قدره ، وهوان أمره . والذر : صغار المثل . وما يرى في شمع الشمس الداخل من النافذة .
 والهباء المنتشر في الهواء . والبلاء : الحنة ، والشدة . والاعتبار ، والابتلاء ، والتجربة ، والامتحان .
 والحادث يتزل بالمرء ليختبر به .

يقول : إذا بلوتهم ، فوزنت بينهم وبين الذر ما ساووه . وصم من يقيم بينهم من الناس في منفاة
 بالغة ، والخسارة ، وتقاعة الشأن ، وهوان الأمر ، وقلة الغناء في الشهادات والملمات . وفي الآيات الآتية زيادة
 تفصيل لهذا التشهير والهجاء .

لَا فِي مَوَدَّاتِهِمْ إِذَا صَلُّوا رَيْحٌ ، وَلَا فِي فِرَاقِهِمْ عَيْنٌ (١٠)
 مِنْ كُلِّ قَطْرٍ يَلُوكُ فِي قَيْسِهِ مُضْغَةٌ سُورٍ يَزَاجُهَا عَيْنٌ (١١)
 يَنْتَضِحُ شِدْقَاهُ بِالرُّوَالِ كَمَا عَلَّ يَنْتَضِحَ الْعَبِيرَةُ الْوَكْنُ (١٢)
 شُمْتُ ، عُرَاةً ، كَأَنَّهُمْ خَسِرَجُوا مِنْ تَفَقُّي الْأَرْضِ بَعْدَ مَا دَفَنْتُوا (١٣)

(١٠) الذين (بالصرك ، وبالتسكين) : مصدر غيبه في البيع والشراء (من باب ضرب) :
 أى غطله ، وشدحه ، وغطيه ، وقصه . والذين هنا : يقابل الريح .
 يقول : لو أقبل عليك هؤلاء الناس بموداتهم ، وصلفوا فيها لم تريح بها ، أى لم تقلد منها . ولو أمرضوا
 عنك ففراقك وفراقهم ، لم تحسر بهذا الفراق شيئاً . وهو شبه تكرر وتأكيده لا أفاخر إليه في البيت السابق
 من هزان أمرهم ، والحطاط قديم ، وقلة غنائهم .
 (١١) لفظٌ : غليظ ، جلف ، قاس ، مسر ، عصفن الكلام ، كرهه المتكلم ، سبي المتكلم .
 ولاء القصة في له (من باب قال) : أدارها فيه ، وضغها لعين مضغ . والمضغة (بضم فسكون) : القطة
 التى تلاك وتضع من لحم وبشره . ومضغة سور (بضم السين وضغها) : أى مضغة سيلة ، شائعة ، قبيحة
 مكروية . ويوزج الشراب ويحور : ما يمزج به : أى ما يخلط به . وهفن اللحن (من باب تمب) : فسد ،
 وتغيرت صفاته ، وسامت زائحته ، فهو عفن (بفتح فسكون) ، والمضغة المنة التى يلوكنها فى أفواههم :
 مضغة التبغ : وهو لبات من الفصيلة الباذنجانية ، يستعمل قديمياً ، وسموياً ، ومضغاً .
 وصممهم بالمضغظة ، وأشار إلى بعض عاداتهم السيئة : فهم يلوكن فى أفواههم مضغفات التبغ حل قبيحة ،
 وطاسدا ، وفضاً ، ومضغاً .
 (١٢) ينفش (من باب نفع) : يرشح . يقال : لشفح الإناء بما فيه . ولشح الجلد بالعرق .
 والشدق (بكر الشين وضغها) : جانب الفم ما تحت اللثة . والروال (بوزن التراب) : لعاب الفأهة .
 وزبد أفواه الخليل . وحل : سقى بالبناء للمجهول فيها) : من اللل (بوزن الملل) : وهو الشرب الخالي .
 أو الشرب المحتاج . والنفش (بفتح فسكون) : يرفش الماء ويحور . والعتيرة : ذبيحة كالوا يذبحونها لأفئهم
 فى الجاهلية . وفى الأصل : « العتيرة » ، وهو من أعطاه الناسخ . والوثن : الصم : وهو تمثال من حجر ،
 أو خشب ، أو معدن ، كانوا يزعمون أن عبادة تفرجهم إلى الله .
 فى البيت السابق : قبح عليهم أحسن عاداتهم ، وهى مضغ التبغ أو نسور ، يلوكنه فى أفواههم بصورة
 مستهجنة مستقلة ، ورائحة كريهة عنة . وفى هذا البيت : أن زيد ما يعضونه يسيل من أفئدهم ، كما
 يسيل دم العترة حل ووجه الوثن وبسجه . وقد يكون البيت متفصلاً عما قبله ، بمعنى أن لعابهم الكلبى يسيل
 من أفواههم حل أفئدهم كآله زيد اللوالب .
 (١٣) شمت : جمع أشمت وشطاء : صفة من الشمت (بوزن التنب) : وهو اغترار شعر الرأس ،
 وتقليده . وشمت رأسه وبدنه (من باب تمب) : اتسخ ، وقذر . وشمت الأمر : انشتر ، وتفرقت فى اختلال .
 والعمرة : جمع العارى : وهو المجرد من ثيابه . والتفق : سرب فى الأرض ، له مدخل ومخرج . ويراد به
 هنا : باطن الأرض ، أو القبر . ودفن الميت (من باب ضرب) : ستره ، وواراه فى قبره .

لَا يُخْسِنُونَ الْمَالَ إِنْ نَطَقُوا جَهْلًا ، وَلَا يَقْفُون إِنْ أَدْنَوْا (١٤)
 أَرَى يَوْمَ رَحْمَةٍ إِذَا حَضَرُوا وَطِيبَ أَنْسِي إِذَا هُمْ طَعَنُوا (١٥)
 وَكَيْفَ (لِي) بِالْمَقَامِ فِي بَلَدٍ مَا لِي بِهَا صَاحِبٌ ، وَلَا سَكْنٌ ؟ (١٦)
 كُلُّ خَلِيلٍ لِيْخْلِي وَزَرٌ وَكُلُّ دَارٍ لِأَهْلِهَا أَمْنٌ (١٧)
 فَهَلْ لِي صَوْدَقٌ أَلَمْ بِهَا شَمْلٌ ، وَالْقَى « مُحَمَّدًا » سَنَنُ ؟ (١٨)

(١٤) جهلاً : أي بسبب جهلهم ، وقلة درايتهم . وقلة الكلام ونحوه (كلمه) : فهمه ، وطقن له ، وأحسن إدراكه . وإذنه له (من باب طرب) : استمع له .
 ومصهم بالهول ، وقلة المروءة ، وجردهم من اللهم والإدراك ؛ فإذا تكلموا تشعروا في كلامهم . وإذا استمعوا للغير لم يفهموا قوله .

(١٥) بهم : أي محضوهم : وهو ضد الغيبة (وقوله من باب دخل) : والرحمة (يفتح فسكون) : الخلو ، والهم ، واعتكار البال ، والقباض القلب . وضدها الأُنس (بوزن الحسن) . وقد أنس به (كفرح ، وقرب ، وفرح) : أي الله ، وسكن إليه قلبه ، واطمأننت نفسه ، وذهبت به راحته . وطيب الأنس : أفضله وأجمله . وطقن (من باب قطع) : سار ، وارتحل .

اشتدَّ تَبرم الشاعر بهم ، وسخطه عليهم ، فاستوحش محضوهم ، واستأنس بغيرهم .

(١٦) في الأصل المخطوط نقص . وما بين القوسين (لِي) تكملة من عندنا استقام بها وزن البيت ، وانفتح معناه . والاستغهام في أول البيت : معناه النقص : أي أن يطيب لي المقام في بلد . . . والمقام (بضم الميم) : الإقامة والاستقرار : مصدر يقيم من أقام بالمكان إقامة : أي لبث فيه ، ومكث ، واستقر ، واتخذ له وطناً . واليلد يذكر ويؤنث . والسكن (بفتح السين) : المسكن والمترى ، وكل ما سكنت إليه ، واستأنست به من أهل ، وحصب ، وبالك ، وغيره .

(١٧) الخليل : الصديق . وبثله الخلل . والوزر : الملجأ ، والمحصن ، والمقل ، والسند . وأمن (بفتح السين ، أو يفتح فسكون) : أمان ، واطمئنان . وأمنت الدار واليلد أمنتاً : اطمأن فيها أهلها (والفعل من بابي فهم ، وسلم) .

في البيت السابق قال : إن إقامته لم تطب في مفناه ؛ إذ ليس له فيه صاحب ولا سكن . وفي هذا البيت تفصيل وتأكيد لهذا التعليل ؛ فالتخليل يوزر خليله ويماضيه ، والدار لأهلها أمان واطمئنان . فكيف يطيب له المقام مع الوحدة والوحشة ، والقلق والهم ، واعتكار البال ، وفقدان النصير والأُنيس ؟
 (١٨) الاستغهام في أول البيت : معناه التقى . وشمل : ما تفرق من أمرى . ولبه (من باب رد) : جمعه ، وضمه . وقد قلنا التشریف بالشيخ محمد عبده في صدر شرحنا لهذه القصيدة . وسنن الطريق : نهجه ، وجهته ، وقصدته : أي هل إلى عودة من سبيل ؟

ذَلِكَ الصَّبِيحُ الَّذِي وَثِقْتُ بِهِ فَهُوَ بِشُكْرِي وَمِنْحَتِي قَيْنٌ^(١٩)
عَاشَرْتُهُ حُبَّةً ، فَأَنْجَدَنِي مِنْهُ الْحِجَا ، وَالْبَيَانُ ، وَاللَّسَنُ^(٢٠)
وَهُوَ إِلَى الْيَوْمِ بَعْدَ مَا عَلِقْتُ بِى الرِّزَايَا مُعْتَبِلٌ هُنَّ^(٢١)
يَنْصُرُنِي حَيْثُ لَا يَكَادُ حَمٌّ يَمْنَحُنِي وَدَّةً ، وَلَا تَحَنُّ^(٢٢)

== يحمي أن تنكشف عنه محنة النسي ، وينفتح له طريق العودة إلى وطنه ، فيجمع شمله بأهله وأحبابه ،
ويقبله بقاء صديقه وخليله وصفيه الشيخ محمد عبده . وتسمية الأبيات الآتية إلى نهاية القصيدة في مدحه ،
والتمني به حماده وفضائله .

(١٩) المدحة (بكسر لسكون) : اسم من مدحه (من باب قطع) : إذا ذكره بالخير ،
وأحسن الثناء عليه . والمدحة أيضاً الكلام ، أو الشعر الذي يمدح به الشاعر غيره . وشيها الأمدوحة
(بضم المزة) ، وكذا المديح . وقن (يرفئ كنف وبهبل) : قمين ، وشليق ، وحقيق ، وجدير .
(٢٠) حبة : مدة ، وزماناً . ولأنني إلهياداً : أمانتي ، ونصري . وألحبا : العقل ، واللغة .
والبيان : الحجة ، والمطلق النصيح ، والكلام يكشف عن حقيقة حال ، أو يحصل في طياته بلافا .
والسن : الفصاحة والبالغة . (وقوله من باب طرب) .

(٢١) علقت به (من باب طرب) : نشبت فيه ، واستعسكت به . والمراد أصابته . والرزايا :
المصائب . واحدها الرزية . وأصلها الحمز . وخيّل : اسم فاعل من خيّل الساء تضيلاً : أي تيهتت
القطر . وهن : جمع هنون : أي كثير القطر . يقال : سحاب هنون : أي مطره متتابع منصب ،
غزير . وقد استعمل الجمع في مقام المفرد للمبالغة . جبل الملووح كالصحاب الخيّل الهنون ، منوهاً
بتمام برّه وطاقه .

أعفقت الثورة المرابية ، فاحمل الشاعر مع قادتها ثيمات هذا الإغراق ، وتوالت عليه الرزايا
والمصائب ، فأنفص من حوله ، وتذكر له ناس كانوا يتقربون إليه ، ويشفقون عليه .

جزى الله الشدة كل خير حرلت حيا علوي من صديق
أما الملووح فقد ظل برّاً بالشاعر ، موطأً بجهده ، ناصراً له ، مقبلاً حل وده ، كأظم ما يكون
البر والوفاء ، والنعمة والتأييد ، والوداد والإخلاص . وفي الأبيات الآتية تفصيل وتأكيد
لهذا المعنى .

(٢٢) حم الرجل : أبو زوجته ، أو أعمها ، أو عمها ، أو قريبها من الرجال . وجمعه أحما .
والحنن (يفتحون) : زوج ابنة الرجل . أو زوج أخته . وجمعه أحنان . وقيل : إن الأحنان : أقارب
الزوجة . والأحما : أقارب الزوج . والأصهار يجمعها .

لنصر الملووح للشاعر في محنته وأهنته ، وآسأه ، ووهب له من حبه ووداده وإخلاصه ما لم يره
من قريب ، أو صهر ، أو نسيب .

قَدْ كَانَ ظَنِّي يُبْصِرُ بِالنَّاسِ لَوْ لَأَهُ ، وَفَرَدَّ يَحْيَا بِهِ الزَّمَنُ (٢٣)
 فَهُوَ لَدُنِّي الْمُغْضِلَاتِ مُسْتَعِدٌّ وَعِنْدَ فَقْدِ الرَّجَاءِ مُوْتَمِنٌ (٢٤)
 نَمْتُ عَلَى فَضْلِهِ شَمَائِلُهُ وَنَفَحَةُ الْوَرْدِ سِرْمًا عَلَنُ (٢٥)
 لَوْ كَانَ يَخْلُو السَّمَاءَ دُو شَرْفٍ لَكَانَ بِالنِّيرَاتِ يَقْتَرِنُ (٢٦)

(٢٣) « كان » أو « كاد » . وأسأله به الظن : ارتقاب ، وشك في أمره ، ولم يطمئن إليه ، ولم يثق به . وهو خلاف أحسن به الظن . ومنه : ساء به ظناً : إذا لم يحسن فيه ظنه ، وشك فيه ، وارتاب .

لن الشاعر من الناس في محنته جفوة وإعراضاً ، وتكبراً وشذلاً ، فأوجس منه خيفة ، وساء ظنه بهم ، لولا ما أفاضه عليه المندوح من « ورد » ولصرة ، وإقبال ، واحتفال . والشعر الثاني لتبديل جوار مجرى الملل ، وثق الاتصال بالشعر الأول ؛ فإن فرداً واحداً حالج ببره ووفائه تبرم الشاعر ، وسوء ظنه بالناس ؛ « ورد » إليه طمانينة النفس ، وإيقظة والارتياح . وهكذا ، فالفرد قد ينفى عن الجميع ، فيحبها به الذين ، أي يزهو ، ويشرق ، ويظهر ، ويحمل إلى الناس الخير ، والسلامة ، ورضا البال . أو هو : ... وفرد يبعي به الذين : من الإحياء . وفاعله « الذين » . والمفعول به محذوف يدل عليه سياق الكلام : أي يبعي الذين بالفرد أمل الأمل ، ويحقق أمنية المتمني . وربما كانت هذه القصيدة من أواخر السردية حيث أتى نظمها الشاعر قبل الإفراج ، والعودة حينها جد أهله وأصدقائه وأحبائه في استئناف أول الأمر للمفارقة ومن أمثاله .

(٢٤) المغضلات : جميع المغضلة : وهي المسألة المشككة التي لا يمتدحى لوجهها : اسم فاعل من أحصل الأمر إحصالاً ؛ أي اشتد وأسفلق . ويستند (بصيغة اسم المفعول) : سند يستند إليه ، ويعتمد به ، ويعتمد عليه في حل المغضلات ، وكشف خفاياها ، وبيان وجهها . وموْتَمِنٌ (بصيغة اسم المفعول أيضاً) : مأمون ، يوثق به ، ويطمأن إليه ، ويعتمد عليه في تحقيق الرجاء ، وإحياء الأمل .

(٢٥) « نمت » حل فضله شمائله : أي أظهرت شمائله فضله وأذاعته ، من قولهم : « نمت » حل المسك والحنه . « دم » الطيب (كخف ، ورد) : أي سطمت رائحته وانتشرت . والشمائل : جميع الشمال (بكسر اللين) : وهو الخلق ، والطبع . ونفحة الورد : رائحته المنتشرة . ولفح الطيب (من باب لفتح) : فاح ، وانتشرت رائحته . والمعلن (بفتح الميم والميم) : خلاف السر . وعلم الأمر (كنسر) : وضرب ، وكرم ، وفروح) : أي شاع ، وظهر ، وانتشر فهو معلن (بفتح الميم ، وكسر اللام) : أي ظاهر منتشر غير مخفي ، وسرها حلن : أي لا سر لها . أو ليست من الأسرار ؛ فهي بطبيعتها حل للنوام فائحة منتشرة ، ترواح لها النفوس ، وتزوي منها القلوب .

مدحه بالفنل والإحسان وسكارم الأخلاق . وقال : إن هذا كله ظاهر فيه ، ذائع منتشر كتلفعات الورد .

(٢٦) حلا الشيء يعلوه (من باب سما) : رقيه ، وصمده . والشرف : الملو ، والمجد . والنيرت : الكواكب المضيئة . واقترن الشيء بغيره : اتصل به ، وصاحبه .

فَلْيَخَيَّ حُسْرًا مُتَّعًا بِجَمِيٍّ لِي الذَّكْرِ ، قَالَ ذَكَرْتُ مَقَرَّ حَسَنٍ (٢٧)

وَقَالَ أَيْضًا فِي صِبَاهُ :

خَطَعْتُ فِي حُبِّ غِرْلَانٍ الْحَيِّ رَسَنِي وَبَعْتُ بِالسَّهْدِ فِي لَيْلِي الْهَوَى وَسَنِي (١)
وَأَعْجَبْتَنِي - عَلَى ذَمِّ الْعُتُولِ لَهَا - صَبَابَةً نَقَلْتُ يَسْرَى إِلَى الْعَلَنِ (٢)
فَلْيَبْلُغِ الْعَذْلُ مِنِّي مَا أَرَادَ ، فَقَدْ أَسْلَمْتُ لِلشُّوقِ وَرُوحِي وَالضُّمْنَى بَدَنِي (٣)

(٢٧) اللام في أول البيت : لام الأمر . والمضارع بعدها مجزوم بها . وهو أمر يتراد به هنا : الدناءة . والذكر : الصبوة ، والفناء ، والشرف ، والملاءة . والفخر : ما تُفخر به . وخطه المفسدة .
عُتْم القصيدة بأن دعا لمحبوسه بدمام حياة الحرية والمزة والكرامة ، والاستعانة بما له في الناس من ذكر جميل ، وصيبت ذائع ، ومفاخر ومحمد .

• • •

(١) الغرلان : الطياد : جميع الغزال : وهو الطي العربي إذا شذن : أي تصرع ، واستغنى من أمته . وشبهه به الحسان من النساء في الرشاقة ، وطفة الحركة ، وحسن التثني ، وجمال الجند واللبثين . وألمح إلى المكان بحسبه صاحبه ويمينه ، ويدفع عنه ، فلا يقرب ، ولا يبتعد عليه . وغلزلان الحسي : نسائه المحميات المحبوبات . وهذه إحدى صور الحياة في البيئة العربية القديمة ؛ إذ كان العرب يبالغون في حماية نسائهم ولصقاتهم ، ويشهدون في حببين ويمتهن من التبدل والفسفور . والبارودي مولى بتريدي مثل هذه الصور ، وهما كآلة القداس من الشراب ، والفرس (بفتحين) : الخيل يقود به الفرس ويحرم من ألفه ورأسه . ومثله ، أو قريب منه الزمام ، والمقود ، والعدار (بوزن الكتاب) . ومن كلامهم : « خلج لئلا حذاره » . يمكن بهذا عن تركه الحياة ، وركوب الهوى ، والإيمان في الهوى والمجاهة . والسهد : الأرق ، واعتناق النوم . والهوى : الشوق والفرام . والجن : النعاس والنوم .

يقول : إنه أحب الحسان الفانيات ؛ وبسبب هذا الحب ، وفي سبيله أطلق لنفسه العنان ، وأغرق في الهوى والفرام ؛ فحرم أمته النعاس ، وهوى ما يحاليه أمثاله من الوجد والصباة ، والأرق والصباح .

(٢) أحبه الهوى : استمتعته ، ورغبه ، وسره . والعنول : الكثير المدل والملازمة : صيغة مهالبة من عدله . أي لانه وهافته . والصباة : رقة الهوى ، وحرارة الغفلة ، والفرح الشديد . والسر : ما تكتمه وتغيبه . وفنده النمل : مصدر على الأمر (من باب فرح) : أي ظهر ، وشاع ، وأفترق .

في البيت السابق : أنه خلج عداه في حب الحسان ، واستبدل بالنوم السهاد في ليل الهوى . وفي هذا البيت : أن الصباة برست به ، فبطلت سره بطلت ، ولبت المادلين ، فلمعها ، وأحروا عليه باللامعة ، فلم يهاهم ، وظل راضياً بها ، حريصاً عليها .

(٣) اللام في أول البيت : لام الأمر . والمضارع بعدها مجزوم . والفرس من الأمر هنا : التمتع واللبثين : أي لن يبلغ المدل مني ما أراد . والضمن : المرض الشديد ينتهي بالمرئيش إلى التمسك

فَلَيْكَ الْعَمَلُ لَوْ تَذَرِي بِمَا لَقِيَتْ أَهْلُ الْمَحَبَّةِ لَمْ تَسْمَعْ عَلَى فَنَنِ^(٥)
 بِأَرْبَةِ الْخِيَدِ قَوِي ، فَأَنْظُرِي عَجَبًا إِلَى غَرَائِبِ لَمْ تُقَدِّرْ ، وَلَمْ تَكُنِي^(٥)
 هَلْزِي بِلَيْ ، جَسَمَهَا الْآيِي ، وَخَامَرَهُ يَأْسٌ ، فَقَادَرَهَا ضُرْعِي مِنَ الْوَهْنِ^(٦)

والحوال ، ويشرف به على الموت (وقطعه من باب صدى) . وبدن الإنسان : جسده .
 في البيت السابق قال : إن الصباية تروقي وتصحبي على الرقيم من ذم العلول لها ، وإتمامه على بالمثل
 والملازمة ، وهذا الكلام يجعل معنى تقييس المائل ، أو تثبيطه . وفي هذا البيت تكرار وتأكيده لهذا المعنى ؛
 لأن المثل أن يصرف القامر عن الهوى ؛ فقد يجب له رويته ، وروى أن يفتنيه ، ويذهب جسده .
 (٤) الحمام : جمع الحمامة . ودأى به (من باب روى) : علمه ، وأحاط به . وأهل المحبة :
 الصالح . وسجمت الحمامة (من باب قطع) : هدرت ، ورددت صوتها على طريقة واحدة . والفن :
 الفن المستقيم من الفجيرة . وجهه أفنان .

والمنى : لو عرف الحمام ما يفضله الصالح ما سجع ، ولا هدر ؛ لأنه يسجعه ويهدره يضاهف
 وجسم ، ويضيع أهولهم . أو المنى : أن الحمام لو روى ما يفضيه الصالح المدللون من الفنى والصباية
 لاستعيا أن يسجع ؛ لأن سجمه ويهدله ولواحه يفضله ، ولا يكاد يذكر بإزاء حنين الماشق الرطبان ،
 وصباية الصب المسهام .

(٥) الخدر (بكسر فسكون) : كل ما وأواك وصبرك من بيت وغيره . والخدر : ستر يحد قمرأة
 قواحية البيت . وما يفرد لها من السكن . وربة الخدر : صاحبه . وربات الخدور : المصونات المحجبات
 من النساء . والشاعر العربي القديم كان يغلزل ويحبب بالمخدرات ، لا المتبرجات . والبارودي معتد به ،
 فاسجع على منواله . والمحبب : الشيء الذى يتحجب منه الإنسان ؛ أى يتكره لقلة اعتياده إياه . والظرى
 عجباً ؛ أى يصيرى المحبب . أو الظرى متعجبة . أو الظرى ما يثير الدهش ، ويدعو إلى العجب ،
 ويقضى الغمائل النفس وتأثيرها . وفرائب : أى أمور شامخة غريبة ، غير معهودة ، ولا مألوقة . الواحدة
 غريبة : صفة من غريب الشيء (من باب ظرف) : أى غرض وشئ . وقد رآه الأرمحل فلان (من بابى
 ضرب وأصر) : أى جعله له ، وحكم به عليه . ولم تقدر : أى لم تقدر على شيء ، أى لم يصب بها
 شيء . ولم تكن : أى لم توجد . ولم تكن : تأكيداً لمنى العجب ، ومعنى غرائب :
 أى لا تظان لها . والفرض التحويل ، والتشويق ، والمبالغة فى الاستمالة والاستعطاف . والآيات الثلاثة الآتية
 تفرح هذا البيت ، وتفصل ممتاه .

(٦) الآسى : الطبيب : اسم فاعل من أسا الطبيب المريض (من باب عدا) : أى عاجله ودأواه .
 وجسباً : منبهاً ، ولمبها (وبابه رد) . وخامره : خالطه ودخله . وفادزها : أى غادر ينى : أى تركها .
 وصرى : يريد فى حالة تشبه الشلل أو التشنج . واللى لمره أن وصرى : جمع صريع : (فعيل بمعنى
 مفعول) : من صرعه (من باب قطع) : أى طرعه على الأرض . ويطال : طرعه المتية : أى هلك ومات .
 والوين (بفتحين ، أو بفتح فسكون) : الضعيف ، وذبول الحيوية (والفعل كويد ، وورث ، وكرم) .

وَقَالَ : لَا تَكْتُمَنَّ أَمْرًا عَلَيَّ ، فَقَدْ عَلِمْتُ مَا بَلَكَ مِنْ بَادٍ وَمُكْتَمِينَ^(٧)
 فَلَمْ أَجِبْ ، غَيْرَ أَنَّ الدَّمْعَ نَمَّ عَلَى وَجْدِي ، وَدَلَّتْهُ أَنْفَاسِي عَلَى شَجْوِي^(٨)
 عَطْفًا عَلَيَّ ، فَلَمْ أَطْلُبْ لِمَيْكَ سِوَى أَنْ أَمِيعَ الْعَيْنَ مِنْ نِمْفَالِكَ الْحَسَنِ^(٩)
 مَا لِلْعَذُولِ رَأَى وَجْدِي ، فَاحْفَظْهُ حَتَّى أَتَاكُمْ يَقُولُ مِنْ هُنَّ وَهْنٍ؟^(١٠)

(٧) الأمر : الشأن ، الحال ، والقصة ، والحادثة ، والشيء . وباد : ظاهر واضح (يرطه من باب ساء) . وكتمن : اسم فاعل من اكتمن اكتملاً : أى اخفى ، واستتر ، وأخفى .

(٨) ثمّ الدمع على وجهه : دلّ عليه ، وأظهره ، وبينه ، وكشفه . والوجد : مصدر وجد بها . (من باب وجد) : أى أحبا حباً شديداً . والوجد : الحزن . والألفاس : جمع النفس (بوزن سهب وأسباب) . والاشجن : الحزن ، والحلم ، والحاجة الشاغلة ، وهو النفس (يرطه من باب طرب) . ويجمعه أشجان وشجون .

يقول : إنه لم يستطع الإجابة ، أو لم يردّها ، ولكنه بكى ، فكشف الدمع وجهه ، وتمايمت ألفاسه ، فأظهرت ما يساوره من ألمٍ والشجن . وفي البيت قبله بسط يده إلى المتعذر بها مستعظماً ، قائلاً : إن الطبيب حبسها ، ورأى وهنّها ، فاستعس بعد أن علم ما ظهر وما خفى من أجزى . وهذه الأبيات الثلاثة بيان وتفصيل لما أشار إليه في البيت الخامس من المصحب والغرائب التي لم تكن ، ولم تقدر على غيره . وفي البيت الآتي استعطف صريح ، وروية ملحة في إمتاع عينيه بمحاسنها .

(٩) طلب إليه كذا : سأله إياه . والمتاع : الفتح والفاذ بمنزلة البيت . وأمتعته بكلاً إمتاعاً ، ورضعته به تمتعاً : مكثته من طول الانتفاذ والافتتاح . ويلاحظ أن الشاعر عدّاه : « من » الفردقة « وإياه » . أو فسته معنى فعل يمتدح « من » ، مثل أخيه إشباعاً . والتمثال : الصورة المصوّرة . احتجبت عنه محبوبته ، وتمتعت ، فاستغفها ، وقصر سؤاله وأمله على أن تظهر له ، ليستمتع بالنظر إليها ، وروية محاسنها .

(١٠) الاستفهام في أول البيت : معناه الإنكار والاستهجان . والمذول : السر في القوم والمذل : صيغة مبالغة من مذل (من باني نصر وضرب) . والوجد : شدة تعلق المحب بالمحبوب . وأحفظه الوجد : أحضبه ، وأحنته ، وفطاه . والهن : كلمة كناية : ومعناها شيء . وقوله من هن ومن : أى قول ملش ، يوتى بالباطل .

ينى المتنزل بها من قول المذل ، والتأثر به ، وتصديق الماذلين بقوله : إن المذل أحنته شدة تعلق بك ، ووفاء لك ، فحمله الحق والحد والحسد والحفيظة على أن يلقى إليك أقوالاً ملفقة كاذبة باطلة . والبيت الآتي يصرّح بهذا ، ويؤكدّه .

لَا تَقْبَلِ الْعَذْلَ فِي مِثْلِي ، فَكُلُّ فِتْنٍ
وَالنَّاسُ أَعْدَاءُ أَهْلِ الْفَضْلِ مَدَّ خُلُقُوا
فَلَا صَدِيقَ عَلَيَّ وَدَّ بِمُتَّفِقِي
فَلَيْتَ لِي دَوَاعِي النَّفْسِ كَاذِبَةٍ
أَصْفِيهِ وَدِي ، وَأَمْلِيهِ الْهَوَى ، وَأَرَى
حُرَّ الشَّمَائِلِ مَحْسُودٌ عَلَى الْفِطَنِ (١١)
مِنْ عَهْدِ آدَمَ ، سَبَاقُونَ فِي الْإِمْنِ (١٢)
وَلَا خَلِيلَ عَلَيَّ سِرٌّ بِمَوْتَيْنِ (١٣)
خِلَا يَكُونُ سُرُورَ الْعَيْنِ وَالْأَذْنِ (١٤)
مَنْهُ الصَّوَابُ ، وَأَرْجُوهُ عَلَى الزَّمَنِ (١٥)

(١١) الشَّمَائِلُ : جميع الشياك (بكسر الشين) : بمعنى الخلق ، والطبع . وسرّ الشَّيْءِ : كرهه
الأعلاق ، شريف الطباع . والفطن (بفتحين) : مصدر فطن (من باب فرح) . أو هو الفطن
(بكسر ففتح) : جمع فطنة (بكسر فسكون) : وهي الخلق ، والمهارة ، وتوقد الذهن ، وقوة الفهم
والإتباء والإدراك . وفي البيت فخر شمسٍ بفتوخته ، وحرّيته ، وفطنته ، وكرمه شباله .
نباها من قبول العذل في مثله ، ثم حلل هذا التفسير بقوله : « فكلُّ فِتْنٍ . . . » . وهو تلليل يحصل
العله والدليل ، ويغيد التأكيد والإقناع ، ويجري مجرى الخلل . والبيت الآخر في هذا المعنى .
(١٢) الفضل : الزيادة المحمودة ، كفضل العلم والحلم . وأهل الفضل : أصحاب السجادة ، والندى ،
والخير ، والبر ، والإيمان ، والإحسان ، والعهد ، الزمان : وآدم : أبوالبشر . والإمْن (بكسر ففتح) :
جمع الإئحة (بكسر فسكون) : وهي الخلق ، والفضن ، وإخبار المداوة والبهفء .
جرى هذا البيت وأقاله من أبيات هذه القصيدة مجرى الحكم والأمثال . ولا ريب أن الحسد والخذل
قد يمان في الناس . وقصة ابن آدم لم تكم إلا عليهما « ولم يزل ذو الفضل يحسده ذوو التقصير » .
وفي البيت معنى الفخر بأنه من أهل الفضل الذين يحسدنهم الناس لفضيلتهم ، ويتر بصون بهم ، ويحسدون
لم المداوة والبهفء . وصلته بالبيت السابق أن الفطنة وحرية الشياك من الفضل ، وأن فضله أحفظ
حساده ، فحاولوا بالمدح أن يصرفوا عنه حبيبه .

(١٣) الرد : الهبة . والخليل : الصديق الخالص ، المحض . والصادق الرد : وبطله الخلق .
والمعنى : أنه لا يكاد يجد الصديق الذي يثق به ، ويطمئن إليه ، ويأتمنه على سرّه . والأبيات الثلاثة
الأكية لفصل هذا المعنى ولزكده .

(١٤) يراد بدواعي الناس : احتياجاتها ، ورغباتها ، وآمالها ، والوار قبله ، وأو الحال . وبالجملة
الاصمية يهدأ : جملة حاله . ويراد بالكاذبة : البهيدة ، المتعصية التي لا تكاد تتحقق .
ثم في أن يجد الخلق الرد : الذي يعرف ، ويرى ، ويسمع منه ما يسهه ويرضيه . وعدّه هذا كله من الآمان
السعيدة التي يصعب تحقيقها .

(١٥) أصفاه الرد : أخلاصه له ، وصدق فيه . والحق : الحقبة ، وأملاه هواه إلامه :
أدأله له ، وأمتعته به ، من قويم : أملاه الله العيش : أي أطال له ، وبشّنه به . وأرجوه على الزمن :
أي أمل خيره على مدى الزمان ، وطول الدهر : فلا يظلم ، ولا يبتكسب . أو أرجو نصرته وموالاته
على ما يصيبني من فوائد الزمان ، وشدائد الأيام .

هَيْهَاتَ ؛ أَطْلُبُ أَمْرًا لَيْسَ يَبْلُغُهُ حَتَّى وَلَوْ سَارَ مِنْ هِنْدٍ إِلَى يَمَنِ^(١٦)
 مَهْلًا أَحَا الْجَهْلِي ، لَا يُغْرِيكَ مَا نَظَرْتُ عَيْنَاكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مِنَ الْفَتَنِ^(١٧)
 هَذِي الْبَرِيَّةُ ، فَانْظُرْ ، إِنْ وَجَدْتَ بِهَا غَيْرَ الَّذِي قُلْتَ ، فَاهْجُرْنِي ، وَلَا تَرِنِ^(١٨)
 أَنَا الَّذِي عَرَفَ الْآيَامَ ، وَأَنْكَشَفْتُ لَهُ سَرَائِرَهَا مِنْ كُلِّ مُخْتَزِنٍ^(١٩)

(١٦) هيات : اسم فعل ماضٍ : بمعنى يمد ؛ فهي كلمة تعيد . والأمر : الشيء ، والشأن ، والحال . ويراد به : ما تمتد في ثلاثة الآيات السابقة من الخلل الوفي ... ويراد بالحي : الإنسان . والهند : شبه قارة ، وشبه جزيرة في جنوبي آسيا ، ظلت تحت سيطرة الإنجليز نحو قرن من الزمان ، وفي سنة ١٩٤٧ جلا عنها احتلالهم المبكرى ؛ فاستقلت باكستان بحكم ذاتي . وفي ٢٦ من يناير سنة ١٩٥٠ أعلنت الهند إقامة جمهورية ذات سيادة . وهما عضوان في الكومنولث البريطاني . والهن : الجمهورية العربية اليمنية ، من دول الجزيرة العربية بين البحر الأحمر والمملكة العربية السعودية وحضرموت وعدن ، في الركن الجنوبي الغربي من شبه جزيرة العرب . ولو سار من هند إلى يمن : أي ولو تقبب في البلاد ، وقطع أقطار الأرض .

في هذا البيت والبيتين السابقين : تمخى الخلل الوفي ، واستبعد هذه الأمتية ، واستعس من تحقيقها ، قائلاً : إنها من الأمور التي لا سبيل إليها ، ولا مقدرة عليها .

(١٧) أغواه إغواءه : أضله وأضله . و « لا » : نافية . والمضارع بعدها مجزوم بحذف حرف العلة . ويمكن عدّها نافية ، أي مهلاً حتى لا يغريك ... وفته الشيء (من باب ضرب) : أهبطه ، وسره ، واستأله ، واستهواه . ومنه الفتن : جمع الفتنة (يوزن الحنة والهن) . وفته الدنيا : زينها وزخرفها ، وجتاعها وباطلها الذي تفرّ به الناس وتغصهم . وهم يطولون بفتنة السراء ، وفته الفسراء . ومن كلامهم : « إن كنت من أهل الفطن فلا تدرج في الفتن » .

يبنه الغافل ، وينصح الجاهل ، ويدعوه إلى التهمّل والتفكّر ، والنظر والتدبر حتى لا تخدعه الدنيا بزينتها وزخرفها ؛ فيقع في التفي والضلال المبين .

(١٨) البرية : الخلق والناس . وأصلها الهز : من برا الله الخلق : أي خلقهم وأوجدهم . أو هي من قبيل : برت القلم والعود ونحوهما برّاً . وهذي البرية : أي هذه حقيقتها ، وقصبتها ، وشأنها ، ودأبها . وغير الذي قلت : أي غير ما ذكرته ، وأشارت إليه من فنّ الدنيا التي تنوى الجاهل ، وتخلق الغافل ، ومن قلة الوفاء ، وكثرة الغدر ، وفردة الأخلاء . و « لا ترين » : تأكيداً لمعنى « اهجرني » : أي إن وجدت في الناس غير ما ذكرته لك ، فقاطعي ، وأعرض عنّي .

(١٩) يريذ بالآيام : تقابّ الزمان ، وما يجري به ، أو ينطوي عليه من الخير والشر ، والمياسرة والممارسة . أو يريد أهل الزمان ، وما يحفوه تحت أثواب التفاف من التندر والخيافة . والسرائر : جمع السريرة : وهي السر الذي يكتم ، ويسر . ويختزن : اسم مفعول من اختزن الإنسان السراً اختزاناً ؛ أي =

طَفْتُ الْبِلَادَ، وَجَرَّبْتُ الْعِبَادَ، فَلَمْ
أَرْكَنْ لِحُلٍّ، وَلَمْ أَجْنَحْ إِلَى سَكَنِ^(٢٠)
خُلِقْتُ حُرًّا، فَلَا قَدْرِي بِمُتَضَعٍ
عِنْدَ الْمُلُوكِ، وَلَا عِرْضِي بِمُتَمَتِّهِنَ^(٢١)
لَا عَيْبَ فِي سِوَى أَنِّي عَتَبْتُ عَلَى
ذَهْرِي، فَقَدِمَ مِنْ دُونِي، وَأَخَّرَنِي^(٢٢)

= كنه وأغضاه . و « من » : بيانية ؛ فالجائزات بيان وإيضاح للرائر . أو هي « عن » ؛ فقد انكشفت
له سراير الأيام عن كل ما تحبها ، أو في طولها من الخفايا والجائزات .

يفسر بما له من الفطنة والتجربة وسعة المعرفة وعمقها ؛ وهذا كشف خبايا الأيام ، وخفيات
الزمان ، وطوائف الناس وأسرارهم . والشطر الأول من البيت الآتي يؤكد هذا المعنى . والشطر الثاني
نتيجة لهذه المقدمات .

(٢٠) طاف حولي الشيء ، وبه ، وعليه ، وفيه (من باب قال) : دار ، وسام . وقد هداه
الشاعر بنفسه ؛ كأنه ضمته معنى « عرف » ؛ إذ المرة ثمرة الطواف ، والتفتيح ، والتجول . وركن إليه
(كنفه ، وعلم ، ومنح) زكناً : مال إليه ، وأطماناً ، وسكن ، ووثق به ، واحتمد عليه . وجنح له ،
وإليه (كخضع ، ودخل ، وضرب) جنوحاً : مال إليه ، وقابه . والسكن : المسكن ، والمنزل ،
وكل ما سكنت إليه ، واستأنست به .

يقول : إنه نقب في البلاد ، وجرب الناس ، فلم يجد الصديق الذي يثق به ، ولا المسكن الذي
يطمن إليه .

(٢١) القدر : الحرمة والوقار . والقدر : الشأن والحال . والقدر : الدرجة والمنزلة . ومتضع :
هين ، حقير ، وضعيف : اسم فاعل من اتضع انضاعاً : أي هان ، وذل ، وانحط . والعرض (بكسر
فكسكون) : النفس ، وما يمنح ويمن من الإنسان . وتمن : مبتذل : اسم مفعول من امتنه استهاناً :
أي اجتله ، واحتقره ، واستهان به .

يفسر بأنه مطروح على الحرية والكرام وحرمة النفس ، وأنه عال المنزل ، رفيع المكانة ، موفور
العرض ، ذو حرمة ووقار عند الملوك والسوقة .

(٢٢) عتب عليه (من باب شرب وقتل) : لاهه في غضب وتخط ، أو أنكر عليه شيئاً من
فعله . وقدم من دوقي : أي قدم على من هو أقل مني .

نق عن نفسه الجيوب والمناقص ، ونسب إلى الدهر الخير والشر ، والمسرّة والمساءة . وقال : إنه
لا به وطايه ، فأخسره ، وقدم عليه الأقل منه . والفرس الفخر بأنفته وعزته وكبريائه ، وإبلاته ، وقوة
شكيمته ، واعتداده بنفسه ، ومقاواة الدهر ، والتأبى عليه . وفي البيت تأكيد للمح بما يشبه الدم ، وهو
من المحسنات البديعية المعتبرة . وطريقته أن يستثنى من صفة ذم منفية صفة مدح .

وَهَذِهِ شَيْمَةُ الدُّنْيَا ، وَمِنْ عَجَبٍ أَنِّي أَرَى مِحْنَتِي فِيهَا وَتُعْجِبُنِي (٢٣)
 لَيْسَ السُّرُورُ الَّذِي يَأْتِي الزَّمَانُ بِهِ يَنْبَغِي بِقَدْرِ الَّذِي يَمْضِي مِنَ الْحَزَنِ (٢٤)
 فَاسْتَبَقِ نَفْسَكَ إِنْ كُنْتَ أَمْرًا قَطِنًا وَاقْنَعِ بِعَيْنِكَ فِي سِرِّكَ الْخَشَنِ (٢٥)
 وَلَا تَفُتْ بِحَدِيثِ النَّفْسِ : إِنْ بِهِ شَرَّ الْحَيَاةِ ، وَسَعَى الْحَامِلِ الْأَفْرِ (٢٦)

(٢٣) هذه : إشارة إلى ما في طبيعة الدنيا ، أو عادة الدهر من ممارسة الكرام الأحرار ، وروجم بالبلايا والمحن . والشيمة : الخلق ، والطبع ، والعادة . والعجب : انفعال نفسي ، أو روعة تأخذ الإنسان عند استعظامه ، أو إنكاره ما يرد عليه . والمحنة : البلاء والشدة . وفيها : أي في الدنيا . وأعجبه الشيء إعجاباً : أرضاه ، ورائه ، وصره . وتفاعل « تسجى » : ضمير « الدنيا » . أو ضمير « محنة » . والمراد أنه يتجلب لها ، ويصطبغ عليها .

يقول : في طبيعة الدهر ، ومن عادة الدنيا أن تكثر من يستحقون التقدم ، وتقدم من يستحقون التأخير ، وتماسر أمثاله من الأئمة الأباة الأحرار . وقد رضى بها ، وأصيبت على رغم ما أصابه فيها من الشدة والبلاء ؛ فكان رضاه مثار العجب والدهش .
 (٢٤) قدر الشيء : ميله ، ومقداره . ويبنى بقدره : بمائله ويساويه .

يريد أن الزمن يسو الإنسان ويحزله ، وقد يصره ويفرجه ، ولكن إسمائه أكثر وأشد من إسمائه ، وشره غالب على غيره . وهو في هذا ينظر إلى قوله أبي الطيب المتنبي :

صحبَ الناسُ قبلنا ذا الزَّمانِ وصنَّاعَ في شأنه ما عتانا
 وتولَّوا بِخُصَّةٍ كُلُّهُمْ مِنْهُ وإن سرَّ بعضهم أحيانا
 ربَّما كُفِّنَ الصَّنِيعَ لِيَالِيهِ ولكن تكثرُ الإحسانا

(٢٥) استباقه : أراد بقاءه . واستبق نفسك : أي حافظ عليها ، ولا تلق بهلك إلى الهلكة . وفطن (بكسر اللام وضما) : صفة من الفطنة (بكسر فسكون) : وهى الخلق ، ووجودة الفهم . والعيش : المعظم ، والمشرب ، والفعل ، وما تقوم به الحياة . والسر بال : القميم ، وكل ما يليس .

والمنى : من الفطنة ، والخلق ، ووجودة الفهم ، وسلامة الاتجاه أن نحيا حياة القناعة ، وخشوة العيش ؛ وهذا تستحق نفسك ، وتقيها من الطمع الممقوت ، والإغراق في الترف ، ونحوها من المفسدات المرديات .

(٢٦) فاه بالقول (من باب قال) : نطق به . وما فهمت بكذا : أي لم ألقه ، ولم أكشف عنه . ويراد بحديث النفس : ما يسره الإنسان ، ويضمرة في نفسه . وبه : بحديث النفس : أي فإن في =

وَلَا تَسَلْ أَحَدًا عَوْنًا عَلَى أَمَلٍ حَتَّى تُكُونَ أَسِيرَ الشُّكْرِ وَالْمِنَّةِ (٢٧)
 خَيْرُ الْمَعِيشَةِ مَا كَانَتْ مُدْلَلَةً هَوْنًا ، وَتَوْبُكَ مَعْصُومٌ مِنَ الدَّرَنِ (٢٨)
 وَعَاشِرُ النَّاسِ بِالْحُسْنَى ، فَإِنْ عَرَضَتْ إِسَاءَةٌ فَتَعَمَّدهَا عَلَى الظَّنِّ (٢٩)
 فَالْصَّفْحُ عَنْ بَعْضِ مَا يُمْنَى الْكَرِيمُ بِهِ فَضْلٌ يَعْلِي بِهُ شُكْرٌ بِلا تَمَنٍّ (٣٠)

== كشفه وإفشائه وإظهاره . شرّ الحياة . وحاصلك : من يحمي أن تقول عنك نعمتك ، وتنتقل إليه .
 وصي الحاسد : ما يسمى إليه ، ويحرص عليه من الإغوار بك ، والاكيد لك . والأفنى (يفتح فكمز) :
 القاسد ، الأحمق ، الضعيف الرأي والمقل : صفة من الأفنى (بوزن التعب) . ويراد بالأفنى هنا :
 الحاقد ، المقدس .

وفي البيت نصح وإرشاد ، وحسن على كتمان السر ، وطى ما ينبغي أن تتطوى عليه النفس ؛ فإن
 كشفه وإفشائه يجلب شرور الحياة ، ويفرئ الحاسد والحاقد الأفنى بالسي في الإيذاء والإفساد .
 (٢٧) النبي ، والأمر في هذا البيت والبيتين قبله : يراد بهما النصح والإرشاد . والمعنى : الإحسان
 والمساعدة . وعلى أمل : أي على تحقيق أمل من آمالك ، وتقريب مطلب من مطالبك . وحتى تكون : أي
 لكيلا تكون . والمثنى : جمع مئة (بوزن مئة وثلث) . وفي الإنعام والإحسان .
 والمعنى : أن الاستغناء عن الناس يحفظ للمرء عزته وكرامته ؛ فلا يستعبد إحصان الحسن ، ولا يتنزل
 بالشكر للمتم .

(٢٨) مذكلة : ميسرة سهلة : اسم مفعول من ذلّه تذليلًا : أي سهّله ومهّده . وهونًا : هيئة سهلة .
 والهيون : الرقيق ، والليونة . والواو : أو الحال . والجملة الاسمية بعدها حالية . ومصوم : محفوظ ،
 مصون . وعصمه (كضربه) : حفظه ، وبقائه ، ومنعه ، وصانه . والدرن : الوبخ والقنذر (والقفل
 من باب تمب) . وعصمة ثوب المرء من الدرن : كناية عن استقامته ، وفقاء عرضه ، وبراعة ساحته من
 المعاييب والمشائين .

يتمتع الحياة الميسرة السهلة المهددة القائمة على العفة ، والاستقامة ، ونظافة المرض .
 (٢٩) بالحسنى : أي بالخطّة الحسنى . أو بالخلق الحسن . وعرضت : بدت وظهرت* (وبابه
 ضرب) . وتعمدها : أي استرها ، وتجاوز عنها . والظنن : جمع الظنة (بوزن الملة والمثل) : وهي
 التهمة . و « على » هنا : تعبد المصاحبة : أي فتعمد الإساءة مع التهم التي تهم بها المسيئين ، وتظلمها
 فيهم : أي لا تلتق الإساءة بالإساءة ، ولا تحاول محاسبتهم على ما تهمهم به .
 يدعو إلى معايشة الناس بالرفق والحسن ، ويرغب في التسامح والتجاوز عما يعرض من إساءاتهم .
 والبيت الآتي يؤكد هذا المعنى ، ويفصّله .

(٣٠) الصفح : المغو : مصدر صفح عنه (من باب فتح) : أي أعرض عن ذنبه ، فلم
 يؤاخذه به . ويمنى : يبتل ويصاب . يقال : منى فلان بكذا (بالبناء المجهول) : أي قدر له ؛ =

هَذَا الطَّرِيقُ ، فَإِنْ أَخْطَأْتَ شِرْعَتَهُ أَصْبَحْتَ نَفْسَكَ بَيْنَ الْحَوْضِ وَالْعَطَنِ^(٣١)

وَقَالَ يَفْتَحِرُ عَلَى طَرِيقَةِ الْعَرَبِ :

أَحْبِبْ بِهِنْ مَعَاهِدًا وَمَعَانًا كَانَتْ مَنَازِلُنَا بِهَا أَحْيَانًا^(٣٢)
دِمْنٌ عَفَّتْ بَعْدًا لِأَنْبِيَسَ ، فَأَصْبَحَتْ لِلجَازِ قَاتٍ مِنَ الطَّيَّاءِ مَكَانًا^(٣٣)

== فأصابه ، وأبطل به . وشكر بلا مُن : أى شكر يأتيه من الناس عفواً بلا عوض ، ومن غير مسألة .

يقول : إن صفح الكريم من بعض ما يصيبه من الناس يلذع فيهم حلمه وفضله ، وتسامحه وإحسانه ، ويطلق أنسهم بالشكر له ، وحسن الثناء عليه .

(٣١) هذا الطريق : أى ما رسمته لك هو طريق الاستقامة ، والسلامة ، والريح ، والسعادة . وأخطأ الهدف ونحوه : انحرف عنه ، ولم يصبه . والشرعة (بكسر فسكون) : الطريق ، والمذهب المستقيم . وشرعة الطريق : جادته ، ونهجه ، ووضوحوه ، واستقامته . والحوض : مجتمع الماء . والعطن : مبرك الإبل ، ويربض النعم حول الماء .

في ستة الأبيات السابقة نصح وإرشاد ، وحكم وأمثال لوّده فيها الشاعر ببعض الفضائل العامة ، ورسم طريق العزة والسلامة . وفي هذا البيت أن من ينحرف عن هذا الطريق يضيّع نفسه في أصيق جهال ، وباهين الأسباب ، وينتهى أمره إلى البوار والخسران .

تفزل الشاعر في هذه القصيدة ، وأعرض عن الملل ، واستهان به ، ونهى عن الاستماع له ، وقبول عدله ، واقتصر ، وتعمى الخلل الوقي ، ونصح وأرشد ، وأجرى نحو نصف عدد أبياتها مجرى الحكم والأمثال .

* * *

* يراد بطريقة العرب : منهاج شعرائهم القدامى في الفخر ، والتمدّح بالمتناب والفضائل . وقد أولوج البارودي بهم ، فنسج على منوالهم ، وعرض في شعره صور البيئة البدوية ، ووقف مثلهم بالديار التي ارتحل عنها أهلها . فسكنها الطيلاء والنزلات ، وسن إلى الماضي ، وتطلق بذكرياته ، ووصف الخيل في دقة وإسهاب .

(١) أحب بهن : أسلوب تمجّب . والمعاهد : جميع المعهد (بوزن المذهب) : وهو المنزل . وحقيقته أن يمنع من الصرف : أى التثوين . وإنما فوّض هنا لضرورة وزن الشعر . والمعان (بوزن الجبال) : الحياة والمنزل .

(٢) الدمن : آثار الديار التي ارتحل عنها أهلها . الواحدة دمنة (بكسر فسكون) . وعفت : دوست* ، وبليت* ، وأهت* ، وزالت (وبابه علما) . والأنيس : الموائس الذي تأنس به ، وتطمئن إليه ، =

وَلَقَدْ نَرَىٰ فِيهَا مَلَاجِبَ لَمْ تَزَلْ تُشْجِي الْقُرَادَ ، وَلَا نَرَىٰ لِإِنْسَانًا^(٣)
عَرَفَتْ بِهَا الْجُرْدُ الْعِتَاقُ مَجَالَهَا فَغَدَتْ تُحْصِمُ رِقَّةً وَحَنَانًا^(٤)
يَتَنَا بِهَا مُتَسَانِدِينَ عَلَى الثَّرَى نَصِيفُ الْكَلَالِ ، وَنَذْكُرُ الْإِخْوَانَا^(٥)

= ويدد وحشك ، ويجمع شملك . والمجازات : جمع جائزة : اسم فاعل من جزأ بالثي (من باب قطع) : أى قنع به ، واكتفى . وجزأت الماشية عن الماء بالمشب والشجر والمرعى الأخضر ، فهى جائزة . و « من » : بيانية ، والغناء بيان للجائزات : جمع على : وهو الغزال .

فى هذا البيت والذى قبله جرى للشاعر على عادة من يقتضى بهم من شعراء العرب ؛ فوقف بأمكنة كان ينزل بها مع قومه ، ثم ارتحلوا عنها ، ففقدت الأنسة والسرور ، وأصبحت دمتاً وأحلاماً دامية ترح فيها جازئات الغطاء ، وحيوان الصحراء . وقد عبر عن شدة تعلقه بها ، وعمق أثرها فى نفسه بأسلوب التمجيد الذى صدر به البيت الأول . وفى الأبيات الآتية تكملة لهذه الصورة ، وفخر بما تأصل فيه ، وفى مشرعه من المناقب والفضائل ، ووصف لمتاق الخيل .

(٢) فيها : أى فى المعاهد التى خلعت من أهلها ، فصارت دمتاً وأحلاماً موحشة . وأشجاء يشجيه أشجاء : حزنه ، وآسفه ، وكدره . وثنله شجاء يشجوه (من باب عدا) .

يشير إلى ما بقى فى هذه الديار الخالية الدارسة من ملاعب ولذات تجدّد على الدوام الذكريات ، وتثير الهموم والأشجان . وفى البيت معنى التعلق الشديد بهذه المنازل .

(٤) حرفت بها : أى بالديار المهجورة ، والدمن الدارسة . والجرد : نجائب الخيل ، وخيارها ، وجيادها . يقال : فرس أجرد : أى كريم ، جواد ، نجيب ، سباق . وعتاق الخيل : خيارها ونجائبها . وفرس عتيق : أى نجيب كريم ؛ فالمتاق تأكيد لمتى الجرد . ويجالها : المكان الذى كانت تجول فيه وتكور ، وتجري وتستيق . وغدت : جعلت . وغدا يفعل كذا : أى شرع فيه ، وزاوله (وبابه سما) . وتحمم : تصبل صبيلاً خافتاً . وحمم الفرس حمية : أى صات صوقاً غير عال . والحنان : رقة القلب ، والرحمة ، والعطف ، والشفقة .

فى الأبيات السابقة إشارة إلى ما يملأ قلبه وقلوب محبه من الشجن والأسى والحب والوفاء هذه الديار الخالية ، والمنازل الدارسة . وفى هذا البيت إشارة إلى أن ركائبهم من نجائب الخيل لم تكن أقل منهم رقة وحناناً .

(٥) بها : أى بالمعان ، والمعاهد الدارسة المهجورة . ويتنا متساندين : أى متعاضدين متكاتفين . ويتساند إليه : أى ركن إليه ، واعتمد عليه ، واتكأ . والأثرى : الأرض . والكلال : الإعياء والتعب : مصدر كل الإنسان والداية من المشى . وفى وصفهم الكلال إشارة إلى أنهم قصدوا لتلك المعاهد من مسافات بعيدة ، وتحمسوا لها شدائد السفر ويتعابه لمكانتها فى نفوسهم ، وحرصهم على زيارتها .

أَيَّامَ لَا يَرِدُ الْجَمَامَ لِعِزِّهَا أَحَدٌ، وَلَا يَزْعَى الْجَيْمُ سَوَانًا
 فِي مَعْشَرٍ رَسَخَتْ حَصَاةُ حُلُومِهِمْ أَدْبًا، وَخَفُولًا لِلْوَعَى فُرْسَانًا^(٦)
 قَرَنُوا الشَّجَاعَةَ بِالسَّمَاخَةِ، فَاعْتَلَوْا قَيْدَ الْمُحَامِدِ شِدَّةً وَلَيَانًا^(٧)

(٦) ورد الماء: صار إليه ، وأشرَف عليه ، ووافاه . والجمام : الآبار : جمع جَمَّة (بوزن سَكَّة وسلاسل) . وهي البئر الكثيرة الماء . والمَرْءُ : القوة ، والمنعة . وَجَزَّ الجمام : كناية عن عزَّة أهلها وقوتهم . ورمى الإنسان الماشية (من باب رمى) : جعلها ترمي للكلأ والنفايات : أى تأكله . ورمعت الماشية : إذا سرحت بنفسها ، وسامت ، وتفتشت في الكلأ تأكله . والجيم : الثبت الكثير ، أو النافض المنتشر الذى غطى الأرض . وسوانا : أى سوى ماشيتنا . أولا يرمى الماشية ، ويسرحها في الجيم سوانا .

في هذا البيت والذى قبله : أنه نزل ليلاً هروجه بتلك المنازل الخالية ، والأطلال الدائرة ، فجلسوا على أرعها متساندين ، يصفون ما كانوا من وعاء السفر ومشقاته ، ويتذكرون من كانوا فيها من صحابهم وخلاتهم ، وما مضى من أيام عزم ريتهم . إذ كانوا يستأثرون بالمياه والمرعى ، لا يقربها غيرهم ، ولا ترقعها سوى إبلهم وماشيهم . مهد بهذا للفخر في الأبيات الآتية بمشرو ونفسه ، ويبرى على طريقة العرب ، والتزم متابعهم ، وأردنا يثيم ويثيهم ، وحينهم إلى الديار ، وتلقهم بالآثار .

(٧) المعشر : كل جماعة أمرهم واحد . ومشر الرجل : أهله وعشيرته . ورسخت : ثبتت ، وتمكنت ، ورجعت . وبابه خضع . والحصاة : الرمانة والبقار . وضدبا الحفة والطيش . والخلوم : السقول . واحدها حلم (بوزن علم وعلوم) . وصبة الخلوم : رجاسة العقول وقوتها ، وجودة الرأى ، وصحة التفكير ، وحسن التدبير . والأدب : رياضة النفس بالتعليم والتأديب على ما ينبغي . وخفوا : نشطوا ، وصارعوا . والوعى : الحرب . والفرسان : المحاربين على ظهور الخيل : جمع فارس : وهو راكب القرس . ورسخت حصاة قلوبهم أدباً : أى أرسخ الأدب حلومهم ، وأنفج عقولهم ، وعوهم صحة التفكير ، وجودة التدبير .

(٨) قرن الشيء بالشيء (من باي يقرن يقرن) : وصله به ، وضمه إليه . والسباحة : الجود والكرم . واعتلوا : صاروا . والحامد : جمع الحمدة : وهى ما يحمد المرء به ، أو عليه . واعتلوا قيد الحامد : أى صاروا مقيدين بها ، لا تفارقهم ، ولا يفارقونها . واليان (بفتح اللام وكسرها) : خلاف الشدة . واليان (بوزن صحاب) : رضاه العيش ، وهنائه ، واتساعه .

في هذا البيت والذى قبله ملح مشرو ، وتذكرهمهم بالرفقة ، والسباحة ، ورجاسة العقول ، ورياضة النفوس على الآداب ، والتزام الحامد والمكرمات في الشدة والرخاء . ومعهم رزانهم في السلم خفاف إلى الحرب إذا دعا إليها داع . وفي هذا معنى الشجاعة ، وإقتحام الأخطار ، والإقدام على المخاوف . وفي البيت السابع إشارة إلى تمرسهم بركوب الخيل ، وحسن استخدامها ، والاعتماد عليها في الحروب . وكل هذا من خصائص العرب وبغاخرهم في يثيمهم .

ظَلَعُوا عَلَى الزَّمَنِ الْبَهِيمِ، فَاتَّقَبُّوا نَارَ الْقَضَائِلِ حُجَّةً وَبَيِّنَاتًا^(٩)
 مِنْ كُلِّ مَشْبُوبٍ تَخَالُ لِسَانَهُ عِنْدَ التَّخَاصُّمِ فِي النَّدْيِ سِنَانًا^(١٠)
 إِنْ قَالَ بَرٌّ، وَإِنْ أَنَاهُ مُطَرَّدٌ آوَى، وَإِنْ سَيْلَ الْكَرَامَةِ لَنَا^(١١)
 أَنَا مِنْهُمْ، وَالْعُودُ يَتَّبِعُ أَصْلَهُ وَابْنُ الْهَجِينَةِ لَا يَكُونُ هِجَانًا^(١٢)

(٩) البهم : الأسد . وليل بهم : لا ضوء فيه إلى الصباح . وزين بهم : لا غير فيه .
 وأتقب النار : أوقدها . والحجة : الدليل والبرهان . والبيان : الحجة ، والمنطق الفصيح ، والكلام يكشف
 عن حقيقة حال ، أو يحمل في طياته بلاغاً .

من مفاخر الشاعر ومشره أنهم أقبلوا على زمان قلَّ خياره ، وكثر أشراره ، وأظلم بظلمات المفاسد
 والنواقص ؛ فرفضوا بالحجة والبرهان ، وصحرو البيان مشاعل الخير والفضيلة .

(١٠) « من » في أول البيت : بيانية . ورجل مشبوب : حسن الوجه ، أقرّ ، شهم ، ذكرى
 الفؤاد . وتقال : تظن وتحسب . والنديّ : مجلس القوم ومجتمعهم . والقوم المجتمعون للتحدث والتشاور .
 والسنان : نصل الرمح : أي حديثه القاطلة الحارسة .

افتخر بأنهم مشاييب ، وأن ألسنتهم في الخصام أسنة تقطع حجج خصومهم ، وتقلب في الجدال
 بمجادلهم .

(١١) برّ : صدق ووفى . ومطرّد : طريد شريد ، لاجئ ملهوف : اسم مفعول من التطريد :
 وهو التثنية والإبعاد . وآواه لإيواء : ضمّه إليه ، واشتمل عليه ، وآمنه ، وطمأنه . وفي القرآن الكريم في
 سورة سينا يوصف عليه السلام : « آوى إليه أخاه » . (من الآية رقم ٦٩) . والكرامة : مصدر كرم
 (بوزن ظرف) : أي أعطى بسهولة ، ويجاد في يسره وصره ، فهو كريم . ولان : كرم ، وسهل ،
 وأعطى ، وجاد . والين (في الأصل) : ضد الخشونة .

مدحهم بالبرّ والصدق والوفاء ، وإيواء الخائف الملهوف ، وإكرام السائل وملايته .

(١٢) منهم : أي من المشر الذين عدّ في خمسة الأبيات السابقة بعض مفاخرهم . والعود :
 النقص بعد أن يقطع . والهجين من الناس والخليل والإبل والدواب : من اغتلط أصلها ؛ فكان الأب
 عربياً ، والأمّ غير عربية . أو كان الأب خيراً من الأم . وهجان الأشياء : أجودها ، وأكرمها أصلاً .
 ورجل هجان (بوزن كتاب) : حسيب ، كريم ، أصله نقي خالص ، ونسبه خير غتلط .

والشطر الثاني تأكيد لمنّ تجمية الفرع لأصله في الشطر الأول . وما تأكيد لمنّ قوله : « وأنا منهم »
 أي أنا من هؤلاء المشر ؛ فأمرى أمرهم ، وفضائل ومفاخرى فضائلهم ومفاخرهم .

فَاكُوِ الْحَسُوْدَ بِنَاطِرِيهِ ، وَقُلْ لَهُ : إِنْ كُنْتُ نَجَّهْلُنَا فَكَيْفَ تَرَانَا؟^(١٣)
 إِنَّا إِذَا مَا الْحَرْبُ شَبَّ سَعِيرُهَا نَحْمِي النَّزِيلَ ، وَتَسْتَعُ الْجِيرَانَا^(١٤)
 وَتَرُدُّ عَادِيَةَ الْهَوَاسِيِسِ بِأَنْفُسِي عِلِمْتُ بِأَنَّ مِنَ الْحَيَاةِ هَوَانَا^(١٥)
 فَتَرَى عِتَاقَ الْخَيْلِي حَوْلَ بَيُوتِنَا قُبَّ الْبَطُونِ ، تُنَازِعُ الْأَرْسَانَا^(١٦)

(١٣) الناظر : العين . وبناطريه : أي في عينيه . وكواه بالنار (من باب ري) : أي أحرق جلده بحديدة حمأة ونحوها .

ومعنى الشطر الثاني : أن الحاسد لا يجهل فضائل الشاعر ، ويحمد معشره ؛ لأنه إنما يبني حسده على ما يراه ويعرفه في الحسود ؛ فكيف يجمع بين دعوى الجهل والرؤية التي تفيد العلم والإلمام بفناخر الحسودين .

أو المعنى : إن كنت تنكر مثاقينا ومآثرنا ، فعل أي حال ترانا ؟ ، وماذا تعرف عنا ؟ . وفي الأبيات الآتية إجابة هذا السؤال . والسؤال والجواب كلاهما لإغظة الحاسد ، وإفضاحه ، وبجبه بما لا يستطيع إنكاره أو تجاهله .

(١٤) شَبَّ الْقَار : تَقَدَّسَتْ ، وارتفع لها . والسعر : حب النار . والنزِيل : الضيف ؛ أو المواطن . ونحميه (من باب ري) : نحافظ عليه ، وندافع عنه . وتنع الجار : نجيره ونحميه . والجيران : جمع الجار : بمعنى المجاور لك في المسكن ، أو الملتجئ إليك ، المستجير بك .

يفخر بأنهم يحمون من يتزل بهم ، ويلجأ إليهم . ويدافعون عن الجار ، ويجيرون المستجير حتى مع اشتغالهم بالحرب والقتال .

أو المعنى : أنهم يوقدون نار الحرب من أجل حماية النزِيل ، ومنع الجار وإجارته ؛ فهم أهل عزة وحمية ، ووجهة ومنعة .

(١٥) العادية : الخيل المغيرة . وجماعة القوم يملكون قتال . وعادية الحميس : شره ، وظلمه ، وهجومه ، وعدوانه . والحميس : الجيش القوي الكثير ، المرمرم الجرار . يشار بهذا إلى أنه خمس فرق : المقدمة ، والقلب ، والمينة ، والميسرة ، والساق . والمهوان : اللذ والمهانة ، والغمصم والانكسار .

في البيت السابق قال : إنهم في الحروب يحمون النزِيل ، ويمنون الجار . أو أنهم يحاربون من أجل ذلك وأشباهه . وفي هذا البيت تفصيل وتأكيد لهذا المعنى ؛ فهم يردون بأرواحهم عادية الجيش الجرار ؛ إياه الضم ، وترفعاً عن حياة المذلة والمهوان . وفي سبعة الأبيات الآتية وصف للخيل التي يعتمد العربي عليها في حربه ، ويمرر بها النصر على الأعداء .

(١٦) عِتَاقَ الْخَيْل : نجاها ، وبيادها ، وبخيارها : جمع عتيق . وقبَّ البطون : أي بطونها ضامرة غير مملئة . وضموها : هزأها ، وقلة لحمها . وهو من محاسن الخيل . وقبَّ الفرس ونحو (من باب تمب) : دق خصره ، وضمر بطنه ، وهي قبَّاء ، والجمع قب (بضم القاف) =

مَشَقَ الطَّرَادَ لِحُمُومِهِمْ ، فَلَمْ يَدْعُ إِلَّا خَوَاصِرَ كَالْقَيْسِ مِثْنَانَا (١٧)
 مِنْ كُلِّ مُنْتَصِبٍ عَلَى أَقْيَادِهِ مُتَطَلِّعٌ يَنْتَظِرُ الْحَدَثَانَا (١٨)
 بَدَحَتْ قَوَائِمُهُ ، وَأَقْبَلَ مَتْنُهُ وَأَنْضَمَ كُلُّكُلُهُ ، وَطَالَ عِنَانَا (١٩)
 فَإِذَا عَلَا حَزْنًا أَطَارَ شَرَارُهُ وَإِذَا أَتَى سَهْلًا أَطَارَ دُخَانَا (٢٠)

= وتشديد الباء). والقرس ينازع فارسه العنان: أى يجاذبه. وهو أمانة قوة ونشاط وتحفز. والأيسان: جمع رسن (بوزن سبب وأسباب): وهو الزمام، أو المقود، أو العنان، أو الحبل الذى تقاد به الدابة، يكون على أنفها.

(١٧) مشق لحومهم (من باب قتل): رقتها، وقطعها. وفرس مشوق، ومشيق: فيه طول مع قلة لحم. والطراد: مصدر طارد الرجل قرنه: إذا حمل عليه، وقاتله. وفرسان الطراد: هم المحاربون على ظهور الخيل، الذين يعمل بعضهم على بعض فى الحرب ونحوها. ولم يدع: لم يترك. والخواصر: جمع الخاصرة: وهى من الإنسان والحيوان: وسطه. وخاصرة الإنسان: ما بين رأس وركه وأسفل الأضلاع. والقيس: جمع القيس: وهى آلة على هيئة هلال، أو نصف دائرة، ترى بها السهام. وشان: جمع شين: أى قوة شديدة.

والبيت تفصيل وتأكيد لمعنى قبب البطون فى البيت السابق، أى غمورها، ودقة الخواصر، مع نتائجها وقوتها. وفيه أنها متمرسة بالطراد فى الحرب والصيد ونحوها.

(١٨) «من» فى أول البيت: بيانية. ومتنصب: قائم، منبجى، متأهب. والأقياد: جمع قيد: وهى حبل ونحوه، يعمل فى رجل الدابة وغيرها، فيقيدها، ويمسكها. وتطلعه: نظر إلى ملته: أى وجهه، أو طلوعه؟ فهو متطلّع. ويقال: تطلعت إلى وود كتابك: أى ترقبته فى شوق واهتمام. وينتظر: ينتظر، ويتوقع، ويرتقب. وحدتان الدهر: فوائده، ونوازل العارضة. يقول: إن غيلهم قائمة على قيدها متطلعة، ترقب الحروب ونحوها؟ فهى متمرسه بها، مستعدة لها.

(١٩) بدحت: علت، وأرتفعت. وقوائم الدابة: يداها ورجلاها. الواحدة قائمة. والمثنى: الظهر. وإقبال المثنى: طوله، وانبساطه. والكلكل: الصدر. والمثنان (بوزن الكتاب): سير الجمال الذى تمسك به الدابة. وطول عنان القرس: كناية عن أصالته وعفته وجودته. وهو ملامم لبذوخ قوائمه، وإقبال مته.

(٢٠) الحزن (بفتح فسكون): ما غلط من الأرض. وقيلسا يكون إلا مرتفعاً. وهو خلاف السهل. وأرض سهلة: منبسطة ممتدة، لا تبلغ المصبة. والدخان: ما يصعد من النار من دقائق الوقود غير المحترقة. ويراد به هنا: النبار: أى التراب النقيق الذى تثيره سابل الخيل فى الحرب، وحركات الكركر والقرى فى الحرب، والطررد، والسباق ونحوه. وإطارة شرار حزون الأرض، وإثارة غبار سهولها: كناية =

وَالْحَبِيلُ أَكْرَمُ صَاحِبِ يَوْمِ الْوَعَى وَالسَّلَامُ . تَبِعَتْ غَارَةً وَرَهَانًا (٢١)
فَقَلَى بُطُونِ خِيَارِهَا أَرْزَاقُنَا وَعَلَى ظُهُورِ جِيَادِهَا مُقَدَّنَا (٢٢)
هَذَا الْفَخَارُ ، قَدَرٌ بِمَعْنِكَ حَيْشَمًا دَارَ الزَّمَانُ ، فَلَنْ تَرَى نُقْصَانًا (٢٣)

== عن قوة الجلود وسرعته ، وتبرسه بالعدو والإحضار .

وصف غيلهم بالقوة والسرعة ، والتمرس بالعدو ، والإحضار ، والتصعيد والاختدار في حزون الأرض وسبيلها ، لا تصلها عقبات ، ولا تعوقها صعوبات .

(٢١) الوعى : الحرب ؛ لما فيها من الصوت والجلبة . والسلام (بكسر السين ونصبها) : خلاف الحرب . والغارة : الهجوم على العدو : اسم من أغار إغارة : أى أسرع في العدو ، وهجم . وتبعث الغارة : تثيرها وتطلقها وتبججها (وبابه قطع) . والرهان : مصدر راحته على كذا : أى غاطره ، وسابقه . وفى البيت لفت ونشر مرتب ؛ فالغارة يوم الوعى ، والرهان يوم السلم .
يقول : إن الخيل تصحب الإنسان محبة بكرمة محبوبة ، قائمة على الانقياد والطاعة . ، والتفجع العظيم ، والخير السميع ؛ نهى في الحرب صدته وعتاده ، وفى السلم منتهه وزينته ؛ وهى عماده فى الرهان ونحوه .

(٢٢) الخيلار : جمع خيبر : اسم تفضيل على غير قياس ، أو تخفف أخير : وهو المنتقى المختار ، والنافع الكثير ، الطيب المسد . والأرزاق : جمع رزق : وهو كل ما ينتفع به ، أو كل ما يؤكل ويتغذى به . يشير بالشطر الأول إلى الاختداء بلحوم الخيل ، وكان العرب يأكلونها . أو يشير إلى استيلائها ، وفى أولادها ونتاجها الرزق الواسع ، والمال الوفير ، والخير الكثير . وجياد : جمع جياد : وهو التنجيب العتيق الكريم من الخيل . أو جمع جيد : صفة من الجودة . ومقدنا : غنونا : وهو الذهاب وقت الغلوة : بين الفجر وطلوع الشمس . أو هو الانطلاق والذهاب مطلقاً فى أى وقت من ليل أو نهار . وفى القرآن الكريم : « والليل والنهار والحميز تركيبها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون » الآية رقم ٨ من سورة النحل .

نظم الشاعر بهذا البيت سبعة الأبيات (١٦ - ٢٢) التى وصف بها الخيل ، وأشار إلى منافعها ، واعتزاز العرب بها ، وأعباده عليها فى الحرب والسلام .

(٢٣) الفخار : مصدر فخر (من باب قطع) : أى تمدح ، وإفتخر ، وإبجى بما له ، وما لغيره من المنافع والمخامد ، وشرف الحاصل ، وكرم الخلال .
نظم الشاعر هذه القصيدة بهذا البيت ؛ وكأنه تلميح وتأكيد لشرع الأبيات التى أوردتها قبله فى الفخر (٦ - ١٥) . يقول : هذا فخرنا ، وهذه مفاخرنا ؛ يئسى بها أوائلنا وأواخرنا ، ويشهد لنا بها الزمان فى ماضيه وحاضره ، ولن ترى فينا - حينها نظرت - قبيصة أو مثابة .
لا ريب أن الشاعر فى هذه القصيدة تقمّص العرب فى باديته ؛ فحكلم بلسانه ، وقاض بمثل عاطفته ==

وَقَالَ :

يَا قَرِيرَ الْعَيْنِ بِالْوَمَنِ ! مَا الَّذِي أَلْهَكَ عَنْ شَجْنِي ^(١)
كَيْفَ لَا تَرْتَضِي لِمُكْثِبٍ شَفَّهَ بَرَحٌ مِنَ الْحَزَنِ ؟ ^(٢)
هَبَكَ لَمْ تَسْمَعْ شَكَاةَ فَعِي أَوْ لَمْ تُبْصِرْ ضَنَى بَدْنِي ؟ ^(٣)

= ووجدناه ، وجرى في القصر حل سته وطريقته ، ونقلنا إلى معانه وبيته ، فأرانا المنازل والديار التي ارتحل عنها أهلها ؛ فذهبت يارتجأهم أنسها وعمرانها ، وأصبحت دماً وألحلاً ترحح فيها جازئات الطيأ ؛ فتعجج شجون ، وترق لها غيله . ثم تمدح بالمزة والمننة ، والبهاجة ، والشجاعة ، وحماية النزول ، ووقاية الجار ، وذلاقة اللسان ، وقوة الحجة والبيان ، وغيرها من الحماد والمناقب التي ردها العرب في شعر القصر والحماة . ووصف أنليل العربية الأصلية بأوصافها الرائعة المعبية ؛ فعرضها علينا في وثاقة غلفتها ، وكرم مصبتها ، ونقمةا المتطم ، وغيرها المعيم ، فأفاد وأجاد ، وأصعب وأطرب ، وبث الشعر الرائع القديم من مرثده ، وشما به إلى مكان الفحول من الشعراء الأولين . وأكبر الفن أن هذه القصيدة وأمثالها من شعر قوتكه وشبابه ، بعد عودته من القسطنطينية ، في حاشية الخديو إسماعيل سنة ١٢٧٩ هـ - (١٨٩٣ م) .

(١) قرئت عينه : بردت سروراً . وهو قرير العين : أي واغص ، مقتضب ، مسرور . والوسن : التماس . وألحاك : شغلك ، وأفساك : وصرفك . والشجن : الحزن ، والحلم : والهم (وفعله من باب تمب) . والشجن أيضاً : الحاجة التي تهم المحتاج ؛ وتشغله . والحاجة الشاغلة للمحب : أن ينتبه له حبيبه ، ويقبل عليه . والثناء والاستفهام في البيت : للاستعطاف والاستئالة . وفي البيت أن المحبوب قرير العين ، يعني البال ، مستمتع بأمنة التماس ، لاه عن محبه الذي يفاضل الشجن والأرق ، وإيا الروصب ، وتبريح الوجد ، وسوء الحال .

(٢) رف له : رق له ، ورسمه ، وأشفق عليه (وبابه روى) . ومكثب : اسم فاعل من أكتأب (أكتأباً : أي تنبذت نفسه ، وانكسرت ، وساء حاله من شدة الهم والحزن . وشفَّه الحزن ونحوه : غسره وعزله ، وأغله وأضناه . وبسرح الحزن ونحوه : شغفه وتبريحه .

والاستفهام في أول البيت : لتعجب والتعجب ؛ فجمود المحبوب ، وقسوة قلبه ، وقلة أكرائه مع ما يراه من أكتأب محبه ، ونحوه ، وتبريح الوجد به - مما يثير العجب ، ويهيج المشاعر ، رجز العواطف .

(٣) هبك لم تسمع : أي احسب ، واضد ، وافرض ، وقدر أنك لم تسمع ... ، وهو فعل أمر . ولا يأتي منه في هذا المعنى ماض ، ولا مستقبل . والشكاة : الشكوى . والمهزة في أول الشطر الثاني للاستفهام المراد به الهم أو المتألم . والواو بضمه عاطفة ، والمطوف عليه محذوف مقدر : أي أغفلت =

يَا عِبَادَ اللَّهِ ! مَنْ لِفَتَى يَبْدُ الْأَشْوَاقِ مُرْتَهَنٌ (٤)
رَعَتْ الْأَشْوَاقُ مُهْجَتَهُ وَبَرَّاهُ الْوُجُودُ ؛ فَهُوَ صَنِى (٥)
أَوْ مِنْ طَبِي خَلَعَتْ بِهِ فِي مَيَادِينِ الْهَوَى رَسْنَى (٦)
سَاحِرُ الْعَيْنَيْنِ مَا بَرَحَتْ لَحْظَتَاهُ مَصْطَرَّ الْفِتَنِ (٧)

= ولم تجسر . والفتى : المرض الشديد الملازم الذى يهزل الجسم وينحله ، ويشرف به المريض حل الموت .
(رطله من باب صلى) . وبدن الإنسان : جسده .

(٤) مرتَهَن (بصيغة اسم المفعول) : مرهون ، مقبض ، محبوس .

في ثلاثة الأبيات السابقة اتجه الشاعر بالنداء والخطاب إلى المحبوب يستميله ، ويستطفه ، ويمانه ، ويشكره إليه شجته ، ووجده ، وضى بدنه . وفي هذا البيت وسع الدائرة ، فنادى عباد الله مستنبهاً مستشفياً ، لعله يجد من يرثى له ، ويشفق عليه ، فيجده وينثى ؛ إذ انتهت الأشواق ، ولم يكثر له حبيبه . والبيت الآتى تفصيل وتأكيد للشطر الثانى من هذا البيت .

(٥) المهجة : القلب . أو الروح . ورعها الأشواق : أتت عليها ، وأهلكها . من قولهم : رعت الماشية الكلأ : أكلته . ورعت النار الخطب (وبابه سى) . وبراه : هزله ، ورطه ، وأضناه ، وأذابه . مستشار من برى القلم ونحوه (رطله من باب رى) . والوجد : الحب ، والشق . وهو واحد بغلاة . وله بها وجد . والوجد أيضاً : الحزن . وضن : مريض ، اشتد به المرض ؛ فحكن منه الضعف والخرال . (رطله من باب صلى) . وأكثر ما يستعمل النفس في تبريح الشوق ، وشدة الوجد ، وأوصاب العشق والفرام . (٦) « آه » : كلمة توجع ، وتألّم ، وتحزن ، وشكاية . والظنى : الفزال ، تشبه به الحساء من النساء في جمال الجيد والعينين ، والرشاقة ، وخفة الحركة ، وحسن النش . وغلعت به : أى خلعت بسببه ، ومن أجله . والهو : الحب والعشق والفرام . والرسن : الزمام ، والمقود ، وأجلل يجمل في رأس الدابة وأنفها ، فتقاد به . ويقال : خلعت فلان رسنه ، أو عذاره ؛ إذا ترك الحياه ، وركب هواه ، وانطلق في مجال حبه وفرامه ، لا يثنيه شيء .

يشكو حبيبه ، ويتوسّع من إعرافه وصلوده ، مع شدة تعلقه به ، وانطلاقه في مجال الهوى والفرام .
(٧) « سحر » غير لبيد محطوف . أو نعمت لظنى في البيت السابق . وعين ساحرة : فائقة الحسن ، جذابة ، فائقة . وما برحت : ما فتئت . والفتى مع هذا الفعل وأمثاله يفيدان الاستمرار . والخطبة : المرة من الخطب (من باب قطع) : أى نظر إليه بمقتصر عينه ، من أحد جانبيه . ومن كلامهم : فتت خطبتها ، وأخطاها . وقد يراد بالخطبتين هنا : البنان ، أو الحظاظ . والفتن (بكسر ففتح) : جمع الفتنة (بكسر فسكون) : وهى إيهابك بالشئ . وقتته الشئ (من باب ضرب) : أعجبه ، واستأله ، واستهواه . وقتته المرأة : ولّهته : أى أذهبت بالعشق فؤاده ، وسلبته عقله ، واشتدت به الوجد ؛ فهام وتهمس .

سَلَكْتُ (بَعْضُ) الْوُشَاةِ بِهِ مِنْ نَعِيمِ النَّيِّ فِي سَنَنِ^(٨)
 صَرْفُوهُ عَنْ طَبِيعَتِهِ وَعَنَّانُ الْقَلْبِ فِي الْأُذُنِ^(٩)
 وَقَرِينُ الْمُسَوِّجَةِ مَجْلِبَةٌ لِلْوَاغِي أَلْهَمَ وَالْمِخْنِ^(١٠)

= وصف عينها بالسحر ، أى بأعلى مراتب الحسن والجمال . وقال : إن نظراتها لا تفتأ تفتن العبد
 المستهيم ، وتجعله أسير الهوى ، صريع الغرام .

(٨) سلك المكان والطريق ، وسلك فيه (من بابى دخل ونصر) : دخله ، وسار فيه . وسلك به
 الطريق : أى أسلكه إياه ، وسيّره فيه . وفى الأصل المضبوط الذى بين أيدينا نقص وتحرّيف غير قليل .
 والكلمة التى بين قوسين (بعض) تكملة من عندنا ، أضفناها ؛ فاستقام بها وزن البيت . وهذه القصيدة من
 المديد ، ثانى مجمر الشعر . وأجزاءه : فاعلاتن ، فاعلن ، فاعلاتن (مرتبة) . وفى عروضه وضربه هنا
 حذف وشعين . والحذف : ذهاب السبب الخفيف . والخين : حذف ثانى الجزء ساكناً ؛ ف « فاعلاتن »
 تصير « فصلا » ، ثم تنقل إلى « فعلان » . والوشاة : جمع الواشى : اسم فاعل من الوشاة أو الوشى ، وشلهما
 الخمية والنخم : وهوتزيين الكلام بالكذب ، والسوى به بين الناس للتحرّيش ، والتوريش ، والإغراء ، والإفساد ،
 وإلقاء الفتنة والرحشة ، والمجفوة والقطيعة ، وإلقاء المدواة والينضاء بينهم . والى : الإيمان فى الضلال ،
 والانهماك فى الجهل : وهو خلاف الرشد . وإضافة النخم إلى النى : من إضافة الخاص إلى العام .
 وسن الطريق : نهجه ، وجهته ، ومظهره .

يقول : إن الوشاة سلكوا بحبيته طريق الفلواة . يريد : أنها تأثرت بنميتهم ، فنجفت مجها ،
 وأعرضت عنه .

(٩) صرفه عن كذا (من باب ضرب) : ردّه ، ودفعه ، ونحوه . والعنان (بوزن الكتاب) :
 سير اللجام الذى تمسك به الدابة . وانقياد القلب للأذن : كناية عن الاستماع للوشاة ،
 وتأثيرها .

والمنى : أن طبيعة هذا الحبيب - فى أصلها - سليمة طيبة ، ولكن الوشاة صرفوها عنها ، وجردوها
 منها ، وعلّقوا قلبه فى أذنه ؛ فاستمع لوشائهم ، وتأثر بها ، فجفا بحبه وقلاه . وهو تأكيد وتوضيح لمضى
 البيت الذى قبله .

(١٠) القرين : المقارن والمصاحب . والسو : اسم جامع للمقاييس والآفات . والمخن : الحزن
 والنمّ والفتن . والمخن (يكسر ففتح) : جمع مخنة (يكسر فسكون) : وهى البلاد والشدة .
 أجرى الشاعر هذا البيت مجرى الحكم والأمثال ، وأكد به معنى البيتين السابقين ، ونفّر حبيبه من
 الاستماع للوشاة ؛ فلا ريب أن الواشى من قرناء السوء الذين يملكون لمن يستمع لهم أسباب البلايا والمهموم ،
 والشور والافات ، ويفرقون بين المتحابين ، ويقطعون بسمايلهم أواصر الود بين الناس .

فَاتْرُكِ الدُّنْيَا ؛ فَلَسْتَ تَرَى صَاحِبًا إِلَّا عَلَى دَخَنِ^(١١)
 مِنْ جَرَى بِي غَيْرِ حَلْبَتِهِ كَانَ مَوْفُوقًا عَلَى الظَّنِّ^(١٢)
 وَقَالَ :

أَطَعْتُ الْغَى فِي حُبِّ الْغَوَايِ وَلَمْ أَخْضِلْ مَقَالَةً مِنْ نَهَائِي^(١٣)

(١١) الدَّخَنُ (بفتح الدال) : الحقد ، والانطواء على المداواة والبغضاء . ومن كلامهم : « دحنة على دخن أي صلح على فساد باطن » .

زهد الشاعر في الدنيا ، وزهد غيره فيها ، قللة الخير والوفاء للناس ، وشيوع الحقد والفساد ، وكثرة من ابتلى بهم من الرذائل ، وقرناء السوء .

(١٢) الخلية (يفتح فسكون) : خيل يجمع السجاني من كل أوب : أي من كل ناحية . وجرى المرد في غير حلبته : أي صاحب من لا يشاكله . وهو موقوف على كذا : أي مقصور عليه ، لا يفارقه . والظنن : التهم : جمع ظننه (بوزن سيلة وظل) .

اتجه الشاعر بثلاثة أبيات الأخيرة (١٠ - ١٢) من هذه القصيدة - إلى النصيح والإرشاد ، وصالحها ساق الحكم والأمثال ؛ فلعل صلتها بالقرآن قبلها ، أنه لما تيرم بالرشاة الذين صرفوا حبيبهم عن طبيعته الطيبة السليمة ، وسلكو به طريق الغي - نداه بقرناء السوء ، وما يحلبونه لغريم من البلايا والحن ، ثم بالغ فاستبس من الخلل الرقي ، والمصاحب البزيم من الدخن ؛ فزهد في الدنيا لهذا السبب ، وزهد فيها غيره . ثم عرض بمن جرى في غير حلبته ، وصاحب من لا يشاكله ، وضحى مواطن الريب والشبهات ، فكان موقفاً على التهم والظنانات .

• • •

* نظم البارودي هذه القصيدة وهو في الحرب الروسية التركية التي انتهت في ٢٨ من صفر سنة ١٢٩٥ هـ (٢١ من فبراير سنة ١٨٧٨ م) وكان يوشق في نحو الأربعين من عمره .

(١) الغي : الإيمان في الضلال ، والانهماك في الجهل ؛ وهو خلاف الرشد . والغواي : جمع الغاية ؛ وهي المرأة التي غشيت بحملها الطيبى من الزينة ، ومن الحسن المخلوب بالانصرطية ونحوها . ولم أخضل : لم أبال ، ولم أكثرث . والمقالة : القول .

يقول : إنه أحب الغايات ، وتطلق بيني ؛ وفي سبيل هذا الحب ، ومن أجله اجتنبت الرشد ، وأنقاد لغي ، ولم يبالي قول الناصح الذي نبهه ونهاه .

وَمَا لِي لَا أَعِيْمُ وَكُلُّ شَعْمٍ يَحُبُّ الْغَيْدَ مَشْغُوفُ الْجَنَانِ (١)
وَلِي فِي الْأَرَبِيِّنَ مَجَالٌ لَهُوَ تَنَالٌ يَلْدَى بِهِ عَقْدَ الرَّهَانِ (٢)
فَكَيْفَ أَفْؤُدُ عَنْ نَفْسِي غَرَامًا تَضَيَّفَتْ مُهْجَتِي بِاسْمِ الْحَسَنِ (٣)

(٢) عام بفلاحة (من باب باع) : شغفته حباً . والشهم : الذكي القواد ، السديد الرأي ، والسيد الناظر الحكم . وأولو قبله : وأو الحال . والجملة الاسمية بعدها : جملة حالية : والغيد : جمع غيداء ، وهي المرأة الناحية ، الهيئة الأصطف . وفيدت الفتاة (من باب فرح) : تمايلت ، وتفتت في لين ونعومة . وشغته الحب (من باب رد) : غسره ، وأرقه ، وهزله ، وأغناه ؛ فهو مشغوف (بالقاء) . أو هي مشغوف (بالعين) : من شغفه الحب (من باب نفع) : أي بلغ شغاف قلبه : أي غلافه . أو غامر القلب ، فكان تحت الشفاف . أو هي « مشغوف » بالعين : من شغفه الحب (كقطع) : أي أحرق قلبه . أو حله وشغفه ، وقلب عليه . والجنان (يفتح الجيم) : القلب .
في البيت السابق قال : إنه أنطاع لقي في حب الغاليات ، وتماهى فيه ؛ فلم يكثر لى التماهى ، ولمصح الناصح . وفي هذا البيت أقر المهام بالغيد الحسان ، وأوتقاه لنفسه ؛ بل حله من الشهامة ، فقال : إن كل شهم مستهم بن ، مشغوف الجنان يحسن .

(٣) ولي في الأربيين . . . : قد منا أن الشاعر نظم هذه القصيدة وهو في نحو الأربيين من عمره . والجبال : مكان الجولان ، وهو التطواف ، والدوران ، والحركة . والهوى : ما لحيت به ، وشغفك من هوى وطرب ونحوهما . أو هو كل ما استمتع به الإنسان من زينة الحياة الدنيا ولذاتها . وبه : أي بالهوى ، أو في مجاله الواسع الفسح الذي اختاره الشاعر لنفسه ، وفاق غيره فيه . والمقد (بكسر فسكون) : القلادة ؛ وهي شريط ينظم فيه الخرز ونحوه ، ويحيط بالمتعق لزيته . أو هو عقد (يفتح فسكون) : بمعنى ما تعاهد عليه المتراحين من الجوائز ونحوها . وراحتته حل كذا مراعاة ورعاً : خاطره ، وصاحبه . والشطر الثاني : كناية من إمعانه في الهوى ، وسبقه ؛ فهو يسبق اللادين ويترهم ، كما يقال : « أحرز قصب السبق » .

يقول : إن له في الأربيين من عمره مجالاً واسعاً فسيحاً للهوى ومتنته . وهو في هذا المجال سباح متطوق ، لا يجاريه أسد من اللادين . وفي بعض الآيات الآتية بيان لما يعنيه بالهوى .

(٤) أؤيد : أذبح ، وأصد ، وأطرد (وبابه قال) . والغرام : الزلوع ، والحب الشديد الذي يملأ قلب الحب . وهو مفرغ بفلاحة : أي يلازمها ، ويصاحق بها تعلقاً لا يستطيع التخلص منه . وتضيقه : ضاقه ؛ أي نزل عنه شيئاً . والمهجة : القلب ، أو الروح ، والنفس . والحسان : جمع الحسنة .

يقول : إن لوهو بالحسان نزل من قلبه منزلة الضيف الذي لا سبيل إلى رده ، أو التهاون به . أو المعنى : أنه يبادل الحسان اللذي أكرم بين معاملة المضيف لضيفه ؛ فهو سقى بن ، حريص عليه . والبيت الآن يفصل هذا المعنى ويؤكد .

أَبْهَتْ لَهُ الْفَوَادَ ، فَعَاثَ فِيهِ وَحَقَّ الضَّيْفِ إِعْزَازُ الْمَكَانِ^(٥)
 فَلَدَغْنِي مِنْ مَلَامِكَ ، إِنْ قَلْبِي أَيْمٌ لَا يَقَرُّ عَلَى الْهَوَانِ^(٦)
 فَمَا بِالْحُبِّ عَارٌ أَتَقِيهِ وَإِنْ أَخْنَى عَلَى الدَّمْعِ الزَّمَانُ^(٧)

(٥) له : أى الغرام ، أو المحبوب . ومات (من باب ياع) : أفسد . والمراد أن الغرام استباح قلبه ، وتمكّن منه . أو المراد : أنه شغل قلبه ، وولّسه ، وصرفه عن كل شيء سواه ؛ فكان هذا لوطاً من ألوان الإفساد . وحق الضيف : ما يستحقه ، ويستأمله ، ويسترجيه . وهو حقيق بكلاً : أى جدير به ، أهل له . وإعزاز مكان الضيف : إحلاله محلّ الإكرام ، والحب ، والمفاخرة ، والإظهار .
 في البيت السابق قال : إن الغرام قضيف غزّاه . وفي هذا البيت : أنه رغب به ، وأباح له قلبه ، فاستباحه ، وتمكّن منه ، وبرز فيه . والشرط الثاني لتدليل جاز مجرى الخلل ، مؤكّد لهذا المعنى ؛ فحق الضيف على مضيئه أن يمزّ مكانه ، ويرفع منزلته ، ويلقاه بالمفاخرة ، والإكرام ، والإعزاز ، والترحيب .

(٦) فع : أمر من ودعه . بمعنى تركه . والملام : القوم والسبل . ودغى من ملامك : أى لا تلمنى . وأبى : حزين مترفع . ولا يقَرُّ (كيمَل ، ويخف) : أى لا يقيم ، ولا يسكن . والهوان : المذلّة ، والضعف ، والالتكاسار .

يقول لماذا له : لا تلمنى ؛ فإن قلبى لا يقيم على الضيف ، ولا يرفعى المذلّة والهوان ؛ كأنه جعل القوم محاولة لقهره وإذلاله ؛ وطلاً يرفضه في ترفّع ، وإيذاء ، واستقصاء .
 أو المعنى : أن قلبه أبى قوى ، حزين مترفع ، بعيد عن المذلّة والهوان حتى في حبه وغرامه ؛ وهو لإيأائه وحزّه يرفض ملاسة اللاتم ، ويذل الماذل .

(٧) اتقى الشيء ، وتوقّاه : حذره وتجنّبه . وأخنى عليه الزمان : طال . ويلاحظ أن في هذا البيت إقواء : وهو عيب من صوب النقاية ، قائم على اختلاف حركة المجرى بكسر وضم (والمجرى : حركة الروى المطلق) ؛ فحركة في القصيدة كلها الكسر ، وحركة في هذا البيت الضم . ولأن نمره أن البارودى حريص على سلامة قوافيه ؛ فقد يكون هذا من تحريفات التناسخ . ولعل الأصل الصحيح : « وإن أخنى حل دمعى زمان » ؛ وهذا يستقيم وزن البيت ، ويسلم من الإقواء .

والمعنى : أنه ارتضى لنفسه حباً حزيناً عفيفاً مبرأً من الميول والشبهات ، واستمسك به على ربه ما يفضّله من طول البكاء ، وتبريح الحيد ، ونحو الجسم . وكأنه بهذا يحيط ملاسة اللاتم ، ويقطع دجابه . ويحمله على اليأس من جلوى القوم . وفي البيت الآخر تفصيل وتأكيد لهذا المعنى .

رَضِيتُ مِنَ الْهَوَىٰ بِتَحْوِيلِ جِسْمِي وَمِنْ صَلََةِ الْبَخِيلَةِ بِالْأَمَانِي^(٨)
وَلَسْتُ بِطَالِبٍ فِي النَّاسِ نَجْلاً يُنَاصِحُنِي ، فَعَقَلِي قَدْ كَفَانِي^(٩)
فَإِنْ يَكُنْ الْهَوَىٰ قَدْ رَاضٍ نَفْسِي فَلَسْتُ لِغَيْرِهِ سَلِسَ الْعِنَانِ^(١٠)
أَشَدُّ مِنَ الصُّخُورِ الصَّمَّ قَلْبِي وَأَزْهَقُ مِنْ شَبَابِ سَيْفِي لِسَانِي^(١١)

(٨) الهوى : الحب ، والمشق ، والفرام . وتحويل الجسم : هزاله ، وسقه (وفعله كنع ، وعلم ، ونصر ، وكرم) . والصلة ، والوصل ، والواصل : ضد الهجران والقطعية ، والإعراض والصدود . والأمانى (بالتخفيف والتشديد) : جمع الأمنية : وهي ما يمتناه الإنسان ، ويريد ، ويرغب فيه ، ويقدّر ، ويبتغيه ، ويجب أن يصير إليه .

يقول : إن محبوبته متأهبة عليه ، مرفوعة عنه ، بهيلة بالوصل . وإن الهوى قد نحل جسمه وهزله وأفناه ، وهو مع هذا كله راضٍ قانع به ، مقيم عليه ، متعلق بالأمانى والآمال .

(٩) "الخل" : الصديق المختص ، وبهذه الخلول . ويناصي : ينصح لي ، وأنصح له : من الخاصة : وهي أن ينصح كل منهما لصاحبه .

في هذا البيت وثلاثة الأبيات قبله : أنه مترفع بمجه عن الريب والشبهات ، راضٍ بتيمات الهوى وأوصابه ، مستن بمقله من نصيحة الأخلاء ، أبي القلب ، لا يقيم حل جسم ، ولا يستمع للامة لائم ، ولا يأبه بمذل حلول .

(١٠) راضٍ الهوى نفسه (من باب قال) : ذلها ، وطوعها . وسلس : سهل ، لين ، منقاد (وفعله من باب تمب) . والعنان (بكسر العين) : سير اللجام الذي تقاد به الدابة . وفرس سلس العنان : أي ذلول ، سهل الانقياد .
يقول : إنه متطاع للحب ، أبي غيرة .

(١١) الصخور : الحجارة المنظمة الصلبة . والصم : جمع الأصم . وحجر أصم : أي صلب متين مصمت . وأزهد : اسم تفضيل من هُذِفَ السيف ونحوه (ككروم) رهافة : أي صار حاداً قاطعاً موهناً باتراً . وشبابة السيف ونحوه : طرفه الرقيق الحاد القاطع . وأجمع شبا وشبوات .

في البيت السابق قال : إنه انقاد الهوى ، وتأبى على كل ما عداه . وفي هذا البيت : انخر بقوة قلبه وسجدة لسانه ، وأسرسل في الفخر إلى نهاية القصيدة . وقوة القلب تحمل كل معاني الشجاعة والإقدام والمخاطرة بالنفس . وفي هُذِفَ اللسان معنى قوة الهجة ، ونصاعة المنطق والبيان . وفي البيت إلى هذا أنه من المتصرين باستخدام السلاح .

وَلَوْ كَانَ الْغَرَامُ يَخَافُ بَأْسًا أَمَلْتُ إِلَيْهِ كَفَى بِالْمِسْتَانِ (١٢)
فَكَمْ يَغْلِي خَضَبْتُ الْأَرْضَ مِنْهُ بِأَحْمَرَ مِنْ دَمِ التَّامُورِ قَاتِي (١٣)
وَمَا أَنَا بِاللَّيْلِي أَرَدْتُ خَتَلًا وَلَكِنِّي أَزِفُ إِلَى الطُّغْيَانِ (١٤)
وَلِي فِي «سَرْنَسُوف» مَقَامٌ صِدْقٍ أَقْرَبُ بِهِ إِلَى الْخَافِقَانِ (١٥)

(١٢) البأس : ما يخيف ويهيب كالغرب ، والمذاب الشديد . والستان : نصل الرمح ؛ أى حديدته القاطعة الجارحة .

يقول : لو كان الحب ينشئ القوة والبأس لدفعه بقوة السلاح . ومعنى هذا : أن سلطان الغرام أمضى من القنا والسهام ، وأقوى من كل بأس وسلطان .

(١٣) « كم » : اسم ثنائي مبهم ، وهو هنا يفيده التكثير . والبطل : الشجاع . وخضب الشيء (من باب ضرب) : غير لونه بالخصاب (يوزن الكتاب) : وهو ما يختضب به من حناء ونحوه . والتامور : القلب . وأحمر قاتى : أى شديد الحمرة (وقوله من باب خضف) .

يفتخر بشجاعته الحربية ، وتبرمه بالقتال ، وكثرة من قتلهم من أبطال أعدائه ، وخضب الأرض بدماء قلوبهم .

(١٤) الدليل : صفة من الأدل : وهو الضعف والهوان . وضده العز والقوة . وأخفل : مصدر خفله (من باب ضرب وقل) : أى خدعه عن غفلة ؛ فأظهر له خلاف ما يخفيه ، وأراد به المكره من حيث لا يعلم . وزف « كخف » : أسرع . والاسم الزليف ، وأزف « إزفاً » مثله . وفى القرآن الكريم : « فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْوِجُ » الآية رقم ٩٤ من سورة الصافات . والطمان : مصدر طامته بالرمح وقبح ؛ أى لمن كل منهما الآخر : أى ونزعه ، أو ضرب به برأس الرمح وسناله .

يفخر بأنه لا يراوغ أعداءه فى الحروب ، ولا يتخلفهم ، بل يسارع إليهم بالطمان فى مجاهرة وإقدام . ويقول : إن المخاللة ذلة وضعف وهوان .

(١٥) « سرنسوف » : إقليم بأكرانيا من روسيا ، حاضريته باسمه ، حل أحد روافد نهر « دنيپر » . والمقام (يفتح الميم) : اسم مكان ، أو اسم زمان ، أو مصدر ميمي من قام يقوم قِيَامًا . أو هى (يضم الميم) : من أقام بالمكان إقامة : إذا لبث فيه ، واستقر به . ومقام صدق : أى مقام قتال ، واستبسال ، وجهاد صادق . وأقر له بالحق إقراراً : اعترف له به ، وأثبت . وبه : أى بمقام الصدق . والخافق : الأقن ، والناسية . وهما خافقان : أفق المشرق ، وأفق المغرب . وخوافق الأرض والسما : جهاتها وفواصيا . ويراد بالخافقين هنا : الناس جميعاً من أعداء وأولياء .

يفخر بإقدامه واستبساله فى الحرب الروسية التركية . ويقول : إن المشرقين والمغربيين ، أو أفاق الأرض والسما ، أو الناس جميعاً أعداء وأولياء شملوا الله باليسالة ، وصدقوا بالجهاد .

وَمَا أَبْقَتْ بِهِ الْأَشْوَاقُ مَنِيَّ مَوَى رَمَقٍ تَجُولُ بِهِ الْأَمَانِي (١٦)
وَيَسْلُبُ أَنْفَسَ الْأَبْطَالِ سَيْفِي وَتَسْلُبُ مُهَجِّي حَقِّ الْحِسانِ (١٧)
فَلَوْ بَرَزَ الْجَمَامُ إِلَيَّ شَخْصًا كَلَفْتُ إِلَيْهِ بِالسَّيْفِ الْيَمَانِي (١٨)

(١٦) به : « بوسنوف » : أي هذا المكان ، أو هذا البلد . والرمق : بقية الروح ، أو بقية الحياة . ويجول : تطوف وتلحور في غير استقرار (وبابه قال) .

يقول : إن أشواقه إلى وطنه برحت به ، واشتدت عليه ، فلم تبق فيه غير بقية قليلة من الحياة تطوف بها آمال المعوية ، واجتماع الشمل ، ولقاء الأحياء .

في ربيع الأول سنة ١٨٨٢ هـ (١٨٦٥ م) شارك البارودي في إخماد ثورة القرطبي « كريد » حين تمرد أهلها ، وخرجوا على السلطان . وعاد من تلك الحرب إلى مصر في جمادى الآخرة سنة ١٢٨٤ هـ (أكتوبر سنة ١٨٦٧ م) . وفي ١٠ من ربيع الآخر سنة ١٢٩٤ هـ (٢٤ من إبريل سنة ١٨٧٧ م) شهِرت روسيا الحرب على تركيا ، فكان البارودي من كبار ضباط الحملة العسكرية المصرية التي أرسلها القيصر إسماعيل لخدمة تركيا ، ولم يعد البارودي إلى مصر إلا بعد عقد الهدنة في ٢٨ من صفر سنة ١٢٩٥ هـ (٢١ من فبراير سنة ١٨٧٨ م) . وله في كل حرب من هاتين الحربين قصائد طويلة رنانة خالدة . ويلاحظ أن الشرق إلى الوطن قد بدأ متوثباً متأججاً في قصائده من الحرب الثانية .

(١٧) سلب الشيء (من باب قتل) : انتزعه قهراً ، وأخلده عنوة وقسراً . والمهجة : القلب . والحلق : جميع الحلق : وهي السواد المستدير وسط العين . ويزاد بالحلق هنا : العين . والحسان : جميع الحسان .

مزج الشاعر الفخر بالفضل ، فتمدح بشجاعته ، وإقدامه ، وقهره بالحروب ، وحسن استغلاله للفرح ، ومقدرته على قتل الأبطال الشجعان من أعدائه . وفي الفطر الثاني أنه مع هذا كله فريسة هيئة متفاداة لسمر العيون ، وتفتنه أخطأ الحسان الغانيات ، يسلبته مهجته ، فيقع أسير الحب ، صريع الغرام .

(١٨) برز (من باب قعد) : خرج وظهر بعد خفاء . وبرز له : انفرد ليتنازله ويقاقله . والحمام : الموت . ودلفت : تقدست (وبابه ضرب وجلس) . وإيماني : المنسوب إلى إيمان ، وكانت مشهورة بصناعة السيوف وتجارتها .

بالع الشاعر في الفخر بشجاعته الحربية ، فقال : لو تقدم إلى الموت بشخصه مثلاً مقاتلاً لواجهته بمنى مكافئاً مستبلاً .

لهذه ثمانية عشر بيتاً ، نصفها تقريباً في الفزل ، ونصفها في الفخر والحاسة ، والمجاهدة بكفائته الحربية العالية ، وصدى جهاده في الحرب الروسية التركية . ويلاحظ أنه نظمها وهو بوسنوف ، أو المبدان التي كان يحارب فيه . وكان يوشك في نحو الأربعين من عمره ، أي في عتوان شبابه ، وحده ، وقوته ، وطموحه . وفيها - إلى الفزل والفخر - شوق وحنين إلى وطنه ، لا ينقص حماسه ، وولوه بالقتال ، وصبره عليه ، وصنفته فيه .

وَقَالَ يَرْثِي الْمَرْحُومَ عَلِيَّ رِفَاعَةَ بِاشًا :

نَعَاءٌ عَلَيْهِ أَيْهَا الثَّقَلَانِ فَقَدْ أَقْصَدْتُهُ أَنَّهُمُ الْحَدَثَانِ^(١)
مَضَى ، وَأَقَمْنَا بَعْدَهُ فِي مَا يَمِمْ عَلَى الْفَضْلِ نَبِيكِي بِأَحْمَرَ قَالِي^(٢)
فَلَا حَيْنَ إِلَّا وَهَمِي بِالذَّمْعِ ثَرَّةً وَلَا قَلْبَ إِلَّا وَهَوَ ذُو خَفَقَانِ^(٣)

• حلّ: باشا بن رفاعة واقع بن بدرى الطهطاوى نسبة إلى طهطا من بلاد محافظة سوهاج بصعيد مصر (١٢٦٥ - ١٣٢١ هـ / ١٨٤٨ - ١٩٠٣ م) كان وكيلاً لوزارة المعارف المصرية ، وتوفى بالقاهرة .
من مؤلفاته المطبوعة : « فتوة الفرع بأصله ، حسب الأصول وأهله » . ويلاحظ أنّ البارودى توفى بعد
الموت بشهر سنة (يوم ١٢ من ديسمبر سنة ١٩٠٤) .

(١) نسي الثاني فلاناً (من باب نسي) : أذاع خبر موته . أو نديه : أى مدّه بحماسة . وكانت
الحرب إذا مات من له قدر ، وركب راكب منهم ، وجعل يسير في الناس قاللاً : « لمانه فلاناً » : وهو اسم فعل
أمر : بمعنى الله ، وأذع خبر وفاته . ولعل مراد الشاعر هنا : ابتكيا عليه ، وانتهاه . والثقلان : الإثنى
وأجلان . وفي القرآن الكريم « سطرغ لكم أيها الثقلان » الآية رقم ٣١ من سورة الرحمن . وأقصده :
أصابته إصابة مفاجئة : من قولهم : أقصد فلاناً إقصداً : أى طعنه ، فلم يخطئ مقاتله . والأسهم :
جميع سهم : بحر عود من خشب يسود في طرفيه نعل ، يرمد به عن القوس . والحديثان : الليل والنهار .
وسدثان الشعر : نواحيه وسواده . ويراد بالشطر الثاني : تأكيد معنى النسي ، وإظهار الأسى والتعسر .
دعا الثقلين إلى نفيه ، والبكاء عليه ، ونديه ، شعيراً جذاً إلى جلال قدره ، وطهارة شأنه ،
وعظم العجبة فيه .

(٢) مضى : ذهب ، وأرحل . مضى فلان لسبيله : مات . وإليّام : جميع الحكام (هوزن الملعب) :
وهو جميع الناس . وقلب على اجتماعهم في الحزن . و « حل » في أول الشطر الثاني : التعليل : أى نبكي
لكلّ من أجل نفسه وإحسانه . وبأسحر فان (تشتيف: ثقلي) : أى بدم أسمر شديد الحسرة . والبكاء
بالدم الأسمر الثاني : مخالفة في تصوير الجرح والحزن الشديد .

وصحة الأبيات الأول من هذه القصيدة كلها في هذا المعنى ، أى في تصوير التفجع والتعسر ،
وروعة الفراق ، وروعة الفاجعة .

(٣) ميم ثرة بالذم : أى دمهها غزير كثير جار . وخفقتان القلب : اضطرابه ، وأرتجافه .
يقول : إن الميمون كلها تبكيه بدمع غزير منهمر ، والقلوب كلها واجبة مرتجفة لفراقه .

حِفَاطًا وَإِشْفَاقًا عَلَى مُتَرَحِّلٍ خَلَّتْ أَرْبَعٌ مِنْ شَخْصِهِ وَمَعَانِي^(٤)
فَقَدَنَاهُ فَقَدَانِ الظَّمَاءِ شَرَابَهُمْ يَدِيمُومَةً وَالْوَرْدُ لَيْسَ بِدَانِي^(٥)
فَبَا لِلْعَلَى كَيْفَ اسْتَبِيحَ ذِمَارُهَا وَلِلْفَضْلِ إِذْ بُرَى بِهِ الرَّجْوَانُ^(٦)
لَعَمْرِي ، لَقَدْ هَاجَ الْأَمْسَى بَعْدَ فَقْدِهِ بِنَا لَوَجَةٍ لَا تَنْفِنِي بِحَنَانِ^(٧)

(٤) حافظ حل الشيء بحفاظة وحفاظاً : راقبه ، وصالته ، وراماه ، ووقاه . ويراد بالحفاظ هنا :
شدة التصاق المارئي ، والحزن على فراقه . وأشفق عليه إشفاقاً : حطف ، وغاف عليه . وترسل : ماض ،
ذاهب ، مغاير : اسم فاعل من الترحل . وطله الرحيل ، والاتصال . وغلا المنزل من أهله (من باب
سم) : إذا ارتحلوا عنه ، فتهوخال . والأربع : الديار ، والمنازل : جمع ديع (يفتح فسكون) . والمعاني :
جمع المعنى (بوزن المعنى) : وهو المكان ، أو المنزل الذي غنى به أهله (بوزن رضى) : أى أقاموا فيه ،
ثم ظلموا ، وارتحلوا عنه .

في البيت السابق : أن البيوت تبكى المارئي ، والقلوب تحفق من أجله . وفي هذا البيت سبب البكاء
والخفقان ، وهو الحفاظ ، والإشفاق ، أى الجرح ، وشدة التصاق بإراحل كرم ، خلل من شخصه
المعاني والديار . وفي البيتين إشارة إلى صوم نومه ، وشبهه فضله ، وبقاء ذكرياته ، وآثار بزه وإحسانه .
(٥) فقدناه (من باب ضرب) . وقداناً (بكر الفاء وضهماً) : علمناه ، وعصرناه . والظماء
(بكر الظاء) : جمع الظمان : وهو الذى اشتد عطشه (فضله من باب طرب) . ويراد بالشراب :
الماء . والديمومة : الصحراء الواسعة لا ماء فيها . فالورد (بكر فسكون) : الماء الذى يورد : اسم من ورد
الإنسان وغيره الماء : أى بلغه ووافاه . وليس بدان : أى بعيد ، غير قريب .
يقول : إنهم فقدوا المارئي كما يفقد الماء من اشتد جهم العطش ، وهم سائرته في فلاة واسعة خالية من
الماء . والغرض تصوير فضل المارئي وبقعه ، وشدة الاحتياج إليه ، وشدة الحلق عليه .

(٦) أتمل : جميع العليا : مؤنث الأعل . وبالعالم : أسلوب استغانة . والمستغاث به مخلوف .
والاعتقير : فيها قه للعل . أو هو أسلوب تعجب . والاستفهام بعده تأكيد لمعنى هذا التعجب . واستباحه :
عده مباحاً غير محظور . والذمار (بكر الذال) : كل ما ينهى حمايته وحياضته وحفظه والدفاع عنه .
والفضل : الخير والبر والإحسان . والرجا : الناحية . والغير رجوان . ورؤسى به الرجوان : أى طرَح في
المهالك . وأصله الدلو يرى بها رجوا البئر (يبناه هذه الأنفال كلها المجهول) .
استغاث ، أو تستجيب ، أو تستجيب : من أن يستجيب الموت فضل المارئي وصلاته ، ويصيب بإصابته
ما كان له في الناس من البر والنفع والإحسان .

(٧) لعمري : قسم بحياتي : اللام : لام الابتداء . أو لام القسم . وعمرى : مبدئاً مضاف إلى ياء
التكلم . وأظير مخلوف تقديره : لعمري قسمي : أى ما أحلف به . وهاجه (من باب هاج) : هيجته =

صَمَانٌ عَلَى قَلْبِي صِيَانَةٌ عَنْهُ وَمَا خَيْرُ قَلْبٍ لَا يَغِي بِصَمَانٍ (٨)
تَحَلَّى عَنِ الدُّنْيَا ، وَأَبْقَى مَاثِرًا يُعْبَرُ لَهَا بِالْفَضْلِ كُلِّ لِسَانٍ (٩)
فَإِنْ يَكُ أَوْدَى ، فَهَوَّ حَتَّى يَفْضُلَهُ وَمَنْ كَانَ مَذْكُورًا فَلَيْسَ بِغَانِيٍّ (١٠)

= وأثارة . والأي : الحزن (وفله من باب صدى) . والوعدة : الحرقعة (بضم فسكون) . وقد لاهه الحزن ونحوه (من باب قال) : أي أسرته وأمتعته . ولا تنفى : لا تنصرف ، ولا تتردد . والمثان (بكسر الميم) : سير اللجام الذى تمسك به الدابة . وجمعه أحنّة (بوزن زمام وأزمنة) . ولا تنفى بمثان : أي لا يردّها تصبر ، ولا يتخففها سلوان .

يقول : إن الأذى لفقدانه أسرم في القلوب لومة لا يطقها تصبر أو سلوان . وهذا عظام سببه أبحاث في معنى الاتباع والتحمس ، والتفجع والأسف على المرقى . وسيمود : الشاعر إلى هذا المعنى ، ويكرره في بعض الأبيات الآتية .

(٨) الضمان : الكفالة ، والاتزام : مصدر ضمته (كفهمه) : أي كفله ، والتزبه ، وأوجبه على نفسه . وصيانة عهد : أي صيانة عهد المرقى . ومعهده : ما كان بين وبينه من اتقاء ، ومعرفة ، وموثق ، ومودة ، وولاء ، وإخاء . وصيانة العهد : رعايته ، وقيامته ، وإحاطة عليه ، والوفاء به . والشرط الثالث : تدليل جار مجرى المثل ، مؤكداً لمعنى الشرط الأول : أي ولا خير في قلب لا يبنى بما التزمه ، وأوجب على نفسه من رعاية حقوق الإخوان ، وصيانة عهد الأخلاء بعد موتهم ، والإقامة على البرّ بهم ، والوفاء لهم .

(٩) تحلّى عن الدنيا : تركها وفارقها . وماثر ممنوعة من الصرف ، أي التثوين ، وإنما صرفت ، أي نوتت " هنا لضرورة وزن الشعر : جميع ماثره (يفتح التاء وضمتها) : وهى الثقل الحميد ، والمكرمة المتوارثة ؛ لأنها تؤثر : أي تنقل ، ويستحدث بها . وأقرّ له بكذا إقراراً : اعترف له به : وأثبت . ولما : أي لماثر . وبالفعل : أي بالثاء ، والزيادة ، والكثرة ، والشمول ، والاتصاف .

انتقل الشاعر في هذا البيت والذي بعده إلى عنصر آخر من عناصر الرثاء ، وهو التحدث بمآثر المرقى وفواضله .

(١٠) أودى : هلك ومات . وفان : هالك : اسم فاعل من فنى فناء (كشق شقاء) : أي هلك ، وباد ، وانتهى وجوده . والشرط الثانى تدليل جار مجرى المثل ، مؤكداً لمعنى الشرط الأول « والذكر للإنسان عمر ثاب » .

في هذا البيت والذي قبله أن المرقى أدركه الموت ، ولكنه سىّ بما كان له في الحياة الدنيا من فضل ، وإحسان ، وعمل صالح ، وبما أبقاه من حماد ومآثر ومكرّمات يذكرها له الناس بالإعراء ، وحسن التثناء . وخمسة الأبيات الآتية تجرى مجرى الحكم والأمثال وكلها في معنى أن الموت كأس دالرة على كل إنسان . والغرض منها التنزيه ، والخصّ على التصبّر والسلوان ، وهو عنصر ثالث من عناصر الرثاء .

وَأَيُّ امْرِئٍ يَبْقَى ؟ وَدُونَ بَقَائِهِ نَهَارٌ وَلَيْلٌ بِالرَّدَى يَبْعِدَانِ^(١١)
 أَلَا قَاتَلَ اللَّهُ الْحَيَاةَ ، فَإِنَّهَا إِلَى الْمَوْتِ أَذْنَى مِنْ فَمِهِ لِبَتَانِ^(١٢)
 إِذَا مَا بَنَانَا الدَّهْرُ ظَلَّتْ صُرُوفُهُ تَهْدُمُنَا ، وَاللَّهْرُ أَغْتَرِبَ بَانِي^(١٣)
 تُخَادِعُنَا الدُّنْيَا ، فَتَلْهُو ، وَلَمْ نَحُلْ بِإِنَّ الرَّدَى حَتْمٌ عَلَى الْحَيَوَانِ^(١٤)

(١١) الاستفهام في أول البيت : مناه الثاني . والواو قبل « دون » : واو الحال . والجملة بعدها حالية . والردي : الهلاك والموت . ووجه يند (من باب وعد) : ورد ، ويقدم ، وأق ، وأقبل .

يقول : لا يبقاه لإنسان ؛ فإن الليل والنهار لا يفتان بآثان بالموت الذي يحول دون البقاء ويمتعه .
 (١٢) « ألا » : أداة تبدأ بها الجملة تنبيهية . وقاتل الله الحياة : أسلوبيه تسيب وتجبب من قصر الحياة ، وسرعة زوالها ، وقربها من الموت . وأقرب : أقرب : اسم تفضيل من دنا (من باب مما) . والبتان : أطراف الأصابع . الواحدة بتانة .

(١٣) الدهر : الزمان الطويل ، والأمد الممدود ، ومدة الحياة الدنيا كلها . وقد جرى الناس - وبخاصة الشعراء - على أن يصفوا إليه الخير والشر ، والمسرّة والمساءة ، والبقاء والهدم . وظلّت : دامت واستمرت . يقال : ظلّ يفعل كذا : أي دام على فعله ليلاً ونهاراً . وصروف الدهر : نوائبه ، ولوائله ، وحداثته : جميع صرف (يفتح فسكون) . وهذا تهديماً : مبالغة في هدمه هتماً (من باب ضرب) . وفتر (من باب ضرب) : نقص العهد ، وسحان . وهدم الزمان . وأغتر : اسم تفضيل من الدهر .

في البيت السابق صيّب وصيّب من قصر الحياة ، وسرعة زوالها ، وقربها من الموت . وفي هذا البيت : أن الدهر بين الإنسان ، ولا يلبث أن يسلط عليه نوائبه وسوآته ، فيهدمه تهديماً . وقد جعله أخيراً البتاء ، وأبداه من الوفاء ، كأن البتاء عهد ، وألهم نقص لهذا العهد . والصلة بين هذا البيت والذي قبله ظاهرة وبيّنة ، فالحياة والموت بنيان وهدم ، وهما متقابلان متقاربان .

(١٤) تخادعنا : تخدعنا . وهدمنا (من باب قطع) : أظهر له خلاف ما يظنه ، وأفسد له الشر ، وأراد به المكرور من حيث لا يعلم . وتلهو : تلعب . والهو : ما يشغل الإنسان عما حسبه وعتبه . ويصير بالهو عن الاستمتاع ، والترويع عن التمسك بما لا تقتضيه الحكمة . وشال الشيء : غلاه (كشاهه يغاله ليلاً) : حسبه وظنه . وهونا بمعنى يقن (كلهم) ، أو أيقن . يقال : يقن الشيء ، وبه ، وأيقنه ، وبه : أي علمه ، وتحققه . والردي : الموت والهلاك . وسّم : واجب ، مقضى ، محتم . والحيوان : ما فيه الحياة . وكل شيء روح .

يقول : إن الدنيا تخدعنا ، فنخدع بها ، وتلهو عن الموت ، وهو أمر مستيقن محتم على الحيوان . وفي القرآن الكريم : « ولا تدع مع الله شيئاً ، ولا إليه إلا هو ، كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم ، وإليه ترجعون » الآية رقم ٨٨ من سورة القصص .

إِذَا مَا الْأَبُ الْأَعْلَى مَضَى لِسَبِيلِهِ فَمَا لِيَبْنِيهِ بِالْبَقَاءِ يَذَانِ^(١٥)
لَقَدْ فَجَعْنَا أُمَّ دَفْرٍ - وَمَا دَرَتْ - يَارَوْعَ مِنْ (نَسْلِ) النَّبِيِّ هِجَانِ^(١٦)
سَلِيمٍ نَوَاحِي الصُّدْرِ ، لَا يَسْتَفِزُهُ نِزَاعٌ إِلَى الْبُقْضَاءِ وَالشَّانِ^(١٧)

(١٥) يراد بالأب الأهل : آدم أبو البشر . ومضى لسبيله : مات . والد : القدر ، والقوة ، والسلطان . وشانها يذان . وما لي بهذا الأسر يذان : أي لا قوة لي عليه ، ولا طاقة لي به .

يقول : إذا كان الموت قد أدرك آدم أباه البشر ، فلا سبيل إلى بقاء أولاده وبزيمته من بعده . ولا ريب أن الموت حتم مقضى على الناس جميعاً ، مثل ذرأ الله الخلق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وهذا خاسم الآيات التي جرت مجرى الحكم والأمثال ، ودارت كلها حول احتتام الموت على البشر . وقصد بها التنزيه ، والخص على التمجيل بالصبر والسلوان . وفي ستة الآيات الآتية بيان وتفصيل لمحدد المرثى وفشاله الخلقية والنفسية . والشاعر في هذه الآيات يمدح إلى التأييد ، أي إحسان الشئ على المرثى .

(١٦) في الأصل المخطوط الذي بين أيدينا كثير من النقص والتعريف والتصنيف . والكلمة التي بين القوسين في الشطر الثاني من هذا البيت (نسل) كلمة من عتقا اعتقام بها وزن البيت ومثاله . وفجسته الحسية (من باب قطع) : أوجعته ، وآلمته إلخاماً شديداً . وأم دفر : كنية الدنيا . والدفر (في الأصل) : التثنية (يفتح فسكون) ، وبغيت الراتحة . وأم دفر : الداهية : أي الأمر المتكرر الشديد . ودواحي البحر : ما يصيب الناس من عظم نوبه . ودري الشيء (من باب رمي) : عرفه ، وطعمه . والأروع : الشهم ، الذكي القواد . ومن يصببك بحسن وجهه ، وجهارة منظرة ، أو بشجاعة وإقدامه . ومن نسل النبي : أي من ذريته وسلالة وولده . فإن المرثى يتصل نسبه بالإمام الحسين بن علي بن أبي طالب سبط النبي صل الله عليه وسلم . ورجل هجان (بكسر الهاء) : كرم الحسب ، نقيته . والهجان من كل شيء : خياره ومخالصة .

يقول : إن الدنيا أومضية الموت فنجعتنا - وهي لا تدرى - برجل شهم ذكي ، حبيب من صفة النبي صل الله عليه وسلم

(١٧) النواحي : جميع الناحية : وهي الجبهة والجنب . وسلامة لواحي الصدر : تمام براهته ونفاذه من الأدغال ، والأشجان ، وفساد الباطن . وتقيل : هو سليم دواحي الصدر : أي هبوبه : جميع هم : وهو أول الزمية ، وما هم . به الإنسان في نفسه ، أو أجال فيه فكره تمهيداً لفظه وإيقاعه . ولا يستفزه : لا يستغفله ، ولا ينجيه . ولا يحفز . ونزاع : ميل : من قولهم : نزعته نفسه إلى كذا نزاعاً ، ونزاعته إليه : أي ملته ، وثاقته . وترجست . والبفساء : شدة البفس والكراهية . والشان : البفس والكراهية مع العداوة . وسوا الخليلين .

أبته بسلامة دواحي الصدر ، ونفاذ السريرة ، والتجرد من الشحنة والعداوة . والبيت الآتي يعزز هذا المعنى ويقصده .

يُعَاثِرُ بِالْحُسْنَى ، فَإِنْ رَيْبَ لَمْ يَقَعْ بِسُوءٍ ، وَلَمْ تَرْمِزْ لَهُ شَفَعَانِ (١٨)
لَقَدْ كَانَ عِجْلًا لَا يُشَانُ بِفُتْرَةٍ وَصَاحِبَ غَيْبٍ طَاهِرٍ وَعِيَانِ (١٩)
إِذَا قَالَ كَانَ الْقَوْلُ عُنْوَانٌ فِعْلُهُ وَيَا رَبُّ قَوْلٍ نَافِلٍ كِسْتَانِ (٢٠)

(١٨) يماثر : يخالط ويصاحب . والحسنى : مؤثبات الحسن : أى يماثر معاصره بالمحسنة أو الطريقة التى هى أحسن . وريب (بالبناء للمجهول) : أصابه من معاصره ما يسوءه . وباب الأمر فتولاً : فاته وأصابه . وراى فلان (من باب باع) . وراى منه كذا : إذا رأيت منه ما يريك ، وتكرهه . ولم يفه : لم يتلق . مضارع فاه بالقول (من باب قال) : أى نطق به ، وتلفظ ، وتكلم . وروى إليه (من بابى ضرب ونصر) : أرى وأشار بالشفتين أو غيرها . ولم ترمز له : أى لم ترمز السوء .

يقول : إنه كان يماثر الناس بالحسنى ؛ فإن رايه من معاصره شيء لم يتكلم بما أصابه منه ، ولم يشر إليه ؛ لعفة قلبه ولسانه ؛ فهو من الكاظمين الغيظ ، والمانعين عن الناس ، والممسكين عن الخفا والسوء . ولا ريب أن هذه الفضائل وثيقة الاتصال بما أشار إليه فى البيت السابق من نفاذ سريرة المرقى ، وصلاحة دواعى صدره ، وثوقه من الخفاء والشتان ، وبمده عن المنازعات والتقصيرات .

(١٩) "أخْل" : الصديق المختص . وطله الخليل . ولا يشان : لا يماحب . شانه (من باب باع) : عابه ، وتنقصه . والفتوة : اسم مرة من خدعه ، وفتر به (كقتل ، وضرب ، وصنع) : إذا نقض عهده . وفتر الفتر : الرقاع . وفاب (من باب باع) : خلاف شهد ، وحضر ، وصان . والغيب : كل ما غاب عنك . وعائنه مأينة وميائنا : رآه بعينه . والميائنا : خلاف الغيب .

كان المرقى "من الأخلاء" الأوفياء الذين لا تشبههم شوائن الفتر ، يستوى فى الطهر والنقاء ، والتزاهة والبراعة من الميوب ظاهره وباطنه .

(٢٠) عنوان الكتاب : سببته ، وصلاته ، وديباجته ، ودليله ، وشاهد . وعنوان كل شيء : ما دلك من ظاهره على باطنه . وكان قول المرقى عنوان فعله : أى كان قوله صادقا ، مقترنا بفعله . والقول إذا لم يصدقه الفعل كان لوقا من ألوان الكذب ، أو التناقض ، أو الخلداع ، أو اللطاع ، وخلف الوعد . وفى ذم القول الذى لا يصدقه الفعل يقول الله تبارك وتعالى فى القرآن الكريم : "يا أيها الذين آمنوا ، لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون" ٢ - ٣ من سورة الصف . و ٥ : حرف لفاء : والمناذى محذوف . أوهى حرف تنبيه . و"رب" : حرف مخافض يختص بالتعكير . وهى هنا تفيد التكثير ؛ لأن المقام مقام تأييد ومديح . وتنافذ : اسم فاعل من نفذ الأمر (من باب دخل) : أى مضى وتحقق . ويقال : نفذ السهم من الرمية : أى خرقتها ، وخرج منها . وصنان الريح ونحوه (بكسر السين) : فصله : أى حديدته التى تخرج وتقطع : أى ويدارب قول نافذ نفاذ الأستنة . والشرط الثانى تذييل جاز مجرى الخلل ، مؤكداً لشمى الشرط الأول : أى أقوال المؤمنين كلها صادقة مقترنة بأفعاله ، نافذة نفاذ الأستنة ، بريئة من الإخلاف ، والتقصير ونحوها .

خِلَالٌ يَقْوُحُ الْمِسْكَ عَنْهَا مُحْكَمًا وَيُثْنِي عَلَى أَثَارِهَا الْمَلَوَانِ (٢١)
 فَلَا غَرَوْ أَنَّ قَدْنَى الْعَيْوَنَةِ أَتَافَةً عَلَيْكَ، وَيَبْرَعِي الْحَزْنَ كُلَّ جَنَانِ (٢٢)
 قَانَتْ ابْنُ مَنْ أَحْيَا الْبِلَادَ بِمِطْوِيهِ وَأَبْقَى لَهُ ذِكْرًا بِكُلِّ مَكَانِ (٢٣)
 أَفَادَ بَنَى الْأَوْطَانَ فَضْلًا سَمَوْا بِهِ إِلَى هَضْبَاتٍ فِي الْعَلَا وَقِنَانِ (٢٤)

(٢١). خلال : خصال ، وشمال ، وأخلاق . الواحدة حَلَّةٌ (بوزن الحصلة ومعناها) . ولوح الشيء (من باب قال وباع) : انتشرت رائحته . والمسك : ضرب من الطيب ، يتخذ من ضرب من الزلزال ، فارسيّ "معرب" ، وكانت العرب تسميه المشعوم ، وهو أفضل الطيب عندهم . وأثنى عليه : وصفه بخير ، وبليغ . وأثارها : أى آثار الخلال وثقلها . والمَلَوَان : الليل والنهار .
 لَوْهٌ يخلله الحمية ، وما تقرن به ، وتنتج من صالح العمل ، وحسن المعاملة ، وكسب ثقة الناس ، وحجهم وتقديرهم ، واحترامهم ، وجميل ثنائهم .

(٢٢) لا غرو : أى لا عجب . ولدى (من باب صدى) : يخرج منها الدم : كناية عن شدة البكاء ، وسرارة ، وكثرة ، واستدامة . والأسافة (بوزن سحابة) : اسم من أسف عليه (من باب طرب) : أى اشتدّ حزنه . ويرعى (من باب سمى) : يهتدّ ، ويرى ، ويحرق . والأصل : رعت الماشية المرعى ، والمشب ، والكلاء ، والنبات : أى سرحت فيه ، وأكلته . والجنان (بفتح الجيم) : القلب .

في ستة الأبيات السابقة تأبين وثناء على كثير من خلال المرقى وفضائله التي سجلت موه من أفصح الفرائج ، وأشدّ الخلوپ . وفي هذا البيت : أنه لا عجب إذا اشتدّ حزن الناس عليه حتى أدى حزينهم ، وأحرق قلوبهم . وفي سبعة الأبيات الآتية تأبين وثناء يشعل المرقىّ ووالده ، ويدعاه لما بسلام الله ورحمته ، ونحيبه ورضوانه .

(٢٣) الذكر : الصيت ، والثناء ، والشرف ، والثناء . والبيت في تأبين ورثاء : لعمارة وإعزاز ابن بلوى بن عليّ الطوطاط (١٢١٦ - ١٢٩٠/١٨٠١ - ١٨٧٣ م) يتصل نسبه بالחסن سبط النبي : عالم مصريّ من أركان نهضة مصر العلمية في العصر الحديث . ولد في طوطا من بلاد محافظة سوهاج بصعيد مصر . وقصد القاهرة سنة ١٢٢٣ هـ فعلم في الأزهر ، ثم أرسلته الحكومة المصرية إماماً للصلاة والخطب مع ستة من الشبان لدراة العلوم الحديثة في أوروبا ، فعلم الفرنسية ، وتلقى الجغرافية والتاريخ . ولما عاد إلى مصر ولّى رئاسة الترجمة في المديرية الطبية ، وألفها جريدة المطالع المصرية ، وألفت وترجم عن الفرنسية كتباً كثيرة .

(٢٤) هضبات : جمع هضبة (بوزن قصبة) : وهي الجبل المنبسطة المنحدر على وجه الأرض . والقنان : جمع القنّة (بوزن قلة وقلال) : وهي الجبل المنحدر المرتفع في السماء . وقنة كل شيء : قمته ، وأعلاه . وشالها القنّة .

وَأَنْتَ ابْنُهُ ، وَالْفَرْعُ يَتَّبِعُ أَصْلَهُ وَمَا مِنْكُمَا إِلَّا جَوَادُ رِهَانٍ (٢٥)
هُوَ الْأَوَّلُ السَّبَاقُ فِي كُلِّ حَلْبَةٍ وَأَنْتَ لَهُ دُونَ الْبَرِيَّةِ ثَانِي (٢٦)
فِيَا رَحْمَةَ اللَّهِ ! اسْتَهْلَى عَلَيْهَمَا بِسَجْطَيْنِ لِلرِّضْوَانِ يَنْهَمِلَانِ (٢٧)

= في البيت السابق : أن والده المرقى أحيا بعلمه البلاد ، وشهد نفسه جليل الذكر ، وعظيم الصيت ، وحسن الثناء . وفي هذا البيت : أنه أعاد بنى وطنه ؛ ليعلموا بعلمه وبفضله أسمى مراتب الرتبة والشرف ، والسناء والعلاء .

(٢٥) الجواد : العجيب النفيس من الخيل . وأنجباب الخيل ونجائبها : خيارها وكرامها . والرهان : مصدر راحته على كذا : أي عايطه وسابقه . والرهان أيضاً : جمع الرهن (يفتح فسكون) : وهو ما وضع عندك ليؤتيك مناب ما أخذ منك . ويراد بالرهان هنا : الأهداف والجوائز التي يتسابق عليها المتسابقون . ومن كلامهم : جواد فرسي رهان : أي متساويين .

جعله تاهماً لوالده ، متأسياً به ، مساوياً له في الفضائل والمجاهد التي أشار إليها في البيتين السابقين ، ولا غرو ؛ فإن الفرع يتبع أصله ، والابن يشابه أباه .

(٢٦) الحلبة (يفتح فسكون) : خيل جميع السباق من كل أوب ؛ أي من كل ناحية ، لا من اصطبل واحد . والحلبة أيضاً : مجال الخيل السباق . يقال : تماروا في الحلبة . ومن المجاز : فلان يركض في كل حلبة من حلبات الجهد ؛ إذا كان سباقاً إلى المكرمات ، فائقاً في أعمال الجهد والشرف والرفعة والعلاء . والبرية : الخلق والناس . وأصلها الحمر « برية » من برأ الله الخلق (من باب قطع) : أي خلقهم . ومعنى الشطر الثاني : أنه لا يمارى الوالد ولا يسابقه من الناس في أعمال الجهد ، وحلباته غير ابنه .

جبل القراء الأول السباق في كل حلبات الجهد ، ومجال الأمور ، والابن الثاني التال لأبيه فيها . وهو ترقب طبعي " متفق " ، وفي معنى قوله في البيت السابق : « والفرع يتبع أصله » .

(٢٧) الرحمة : رقة تطفئ الإحسان إلى المرحوم . ورحمة الله تبارك وتعالى : مغفرته ، وإحسانه ، وإفصائه ، وإفضاله ، وحفاوته ، ورضوانه . واستهلى : أسر يراد به الدعاء : من استهل المطر ونحو استهلالاً : أي اشتد التصبأ به . وطليها : أي حل الولد والوالد . والسجل (يوزن السهم) : الدلو العظيمة الملقى . والحنى هنا : في معنى الجمع : أي يسجال من الرضوان . وهو الرضا الكثير ؛ ولما كان أعظم الرضا رضا الله تعالى — خصص لفظ « الرضوان » في القرآن الكريم بما كان من عند الله عز وجل . قال تعالى : ويذكرهم بهم برحمة منه ورضوانه ويختم لهم فيها نعيم مقيم الآية رقم ٢١ من سورة التوبة . وينهملان : يلهيان على الدعاء به من انهملت السماء : أي دام مطرها في سكينة .

دعا لها برحمة الله ورضوانه ، يستهلان عليها وينهملان .

وَعُمِّي قُبُورَ الْمَالِئِينَ كَرَامَةً لِقَبْرَيْنِ بِالْبَطْحَاءِ يَلْتَقِيَانِ^(٢٨)
عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ مِنِّي ، تَحِيَّةٌ يَوْمَافِيكَ فِي خُلْدٍ بِهَا الْمَلَكُانِ^(٢٩)

وَقَالَ فِي الرَّهْدِ :

أَيُّ شَيْءٍ يَبْقَى عَلَى الْحَدَثَانِ ؟ وَالْمَنَابِا خَصِيْمَةُ الْحَيَوَانِ^(١)
فَدُ بَلَوْنَا كَيْدَ الزَّمَانِ ، وَلَكِنْ شَغَلَعْنَا عَنْهُ ضُرُوبُ الْأَسَابِي^(٢)

(٢٨) حم المطر الأرض (من باب قند) : شملها ، واستوعبها . والمالئون : أصناف الخلق : جميع العالم (بفتح اللام) : وهو الخلق والناس . والكرامة : التكريم ، والتعظيم ، والخصافة ، والإعزاز . والبطحاء : المكان المنخفض . يلتقيان : يجتمعان .
دعا بالرحمة العامة الشاملة لقبور الموقر كلهم تكريماً للقبور المرفوعة .

(٢٩) حياة الله تحية : أي جعل له حياة طيبة : وهو إخبار يراد به الدعاء . وسلام الله وتحية : رحمة ، وسلاوة ، وإلانة ، وإحسانه . ويؤلفك بها : أي يلقاك بالتحية ، ويصلها إليك . وشغل (من باب قند) علوي ، وشغل (بضم فسكون) : دام ، وثيق . ويراد بالخلد هنا : دار الخلد : أي جنات عدن . ويراد بالملكين : ملائكة الرحمة .

• • •

• زهد فيه ، وهته (كسح ، وضع ، وكرم) زهداً (بضم فسكون) : أعرض عنه ، وتركه . وزهد في الدنيا : أي ترك حللها مخافة صاحبها ، وترك حرامها مخافة عقابه .

(١) الاستفهام في أول البيت : معناه الذي : أي لا شيء يبقى حل الحدثان : وما الليل والنهار . وسدنان الدهر : نوابه وسوداته ، والواري في أول الشعر الثاني : وار الحال . والجملة الاسمية بعدها حالية . والمنابيا : جميع المنية : وهي الموت . وخصيصة : غصاصة (بصيغة اسم الفاعل) . أو كثيرة الغصاصة : وهي المنازعة ، والمهادلة ، والمعاداة . والحويان : ما فيه الحياة . وكل شيء وروح .

(٢) بلطفا (من باب حلا) : اختبرنا ، وجربنا ، وجرنا . وكيد الزمان : خطله ، وخديعته ، وفكره . مصدر كاده (من باب باع) : أي سكر به ، وخدعه ، وأوداه بسوء ، وأغمر أن يفسد به في عطفه . وهه : أي من كيد الزمان ، وسكره السيء . وضروب : صنوف ، وأنواع : جميع ضرب (بفتح فسكون) . والأمان : جميع الأمنية : وهي ما يطمئن الإنسان ، ويحفظه ، ويرغب فيه .

في البيت السابق قال : إن الدهر لا يبقى حل شيء ، والمنابيا لا تفتأ تفتك بالإنسان وتفتته . وفي هذا البيت : أننا بلونا كل هذا ، وجربناه ، واستبقناه ، وكان ينبغي أن نقدره ، ونصط به ، ولكننا تملأن بالآمال ، فأنفنا من كيد الزمان .

لَمَكْ ، لَا يَزَالُ يَتَجَرَّى عَلَى النَّأِ مِنْ بِضْعَيْنِ : مِنْ عَلَا وَهَوَانٍ (٣)
 فَهَوَ طَوْرًا يَكُونُ كَالْوَالِدِ الْبَرِّ رِ ، وَطَوْرًا كَالنَّاقِمِ الْغَضْبَانِ (٤)
 لَيْسَ يُبْقَى عَلَى وَلِيدٍ ، وَلَا كَهْ لِي ، وَلَا سُوقَةٍ ، وَلَا سُلْطَانٍ (٥)
 كَيْفَ يَرْجُو الْإِنْسَانُ فِيهِ خُطُودًا بَعْدَ مَا قَدْ مَضَى أَبُو الْإِنْسَانِ (٦)

(٣) الفلك : مجرى الكواكب ، ومدار النجوم : أى الفناء الذى يدور فيه النجم أو الكوكب .
 ويراد بالفلك هنا : ما يدور على الناس من الأمور والأحوال المختلفة ، كالعلا والخوان ، والنفى والحرمان ،
 والحياة والميت . . . أو المراد بالفلك : النجوم التى تطلع بالنفس أو السعادة . أو يراد به القدر
 (بضمحسين) : وهو ما يقدره الله تعالى على الإنسان ، ويقضى به ، ويحكم . والعلا : الرفعة ، والملا : العلة ، والوزة ،
 والنساء : الخوان : المهالة ، والملة ، والصف ، والحرمان . والملا والخوان ضدان : أى مختلفان ،
 متناقضان ، لا يلتقيان ، ولا يجمعان .

وفى هذا البيت ستة أبيات بعده تأكيد وتفصيل لمعنى البيت السابقين ؛ فالدهر بالناس قلب ،
 وألوت بماد لم ، ذائب فى حليم .

(٤) هو : أى الفلك . والطور : المرة ، والفتاة : والحن ، والوقت . والبر (يفصح الباء) :
 صفة من البر (بكسر الباء) : وهو الفضل ، والراق ، والخير ، والصلاح فى الإنسان . ويلاحظ أن
 الراء الأولى الساكنة هى نهاية الشطر الأول ، والراء الثانية المكسورة بداية الشطر الثانى . والناقم : اسم
 فاعل من نفى الأمر (من باب ضرب وفهم) : أى كرهه أشد الكراهية .

والبيت تكرار وتأكيد ، وتصوير وتخييل لمعنى البيت السابق ؛ فالفلك لا يزال يجرى على الناس بأطوار
 مختلفة ، وأحوال متناقضة من بر ورسمة وإحسان إلى لقمة ونفس ومغفان .

(٥) فاعل « يبق » : ضمير « الفلك » بمعانيه التى أشرنا إليها فى البيت الثالث . أو المراد الدهر
 والزمان ؛ لأن دوران النجوم فى أفلاكها يصبح دوران الزمان ، وتقلب الليل والنهار . وأبق عليه لبقاءه ؛
 حفظه ورعا . أو ربه : وأشفق عليه . المولود حين يولد (الذكر والأنثى) . والمولود أيضاً :
 الصبي . وجمعه ولدان (يؤذن صبيان) . والكل من الرجال : من جاوز الثلاثين . ويغطف الشيب :
 أى خالطه . أو من كان بين الثلاثين والخمسين . والسوقة : الرعيّة ، وأوساط الناس . وتطلق على الواحد
 وأجمع ، والمذكر والمؤنث . والسلطان : الملك ، أو الولي .

يقول : إن الدهر يأتى على الناس جميعاً ، فلا يبق على أحد ، ولا يخلد فيه أحد . وأربعة الأبيات
 الآتية كلها فى هذا المعنى .

(٦) الاستفهام فى أول البيت : معناه انى : أى لاسبيل إلى خلود الإنسان ، ولا أمل فيه .
 وفيه : أى فى الزمان ، والمراد فى الحياة الدنيا . ويرجو (من باب علأ وعلأ) : يترجى ، ويأمل .
 والخلود : حياى البقاء . وأبو الإنسان : آدم عليه السلام .

أَيُّ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا مُنْذُ دَارَتْ كُرَّةُ الْأَرْضِ وَهِيَ ذَاتُ دُعَانٍ (٧)
 أَمَّمْ أَخْلَدَتْ إِلَى الدَّهْرِ حِينًا ثُمَّ صَاعَتْ فِي لُجَّةِ النَّسْيَانِ (٨)
 حَصَدَتْهَا يَدُ الْمُنُونِ، فَصَارَتْ خَبْرًا فِي الْوُجُودِ بَعْدَ عِيَانِ (٩)
 فَتَرَمَّمْ مَعَالِمَ الْأَرْضِ، وَأَسْأَلْ فَعَسَى أَنْ يُجِيبَكَ الْهَرَمَانِ (١٠)

— يقول : لا سبيل إلى خلود الإنسان في الدنيا ، ولا أمل فيه . وموت آدم أبي البشر يعني هذا الرجاء ويحبطه ، وذلك أن موت بنه ستم مقصود " لا بد " منه ، ولا يحصى عنه .

(٧) « أين » : استفهام عن المكان . والفرض منه النفي : أي لا وجود لمن كان قبلنا من الأحياء ؛ فقد فنوا جميعاً ، وأغنى عليهم الدهر . وهي ذات دُعَان : أي في أول خلقها . أو في أديم الأنيته . وفي القرآن الكريم : « ثم استوى إلى السماء وهي دُعَان » ، فقال لها وللأرض : اتينا طوعاً أو كرهاً ، قالتا : آمينا طالعين » الآية رقم ١١ من سورة فُصِّلَتْ .

(٨) أخلدت إلى الدهر : اطمانت إليه ، وسكنت . والحين : الوقت ، والمدة ، والزمان طال أو قصر . واللجّة : معطم البحر ، وقرود أمواجه .

في البيت السابق سأل عن مكان من عاشرنا قبلنا منذ دُمِجَتْ الأرض في قديم الزمان . وفي هذا البيت وإلى بعده جواب هذا السؤال ؛ فقد اطمانوا إلى الدهر حيناً ، وازدهرت لهم الأيام برفعة ، وما لبثوا أن هلكوا ، وبساعوا ، وأصبحوا نسياً منسياً .

(٩) حصدتها : أهلكتها ، واستأصلتها . مستأمر من حصد الحاصد الزرع (من باب ضرب ويقتل) : أي جزّه وقطعه بالمنجل . أو هي قصبتها (من باب ضرب) . تقول : قصد الشيء ، وقصد له ، وقصد إليه : إذا تريسه إليه حامداً . وميان : مماناة وبشاهدة : مصدر هانته : أي رآه يمينه .

وهذا البيت تاسع تسمة الأبيات الأولى التي أدارها الشاعر حول فكرة كيد الزمان وغدره ، واختلاف أطواره ، وترتبط الموت بالإنسان ، وحصده للأفراد والأمم ، وبساعها في لجّة النسيان . والفرض من هذا ونحوه الوصل والإرشاد ، والتعريض في الدنيا وزينتها وأمانتها الشاغلة ، والتذكير بالموت حادم اللذات ، ومفرق الجماعات .

(١٠) ترسم : انظر ، وقاسل . وسام الأروى : علاماتها وأكوارها . ويراد بها : ما بقي من آثار الأقدمين ، وشواهد حياتهم وتاريخهم : الواحد معلم (يوزن مذهب) : وهو الأثر يستدل به على الطريق . والهرمان : بنامان عظيمان ، يعدّان من عجائب الدنيا ، على مقربة من مدينة الجيزة ، في جنوبيها الغربي : أولهما هرم « خوفو » ، وهو أعظم الأهرام ، وأعلاها . والثاني هرم « خفرح » ، وهما من ملوك الأسرة الرابعة (من سنة ٢٩٠٠ إلى سنة ٢٧٥٠ ق . م) . وكان عصرها أزهى عصور الدولة المصرية القديمة . وظل هذا الطراز من قبور الملوك والملكات متبعاً أيام الدولتين القديمة والوسطى .

انتقل الشاعر في هذا البيت وستة الأبيات بعده إلى التحدث عن هرمي مصر العظيمين . وساق —

أَثَرُ ذَلِكَ صُنْعُهُ أَنَّ «هَرْمِيْسَ» بَنَاهُ مِنْ أَيْدِيهِ الْبَنِيَانِ^(١١)
خَافَ صَنَعَ الْعُلُومَ حِينَ أَتَتْهُ بَيِّنَاتٌ دَلَّتْ عَلَى الطُّوفَانِ^(١٢)
فَبَنَاهُ مِنَ الصُّخُورِ اللَّوَانِي جَلَبَتْهَا الْقِيُونُ مِنْ أَسْوَانٍ^(١٣)

= الحديث عنهما ، وعن «هرمس» مساق النظة والاعتبار ؛ فبناة الأهرام طوام الموت والفناء ، وأثارهم الكبيرة الضخمة مصيرها بعد حين إلى الليل والمغاء .

(١١) أثر الشيء : بقيته . ويراد به هنا : الأهرام . وجمعه آثار . و «هرمس» - فيما يزعم الرواة القدمون - : أول من بنى الهيكل ، وتكلم في الأشياء العلوية ، ونظر في الغيب والحكمة . عاش قبل الطوفان ، وكان مسكنه سعيد مصر . ويقال : إنه خاف على العلم أن يضيع ؛ فبنى البرابي ، وصورها ما عرف ليهده من الصناعات ، وآلاتها ، وصناعاتها ، وأشار بالرسوم إلى مسائل العلوم حرصاً منه على تخليدها لمن بعده . وبناه : أي بنى الأثر ، وهو الأهرام . وبناه أيده بنات : أي أطعمه ، وأفضله ، وأمدته ، وأجوده : اسم تفضيل من يده الشيء (من باب قطع) : أي يده وأنشأه ، واخترعه ، وصنعه لا حل مثال سابق . أو من يده الشيء (من باب ظرف) : أي صار غاية في صنعه ونشأته . أو كان يدهاً (بكسر فسكون) : أي محدثاً جديداً ، لا مهمل له .

(١٢) الضم : الضياع والفقدان (والفعل من باب باع) . وبينات : جمع بينة (بوزن عينة) : وهي الحجة ، والدليل ، والشاهد ، والبرهان . والطوفان : الفيضان العظيم الذي أهلك قوم نوح . قال تعالى : « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ، فليتب عليهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فأعلمهم الطوفان وهم ظالمون ، فأنجيناه وأصحاب السفينة ، وجعلناها آية للعالمين » ١٤ - ١٥ من سورة التكوين .

يقول : إن «هرمس» جاهدته شواهد دلت على الطوفان قبل أن يقع ؛ فخاف أن تضيع العلوم ، وتختلف مصالحتها في بلج الماء ؛ فبنى الأهرام لحفظها وصيانتها وتخليتها .

(١٣) «بناه» : أي بنى الأثر ، أي الأهرام ، أو الهرمين . وفاعله : غمير «هرمس» في البيت الحادي عشر . والوقاي : جمع أقي . وجلبتها (من باب نصر وفرب) : نقلتها ، وأتت بها . والقيون : جمع قين (بوزن عين وعيون) : وهو في الأصل الحداد ، ثم أطلق على كل صانع كيفما كانت صناعته . والقيان : العيد : جمع قين أيضاً (بوزن كعب وكماط) . و «أسوان» (بضم الهجر) : مدينة قديمة ، لفرصية الاسم ، فيها أقي مهاجر الجرائيت التي أتتادها المصريين في مختلف العصور ؛ والبحث عن أجود أنواع الصخر اللازم لمبانيهم . ومن مغلها الحديثة : سد «أسوان» ، أو السد العالي الذي شرع في إقامته سنة ١٩٦٠ وهي حاضرة محافظة أسوان ، وهي منومة من الصرف ، أي التكوين ، وسطها أن تهر بالفتحة بدل الكسرة ، وإنما جرت بالكسرة هنا لسلامة القافية من التهور .

طَبَقَاتٌ (فِي) جُوفِهَا حُجَرَاتٌ ضُمِّنَتْ كُلُّ حِكْمَةٍ وَبَيَّانٍ (١٤)
 بَقِيَتْ بَعْدَ صَانِعِهَا ، فَكَانَتْ أَثَرًا نَاطِقًا بِغَيْرِ لِسَانٍ (١٥)
 سَوْفَ تَبْلَى مِنْ بَعْدِ حِينٍ ، وَيُضْمَى ذِكْرُ « هَرَمِيس » مِنْ سَجَلِ الزَّمَانِ (١٦)
 إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ غُرُورٌ تَنْقُضِي بِالشَّقَاءِ وَالْحِرْمَانِ (١٧)

(١٤) في الأصل المخطوط الذي بين أيدينا نقص . والكلمة التي بين قوسين (في) تكملة أتينا بها لإقامة وزن البيت ، وإتمام معناه . وضُمِّنَتْ اللوامع ونحوه الشيء : أي جعلته فيه ، وأودعته إياداً ؛ فضمِّنَتْ : بمعنى اشتملت ، واحتوت . والحكمة : معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم . والحكمة أيضاً : العلم ، والتفقه ، والكلام الذي يقلّ لفظه ، ويحلّ معناه . وعلم الحكمة : الكيمياء ، والطب . والحكمة ، إصابة الحقّ بالعلم والعقل ، وسمرة الموجدات ، وفعل الخبرات . والبيان : الحجة ، والكلام يكشف عن حقيقة حال ، أو يحمل في طياته بلاغاً .

يقول : إن الصخور التي بنيت بها الأهرام طبقات بعضها فوق بعض . وفي جوف الهرم حجرات احتوت على ما أنتجه حكام ذلك الزمان وأدبائه من الحكم ، والعلوم ، والآداب .

(١٥) معنى هذا البيت : أن بناء الأهرام فنوا وبدأوا ، وبقيت الأهرام أثراً يمدح بمدح شهد لم بالمظلمة والمجد والسلطان .

(١٦) تَبْلَى : تفتى . يقال : بلى الثوب ونحوه (كرمى) : أي وثّ ، وأخلق ، وذهبت جدته . والسجل : الكتاب .

والمنى : أن الأهرام ، أو الآثار التي تركها قدماء المصريين وأشغالهم مصيرها إلى البلى والزوال . وسوف يأتي النسيان على تاريخ أصحابها ؛ فلا يبقى لهم ذكر في كتاب الزمان . وهذا البيت سابع الأبيات التي تحدث فيها الشاعر عن الهرمين وبانيهما ، أو الأهرام وبساتيها ، وساق حديثه مساق العظة والاستبصار ، والنصح والإرشاد ، والتفكير والتدبير . وجو القصيدة كلها جوزهدي الدنيا ، وإعراض عنها ، وتزهيد فيها ، وتخليص من غرورها وفوتورها .

(١٧) غرور (يضم النون) : مصدر غرّه (من بابي قعد وود) : أي خدعه ، وأطعمه بالباطل . والغرور أيضاً : ما يغرّه به الإنسان من متاع الدنيا وزخرفها ؛ فيقال غرته الدنيا يزنيها : أي خدعته ، واستهوته ؛ فهي غرور (يفتح النون) : صيغة مبالغة من غرّه . وفي القاموس المحيط أن الغرور (يفتح النون) : الدنيا . والغرور (يضم النون) : الأباطيل . وتنقضي : تنتهي وتختتم : مضارع انقضى الشيء : أي فنى ، وانقطع . والشقاء : ضد السعادة . وعمره الشيء (كسرقه) حرماناً (بكسر الحاء وسكون الراء) : أي منه إيداء . وفي القرآن الكريم : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » الآية رقم ١٨٥ من سورة آل عمران . ومن كلامهم : « الدنيا تفرّ ، وتفسر ، وتغرّ » .

يقول : ليست الدنيا إلا خداعاً وغروراً لمن يهافت عليها ، ويسكن إليها ؛ فهي تمرّ بسرعة . ثم لا تلبث أن تحمرّ معها ، وتشتقي . وتسته - وتجرّعه مرارة الحسرة والحزن .

لَيْسَ فِيهَا سِوَى خَيَالَاتٍ وَهَمٍّ تَمْتَرِيهَا قَرَائِحُ الْأَذْهَانِ^(١٨)
 خَطَرَاتٌ قَدْ ضَمَّنُوها كَلَامًا فَلَسَفِيًّا لَمْ يَقْتَرِنْ بِمَعَانِي^(١٩)
 كُلُّ حَيٍّ يَظُنُّ أَمْسَرًا ، وَلَكِنْ أَيْنَ مِنْهُ مَحَجَّةُ الْبِرْهَانِ ؟^(٢٠)

(١٨) خيالات : جمع خيالة (بوزن سحابة) : وهي الطيف : أى الخيال اللطيف حول الإنسان ، وما تشبه لك في البقطة ، أو المنام من الصور والأحلام . ووهت الشيء (من باب وعد) ، وقهسته : وقع في خلى (يفتح الحاء واللام) ، ودار في بالي ؛ فالهيم من خطرات القلب . أو هو مروج طرقي المتردد فيه . وبجسه أوهام . وتمترى : تستخرجها . وتظهرها . والقرائح : جمع القرعجة : وهي من كل شيء : أوله ، وباكرته . وقرعجة الإنسان : طبيعته . والأذهان : جمع ذهن (بكسر فسكون) : وهو الفهم ، والمقل . أو هو مجرد الاستعداد للوعي والإدراك . ويراد بقرائح الأذهان : ما تتوارع الأنعام والنبوت إلى إدراكه من أول وهلة قبل التعبير ، والنظر ، والتعمق في التفكير ؛ وهو شأن الأوهام والخيالات التي تتبوى الإنسان وتخدعه .

والبيت تأكيد لمنى البيت السابق ؛ فاللغيا غرارة خداعة غداوة . وسعادتها أطياف وظنون تستخرجها ، وتنتدح بها عقول المتأفنين عليها قبل التعبير ، والتسقى في التفكير . والترض التزويد في الدنيا ، والتحذير من أوهامها وخيالاتها ، ومنها الزائفة الزائلة .

(١٩) خطرات : غواطر ، وهواجس ، وخیالات ، وأوهام : جمع خطرة : اسم مرة من خطر الشيء بباله : أى مر به ، ولاح في فكره . وخطرات الشيطان : وساوسه . وضمتها : أودعها : أى جعلوها وعاء . وكلاماً فلسفياً : منسوباً إلى الفلسفة : وهي دراسة المبادئ الأولى ، وتفسير المعرفة تفسيراً عقلياً . وكانت الفلسفة تشمل العلوم جميعاً ، ثم اقتضت في هذا العصر حل المنطق ، والأخلاق ، وعلم الجمال ، وما وراء الطبيعة . وفي تعبير أو تفسير آخر للفلسفة : أنها الحكمة ، والتأنيق في المسائل العلمية ، والتفتش فيها . وعلم الأشياء بمبادئها وظواهرها الأولى . ومن خصائص البحث الفلسفي : العمق ، والتوضيح ، والشمول . وفلسفة : كلمة يونانية الأصل . وبينناها : حب الحكمة . ويريد الشاعر هنا بالكلام الفلسفي : الكلام المعقد الذي لا يعمل معنى واضحاً سديداً ، ولا فكرة قيصة صائبة ، ولا يهتدى إلى رشاد .

في البيت السابق قال : ليس في الدنيا سوى خيالات وأوهام تستخرجها قرائح الأذهان ؛ فننتدح بها ، وننتدح غيرها . وفي هذا البيت : أنهم أودعوا هذه الخيالات ، أو الأوهام ، أو الخطرات ، أو الهواجس — كلاماً فلسفياً معقداً معاً مهوشاً ، لا معنى له ، ولا غناء فيه ، ولا هدف إلا التشكيك ، والتفصيل ، وبلبلة الأفكار .

(٢٠) المحجة : الطريق الواضح المستقيم . أو جادة الطريق ووسطه . والبرهان : الحجة البينة الفاصلة . والاستفهام في الشطر الثاني يفيد النفي ، أو الاستبعاد .

والمنى : أن كل واحد من هؤلاء المتفلسفين يبنى أموره ، أو كلامه الفلسفي على الظن والتخمين ، =

قَدْ عَرَفْنَا مَا كَانَ مِنَّا قَرِيبًا وَجَهَلْنَا مَا لَا تَرَى الْعَيْنَانِ^(٢١)
فَدَعِ الْقَوْلَ فِي التَّفَلُّسِ ، وَاخْضَعْ لِجَلَالِ الْمُهَيِّينِ الدِّيَانِ^(٢٢)
أَنَا يَا ذَهْرُ عَالَمٍ بِمَصِيرِي فَيْكَ ، لَكِنِّي جُمُوحُ الْعِنَانِ^(٢٣)

= لا على الحق واليقين . أو المعنى : أنهم يذهبون في بحرهم الفلسفية مذاهب مختلفة متباينة ، لا تميز في طرق واضحة مستقيمة ، ولا تقوم على حجة ، أو دليل ، أو برهان . والفرض : صرف الأذهان عن الفلسفة المقتدة ، والأقوال الفلسفية المصللة ، وردّ العقول إلى العقيدة السليمة الواضحة . وفي بعض الآيات الآتية ما يؤكد هذا ويؤكده .

(٢١) معنى هذا البيت : أن القريب منا معروف لنا ، ظاهر مستيقن . وما لا يقع تحت حواسنا مجهول غير معلوم ، فلا ينبغي أن نقيم عليه كلاماً فلسفياً ، لا معنى له ، ولا غناء فيه .
في هذا البيت وأريمة الآيات قبله زهد الشاعر في الدنيا زهداً صريحاً ، فوصفها بأنها لا تقبأ تحضد الناس ، وتطمعهم بالباطل ، وتنتهي بهم إلى التمس رصو الخاك ، والشقاء والحزن . وقال : إن متمها كلها خيالات وأوهام وخطرات ضمتها بعض الفلاسفة كلاماً غير مفهوم ، ولا مقبول ، وقضايا وأحكاماً ينهض على الظن التي تموز الحجة والبرهان : « وما لم به من علم ، إن يتهمون إلا الظن ، وإن الظن لا يضي من الحق شيئاً » .

(٢٢) دع : اترك ، واجتنب . والتفلسف : مصير تفلسف : أي سلك في بحوثه وكلامه وجدله طريق الفلاسفة . ويراد بالتفلسف هنا : الفلسفة بالمعنى الذي يستهجه الشاعر ويمقتّه ، وهو التعمية ، والتعقيد ، والتشكيك ، وصرف الأذهان عن الحادثة الواضحة ، اليسيرة ، المبهدة ، المستقيمة . والمعنى من التفلسف بهذا المعنى يحارب ويلائم ما سلكه الشاعر في هذه القصيدة من الزهد في الدنيا ، والتزهد فيها ، والعظة والاعتبار ، والنصح والإرشاد . والخضوع : التطامن ، والتواضع ، والانقياد ، وهو قريب من الخضوع ، والفراسة (والفعل كنع) . وجلال الله تبارك وتعالى : عظمت ، ومحو قدره ، ورفعة شأنه ، وعظيم سلطانه . وعصم الجلال يوصف الله عز وجل ، فلا يوصف به غير الله . قال تعالى : « تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام » الآية رقم ٧٨ آخر سورة الرحمن . والمهيّين : الرقيب على كل شيء . والحافظ لكل شيء . والشهيد . والقائم على خلقه برزقه . والأمين . والعلّ . والمؤمن (من آمن غيره من الخوف) . والمؤتمن . والليّان : اسم من أسماء الله تبارك وتعالى . ومعناه : الحاكم . أو التهاون . أو الجهابذ ، والمجازي بالغير والشر . والأمران في الشطر الأول (دع) و« اخضع » : لتصح والإرشاد .

نهي عن الأقوال الفلسفية المصللة المحيرة ، وأمر ، وأوشد إلى الحقيقة الكبرى ، وهي الإيمان بالله الواحد التهاون ، المهيّين الليّان ، والخضوع لجلاله وسلطانه .

(٢٣) جموح : صيغة مبالغة من ججح القروس ونحو (من باهى منع وخضع) : إذا حنا عن أمر صاحبه ، واستمعى عليه ، وتغلبه . والمثان : المقدود ، وسير الهجام الذي تمسك به الدابة . وجموح =

قَدْ تَمَادَيْتُ فِي الْفَوَايَةِ حَتَّى كَبَحَ الدَّهْرُ شِرْقِي ، وَتَنَانِي (٢٤)

وَقَالَ يَصِفُ لَيْلَةَ أَنْسٍ :

لَأَعَبَ السُّكْرُ قَدَّهُ ، فَتَنَّنِي . وَدَعَاهُ فَرَطُ السُّرُورِ ، فَغَنَّنِي (١)

= عنان الإنسان : كناية عن تمصّيه ، وعدم انقياده .

يقول : إنه يعلم علم اليقين مصيره في دهره ، أو في دنياه ، وهو الموت والفناء ، ولكنه مع هذا العلم جبح ، وتأنّى ، وتماطل ، ولم يضعف هذه الحقيقة التي لا تحتمل الشك أو المراء . والبيت الآتي يتصل بهذا البيت ، ويوضحه ، ويكمل مناه . والفرض منهما التربية والتعليم ، والنصح والإرشاد ، والتأديب والتأديب ، وأخذ النصوص بالزهد ، والاحتياط بالموت الذي يطوى الناس جميعاً ، ولا يبقى على أحد .

(٢٤) تمادى في الفنى : لجّ فيه ، ولازمه ، ودام عليه ، ولم يقلع عنه . والفوايه : والفى : الإيمان في الضلال . أو هو جهل من اعتقاد فاسد . وكبح الفرس ونحوه (من باب منع) : جذب رأسه إليه بالعتان أو الجمال وهو راكب ، لكي يقف ، ولا يجرى . والشرّة (بكسر الشين) : الهدية ، والمصيبة ، والشرّ ، أو مصدرة . وثناه عن كذا (من باب رمى) : صرفه عنه ، ومنه منه . وهو تكرار وتأكيّد لمعى « كبح شرقة » .

في البيت السابق : أنه علم مصيره ، واستيقن موته وهلاكه ، ولكنه تماطل ، وركب رأسه ، ولم يتعظ بعلمه وبقوته ، ومصيره القريب المحتم . وفي هذا البيت أنه تمادى في غيه وضلاله ، وانهمك في جهله وغلطه حتى أيقظه الدهر ، وكبح شرته ، وصرفه وثناه ، وحمله على الاستقامة والصلاح ، وردّه إلى الهدى والإرشاد . غم الشاعر هذه الزهدية بهذين البيتين اللذين أراد بهما التأديب والتأديب ، والإرشاد والتعليم ، وتبديد الغافلين عن كيد الدهر ، وخداع الدنيا ، وغدرات الزمان ، وفنائب الحداث .

* * *

• الأنس (بضم فسكون) : ضد الوحشة . والأنس أيضاً : التحدث إلى النساء ومنازلهن . وأنس به ، وإليه (كطرب ، وعرّف ، وكرم) : إذا فرح به ، وسكن إليه ، وأطمان ، وزالت به وحشته وغلقه ، وذهب غمفه بضمه .

(١) السكر (بضم فسكون) : اسم من سكر (من باب طرب) : أي تأثر بالخمر والشراب المسكر ؛ فتأب عقله ووجيه وإدراكه . أو غف ، وضعف ، ونقص . وقدّه : أي قدّ الفتاة ، أو المرأة التي يتنزل بها . والقدّ (يفتح القاف وتشديد الدال) : القوام (يفتح القاف) : وهو حسن الطول ، واعتدال القامة ، وجمال التفطيم . وتنى في مشيته تننياً : أنفى ، وانمط ، وتمايل ، وتبخّر . وفرط السرور : شدته وزيادته : اسم من الإفراط : وهو مجاوزة الحد .

يقول : إن المنزل بها لأعجباً نشوة الخمر ؛ فتنى قدّها ، واشتد سرورها ؛ فطربت وشتت . وفي القدّ إشارة إلى حسن طولها ، واعتدال قامتها ، وجمال تفطيمها .

=

رَشَاءُ تَعْبُدُ النَّوَاطِرَ مِنْهُ وَاحِدًا فِي الْجَمَالِ ، لَيْسَ يُنْثَى^(١)
 أَثْبَتَ الْحُسْنَ فَوْقَ خَدَيْهِ وَرَدًا لَيْسَ إِلَّا بِغَمَزَةِ اللَّحْظِ يُجْنَى^(٢)
 لَمْ يَزَلْ يَرْضَعُ السَّلَافَةَ حَتَّى غَابَ عَنَّا ، كَأَنَّهُ لَيْسَ مِنَّا^(٣)
 فَأَنَمْنَاهُ فَوْقَ مَهْدٍ وَثِيرٍ بُرْهَةً كَيْ يَفِيقَ ، ثُمَّ انْصَرَفْنَا^(٤)

— ويلاحظ أن الشاعر في هذه الغزلية القصيرة ، وكثير من غزلياته ملك أبي نواس ووالية بن الحباب ، والمقتدين هما ، والناسجين على منوالهما من علماء العصر العباسي الذين نقلوا الغزل من أوصاف الخوثر إلى المدح ، أو عمدوا عن المنزول بها بشعر المدح ؛ فخرجوا بذلك عن مألوف العرب وأدبهم ؛ إذ لم يكن ذلك معروفًا في شعر الهذلي والغزل قبل هؤلاء العلماء .

(٢) الرشاء : ولد الأنثوية : وهو الغزال الأنثى إذا قوى وتحرك وشى مع أمه . وتشبه به الحسناء من النساء في جمال الجليد والعينين ، والرشاقة ، ولطف الحركة ، وحسن التثني . والنواظر : العين : جمع فاطرة . ويراد بالمادة الافتتان ، والإعجاب ، والمشق ، والتولس ، وشدة التعلق . وشأنه ثنية : جعله اثنين .

شبه المنزلة بها بالرشاء ، وقال : إنها تسوى العشاق ، وتنفرد بإعجابهم ؛ فلا تمتد إلى غيرها هيوتهم .

(٣) المحظ : النظر بمؤخر العين (وقوله من باب قطع) . وغزة العين : إشارتها : اسم مرة من غرزه بالعين (من باب شرب) : إذا أشار إليه بها . وجنى الورد ونحوه (من باب رى) : تغلقه والتقطعه : وتناوله من منيته .

يتنزل بجمال خديها ، ويقول : إن هذا الجمال ورد أنثى الحسن . وإنما يحى بلحظات العين وغزاتها . يريد أن العاشق يستمتع بالنظر إلى وجهها ، ويحبها .

(٤) السلافة (بضم السين) : أفضل الخمر ، وأخلصها ، وأجودها . وسلافة كل شيء : عصرته الأول . ويرضعا : يحسبها ويترشفها : مستمار من رضع الطفل أمه (كطرب ، وضرب ، وفتح) . يقول : إن المنزلة بها لم تزل تتحسنى الخمر حتى غاب وعينا ، وققدت إحساسها بمن حولها ، كأنها ليست منهم ، أو غريبة عنهم .

(٥) المهذ : الفرائش ، أو السرير بيتاً العربى ، ويروى لينام فيه . ويراد به هنا : الفراش مطلقاً . وثير : وطى ، مخين ، لين ، مريح (وقوله من باب ظرف) . والبرهة (بفتح فسكون) : أو بضم فسكون) : المدة ، والزمين طال أو قصر . وأفاق السكران من سكره ونشوته إفاقة : صفا ، وعاد إليه وعيه ، ويقظته ، وعقله ، وإدراكه .

في البيت السابق : أنها أسرفت في احتساء الخمر حتى فقدت الوعى والإدراك . « في هذا البيت : أنهم أناموها برهة على فراش لين ناعم ، ثم تركوها كي تفيق ، وتسترد وعيها .

فَلَبِثْنَا هُنَيْهَةً ، ثُمَّ لَمَّا خَفَّ مِنْ سُكْرِهِ وَأَقْبَلَ قُمْنًا^(٦)
وَأَذَرْنَا الْكُؤُوسَ حَتَّى تَوَلَّتْ أَنْجُمُ اللَّيْلِ مِنْ أَحَادَ وَمَشْنَى^(٧)
يَا لَهَا لَيْلَةً ! أَبْخُنَا بِهَا اللَّهُ وَ إِلَى وَرَدَةِ الْعَدَاةِ ، وَتُبْنَا^(٨)

(٦) لبثنا : مكثنا وانتظرنا (وبابه فهم) . وهنية : قليلاً من الزمان . وخفّ من سكره : صفا
من نشوته ، وأفاق من غفوته ، وصاد إليه وعيه وإدراكه .

يقول : وبعد هنية صحت من سكرها ، وأقبلت علينا ، فقمنا إلى الشراب ، فاستأنفناه ، وعدنا إليه
نرتشفه ونستصاء .

(٧) الكؤوس : جمع الكأس : وهي الكوب . أو القدح ما دام فيه الخمر . وأذرناها علينا :
تناوبناها وتداولناها وتقاسمناها . وتولّت النجوم : غابت ، وأدبرت ، وذهبت ، وأفلتت . وتولّى النجوم
وأفلها : كناية من إدبار الليل وانقضاءه وذهابه . ومن : « : بيانية . وتولّت أخاد : أى أفلتت واحداً
واحداً . وغابت مشى (بوزن معنى) : أى غابت اثنتين اثنتين .

(٨) يالها : أسلوب تمجيب : وهو انفعال النفس لزيادة وصف في المتعجب منه ، بهرّ أقرو .
ومضى سببه . أو أن ترى الشيء يسبحك ويسهوك ، فتظن أنك لم تمر مثله من قبل . والهو كل ما استمتعت
به ، وأهلك مما حسنتك ويميتك ، ومخالف الجدل والحكمة . والعداة : أول النهار ، بين الفجر وطلوع الشمس .
ووردة العداة : حمرتها . وتبنا (بالثناء) هكلنا بالأصل : من التوب أو التوبة : وهي ترك الذنب لقبه ،
والندم على ما فرط منه ، وعقد الزم على عدم العودة إليه ، وتدارك ما يمكن تداركه من الأعمال بالإعادة ؛
فلذا اجتمعت هذه الأربعة كلت شرائط التوبة (والفعل من باب قال) . أو هي من تحريف الناسخ
والأصل لبنا (بالثناء) (من باب قال) : أى رجعنا : أى وفى نهاية هذه الليلة البهيجة الممتعة تبنا
إلى منازلنا .

ختم الشاعر هذه الأبيات بتعجبه وتعجيبه من هذه الليلة ذات الممتعة الفاتقة ، والأنس التام ، وقال :
إنهم استباحوا فيها الهو ، واحتسوا الخمر حتى أشرقت الشمس ، ثم عادوا إلى منازلهم مبتهجين .
وهي من شعر المجانة والهو تقليداً ومحاكاة ، أو قصداً للترويع والترفيه ، أو حرصاً على استيعاب
فنون الشعر وأقراضه . ومع هذا كله فقد تكون حياة البارودي في قوته وشبابه متممة بشيء من هو
الشباب ودمره وانطلاقه في مجال الأهواء والذلات .

وإذا كانت هذه الأبيات وأمثالها من المقطوعات والقصاصد الإلهية صوراً صحيحة ، أو نصف صحيحة
لحياة البارودي الإلهية المانجة ؛ فالراجح لدينا أنه نفلها بعد عودته من الأساتفة في ساحة الخلدو إسماعيل
سنة ١٨٦٣ م وقبل زواجه بـ « عيلة يكن » سنة ١٨٦٨ أى وهو بين الرابعة والخمسين والثامنة والشرين .

وَقَالَ فِي مُدَارَاةِ الصَّدِيقِ :

دَارِ الصَّدِيقَ ، وَلَا تَأْمَنْ بِوَادِرِهِ فَرُبَّمَا عَادَ بَعْدَ الصَّدَقِ خَوَانًا^(١)
يُفْضِي بِسِرِّكَ ، أَوْ يَسْأَلُ بِأَمْرِكَ ، أَوْ يَقُولُ عَنْكَ حَدِيثَ السُّوءِ بُهْتَانًا^(٢)
فَإِنْ تَنَصَّلْتَ ، قَالُوا فِيكَ مَعْرِفَةً تَنْفِي الْجِرَاءَ مَعَ الْوُدِّ الَّذِي كَانَتْ^(٣)
وَأَكْثَرَ الْخَلْقِ مَطْبُوعٌ عَلَى ظَنِّهِ تَفْضِي عَلَيْهِ بِلَبْسِ الْحَقِّ أَحْيَانًا^(٤)

(١) دار : أمر يراد به النصيح والإرشاد : من داراه مداراة (يمدرويلن) : أي لأطفه ، ولا يته ورفق به ، وداجاه ، واتقاه . ومن كلامهم : « عليك بالمداراة » : وهي الملاحظة ؛ كأنك تخاف لمن تداريه ، وتخادعه ، وتدافعه ، وتنفقه . والصديق : الصاحب الصادق الذي ، الخالص الإخاء . وصلت فلاناً ، وصادقتُه المودة والإخاء ؛ اخلصتهما له . واليوادر : جميع البادرة وهي الغيبة السرية ، والكلمة العوراء ؛ وما يهر من المره عند حديثه وغيبه من خطر أو سقط . ورب : حرف مخافت ، يختص بالنعرة . وإذا اتصلت به « ما » دخل على الفعل . وهو هنا يفيد التكثير ؛ لأنه في مقام الإرشاد والنصح والتنبه والتحذير . وعاد : صار (وبابه قال) . وخوان : صيغة مبالغة : أي كثير الخيانة (والفعل من باب قال) ينصح بمداراة الصديق ، والاحتراز منه ، وتوقي يوادر وحذاته فكثيراً ما يخون ، ويدفروينفس العهد ويمن في المداراة والبهضاء بعد الولاء وصدق الإخاء . والآيات الآتية تفصل هذا المنى وتؤكده .

(٢) أفضى إليه بالسرف : أفضاه : أعلمه به ، وأطلعته عليه . وسعى بأمره : نتم عليه ، ووشى به (وبابه روى) . والبهتان : الباطل والكذب يبهت سامعه : أي يدهشه ويغير لفظاته وشأته .

فصل في هذا البيت ما أجمله في البيت السابق من أن الصديق قد يفر ، ويمن في الغدر والخيانة ؛ فيلج ويغش ما ائتمته عليه من أسرارك ، أو يسعى بالفرقة والفساد بينك وبين الناس ، أو يذيقك ويؤذي إليك بما يتقوله عليك ، ويختلقه ويفتره من الكلب والباطل والبهتان

(٣) تنصلت : تبرأت . والمراد : الاعتراض ، والجidal ، والشك : مصدر ماراه ماراة ، ومراء : أي جادله فيما فيه مزية وشك .

والمنى : أن المودة التي كانت بينك وبين ذلك الصديق الخوان تحمل الناس على تصديق ما يرميك به ، ولا يهمنه منك من أحاديث السوء والبهتان ؛ لأنها في نظرهم قائمة على المعرفة ، والمخالعة ، والصحة السابقة ؛ ولوجاوت تنصل عما يرميك به لم تنفك المحاولة .

(٤) طبع على كذا (بالبناء المجهول) : اعتاده ونشأ عليه . وهو مطبوع عليه : أي معتاده له ، مستشاعاً عليه . والظن : جمع ظنة (بوزن ظلة وملا) : وهي التهمة (بضم ففتح) : اسم من اتهمه بكلها اتهاماً ؛ يريد أن أكثر الناس قد اعتادوا سماع الاتهامات ، وتصديقها ، وترويحها بلامتحان ، أو تبس . وتفشى عليه : تفرس عليه ، وتحكم : أي على أكثر الخلق : أي على المدد الكثير الغالب من الناس . ولبس الحق (بفتح اللام) : وسكون الباء) : إغفاه ، وخلطه بالباطل (والفعل من باب ضرب) . =

وَقَالَ فِي النَّاسِ مَنْ جَرَّبْتُهُ ، فَرَأَى بَيْنَ الْحَقِيقَةِ وَالْبَهْتَانِ فَرْقَانًا^(١)

وَقَالَ فِي لُزُومِ الاخْتِرَاسِ مِنَ الْعُدُوِّ :

لَا تَخْشَ بُوْثًا مِنْ عَدُوِّ ظَاهِرٍ وَاخْشَ الْمَكِيدَةَ مِنْ عَدُوِّ بَاطِنٍ^(٢)

كَمْ بَيْنَ شَرِّ ظَاهِرٍ مُسْتَدْرِكٍ مِنْهُ الْخَلَاصُ وَبَيْنَ شَرِّ بَاطِنٍ^(٣)

== يقول : من عادة أكثر الناس سماع الاتهامات ، وتصديقها ، وترويجها بلا تحميم ، أو تثبت ، وهم في كثير من الأحيان يلبسون الحق بالباطل . وصلة هذا البيت بثلاثة الآيات السابقة واضحة وثيقة ؛ فإن الصديق الخَوَّان إذا سعى بك ، وأقرى عليك ، وأساء إليك بكذا الحديث — استمع له أكثر الناس ، وصدقوه بما اعتادوه من الاستماع للباطل ، وترويج التهم ، وإغفاء الحقائق ، أو غلطها بالباطل . والبيت الآتي تكرر وتأكيد لهذا المعنى .

(٥) الفرقان : مصدر فرق بين الشيئين (من باب نصر) : أى فصل بينهما ، وماز أحدهما من الآخر .

في البيت السابق قال : إن الكثرة الغالبة من الناس مطبوعون على تهم وظنون سيئة تدفعهم إلى تلبس الحق في كثير من الأحيان . وفي هذا البيت : أن التجربة أثبتت أن قلَّهم القليلة هم الذين يفرقون بين الحق والباطل ، ويميزون الخبيث من الطيب ، ويتحررون الرشد ، ويلتزمون الصدق والتفضيلة والوفاء ، ويتحلون بنفة القلب والسان .

وهذه الآيات الخمسة تقوم على النصيحة والإرشاد ، وتجري مجرى الحكم والأمثال ، وتلوح كلها حول إدارة الصديق ، وجوب الاحتراس منه ، وتوقي التورط في صداقات قد تغلب غدرًا وخيانة ، وتفضي إلى الإساءة والإضرار ، والبهتان والعدوان .
وعا قبل في الاحتراز من الصديق :

احذر عدوك مَرَّةً واحذر صديقك ألف مَرَّةً
فربَّما انقلب الصديق ، فكان أحلم بالمفصرة

(١) البئس (بضم فسكون) : الأدنى ، والفسر . والمكيدة : المكر السيئ ، والخبيث ، والحيلة السيئة : اسم من كاده (من باب باع) : أى ختله ، وخدعه ، وسكر به ، وأضر له السوء ، واحتمل لإيذائه ، وأراد به المكروه من حيث لا يدري . وعدو باطن : أى عدو عداوته باطنة خفية غير ظاهرة .

والمنى : أن العدو الذى يمالئك بالمداوة تستطیع اتقاء شره ، وإحباط كيده بهذه الممانعة والمجاهرة . أما العدو الذى يبطن لك المداوة ويخفيها فإنه غشى المكيدة ، منطو على السوء ، يكره بك ، ويحتال لإيذاك ؛ وقد يصيبك غدره وشره من حيث لا تدري . والبيت الآتي تكرر وتأكيد لهذا المعنى .

(٢) مستدرك : اسم مفعول من استدرك ما فاتته استدراكاً : أى حاول إدراكه ، والحقاق به . ويقال : استدرك النجاة بالفرار : أى حاول النجاة بفراره من الشر والأذى . واستدرك أخطأ بالصواب ==

وَقَالَ يُعَاتِبُ :

قَدْ عَاقَنِي الشُّكُّ فِي أَمْرِ أَضَعْتُ لَهُ عَزِيمَةَ الرَّأْيِ حَتَّى ضَاقَ كَيْسِي (١)
أَوَلَيْتَنِي مِنْكَ وُدًّا قَبْلَ مَعْرِفَةٍ ثُمَّ انْتَهَيْتَ بِصَدِّ قَبْلِ إِعْلَانِ (٢)
فَسَرَّيَ مِنْكَ مَا قَدَّمْتَ مُبْتَسِدًا وَسَاءَ لِي مِنْكَ مَا أَخَّرْتَ فِي الثَّانِي (٣)

= أى أخفه به ، فأصلحه . واستدرك الشر بالخلع : أى حاول التخلص منه ، واتقاه . وخلص من الورطة ونجوها (من باب قد) خلوصاً وخلعاً : أى نجا منها ، وسلم سلامة الشيء الذى يصفو من كدره .
وشر باطن : شر خفي ، مستور ، غير ظاهر .
يقول : إن الفرق كبير ، واليون شاسع بين الشر العلني الظاهر ، والشر الخفي الباطن ؛ فإن الأول يمكن التخلص منه ، واتقاؤه ، والثاني يصعب استدراكه ، ودفعه ، وتوقيه .

• • •

(١) حاده عن كذا (من باب قال) : متعه منه ، وحبه عنه ، وشغله . وصرفه . والأمر الشأن ، والحال ، والشيء . ويراد بمزجة الرأي : قوة التفكير والتدبير .
يقول : إن الشك ساوره في أمر ذلك المعاتب ، وعاقبه عن اجتلاء حقيقته على رغم ما أخاذه فيه من قوة الرأي ، وطول التفكير والتدبير . ثم ضاق كَيْسُهُ لذلك الأمر ؛ فأعلن القصة ، وصرح بما سره ، وبأسأله . والآيات الآتية تفسر هذا ، وتشرحها ، وتوضحها .

(٢) أوليتنى : أعطيتنى ، ومنحتنى . وأولاه معروفًا : أى صنعه إليه ، وأتم به عليه . وأصل الولي (برزن السمي) : الدنو والقرب . والإيلاء : الإيداء والتقريب . والود : المودة والمحبة ، والإقبال : والوصول ؛ وضده الصد ، والإعراض ، والقطيعة ، والمجران . وقيل معرفة : أى قبل أن تعرفنى ، أو قبل أن تصارف : يريد أن المعاتب سارع إلى الود في أول التلاق والتعارف . والثنى بالصد : ارتد ، وانصرف بالصدود والإعراض . وقيل إعلان : أى قبل إظهار الصدود ، والتهديد له ، وكشف أسبابه .
في البيت السابق قال : إنه شاك في أمر المعاتب ؛ وقد حاول بمزجة الرأي أن يستيقن ذلك الأمر للفاصل ، ويزيل ما يكتنفه من الشك والارتياب ، فلم يستطع ، وضاق به ذرعًا ؛ فقص القصة وأعلنها . وفي هذا البيت جزء من هذه القصة ؛ فإن المعاتب أقبل عليه بودة وصحبته ، ثم أعرض عنه بلا سبب ظاهر ، أو تهديد ، أو إعلان ؛ فهو في إقباله وإعراضه متسرع ، غير واضح .
(٣) مبتدأ : مصدر ميمي : بمعنى الابتداء ؛ وهو البدء ، والإنشاء ، والتقديم . أو هو مبتدئ بصيغة اسم الفاعل : حال من قام المخاطب (فاعل قدم)

يقول : إنه سره وأفرجه وبسطه ما قدمه المعاتب ، وبدأ به من التوداد والإقبال ، ثم ساءه وحزنه وأسفه ما أخره ، وثنى به من الإعراض والقطيعة .

فَإِنْ يَكُنْ سَوْءَ رَأْيٍ ، أَوْ مَلَأَ هَوًى فَإِنْ كَلَّتِيهِمَا فِي الْقُبْحِ سَيِّئًا^(٤)
فَاكْتَسَفَ لَنَا عَنْ قِنَاعِ الشُّكِّ نَحْيَ يَه لِمَا وَصَالًا ، وَلِمَا مَحْضَ هِجْرَانٍ^(٥)
وَقَالَ :

أَوَّلُ النَّفْسِ نُطْقَةً أَخْطَصَتْهَا شَهْوَةٌ صَاغَهَا مِرَاجُ دَفِينٍ^(٦)

(٤) سوء رأى : سوء ظنّ : أى ظنّ الماعتب في الشاعر ظن السوء ، أو أساء النظر إليه ، والحكم عليه ، فلم يصب الرأى ، ولم يحسن التقدير . والملا (بوزن الكلال) : مصدر ملّ الشيء ، وملّ منه أى شغفه ، وضجر منه : والهوى : الحبّ والودّ . ويراد بملأ الهوى : أن الماعتب ملّ صحبة الشاعر ، وسئم التردد إليه . ووضّع الشاعر « كليهما » في مكان « كليهما » : أى المألوث موضع المذكر ، على اعتبار أنهما غصلتان ، أو صفتان ، أو رذيلتان . وسَيِّئًا : مثلاً ، متساويان : مثنى سئ (بكسر السين) : وهو المثل (بكسر فسكون) ، والشبيه ، والنظير . (يستوى فيه المذكر والمؤنث ؛ فيقال : هو سيئك ، وهى سيئك ، وكلاهما سيئان ، وكلاهما سيئان) .

قدّر الشاعر أن الماعتب صدّ عنه ، وأعرض لأنه ملّ صحبته ووداده ، أو لأن رأيه فيه ساء ، وقيح ، وانحرف ، وضلّ بعد حسن واعتدال ، وقال : إن هذين الأمرين كليهما متساويان مثلاً لأن في القبح والرداءة .

(٥) كشف الشيء : وكشف عنه (من باب ضرب) : دفع عنه ما يواريه ويغطيه . والقناع (بوزن الكتاب) : ما تغطي به المرأة رأسها . وما يستر به الوجه . وقناع الشكّ : أى الشكّ الشبيه بالقناع . ويقال : كشف القناع عن الشيء : أى صرّح به . ونحيا به : أى نحيا بكشف القناع ، وفنتفع ، ونستريح للمعرفة واليقين . والوصال : مصدر واصله : غداً هجره (من باب قتل) هجراً ، وهجراناً . وهو كقول الله تبارك وتعالى : « فَأَسْأَلُ مَنْ أَعَدَّ » الآية الرابعة من سورة محمد ، واسمها أيضاً سورة القتال . أى فأب أن تواصلنى وصالاً ، وإسأ أن تهجرنى هجراناً . والمعنى حل التصغير بين هذين الأمرين . والحض من كل شيء : الخالص الذي لم يخالطه غيره .

في البيت الأول من هذه المقطوعة شك الشاعر ما يساوره ويمارسه من الشكّ في أمر ذلك الماعتب . وفي هذا البيت دعاءه إلى التصريح بالحقيقة ، وإزالة هذا الشكّ الذي يحجبها ويغطّيها ، ويغترّ به بين صريح الوصال ، ومحض الهجران ؛ ففى التصريح المطلوب وأداة وحياة الشاعر ، أو لهما جميعاً .

(٦) يراد بالنفس : شخص الإنسان وجسده . وتؤثت النفس إن أريد بها الروح ، وتذكر إن أريد بها الشخص أو الإنسان . والنطق (بضم فسكون) : المثنى (بوزن الغنى) : وهو ما للرجل . وفي القرآن الكريم : « أَيْحِبُّ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتْرَكَ سَدًى ؟ أَلَمْ يَكُنْ نُطْقَةً مِنْ مِّثْلِ نَحْيٍ ؟ » ٣٦ - ٣٧ من سورة القيامة . وأخلصها : أى أخلصت النطقه : أى أخرجتها ، ودفعتها صافية ، متميزة من غيرها ، =

قَدَفْتَهَا إِلَى الْبَطُونِ ظُهُورٌ وَحَوَّتَهَا بَعْدَ الظُّهُورِ بَطُونٌ^(١)
ثُمَّ أَرَسَى بِهَا هُبُوطٌ يَكْبِيهِ حَرَكَاتٌ مِنْ بَعْدِهِنَّ سَكُونٌ^(٢)

— خالصة ما يشوبها ، لا يتخالها شيء غريب عنها . والشهوة : الرغبة الشديدة . والقوة : الرابضة فيما يشتهي . وما يشتهي وتترع إليه النفس من اللذات المادية . قال الله تبارك وتعالى في القرآن الحكيم : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين . . . » الآية رقم ١٤ من سورة آل عمران . وصاغها (من باب قال) : هيئتها ، وكوتها ، وبعتها . والمزاج (يوزن الكتاب) : ما أسس عليه البدن من الأخلاط والطبائع . والملازمات الأساسية الخفية التي تكون الأزجية تقوم على الإغرائات التي تفرزها الغدد الصم . ودفين : مدفون ، أي خفي ، غامض ، غير معلوم . أو مركز في باطن الإنسان ، مدفون في أعماقه : يريد أنه مزاج قوي ، غير سطحي .

يقول : خلق الإنسان في أول أطوار خلقه من نقطة ، أخربتها — خالصة متميزة — شهوة قوية ، بعثها وأثارها طبع ، أو استعداد قوي طبيعي ، مركز في الأعماق .

(٢) قلقتها : أي قلقت الشهوة النطفة (من باب ضرب) : أي ألقتها ، وطرحتها ، ورشها بقوة . ويراد بالبطون : أرحام النساء : جميع بطن (بفتح فسكون) ، وهو من كل شيء جوفه . والظهور : خلاف البطون : جمع ظهر (بفتح فسكون) : وهو من الإنسان من مؤشر الكاهل إلى أدنى العجز . قال تعالى : « ولينظر الإنسان م خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب » الآيات ٧-٥ من سورة الطارق . وصلب الرجل : ظهره . أو فخذ ظهره . وجسمه أصلاب . وترائب المرأة : عظام صدرها ، بين الثديين والرقبتين حيث تكون القلادة . الواحدة تربية (بوزن غريبة) . والنشطر الثاني : في معنى الشطر الأول . أر هو : نتيجة له ، فالاحتواء نتيجة القذف . وحوتها (من باب طوى) ، واحتوتها : جمعتها ، وأحورتها . وفي كل من القذف ، والدفق في البيت ، والآية القرآنية الكريمة : معنى القوة ، والدفع ، والسرعة .

في البيت السابق قال : إن بداية الإنسان ونشأته الأولى نقطة أخربتها شهوة . وفي هذا البيت إشارة إلى الطور الثاني من أطوار خلقه ، فإن الشهوة لما أخربت النطفة من أصلاب الرجال وبها بسرعة وقوة في أرحام النساء ، فاحتوتها ، وبسرت لما يمكن والاستقرار . قال تعالى : « ثم جعلنا نطفة في قرار مكين » الآية رقم ١٣ من سورة المؤمنون .

(٣) رسا القى . (من باب عدا ، وسما) : ثبت ، ورسخ . وأرساه إرساء : أثبته ، وأرسخه . وفي القرآن الكريم : « وألجأ أرساه » الآية رقم ٣٢ من سورة النازعات . وبها : بالنطفة . وهبوط : مصدر هبط (من باب جلس) : أي نزل ، وانحد . ويلي : يأتي بعده ، ويتبعه من غير فصل . والسكون : ضد الحركة (والتعلل من باب قعد) .

لعله يشير بهذا البيت إلى هبوط الطفل من رحم أمه ، ورسوه على الأرض إذا ولد . ويلي هذا ، ويتصل به حركات سياحه في الدنيا ، ثم سكون الموت . قال الله تبارك وتعالى : « هو الذي خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم يخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغن أشدكم ، ثم تكوننوا شيوخاً . ومنكم من يتوفى من قبل ، ولتبلغن أجلاً مسمى ، ولعلكم تتفكرون » الآية رقم ٦٧ من سورة غافر .

فَهِيَ طَوْرًا تَكُونُ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ ، وَطَوْرًا فِي مِثْلِ ذَلِكَ تَكُونُ^(١)
 مُبْتَدَأَهَا وَمُنْتَهَاهَا سَوَاءٌ وَهِيَ مَا بَيْنَ ذَلِكَ حَتَّى مَهِينٌ^(٢)
 فَعَلَامَ الْبُكَاءِ فِي إِثْرِ دَارٍ بِالرَّزَايَا فَنَسَاوَهَا مَشْحُونٌ^(٣)

(٤) حى : أى الخلقة . والطور (يفتح فسكون) : المرة ، والثارة ، أو الهيئة ، والحال . والجمع أطوار .
 وفي القرآن الكريم : « وقد خلقكم أطواراً » الآية رقم ١٤ من سورة نوح . والعالم (يفتح اللام) : كل الخلق
 (يفتح فسكون) . أو كل ما حواه الفلك . أو كل صنف من أصناف الخلق ؛ فيقال : عالم الغيب ،
 وعالم الشهادة ، وعالم الإنسان ، وعالم الماء ؛ فكل نوع من أنواع الخلق عالم . والغيب : كل ما غاب
 عنك . وعالم الغيب : كل ما غاب عن الإنسان . ويقابله عالم الشهادة . قال تعالى : « وستردون إلى عالم
 الغيب والشهادة » الآية رقم ١٠٥ من سورة التوبة .

في البيت السابق أشار إلى ولادة الإنسان ، وحركات حياته في الدنيا ، وسكونه بعد الموت .
 وفي هذا البيت أشار إلى طورين متشابهين متماثلين من أطواره ؛ فهو حينما كان في رسم أمه كان في
 عالم الغيب ، وحينما يموت ينتقل إلى عالم غائب هنا كذلك .

(٥) مبتدأها : مبتدأ النطفة (وأصله الحمز) : أى نشأتها الأولى . والمنتهى : الغاية والنهاية :
 وهو ضدّ المبتدأ . وسواء : متساويان ، متشابهان ، متماثلان . و « ذلك » : إشارة إلى المبتدأ والمنتهى .
 وفي الأصل المخطوط الذى بين أيدينا « حى » . والحس (بكسر الحاء) : مصدر حس الشيء ، وحس
 به : أى أحسّه ؛ أى أدركه بإحدى الحواس ، أو علم به ، وعرفه . ويراد بالمصدر هنا : اسم المفعول :
 أى المحسوس . أى الإنسان الذى تحسّه ، وتذكره ، وتراه ، وتعرفه . أو لعله تحريف « حى » : صفة
 من الحياة . ومهين : ضميم (والفعل من باب ظرف) .

وهذا البيت تكرر وتأكيده لمنى البيت السابق ؛ فالإنسان أصله نطفة ، كانت -- قبل أن يولد في
 عالم الغيب ، وانتهت بالموت إلى عالم الغيب ، أو كانت في مبتدأ أمرها ميتة ، ثم انتهت إلى الموت ؛
 فببداها ومنتهاها متساويان متماثلان ، والإنسان فيما بين البدء والنهاية يحيا في الدنيا حياة ضئيفة ومهانة .
 والغرض التمهيد لنمّ الدنيا ، والتزجيد فيها ، والتشهير بيزاياها في ثلاثة الآيات الآتية .

(٦) « علام » : « ما » الاستفهامية ، حذفت ألفها لما سبقت بحرف الجر . والاستفهام هنا :
 للإذكار ؛ فالشاعر يتكرّر على الباكين بكاسم ، ويستهنه ، ويزدريه . ويقال : جئت في إثره (بكسر
 فسكون) : أى تبعته عن قرب . وجاء في إثره : أى في عقبه . ويراد بالدار : الدنيا . والرزايا :
 المصائب . الواحدة رزية ، ورزية . وفناء الدار (بكسر الفاء) : ساحتها . وما ابتدئ من جزائها .
 أو سمة أملكها . ومشحون : ملوّن . (والفعل من باب قطع) .

يستهن باللعن بالدنيا ، والبكاء عليها إذا فانت ، أو البكاء على من فارقتها بالموت ، واستراح من
 كثرة رزايها .

تَتَقَاتِي الرِّجَالُ حَرَصًا عَلَيْهِمَا وَهُوَ جَرُؤٌ أَدَّى لِأَيِّهِ الْجُنُونُ^(٧)
حَارَ فِيهَا «أَرِسْطَطَالِيْسُ» قَدَمًا وَنَعَمَاهَا الْحَكِيمُ «أَفْلَاطُونُ»^(٨)

— في حصة الآيات الأولى عرض الشاعر بـإيجاز قصة النطفة التي خلق منها الإنسان . وبنيته على طودين متشابهين . متماثلين من أطواره : هما نشأته ، ونهايته ، وهو بينهما مخلوق مهين ضعيف . والغرض مكافئة اغترار بالندى ، ونزعه إلى التكبر والتجبر والطمع . وفي ثلاثة الآيات الأخيرة زهد في الدنيا ، فأشار إلى كثرة رزاياها وبلاياها ، واستنكر البكاء في إثرها . وقال : إن العقول السليمة التي تنجس تنهى عن الحرص عليها ، والتفاني فيها ، واستشهد شاهدين من عظماء الفلاسفة ، وكبار الحكماء ، وبغادة الفكر الإنساني .

(٧) تتقانى الرجال : يفنى بعضهم بعضاً . وربما أريد بالتفاني هنا : التهاوت ، والتكالب ، والحرص المقنوت .

في البيت السابق ذم الدنيا بكثرة رزاياها ، وبيع المتسلطين بها ، والباكين عليها . وفي هذا البيت : أن الناس يتفانيون لشدة حرصهم عليها . بسبب هذا الحرص فساد العقول واختلالها .

(٨) حار : تحير ، ولم يجد الصواب . «أَرِسْطَطَالِيْسُ» أو «أرسطو» (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) : فيلسوف يوناني ، من تلاميذ «أفلاطون» . علّم الإسكندر الأكبر ، ورباه . وكان يحاضر ماشياً ، فسُمي هو وتلاميذه وأتباعه بالمشائين ، وألّف في المنطق ، والعلم الطبيعي ، والأخلاق ، والسياسة ، والخطابة ، والشعر . وله فضول فيها بعد الطبيعة ، والإغنيات . وفي أوائل العصر الهلنستي (منتصف القرن الثاني الهجري) نقل الريان مؤلفاته ومقالاته إلى اللغة العربية ، وشرح فلاسفة المسلمين لتلاميذهم فلسفته ، ولقبوه بالمعلم الأول . والفارابي هو المعلم الثاني ، ومنهم أهلها الأوربيون ، وبذلك ساعد العرب على نقل الفكر اليوناني إلى أوروبا . وقدماً (بكسر فسكون) : أي في الزمان القديم ، قبل ميلاد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام . ونهى التافهي الميت (من باب سى) : أذاع خبر موته . ويراد بالمتي هنا : إذاعة هوان الدنيا وتفاهاها ، وسقارة شأنها . وقد يكون «نعما» تحريف «نفاها» : أي زهد فيها ، وأعرض عنها . نى الثاني (من باب رى) : نحاه ، وأبعد ، وطرده . أو تخلّى عنه ، وثبراً منه . والحكيم : الفيلسوف . وذو الحكمة : وهى العلم ، والتفقه . أو معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم . و «أفلاطون» (٤٢٧-٣٤٧ ق.م) : فيلسوف يوناني شهير . تلميذ «سقراط» . وعلم «أرسطاطاليس» . أسس الأكاديمية في أثينا . وعلم الرياضيات ، والفلسفة . ومؤلفاته : مجاورات في ثلاث مجموعات . والنفس أو الروح خالدة في اعتقاده . والتربية موضوع أساسي في نظامه الفلسفي . وهو يرى أن تكون تربية النبات مماثلة لتربية البين . ومن كنهه التي ترجمت إلى العربية : كتاب الجمهورية ، وهو عند «روسو» أجمل ما كتب في التربية . ولا تزال فلسفة «أفلاطون» معيناً فيسافياً لكل مشتغل بالفلسفة .

ومنى البيت : أن الحكماء والفلاسفة ، وأصحاب العقول الكبيرة ، والتفكير الواسع الشامل العميق — لم ينخدعوا بالدنيا ، ولم يسكنوا إليها ، ولم يتأفخوا عليها . وبمنهجهم تغير فيها ، واستبهم عليه أمرها .

وَقَالَ :

وَمَلْسِ عِفَّةً قَدْ نَلْتُ مِنْهُ بِأَيْدِي اللّٰهُوَ مَا شَاءَ التَّمَنَّى^(١)
مَلَكْتُ بِهِ عِنَانَ الشَّوْقِ ؛ حَتَّى قَضَيْتُ لُبَانِي ، وَأَرْحْتُ ظَنِّي^(٢)
فَلَا تَسْأَلْ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ وَلَا تَسْأَلْ عَلَى مَا كَانَ مِنِّي^(٣)

(١) يقول أول البيت : « وادرب » : أى ورب ملمس عفة . . . وهى حرف جر ، يدخل على فكرة ، ويفيد التقليل أو التكثير بحسب المقام ، وسباق الكلام . وليس الشيء (من بابي ضرب ونصر) : منه يده . والملمس : اسم مكان منه . والعفة : مصدر عَفَّ (كخَفَّ) : أى كَفَّ ، وامتنع ، وترَفَّعَ عما لا يحل ، ولا يحل من الأقوال والأفعال . والعفة تقهر الشهوة ، وتردها ، وتحبس الإنسان من غلبتها وسلطانها . ولمس العفة : ما يحرم على كل من الرجل والمرأة أن يلمس من صاحبه بمقتضى العفة وحكمها . وجسم المرأة كله ملمس عفة ؛ فإذا قبلها الرجل مثلاً فى غير حل ، فقد أصاب صرّضها ، وذلك من ملمس عفتها . وفطمت العفة فى حفظ الفرج بما لا يحل ، فإنه موضع الظن ، وبجملها . ولت : أخذت ، وأصبت ، وحصلت . والهو : ما هوت به ، وشغك ، أو استمتعت به من هوى وطرب ونحوهما . وتمنى الشيء تمنياً : قدّره ، ورجب فيه ، وأحب أن يصير إليه . والمضى : أنه انماق مع الهم والهمّة والنوابة حتى ظفر بما أرواده وتمناه من المتعة المحرمة ؛ فلمس ما تحرّم العفة لمسه من جسم المرأة التى جالسها .

(٢) به : أى بالهو . أو بما نلت من ملمس العفة . والمئان (بكسر العين) : اللقود ، وسير الجلام الذى تقاد به الدابة . ويملك عنان الشوق : أى سيطر عليه ، وتمكّن منه . والشوق يغلب الإنسان ويفسده إذا بعد منه ما يشتهي ويشتهي . والإنسان يغلب الشوق ، ويملك عنانه ، ويسيطر عليه ؛ إذا قضى وطره ، وبلغ أمنيته ، وذلك ما كان يشتهي ، ويترقّ إلى . والبيان : الحاجة من غير لاقة ؛ ولكن من نهمة (بفتح فسكون) : أى من شهوة . ويراد بالنظر هنا : القلب ، والبال .

فى البيت السابق قال : إنه نال من ملمس العفة ما تمناه ، واشتاق إليه . وفى هذا البيت : أنه بهذا النيل تحكم فى الشوق ، وسيطر عليه ؛ فتغنى شهوة ، وأراح ياله .

(٣) سألت عن كذا . وقد وضع الشاعر « حل » موضع « عن » . ويراد بالهوى فى شطرى البيت : التهوّل والمبالغة فى الإشارة إلى متعتها بها ، ويتمّها به . ومنه : أى من شخص المرأة التى نال من ملمس عفتها .

نجمى عن السؤال عما كان منها ، وعما كان منه ، قاصداً بالهوى : التشويق ، أو التهوّل والمبالغة ؛ أى لو سألت لعرفت أن المتعة كانت ثامة مؤثرة . وهو تأكيد لمعى البيتين السابقين ؛ فقد هاء ، واستمتع ، قضى لياسته ، وأراح ياله ، وسيطر على شوقه ، وبلغ ما أرواده وتمناه .

فَلَوْلَا أَنَّ جُنْدَ الصُّبْحِ وَافَتْ ، وَزَالَ اللَّيْلُ عَنِّي ^(٤)
لَدُمْتُ عَلَى مُعَاقَرَةِ الْأَمَانِي وَلَكِنْ رُبَّمَا عَاوَدْتُ فَنِّي ^(٥)

(٤) « لولا » : حرف يدلّ على امتناع شيء لوجود غيره . وجوابها في البيت الآتي : أي امتنع دواي على المعاقرة ؛ لأن الصبح وافانا . والجند : الأعداء ، والسكر . ووافت : آتت . وطلامه : مقدماته وأرائله . جمع طليعة (يوزن كتيبة) : وهي من الجيش ونحوه . أول ما يطلع منه . ووافتنا طلائع جند الصبح : أي فاجأتنا بتأشير الصباح ؛ فكادت تكشف المستور من أمرنا .

(٥) « دمت » : اللام واقمة في جواب « لولا » . ومعاقرة الأمانى : استعانة ما كنا نباشره من المتع والذات : مستعار من معاورة الحمر ؛ أي ملازمتهما ، وإدمان شربها . والأمانى (بالتخفيف ، والتشديد) : جمع الأمنية ؛ وهي ما قدّره ، وتحنّاه ، وترغب فيه ، وتوقى إليه ، وتشبهه . ورُبَّمَا : « رب » لحقها « ما » ، فكسبها عن العمل ، وحياتنها للنحول على الأفعال . وتفيد التظليل ، أو التكثير بحسب المقام ، وسياق الكلام ، وهي هنا التكثير ؛ لأن المقام مقام النسيان في الهم والهموم ، وإطعام الهوى ، والخلاعة . وعادوت الشيء : رجستُ إليه بعد الانصراف عنه . ووافن : الحال ، والضرب من الشيء . ويراد به هنا : ما انصرف إليه الشاعر من ضروب المتع والذات التي أشار إليها في هذه المقطوعة .

ومضى البيت الرابع والخماس : أنه لما زال عنه الليل ، فاجأته بتأشير الصباح أتبع مما كان يباشره ، ومعاقره من ضروب المتع والذات التي أشار إليها في ثلاثة الأبيات السابقة . ولودّاه الليل (والليل أغنى الويل) لدامت غلخته وبجائته ، وأدمن معاورة الأمانى . وفي الشطر الثاني من البيت الأخير إشارة إلى ترجيع المودة إلى محل هذه الحال في مستقبل الزمان .

• • •

وهذه المقطوعة من شعر الدعارة والخلاعة ، والهاوي والهموم الصارخ الذي لا نظير له في ديوان البارودي . وقد تكون من نسج الخيال المنطلق الداعر . أو هي قصة لها نصيب مشتمل من الصحة ، ثم انقلبت بالتزويد والمبالاة . أو هو مجرّد ولوع الشاعر بمحاكاة المهتكين وعلماء الشرع الذين قرأ لهم ، وتأثروهم حتى في الهجاء والخلاعة ، وتزويق رداء اللعة والحياة ، وكيفما كان الأمر ؛ « إن الحسنات يذهبن السيئات » .

وإن يكن القتل الذي ساء وأحداً فأفضاله اللاتي سررن أولف

والرابع أنها من شعر الفتوة والشباب ، بعد أن عاد الشاعر من الاستقامة في حاشية الخديو إسماعيل سنة ١٨٦٣ ، وقبل زواجه ؛ « عهلة يكن » سنة ١٨٦٨ .

وَقَالَ يَتَشَوَّقُ إِلَى الْإِلَهِ لَهُ :

يَا رَاحِلًا ! غَابَ صَبْرِي بَعْدَ فُرْقَتِهِ
إِنْ كَانَ يُرْضِيكَ مَا أَلْقَاهُ مِنْ كَمَدٍ
لَمْ أَلَقْ بِغُنَاكَ يَوْمًا أَسْتَجِبُ بِهِ
قَدْ كُنْتُ لَا أَكْتَفِي بِالشَّمْلِ مُجْتَمِعًا

وَأَصْبَحَتْ أَسْمُهُمُ الْأَشْوَاقِ تُصَيِّبُنِي ^(١)
فِي الْحُبِّ مَذْغِيَتْ عَنِّي ، فَهُوَ يَرُضِّيَنِي ^(٢)
وَجَهَ الْمَسْرَّةُ إِلَّا ظَلُّ يُبْكِيَنِي ^(٣)
فَالْيَوْمَ نَظَرَةُ عَيْنٍ مِنْكَ تَكْثِيَنِي ^(٤)

• تشوق إليه تشوقاً : اشتدَّ شوقه إليه . وألقه (من باب علم ، وفهم) : أسس به ، ومال إليه ، وأحب . والرائف ، والرائفة (بكسر فسكون قهبا) : المرأة تالفاها ، وتأنفك م
(١) راحل : اسم قاعل من الرحيل ، وهو الانتقال ، والاعتقال ، والمضي ، والذهاب (والقاعل من باب فلع) . والفارقة (بضم فسكون) : اسم بمعنى الافتراق : مصدر افتراقاً : أي تارقت كل منهما صاحبه ، وانفصلا بعد اجتماع . والأسم : جمع سم : وهو عود من خشب يسرى ، في طرفه نصل مستوي من الحديد ، يرمى به من القوس ونحوها . وأصلاه يصميه إصلاه : رماه ، فأصلاه - وهو يراه - إصابة قاتلة .
يقول : إن حبيبتة رحلت منه ، فلم يجد صبراً على فراقها ، فبرز به الوجد ، وأضاه الحزن والشوق .
(٢) الكمد : تغييب اللون ، وذهاب صفاته . والحزن الشديد . ويرضى القلب من ألمه ، والتم وشدة الحزن . وكمد الحب : ما يقاميه الحب من الضنى ، وتبريح الوجد (والقاعل من باب تمب) .
أحبها ، وشابت عنه فلقى منذ غيابها الكمد والكآبة ، فحصل إليها بحبه وصبايته مستغلاً قاتلاً : إن كان يرضيك ما أكاكبه من الوجد والضنى ، فهو يرضيني . وهو أسلوب مألوف في لغة الحب .
(٣) استبانته يستبته : تبيته ، وعرفه . والمسرة (بوزن المبررة) : السرور والفرح .
والمضي : أن غياب حبيبتة عنه قطعه عن كل أسباب السرور والارتياح ، ورغاه البال ؛ فهو عمل الدوام واجد ، بلك ، مكتئب حزين .

(٤) اجتماع الشمل : اجتماع الأمر ، وأمر شامل : أمر عام ، جامع وجمع الله شملهم : أي ما تفرق من أمرهم ، وفرق الله شملهم : أي ما اجتمع من أمرهم .
يأسى ويأسف على ما كان من اجتماع شمله بهذه الحبيبة ، ويقول : إنه كان يستقل هذا ، ولا يقنع به ، بل يطلب المزيد منه فلما افتراق شملها بارتحالها ، وغياها ؛ اشتدَّ به الوجد ، وأضاه ألمه ، واقتصرت أمتعته على نظرة واحدة من نظراتها إليه ، وغناها عليه .

* * *

ويلاحظ أن الشاعر في هذه المقطوعة ، وفي كثير من غزلياته يعبر عن المؤثث بضمير المذكر افتداءً عن ابتداء هذا من شعراء العصر العباسي ؛ كأبي نواس الذي نقل الغزل من أوصاف المؤثث إلى المذكر ؛ فخرج بذلك من مألف العرب وآدابهم ؛ إذ لم يكن ذلك معروفاً قبله ، وقبل أستاذه وقادته « وأبنة بن الحباب » ثم جاء في شعر الحسين بن الضحَّاك ، وأبي عبادة البحتري ، وغيرهم من شعراء العصر العباسي والمصور التي يمهده إلى البارودي وأشأله .

وَقَالَ :

إِنْ لِي صَاحِبًا ، وَلَا بُدَّ مِنْهُ قُلَّ صَبْرِي بِهِ ، وَزَادَتْ شَجْوَنِي ^(١)
أَحْمَقُ ، لَا يَكَادُ يَفْقَهُ قَوْلًا مِنْ حَدِيثٍ ، وَالْحَقُّ نِصْفُ الْجُنُونِ ^(٢)

وَقَالَ :

إِذَا أَتَاكَ خَظِيلٌ بَعْدَ مُنْدَمَةٍ مِنْهُ عَلَى مَا مَضَى مِنْ زَلَّةٍ ، فَهَنْ ^(٣)

(١) يقال : صبر على الأمر . وفي القرآن الكريم : « سَأَنبِتْكَ بِنِجْلٍ مَالٍ مِثْلَ شَجَرٍ » الآية رقم ٧٨ من سورة الكهف . وقد وضع الشاعر ألباء « به » موضع « على » . وهذا جائز . وقد تكون الباء هنا للمصاحبة : أي قلَّ صبري معه . وقد تكون للسببية : أي قلَّ صبري بسبب ما أماليه من حماقة وسفاهة . والشجون : جميع شجون (بفتح الجيم) : وهو الحزن ، والحزن (وفعله من باب تفعّل) .

يعلم سخطه وتبرمه بصحبة رجل عاشره وأفسده ؛ فقلَّ صبره عليه ، وزادت به متاعبه ، وهيمه . وفي الشعر الأول أن هذه الصحبة اضطرارية لا بد منها ، ولا يحصى عنها . وهذا يذكرنا بقول أبي العليّ المثنى :
وَمَنْ نَكَّدَ الدُّنْيَا عَلَى الْخُرِّ أَنْ يَسْرَى حِدْوًا لَهُ مَا مِنْ صَفْقَةٍ يَدُّ

(٢) « أحق » : صفة على وزن أفعل ، تمنع من الصرف ، أي التثنية ، وإثما تَوَثَّ هُنا لفروقة وزن الشعر . والحماقة : قلة العقل . ومثلها الحق (يضم فسكون ، أو بضمين) ، (والفعل كظرف ، وضم) . ويفقه (من باب علم) : يفهم . ولا يكاد يفقه : أبلغ ، وأوجع ، وأقلع من « لا يفقه » . يقال : كاد يفعل كذا : أي هم ، وقارب ، ولم يفعل . والحديث : كل ما يتحدث به من كلام ، وغير . و « الحق نصف الجنون » : تذييل جار مجرى المثل .

وصه بالحق ، وقلة العقل ، وضعت الوصي والإدراك ، وجرده من الفهم واللفظة ؛ فهو لا يكاد يفقه شيئاً من حديث المتحدث إليه . وهذا البيت تلميح لما شكاه الشاعر في البيت الأول من ضجرو وسأته ، وزيادة شجونه ، وقلة صبره .

(١) الخليل : الصديق . والمتنعة (بزوزن المرحية) : ما يميل على التثيم ؛ وهو الأسف والتحصن من تغير رأي في أمر فاقته . ولزم على الأمر (من باب تفعّل) : أي أنف ، وكرهه بعد ما فعله . والزلة : الخفوة ، والسقطة ، والخطيئة . وزلة في منطقته ورأيه : أخطأ . وهن : أمر من هان الشيء عليه (من باب قال) : أي خف ، ولان ، وسهل .

والأعلى : إذا بدرت من صديقك بأدرة ، أو رأيت منه ما يسوك ، ثم جأك نادماً معتزلاً ، فضيّل مدركه ، ولايته ، وأرق به ، وياسره ، وساعده .

وَأَنْ صَفَحَتْ فَلَا تَعْرِضْ بِمَعْتَبَةٍ ۖ فَالْعَتَبُ يُفْسِدُ مَا قَدَّمْتَ مِنْ حَسَنِ^(٢)

وَقَالَ :

أَحِبَّ ، وَأَبْغِضْ ، وَقُلْ بِحَقِّ ۖ وَلَا تُسَاهِلْ ، وَلَا تُخَاشِمْ^(١)

فَالْحُبُّ يُعْمَى عَنِ الْمَسَاوِي ۖ وَالْبَغْضُ يُعْمَى عَنِ الْمَحَاسِنِ^(٢)

(٢) صَفَحَتْ عَنْ ذَلِيلِهِ (من باب قطع) : عفوت عنه ، وسأحته . وَلَا تَعْرِضْ بِمَعْتَبَةٍ : أى لا تظهر بها : أى لا تماثبه : من قولهم : عرض الشيءُ (من باب ضرب) : أى بدأ ، وظهر ، وبرز ، وأشرف . وَشَلَّه أَعْرَضَ الشَّيْءُ إِعْرَاضًا ۖ وَالْمَعْتَبَةُ (يفتح التاء وكسرهما) : اسم من عتب عليه (من باب ضرب ويقل) : أى لاهه ، وشاغله غاطبة الإدلال ، طالباً حسن مراجعته ، ويدكراً إيساء بما كرهه منه . وَمَا قَدَّمْتَ مِنْ حَسَنِ : أى ما قدَّمته ، وسبقت إليه من أمر جميل محمود مستحسن ، وهو الصلح ، والأمن ، والتسامح . يَقُولُ : إذا صَفَحْتَ عَنْ ذُلِّهِ هَذَا الصَّدِيقُ فَلَا تَمَاقِبْهُ ؛ إِذِ التَّمَاقِبُ يَفْسِدُ الصَّفْحَ ، وَيَكْدُرُ الصَّفْوُ . وَالْبَيْتَانِ فِي التَّنصِيحِ وَالْإِرْشَادِ ، وَيَجْرِيَانِ بِجَرَى الْحُكْمِ وَالْأَمْثَالِ .

• • •

(١) أَحِبَّ : أَرْمَنْ أَحِبَّهُ . وَأَبْغِضْ : أَرْمَنْ أَبْغِضْهُ : أى مقته ، وكرهه . وَسَاهَلْهُ مَسَاهَلَةً : يَسَّرْهُ ، وَلَاحِظْهُ ، وَسَاهَهِ . وَخَاشِمْهُ خَاشِشَةً : حَارِضْهُ ، وَجَاسِرْهُ ، وَخَاصِمْهُ . وَهِيَ غِلَافُ الْمَسَاهَلَةِ . وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ فِي الْبَيْتِ لِلتَّنصِيحِ وَالْإِرْشَادِ .

دَعَا فِي الشُّطْرِ الْأَوَّلِ إِلَى الْإِعْتِدَالِ ، وَالتَّوَسُّطِ ، وَالتَّقْصِدِ ، وَالتَّزَامِ الْحَقِّ ، وَالِاسْتِقَامَةِ فِي الْحُبِّ وَالْبَغْضِ ، وَفِي الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ . وَالشُّطْرُ الثَّانِي تَأْكِيدٌ لِهَذَا الْمَقْصِدِ ؛ فَهَوْنٌ عَنِ التَّطَرُّفِ فِي الْمَسَاهَلَةِ وَالْمَخَافَةِ ، وَتَجَاوُزُ الْقَصْدِ وَالرَّشْدِ . وَخَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا .

(٢) الْمَسَاوِي : الْمَعَائِبُ وَالنَّقَاتِصُ . وَضَدُهَا الْمَحَاسِنُ .

فِي الْبَيْتِ السَّابِقِ دَعَا إِلَى الْإِعْتِدَالِ وَالْقَصْدِ فِي الْحُبِّ وَالْبَغْضِ . وَهَذَا الْبَيْتُ تَعْلِيلٌ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ ؛ فَإِنْ الْإِفْرَاقُ فِي الْحُبِّ يَعْنِي الْمَحَبَّ عَنْ مَعَائِبِ الْمُحِبُّوبِ ، وَمُنَاقَصِهِ ، وَمَسَاوِيهِ . وَكَذَلِكَ الْإِسْرَافُ فِي الْبَغْضِ يَعْنِي عَنْ مَحَسَنِ الْمُبْغِضِ وَفَضَائِلِهِ وَزَيَّادِهِ ؛ وَهَذَا يَتَضَرَّبُ الْأُمُورُ وَالْقَصْدُ ، وَيُعِيلُ مِيزَانَهُ الْحَقُّ وَالْعَدْلُ ، وَيَسْتَشْرِى النِّظَمُ وَالْيَقِي فِي حَيَاةِ الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ .

وَقَالَ :

لَا تَعْكُنَنَّ عَلَى الْمَدَامِ بِعَيْرِ مَا صَوْتٌ يَهِيحُ يَلْعَجُهُ النَّدَامَانُ^(١)
 إِنَّ الْفَنَاءَ سَرِيرَةٌ فِي النَّفْسِ قَدْ ضَاقَتْ بِهَا ، فَتَفَجَّرَتْ أَلْحَانًا^(٢)

وَقَالَ :

خَفَضَ عَلَيْكَ ، وَلَا تَجْزَعْ لِنَائِبَةٍ فَالْدَّهْرُ يَعْتَرُ بِالْإِنْسَانِ أَحْيَانًا^(١)

(١) حكف على الشيء (من بابي قعد وجلس) : أقبل عليه ، ولزمه ، ولم ينصرف عنه . والمدام (بضم الميم) : الخمر . و « ما » في نهاية الشطر الأول : زائدة بعد « غير » لتأكيد الكلام . وهاجه يهيج (من باب هاج) : أغاره ، وشجته . ولحن الصوت (يفتح اللام وسكون الحاء) : نغمه ، وموسيقاه ، وليلقاه . والنَّدَامَان (بوزن السكران) : من يتألمك : أي يحاللك على الشراب . وقد يكون النَّدَامَان جمعاً .

يدعو إلى الجمع بين إدمان الخمر والاستمتاع بفنائه ؛ فإن الفناء يطرب النَّدَام ، ويكل متعته .

(٢) الفناء (بكسر الفين) : التطريب ، والتزئيم بالكلام الموزون وغيره ، يكون مصحوباً بالموسيقى ، وغير مصحوب . والفعل غنى ، وغنى (كزئيم تزئيماً ، وزئيم تزئيماً) . وسريرة : سر مكتوم في النفس . وتفجّر الماء ونحوه ففجراً : الفجور ، وانثاق . والألحان : الألحان : جميع لحن (بوزن فريخ وأفراخ) : وهو الأغنية ، والصوت الموسيقي .

والمعنى : أن الألحان في أصلها ، أو في حقيقتها سرائر وعواطف مكتوبة تختلج في الصدور ، فإذا ضاقت بها ، ولم تستطع كتابتها تفجرت ألحاناً وألغماً . وقد جرى هذا البيت مجرى الحكم والأمثال . وصلته بالذي سبقه واسعة وثيقة ؛ فاللغناء صوت عذب يطرب النَّدَام ، وسر مكتوم في الصدر ينفجر في لغات وألحان .

* * *

(١) خفَضَ عليك : أي هوّن الأمر على نفسك ، وسهّله . ومن كلام أبي بكر لا يثاب عاتفة في شأن الإفك « خفَضَ عليك » . ولا تجزع : نهى عن الجزع : وهو تقيض الصبر . والخرج أبلغ من الحزن ، وأشد ، وأخصر ؛ فإنه حزن يصرف الإنسان عما هو يصده ، ويقطعه عنه (والفعل من باب تعب) . والأمر والنهي هنا : للنصح والإرشاد . ولقائبة : النازلة ، والكائرة ، والمصيبة . والدهر : الزمان الطويل ، والأمد الممتد ، ومدة الحياة الدنيا كلها . وقد جرى الناس - ومخاصة الشعراء - على أن ينسبوا إليه الخير والشر ، والمسرّة والمساءة . والدهر يمتدّ بالإنسان : أي يتعرض له بالأذى والسوء . والاعتراو (في الأصل) : أن يترصّص المرء لغيره طامعاً في معرفته من غير أن يسأله . أو هي يمتدّ : بمعنى يتقوى ، والمراد يصاحب ، =

فَكُلُّ نَاهٍ قَرِيبٌ إِنْ صَبَرْتَ لَهُ وَكُلُّ صَعْبٍ إِذَا قَاوَمْتَهُ هَانًا^(١)

وَقَالَ فِي النَّهَامِ :

لَا تَرْتَمِكَنَّ إِلَى النَّهَامِ ؛ إِنْ لَهُ خَذَعًا يُفَرِّقُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْبَدَنِ^(٢)

لَوْ لَمْ تَكُنْ قِصَّةُ النَّهَامِ كَاذِبَةً مَا كَانَ يَسْتَرْهَا عَنْ مَعْرِضِ الْكَلَنِ^(٣)

= ويصالح ، ويهادن : بمعنى أن الثابتة التي أصابك بها الدهر تمقتها المصالحة والمسألة . أو هي يفتّر (بالفتن المصنعة) : بمعنى يتخذ . والمعنى على هذا : أنك إذا هونت الأمر على نفسك ، وتجلست لنوائب الدهر خدعتك بهذا التجلد ، فلم يتبادر في الحيلة عليك ، والإساءة إليك .
يخصّص على التصبر والتجلد لنوائب الزمان ، ويهين الشدائد ، وقلة الاكتراث لها .

(٢) ناه : بعيد . وصبرت له : صبرت عليه ، وتجلدت له . وقاومته : كافحته ، وجمادته . وفي المقاومة معنى المصاراة . وهان (من باب قال) : سهل ، وشف ، ولان .
يقول : إن الصبر يقرب البعيد ، والمقاومة تسهل الصعب ؛ فهو في البيت يخصّص على تهوين الشدائد على النفس ، وبكافة النوائب ، وبجانية الجزع ، ومصاراة الخطوب ، وبغالية الزمان وهذا ونحوه يقرب البعيد ، ويسهل الصعب ، وتقتحم العقبات .

• • •

(١) ركن إليه (كخضع ، ودخل ، وطلم) : مال إليه ، وسكن ، واطمان . والنهام : صيغة مبالغة من نهم الكلام : أي زينه بالكذب ، وسعى به للفتنة والإفساد ، وإغواء العلوة بين الناس . وخدعه (من باب قطع) خدعاً : إذا أظهر له خلاف ما يخفيه ، وأراد به المكره من حيث لا يعلم . وبدن الإنسان : جسده . والفرقة بين الروح والبدن : كناية عن التفرقة بين المتحابين . أو المتماثلين على الخير والحياة .

يخبر عن الركون إلى النهم ، والإقبال عليه ، والاستباح له ؛ فإنه مخادع خسّال ، لا يفتأ يزيّن كلامه بالكذب ، ويسعى بالنهم والرشايات لتفرقة بين المتحابين ، وإلقاء الدواة واليفشاء بين المتماثلين على الخير والإصلاح .

(٢) قصة النهم : حديثه وكلامه ، وما يلقّسه من الأقوال ، وما ينقله من الأخبار . ومعرض الشيء (بوزن المجلس) : موضع عرضه وإظهاره . وللملن : مصدر عن الأمر (من باب طرب) : أي ظهر ، وانتشر . والعلائية : اسم منه .

يقول : إن حديث النهم قائم على الكذب ، والاعتلاق بالرشايات والإفساد ؛ بدليل أنه يحاول على الدوام ستره وإخفاؤه في معرض المجاهرة والممانعة ، أو حيث ينبغي أن يعرض ويعلم ، أو في مقام المصارعة والإظهار . في البيت السابق قال : إن النهم يختال في خداع الخسّال ، لا يطمان إليه ، ولا يوثق به ، ولا يمول عليه . ودأبه التفرقة والإفساد بالسماحة والغمية ، بالرشايات والكذب ، وهذا البيت تأكيد وتأييد لهذا المعنى بالدليل والبرهان ؛ وهو حرص النهم على الخدعة والمساورة ، وإخفاء ما ينبغي إظهاره .

وَقَالَ :

وَذِي وَجْهَيْنِ ، تَلَقَّاهُ طَلِيقًا مُحْيَاهُ ، وَيَا طَيْئُهُ حَزِينٌ^(١)
يُعَاطِيكَ الثَّمْنَى بِلَحَاطٍ رِيمٍ ، وَيَبِينُ ضُلُوعُهُ ضَبَّ كَرِيمٍ^(٢)

(١) الواو : واو ، « رب » : أى وربّ وجل ذى وجهين . وما بعده تفسير له : أى ظاهره يخالف باطنه ويتناقضه . والهيئ : الوجه . وطليق : منطلق ضاحك ، ظاهر البشر ، متبهرج ، يسام : من التلافة : وهى البشاشة ، والتبهرج ، والاستبشار ، وبسطة الوجه . والواو فى الشطر الثانى : واو الحال . والجملتان الاسمية بعدها حالية .

والمنى : أن من الناس من يلقاك بوجه طليق ، وهو يفسرك بالعداوة والبغضاء .

(٢) يعاطيك : يتناولك ، يعطيك . والمنى : الأمانى والآمال . الواحدة منية (بوزن دمية) . واللعاط (يفتح اللام وكسرها) : مؤخر العين مما على الصدغ . ويراد به هنا العين . والقحاط (بكسر اللام) : مصدر لاحظ : أى راقبه ورأى . والرم (بالهمز والتلين) : ولد الطيبة . أو النقي الخالص البياض . ويشار بالرم هنا : إلى الوداعة ، والمسالمة ، وحسن المظهر ، وطيب القاء . والواو فى أول الشطر الثانى : واو الحال ، والجملتان بعدها حالية . والضلوع : عظام لفص الصدر : جمع ضلع (بكسر ففتح ، أو بكسر فسكون) . (يؤث ويدكّر) . والفصب (يفتح الصاد) : الحقد ، والغل ، والفيط الكامن فى الصدر . ومن كلامهم : هو غصبّ ضبّ : أى مراوغ خداع . وكين (بوزن سجين) : كامن ، غنى ، متوار ، غير ظاهر .

يقول : إنه يعطيك ما تتمناه ، أى يرضى أمانيك بنظرات وادعة هادئة ، على حين أن قلبه ينظر إلى الغل ، والحقد ، والفيط اللعين ، وهو تكرر وتأكيده لمنى البيت السابق .

* * *

وهذا المنى كثير شائع فى الشعر العربى قديمه وحديثه ؛ فأثير الشراء أحد شوقى يقول :

فيا رُبَّ وجهٍ كصافى الخمر تشبّه حاسله والشعر

ولابى تمام :

ليس الصديقُ بمن يُجِرْك ظاهراً مُتَبَسِّماً عن باطنه مُتَجَهِّم

والشريف الرضى :

لا تَجْعَلَنَّ دليلاً المَرُورَ صُورَتَهُ ، كَمَ مَخْبَرٍ سَمِيحٍ عن مَنْظَرٍ حَسَنٍ =

وَقَالَ يَهْجُو :

حَوَيْتَ مِنَ السَّوَاتِ مَا لَوْ طَرَحْتَهُ عَلَى الشَّمْسِ لَمْ تَطْلُعْ بِكُلِّ مَكَانٍ^(١)
وَمَا تَرَكَ الْهَاجُونَ فِيكَ بَقِيَّةً يَلُورُ عَلَيْهَا فِي الْهَجَاءِ لِسَانِي^(٢)
وَقَالَ :

إِذَا مَا الْمَرْءُ أَغْقَبَ ، ثُمَّ أَوْدَى تَعَادَلَ ، فَهُوَ مَوْجُودٌ وَقَائِي^(٣)

= وللأبيوردى :

يلفكك والسَّل المصغى يُجَنَّتَنِ من قوله ، ومن الفعل الصَّلَمَ
ولأبي فراس الحمداني : وقد صار هذا الناسُ إلا أقَلَّمهم
ولشراء خير هؤلاء : ذلِّبًا على أجسادهم ثيابُ

لا يَشْرُكَكَ مَا تَرَى مِنْ أَنْاسٍ إِنَّ تَحْتَ الضُّلُوعِ دَاءٌ دَوِيًّا
تَقَبَّلْتُ مِنْ ظَاهِرٍ مُتَجَكِّجًا وَلَدَمَجٍ دَوِيٍّ يَكْأَلُنَا مُتَجَهِّجًا
يُخْطِئُكَ وَدًّا زَائِلًا بِلِسَانِهِ وَيُجِينُ تَحْتَ ضُلُوعِهِ الْتَوَانَا

• • •

(١) السَّوَات : جميع سوية : وهي الخَلَّة القبيحة . وكل عمل أو أمر شائن . وطرحه (من باب قطع) : ألقته .

يقول : في المهجور سَوَات ، وينقص ، ومناهب لو كانت في الشمس لحببته ، وذهبت بفسادها كله ، منفضها من الظلوع في كل مكان . والفرس المبالاة في تصوير كثرة لقائهم ، وسوء خصاله .

(٢) الهَاجُونَ : جميع الهائجي : اسم فاعل من هجأ (من باب دعا) : أي ذم ، وعدد حماييه ، ويكون الهجاء بالشعر غالباً .

يقول : إن الذين سبقوا إلى هجاء ذلك الرجل استقصوا حيويه ، ولقد دوا بمغازيه كلها ، فلم يتركوا منها شيئاً يخلق به لسان الشاعر .

• • •

(١) أغقب الإنسان إغقاباً : ترك حقاً (بفتح فكسر ، أو بفتح فسكون) : وهو ولده ، وولده ولده . وأودى : هلك ، ومات . وتبادل تعادلاً : المراد : تعادل أمراءه : أي تساوا بالإعقاب والموت ؛ فهو بالإعقاب موجود ، وبالمرث فان .

والمنى : أن الإنسان يحيا بعد موته في ذريته ونسله .

وَمَا الدُّنْيَا سِوَىٰ أَخِيذٍ وَرَدَّ وَهَدَمَ نَابَ عَشُهُ بِنَاءَ بَنَانِي^(١)

وَقَالَ :

كَحَمْتُ هَوَالِي حَتَّى لَيْسَ يَدْرِي^٢ لِسَانِي مَا تَصْنَعُهُ جَنَانِي^(١)
وَلِي بَيْنَ الْجَوَانِحِ مِنْكَ سِرٌّ خَصِي لَا يَعْرِوُ الْكَاتِبَانِ^(٢)
وَكَيْفَ يَخْطُهُ الْمَلَكَانِ عَنِّي وَلَمْ يَنْطِقْ بِمَا فِيهِ لِسَانِي؟^(٣)

(٢) يراد بالأخذ والرد : الموت والحياة . وكذلك الهدم والبناء : أى ليست الدنيا سوى أخذ وهدم بالإقامة ، ورد وبناء بالإحياء .

فى البيت السابق أشار إلى غلوة الموتى من الناس فى ذرياتهم بعد موتهم ؛ فالمرء يموت ويفنى ، ولكنه يبقى موجوداً مذكوراً فى أولاده وحفدته . وفى هذا البيت تمييز لهذا المعنى ، وتلخيص لأمر الحياة والموت ، بل لشأن الدنيا ما خلقها الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ؛ فالإنسان يموت ، ويبقى من بعده عقبه ، ويهدم (بالبناء للمجهول) فلا يلبث الباقى أن يبقى من ينوب مثابه ، ويقوم مقامه ، وهكذا دواليك « وذلك الأيام لدواولها بين الناس » . وهذا هو معنى الأخذ والرد ، والهدم والبناء .

* * *

(١) الهوى : الحب ، والمشق ، والفرام . وتضمن الإنشاء ونحوه الشيء : أى احتواه ، واشتمل عليه . والجنان (بفتح الجيم) : القلب

يقول لمن عشقها ؛ إنه بالغ فى كثرة عشقه ؛ فلم يدرك لسانه ما انطوى عليه جنانه .

(٢) الجوانح : أضلاع الصدر . الواحدة جانحة . وبين الجوانح : القلب . ونحو : خاف مكنوم : وهو تأكيد لمعنى السر . ومعنى الحديث ونحو (من باب وعد) : عرفه ، وفهمه ، وقبّله ، وحفظه . والكاتبان : الملكان اللذان يكتبان أقوال الإنسان وأعماله ، وحسناته وسيئاته . وفى القرآن الكريم : وإذا نطقوا بالمثلقتين من إثنين ، ومن الشال قيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد « ١٧ - ١٨ من سورة ق .

والمعنى : أن تملق هذه الحبيبة سرّ يكتمه فى قلبه بين جوانحه ، ولا يعرفه الملكان . والغرض تصوير مغلالة فى كثرة الهوى وإسراؤه .

(٣) الاستفهام فى أول البيت : معناه النفي ؛ فهو يعنى أن يخط الملكان سرّه . وخطه (من باب رد) : كتبه وسطره . والفاض : المستور . وضده الواضح . وقد غمض (من باب جعل رعد) . والبيت تكرار ، وتأكيد لمعنى البيت السابق ؛ فالملكان لا يعرفان هذا السرّ الخفى الفاض ولم يكتباه ؛ لأنه لم يلفظ به ، ولم يجر على لسانه . وهذه كلها من أغنية الشعر وبهالغاته ؛ إذ الملكان يرقبان الإنسان ، ويخطبان ما ظهر وما خفى من أقواله وأعماله . والفكرة فى ثلاثة الأبيات واحدة : وهى أن عشقه أوسع من خطاطبها مكنوم فى قلبه . ولم يتجاوز به لسانه ، والبارودى بهذه الأبيات الثلاثة ينقش ، أى يناقش ويخالف قول إبراهيم بن هلال الصبانى فى أبياته الأربعة الآتية ؛ فكلاهما يكتم السر ، ولكن بطريقته الخاصة التى يخالف بها طريقة صاحبه .

وَهُوَ يَنْقُضُ بِهَا قَوْلَ الصَّابِي :

يَمُوتُ مَعِيَ سِرُّ الصَّلَيقِ . وَلَحْدُهُ ضَمِيرٌ لَهُ الْجَنَّبَانِ مُكْتَنِفَانِ^(١)
وَأَسْأَلَ يَوْمَ الْبَيْتِ عَنْ كُلِّ مَاوَعَى سَمَاعٌ ، وَمَا فَاهَتْ بِهِ شَفَتَانِ^(٢)
فَأُنْكِرُهُ مِنْ بَيْنِ مَا فِي صَحِيفَتِي وَأَجْحَدُهُ إِذْ يَشْهَدُ الْمَلَكَانِ^(٣)

• ينقض : يرد ، ويخالف ، ويمارض ، ويبتل ، وينالض (وبابه قال) . والنفس (في الأصل) : إفساد الشيء بعد إبرامه وإحكامه . وإذا قال شاعر شعراً ، فرد عليه شاعر آخر معارضاً مخالفاً ، قيل : إنه نقض على صاحبه قوله وأبطله . وفي الشعر العربي كثير من هذا . ومنه نقائص جرير والفرزدق .

• إبراهيم بن حلال الصابي الحرّانيّ . وله ومات في بغداد (٣١٣ - ٥٣٨٤ / ٩٢٥ - ٩٩٤ م) : أديب ، كاتب ، شاعر . درس الرياسة ، والفلك ، والفلسفة ، ثم حلب عليه الأدب . واتصل بهي بويه ، وألف « التاجي » في أخبارهم ، وكتب المهلبيّ ، وتولى ديوان الرسائل والمظالم ، واشتهر برسائله النبوية والإخوانية ، وعرف بكرم الأخلاق ، وسجن عدة مرات . وله ديوان شعر .

(١) الحد : القبر ينفخ فيه الميت . والضمير : ما تضرع في نفسك وخفيه ، ويضمب القوفه عليه . ويراد به هنا : القلب ، أو الصدر ، أو مخبأ السرّ في نفسك . واكتنفاً : أحاطا به ، وانطقتا عليه ، فهما مكتنفان . جعل ضميره قهراً لما يكتمه من السرّ . واكتنفاً الجنين للضمير : تأكيد لمعنى الحفظ والكتمان . وجنبا الإنسان : جانبا وشقاه الأيمن والأيسر .

يقول : إنه يكتم سرّ الصديق ويصونه طوال حياته ؛ فإذا مات مات معه السرّ . أو المعنى : أنه إذا أوثق على سرّ أماته . ويراد بالإمالة في الحفظ والصيانة والإخفاء والكتمان .

(٢) يوم البيت : يوم يموت الله الناس من قلوبهم : أي يخرجهم ، ويشرهم ، ويحجبهم ، ويحشرهم للحساب ، ثم الثواب ، أو العقاب . وروى الحديث ويحشرهم (من باب وحد) : أدركه ، وفهمه ، وحفظه . والسج : السمع : وهو الأذن ، أو القوة التي تدرك بها الآذان الأصوات . وفاء بالقول (من باب قال) : تعلق به ، وتلفظ . ويراد بالشفعتين : أعضاء التنطق والكلام ، ومنها اللسان والشفتان .

(٣) أذكر الشيء إنكاراً ، وبجده (من باب قطع ونقص) : بمعنى واحد . أو بمعنىين متقاربين ؛ فالجحد : الإنكار مع العلم ، والجاحد إنما ينكر ما يعلمه ويستيقنه . وبجده الإنكار والجحد : الإقرار والاعتراف . ويريد بالصحيفة : كتاب الأعمال المشار إليه في قول الله تبارك وتعالى : « ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً » الآية رقم ١٣ من سورة الإسراء . وشهد على كذا (من باب سلم) : أخبر به خبراً قاطعاً . والملكان : اثنان من ملائكة الرحمن ، يرصدان المرء طوال حياته ، ويسجلان عليه أفعاله وأعماله ، وحسناته وسيئاته . وفي التنزيل العزيز : « إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين ، وعن الشمال قعيد . »

وَدَنَيْبِي فِي ذَا الْجَحْدِ أَيْسَرُ مَحْمَلًا مِنْ الذَّنْبِ فِي إِفْشَائِهِ بِإِسْنَانٍ^(١)
وَقَالَ :

عَرَفَ الْهُوَى فِي نَظَرِي ، فَتَهَانِي خِلٌ رَعِيْتُ وِدَادَهُ ، فَوَعَانِي^(٢)
أَخْفَيْتُ عَنْهُ سِرِّي ، فَوَقَى بِهَا دَمْعَ أَبَاحٍ لَهُ جَمِي كَيْتَمَانِي^(٣)

= ما يلفظ من قول إلا لديه ذليب حيد ١٧ - ١٨ من سورة ق .

في هذا البيت وإلى قبله : أن الصابي الشاعر يسأل يوم القيامة عن كل ما وضعه أذناه ، وطاعت به
شفاه ، فينكر السر ويحصد على الرغم من علمه به ، ويثوبه في صميمته ، وشهادة الملكين عليه . وهنا
ينفضه البارودي ويضالده ؛ فالصابي" وهي صميمته ، صميمته ، وتقرله به لسانه ؛ فكتبه الملكان في صميمته ،
وشهدا به يوم البعث ، فالذكره ويحصد على الرغم من هذا كله . والبارودي وهي قلبه سر صميمته ، أو حبيبته ، وبرح به
الحوى والغرام ، ولكنه كتمه ، ولم يبح به ، فلم ينطق بفادسه لسانه ، ولم يكتبه الملكان ؛ فلم يسأل
هذه يوم القيامة ، ولم يقترق وزر الجحيد والإنكار . والشاعران كلاهما متفقان على المبالاة في كتمان سر
الصديق أو الحبيب ، وإنما التناقض والاختلاف في طريقة الكتمان ، ودرجته ، وبالله . ولا ريب أن
البارودي تزيد في هذا المعنى ، ولما صاحبه ، وكانت صوابه ، وكانت صوابه ، وأبلغ من مبالاة الصابي .

(٤) ذا : هذا . وأيسر : أخف ، وأهون ، وأسهل . والحمل (بوزن المذهب) : مصدر همس
لحمه حملاً (من باب ضرب) . وألقى السر : وأخبر وأخبرها إفشاء : نشره ، وأذاعه
وغداه الكتمان .

في البيت السابق : أنه يسأل يوم البعث عن سر الصديق فينكره ويحصد ، وهو ثابت مسجل في
صميمته ، والملكان يشهدان به . وفي هذا البيت : أنه وأزن بين ذنب الاعتراف والإقرار والإفشاء ، وذنب
الإنكار ، والجحد ، والكتمان ، فاستأثر أن يحمل الذنب الثاني ؛ لأنه أخف حملاً ، وأقل في أوجه وزناً ،
وأدعى إلى راحته ، وأطمئنان نفسه .

• • •

(١) الحوى : الحب ، والعشق ، والفرام . والخل (بكسر الخاء) : الصديق المختص . وظله
الخليل : من الخلّة (بضم الخاء وتشديد اللام) : وهي الصداقة لا يتورعها خلل ، أو ضعف ، أو
فساد . أو الصداقة والحب التي تخللت " ألقب : أي صارت غلالة ، وفي باطنه . والوداد : المودة والهمة .
ورعيت ودادته (من باب سى) : حفظته ، وصنته ، وأخلصته . ورعاني : حفظني ، ولاخطني ، وتودد
إليّ ، وأشفق عليّ .

اشتد التزام الشاعر ؛ فظهر أثره وأماواته في عينيه ونظراته ؛ فصره خليل من أعلاته انقذت بينهما
أواصر الصداقة والمودة الخاصة ؛ فنهاه عن الحوى إفشاءاً عليه ، وإسناناً إليه .

(٢) السريّة : السر الذي يكتم . ويراد بها هنا : ما حاول الشاعر إفشائه وكتمان من أمر حبه
وغرامه . ورثى بها : كشفها ، وأظهرها . وأباحه الشيء : أحله له ، وبسطه مباحاً ؛ أي غير محظور ، =

فِي أَيِّ مَعْلُومَةٍ أَكْذَبُ لَوْعَةٍ شَهِدَتْ بِهَا الْعِبْرَاتُ مِنْ أَجْفَانِي؟ (٣)
يَا صَاحِبَ إِيَّالَا أَبْصَرْتَ مَا صَنَعَ الْهَوَى بِأَعْيُنِكَ يَوْمَ تَفَرَّقِ الْأَعْصَانِ (٤)
يَوْمَ فَقَدْتُ الْحِلْمَ فِيهِ ، وَشَفَنِي وَلَهُ أَصَابَ جَوَانِحِي ، فَرَمَانِي (٥)

ولا منوع . والحى : الشيء المحمى المصون المنوع الذى لا يقر به معتد ، ولا يجرؤ عليه مجترى . وحى كَيْفَى : أى كَيْفَى الشبه بالحى : أى كَيْفَى الذى كنت أحبيه وأصونه وأحفظه وأمنه . ويراد بالشطر الثانى : أن دمه كشف لخليله ما كان يحرص على كتمان من أمر الهوى والفرام .
والحى : أنه كان شديد الكتمان لحبه وهواه ، حريصاً على إخفائه عن خاصته وأخلائه ؛ ولما برح به الوحيد غلبه اليكاه ؛ ففانست دموه ؛ وانكشف ما كان يكتمه من أمره .
فى البيت السابق : أن غليله صرف الهوى فى نظراته . وفى هذا البيت : أنه عرفه فى دمعه .

(٣) الاستفهام فى أول البيت : معناه لئن ؛ فإن الحب المستهام لا يجد الحجة التى يحجج بها ، ولا الوسيلة التى يفرغ إليها إذا جرت عبراته ، فكشفت ما كان مستوراً من سبه وهواه . والمعلنة (بوزن المفردة) : الحجة والمطر . والقوة : سرقلة الحب ، وحرارة الشوق ، وقد لاهه الغرام (من باب قال) : أى أحرقه ، وأضناه . والمعبرات : التذوق . وأحبتها عيرة (بوزن سيدة) . والأجفان : جميع جفن (بفتح فسكون) : وهو غطاء العين من أعلاها ومن أسفلها . ويريد بأجفانه عينيه . ومن أجفاني : أى المعبرات الجارية من أجفاني . وقد تكون « من » : بمعنى « فى » . والقوة والمعبرات من شواهد الحب التى لا يستطيع تكذيبها .

يقول : إنه لا يجد حجة ، أو وسيلة ، أو عللاً يعتذر به عن نفسه ، ويكذب شواهد حبه وفرامه .

(٤) يا صاح : أى يا صاحبى ؛ فهو متنادى مرثع (بصيغة اسم المفعول) . وترثيم المتأذى : حذف آخره تسبيلاً لقلوب به . و « لا أبصرت » : جملة دعائية . والظئنة : المرأة فى المروج : وهو أداة ذات قبة ، توضع على ظهر الجميل ، لتركب فيها النساء ؛ فعيلة من ظنن (كنع) : أى سار ، وأرتحل ، وسافر . وجميعها ظمان ، وظنن (بضم فسكون) . وكان الظمان جميع له .

يسرد جزئه والنهاية يوم افترق الظمان ، ويدعو لصاحبه بالآب يبصر ما كابهه وضلله فى هذا اليوم من تبريح الوحيد ، وسرقلة الفراق ، بأرتحال من أحبه ، وتعلق بين . أو هو دعاء له بالآب يقاس مثل ما قاساه . وفى الآيات الآتية تفصيل لهذا المعنى .

(٥) الحلم : الآلة ، والصبر ، وضبط النفس . وشفني (من باب رد) : هزلنى ، وأمستنى ، وأضننى . والمصدر وله (من باب تم) : أى اشتد حزله حتى ذهب عقله . أو تحسر من شدة الوحيد . والجوانح : الأفلاك القصيرة عما يلى الصدر . الواحدة جالحة . ويراد بالجوانح : ما تحويه ، وتنضم عليه : وهو القلب . وفى الشيء من يده يرميه رمية : ألقاه ، وقذفه ، وطرحه . والمراء أن الوله =

فَعَلَيْكَ مِنْ قَلْبِي السَّلَامُ ؛ فَإِنَّهُ تَبِعَ الْهَوَى ، فَمَضَى بِغَيْرِ عِيَانٍ (٧)
 هَيْهَاتَ يَرْجِعُ بَعْدَ مَا عِلَقْتَ بِهِ لَحَطَاتُ النَّسَادِ الْفَتَانِ (٨)
 وَعَلَى الرَّحَائِلِ نِسْوَةٌ عَرَبِيَّةٌ يَخْذَعْنَ لُبَّ الْحَاظِمِ الْيَقْظَانِ (٩)

= أصاب قلبه ، فسقط طريق الحب ، صريح الغرام .

يفصل ما أجمله في البيت السابق ؛ فقد كان يوم الظن مسيقاً إليه ، صبراً عليه ؛ إذ اشتد به الحزن ، وشغفه الوله ، وأضناه الفراق حتى فقد حلمه ، ولم يجد صبراً .

(٦) الننان (بكسر الميم) : سير البحار الذي تمسك به الدابة . ومضى بغير عيان : أى انطلق ، لا يتحسب ، ولا يتلصص ، ولا يصدقه شيء .

حيثما يمد ارتحالها تحية قلبية خالصة ، وقال : إن حبه لها سيطر على قلبه ؛ فانساق الهوى ، ومضى معه .

(٧) « هيات » : اسم فعل ماض : بمعنى يمد : فهي كلمة تبيد . وفاعل « يرجع » ضمير « القلب » في البيت السابق . وعلقت* (من باب فرح) : نشئت فيه ، واستمسكت* به . والمراد : استهوته ، وعبدته . والحطات : النظرات الساحرة الفاتنة . ومن كلامهم : « فتشبه أخطاؤها ولحظاتها » . الواحدة لحظة : اسم مرة من لحظه (من باب قطع) : أى نظر إليه بمؤخر عينه . والهاذن : الظلي : أى الغزال إذا شذن (من باب دخل) : أى ترصرع ، طوى ، واستنى عن أمه . وتشبه الحسان من النساء بالزفران في الرشاقة وحنن الثني ، وغفلة الحركة ، وجمال الجليد والعينين . والفتتان : صيغة مبالغة من فتنت المرأة الرجل (من باب شرب) : أى أعجبته ، واستهوته ، ودلتهته ، وسلبت* بالمشق فؤاده .

فتشبهها بالهادن ، وتفرزل بمجالها الفتان الخذاب ، واستبعد رجوع قلبه إليه بمد ما صادته بنظراتها الساحرة .

(٨) الرحال : جمع الرحالة (هوزن الرسالة) : وهى السرج ، أو الرجل (يبلغ لسكون فيها) ، وكل ما يوضع على ظهر الدابة ليركب عليه راكبها . ويخذه (من باب قطع) : أخذه ، وأظهر له خلاف ما يخفيه ، وأراد به المكروه من حيث لا يعلم . ويراد بالخدع هنا : الفتنة ، والأسالة ، والاستهواء . واللب : العقل ، أو القلب . والحاظم : الذى يتفن وأبده ، ويضبط أمره ، ويأخذ فيه بالفتنة . وقد حزم الرجل (من باب ظرف) ، فهو حازم .

عاد الشاعر في هذا البيت إل شبه الصورة التي عرضها في البيت الرابع : « يوم تلتقى الأشجان » ؛ فإن « هؤلاء الحسان الرميات اللاتي وآمن على الرحال ، أرقى المهادج - دلتهته ، وخبين بفؤاده . وفي الشعر الثاني أن فتحن وسرحن ، وباهر جمالهن أتبعن من لب* اليبب ، وحزم الحازم ، ويقظة اليقظان . يصرن ذا لب* حتى لا حراك به » . ومن « أصحف خلق الله إنسانا

أَخَوْنِي ، فَفَعِثْتُ شَيْطَانَ الْهَوَىٰ إِنَّ النِّسَاءَ حَبَائِلُ الشَّيْطَانِ (٩)
مَا كُنْتُ أَكْظَمُ قَبْلَ بَادِرَةِ النَّوَى أَنَّ الْأَسْوَدَ فَرَايِسَ الْفَزْلَانِ (١٠)
رَحَلُوا ! قَابَةُ عَبْرَةٍ مَسْفُوحَةٍ وَيَدٌ تَضُمُّ حَشَا مِنْ الْحَفَقَانِ (١١)

(٩) أهواء الإهواء : أضلته ، وأغراه . وقبحه (من بابى طرب وسلم) : إذا سار في أثره ، وبعث غلظه ، أو كلاه ، أو مضى معه ، وانقاد له . والشيطان : روح شرير ، مغو مغل . وكلّ عات ، متعبد ، مفسد من الجنّ أو الإنس ؛ سمى بذلك لبعده عن الحق والخير ، والحق والصالح . وشيطان الهوى : قوته إغوائية العالية . أو الهوى الشبيه بالشيطان في الإغواء والإضلال . وحبال : جمع حبال (يوزن رسالة) : وهي المسبحة . والسطر الثاني : لتدليل جاد بجري الخلق ، مؤكداً لمضى السطر الأول ؛ فالشيطان يفتن الرجال بالنساء ؛ وهن أشراكه وحباله .

في البيت السابق أشار إلى النسوة الترييات اللاتي رآهن على الرجال ، فالتفتع بهن ، وبأل إليهن . وهذا البيت تكرر هذا المعنى ؛ فالتفتع بهن ، وتبع شيطان الهوى .

(١٠) البادية : اسم فاعل من بدر إلى الشيء (من باب دخل) : أي جعل إليه ، وسارع . ولئذى : البعد ، والافتراق . وبادة النوى : الفرقة العاجلة السريعة . ويراد بالأسود : شجمان الرجال وأقويهم : جمع أسد . وفرايس : جمع فريسة : فصلة بمعنى مفعولة ، من فرس الأسد ونحوه فريسته (من باب ضرب) : أي صاعدها ، وقتلها . والفزلان : الظباء . ويراد بها : الحسان من النساء . ومعنى السطر الثاني : أن حسان النساء يصرن الشجمان من الرجال ويدلهم . وفيه فخر ضمنى بشجاعته ، وقوته ، وبرأه ، وشدة بأسه .

اشتد عليه ارتعاشه وبعدهن ، وبرح به اليسد ببعدهن ؛ فحرف أنه وقع أسير الحب ، صريع الغرام . والبيت الآتي يوضح هذا المعنى ويؤكد .

(١١) رحل (من باب منح) : سار ، مضى ، وذهب ، وانتقل ، وارتحل . ويلادح أن الشاعر استخدم هنا ضميراً جماعاً المذكور المقلاد . «رسلاً» . واستخدم في البيتين الثامن والتاسع نون النسوة «يخنعم» و«أخويني» . ولا ريب أنه إنما يتفرد بالنساء ، ويتحدث عنهن ؛ وهذا صريح في البيت التاسع ، وفهم من البيت العاشر «الفزلان» . ومن التأويلات المقبولة في مثل هذا الكلام : أن الجمع هنا يشمل المرتحلين من الرجال والنساء ، أي رحل الرجال ومنهم المظانن . و «آية» : مؤثث «أي» : وهي اسم استلهم يراد به التصبب والتصبب ، أو التهويل والمبالغة في تصوير كثرة البكاء ، وغزارة الدموع ، وجزع القلوب وخفقانها لهذا الرحيل . والمبرة (يوزن النظرة) : اللسمة . ومسقوسة : مبهمة : منسكة ، مصبوبة ، غزيرة : من مسحح الباكي التمع (من باب قطع) : أي أرسله ، وصبه . والحشا : ما اضططعت عليه الضلوع ، وما سواه الصدر . ويراد به هنا : القلب . وخفقان القلب : اضطرابه وسرعه : مصدر خفق (من بابى نصر وضرب)

وَلَقَدْ حَنَنْتُ لِبَارِقٍ شَخَصَتْ لَهُ . مِنَّا الْعُيُونُ بِأَبْرِقِ الْحَنَانِ (١٣)
يَسْتَنْ . فِي عُرْضِ الْغَمَامِ ، كَأَنَّهُ لَهَبٌ تَرَدَّدَ فِي سَمَاءِ دُخَانِ (١٤)
فَانْظُرْ ، لَعَلَّكَ تَسْتَبِينُ رِكَابَهُ طَوْعَ الرِّيحِ ، يُصِيبُ أَى مَكَانٍ ؟ (١٥)

= اشتدَّ وجده في إثر رحيلهن ، فغلبه البكاء ، وفاضت دموعه ، وغرق قلبه غرقاً شديداً ؛ فغمَّ فوقه يديه ، كأنه يخفى عليه ، ويحاول حمايته . ولقد يكون هذا التصوير لجماعة المؤمنين الجزئين في إثر رحيل الراحلات والراجلين ؛ ويلاحظ أن هذا المعنى (أى جزع الحب بعد ارتحال حبيبته) تكرر بعدة أساليب في أكثر الأبيات السابقة ؛ كما يلاحظ أن التفكير ، والتعبير ، والتصوُّر ، والتصوير ، والخيال ، والملاحظة تجري كلها على طريقة شعراء العرب في باديتهم ، وتنبع كلها من بيئتهم . وفي الأبيات الآتية وصف البرق ، وذكر الغمام ، والمطر .

(١٢) من إله حنيناً ؛ نزع ، وثاق ، واشتاق . والبارق هنا : البرق ؛ وهو الفؤاد يلمع في السماء حل إثر انفجار كهربى في السحاب . وشخصت العيون : انفتحت ، فلم تطرف (وبابه خضع) . وأبرق الحنان (يفتح الحياء وتشديد التين) : موضح .

يذكر حنينه ويقان نفسه إلى برق لمع في أبرق الحنان ؛ فاسترعى انتباهه ، وأثار اهتمامه ، وشخص بصره إليه في تأمل واشتياق . ولعل صلة هذا البيت بما سبقه من أبيات الغزل أن حبيبته أو حبيباته رسلن إلى أبرق الحنان .

(١٣) يستن : يضطرب : من استعان الفرس ؛ وهو حوله إقبالاً وإدباراً في نشاط وعفة وقوة . والعرش (يغم فسكون) : الوسط ، أو الجانب والناحية . وعرش الشيء : معظه . والغمام : السحاب . وحادته حمة (يوزن صحابة) .

يصف استعان البرق في عرض السحاب ، ويشبّهه بلهب يتردّد في سما من النخاع ؛ فالغمام يشبه الدخان ، والبرق لهب متردّد فيه .

(١٤) استبان الشيء : تبيّنه ، وراءه . وعوله . والركاب (بكسر الراء) : الملقى ، أو الإبل التي تركب ، أو التي يراد الحمل عليها . الواحدة راحلة . ولا واحد لها من لفظها . وهو طوع للرياح : أى متطاع لها .

يقول : إن السحاب طوع الرياح ؛ تسوقه وتزييه ؛ فانظر إليه لعلك تعرف المكان الذى يقصده ، فيمطر فيه . وفي القرآن الكريم « الله الذى يرسل الرياح ؛ فتثير سحاباً ، فيبسطه في السماء كيف يشاء ، ويغسله كسفاً ، فترى الودق يخرج من خلاله ، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون » الآية رقم ٤٨ من سورة الروم .

فَهُنَاكَ تَجْمَعُ الشُّعُوبُ، وَتَلْتَقِي
هَذَبُ الْخُلُورِ عَلَى عُصُونِ الْبَابِ^(١٥)
فَانْقَطَعَ عِندَآرِكَ، وَاعْتَنِمَ زَمَنَ الصَّبَا
قَبْلَ الْمَشِيبِ، فَكُلُّ شَيْءٍ قَانِي^(١٦)
وَقَالَ :

سَلْ حَمَامَ الْأَيْكِ عَنِّي إِنَّهُ أَذْرَى بِحَزْنِي^(١٧)

(١٥) هناك : إشارة إلى المكان الذي يصيبه المطر ، فيسقيه . والشعوب : الحمامات والقبائل .
والخُلُور : جمع خُدر (بكسر فسكون) : وهو كل ما وارك من بيت ونحوه . وستر يمدّ المرأة في ناحية
البيت . ويطلق الخُلُور على البيت إن كان فيه امرأة . ومنه الخُدْرَات من النساء : أي المحببات . والمهذب
من الشعوب : طرفه الذي لم ينسج . وأحدثه هدبة . وألجم أهداب . والبان : ضرب من الشجر ، سبّط
القوم ، ليس ، ورفقه كورق الصفصاف ، تشبّه به فنود الحسان من النساء في الطول والبن . وعصون البان :
كتابة من الحسان اللاتي يتميّنن بحمال القنود والقناعات ، وحسن الطول والتقطع .

استطرد الشاعر في ثلاثة الأبيات السابقة إلى وصف البرق ، والقمام ، والمطر . ثم عاد في هذا البيت إلى
الفرز ، والتحدث عن الحسان ، وما يزينهن من حسن القنود ، واحتفال القناعات ، وحمال الطول والتقطع ؛
فالطير في شبه الجزيرة العربية يصيب المكان ، فيمرح ، ويزدهر بالكلا والنبات ؛ فتهوى إليه جماعات
الناس ، وقبائل العرب ، وتضرب الخُلُور والحمام على الحسان الخُدْرَات .

(١٦) حذار الدرس ونحوه : السير الذي يكون على عذّه من اللجام . وقد يطلق على الرسن ، وهو
الحبل الذي تقاد به الدابة . ويطلق فلان حذاره : أي تشاطر ، وظهر استهتاره ، وقُلّ حيازه ، واتسع هواه ،
وانهمك في الشيء ، والهور ، كالدابة تنطلق بلا رسن . وأختم الشيء احتكاماً : انتهى عنه ، أو عذّه غنيمة :
وهي ما يفوز به المرء ، أو يناله بلا جهد . والصبا (بكسر الصاد) : الصغر والحداثة . أو الفترة والشباب .
والمشيبة (بوزن المعيب والمصير) : الشيب ، أو سنّه .

عظم الشاعر هذه القصيدة بالحسن على التهاز زين الصبا والشباب تلح المذار ، والانهماك في الهوى
قبل غرات الفرصة بإقبال المشيب ، وذهاب القوة . والتأجيل الذي في نهاية البيت يفسد الحس والترييب . وقد
أسلفنا أن الانجاء ، والتفكير ، والتهال ، والتصير في الأبيات كلها يتصل أوثق اتصال بهيئة العربي ،
وسبائه ، ومواقفه ، وفزله ، ولبوه ، وإقامته ، وأوجاله ، وأرضه ، وسماه ، وبميشته في باديته ؛
فالبارودي يمثل هذه القصيدة ينتقل بمقارنه إلى البيئة العربية البحتة ، ويعرضها عليه بمجولة لائمة ، ويريه
الكثير من ظواهرها وغاياتها .

(١٧) الأيك : جمع أَيْكة : وهي الشجر الكثير الملتصق . وحمام الأيك : الحمام الوحشي ،
يألف النياض ، والرياض ، والأشجار ، ويقف فوق أغصانها ، فتسمع صيحه ، أو هديره ، أو حثائه ،
أو نواحه .

نَحْنُ فِي الْحُبِّ سَوَاءٌ كُلَّنَا يَبْكِي لِفُصْنٍ (٢)
 غَيْرَ أَنَّ الْوَجْدَ مِنْهُ لَيْسَ مِثْلَ الْوَجْدِ مِنِّي (٣)
 أَنَا أَبْكِي مِنْ غَرَامِي وَهُوَ فِي الْفُصْنِ يُعْتَنِي (٤)

— يقول : إن الحمام يعرف وجد الشاعر وحزنه وسبب بكائه معرفة النظر نظيره . ولو سأله من لأجابه .

(٢) يقال : هما في هذا الأمر سواء ، وهم سواء : أي متساويان ، أو متساويون . والفصن : ما تشعب من ساق الشجرة : دقيقه وغلظه . ويبكي لفصن : أي يبكي فوق حصن ، فاللام : بمعنى وصل . يقول : إنه والحمام متساويان في الحب ، وفي البكاء الذي يكون من الحب الواجد النبلان . وقد اعتاد الشعراء من قديم الزمان أن يفتقروا الصلة بينهم وبين الحمام في الموم والأحزان ؛ فهم يسمون هدير الحمام شبيهاً بصوت الحزن ، ويتفيلون ، أو يزعمون — كما تزعم العرب — أن الهديل فرخ الحمام كان حل عهد لوح عليه السلام ، فصاده جارح من الطير ، أو مات ضحية وعطشاً ؛ فها من حمامة إلا وهي تحن إليه ، وتحنو عليه . وفي هذه المشاركة ، أو المشابهة الظاهرة يقول الشاعر العربي :

أفيلُ وقد ناحتْ بقرى حمامةً أبا جارثا ! لو تعلين بحال
 أبا جارثا ! ما أنصف الدهر بيننا تمالى أقاسمك الموم تمالى

وفي هذا البيت والذي قبله إشارة إلى بعض المشابه التي تربط الشاعر بالحمام ، وتعد الصلة بين المحبين والواجدين وهذا النوع من الطير . وفي أربعة الأبيات الآتية استنرك وبيان لفوارق ذات بال تميز أحدهما من الآخر ، بل تجعلهما حل طرف نفيس .

(٣) الوليد : الحب . والوجد أيضاً : الحزن (وملها من باب وجد) .

يقول : إن وجدى يخالف وجد الحمام وحياته . وفي البيتين الآتيين بيان وتفصيل لهذا التباين والتخالف والافتراق والتباين .

(٤) الغرام : المذاب الدائم . والحب الشديد المفضى ، وأن يتعلق المرء بالشيء تعلقاً لا يستطيع السلوك عنه ، أو التخلص منه .

يقول : إن بكاءه نتيجة لحبه وغرامه ، وما يضاقه من أوصاب المشق ، وإعراض الحبيب . أما الحمام فهو حل الأغصان يطرب ، أو يعتنى ، أو يترقش ، أو يدر ، أو يسبح . ولعله يقصد بهذا الاستنراك وهذه التفرقة — بعد أن قرر المشابهة والمماثلة في البيتين الأول والثاني — أن وجد الحمام وفناءه من الأمور الشكلى الظاهرة التي تجرى بالضرورة والطبيعة ، ولا تكاد تتصل بالوجدان أو الشعور . أما وجد الشاعر وبكائه فإنهما ينبعان من القلب ، ويصدران عن غرام حقيق صادق . وشعان بين الظواهر والحقائق .

وَهَوَ بِالنَّمْعِ بِنَجِيلٍ وَدُمُوعِي مِلْءٌ عَيْنِي^(٥)
لَسْتُ فِي الصَّبْوَةِ مِثْلِي فَأَنْصَرِفَ يَاطِيرُ عَنِّي^(٦)
وَقَالَ :

ذَكَرَ الصَّبَا ، فَبَكَى ، وَلَكَتَ أَوَانٍ مِنْ بَعْدِ مَا وَكَّى بِهِ الْمَلَوَانِ^(١)
هَيْهَاتَ يَرْجِعُ فَائِتٌ لَعِبَتْ بِهِ عَصْرُ أَوَائِلِ أُرْدِفَتْ بِشَوَانِي^(٢)
هَوْنٌ عَلَيْكَ ، فَكُلُّ شَيْءٍ ذَاهِبٌ وَالذَّهْرُ مَصْطَرٌّ عَزِيزٌ وَهَوَانِ^(٣)

(٥) من الغلووق الظاهرة التي تميز الشاعر من الحسام ، أو الإنسان من الطير : أن الحمام لا يكاد يجرد بدموع عينيه . أما دموع الواجد الصب المستهام فلأنها فياضة شهيرة غزيرة .
(٦) الصبوة : الحنين ، والشوق (والفعل من باب سما) . وانصرف عنه : غادره ، واجتنبه ، وتحول عنه ، وتركه .

شم الشاعر هذه المقطوعة بهذا البيت الذي نرى فيه المماثلة ، وقرر الخلاف بينه وبين الطير ، مؤكداً معنى ثلاثة الأبيات السابقة ، وفي الشطر الأخير طلب انصرافه عنه ؛ زيادة في تأكيد هذا المعنى .

(١) الصبا (بكسر الصاد) : الصغر والحداثة . و « لات » : حرف بمعنى « ليس » . والأوان : الحين ، والوقت ، والزمان . ومعنى « ولات أوان » : وليس الوقت وقت بكاءه . يريد أن البكاء على الصبا بعد فواته لا يجدي ، ولا يفيد . وولَّى به : ذهب به ، وأدبر ، ومضى . والمملوان : الليل والنهار .
والمعنى : أن الإنسان في شيخوخته يتذكر صباه وشبابه بعد ما أدبر ، وفي ، وذهب به الزمان ؛ فيأسى ويحتسر ويبكى ، ولكن البكاء لا يجدي ، ولا يفيد ، ولا يرد عليه ما فات . والبيت الآتي يرد هذا المعنى ويؤكد كنهه .

(٢) « هيات » : اسم فعل ماض : بمعنى بعد ؛ فهي كلمة تبجيد . ولعبت به العصر : أفنته وأدأته : من قولهم : لعبت الرياح بالمنزل : أي درسته ، وعنته ، وأزالتة ، وأذهبت أثره . والعصر (بضم العين والصاد) : جمع العصر (بفتح فسكون) : وهو الزمان ، أو اليوم . وأوائل : جمع أول . وأردفت : أنثمت (بالبناء السجول لهما) : يقال : أردفت الشيء بالشيء : إذا أنثمت لشيء ، وألحقه به . وردفه (كلفه) ونصره : تبمه ولفقه . والثواني : خلاف الأوائل : جمع ثانية . ومعنى الشطر الثاني : أنها أزمان كثيرة متتابعة متوالية .

يقول : إنه لا سبيل إلى عودة الصبا والشباب بعد أن توالى عليه أيام وأزمان هلمت بنيانه ، وتحت كيانه . وهو تأكيد لمعنى البيت الأول .

(٣) هون : أمر يرد به النصح والإرشاد : من هون الأمر عليه تهوناً : أي خففه ، وبهله . والمهوان : المذلّة والضمف . وضده المزة والقوة .

وَاحْذَرِ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا هِيَ أَقْبَلَتْ بِالْبِشْرِ ؛ فَهِيَ كَثِيرَةُ الْأَلْوَانِ^(١)
 وَدَعِ التَّعَلُّقَ بِالْمَحَالِ ؛ فَمَنْ يَعِشْ فِي غَيْظَةٍ يُرْمَى بِهِ الرَّجْوَانُ^(٢)
 لَا تَأْمُنَنَّ بِكُلِّ عَامٍ مُقْبِلٍ خَيْرًا ؛ فَكُلُّ الدَّهْرِ عَامٌ جِوَانٍ^(٣)
 وَاللَّهْرِ أَيَّامٌ تُبِيدُ صُرُوفَهَا وَتُشْبِهُدُ ؛ فَهِيَ هَوَادِمٌ وَبَوَارِي^(٤)

== في البيتين السابقين قال : من العيب أن يبكى المرء ويسر على فائت لن يعود أبداً . وفي هذا البيت حَسَنٌ على التعزّي والتبشّر ؛ فهو يقول لباكي المتحسّر - هَوْنُ الأمر على نفسك ؛ فكل شيء إلى ذهاب وفوات ، ولزمان يتقلب بالإنسان بين اليسر والعسر ، والفرّة والحوان .

(٤) حذره ، وحذرته (من باب طرب) : خافه ، واسترّز منه ، وتوقّاه . والبشر (مثلة الباء) : الاستبشار والفرح والسرور . والبشر (بكر فسكون) : البشاشة وطلاقة الوجه . وكثيرة الألوان : متلوّنة ، متقلّبة ، لا تدوم على حال .

يقول ناصحاً واعظاً : احذر الدنيا ، ولا تتخذهج بها إذا هي أقبلت عليك بما يسرك ؛ فإنها متلوّنة متقلّبة ، لا تبق لها مسرة ، ولا تدوم على حال . وفي القرآن الكريم : « فلا تفرّجكم الحياة الدنيا » ولا يفرّجكم بالله الفسور » الآية رقم ٣٣ من سورة لقمان .

(٥) دع : اترك . وهو أمر يرد به النصيح والإرشاد . والمحال (يضم الميم) : مالا يمكن بوجده . والتعلق بالمحال : الاستمسك بالباطل ، والطمع في غير الممكن ، ويراد به : الإسراف في حب الدنيا ، والاعتراض بزهرتها وزخرفها . والغبطة (بكر فسكون) : حسن الحال ، والمسرّة . والرجا : الناحية . ورجوا البئر : حافضاها . ويرى به الرجوان : أي يطرح في المهالك ، وينتهي أمره إلى الردى والنفاء .

نهى عن الإسراف في حب الدنيا ، والاعتراض بزهرتها ؛ فإن الغبطة في حياة المرء موقّعة زائلة ، والمهلك نهايته المحتوية التي لا يدّ منها ، ولا مناص منها .

(٦) أمله يأمله (من باب طلب) : رجاءه ، وتوقّبه . وجِوَان (بوزن صباب) : جمع جِوَن وجِوَنَة (يفتح فسكون فيهما) : بمعنى أسود ؛ أي فأعوام الدهر كلّها سوداء حالكة السواد ؛ يبكى بهذا عن كثرة رزايا الدهر وأفاته ، وقلة خيراته وسرّاته .

في البيت السابق نهى عن التعلق بالمحال ، والاعتراض بحياة الغبطة وحسن الحال ؛ فإنها زائلة صائرة إلى المهلك والحرمان . وفي هذا البيت نهى عن التعلق بالأمل ، وأرتقاب الخير من البالي والأيام ؛ فكلّ الدهر سواد ، وظلام ، ورزايا ، وأفاته .

(٧) أباده إبادة : أهلكه وأفاته . وصروف الأيام : فوائها وبلاياها ؛ جمع صرف (يفتح فسكون) . وأشاد البناء إشادة : رفّه وأعلاه . وهوامد : جمع هادمة ، أو هادم : اسم فاعل من الهدم . ويوان : جمع بانية ، أو بان : اسم فاعل من بناء يبنيه بِنَاءً (من باب وي) ، وبناء (بكر الباء) .

أَنْتَى يَمِيرُ الْمَرْءُ مِنْ شَرِّكَ الرَّدَى وَالْمَوْتُ مَقْدُورٌ عَلَى الْحَيَوَانِ^(٨)

وَقَالَ فِي الزُّهْدِ :

مَا أَطْيَبَ الْعَيْشَ لَوْلَا أَنَّهُ قَانِي تَبَلَّى النُّفُوسُ ، وَلَا يَبَلَى الْجَدِيدَانِ^(٩)

(٨) « أنتى » : أداة استفهام عن الجهة : أى من لى وجه وطريق . أو هى بمعنى « كيف » . والاستفهام بالممتنيز يراد به هنا : التنى : أى لا سبيل إلى الفرار ، ولا استطاع الحرب . والشرك (بفتح الحاء) : حباله الصلابة . والرعى : الموت والمهلك . وشرك الرعى : أى الرعى الشبيه بالشرك . والولوى أول الشطر الثاني : وأول الحال . والجملة الاسمية بعدها : جملة حالية . ومقدور : حتم ، مقضى ، لا بد منه : اسم مفعل من قدر الله الأمر على الإنسان ، أو قدره له (من باب ضرب ونصر) : أى جملة له ، وحكم به عليه . والحويون : ما فيه الحياة . أو كل ذى روح . يقول : إنه لا سبيل إلى توقى الموت ، أو الفرار منه ؛ فهو مقدور على الحيوان . وفى القرآن الكريم : « أَلَيْسَ تَكُونُوا يَدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بَرُوجٍ مُّشِيدَةٍ » الآية رقم ٧٨ من سورة النساء .

أحد الشاعر هذه الأبيات الثمانية حول النصح والإرشاد ، والوعظ والتبصير ، والزهد والتزهيد في الدنيا ، وذكر الموت ، والتذكير به . ويبدو أنها من سرديبياته ، ومن شعر الشيخوخة بعد أن طال به الننى ، وأضناه البعد والاغتراب . وفى البيتين الأول والثانى تحسّر على ذهاب الشباب . وفى أكثر الأبيات بعدها أن الدهر أو الدنيا متقلبة بالناس ؛ تسرهم حيناً ، وتسومهم آسناً ، وهى لا تفقأ تطلو وتجرم ، وتبى وتهدم ، وتشيد وتبدي . وجو القصيدة يشيع فيه الابتسامة ، وظلمة اليأس .

• الزهد في الدنيا : الإعراض عنها ، والاستهانة بها . وضده الرغبة فيها ، والحرص عليها . ويقال : زهد في الدنيا : إذا ترك حللاًها مخافة حسابها ، وترك حرامها مخافة عقابه . والزهد : التبعّد : أى الانفراد بالمعادة . والزاهد : الرأغب عن الدنيا حباً للآخرة (والفعل كنع ، ومع ، وكرم) . وقد نظم البارودى هذه القصيدة الزهدية وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره ، أى فى نحو سنة ١١٢٩١ (١٨٧٤م) وكان يومئذ كبيراً ليولوان وليّ العهد ، الأمير محمد توفيق بن الخديو إسماعيل .

(١) طالب اللهى : طيب . لذّ : حلا . والعيش : الحياة ، وما تقوم به كالتعلم والشراب . و « ما أطيب العيش » : أسلوب تسيّب . وفان : ذاهب ، يائد ، لا بقاء له . وقيل : تقى ، وتبيد . وتهلك . وكل مخلوق صائر إلى البلى والفتاء . ويراد بالنفس : أشخاص الناس . والجديدان : الليل والنهار ؛ لأنهما لا يلبيان أبداً ؛ فالجديدة (بكسر الجيم) : قفيض الليل (بوزن الرضا) . وبالصلة بين النفوس والجديدين فى الشطر الثانى : أن الزمن ، أو الليل والنهار يحلان للناس أسباب البلى والفتاء . والإنسان يموت إذا جاء أجله ، وانتهى زمن حياته .

قَدْ كُنْتُ فِي غَرَّةٍ، حَتَّى إِذَا انْقَشَعَتْ أَبْقَتْ تَبَارِيحَ لَا تَنْفَكُ تَغْشَانِي^(٣)
وَسَيِّبَةً كَلِيسَانَ الْفَجْرِ نَاطِقَةً بِمَا طَوَاهُ عَنِ الْإِفْشَاءِ كَيْفَمَا^(٤)
أَضْحَتْ قَدْ لِي لِعَيْنُ الْغَانِيَاتِ، وَقَدْ كَانَتْ حِيَالَهُ أَبْصَارٍ وَأَذْهَانِ^(٥)

والمنى : أن حياة الناس في الدنيا لا تمتد طيبة أو هنية ؛ لأنها فانية زائلة ، وإنما تكون الطيبة والالذّة ، والهنا ، والطمأنينة مع البقاء ، والخلود ، والاستقرار ، والديموم .

(٢) النثرة (بكسر اللين) : غفلة في اليقظة . وانقشعت : زالت ، وانكشفت : ذهبت . يقال : انقشع عنه العلم ونحوه ؛ إذا غشيه ، ثم زال عنه . وتباريح : شدائد ، وهوم ، وأرباب نفسية . ولا تنفك : لا تفتأ ، ولا تبرح ، ولا تزال ؛ فعادة النسي مع كل فعل من هذه الأفعال فيبدان الاستمرار . وتغشاني : تصيبني ، أو تحلّ بي . وشيبة الأمر (كلفيه) : غطاءه ، واحتواه . ولعله يقصد بالتباريح : ما يبق بعد انقشاع الغفلة من ذكريات لا تفتأ تحفه وتكوله . أو لعلها تباريح الشيبة ، وما أشار إليه في الآيات الآتية .

والمنى : أنه اغترّ بهمة بزهر الحياة الدنيا ، وغفل عن تقلبها وزوالها ، فلما أفاق ، وزايلته غفلته تركت وراءها تباريح لا تفتأ تصوره وتقلبه .

(٣) الشيبة : الشيب ، ويضاف الشعر بتقدم السن (وفعله من باب باع) و « شيبة » معطوفة على « تباريح » في البيت السابق . والفجر : انكشاف ظلمة الليل عن نور الصباح . ولسان الفجر : ما يبرق من ضوءه على شكل اللسان . ويراد بالعلق : الدلالة الواضحة الظاهرة . وطواه عنه : كتمه ، وأخفاه . والإفشاء : النشر ، والإذاعة ، والإظهار ؛ وهو ضد الكتمان ؛ مصدر كتم السرّ وفيره (من باب نصر) : أي ستره وأخفاه .

في البيتين السابقين قال : إنه اغترّ بظواهر الحياة ، وغفل عن حقائقها ، وسرعة زوالها ، ثم انكشفت عنه غفلته ، ولكنها أبقت له شدائد لا تنفك تغشاه . وفي هذا البيت يشكوشياً وخمسة ، فأظهر انشراح شبابه وقوته ، وذهاب فتاه ونضرتة ، وأذاع ما كان يحرس على كتمان من أمره .

(٤) أضحت : صارت . واسمها : خمير الشيبة في البيت السابق . وقلى : خبرها . واللقى : جميع اللقاة ؛ وهي ما يقع في اللين فيميجها ويؤخذها من تراب ونحوه . والغانيات : جمع غانية ؛ وهي المرأة الحسنة التي غنيت بحسبها الطبيعي عن الزينة ، والتصنعية ، والأعمال المصنوع . والحيالة (بوزن الرسالة) : المصينة . والأبصار : جمع بصر (بوزن ميب وأسباب) ؛ وهو العين ، أو قوة الرؤية والأبصار ، أو قوة الوحي والإدراك . والأذهان : جمع الذهن (بكسر فسكون) ؛ وهو الفهم ، والمقل ، والقلقة ، والحفظ ، والذكاء .

ولعل المنى : أن شيته كانت في أول أمرها من ظواهر رجليته ، وأمارات فتوّه ؛ ولهذا كانت تحتة وشركاً لعين الغانيات وقلوبهن ، فلما زادت واتسعت انقلب الأمر ؛ فأصبحت قلى ودمامة يتأذى ببرؤيتها ، ويغتر منها . وفي البيت معنى الضجر والتبرّم بالخاسر ، والأسى والتحصّر على الماضي .

كَأَنَّنِي لَمْ أَقْدُ شَعْوَاهُ جَافِلَةً وَلَمْ آيْتْ بَيْنَ دَارَاتِ وَتُدْمَانِ ٥
وَلَمْ أَقْمُ فِي مَقَامَاتِ وَأَنْدِيَةِ شَتَّى الْهُوَى ، غَيْرِ رَعِيدٍ ، وَلَا وَائِي ٦
فَالْيَوْمَ أَصْبَحْتُ لَا سَيْفِي بِمُنْصَلِتٍ عَلَى الْعَدُوِّ ، وَلَا قَوْيِي بِجِرْنَانِ ٧

(٥) قاد الجيش يقوده قيادة (بوزن عيادة) : تقدمه ، ورأسه ، ووجهه ، ودبر أمره . ومخارة
شموه : متفرقة ، فاشية ، متشعبة ، ممتدة ، واسعة ، عظيمة . وجافلة (بالجيم) : جارقة ، كاسحة ،
طاردة ، سرية : من قلبم : ربيع جافلة : أى سرية الميؤوب . أو هى حافلة (بالخاء المهملة) : بمعنى
محتشدة ، مجتمعة ، شديدة ، مبتلئة . والدارات : جميع الدائرة : وهى أخص من الدار ، وتطلق على المنزل .
ودارة القمر : حالته . وهى الدائرة التى تحيط به . ويراد بالدارات هنا : مجالس الأئس باللهو والشراب .
وقد يفهم من الدارات أن هذه المجالس كانت تجمع من أهل الهوى رجالاً ونساء يجلس بالشارع ، كالخالة
حبل القمر . وتدمان (بضم فسكون) : جميع نديم (بوزن قضيب وقضبان) : وهو من يتأملك : أى
يسارك ويجالسك على الشراب . وقد تكون المنادمة مقولوبة من المدامنة ؛ لأن النديم يمشى شرب الخمر
وفيهما مع نديمه . أوهى « تدمان » (بوزن سكران) : بمعنى للتدأى (بوزن السكارى) ؛ فهو يأتى بمعنى
الطمع ، ويأتى بمعنى الملقود : أى بمعنى التديم .

ولمضى : أن حاضر شبهه أدخل ماضى جذه . وفهو : كأنه لم يتبرس بقيادة الجيش ، وكاتب الحروب ،
وكانه لم يستمتع باللهو والشراب ، وبجالة النماء فى ليالى الأنة وليلع والذلات . وفى البيت أيضاً معنى
الضجر من الحاضر العابس القائم ، والأسى على الماضى المشرق البهيج . الجاد ، اللاهى .

(٦) المقامات : جميع المقامة : وهى المجلس ، والجماعة من الناس ، والخطبة تلقى فى مجتمع الناس .
والأندية : جميع الندادى : وهو مجلس القوم ما داموا مجتمعين فيه . وشئى : جمع شئت : أى متفرق ،
غير مجتمع . والهوى : ميلان النفس إلى ما تستلذه وتستطيعه وتشتهيه . والهوى أيضاً : الشئ المهورى المشتهى
للمستطاب . والجمع أهواء . وشئى الهوى : أى أهواؤه كثيرة ، وبعده متنوعة . والرعيد (بكسر الراء) :
الجهان ، يرتعد ويضطرب لبعده وشوره فيما يتطلب الجرأة والإقدام . ووان : ضعيف منكسر : اسم فاعل
من وطى (كوى) فى الأمر : أى فتر ، وأنكسر ، وضعف ، وكل . وأهيا .

فى البيت السابق أشار إلى ما كان له قبل شئيه وسباته الحاضرة من جد وصرامة ، وبهارة فى قيادة
الجيش ، وبإسرة الحروب ، وشئى الفارات . وما كان له من لحو وبجاعة وخلعة فى ليالى الأئس والهوى
والشراب . وهذا البيت شبه تكرر لهذا المعنى ؛ فهو متنوع الأهواء ، فانه الشأن فى الأندية والمجتمعات . وهو
فى كل أحواله شجاع قوى ، جبرى مقدم .

(٧) منصلت : صقيل ، ماض ، قاطع (وفى الأصل منصلت ، وهو من أخطأ الناسخ) . وللقوس :
آلة ، على هيئة هلال ، أو نصف دائرة ، ترى بها السهام (تذكر وتكوث) . وورنان (بكسر فسكون) :
صيفة مبالغة من رفث القوس ونحوها (كخفتت) : أى صوتت . ورفينها : صوتها .

لَا أَذْكُرُ اللَّهَ إِلَّا أَنْ تُذَكِّرَنِي وَرَفَاءَ تَدْعُو هَدِيلاً بَيْنَ أَغْصَانِ^(٨)
 إِنَّ الثَّالِثِينَ وَالْخَمْسَ الَّتِي عَرَضْتُ نَنْتَ قَوَايَ، وَقَلْتُ غَرَبَ أَشْجَانِي^(٩)
 وَخَلَقْتَنِي عَلَى مَا كَانَ مِنْ طَرَبٍ بَادِي الْأَسَافَةِ فِي قَوْمِي وَجِيرَانِي^(١٠)

— يذكر في تحسّر وتفجع عجزه ، أو انصرافه عن استخدام أسلحة الحرب والقتال بما أن وسطه الشيب ، وقد أسلفنا أن البارودي نظم هذه القصيدة وهو في الخامسة والثلاثين ، أي في نحو سنة ١٢٩١هـ (١٨٧٤م) وكان يومئذ كبيراً ليأوران ولي العهد الأمير محمد توفيق بن الخديو إسماعيل ، يحمي حياة الدولة والرفاهة ، والهدوء والأبهة بما حرب «كريد» سنة ١٢٨٢هـ (١٨٦٥م) وقيل الحرب الروسية التركية سنة ١٢٩٤هـ (١٨٧٧م) ؛ فهي من زهدياته المصنوعة التي لا تصف حقيقة أمره ، ولا تصور واقع الحال . وإنما نظمها محاكاة لشعراء الزهد ، وإيتاء بشاعريته الباردة القويّة ، ولو لمّا باستيعاب النظم في شيء فنون الشعر ، وجميع أغراضه . ومع هذا كله فإن معنى الزهد فيها قليل .

(٨) اللهو : ما استهلك ، وأولت به من هوى وطرب وشغف . ويمبر به عن أنواع المتع ، والذلات ، والشبهات . ومن شأن اللهو أن يشغل اللاهي عما حسّه ويعنيه (وفعله من باب عدا) . وورقاء : حمانة ربادية اللون : صفة من الورقة (بوزن السمرة) : وهي لون بين البياض والسواد ، كلون الرباد . ودعاه يدعو : صالح به ، وناداه . ودعا الميت : نديه ، وبكاه . والمديل (فيما تزعم العرب) : فرخ ، أو أب الحمام ، كان على عهد نوح عليه السلام ، فأت عطفاً ، أو ضيعة ، أو صاده جارح من جوارح الطير ، فما من حمامة إلا وهي تحنّ إليه ، وتبكي عليه .

والمعنى : أنه ألف حياة الزهد ، واحتقار الدنيا ، والإعراض عنها ، ونسي حياة اللهو والهياة ؛ فهو لا يتذكرها إلا إذا سمع نوح الحمام على المديل بين الأغصان . وفي هذا معنى الخنين والتلهّف على حياة الخلاعة والمهين .

(٩) عرض الشيء (من باب ضرب) : ظهر ، وأشرّف ، أو بدا ، ولم يدم . وعرض (من باب ظرف) : تباعدت حاشيته ، واتسع عرشه . والمراد أن هذه السنين مرّت به ، وطالت عليه . وثنت قواه (من باب رمي) نهكتها ، وذهبت بها . والأصل : نفي الشيء : إذا عطفه ، وردّ بعضه على بعض . يقال : نفي النعم ، وفي الوسادة . وظلّ السيف وشمو (من باب رد) : قلعه ، وكسره في حده . وفرب كل شيء حده القاطع . والأشجان : جميع شجر (بوزن سبب وأسباب) : وهو الحاجة الشاغلة ، وهوى النفس . وقُلْتُ غَرَبَ أَشْجَانِي : أي حُلِمْتُ القويّ القويّ من أهوائه وميوله ، وصرفته عن رفائيه وساجاته الشاغلة . يقول : إن الأحوال التي اتسلخت من عمره (وعدها خمسة وثلاثين عاماً) قد نهكت قواه ، وقُلْتُ حِدَّةَ أهوائه ، وسَلَمْتُ على الزهد ، واحتقار الدنيا . وما زلنا نرى أن الزهد من مثل البارودي في مثل هذه القصيدة وفي مثل هذه السن — زهد مصنوع ، لا يمبر عن حقيقة الحال ، ولا يصور الواقع المعروف من تاريخ شبابه ، أو أوائله كهولته ؛ ومع هذا فالآيات التي تمّ على الزهد فيها قليلة .

(١٠) خلّفت الشيء تخليفاً : تركه وراءه . وفاعل «خلّفتي» : ضمير الخمس والثلاثين في البيت —

وَكَانَ يَحْزَنُنِي شَيْئِي، فَصِرْتُ أَرَى أَنَّ الَّذِي بَعْدَهُ أَوْلَى بِإِحْزَانِي^(١١)
وَهُوَ الْأَمْرَ عِنْدِي أَنَّ كُلَّ قَتَى وَإِنْ تَمَلَّأَ مِنْ مَاءِ الصَّبَا فَاثِي^(١٢)
يَا نَفْسُ لَا تَذْهَبِي بِأَسَا بِمَا كَسَبْتَ بَدَاكَ؛ قَالَهُ ذُو مِنْ وَغُفْرَانِ^(١٣)

السابق . والطرب هنا : هزة الفرح والمرح ، وبغفة التلعة والسرور . وبدا : بين ظاهر (والفعل من باب سما) . والأسافة : الأسف : وهو أشد الحزن : اسم من أسف (من باب صب) . و « حل ما كان من طرب » متعلقه والأسافة : أي غلبت أسفاً ، بادي الحزن وقوى ويجري على ما كان لمن حياة الطرب ، والنقطة ، ورواه البال . والجيران (بكسر الجيم) : جمع جار .

ولمضى : أنه كان يحيا حياة النقلة والسرور ، والمرح ورواه البال ، فلما بلغ خمسا وثلاثين سنة انقلب حاله ، واشتد حزنه على ذلك لما مضى السعيد ، ولم يستطع كتمان أسفه ، فبدأ حزنه ونعمه لقوه ويجريانه . (١١) حزنه الأمر (كقتله) ، وأحزنه إحزاناً . وفي القرآن الكريم : « قَالَ إِنِّي لِيَحْزَنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ » الآية رقم ١٣ من سورة يوسف . ويحزني في الآية مضارع حزنه . وأرى : أعتقد : مضارع رأى : أي نظر بالعين ، أو بالقل ، والثاني هو المراد هنا . وأولى : أحق ، وأجدر ، وأقرب ، ويريد بما بعد الشيب : الموت والقضاء ، والشيب فلزير الموت ، والمؤذن بالهلاك . والأحزان في آخر البيت (يفتح الهمزة) : جمع حزن . أو هو (بكسر الهمزة) : مصدر أحزنه .

(١٢) هوّن الأمر : خففه ، وقّله ، وبسره . ويراد بالفتى : الإنسان مطلقاً . وإن « هنا ليست شرطية تتطلب شرطاً وجزاء . وإنما المعنى : أن القضاء مصير كل إنسان ولو تملاً بصباه وشبابه . وتملاً من الشيء : اعتل . والصبا (بكسر الصاد) : الصغر والحداثة .

في البيت السابق قال : إن شيه كان يحزنه ، فلما تدبّر الأمر عرف أن الموت أجدر بإحزانه . وفي هذا البيت تمزية لنفسه ، وتخفيف ، أو علاج للجزع الذي أصابه بإرتقاب الموت ، فإن الموت لا يصدّه شيء ، وهو حتم مقضى على كل إنسان ، ولو كان متمكناً من القوة ، والفتوة ، والعصا ، والشباب . أو ولو طال حياته ، وأمد عمره ، وطال استمتاعه بالصبا والشباب .

(١٣) لا تلهي : لا تلهي ؛ فالذهاب هنا : بمعنى الموت والهلاك . وبته قول الله تبارك وتعالى : « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ » الآية رقم ٨ من سورة فاطر . ويأساً : أي من أجل اليأس ، وبسببه : وهو فقدان الرجاء ، وانقطاع الأمل . وكسب الإثم (من باب ضرب) : ارتكبه ، واقتربه ، وتعمّله . وفي القرآن الكريم : « ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ » الآية رقم ٤١ من سورة الروم . والبن : الإتمام : مصدر من الله على عبده (من باب رد) : أي أنتم عليه نعمة طيبة عظيمة . والنفرا (بوزن السمرا) : مصدر غفر الله للمذنب ذنبه (من باب ضرب) : أي غفا عنه ، وبسره ، وصانه من أن يحسه المذنب .

في البيتين السابقين اجتناس الشاعر بالشيب ، وأحزنه ما بعده ، ثم عزى نفسه ، ثم هوّن الأمر عليها بأن الموت نهاية كل شيء . وفي هذا البيت والذي بعده ابتشاش وقدم على ما كسبه يذاه من الذنوب

يَنْفُو عَنِ الذَّنْبِ ، حَتَّى يَسْتَوِيَ كَرَمًا لَدَيْهِ قُو الْعَمَلِ الْمَبْرُورِ وَالْحَيَاةِ ^(١٤)
 هُوَ الَّذِي جَعَلَ الْأَفْلاكَ دَائِرَةً وَصَوَّرَ الْخَلْقَ مِنْ إِنْسٍ ، وَمِنْ جَانٍ ^(١٥)
 وَقَدَّرَ الشَّمْسُ تَجَرِّيَ فِي مَنَازِلِهَا وَالنَّجْمَ وَالْقَمَرَ السَّارِيَ بِحُسْبَانٍ ^(١٦)

= والخطبات ، وعوض من العقاب الإلهي المادل ، وطبع في محفظة الله وإنعامه ، وطراح لما يساوره من الأسى واليأس .

(١٤) استوى الأكرام : تساويا ، وتماثلا وتماذلا . والبرّ (بكسر الباء) : التوسع في طاعة الله تعالى ، وفعل الخير . ومهل مبرور : أي صالح مقبول . والجاني : المقلب الآثم : اسم فاعل من جنى (كرمه) جناتية (يكون رواية) : أي اجترم ، وأثم ، وأذنب .

وهذا البيت تأكيد وتضمين لمعنى من الله وفقرانه في البيت السابق ؛ فانه تبارك وتعالى عفو غفور ، رحيم كريم ، ينفّر للجاني المذنب ذنبه وخطيئته حتى يسارى عنه ذا العمل الصالح المبرور .

وفي الآيات الآتية إلى نهاية القصيدة تنبيه على ظواهر قدرة الله عزّ وجلّ ، ورحمته ، ودلائل وجوده ووجدها ؛ وتحميد له وتمجيد ، وتسبيح وتثنية ، وتوبة واستغفار ، وثناء ودعاء . . . وهذه المعاني أو الأفكار غالبية في هذه القصيدة . ويلاحظ أن عنوانها « الزهد » بمعنى الإعراض عن الدنيا وزينتها ، وهو فيها قليل غير صريح . وقد أسلفنا أن الشاعر نظمها وهو في الخامسة والثلاثين ، وكان يبيت قبلها على الدنيا ، حريصاً عليها ، متعلماً بها ، صيباً .

(١٥) الأفلاك : جمع فلك (وزن سبب وأسباب) : وهو انقضاء يدور فيه النجم . ويراد بالأفلاك هنا : الكواكب السيارة التي تتحرك وتدور في السماء ، كالشمس ، والقمر ، وصادرة ، والزهرة (يوزن الثلاثة) . والإنس (بكسر فسكون) : البشر : أي بنو آدم . والجنان (بتشديد النون) : والخيف هنا لضرورة وزن الشعر : الجنّ (بكسر الجيم وتشديد النون) . وهم مستترون من حواس البشر . وفي القرآن الكريم : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار » وخلق الجنّ من نار ١٤ ، ١٥ من سورة الرحمن . و« من » في الشطر الثاني : بيانية . وكررت لتأكيد . والإنس والجنان : بيان للخلق .

والنهي : أن الله تبارك وتعالى هو الخالق الباري للمصور لجميع الكائنات والخلوقات ، محسوسات ، وغير محسوسات ، يدبج السموات والأرض ، خلق الإنس والجن ، والمادة والروح . ومن دلائل قدرته أن ترى النجوم مملقة في السماء ، والكواكب دائرة سابعة في أفلاكها . والبيت الآتي شرح وتفصيل وتكمل لشطر الآتي من هذا البيت .

(١٦) قدّر الله الشيء تقديراً : أعطاه القدرة . أو أحكم خلقه ، وأتقنه . أو جعله على مقدار مخصوص ، ووجه مخصوص ، وأجره على مقتضى حكمته عزّ وجلّ ، وأعطاه ما فيه مصلحته ، وهده لما فيه خلاصه . والسموات وما فيها بما أبدعه الله تعالى بنظام تام ، لا يتغيره تغير ، أو تبديل ، أو زيادة ، أو نقصان إلى أن يشاء الله تبديله ، أو إفناؤه . ومنازل الشمس : دبر وجهها المخصصة بها ، المتنقلة فيها . ويراد بالنجيم : الكواكب السيارة السابعة في أفلاكها « كل شيء فلك يسبحون » . والساري : اسم فاعل من سار

وَأَرْسَلَ الْغَيْثَ أَرْسَالًا بَرَحْمَتِهِ وَأَنْتَبَتِ الْأَرْضُ مِنْ حُبٍّ وَرِيحَانٍ (١٧)

سُبْحَانَهُ، جَلَّ عَنْ وَصْفٍ يُحِيطُ بِهِ وَكَيْفَ يُدْرِكُ وَصْفَ الدَّائِمِ الْفَاقِي؟ (١٨)

الحائري (بوذا الهوى) : وهو السير ليلاً . ويراد به هنا : السير مطلقاً . والحسان (بضم الحاء وكسرها) : الحساب : مصدر حاسبه (من بابي نصر وكتب) : أي عدّه وأحصاه . وفي التنزيل العزيز : « الشمس والقمر بحسبان » الآية رقم ٥ من سورة الرحمن .

فصل ما أجمله في الشطر الأول من البيت السابق ، ومثّل له في فالشمس ، والقمر ، والكواكب السيارة تجري في منازلها بحساب معلوم ، وتقدير سوى ، اتسقت به أمور الكائنات ، وعلما به الفصول ، والشهور ، والسنين ، والحساب ...

في هذا البيت ، والبيت السابق ، والآيات الآتية تمداد لبعض نعم الله تبارك وتعالى ، وتنبه على أدلة وجوده ، وحدانيته ، وقدرته ، وشواهد حكمته ، وعظمته ، وربوبيته .

(١٧) الغيث : المطر الخاص بالخير ، الكثير المنافع . وأرسالا (بفتح الهزة) : دفعات : جمع رسل (بوذا سبب) : من قولهم : وجهت إليه رسلأرسالا متتابعة رسلا بعد رسل : أي جماعة بعد جماعة . وجاء القوم أرسالا : أي جماعات بعضهم في إثر بعض . أو هي إرسالا (بكسر الهزة) : مقبول مطلق ، مؤكد لفعله . والمراد بالأرض هنا : النبات . وأنتبت الله النبات : أخرجه من الأرض . وأنتبت الأرض : أخرجت النبات . ولو قال : « وأنتبت الثب » لاستغنى عن المجاز . وفي القرآن الكريم : « وقرى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت » ، وأنتبت من كل زوج بهيج « الآية رقم ٥ من سورة الحج » . والحب : ما يكون في السبيل والأكام ، كالقمح والشعير . والريحان : كل نبات طيب الرائحة . وفي القرآن الكريم : « وهو الذي أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضرا ، نخرج منه حبا متراكبا » الآية رقم ٩٩ من سورة الأنعام . وفي التنزيل العزيز : « والأرض وضعها للأنام . فيها فاكهة ، والنخل ذات الأكمام . والحب ذو العصف ، والريحان » الآيات ١٥ - ١٢ من سورة الرحمن .

(١٨) سبحانه الله : كلمة أو تعبير : معناه تنزيهه الله وتقديسه ، وتحميده ، وتعظيمه ، فذات الله تعالى وصفاته ، وأفعاله كلها مبرأة من النقص والسوء ، وكلها في أعلى مراتب الكمال والجلال . و « سبحانه » : مصدر منصوب على أنه مفعول مطلق ، أي أسبح الله تسميحا . وجبل : عظم قدره ، وعلا شأنه . والله تعالى يعلم أن أن يحيط به وصف ، ومن أن يدرك بالحواس : « لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » . والاستفهام في أول الشطر الثاني : معناه انني ، وهو مع انني يفيد تعظيم الله ذي الجلال والإكرام . والدائم : الباقي . هو الله عز وجل . والبقاء : ضد الفناء . والهاك : الفاني : هو الإنسان ، وسائر المخلوقات « لا إله إلا هو ، كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم ، وإليه ترجعون » الآية رقم ٨٨ من سورة القصص .

في البيت السابق إشارة إلى المطر والنبات ، وهما من أعظم نعم الرحمن على الإنسان . والتفكير فيما يهدي إلى الإيمان بالله التقدير اللدنيان . وفي هذا البيت تسييح وإجلال لله من أن تحيط به الأوصاف ، أو تدركه الحواس .

لَقَدْ تَفَرَّدَ فِي لَاهُوتِ قُدْرَتِهِ فَمَا لَهُ أَبَدًا فِي مُلْكِهِ ثَانِي^(١٩)
وَأِنَّمَا نَحْنُ نُظَرِيهِ كَمَا سَبَقَتْ بِهِ الْإِرَادَةُ مِنْ وَصْفٍ وَتَبَيَّنَ^(٢٠)
كُلُّ يَقُولٍ عَلَى مِقْدَارِ فِطْنَتِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْقَاصِي وَبِالدَّائِي^(٢١)

(١٩) تَفَرَّدَ اللهُ : انفراد ، وتوحد برؤيته ، وجلاله ، وعظمته . و « لاهوت » : أصله « لاه » : بمعنى « إله » . ثم زيدت فيه الواو والتاء للمبالغة ، كما زيدتا في « جبروت » و « ملكوت » ولاهوت قدرته : أي قدرته الإلهية . وأبدأ : ظرف زمان للمستقبل . يستعمل مع الإثبات والنفي ، ويدل على الاستمرار ، وهو هنا يؤكد نفي الشريك عن الله تعالى ، ويجعله نفياً مستمراً على وجه التأيد . والشرط الثاني تكرار وتأكيدها لمنى الشرط الأول .
والبيت في تقرير وحدانية الله تبارك وتعالى ، والإقرار بكمال قدرته .
(٢٠) ونظريه إطراره : نحمده ، ونحسن الثناء عليه . ويراد بالإرادة : إرادة الله تبارك وتعالى .
والتبيان (بكسر التاء) : الوصف والتبيان .

والمنى : أن ما تجرى به استنتاجنا من وصف ويان ، وإطراره وحسن ثناء على الله تبارك وتعالى ينبغي ألا يتجاوز ما وضعه الله تعالى لعباده ، وأراده منهم ، وجاء في كنية المقدسة ، وعلى السنة رسله وأنبيائه ؛ إذ لو تجاوزنا هذه الدائرة لم نأمن الانحراف والضلال ، والزيغ والإلحاد . وصلة هذا البيت بالبيت الثامن عشر واضحة وثيقة ؛ فكلاهما يحلّ الله تبارك وتعالى من أن يحيط به الوصف والإطرار ، ويحصرهما في دائرة الإرادة الإلهية ، والتعليقات الدينية ، والأديان السماوية ، ويقرر عجز الإنسان عن الانفراد بشيء من هذا ، أو الانطلاق فيه . ولو جاء هذا البيتان متواليين لكان أليق وأوضح .

(٢١) القلعة : العلم ، والفهم ، والمعرفة ، والإدراك (والفعل كفرج ، ونصر ، وكرم) .
والقاسى : البعيد . والدائى : القريب . ويراد بالدائى والقاسى : القريب والبعيد ، والحق والباطل من أقوال الناس في ذات الله ، وصفاته ، وأفعاله .

والمنى : أن ما يقوله الناس من الله تعالى ، وما يصفونه به يأتى على قدر أفهامهم ، ودرجات إدراكهم ، والله يعلم القريب والبعيد ، والحق والباطل من هذه الأقوال والصفات . وفي البيت إشارة إلى أن اختلاف درجات الفهم والإدراك ينتج اختلاف أقوال الناس عن الله تعالى ، وأن المعصية والنجاة في التزام الدين ، وما جاء من الله تعالى في كتيبه ، وعلى السنة رسله . وفي القرآن الكريم : « يأهل الكتاب ، لاتقلوا في دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق » الآية رقم ١٧١ من سورة النساء . وفيه أيضاً : « ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، فإنه لكم عدو مبين » . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » ١٦٨ - ١٦٩ سورة البقرة .

تَبَارَكَ اللَّهُ عَمَّا قِيلَ ، وَابْتَدَعَتْ فِي ذَاتِهِ مِنْ أَصَالِيلٍ وَيَهْتَانٍ (٢٢)
 قَدْ لَفَقُوهَا أَسَاطِيرًا مُحْبَرَةً بِحِكْمَةٍ ذَاتِ أَشْكَالٍ وَأَلْوَانٍ (٢٣)
 كَانَهُمْ قَدْ أَصَابُوا طُرْفَةً عَجَبًا أَوْ جَاعَهُمْ نَبَأٌ صِدْقٌ يَبْرُهُانِ (٢٤)
 وَلَوْ تَكْشَفَ هَذَا الْأَمْرُ لَا رَتَدَعَتْ مَعَاشِرٌ خَلَطُوا كُفْرًا بِإِيمَانٍ (٢٥)

(٢٢) تبارك الله : تقديس ، وتزعم ، وتعالى . وابتدع الشيء ابتداءً : أنشأه على غير مثال سابق ، بلا احتذاء ، واقتداء . ويراد بالمبتدع في ذات الله : ما تصوّره الملاحدة والمشركون ، وقالوه في ذات الله تبارك وتعالى من أكاذيب ومفتريات . وأصالي : ممنوع من الصرف ، أي التنوين . وإيماء نوت هنا لضرورة وزن الشعر : جمع أصْلولة (بوزن أكلوبة وأكاذيب) : وهي الضلال ، والباطل ، والكذب . واليهتان (بوزن الكُفْران) : الكذب يهت سامه : أي يدهشه ويمجّره لفظاً صاعته . والأصالييل واليهتان : بيان لما ابتدعه الملاحدة والمشركون في ذات الله ، ومخرجوا به على الحق والرشاد ، وانحرفوا عن الهدى والإيمان .

(٢٣) لَفَقُوهَا : أي لَفَقُوا الْأَصَالِيلَ وَالْأَكَاذِيبَ الَّتِي ابْتَدَعَهَا فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى . وتلفيق الحديث : تزيينه ، وزخرفته ، وتوجيهه بالباطل . وأساطير ممنوع من الصرف ، أي التنوين ، وإيماء نوت هنا لضرورة وزن الشعر : وهي الأباطيل ، والأحاديث العجيبة التي لا أصل لها ، ولا دليل عليها . الواحدة أسطورة (بوزن أرجوحة وأراجيح) . ومُحْبَرَةٌ : مزينة ، منسقة (يصفى اسم المفعول في هذه الكلمات الثلاث) . ويراد بالخكمة هنا : السفطة ، أو المعرفة الموهومة الخاطئة ، أو الفلسفة المنحرفة عن الحق والصواب . وذات أشكال وألوان : إشارة إلى الاختلاف في صورها وميلاتها ، وبعدها عن الحق والرشاد . وهو تأكيد لمعنى الشطر الأول .

(٢٤) أصاب الشيء إصابة : لحقه ، وأدركه ، وناله . والطرفة (بوزن الفرقة) : كل شيء مستحدث عجيب . وجمها طرف (بوزن حرف) . وصيب : عجيبة . يقال : هذا شيء عَجِيبٌ ، وهذه قصة عَجِيبٌ : أي تثير العَجِيبَ ، وتُدْعِي إليه . وهو روعة تأخذ للإنسان عند استعظام الشيء . ويبدأ صدق : خبر صادق . والبرهان : الدليل ، والحجة ، البينة : القاصلة .

في البيتين السابقين : أن الملاحدة ينتدعون الأصالييل ، ويُلَفِّقُونُ الْأَسَاطِيرَ حَوْلَ ذَاتِ اللَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالَى . ويقولون هل الله ما لا يعلمون . وفي هذا البيت تمكيت ظم ، وصغرية منهم ، وتنبه على جهلهم ، وإيمانهم في الغواية والضلال : يظنون أنهم جاءوا بالطرف المستحدثة العجيبة ، وأن أخبارهم صادقة مؤيدة بالأدلة والبراهين . وهم في ظلمهم زاهون غافلون .

(٢٥) تَكْشَفُ الشيء : انكشف ، واقتبح ، وظهر . وَالْأَمْرُ : الشأن ، والحال ، والشئ ، والقصة . ويراد به هنا : ما أشار إليه الشاعر في ثلاثة الأبيات السابقة من الأساطير والأصالييل . وارتدع : كف ، وامتنع ، وانزجر . مطروح رده عن كذا : (عن طلبه قطع) : أي كفه ، ونهاه ، —

يَا رَبُّ ؛ إِنَّكَ تُوْ مِنْ وَمَغْفِرَةٍ فَاسْتَرْ بِحَقِّكَ زَلَّاتِي وَعِصْيَانِي (٣٧)
وَلَا تَكِلْنِي إِلَى مَا كَانَ مِنْ عَمَلِي فَإِنَّهُ سَبَبٌ يُفْضِي لِحَرَمَاتِي (٣٨)
وَقَالَ :

أَتْرَكَ الدُّنْيَا ؛ فَلَسْتُ تَرَى صَالِحِيًّا فِي الْوَدِّ لَمْ يَخُونِ (١)

= وردة ، وزجره . ومناشر : جماعات : جمع معشر (بوزن مذهب) : وهم كل جماعة أمرهم واحد .
والمنى : لم ينكشف أمر هؤلاء المبتدعين الذين يخلطون الكفر بالإيمان ؛ فلم يكفروا عن التلويق
والانصايل . وفي البيت حُض ضَمِيْ حل كشف ما في كلامهم من التلويق والتخليل والبهتان ؛ فإن الكشف
يردهم ويزجرهم ويقطع ألسنتهم ، ويحيط أعمالهم ، ويدفع عن الناس شرهم . في هذا البيت وأربعة
الآيات السابقة أن أقوال الناس عن الله تختلف وتباین ، ويختلط فيها الكفر والإيمان ، وتشوبها
وتشوبها البهع والخرافات ، والأساطير ، والأباطيل ، وأن الهدى والسلامة في التزام ما رآه الدين ، وجاء
به سيد المرسلين . وفي البيتين الآتين دعاء واستغفار .

(٢٦) « يارب » : متادى مضاف إلى ياء المتكلم ، وفيه ست لغات : إثبات الياء ساكنة ،
أو مفتوحة ، أو حذفا ، والاكْتِفَاء بالكسرة قبلها ، أو قلب الكسرة ، فتحة والياء ألفاً ، أو حذف
الألف ، والاحتجاز بالفتحة ، أو الاكتفاء بنية الإضافة وضم الاسم كما تضم المفردات . ومن عليه
يكذا (من باب رد) : أنتم به عليه من غير تمب . والمغفرة : السر . والصفح : والعفو ، والتفرائ .
وعفا عن ذنبه (من باب عدا) : تجاوز عنه ، ولم يؤخذه به ، ولم يماقبه . والزللات : جمع الزلة : وهي
السقطة ، والخطيئة .

(٢٧) وكله إلى نفسه (من باب وعد) : تركه ، ولم يعنه . وركله إلى عمله : أخذه به ، وحاسبه
عليه . أو علاه وعمله ، فلم يتذكرك برحمته ، وأفضى الأمر إلى كذا إفساء : بلغه ، وانتهى إليه . وحرمة
الشئ يحرمه (كغيره) حرماناً (بوزن عصيان) : إذا منه إياه .

في هذا البيت والذي قبله معنى التوبة ، والإنابة إلى الله العفو الففور ، الستار المئات ؛ فللشاعر زلات
بمعصيات تقابل عمله ، وتجرمه رحمة الله ؛ ولهذا اتجه إليه ، ودعاه ألا يكله إلى ما كان من أعماله ،
وطبع من شغفائه . وقد أسلفنا أن الشاعر جعل « الزند » عنواناً لهذه القصيدة . وزهد في الدنيا (كسلم ،
ومنع ، وكرم) زهداً ؛ أي استقرها ، وأعرض عنها ، وترك حرامها غفلة عقابه ، وحلها غفلة حاسبه .
وهذا المعنى غير صريح في هذه القصيدة ، ولا يتأتى إلا بالإغراق في التلويل . وكيفما كانت الحال ، فإن
الشاعر حيناً نظمها لم يكن زاهداً في الدنيا ، ولا معرضاً عنها .

• • •

(١) الأمر في أول البيت : النصح والإرشاد . والود (بتثنية الواو) : المحبة والمحبة . وبخيانة الود :
نقضه ، والإغفال به ، والفرد بالمحب الودود .

وَأَجْتَنِبْ مَنْ لَا تُشَاكِلُهُ تَنْجُ مِنْ غَيْرٍ ، وَمَنْ غَبَنَ^(٢)
مَنْ جَرَى فِي غَيْرِ حَلَبَتِهِ كَانَ مَوْقُوفًا عَلَى الظَّنِّ^(٣)
وَقَالَ :

كُنْ كَمَا شِئْتَ مِنْ رَشَادٍ وَغَىٰ كُلُّ حَىٍّ بِمَا جَنَاهُ رَهِينٌ^(١)

= ينصح بترك الدنيا ، والإعراض عنها ، فإنها إنما تروق وتحسن بالصحاب الأوداء ، وهم قليل ؛ وفي هذا معنى التوغب في العزلة ، والافتراق بالنفس . أو المعنى : اترك أهل الدنيا ، وغالطهم على حذر واحتراص ؛ فإن الوفاء فيهم قليل نادر ، والغدر كثير غالب ، والوداد زائف كاذب .

(٢) شاكلة مشاكلة : واقفه ، وشاهبه ، ومثله . والغدر : الخيانة ، ونقض العهد . وضده الوفاء (وفله من باب ضرب) . واللبن (بفتحين) : الخديمة . أو ضعف للرأى ، وقلة الفطنة ، وفساد التدبير (وفله من باب تعجب) .

يقول ناصحاً مرشداً : لا تصاحب إلا من تشاكله ويشاكلك ؛ لتسلم من الغدر والخديمة ، وتزائج ضعف الرأى ، وقلة الفطنة ، وصو التدبير .

(٣) الحلية (بوزن السجدة) : خيل تجمع السباق من كل أوب : أى من كل ناحية ، لا من جهة واحدة ، ولا من اصطلح واحد . والحلية أيضاً : الدفعة من الخيل في الرعان . ويحال الخيل السباق . ويقال : تجاروا في الحلية . وجرى في غير حليته : أى صاحب من لا يشاكله . ووقفه على كذا (من باب وعد) : حسبه عليه ، وقصره ؛ فهو موقوف : أى مقصور عليه ، لا يتجاوز ، ولا يتمده . والفطنة (بوزن الملة) : التهمة (بوزن الرطبة) : اسم من ظنته (من باب قتل) : إذا اتهمته . والجمع ظنن (بوزن ملل) . وجميع التهمة هم (بوزن وطب) .

في هذا البيت وإلى قبله : إذا صاحب من لا تشاكله ويشاكلك - تعرضت للغدر والخديمة ، والشر والأذى ، وسامت حولك التهم والريب والشبهات . والأيات الثلاثة في وجوب الاحتراص ؛ وتخبرى الرشد في اختيار الصحاب والأخلاء ، وفي نتائج الإعمال ، أو الفعلة ، أو المجازفة والتسرّع في هذا الشأن .

(١) الرشاد : الاعتداء ، والاعتقاة . وضده الكنى : وهو الإيمان في الضلال ، والجهل القائم على فساد الاعتقاد . (وفله من باب طوى) . وجناه (من باب روى) : اكتسبه من غير أو شر ، ورشاد أو غي : مستعار من جنى الثمرة : بمعنى تناولها من منبتها . أو هو مقصور على الكنى والشر : من جنى الذنب جنابة : أى اجترمه ، وارتكبه . وrehين : مرهون ، محبوس . وrehين بما جنأه : أى مجزئ به ، مكافأ عليه . وفي التنزيل العزيز « كل امرئ بما كسب رهين » الآية رقم ٢١ من سورة الطور : أى كل امرئ مرهون عند الله بكسبه وعمله ؛ فإن كان عمله صالحاً فك نفسه ، وغلبها ، كما يخلص المرهون من يده مرتبه ، وإلا أهلكها .

يقول : واعظاً محذراً : تحيّر لنفسك ما شئت من الرشاد أو الكنى ؛ فإنك مجزئ به ، محاسب عليه .

كُلُّنَا لِفَنَاءٍ ، أَوْ تَصْعَقَ الْأَرَضُ ، وَتَأْتِي بَعْدَ الشُّثُونِ سُورُونَ^(٢)
يَسْتَفِزُّ الْحَلِيمَ رَوْنَقَهَا الْبَا هِرٌ ، حَتَّى يَخْفَ وَهُوَ رَكِيزُونَ^(٣)
ذَهَبًا غَيْرَ ذُكْرَةٍ مَوْفَ تَفْنَى بَعْدَ زَيْنٍ ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَجِينُونَ^(٤)

(٢) الفناء (يفتح الفاء) : الموت والهلاك . و « أَوْ » : بمعنى « إلى » . وتصعق (يبرزن) تصعب ، وبالبناء للفاعل) : تهاك ، وتنفى . وفي القرآن الكريم : « ونفع في الصور ، فصعق من في السموات ، ومن في الأرض إلا من شاء الله » الآية رقم ٦٨ من سورة الزمر . أو هو (بالبناء للجوهل) : من صعبتهم الساء (من باب قطع) : أي ألقت عليهم الصاعقة : وهي نارتسقط من السماء ، فلا تصيب شيئاً إلا ذكته وأحرقت . والشثون : جمع الشان : وهو الأمر والخال . وفي القرآن الكريم : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، ويرزوا لله الواحد القهار » الآية رقم ٤٨ من سورة إبراهيم .

والمعنى : أن الموت لا يزال يصيب الناس ، ويحترم الأحياء إلى أن يفنى كل من على الأرض ، وينتفضي عمر الدنيا ، وتأني بعد شعثها شئون القيامة والآخرة .

(٣) يستفز : يستخف ، ويهز ، ويطرب ، ويصعب . والاستفزاز (في الأصل) : الإزفاج . يقال : استفزه الخوف : إذا أزعجه ، وأقلقه ، وذهب بطمأننته واستقراره . والحليم : الرزين ، البقور ، الساكن ، العاقل ، الثابت . ورونقها : أي رونق الأرض : وهو حسنها ، ورواها ، وهيجتها ، وزينتها ، وزخرفها . والباهر : الثالب ، المصعب ، المطرب : من قويم : هير التمر ، فهو باهر : أي غلب ضوؤه الكواكب . ويخف : يهتز ، ويطرب ، ويليش ، ويجهل . والوار : وأو الحال . والحلمة الاسمية بملها حالة . وركين : رزين ، وقور ، ثابت (وقوله من ياب ظرف) .

والمعنى : أن الأرض يزخرفها وزينتها تحدم الحليم ، وتستخفه ، وتخرجه من دائرة حلمه ورزاقته ، وركائته ووقاره . والفرض : تصوير هذه الحياة الدنيا وتنتها التي تصيب الحلماء والسفهاء ، ليتقيا الناس ، ويحذروا خداعها .

(٤) ذهباً : أي ذهب من اتخذ برونق الدنيا ، وذهب^(٥) معه دنياه . والذكرة (بضم فسكون) : ضد النسيان ، والشئ يخرى على اللسان . وذهب^(٦) ذكرته : أي ذهب ما كان مذكوراً محفوفاً من أمره وسيره وذكره . والظن (بكسر الصاد وضحها) : البذل الشديد ، والحرص البالغ . ويحين : يهلك ، ويفنى (وبابه باع) .

في البيتين السابقين : أن الدنيا تفرّ برونقها الحليم وتخدعه ، وتخرجه من حلمه ووقاره ، على حين أن الفناء والزوال مصير الناس جميعاً ، ومصير الأرض التي يهيون عليها : والدنيا التي يعيشون فيها . وهذا البيت يؤكد هذا المعنى ، ويزيد عليه : فكل شيء هالك حتى الذكريات والسير التي تبقى بعد أصحابها قليلاً ثم لا يلبث النسيان أن يطويها طياً على رضى الضائفة بها ، والحرص عليها .

فَلَا تَحْتَقِبْ سِيرَةَ الْمُحَامِدِ ، فَالذُّكْرُ رُ حَيَاةٍ لِمَنْ طَوَّقَهُ الْمُنُونُ^(٥)
وَقَالَ :

يَا ذُكْرًا ! أَبْصَرْتُ فِي مِرَاتِنَهَا صُورَ التَّمَنَّى^(١)
خَطَرْتُ عَلَى ، فَتَفَرَّتْ طَلِيرَ الْكَرَى مِنْ وَسْخَرِ جَفْنِي^(٢)

(٥) احتقب خيراً أو شراً : جملة ، واكتسبه ، وادّخره . والسيرة (في الأصل) : هيئة السير . وتطلق على السُنَّة ، والطريقة ، والمذهب ، والحالة التي يكون عليها الإنسان . وسيرة الرجل : سلوكه بين الناس ، وصيغة أعماله . والحمد : جمع الحمدة (بوزن المسألة) : وهي ما يحمد المرء به ، أو عليه . وسيرة الحماد : السيرة القائمة على الحماد : أي الأعمال المرضية ، الصالحة الحميدة . والذكر (بكسر فسكون) : الميت ، والشرف ، والعلاء ، وحسن الثناء . وفلان ذكر في الناس : أي صيت ، وسيرة جميلة مشهورة . والطلّي : ضد النشر . والمثني : المثية ، والموت (وهي مؤنثة) .

يمض على حسن السيرة ، واكتساب الحماد ؛ فإن الإنسان يحيا بذكره بعد موته ، أي بما يخلقه من صالح الأعمال ، وحسن ثناء الناس عليه . وخلاصة هذه الأبيات الخمسة أن الأرض بروتها ، والثلثيا يزخرها تستخف العلماء ، وتفتن الناس ، وأن الموت يترصم لهم ، ويدأب في اغترابهم ، وطى ذكرياتهم ، وأن الفناء مصير العالم ، وكل امرئ بما كسب رهين ، وإعما يحيا الإنسان بعد موته بصالح عمله ، وحמיד سيرته ؛ في هذه المقطوعة وعظ وإرشاد ، ونصح وتنبيه ، وتذكير ، وتحذير .

(١) ذكر الإنسان الشيء (كنصر) ذكراً ، وذكرى (بكسر فسكون فيهما) وذكر (بوزن قدوة) : تذكّره ، واستحضره في ذهنه بعد نسيانه ، وقد يكون الذكر عن إدانة حفظ ، لا عن نسيان . وقد يجرى على اللسان مع حضوره في القلب . ويراد بالذكر هنا : إحدى الذكريات التي بقيت في ذهن الشاعر من ماغيبه اللاهي السعيد . ومعنى الشيء تمثيلاً : قدّره ، ورغب فيه ، وتعلق به ، وأحب أن يصير إليه .

استحضر الشاعر في ذهنه إحدى ذكريات ماغيبه اللاهي الحاني السعيد ، وفاداه فداء إعزاز ، وإشعار ، وتكريم . وأبصر في مرآتها المحيطة صوراً واضحة نيرة ليمض ما كان يتوق إليه ، ويستأنه . وقد يجعل البيت مع هذا معنى التمسّس والتلطف على ما فات . وفي الأبيات الآتية زيادة توضيح وتحديد . (٢) خطرت عليه (من باقى دخل وضرب) : وقعت في باله وقلبه ، ووردت في خاطره وذهنه ، أو ذكرها بعد نسيان . وقاطعها : ضمير « الذكرة » في البيت السابق . وفسره عن الشيء تنغيماً - أزعجه ، وأفرجه ، ودفعه عنه . والكرى : التماس ، والئوم (وفله من باب صدى) . وطير الكرى : للكرى الشيء بالطين . ووكر الطائر : عشه . والجفن (يفتح فسكون) : غطاء العين من أظفار وأسفلها . ووكر جفني : أي جفني الشيء بالوكر . وقد يراد بالجفن هنا العين ؛ فهو من إطلاق الجزء ، وإزادة الكل . يقول : إنه كان في أمانة الناس ، فلما خطرت الذكرة بباله شغلته ، وأرغته ، وطهرت نومه .

عَلِقَتْ جِالَةَ خَاطِرِي مِنْهَا بِمَكْحُولٍ أَغْنَى^(٣)
كَانَتْ مِثَالًا خَطُهُ بِمَخْلَيْتِي نَقَاشٌ فُغْنِي^(٤)
هِيَ لُقِيَّةٌ وَهَيْبَةٌ سَمَحَتْ بِهَا خَطَرَاتُ ظَنِّي^(٥)

(٣) علق الظبي ونحوه في الحباله ونحوها (من باب تمب) : وقع فيها . وعلق الشوك بالثوب : نسب فيه ، وتعلق به ، واستمسك . والحباله (بوزن الرسالة) : الشراك (بوزن السبب) : وهو المصيدة . والخاطر : القلب ، أو النفس ، أو الذهن ، أو البال . وجباله خاطري : أى خاطري الشبيه بالحباله . ومنها : أى من الذكرة . وكحل العين (كنح ونصر) : جعل فيها للكل (بضم فسكون) فهي مكحولة . وظبي أغنى : أى يفرج صوته من غياشيه ، فتكون فيه غنة (بضم النين وتشديد النون المفتوحة) . وكفى بالمكحول الأغنى : من فتاة حسنة ، كحيلة العيتين ، تشبه للزوال في الرشاقة ، وجمال الجيد ، ولين المعاطف ، وحسن التضي .

والبيت تفسير لإحدى صور التي إلى أبصرها الشاعر في مرآة الذكري ، فقد صاد قلبه فتاة حسنة ، كحيلة العيتين ، فتعلقت به ، وتعلق بها ، وانمقدت بينهما أواصر الحب والفرام .

(٤) اسم « كانت » ضمير الصورة ، أو الذكرة ، أو الفتاة التي ألح إليها في البيت السابق . والمثال (بكسر الميم) : التمثال ، والصورة المصورة . وخطه (من باب يد) : رسمه ، وصوره ، ونقشه . والمخيلة : التخيل ، والنظن ، والتصور . ونقاش : صيغة مبالغة من نقش الشيء (من باب نصر) : أى رسمه ، ولونه بالألوان ، وزينه . والذهن (بكسر فسكون) : الفهم ، والمقل ، والفطنة ، والحفظ ، والقوة التي تعين الإنسان على الشعور بالظواهر النفسية المختلفة . وقد يطلق الذهن على مجرد الاستعداد للإدراك .

والمنى : أن هذه الصورة التي ألح إليها في البيت السابق ، أى قصة المكحول الأغنى ، كانت من الصور ، أو القصص الأدبية المتخيلة التي لا تحكى حقيقة حال . والبيت الآتي صريح في هذا المعنى .

(٥) لقية (بوزن رؤية) : لقاء (بكسر اللام) ، وإبصار ، واستقبال : مصدر لقيه (كرشيه) : أى صادفه ، واستقبله . وهيمية : متوهمة : متخيلة : نسبة إلى الهيم : وهو ما يقع في الذهن من الخاطر ، فهو من خطرات القلب . أو هو مرجوح طرق المتردد فيه ، والهم أضعف من الظن . وفي الأصل : « هي لقية وحمية » . ومع به سماحاً وسماحة : جاد ، وأعلى ، وسخا (وبابه فتح) . والخطرات : جميع خطرة : اسم مرة من خطر الشيء بباله ، وعمل بباله : أى وقع فيه . وله خطرات وخاطر : وهي ما يتحرك في القلب من المعاني ، والتصورات ، والآراء . وخطرات ظني : أى خواطري المتروكة المظنونة التي لا حقيقة لها . وقد يكون الظن هنا : بمعنى البال والقلب .

: يقول : إن قصة اللقاء التي ألح إليها في بعض الأبيات السابقة من القصص الرومية التي جادت بها خواطره وظنونه وأوهامه الرواسية السنية . ويلاحظ أن الشاعر في هذه الأبيات اتجه اتجاهاً غير =

وَقَالَ :

أَتَرَى الصَّبَا خَطَرَتْ بِوَادِي الْمُنْحَنَى ؟ فَجَنَّتْ عَمِيرَ الْمَسْلُكِ مِنْ ذَاكَ الْجَنَى ؟^(١)
مَرَّتْ بِنَا طِفْلَ الْعَيْشَى ، فَمَا ذَرَى أَحَدٌ بِمِرِّ صَمِيرِهَا إِلَّا أَنَا ؟^(٢)

= مألوف في شعره ؛ فقص قصة الذكرى التي خطرت عليه ؛ فأطارت نومه ، وأبصر في مرآتها صور انتهى . ثم ألح إلى مكحول أغنى وقع في حباله خاطره ، وهو شيء يشبه النزل . ثم صرح في البيتين الأخيرين أنها قصة من نوح النجم ، وصنع الخيال .

(١) الهزنة في أول البيت : للاستفهام المراد به التزيين والتشويق . وترى (بالبناء المجهول) : بمعنى تظن . (وبالبناء للفاعل) : بمعنى تبصر وتحس . والصبى (بوزن المصا) : ربح مهبها من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار (مؤنثة) . وهي في شبه جزيرة العرب أحب الرياح للهم ، وأكرمها عليهم . والبارودي في هذه القصيدة رأى أكثر شعره ينقل قاركه وسامه إلى البيعة العربية ، وينسج حل منوال شعراء البادية ، ويتفنن بما يتفنن به من الرياح والأمطار ، ومعالم بيئهم وظواهرها . وشطرت (كضربت) : مشت ، ومرت . وفي الخطران : معنى الحركة ، والنشاط ، والتبشتر ، والاهتزاز . والوادي : كل منفرج بين الجبال والتلال والأكام . سمى بذلك لونه : أى سيلانه ، يكون مسلكاً لليل منفذاً . وجمعه أودية . والمنحنى : موضع الانحناء ، والليلان ، والانطاف . ووادي المنحنى : مكان يمتد الشاعر ويقصده . وفيه من جواهرها ، ويتفزل بها . وبني الثمرة (من باب رى) : اجتناها ، واتقناها ، وتناولنا من منبتها . والجنى (بوزن الحصى) : كل ما يجنى من الشجر ما دام غضاً . والعير : أخلاط تجمع من الطيب . والمسلك (بكسر فسكون) : ضرب من الطيب ، يتخذ من ضرب من الفزلان . وكانت العرب تسميه المشموم ، وهو أفضل الطيب عندهم . وقد جعل الشاعر وادى المنحنى جنى جنته من الصبا عبر المسلك .

مرّت ربيع الصبا بالشاعر أربعة عطرة ، فتخيلها مرّت بديار محبوبته ، فحملت إليه منها حير المسلك ، وقضاء راحته . وهو معنى كثير شائع في شعر النزل .

(٢) الطفل (بفتحين) : إقبال الليل بظلمته على النهار . أو الوقت قبيل غروب الشمس . والعشى : آخر النهار . وطفل العشى : وقت اصفرار الشمس وغروبها . ودرى الشيء ، ودرى به (من باب رى) : عرفه ، وعلمه . والسر : ما تكتمه وتحفيه . والضمير : ما تضرعه في نفسك : أى تكتمه وتحفيه ، فيصعب على غيرك أن يقف عليه ، أو يصل إليه ، وضميرها : أى ضمير الصبا . وإضافة السر إلى الضمير : من إضافة الكلمة إلى مرادفها .

والمنحنى : أن الصبا بأريجها وعبرها هي الرسل التي أتى السرى التي يحمل إليه رسائل حبيبته من وادى المنحنى . أو يغلو ويروح بينهما برسائل الحب والفرام . وقد مرّت الصبا بالشاعر وغيره من الناس ، فلم يغفلن لها غيره ، ولم يعرف مرها سواء . والبيت الآتي يوضح هذا المعنى ويفصّله .

وَتَحَمَّلَتْ سِرَّ الْهَوَىٰ ، فَتَرَدَّدَتْ بِرَسَائِلِ الْأَشْوَاقِ فِيمَا بَيْنَنَا (٣)
عَرِقتْ غَلَاظِلُهَا يَنْشُرُ عَرَاةَ بَنُوتِيَّةٍ ، يَسُوي الْأَنَامِلَ تُجَنِّتِي (٤)
تَحْمِي مَنَابِتَهَا قَسَاوِرُ غَارَةِ يَجِدُونُ صَعْبَ الْمَوْتِ خَطْبًا هَيَّا (٥)

(٣) تحمَّلتْ : حملتْ في مشقة ، والمشفقة هنا : أحباء كَثَان السِر ، وصيافته ، والمحافظة عليه ، والتردد برسائل الأشواق . والهو : الحب الشديد ، والفسق ، والفرام . وترددت : رجمت مرة بعد أخرى .

يقول : إن الصبا حملت - في أمانة وكثان ، وفي جهد ومشقة - سر الغرام بينه وبين مشفقتها ، وما فشت تردد ، وتقدرو وتروح بينهما برسائل الصباية والشرق ، والهو والهام .
(٤) في الأصل المخطوط الذي بين أيدينا أخطاء لغوية ، ونحوية ، وإملائية ، وتعريف ، وتصنيف ، ونقص ، وزيادة ، وتبديل ، وتغيير في الكلمات ، والحروف ، والنقط . ومن أمثله في هذا البيت « غدارة » والصواب « عرارة » ، و « بنجى » والصواب « تجنى » . - مبق به العليب ونحو (من باب طرب) : لفرق به ، وفطهرت فيه رائحته . ولا يكون التبع إلا للرائحة الطيبة الذكية العطرية . وغلالاتها : غلال الصبا : جمع غلالة (بوزن رسالة) : وهي شمار (بوزن قطار) : أي ثوب يعلق على جسد الإنسان : أي يفاخره تحت الثمار . ونشر المسك ونحو : رائحته الطيبة الذكية . والمرارة . وأحدة المرار (بوزن سحابة وصحاب) : من أزهار البادية . ويقال له بهار البر : وهو جنس زهر من المركبات الألبورية ، طيب الريح ، يثبت أيام الربيع . ومن الشعر القديم في المرار :

تَسْمَلُ مِنْ شَمِّمِ عَرَارٍ نَجْدٍ فَمَا بَسَمَدُ التَّعَشِيفِ مِنْ عَرَارٍ

وبدوية : منسوبة إلى البادية : وهي الصحراء . وفشاء واسع فيه المرض والماء . والأنامل : أطراف الأصابع . الواحدة أملة (بتطليث المهزلة والميم) : وهي عقدة الإصبع . أو سلاماها . أو الفصل الأعلى من الإصبع ، وفيه الظفر . ويجنى : تلتقط (بالبناء للمجهول فيما) . يقال : اجنى ثمرة اجتنا : أي تناولها من شجرتها . و « يسوي الأنامل تجنى » : أي لا تجنى بالأنامل ؛ فنشر المرارة ونحوها مشوم غير ملموس . ويلاحظ في الشعر الأول أن الشاعر حكس ، فجعل غلال الصبا تبعي ينشر العرارة . والبيت تكرر لحسن الشعر اثنتي من البيت الأول ، فالصبا تحمل نشر المرار الهوى وأرضه إلى الشاعر ، يشير بهذا إلى ديار محبوبته ، وبعض مزايها البيئة البدوية التي تعيش فيها . أو هو يتفزل بطيب ريحاً المهبوية .

(٥) سميت المكان من الناس (من باب رمي) : منعتهم منه ، وفهمهم عنه ؛ فهو حمى (بكر الحاء) لا يقرب ، ولا يجترأ عليه . ومنابتها : منابت المرارة . جمع منبت (بوزن مجلس ، شاذ عن غير قياس) : وهو موضع النبات . والقساوور : جمع قسور (بوزن جعفر) ، وقسورة (بوزن ثعلبية) : وهو الأسد . والقوى الشديدة الجريء الشجاع ، العزيز الغالب من الرتيال والشهبان : (من الشعر : وهو -

مِنْ كُلِّ مُشْتَوِلٍ يَشْعَلُهُ صَارِمٌ أَنْصَى مِنَ الْأَجَلِ الْوَحْيُ إِذَا دَنَا^(١)
وَيَسْقِطُ الْعَلَمِينَ جَوْذُرُ كَلَّةٍ يُضْحَى بِنَظَرِهِ الْأَسْوَدُ إِذَا رَنَا^(٢)

== القهر ، والغلبة ، والإكراه . وفعله من باب ضرب . والنارة (وفي الأصل غداة) : اسم من أواخر حل العلوّ لغارة : أي هجم عليهم ، واقتحم ديارهم ، وأوقع بهم . وفي الغارة والإغارة معنى المصارعة والمباغلة . وانقلب (بفتح فسكون) : الحال ، والشأن ، والأمر صغر ، أو عظم . وغلب استعماله للأمر العظيم الشديد المكروه الذي يكثر فيه التخاطب . وبجسه عطوب . وهين : يسير ، سهل .

في البيت السابق : كنى بالعرار البدويّ عن ديار محبوبته في البادية . وفي هذا البيت والبيت الذي بعده إشارة إلى ما يحيطها ويحجبها ويعصمها من قوى الحماية والمنعة ، والنزّ والسلطان ؛ فصانها مساورة في الغارات ، أولوقوة ، وأولو بأس شديد ؛ لا يبالون الرضى والمهلك . وصحب الموت عنهم أمر هين يسير . (٦) « من » في أول البيت : بيانية . وما بعدها بيان للمساورة في البيت السابق . ويشتمل اسم فاعل من اشتمل سيفه : أي تقتله وحمله : مستمار من اشتمل الرجل بوشيه : أي تلفّظ به ، وأداره حل جسمه كله . ومن معاني الاشتغال : الإسراع . والشعلة : لب النار . والصارم : السيف القاطع . وشعلة صارم : أي صارم كالشعلة . وأمضى : أخذ مضاه وفذاً . وسيف ماضى : أي حاد صارم ، سريع القطع . والأجل : المدة المضروبة لحياة الإنسان . ويقال : جاء أجله ، ودنا أجله : إذا حان موته ؛ فالأجل هنا : معناه الموت . والوصيّ (بوزن النقي) : السريع ، المبادر ، العاجل . ودنا (من باب سما) : قرب .

ولمضى : أن حماة ديار المحبوبة كاة مدجّيون بالسلاح ، وسيطهم صارمة ماضية أدنى إلى العدو وأسرع من أجله الداني السريع العاجل . وهذا المضى كثير مألوف في شعر الفزل . والمرأة يعظم شأنها في نظر عاشقها إذا كانت بمنّة محبّة ، في حماية أهلها الأئمة الأشداء .

(٧) المسقط (بوزن مقعد ومنزل) : موضع السقوط . ومسقط الرمل : منقطعه ، ومنتهاه . والعلمان : مثنى العلم (بوزن أجبل ومعناه) . ومسقط العلمين : موضع ، وسكان يعنيه الشاعر ، ويقصده ، كما سبق في وادي المنى . وفيه من يتفزل بها . والجفوذ (يضم الجيم وسكون الهجره) ، وهم اللذال وضحاياها) : ولد البقرة الوحشية ، وشبهه الجفوذ (بوزن الكوكب) . وتشبهه الحسنة من النساء بالجفوذ في جمال العينين ، وحسن اتساعهما . والجمع جآذر . والكلمة فارسية الأصل في قول ابن سيده . والكلمة (يكرر الكاف) : ستر رقيق ، يحاط به البيت ، والجمع كلل (بوزن ملة وملا) وأصوى الصيد يصيده إصماه : أصابه ؛ فوقع بين يديه . ودنا (من باب سما) : أدام النظر في سكون طرف . ويراد بالرؤى هنا : النظر الساهر الجلاب .

أشار إلى احجاب المتفزل بها ، وشبهها بالجفوذ في جمال العينين ، وحسن اتساعهما ، وقال : إنها بتفزلها اللطيفة الساحرة تسهرى الشواق وتصرعهم مع شجاعتهم ، وشدة بأسهم .

صَنَعَ الْوُشَاةَ لَهُ حَبِيبًا كَافِيًا فَقَسَا عَلَى ، وَكَانَ سَهْلًا لَيْسًا^(٨)
مَاذَا عَلَيْهِ - وَلَا أَرِيدُ مَلَامَةً - لَوْ جَادَ مَعَهَا بِالنَّجِيَّةِ ، أَوْ كَتَبَ^(٩)
لَائِي لَأَقْنَعُ مِنْ هَوَاهُ بِنَظَرَةٍ تَرَوِي الْقَلِيلَ مِنَ الصَّنِيِّ لَوْ أَمَكْنَا^(١٠)

(٨) صنع الحديث : لفقّه ، وزعزعه ، وبوجه بالباطل . وله : أى الجذور المكنى به من حبيبه . والوشاة : جميع الواشى : اسم قائل من الوشاية : وهى النجمة ، والسماوية ، وتزيين الكلام بالكذب للإغساد والتفرقة بين الأدواء المتحابين .

كانت محبته سهلة لينة ، رقيقة القلب ، فلما رضى به إليها تغيرت عليه ، وتكررت له ، وسامته جفوتها وقساوتها :

(٩) الملامة : القرم ، والعلل . وجاد (كقال) : سمح ، وسفا ، وتكرم ، وبذل ، وأصلها بسهولة . والمصدر الجريد (بهم الجيم) . ومعها : أى مع الملامة والكتاب . أو مع السقاة التى حبلها عليها الوشاة المفسدون . والنجية : السلام . وأصلها : الدعاء بالحياة . حياء الله : أبقاه . وصيبت صديق : دعوت له بالحياة . وكفى عن الشيء (كرى ، ودعا) : كتابة (بوزن رواية) : إذا تكلم بما يستدل به عليه ، ولم يصريح . ويقال : كفى بكلاماً عن كذا . ولا استغفام فى أول البيت : معناه النفى : أى لا حرج عليه ، ولا توبيخ .

سأه أن تستمع حبيبه للحديث الكذاب الذى صنعه لها الوشاة ، وهم أعداؤه وأعداؤها ، وآله أن تجهل ، وتقصر عليه ، وتعرض عنه بعد لين ، وصطف ، وإقبال . وفى هذا البيت معاناة لعلاج هذه الحالة باستطاف رقيق ، وعتاب خفيف غير مراد ، وفى العرج والإسراج فيما لو جادت عليه بضمية صريحة ، أو مكنته . وقد يكون الكلام هنا مستأنفاً ، مقطوعاً عن نسوة الجيب وبقوته وتأثير حديث الوشاة .

(١٠) قنع بالشيء (من باب سلم) : رضى به ، ولم يطمع فى المزيد عليه . والهوئى : الخب . وأرواه إدواء : سقاء ، وأزال حله . والقليل : شدة العطش وحرارته . والعطش الشدي . و « من » : بيانية : أى ترى القليل ، وهو الصنى . ويراد بالقليل والصنى : حرقه الوجد والصباية ، وحرارة الهوى والندام . ويلاحظ أن الشاعر فى هذه القصيدة ، وكثير غيرها يستخدم فى غزله صميم المذكر مقتدياً بأبى نواس وأمثاله الذين غرّبوا بذلك عن مألوف العرب ، وعاداتهم قبلهم .

فى البيت السابق قال : لا حرج على حبيبه إذا جاد عليه بصريح النجية ، أو كتابتها . وفى هذا البيت أنه يقنع ويرضى ويكتفى منه بنظرة ثم على إقباله وأهنامه وإشفاقه ، وتعلق ما يضاهيه محبه من رقة الهوى ، وحرارة الشوق ، وقار الوجد والصباية .

أَخْنَى عَلَى مَعَ الزَّمَانِ ، وَكَثَبَتْ لَمَّا أَسَاءَ الدَّهْرُ صُنْعًا أَحْسَنًا (١١)
وَرَأَى الْمَشِيبَ تَلَوَّنَتْ أَلْوَانُهُ فِي عَارِضٍ مِنَ الْأَمْسِ ، فَتَلَوَّنَا (١٢)
وَالْمَرَّةُ فِي (الدُّنْيَا) رَهْمَيْنُ حَوَادِثُ تُؤَدِّي بِجَدِّهِ ، وَتُلَيْسُهُ الْفَنَى (١٣)

(١١) أَخْنَى عَلَيْهِ : أَسَاءَ إِلَيْهِ ، وَأَسْرَ بِهِ . مِنْ قِيلِمَ : أَخْنَى عَلَيْهِمُ الدَّهْرُ : إِذَا بَلَغَ مِنْهُمْ بِشَدَائِهِ ، وَأَهْلَكَهُمْ . وَأَصَابَهُمْ غَيُّ الدَّهْرِ : أَيْ أَفْلَاحُهُ وَقَوَائِبُهُ .
وَالْبَيْتُ يَجْعَلُ مَرَّةً السَّابِقَ ، وَفِيهِ اتَّقَى : فَقَدْ مَالَ حَبِيْبُهُ الدَّهْرَ عَلَيْهِ ، وَعَاوَنَهُ بِالْإِمْرَاسِ
عَنْ : فَضْرَ هَذَا فِي نَفْسِهِ ، وَتَمَنَّى لَوْ كَانَعَ هَذَا الْحَبِيبُ - بِإِطْلَاقِهِ عَلَيْهِ - إِسَاءَةَ الزَّمَانِ إِلَيْهِ .
(١٢) تَلَوَّنَتْ أَلْوَانُ الشَّيْبِ : بَدَأَ ، وَظَهَرَ . وَالْعَارِضُ : جَانِبُ الرَّيْحِ . وَصَفْحَةُ الْخَدِّ .
وَمَا عَارِضَانِ . وَيُرِيدُ بِمَا وَصَفِيهِ : شَرْمَا . وَالْأَمْسُ : الْحَزَنُ (وَقَعْلُهُ مِنْ بَابِ صَدَى) . وَتَلَوَّنَ : تَغَيَّرَ
عَمَّا كَانَ . يُقَالُ : تَلَوَّنَ فُلَانٌ : أَيْ لَمْ يَبْقَ عَلَى خَلْقٍ . وَهُوَ مَتَلَوَّنٌ : أَيْ اخْتَلَفَ الْأَخْلَاقُ ،
لَا يَبْقَى عَلَى خَلْقٍ وَاحِدٍ .
بَرَحَ الرَّبِيدُ بِالشَّامِ ، وَفِيهِ الْأَمْسُ ، وَرَأَى الْحَبِيبُ يِيَّاسُ الشَّيْبَ فِي عَارِضِهِ : شَكَرَ لَهُ ،
وَتَغَيَّرَتْ حَالُهُ مِنْهُ .

• • •

فِي هَذَا الْبَيْتِ أَرْبَعَةُ الْآيَاتِ قَبْلَهُ شَكَكَ الشَّاعِرُ اسْتِجَابَ حَبِيْبِهِ لِقِشَاءَ ، وَتَأَثَّرَ بِشَايِعِهِمْ ، وَبِمَا كَانَ
مِنْ جَلْفِيَّتِهِ وَقِسْوَتِهِ وَإِعْرَاضِهِ بِعَدْلِيَّتِهِ وَمِيذَنِهِ وَإِتْقَانِهِ . ثُمَّ بَالِغٌ فِي التَّلَطُّفِ وَالِاسْتِغْنَاءِ : فَرَجَا أَنْ يَجِيءَ
عَلَيْهِ بِصَحْبَةٍ أَوْ نَظَرَةٍ . ثُمَّ حَادَ إِلَى الشُّكْوَى : إِذْ مَالَ حَبِيْبُهُ الزَّمَانُ عَلَى الْإِسَاءَةِ وَالْعَدْوَانِ ، وَتَكَثَّرَ لَهُ لَمَّا بَدَأَ
الشَّيْبَ فِي عَارِضِهِ ، وَبَيَّنَّ قَوِيدِهِ .

(١٣) فِي الْأَصْلِ نَقَصَ . وَالْكَلِمَةُ آتَتْ بَيْنَ قَوْسَيْنِ فِي الشَّطْرِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذَا الْبَيْتِ (الدُّنْيَا) كَلِمَةً
مِنْ عِنْدِهَا تَمَّ جِهَاتُ الْبَيْتِ ، وَاسْتَقَامَ وَزْنُهُ وَبَعَثَتْ . وَرَبْعَيْنِ : مَرْهُونٌ ، مَحْبُوسٌ ، مَقِيدٌ . وَرَهْمَيْنِ حَوَادِثُ : أَيْ
مَعْرُضٌ لَهَا ، وَهَدَفٌ قَائِمٌ أَمَامَهَا ، لَا تَقْتَضِي تَرْبِيَةً وَتَقْصِيْبَةً . وَهِيَ مَبْنُوَّةٌ مِنَ الصَّرْفِ ، أَيْ التَّثْنَيْنِ ، وَإِنَّمَا
تَوَكَّدَتْ هُنَا لِنَعْرُودَةِ وَزْنِ الشَّعْرِ . وَحَوَادِثُ الدَّهْرِ : نَوَائِبُهُ وَكَوَارِثُهُ . الْوَاحِدَةُ حَادَثَةٌ . وَأَوْدَى بِالْقِيَمَةِ :
ذَهَبَ بِهِ . وَابْتَدَأَ (بِكَسْرِ الْجِيمِ) : مَصْدَرُ جَدِّ الشَّيْبِ بِجَدِّ (كَفَّحٌ يَخْفُ) : أَيْ صَارَ جَدِيدًا : وَهُوَ
لِقَبْضِ اللَّوْثِ ، أَيْ الْبَالِ ، أَيْ الْخَلْقِ (بِفَتْحَتَيْنِ) . وَبِدَّةُ الْإِنْسَانِ : صَبَاءٌ ، وَفِيَّاهُ ، وَقُوَّةٌ ، وَقُوَّةٌ .
وَالْفَنَى : الْمَرَضُ : مَصْدَرُ فَنَى (مِنْ بَابِ صَدَى) : أَيْ مَرَضٌ مَرَضًا مَلَايَظًا حَتَّى أَصْرَفَ عَلَى الْمَوْتِ .
أَوْ مَرَضٌ تَمَكَّنَ مِنْهُ الشَّمْعُ وَالْخَزَالُ ، أَوْ أَهْلَكَهُ مَرَضٌ حَتَّى نَحَلَ جَسْمَهُ .

يَقُولُ : إِنَّ الْإِنْسَانَ فِي حَيَاتِهِ هَدَفٌ لِحَوَادِثِهِ وَرَزَائِيقِهِ الَّتِي لَا تَقْتَضِي تَمَوُّلًا عَلَيْهِ حَتَّى تَذْهَبَ بِجَدِّهِ
وَقُوَّتِهِ ، وَتَقْصِيْبُهُ وَتَقْنِيْبُهُ . فِي خَمْسَةِ الْآيَاتِ : سَابِقَةُ شُكْوَى ، وَجَوَّارٌ ، وَتَلَطُّفٌ ، وَتَقْصَرُحٌ . وَفِي هَذَا الْبَيْتِ
شِبْهُ تَرْبِيَةِ نَفْسِهِ . وَفِيهِ أَجْرَاهُ مَجْرَى : عَنِ الْأَمْثَالِ .

لَيْتَ الْمَشِيبَ تَأَخَّرَتْ أَيَّامُهُ . حَتَّى أَفُوزَ مِنَ الشَّيْبَةِ بِالْمُنَى ^(١٤)

(١٤) المشيب : الشيخ ، وبياض الشعر . ومن لوازمه ضعف الجسم ، ولهاب القوة . وفي القرآن الكريم : « الله الذي خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة » الآية رقم ٥٤ من سورة أعراف . ولما قلنا بالغير (من باب قال) : ظهر به ، وإياه ، وحصل عليه . والشيبة : الفتاة ، والحدأة ، والشباب : ويقدره بعض الفحول من سن البلوغ إلى نحو الثلاثين . والمضى : جمع مئة (بوزن رؤية) ، وهي ما يقدره الإنسان ، ويرغب فيه ، ويجب أن يصير إليه . وغلبها الأمنية . رجمها الأمانى .

في سن الشباب والقوة يبلغ المرء مقاصده ، ويحقق آماله ؛ فإذا جاء الشيب حطم الشباب والقوة والأمل جميعاً . ويدور أنه جعل وسارح إلى الشاعر ؛ فريد لو تأخر ، وطالت أيام شببته حتى يفوز منها بما كان يريجو ويبتناه . وفي البيت معنى التحسر والتلهف على ما فات . غم الشاعر هذه القصيدة بهذا البيت . وصلته بالآيات السابقة وافضة وثيقة .

قافية الهاء

وَقَالَ يَذْكُرُ لَيْلَةَ أَنْسٍ يَحُلُونَهُ :

مَا لِي وَلِلدَّارِ مِنْ «لَيْلٍ» أَحْيَيْهَا وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ غَوَائِيهَا مَفَانِيهَا؟^(١)

• أنس به ، وإليه (كطرب ، ونصر ، وكرم) : سكن إليه ، وأطمان ، وريح به وستر ، وذهبت به وسحته وغلظه . والاسم منه أنس (بضم فسكون) . وقد يطلق الأنس على حديث النساء ، وغزالتن ، واللهو سمن .

• «سلوان» : مدينة من بلاد مركز الصف ، بمحافظة البحيرة ، على الضفة الشرقية لنهر النيل جنوب القاهرة ، على بعد خمسة وعشرين كيلو متراً منها ، وتربطها بها سكة الحديد ، وطريق كورنيش النيل . والقرب منها مصانع الحديد والصلب المنشأة سنة ١٩٥٦ . ولدى الشمال من سلوان بنحو ثلاثة كيلو مترات تقع سلوان الحسامات ، المنشأة سنة ١٨٧١ فى حدود الصحراء الشرقية ، وتشتهر بحساماتها الكبرى السخنة ، وهي محافظة القاهرة .

• • •

وله القصيدة من شعر الهوى الذى نظمها البارودى محاكاة للشعر اللادين ، أو قصداً للترويح عن النفس ، أو حرصاً على استجماع كل فنون الشعر ، أو تميراً من حقيقة حال . وتأريخها — فيما نلن — بين سنة ١٨٦٣ وسنة ١٨٦٨ وهو بين الرابعة والخشرين والتاسعة والخشرين من عمره ، وكان فى هذه الفترة فيها حياة الرفاهة والدمعة ، وقد اجتمع له الشباب ، والجدة ، والفراخ ، أو ما يشبه الفراخ ، ويقرب منه ؛ وذلك بعد عودته من الاستقالة فى حاشية الخليل لإسماعيل ، وقبل زواجه بوعيلة يكن . أو بعد عودته من حرب «كريد» سنة ١٢٨٤ هـ (١٨٦٧ م) وقبل مشاركته فى الحرب الروسية التركية سنة ١٢٩٤ هـ (١٨٧٧ م) . وفى بعض هذه المدة أقام يحلوان ، وأدعى لحيه شبابه المتان .

(١) الاستغناء فى أول البيت : لئى ، أو الإلتكاف ؛ فهو يبنى دامية وقوفه بالديار المهجورة لتكريمها بالنسبة . أو ينكر هذا ، ولا يرتقبه ، ولا يلخب فى هذا الشأن ملحب شعراء البداية العربية . والدار من «لَيْلٍ» : أى لدار «لَيْلٍ» . وأحْيَيْهَا : أخص بها وألمأ ، شديد الوجد ، أكرمها بالصحبة والسلام . والواو فى أول النظم الثانى : وار الحال . والجملعة الفعلية بعدها : جملة حالية . وشلا المكان (من باب سلا) : أغلاه ساكنوه ، ورحلوا منه ، وتركوه . والغواى : جمع غالية . وهى المرأة التى غشيت (كرضيت) بحسبها الطبع من الزينة والحسن المجلوب المصنوع . والمغانى : جمع مغانى (بورن سنى) . وهو المنزل الذى فى (بورن رضى) به أهله : أى أقاموا فيه . وبنى بهم : أى عتسرو وأكمل .

دَعِ الدِّيَارَ لِقَوْمٍ يَكْفُمُونَ بِهَا وَأَعْكُفْ عَلَى حَانَةِ كَالْبُدْرِ سَابِقِهَا^(١)
كَمْ بَيْنَ دَائِرَةِ أَقْوَتِ مَعَالِمِهَا وَبَيْنَ عَامِرَةٍ تَزْهَوُ بِحَنِّ قَبِيهَا^(٢)
هَيْهَاتَ، مَا الدَّارُ تُشْجِيْنِي بِسَاحَتِهَا وَإِنَّمَا الدَّارُ تُشْجِيْنِي بِأَهْلِهَا^(٣)

ـ يقول : غلت المغانق من الغواني ، وارتحلت ، ليل « من دارها ؛ فلا حالي القويف بها وتحيها ، مشيراً في هذا البيت وثلاثة الأبيات بعده إلى ما احتاده شعراء العرب في تقديم الزمان من القويف بالديار التي هجرها أصحابهم لتصحها ، وتكريمها ، واستحضار ذكريات عزيزة عليهم ، كانت لم مع مشيقاتهم في تلك الديار المهجورة الدارسة . والبارودي في هذه الأبيات يمتدح عليهم تلك العادة ، ولا يرتفعها لنظمه .

(٢) دح : أترك ، واجتنب . ويريد بالديار : المغانق والمنازل التي رحل عنها أهلها ، وهجرها ؛ فدرست بدمع ، وضعت ، وامت ، ولم يبق منها غير الثمن والأطلال والآثار . وكلف بكذا (من باب طرب) : أبلغ به ، وأحرم (بالبناء للمجهول فيها) ، وأسهب كل الحب ، ويقلق به تملقاً شديداً . وعكف على الشيء (من باب عكل ويعكس) : أقبل عليه موافقاً ، ولازمه ، ولم ينصرف عنه . والحالة : الموضع الذي يباع فيه الخمر . والهدر : التمر المملع التام الفصاء . وساقها : أي التي يسق الخمر في الحانة . وقد يراد بالحانة : الخمر ؛ فيكون من إطلاق المثل ، وإرادة الحال .

يقول : أترك الأطلال وآثار الديار للمولين بها ، وأقبل على الخمر تسميكها امرأة حسنة في جمال البدر ، وتبام رواها ، وباهر ضياله ؛ فصنع بين لذة الشراب ، ولذة الأوس ، والاستمتاع بالجمال الحى ، الناطق الفائق الخلاب .

(٣) « كم » في أول البيت : اسم يستفهم به عن العدد . والاستفهام هنا : للتعجب ؛ أي الصعير عن اتساح المسافة وبمدها بين الدوائر والمواضع ؛ أي بين الخراب والناس ، والآهل والعامر . ودثر المنزل (من باب دخل) : درس ، وهلى ، وتبدم . ودائرة : اسم فاعل منه . وأقوت الدار إقواء : غلت من أهلها ، وأقوتت . ومعالها : حلقاتها ، وآثارها ؛ جمع معل (بوزن مذهب) . وأقوت معالها : درست ، وضعت ، وأسحت ، وضعت . وهو تأكيد لمضى الدثور في « دائرة » : أي كم بين دار دائرة . وعامرة : أي دار عامرة بأهلها ، مسكونة ، مأهولة ؛ اسم فاعل من حمرت الدار بأهلها (من باب نصر) . أوهى فاعلة ؛ بمعنى مفعولة ؛ أي معمورة ، والعامرة ، والمعمورة ؛ ضد الدائرة الدارسة . وتزهر (من بابي هذا وما) : تنبه وتفتخر . أو تزهى ، وقضى ، وقسن ، وتروق .

يقول : إن المسافة واسعة ، واليهن شاسع ، والفرق كبير بين الدوائر والمواضع من الدور والمنازل ، أي بين أطلال الديار المهجورة ، وحالات النعمور المعمورة .

(٤) « هيات » : اسم فعل ماض ؛ بمعنى يمد ؛ فهي كلمة تعجب . وما بعدها تفسير لها ؛ فهو يستبعد ويمن أن تشبيه الدار بساحتها . وتشجيت : تطرين ، وتزهى مشاعري ؛ مضارع أشجاء =

فَحَلَّ هَذَا ، وَخُذْ فِي وَصْفِ غَانِيَةٍ سَرَتْ بِحُلُوتَانِ فِي قَلْبِي سَوَارِبًا^(٥)
رِيَانَةُ الْقَدِّ ، لَوْ أَنَّ الضَّمِيعَ لَهَا خَافَ الْعَيْنُ عَلَيْهَا كَادَ يَطْوِيهَا^(٦)

= إشجاء . وظله شجاع (من باب عدا) : أى حزنه ، وغمّه ، وهمة . أو أطربه ، وأفرسه ، وسره ؛ فهى من الكلمات التى تتصل فى المعنى وضده . والثانى هو المراد هنا . وساحة الدار : باحتها . والموضع المتسع أمامها . وفضاء بين دور الحى ، لا بناء فيه ، ولا سقف له . والأهلون : الأهل : جميع الأهل . وأهل الدار : سكانها .

يقول : إنما قطر بى الدار يسكنّتها ومن يعمرونها ، ولا يعنيه ساحاتها ونواحيها ، وظواهر اتساعها وجبالها . وقد يكون المراد بالساحة هنا : ما يقرب مدقورها من فضاء أرضها ؛ ليسائر ثلاثة الأبيات السابقة كلّ المسيرة ، وينسجم معها تمام الانسجام .

(٥) « حلّ » : أمر من حلّى الشئ تخليّة : أى غادره وتركه ، وانصرف عنه . و « هذا » : إشارة إلى الديار الناضرة ، والمنازل المهجورة ، والأطلال ، والدمى التى تعلق بها شمراء البادية فى قديم الزمان ، وتفتنوا بها ، وأكثروا من ترويضها فى مطالع قصائدكم ، ويكثروا فى أشعارهم ، أو يكلوا من رحلوا منها من أحبابهم ، ومشتقاتهم ، وظفروا ذكرياتها فى نفوسهم . وأخذ فى كذا (من باب نصر) : شرح فيه ، وبدأ به . ويراد بوصف الغانية : التفتل بها ، والتفتى بمحاسنها . وغانية : حسنة ، قد غنت بحسبها اللغوى عن الزينة ، والتجمل ، والحسن المطلوب المصنوع . وسرى فيه الشئ (من باب رى) : غامره ، وخالطه ، ودخله ، ولزمه ، وتمكّن منه ، واستقرّ فيه : من قولهم : سرى حرق الشجرة فى الأرض : أى دبّ تحتها ، وأمن فى باطنها . والسورى : جمع سارية : اسم فاعل من « سرى » : بمناء السابق . وسورى الغانية : ما خالط قلبه ، وتبيّسه من هواطف الحب ، وآثار الإحباب .

ومعنى الشطر الثانى : أنه أحب هذه الغانية ، وسرى حبها فى قلبه ، أى خالطه ، واستقرّ به ، واستقرّ فيه ، وتمكّن منه ، وولّته ، وتبيّسه .

(٦) رِيَانَةُ : مطقة فى نضرة ، وغضارة ، ولين ، وطراوة . والأصل : روى من الماء ونحوه (كرسى) : فهو رِيَانٌ ، وهى رِيَانَةٌ . والقوام (بفتح القاف فيما) : أى القائمة المجددة ، وسن الطول ، وجمال التقطيع . والضميم : المضامع : من ضامجها مضاجعة : أى اضطلع بها . والضجوع ، والانضجاع : أن يضع الإنسان جنبه على الأرض ، أو نحوها . والعيون : جمع العين . ويراد بها هنا : الحد ، أو الحاسد . وكاد يفعل كذا هم ، وقارب ، ولم يفعل . وطوى الشئ يطويه طياً : غمّ بعضه إلى بعض . أو لفّ بعضه فوق بعض . واللى : خلاف البسط والنشر .

يقول : إن قدّما يمثل رِيَانٌ ، يتبيّه الحاسدين جماله ونضرتهم وغضارته ورواقه ، ولهذا يخاف العين عليها عاشقها ومضاجعها ، ويدّ لو يطويها ليخفى باللى محاسنها ومفاتنها ، ويدّأر به عنها حسد الحاسد ويضمره . هذا هو البنى الذى بدأ لنا ، وإن كانت عبارة البيت لا تنهض به .

فِي نَفْسِهِ الْخَمْرِ سِرٍّ مِنْ مَرَاثِمِهَا وَفِي الْأَرَاكِ شَكْلٌ مِنْ تَهَادِيهَا^(٧)
يَا لَيْلَةً بِتْ أُنْقَى مِنْ بَنَاتِهَا وَفِي لَوَاحِظِهَا خَمْرًا ، وَمِنْ فِيهَا^(٨)
أَحْيَيْتُهَا ، وَأَمَتِ النَّوْمَ مُعْتَصِمًا بِلَذَّةٍ لَا يَكَادُ الدُّخْرُ يُنْسِيهَا^(٩)

(٧) نفوس الخمر (بتثنية النون) : أول إسكارها . والسر : ما تكتمه في نفسك ، وتخفيه . وسر الشيء : أصله . أو أكرمه ، وبخالصه ، وأطيبه ، وأفضله . ورشف الماء ونحوه (من باب نصر وضرب) : مصته بشفته . والمراشف : جيع المرشف (بوزن الملقب) : وهو موضع الرشف . ويراد بمراشفها : ما يحرق على شفها من ريقها ولعابها . وسر المراشف : أصلها . أو مزيتها المسكرة الساحرة الخفية . أو ريقها المذهب الحلو الطيب الخالص . والأراكة : شجرة قاعة ، كثيرة الفروع ، غيرة العود ، متقايلة الأوراق ، لها ثمار حمراء داكنة توكل . والأواك من شجر الحمض ، ويستاك بقبضاله ، وينبت في البلاد الحارة ، وفي صحراء مصر الجنوبية الشرقية ، ويكثر في شبه جزيرة العرب . وشكل الشيء : هيئته ، وصورته . أو شبهه وبثله . وتبادت المرأة تهادى : أى مشت وحدها متمايلة متمايلة غير قوى ، والتهادى من محاسن النساء ، وبواعث الفتنة .

والغنى : أن ريقها منتهى كالخمر ، يسكر مرشفه ، ولذته . وتمايلها في مشيتها يشبه تمايل الأراكة إذا حركتها ريح لينة لطيفة . والتشبهان فيشترى البيت مغلوبان لقبالة يادها أن وجهه انقلب في المنزلة بها - وهو الإسكار والتهاوى - أقوى منه في الخمر والأراكة .

(٨) الفداء في أول البيت يحصل معنى التصعب ؛ فلئلا ليلة فريدة ، خرجت على المألوف من نظائرها ، واشتد تأثيرها في نفس الشاعر ، وبقيت ذكرها في قلبه . والبنانة : طرف الإصبع . ويراد بها هنا : الكف ، أو اليد . والجبع بنان (يفتح الباء) . والواو حط : التميؤ . أو نظراتها الفائقة الساهرة . الواحدة لاحتظة . واستقار الخمر من لها : كناية عن تثليلها ، وإثباتها شفها .

يقود ليلة سهرها مع المنزلة بها ، وبات يستقر الخمر من يدها ، وين حينها ، ومن لها .
(٩) أحيتها : أحيت الليلة : أى سهرتها . وإماتة النوم : تأكيداً لمضى السهر . ومعتصماً : مستمسكاً . يقال : اعتصم به : إذا بلى إليه ، واعتصم به . واعتصامه باللذة : اتجاهه إليها ، وحرصه عليها ، واستمتاعه بها . وأنساء الخمر : أدخله حته ، وأغفله ، وحمله على نسيانه ، وشغل باله حته . وفي التنزيل العزيز : « فإني نصيت الموت » وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره الآية رقم ٦٣ من سورة الكهف .

والبيت تأكيداً لمضى البيت السابق . ومن اللذة أو اللذات التي عاناها ، واعتصم بها في تلك الليلة استقار الخمر من يد الحسنة المنزل بها ، ومن الحانظها ، ومن لها : فقد اكتفى ، وسكر ، واستمتع بالنظر والتفكير . وفي الشطر الثاني معنى غلب ذكرى الليلة في قلبه ، وصير الزمان عن إدراكها في ملابح النسيان .

حَتَّى إِذَا رَفَعْتَ الْغَبْرَ بَوَّابَتَكَ
حَمَامُ الْأَيْكِ تَشْلُو فِي أَغَابَتِهَا^(١٠)
قَامَتْ تَمَائِلُ سَكْرَى فِي مَآزِرِهَا
وَالرُّوحُ يَبْعَثُ طَوْرًا ، وَيُسْقِيهَا^(١١)
تَخْفَى الْغِيَاءَ وَفِي أَزْرَارِهَا قَمَرٌ
يَسْتَوْفُ الْعَيْنَ حَيْرَى فِي مَجَارِيهَا^(١٢)

— (١٠) وإذا : ظرف زمان . وفيه معنى الشرط . ويجوز أن في البيت الآتي : وقامت تمایل ، ورف (كف) : تحرك ، وثلا : ولم . ويعني الفجر : يباين أول النهار . وبادرت : بادرت ، وفارعت : والحمام : جمع حمامة . والأيك : جمع أيكة : وهي الشجر الكثير الكثيف ، انفتح : المنفتح . وتشلو (من باب عدا) : تفتى ، وتسبح ، وتهدى ، وتترنم . وفي أغابها : أي بأغابها ؛ ف « في » بمعنى « الياء » : جمع أغنية (بضم فسكون فكسر ياء مفتوحة مخففة) : وهي الغناء ، والتطريب ، والترجيع ، والترنم بالكلام الموزون وغيره . أو ما يترنم به المثنى من الكلام الموزون وغيره :

(١١) شرط « وإذا » في البيت السابق ، وهو « رف » غبط الفجر . ويجوز في هذا البيت ، وهو « قامت تمایل » وأصلها تمایل ، ثم حلفت إحدى التامين للتخفيف : أي تترنم وتكسر السكر . وسكرى : مثقبت سكران : وهو من غيبت الخمر عقله وإدراكه . والمآزر : جمع مئزر (بوزن مئبر) : وهو ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن . وظله الإزار (بوزن الكتاب) . ويراد بمآزرها : ثيابها . والروح : الفزع والخوف (وفعله من باب قال) . ويبعثها (من باب قطع) يبعثها ، أو يبعثها ، ويرسلها : أي يبعثها على التفتت والانطلاق . والطور : المرة والنجاة . ويشتها (من باب رم) : يردها ، ويبعثها ، ويبعثها على التفتت ، والتلبث ، والإحجام ؛ فالنبي هنا : ضد البعث . يقال : ثناء من كذا : أي صرفه عنه ، وردّه ، وكفّه . والروح فاعل يبعثها ، وفاعل يبعثها ؛ فهو مرة يردها إلى البقعة والانتباه ، ويخرجها من سكرة الخمر ؛ فتنتفع منتقلة إلى منزلها . مرة يحيط عليها خوف الانتفاض بطول النهار ، فتصحب عن المسير ، ويشتت .

ومعنى هذا البيت والذي قبله . أنه لما طلع الفجر ، وضحت الطير على الأشجار تخطت النهار ، وتنبه الغالطين — قامت المتفرق بها سكرى تمایل في أغابها ، ويساورها الخوف من انتفاض أمرها بطول النهار ؛ فهي مترددة في سيرها إلى منزلها ؛ فتقدم ، وتحمي ، وتنتقل ، وتشتت . وفي الأبيات الآتية مزيد لهذا الفرح ، وبيان لقصة حودتها إلى بيتها في نهاية هذه الليلة الساحرة السعيدة اللامعة الماجنة .

(١٢) الواو في الشطر الأول : واو الحال . والخلة الاسمية بعدها : جملة حالية . والأزوار : جمع زور (بكسر الزاي ، وتشديد الراء) : وهو شيء كالخلة ، أو القرس ، يدخل في حرية التقيص ونحوه ليحكم على جسم لأبيه . وزور التقيص ونحوه (من باب رد) : إذا شد أزواره . وتشبهه الحسان من النساء بالقرص في إشراق الوجه ، والبهاء ، وحسن الرواء . ويشار بالخلة الحالية هنا إلى الاحتواء التام ، —

ثُمَّ انشئت وَيَدِي (قَيْدٌ) لِخَاصِرَةٍ كَالْخَيْرَانَةِ رِيًّا فِي تَفْنِينِهَا (١٣)
 فِي بُلْجَةٍ لَا تَكَادُ الْعَيْنُ تُنْكِرُهَا وَمُسْمَرَةٌ رُبْعًا شَفَتُ نَوَاحِيهَا (١٤)

= والجَمع الشديد؛ فالنظر بها قد احتوت فيها القمر، وسميت بحاسه ومزاياه، واستقره: سألته الوقوف، وصله عليه. ويسرى: حارة مترددة. والمجازى: جمع المجرى: وهو مكان المجرى والاندفاع والانطلاق. ويجرى العين: تجويفها الذي يجرى فيه ويحرك. أو مجال النظر والإبصار. يقال: فلانة تسقيف العين، وتقرق العين: أي تشغلها بالنظر إليها من النظر إلى غيرها لحسبها. والشطر الثاني كناية عن أن المتفرق بها فائقة الحسن، باهرة الجمال، شديدة التأثير، تسحر الأبصار، وتعمى البصائر.

عاشت هذه الحسنة الخضر أمرا بضيء النهار، وهي تروى أزوارها على قصر تام الضياء، باهر الرواء، يستوقف السيوف، ويسحر الأبصار، ويأسر القلوب.

(١٣) انشئت: انطلقت. والمراد: سارت، وسفت. وانشت في مشيتها: تمايلت، وتبخرت. والكلمة التي بين القوسين جاءت في الأصل «يد» وهي من تحريفات النسخ وأخطائه. والخاصرة من الإنسان: وسطه: ما بين رأس الورك، وأسفل الأضلاع. وهما خاصرتان. وهذه قيد خاصرتها: أي يده في خاصرتها، عسكة يد، مقيدة لها، وجنبا إلى جنبه. والخيرانة: واحدة الخيزران (يفتح لسكون فصح فيها): وهو شجر حلق، ليس القيقبان، ألس الميدان. ومن كلامهم: «كان» قدما خصن بان، أو قصب خيزران. وريّا: ممتلئة في نصارة وبضارة. والأصل: روى من الماء ونحو (كرسى): أي شرب وشبع، فهو ريان، وهي ريانة، وريانة. وروى الشجر والنبات: تنعم، وغفر، وغفر. وتكنت المرأة تكنتا: التنت في مشيتها، وتمايلت. وتبخرت: فالتفت: المشية التي فيها تلكتك، واضطراب، واسترخاء، كأنها تتحل أعضاءها، وبذلك يعضها من بعض في تبخرتها.

شبهها بالخيزرانة في اللون، والمرولة، والنموية، ووصلها بالري، والامتداد، والنفارة والفضارة. وقال: إنها تمشى متبخرة معجبة بنفسها، معجبة لذاتها، وإله سائرها وصحبها وهي منصرة إلى منزلها، فكان جنبه إلى جنبها، ويده عسكة بخاشرتها.

(١٤) البليجة (بضم الباء وفتحها): فوه الصبح عند انصداع الفجر. وأنكر الشيء إنكاراً جهلاً، خلاف حرفه. ويراد بالشر الأول أنها بليجة مزينة واضحة، لا ريب فيها. والسرعة: لين الأمر، والسرعة: وهي مزينة في الألوان بين البياض والأسود (وهله كصب وكرم). ويراد بالسرعة هنا: الظلمة الغليظة الخفيفة الباقية في الأفق من ظلام الليل، قبل بلج الصبح، وانقناع النهار. وشفت (بالفاء): رقت وغطت، من قولهم: شفت الثوب ونحو: أي رقت حتى يرى ما خلفه. ولواحيها: نواحي السرة: أي جوانبها، وجنبا لها، وأجزاءها. وشفت لواحها: تأكيد لحى السرة: أي قلة الظلمة وغطتها في نهاية الليل، وأمل النهار عند انصداع الفجر. أو هي «شفت» (بالقاف). ولواحيها: أي نواحي البليجة. وشفت السرة لواحها البليجة: أي غايتها ومازجتها؛ فالكلتان: «شفت» و«شفت» تنهيان إلى معنى واحد.

حَتَّى تَجَاوَزْتُ أَحْرَاسًا عَلَى شَرْفٍ يَكَادُ يَمْنَعُ هَمَّ النَّفْسِ دَائِعِيهَا^(١٥)
وَحَرَكْتَ حَلَقَاتِ الْبَابِ ، فَانْفَعَتْ عَنْ سَاحَةِ سَكَنَتْ فِيهَا تَرَاقِيهَا^(١٦)
فَعَدْتُ وَالْعَيْنُ غَرَقَى فِي مَدَائِعِهَا وَالْقَلْبُ فِي لَوْحَةٍ تَنْزُو نَوَازِيهَا^(١٧)

= والبيت في وصف اختلاط الظلمة بالبلجة في أوامر الليل ، وأوائل النهار ، حين الصداح الفجر .
(١٥) تجاوزت : تخطته ، وخطته ورائه . والأحراس : جميع حارس : اسم فاعل من حرسه
(من باب نصر وكتب) : أي حفظه ووقاه ، وقام على حراسته وحمايته . والشرف : الموضع
العالى ، يشرف على ما حوله : أي يطلوه ، ويطلّ عليه . و « على شرف » : تأكيد لمعنى الحراسة ،
والبلجة ، والإشراف ، والإطّلاع . وكاد يفعل كذا : همّ ، وقارب ، ولم يفعل . والممّ : أول الزمرة .
وما همّ به الرجل في نفسه : أي ما أراد ، ومزمع فعل القيام به ، ولم يفعله . ومدايعها : أي دامي
الأحراس : أي ما لدخول إليه ، وتأثر به ، وطلبه . ومعنى الشطر الثاني : أن هؤلاء الحراس من
القوة ، والبلجة ، والتمكّن بحيث يردعون غيرهم ، ويردّونه عما همّ به في نفسه ، ومزمع عليه ،
ولم يفعله .

في البيت الثالث حشر قال : إن المتفرد بها اكتنت إلى منزلها ويده في غاصرتها . وفي هذا البيت
أنه تجاوز بها أسراساً أيقظاً شداداً ، يهيجهم الناس ويضطربونهم ، ولا يحاولون مخالفتهم ، حتى فيها
يسكن به ، ويسرّونه في أنفسهم من الأمور . وفي البيت فخر فسمى بأنه كان أقوى من هؤلاء الحراس ،
وأشدّ بأساً ، أو أوسع حيلة ، وأحوط وسيلة .

(١٦) حلقات الباب : جميع حلقة (يفتح فسكون ، أو يفتحون) : وهي ما يملئ عليه ،
ليقرع به . والساحة : الباحة . والروحة . والمكان الواسع . والتراقى : جميع الترقية (يفتح فسكون لضم) :
وهي مقدم الخلق في أعمال الصدر ، حيث يترقى النفس . وسكون التراقى : كناية عن الصمت ، والسكون ،
وسكون الأصوات ، والإغراق في النوم .

يقول : إنها فحمت باب بيتها ، فالفتح عن ساحة ما زال من فيها فأنهين .

(١٧) الوار في شطري البيت : وأحوال . والجملّة الاسمية بعد كل منهما : جملة حالية . ويقال :
عين حرة (بوزن فرسة) ، وعاقة ، وغريقة . أما الفرق فجميع فريق - فبا لعرف - مثل مريض
ومرضى ، وقيل وقتل . والمدايع : جميع منبع (بوزن مذهب) : وهو مسيل النبع ، وسكاته ، وبجتمه
في فواحي العين . ويراد بالمدايع هنا : النمر . والوعدة : حربة الحب ، والشرق : والممّ ، والحزن ،
ونحو . وتنزّو (من باب عدا وصا) : كتب ، وقفز . والمراد بنزو الوعدة : اشتدادها وتلقبها . ونوازيها :
شدائدها ، ولواصيها : الراسدة نازية : وهي الحدة والانشاط : اسم فاعل من نزا . وفقر عينيه في المدايع ،
وانتباح قلبه : تميز ببلغ عما ساوره من الفهم والحسرة بافتراق ما اجتمع من الشغل ، وانقطاع الهوى واللة
بأنهاء تلك اليلة الساحرة اللامية المحتة الرائعة .

فِيَالَهَا لَيْلَةً ۚ كَانَتْ بِوُضُلَيْهَا تَارِيخَ لَهْرِ يَبْجُجُ النَّفْسَ رَاوِيَهَا^(١٨)
وَقَالَ يَصِفُ رَوْضَةً «بَرْجِينِيَا» فِي جَزِيرَةٍ «سَرْنَلَيْب» ۚ وَهِيَ إِحْدَى
جَنَّاتِ الدُّنْيَا :

وَمَسْرُوحٌ لِيَسْوَامِ الْعَيْنِ لَيْسَ لَهُ فِي عَالَمِ الظَّنِّ تَقْدِيرٌ ۚ وَلَا شَبَهُ^(١٩)
= صاحب الشاعر المنقول بها إلى دارها حينما أتيت عليها الفجر يضاهيه ۚ فافترق ما اجتمع من شملهما ،
ولفتى ما كان من اللذة واللذة ، وهاد إلى منزله بأكي العين ، ملتحاق الفؤاد .
(١٨) يا ذا ليلة : أسلوب تعجب . والوصلة (بضم فسكون) : الاتصال والالتصاف . وبينهما
وصلة : أي اتصال وذريعة . وهذا وصلة إلى كلا : أي سبب ووسيلة . والقهر : ما شغلك عما ينبغيك ويملك
من جد الحياة ، والأعمال النافعة . ويحبر بالهوى عن كل ما استمتع به اللاهي من هوى ، وطرب ، ومتعة
ولذة . وهاج (من باب هاج) : حركه ، وأثار . وراوينا : أي راوى الوصلة : اسم فاعل من روى
الحديث ونحو يرويه (كرماء يرويه) رواية (بوزن رواية) : أي حمله ، ونقله .
تبيهاً لشاعر في تلك الليلة ما لم يتبيهاً له في غيرها من وصال ، وشراب ، ووضوح ، ولذات ۚ فصحب
منها ، وصحب غيره ، وتحرر على فواتها ، وقال : إن تاريخها تاريخ طر وجمالة ، هيج النفس ويطربها
كلما روى ونقل .

• «سرنليب» ، واسمها المشهور اليوم «سيلان» : جزيرة كبيرة بالمحيط الهندي ، في
الجنوب للشرق الهند ، بها كثرة من البوذيين ، وقلة من المسلمين من أصل عربي . دخلها آباؤهم
تجاراً في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، وسموها «سرنليب» . ثم استعمرها البرتغاليون ،
وظلت تحت حكمهم من سنة ١٧٩٥ إلى أن استقلت في نطاق الكومنولث البريطاني سنة ١٩٤٨ . وإليها
في البارودي مع ستة آخرين من قادة الثورة العراقية عقب إخفاقاتها في صفر سنة ١٣٠٠ هـ (ديسمبر
سنة ١٨٨٢ م) وفي مقدمتهم أحمد حراي ، فليشا بها نحو سبعة عشر عاماً . أقام البارودي بركة في
«كوليبو» حاضرة تلك الجزيرة ، وأهم ميائنها ، ثم سميت بها محبته ، فنقل منها إلى «كتلى» ،
وهي من أشهر مدنها ، حل بعد ثلاثة وسبعين ميلاً من «كوليبو» . وفي «كتلى» حديقة النباتات
الكبرى ، وتسمى حديقة «بردينيا» ، مساحتها نحو سبعة فدان ، حل نهر «سرادينيا» الكبير .
وتعد تلك الحديقة من عجائب الدنيا ، وأعظم جنتائها ، «كشيب بوآن» ، و «صُغْد سَمَرْقَنْد» ،
و «الأبله» بالعصرة ، وهذه القصيدة الحائية وصف البارودي روضة «بردينيا» ، كما وصلها بقصيدة
أخرى قافية (في ٢٣ بيتاً) ، مطلعها :

دَعَا نِي إِلَى عَيْشٍ الصَّبَا بَعْدَ مَا مَقَى مَسْكَنَ كَفِيرٍ دَوَّرَ الْجِنَانِ أَنْيَقُ
وقد نشرت في الجزء الثاني من شرح هذا الديوان ، قافية القاف ، ص ٣٢٣ - ٣٢٨ طبعة دار
المعارف بالقاهرة .

(١) الراو في أول البيت : «لو» وب : «هي حرف خافض يدخل على النكرة : أي وب =

بَاكَرْتُهُ سُحْرَةً وَالشَّمْسُ نَاعِسَةٌ فِي خَيْرِهَا وَحَكَامُ الْأَيْلِكِ مُنْتَبِهٌ (٢)
وَلِلْعَمَالِمِ بَيْنَ الْأَقْفِ مُنْسَحَبٌ وَلِلنَّسَائِمِ نَحْوُ الرُّوْضِ مُتَجِّهٌ (٣)

= مسرح ، ويقيد هنا التقليل ؛ لأن المسرح المراد بها جنان الدنيا ، أو صغارتها قليلة معدودة . والمسرح (يوزن للمذهب) : المرمى ، والمرتع : اسم مكان من سرحت الماشية (من باب خفض ورفع) : أى رقت ، وبعث ، وأكلت العشب والكلأ . والسوام (يضم السين) : السوم (يفتح فسكون) : مصدر سامت الإبل (من باب قال) : أى رمت حيث شامت ، أو دامت على المرمى والكلأ . أو هى « سوام » (بكسر السين) : بمعنى المساواة : مصدر ساوته فى البيع والابتعاث : أى قارفته . والكلام فى كلا التفسيرين على إيجاز ؛ فالمراد بسوم العين : هيجتها ، وقرتها ، وعتبتها العظيمة الواسعة ، وتغفلها بين مناظر كلها أبقى للعجب والحق فائق . **الْوَيْسُ لَهُ : إِلَى الْيَسْرِ الْمَسِيرُ : وَالطَّامُ (يفتح اللام)** : كل نوع من أنواع الحفريات ، كعالم الحيون ، وعالم النبات . والظن : أن يدرك اللحن الشيء مع ترتيبه . ويراد بعالم الظن : عجمه الواسع ، ودائرته العظيمة . وكل ما يدركه اللحن بالظن ، أو التخيل ، أو التخييم . ولا ريب أن عالم الظن وأشياء أكبر وأوسع من عالم الحقيقة والنظر . وقدّر الإنسان الشيء تقديراً : عرف مقداره ، وبيّنه . وشبه الشيء ((بفتحين)) : مثله ، وظهره ، وشبهه .

يقول : إن هذه الروضة الأريضة الأنيقة مسرح عظيم ، وعجّال واسع لما يجمع العيون ، ويجمع القوالب . ويبالغ فى هذا المعنى بمبالغة جميلة ، فيقرر أنه يدرك كل ما يلعب إليه ظن الإنسان وشيأه المحدث السريش النسيج .

(٢) باكرته : أى باكرت المسرح المراد به الروضة ، أو الجنة ، أو الحديقة ، أو البستان ، وباكرته : بادرت إليه ، وسارعت . أو قصدت إليه بكرة : أى باكرأ فى أول النهار . والسحر (يفتحين) : آخر الليل ، قبيل الصبح . ومثله ، أو قريب منه السحرة (يضم فسكون) : وهى السحر الأعل ، قبيل انصداع النجر . ويلاحظ أن الشاعر توسّع فى استصاها ما : أى حسنها أكثر من معناها القوي . وناعسة : نائمة . وقد نس (كنع) . والخلد : السّر (بكسر فسكون فيها) . وكل ما وازك من بيت ونحو . والأيلك : جمع أيلكة : وهى الشجر الكثير الكثيف ، المجمع المنكف . ومنبه : يفتتان : اسم لامل من التيه التام التيهام : أى استيقظ ، وصحا من نومه .

والحنى : أنه سارع إلى هذه الروضة الأريضة بعد انصداع النجر ، وانتهاء الطير ، وقبيل طلوع الشمس ، وامتداد النهار .

(٣) النّاسم : جمع نامة : وهى السحابة . والأق (يضم فسكون ، أو بفتحين) : منتهى ما تراه العين من الأرض كأنها التفتت عليه بالنساء . والمراد بالأق هنا : اتفاق النساء ونواحيها حيث يجمع السحاب ، ويحرك . ومنسحب : انسحاب ، وانجرار ، وحركة . والنّاسم : جمع النسم : وهو الريح الينة العظيمة الطيبة . والروض : جمع روضة : وهى : أرض أريضة أنيقة معجبة بمائها ، وعشبتها ، وأنواع النبات والأزهار . ويجمع أيضاً على رياض ، وروضات . ومنبه : انجاء ، وإقبال

وَالْجَوِّ فِي حُلَّةٍ دَكْنَاءَ مَا زَجَّهَا خَيْطٌ مِنَ الْفَجْرِ يَبْتَلُو، ثُمَّ يَمُتُّهُ^(٤)
فَالنُّورُ مُنْقَبَضٌ، وَالظِّلُّ مُنْبَسِطٌ وَالطَّيْرُ مُنْشَرِحٌ، وَالْجَوُّ مُدْلِي^(٥)
مَنَاظِرٌ لَوْ رَأَى بِهِزَادٌ، صُورَتَهَا لَأَعْنَادُهُ مِنْ تَمَادِي الْحَيَرَةِ الْبَلَّةِ^(٦)

(٤) الجو: الفضاء بين السماء والأرض. وما اتسع من الأرض والمنخفض. والحلة (يضم الحاء): الثوب الجيد الجديد. أو ثوب له بظلة. أو ثوبان من جنس واحد. أو ثلاثة أثواب. وكناء: مغبرة؛ يحل ثوبنا إلى السواد؛ من الدكنة (يضم فسكون): وهي لون يضرب إلى السواد (والفعل من باب طرب). ومازجها: خالطها. وخيط الفجر: ضوء وقت انبساط الصبح، وطلوع النهار. ويبدو (من باب سما): يظهر ويصبح. لا يخطط بظلمة الليل. في وصف دكنة الجو: وقت الفجر، قبل طلوع الشمس، وامتداد النهار. أو بين الليل والنهار، فليابه في هذا الوقت دكناء غير فاصعة، وضوء متردد غير مستقر؛ فهو يبدو لاهماً، ولا يلبث أن يخطط بظلمة الليل قبل أن تنجلي وتشتت.

(٥) يراد بالنور أول البيت: ضياء الشمس. ويتنطق: متجسج، متطو، غير منبسط. والظل: ضوء شمس الشمس إذا استمرت عنك بمجاز. أو هو ما لم يكن عليه الشمس. أو ما كانت عليه الشمس، ثم زالت عنه. أو هو كل موضع لم تصل إليه الشمس. ومنبسط: منتشر، متسع، ممدود. والطير: جماعة. وثأنيها أكثر من تذكرها. وفي التنزيل العزيز: «ألم يروا إلى الطير مسطرات في جحر السماء» ما يمكن إلا الله الآية رقم ٧٩ من سورة النمل. والانشراح: الانبساط، والانتعاش. وانشرح للأمر: سر به، وأقبل عليه، وارتاح له. وبذلك: متحير، متردد؛ اسم فاعل من أدكه ادلاها. وصيغة الاتصال من دله (كتب) ليست صريحة في المعجمات التي رجعت إليها، ولكنها صريحة في تله (كتب) في قوله (كعبه، وكتب): بالفتح السابق؛ وهو الحيرة، والتردد. يقال: اتكه اتكها، فهو متكه (مفتعل من تله، ووله). ويلاحظ أن الشاعر وصف الجو في البيت السابق بالدكنة، وقال: إنها دكنة التردد بين ظلمة الليل وضياء النهار حين انبساط الفجر. والجو في هذا البيت متردد أيضاً بين ظل الأشجار، وضياء الشمس.

يشير إلى بعض ظواهر الجمال الطبيعي الباهر في تلك الروضة الأريضة؛ فأشجارها كثيرة عظيمة، كثيفة، ملتحقة، ذات ظل منبسط ممدود، وضياء الشمس فيها منقبض ممدود، ويبدو متردد بين كثافة الظل، وضياء الشمس، وطيرها في بهجة والانشراح، وريح وأريج.

(٦) «مناظر» منوعة من الصرف؛ أي المتنوع. وإنما نوّنت هنا لضرورة وزن الشعر. واسمها: منظر (بوزن مذهب)؛ وهو ما ينظر إليه، فيروق، ويعجب. وكال الدين أستاذ بهزاد: (١٤٤٠ - ١٥٢٢) من أعلام التصوير الإسلامي، وأشهر مصوري الفرس، وفنانهم، وعُظمائهم. وفي دار الكتب المصرية بالقاهرة بعض أعماله الفنية. وتمتاز صوره بالطوليين الحكم، والدقة الفائقة.

كَأَنَّمَا النَّوْحُ قَصْرٌ وَالْحَمَامُ يَدٌ يَرْبُ مِنَ الْغَيْدِ بِأَلْحَانٍ تَبْتَدِيهِ (٧)
 طَوْرًا تَغْنَى ، وَأَحْيَانًا تَنْجُحُ ، فَمَا ذَلِكَ الْغِنَاءُ ، وَهَذَا النَّوْحُ وَالْوَلَهُ (٨)
 كَأَنَّمَا الْأَوْرَقُ الْغَرِيدُ جِئَنَ شَدَا فِي سُرْبَةِ الْإِنْسِ مِنْهَا - شَارِبٌ لَهَا (٩)

سقى الأداء ، والخيرية المنجحة من أشكاله وألوانه المصيبة . واعتاده : انتابه ، وأصابه . وتماهى الحيرة : طيل التحير ، وامتداده ، وفرط الدهش وإزدجاده . والبله : قلة القطعة ، وغلبة الغفلة ، وضف العقل (وصله من باب طرب ، وسلم) .

والمنى : أن الناظر والمُشاهد والصور والظواهر في هذه الروضة راققة فائقة ، معجبة مدحمة ، تهر أمهر المصورين وتحييه .

(٧) النوح : جمع دوسة : وهى الشجرة العظيمة المشعبة ذات الفروع الممتدة . والقصر : بيت فخم واسع حال . والسرب (بكسر فسكون) : الفريق ، أو الطائفة ، أو الجماعة من الطير والحيوان . ويقال : سرب من النساء ، على التشبيه بسرب النخلاء . والغيد (بكسر الهمزة) : جمع غيداء (بوزن يفضاء) : وهى المرأة الناحية ، تهايل ، وتجننى في لين ونعومة : صفة من الغيد (بفتحة) : وهى النعومة ، ولين الأعطاف ، وحسن التنى . والألحان : الألحان : جمع لحن (بوزن فرج وأفرج) : وهى الصوت الموسيقى الموضوع للأغنية . ولحن القارئ في قراءته (من باب قطع) : إذا طرب بها وفرده . ويحدثه : أى تستقبل القاصدين لهذه الروضة . والابتداء (فى الأصل) : الارتجال والمفاجأة والمباينة .

شبه أدراج هذه الروضة العظيمة بالقصور الفخمة الفاخرة العالية ، وجعل الطيور المفردة فوقها أسراباً من العادات الحسان الناحات ، يستقبلن المتزعمين بالألحان والألحان المطربة .

(٨) الطور : المرة ، وأتارة . والأحيان : جمع الحين (بوزن فيل وأنيال) : وهى الوقت . ولحاح ينجح لوجاً (من باب قال) : يكى ينجح ويوصل وصيالح . وناحت الحماة : سمجت ، وهدرت : أى ردت صوتها على طريقة واحدة . والغناء (بكسر الهمزة) : التطريب ، والتفريد ، والترنم بالكلام الموزون وغيره . والوله (بوزن التصب) : الحزن الشديد الذى يلهب العقل . والتحيير من شدة الوجد . ومن معانيه الحنين ، والخوف (والفعل من باب تمب) .

فى البيت السابق : أن أطيار هذه الروضة تفرده وتسبح فوق أشجارها الياسقات . وفى هذا البيت : أن هذا التفريد مختلف متنوع : فهو أحياناً يشبه الغناء الذى يبعث الفرح والسرور ، وأحياناً يشبه النواح الذى يثير الوله والحنين ، وأحياناً يتم على الحنين ، أو التنجيح . يشير بهذا كله إلى كثرة الطير ، وتنوعها ، واختلاف أصواتها المصيبة .

(٩) الأورق : الطائر الرمادى اللون : صفة من الورقة (بضم فسكون) : وهى لون بين البياض والاسود ، كلون الرماد . والغريد (بكسر الهمزة وتشديد الراء المكسورة) : الكثير الغرد (بوزن الفرج) : وهى وقع الصوت بالغناء ، والتطريب به . (والفعل من باب طرب) . وشدا (من باب عدا) : تغنى ، —

شَارَفْتُ سَاحَتَهَا فِي قِتْيَةٍ أَلْفُوا صِدْقَ الْوِدَادِ قَلَمٌ تَعْرِضُ لَهُمْ شُبَّةٌ^(١٠)
 مُوقَّرُونَ ، كِرَامٌ ، لَا يَخْفُ بِهِنَّ طَيْشٌ ، وَلَمْ يَجْرِ فِي أَخْلَاقِهِمْ مَقَّةٌ^(١١)
 مِنْ كُلِّ مَا خِىَ الشُّبَا وَالرُّوْعُ مُحْتَلِمٌ وَمُسْتَمِيرٌ الْحِجَا وَالْأَمْرُ مُشْتَبِهٌ^(١٢)

= وقترم ، وطرب . والسربة (يضم فسكون) : الجماعة من الظباء والخيل وغيرها . وسربة الإنس جماعة الإنس : وهم البشر والناس . ومنها : أى من سربة الإنس . وشارب : غشور : أى شرب الخمر ؛ فأسكرته . ولكه : مزاج ، كثير الدعابة ، طيب النفس ، مشرق الصدر . (والفعل من باب نرج) . شبه الأورق القريد بالشارب الفكه ، يشعو وطرب في جماعة من الناس ، مشيراً بهذا إلى ما يفسر أطياف هذه الروضة وقاصدها من النقطة والهجعة ، والارتياح والانفراح ، فالطير تفرّد في انتشاء وفكاهة ، وطيب نفس ، ورضاء بال .

(١٠) شارب الشيء : ذاقه ، وقارب . أو أطعم عليه . وساحتها : ساحة الروضة . والساحة : المكان الواسع . ويقال : نزل بساحة : أى نزل به ، فلقى من الكرم والرحيب ، والخلابة . والقنية : والتيتان (بكسر فسكون فيهما) : جمع قى : وهو الشاب . ويريد بالقنية هنا : جماعة من صبيبه وخلصائه . وألف الشيء (من بابي علم وفهم) : أنس به ، وأحبه ، واعتاده . والوداد : المودة والمهبة . وصدق الوداد : المودة الخالصة ، والصحبة الصادقة . ويعرض له كذا (من باب ضرب) : بدا ، وظهر ، وبرز . والشبه : جمع شبهة (يوزن نوعة ونزو) : وفى الالتباس ، والاختلاط . ولم تعرض لم شبه : تأكيد لمضى صدق ودادهم .

يقول : إنه نزل هذه الروضة مع جماعة من صبيبه احتادوا صدق الوداد ، ونزحوا من الربوب والشبهات . ولا ريب أن مثل هؤلاء الأخلاء يضاعفون بصحبهم النقطة والابتهاج . وفى الآيات الآتية إلى نهاية هذه القصيدة منح وإطراء لهم ، وحسن ثناء عليهم .

(١١) موقرون : جمع مقرر : اسم مفعول من التوقير : وهو التزوين ، والتعظيم ، والتبجيل . ورجل زرين : أى حليم ، بقور . وكرام : جمع كريم : صفة من الكرم بمعنىته الخالص . وهو اللبل ، والجود ، والسخاء ، والإعطاء بسهولة وطيب نفس . وأريحية . أو بمعنىته العام : وهو اسم للأخلاق الكريمة ، والأفعال الحميدة ، والخاص الكريمة التى تظهر من الإنسان . وشف عقله : طاش وحسن . والطيش : التزق ، والخفة ، والزلل ، والاضطراب ، والاعتراش (وقوله من باب باع) . ولا يخف جه : أى لا يترجم طيش يلعب بقوامهم ووزانهم ، ويحصلهم على التزق والخفة ، والحملة ، والجمل . والسفه : الخفة ، والطيش ، والحق ، والجمل . (وقوله من باب تب) . وقوله الحلم والزناة ، والمقل ، والقرار .

(١٢) ماخ : حاد ، سريع القطع . وشبة السيف ونحوه : حدة القطع . وجمه شبا (يوزن قلة : وقلا) . والولو في شطري البيت : وأوالحال . والجللة الاسمية بعد كل منها : جملة حالية =

إِنْ حَدَّثُوا مَلَكُوا الْأَسْمَاعَ مِنْ أَدَبٍ هُمْ أَهْلُهُ ، وَإِذَا مَا أَنْصَتُوا فَقَرَّبُوا^(١٣)
 شَرَابَنَا صَفَوْا مَاءَهُ ، لَا يُكَاوِرُجُهُ إِلَّا حَدِيثٌ كُنُوزِ الرُّبَا نَزَهُ^(١٤)
 فَإِنْ يَكُنْ فِي عَفَافِ النَّفْسِ مَحْكَمَةٌ لَهَا ، فَقِي مِثْلِ هَذَا يَحْسُنُ الشَّرَّهَ^(١٥)

= والروح (يفتح فسكون) : الحرب. وأصله الفزع : والذعر ، والخوف (وقله من باب قال) . ومحتم
 (بصيغة اسم الفاعل) : مشقة ، ملهيب : من استحمم النار : أى اشتد توقدها وتلهبها ، وحرقها .
 ومستتر : منير مفعول . والخبيا : العقل . واشتبه الأمر : اعطط ، وضي ، وأشكل ، واستبهم ،
 واستغلق .

في البيت السابق ملح هؤلاء الفتية بالكرم ، والبخار ، والخلم ، والزنازة ، وفيهم الخفة والطيش والسفه
 والجهل ، مؤكداً بهذا النفي فضائلهم التي نوه بها ، وقال : إن الناس يقررونهم ويحبسونهم ، ويظنون شأنهم .
 وفي هذا البيت مدحهم بالشجاعة الحربية ، وشدة البأس ، والإقدام في مواقف الفزع ، وولان القتال ،
 وقال : إن أملتهم ماغية صارية إذا استحم الروح ، وقامت الحرب حل ساقها ، كما مدحهم ببرجاسة
 العقول ، واستنارة البصائر إذا اشتدت الأمور ، وأشكلت ، ونفى وجه الحق والصواب .

(١٣) يراد بالأدب : الحديث الجميل الرائق المنيع الشائق النافع بضروب العلم والمعرفة . وأهل
 الأدب : أصحابه وفخروه . وأنصت إصنائاً : استمع . أو أصن الاستماع لحديث غيره ، وأغاد منه . وقله
 الأمر (كلمته) : فهمه ، وفطن له ، وأحسن إدراكه .

(١٤) صفو الشبه : صفائه ، ومعالصه ، ورائقه . ولا يمازيه : لا يخالطه . والنوار (بورن
 الخطلح) : الزهر . واهتفه فؤاده (بورن تقاضه) : والربا (يضم الراء) : جمع دوبة (بتثنية الراء)
 وهي ما ارتفع من الأرض . وحديث نزه (بورن كشف) : نزهه ، عفيف ، كريم ، مجرباً من الهجر
 والفحش ، بعيد عن الأسماء ، والشوائب ، والمتاعص ، والعيوب . وقد يحمل مع هذا معنى الهجة ،
 والزينة ، والتلون ، والتمشوق ، فهو كزهر الربا ، يمدح فيه المستمع كل ما يرويه ويشقه ، ويعجبه
 ويظهره ، ويحبه ونسره .

(١٥) حرف مفعلة ومطافاً : كتب عما لا يحل ولا يحمل من الأقوال والأفعال . والمعدة (يفتح
 الميم) : أى يفتح الأولى وكسر الثانية) : ما يحسد الإنسان به ، أو عليه . وجمعها محامد . وفتيحها
 اللمة والمثلية والمنظمة . ولما : أى لنفسه . وأشره : مصدر شره إلى الطعام وغيره ، وشره عليه (من باب
 طرب) : إذا اشتدت وشيق فيه ، وسروره عليه ، واشتهاه له .

في البيت السابق معنى العفة ، والترفع عن الشوائب ، فهو وصيه بتركهم عن لغو الكلام ،
 وقبول القول ، وما حرم من الطعام والشراب ، ويصبرون الأدعيه المنيع الرفيع في أحاديثهم ، والطيب
 الثوب الخلال في ألبستهم وأشريتهم . وفي هذا البيت أن عفة النفس من المحامد التي يحسن الحرص عليها ،
 وأشره إليها .

وَقَالَ يَمْدَحُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ (عَلِيًّا ، كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ :

أَحَبُّنِي مَنْ وَالَى (عَلِيًّا ، رَغْبَةً فِي فَضْلِهِ ، وَكَوْنُهُ مِنْ عَادَاهُ) (١)
هُوَ ذَلِكَ الْحَبْرُ الَّذِي مِنْ أُمَّهُ نَالَ الرِّضَا ، وَأَجِيبَ مَنْ نَادَاهُ (٢)

• حل بن أبي طالب : رابع الخلفاء الراشدين ، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزوج ابنته فاطمة الزهراء ، ووالد الحسن والحسين ، سبط النبي عليه الصلاة والسلام . ولد لاثنتين وثلاثين سنة من ميلاد الرسول ، وعاش في كنفه صبيًّا ، وآمن برسالته وهو في الماشرة ، ونام في فراشه ليلة هجرته ، وشهد جميع الغزوات إلا غزوة تبوك ، وكان من أوائل المهاجرين في غزوة بدر ، ومن ثبوت مع النبي في غزوة أحد وحنين ، وحل يديه فتمت خير . وبعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه بايعة بالخلافة كثرة المسلمين ، وتظلم بعض كبار الصحابة ، فكانت وقعة الجمل بالبصرة ، ثم اشتدت الحفوة بينه وبين معاوية بن أبي سفيان ، فخرّدا جيشين كبيرين التقيا في سهل حصبين على نهر الفرات ، شرق « حلب » . ثم نبت مسألة التحكيم ، فأصبح جيش « حل » موزعًا ملزمًا أن يقاتل أنصار معاوية ، والتابعين على الخليفة ، المتطهين بفكرة التحكيم . وفي سنة ٤٠ هـ (٦٦١ م) اختار « عليًّا » رجل من الخوارج اسمه « عبدالرحمن ابن ملجم » وهو يومئذ بسلامة الفجر في مسجد الكوفة ، فأتى عن ثلاث وستين سنة ، ودفن بالكوفة ، وإليه ينتسب الشيعة العلويون . وقد اجتمع لعل رضي الله عنه ، وكرّم الله وجهه ما لم يجتمع لغيره من فائق الشجاعتين الحربية والأدبية ، وواسع العلم والمعرفة ، وموهبة الفصاحة والبلاغة ، والمقدرة الخطابية ، وطلاقة اللسان ، ومحرر البيان .

(١) والى عليًّا : أحبه ، وفصره ، وشأيمه ، وحبابه . وفي فضله : في فضل « علي » : أي في فضائله ، وعامله ، ومزاياه . والفضل (في الأصل) : الزيادة . وغلب في الزيادة المحمودة ، كفضل العلم ، والحلم ، والتأثير ، والبر . ومن معاني الفضل : الإحسان ابتداء بلا علة . وعادة معاداة ، وعادة (بكسر الميم) : كرهه ، وشأيمه ، وكان عدوه . والمعاداة : ضد الموالاة .

(٢) الخبر (يفتح فسكون ، أو بكسر فسكون) : العالم الصالح . وأسه (من باب رد) : أرادته ، وقصده . ورضيه ، ورضى به ، ورضاه ، وعليه يرضاه (كمشيه يمشاه) . رضاً ، ورضواناً (بكسر الراء وضمة هاءين) . وأجابه إجابة : رد له الجواب ، وأفاده عما سأل . وأجاب طلبه : قبله ، وقضى حاجته . في البيت الأول قال : إنه يحب عليًّا ، ويجب من ولاده ، رغبة في فضائله ومزاياه ، ويكره كل من خصاه وعاداه . وفي هذا البيت عظم شأنه ، ووضعه مقامه ، فقال : إنه العالم الصالح الذي تولى ، فتعال من الله تبارك وتعالى الغرضان والإحسان ، وتناديه فيجبك ، أي تتوكل به إلى الله ، فيستجيب الله لك ، ويرضيك برحمته وإحسانه .

وَكَفَى بِسَيْطَرِهِ إِمَامًا رَحْمَةً
قَدْ عَزَّ مِنْ وَالَاهُ فِي الدُّنْيَا، وَفِي
فَاقِعِيَّتِهِ، وَاعْرِفُهُ، وَاسْتَمْسِكْ بِهِ
وَإِذَا عَرَنْتَ مُلِمَّةً، فَاهْتِفْ بِهِ
نَالًا مِنَ الرُّضْوَانِ مَا قَصَدَاهُ^(٣)
يَوْمَ الْحِسَابِ، وَذَلِكَ مَنْ بَادَاهُ^(٤)
تَلَقَّى الْهُدَى، وَكَفَى الْمُرِيدَ هَذَا^(٥)
تَسْمَعُ بِقَلْبِكَ حَيْثُ كُنْتَ صَدَاهُ^(٦)

(٣) كلفاه الشيء يحلفه كلفاية: استغنى به عن غيره، فهو كاف، وكثيراً ما تتراد الباء قبل فاعل «كنى»، أو قبل مفعولها. وبسيطه مفعول «كنى» بزيادة الباء. وتقدير الكلام: وكفى بسيطه شرفاً وفلاً إماماً رحمة، أي إمامتها الرحمة؛ فالمصدر المذلول فاعل «كنى». ويجوز أن يكون «بسيطه» فاعل «كنى»: أي وكفى علياً مسلماً وإطراء بسيطه. وإماماً رحمة: صلف بيان، أو بطل من «بسطه». أو خبر لمبتدأ علوف. والتقدير: هما إماماً رحمة. . . وفي التنزيل العزيز: «وكفى بالله ولياً»، وكفى بالله نصيراً الآية رقم ٤ من سورة النساء: ولياً، ونصيراً منصوبان على التمييز، أو على الحال، وفاعل «كنى»: الاسم الجليل، والباء زائدة. والبسط (بكسر فسكون): ولد الولد. والحن والحسين بسطاً رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي ابنا ابنته فاطمة الزهراء. وفي بعض المحجمات أن البسط الولد، والأسباط: الأولاد. وهذا المعنى هو المراد هنا؛ فالحن والحسين بسطاً حلّ رضى الله عنه: أي ابنه. والإمام: من يقصده الناس، ويأمنون به: أي يقتدون به، من رئيس وقائد ونحوهما. والرحمة: الخير، والتططف: والإمام، والإفصال: أو الرقة التي تقتضى الإحسان إلى المرحوم. ويراد بالرضوان: رضوان الله تبارك وتعالى وإحسانه، وحفاوته، ونعمته، ورحمته، وفطرته. أو المراد: رضا الله والناس. فانه بالحسن والحسين ابني حلّ رضى الله عنهم؛ فهما من أئمة الرحمة، والإحسان، وهما فالاً ما أراداه من الخير، والرضوان.

(٤) عزّ يمزّ عزّاً. ومزّة: قوى، وبرئى من الذلّ والمهانة. وضده «ذلّ»: أي هان، وضعف. ويوم الحساب: يوم الدين والجزاء، أو يوم القيامة، أو الدار الآخرة. وباده: بارئ، ونزاله، وقاتله. وباده بالمداوة: جاهد بها. وهو نقض «وآله» في الشطر الأول. يقول: إن المزة، والاستلاء في الدنيا والآخرة لمن أحب علياً وآله. والمذلة والمهانة لمن كرهه وباده.

(٥) في الشطر الأول ثلاثة من أفعال الأمر، وكلها في معنى الإقبال على الإمام «حلّ»، والمتعلق به، ودراسة سيرته وقاربه، وتعظيم شأنه وذكره. ويراد بالأمر: التصحح والإرشاد. وفي الشطر الثاني جزؤه هذا الأمر ومقتضاه، وما الهدى والرشاد الكائنان اتئامان. والمريد: المحب: اسم فاعل من أراد: بمعنى أحب، ووصفه، وتعلق به.

يقول: إذا أحببت علياً، وتعلقت به واحتببت، وأغناك هذا الهدى عن كل ما عداه.

(٦) عرّنتك: أصابك، ونزلت بك (وبابه حدا). والملمّة: التنازلة الشديدة من نوازل الدهر =

وَقَالَ فِي الْاِسْتِغَاثَةِ •

«سَلِّ مَا لَكَ الْمَلِكُ، فَهُوَ الْاَمِيرُ النَّاهِي وَلَا تَخَفْ عَادِيًا، فَالْحَكْمُ لِلَّهِ»^(١)
هُوَ الَّذِي يَنْعَشُ الْمَظْلُومَ لَئِنْ عَلِقَتْ بِهِ الرِّزَايَا، وَيَجْزِي كُلَّ نَبَاٍ»^(٢)

= وبلايا. وهتف به (من باب ضرب) : صلح به ، ودعاه ، وفاداه ، والصدى : ما يردّه الجبل ونحوه إلى الصوت مثل صوته . ومنه قولهم : « أسرع من ربيع الصدى » . وصداه : أى صدى الخفاف ورجسه . اشتدّ تعلق الشاعر بالمنعوج العظيم ، فهتف به في الملمات ، وأرشد غيره إلى مثل هذا الخفاف ، قائلا : إن صداه يمدد إليك ، فتسمعه بقلبك ، أى لن يلعب سدى ، أو أدراج الرياح . ولعل المراد أن جاء المنعوج عند الله عظيم ، وأن الله تبارك وتعالى يستمع لمن يتوسل به إليه ، ويرعاه ، فيكشف عنه الضر . ويظهر أن هذه المقطوعة من السرنديبيات التي نظمها الشاعر حينما اتجه بكثير من شغره إلى الزهد والتصوّف ، وكثر تضرّعه إلى الله ، والتوسل إليه بشئ الوسائل ، كفتح رسول الله صل الله عليه وسلم وصرفته وآل بيته ، وأولياء الله . وله مقطوعة أخرى ميمية ، مطلعها :

يَسْدُرُ حِلَّ أَنْ لَيْسَ فِي النَّهْرِ رَحْمَةٌ عِيَانَةٌ « شَمْسٌ » بِدَ فَتَدْرُ « ابْنُ مَسْجَمٍ »
ويوضحها هجاء قاتل الإمام « حل » وأبنته « الحسين » . وفي من أبلغ شغره ، وأدله على شدة تعلقه بالشهيدين العظيمين ، وشدة مقتته للقاتلين الشقيين الذين بادوا بالخزي والمار ، وكانا من المحطين الظالمين « أولئك جزاؤهم أن عليهم لمة الله والملائكة والناس أجمعين » .

• • •

• استغاثه ، واستغاث به استغاثه : طلب النوث (يفتح فسكون) : وهو الإغاثة والنصرة . وهذه المقطوعة من السرنديبيات التي نظمها الشاعر بعد أن برّح به الوجد والكرب ، وأضناه الهمد والحزن ، وطال مقامه في مفناه .

(١) الأمر في الشطر الأول ، والنجى في الشطر الثاني : يراد بهما النصيح والإرشاد . والهادى : المحتدى الظالم : اسم قاتل من حدا عليه : أى ظلمه ، وتجاوز الحد . والحكم : القضاء . والسلطان . وفي القرآن الكريم : « فالحكم لله الملّ الكبير » الآية رقم ١٢ من سورة غافر .

يقول : اتجه بسؤلك إلى الله تعالى ؟ فهو مالك الملك ، ورب السماء والأرض ، وصاحب الأمر والنجى ، واعلم أن الحكم لله ، وأن سلطانه فوق كل سلطان ؛ فإذا ملأت هذه العقائد قلبك أمتك الله من كل خوف ، وردّ عكز عدوان المداة ، وظلم الظالمين ، وأعانك حل التجلّد لصروف الوصان ، ونواكب الحدّاث . وفي البيتين الآخرين زيادة لإيضاح ، وتقصيل ، وتأكيد لهذا المعنى .

(٢) نعشه الله (من باب نفع) : رضعه ، وبجبره ، وأقامه ، وتداركه من رطبته ، وأقال حرّته ، وأنبهه من كبوته ، وقرى جأشه . ودخله أنعشه إتماشاً ، ونعشه تنيشاً . ودخل الشوك ونحوه بالشوب ونحوه (من باب صب) : تعلق به ، ونشب فيه ، واستمسك به . والرزايا : المصائب والأرزاء . الواحدة =

فَاسْجُدْ لَهُ ، وَاقْتَرِبْ ، تَبْلُغْ بِطَاعَتِهِ مَا شِئْتَ فِي الدُّعْرِ مِنْ عِزٍّ وَمِنْ جَاهٍ (٣)
يَا رَبُّ ! قَدْ طَلَبْتُ شَوْقِي إِلَى وَطَنِي فَلَحُلْ وَثَاقِي ، وَالْحَقْنِي بِأَشْبَاهِي (٤)
وَأَمْنُنْ عَلَيَّ بِفَضْلِكَ مِنْكَ يَعْصِمُنِي مِنْ كُلِّ سُوءٍ ، فَإِنِّي عَاجِزٌ وَلَئِي (٥)

= رزقته ، ورزقته (بالهمز والتسجيل) . وجزاه الله بذنبه مجزيه جزاء (بوزن قفى يقضى قضاء) : عاقبه عليه ، وأخله به . ويثله جزاءه بذنبه مجازاة . وثباته : صفة مبالغة من تاه (كباع) : أى تكبر ، وتجبس . ويراد هنا مع التكبر : البغي والمدون ، والطلم والطفان . وفي البيت إشارة إلى أمثاله المظلومين ، وتمريض بالمجبرين الظالمين .

(٣) سجد (من باب دخل) : خضع ، وتطامن ، وتذلل . والسجود لله : عبادته ، والخضوع له . وسجد المصل : وضع جبهته على الأرض . وقد يمسر بالسجود عن الصلاة . والاقتراب من الله تبارك وتعالى إنما يكون بالطاعة ، والإيمان ، والتقوى ، والاستقامة ، وإخلاص العبادة لله . والعرز : القوة ، والمنعة . وفهدا الدل " واللثة " : وهما الضعف ، والمهانة . وإجلاه : المتزلة ، والتقدر ، والمكاثرة ، ورفعة الشأن .

والمنى : أن الصلاة ، والعبادة ، والطاعة ، وإخلاص الدين لله تقرب العبد من الله ، وتبلغه ما يريد ويتمناه في دنياه من عزٍّ ومنعة ، وسباه ، ورفعة شأن

(٤) حل " المقعدة (من باب رد) : قصها ، فالتحلت . والوثاق (بفتح الواو وكسرهما) : ما يوثق به الشيء : أى يشد ويربط ، كالحبل ، والتقيد ، وغيرهما . واحلل وثاقي : أى فك أسرى . والأشياء : جمع شبه (بكسر فسكون ، أو يفتحين) : وهو المشابهة ، والمثل ، والنظير . وأشباهه : مواطنه الأحرار . أو الأحرار من الناس عامة . أو الذين تقربوا إلى الله بالطاعة ، وأخلصوا له الدين ، واستغاثوا ؛ فبلغوا بطاعته وعبادته ما تحسوه ، وأرادوه من حزة ومنعة ، وأمن وطمانينة ، ورخاء بال ، وصلاح حال . والأمران في الشطر الثاني : يراد بهما الدعاء .

طال وامتد " في الشاعر واغترابه ، فبلغ سبعة عشر عاماً أو تزيد ، وبرح به الوجد والشوق إلى أهله ووطنه ؛ فانجه إلى الله تبارك وتعالى مستنجداً مستنجداً ، داعياً أن يفك أسره ، ويلبسه بأشأله ؛ وقد استجاب الله له ، فأعلم ولاية الأمور في مصر أن يفكوا أسره ، وأسر رفاقه ، وعاد إلى مصر في اليوم السادس من جمادى الأولى سنة ١٣١٧ هـ (الثاني عشر من سبتمبر سنة ١٨٩٩ م) بعد أن عفا عنه الخديو عباس حلمي الثاني .

(٥) من " عليه (من باب رد) : أنهم عليه نعمة طيبة . والمنة (بكسر الميم ، وتشديد النون المفتوحة) : النعمة الثقيلة الواسعة النظمية . والفضل : الخير . أو الإحسان ابتداء بلا حلق . وفضل الله : رحمته ، وإحسانه ، ولطفه ، وتوفيقه ، وعصمته ، وإنعامه . وعصمه (من باب ضرب) : حفظه ، ووقاه ، ومنعه وتولاه . وواه : ضعيف ، عاجز : اسم فاعل من وهى (من باب وهى) .

هَذَا دُعَائِي، وَحَسْبِيَ أَنْتَ مِنْ حَكَمٍ يَغْنُو لَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، أَوْ شَيْئَانِهِ^(١)

وَقَالَ أَيْضًا :

دِينِي الْحَنِيفُ ، وَرَبِّيَ اللَّهُ وَشَهِدَاتِي أَنْ لَيْسَ إِلَّا هُوَ^(٢)
لَا جَاءَ لِي إِلَّا بِطَاعَتِهِ وَلَنِعْمَ عَقَبَى الطَّاعَةِ الْجَاءُ^(٣)
أَنَا خَاشِعٌ لَجَلَالِ قُدْرَتِهِ مُتَقَلِّبُ الْجَنَبَيْنِ أَوَاهُ^(٤)

(١) « حسب » : اسم بمعنى كاف . وحسبى الله : أى يكفينى ، ويفتنى من غيره . والحكم (بفتحين) : من أسماء الله تعالى : ومعناه الحاكم ، ومن يختار للفصل بين المتنازعين ، ومن يتصدى لهم الخصومات . ويعتق (من باب سما) : يذل ، ويخضع ، ويستكين . وفى التنزيل العزيز : « وهنت الجبهه لى القيوم ، وقد خاب من حمل ظلماً » الآية رقم ١١١ من سورة طه . والشاه : الملك . والشاهدان شاه ، والشاهنشاه ، والشهنشاه : ملك الملوك (أى كلمات فارسية) .

فى ثلاثة الآيات الأولى تمجيد لله رب العالمين ، وإقرار بوحدايته ، وانفراده بالأمر والنهى ، والحكم والسلطان ، واستحقاقه للعبادة والطاعة ، وبيان لمضى ما يجنيه المايد الطامع من ثمار عباده وطاعته ، وإشارة إلى الجزء الإلهي العادل ، أو الثواب والعقاب . وفى ثلاثة الآيات الأخيرة دعاء صريح ، وتوسل ، وإبتال ، واستغاثة ، وإقرار بالعجز والضعف ، واحتكام إلى الله أحكم الحاكمين ، وخالق الخلق والناس أجسدين .

• • •

(١) الدين الحنيف : المستقيم الذى لا هوى فيه ، وهو الإسلام : من الخنف (بوزن الفرح) : وهو ميل عن الضلال والنفى والباطل إلى الاستقامة والهدى والحق . وفى القرآن الكريم : « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة إبراهيم حنيفاً » الآية رقم ١٢٥ من سورة النبأ . وحنيفاً : أى مائلاً من سائر الأديان الباطلة إلى الدين الحق . والشهادة : عقيدة ، وإقرار قائم على العلم والتصديق واليقين .

(٢) الجاه : المنزلة ، والقدر . والمقبى ، والعاقبة : الثواب ، وجزاء الأمر ، وآخر كل شيء ، أو خاتمته .

فى الشطر الأول : أن العبد إنما يسمو قدره ، ويعلو منزلته عند الله تعالى بطاعته وعبادته وإخلاص الدين لله . والشطر الثانى يكرر هذا المعنى ، ويردده ، ويؤكد ، ويمتدح عاقبة الطاعة ، وينزه بشواها العظيم ، وهو عظم الجاه ، وهو المنزلة .

(٣) خضع الإنسان خشوعاً (من باب خضع) : تظلم ، وتواضع ، وصنع ، وسكن . وخضع المره لربه : استكان ، وتضرع . والجلال : العظمة . ويلايل قدرة الله تعالى : عظمها ، وقامها ، وكأها . وتقلب جنبيه : كثابة عن عليم استقراره فى نومه ، لغرط خشوعه ، وضراعة لله ، واشتغال قلبه بذكر الله ، ولإيمانه بزمته وجلاله ، وعظمت ، وتما قدرته . وفى القرآن الكريم ، فى ملح المؤمنين إذا

فَأَضَالِي لِلْوَجْدِ نَارُ غَضَى وَمَحَاجِرِي بِالذَّمْعِ أَمْوَاهُ^(١)
 زَهَتْ الْقُلُوبُ بِنُورِ حِكْمَتِهِ وَتَعَطَّرَتْ بِالذِّكْرِ أَمْوَاهُ^(٢)
 أَنَا أُمَّةٌ وَحْدِي عَلَى سَرَفٍ فِي حُبِّهِ ، وَالنَّاسُ أَشْبَاهُ^(٣)

صدِّكروا بآيات الله : و تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يدعون وهم غوفاً وطمعا « الآية رقم ١٦ من سورة السجدة . وآه : كلمة توجع ، أو تحزن ، أو شكاية . تلوَّء العبد من غشية الله . وهو أواه : أى كبير التلوَّء والتفزع ، أو كثير الدعاء ، أو يظهر غشية الله تبارك وتعالى .

(٤) الأضالغ ، والأضلاع : عظام قصص الصدر : جميع ضلع (بوزن عنب ، وجذع) ، مؤنثة ، وقد تذكر . ويريد بأضالعه : ما انطوت عليه ضلوعه ، أو يريد القلب . والوحد (يفتح فسكون) : الحب . والقفى : شجر من الأثل ، يكثر في نجد ، وشبهه من أصلب الخشب ، وجمره يبنى زماناً طويلاً لا يظلم . « واحدة غصاة (بوزن حصاة) . والمحاجر : جميع محجر (بوزن مجلس) : وهو من اللبن : ما أحاط بها ، ودار حولها من جميع الجوانب . والدمع : ماء العين . وجمعه أدمع ، ومروح . والأمواه : المياه : جميع ماء .

اشتدَّ تملُّق الشاعر بالله تعالى ، فافتقدت في صدره ، أو فؤاده نار الحب شديدة دائمة ، وهرق الحق ، فرق قلبه ، ورهفت مشاعره ، وفاشت بالدنوس عيناه . وفي القرآن الكريم : « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسل ترى أعينهم تفيض من الدمع ، لما عرفوا من الحق » الآية رقم ٨٣ من سورة المائدة . ويلاحظ أن هذه القصيدة كلها (سبعة أبيات) تدور كلها حول حب الشاعر لله عز وجل ، وشدة تملُّقه به .

(٥) زما السراج وغيره (من بابي عدا وصما) : أعضاء ، وأثار . والحكمة : إصابة الحق بالعلم والمقل . والحكمة من الله تعالى : معرفة الأشياء ، وإيجادها على غاية الأحكام والإتقان . وبن الإنسان : معرفة الموجودات ، وفعل الخيرات . وتسطرت : تطيبت بالطر : وهو اسم جامع لكل ما حسنت رائحته ، وتطيَّب به الإنسان . وذكر الله تبارك وتعالى : ترديد اسمه ، وإحسان الثناء عليه . وقد يراد بالذكر : القرآن ، والصلوة ، والدعاء ، والآفواه : جميع فؤ (بوزن رُوح وأرواح) : وهو الفم .

يقول : إن حكمة الله تبارك وتعالى تفسى قلوب عارفيه ، وذكره عز وجل يطر أوفواه ذا كبريه .
 (٦) الأمة : الرجل الجامع لخصال الخير . قال تعالى : « إن إبراهيم كان أمّة ، قائماً لله ، خفيّاً » الآية رقم ١٢٥ من سورة النحل . وبن الشعر التقريب من هذا المعنى :

ليس على الله يستحسنكم أن يجمع الماتم في واحد

وقيل : إن الأمة : المؤمنون : أى الذى يؤبه الناس ويقصدونه ؛ ليأخذوا منه الخير ، ويقتدوا به في الصلوة ، والفتوة ، والإيمان . والأمة (في الأصل) : الجماعة من الناس . وقد يكون المعنى على هذا : أنه أمة في حب الله تمل : يريد أنه حب كبير حقيقى ؛ إذ اجتمع له منه ما تفرق في عدد كبير من الناس . والسرف (بوزن التوف) : الضراوة بالثى ، واللؤلؤ به ، ومجاوزة الحد فيه . وعلى سرف في حبه : =

إِنْ تَأْتَا غَيْبِي بِالزَّمَانِ ، فَلِي قَلْبٌ يَذْكُرُ اللَّهَ تَبَّاهُ^(١)
وقال :

جُدْ بِالنَّوَالِ ، فَرَزَقُ اللَّهَ مُتَّصِلُ
فَالْبُخْلُ وَالْجُبْنُ فِي الْإِنْسَانِ مَنْقَصَةٌ لَمْ يَجْنِهَا غَيْرُ سُوءِ الظَّنِّ بِاللَّهِ^(٢)

= أى أحبه حباً شديداً ، تفوقت به على غيبي من الهيبين ، أو سيطر على قلبي ، وبذلك زمام نفسي .
وأشياء : أمثال ، متشابهون ، نظراء . والناس أشباه : أى متشابهون في الغفلة عن ذكر الله ،
والإغترار بالدنيا .

يفسر بركة قلبه ، ورفاعة مشاعره ، وشدة تعلقه بالله ، ويقول : إنه انفرد بهذه الدرجة من الحب ،
على حين أن غيره من الناس متشابهون في الغفلة ، والإغترار بالدنيا ، والافتخار بإقبال الزمان . والبيت
الآتي يوضح هذا المعنى ، ويمزجه .

(٧) تاه علينا فلان : تكبر ، وتجبر ، وتمظم ، وزهى ، وابتهى ، واخضر . ويراد بالزمان :
إقباله ومياسره ومصافاته : أى إقبال الدنيا بزيتها وزخرفها . وقلب تَبَّاهُ بذكر الله : أى تكبير الإبهام
بذكر الله : صيغة مهالفة من تاه (كجاج) : بمعنى ابتهى واخضر .
يقول : إذا اخضر غيره بإقبال الدنيا عليه ، ومياسرة الزمان له ، فإنه يفتخر بإقباله على الله ،
والتعلق به ، ولتَهَجَّرَ عليه بذكره وشكره ، وتحميده وتمجيده .

* * *

(١) جد : امر من الجود : بمعنى البذل ، والعطاء ، والسخاء . يقال : جاد الرجل بماله يجود
جوداً (يضم الجيم في المصدر) : إذا بذله ، وسخا به . والنوال (بوزن المقال) : العطاء . وهو اسم من
نَوَّلَهُ المال تنويلاً : أى أعطاه إِيَّاهُ ، وبذله له ، وجدت به عن طيب نفس وإرتياح . ورزق الله :
عطاه (بخارى من مال غيره . ويتصل : جاد ، مستديم ، لا يتخلف ، ولا ينقطع . والصنيع : الفعل
الحسن ، وكل ما صنع من غير نحوه . والآهى : اسم فاعل من لها (كتباً) عن الشيء . ولمى عنه
(كرضى) : إذا أصرب عنه ، وتركه ، ولم يذكره . والأمر في الشطر الأول ، والنهى في الشطر الثاني :
للصح والإرشاد .

(٢) منقصة : نقص ، ومثلية ، ورذيلة ، وخصلة ذنبة . وجمعهما مناقص . ولم يجنِها :
ولم يخلصها ، ولم ينجسها . من قولهم : جنى الذنب على فلان : أى جره إليه ، كما يقال : جنى على نفسه ،
وجنى على قومه .

في البيت السابق : نصح وأرشد وحض على الجود والسخاء ، والاهتمام بصنع الخير ، وإهداء المعروف
إلى الناس ، فإن رزق الله تعالى متصل لا يفيض ، ولا ينقطع ، وأعطياته كثيرة متتابعة ، لا تتوقف ،
ولا تتخلف ، وبإذال المال في الخير والإحسان إنما يبذل من مال الله في يده ، وهو مع هذا قريب من =

وقال :

لِمُصْطَفَى صَادِقٍ فِي الشَّعْرِ مَنْزِلَةٌ أَمْسَى يُعَادِيهِ فِيهَا مَنْ يُصَافِيهِ^(١)
 صَاغَ الْقَرِيضَ بِإِتْقَانٍ ، فَلَوْ تَلَيْتَ صُدُورُهُ - عَلِمْتَ مِنْهَا قَوَافِيهِ^(٢)
 مُهَذَّبُ الطَّبْعِ ، مَأْمُونُ الضَّمِيرِ ، إِذَا بَلَوْتُهُ كَانَ بِأَدْبِهِ كَخَافِيهِ^(٣)

= الله ، قريب من الناس وفي القرآن الكريم : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » الآية رقم ٥٦ من سورة الأعراف .

وفي هذا البيت ذم الشاعر متعنتين مقترنتين : هما البخل ، والجبن ، وإنما يقع المرء في إثمهما ، ويحمل وزرهما وعارهما إذا ساء ظنه بالله الذي كفل الأرزاق ، وسدد الأجال ، وأمر بالعدل والإحسان ، ووعد الكرماء الشجعان بخير الدنيا والآخرة . ولا ريب أن قوة الإيمان ، وحسن الظن بالله يصفان الإنسان من التقالص والردائل ، ويهديانه سبيل الفضيلة والرشاد .

* * *

(١) مصطفي صادق الرافعي (١٨٨٠ - ١٩٣٧) : شاعر ، نثر ، أدب ، ناقد ، متبحر ، نابه ، من شعراء مدرسة الليبراليين ، ومن أسدقائه . احتفل في شعره بالمعالي ، وأخرج عدة دواوين ، ودارت بيته وبين الجفدين في الشعر والأدب معارك نقدية عنيفة حامية . ومن مؤلفاته المطبوعة : حديث القمر . والمساكين . وتاريخ آداب العرب . وإعجاز القرآن . ووحى القلم . وتحت راية القرآن . والمنزلة : المكانة ، والمزية ، والقدر ، والشأن الرفيع . ويماديه فيها : أي يماديه في المنزلة : أي من أجلها ، وبسببها . وصافاه يصافيه مصافاة : صدقه الإسخاء والمودة .
 فوّه بسمو منزلة الرافعي في الشعر ، وقال : إن تلك المنزلة الرقيقة أحفظت عليه بنض أصغياته ، فحسدوه ، وعادوه ، وشاصموه .

(٢) صاغه (من باب قال) : صنعه على مثال مستقيم . وصاغ الكلام : هيأه ، ورتبه . وصاغ الشعر : أنشأه ونظمه . والقريض : الشعر : قيل بمعنى مفعول ، من قرض الشعر (من باب قرط) : أي قاله ، ونظمه . وأتقن الشيء إتقاناً : أجاده وأحكمه . وتلا الكتاب وغيره يتلوه تلاوة : قرأه . وصدوره : أولاته ، ومقدماته : جمع صدر : وهو من كل شيء : مقدمته ، وأوله . ويراد بقوافيه : أواخره ونهاياته : جمع قافية : وهي آخر كل شيء . والتقافية في الشعر : الحروف التي تبدأ بمتحرك يليه آخر ساكنين في آخر البيت . وبصير آخر : هي من آخر البيت إلى أول متحرك قبل ساكن بينهما : فقافية كل بيت من هذه الأبيات الأربعة : « فيه » .

قرط شعره ، وفوّه بحماسة ومزاياء ؛ فهو متقن ، محبوك ، مجود ، ثم "أولاه على نهاياته .

(٣) هذبه تهليلاً : ربياه تربية صالحة ، غالية من الشواكب . وطبع مذهب : سليم مستقيم . والضمير : ما تسموه من نفسك : أي تكتنه وتحفيه ، ويصعب القوف عليه . ومأمون الضمير : أي سليم دواعي الصدر ، يرى من الخلل والندر ، متوقف عن الحياة ونحوها ، لا يقسم لأحد سوا . وبلاه يبلوه =

حَازَ الْكَمَالَ ، فَلَمْ يَحْتَجْ لِمَنْقِبِهِ فَلَسْتَ تَنْحَهُ إِلَّا بِمَا فِيهِ^(١)
وَقَالَ فِي أَهْلِ «سَرَنْدِيبَ» :
إِنَّ «سَرَنْدِيبَ» عَلَى حُسْنِهَا يَمَكِّنُهَا قَوْمٌ قَبَاحُ الرُّجُوسِ^(٢)

(من باب عدا) : جرّبه ، واختبره ، وامتنحه . وباديه : ظاهره : اسم فاعل من بدا الأمر (من باب
نما) : أى ظهر ، وبان ، واقتبس . والخلق : ضد البادى : اسم فاعل من غنى الشيء (كروى) يَغْنَى
غناه : أى احتجب ، واستتر . وباديه كخافيه : تأكيد لمعنى «مأمون الضمير» ؛ فهو لا يضمن
خلاف ما يظهر .

والبيت كله فى معنى : تهذب الطبع ، وحسن الخلق ، وسلامة الصدر ، وصفاء الضمير ، وثقاء
السرية ، وبعد المدح عن الخلل والخلع والفسقة ونحوها .

(١) المنقبة (بوزن التربة) : الفعل الكريم ، والمفخرة . وبهذا المنقصة ، والمثلية ، والعيب .
ولم يحج لمنقبة : أى مثاقبه ومحامده صحيحة صادقة ، تجرى مع طبعه المهذب ، وضميره المأمون ، وخلقه
الكريم ، وظواهره المشابهة لخوافيه فى السلامة والنقاء والصفاء ، فلا يحتاج إلى أن يستعمل نفسه منقبة ، أو
يدعى من المفاخر ما ليس له ، أو يستمير مكارم الكرماء ، وقد يكون معنى «لم يحج لمنقبة» تأكيداً
لمعنى «حاز الكمال» : أى ثبتت فيه صفات الكمال كلها ، وجسّعت المنقبة والمفاخر والحامد والمكارم ؛
فلم يبق منها ما يطع فيه ، أو يحتاج إليه . وثمته (من باب نفع) : وصفه . وأكثر ما يستعمل
الوصف بما حسن وطاب . والشطر الثانى : تأكيد لمعنى الشطر الأول : أى فليس يصفه مادحه إلا بما فيه
من حميد الصفات ، وكرم الثبائل ، والفضائل .

• «سرنديب» أو «سيلان» : جزيرة كبيرة بالمحيط الهندي ، فى الجنوب الشرقى لهند ، سكانها
نحو عشرة ملايين نسمة ، أكثرهم هوزيون ، وفيها قلة من المسلمين . وحاضرتها وأهم موانئها «كولبر» .
ومن مذهبها الكيرية «كنى» . وفيها بين القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادى قصدها تجار العرب ،
ومعها «سرنديب» . وفى أواخر القرن الثامن عشر استولى عليها البريطانيون بعد البرتغاليين والهلنديين .
وفى سنة ١٩٤٨ انتهى الحكم البريطانى واستقلت «سيلان» فى نطاق الكومنولث البريطانى . وفى صفر
سنة ١٣٠٠ هـ (ديسمبر سنة ١٨٨٧ م) نزل إليها «محمد سالى البارودى باشا» مع ستة من رفاقه قادة
الثورة المراتية ، وفى مقدمتهم «أحمد عرابى باشا» قائد تلك الثورة ، وقد لبسوا فى ذلك المنح السحق
سبعة عشر عاماً ، أو تزيد . وبعضهم قضى نحبه فيه .

(١) على حسنها : أى مع ما فى طبيعتها أرضها من محاسن وبهاج . وقبائح (بكسر القاف) :
جميع قبيح .

يقول : فى طبيعة «سرنديب» حسن وبهجة . وفى وجود سكانها قبح وذمامة . وهذه القصيدة
كلها (تسمة أبيات) فى ملبسهم وهجائهم ، والتنديد بعيوبهم ومساوئهم الخلقية والخلقية ،
والتشهير ببعض عاداتهم المسهجة المردولة .

مِنْ كُلِّ قَدَمٍ لِأَكْلِ مُضَفَّةٍ يَمُجُّهَا كَالْتَمَرِ فِي الْأَرْضِ قُوَّةٌ^(١)
تَحْسِبُهُ مِنْ نَضَحِ أَشْدَاقِهِ رَكِيَّةٌ تَجْرِي دَمًا ، أَوْ تَمَوَّةٌ^(٢)
لَا يُشِبُّهُ الْوَالِدُ مَوْلُودَهُ مِنْهُمْ ، وَلَا الْمَوْلُودُ مِنْهُمْ أَبُوهُ^(٣)

(٢) القدم (يفتح فسكون) : المعى عن الكلام ، في ثقل ، ورخاوة ، وقلة فهم . والغليظ
الأحس ، الجان . وجمعه فدام (يوزن جبل وجبال) . ولألك : اسم فاعل من لأك القمعة ونحوها (من
باب قال) : أى أدارها في فم ، وبشفها أهون المضع . والمضفة (يوزن القمعة) : القطعة التى تمضغ
من لحم وغيره . ويراد بها : مضفة التبغ (يفتحين ، أو يفتح فسكون) : وهو نبات من الفصيلة
الباذنجانية ، أمريكى المولد ، يعرف بالدهان ، ويستعمل تدخيناً ، وسموطاً ، وبسفاً . والكلمة
إسبانية ، مأخوذة من لفظة « تاباغو » : وهى اسم جزيرة في خليج المكسيك ، وجد فيها التبغ ،
ونقل عنها . وسج الماء والشراب من فيه (من باب رد) : لفظه ، ودى به ، وطرحه ، وألقاه .
وقوه : له .

وسم سكان « سرنديب » بالفدامة ، ولدت بمادة من هاداتهم المردولة المستقلة ، وهى أنهم
يلكون في أفواههم مضغفات التبغ ، ثم يمججوها في الأرض كالتمر الغليظ .

(٣) حسبته صالحاً أحسبه (يوزن فهمته أفهمه) ويجوز كسر السين في المضارع ، مع كسرها
في الماضي على غير قياس : أى ظننته وخسنته . وتحسبه ركيّة : أى تظن الواحد من أهل « سرنديب »
ركيّة . ومن نضح أشدّاقه : « من » : تمليكية : أى سببية : أى لبيان العلة والسبب : أى تحسبه من
أهل نضح أشدّاقه ركيّة . والنضج (يفتح فسكون) : الرش ، أو الرش ، أو الببل (وفعله من
بأبى ضرب ونفع) . يقال : نضح الإناء بما فيه . ونضح الجلد بالمرق . ونضجت العين : أى فاضت
بالدمع ، والأشداق : جميع الشدق (يكسر فسكون) : وهو جانب الأنف ، مما تحت الحد . والركيّة
(يوزن القنيّة) : البئر التى لم تطل : أى التى لم تبن ، أو لم تعرش بالحجارة . وجمعهما ركايا (يوزن
عطية وعطايا) . وباعت البئر تموة (من باب قال) : ظهر ماؤها ، أو كثر . وقد تكون « أو »
في الشطر الثانى : بمعنى « أو لا » : أى تحسبه ركيّة يجرى منها الدم ، ويحوى .

في البيت السابق : نددت بمادة معقوفة مردولة ، مستهجنة مستقيمة من هادات سكان سرنديب
وأهلها ، وهى مضغمت التبغ ، فإذا مضغمت مججوه من أفواههم كالتمر الغليظ المستقفر . وفى هذا
البيت تكرار وتريد وتأكيد ، وزيادة تفصيل لهذا المعنى ، فأفواههم تنضج بهذا الدم ، فظنّها ركايا
يجرى منها الدم بكثرة وغزارة .

(٤) يلاحظ في هذا البيت أن الشطر الثانى منه تكرر لفظي الشطر الأول : « لا يشبه الوالد
مولوده من أهل سرنديب ، ولا يشبه الأب مولوده » ، وقد يكون هذا التكرار مقصوداً . والرابع
الغالب أنه أراد :

يَقْلُظُ طَبْعُ مِنْهُمْ فَاقْدُ مَزِيَّةَ الْعِلْمِ ، وَوَجْهَ يَشْوُهُ^(٥)
 مِنْ أَيْنَ يَذْهَبُ الْفَضْلُ مَعْلُومُهُ لَا يَعْرِفُ الْمَعْرُوفُ إِلَّا ذَوُوهُ^(٦)
 لَا تَلَبَّثُ الْحِكْمَةُ مَا بَيْنَهُمْ وَلَا يَرِيثُ الْفَضْلُ حَتَّى يَشْوُهُ^(٧)

لا يشبه الولد مولده ولا المولود منهم أباه

فالأب من الأسماء الخمسة التي ترفع بالواو ، وتنصب بالالف ، وتخفض بالياء ، إذا أضيفت^(٥) إلى غير ياء المتكلم ، فنقول : جاء أبوه ، ورأيت أباه ، ومررت بأبيه . وهو هنا : تخمّل به منصوب بالالف . وقد يقال : إن الشاعر خالف هذه القاعدة النحوية ، وجرى على اللغة العامية في مصر التي تقول : « أبوه » في جميع الحالات : أي في الرفع ، والنصب ، والجر ؛ وصل هذا يكون « المولود » فاعلاً ، و « أبوه » مفعولاً به ، بالهجة العامية المصرية : أي لا يشبه الولد مولده ، ولا يشبه المولود منهم أباه ؛ وهذا يستقيم المعنى ، ويختل الإعراب .

في المثل العربي^(٦) : « من أشبه أباه ، فاطم » . وهو مثل يضرب للولد إذا كان على شاكلة أبيه ختلاً وخعلتاً ، أي لم يضع الشبه في غير موضعه ، ولم يظلم أمه ؛ لأنه ليس أحد أبى من الولد بأن يشبه أباه . وهذا المثل يشار إلى عفة الرجال والنساء ، وصيانة الأعراض والأنساب . وقد رى الشاعر أمل « سرنديب » بالتضريع في الأعراض ، واختلاط الأنساب ، وفي من الأمهات العفة والحصانة ، بغية المشابهة والمشاكلة التي ينبغي أن تكون بين الولد ومولده .

(٥) اللفظة (تلبثت التين) ، واللفظ (بوزن العنب) : ضد الرقة (والفعل ككرم ، وضرب) . والطبع : التبييض ، والخلق ، وجمعه طباع (بوزن حبل ومعال) . والمزيتة (بوزن المعية) : الفضيلة . وشاء يشو (من باب قال) : قبح ، وكان دم الخلق والمظهر .

وأم يلفظ الطباع ، وبغاء الأخلاق ، والجمل ، وضامة الوجوه ، وقبح الخلقة .

(٦) الاستفهام في أول الشطر الأول : معناه التني ؛ فالنبي فقد الفضل لا يعرفه ، ولا يدره . ودراه (من باب ري) : عرفه ، وعلمه . والفضل : الخير ، والبر ، والإحسان . والمعروف : اسم لكل فعل يصرّف بالمقل والشرع حسنه ؛ وهو خلاف المنكر . والمعروف : الصنمية يسديها المرء إلى غيره . ويلاحظ أن معنى المعروف قريب من معنى الفضل . وذووه : أهله ، وأصحابه . والشطر الثاني تأكيد لمعنى الشطر الأول ، أي : وإنما يعرف الفضل من الناس ذووه .

جرتهم من الفضل ، والمعروف : والخير ، والبر ، والتقى ، والإحسان .

(٧) لبث (من باب فهم) : مكث ، وأقام ، واستقر . والحكمة : العلم ، والتفقه ، والمبدل ، ومعرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ، والكلام الذي يقل لفظه ، ويحمل معناه . وجمعهما حكم (بوزن نعمة ونعم) . و « ما » : زائدة . وراث (من باب باع) : أبطل ، وطله تريث . وتاه في المفازة ونحوها (من بابي قال وباع) : ضل الطريق . والتوت به السبل . وتاه في الأرض : ضل ، وذهب متحيراً . واليبث : تكرر لمعنى البيت السابق ، بزيادة تجريد من الحكمة .

تَنْقُلُ بَعْضَ الْقَوْمِ عَلَامَةً وَهُوَ إِذَا يَنْطِقُ هَامٌ بِتَوْهٍ^(٨)
لَا تَعْرِفُ الْمَرْءَ بِأَخْلَاقِهِ فِي عَمْرَةِ الْعَالَمِ حَتَّى يَتَوْهَ^(٩)

(٨) علامة: عالم جدياً ، أو خبير العلم ، وإتقاء العيانة . وإلهام : جمع هامة : وهي البوابة .
أو طائر صغير من طير الليل ، يألف المقابر . وقامت الهامة تنوء (من باب قال) : دفعت رأسها ،
فصرعت .

يقول : قد تحسب أن بعضهم على علم وصعرة ودراية ؛ فإذا نطق اقتضح أمره ، فرأيت كالهامة إذا
ناحت ، أي أغلقت بطنه فتنك ، وحنناً تقديرك .

(٩) العمرة : الزحمة . والعالم (بفتح اللام) : الخلق ، والناس . وقاه بالقول يلقوه (من باب
قال) لفق به ، ولطف . وظله تقوه .

حنم الشاعر هذه الأفعوى بهذا البيت الذي أجراه مجرى الحكم والأمثال . ومعناه : أن الإنسان إنما
يعرف خلقه وقلة بطنه وكلامه ؛ فاللسان ترجمان الجنان ، والقول يلمح على قائله ، ويكشف
المستور من أمره .

• • •

وَقَالَ فِي رَجُلٍ اسْمُهُ زَنْبُورٌ :

لَقَدْ أَسْمَوَكَ زَنْبُورًا فَلَمْ يُخْطِكَ مَعْنَاهُ^(١)
وَقَدْ قَالُوا : لِكُلِّ اسْمٍ نَصِيبٌ مِنْ مَسْمَاهُ^(٢)

(١) الزنبور (بوزن الصفود) ، والزنبار (بكر فسكون) : ذباب لساع ، أو حشرة
أيمة السبع ، من الفصيلة الزنبورية . وأجمع زناوير . ومعناه كذا ، وبكذا تسمية ، وأسماء يسميه
إسماء : جملة أسماء له ، وعلماً عليه . وأغصاً المذهب ونحوه : ثم يصيه . ولم يخطك معنى الزنبور : أي
أنت ملط في الإيذاء والإضرار .

(٢) الاسم : ما يعرف به الشيء . ويستدل به عليه . والمسمى : صاحب الاسم : أي المعلوم
المتعين باسمه ، أو كنيته ، أو لقبه . والنصيب : الحظ من كل شيء . و « لكل اسم نصيب من
مباه » : قول مأثور ، يجري مجرى الحكم والأمثال . ومعناه : إذا سميت ابنك « صالحاً » مثلاً - رجوت
أن يكون له في سيرته وسميته حظ من الاستقامة والصلاح . والاسم هنا : اسم المهجو « زنبور » .
ومسماه : الحشرة اللائمة المؤذية . ونصيب المهجو من هذا المسمى : أنه شابه الزنبور في الإيذاء والإضرار ؛
فالبيت في معنى الشطر الثاني من البيت السابق ، مؤكداً له ، قائم مقام الحجة والدليل والبرهان .

فتافية الواو

وَسَّالَهُ بَعْضُ أَصْدِقَائِهِ أَنْ يُوَازِنَ * قَصِيدَةَ الْبُحْتَرِيِّ * الَّتِي أَوَّلُهَا :
لَنَا أَبَقًا بَتْ نُعَانِيهِ فِي « أَرْوَى »
وَ « حَزْوَى » ، وَكَمْ أَذْنَتَكَ مِنْ لَوَعَةٍ « حَزْوَى »
فقال :

أَوَّلًا مَلَايَ فِي هَوَى الشَّادِنِ الْأَحْوَى فَقَلْبِي عَلَى حَمَلِ الْمَلَامَةِ لَا يَهْوَى^(١)

• وازن الشيء الشيء : سواه في الوزن ، ومادله ، ومثاله ، وقابله ، وسأذه . ووازن الشاعر قصيدة غيره : إذا نظم قصيدة من بحرهما ، مل وزنها ، ورويها . والقصيدتان هنا من الطويل : أول بحر الشعر العربي ، وأملوها ، وأشهرها . والروى فهما : الواو : وهو الحرف الذي تبنى عليه القصيدة ، وتنسب إليه .

• • البحتري : أبو عيادة ، الوليد بن عبيد البحتري الطائي ، « نسبة إلى بحر » (يضم فسكون فضم) ، وهم بطن أوسى من قبيلة طي ، ويحتر اسم جدهم : شاعر مطبوع ، تصرف في فنون الشعر ، مما عدا الهجاء ، فقد كان عنه قليلا ضيقا ، ولما أحس بدلوأجله أحرق ما نظمته فيه حل ضيقه وقتله . وبلغ البحتري بشعره المرتبة العليا ، حتى سماه النقاد سلالا الذهب . ومثل أبو العلاء المعري : من أشعر الثلاثة : أبو تمام ، أم البحتري ، أم المثنى ؟ فقال : أبو تمام والمثنى حكيمان ، وإنما الفاضل البحتري . وقد مدح المتوكل العباسي وغيره من خلفاء الدولة العباسية وأمرائها وأكابر الناس . وإقام بغداد دهرًا طويلا ، ثم هاذ إلى الشام ، وكانت ولادته بمنبج (بوزن مجلس) : وهي بلدة قديمة بين حلب والفرات . وتوفي بها سنة ٢٨٤ هـ عن ثمانين عاماً . وديوان شعره جزأ في ٧٩٩ صفحة ، طبعة المطبعة الأدبية ببيروت - لبنان سنة ١٩١١ م . وقصيدته الواوية التي قدمنا مطلعها نظما في مدح أبي عيسى ابن صاعد ، ومصد أبياتها واحد وأربعون بيتاً ، فهي أطول قليلا من قصيدة البارودي .

(١) « أقل الشيء إقلالاً » ، وقيل « تقليلًا » : جعله قليلا . ويقال : أقل فعل كذا : إذا لم يفعله أصلا . وأقلا ملأى أمره : أي كفا عن لوى ، ولا تحاولاه . والأمر لاثني أسأ عليه بالملامة ، أو تخيلهما تخيلاً ، جرياً على عادة الشعراء قبله في مخاطبة رقيقين يصطحبان الشاعر ، ويلازمانه في غدوه ورواحه . والملام والملامة : اللوم والمذلل . وألهوى : الحب (وقوله من باب صدى) . والشادن : ولد الطليعة : أي الفزائل إذا شدن : أي تفرح ، واستبشروا من أمه . ويزداد به الفتاة الحسنة التي هوها الشاعر ، وهام بها . والمرب تشبه حسان النساء بالفرلان والثياب في الخفة ، والرشاقة ، ولطف الحركة ، وحسن التثني ، وجمال الجليد واللبين . والأحوى : صفة من الحوة : وهي حمرة تشرب إلى السواد ، =

كَفَى بِالْهَوَى شُغْلًا عَنِ الْوَمِ بِأَمْرِئٍ ۖ وَبَرَّاهُ الْفَنَى ، وَاسْتَمَطَرَتْ عَيْنَهُ الْبَلْوَى ۖ^(١)
 فَلَيْسَ الْهَوَى سَهْلًا ، فَالْوَى عِنَانُهُ ۖ وَإِنْ كُنْتُ يَوْمَ الرُّوْعِ ذَا مِرَّةٍ أَلْوَى ۖ^(٢)
 هُوَ الْحَبُّ يَتَعَامُ الْكِرَامَ ، وَلَنْ تَرَى ۖ لَيْسَ مَا يَنَالُ السَّبِقَ فِي الْفَضْلِ ، أَوْ يَهْوَى ۖ^(٣)

= فالقوى الهوى ، والفتنة حواء . وشقة حواء : أى حبراء ، وحمرتها تضرب إلى السواد . وحوة الشفة من محاسن النساء عند العرب .

الشمس الشاعر ، أو طلب إلى لأميه أن يكف عن لويه في عشق هذه الفتاة الحساناء الحواء ؛ فقد تبسّمه الحب ، وشغفه ، وأضناه ، حتى صار قلبه ضعيفاً عاجزاً عن احتمال شوقه من الحذل والملافة . وفي ثمانية الأبيات الآتية تأكيد وتزديد وتفصيل لهذا المعنى .

(٢) كفى الشيء يكفى كفاية : حصل به الاستغناء عن غيره . وإليه زائدة . والمهى فاعل « كفى » . وشغلاً : أى شاغلاً ، ويربب تمييزاً ، أو حالاً . وعن الوم بامرئ : أى عن لوم امرئ : أى كفى الحب كافاً للام من الوم « وشاغلاً » المحب عن قبول الوم ، والاستماع له . وبراه : هزله وأخله ، وأرق جسمه ، وأضناه . والفنى (يوزن الصدى) : المرض الشديد : مصدر غنى (من باب صدى) : أى اشتد مرضه حتى نحل جسمه وهزل . واستمطر استمطاراً : طلب المطر . وإلبهى ، وإلبية ، وإلبلاء : أحماء من بلاد الله : أى اختبره وامتحنته ، وبتربيه . ويكون البلاء بالخير ، وبالشر . ويراد بإلبهى هنا : مخنة الحب . واستمطرت البلى عينه : أى اشتد به الحب ، وبرّح به الوجد حتى بكى بكاء شديداً يدموع مبهمة غزيرة .

(٣) لوى الحبل ونحوه (من باب روى) : ثناه . والعتان (بكسر العين) : سير الجمال الذى تمسك به الدابة . وألوى عتانه : أحده ، وأكفّه ، وأرّده ، وأصرفه عنى : يريد أن الهوى صعب صعب ، يتقلب في مجاله ، ويبلغ مداه ، ويسيطر على المحب ، ويسلبه إرادته واختياره ، والروع (يفتح فسكون) : الفزع وللضر (يوزن الضر) : مصدر راع (من باب قال) : أى فزع وذعر وخاف . ورواه الأمر : أى أفرقه وأخافه . ويوم الروع : يوم الحرب . وفو مرة (بكسر الميم) : وتشديد الزاء المفتوحة : صاحب قوة ، وحصانة ، والمرّة : النقل ، أو شدته واستحكامه ، أو الأصالة والإحكام أو جودة الرأي ، وإتقان التدبير . وفي التزويل المزيز : « علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى » ٥ - ٦ من سورة النجم أى ذو قوة ، وحصانة واستحكام في عقله ورأيه . ورجل ألوى : أى عسر ، شديد الخصومة ، قوي ، يلتوى على خصمه : أى يصر ويشتد .

اختصر بحصافته ، واستحكام عقله ورأيه ، وقوة مراسه ، وشدة بأسه في الحروب والأهوال ؛ ولكنه مع هذا كله منطاع للحب ، منقاد لسلطانه ، خاضع لأحكامه ، واقع تحت سيطرته ، لا يستطيع صرعه ، ولا تهوين أمره . وصلة هذا البيت بالبيتين السابقين واضحة وثيقة ؛ فإن سيطرة الهوى تقتضى الكف عن ملادة المحب الماشق ، وتشغله عن الاستماع للوم ، وإذا سمع لا يستطيع قبوله .

(٤) يحام : يقصد . والكرام : جمع الكريم : صفة من الكرم بمعناه العام : وهو اسم جامع للمحامد ، والأخلاق الكريمة ، والأفعال العظيمة ، والمحاسن الكبيرة التى تظهر من الإنسان . وضحه =

وَمَنْ ذَا الَّذِي يَقْوَى عَلَى دَفْعِ مَا آتَى بِهِ الْحُبُّ مِنْ جَوْرِ ؟ وَسُلْطَانُهُ أَقْوَى ^(٥)
 مَبْقُوقٌ إِذَا جَارَى ، لِحَقِّقْ إِذَا هَوَى غَلُوبٌ إِذَا بَادَى ، قَتُولٌ إِذَا أَهْوَى ^(٦)
 لَهُ سُورَةٌ لَوْ صَادَمَتْ رُكْنٌ يَلْبَلُ رَضْوَى لَهَدَّتْ يَدْبَلًا وَصَحَّتْ رَضْوَى ^(٧) .

= التَّيْم : صفة من القوم : وهو اسم جامع لكثير من الرذائل والمناقص ، كشح النفس ، ودناءة الأصل ، وخساسة الطبع ، والمهانة ، والضعف ، والحقارة . والفضل : الخير ، والبر ، والكرم ، والإحسان ابتداء بلا علة . وقد يراد بالفضل : التفضيلة ، رحمن الخلق . ورجوى (من باب صدى) : أى رجوى الفضل ، ويميل إليه ، ويحرص عليه . أو المعنى : أن التيم لن رجوى : أى لن يستشعر الهوى ؛ فالحب ، أو الهوى ، أو المشق ، أو الفرام إنما يستام الكرام الأفاضل الأخيار ، ولا يكاد يعرفه اللعام الأراذل الأشرار . والحب المذرى في نظر الشاعر من الفضل ، وإنما يعرف الفضل من الناس ذويه . والمعنى : أن الفاضل الكريم يحب ورجوى ، أما المهين التيم فإنه لا يسبق إلى الفضل ، ولا يحواه ، ولا يكاد يفتح قلبه الحب ، أو يستشعره ، أو يمتناه .

(٥) الاستهزام في أول البيت : معناه النفي : أى لا أحد يقوى على دفع جور الحب . ودفع الشيء (من باب منع) : أى نغاه تنحية ، وأزاله بقوة . والجور (يفتح فسكون) : الظلم ، والميل عن القصد . ويزاد به هنا : الغلبة ، والسيطرة ، والقوة ، والسلطان (وفعله من باب قال) . ولولا في الشطر الثاني : وإو الحال . والجملة الاسمية بهما : جملة سالية . وسلطان الحب : قوته ، وسيطرته ، وقهره . وسلطان الحب أقوى : أى سلطانه أقوى من قوة القوى ، ومدافعة المدافع .

(٦) سبق : سباق : أى كثير السبق : وهما صيغتا مبالغة من سبق (من باب ضرب) . وجاراه مجازاة : سابقه في الجرى . ولحق : صيغة مبالغة من لحقه ، ولحق به (من باب سمع) : إذا أدركه . وهوى رجوى (كرى يرمى) : سقط من علّو إلى سفّل . وغلوب : صيغة مبالغة من غلبه (من باب ضرب) : أى قهره . وبادهاء مباداة : بارزه ، ونازله . وقَتُول : صيغة مبالغة من القتل . وأهوى رجوى إهواه : سقط وانقص ، واندفع ، وهجم .

والبيت كله في بيان سيطرة الحب ، وشدة بأسه ، وقوة تأثيره ، وصبر الحب عن صده . ودفعه . (٧) له : أى الحب . وسورة (يفتح فسكون) : سطوة ، وصولة ، وبطش ، وقهر (والفضل من باب عدا) : وصادمت : صدمت ، ودافعت . يقال : صدم الصلب الصلب (من باب ضرب) : أى صمّ ، ودفعه . وصادمه : دافعه . وركن الشيء : أحد جوانبه التي يستند إليها ، ويقوم عليها . ويراد بركن « يابل » وركن « رضى » : هذان الجبلان ، أو الجانبان القويّ من كل منهما . ويذبل (يوزن يقتل) : جبيل ، وهو ممنوع من الصرف ، أى التثنية ، وإنما صرف هنا ، ونون الضرورة وزن الشعر . ورضوى (يوزن بلوى) : جبيل . ومجاه (من بابى عدا ، ورى) ومجاه أيضاً (كخشاه) : أزاله ، وأذهب أثره .

فَحَتَّامٌ يُلْحَمَانِي الْعُلُولُ عَلَى الْهَوَى ؟ أَلَيْسَ يَرَى مَا بِي ، فَيَجْتَنِبُ الشُّكُورَى ^(٨)
لَقَدْ سَأَمْنِي طَى الْغَرَامِ ، وَمَا دَرَى بِأَنَّ الْهَوَى الْعُدْرَى يَكْبُرُ أَنْ يُطَوَى ^(٩)
وَبِي ، بَلْ يَقْوَى الْأَكْرَمِينَ خَرِيدَةً إِذَا سَفَرَتْ كَادَتْ لَهَا الشَّمْسُ أَنْ تَقْضَى ^(١٠)
مِنْ الْفَيْدِ ، كَحَلَاءِ الْمَحَاجِرِ ، لَوْرَنْتَ إِلَى الْقَسِّ فِي نَامُوسِهِ أَعْطَا النُّجُورَى ^(١١)

(٨) حياء يلحاه لحياً : لاه وعذله . والعلول (يوزن الرسول) : الكثير العذل : أي القوام .
والشكوى (يوزن البلى) : اسم من شكاه (من باب عدا) : أي أخبر عنه بسوء فعله . ويراد
بالشكوى هنا : العذل ، والقوم ، والكتاب .
تبرّم بكثرة العذل ، وضاق به ذرعاً ، وأفكره على العاذل قائلاً : إن الحب يبرّح به ، وهزله ،
ومحله ، وأضناه . ولو رأى العذل هذا ، وقدره لاجتنب العذل ، وأقلع عن الشكوى ، ورسم المحبة
المستهام .

(٩) ساه كذا (من باب قال) : كلّفه إيّاه ، وأراد به عليه ، وألزمه به . وطوى الأمر يطويه
طياً : كتبه ، وأخفاه . والغرام : الحب الشديد ، والولوح بالشيء ، وأن يعلق الحب بالمحبوب تعلقاً
لا يستطيع التخلص منه لو أراد . والهوى العُدْرَى : الحب المغيث : نسبة إلى بني عدرة (بضم)
فسكون) لاشتهارهم به .

يقول : إن عاذله أراد به على كيان هواه ، ولم يعلم أنه هوى عُدْرَى عفيف ، خالص نق ، عفيف
مبرّح ، لا يستطاع كنهه .

(١٠) الحريدة : الفتاة العذراء : أي البكر (بكسر فسكون) التي لم تقض . أو الحفرة ،
الحبيّة ، المحتشمة ، المستورة ، الطويلة السكوت ، الخافضة الصوت . وصوت بجريد : لين ، عليه
أثر الحياء . وسفرت المرأة (من باب جلس) : كشفت من وجهها ، فهي سافرة . وضوى يضوي (من
باب صدى) : هزل ، وحق ، وضعف . ويراد بالضوى هنا : كسوف الشمس ، واحتجابها ، فضاء
المتنزل بها يكاد يحجب ضياء الشمس ، وإذا كشفت عن وجهها كادت الشمس تكسف حياءً وتجلّجلاً .
والمنى : أنه يفتنى بنفسه ويقويه الأكاديم الأماجد عذراء حسناء تقوق الشمس في الإفراق والبهاء .

(١١) التئيد : جمع فئداء ، وهي الفتاة الناعمة ، اللينة الجوانب . وفي التئيد (يفتحان) معنى
الرئ والفضارة والتضارة ، والتأويل والتشبي . طلت العين (من باب فرج) : أسودت أجفانها خلقة ،
فهي كحلأ . والمحاجر : الجفون : جمع محجر (يوزن عجل) : وهو ما دار حول العين ، وأحاط
بها . أو ما ظهر من اللقاب . ورناً (من باب سما) : أدام النظر في سكوت طرف ، والقسم (يفتح
القاف وتشديد السين) : التيسيس (بكسر القاف) : وهو رئيس ديني من رؤساء النصارى في مرتبة بين
الأسقف والشماس . والناموس : بيت الراهب وصومته . والتيجوى : لإسرار الحديث . ويراد بها
هنا : نمى العبادة ..

تُبَيِّتُ وَتُخَيِّبُ مَنْ تَشَاءُ يَلْخِظُهَا فَوَيْنَ عَاشِقِي يَحْيَا ، وَبَيْنَ عَاشِقِي يَتَوَى ^(١٢)
 بَعَثْتُ لَهَا قَلْبِي عَلَى لَأْمٍ لَخِظَةٍ فَمَاعَادَ إِلَّا وَهَوَ بِالْحُسْنِ مُسْتَهْوَى ^(١٣)
 وَأَفْنَيْتُ عُمْرِي فِي رِضَاهَا ، فَلَمْ أَنْلِ سِوَى رَاحَةٍ تَرْتَدُّ ، أَوْ عِدَةٍ تُلَوَى ^(١٤)
 وَأَصْبَحْتُ مَغْلُوبَ الرِّشَادِ ، وَكَلَّمَا يَعُودُ رَشِيدًا صَالِحَ الْعَقْلِ مَنْ يَغْوَى ^(١٥)

= وصفها بالفَيْد والكَحْكَل ، وقال : إن حسنها فائق سائر ؛ فلو نظرت إلى عابد زاهد واهب لفتنته ودلتهته ، وأغرجهته من نسكه وعبادته .

(١٢) الخِظ : النظر بمؤخر العين من أحد جانبيه (والقلب من باب قطع) . وجمته الخاظ .
 ومن كلامهم : فتته لحظاتها وألحظها . ويروى (من باب صلى) : حلك وموت .
 والمضى : أن نظراتها قاتنة ساحرة تمتش بها من تقبل عليه من عشاقها ، وتهلك من تعرض عنه .
 أو المضى : أن من عشاقها من يتمش بنظراتها الساحرة الفاتنة ، ومنهم من يشتد به الوجد ، ويكاد يهلكه التله والويله .

(١٣) الخِظ : المرة من لحظ العين . واستهواه الحسن استهواه : دلّبه ، وتيسه ، وشغل قلبه فالحسن مستهوى (بصيغة اسم الفاعل) . والقلب مستهوى (بصيغة اسم المفعول) .
 يقول : إن نظرة منها إليه استهوته ، وشغلت قلبه ، فكان أسير الهوى ، جريح الغرام .
 (١٤) الراحة : الكف . وارتدادها : كناية عن الإغفاق ، وفترات المقتضود ، وعدم النظر بالمراد . والعدة : الوعد . والمراد وعد الإقبال والوصول . وتلوى : تمطر ، وتوسف . يقال : لوله دينه ، ولوله يديته يلويه لياً : إذا مطره ، وسوفه ، وأجسل موعد الوفاء مرة بعد أخرى .
 يقول : إنه أفنى عمره في ترضيتها واستطافها ، فلم يزل منها غير الإغفاق ، والحرمان ، والمعدات المطولة المملودة بغير وفاء .

(١٥) الرشاد ، والرشد : الإعتدال ، والصلاح ، والاستقامة على طريق الحق . وشبهه النبي والفضيل . والرشد : المهتدى ، وذو الرشد . ومغلوب الرشاد : أى رشاده مغلوب مقهور ، وفيه غالب قاهر . وغوى يغوى (كصلى يصلى) غواية (يقطع التين) : أمن في الضلال ، وخاب ، وفسد عيشه ، واهلك في الجهل . وشله غوى يغوى (كرى يرى) شيئاً (يقطع التين) : وهو خلاف الهدى والرشاد .

في البيت السابق قال : إنه أفنى عمره في ترضى مشيخته ، واستألتها ، واستطافها ، فلم يظفر إلا بالإغفاق ، والحرمان ، والمعدات المطولة المملودة التي لا وفاء بها ، ولا إنجاز لها . وفي هذا البيت : أنه يأسفانه في الحق أمن في التنى والفضلال ، وانصرف عن الهدى والرشاد ، وكلمها يصلح عقل الغاوى ، أو يمد إلى الرشد والاستقامة ، أو يسترد الاعتدال والصلاح .

خَصَصْتُ لِأَحْكَامِ الْهُوَى ، وَلَطَلَمَا أَبَيْتُ ، فَلَمْ أَخْضَعْ لِمَنْ يَهَبُ الْجَدْوَى ^(١٦)
وَلَأَنِّي أَمْرٌ وَلَا الْهُوَى مَا وَجَدْتَنِي أَدِيبٌ لِيَغَيِّرَ اللَّهُ ، أَوْ أَزْهَبُ الْعَدْوَى ^(١٧)
بَعِيدُ مَنَاطِرِ الْهَمِّ ، تُرْهَبُ صَوْلَتِي إِذَا مَا دَجَا خَطْبٌ ، وَبَادِرَتِي تُرْوَى ^(١٨)

(١٦) أبى يأبى (بوزن سعى يسمى إياه (بكسر الحزمة) : استمضى ، وامتنع ، وترفع ، واستنكف . ويجب له الشيء منه : أعطاه إياه بلا عوض . والجَدْوَى : الحبة ، والعلوية . يقول : إنه في مجال الحب والغرام أسير خاضع متقاد لأحكامه وقيوده . وفي غيره أبي ، صوفى ، مستمع ، ممتنع ، مترفع عن الحيات واهيها .

(١٧) دان يدين (كباع يبيع) : خضع وانقاد . ورهبه يرهبه (من باب طرب) : خافه وتوقاه . والعدوى (بوزن الجدوى) : انتقال الداء من المريض به إلى الصحيح بواسطة ما : اسم من أعدائى للمريض : أى جاوزه المرض إلى . والعدوى أيضاً : اسم من استمدت الأمر على الظالم : أى طليت منه النصرة ، فأعدائى عليه : أى نصرته ، وأعدائى ، وانتم لى منه . أوهى « العدوى » (بوزن الكبرى) : بمعنى العدوان والظلم . ويراد بنى العدوى (بمعانيها الثلاثة) : أنه لا يتهيب ما يتهيبه الناس ، ولا يخاف ما يخافونه من الخفيات المفزعات .

كرر ما قرأ في البيت السابق ، وزاد عليه ، فقال : إنه خضع لأحكام الحب ، ولم يكن قبله يدين لغير الله عز وجل ، ولم يكن يخاف ظلم الظالمين ، وعنوان الممتدئين ، يريد أنه أبى قوي ، عزيز منيع ، وأنه أقوى من ظلم الظالم ، وعنوان الممتدى ، ولكنه على الرغم من قوته وإيائه ، ومزقه ومنته ، دان للهوى واستكان .

(١٨) ناط الشيء بغيره ، وناطه عليه (من باب قال) : حلقه . وناطه إناطة كذلك . والمناط (بوزن المكان) : موضع التعلق . والمم : أول العزيمة . وما همت به في نفسك : أى أجسدت فيه فكره ، وأودت فعله . ويراد بالمم هنا : الهمة العالية ، والمطمع الرغب ، والعزم القوي . وبعيد مناط المم : أى همى عظيمة ، واسعة رغبة . وترهب : تخاف وتخشى (بالبناء السجوه في الأفعال الثلاثة) . والصورة : السطوة ، والبطلان في الحرب ونحوها . ودجا (من بابى عدا ، وسما) : أظلم . والمراد اشتد ، وجاوز الحد . والخطب : الأمر الشديد ، ينزل بالناس ، ويكثر فيه التخاطب . وخطوب الدهر : نوائبه وشدائده . والبادرة : التفضية السريعة ، وما ييدر من الرجل عند حديثه . ومن كلامهم : « فلان عشى البادرة » وحاد البرود : أى غيظ مهيب ، شديد اليأس . وتروى : تنقل (بالبناء السجوه فيها) . يقال : روى الحديث ، أو الخبر ، أو الشعر ، أو نحوه : أى حملة ، ونقله ، وأذاعه ، فهو راد من الرواة . والمراد أن الناس ، أو الرواة يتناقلون بولدهى ، ويلقيونها إعجاباً ، أو عجباً ، أو احتياجاً وغشياً .

في البيت السابق اقتصر بأنه لا يرهب العدوان . وفي هذا البيت اقتصر بيمد همته ، وقوته عزيمته ، =

لِمَا فِي خُلُوبٍ فِي الْجَدَالِ ، وَصَارِي رُسُوبٌ يَوْمًا يَمِي مِنْ سَمَاءِ الْقَصَا أَصْوَى^(١٩)
وَعِنْدِي إِذَا مَا الْحَرْبُ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا عَزِيمَةٌ لَيْثٌ مَا تَهَرُّ ، وَمَا تُعَوَّى^(٢٠)

— وَأَنْ صَوْلَاتِهِ وَبَوَادِرِهِ فِي الْخُلُوبِ وَالشَّمَائِدِ مَرْهُوبَةٌ نَحْشِيَّةٌ يَتَنَاقَلُهَا الرُّوَاةُ ، وَيَتَقَحُّهَا الْعِدَاةُ . وَيَلَاظُ أَنْ الشَّاعِرُ — مِنْ الْبَيْتِ السَّادِسِ عَشَرَ إِلَى نَهَايَةِ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ — انْتَقَلَ مِنَ الْفَزْلِ إِلَى الْفُخْرِ بِمَنَاقِبِهِ ، وَاجْتَدَحَ بِمَحَامِدِهِ بِدَرْبِ وَطِئَةٍ ، وَتَهْدِيدِ وَتَوَلِيدِ ؛ فَأَكْثَرَ الْقَصِيدَةَ (٢١ يَتِيًا) فِي الْفُخْرِ وَالْإِهْوَاءِ . وَفِيهَا مَعَ الْفُخْرِ تَعَرُّى بِالْمُخَوِّنِ الَّذِينَ أَنْطَوَتْ صُدُورُهُمْ عَلَى الْحَقِّدِ وَالْفُشِّ ، وَالْفُلِّ ، وَاسْتَحْبَبُوا الْعَمَلَ عَلَى الْمَدَى ، وَفَرَّقُوا فِي الضَّلَالِ الْمَبِينِ .

(١٩) خُلُوبٌ (بوزن صبور) : خِلَابٌ ، قَاطِعٌ ، غِلَابٌ : صِفَةُ مُبَايَعَةٍ مِنْ غُلْبَةٍ (مِنْ بَابِ قَتَلَ) : أَيْ قَطَعَهُ . أَوْ فُتِّنَ قَلْبُهُ . وَالْجَدَالُ : الْمُجَادَلَةُ ؛ مَصْدَرُ جِدَالِهِ : أَيْ نَاقَشَهُ ، وَنَازَعَهُ ، وَغَالِبَهُ ، وَخَاصِمُهُ مُخَاصِمَةٌ شَدِيدَةٌ ؛ فَتَقَطَعَ الْحِجَةَ بِالْحِجَةِ ، وَقَابَلَ الدَّلِيلَ بِالْدَّلِيلِ . وَالصَّارِمُ : السِّيفُ الْقَاطِعُ الْبَاقِرُ . وَسَيْفٌ رُسُوبٌ (بوزن خُلُوبٍ) : يَمْضِي ، أَوْ يَنْفِذُ ، أَوْ يَنْتَبِذُ فِي الضَّرْبَةِ . وَالرَّأْيُ : الْعَمَلُ . وَالْإِصَابَةُ فِي التَّجْدِيدِ . وَنَهْلٌ ذُو رَأْيٍ : أَيْ ذُو بَصِيرَةٍ ، وَحَلَقٌ بِالْأُمُورِ . وَالضُّحَا : بَدَأَ طُلُوعُ الشَّمْسِ ، وَارْتِفَاعُ النَّهَارِ ، وَامْتِدَادُهُ . وَحَمَاءُ الضُّحَا : السَّهَاءُ فِي وَقْتِ الضُّحَا . أَوْ السَّهَاءُ الضَّاحِيَةُ الْمَشْرِقَةُ الْمُنِيرَةُ : حِينَمَا يَرْتَفِعُ النَّهَارُ وَيَمْتَدُّ ، وَيَمُتُّ الْفَضَاءُ وَيَشْتَدُّ . وَأَعْوَى : أَعْوَى : أَيْ أَشَدَّ إِضَاءَةً ، وَأَعْلَمَ نُورًا .

اقتصر بخلابة لسانه في الجدال ، ونفاذ سيفه في الضربة ، وتمرسه باستخدام السلاح ، وسداد رأيه وإشرافه ، وحصافة تدبيره ، واستحكامه .

(٢٠) الْقِنَاعُ (بوزن الكتاب) : مَا تَعَطَّى بِهِ الْمَرْأَةُ رَأْسَهَا . وَأَتَى الشَّيْءُ إِلْقَاءَهُ طَرَحَهُ ، وَرَى بِهِ . وَإِلْقَاءُ الْحَرْبِ قِنَاعُهَا : كِتَابَتُهُ عَنْ اشْتِدَادِهَا ، وَتَوَقُّدِ نَارِهَا ، وَسَطُوحِ أَوَارِهَا . وَالْعَزِيمَةُ : الْإِرَادَةُ الْقَوِيَّةُ الْقَاطِعَةُ . وَالْجَدُّ وَالْاجْتِهَادُ فِي الْأَمْرِ . وَالْإِثْبَاتُ : الْأَمْدُ . وَهَرَّ الْكَلْبُ هَرًّا (كَخَفَّ خَيْفًا) هَرِيرًا : وَهُوَ صَوْتُهُ دُونَ نَبَاحِهِ ، مِنْ قَلَّةِ صَبْرِهِ عَلَى الْبَرْدِ . أَوْ هِيَ مَا تَهَرَّ (بِالْبِنَاءِ الْمَجْهُولِ) : مِنْ أَمْرِ الْكَلْبِ وَنَحْوِهِ إِهْرَارًا : أَيْ جَمْلَهُ هَرًّا . أَوْ حَمْلَهُ عَلَى الْهَرِيرِ . وَهَرَى الْكَلْبُ وَنَحْوَهُ يَمْرِي عَسِيًّا ، وَهَوَاهُ (يَضُمُّ الْعَيْنَ) : لَوَّى خَطْمَهُ : أَيْ أَنْفَهُ ، أَوْ مَقْدَمَ أَنْفِهِ وَفِيهِ ، ثُمَّ صَوَّتَ . أَوْ مَدَّ صَوْتَهُ ، وَلَمْ يَفْصَحْ . وَهَوَاهُ الْكَلَابُ وَنَحْوُهَا : صَوْتٌ مَدَّةً ، وَلَيْسَ يَنْتَبِذُ . وَأَعْوَاهُ غَيْرُهُ إِعْوَاهُ : حَمْلُهُ عَلَى الْعَوَاءِ . وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ الْحَازِمِ الْجَلْدُ : مَا يَنْهَى ، وَلَا يَمْنَحِي ، أَوْ « لَا يَمْنَحِي » ، وَلَا يَنْبِذُ « (بِنَاءُ هَذِهِ الْأَفْصَالِ كُلُّهَا الْمَجْهُولِ) : وَعَزِيمَةٌ لَا تَهَرُّ ، وَلَا تَعْوَى (بِالْبِنَاءِ الْمَجْهُولِ فِيهِمَا) : أَيْ عَزِيمَةٌ قَاطِعَةٌ قَوِيَّةٌ ، لَا يَسْتَرْجِعُهَا ضَعْفٌ أَوْ فَتُورٌ .

اقتصر بآفته في الحروب شديد البأس ، قوى المراس ، ذو عزيمة صارية كعزيمة الأسد ، لا يعروها ضعف أو فتور .

وَحِلْمٌ كَرِيمٌ ، يَخْلُقُ الْغَيْظَ قَلْبُهُ وَالْحِلْمُ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى (٢١)
وَعِفَّةٌ نَفْسٍ لَا تُزْنُ بِرِيْبَةٍ وَجُودٌ بِهِ ظَلَّتْ عِفَّةُ النَّدَى تَرَوَى (٢٢)
وَلِ هِمَّةٌ لَوْلَا الْعَوَانِيُّ مَهْدَتْ يَدَ الْمَجْدِ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ لَهَا مَقْوَى (٢٣)

(٢١) الحلم : الأناة ، والعقل ، والصبر ، والصبر المحمود ، وضبط النفس . وكريم : صفة من الكرم بمعنى المأم : وهو جماع الأخلاق الكريمة ، والأفعال الحسنة ، والمحاسن الكبيرة التي تظهر من الإنسان . ومن الأخلاق الكريمة التي يشملها الكرم : الصبر ، والعفو ، والتسامح . و « حلم كريم » : معطوف على « عزيمة ليث » في البيت السابق . والغَيْظُ : الغضب الشديد ، وهو أشد الحنق (وقوله من باب باع) . وكظم الرجل غيظه (من باب ضرب) : أمسك على ما في نفسه منه صافعاً متساعاً . وفي التنزيل العزيز : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض » أعدت للمتقين ، الذين ينفقون في السراء والضراء ، والكاذبين الغيظ ، والمؤمنين من الناس ، والله يحب المحسنين » ١٣٢ - ١٣٤ سورة آل عمران . والتقوى : خشية الله ، والخوف منه ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه . أروى حفظ النفس عما يؤثم ، وذلك بترك المحذور . وفي الآيتين السابقتين أن كظم الغيظ ، والعفو عن الناس من صفات المتقين . وفي القرآن الكريم : « فن اتق وأصلح فلا خوف عليكم ، ولا هم يحزنون » الآية رقم ٣٥ من سورة الأعراف .

(٢٢) عفّ : عفاً عفاً (كخف يخف خفة) : كفّ عما لا يحلّ ، ولا يحمل من قول ، أو فعل . وزنت فلاناً بكذا (من باب رد) : أهملته به . وأزنته إنزناً كذلك . والريية (بكسر الراء) : الظن ، والشك ، والتهمة . ومن شعر حسان بن ثابت : « حصان وزان ، ما تزن » بريية : أي لا تتهم بسوء . والجود (بضم الجيم) : البذل ، والسخاء والسطاء بلا عوض . وظلت : دامت . والعفاة : جمع العافئ : اسم فاعل من عفاه (من باب عدا) : إذا أتاه يطلب فضله ومزوجه . والندى : الجود ، والسخاء ، والخير ، والبر ، والعطاء ، والإحسان . وروى من الماء ونحوه يروى (كرضى يرضى) : شرب وشبع .

افتخر بعلقة نفسه ، وقرّنه من الشوائب والمناقص ، وبعمده عن الريب والشبهات ، وأتسع جوده ونهاده العفاة ، وطلّاب الحاجات .

(٢٣) الهمة : العزم التقوى . والموانئ : جميع عائقة وعائق : اسم فاعل من عاقه عن الشيء (من باب قال) : أي منعه منه ، وشغله ، وحسبه عنه ، وصرفه . وموانئ الدهر : الشواغل من أحداثه . ويهتد الفرائض ونحو تهتيداً : بسطه ، ووطأه وسهّله . والمجد : النبيل والشرف ، والمكارم الماثورة عن الآباء . وأفق السماء : ناحيتها . والمثوى (بوزن المأوى) : المستقر ، والمقام : اسم مكان من ثوى بالمكان ، وفيه (كضى) : أي أقام ، واستقر . أو هو مثوى (بضم الميم) : من أثوى بشيء أثواه : بمعنى ثوى ثواه (بفتح الثاء) : واتلاّثى والرباعى : بمعنى واحد .

بَلَّغْتُ بِهَا بَعْضَ الْمُنَى ، غَيْرَ أَنْتَنِي جَلِيلٌ بِأَنَّ أَخَوِي بِهَا كُلُّ مَا أَهْوَى^(٢٤)
 فَإِنْ سَادَ غَيْرِي بِالْجُنُودِ ، فَإِنْتَنِي بِهِمْ وَيَفْضِلُ رِشْتَ سَهْمِي ، فَمَا أَشْوَى^(٢٥)
 وَلَيْسَ غُلُوُّ النَّفْسِ بِالْجَدِّ وَخَصْدَهُ وَلَيْسَ كَمَالُ الْمَرْءِ فِي شَرَفِ الْمَاوَى^(٢٦)

(٢٤) بها : أي همي . والمنى : الأمان والأمال . الواحدة منية (بضم فسكون) .
 وسدير : حقيق ، وخليق : صفة من جدر بكذا ، وجدر له (كظرف) ، جدارة : إذا صار خليقاً به ،
 أهلاً له . وسوى الشيء يحويه (كطواه يطويه) ، واحتواه ، واحتوى عليه : أي جمعه ، وأحرزه ،
 وضمته ، واستولى عليه . وهو هو هواء (من باب صدى) : أحبه ، ورغب فيه ، وبالم إليه .
 في البيت السابق : اختر بأن هته ويجده وشرف آبائه في أهل مراتب الرفعة والسمو ، والعلامة . وفيه
 إشارة إلى مواعيد ومواقع حوت بعض التمتع هته ، فلم تسير مجده ، ولم تتطرق إلى المنى التي يناسبه ،
 ويليق به . وفي هذا البيت توضيح وتفصيل لهذا المعنى ؛ فإنه بلغ جمته بمضى آماله ، ولكنه
 خليق أن يجمع بها كل ما يرغب فيه ، ويلتحظ إليه من الغايات البعيدة ، والمطامع الرفيعة ، ومطالب
 السيادة والمجاهدة . وفيه إشارة إلى أنه لن يسكن عنهما وصل إليه ، ولن يفتح به .

(٢٥) ساد يسود سيادة ، وسودداً ، وسودداً : عظم ، ومجد ، وشرف . والجند : جمع الجند
 (يفتح الجيم) : وهو أب الأب ، وأبو الأم . ويريد بفضلته : فضائله ، وكفاياته ، ومواهبه
 ومؤهلاته ، وهمه العالية ، ومزاجه القوية . والسهم : عيد من خشب يسرى ، ويركب في طرفه نصل
 يرمى به عن القوس . وراش السهم يريشه (من باب باع) : ركب عليه الريش ، فهو ريش (بوزن
 مبيع) . أو أصلح ريشه لتسديده . وأشوى السهم إشواه : أعطاه الغرض ، ولم يصب الهدف ، أي
 الصيد ، أو لم يصبه في مقتله . ورشت سهمي ، فما أشوى : أي أعددت سهمي إعداداً تاماً للرماية ،
 فاستدت ، وأصاب المقتل . وهو كناية عن تمام أهيتة ، وقوة استعداده ، لتحقيق المطالب ، وبلوغ
 الآمال .

والمعنى : أنه عصامي عظامي ، ساد يشرف نفسه ، وشرف آبائه .

(٢٦) الماوى (بوزن المثوى) : اسم مكان من أوى المكان ، وإليه يأوى (كرمى يرمى) :
 أي نزل فيه ، واستقر به . وأوى إليه : عاد ورجع . وأوى إليه : لجأ إليه ، ولاد ، واعتصم به .
 وأوى إلى ظلال فلان : استظل به ، واحتوى بحماه . ويراد بشرف الماوى : مجد الآباء والأجداد :
 أي وليس علو النفس في مجد الجند وحده ، وليس كمال المروء في شرف الماوى وحده ؛ فالشرط الثاني تكرار
 وتأكيده للمعنى الشطر الأول .

والبيت يجرى مجرى الحكم والأمثال ويؤكد معنى البيت السابق ؛ فإن اقتصار الحسب الماجد
 على حسبه ونجد آبائه لا يبلغه ما تسمو إليه نفسه من المزة ، وكال الشأن ؛ بل لابد أن يكون مع هذا
 فاضلاً هاماً ، قوي العزم ، عالي الهمة .

إِذَا حَرَكْتَنِي نَحْوَ أَرْضِي وَكَيْفَةً رَكِبْتُ لَهَا عَزَمِي وَإِنْ بَعْدَ الْمَهْوَى (٢٧)
 فَإِنْ كَانَ سَوَى الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَ مَنْ أَرَى مِنْ بَنِيهِ فِي الْحُطُوطِ ، فَمَا سَوَى (٢٨)
 بَرَنْتُ مِنَ الْغُلِّ الَّذِي أَصْبَحْتُ بِهِ قُلُوبُهُمْ مِنْ شَرِّ مَا حَكَلَتْ تَدْوَى (٢٩)
 نَصَحْتُ ، وَعَشِيْتُ ، وَأَسْبَقْتُ ، وَرَاوَعْتُ وَهَلْ مِنْ هَذِي بَيْنَ الْأَتَامِ كَمَنْ أَغْوَى ؟ (٣٠)

(٢٧) الوتيرة : بالذحل : أى الثأر (بفتح فسكون فيهما) . ومثلها الترة (بوزن المدة) وركبت لها : أى ركبت للأرض . أو الوتيرة . والعزم : الصبر ، والجدة ، والإرادة القاطمة الماضية القوية (وفعله من باب ضرب) . والمهوى (بوزن المأوى) : اسم مكان من هوى يهوى (كرى يرمى) : إذا سقط من أهل إلى أسفل . أو ارتفع وصعد . وهوى فى الأرض : ذهب فيها . والمهوى أيضاً : الجرف . والمراد : وإن يمدت الشقة ، وامتدت الطريق ، وشق السفر ، واتسعت المسافة وظالت ، وكثرت الأعباء وثقلت .

يقول : إنه حريص أشد الحريص على إدراك ثأره ، والانتقام من ظلمه . وله فى هذا الشأن عزم قوى ، وصبر ، وجدة ، وإرادة قاطمة ماضية ، وإن يمدت عليه الشقة ، والتوت به الطرق .

(٢٨) سَوَى فى الشطر الأول : بمعنى ساءى . يقال : ساءى بين الشيئين : أى جعلهما يتآكلان ، ويتعادلان ، ويتساويان . وسوى فى آخر البيت : بمعنى قوم ، وعدل ، وأصلح . والمراد : فما عدل فى تسويته ، ولا أنصف . والحطوط : جمع الحظ : وهو التسبيب . والحظ أيضاً : الجدة والبشت .

يرى الشاعر فى نفسه كفايات ومواهب تقدّمه وتفضله على من يمتهم ، ويمرّس بهم من الناس ، وقرعهم فوقهم ؛ بل يرى محامده وقضائله تقابلها مناقصهم وسواهم ، ويرى حظوظهم - مع هذا التفاوت والتناقض - مساوية لحظه فى الحياة ؛ ومن أجل ذلك عاتب الزمان ، ولامه ، ويزدّه من العدل والإنصاف ؛ لأنه ساءاهم به ، ولم يعترف بتفوقه وتفضله ، ورجحان قدره . وفى البيتين الآتيين تفصيل لهذا المعنى .

(٢٩) الفلّ (يكسر الفين) : الضغن ، والحقد ، والنش (يكسر الحرف الأول فى كل منها) . وقولهم : أى قلوب من حرص بهم فى البيت السابق ، وقال : إن الدهر لم يكن عادلاً حين سوى بينه وبينهم فى الحطوط . وتدوى (من باب صدى) : يتأثرها داء الحقد والضغينة . والذى (بوزن الصدى) : المرض .

برأ نفسه من الفلّ ، وريام به ؛ وهو شر ما تنطوى عليه الصدور ، وتدوى به القلوب . (٣٠) نصحت له ، وفصحته (كنفته) : أرشدته إلى ما فيه صلاحه . وتقول : نصحت له المشورة ، ونصحت له الرد : إذا أخلصبها له ، ونقيتها من شوائب الفس والتناقض . والاسم النصيحة : =

وَلَمَّا إِذَا مَا الْخَطْبُ أَمَرَ طَعْمُهُ نَبَتْ بِهِ رَأْيَا أَلَدَ مِنَ السَّلْوَى (٣١)
أَصَبْتُ كُلِّي الْأَحْدَاثِ حَتَّى تَرَكْتُهَا عَلَى جَمَرَاتِ الْغَيْظِ تَأْمُورَهَا يُشْوَى (٣٢)

سوى قول فيه دعاء إلى صلاح ، ونهى عن فساد . وفش "صاحبه" من باب رد : زين لهقير المصلحة ، وأظهر له خلاف ما يفهم . والاسم الفش (يكسر الفين) : وهو خلاف النصيحة . وفش صدره : إذا انطوى على الحقد والضغينة . واستقام الشيء : اعتدل ، واستوى . واستقامة الإنسان : لزومه المنهج المستقيم ، والتزامه الإخلاص والصدق في القول والعمل . وراوفه مراوغة : خادعه وخاتله . والناصح : ضد الفاش . والمستقيم : ضد المراءوغ . والاستقام في أول الشطر الثاني : معناه النى . والأثام : الخلق والناس . وأغواه إغواء : أضله . وأفسده . وهو ضد "أرشدته" ومناه .

في البيت الثامن والمشرين عرض الشاعر من سوى الزمان بينه وبينهم في المخطوط ، فلم يكن في هذه التسوية عادلاً ، ولا منصفاً . وفي هذا البيت عرض بعض فضائله وتفاخصهم : ففى خلقتهم النصيح ، والاستقامة ، والهداية ، وفى طباعهم الفش ، والمراوغة ، والإغواء . والفرض الفخر بمحامده وفضائله ، والتثني بمساوئهم وتفاخصهم ، وبيان ما بين سيرته وسيرتهم من اختلاف شديد ، وتناقض وتضاد .

(٣١) الخطب : الأمر الشديد ، ينزل بالناس ، ويكثر فيه التخاطب . وجسمه خطوب (بوزن كرب وكروبو) . وأمر الشيء إمقاراً : صار مراً . وإمقار طعم الخطب : كناية عن اشتداده وفسده . ونيل الشيء (من باب ضرب) : طرحه وألقاه . والرأى : العقل ، والإصابة في التدبير ، والتفكير المحكم السديد الصائب . وربيل ذو رأى : أى ذو بصيرة وحلق بالأمور . وللا شيء (كل) : صار لذيذاً شهيئاً . وألذ : اسم تفضيل منه : أى أكثر وأشد لذاً . والسوى : العمل .

يفخر برأيه السديد الذى يتشبع به فوادي الخطوب .

(٣٢) الكل : جميع كلية (بوزن مدية ومدى) . والأحداث : جميع حدث (بوزن سبب وأسباب) : وهو الأمر الحادث المنكر غير المعتاد . وأحداث الدهر وحواذيه : نوازل ونوائبه : والجمرات : جمع جمره (بوزن تمره وتمرات) : وهى القطة الملتبئة من النار . والغيظ : غضب شديد كامن للمازى . وهو أشد الحق (وفعله من باب باع) . وجمرات الغيظ : أى الغيظ الذى يتوقد من شدته ، ويلتهب آتاه الجمر . والتأمر : النفس وسجاتها : والقلب : وسجته ، وسياته ، ودمه . أو الدم . وتأمرها : تأمر الأحداث . وشوى اللحم وغيره يشويه شيئاً (كطواه يطويه شيئاً) : أفضجه بمباشرة النار .

والبيت كالببيت السابق : تصوير لمقدوته الفائقة على مكافحة الخطوب ، وتبديد الأحداث . ويلاحظ أنه - على قرب معناه - مرهق بالهجاز . وأربعة الأبيات فخر بشعره وحكته ، وإطراح القوافي له ، وإقبالها مسرعة عليه ، وتقوكة في بلاغة القول ، وسحر البيان .

وَصُنْتُ مِنَ السَّحْرِ الْخَلَالِ قَصَائِدًا تَظَلُّ بِهَا نَفْسُ الْمُجِيدِ لَهَا نَشْوَى (٣٣)
فَمَا قَيْدَتْنِي لَفْظَةٌ دُونَ حِكْمَةٍ وَلَا غَرَّتْنِي قَوْلٌ بِفِعْلِ إِلَى الدَّعْوَى (٣٤)

(٣٣) صاغ الكلام (من باب قال) : هيأه ، ورتبه ، وسهره ، وزينه ، وسرره ، وقته : مستعار من صاغ الصانع للذهب والفضة ونحوهما : أى سبكهما ، وصنهما على مثال مستقيم . والسحر : كل ما لطف مأخذه ، ودق وكل أمر يخفى سببه ، ويتخيل على غير حقيقته ، ويمرر بمرى الخفية والحداد . وسهره بكلامه (كنهه) : استأله ، واستهواه ، وسلب لبه برقته ، وحسن تركيبه ، وقوة تأثيره . ومن السحر حلال وحرام . ويراد بالسحر الخلال : البيان الرائع ، والقول الفصيح البليغ ، والشعر الرصين الحكيم . ومن حديث النبي صلى الله عليه وسلم : « إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكمة » والقصائد : جميع القصيدة : وهى من الشعر : سبعة أبيات فأكثر . و « قصائد » منوعة من الصرف ، أى التثنية ، وإنما نوّنت هنا لفروقة وزن الشعر . وتظل : تبقى وتستمر . والمعنى : اسم فاعل من الإعادة : وهى التكرار والترديد . ونشوى : سكرى (والقول نفس كمنى) ، فهو نشوان ، وهى نشوى . ويقال : نشى بالشراب وغيره : إذا أحبه وعاوده مرة بعد أخرى

ينظر بأن شعره من السحر الخلال الذى يعوضه بمهارة وإحكام ؛ فيحلّ بالقلوب ، ويسكر النفوس ، ويهجر ويسحر ، ويحلو على الإعادة والترديد . انتقل الشاعر فى هذا البيت وثلاثة الأبيات بنده من الشعر بمقدرة الفائقة على مكافحة الخطوب ، وقش الأحداث إلى الفخر بشعره ، ومقدرة الفائقة على صياغته وسبكها ؛ ولعلّ الصلة بين هاتين المنهاتين أنهما لما يجب ، ويطرب ، ويهجر ، ويسهر ؛ وأن كل واحدة منهما محتاج إلى سداد الرأى ، وجودة السبك ، وحسن التعبير ، وأن الخطوب قد قلهم الشاعر ، وتغير عاطفته ووجدانه ، وأن الشعر ، وسحر البيان قد يمين على رده هجماً ، وإطفاً جلوتها .

(٣٤) الحكمة : إصابة الحق بالقل والعلم . أو هى معرفة الموجودات ، وفهم الخيرات . أو هى القول الرشيد البليغ الذى يتضمن حكماً صحيحاً مسلماً . أو هى معرفة أفضل الأشياء بأفضل المألوم . أو هى العلم والتفقه . أو الكلام الذى يقلّ لفظه ، ويحلّ معناه . وقد أشرنا فى شرح البيت السابق إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن من الشعر لحكمة » : أى قضية صادقة ، كقول ليلى بن ربيعة المامرى فى جاهليته :

ألا ، كل شئ ما خلّاه أهـ باطلٌ وكلّ نعيمٍ لا محالة زائلٌ
وقوله فى إسلامه :

ما عاتب المرء الكريم كخفسه والمرء يصلحه المجلس الصالح

وقوله : « إن تقوى ربنا خير نفل » : أى خير غنية وريح وكسب . ومعنى الشطر الأول : أى لا أتقيد بالألفاظ ، ولا أجري وراءها ؛ فأنصرف بها من الحكمة البالغة ، والقول الحق ، والمعنى الجليل السديد وغرّنى (من باب رد) : خدعنى ، وأطمعنى بالباطل . والمعنى : اسم ما يدعى : أى لا أغترّ بقول ، =

وَيَا طَالَمَا رُمْتُ الْقَوَارِي ، فَاقْبَلْتُ سِرَاعاً ، فَلَا أَرَوِي ذَكَرْتُ ، وَلَا حُرُوزِي (٣٥)
فَلَا يَحِلُّونَ النَّاسَ حَلَوَ بَلَاغَتِي فَاقْرَبْ مَا فِي شَأْنِهَا الْقَائِيَةُ الْقُصُورِي (٣٦)

= ولا أدعى الإجابة بغير حق .

يقول : إنه لا يتقنه في شعره وبيانه بالألفاظ ، يجري وراحها ، ويحرص عليها ، فتصرفه من الحكمة ، وفصل الخطاب . وكذلك لا يفتقر بقوله فيدعي دعاوى باطلة ، أو يزدن بشعره الباطل ، أو يشعرو به من الحق والساد .

(٣٥) وأم الشعر (من باب قال) : أرادها ، وطلبه . والقوافي : جمع القافية : وهي من آخر البيت إلى أول متحرك قبل ساكن بينهما . وبعبارة أخرى : هي الحروف التي تبدأ بمحرك يليه آخر ساكنين في آخر البيت ؛ فقافية هذا البيت مثلاً : كلمة « حزوي » . ويراد بالقوافي هنا : القصائد التي نظمها الشاعر في أغراض الشعر ، وضروبه ، وأبوابه وفنونه أو يراد بها أبيات كل قصيدة . أو المراد قافية كل بيت . ويريد بإتيانها عليه سراحاً : أنها متطابقة له ، سهلة عليه ، يجري بها ذهنه ، ويتألق وبهجتها في صاوة فكره فيطلق بها لسانه وقلمه بلا تكلف ، أو تمسك ، أو عنق ، أو إزهاق . و « أروى » و « حزوي » : موضحان في شبه الجزيرة العربية . وهاتان الكلمتان جامدتا في مطلع قصيدة البحري التي أوزنها البارودي ، وعارضها بهذه القصيدة :

لنا أبداً بثّ نساياه في أروى وحزوي ، وكم أدتلك من لوحة حزوي

ولمهما من مواطن الحب ، ومنازل الترام التي ردّها البحري أمثاله . ولعل المراد بالشرط الثاني : أنه لم يقصد في شعره إلى محاكاة غيره ، أو ترويض ما رده شعره العرب من قبله ، وإنما كان يصدر عن شعوره وفكره وبخايل نفسه .

يفخر بأنه كثيراً ما طلب القوافي ، فأقبلت عليه في سرعة ويسر ، وانقياد وبسهولة ؛ فهو شاعر مطبوع ، مكثر في الإجابة ، مفتح في إبداع ، لا يتكلف ، ولا يتعمش ، ولا يشتغل ، ولا يحلو حلو غيره ، ولا يتقنه بألفاظهم ، ولا يردّد ما ردّدوه من أسماء الأماكن ونحوها .

(٣٦) حلما النمل ونحوها (من باب هذا) : قدّرها ، وقلمها على مثال . وحذا فلان حلوا فلان ؛ أي فعل مثل ما يفعل . والبلاغة : حسن البيان ، وقوة التأثير . والشأ (بفتح فسكون) : الأمد ، والناية ، ونشئ الشيء . والشأو : الشوط . والقصوي : مؤثث الأقصى . والناية القصوي : الناية البعيدة ، أو المتناهية في البعد . ومعنى الشرط الثاني : أن الداعي القريب من آحاد بلاغته ، ودجاجتها ، ومرآحها هو الناية القصوي ، والأمد البعيد التي لا يستطيع الناس إدراكه ويلوّه ، أو محاكاته ومسايرته .

يفخر بأن شعره وبيانه في أهل مراتب البلاغة ، وجمال التعبير ، وقوة التأثير ؛ وإن غيره من الشعراء والأدباء لا يستطيعون الاحتذاء به ، أو مجاراته ، ومتافسته ؛ فهو وحده أمة لا ينالس ولا يغالِب .

وَقَالَ فِي الْغَزَلِ :

وَيْلَاهُ مِنْ نَارِ الْهَوَى وَأَوْ مِنْ طَوْلِ الْجَوَى^(١)
 أَرْسَلْتُ طَرْفِي رَائِدًا فَمَا عَلَا حَتَّى هَوَى^(٢)
 وَسَارَ قَلْبِي خُطْفَهُ فَلَمْ يَعُدْ حَتَّى اكْتَوَى^(٣)
 قَدْ طَالَمَا زَجَرْتُهُ يَا لَيْتَهُ كَانَ ارْعَوَى^(٤)
 لِكُلِّ شَيْءٍ آفَةٌ وَأَفَةُ الْقَلْبِ الْهَوَى^(٥)

(١) «ويل» : كلمة عذاب . وويلاه : أسلوب تذكير (يغم فسكون) : وهى هنا : نداء المتوجع منه . والهوئى : الحب ، والمشق ، والفرام . وآه : كلمة تأوه وتوجع ، وشكوى . والجوئى (يوذن الصدى) : مصدر جرى (كصدى) : أى طال مرضه ، واشتد وجده ، وأصابته حرقه من عشق ، أو حزن .

اشتدت به تباريح الشوق والفرام ، ولواجح الحرق والحيام ، وطال عليه الوجد والجوى ، فجأر بالشكوى والتوجع .

(٢) الطرف (يفتح فسكون) : العين ، والنظر . والرائد : من يتقدم القوم ، يرتاد لهم المرمى والكلأ ، ويصير مساقط النيث . وراذ الشيء (من باب قال) : تلمسه ويطلبه . وعلا (من باب عما) : ارتفع . وهوى (كرى) هُوىً : سقط من طول إلى سفلى .

والمنع : أنه نظر إلى المستأنه المتغزل بها كمن يروى شيئاً ، فإلبث أن حلق بها ، وسقط فى أشراك الهوى ، وسبائل الفرار .

(٣) خطفه : أى وراه طرفه . واكتوى : مطاوع كواه (من باب روى) : أى أحرق جلده بمحمدة محمداً ، أو نحوها .

سار قلبه وراء عينه ، فإلبث أن احترق بلواجح الحب والحيام ، وحرق الصباية والفرام .

(٤) زجرته (من باب نصر) : كلفته ، ومنعته ، ونهته . والضمير المفعول به يعود على القلب فى البيت السابق . و «ليت» : حرف يفيد التمنى . وارعوى : كف ، وارتدح ، وانزجر ، واحتج . والمراد : اربعى عن الحب ، ولم يتباد فيه .

يقول : إنه زجر قلبه عن الهوى زجراً طويلاً كثيراً ، فتصمى عليه ، وأبى أن ينزجر .

(٥) الآفة : عرض يفسد ما يصيبه . وهى العاهة . ولا ريب أن الحب يصيب القلب ، فيسيطر عليه ، ويصرفه عن جد الحياة ، ومهام الأمور . وهذا هو الإفساد ، والانحراف عن الحكمة والصواب ، واجتناب الهدى والرشاد .

أَمَّا كَيْ هُنَا الْيَمَا حَتَّى أَصَانَتْهُ النَّوَى^(٦)
 أَيْنَ اللَّوَى وَعَهْبُهُ ؟ أَيَهَاتَ عَهْدُ بِاللَّوَى^(٧)
 وَظَنِي أَنِّي سُمْتُه لِنَجَارَ وَعَدِي ، فَلَوَى^(٨)
 طَلَبْتُ مِنْهُ قُبْلَةً فَازُورٌ عَنِّي ، وَالنَّوَى^(٩)

(٦) «أما كئي» : استفهام من ، يراد به التحزن ، والتأسف ، والتحسر . والجفا : الجفاء .
 وقصر هنا لضرورة وزن الشعر : مصدر جفا الشيء (من باب عدا) : أي غلظ ، وجفا الحبيب :
 صد ، وأعرض . وصدمة الرقعة ، والبر ، والإقبال ، والوصال . والنوى : البعد ، والفراق . وهي مؤنثة .
 اجتمع عليه جفوة الحبيب وبعدة ؛ فشكا ، ونحزن ، وتحسر .

(٧) الذي (كإل) : ما اتى من الليل ، وأغشى ، واتصلف ، وأعوج . أو هو مسترق الليل .
 أو منقطعه . والمهد : المنزل المهدود به الشيء ، كالمهد (بوزن المذهب) . والمراد : معهد الحب ، ومنزل
 الغرام . أو يراد بالوَى : معهد الحب . ويراد بالمهد : ما كان بينه وبين الحبيب من التقاء ،
 وممرقة ، وضة ، وموتى . والاستفهام في أول البيت : يفيد الاستبعاد ، والتعسر ، والتحزن . وأيهات :
 هيئات : اسم فعل ماضٍ : معناه بعد ؛ فهي كلمة تبيد . والشرط الثاني يؤكد معنى الشرط الأول . وهما
 في معنى الشرط الثاني من البيت السابق .

(٨) الواو في أول البيت : واو «رب» : أي «رب» ظي ... وهي حرف عافض ، يدخل حل
 النكرة ، ويفيد التقليل في مثل هذا المقام . والظي : النزال ؛ وتشبه به الحسنة من النساء في جمال الجيد
 والميتين ، وخفة الجسم ، وشفاقته ، ومرونته ، ولطف الحركة ، وحسن التني . والأنس (يضم فسكين) :
 ضد الوحشة : أي ورب ظي مؤانس ملاطف . والأنس أيضاً : حديث النساء ، ومغازلاتهن ، والتودد إليهن .
 أو هي «إنس» (بكسر فسكين) : أي ظي من الناس ، لا من الحيوان . وسيمت إنجازه وعده (من باب
 قال) : أدته ، وملكته ، وابتنيتها . ولوى (كلوى) : ماطل ، وصوف . أو جعد وأنكر . أو صد*
 وأعرض . أو تناقل وتباطأ .

شبه المنزل بها بالنزال في الرشاقة ، وجمال الجيد والميتين . وقال : إنها مؤانسة ملاطفة .
 تألف وتؤلف وإنه سامها الوفاء بعدد الوصال والإقبال ، فاطلت* وأعرضت* .

(٩) أزور* منه : مال ، واتى ، وانحرف ، وأعرض ، وانقبض . واتى عليه الأمر التواء :
 اعتصم ، وسر ، وصعب . واتى عن الأمر : تناقل ، وتباطأ ؛ فهو تأكيد لمنى الاثوار .

يقول : إنه طلب من هذه الحسنة أن يلتمها ويقبلها ، فازورت* عنه ، واتى* عليه ، ورفضت*
 طلبه .

وَسَمِعْتُهُ وَعَدَ الْمُنَى فَاَنْحَازَ عَنِي ، وَانْزَوَى ^(١٠)
 يَا سَائِلِي عَنْ حَالَتِي دَعْنِي ؛ فَصَبْرِي قَدْ ذَوَى ^(١١)
 وَكَانَ قَلْبِي رَاشِدًا لَكِنَّهُ الْيَوْمَ غَوَى ^(١٢)
 أَهْوَعَ فِي أَشْرَافِهِ لِكُلِّ حَىٍّ مَا نَوَى ^(١٣)

(١٠) ختمه : أى طلبت من هذا الحبيب . ويلاحظ أن الشاعر في هذه القصيدة ، وفي كثير من غزله يستخدم ضمير المذكر مقتدياً بأبي نواس وأشأله من شعراء العصر العباسي الذين خرجوا من مألوف العرب وأدأبهم ، فنقلوا الغزل من أوصاف المؤنث إلى المذكر . وللمنى : جمع منية (بورن مدية ومدى) : وهى الأمانة : أى البقية (بضم فسكون) . والطلبة ، وما يتناهه الإنسان ، ويقدره ، ويرغب فيه ، ريب أن يصير إليه . وودع المنى : الودع الذى تمنيته : أو الودع الذى يتناهى به ، وأطمئنى فيه : أى وسمته إلهاماً الودع الذى يحقق آماني ، ويصدق آمالي . وأعاز حى : بدل حى ، وأزور ، والتى ، ومال حى ، وأعرض ، وأنصرف . وانزوى انزواء : انقبض ، ونجهم : من قولهم : أصمته كلاماً ، فزوى وجهه ، أو انزوى له ما بين حنيه . وهو قريب من معنى الى ، والازوار ، والالتواء . والبيت تكرار وترديد وتأكيده لمنى البيت الثامن ، وفيه ثلث كلمات .

(١١) تمنى : أمر من ودعه يدعه ودعاً (كوضعه) : بمعنى تركه . وذوى العود وغيره (كرمى) : ذبل ، وريس ، وضعف . وذوى صبره : تفادى ، وفى .

في ثلاثة الأبيات السابقة أن المختزل بها أغلقت وصلها ، وتمصت عليه ، وأعرضت عنه . وفي هذا البيت معنى الشكوى والتبرم والتسريح ؛ فقد سامت حالته ، وتكدرت معيشته ، وتقد صبره .

(١٢) رشد (كفقد ، وطرب) : احتلى ، وصلح ، وأصاب الصواب ؛ فهو راشد . وفري (كطوى) : أومن في الضلال ؛ فأرشد والاحتداه : شد التنى والضلال .

يقول : إن قلبه كان قبل العشق راشداً ، فأصبح يمه غاوياً . وفي البيت معنى التأسف والتحسر .

(١٣) فائب فاعل «أوقع» : ضمير القلب في البيت السابق . والأشراك : جميع شرك (بورن سبب وأسباب) : وهو حيلة الصيد : أى المصيدة . وقيل : الشرك : جميع شرك (مثل قصب ، وقصبية) . يريد بالشر الأول : أن الهوى أوقع قلبه في حباله . والشر الثانى اقتباس من الحديث النبوي الشريف : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى» .

وهذا البيت وثيق الاتصال بالبيت الثانى من هذه القصيدة . يريد : أنه نظر إلى هذه الحسنة نظرة مارة ساذجة بريئة ، بنية خالصة بعيدة عن الريب والشجاة ، ولكنه على الرغم من هذا كله ما لبث أن تعلق بها قلبه ، ووقع في حبال الهوى ، وأشراك الترام .

فَكَيْفَ أَفْضَى فِي الْهَوَى وَالْجَنَمُ مَخْلُوكُ الْقُوَى (١٤)
وَأَيْنَ ابْنِي نَاصِرًا ؟ هَيْهَاتَ ، وَالْخَيْرُ انْطَوَى (١٥)
أَصْبَحْتُ فِي قَبْضَةِ يَدَيْهِ بِسَامٍ فِيهَا مَنْ قُوَى (١٦)
لَا صَاحِبٌ وَاقَى ، وَلَا خَلٌّ إِلَى حَالِي أَوَى (١٧)

(١٤) « كيف » : استفهام عن الحال : أي هل أجد حال أفضى ... ؟ والمعنى : فلن أستطيع المضي في سبيل الهوى مع انحلال جسمي ، وذهاب قواي ؛ فهو استفهام بمعنى النفي . وقد يكون بمعنى التعجب والتعجب ؛ فهو موجب ويوجب غيره من تعاديه في الهوى ، وتلقفه هذه المحبوبة على ردفها ما صارت إليه حاله وجسمه من الضنى والآنحلال وذهاب القوى . ومحلول : اسم مفعول من حل "المعدة (من باب رد)" : إذا ضمها ، وفكها ، وقضها ، فاعطيت . وانحلال قوى الجسم : تصوير لما يكابده الماشق الصبّ الحسام من الضنى ، ولواجع الوجد ، وحرق الغرام . والوارى في أول الشعر الثاني : واو الحال . والجملعة الاسمية بعدها جملة حالية .

(١٥) « أين » : استفهام عن المكان . والاستفهام هنا للاستبعاد ؛ فهو يستبعد وجود الناصر والمعين . وقد يراد بالناصر هنا : من يخفف بلواه ، ويمسح عن أمره ، ويقرب إليه حبيبه . وقد تكون هذه القصيدة من الرنديديات المكتتة بالنزل ، وهو في حقيقته تملق ، وشرق ، وحنين إلى وطنه وأهله وأحبابه بمصر . وأبني : أطلب (وبابه رمي) . وهيات : اسم فعل ماض : بمعنى بعد ؛ فهي كلمة تجميد . والوارى بعدها : واو الحال . والجملعة الاسمية بعدها : جملة حالية . وانطوى : مطاوع طوى النوى : أي ضم بعضه على بعض ، أو لف بعضه فوق بعض . ويراد بالتميز : التصرة ، والإعانة ، والرفاء ، والرحمة وما إليها . وانطوى : فضويه ، وفناؤه ، وفناؤه ، وذهابه ، وانقضاءه ، وانقطاعه ، وزواله .

وفي هذا البيت وأربعة الآيات بعده معنى الاستيئاس والشكوى ، والسأمة والوسمة ، والوحدة والابتئاس ، ثم الفزع إلى الله رب العالمين ؛ فهو يشكو إلى الله بشه وسزته . ويستغفه الأرزاء والأسماء .

(١٦) التيهور ، والتهيرة : ما بين أهل الوادي والجبل وأسفلهما . وما أطمأن من الأرض وانغفص . وموج البحر إذا ارتفع . ويقال : وقوا في تيهور من البريل : وهو الذي يهز ويهال ، ولا ينامك ولعل الشاعر يشير بالتهيرة هنا إلى منغاه وبحبه البغيض الممقوت . وسم الشيء ، وسم منه (من باب تعب) : سمه ، وضجر منه . وثوى بالمكان ، وفيه (كفى) : لبث فيه ، وأقام به ، واستقر . يتبرم الشاعر ببقائه في ذلك المكان السحيق البئيس ، ويعلم سأمته وبئله ، وضجره وقلقه .

(١٧) وفاته موافاة : أذاه ، وقاجاه . والخلل (بكسر الخاء وتشديد اللام) : انصدیق الخالص المنفص . وبئله الخليل . وأرى له ، وإليه (كرى) : رقد له ، ورحمه ، وأشفق عليه ، وتودد إليه . =

فَبَا إِلَهِي ! رَاعِنِي وَأَقْفَنْعْ عَنِ النَّفْسِ التَّوْحَى^(١٨)
وَلَا تَكِلْنِي لِلَّتِي لَوْ صَادَفْتُ نَجْمًا حَوَى^(١٩)
وَقَالَ يَفْتَخِرْ ، وَيَعْرِضْ *

تَصَابَيْتُ بَعْدَ الْجُحْمِ ، وَاعْتَادَنِي شَجْوِي وَأَصْبَحْتُ قَدْ بَدَلْتُ نُسْكِى بِاللَّهِوِ^(٢٠)

(١٨) راعاه مراعاة ورعاه . ورعاه يرعاه رعيًا ، ورعاية : حفظه ، وقاؤه ، رسامته ، وأبى عليه ، ولا يحله عسًا إليه . والنعوى (بوزن النوى) : الهلاك (وفيه من باب صدى) .
(١٩) وكل فلانًا إلى نفسه (من باب وعد) : إذا تركه ، وتخطى عنه ، ولم يمنه . وفي الحديث : « اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين » . ولأتى : أى إلى الحال التى ... وصادفت : وجدت ، ولاقته . وقابلته . ويعنى النجم (كوى) : هوى ، وسقط ، ولم يكن منه عند سقوطه مطر . وشربت الدار : تهدمت .
وفي القرآن الكريم : « فكأن من قرية أهلكناها وهي ظالمة ، فهي خاوية على عروشها » الآية رقم ٤٥ من سورة الحج . وأصل الخواء : الخلاء (يفتح الخاء فيهما) .

• مرّض بفلان ، ولفلان تمرينًا : إذا قال قولًا وهو يمينه ويريد ، ولم يصرح به ، ولم يمينه ؛ فالنصريح : خلاف التصريح .

(٢٠) تصابى تصابيًا : تكلفت الصبا (بكر الصاد) : وهو الصغر والخداثة ، وصال إلى اللهو والحب . وتصابى الرجل المرأة ، وأصباها : فنها ، واستهاها ، واستهوها ، وشغل قلبها وهواها . والحلم (بكر فسكون) : الأناة ، والرزانة ، والبقار ، والمقل . وهو هنا يقابل التصابى . واعتادنى الشيء اعتيادًا : اتقانى ، وأصابنى ، وقزل فى . والشجو : الطرب : وهو خفة أو حزة تمر من يشتد به السرور ، أو الحزن ، أو الاقتراب ، أو الانشاق ، أو الإصعاب . يقال : شجاع الحديث ونحوه . (من باب عدا) : إذا أطربه ، وهزّ مشاعره . وشجاع تذكر الإلف : أى هيج حزنه وشقه . وبدل بالثوب القديم الجديد : لم يترك القديم ، وليس الجديد (يادخال الباء على المترك) . وفي القرآن الكريم : « فأعرضوا » فأعرضناهم سبل الحرم ، وبدلناهم بمجتهم جنتين ذواق كل خمط وأكل وفيه من مسد قليل . الآية رقم ١٦ من سورة صبا . ويلاحظ أن الشاعر هنا عكس ، فأدخل الباء على غير المترك . والنسك (يتثبث النون ، وبضمسين) : التزمّد والعبادة . وقد نسك (كتمر ، وككرم) . واللهو : الاستمتاع بملذات الحياة ، وليل من الجدة إلى الخزل (وفيه من باب عدا) : وهو خلاف النسك . ويقال : لمت المرأة إلى حديث صاحبها : إذا أنست به ، ومالت إليه ، وأصعبها . وفي القرآن الكريم : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب » الآية رقم ٦٤ من سورة المنكوت ؛ فاللهو والعبس كلاهما : الاشتغال بما لا تقتضيه الحكمة ، ولا يبنى الماثل ، ولا حمة ، من هوى وطرب ونحوهما .

فى الشطر الأول : أنه تصابى ، وانتابه شجوى بعد الحلم والبقار . وفى الشطر الثانى : أنه استبدل اللهو والحب بالنسك والعبادة . وفى الشطرين : أنه استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير .

فَقُمَّ عَاطِنِيهَا قَبْلَ أَنْ يَحْكُمَ النَّهْيُ عَلَى ، وَيَسْتَهْوِي الزَّمَانُ عَلَى زَهْوِي^(١)
فَمَا الشَّهْرُ إِلَّا نَابِلٌ ، ذُو مَكِيلَةٍ إِذَا نَزَعَتْ كَهْمَاهُ فِي الْقَوَيْسِ لَمْ يَشْوِي^(٢)
فَحُذِّ مَا صَفَا مِنْ وَدُو قَبْلِ قَوِيهِ فَلَيْسَ بِنَاقٍ فِي الْوِدَادِ عَلَى الصَّفْوِ^(٣)

(٢) عاطاه الشيء معاطاة وطاقه (بكسر العين) : ناوله لياه . وعاطنيتها : أعطى الخمر : أى استعنىها . والنهى : العقل ، لأنه ينهى عن التبعي . وقبل أن يحكم النهى على : أى قبل أن يقضى على عقل ، فينهائى عن الهوى ، ويردنى عن الشراب . والزهو (بفتح فسكون) : الكبر ، والتجبر ، والفخر ، والمظلة . والزهو : المنظر الحسن ، والتبات الناضر . وزها السراج (من بابى حدا وبما) : أضاء . ويراد بالزهو هنا : ما يقارن الصبا والشباب من النضرة ، والقوة ، والإشراق ، والبهاء ، والإعجاب بالنفس . واستهوى الزمان زهوى : هوى به ، وأذهبه . من قولهم : استهوى الشياطين : إذا هوت به ، وأذهبه . ويلاحظ أن هذا الفعل يفتدى إلى المفعول به بنفسه ، فلعل الشاعر ضمته معنى قبل يفتدى : « على » مثل « استولى » . يقول لسانه : قم فاستعنى الخمر قبل أن ينهائى عنها عقل ، وقبل أن يذهب الزمان بشبابي ، فتهمد شهوة الهوى والشراب .

(٣) الشعر : الزينة الطويل ، والأمد الممدود ، ومدّة الحياة الدنيا كلها . وقد اتحد الناس أن يضيفوا إليه الخير والشر ، والسرّة والحساسة . والتأبيل : التراى بالنبال : وهى السهام : جمع سهم (بفتح فسكون) : وهو حديد من خشب يسوى ، ويركب في طرفه نصل حاد قاطع من الحديد الصلب ، يرمى به الصائد ويخوذ عن القويس ونحوها . والمكيلة : الخيلة : اسم من كاده (من باب باع) : إذا خدعه وشغله ، ومكر به ، وأراد به يسو . والقويس : آلة حل هيئة هلال ، ترمى بها السهام . وفزع التأبيل إلى القويس (من باب ضرب) : مدّها : أى جذب وترها للرمى عنها . ولم يشو : أصاب ، ولم يشطه . يقال : أشوى الصائد الصيد وغيره إشواء : إذا لم يصبه . ورمى الصيد ، فأشواه : إذا أصاب شواه ، وما ليس بمقتل . والشوى : أطراف الجسم ، وكل ما ليس مقتلا . الواحدة شواة (يوزن فواة وزوى) .

يقول : إنما الزمان محارب شائن ، شديد البأس ، قوى المراس ، متمرس باستخدام السلاح ، إذا روى أصاب وأصمى . وصلة هذا البيت بالشطر الثاني من البيت السابق واضحة وثيقة ؛ فهو في سبيل الحذف على الهوى والشراب ، واختتام لذات الصبا والشباب ، قبل أن يذهب بها الزمان ، أو يتقلب ، فيكيد للآه ، ويرديه ، ويحرمه ملاحيه ومسرّاته .

(٤) صفا الماء ونحوه يصفو صفواً ، وصفاء : راق ، ونقى ، وشلا من الكدر . والود ، والوداد ، والمودة : المحبة : وهى من الشعر : المسلة ، والمهاسنة ، والمياسرة ، والمواتاة .

يقول : إن الدهر بالناس حول قلب ، وإن وداده الصاق لا يقاء له ، ولا دوام ؛ فاعتزم الفرصة ، وانضع بمسائله المحزنة قبل فواتها .

أَلَا إِنَّمَا الْأَيَّامُ دُولَابٌ خُصِدَعَةٌ تَلَوُّهُ، عَلَى أَنْ لَيْسَ مِنْ ظَلَمٍ تَرَوِي^(٥)
 قَبِينَا تَرَى تَلَوُّ عَلَى النَّجْمِ رَفْعَةً بِمَنْ كَانَ يَهْوَاهَا إِذْ انْقَلَبَتْ تَهْوِي^(٦)
 فَرَأَيْتُ بِجِدِّ سَهْوَةِ الدَّهْرِ، وَالتَّمِيسِ مُنَاكَ؛ فَمَا يُعْطِيكَ إِلَّا عَلَى السَّهْوِ^(٧)
 وَلَا يَزَعْنِكَ الصَّبْرُ عَنْ نَيْلِ لَذَّةٍ فَعَمَّا قَلِيلٍ يَسْلُبُ الشَّيْبُ مَا تَحْوِي^(٨)

(٥) الدُّولَاب (بضم الدال وفتحها) : آلة كالناعورة ، أو المنجنون ، تديرها الدابة ، ويستقى بها الماء (ناوسية معربة) . وخدمه (من باب منح) : خطه ، وأظهر له خلاف ما يخفيه ، وأراد به المكره من حيث لا يعلم . ومنه الخدعة (يتشيل الخاء) والنظا : العطلش ، أو أشده (وفله من باب تعب) . وأرواه يرويه إرواه : سقاء ، وأزال عطشه .

يقول : ليست الأيام إلا ساقية خادعة غائلة ، تدور ولكنها لا تروى غلة ، ولا تخلق ظمأ . يريد أن في طبيعة الزمان الخاتلة والخداع ؛ فهو يخون الناس بالأماني الكاذبة ، ولا يكاد يحقق لهم شيئاً منها . (٦) ترى : أى الأيام المشبهة بالدولاب . ويهواها : يحبها ، ويتملق بها (وبابه صدى) . وه إذ : حرف بمعنى المفاجأة . وتوى (كترى) : تسقط من علو إلى سفلى .

يقول : إن الأيام تلو بمن يخر بها ، ويطمئن إليها علواً كبيراً ، ولكنها لا تلبث أن تنفخه ، وتطوح به ، وتلقيه في الهاوية .

(٧) يجد (بكر الجيم) : أى باجتهاد وبقطة ، وفي مضاء وصرامة . والسهو : الغفلة . وقد سها عن الشيء ، وسها فيه (من بابي عدا وسما) : إذا غفل عنه ، ونسيه . والتبس : أمر من الالتباس : وهو الطلب . والملى : جمع منية (بوزن مدية ومدى) : وهى ما يتمناه الإنسان ، ويرغب فيه ، ويتوق إليه ، ويقدر حصوله .

والمنى : أن الزمان لا يفتأ يماسر الإنسان ويشاكسه ، ويحول بينه وبين رغائبه وآماله ؛ فانتظر في جد وبقطة غفلك عنك ، وأطلب ما تمناه ؛ فإنه لا يعطى عن قصد وعمد ، وإنما يعطى مع السهو والغفلة . اعتبر مهادئة الزمان للإنسان سهوة وغفلة ، وحض على انتهازها لكسب اللذة ، وبلوغ الأمل . والبيت الآتى يؤيد هذا ويقولده .

(٨) لا يزعنك : لا يمنحك ، ولا يقدملك . وزعه (كوضعه) : كفه ، ومنعه ، وحجبه ، وثناه ، وصرفه . ويراد بالعصر هنا : التواني ، والفتور ، والتقصير . وسلب الشيء (من باب قتل) : أخذ عتقه وقصره ، وانزعه اختصاصاً وقهراً . ويقال : سلبته توبه . وحوى الشيء يحويه (كرماه يرميه) حوايه (يفتح الخاء) : إذا ضممه ، وأستولى عليه ، وتملكه .

في الشطر الأول نبى عن التواني في نيل لذات الحياة ، وتحصيل ما ترمب فيه النفس وتشتبه من المتع والمرسات . والشطر الثانى شبه تمليل ؛ فإن اللباب إذا توفى في هذا فاته الفرصة بفوات الشباب ، وحلول الشيب الذى يسلب المرء كل ما ضمه واحتواد من القوة والفتوة وما إلجم . وصلة هذا البيت بالذي قبله واضحة =

أَلَا رُبَّ لَيْلٍ قَصَرَ اللَّهُو طُولُهُ يَهْفَاءُ مِثْلَ الْفُضْنِ ، بَيِّنَةُ السَّرْوِ^(٩)
فَتَاةٌ تُرِيكَ الْبَذْرَ تَحْتَ قِنَاعِهَا إِذَا سَفَرَتْ ، وَالْفُضْنَ فِي مَلْعَبِ الْحَقْوِ^(١٠)
إِذَا انْفَتَلَتْ بِالْكَأْسِ خِلَتْ بَنَانُهَا يُصْرَفُ نَجْمًا زَلَّ عَنْ دَارَةِ الْجَوِ^(١١)

= وثيقة ؛ ففيها حس وترييب وتجريض على تحقيق الآمال والمطالب ، وتحصيل اللذات والرغائب في غفلة الزمان ، وقصرة الشباب .

(٩) « ر ب » : حرف خافض ، يختص بالكرة ، ويفيد التثليل أو التكثر ، بحسب سياق الكلام ، وما يقتضيه المقام . وههنا للتكثر ؛ لأنه يحدث بكثرة ما استبح به من ليالي اللهو والبع واللذات . واللهو : مصدرها الإنسان (من باب عدا) : إذا مال عن الجد إلى الهزل ، وأقبل على ملاذ الحياة وشبهاتها ، واشتغل بما لا يلائم الحكمة ، ولا هم الماقل من هوى وطرب ونحوها . والليل يقصر في حس اللاهي ونحوه ، ويطول في حس الميتس ونحوه . ويهفأ : امرأة دقيقة الخصر ، ضامرة البطن . والهيف (بوزن الفرج) : من عانس النساء . ومائلة الهيفاء لفصن الشجرة : في المرونة واللين ، والنفاسة والنضارة . وبينة : واضحة ظاهرة . والسرو (يفتح فسكون) : السغف في مروية ، والشرف ، والرفعة ، والنفاسة (وعلوه ككرم ، ودما ، ورضى) . والبتزل بها مسرية نفيسة : أي يتنافس فيها ، ويرغب (بالبناء للمجهول فيها) .

وصف الحناء التي لها معها بالهيف ، واللين ، والنضارة ، والنفاسة ، وقوة بقصر ليالي اللهو والمتعة ، والذة والسرو مع أمثالها .

(١٠) البدر : القمر إذا امتلأ ، وتم ضياؤه في منتصف الشهر القمري . وتشبه به الحناء في البهجة والبهاء ، وحسن الطلعة ، ونباهة الشأن ، وعمو الميزة . والقناع (بوزن الكتاب) : ما تغطي به المرأة رأسها . وتنعما تقيما : ألبسا القناع . وكفى بما تحت قناعها من وجهها . وسفرت المرأة (من باب جلس) : كشفت عن وجهها ، فهي سافر . والملعب (بوزن المذهب) : موضع اللعب . والحقو : الخصر (يفتح فسكون فيها) . ويخصر الإنسان : وسطه . والحقوا أيضا : الإزار : وهو ثوب يحيط بالنصف الأسفل من بدن الإنسان . وتريك الفصن في ملعب الحقو : أي تريك الفصن في مكان خاصرتها ، أو في ثوبها . وهذا كناية عن الهيف ، والنضارة ، والنفاسة ، واللين ، والمرونة . وفي اللعب معنى خفة الحركة ، وحسن التثني .

شبه وجهها بالبدر ، ووصف قدما وخاصرتها بالاعتدال ، والهيف ، والنضارة ، والمرونة (١١) انفتلت : انصرفت . والمراد انصرفت إليك ، وأقبلت عليك . والكأس : القدح ما دامت فيه الخمر . وهي مؤنثة . والكأس أيضا : الخمر نفسها . خلّت ، غلنت . والبنان أطراف الأصابع . الواحدة بنانة (يفتح الباء فيها) . ويقال : بنان مخضّب ؛ لأن كل جمع ليس بينه وبين واحد إلا الناء ، فإنه يوجد ويذكر ؛ فتقول مثلا : شجر ملتف ، وبنان مصرّف ، وصرفت الشيء يصرفه تصرفا ؛ =

وَلَا خُطْرَ بَيْنَ النَّدَى تَأَوَّدَتْ كَانَ لَيْسَ عُضْوِي الْقَوَامِ عَلَى عُضْوِي (١٢)
وَأَنَّى مِنَ الْقَوْمِ النَّيْنِ إِذَا انْتَوَوْا مَهُولًا مِنَ الْأَخْطَارِ بَاهُوا عَلَى بَأُو (١٣)
أَنَاسٍ إِذَا مَا أَجْمَعُوا الْأَمْرَ أَصْبَحُوا وَهَاهُمْ يَنْظَارِينَ لِلْغَيْمِ وَالصَّخْرِ (١٤)

دبره ، وجهه ، وأجراه . وزلّ : سقط . وزلّ عن مكانه : تنحى عنه . والنداء : النداء ، والمحلّ . ودارة النجم : الفضاء السبائي الذي يقع به ، أو يدور فيه . والجوّ : الفضاء بين السماء والأرض . ويراد به هنا : منازل الكواكب والنجوم في السماء . وزلّ عن دارة الجوّ : أي زلّ عن دارته في السماء . يقول : إذا أقبلت هذه الحفاة عليك بالكأس ظننتني في كفها نجماً لاسماً متلثلاً هوى من السماء ، فارت به على التنداء . يشير بهذا إلى صفاء الخمر ، وقبّتها ، وفقاها ، وضياها .

(١٢) خطرت في مشيا (من باب ضرب) : اهتزت ، وتبخرت . والندى : جمع ندى (بوزن سكران وسكاري ، يفتح السين فيما) : وهو من يندمك : أي يحاللك على الشراب . وسطه التديم . وجسمه ندام ، وندماء (بوزن كرم ، وكرام) . وتأوّدت : تنثت . وقوام الإنسان (يفتح القاف) : قامته ، وحسن طوله .

يقول : إن هذه الحفاة الحسناء تطير بين الندماء متاوّدة مشية ، كأن أعضاء جسمها متحلّة متفككة . وهو تصوير حسن ، وتأكيد لمنى التأوّد والتئني ، والاهتزاز والتبختر . وهو من محاسن النماء . وفي البيت إشارة إلى حسن طولها ، وجمال قدّها .

(١٣) آخرى الشيء : نواه ، وهزم عليه ، وقصده إليه ، وهاله الأمر (من باب قال) : أنزهه وأخافه . والمهلّ : الخفاة . وهول هائل ، ومهيل (بوزن مقول) : تأكيد . والأخطار : جمع خطر (بوزن سبب وأسباب) : وهو الإشراف على الملاك ، وبحرف التلّف . و « من » قبلها : بيانية . وبأبو : الفخر ، والابتهاء ، والتعاطف (والفعل من باب علأ) . وبأأ نفسه ، وبها : نفسها ، وفخر بها . في الأبيات السابقة هو وشرب وفزل . وفي هذا البيت والأبيات التالية انقل إلى الغرض الأصل من هذه القصيدة ، وهو الفخر بنفسه وقوته ، والتدخّل بالمناب والمحامد . وم في هذا البيت يتوّن الأهل ، ويركبن الخاف ، ويتحصنن الأخطار ، ولا يبالين للمهلك ، ثم يمدون بالفخر والابتهاء ، والعتقة والاستعلاء .

(١٤) الأناص : الناس : والمراد الرجال . وأجمعوا الأمر إجماعاً : انتووه ، وعزموا عليه ، وقصدوا إليه . ونظّار : صيغة مبالغة من نظر : بمعنى انتظر ، وأرتقب . وفامت السماء (من باب باع) : فطّماها الغيم : وهو السحاب . وضده الصحو : مصدر صحت السماء (من باب عدا) : إذا تكشّفت بحجها . ومها اليوم : إذا وضحت شمس ، وقيل برده .

يفخر بأنهم إذا عزموا أمراً كان عزيمهم صارماً قاطعاً ، لا يعيقه عائق ، ولا يحول دونه حائل ولا يمتنعون عنه بمنزلة ما ، ولا يتحلقون منه بشيء من ظواهر الطبيعة ، واختلاف الجو وتقلبه .

إِذَا غَضِبُوا رَدُّوا الْأُمُورَ لِأَصْلِهَا كَمَا بَدَأَتْ وَاسْتَفْتَحُوا الْأَرْضَ بِالْغَزْوِ (١٥)
وَأَنَّ حَارَتِ الْأَبْصَارُ فِي مِثْلِهِمُ مِنَ الْأَمْرِ جَاءُوا بِالْإِنَارَةِ وَالضُّحَى (١٦)
شَدَّدَتْ بِهِمْ أَرْزَى ، وَحَكَمْتُ شَرِّي وَأَطْلَقْتُ مِنْ حَبْلِي ، وَأَبْعَدْتُ فِي شَأْوِي (١٧)
وَأَصْبَحْتُ مَرْهُوبَ اللِّسَانِ ، كَأَنِّي سَعَرْتُ لَبْطِي بَيْنَ الْحَصَارَةِ وَالْبَنُو (١٨)

(١٥) استفتحوا الأرض : فتحوها . والغزو : الحرب والقتال : مصدر غزا العدو (من باب عدا) : إذا سار إلى قتالهم في ديارهم ، وفتح بلادهم .
يفخر بأنه وقوه أولو قوة ، وأولو بأس شديد ؛ فإذا أغضبهم مغاضب ردوا الأمر إلى نصابه ، وقطعوا أسباب الإغضاب ؛ ففتحوا بالحرب والقتال أرضه ودياره . وفي الفتح معنى تهر العدو وإذلاله ، ورده إلى ما كان عليه في مبتدأ الأمر من المسألة والمودعة ، والافتقار والانطباع .
(١٦) حار في الأمر يحار حيرة (يفتح فسكون) : تحير ، وفشل سبيله ، ولم يدر وجه الصواب .
والأبصار : جمع البصر : وهو العين . وقوة الإبصار . وقوة الإدراك . والمعنى الثالث هو المراد هنا . وبمِثْلِهِمُ : أمر مشكل معضل ، مستطلق ، مستعجم : من ادخلهم : إذا أشد ظلامه وسواده ، وادهم الظلام : إذا كفف ، وتراكم ، وتراكم . وفلاة مدلهمة : ليس فيها أعلام يعتنى بها السالك . والأمر : الشأن والحال . والضحو (يفتح فسكون) : ضوء الشمس ، أو ارتفاع النهار وامتداده بعد طلوع الشمس ، وهو هنا تأكيد لمعنى الإنارة والإضاءة : أى التوضيح والبيان ، وتبديد ظلمات الشك بالعلم واليقين .
يفخر بزيادة آرائهم ، وقوة بصائرهم ، واضطلاعهم بحل المشكلات ، وتبديد المخلفات .
(١٧) الأرز (يفتح فسكون) : القوة . وشد به أزره : ضاعف به قوته ، وزاد قدرته . والشرّة (بكسر الشين ، وتشديد الراء المفتوحة) : اللقوة ، والنشاط . والشرّة أيضاً : الحدة والغضب . وتحكيم الشرّة : ضبطها بين الإفراط والتفريط : من قولهم : حكمته عن كذا تحكيميا : إذا منعه عنه ، وكفّه ، وردّه ، وصرفه ، ورجعه . أو جعلت لشرقي الحكم والسلطان : من قولهم : حكمه في الأمر تحكيميا : إذا ولاه إياه ، وأقامه حاكما ، أو جعل إليه الحكم فيه . والشأو : الأمد والغاية . وكفى بإيماده في شأوه : عن انطلاقه إلى النيات البعيدة ؛ فهو تأكيد لمعنى : « وأطلقت من حبل » : أى انطلقت في الحياة مبعداً ، قوى العزم ، على الهمة .
والبيت في الاعتزاز بقومه ؛ فهم أشد أزره ، واستحكمت مرته ، وانضبطت شرته ، وبعدت همته ، وانطلق إلى النيات البعيدة عناته .

(١٨) رجه (من باب رطب) : خافه . ومرهوب : اسم مفعول منه : بمعنى خيف . ومن كلامهم : « رهبت غير من رحمت » : أى لأن ترهب غير من أن ترجم . ولسانه مرهوب : أى منطلق ، حاد ، قوى الحجة ، ناصح البيان ، يهرب بأدبه وشمه أعداده . ويطرأ أوليائه . وصر النار والحرب ونحوها (من باب قطع) : أوقعتها وألهمها وبعثها . والظلي : النار ، أو لها الخالص الذى لا دخان فيه . =

فَيَا عَجَبًا لِلْقَوْمِ يَبْتَغُونَ خُطْبَتِي وَمَاشَاؤُهُمْ شَاوِي ، وَلَا عَدُوَّهُمْ عَدُوِي^(١٩)
إِذَا مَا رَأَوْنِي مُقْبِلًا أَوْحَدُوا لَهُمْ شَكَاةً ، فَلَا زَالُوا عَلَى ذَلِكَ الشُّكُو^(٢٠)

= والحضارة (يفتح الماء وكسرهما) : الإقامة في الحضر (يفتحين) : أى القرى ، والمدن ، والريف .
ويراد بالحضارة هنا : أهل الحضر . والبدو : أهل البادية : أى الصحراء : وهم الأعراب الرجل الذين
يتنقلون في طلب الماء والمرعى . وتسمير الظلي بين البدو والحضر : كناية عن إثارة أمتابهم بشعره ،
وتنافسهم فيه ؛ فهو تنافس يكاد يكون استراتيجياً .

ولعله يقصد الإبهام بأدبه وشعره ؛ فهو حسن الطبع ، شديد التأثير ، مرغوب مرهوب ، يتنافس
البدو والحضر في روايته وتحصيله . والشرط الثانى بيان وتصوير لشدة التنافس فيه ، وصفو الاسماع إليه ،
وحرس الناس كلهم عليه . في هذا البيت وخسة الآيات السابقة اخضر الشاعر بنفسه وقوته ، وتمدح
بمخاطبهم ومناقبهم . وفى سبعة الآيات الآتية فخر بنفسه ، وتعرض بمن قصد التمرىض بهم من
أعدائه ، أو منافسيه وحساده .

(١٩) يصعب : متأذى مضاف إلى ياء التكلم . وفيه ست لغات ، منها هذه اللغّة ، أو هذا الوجه ،
وهو قلب كسرة الياء فتحة ، وقلب الياء ألفاً . والمعجب : روعة تأخذ الإنسان . أو اتملك نفسانى يمتريه
عند إنكار ما يرد عليه ، أو استعظامه ، أو استعرافه . ويقال : صعب من الأمر ، وصعب له (من باب
طرب) : إذا أخذ المعجب منه . وبني الشيء (من باب روى) : أراده وطلبه . والحلقة (بضم الخاء) :
الأمر ، أو الحالة ، أو الخصلة ، أو المقامة ، أو المنزلة . والشأور : الأمد ، والغاية ، والشوط .
ويقال : فلان بعيد الشأور : إذا كان حال المسّة . وعدا يمدو عدواً : جرى ، وأحضر ، ووثب في
جرىه ، وركض ، وأسرع .

يصعب من يفتنون مثل منزلته . ويقول : إنه ابتغاء لغير الممكن ، وطبع في البعيد الذى لا يستطيعونه ؛
لعمري التفات ، واتساع المسافة بينهم وبينه . وفى الآيات الآتية تأكيد وتفصيل لهذا المعنى .

(٢٠) أوحداوا شكائهم : جعلوها واحدة غير متعدّة : أى اجتمعوا كلهم حول شكوى واحدة .
وشكاه يشكو شكواً (من باب عدا) وشكاة (يفتح الشين) . وشكا الأمر ، أو العلم ، أو العلة : أبداها
متوجعاً متألماً .

يقول : إذا ما رأوني مقبلا عليهم اجتمعوا ، وأقاموا على الشكوى والتحسر والتألم . وصلة الشكوى
بالإقبال : أن رؤيتهم ليأتهم تحرك في قلوبهم كل من الحسرة والمرارة ؛ فلا تزال تساورهم ، ولا يزالون
يكابدونها . وصلة هذا البيت بالبيت السابق والآيات اللاحقة : أن عجزهم عن بلوغ شأوره ، وقصورهم
عن إدراك سماته يربطهم بالشكوى ، وهى شكوى العجز والقصور ، والامتناس والابتئاس ،
والكآبة والحمران .

يَرُؤُسُونَ مَسَاعِي وَدُونَ مَنَالِيهَا مَرَاقٍ تَطْلُ الطَّيْرُ مِنْ بُعْدِهَا تَهْوِي^(٢١)
وَلَا وَأَبَى مَا النَّصْلُ فِي الْفِعْلِ كَالْعَصَا وَلَا الْقَوْسُ مَلَانِ الْحَقِيبَةِ كَالْخِلْوِ^(٢٢)
لَقُلْتُ، وَقَالُوا؛ فَأَعْتَلَوْتُ، وَخَفَضْتُهَا وَلَيْسَ أَخُو صَدَقٍ كَمَنْ جَاءَ بِاللُّغُوِ^(٢٣)

(٢١) رام الشيء (من باب قال) : أراحه ، وطلبه ، وابتناه . والمساءة : المكرمة ، والعمل الكبير الظاهر من أعمال الجهد والكرم والإحسان . وجمعها المساعي . و « دون » هنا : غروب مكان ، منصوب : بمعنى « قبل » ، كما تقول : دون غزو القمر مسافات وأهوال . ونال الشيء يناله نيلًا ، ومثالا : أصابه ، وبلهه ، وأدركه . والمراق : جمع المرق (بوزن المسمى) : وهو المرق ، أو موضعه . أو جمع المرقاة (بوزن المساة) : وهي وسيلة الرق ، وأداته . أو موضعه . أو الدرجة . ومن كلامهم : « الجهد صعب المراق » . وقيل : « تبي » ، وتستمر . وهو يهوى (كزى يرمى) : سقط من علو إلى سفلى . وهو في السير : مضى ، وأسرع . أو صعد ، وأرتفع .

يقول : إنهم يبتغون مثل أمجادى ، فيطمعون فيها بيسجزم . والشرط الثاني تصوير حصى يبلغ لدى الجعيد ، والمسافات الشاسعة التي لا يستطيعها ، ولا يقرى عليها منافسوه ، أو حساده وأعدائهم الذين يرمونهم ؛ فهم أعجز من أن يبلغوا أمجاده ومكرماته ومساعيه .

(٢٢) وأبى : قسم بأبيه ، يؤكد الكلام ويفوقه . والنصل الحليدة المستولة الجارحة القاطعة ، تكون السيف ، والرمح ، والسكين ، ونحوها . والقوس : آلة الحرب ، والصيد ، في شكل هلال ، ترمى بها السهام . وهي مؤنثة ، وقد تذكر . والحقيبة : الوعاء يحمل فيه المتاع ، أو الزاد . وكل ما يحمل وراء الرجل . أو يحمل على الفرس خلف الراكب . ويراد بالحقيبة هنا : الكنانة (بكسر الكاف) : وهي جعبة صغيرة من جلد ، أو خشب ، يحمل فيها للقتل ، أى السهام : جمع سهم : وهو عود من خشب يسوى ، ويركب النصل في طرفه . والخلو (بكسر فسكون) : الخلال الفارغ .

يقول : شتان بين النصل والمسا ، والقوس بكنائنها ، والقوس بلا كنانة . وفي البيت أن أعماله ومساعيه ومجاهده ومؤلاته وكفائاته كالنصال والقسى بكنائنها ، على حين أن منافسيه ، أو حساده ، أو أعداءه الذين يمرض بهم - عصى ، أو قسى بلا كنانين ؛ فأهبطت تامة مفقورة ، وأهبطت ضعيفة ناقصة .

(٢٣) اللام في أول البيت : واقعة في جواب قسم مقدّر : أى والله لقد قلت وقالوا . . . واعتلطت : ارتفعت . والمراد : ارتفعت بقول عن اللغو والهنز والفضول ، وتحرّيت به الحق والصدق والصواب . وياقى الاعتلاء : بمعنى الإطالة ، والغلبة ، والتبريز . وخفض الشيء تخفيضاً : خفضه (من باب ضرب) : أى حطّه ، أو نقص منه . وهو ضد رفعه . والمراد : أن منافسيه ، أو حساده ، أو أعداءه الذين يمرض بهم انخفضوا بأقوالهم إلى مهواة الكذب ، والهنز ، والفضول ، واللغو : الخطأ ، والباطل ، وما لا يعتدّ به من الكلام ، وما لا خير فيه ، وما تجرد من النفع والفائدة .

وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّنِي بِتِ مَآهِرًا وَتَأْمُوا، وَمَا عَقَبِي التَّيَقُّظُ كَالْفَقْرِ (٢٤)
فَأَصْبَحْتُ مُشْتَبِهُ الرَّزِيرِ، وَأَصْبَحْتُ لَوَاطِيٍّ فِيمَا بَيْنَ دَارَاتِهَا تَعْرِى (٢٥)
وَقَالَ :

تَصَابَيْتُ بَعْدَ الْعِلْمِ، وَاعْتَادَنِي زَهْوَى وَأَبْدَلْتُ مَأْتُورَ النَّزَاهَةِ بِاللَّهْوِ (١)

(٢٤) « ذاك » : إشارة إلى الفوارق الكبيرة الواسعة التي تفرق بينه وبين أعدائه أو منافسيه . وقد عدلها في حصة الأبيات السابقة ، في مقام الفخر بمحامده ومساخيه ، والتعريض بخصوصه ، والخط من شأنهم . وعقبى الأمر : عاقبته ، وعاجمته ، وآخره ، وجزأته . والفقر : النوم : مصدر غفا (من باب عدا) : أى نام ، أو نرس . ويراد بالسهر : الجهد والاجتهاد والهدوب . ويراد بالنوم : الكسل ، والتواني ، والفتور . وما عقبى التيقُّظ كالفقر : أى وليست عاقبة اليقظة والجهد مثل عاقبة الغفلة والتواني ؛ ولا ريب أنه إذا تناقضت المقدمات تناقضت نتائجها كذلك .

(٢٥) مشبوب : قوى عال : اسم مفعول من شبّ النار (من باب رد) : أى أوقدها وسعمرها . والزئير : صوت الأسد من صدره . و « أصبحت » : أى العدا الذين يعرض بهم . ولواطى : لاصقات بالأرض : جميع لاصقة ، أو جمع لاطى لغير العاقل : اسم فاعل من لطأ بالأرض (كنع ، وفرج) : إذا لصق بها . وتأنث « لواطى » : لتحقيرهم ، أو عدمهم من البهائم والجمادات . والدارات : جميع دارة وهي الدار . وتعوى الكلب ونحو يعوى (كرى يرى) عواء (بضم العين) : صاح صياحاً مدوداً ليس بنباح . ومشبوب الزئير : كناية عن قوته ، وشدة بأسه ، ونباهة شأنه .

افتخر بنفسه ، واستقر عداه ؛ فهو كالأسد المنطلق المزهوب ، الشديد البأس ، المشبوب الزئير . وم كالكلاب التي لا تبرح الأرض . ولا تقفأ تموى وتنتج بين منازل الحى وداراتهم في سقارة ، وذل ، وضعف وهوان . ويلاحظ أن التعريض في هذا البيت أشد منه في ستة الأبيات السابقة ، وأنه من الهجاء اللاذع المرّ النيف .

كما يلاحظ أن القصيدة الآتية مطابقة لهذه القصيدة في الوزن ، والقافية ، والموضوع ، وفي كثير من الأبيات والكلمات . وربما كان الشاعر بصدد المفاضلة بينهما ، لاختيار إحداهما ، وإلغاء الأخرى ، وإسقاطها .

* * *

• هذه القصيدة مطابقة للقصيدة السابقة في الوزن ، والقافية ، والموضوع ، وفي كثير من الكلمات والأبيات . ويبدو أن الشاعر كان ينوي المفاضلة بينهما ، لاختيار إحداهما ، والاستثناء بها عن الأخرى . وقد رأينا نشرها ، وشرح ما انفردت به هذه القصيدة ، وجاء فيها مخالفات لسابقتها .

(١) اجادى الشيء : اختاينى . أو تمودته : أى صار من عادى ، ولا زنى . والزهرى : التيه ، والتكبر ، والتعاطف ، والفخر ، والإعجاب بالنفس . وقد زهى (كنى بصورة المبنى المجهول فيها) فهو مزمو . =

وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَعُودَ غَوَايَتِي إِلَى، وَلَكِنْ نَظَرْتُ حَرَكْتُ شَجْوِي (١)
 عَلَى أَنْتِي غَالِبَتْ شَوْقِي، فَعَزَّنِي وَنَادَيْتُ حُلِيِّ أَنْ يَعُودَ، فَلَمْ يَلَوْ (٢)
 وَمَاذَا عَلَى مَنْ خَاسَرَ الْحُبُّ قَلْبَهُ إِذَا مَالَ مَعَهُ لِلْخَلَاعَةِ وَالصَّبْرِ (٣)
 إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يُعْطِ الْحَيَاةَ نَصِيبَهَا مِنَ اللَّهِ، قَادَتْهُ الْهَمُومُ إِلَى الشُّبُكُو (٤)

= وزما (كسما) . وأبدله بضميه أمناً لئلا . ويدله تبديلاً مثله ؛ فالباء تدخل على المترك .
 ويلاحظ أن الشاعر عكس ، فأدخل الباء هنا على غير المترك ، وهو القهر . وفي مأثور :
 منقول ، أو مفصل غثار ، أو ورثه الخلف عن السلف . والنزاهة : البعد عن الشر والسوء ،
 واجتناب الريب والشبهات .

(٢) التولية (يفتح الفين) : الانهماك في الجهل ، والإيمان في الفساد . والشجو : الهم ،
 والحزن . وقد شجاء الأمر (من باب عدا) : أي حزنه وأحبه ، وأثقله . ويراد به هنا : شجو الشق ،
 وأوصاب الحب ، وتبريح الوجد ، ولواجع الفراق .

في البيت السابق قال : إنه بعد العلم والنزاهة ، والصفة والنزاهة - مال إلى جهل الصبا والفتوة ، وهو
 الشباب ولحمه ، وتلكه الزهو والإعجاب بنفسه . وفي هذا البيت أن نظرة منه إلى حسنة ، أو نظرة من
 حسنة إليه أثارت عواطفه ، وهيئت أشجانه ، وبشت شجوه وهمة ، وأعادته إليه جهله وفرواذه ، وبطلته
 أسير الحب ، صريح الفرام . وسبعة الآيات الآتية تلور كلها حول هذا المعنى ، وتفصله .

(٣) غالبة مغالبة وفلاحاً : حاول كل منهما أن يظف الآخر . وعزَّن (من باب رد) : خلقي ،
 وقهرني . ولم يلو : أي لم يستمع للنداء ، ولم يستجب له : من قولهم : من لا يلو على أحد : أي لا يقف ،
 ولا ينتظر . ولوى عليه (من باب رمى) : أي حلف ، أو انتظر .

والمعنى : أنه انساق في سبيل الحب ، فغلبه شوقه ووجد ، وتغصن عليه حلمه وعقله .

(٤) الاستفهام في أول البيت : معناه التثني : أي لا حرج ، ولا إثم ، ولا تريب . وغاربه
 غامرة : خالعه ، وبامره ، وأثر فيه . ويقال : خامر المكان : إذا لزمه ، وأقام به ، ولم يرحس .
 ومال منه : أي مال مع الحب ، ويتأثره ، وسبه . والخلاعة : مصدر خلع القبي (كظرف) : أي ترك
 الحياة ، وركب هواء ، فهو خليع من خلعه . والصبر (بفتح فسكون) : جهل الفتوة ، وهو الشباب :
 مصدر صبا (من باب عدا) : أي مال إلى القهر . وصبا إليه : حن ، وشوق .

يرفع الحرج والتريب عن نفسه ، ويلتمس المنزلة ولا يخاله الذين يسيطر الحب على قلوبهم ، فالتقاروا
 القهر ، وخلصوا الحياة ، ومالوا إلى الجهل والقهر .

(٥) القهر : الميل عن الجدة إلى الهزل ، والاستمتاع بملذات الحياة ومتعتها ، كالغنى والطرب
 ونحوها . وقادته الهوم إلى كذا : ساقته إليه ، وحملته عليه (وبابه قال) . وفي الأصل « قادتها » وهو
 تحريف ظاهر . والهوم : الشجون والأحزان . والشكو : مصدر شكوته (من باب عدا) : أي أخبرت

وَهَلْ فِي الصَّبَا وَاللَّهْوِ عَارٌ عَلَى الْفَتَى إِذَا الْعِرْضُ لَمْ يَدْنَسْ بِأَنْفِهِ، وَلَا بَعْرٌ^(٦)
لَعَمْرُكَ مَا قَارَقْتُ فِي الْحُبِّ زَلَّةٌ وَلَا قَادَنِي مَعَهَا إِلَى سَوْعَةٍ خَطْوِي^(٧)
وَلَكِنَّنِي أَهْوَى الْخَلَاعَةَ وَالصَّبَا وَأَتَّبِعُ آثَارَ الْفَضِيلَةِ وَالسَّرْوِ^(٨)

== عنه بسوء فله . وشكوت الميم ونحوه : تأملت منه ، وتوجعت . والاسم الشكوى (بوزن الدعوى) ،
والشكاية (بوزن الرواية) .

يرى أن اللهو يختلف المذموم ، أو يذمها ، وأن الحياة ينبغي أن يشوبها المزل والمخافة والصبوة
ونحوها ؛ فإذا كانت كلها جدا وصرامة ، ثقلت ههنا على الإنسان ؛ فتشكى ، وضجر ، وتبرم ،
وتألم ، وضاق بها ذرعه .

(٦) الاستفهام في أول البيت : معناه أنتي : أي لا عار ، ولا عيب في الصبا واللهو . والصبا
(بكسر الصاد) : اللهو ، والفزل ، وبجملته الفتوة . وصبي صبا (كرضى رضاً) : لها ، ولعب ، وفعل
فعل الصبيان . والفتى : الشاب . والعرض (بكسر فسكون) : الفتنس ، والجسد ، وما يملح المرء إذا
صانه ، ويلزم إذا تهاون به ، وفطر فيه . وذنس الثوب ونحوه يذنس (من باب تمب) : توسع . والاثم
(بكسر فسكون) : الذنب والخطيئة . واليمو (بالعين المهملة ، ويفتح فسكون) : الجنابة والجرم .
وقد بما ييمو يموأ (من باب عدا) : إذا جنى وأجرم . وبما الذنب يبعاء ، وييمو يموأ ؛ أجتره وكتبه .
وفي الأصل « بقو » بالثين المحجمة ، وهو تحريف .

يقول : لا عار على الشاب إذا صبا ولما مع الفتة ، والتصون ، ونقاء المرض . وفي ثلاثة أبيات
الآتية تأكيد وتفصيل لهذا المعنى .

(٧) العمر (يفتح فسكون ، أو يضم فسكون) : الحياة . وعمر (من باب فهم) : عاش زماناً
طويلاً . ولم يستعمل في القسم إلا مفتوح العين . ولعمرك : قسم بحياة المخاطب ؛ يراد به تأكيد الكلام .
وقارف الذنب والخطيئة : قاربها ، وغالطها ؛ أي كسبها وارتيكها . والزلّة (يفتح الزاي) : السقطة ،
والهفوة . وقاد الإنسان الدابة (من باب قال) : إذا مشى أمامها أخذاً بمقودها . وقادف خطوئى إلى
السوة : أى مشيت إليها ، وأقبلت عليها . ومعها : أى مع الزلة : أى لم ارتكب في الحب زلةً ، ولا سوة .
أو هي « معه » : أى مع الحب . والسوة (يفتح فسكون) : الخلعة القبيحة ، والفاحشة ، وكل عمل ،
أو أمر شائن . وأخطو (يفتح فسكون) : المشى : مصدر خطأ (من باب عدا) .
يقسم أن حبه عفوئ عفيف ، بعيد عن الزلات والسوات .

(٨) أهوى : أحب (وبابه صدى) . وأخلاعة : مصدر خلغ (كظرف) : أى ترك الحياة ،
وركب هواه ؛ فهو خلغ . والصبا (بكسر الصاد) : الشوق إلى المرأة ، وبجملته الفتوة ، واللهو من الفزل ،
والتشبّ بالصبيان في لوم ولهم وأفهامهم . وصبا الرجل إلى اللهو . وصبا إلى المرأة يصبو صباً (يفتح
الصاد) : مال إليها ، ونزع ، ومن ، واشتاق . والفضيلة : الدبسة الرفيعة في حسن الخلق . وضدها ==

سَجِيَّةٌ نَفْسٍ أَذْرَكَتْ مَا تُرِيدُهُ مِنْ النَّهْرِ فَاغْتَاصَتْ عَنِ الْمُسْكِرِ بِالصَّخْرِ^(٩)
وَلَأْنِي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ إِذَا انْتَوَوْا مَهُولًا مِنَ الْأَخْطَارِ بَاهُوا عَلَى بَأْوِ^(١٠)
أَنَاسٍ إِذَا مَا أَجْمَعُوا الْأُمَرَ أَصْبَحُوا وَمَا هُمْ بِنَظَّارِينَ لِلْغَيْمِ وَالصُّخْرِ^(١١)
إِذَا غَضِبُوا رَدُّوا الْأُمُورَ لِأَصْلِهَا كَمَا بَدَأَتْ ، وَاسْتَفْتَحُوا الْأَرْضَ بِالْقَرْوِ^(١٢)
وَلِنْ حَارَتِ الْأَبْصَارُ فِي مُذْلِكِهِمْ مِنَ الْأَمْرِ ، جَاهُوا بِالنَّارِ وَالصُّخْرِ^(١٣)
شَدَذْتُ بِهِمْ أَزْرِي ، وَأَحْكَمْتُ مِرِّي وَأَطْلَقْتُ مِنْ حَبْلِي ، وَأَبْعَدْتُ فِي شَأْوِي^(١٤)
وَأَصْبَحْتُ مَرْهُوبَ اللِّسَانِ ، كَأَنِّي سَعَرْتُ لَطَى بَيْنَ الْحَضَارَةِ وَالْبَدْوِ^(١٥)

= النقيصة والذيلة . والسرو (يفتح فسكون) : الشرف ، والمروية (والفعل كسحا ، وكرم ، ورعى) .
يقول : إنه جرى الخلعة والصبأ ، مع المحافظة على الشرف والفضيلة ؛ فخلعته وصبأه من النوع
النقي البريء ، التظيف المغيف ، البعيد عن الريب والشبهات ، المبرأ من النقائص والذائل . وهو تكرر ،
أو شبه تكرر للمعنى السابق .

(٩) السجية : الخلق ، والطبيعة ، والجليلة ، والفريزة . وأدرك الشيء إدراكاً : لحقه ، وبلغه ،
ووصل إليه ، وناله . وأدرك الإنسان المعنى بمقله : فهمه ، وتبينته ، وأحاط به . والزمان الطويل ،
والأمد الممدود ، ومدة العالم ، أو الحياة . وجر المره : مدة حياته في الدنيا . وقد اتحد الناس أن يضيفوا
إلى الدهر الخير والشر ، والمسرّة والمساءة . واعتاض خيراً عما ذهب عنه احتياضاً : أي كان ما بين له من
الخير عوضاً عما ذهب عنه وفقده . والسكر (بضم فسكون) : اسم من سكر بالشراب (من باب فرج) :
أي غاب عنه عقله وإدراكه . وفدّه الصبحو : مصدر صحا من سكره (من باب عدا) : أي أفاق . ويشار
بالسكر هنا إلى التمهية والإثم ، كما يشار بالصحو إلى الفضيلة والعفة .

يتمدح بأن نفسه ذات سجيّة مرفوعة نقيّة ، وطبع سليم مستقيم . وقد أدرك إدراكاً صحيحاً محدوداً ما أرادته
من زمانه ؛ فاختار العفة والاستقامة والفضيلة ، واجتنب الانحراف والنقائص والذائل . وصلة هذا
البيت بثلاثة الأبيات السابقة واضحة وثيقة . وفي الأبيات الآتية يتقل الشاعر إلى القهر بنفسه وقويه ،
ثم إلى التعريض بأعدائه أو حسّاده أو منافيه ، أو من قصد التعريض بهم ، والإشارة إلى
التناقض والتباين وببدا المسافة بينهم وبينه . ولم تشرح هنا ما شرحناه في القصيدة السابقة المطابقة
من الكلمات والأبيات المكررة .

(١٤) أحكم الشيء إحكاماً : أوثقه ، وأقنعه إقناعاً . والمرة (بكسر الميم وتشديد الراء المفتوحة) :
القوة ، وشدة العقل . وإحكام المرة : في معنى شدّة الأزر ؛ فهو تأكيد له .

فَمَا عَجَبًا لِلْقَوْمِ يَبْغُونَ خَطِيئِي وَمَا خَطِيئَتُهُمْ خَطِيئِي وَلَا عَذَابُهُمْ عَذَابِي ^(١٦)
يَرَوْنَهُ مَسْعَايَ ، وَدُونَ مَنَالِهَا مَرَاقٍ تَطْلُ الطَّيْرُ مِنْ بَعْدِهَا تَهْوِي ^(١٧)
فَإِنْ تَكُ سِنَى مَا تَطَاوَلَ بَاعُهَا فَلَأَنْتَ جَدِيرٌ بِالْإِصَابَةِ فِي الْأَثَرِ ^(١٨)
وَشَتَّانَ مَا بَيْنَ أَمْرِي الْقَوْمِ الَّذِي إِذَا رَأَى أَمْرًا لَمْ يَجْزُ سَاحَةَ الْبَهْوِ ^(١٩)
لَقُلْتُ ، وَقَالُوا ، فَأَعْتَزَلْتُ ، وَخَفَضُوا وَلَيْسَ أَخُو صِدْقٍ كَمَنْ جَاءَ بِالْفُجْرِ ^(٢٠)
وَمَا هَالَكَ إِلَّا أَنْتَ بَيْتٌ سَاهِرًا وَنَامُوا ، وَمَا عَقَبَى التَّيْقِظِ كَالْفُجْرِ ^(٢١)
فَأَصْبَحْتَ مُسَيَّبُ الزَّيْبِرِ ، وَأَصْبَحْتَ كَأَكْلَبٍ حَى بَيْنَ دَارَاتِهِ تَلْوِي ^(٢٢)

(١٦) الخطر : مصدر خطا (من باب عدا) : أى سار ومشى . وما خطيئتهم خطيئى : أى ليس خطيئهم مثل خطيئى ، فالشاعر متقدم مباح ، وخصومه ، أو منافسوه ، أو حاسدوه ، أو أعداؤه كلهم لاحقون متأخرون .

(١٨) السن : العمر . وهى مؤنثة . وتطاول : طال . وإباعد : مسافة ما بين الكفتين إذا انبسط اللذان من بيتاً وشمالاً . وجدير : حقيق ، وخليق : من جدر بكذا ، وجدر له (من باب ظرف) : إذا صار خليقاً به ، أهلاً له . والأثر (يفتح فسكون) : المطاء ، والإحسان ، والاستقامة فى السير ، مع الإسراع . والطريقة . والإمار .

والمنى : أنه على صغر سنه مستقيم فى سيره ، واسع المطاء ، مسرع فى الخير ، طويل الباع فى الإحسان .

(١٩) شتَّانَ ما هما . وشتَّانَ ما بينهما : أى اتَّسعت المسافة ، وبعد الأمد ، وعظم الفرق بينهما . والشاعر يريد : شتَّانَ ما بينى وبين امرئ القوم . . . ورأى الأمر (من باب قال) : أراحه وطلبه وابتناه . ويراد بالأمر : الثور . ولم يجز : لم يمد ، ولم يتجاوز . جاز المكان يجوز : (من باب قال) : تجاوز ، وتعداه ، وغلظه ورأه . والساحة : فضاء يكون بين الدور . وساحة الدار : الموضع المتسع أمامها ، ومثلها الباحة . والبهو (يفتح فسكون) : البيت المتقدم أمام البيوت . والشطر الثانى : كناية عن انحطاط الحمة ، وضيق الأفق ، والعجز والقصور .

أخترى يبد هته ، وتطاول بامه فى المكررات ، وعرض بغيره ، ورياه بالمعجز والقصور والإحجام . (٢٢) أكلب : جمع كلب . والحى : البطن من بطن الرب ، وهو دين القليلة . وداراته : أى دور الحى ونمازيم . الواحدة دارة . وتلوى : تقف ، وتنتظر ، وتقيم (وبابه رى) . وهى فى الأصل المخطوط الذى بين أيدينا « لتوى » . ويلاحظ أنه كثير الخطأ والتحريف والتقصيف والتقص . وقد نَبَّهْنَا القارئ إلى بعضه ، وأعرضنا عن كثير منه .

فتافيه الباء

قَالَ فِي ذِكْرِ الشُّوقِ :

كَفَى بِالضَّنَى عَنْ سَوْدَةِ الْعَدْلِ نَاهِيَا فَأَهْوُونَ مَا أَلْقَاهُ يُرْضِي الْأَعَادِيَا^(١)
بَلَوْتُ الْهَوَى حَتَّى بَلَيْتُ، وَطَالَ بِي مَرِيرُ النَّوَى حَتَّى نَسِيتُ التَّلَاقِيَا^(٢)
وَمَا كُنْتُ ذَا غَى، وَلَكِنْ إِذَا الْهَوَى أَصَابَ حَلِيمَ الْقَوْمِ أَصْبَحَ غَاوِيَا^(٣)

(١) كفاه الشيء (كرماه) : إذا أغناه عن غيره . والضنى فاعله بزيادة « الباء » : وهو مرض يغامر المريض ويلزمه حتى يشتد به الضعف والمزال والنحول ، ويشرف على الموت (وفعله كصلى) .
والعدل : القوم (وفعله كضرب وقتل) . وسودته (يفتح فسكون) : شدته ، وحدته ، وهياجه . وأهون : أيسر ، وأقل ، وأخف . اسم تفضيل من هان الشيء (من باب قال) : إذا خف ، وسهل ، ولان .
والأعدى : جمع الأعداء . والأعداء : جمع العدو .
اشتد بالشاعر ضنى الوجد ، وأوصاب الهوى ، فقال : إن هذا الذى يضانيه ينبئ أن ينهى العاذل من الملل ، ويكفّه من الملامة ، فإنه إن كان صديقاً وجب أن يشفق عليه ، فينبئ من لونه ، وإن كان عدواً فأقل ما يكابهه يرضى أعداءه ، ويشجع شائتهم .

(٢) الهوى : الحب ، والشوق ، والفرام ، والميل إلى المهورى ، وشدة التعلق به (والفعل كصلى) .
وبلوته (من باب قال) : جريته ، واختبرته ، وقمرته به ، وهانته ، وقاسيته . وبلى الثوب ونحوه كرمى : أدركه البلى : أى صار بالياً ، خلقاً ، قديماً ، قانئاً . وأبلاه الهوى ونحوه : جهده ، وأذا به ، ونخله ، وهزله ، وأرق جسمه وأغتناه . وشى مرير : أى مر ، صعب ، شديد ، لا يحتمل .
والنوى : البعد والفراق ، وهى مؤنثة . والتلقى : مصدر تلاقى ، وتلاقوا : أى لقي كل منهما صاحبه ، وصادفه ، واستقبله . والتلقى : الاجتماع ، والاتصال ، والاتفاق .

يقول : إن الهوى أغسنه وأبلاه بطول المكابدة والمعاينة ، وإن " البعاد والفراق طالا به ، واشتد " عليه ، واشتد ، حتى نسي ما كان بينه وبين أحبائه من تلاقى واجتماع ووثق .

(٣) غوى (كرى) : يفوى غياً : أنهلك فى الجهل ، وأسن فى الضلال ، فهو غاو . والحليم : صفة من الحلم (بكسر فسكون) : وهو الأناة والعقل ، والمداينة والرشد . وضده " الخفة والطيش ، والسهو والجهل .

فى البيت السابق قال : إن الهوى اشتد به ، فأذا به وأبلاه . وفى هذا البيت : أنه كان حليماً مهتدياً ، فأغسله الهوى وأعماه .

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو نَظْرَةً مَا تَجَاوَزْتُ حِمَى الْعَيْنِ حَتَّى أَوْرَدْتَنِي الْمَهَاوِيَا^(٤)
 رَمَيْتُ بِهَا عَنْ غَيْرِ عَمْدٍ، فَلَمْ تَعُدْ عَلَى النَّفْسِ إِلَّا بِالَّذِي كَانَ قَاضِيَا^(٥)
 هَجَرْتُ لَهَا أَهْلِي، وَفَارَقْتُ جِيرَتِي وَغَاصَبْتُ فِي الْخُلَانِ مَنْ كَانَ رَاضِيَا^(٦)
 وَأَصْبَحْتُ مَسْلُوبَ الْجَنَانِ، كَأَنَّنِي شَرِيتُ بِكَاسٍ تَتَرَكُّ الْعَقْلَ سَاهِيَا^(٧)

(٤) إلى الله أشكو : تقديم يفيد الحصر ، أو القصر ، أو الاختصاص : أى إلى الله أشكو ، لا إلى غيره . وتجاوز المكان ونحو تجاوزاً ، وبجازه ، وجاوزه : تدهّاه ، وغلّغه وراهه . والحمى (في الأصل) : المكان ، أو الشيء المحسى المصون الممنوع الذى لا يقرب ، ولا يجترأ عليه . والموضع فيه كلاً يحصى من الناس أن يرى . ويراد بحصى العين هنا : العين المحمية . أو نطاق العين وحدّها . والغرض بيان سرعة التجاوز ، وسرعة التأثير . وأورده الماء ونحوه : جماله يرده وورداً : أى يشرف عليه ، ويدانيه . ومن المجاز : أورده المهلاك : إذا لقاه فيها . والمهاوى : جمع المهواة (يفتح الميم ، وسكون الهاء) : وهى الحفرة (بضم فكسوف) ، أو الوعدة العميقة . ومثلها الهوة (بوزن القوة) . ويراد بالمهاوى : المهلاك .

نظر الشاعر إلى إحدى الحسنات نظرة بريئة سريعة عابرة ، لم تكن تتجاوز عينه حتى أرقته في أشراك الحوى ، ومهاوى الحب ، وأوصاب الغرام ؛ وهو يشكو إلى الله وحده بشه ووجده . والبيت الآتى يردد هذا المعنى ويؤكدّه .

(٥) بها : أى بالنظرة . ورى بها : ألقاها . وقاوس : قاتل ، مرد ، مهلك : اسم فاعل من ضربه ، قضى عليه (كرمى) : إذا قتله ، وأرياه .

يقول : إنه لم يتمم هذه النظرة ؛ بل ألقاها من غير قصد ، فعادت إليه بالردى والمهلاك . يريد أنها كانت سبب الحب العنيف الذى أذابه وأضناه . وفى الآيات الآتية تفصيل لهذا المعنى .

(٦) لها : أى النظرة : أى من أجل الحب وبسببه . والجيران (بكسر الجيم فهما) : جمع جار . وهو الخليف ، والناصر ، ومن يجاورك فى المسكن ونحوه . وغاصبته مفاضية : هجرته ، وتباعدت عنه ، وحمله على السخط والغضب . و « فى » هنا : بمعنى « من » . والخلان (بضم الخاء) : جمع الخليل : وهو الصديق الصادق الود . وراش : اسم فاعل من الرضا : وهو ضد الغضب ، وخلاف السخط .

يقول : إنه فى سبيل هذا الحب العنيف ، ومن أجله هجر أهله وعترته ، وفارق أنصاره وجيرته ، وغاصب الراضين عليه ، والمحين له من أخلائه وأصفيائه ، ولعله هجرهم ، وفارقهم ، وغاصبهم لأنهم نصبوا له فلم يبال قصصهم . والغرض بيان عمق هذا الحب ، وصلقه ، وشدة تأثيره .

(٧) سلبه ثوبه (من باب قتل) : أنزعه منه قهراً ؛ فالثوب مسلوب ، وسلب : وسليت المشقة فؤاد عاشقها أو عقله : أسبته ، ودخلته ، واستولت عليه ، فهو صب ، مولته ، متيم ، ستهام . والجنان =

أَدُورُ ، وَلَا أَدْرِ وَإِنْ كُنْتُ حَزِمًا يَمِينِي أَدْنَى لِلْهَدَى مِنْ شِمَالِيَا^(٨)
صَرِيحٌ هَوَى ، لَا أَذْكَرُ الْيَوْمَ بِاسْمِهِ وَلَا أَعْرِفُ الْأَشْخَاصَ إِلَّا تَعَادِيَا^(٩)

= (يفتح الجيم) : القلب ، أو العقل. وشربت بكأس : أى شربت من كأس : وهى الإثاء ، أو القدح ما دام فيه الشراب . وفى القرآن الكريم : « عينا يشرب بها عباد الله » أى يشربون منها . الآية رقم ٦ من سورة الإنسان . ويجوز أن تكون اليا ، زائدة : أى كأننى شربت كأساً . ويراد بالشراب هنا الخمر التى تخامر العقل ، فستره وتغطيه ، أو تذهب به ، وتغيبه . وساء : غافل ، غير صالح : اسم فاعل من ساء من الشيء ، وسها فيه (من بابي عدا ، وسها) : أى غفل عنه ، ولم ينتبه له .

والمعنى : أن الهوى برّح به ، واشتد عليه ، حتى سلب عقله ، وأسر فؤاده ؛ فكان كالشارب الذى أسكرته الخمر ، وتركتة ساهياً غافلاً ، قليل البصيرة ، مشترك القلب ، ضعيف الإدراك .

(٨) دار (من باب قال) : طاف حول الشيء . ودرى الشيء ، ودرى به (من باب رى) : علم به ، وعرفه . وأدركه . ولغوران مع فقدان الدراية : تصوير لما أشار إليه فى البيت السابق من ذهاب الجنان ، وسهو العقل . وحزم الرجل رأيه ، أو أمره (من باب ضرب) : ضبطه ، وأيقنه ، وأحكمه ، وأخذ فيه بالثقة ؛ فهو حازم . وقد حزم (من باب ظرف) : أى صار حازماً ضابطاً لأموره . والشمال (بكسر اللين) : خلاف اليمين . وأدنى : أقرب : اسم تفضيل من الدنو ؛ بمعنى التقرب . والهدى ، والهداية : الرشاد ، والعقل ، والاستقامة ، والتوفيق ، والصلاح . ولعله يشير يمينته إلى ما كان عليه قبل أن يردى فى مهاوى المشق ، ويقع فى حبال النرام ؛ فقد كان يمشى راشداً مهتدياً . ويشير بشماله إلى ما صار إليه بعد المشق من الهيام والضللال .

والمعنى : أنه يدور ويطوف ويجمع على وجهه ، ولا يكاد يعتنى لطريق القصد وسبيل الرشاد ، وإن كان فى الوقت نفسه حازماً بصيراً يعلم أن الإقلاص عن الهوى هدى وكمال ، وأن التماهى فيه غيٌّ وضلال . وقد يكون فى الشطر الثانى تحريف . والأصل : يمينى أدنى للهوى ، أم شمالى . والمعنى على هذا : أنه على الرغم من حزمه يدور ويطوف ، ولا يعرف أين يتجه : إلى اليمين ، أم إلى اليسار ؛ فهو فى حيرة وارتباك ؛ كأنه يقول : إن تأثير الهوى فى قلبه وعقله عطل حزمه ووعيه ، وأشل تفكيره وتقديره . أو كان الهوى يثأيره أشد من حزمه وعزمه وضبطه لأموره . والبيت بمعنييه ترديد وتأكيد لمعنى البيت السابق . (٩) صريح (بالنسب) خبر بعد خبر « لأصبح » فى البيت السابع : أى أصبحت مملوياً الجنان ، صريح هوى . أو هو خبر لمبتدأ محذوف . والتقدير : أنا صريح هوى : أى قاتل حبٍّ وغرام . أو طريق لهذا الحب ، ساقط فى أشراكه ومهاويه . وقد يراد بالصريح : الجنون . وهو الأقرب هنا ، وهو مع قرينه يلائم البيتين السابقين ، ويجرى مجرىهما فى مجال واحد . والصريح (فى الأصل) : فصيل بمعنى مغلول ، من صرعه على الأرض (من باب قطع) : أى طرعه عليها ، وألقاه فيها . ولا أذكر اليوم باسمه : أى لا أذكر اسم اليوم الذى نحن فيه : أهو السبت ، أم الأحد مثلاً . ويراد بالأشخاص : أشخاص الناس : أى ذواتهم ، والصفات التى تميز زيدا من عمرو . وتعادى فى الأمر تعادياً : بلغ فيه =

فَيَا عَيْنَ ، لَا زَالَتِ يَدُ السَّهْدِ تَمْتَرِي أَسَا كَيْبَ دَعَرَ مِنْكَ تُرَوِّى الْمَآفِيَا ^(١٠)
 فَانْتِ اللَّيْ أَوْدَتِ قَلْبِي مِنَ الْهَوَى مَوَادِلَمْ تَتْرُكِي مِنَ الصَّبْرِ بَاقِيَا ^(١١)
 أَطْعَمْتُكَ ، فَاسْتَسَلَمْتُ بَعْدَ شَكِيمَةٍ أَعْصَتِ بِأَطْرَافِ الشُّكْرِ الْمَذَاكِيَا ^(١٢)

== النافذة. وتمادي به الأمر : تطاول وتآخّر. والمراد أنه لا يعرف الشخص من الناس إلا بعد جهد ومشقة ، وطول تمتر وتماطل ؛ وذلك لضعف فيه ، وشدة تأثير الهوى في عقله وحواسه .

والبيت وثيق الاتصال بالبيتين السابقين ؛ فقد صرحه الهوى ، وطلب جنانه ، وأضج إدراكه ، فأصبح يبور ، ولا يدري يمته من شماله ، ولا يتذكر اليوم الذي هو فيه ، ولا يميز من يهضم من الناس ، ولا يتذكر شخصياتهم إلا بعد جهد ومشقة ، ومعاذة ، وطول نظر وتبصر .
 وفي ثلاثة الآيات الآتية ينحى الشاعر على حبه بالملامة ؛ إذ كانت سبب ما وقع فيه ، وما لا يزال يكابده ويضالاه .

(١٠) السهد (بضم فسكون) : الأرق ، وأن يشتهي الإنسان النوم ، فلا يكاد يجمده . ومثله السهاد (بضم السين) . (وفعله من باب تفع) . وتمترى : تستدر ، وتستخرج . من قولهم : الريح تمترى السحاب : أى تمقط مطره . والأناكيب : جمع أسكوب (بوزن أسلوب وأساليب) : وهو المطر المنسكب ، المنصب ، المنهمر . يقال : مطر ، وماء ، وجمع ، وجم أسكوب : أى دائم الانسكاب والانسحاب . وأرواه يرويه إرواء : سقاء ، وأخيه . والمآقى : جمع المآق : وهو طرف العين بما على الأنف ، وهو مجرى الدمع . ومثله المآق ، والمآق والمروق .

يدعو على عينه أن تبقى ساهرة باكية ، تقاسى الأرق والسهاد ، ويجرى بالدموع مآقيها .

(١١) أوردت البعير وشيره الماء لإنفراداً : جعلته يرده : أى يذانيه ، ويواليه ، ويشرب منه . ومن المجاز : أوردته المهلك : أى أوقته فيها . والموارد : جمع مورد (بوزن مجلس) : وهو المنزل ، والمشرّب : أى العين ، أو البئر ، أو المكان الذى يستقى منه . وأوردت عينه قلبه موارد الهوى : أى نظر إلى الحسنات التى يتفكر بها ، فوالتته ، وتملّق بها قلبه أشدّ التملّق . ويريد بالباقي : البقية القليلة . ولم تترك موارد الهوى له بقية من الصبر : أى انتهى به الوجد والحب إلى الخرج الدائم ، والحلم الملقى ، ولم يجد له ضنائه وأوصابه صبراً .

في البيت السابق دعا على عينه بدموع السهاد والأكاء . وهذا البيت تعليل لدعائه ، وبيان لسببه ودافعه ؛ فإن عينه هى التى أوردت قلبه موارد من الهوى أجزته ، وحزنته ، وأنفذت صبره واحتاله .

(١٢) استسلم : انقاد ، وذلل ، وانطاع ، وخضع ، واستكان . والشكيمة (بوزن العزيمة) : قوة القلب . ويقال فلان ذو شكيمة : إذا كان شديد النفس ، قوى البأس ، أنفياً ، أيباً ، لا يتقاد . وهو شديد الشكيمة : إذا كان ذا حدّ ، وعارضة ، وعزيمة ، وصرامة . وأعضه الشيء إعضاضاً : جعله يعضه : أى يستمسك به ، ويلزمه . أو يمسكه بأسنانه . والشكيم : جمع الشكيمة : وهى فى الجّام : ==

فَإِنْ أَنَا سَأَلْتُ الْهَوَى بَعْدَ هَلِهِ فَلَسْتُ ابْنُ أُمِّ الْمَجْدِ إِنْ عُدْتُ ثَانِيًا ^(١٣)
يَكُونُونَ أَشْوَاقِي ، كَأَنِّي ابْتَدَعْتُهَا وَلَوْ عَلِمُوا لَأَمُوا الظُّلُمَاءَ الْجَوَارِيَا ^(١٤)
وَمَا لِي ذَنْبٌ عِنْدَهُمْ ، غَيْرَ أَنَّنِي سَلَمْتُ ، فَعَلِمْتُ الْحَمَامَ الْأَغَانِيَا ^(١٥)
وَهَلْ يَكْتُمُ الْمَرْءُ الْهَوَى وَهُوَ شَاعِرٌ وَيَشْنِي عَلَى أَعْقَابِهِنَّ الْقَوَافِيَا ^(١٦)

= الحديقة المستوردة في قم القبرس . والملاكي من الخليل : التي تحت سنها ، وكلت ، وظلمت قرواها ، واشتدت . وفرس منك ، ومنك . وغيل ملاك ، ومذكيات . والشطر الثاني : كناية من قوة شكيمة ، وطول المدافعة والتأبى .

يقول : إنه أطاع حبه ، فافتقد الهوى ، ولم يستسلم إلا بعد طول التأبى والامتناع .

(١٣) ابن أم الجيد : كناية عن أنه أصيل عريق في الجيد والكرم والشرف والرفعة والعلاء .

يقول : إنه إذا كان قد سالم الهوى وصالحه وانطاع له في هذه المرة ، فإن يعود بعدها إلى مسالته ، ولا لئقيا له . وفي البيت تأكيد لهذا ، وضرب بأصائه ، وإمراقته في الجيد والكرم .

(١٤) ابتدع الشيء ابتداعاً ، وأبدعه إبداعاً : أحدثه ، وأنشأه ، واخترعه . والظلماء (بكسر الظاء) : جمع غلي . وهو الغزال . وتشبه به الحسناء من النساء في الرشاقة ، ولعلف الحركة ، وحسن المشي ، وجمال الجيد والعينين . والجوارى : جمع الجارية : وهي الشابة الفتية من النساء . والمعنى : أن الحسان الشابات اللاتي تيسن من اللاتي تيسن ، ووطنه ، وأوقدن في قلبه نيران الوجد ، والشوق ، والهوى ، والفرام . ولو أنصف هذا له لوجسوا إليه ، لا إليه الملل واللامة .

(١٥) عتقم : أي عتد لانيمة وعذله . أو عتد من تيسمه ، وأوقدن في قلبه ناز الشوق والصبرية . ولكن يلاحظ أنه وضع ضمير الذكور « هم » موضع ضمير الإناث « عتقن » . وشدا بالشرع (من باب حدا) : ترسم به وتقتى . وطرب . والأغاني : جمع الأغنية (بتخفيف الياء) : وهي ما يترسم به ويتقنى من الكلام المزون وغيره . وللمسام حدير ، أو هليل مسجوع يردد في حنجرة ، فيتأثر به سامعه . يقول : إنه لم يذهب إلى هؤلاء الحسان اللاتي هيجن شوقه ، غير أنه شدا وتقتى بمحاسنهن ؟ فلم تم الطير الشاو والتفريد .

(١٦) الاستفهام في أول البيت : معناه أليس ؟ فالشاعر لا يستطيع كتمان هواه . وثناه عن كذا (من باب رى) : صرفه عنه ، وكفّه ، وودّه . والمقرب (بوزن الكف) : عظم مؤثر القدم . وهو أكبر عظامها . وثناه على عقبه : رده ، وصرفه ، ورجسه عن الشيء . والقوافي : جمع القافية : وهي الحروف التي تبدأ بمحرك يليه آخر ساكنين في آخر البيت ؛ قافية هذا البيت مثلا : « وأفيا » . ويراد بالقوافي هنا : الأشعار .

فَيَا نَسَمَاتِ الْفَجْرِ ، مَا لَكَ كُلَّمَا تَنَسَّمْتَ أَضْرَمْتَ الْهَوَى فِي فُؤَادِيَا؟ (١٧)

وَيَا سَجَاتِ الْأَيْلِكِ ! رِفْقًا بِمُهْجَةٍ (١٨)

وَيَا لَمَحَاتِ الْبَرْقِ ! بِإِلَهِ خَيْرِي أَخِلَّائِي بِالْمَقْيَاسِ عَنِّي سَلَامِيَا (١٩)

== والمعنى : أن الشاعر لن يستطيع كيان هواه ، وإن يستطيع ردّ ما يرد على ذهنه ، ونتجبه عواطفه من شعر الحبّ والنزل . وصلة هذا البيت بالذي قبله واضحة وثيقة ؛ فالشاعر إنتما شنا وتغنى بشعره جرياً على طبيعته الشاعرة ، وإنطباعاً لمعرفته المتأجّبة ، وإرضاء لشعوره المرهف . وفي البيتين الآخرين ما يتصل بهذا كله أوثق اتصال من اضطراب المعنى في قوله ، واستراق مهجته بالحوى .

(١٧) النسبات : جمع نسمة (بفتح نون) : وهي الريح الطيبة اللطيفة . وظلها التسم . وتنسمت الريح تنسماً : هبت بلفظ ولين واعتدال . وأضرم النار إضراماً : أوقدها ، وأشعلها . والاستغمام في البيت : يفيد الإنكار ، أو التمتع ؛ فالأمر الطيبى الذى لا يثير العجب ، أو يدعو إلى الإنكار - أن تخفف لسمات الفجر لوعة الملتاع ، وحرقة الصبّ المسّهم ؛ لأن هذه النسبات في خيال الشاعر التزل وسائل الحبيب إلى الحبّ ، تحمل إليه أنفاسه الباردة ، وتبلّغه تحيته وسلامه . وقد تتجج الكسكس ، أى تذكره بقربه ووصاله ؛ فتبجج لأوصابه ، وتضاضف أوصابه .

يقول : إن المعنى يزداد في قلبه ، ويتجدّد كلّما هبّ نسيم الفجر طيباً رقيقاً ، فتيلاً لطيفاً .

(١٨) السجعات : جمع سجمة : اسم مرة من سجت الحمامة (من باب قطع) : إذا هدوت ، وردت صوتاً على طريقة واحدة . والثناء في أول البيت للسجعات ، أو الطير الساجبة . والأيلك : جمع أيلكة (يفتح فسكون) : وهي الشجر الكثير المنتفخ . وقد يراد بالأيلك الطير المفردة ؛ من إطلاق المثل ، وإرادة الحال . ورفق به (مثلاً) رفقاً (بكسر فسكون) : لأن له جانباً ، ولطف به ، وصلف عليه ، وحسن صنيعه معه . والمهجة : القلب ، أو الروح . ولم يرد في الأصل المخطوط الذى بين أيدينا غير لفظ الأول من هذا البيت ، ويمكن تكلمته بمثل : « إذا الطير غنت لفتها الجسر ذاكيا » . أو « على الفجر تلاق الحبيب المولاي » . أو « كان » الجوى يحسى عليها المكوايا » .

يقول : إن سجع الحمام ، وتغريد الطير يثير شجونه ، ويضاضف أوصابه ، ويجرح مهجته ؛ ولهذا ناداه في توجع وتقرع إليه أن يرفق به ، فيكفّ عن هديره وتغريده .

(١٩) السجعات : جمع سجة (يفتح فسكون) : اسم مرة من سجة ، ولح إلى (من باب قطع) : إذا أبصره بنظر خفيف . ولح التيم والبرق : لح من يديه . ولحات البرق : لمحاته واتصالاته . والبرق : الضوء يلح في السماء على إثر انفجار كهربى في السحاب . و « بالله » : قسم متعزّز ؛ أى استحلفك بالله . وشيره بكذا تخبيراً ، وأخبره به إغياراً : أنباه . وأعلمه . والتغير (بفتح نون) : ما يتقلّب ، ويحدث به . والمراد : انتقل عنى إلى أخلائى سلاوى . والأخلاء : جمع خليل : وهو الصديق الخالص . وقد خفنه الشاعر بخدّ هزته ، ثم أضافه إلى ياء التشكّل ، فقال : « أخلاي » بدلا من « أخلاي » =

وَيَا عَذْبَاتِ الْبَانَ ! إِنْ كُنْتُ لَأَتَمَّا تَمِيلُ مَعِيَ شَوْقًا ، فَلَقَيْتَ دَاوِيَا^(٢٠)
عَوَائِدُ شَوْقِ الْهَبْتِ لَأَجْعَ الْأَمَى وَرَدْتُ أَمَانِي الضَّمِيرِ هَوَايَا^(٢١)

= وروضة المقياس: جزيرة كبيرة ، يحيط بها نهر النيل ، شرق "الجيزة" وغربي "مصر القديمة" ، تعرف
.. بمقياس قديم ، يقيس مستوى الماء في النيل إذا ارتفع ، أو انخفض . وقد أكثر البارودي من التفتي بهذه
الجزيرة في شعره ، وطالما حن إليها ، ونوه بها ، ووصف حداثتها الصغيرة ، وجداولها الحارية ، وقصورها
الفاغرة . ولو رآها اليوم لأنكرها ؛ فقد تغيرت معالمها ، وقلت قصورها ، وكثرت بها المساكن السكنية
الكبيرة ، ودكاكين البدالين والتجارين وأرياب الحرف والصناعات ، وصلا فيها ضجيج الباعة
المجوالين ، وازدهمت بالسكان ، وفقدت أكثر ما كان لها من المزايا والمناصير ، وأهلدها ، وأهلدها
والسكون ، والهجعة والرواء .

حسب البرق تحيته وسلامه إلى أعلامه بمصر . وفي البرق معنى السرعة ، والاحتساع ، والامتداد .
وهو يشير المطر والغيث والخير الكثير .

(٢٠) المذبات : الأغصان : جمع جذبة (يونان قصبه) . والبان: شجر سبط القوام ، ليس ،
ورقه كورق الصفصاف . وتشبه به حسان النساء في اللين ، والرونة ، والاحتدال ، وسبوة الجسم ،
وجمال القدر ، وحسن الطول ، واحدة باقة . ولقاء الشيء تلقية : جملة يلقاه . ولقيت (بالبناء للجهول ،
وتشديد الغاف المكسورة) : لاقيت ، وصادفت ، ووجدت . واستقبلت . ودوي دوي (من باب صدى) :
مرض ، ويراد بالداوي هنا : المرض الشديد . ويلاحظ أن المذبات جمع مؤنث أصيب إلى البان ، وهو
اسم جنس جمعي يؤنث ويذكر . ويمامل معاملة المفرد ، أو الجمع . وقد نادى الشاعر المذبات ، ثم أعاد
الضمير عليها ، أو على البان مذكراً .

رأى الشاعر أغصان البان تميل وتهتز ؛ فخطبها قائلاً : « إن كنت تميلين كما أميل ، بدافع الشوق
والحنين إلى الأحباء ، فقد أصابك مثل ما أصابني من حرقه البسود ، وهزة الذكري ، وخفة الحنين . وقد
تكون : « فلقيت دايوا » : جملة دهائية ؛ فهو يدعو على الأغصان بالمرض ، خيرة منها ؛ إذ تنافس في
هزة الشوق والصباية ، وتميل الهوى والغرام . وقد أشرنا من قبل إلى صلة البان بحسان النساء .

(٢١) عوائد : جمع عائدة : اسم فاعل من عاد لكذا ، أو إليه (من باب قال) : أي صار
إليه . أو رجع إليه ، وأرشد بعد ما انصرف عنه . وعوائد الشوق : ما يتتاب المشوق ، ويمارده ، ويتردد
إليه ، ويفتل عليه من ثوبات الاشتياق ، وهيئته ، وثوراته ، وهزاته . وألب النار إلهاً : أرقدها ،
وأشعلها ، وأججها حتى صارت ذات لب : وهو ما يرتفع من النار المشتدة ، كأنه لسان . ولاجج :
اسم فاعل من لجه الحب والشوق ونحوهما (كنج) : إذا برح به ، واشتد عليه ، واستحسرت في قلبه ، وآله ،
وأحرقه . والأمن : الحزن (وقوله من باب صدى) . والأمان : جمع الأمانة : وهي ما يتحنا الإنسان ،
ويحوق إليه ، ويرغب فيه ، ويقدره ، ويحب أن يصير إليه . والضمير : ما تقصرو في نفسك : أي
تسره ، وتكتسه ، وتغنيه ، ويصعب الوقوف عليه . ويراد بالضمير هنا : القلب ، أو النفس . وهواي =

لَعْمَرَكْ ، مَا فَارَقْتُ رَبِّي عَنْ قَلِي وَلَا أَنَا وَدَعْتُ الْأَجِيَةَ . سَالِيَا^(٢٢)
وَلَكِنْ عَدَنِّي عَنْ بِلَادِي وَجِيرِي عَوَادِ أَبَتْ فِي الْبُعْدِ إِلَّا تَمَادِيَا^(٢٣)
زَمَانْ تَوَلَّى غَيْرَ أَغْقَابِ ذُكْرَةٍ تَسُوقُ إِلَى الْمَرْءِ الْحَلِيمِ التَّصَابِيَا^(٢٤)

= جمع حافية : اسم فاعل من هفا الماشي أو الطائر (من باب هــ) : أي أسرع في مشيه ، ونحف في طيرانه . وهفا : زلّ ، وسقط . وهفت الريشة ، أو الصوفة في الهواء : هبّوا وهبّوا : ذهبوا . وهول في الإبل : غولها . ورد الشيء : كذا : رجمه . أو صيره . أو حوله من صفة إلى صفة . ومعنى الشطر الثاني : أن آماله ضلّت ، وارتقت إليه بسرعة مخففة خائبة ، لم يتحقق له منها شيء . يقول : إنها أشواق لا تقفنا تملّوه وتساوّر ، فتشغل في قلبه لولج الأسى ، وترد إليه آماله مخففة خائبة .

(٢٢) العمر (يفتح فسكون) : الحياة . ولمرك : أسلوب قسم بحياة المخاطب ، يراد به تأكيد الكلام ، وفتح الشك والارتياب . والريع (يفتح فسكون) : الدار . ومحلّة القوم . ومنزلهم . وقد يطلّق الريع مجازاً على القوم والعشيرة . والقل (بكسر ففتح) : البغض والكرامية : مصدر قلده (كرماه ، ورضيه) : إذا أبغضه ، وكرهه . وجيره . وودّعه توديعاً : فارقه وباينه . والأجيّة والأحباب : جمع الحبيب : وهو المحبوب ، أو المحبّ (بصفة اسم الفاعل) . وسالياً : اسم فاعل من سلاه ، وسلاحته (من بابي هـ ، وها) ، وسليه (كرضيه) : إذا نسبه ، وصنّبر على يده ، وطابت نفسه بعد فراقه . يقول : إن فراقه لذيّار وقويه وأحبابه لم يكن من قبلي ، أو سلوان ، وإنما كان من إيجابار واضطرار . والبيت الآتي يردّد هذا المعنى ويؤكدّه .

(٢٣) عدّاه من الأمر عدّواً ، وعدّواً : صرّفه عنه ، وشغله ، وألهاه . والموايد : الصواريف ، والمواضع : جمع حادية : اسم فاعل منه . وموايد الدهر : عوائله ونوائبه وصروله . والجيرة (بكسر الجيم) : الجيران : جمع جبار : وهو من يجاورك في المسكن . والجار أيضاً : الحليف ، والناصر . وتمادى في الأمر تمادياً : أمعن فيه ، وبلغ الغاية . وفي الشطر الثاني تصوير لعنت الموايد وضراوتها وقسوتها .

في هذا البيت والي الذي قبله : أنه لم يفارق بلاده وذيّاره وأحبابه وجيرانه عن قل أو سلوان ، وإنما هي عواد قاسية ، وصواريف عنيفة أبعدته عنهم ، وسالت بينه وبينهم ، فلم يبق له في الأمر حيلة أو اختيار .

(٢٤) قول : أدبر وذهب . والأغقاب : جمع عقب (بوزن كسيف) : وهو من كل شيء آخره . والذكرة (بضم فسكون) : الشيء يخطر بالقلب ، ويجرى على اللسان . وظلها الذكّري (بكسر فسكون) . ويراد بأعقاب الذكّرة : بقاياها التي ما زالت تساور القلب وتخامر . والحليم : صفة من العسليم (بكسر فسكون) : وهو الأنانة ، والمقل ، والرزاق ، والصبر . وتصابى تصابياً : حنّ ، وثاق ، وثوّل ، واشتاق ،

فَيَا رَوْضَةَ الْمُقْيَاسِ ! جَادِكِ سَلْسَلٌ مِنْ النَّبْلِ يَدْعُو لِلْحَيْنِ السَّوَابِقِ (٢٥)
وَلَا بَرَحَتْ تَغْشَاكِ لِلْفَجْرِ نَسْمَةٌ تَرُدُّ جَبِينِ النَّوْرِ أَزْهَرَ صَاحِبِهَا (٢٦)
بِلَادٍ صَحِيحَتِ الْعَيْشُ فِيهَا مُنْعَمًا وَأَجْرِيَّتْ أَفْرَاسُ الْبَطَالَةِ لَاهِيَا (٢٧)

= يتأخر على ما فات وذَهَبَ من زمان اجتراح الشمل ، ورغاء البال ، ورغادة العيش . ويقول : إن ذكريات ذلك الزمان لا تفتأ تخامره وتساوره ؛ فذهب بجملة وصبره ، وكثير أشجانه وأحزانه .

(٢٥) جادالغيث القوم (من باب قال) : عَمَّ أَرْصَمُ ، وشملهم بخبره ، وماه سَكَّلَ (يوزن جعفر) : حلب ، صاف ، سلس ، سهَّل ، سائغ . أو جرت في منه الريح ، فصاروبه كالسلسلة . وحسن " يحسن " (كخف " يخبف ") حنيئاً : صوت ، ماداً صوته ، كالمترجع ، أو كالذي استغله الطرب . والسواقي : جميع الساقية : وهي الناعورة : أي درلاب ذو دلاء أو نحوها ، يدور ببلغ الماء ، أو تدببه الماشية ، فيخرج الماء من البئر أو النهر إلى الحقل . والتواوير صوت كأنه الحنين . ويدعو السواقي إلى الحنين : أي يحركها ، ويدبرها .

يدعو لروضة المقياس ووطنه الحبيب بالسَّعْيَا والخصب ، والبركة والرخاء .

(٢٦) لا بَرَحَتْ : لازالت : أي استمرت ودادت . والجملة دعائية . والدعاء لروضة المقياس والوطن المزيز . وفيه يشاء (كرضيه رضاه) : أتمه ، وحلَّ به . أو وألاه وفضَّاه . والنسمة (يفتح فسكون) : الريح الطليقة ، الطيبة ، المنشة . والجبين : ما فوق الصدغ من بين الجبهة ، أو شامها . وهما جبينان . والنور (يفتح فسكون) : الزهر الأبيض . واحدة نورة . وجسمه أنوار (يوزن زهرة وأزهار) . وجبين النور : وجهه . والأزهر : كل لون أبيض نقى صاف مشرق مشوه . وضاح : اسم فاعل من ضحا (من باب عدا ، وجما) : إذا بدا ، وظهر ، وبرز للشمس . ومثله ضحى (كرضى) . وهو تأكيد لمعنى زهارة النور ، وحسنه ، وبهاض لونه .

في البيت السابق دعا لوطنه بالسَّعْيَا . وفي هذا البيت دعا بأن تغاديه على الدوام نسبات القصر ، فطفت أزهاره ، وتغنم أهله ، وتكسو الحججة والرواء .

(٢٧) حصب (من باب سلم) : راقعه ، وسائره ، ولازمه . والعيش : الحياة والمعيشة . ونسمة تنبئاً : وفيه ترفيهاً ، ويسر له أسباب الحياة الطيبة ، والعيش الرغيد ، والرزق الواسع ، ورغاء البال ، وحناءة الحال ؛ فهو متمسك بصيغة اسم المفعول . والأفراس : جمع فرس (يفتحون) : وهو واحد الخيل ، للذكر والأنثى . والبطالة (بتثنية الباء) : التبطُّل ، والتعطُّل ، والتفرُّغ من العمل ، واتِّباع الهوى والمجاعة (وقطعه كقتل) . والبطالة (يفتح الياء) : الحزل والمزاج والنداءية (وقطعه كفرج) . ولاهياً : اسم فاعل من الهوى : وهو كل ما يشغل الماقل ، ويصرفه عما حبه ويمنيه . وكل عمل أو قول لا تقتضيه الحكمة ، ولا يجارحها . ويمسَّر بالهوى من كل ما به استمتاع . ولها بالثبوت (من باب عدا) : إذا لمب به ، وشغل به عما عداه . أو أوقع به ، وتعلق . وطئت المرأة إلى حديث صاحبها : إذا أنست به ، وأعجبها . وإجراه =

فَكَمْ لَدَّ أَذْرَكْتُ فِيهَا ، وَنَعْمَةً أَصَبْتُ ، وَأَذَابِ تَرَكْتُ وَرَاقِيَا (٢٨)
 هِيَ الْوَطَنُ الْمَأْلُوفُ ، وَالنَّفْسُ صَبَّةٌ بِحَنَزِلِهَا الْأَذْنَى وَإِنْ كَانَ نَائِيَا (٢٩)
 فَلَا حَبْدًا الدُّنْيَا إِذَا هِيَ أَذْبَرَتْ وَإِنْ أَقْبَلَتْ يَوْمًا فَيَا حَبْدًا هِيَ (٣٠)

= أفراس البطالة : كناية عن التماضى فيها ، وطول الاستمتاع بها ، والإغراق في اللهو والهاجاة .

يذكر في تحسّر وتأسّف ما كان له في روضة المقياس ، ووطنه الحبيب من حياة ناعمة رافهة ، وعيش رغيد سعيد ، وانعلاق في مجال السهر والبطالة ، وضروب المتع والملاذات . وفي بعض البيت الآتي تكرار لهذا المعنى .

(٢٨) « كم » في أول البيت : خبرية ، تفيد التكثر . وتميزها بجرور ، وهو لذة ونعمة ؛ فهو يتحدث بكثرة النعم والذات التي كانت له في بلاده . وأدرك الشيء إدراكاً : لحقه ، وبلغه ، وناله ، وظفر به ، واحتاز . والنعمة (بكسر النون) : المنّة ، والفضل ، والمسرة ، والحالة الحسنة التي يستلها الإنسان ، وما أُنعم به عليه من رزق ومال وغيرها . والنعمة (بفتح النون) : التمتع ، والرفاهة ، وطيب العيش ، وحسنه ، وفضارته ، وزده . وبناء الأول : بناء الحالة التي يكون عليها الإنسان ، وبناء الثانية : بناء اسم المرأة من الفعل . وأصبت الشيء إصابة : أدركته ، وحصلته ، وظفرت به . والأذاب : جمع الأدب : وهو رياضة النفس بالتمتع والتلهيب على ما ينبغي . والأدب أيضاً : الجميل الممتع من النظم والنثر . يتحدث بكثرة ما أدركه وأصابه ، وكان له في بلاده من نعم ولذات ، ومتع ومسرّات ، وكثرة ما أتعبه من روائع الشعر والنثر .

(٢٩) « هي » : يريده روضة المقياس ، وديار أهله وأحبابه ، والبلاد المصرية . وألف الإنسان المنزل وغيره (من باب علم) : أنس به ، وأحبّه ؛ فالإنسان ألف ، والمنزل مألوف . وصبب إليه (كفعل) : رزق ، وأشاق إلى ، وتعلّق به ، فهو صبب ، وهي صببة . والصبابة (بفتح الصاد) : رقة الشوق ، وسرارة الحموى . والأحف : الأقرب : اسم تفضيل من الدنو ؛ بمعنى القرب (والفعل كما) . ويراد بالمنزل الأدنى : الوطن القريب من القلب ، وإلى بلاد المشاعر ، وتطمئن إليه النفس . والثاني : البعيد . و « النفس صبة . . . » : تلييل جازمجرى المثل ، مؤكّد لمعنى « الوطن المألوف » .

والبيت في معنى تعلّق المرء بوطنه ، وحبّيته إليه ، وقربه إلى قلبه ، وإن بعدت الدار ، وشطّ المزمار . (٣٠) « حبداً » و « لا حبداً » : أسلوبان : الأول المدح . والثاني اللنم ؛ فهما ك « نعم » و « بش » . ويراد بالدنيا : متعتها ومسرّاتها . وفي مقدّماتها أن يكون المرء مجتبع الشغل في وطنه ، ناعماً يقربه ، مطمئناً فيه . وأدبر الشيء إدباراً : ولّى ، وذهب . وضدّه الإقبال : وهو القدوم . وأقبلت الدنيا عليه : جاءت به فيها .

أقبلت الدنيا عليه ، فكان سعيداً في وطنه ، رعى البال ، مجتبع الشغل بأهله ؛ فاستأملت المدح ، وحسن الشاء . ثم أدبرت عنه فشق ، وأبعد عن أهله ووطنه ؛ ففصمها ، وتبرّم بها .

نَشَدْتُ الْمُنَى عَوْدًا وَقَدْ كُنْتُ بَدَأَةً مَطَّافَ أَنَامِي يَنْشُدُونَ الْأَمَانِيَا (٣١)
 فَإِنْ لَمْ أَتْلُ مِنْهَا نَصِيْبًا ، فَإِنِّي أَرَى الْيَأْسَ عَنْ بَعْضِ الْمَطَالِبِ كَافِيَا (٣٢)
 وَمَاذَا الَّذِي تُجِدِّي عَلَى فَضَائِلِي إِذَا كُنَّ فِي عَيْنِ الْعَدُوِّ مَسَاوِيَا (٣٣)
 فَلَا اخْصُرْ سَائِيَ الْبَقْلِ إِنْ بَتُّ طَاوِيَا وَلَا ائْهَلْ مَاءَ الْمَزْنِ إِنْ مِتُّ صَادِيَا (٣٤)

(٣١) نشدت النشأة ينشدها (من باب نصر) : طلبها ، وسأل عنها . والمنى : الأمانى والآمال .
 الواحدة منى (يقوم فسكون) . ومبدأ : مصدر حاد (من باب قال) : إذا رجع ، وأرته . والمراد أنه
 نشدها في آخر أمره بعد أن سامت حاله ، واقلب أمره . وبداة ، أو بدءاً : أى في أول الأمر . والمراد
 حينما كانت الدنيا مقبلة عليه ، حاضرة بين يديه ، متطاعة له . والمطاف : موضع الطواف : اسم مكان
 من طاف حوله ، وبه ، وعليه ، وفيه (من باب قال) : إذا حام حوله ، ودار .

يعرض الشاعر في هذا البيت شطرين متناقضين من تاريخ حياته ، فهو في أول أمره معمود مصمود ،
 تقصد إليه بالحواليج الرجال ، وتتعلق بساحته ، وتطوف حوله الآمال . وفي آخر أمره أدبرت الدنيا عنه ،
 فشق ، وسادت حاله ، وفقد حريته ومزجه ، وجعل ينشد المنى ، ويتعلق بالآمال البعيدة المثال .

(٣٢) فاللشي يناله نيلاً : أصابه ، وظفر به ، وأدركه ، وبلغه . ومنها : أى من المنى المنشودة
 المشار إليها في الشطر الأول من البيت السابق . والنصيب : الحظ من كل شيء . واليأس : انقطاع الأمل ،
 وفقدان الرجاء . وكانياً : مفتياً : اسم فاعل من كفاه الشيء (كرماه) كفاية (بكسر الفاء) : إذا حصل
 به الاستغناء عن غيره . ويريد يبيض المطالب : العليات ، أو الحاجيات الميوس منها .

لم يزل الشاعر شيئاً من أمانيه التي تعلق بها ، وظل ينشدها ، ويلح في طلبها ، فازتاح اليأس ،
 قائلاً : إنه قد يكتفى اليأس ، ويرى به ، وبلغه .

(٣٣) الاستفهام في أول البيت : معناه أئننى ؟ ففضائله لا تنفقه ، ولا تجدى عليه . وأجندى الشيء
 يجدى إجداء ، أى ونفع . وما يجدى عليك هذا : أى لا ينفعك ، ولا يفيدك . والفضائل : جمع الفضيلة :
 وهي الدربة الرقيقة في حسن الخلق . والفضائل : الأفضال ، والمزايا ، والحمد ، والחסن . وضدها
 المساوئ : وهي النقائص ، والمعائب ، والمثالب : جمع مساوئ .

يفخر بفضائله ومجدها ، ويأسى لأنها لا تكاد تنفقه ، أو تشفع له لدى أعدائه الذين اشتدت
 عدوتهم له ، حتى وأوا حسنة سيئات ، ومثالبه مناقص وآفات .

(٣٤) ساق الشجرة : جذعها ، وما تقوم به : وهو الجزء الذي بين أصلها وشعبه فروصها
 وأغصانها . والبقل : الثبات المشي الذي يتخذ به الإنسان . أو هو كل نبات اخضرته به الأرض .
 وطاو : خصان جالع : اسم فاعل من طوى (من باب صدى) : أى جاع . وائهل : المطر ائهللاً :
 انصب ، وانصب بشدة . والمزن : السحاب يحمل الماء : تجمع موزة (يقوم فسكون) . والصادى :
 المطشان الذي اشتد حشده . والمصدر الصدى (بوزن الردى) . والفعل صدى يصدى (كرشى برشى) .

وَقَالَ يُعَاتِبُ صَدِيقًا :

أَتَانِي أَنَّ «عَبْدَ اللَّهِ» أَضْعَى إِلَى وَاشِي ، فَغَيْرُهُ عَلِيًّا^(١)
وَمَا عَهْدِي بِهِ غُرًّا ، وَلَكِنْ تَوَلَّيْتُ أَمْرَ فِطْنَتِهِ الْحُمِيَّا^(٢)

« اشتد سخط الشاعر ، واشتد استأزازه بنفسه ، فدعا قائلاً : فلا كان البقل والنبات ، وما ينتلني به الناس إن بات على الجوع والعلوى ، ولا كان ما يروى من الماء العذب إن مات صديان عاطفاً . وفي البيت إشارة إلى قسوة قلوب أعدائه وظلاله ، وإصرارهم على الظلم ، وعمادتهم فيه ، وإيمانهم في البغي والعنوان ، ويتردهم من الرحمة والإحسان .

وفي بعض أبيات هذه القصيدة الخالصة ما يدل على أنها من شعره الذي نظمه في منفاه ، بعد أن طال فيه واغترابه ، وساوره اليأس والقنوط . ويردنيبيكاته كلها واقفة فائقة ، وائلة ممتدة . وهي أحفل شعره بالانفعالات والمواقف الصادقة القوية ، ولهذا ملأت المسامع ، واحتلت القلوب .

(١) أثنى : جافى ، واتى إلى . ولعله يريد « عبد الله باشا فكري بن محمد بليغ بن عبد الله » (١٢٥٠ - ١٣٠٦ هـ / ١٨٢٤ - ١٨٩٩ م) الوزير الأديب ، الكاتب الشاعر . ولد بمكة ، ونشأ بالقاهرة ، وتعلم بالأزهر . ثم كان وزيراً للمعارف في وزارة البارودي سنة ١٢٩٩ هـ (١٨٨٢ م) . ولا أعفقت الثورة العربية أنهم بالاشتراك فيها ، فاعتقل ، وما لبث أن برئ . ثم اختير سنة ١٣٠٦ رئيساً للوفد العلمي المصري في مؤتمر استوركلهم . ومن مؤلفاته المطبوعة : الفوائد الفكرية . والمملكة الباطنية . وأوصى إليه إصفاة : استمع له . والوفاي : الذي يزور كلامه ، ويذكره بالكذب ، ليفسد به بين الناس . والفعل وشي يشي (كويشي يمي) . والمصدر الوثقي ، والرشاية (كالأعرس والسحابة) . وغير الشيء تغيراً : يدل به غيره . وغيره : جملة على غير ما كان عليه . وغيره على : أي غير شأنه معي ؛ فبما لم يعد تودد . وأعرض حتى بعد إقبال .

يقول : إن المعاتب استمع لرواش كاذب مفسد ؛ فغيرته الرشاية على^٣ ، ولقيت منه ما لا يلام المودة التي كانت بيني وبينه .

(٢) العهد : المحرقة . وبه : أي بالمعاتب : وهو عبد الله . والفرد (بكسر التين ، وتشديد الراء) : من يتخذ إذا خدع . من الفرء (بكسر التين) ، أو الفرارة (يفتح التين) : وهي الغفلة ، وقلة الفطنة . وما عهدي به غرًّا : أي لست أعرف فيه خفلة أو غرارة . وتولَّى الأمر : تقلده ، وقام به . وتولَّى أمره : سبهر عليه . والفطنة (بكسر فسكون) : والقفطنة (يفتح الفاء) : الحلق ، والمهارة ، وقوة الفهم ، وجودة استعداد الذهن لإدراك ما يريد عليه . وسبياً كل شيء : شدته ، وسدته ، وسوته . وسيطرته . والمعنى : أني أعرف المعاتب فطناً يفتكلاً ، جيد الفهم ، قوي الإدراك ، ولكن استأسمه لرواشي ، وتأثره بالرشاية أغضب على^٤ بلا حق ؛ فكذرت سورة الغضب ذهنه ، وسيطرت على فطنته .

فَقُلْتُ لَهُ : تَثَبَّتْ تَلَقَّى رُشْدًا فَكَمْ مِنْ سُرْعَةٍ وَهَبَتْكَ عَيًّا (٣)
فَإِنَّكَ لَوْ عَرَفْتَ وَدَادَ قَلْبِي إِلَيْكَ ، لَجِئْتُ مُعْتَصِرًا إِلَيْهَا (٤)

(٣) تَثَبَّتْ : تَأَنَّنَ ، ولا تسجل : أمر من التثبت . والرشد والرشاد : الهداية والصلاخ . وفدء : النفي والفضائل . ووجب له الشيء : أعطاه إياه بلا عوض . وسكى بعض القويين « وهيكه » . وهبتك السرعة غيًّا : أى أهوتك ، وأغسلتك ، وصرفتك عن الرشد والهدى ، والسداد والصواب .

تسرع المعاتب فى الاستماع للوائى ، والتأثر بوشايته وكذبه ؛ وكان من أثر هذا التسرع أن تفسر على صديقه الذى يماثيه ، فنصح له ؛ وطلب إليه أن يؤثر الأناة والصبر ، والتثبت ، لئبقى له رشاده ، وصلاحه ومودعات أحبائه ؛ فإن السجلة فى مثل هذا الأمر كثيراً ما تفضل وتغوى ، وتقطع أواصر اليد بين الأوداد .

(٤) الوداد : المودة ، والمحبة . واعتذر إليه : طلب قبول مصلحته . ويقال : اعتذر من ذنبه . واجتذر من فعله .

فى البيت الأول قال : إن صديقه المعاتب تفسر عليه بتأثير الوشاية . وفى هذا البيت قال : لو عرف ما أسقطه له ، وأقيم عليه من الرضاء وصديق الإخاء ، والمودة القلبية الخالصة القوية - لما فى مترسماً معتزلاً .

نهاية قلالية الياء ، وهى نهاية النحيوان . والحمد لله أولاً وآخراً .

ديوان البارودي

ولد «محمود ساي البارودي» يوم الأحد ٢٧ من رجب سنة ١٢٥٥ هـ ، الموافق ٦ من أكتوبر سنة ١٨٣٩ م . وتوفي يوم الاثنين ٦ من شوال سنة ١٣٢٢ هـ الموافق ١٢ من ديسمبر سنة ١٩٠٤ م . وأصل ديوانه المخطوط الذي في أيدينا تملاً ٣١٤ صفحة من الفولسكاب . أتمّ نقله بقلمه «مصطفى عبد الخالق» يوم ١٠ من سبتمبر سنة ١٩٠٨ . والقوافي التي نظم فيها البارودي شعره هي : الهزجة ، والألف المقصورة ، والباء ، والتاء ، والثاء ، والميم ، والحاء ، والدال ، والذال ، والراء ، والزاي ، والمسين ، والشين ، والصاد ، والضاد ، والطاء ، والظاء ، والعين ، والفاء ، والقاف ، والكاف ، واللام ، والميم ، والنون ، والهاء ، والواو ، والياء . وترتيبها في أصل الديوان يطابق ترتيب حروف الهجاء . وقد استغرقت كلّ الحروف الهجائية ما عدا الخاء ، والغين . أمّا ترتيب القصائد والمقطوعات في كل قافية ، فيبدو لنا أنه من إعداد الناظم نفسه ، أو من إعداد غيره تحت إشرافه . ولا نعرف الأساس الذي بنى عليه هذا الترتيب .

ويعيب هذا الأصل كثير من تصحيّفات الناسخ ، وتحريفاته . وفيه إلى هذا نقص ، وزيادة ، وتكرار ، وأخطاء إملائية ، ونحوية ، ولغوية . وأبيات مكسورة ، اخلّت أوزانها ، وفسدت معانيها ، وكلمات غامضة ، مستبهمة ، مستغلقة ، لا تنكشف للقارئ المتحرّس إلا بجهد ، ومشقّة ، واصطبار ، ومعاناة . . . وفيه قصائد ، ومقطوعات ، وأبيات مطموسة ، عدّها خمسة وسبعون بيتاً ، كشفناها كلها ما عدا ستة أبيات في قافية الباء ، يولج في طمسها ، فلم نستطع قراءتها . وبحول الله تبارك وتعالى وتوفيقه حققنا هذا الأصل ، وصحّحناه ، وضبطناه ، وشرحناه ، وقرّيناه إلى الطالب ، ويسرّناه كل التيسير . . . وفي أثناء الشرح نبهنا القارئ على بعض ما صحّحناه وعالجناه ،

من عيوب الأصل المخطوط ومناقضه ، وآفاته . وأغفلنا الإشارة إلى كثير منها
 شرحنا الديوان كله في أربعة أجزاء : الجزء الأول ١٥٥٢ بيت ، من أول
 قافية الهمزة إلى نهاية قافية الذال في ٣٢٧ صفحة . والثاني ١٧٢٣ بيت ،
 من أول قافية الراء إلى نهاية قافية الكاف في ٣٨٨ صفحة . وشاركت الأستاذ
 الجليل « على الجارم » في تحقيق هذين الجزأين ، وتصحيحهما ،
 وضبطهما ، وشرحهما . وطبعتهما مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة .
 الجزء الأول سنة ١٩٤٠ ثم الجزء الثاني سنة ١٩٤٢ ثم طبعتهما بعدها المطبعة
 الأميرية بالقاهرة عدة طبعات . ثم طبعتهما دار المعارف بمصر بتحقيقات ،
 وتكملات ، وزيادات قيّمة ، ذات بال : الجزء الأول في يوليو سنة ١٩٧١ في
 ٣١٦ صفحة . ثم الجزء الثاني في إبريل سنة ١٩٧٢ في ٤٠٠ صفحة .
 ولما انتقل الأستاذ الجليل « على الجارم » إلى رحمة الله في ١٩٤٩/٢/٨
 انفردت بالعمل في الجزأين الثالث والرابع ، وأخرجتهما دار المعارف : الجزء
 الثالث من بدء قافية اللام إلى نهاية قافية الميم ١٣٠٧ بيت في ٦٢٧ صفحة
 في أغسطس سنة ١٩٧٤ م . ثم الجزء الرابع من بدء قافية النون إلى نهاية قافية
 الياء ٧٢١ بيت في ٢٣٦ صفحة في مايو سنة ١٩٧٥ .

وللبارودي فوق هذا كله قصيدة ميمية مطوّلة في ٤٤٧ بيت ، نظمها في
 مدح النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وسماها : كشف الغمة في مدح سيّد
 الأئمة . وله أبيات أخرى لم تأت في ديوانه . وفي أول الجزء الثالث شكرنا
 لكل من أعان على إنجاز هذا الديوان ، وتيسير طبعه ونشره .

والحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه ، وعظيم سلطانه .

٨ شارع المختار بالروضة بالقاهرة . محمد شفيق معروف

محتويات المجلد الثانى

صفحة

٥ قافية للام
٢٦١ قافية الميم
٥٩٧ قافية النون
٧٥٨ قافية الهاء
٧٨٣ قافية الواو
٨١٣ قافية الياء

مطبع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٩٢/٨٤٩٥

ISBN-01-3158-X

محمود سامى البارودى رائد النهضة الشعرية فى
الوطن العربى . بدأ إنجازهِ الإبداعى بإحياء التقاليد
الأصيلة للشعر العربى ، تلك التقاليد التى حُفرت
للشعر العربى خصوصيته ، وأسست له قيمته ،
فاستبدل بتراث التخلّف تراث التقدّم ، وبتقاليد الاتّباع
تقاليد الإبداع ، وبقصيدة الزخرفة المغلقة قصيدة
النفوس المنطلقة . لقد واكب ابداعه انطلاق الروح
الخالق للتّنوير فى عصر النهضة ، وارتبط باعلام
التنوير من زعماء الإصلاح ، كما اُضاف هذا الإبداع
للتنوير بعده الوجدانى ، وأتاح له من عمق الشعور
والوعى وضرورة الإضافة ما فتح أمام التّنوير آفاق
المستقبل . ولذلك كان شعر البارودى الأصل الحىّ
المباشر الذى تفرّعت منه أغصان دوحة الشعر العربى
الحديث والمعاصر ، ابتداءً من أحمد شوقى والرّصافى
وانتهاءً بأحمد عبد المعطى حجازى وبدر شاكر
السياب .